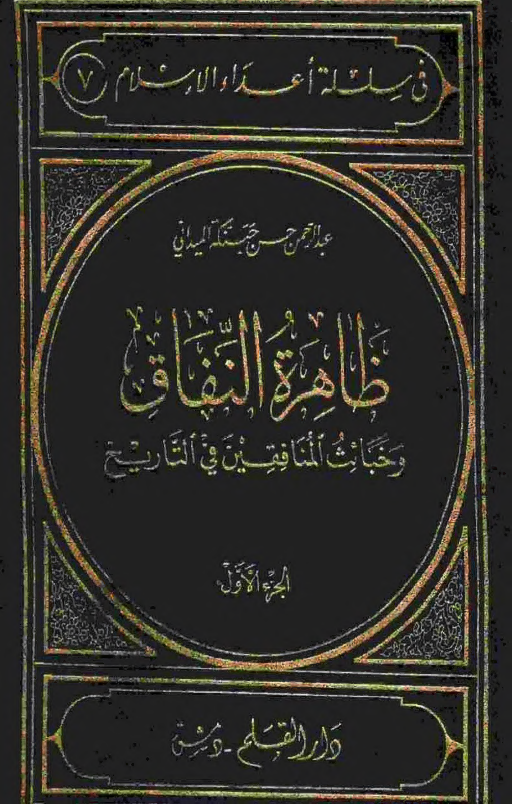


في سلسلة أعداء الإسلام ٧
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
ظاهرة النفاق
وخبائث المنافقين في التاريخ
الجزء الأول
دار القلم - دمشق

في سلسلة

أعداء الإسلام

٧

ظاهرة النفاق

وخبائث المنافقين في التاريخ

دراسة تحليلية وتوجيهية للتعريف بالنفاق والمنافقين

تدبّر موضوعي شامل للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين

نظرة استقرائية للمنافقين عبر التاريخ

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الجزء الأول

دار القلم

دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

لولا أنّ الإسلام حق بذاته ، مؤيّد بتأييد
الله ، محفوظ بحفظه ، لم تبق منه بقيّة
تصارع قوى الشرّ في الأرض ، التي ما تركت
سبيلاً من المكر به إلّا سلكته ، ولا سببًا لإطفاء نوره
إلّا أخذت به ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين



بين يدي الكتاب

الحمد لله الملك الحقّ المبين، خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، مُعلّم الحق، والهادي إلى الصراط الحق، وناصر الحقّ بالحق، وأنزل كتابه بالحقّ. وبعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه.

وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ونبيّه ورسوله محمد بن عبد الله الذي اصطفاه لحمل رسالته الخاتمة للعالمين، فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصَحَ الأمّة، وجاءنا بها ملّة بيضاء صافية نقيّة، ظاهرها كباطنها، لم يخالطها غبش ولا ظلمة، ولا كدَرٌ ولا عكَرٌ، ولم يدخل فيها باطلٌ ولا ضلالة.

ونعوذ بالله السميع العليم القدير القاهر فوق عباده، من الشيطان الرجيم، إمام الكافرين والملحدين والضالين والمغضوب عليهم، من الكاشفين لصفات نفوسهم، ومن المنافقين الذين يلبسون أقنعة الكذب والخداع والمرآة على مطوي الخبث والشرّ والضر.

ونعوذ بالله السميع العليم القدير القاهر فوق عباده، من جنود إبليس شياطين الإنس والجن، ولا سيما المنافقون الذين جعل الله لَهُم نُزُولَ الدَّرْكِ الأسفل من جهنم دار العذاب يوم الدين.

وبعد: فلمّا كان النفاق أخطر مكيدة تهدم أبنية الحقّ، في عالَمي الإنس والجنّ. وتُضِلّ وتُفْسِد ذوي الإرادات الحرّة الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، وأخطر حيلةٍ اتخذها إبليس لإخراج آدم وزوجه من الجنة، وجدْتُ من

واجبي أن أجعل ضمن دراستي لأعداء الإسلام، وما سطرت بتوفيق الله ومعونته من كتب عنهم «في سلسلة أعداء الإسلام» دراسة النفاق والمنافقين، وأن أكتب كتاباً خاصّاً في النفاق، وأبين فيه صفات المنافقين وخبائثهم في التاريخ.

وقد كنت منذ أكثر من عشر سنين عزمت على إعداد هذا الكتاب، وأعلنت عزمي هذا، وجاءت الإشارة إلى هذا العزم فيما ذكر الناشر في إعلاناته، حتّى بدأ كثير من القرّاء يترقّبون ظهوره، ويسألونني من حين لآخر: هل تَمّ إعداده؟ فأجيب بأنّ الله عزّ وجلّ لم يأذن بعد.

وكنت أكتب في هذا الكتاب بعض الوقت، وأترك الكتابة فيه أوقاتاً كثيرة، وتصرفني صوارفُ كتاباتٍ أخرى، حتّى يسّرَ الله عزّ وجلّ لي أن أتفرّغ له، وأجتهد في إعداده، ورأيتُ في الحلم أنّ هذا الكتاب الذي لم أتِمّهُ بَعْدُ قد طُبع، وعُرِضَ عليّ في الرؤيا شكل نسخة مطبوعة منه، فقلتُ في نفسي: قد أذن الله إذن بإكماله، فاطمأنّ قلبي للأمر، ثقةً بالبشرى، فضاعفت جهدي، وتابعتُ البحث والكتابة.

وهذا هو السفر الذي كان عزماً، فحُلْماً، وقد اجتهدْتُ أن أجْمَع فيه ما يحتاج إليه الباحث من حقائق، ونصوص، وتحليلات، وأمثلة، ودراسة مستفيضة، لظاهرة النفاق، وخبائث المنافقين في التاريخ.

ورأيت أن أقسّم البحث فيه إلى ثلاثة أقسام، تشتمل على فصول أو أجزاء:

فالقسم الأوّل: يشتمل على مقدّمة، وتعريفات عامة.

والقسم الثاني: يشتمل على دراسة تحليليّة واستنباطيّة للنصوص القرآنيّة التي نزلت بشأن المنافقين، مرتّبةً على وفق ترتيب نزولها، مع بيان ما ورد من أسباب النزول.

والقسم الثالث: يشتمل على عرض ما تيسّر لي جمعه من وقائع وأحداث المنافقين في تاريخ الخلق، أفراداً وجماعات ومنظمات.

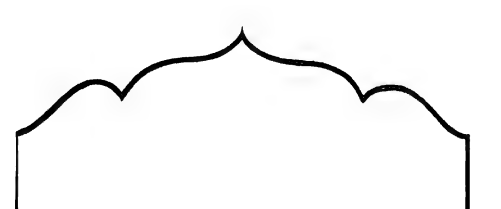
وأشير إلى أنّ هذا القسم الثالث قسم يتعذّر سَبْرُ كلّ ما يتعلّق به، ولا يستطيع الباحثون مهما بذلوا من جهود مضنية إلاّ أن يقدّموا أمثلة ونماذج منه فقط.

أسأل الله أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يحميني والمسلمين من مكايد شياطين الإنس والجنّ من الكفرة والمنافقين وجنودهم وأنصارهم وسائر المجرمين.

وأسأله عزّ وجلّ أن ينفع بهذا السِّفر، ويبصّر به المسلمين، ويهدي به الضالين، وينبّه به الغافلين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني



القِسمُ الأول

مُقَدِّمَةٌ وَتَعْرِيفَاتٌ عَامَّةٌ

وفيه فصول:

الفصل الأوّل : مقدّمة عامة.

الفصل الثاني : الإيمان والإسلام.

الفصل الثالث : الكفر والنفاق.

الفصل الرابع : مجالات النفاق وصُورٌ منها.

الفصل الخامس : ملخص صفات المنافقين النفسية وآثارها في سلوكهم الباطن والظاهر اقتباساً من النصوص القرآنية.

الفصل الأول

مُقَدِّمَةٌ عَامَّةٌ

(١)

النفاق وخطره العظيم

النفاق انحراف خلقيٌّ خطير في حياة الفرد، وفي حياة الأمم، وتبدو خطورته الكبيرة حينما نلاحظ أنّه يدخل في الدين أعظم القِيَم في الحياة، وحينما نلاحظ أيضاً آثاره على الحركات الإصلاحيّة الخيّرة، إذْ يقوم بعمليّات الهدم الشنيع من الداخل، وصاحبه آمِنٌ مُسْتأْمَنٌ، لا تُراقِبُه الأعْيُن، ولا تَحْسُبُ حساباً لمكره ومكايده.

والنفاق سلوك مركّبٌ يرجع إلى عدّة عناصر خلقيّة ذميمة، يدخل فيها الجبْنُ، وجحود الحقّ، والطمعُ في المنافع الدنيوية، والقدرةُ على المراوغة والحيلة ولبس الأقنعة المختلفة، وعمادُها الكذب في القول والعمل.

وإنّ أخطر المصائب التي حلّت بالمسلمين في تاريخهم الغابر، وفي واقعهم المعاصر، إنّما حلّت بهم عن طريق النفاق والمنافقين، وبوسائل الكيد التي قام بها أو كان مطيّة لها المقنعون بأقنعة الإسلام زوراً وبهتاناً، وهم كافرون به، أو مرتابون فيه، يعملون لتهديمه من داخل صفوف المسلمين، أو يخادعون المؤمنين، ليأمَنوا في ظلّهم، أو ليغنموا معهم من مغانمهم، وليشاركوهم في منافع ومصالح، أو سلطانٍ وقوّةٍ في الأرض.

لذلك كان من الواجب التحذير من النفاق والمنافقين، وبيان مواقع النفاق وخصائصه، وصفات المنافقين، وكشف أعمالهم في هدم الإسلام وإفساد المسلمين، وخدمة أعدائهم المجاهرين بعداواتهم، وتنفيذ مخطّطاتهم المدمّرة للعقائد الإيمانيّة، والشرائع والأحكام والأخلاق والآداب الإسلاميّة، سواء أكان هؤلاء الأعداء من اليهود أو النصارىٰ أو المجوس أو غيرهم من أصحاب الملل والنّحل، أو كانوا من الملاحدة

الذين لا دين لهم مطلقاً إلّا تمجيد المادّة وعبادتها، من غربيّين وشرقيين، قدماء ومُحْدَثين.

إنّ العدوّ المخالط المُداخل المُساكن أخطر وأشدُّ كيداً من العدوّ البعيد، واللصّ المخالط المُداخل الذي يلبسُ ثوبَ صَدِيقٍ وَفِيٍّ أَمِينٍ أكْثَـرُ ضَرّاً وأنفـذُ مكراً من اللصّ المكشوف الذي يُعْرَفُ بأنّه خائن غدّار، فيحذَرُ النـاس منه، ويَقُـون أنفسهم من سَطْوِهِ وحِيَله ومكايده.

ويقول الناس في أمثالهم نحو قولنا: لصّ الدار لا تراقبه الأنظار.

لـذلك شـدّد الله عزّ وجلّ في كتابه على المسلمين المؤمنين لكي يحـذروا من النفاق والمنافقين أَبْلَغَ الحذر، ونهاهم نهيـاً جازمـاً عن أنْ يتخذوا منهم بـطانةً مـداخلةً مخـالـطةً عـالـمةً بـالأسـرار، قـادرة على إفسـاد أعمـال المسلمين المؤمنين، وإحبـاط ما يُدبّـرون من أمرٍ لإعـلاء الإسلام، وتقـوية الأمّة الإسلاميّة، وقادرة على الاتصـال بالأعداء سرّاً، وإعطائهم ما يطلبون من معلومات، وتنفيـذ ما يخـطّطون من مخطّطات، والمؤمنون عنهم غافلون، ولهم مستسلمون، ويتصوّرون أنّهم من جهتهم آمنون.

وجاء في كلام الرسول ﷺ أنّ أخوف ما يَخاف على أمّته من بعده المنافقون.

روى الإمـام أحمـد بـإسنـاد صحيـح عن عمـر بن الخـطّاب رضي الله عنـه، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسانِ».

أي: علْمُه بالإسـلام لا يتجاوز حـدود لسـانـه، فكلامـه يخْدع المؤمنين، ولكنّـه يضمر في قَلْبِه الكَيْدَ وإرادةَ الشَّرّ.

وهذا كقول الله عـزّ وجل في وصف فـريق من المنافقين في سـورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ . . .﴾. وجاء في روايةٍ عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ».

(رواه الطبراني في الكبير، والبزّار، ورجاله رجال الصحيح)

وجاء في رواية أخرى:

«إنّ أخْوفَ ما أخَافُ علَىٰ هٰذِه الأمّةِ كُلّ منافِقٍ عليم اللّسان».

وعن أبي عثمانَ النّهْـدِيّ قـال: سمعتُ عُمَـرَ بْنَ الْخَـطّابِ وهـو على منبـر رسول الله ﷺ أكثر من عدد أصابعي هذه وهو يقول:

«إنّ أخْوف ما أخَافُ علَىٰ هٰذِه الأمّة المنافِقُ الْعَلِيمُ».

قيل: وكيفَ يكون المنافق العليم:

قال: عالم اللّسان، جاهل القلب والعمل.

ويظهر أنّ عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه سَمِع هـذا الكلام من الـرسول ﷺ، فكان يُكرّره في خطبه، بدليل الروايات الصحيحة المرفوعة إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ورُوِيَ بإسناد جيّد عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنه قال:

«إنّ أخْوَف مَا أخَافُ عليكم ثلاثَةٌ:

* مُنافِقٌ يقرأُ القُرآنَ لاَ يُخْطِىء فِيهِ واواً ولا ألفاً، يُجَادِلُ أنّهُ أعْلَمُ مِنْهُمْ لِيُضِلّهُمْ عَنِ الْهُدَىٰ.
* وَزَلّةُ عَالِمٍ.
* وأئِمّةٌ مُضِلّونَ».

ورُوِي عَنْ عُمَر أيْضاً بإسنادٍ لَيّنٍ أنّهُ قَال:

«مَا أخَافُ عَلَيْكُمْ أحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ مُؤْمِنٍ قَدْ تَبَيّنَ إيمَانُهُ، ورَجُلٍ كافِرٍ قَدْ تَبَيّنَ كُفْرُهُ.

ولَكِنْ أخَافُ عَلَيْكُمْ مُنافِقاً يَتَعَوّذُ بالإيمَانِ ويَعْمَلُ بِغَيْرِهِ».

ورُوِيَ بإسنادٍ صَحِيحٍ عنْ حُذَيفَةَ مَوْقوفاً عليه، أنّه قال:

«إنّ مِنْ أقْرَأ النّاسِ الْمُنافِقَ الّذِي لاَ يَتْرُكُ وَاواً ولا ألِفاً، يَلْفِتُهُ كما تَلْفِتُ الْبَقَرَةُ الْخَلَىٰ بِلِسَانِهَا».

الْخَلَى: الحشيش، وكُلُّ نَباتٍ رَطْبٍ، واحِدَتُهُ «خلاة».

ولهذا القول عن حذيفة شواهد مرفوعة إلى الرسول ﷺ، عن عبد الله بن عمْرو بن العاص، وعُمَرَ بنِ سَعْد، عند أبي داوُد، ومُسْند أحمد، بأسانيد قيل: إنها صحيحة.

* * *

(٢)
تسلُّلُ المنافقين ومكرهم وإفسادهم من الداخل

إنّ المنافق خبيثُ النفس، فقد يكون جاسوساً وعيناً للأعداء الصُّرحاء، يَسْرُقُ من مجتمع المسلمين الأخبار والأسرار، وينقُلُها لأعدائهم، مقابل أجورٍ يبذلونها له، أو منافع يذلّلون له طُرُقَها، أو مطامع يُمنُّونه بها، ويَعِدُونه بتحقيقِها.

والمنافق مفسد داخل صفوف المسلمين، لا يألوهم خبالاً[(١)]، يَسُرُّهُ ما يَسُوءُ المؤمنين الصادقين، ويَسُوؤُهُ ما يَسُرُّهم.

والمنافق مكّارٌ مراوغ خدّاعٌ، يتربّصُ الْغِرّات، وينتهز الْفُرصَ السانحات، ليخلَعَ أثوابَ الصَّداقةِ والموالاة، ويَكْشِف عن جلْدِهِ الحقيقيّ، جلْدِ الكراهيَةِ والحقْدِ والْعَداءِ وإرادةِ الشَّرّ.

والمنافق من أبناء الأمّة دَنِيءُ النفس، يَسْهُل على العدوّ المجاهر بعداوته شراؤه واستئجارُه، لِضَرْبِ أمّته عن طريقه، مُقابل ثَمنٍ بَخْسٍ يُدْفَع له، أوْ شهوةٍ محرّمة تُبْذَل له، أو وَعْدٍ بتسليطِهِ على قومِهِ يُقَدَّمُ له، أو وَعْدِهِ بالانتقام لَهُ من أعدائه من داخل أُمّته.

كم دخَلَ إلى صفوفِ المسلمين المؤمنين منافقون ماكرون، تظاهروا بالإسلام والاستقامة والولاء الكامل للمسلمين، ولَبِسُوا أَلْبِسَةَ الصالحين المتقين، ثمّ تسلّلوا بنفاقيهم إلى الصفوف الأولى من صفوف المسلمين، حتّى كان بعضُهم أحد مستشاري الخليفة، أو الأمير، أو الرئيس، أو الملك، وحتّى صار بعضهم قاضياً من قضاة

(١) اي: لا يُقصّر في إفساد أمورهم وإيقاع الضرّ بهم.

المسلمين، أو عالماً من علمائهم، أو مفتياً من أهل الفتوى فيهم، أو زعيماً من زعمائهم، أو قائداً عسكريًّا من قادتهم، أو حاكماً كبيراً من حكّامهم، ثمّ أخذ يكيدُ الإسلامَ والمسلمين من خلال مركزِهِ الذي وصل إليه.

وكم من حَبْرٍ يهوديٍّ داهيَةٍ دخلَ في الإسلام نفاقاً، لِيُفْسِدُ عقائدَ المسلمين، ويَدُسَّ الأكاذيبَ والخرافات، ويخترع لهم البِدَعَ والضلالات، ويُحَرِّفَ الْكَلِمَ عَنْ مواضعه، ويؤسس المذاهب الضّالة، والفرق المنحرفة الخائنة، وليُدْخلَ في تفسير كتاب الله وشرح أحاديث رسول الله ﷺ الإسرائيليّات الباطلات، والآراء الفاسدات، والاجتهادات المُضِلّات، وليعبث في مفهومات النصوص الإسلاميّة عبثَ المفسدين، فيُحِلَّ مَا حرَّمَ اللّهُ، ويُحَرِّمَ ما أحلَّ الله، ويُعظِّم منْ أمْرِ الصغائر، ويُهوِّن منْ أمْر الكبائر، وينْشُر الوثنيّات، ويميتَ حَيَّ عَلى الجهاد في سبيل الله، ويجعلَ ما يخترعه ويُحْدِثُه من بِدَعٍ لا أصل لها في الدِّين هي روح الدِّين، أمّا أركانُ الإسلام وأحكامُه وعقائِدُه وقواعِدُه الصحيحة، فَيُضَعِّفُ منْ شأنِهَا، ويَتَلاعبُ بمفهوماتها ومعانيها، ويحاولُ أنْ يجعلَها هياكلَ ورسوماً غير ذاتِ مضْمُونٍ إسلامي صحيح.

وكَمْ من قسِّيسٍ أوْ راهبٍ نصراني فعَلَ مثل ذلك، فدخل في الإسلام نفاقاً، ليَدُسّ كثيراً من المفاهيم والعقائد النصرانية داخل المفهومات الإسلامية.

إنّ فكرة حلول الله واتّحاده في الأشخاص البشريّة تَسَلَّلَتْ إلى بعض الطّوائفِ المنتسبة إلى الإسلام، عن طريق المنافقين من أصول نصرانية، أو المنافقين من أحبار اليهود، فالحلول والاتّحاد وتأليه البشر ممّا دسّه اليهود أصلاً في النصرانيّة، حتّى أفسدوا عقائدها التي جاء بها عيسَىٰ عليه السلام.

وفكرة تأليه عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وتأليه من بعده من سلالته، مكيدة يهوديّة، دسّها اليهودي المنافق «عبد الله بن سبأ» المشهور بابن السوداء، لأنّ أمّه كانت ذات جلد أسود، ثمّ يهودٌ آخرون منافقون تستّروا من بعده بالدّخول في الإسلام.

وكم من طُقوسٍ ومراسيم نصرانيّة وثنيّة، وعادات نصرانية كنسيّة، تَسَلَّلتْ إلى بعض فرق المسلمين، عن طريق الداخلين في الإسلام نفاقاً من أصول نصرانية،

وربّما كان بعضهم صادقاً، إلاّ أنّه جلبَها بحُسْن نِيَّة، وهو جاهل بشرائع الإسلام وأحكامه، وتعاليمه.

وكَمْ من ضابطٍ عسكريّ يهوديّ أو نَصْرانيّ تظاهر بالإسلام نفاقاً، ودخل إلى بلدٍ من بلاد المسلمين، فخالط أهله، وتعلّم لُغَتَهُم، ودرس العلوم الإسلاميّة، وحفظ من القرآن والسنّة، وربّما أمّ المسلمين في الصلاة، وخطبَ فيهم لصلاة الجمعة أو لصلاة العيد، ولمّا انتهتْ مُهِمّته سافر إلى بلاده، ثمّ عاد برتبته ولباسه العسكري مع جيش الاحتلال الاستعماريّ إلى البلاد، وكشف عن وجهه الحقيقيّ، وأظهر أنّه كان منافقاً، وأنّه بنفاقه استطاع أنْ يظفر بمعلوماتٍ مُهِمّة لصالح قومه، ما كان باستطاعته أن يصل إليها لو أنّه دخل بوجْهِه الحقيقيّ.

ودخل في الإسلام من المجوس منافقون، فأدخلوا في مفهومات بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام مفهومات باطلات،ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلطانٍ، وكان ذلك منهم كيداً كادُوا به الإسلامَ والمسلمين، وتسلَّل بعضهم إلى مراكزَ خطيرةٍ في الدولة الإسلامية، إذ استطاع أنْ يكْتَسِبَ ثِقَةَ ذي سلطانٍ رفيع فيها، فَلَمَّا تَمكَّنَ خانَ الأمّة، وانْحاز إلى عدُوِّها، وأوقَعَ شرّاً عظيماً في المسلمين، ذبحاً وتقتيلاً وتخريب عمران، وإفساداً في الأرض، واستدعاءً لجيوش أعداء الإسلام.

* * *

(٣)

صناعتهم للنكبات والفتن الداخليّة

إنّ معظم النكبات والفتن الداخليّة الّتي تعرّضَ لها المسلمون خلالَ تاريخهم الطويل، قد كانتْ بسبب الدسائس والمكايد التي تولّىٰ المنافقون والمنخدعون بهم كِبْرها، فعنهم نشأت معظم الفرق المنحرفة المرتدّة عن الإسلام.

والمنافقون في التاريخ الإسلامي هم الّذين أحكمُوا دسائسهم، فأسَّسُوا فرقة الباطنيّة المرتدّة الملحدة، التي كادت الإسلام والمسلمين أيّما كَيْدٍ خلالَ قُرونٍ عديدة، وكان لها صِلاتٌ سِرّيَّةٌ باليهود الّذين يحقِدُونَ على الإسلام والمسلمين، ويُدبّرون ضدّهما كُلّ ما يستطيعون من كيد، وكان من الباطنيّين دعْمٌ وتأييدٌ لليهود في مختلف مجالات الحياة.

كمْ من هزيمة كـان المنافقـون سبَبَها، وكم من فتنـة أطلق المنافقـون شرارتهـا، وأوقدوا نارَها، وكم من ضلالة فكريَّةٍ أو عمليَّة كـان المنافقـون هم الناشـرين لها، وكم مِنْ إفسـادٍ خُلُقِيٍّ أو سلوكيٍّ كان المنـافقون هم العـاملين عليه، وكم من خيـانة لـدولـة المسلمين خانها المنافقون، فتمكَّنَ بسببها أعداؤهم من النكاية بهم، والإضرار الشديد ببلادهم وأموالهم ودينهم.

إنَّ معـظم الـذين سـاروا في ركـاب الأعـداء، فنقلوا لهم الأخبـار، وفتحـوا لهم الأبواب في السِّلم والحرب، وثبَّطوا روح الجهاد في سبيـل الله ضدّهم، قـد كانـوا من صنف المنافقين.

لقـد توصَّـل فريق من المنـافقين إلى مراكـز رفيعةٍ من أجهـزة الحكم عن طـريق التدرج والتسلّل وإرضاء الرؤساء بالرُّشوات، وجمهورُ المسلمين بهم منخـدعون، وعن مكرهم غافلون، وعلى أعمالهم يثنون ولهم يُمَجِّدون، فلَمَّا تمكَّنُوا من كرسِيِّ الحكم إذا هم بالمسلمين الصادقين والمؤمنين الأطهـار ينكِّلون، ولأحكام الإسـلام يحاربـون، ولجمهور المسلمين يتجهَّمُون، ولمخطَّطات أعداء الله ورسوله ينفِّذون. ثُمَّ إِنَّهُمْ يُولُّـونَ اليهـود والنصارى وسـائر الكفـرة والمـرتـدّين على المسلمين، ويستعبـدون المسلمين الصادقين الملتزمين بتطبيق شرائع الإسلام.

وتـوصَّل فـريق من المنافقين إلى مـراكز دينيَّـةٍ عاليـة بين المسلمين، فكان منهم ـ كما ذكرت آنفاً ـ قُضاة شرع ومُفْتُون، وكان منهم خطباء، وكان منهم فقهاء وعلماء، وكان منهم شيوخ معاهد علْم كبرى، وكان منهم مستشارون لأولي الأمر من المسلمين، وكان منهم شيوخٌ مُرَبُّونَ ومُسَلِّكون، من شيوخ الطُّرُقِ الصوفيَّة.

وتسلَّل المنافقون والمنافقات إلى أروقة القصور السلطانية، فأفْسَدُوا فيها وعبثُوا، فكم من قصَّة اغتيالٍ كانُوا هم المدبِّرين لها أو المساعدين عليها.

وتسلَّل المنافقون إلى حـوانيت التّجار، فتـظاهروا بـالتقوى، وبـالَغوا بـالصلوات والأذكار، وهم خونةٌ كَفَرَةٌ فُجَّار.

وتسلَّل المنافقون إلى صفوف الجيوش الإسلامية، حتّى كانُوا فيها قادة مخـطِّطين أصحـابَ أمْرٍ ونَهْيٍ، فجلبُـوا للمسلمين الفشل والخيبـة والهـزيمـة والخزي والعـار،

وجلبُوا لبلاد المسلمين الخرابَ والدّمار.

وتسلّل المنافقون إلى مدارس العلْم، ودوائر التخطيط والتوجيه، فدَسُّوا في العلوم الأفكار الملحدة الكافرة، والمذاهب المنافية لدين الإسلام، ولمّا جاء في كتابه وسنّةِ رسُوله، وأبْعَدُوا الإسلام عن مجالات المعرفة في الخطط والمناهج والكتب، وعملوا على وضْعِ التعليم في أيدي أعداء الإسلام، من كافرين مجاهرين، أومنافقين مقنّعين، يتظاهرون بالانتساب إلى الإسلام، وهم له جاحدون، ولأحكامه منكرون، وللصادقين بالانتساب إليه معادون.

ولدى التتبُّع لا نكاد نجدُ عصراً من عصور تاريخ المسلمين لم يكن للمنافقين فيه دور خطير، مشحون بالإفساد والتضليل وإثارة الفتن، وخراب العمران، وتفريق صفوف المسلمين، ومناصرة الأعداء المحاربين سرّاً، وإمدادهم بالأنباء عن واقع حال المسلمين، وعن ثُغَرات الضعف في حصونهم، أوفي صفوفهم، أو في حدود بلادهم، أو غير ذلك.

* * *

(٤)
خطأ بعض الدعاة بشأن النفاق

يرى بعض رجال الموعظة والدعوة إلى الله أنّ النفاق قد انتهى منذ آخر عصر الرسول ﷺ، وتصحيحاً لهذا الرأي المجانب للصّواب أقول:

أوّلاً: لقد أثبتت وقائع التاريخ أنّ النفاق قد كان أشدُّ كيداً، وأكثر مكراً بعْد عصر الرسول ﷺ منه في عصره.

وقد استطاع أعداء الإسلام والمسلمين أن يحقّقوا من أهدافهم بعد عصر الرسول ﷺ عن طريق النفاق أموراً ما استطاعوا أن يحققوا منها في عصره شيئاً، والسبب في ذلك أن المنافقين كانوا مكشوفين للرسول ﷺ بما آتاه الله من بصيرة، وكان الوحي الربّاني يَنْزِلُ فاضحاً أعمالَهُمْ مع كُلّ حَدثٍ من أحداثهم، لكنّ المسلمين بعد ذلك لم يستطيعوا أن يكشفوا كُلَّ من دخَلَ في الإسلام نفاقاً، أو ارتَدَّ عن الإسلام دون أن يُعْلِن ردّته، وبقيَ بين المسلمين يتظاهر بالإسلام نفاقاً.

وفي أيام الفتوحات الإسلاميّة الواسعات انصرف المسلمون الصادقون إلى ما هم فيه، وانشغلوا عن رَصْدِ المنافقين الأخباث، ضِمْن الأفواج التي كانت تدخل في دين الله إعجاباً به، وبالفتح المبين الذي منحه الله للفاتحين المسلمين.

ثمّ غلَبَ على المسلمين بعد ذلك حُسْنُ الظنّ، وتفاقم حُسْن الظنّ لدى من جاء بعدهم، حتّى غلَبَتْ الغفلة.

ثمّ جاءت أجيالٌ اختلَّ عنْدها الميزان الّذي يجب أن يزنوا به النـاسَ، من خلال سلوكهم وأخلاقهم وفلتاتِ ألسنتهم.

ثمّ ضعف الإيمان عند الجماهير الوارثة للإسلام، والمنتسبة إليه، فضعُفَت بصيرتُهُمْ، فتسَلَّل المنافقون إلى صفوفهم، وظَفِروا بثِقتهم، واستَدْرَجوهم إلى ما يريدونَهُ منهم مِنْ إفْسادٍ وتَضْليل، أو تعذيب وتنكيل، أو ردّةٍ عن الإسلام، واتّباع لليهود أو النصارى أو أهل الأوثان، أو الملحدين الجاحدين لوجود الله ربّ العالمين، أو مدّعي الألوهيّة من البشر، أو مدّعي الألوهيّة لبَعْض البشر، أو غير ذلك من مذاهب الكُفْر في الأرض.

ثانياً: لقد كان دور المنافقين في مقتل عمر، ثمّ في مقتل عثمان رضي الله عنهما هو الدور الأكبر.

ثم جاء دور المنافقين في تأسيس أخْطَرِ المذاهب والفرقِ في تاريخ المسلمين.

ثمّ جاء دور المنافقين في إقامة بعض أنواع الحكم التي تنتسب إلَىٰ الباطنيّة ذات الصلة اليهوديّة في السـرّ، وتتظاهر بالإسلام، وهي تكيد الإسلام والمسلمين كيداً كُبّاراً.

ثمّ كان للمنافقين دور خطير جدًّا في تقويض الدولة الإسلاميّة في الأندلس، وطرد المسلمين منها في أعظم نكبةٍ أُصيبَ بها المسلمون خلالَ تاريخِهِمُ الطويل.

حدّثني حاجٌّ باكستاني اجتمعتُ بـه مصادفـةً في مكّة في بيتِ أحَـدِ الأصدقـاء، وعلمت منه أنّه ضابط كبير في الجيش الباكستاني برتبة «لواء» قال: إنّ الحكومة الهنديّة إبّان الصراع الدامي بينها وبيْنَ باكستان، أرسلَتْ وفْداً إلى إسبانيا، للاستفسار بشكل رسميٍّ عن الأسباب التي استطاع بها الإسبانيّون النصارى تقويض الدّولة الإسلاميّـة في

الأندلس، فرجع الوفد وفي حقيبته أنّ أهمّ الأسباب الّتي تمكّنوا بها من تقويض دولة المسلمين في الأندلس النفاق والمنافقون، وذكَر لي أنّ خبَر هذا الوفد وحقيقة ما عاد به من إسبانيا قد نُشِر في الصُّحف الباكستانيّة وغيرها في حينه.

وقد سألت عن خبر هذا الوفد كثيراً من الباكستانيين ذوي الاطلاع فأكَّدُوا لي صحّة هذا الخبر، ومنهم سفير باكستان في دمشق سنة «١٣٩٨ هجرية» ولكن لم يتيسّر لي الاطلاع على نصٍّ منْشُورٍ لهذا الخبر.

وكان للمنافقين دور خطير في معاونة التتار ضدّ الدولة الإسلامية، وإسقاط الخلافة العباسيّة.

وكان للمنافقين دور كبيرٌ جدًّا في معاونة الصليبيّين، وتمكينهم من بلاد المسلمين، وجماهير الأمّة الإسلاميّة.

ثمّ كان للمنافقين الدور الأكبر في هدم الخلافة الإسلامية العثمانيّة، ثمّ في استقدام الدّول النصرانيّة المستعمرة إلى بلدان المسلمين، وتمكينهم من كلّ شيءٍ فيها.

ثمّ كان للمنافقين دور خطير وكبير في خدمة الدُّول الاستعماريّة، وتنفيذ مخطّطاتها، سواءٌ أكانت هذه الدُّول الاستعماريّة محتلّةً احتلالاً مباشراً، أو توجّه أوامرها من خارج الحدود، فتحكم بطريقٍ غير مباشر.

وما يزال المنافقون يُصرّفون معظم الحركات الهدّامة، والسياسات ذوات الولاء لأعداء الإسلام والمسلمين، في كثيرٍ من بُلْدانِ العالم الإسلاميّ، فهم يتحرّكون وفق أوامر الأعداء، أو وفق رغباتهم ولو من دون أمْر، ويحقّقون لهم في بلدان المسلمين وفي الأمّة الإسلامية وأجيالها ما يريدون، مقابل تمكينهم من الحصول على ما يشتهون من مالٍ، أو سلطانٍ، أوجاهٍ، أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا.

فهل انتهىٰ النفاق بانتهاء عصر الرّسول ﷺ، أم بدأ شرُّه الأكبر؟!

إنّ التاريخ يؤكّد الثانية، ويُبْطل الفكرة الأولى.

ثالثاً: وقد دلّت النصوص على أنّ النفاق سيظهر بقوّة بين صفوف المسلمين،

وسيكون للمنافقين مكايد خطيرة، تَنْجُم عنها فِتَنٌ سوداء مظلمة، فمنها ما يلي:

(١) روى الحاكم بإسنادٍ صحيح عن أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَضحِكْتُمْ قَلِيلاً، يَظْهَرُ النِّفَاقُ، وتَرْتَفِعُ الأَمَانَةُ، وَتُقْبَضُ الرَّحْمَةُ، وَيُتَّهَمُ الأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ غَيْرُ الأمِينِ، أَنَاخَ بِكُمُ الشُّرُفُ الْجُونُ: الْفِتَنُ كَأَمْثَالِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ».

أناخَ بِكُمُ الشُّرْفُ الْجُونُ:

الشُّرْفُ: هي النوق المسنَّةُ الْهَرِمَةُ، والْجُونُ: أي السُّود، والمعنى أناخ بكم النوق المسنّة الهرمة السُّود، وقد فسّرها الرسول ﷺ بالفتن الممتدة المتّصلة، والتي هي كقِطَع اللَّيْلِ المظلم، تشْبيهاً لهذه الفتن بقافلةٍ من النوق المسنّة الهرمة السُّود بطيئة الحركة، والّتي يَتْبَعُ بعضُها بعضاً، كقِطَع اللّيل المظلم الّتي يأتي بعضها وراء بعض.

وإقبال النوق والجمال رمزُ المصائب والفتن والنّكبات، فإذا كانت سوداً كانت أشدّ.

(٢) ورُوي بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل موقوفاً عليه قال: «إنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَناً، يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ، حَتَّىٰ يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، والرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، والصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالْحُرُّ وَالْعَبْدُ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ:

مَا لِلنَّاسِ لا يَتَّبِعُونِي وقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّىٰ أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتَدَعَ، فَإنَّ ما ابْتَدع ضَلاَلَة، وَأُنْذِرُكُمْ زِيغَةَ الْحَكِيمِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلاَلَةِ عَلَىٰ لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَقَدْ يَقُولُ المنافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ».

(٣) وروى الطبراني في الكبير، والبزّار بإسنادٍ رجاله رجال الصحيح عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ».

(٤) وروى الإمام أحمد بإسنادٍ صحيح عن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ».

وقد سبق الاستشهاد بهذين الحديثين.

(٥) وروى البيهقيُّ في شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال:

«إنّ ما أَخَافُ على هذه الأُمَّةِ كُلُّ مُنَافِقٍ يَتَكَلَّمُ بالْحِكْمَةِ وَيَعْمَلُ بِالْجَوْرِ».

(٦) وروى ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: «المنافقون الذين فيكُمُ اليوم شرٌّ من المنافقين الذين كَانُوا على عهد رسول الله ﷺ، إنَّ أُولَئِكَ كانوا يُسِرُّونَ نِفَاقَهُمْ وَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَعْلَنُوهُ».



الفَصلالثاني

الإيمَانُ وَالإسلامُ

أولاً : الإيمـان

(١)

تـمـهـيـد

لكي نعرف حقيقة النفاق لا بدّ لنا من أنْ نَعْرِف الإيمانَ، والإسلامَ، وشُروطَهُما، وما يدخُل في ماهيّتهما. ولا بدّ أيضاً مِنْ أن نَعْرِف الكُفْرَ والمكفّرات.

فـالنفاقُ صـورةٌ من السُلُوكِ الإنساني، أخْطَرُه وشرُّه مَـا كان في مجـالِ الدين، ولا يُمكن معرفة ماهيّتِهِ منفصلَةً عن معرفةِ كُلٍّ من الإيمان والإسلام والكفر.

* * *

(٢)

تعريـف الإيمـان

الإيمـان: هو حـركةٌ إراديـةٌ قَلْبيّةٌ تتضمّنُ التَّصْـدِيقَ والاعتـرافَ والتَّسليمَ بقضيّـةٍ فكريّة.

والإيمـانُ المطلوبُ في دين الله الحقّ لعبـاده: هو الحـركةُ الإراديـةُ القلبيّـة التي تتضمَّنُ التَّصْدِيقَ والاعْتِراف والتَّسْليمَ باللّهِ عزّ وجلّ وبصفاتِهِ كَما ثَبَتَ بـالوحْي عنـه، والإيمـانُ بملائكتـه وكتُبه ورُسُلِهِ واليـوم الآخر، والإيمـانُ بالقضـاءِ والقدَرِ خَيْـرِه وشرِّه من الله تعالى، والإيمانُ بالتفصيلات الثابتة بواسطة الوحي عن كلّ ذلك.

فأركان ما يجب الإيمان به ستّة، وهي على وجه الإجمال ما يلي:

الركن الأول: الإيمان بالله عزّ وجل، وبكمال صفاته وأسمائه الحسنى، وبأنّه تعالى واحدٌ في ربوبيّته، فلا ربّ غيره، أي: لا خالق، ولا رازق، ولا مُحْيِي ولا مُمْسِكَ في الحياة، ولا مُميتَ ولا نافع ولا ضارّ غيره، سبحانه.

والإيمان بأنّه عزّ وجلّ واحدٌ في إلَهيّته، فلا يَسْتحِقُّ أحدٌ في الوجود أن يُعْبَد سِوَاه، وكلّ عبادةٍ لغيره سبحانه وتعالى شِرْكٌ به.

ومنْ عبادة غير الله اتِّخاذُ مُشرِّعينَ سوى الله، يُحلُّونَ ما حرَّم الله، أو يُحَرِّمُونَ ما أحلّ، أو يُشَرِّعُونَ في الدين شرائع لم يأذَنْ بها تباركَ وتعالى.

الركن الثاني: الإيمان باليوم الآخر، وبأنّ الحياة الدنيا هي حياة الامتحان، أمّا الحياة الأخرى بعد البعث فهي الحياة التي أعدّها الله عزّ وجلّ للجزاء الأمثل، بالثواب أو بالعقاب على وفق نتائج الامتحان.

وللحياة الدنيا دار هي الدار الدنيا في هذه الأرض وما يتصل بها، وللحياة الأخرى دار أخرى، أمّا المؤمنون فلهم دار النعيم الجنّة التي أعدّها الله للمتقين، وأما الكافرون فلهم دار العذاب الأليم النّار التي أعتدها للمجرمين وللعصاة المذنبين.

الركن الثالث: الإيمان بالرسول محمد ﷺ وبمن أرسَلَهُ الله قبله من رُسُلٍ للناس، لِيُبَلِّغوا دين الله وشريعته وأوامره ونواهيه لعباده، والإيمان بجميع أنبياء الله الذين اصطفاهم الله بالوحي.

الركن الرابع: الإيمان بالقرآن كتاب الله، وبكلّ ما جاء من عند الله على لسان رسول الله محمد ﷺ، والإيمان بكلّ الكتب والشرائع التي أنزلها الله على رُسُله السابقين على وفق ما أُنزِلت، لا على ما جرى فيها من تحريف وتغيير وتبديل.

أمّا الكتبُ المحرّفة أو المفتراةُ على الله فلا يصحّ الإيمان بها، ولا يجوز العمل بما جاء فيها ممّا يخالف ما جاء به رسول الله محمد ﷺ.

الركن الخامس: الإيمان بالوحي الذي هو واسطة التبليغ بين الله عزّ وجلّ ورُسُله من البشر، والإيمان بالملائكة، فمنهم يصطفي الله رُسُلاً يُبَلِّغون الرُّسُلَ من البشر، ما يريد الله تبارك وتعالى تبليغهم إيّاه.

الركن السادس: الإيمان بالْقَدَر خيره وشرّه من الله عزّ وجلّ، فما يجري في الكون من نِعَمٍ أو مصائب وبلايا، فهي بقضاء الله وقَدَرِه لِحِكْمَةٍ هو يُريدُها تتّصلُ بامتحان عباده في الحياة الدنيا، أو لحكمةِ تربيتهم وتأديبهم، أو لحكمة مجازاتهم.

* * *

الإيمان المنجي كُلٌّ لا يتجزّأ

قد يوجد لدىٰ بعض الناس إيمانٌ ببعضِ عناصر أركان الإيمان، ويوجد لديهم أيضاً كفرٌ بعناصر أخرى، أو إنكارٌ لها، أو شكٌّ فيها، وهؤلاء ليسوا ذوي إيمان صحيح ينجيهم عند الله من العذاب المعَدِّ للكافرين.

وذلك لأنّ الإيمانَ المطلوبَ في دين الله الذي اصطفاه لعباده كُلٌّ لا يَتَجَزَّأ، وعَناصِرُهُ شبكةٌ مترابطة قائمة على أصْلٍ واحد، فمن لم يؤمِنْ بعُنْصُرٍ ثابتٍ من عناصر الإيمان الّتي أمَر الله عزّ وجلّ بالإيمان بها لم يكن صاحب إيمانٍ كامل ينجيه عند ربّه يوم الدّين.

إنّ من كفر بعُنْصُرٍ ما من عناصر الإيمانِ الثابتةِ بيقين وهو لا يَمْلِكُ بُرهاناً، عادَ ما كفر به على ما آمن به فنقضه.

فمن كذّبَ الرَّسُولَ الصادقَ المؤيَّدَ من اللهِ بآياته المعجزات، فقد كذّبَ آياتِ الله، ومُكَذِّبُ آياتِ الله مُكذِّبٌ لله، ولا يجتمع الإيمان بالله معَ التكذيبِ بآياته التي هي من آثار صفاته.

وعلى مثل هذا يظهر انعقاد الترابط بين الإيمان باللّهِ وصفاته، وبين الإيمان بكلّ عناصر الإيمان الثابتةِ بيقين.

• • •

ثانياً: الإسلام

(١)
تعريف الإسلام

الإسلام: إعلان المؤمِن بلسانه ما آمن به في قلْبِه، مع إعلان مبدأ الطاعة لله ولرسوله، والتسليم لهما في كلّ أحكام الدين وشرائِعه، دون رفض ولا استكبار، ولا تمرُّدٍ على أوامر الله ونواهيه، ولا تمرّدٍ على أوامر الرسول ﷺ ونواهيه.

فمن رفض أن يُعْلن إسلامه، وهو قادرٌ على ذلك غير عاجزٍ ولا جاهلٍ ولا مُكْره، ومرّ عليه زمَنٌ كافٍ لكي يُعْلِن إسلامه مع علْمِه بأنّ الله لا يُنْجيه من عذاب الكافرين يوم الدين ما لم يُعْلِن إسلامه، ولم يفعل ذلك، فإنّه لا يخرجُ من الكفر إلى الإيمان.

والسبب في ذلك أنّه لم يرفض هذا الإعلان إلاّ وهو لا يريدُ الالتزام بمضمون الحقّ الرّبّاني الذي عرفه، ولا يريد طاعة الله في أوامره ونواهيه، وهذا من الكفر.

إنّ من رفضَ طاعة ربّه بعد إيمانه به مستكبرٌ على ربّه، أو شاكٌّ في حكمته، أو مشركٌ به، أو معانِدٌ يبتغي الفجور في الأرض، وكلُّ ذلك من الكفر.

إنّ كُفْر من يرفُض طاعةَ ربّه في أوامره ونواهيه شبيهٌ بكُفْرِ إبليس، إذْ رفض طاعة ربّه استكباراً، وشكَّ في حكمته، حين وجّه له الأمر بأن يسجُد لآدم، وجَحَدَ حقّ الله عليه، وعاند وأصَرّ.

هذا النوع من الكفر هو كفر الاستكبار، أو كفرُ جُحود حقّ الله على عباده في أن يطيعوه، ويُعْلِنوا إسلامهم له عزّ وجلّ، أوْ كُفْرُ اتّهام الخالق بعدم الحكمة، أو بعدم العدل، أو بعدم العلم.

لكن من ركب مراكب معصية الله في أوامره ونواهيه، مع إعلانه مبدأ الطاعة، واعترافه بحقّ الله عليه، واعترافه بذنبه، وجرمه، ومع خضوعه وذُلّه لربّه، فَهُو مسلمٌ مؤمِنٌ عاصٍ، وعصيانُه قد كان بسبب ضعف إرادته عن التغلُّب على أهواء نفسه وشهواتها، لا بسبب جحوده لأركان الإيمان، ولا بسبب رفضه لطاعة الله، استكباراً أو شكًّا في حكمته، أو إنكاراً لحقه على عباده، أو رغبة في أن ينطلق في الأرض فاجراً معانداً لربّه.

والمؤمِنُ المسلم العاصي يحاسبُ على مقدار معاصيه، وينالُ جزاءه وفق مقتضيات العدل الرَّبّاني، أو يغفر الله له، إنْ عَلِمَ بحِكْمتِه أنّه يسْتحِقُّ المغفرة، ثمّ يكون بسبب إيمانه وإسلامه من أهل الجنّةِ بحسب وعد الله وفضله.

هذا هو الإسلام الحقّ المقبولُ عند الله، والمُنْجي من الخلُودِ في عذاب النار، والذي يكون به المسلمُ من أهل الجَنّةِ بفضلِ الله.

* * *

(٢)
أقسام معلني الإسلام

من تعريف الإيمان والإسلام يظهر لنا أنّه ليس كُلُّ مَنْ أعلن إسلامه هو مسلِمٌ حقًّا.

* فقد يُعْلِنُ الإسلامَ من هو كافرٌ في قلْبه بأركان القاعدة الإيمانيّة التي أمر الله بالإيمان بها، أو كافرٌ ببعضها، ويريد أنْ يخادع المسلمين بانتمائه الكاذب للإسلام.

فهذا مُسْلِمٌ إسلاماً ظاهريًّا فقط، وهو ليس بِمُسْلم حقًّا وصِدْقاً، وذلك لأنه كاذب في إعلانه يَجْحَدُ القاعدةَ الإيمانيّةَ كُلَّها أو يَجْحَدُ بعضَها، وقد صارَ معلوماً أنّ جحود بعض عناصر القاعدة الإيمانية هو من الكفر، فالإيمان بعناصر القاعدة الإيمانية في دين الله لعباده كُلٌّ لا تُقْبَلُ فيه التجزئة، وإن وُجِدَتْ عند بعض الناس فإنّ ما آمنوا به لا ينجيهم عند الله من العذاب المُعَدِّ للكافرين، على أنّ الكفْرَ دَرَكاتٌ بعضُها أشدّ من بعض، والكافرونَ في دار العذاب يوم الدّين تَقَعُ منازلهم في دركاتٍ بَعْضُها أحطُّ وأنْزَلُ وأشدُّ عذاباً من بعض.

* وقد يُعلِنُ الإسلامَ مَنْ أعجبه الانتسابُ إليه، ويقْبَلُ مبْدأ الطاعة لما جاء فيه من أوامرَ ونواهي، ولكنَّ هذا الإعجابَ غيرُ نابعٍ من القاعدة الإيمانيّة، وغير مرتكزٍ عليها.

فقد يكون إعجابه بالإسلام مرتكزاً على سبَبٍ غيرِ إيمانيّ، كانْبِهاره بانتصارات المسلمين، فهو يريد بصِدْقٍ أن ينتميَ إلى الجماعة الغالبة، التي تَتحقَّقُ لها الانتصارات الباهرات، دون أن يصل إلى قناعةٍ بعناصر القاعدة الإيمانيّة، ولا إلى الإيمان بها.

فهذا مُسْلِمٌ بمعنى أنّه منتسِبٌ إلى جماعة المسلمين، ومُسْتَسْلِمٌ للأوامر الإسلامية، وهو في حدود هذا المعنىٰ غير كاذب في انتمائه، إلاّ أنّه مُسْلِمٌ غيرُ مؤمن، ويُرْجَىٰ بعْدَ انتمائه الصادقِ أن ينْتقِل خُطْوةً أُخرىٰ يتفهَّمُ فيها عناصر القاعدة الإيمانيّة، ويؤمن بها، فيكونَ مُسْلماً مؤمناً.

لكنّه إذا بقي عند حدود هذا الانتماء إلى جماعة المسلمين، دون أنْ يؤمن بالقاعدة الإيمانيّة الّتي أمر الله بالإيمان بها، فإنّه يظلُّ عند الله غير مُسْلِمٍ حقّاً، لأنّ الإسلام الحقّ المقبول عند الله عزّ وجلّ مشروطٌ بأنْ يكون مرتكزاً على القاعدة الإيمانيّة.

* * *

وبناءً على هذا التحليل يتبيّن لنا أن الّذين يعلنون إسلامَهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسامٍ رئيسيّة، وهي ما يلي:

القسم الأول:

المسلمون المؤمنون، وهم الّذين آمنوا وصدّقوا في قلوبهم بكلّ عناصر القاعدة الإيمانيّة، ولم يكفُروا ولم يشكُّوا بجزءٍ ما من أجزائها، وأعلنوا إسلامهم واستسلامهم لما يوجبه الإيمان ويقتضيه من الطاعة والاتباع، وساروا في طريق التطبيق دون معاندةٍ ولا استكبارٍ ولا تمرّد.

وهؤلاء على مراتب متفاوتاتٍ متفاضلات، وفي كلّ مرتبة من مراتبهم درجات:

المرتبة الأولى العليا: مرتبة المحسنين المقرّبين، وهم الذين استوْفَوْا حُقُوق

مرتَبَةِ التقوى، وتوسعوا في أعمال البرّ من نوافل الأعمال الصالحة التي تقرّبهم إلى الله عزّ وجلّ، ووَصَلُوا إلى حالةٍ قلبيّة استطاعوا بها أن يَعْبُدوا الله كأنَّهم يَرَوْنه، ويَشْهَدُونَ أنَّهُمْ يَعْمَلُونَ أعمالهم بيْنَ يَدَيْهِ تبارك وتعالَىٰ، فَيُبالغون في إحسانِ أعمالهم الظاهرة والباطنة، ويُجَوِّدُونَها، كحالِ الْخَادِمِ في حضرة الملك وهو يُشاهده ويُناظِرُه، ويُراقب حركاته وسكناته.

ولهذه المرتبة درجات، يحتلُّ أعْلاَها أُولو العزم من الرسُلِ وفي مقدّمتهم رسول الله محمّد ﷺ، وتتَنازل درجاتُها بحَسَب حال نسبةِ الإحسان في الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كَمًّا وكَيْفاً، واستمراراً أو في بعض الأوقات دون بعض.

المرتبة الثانية: مرتبة الأبرار، وهم الذين استوفَوْا حقوقَ مرتبة التقوى، وتوسَّعُوا في أعمال البِرّ من نوافل الأعمال الصالحة التي تقرّبُهُمْ إلى الله عزّ وجلّ، إلاّ أنّهم لم يصِلُوا بَعْدُ إلَىٰ حالة الشعور الداخليّ بأنّهم يَعْبُدونَ الله كأنَّهُمْ يَرَوْنه.

وبسبب ذلك لم يَصِلُوا إلى مرتبةِ الإحسانِ والتجويد في الأعمال إحسانَ منْ يَشْعُر أنّه بيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، حتّى كأنّه يَرَىٰ ربَّهُ الذي هو على كلِّ شيْءٍ شهيد.

ولهذه المرتبة درجات تتناسبُ مع نسبة نوافل الأعمال الصالحة التي يُبْتَغَىٰ بها وجْهُ اللّهِ عزّ وجلّ كمًّا وكيْفاً، واستمراراً ومواظبةً في معظم الأوقات، أو في بعض الأوقات دون بعض.

المرتبة الثالثة الدُّنيا: مرتبة المتقين، وهم الذين تَنْحَصِرُ أعمالهم في فعل ما أمر الله به، وتَرْكِ من نهىٰ الله عنه، مَعَ استيفائِهِمْ لما هُو مطلوبٌ منهم من إيمان.

ولهذه المرتبة درجات متفاضلات:

* فأعلاها درجة الذين يؤدّون جميع ما فرض الله عليهم من أعمال ظاهرة وباطنة، ويَجْتَنِبُون جميعَ مَا نهاهم الله عنه.

وهؤلاء يحقّقُون كمال التقوىٰ، لأنّهم اتّقَوْا عقوبةَ اللّهِ التي رتّبها على مَعْصِيَتِه الّتي تكون بتركِ الواجبات وفعل المحرّمات.

ويُلْحَقُ بهذه الدرجة من قصَّرُوا ببعض حقوقها، إلاّ أنّهم عوّضوا بأعمالٍ ظاهرة

أو باطنة هي من أعمال مرتبة الأبرار أو مرتبة المحسنين، أو تابوا واستغفروا فكفَّر الله عنهم سيئاتهم.

ويوصف أصحابُ هذه الدرجة بأنّهم «مقتصدون» أي: لم يستزيدوا من نوافل الصالحات، ولم يُقَصِّروا بما هو مطلوبٌ منهم ممّا هو من حقوق هذه الدرجة.

* وتحت الدرجة العليا من هذه المرتبة تأتي درجات الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فقد تزيد حسناتهم على سيئاتهم، وقد تزيد سيئاتُهم على حسناتهم، وقد تتساوى، لكنّهم لم ينزلوا إلى دركة المسرفين على أنفسهم.

ويوصف أصحابُ هذه الدّرجات المتوسطة بأنّهم ظالمون لأنفسهم، بتعريض أنفسهم لاستحقاق العقاب على ترك ما تركوا من واجبات، وفعل ما فَعَلُوا من محرّمات، وهم ضمن حدود مرتبة المتقين، بوجه عامّ، لكنّهم لم يتّقُوا كلّ ما ينبغي أن يتّقوه.

* أمّا الدرجاتُ السُّفْلَىٰ من درجات مرْتَبةِ المتقين فهي درجات الذين أسرفوا على أنفسهم، وهمُ المؤمنون الذين كثرت جدًّا معاصيهم، بترك الواجبات وفعل المحرمات، حتّىٰ بلَغُوا حدّ الإسراف في ذلك، وهم يدخلون أيضاً في مفهوم الظالمين لأنفسهم ولكن بإسراف.

وبعضُ هؤلاء أسوأُ حالاً من بعض، وأدناهم من اتّقىٰ بصِدْقِ إيمانه الخلود في النّار.

وأدلة هذه المراتب ودرجاتها موزّعةٌ في القرآن المجيد.

* * *

القسم الثاني:

المسلمون المنتسبون، وهم الذين أعجبهم الانتسابُ إلى الإسلام لسَبَبٍ من الأسباب الشكليّة أو غير الجوهريّة في الإسلام، كأنْ يكُونُوا قد رأَوْا الأفواج من قومهم تدخُل في الإسلام فدخَلُوا معهم، أوْ رأَوْا انتصار المسلمين فأحبُّوا الانتماء إليهم، أو استَحْسَنُوا بعض أعمال المسلمين ومعاملاتهم، فأحبُّوا الانتماء إلى جماعتهم من أجل ذلك، أو استحسَنُوا النُّظُم الإسلاميّة فقبِلُوا الالْتزامَ بها، أو نحو هذه الأمور، وبناءً

على هذا الإعجاب أَعلَنُوا انتسابهم إلى الإسلام، دون أن تتَّضِحَ لهُمُ الرؤية الحقيقيَّة لعناصر القاعدة الإيمانية.

إنّ هذا الإسلام هو في حقيقته:

* إمّا انتسابٌ صادقٌ غير كاذبٍ إلى جماعة المسلمين.
* وإمّا استحسانٌ لنظام الإسلام وإعلان للالتزام بتطبيقه.

لكنّه في كِلْتا الحالتين ليس إسلاماً مرتكزاً على الإيمان بعناصر القاعدة الإيمانيّة في الدين.

إنّ أهل هذا القسم المنتسبين إلى الإسلام ليسوا بكاذبين في إعلانهم إسلامهم، إذْ فهموا من الإسلام أنّه إعلان الانتماء وقبول مبدأ الطاعة والاتباع، وهذا في مفهوم كثيرٍ من الناس يشبه اتباع حزب بشري، أو زعيم من الزعماء، ويشبه الانتساب القوميَّ أو العرقي أو الوطني، من الانتماءات التي ليس لها قاعدةٌ إيمانيّة اعتقادية فكريّة.

ومع أنّ هؤلاء ليسوا بكاذبين في إعلانهم الإسلام ضِمْنَ حدود مفهومهم الخاطىء للإسلام الذي لا يكون صحيحاً ما لم يكُنْ مرتكزاً علىٰ القاعدة الإيمانيّة ونابعاً منها، فإنّهُمْ ليسوا بمؤمنين حقاً، بل هُمْ مسلمون، بمعنى أنّهم استسلَموا لأحكام الإسلام العمليّة، وقَبِلُوا مبدأ الطّاعة ضمْن جماعة المسلمين، لَكِنَّ قلوبهم لم تصِلْ بَعْدُ إلى مرحلة التصديق بعناصر الإيمان والاطمئنان إليها.

ومن مسلمي هذا القسم مسلمو الأعراب الذين قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ
وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (١٥) قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ

إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

هذا النصّ يدلُّ على أنّ الأعرابَ الَّذِين تَحدَّثَ عَنْهُمْ، هم قومٌ قد أسلموا بمعنى أنّهم أعلنوا الانقياد والطاعة والمتابعة لرسول الله ﷺ، وأنّهم بهذا الإعلان صادقون غير كاذبين، فهم بذلك مسلمون.

لكنّهم حين ظنّوا أنّ إعلانَهم الإسلام هو الإيمان، فقالوا: آمَنّا، أبانَ الله أنّهم لم يؤمنوا بل أسلموا فقط، فقال تعالى لرسوله يُعَلِّمُهُ ما يقوله لهم:

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾:

أي: فإذا قُلْتُم: أسلمنا فأنتم صادقون، لأنكم أسلَمْتُمْ إسلام الاتباع والطاعة، لكِنَّ هذا الإسلامَ لمْ يكن ثمرةَ إيمانٍ دخل في قلوبكم.

إنّهم في حالةٍ وُسْطَى لم يبلُغوا فيها أنْ يكونُوا مؤمنين، وأنْ يكونَ إسلامُهم ثمرةَ لإيمانِهم، ولم يبلُغوا فيها أنْ يكونوا جاحِدينَ مُنْكِرينَ كافرين، وأن يكون إعلانُهم للإسلام إعلاناً كاذباً ناجماً عن نفاقٍ منْهم.

إنّهم مسلمون بمعنى الاتّباع والانقياد والطّاعة لأحكام الإسلام العمليّة، غير مؤمنين إيماناً صحيحاً بعناصر القاعدة الإيمانيّة.

وممّا لا ريب فيه أنّ ثباتَ هؤلاء في الانقياد والاتباع والطاعة ثباتٌ ضعيف، وهو عرضةٌ للتقلّب والتحوُّلِ والارتداد، نظراً إلى أنّ انتماءهم غير مرتكزٍ على قاعدةٍ إيمانيّة ثابتةٍ راسخةٍ في قلوبهم.

وقد أثبتتِ التجاربُ الإنسانيّة أنّ الانتماءات العاطفيّة، أو النفعيّة، أو القائمة على الانبهارِ بالظواهر، أو الإعجاب ببعض الأشكال والصُّوَر، قابلةٌ للتحوُّل والتغيُّر والارتداد بسرعة، بخلاف الانتماءات القائمة على قاعدةٍ إيمانيّة راسخة ثابتةٍ، ذات عناصر فكريّةٍ حقّ.

ولمّا كان هؤلاء الأعراب مسلمين فقط في حدود مفهوم الطاعة والانقياد

والاتباع، ولمّا يَدْخُلِ الإيمان في قلوبهم، كانوا بهذا غير مؤمنين حقًّا، ولا كاذبين في إسلامهم، فليسوا إذن منافقين.

ولمّا كانوا كذلك بيّن الله عزّ وجلّ لهم أنّ أجورهم على طاعتهم واتباعهم ستأتيهم كاملةً غير منقوصة، فقال تعالى:

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَا يَلِتْكُم﴾: أيْ: لا ينقصْكُمْ مِنْ أُجور أعْمالِكُمْ شيئاً.

ونفهم من نُصُوصٍ أُخرى أنّ أجور غير المؤمنين صحيحي الإيمان أجورٌ دنيويّة غير أخرويّة.

ثمّ بيّن الله عزّ وجلّ صفات المؤمنين حقًّا فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

فالمؤمنون هُمُ المصدّقون في قلوبهم بالله والرّسول، والذين ليس في قلوبهم ريْبٌ بأيّ عُنْصر ممّا يجب عليهم أن يؤمنوا به، ولم يدخُلْ إلَى قُلوبهم ريْبٌ لاحِقٌ بَعْدَ إيمانِهِمْ، ثمّ ظهرت آثار إيمانهم الثابت في قلوبهم بأعمالهم، فجاهدوا بأموالهم وأنْفُسهم في سبيل الله، بعد أنْ أسلموا وأعلنوا بإسلامهم الطاعةَ والانقيادَ والاتّباع.

والاختبارُ بالجهاد الذي يستدعي بذلَ الأموال والأنفس، لَهُ ميزةٌ خاصّةٌ في كونه دليلاً على صدْقِ الإيمان، إذِ الإسلامُ الذي يكونُ بإعلان الشهادتين، وإقامةِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصومِ رمضان، وحجِّ البيت، قد يفعله المسلمُ المنتسب، ولوْ لَمْ يدخُلِ الإيمانُ في قلبه، لكنّ بذلَ المالِ فوق الزكاةِ وبذلَ الأنْفُسِ جهاداً في سبيلِ الله، وإعلاءً لكلمة اللّهِ، لا يفعله غالباً إلاّ مؤمنٌ بالله ورَسُولِهِ واليوم الآخر صادقٌ في إيمانه.

وقول الله عزّ وجلّ في التعليم الذي أمَرَ الله رسوله بأنْ يقوله لهم:

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

يُشعِرُ بأنّ أنوار الإيمان قد بدأت تلامس ظواهر قلوبهم بعد إسلامهم، لكنّها لم تدخل فيها، ولم تُحْدِثْ في قلوبهم الطمأنينة. وربّما كانت هذه الأنوار قد لامست ظواهر قلوبهم قبل إسلامهم، وهذا المستوى كان من المرجّحات الّتي جعلتهم يُعْلِنُونَ دخولهم في الإسلام، وهم صادقون في إرادة الطاعة والمتابعة.

إنَّ تصوُّرَهُمْ لقَضِيَّةِ إسلامهم كتَصَوُّرِ صَاحِبِ فضْلٍ في الانتساب إليه، إنّهم يرَوْنَ أنّهم يُقْوُونَ بانتسابهم الجماعَةَ التي ينتسبون إليها، والمبدأ الّذي ينتسبون إليه، نَظِيرَ مَنْ ينتَسِبُ إلى زَعِيمٍ من الناسِ فيُناصرُهُ ويُدافِعُ عنْهُ ويُطيعُه.

ولمّا كان تصوُّرُهم كذلك أخذوا يَمُنُّون على الرسول ﷺ إسلامَهُمْ.

فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أَسَدٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أَسْلَمْنا، وقاتَلَكَ العربُ ولم نقاتِلْكَ، فقال رسول الله ﷺ:

«إنَّ فِقْهَهُمْ قَلِيلٌ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ».

وأنزل الله قوله خطاباً لرسوله:

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

لقد كان جهلُهم يعبّر عنْهُ تصوُّرُهُمْ أنّ إسلامَهُمْ قد كانَ لمصلحة الرسول، فأخذوا يمنُّونَ علَيْه إسلامَهُم، وغابَ عنْهُمْ أنّ إسلامهم لو صحّ فإنّما هو لمصلحتهم أنفسهم، ولنجاتهم عند ربّهم، وللظّفر بالسعادة الخالدة في دار النعيم التي أعدّها لعباده المتقين.

وهذا يؤكّد أنّ إسلامهم قد كانوا صادقين فيه من جهة صِدْقِ الإعلان، لكنّه لم يكُنْ ثمرةَ إيمانٍ صحيحٍ دخلَ في قلوبهم، ولَمْ يكن أيضاً نفاقاً، يُضاف إلى ذلك أنّ أنوار الإيمان لم تكن بعيدةً عن قلوبهم، ولا مُجَافيةً لَهَا كُلَّ المجافاة، بل هُمْ بيْنَ بيْن، ورجاءُ دُخول الإيمان في قلوبهم رجاءٌ قويٌّ، دلّ عليه قول الله عزّ جلّ في التعليم:

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

ولو أنّ إسلامهم قد كان ثمرةَ إيمانٍ صحيحٍ دخلَ في قلوبهم، لَعَلِمُوا أنَّ المنَّةَ للَّهِ عليهم، إذْ بَعَثَ رسولَهُ، وأنزل عليه كتابه، فهداهم بذلك إلى الإيمان، الذي هو السبيل الوحيدُ إلى أن ينالُوا سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونجاتهم من الشقاء والعذاب. ولَعَلِمُوا فضْلَ الرسول ﷺ عليهم، إذْ حمَلَ إليهم الرِّسالة، وأدّى الأمانة، ولم يأْلُهُمْ نُصْحاً، وكان بهم رؤوفاً رحيماً.

ويدخُلُ في قسم المسلمين المنتسبين من كان يؤمن ببعض عناصر الإيمان، إلاّ أنّ الرؤية لديْه لم تشمَلْ كُلَّ عناصر الإيمان حتّىٰ يؤمن بها، ومع ذلك فقد أعلن إسلامه صادقاً بإعلانه، ولكِنْ بمعنى الاستسلام والانقياد والطاعة لأحكام الإسلام وشرائعه ونظمه، لا بمعنى الإسلام النابع من القاعدة الإيمانيّة الكاملة، والمرتكز عليها.

والمنتمون إلى الإسلام على معنىٰ الطاعة والانقياد دون أن يكون إسلامهم قائماً على قاعدة إيمانيّةٍ صحيحةٍ كاملة متفاوتون فيما بينهم، فهم على درجات متفاضلات:

الدرجة الأولى: يحتلُّها الملتزمون كاملو الالتزام بالطاعة والانقياد، وفق مقتضىٰ إعلانهم.

الدرجة الثانية: يحتلُّها الذين هم بين بيْن.

الدرجة الثالثة: يحتلُّها الذين يقلُّ التزامهم جدّاً، وتكثُر مخالفاتهم، وتجاوزاتهم حدود طاعة الله ورسوله.

وكثيراً ما يسقُط المسلمون المنتسبون لدى امتحانهم بالدعوة إلى الجهاد بالأموال والأنفس، لأنّ الصدق في هذا الجهاد لا بدّ أن يعتمد على صدق الإيمان بالله واليوم الآخر.

ويدخلُ في هذا القسم وارثو الإسلام، الذين لم يدخل الإيمانُ بعْدُ في قلوبهم، إنّ إسلامهم إسلامٌ وراثيٌّ يكادُ يكون جَبْريًّا لا اختياريًّا، إنّهم وارثو الانتساب إليه. كما ورثوا من آبائهم الانتساب إلى قومهم وعشيرتهم، وكما ورثوا الانتماء إلى وطنهم الذي وُلِدُوا ونَشَؤوا فيه، ولا يكون إسلامُهُمْ إسلاماً كاملاً نابعاً من القاعدة الإيمانية ومرتكزاً عليها حتّى تتّضِحَ لهم رؤْيةُ عناصر القاعدة الإيمانيّة، وحتّىٰ يؤمنوا بها إيماناً لا ريب

فيه، ثم يكون إسلامهم بعد ذلك انتساباً إرادياً اختيارياً مستنداً إلى قاعدة إيمانهم.

إنّ الذين ورثوا الانتساب إلى الإسلام من أسرهم وبيئاتهم، فأعلنوا أنهم مسلمون، ولمّا يدخُل الإيمان في قلوبهم، إذْ لم تتّضِحْ لديهم بعْدُ الرؤْية الحقيقيّةُ للقاعدة الإيمانيّة وعناصرها، يشبِهُ حالُهم حالَ الأعراب الذين وصفهم الله بقوله:

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴿١٤﴾﴾.

إنّ انْتِسَابَهُمْ إِلَىٰ الإسلام ليس انتساباً كاذباً حتّى يكونوا منافقين كافرين في بواطنهم، مخادعين بالانتساب إلى الإسلام في ظواهرهم، وهم كذلك ليسوا بمؤمنين في قلوبهم، وليسوا أيضاً بكافرين على معنى أنهم يجحدون ويُنْكِرُونَ عناصر القاعدة الإيمانيّة مع علمهم بها. إنُّهم ما داموا كذلك فهم في منزلةٍ وُسْطَى بين الإيمان والكفر.

لكنّهم لا يمْكِنُ أن يستمرّوا في هذه المنزلة، بل لا بُدَّ أن تتوارد عليهم أدلّةُ الإيمان، ثم هم بعد ذلك:

* إمّا أن يؤمنوا وتطمئنّ قلوبهم، وعندئذٍ يرتبطُ إسلامهم بإيمانهم، ويكونُ إسلامُهم مظهراً من مظاهر إيمانهم، وثمرةً من ثمراته.

* وإمّا أن تغلبَ عليهم الشكوكُ، وتلْعَبَ بهمُ الأهواء، وتجتالهم شياطين الإنس والجنّ، ويرفُضُوا الإيمان بعناصر القاعدة الإيمانيّة، بعد علمهم بها، وعرض أدلّتها البرهانيّةِ عليهم.

وعندئذٍ يُحكَمُ عليهم بأنّهم كافرون، فإنْ صرّحوا بكفرهم كانوا مرتدّين، كما حصل لبعض الأعراب الذين ارتدّوا، وإنْ حافظوا على مظهر الانتساب إلى الإسلام خوفاً أوطمعاً، أو رغبة في الإفساد وهم داخل صفوف المسلمين كانوا من زمرةِ المنافقين.

ويدخل أيضاً في قسم «المسلمين المتسبين» الذين لمّا يَدْخُلِ الإيمان في قلوبهم، بعضُ المؤلفة قُلوبُهم، فقد أُطْلِقَ هذا الاسم على قومٍ انتسبوا إلى الإسلام غير منافقين، ولكنّ الإيمان لم يدخلْ بعْدُ في قلوبهم.

وهؤلاء قد أذن الله عزّ وجلّ بتأليف قلوبهم عن طريق بذل المال لهم ولو من الزكاة، إذا رأى حاكم المسلمين أنّ في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين.

وأُطلق عنوان «المؤلفة قلوبهم» على قومٍ لم يتّببّوا بَعْدُ إلى الإسلام، وأراد الرسولُ ﷺ تأليف قلوبهم، فأعطاهم ممّا لديه من الأموال العامّة، فألَّف بذلك قلوبَهُم وقلوبَ أتباعهم، رجاء أن يدخلوا في الإسلام.

وربّما أُطْلِق هذا العنوان أيضاً على قوم يُعْطَوْنَ من الأموال العامّة ليقوموا بخدمات كبيرةٍ للمسلمين، كالدفاع، ومقارعة الأعداء في الثغور، وكجمع الصدقات من أقوامهم وجماعاتهم.

وقد كان من المؤلفة قلوبهم في عصر الرسول ﷺ وقد أسلموا وأعطاهم الرسول:

«أبو سفيان بن حرب ـ عُيَيْنَةُ بْنُ بدر ـ الأقرعُ بن حابس ـ عبّاسُ بْنُ مِرْدَاس ـ عَلْقَمَةُ بْنُ عُلاَثَة».

وكان من المؤلفة قلوبهم في عصر الرسول ﷺ وهم لم يُسْلِمُوا بعْدُ، وأعطاهم الرسول تأليفاً لقلوبهم: «صفوان بْنُ أُمَيَّة» وقد أعطاه الرسول ﷺ من غنائم حُنَين مائة من الإبل، وكانَ قد شهدَ حُنَين وهو مُشْرِك.

روى مسلمٌ والإمام أحمد والترمذي عن صفوان بْنِ أميّة قال: «أعطاني رسول الله ﷺ يوم حُنين، وإنّهُ لأبْغَض النّاسِ إليّ. فما زال يعطيني حتّى إنّهُ لأحبُّ النّاسِ إليّ».

من هذا يتبيّن لنا أنّه قد كان معروفاً بين أهل الصدر الأول وجود قسم من المسلمين غير قسم «المسلمين المؤمنين» وهم قسم «المسلمين الّذين لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم» وقد يطلق على بعض أفراد هذا القسم وصف «المؤلّفة قلوبهم».

وقد بدا لي أن يُطلق على هذا القسم عنوان «المسلمون المتسبون» فإذا أضفنا إلى هٰذين القسمين قسم «المسلمين المنافقين» كانت الأقسام ثلاثة:

(١) المسلمون المؤمنون.

(٢) المسلمون المتسبون.

(٣) المسلمون المنافقون.

وتأكيداً لوجود الفرق بين «المسلمين المؤمنين» و«المسلمين المنتسبين» في بيانات الرسول ﷺ، نستشهد بما كان الرسول ﷺ نفسه يفعله من تفريق بين لفظتي: «مؤمن ومُسْلِم» إذْ كان لا يطلق لفظة «مؤمن» على من علم أنّ الإيمانَ لم يدخُلْ بعْدُ إلى قلبه، وإنما يُطْلق عليه لفظة «مسلم» كما طلب منه أن يقول للأعراب الذين لمّا يدخل الإيمان إلى قلوبهم، وكان يُرْشِدُ أصحابه إلى ما ينبغي أن يطلقُوه على الناس من هاتَيْن اللفظتين حينما يريدون وصفهم بهما أو بإحداهما.

روى الإمام أحمد عن سَعْد بن أبي وقّاصٍ ــ رضي الله عنه ــ قال:

أعطى رسول الله ﷺ رجالاً، ولم يُعْطِ رجلاً منْهُمْ شيئاً، فقال سَعْدٌ: يا رسول الله، أعطيتَ فلاناً وفُلاناً، ولَمْ تُعْطِ فلاناً شيئاً، وهو مؤمن.

فقال النبيُّ ﷺ: «أو مُسْلِم».

حتّى أعادها سَعْدٌ ــ رضي الله عنه ــ ثلاثاً، والنبيُّ ﷺ يقول: «أو مُسْلِم».

ثمّ قال النبي ﷺ:

«إنّي لأُعْطِي رجالاً، وأَدَعُ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إليَّ مِنْهُمْ فلَمْ أُعْطِهِ شَيْئاً مَخَافَةَ أَنْ يُكَبُّوا فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوههم».

فهذا رسولُ الله يُفَرِّق بيْنَ لفظة «مؤمن» ولفظة «مسلم» وذلك لأنّه ما دامت كلمة «مؤمن» تفيد أنّ من تُطْلَقُ عليه قد دخل الإيمان في قلْبِه واستقرّ، وما دامَ سَعْدٌ لا يعْرِفُ ما في القلوب، وإنّما يَطّلعُ على الظواهر فقط، فقد علّمه الرسول ﷺ أن يشهد بما يعْلَمُ، ويَسْكُتَ عمّا لا يعْلَمُ، إنّه يعلَمُ عن الرجُل إسلامه، فليقل عنه: هو مسلم، ويجهل صدق إيمانه فلا يقُلْ عنه: هو مؤمن.

ولا يدُلُّ هذا الإرشاد النبويُّ على أنّ الرجُلَ المتحدّث عنه لم يكن مؤمناً، بل يدلُّ على أنّه لا ينبغي للمسلم أن يحكُمَ بما لا يعلَمُ.

على أنّه يكفي للحكم بالإيمان الدلائل التي تُعْطِي غلبةَ الظّنّ، وهو ما أرشدنا الله عزّ وجلّ إليه بقوله في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ . . . ﴿١٠﴾ ﴾.

فقد أذن الله عزّ وجلّ في هذه الآية للمؤمنين بأن يحكموا بإيمان من دلّتهمُ الدلائل الظّنّيةُ المرجّحةُ على أنهم مؤمنون، وبغيَةَ الوصول إلى هذه النتيجة أرشد الله إلى امتحان من يراد الحكم له بالإيمان، وسمّى ما يتوصّلُ الممتحنون إليه من غلبة الظّنّ علماً.

أمّا العلم اليقينيُّ بإيمان آحاد الناس، فلا يستطيع الناس التوصُّل إليه بحسب العادة إلاّ عن طريق خبر الوحي، وذلك لأنّ الإيمانَ من صفات القلوب، وما في القلوب لا يعْلَمُه بيقينٍ إلاّ الله علاّم الغيوب، ثم من اصطفاهم الله بالوحي، أو أعطاهم قدرة الاطلاع على ما في القلوب كالملائكة، ولذلك جاء في الآية قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ جملةٌ اعتراضيّةٌ ضمن التوجيه لامتحانِهِنَّ والحكم عليهنّ بالإيمان بعد الامتحان.

ونتساءل: هل يبقى «المسلم المنتسب» على حالته الوسطىٰ طوال حياته حتّىٰ يلقىٰ ربّه؟

وأرىٰ في الجواب ما يلي:

* إنْ كانَ توقُّفُه عن الإيمان ناشئاً عن جهلٍ وهو يبحث عن الحقّ، فسيكشف الله له من الأدلة والبراهين ما يهديه إلى الحقّ.

هذا ما جرت به سنّة الله تعالى في خلقه، وهو ما تقتضيه حكمته، وحين ينكشف له الحقُّ الذي يطلُبُه، فسَيَكُونُ من المسلمين المؤمنين، وعندئذٍ تتِمُّ المواءَمَةُ بيْنَ ما أعْلَنَهُ وما اطمأنّ إليه قلبه.

* وإنْ لم يكُنْ كذلك، فسيَجِدُ نَفْسَه في ظروف الحياة الدنيا يتقلّبُ بامتحانات الله له في السّرّاء والضّرّاء، حتّى يُحدِّدَ سبيلَهُ:

(١) فإمّا أن يجْحَد الحقّ بقلبه، ويبقىٰ في ظاهره مسلماً، وحينئذٍ يوسَمُ بميسَمِ النفاق.

(٢) وإمّا أن يَجْحَدَ الحقّ بقلبه، ثمّ يُعْلِنَ ذلك بلسانه وأعماله، وحينئذٍ يكون من المرتدّين عن الإسلام، وهذا ما حصل للأعراب الّذين ارتَدُّوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، إذْ كانُوا في الغالب من قسم «المسلمين المنتسبين» الّذين أسْلَمُوا طاعةً وانقياداً، ولم يكن قد دخل الإيمان إلى قلوبهم.

(٣) وإمّا أن يدخل الإيمان إلى قلبه، وعندئذٍ تتِمُّ المواءمة بين ما كان أعلنه من الإسلام، وما اطمأنّ إليه قَلْبُهُ من الإيمان.

ومن المستبعد جدًّا أن يظلّ طَوال حياته على حالته الوسطى، مسلماً منتسباً فقط، باستثناء من تعاجله منيّته قبل أن تمرّ عليه مدّة كافيةٌ للتأمُّل والرّوِيّةِ والتقلُّب في وُجُوه الامتحانِ بالسرَّاء والضرَّاء.

* * *

القسم الثالث:

المتظاهرون بالإسلام كذباً وزوراً، وهم الذين يُطْلَق عليهم عنوان «المنافقين».

إنّ إسلام أفراد هذا القسم إسلامٌ مزيَّف، إسلامُ من هو في داخله كافِرٌ جاحدٌ لعناصر القاعدة الإيمانيّة في الدين الإسلاميّ كُلِّها أو بَعْضِها، أو هو غير مكترث لها، ولا ملتفتٍ إليها، ولا باحثٍ عنها، فهو لا يؤمن بها لأنّها لا تخطُر له على بال، ولا يُعِيرُها شيئاً من اهتمامه، ولا يُريد ذلك، إنّه لا يريد إلاّ مطالب نفسه وشهواته من الحياة الدُّنيا.

لقد رأى المسلمينَ ومَا لَهُمْ من قُوَّةٍ وَمَنعةٍ، ورأى ما يُمْكِنُ أن يَغْنَمَهُ من مغانمَ ومنافِعَ عن طريقهم، أو خاف على بعض مصالحه إذا أعلن أنّه غير مسلم، أو أراد بالإسلام والمسلمين كيداً وهو ضمن جماهير المسلمين لا ترقُبُهُ العيون، لما يُضْمِرُ من عداوَةٍ شديدةٍ أَوْقَدَ نيرانَها في قَلْبِهِ وَلاؤُهُ السابقُ لغيره من المِلَلِ والنِّحَلِ، كحال المنافقين من اليهود والنصارى والمجوس، فبَدا لَهُ أنْ يتظاهر أمام المسلمين بالإسلام كذِباً وزوراً، وأنْ يُعْلِنَ قَبُولَهُ للإسلام، وإيمانَهُ بأركان الإيمان، ويَشْهَدَ الشهادة الّتي يَدْخُلُ بها ضِمْنَ جماعةِ المسلمين.

ويُضْطَرّ بعْدَ هذا الإعلان أن يشاركَ المسلمين في أعمالهم الظَّاهرة، من عبادات وغيرها، وهو في كلّ ما يقوم به من أعمالٍ إسلاميّة الظّاهِرِ مخادعٌ كذّاب.

إنّ إسلام هذا القسم المتظاهر بالانتماء إلى جماعة المسلمين والمتظاهر بقبوله لعقائد الإسلام وشرائعه، وهو كذّابٌ مخادع مُرَاءٍ بما ليس هو من حقيقته، يرجع إلىٰ الأسباب التالية كلّها أو بعضها:

السبب الأول: الرَّغْبَةُ في الحصول على منافع ومطامع دنيويّة ينالها بإسلامه، ودخوله ضمن جماعة المسلمين.

السبب الثاني: الخوفُ من سُلْطانِ المسلمين وقُوّاتهم الفاتِحةِ المنتصرة، والخوفُ على فوات مصالح كان يستفيدها في بَلَدِه، إذا هو أصرَّ على كفره ولم يُسْلِم.

السبب الثالث: إرادةُ الكيد والإفساد والإضرار بالإسلام والمسلمين، دون أن يكون مُرَاقَباً من قِبَلِ المؤمنين الصادقين، لأنّه بحسب الظّاهر وَاحِدٌ مِنْ جماعَةِ المسلمين.

هذا القسم هو في حقيقته كافرٌ، إلّا أنّهُ أسْوَأُ حالاً، وأشْنَعُ طَرِيقةً من الكافرِ الصريحِ المجاهر بحالِه، الكاشف خبيئَةَ نَفْسِه، وهو أشدُّ ضرراً، وأَبْلَغُ أثراً، وأعظَمُ خطراً على الإسلام والمسلمين من الكافرين الذين يعلنون كفرهم وعداوتهم.

وسيأتي ــ إن شاء الله ــ مزيد شرحٍ وتفصيلٍ وتقسيمٍ لهذا القسم، وهو المعنيُّ بهذا الكتاب.

• • •

الفصل الثالث

الكُفْرُ وَالنِّفَاقُ

أولاً : الكفر

(١)
تمهيد

كتبتُ في كتابي «صراع مع الملاحدة حتى العظم» فصْلاً مُوسّعاً حول الكُفْر والكافرين، فأحيل القارئ عليه، وعلى ما جاء أيضاً في كتابي «العقيدة الإسلامية وأسسها».

وأُوجزُ هُنا ما لا بُدّ منْهُ للمناسبة التي جرّتْها طبيعةُ التعريفاتِ المراد منها تمييز المصطلحات للكلمات التاليات «الإيمان ــ الإسلام ــ الكفر ــ النفاق» بعضها من بعض، وسيلةً لبيان حقيقة النفاق وعناصره الظاهرة والباطنة، وحقيقة المنافقين وصفاتهم ومكايدهم، باعتبار أنّ موضوع النفاق والمنافقين وما يجب على المسلمين المؤمنين تجاههم هو مقصود هذا الكتاب.

* * *

(٢)
تعريف الكفر

أَصْلُ معنى الكُفْر في اللّغة التغطية والسَّتْرُ الكامل، يُقالُ لُغَةً: كَفَرَ الشَّيْءَ كَفْراً، وكفَرَ عَلَىٰ الشّيءِ كَفْراً، وكَفَّرَ الشَّيْءَ تَكْفِيراً إذا سَتَرَهُ وغَطَّاهُ، وكَفَـرَ التُّرَابُ مَـا تَحْتَهُ إذا غَطّاه، ويُقَالُ: تَكَفَّرَ بالشَّيْءِ إذا تَسَتَّر وتغطّىٰ بـه، ويُقَالُ: تَكَفَّـرَ في سِلَاحِهِ إذا دَخَلَ فيه.

ويقال للابس السلاح الذي غطّاه السلاح تغطيةً كاملةً كافر، لأنّه سَتَر جِسْمَهُ بِهِ سَتراً كامِلاً.

ويقال للزارع أيضاً: كافر، لأنّه يدفن الحبّ في الأرض فيغطّيه بالتراب تغطيةً كاملة، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ... ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: اعجَبَ الزُرّاع نَباتُه.

ويُقَالُ للَّيل المظلم: كافر، لأنّه يستُرُ بظُلمتِهِ كلَّ شيء.

وهكذا تَدُور الكلمة في اللّغة حول معنى السُّتر والتغطية.

واستُعْمِلَتْ هذه المادّة اللّغويّة في الاصطلاح الديني للدلالة على ما يُقابلُ الإيمان، وعَلَى ما يُقَابِلُ الإسلام، فمن أبىٰ أن يؤمن بأركان الإيمان بعْدَ أن وضَحَتْ لَهُ أدلّتُها فهو كافر، ومن أَبَىٰ أن يُسْلِمَ للّهِ ورسُولِهِ بعد أن وضَحَ له صدْقُ ما جاء عن الله من دينٍ فهو كافرٌ.

ورُبَّما تكونُ المناسبة بين المعنى الدينيّ والمعنَىٰ اللُّغوي للفظة الكُفْر ومشتقاتها أنّ الجاحِدَ المنكِرَ لحقيقَةٍ من الحقائِقِ التي يجب الإيمانُ بها في الدين، والمنكر لحقّ الله على عباده في الطاعة لأوامره ونواهيه، والإسْلام له في أحكامه وشرائعه وتعاليمه ووصاياه، هو في حقيقة أمْرِه ساترٌ للبراهينِ وَالأدلّةِ الدامغةِ له، التي أثبَتتْ لَهُ حقائق عناصر الإيمان التي جَحَد بِها كلّها أو بعْضِها، والتي أثبَتَتْ لَهُ حقّ الله عليه في الطاعة، أو في إفراده بالعبادة، في كلِّ عناصر الإسلام أو بعضها.

ولكونه ساتراً هذه الأدلّة والبراهين، وبانياً إنكاره عَلَىٰ أنّ الأدلّة لم تكن كافيةً لإقناعِهِ حتى يؤمن ويُسْلِمَ، كان من المناسب أن يُسَمَّى كافراً، ويُسَمَّى عمله كُفْراً، ثُمَّ أُطْلِقَ الكُفْر على اعتقاد بطلان قضيّةٍ ما بالحق أو بالباطل.

إنّ الإيمان ـ كما سَبَق ـ عِمادُهُ التّصديقُ الإراديُّ القلْبِيّ، والاعترافُ والتسليمُ بمَا أمر الله بالإيمان به، فالكُفْرُ المقابلُ للإيمان لا بُدّ أن يكونَ عِمادُهُ رفضَ التّصديقِ والاعتراف والتّسْليم، بحركةٍ إراديّةٍ داخليّةٍ، ومَسْؤوليّةُ المكلّف عن اختياره الكُفْرَ إنّما

تكونُ بعْدَ وُضوحِ الأدلَّةِ لهُ الّتي تُلْزِمُهُ بالإيمان، وربّما تكون الأدلة ملزمة لـه بأنْ يكْفـرَ بالباطل، فيجب عليه عندئذ أن يكفرَ به.

وكـلّ إيمانٍ بشيءٍ يستَلْزِمُ عَقْـلاً الكفرَ بنقيضِـه، لذلِـكَ كـانَ كـلُّ مؤمنٍ بـأركـان العقيدة الإسلاميّة وعناصرها الجزئية، كافراً بنقيضها، وبمستلْزَماتِ هـذا النقيض، ومن ذلك كان الإيمانُ بالله يقتضي الكُفْرَ بالطاغوت اقتضاءً حَتْمِيّاً، وفي بيـان هذا يقـول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦ ﴾.

إذن: فـلا يتمُّ إيمانُ المؤمنِ بـالله وبكلِّ مـا صحَّ وثبت عن الله حتّى يكْفُـرَ بكُـلّ الطواغيت، ومن أجل ذلك اشتملت عبارةُ التوحيد على السَّلْبِ أوّلاً فالإيجاب ثانياً.

إنّ جُملةَ «لا إِلَـهَ إلاّ الله» تشتمل أوّلاً على الكُفْـرِ بكلِّ إلَـهٍ سِوَىٰ الله عـزّ وجلّ، فعَلَىٰ الإيمان باللّهِ وحْدَهُ لا شريكَ له.

أمّـا غيرُ المؤمنين بـأركان العقيـدة الإسلاميّـة إيمانـاً كامـلاً صحيحاً فقـد عَكَسُوا القضيّـة، فآمَنُوا بالبـاطل وكفَـرُوا بالحقّ، سـواء أكان ذلـك بصفةٍ كُلّيّةٍ لجميع أركـان العقيدة الإسلاميّة، أو بصفةٍ جزئيّة.

ولمّـا كان الإسـلامُ وهو قبـولُ مبدأ الاستسـلام ومبدأ الـطاعَةِ لله ورسـولـه، بـلا استكبـارٍ ولا رفضٍ ولا اتّهامٍ لحكمـة الله في أوامره ونـواهيه، من العنـاصر الأسـاسيّةِ للدُّخـول في دين الله، كانَ رَفْضُ إعـلانِ الإسلام دون عـذْرِ الإكْراهِ أو الجهـلِ كُفْـراً، وكانَ رَفْضُ قبولِ مبْدأ الطّاعَةِ لله ورسوله كفراً، وكانَ الاسْتِكْبَارُ على طاعَةِ اللّهِ ورسُولِهِ كُفراً، وكانَ الطّعْنُ أو الشّكُّ في حكمة الله في أوامره ونواهيه كُفراً، وكان إنكارُ حقِّ الله على عباده في أن يُطيعُوهُ ولا يَعْصُوهُ في أوامره ونواهيه كُفراً.

فالكُفْرُ إذنْ لَهُ صورتان:

الصورة الأولى: تكون بإنكار أي شيءٍ ممّا يجب الإيمان بـه في الإسلام، بعـد العلْمِ به وبدليلِ أنه حقّ.

الصورة الثانية: تكون برفض الاستسلام لله ورسوله، أو رفض طاعتهما، استكباراً، أو عناداً، أو شكّاً في حكمة الله بأوامره ونواهيه، وهذه الصورة تظهر بكفر إبليس ظهوراً واضحاً، لأنّه قد كان مؤمناً بربّه، إلاّ أنه كان مستكبراً، وطاعناً في حكمته، وجاعلاً الأسباب التي هي من خلْقِه ذاتَ أثرٍ على أمْرِهِ ونهيه.

وتَدُلُّ على هاتين الصورتين دلائلُ من القولِ أو العمل، فتعْتَبَرُ الأقوال أو الأعمال الدّالّةُ علىٰ أيّةِ صورة منهما من المكفّرات.

فمن أنكر وجود الرّبّ الخالق الرازق المحيي المميت، أو جحدَ شيئاً من صفاته الثابتة، أو أسمائه الْحُسْنَىٰ الثابتة، فهو كافر.

ومن أشرك بربوبيّة الله فزعم أنّ شيئاً في الوجود يُشارِكُ الله في الْخَلْق والتدبير، والحياة والموت والرزق، والنَّفع والضرّ، وغير ذلك من خصائص الربّ الخالق، فهو كافر.

ومن أشرك بالوهيّة الله، فزعم أنّ أحداً غير الله يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَدَ من دون الله، أو عَبَدَ مع الله إلَهاً آخَرَ، أو تَقَرَّبَ إلى غير الله عزّ وجلّ بالعبادة، فهو كافر.

ومَنْ أنكر الإسلام، ولم يقبل ما جاء فيه من عقائد أو شرائع أو أحكام ثابتة فهو كافر.

ومَنْ أنْكَرَ شيئاً ما قد ثبت في الإسلام بصِفَةٍ قَطْعِيَّةٍ فهو كافر، لأنّ هذا الإنكار جحودٌ بدينِ الله، وتكذِيبٌ لرسول الله فيما جاء به عن ربّه، ولا بُدَّ أن نعلَمَ أنّ جحود بعض اليقينيات الدينيّةِ يكفي للحكم بالكُفر، ولا يتوقّفُ الحكْمُ بالكُفْرِ على إنكار الدِّين كُلّه، إذ الإيمانُ كلٌّ لا يقْبَلُ التفريق بين أجزائه، والعقيدة الإسلامية متماسكة الأركان، مترابطة العناصر ترابطاً تامّاً من جميع الأطراف، كما سبق بهذا البيان، فمن أنكر بعضها ممّا هو ثابت بيقين، فهو بسبب ذلك كافر.

ومَنْ كذَّبَ الرّسولَ بشيْءٍ قد ثبتَ عنْهُ يقيناً فقد كَفر بنُبُوّته، ومن كفَرَ بنبُوّة الرسول فقد كذّبَ شهادة من أرسلَهُ، وهكذا تَتَسَلْسَلُ نواقضُ عناصر الإيمان حتّىٰ تَصِلَ إلى الجذر الأساسيّ فتنقُضَهُ، وهذا هو الكُفْرُ الأكبر.

ومن رفض طاعة الله في أَمْرٍ ما من أوامره، أو نهي ما من نواهيه، استكباراً، أو عناداً، أو شكّاً في حكمته سبحانه وتعالى، فهو كافِرٌ ككُفْرِ إبليس، حين رفض أنْ يسجد لآدم.

أمّا من عصىٰ مع الاعتراف بحقّ الله عليه في الطاعة ومع الاعتراف بذنبه، وبأنّ غلبته شهوته أو هوى نفسه، فإنّه عاصٍ فقط، وليس بكافر، كما عصى آدم وزوجه فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن أن يأكُلا منها، فاعترفا بالمعصية، واستغفرا ربّهما فتاب الله عليهما.

ومن زعم أنّ حُكمَ غير الله أحكَمُ وأعدلُ وأصْلَحُ من حُكْم الله الذي أنزله في شريعته لعباده فهو كافر.

ولا يَحْمِلُ النّاسَ على تطبيق قانون عامّ منافٍ لحُكْم اللّهِ القطعيّ ومباينٍ له، إلّا مَنْ يَزْعُمُ أنّ ما حَمَلَ النّاسَ عَلَيْهِ من قانونٍ بشريّ وضْعِيٍّ هو احكم وأعدلُ وأصلَحُ للناس من حُكْم الله الّذِي أنزلَهُ في شريعته لعباده، إلّا أنْ يكونَ مُكْرهاً، أو مؤثراً لمصالحه الدنيوية في أن يكون سلطاناً، وهو يخاف على سلطانه من الزوال على أيدي قُوىً ذاتِ هيمنَةٍ في العالم.

ومن تحاكم إلى القوانين البشريّة المنافية لحكم الله وشريعته ظانّاً أنّها أعدلُ من حُكْمِ الله فهو كافر.

ومن جَحَدَ وُجُوبَ رُكْنٍ ما من أَرْكانِ الإسلام الخمسة فهو كافر.

ومن أنكر شيئاً ما معلوماً من الدّين علماً عامّاً يشترك به العامّةُ والخاصّة (وهو ما يعرف بأنه معلومٌ من الدين بالضرورة) فهو كافر.

ومن قال قولاً، أو فعل فِعْلاً، يَدُلّ على حالةٍ نفسيّةٍ توقع في الكُفر، كان قوله أو فعله من المكفّرات القوليّة أو الفعليّة، كَشَتْمِ الخالق جلّ وعلا، وكَسَبِّ الرسول ﷺ، وكامتهان كتاب الله القرآن بعملٍ يُشْعِرُ بالكُفْرِ به، أو بالغيظ منه، أو يُشْعِرُ برفضِهِ، أو احتقار ما فيه، وكتعليق الصليب على الصَّدْر، وتقبيله وتعظيمه، وكالسجود للأوثان أو تعظيمها، وكتقريب القرابين لأرواح القدّيسين، وكالسجود لأضرحة الموتى

تعظيماً لهم، وكدُعائهم وسؤالهم مثل سؤال الله عزّ وجلّ.

إلى غير ذلك من أمور كثيرة يصعُبُ إحصاءُ أفرادها.

* * *

(٣)
الكفْر دركات

لا يقَعُ الكُفْر كلُّه في دركة واحدة، بل له دركاتٌ بعضها أحطُّ وأخسُّ من بعض، وتتنازل الدركات حتى يكون صاحب الدركة السُّفلى في الدرك الأسفل من النّار.

وتنحطُّ دركاتُ الكُفر بمقدار زيادة الجحود والإنكار والمعاندة، وكثرة الطغيان وفعل الشرّ، والتلوُّنِ والاحتيال، وتحدّي الرّبّ الخالق في جَبَروته، ومُقاوَمَةِ دينه الذي أنزله، ورُسُلِهِ الذين أرسلهم مبلغين داعين هادين مبشّرين ومنذرين.

وبعض الكفر أخطر من بعض وأشدُّ ضُرّاً وشرّاً، فالجاهل المنكر أهون شرًّا من العالم المعاند.

وصاحب الدين المشرك أخف خطراً من الزنديق الذي ليس له دين يخفّف من غلواء شره.

ومن له دين ما ولو كان وثنيّاً أقلُّ خبثاً وشرّاً من الملحد الذي لا يرى الوجود إلاّ مادّةً مُتطوّرة، ولا يَرَىٰ من وراء الحياة الدنيا إلاّ عودة المادّة إلى ما كانت عليه، فليس في الوجود بزعمه خالقٌ يبتلي ويَعْلَمُ، ثمّ يُحاسِبُ ويَحْكُمُ، ويجازي ويعدل.

والمجاهر بكفره الذي نراقبهُ فنحذرُ شرَّه أقلُّ أذىً وإضراراً من المتستّر المنافق، الذي يخفي نفسه بقناع التظاهر بالإسلام، لذلك كان المنافق في أسفل الدركات، وكانت عقوبتُهُ أن يكون منزله يوم الدين في الدرك الأسفل من النار.

وأخفّ أنواع الكُفرِ الشّرْكُ باللّهِ في عبادته، مع الإيمان به ربّاً خالقاً لا شريكَ لَهُ في ربُوبيّته، وقد دلّ على هذه القضيّة قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

والكافرون جميعاً مخلّدون يوم الدين في دار العذاب، وإن تفاوتتْ دركاتُ عذابهم، وكان بعضهم أشدّ عذاباً مِنْ بعضٍ، على مقدار كُفْرِهم، وما فَعَلُوا من شرور وجرائم في الحياة الدنيا.

● ● ●

ثانياً: النفـاق

(١)
تعريـف النفـاق

النفاق: اسم إسلاميٌّ لم تعرفه العرب بمعنى التظاهر بالإسـلام، وادّعاء الإيمـان كذباً ومخادعةً للمؤمنين، مع إبطان الكفر وعدم الإيمان.

وعلى هـذا المعنى الإسلامي تُسْتَعْمَـل مشتقاتُ هـذه المـادّة اللّغـويـة، فيقـال: نافق، ينافق، منافقةً، ونفاقاً، فهو منافق.

وأصل هذه المادّة اللّغوية معروف بغير هذا المعنى الإسلامي:

فالنَّفَقُ هو السَّرَبُ في الأرض النافذ إلى موضعٍ آخر، والـداخل فيـه يستتر بـه، وجمع النفق أنفاق، ومنـه قول الله عزّ وجلّ لـرسولـه في سورة (الأنعـام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

والنـافِقاءُ والنُّفَقَـةُ جُحْرُ الضبِّ والْيَـرْبُوع، والمعـروف عنـد العـرب أنّ اليربـوع إذْ يتّخـذ لنفسه نفَقـاً في الأرض يجعل لهـذا النَّفق مَخْرَجَيْن أو أكثـر، فهو يستـطيع أن يهربَ من أيّ واحدٍ منهما، وأحَدُ هذَيْنِ المخرجين لا يجعله نافذاً إلى سـطح الأرض، بل يكتُمُه بمقدارٍ رقيقٍ من التراب، فإذا لحقه الطُّلَبُ من جهةٍ فـرّ من الجهة الأخرى، ويسْهُلُ عليه ضربُ المنفذ المستور برأسه ضربة يسيرةً ينهالُ بها التراب الرقيق، فيخرجُ فارّاً.

ويُسمِّي العربُ المنفذَ المستورَ من نفَقِ اليربوع «نافقاء» والمنفذ المفتوحَ منْهُ «قاصعاء».

وربّما كانت تسمية المنافق في الدّين منافقاً تشبيهاً له بما يفْعَلُه اليربوعُ في حيلته هذه التي يسْتُرُ بها منافذَ هَرَبه.

فتعريف النفاق وفق المعنى الإسلامي: هو إظهار الإسلام باللّسان، وادّعاءُ الإيمانِ كذباً وزوراً ومخادعةً للمؤمنين، مع إبطان الكفر بكل أركان القاعدة الإيمانية، أو ببعض منها ممّا يجعل جاحده كافراً، ويدلُّ على النفاق أن يدّعي الإنسان الإسلام ولا يعمل به، روى ابن جرير عن حذيفة أنّه قيل له: مَا النفاق؟ قال: الرَّجُلُ يتكلَّمُ بالإِسْلاَم ولا يَعْمَلُ به.

وهذا الوصف ينطبق على أقسام من الناس:

* إنّه ينطبق على من دخل في الإسلام كاذباً بدافع الخوف من المسلمين، أو بدافع الطمع بالمغانم، أو لغرض الإفساد والفتنة والإضرار، أو بغير ذلك من الغايات الدنيويّة، أو الغايات الخبيثة الضارّة.

* وينطبق أيضاً على من أسلم صادقاً أوّل الأمر، ثمّ ارتدّ في نفسه دون أن يعلن ردّته، وبقي متظاهراً بالإسلام، فهذا منافق ذو نفاق طارىء، بعد إسلام لم يكن فيه كاذباً مخادعاً.

* وينطبق أيضاً على من ورث اسم الإسلام وراثة نسبيّةً عن طريق أبَوَيْه أو أحدهما، ولمّا بلَغَ وأدْرَكَ سِنّ التكليف جَحَدَ بقلبه أركان القاعدة الإيمانيّةِ كُلّها أو بعضها، وظلَّ محافظاً في الصورة الظاهرة على أنّه مُسْلِمٌ مُعْلِنٌ إسلامه.

إنّ الإسلامَ لدى هذا الصنف من الناس ليسَ انتماءً إراديّاً، إنّما هو إسلامٌ وراثيّ، يُسايِرُ الواحدُ منهم فيه المجتمع بإطلاق اسم «مسلم» عليه، دون أن يكون في ذاته قد أسلم حقّاً بإرادته بعد معرفته الإسلام.

ونظراً إلى أنّه يُبْطِنُ الكُفْر، إذْ يَجْحَدُ أركان الإيمانِ كلّها أو بَعْضَها، أو يأبَى أن يكون مسلماً لله ورسوله مطيعاً، فهو منافق.

إنّه لا يُرِيدُ أنْ يمْسَحَ عن نفسه الاسم الدينيّ الذي ورثه، مع أنّه يَعْتَقِد عقائدَ مناقضةً لعقائِدِ هذا الدِّين، ولو أنّه أعلَنَ جحوده بالقاعدة الإيمانية كلّها أو بعضها لكان كافراً من أهل الرِّدّة عن الإسلام.

وما أكثر المنافقين الذين يُطْلَق عليهم في البطاقة الشخصيّة اسم مسلم، وهم من هذا القسم!.

* ومن المنافقين قومٌ ورثوا النفاقَ عَنْ أُسَرِهم أو بيئاتهم الخاصة، ومن هؤلاء أُسَرٌ وجماعات يهوديّةٌ تظاهرت بالدخول في الإسلام، وظلّت هذه الأُسَرُ والجماعات محافظةً على يهوديّتِها سِرّاً، وصارت ذراريها ترث عنها النفاق، ضمن خطّة كَيْدٍ ضدّ الإسلام والمسلمين، ذاتِ نَفَسٍ طويل، ومن هؤلاء أيضاً أُسَرٌ نصرانيّة أو مجوسيّة، دخلت في الإسلام نفاقاً ضمن خِطّةِ كَيْدٍ مشابهةٍ لخطّة الكَيْدِ اليهوديّة.

* * *

(٢)
النفاق سلوكٌ مركّب

إنّ أبرز ما في النفاق أنّه مَظْهَرٌ من مظاهر خُلُقِ الكذب، على أنّنا لدى التحليل نلاحظ أنّه سلوك مركّبٌ، يرجع إلى عناصر خُلُقِيَّةٍ مُتعدّدة، فإذا جمعنا الجُبْنَ والطَّمَعَ بالمنافع الدنيويّة، وجحود الحقّ، وخُلُقَ الكذب، مع قِصَرِ النظر، تولّد عنها في سلوك الفرد ما نُسمِّيه بالنّفاق، ثمّ يَظْهَرُ نَظِيرُ ذلك في سلوك الجماعة حينما تكون فيها هذه العناصر الخلقيّة المنحرفة عن السبيل المستقيم، أو تسري إليها الْعَدْوَىٰ بالتقليد، أو تتوارثها عن أصولها تأثُّراً بعوامل البيئة، منذ النشأة الأولى.

فلولا أن يكون المنافِقُ جَبَاناً، وصَاحِبَ طمَعٍ شديدٍ بالمنافع الدنيويّة التي يترقّبُها إذا هو تظاهر بالإسلام، لمَا سَلَكَ مَسْلَكَ النّفاقِ، ولمَا كان له وجهان: وجْهٌ مع الكافرين، ووَجْهٌ آخَرُ يُخَادِع به المؤمنين، ولوجَدَ الجرأةَ الكافية على أن يُعْلِنَ جُحُودَهُ للمؤمنين، ويَقِفَ صراحةً في صفّ الكافرين. لكنّ جُبْنَه الشّديدَ يمنَعُهُ من ذلك، فهو يخشى أن يتظاهر بموقفه العدائيّ للمسلمين، كما أنّ طمَعَهُ الشديدَ بمشاركته المسلمين في الغنائم التي يظفرون بها من أعدائهم يجعلُهُ يتظاهر بأنّه منه.

فالجبْنُ والطمع مع خلُقِ الكذب المكتسب ومع قصر النظر من العوامل الرئيسيَّة التي يتولّد عنها النفاق في السلوك الإنساني.

ولولا أن يكون المنافق جَحُوداً للْحَقّ كَنُوداً، مع نـظرٍ قَصِير إلى الوجود والحياة يجعلُهُ يتشبَّثُ بمصالحه ومنافعه القريبة من الحياة الدنيا، لَرَدَعَهُ إيمانُـهُ وحبُّهُ للحقّ عن سلوك مَسْلَكِ النفاق في الدّين.

وذلك لأنّ الذي يُحِبُّ الحقَّ، ويَكْرَهُ الْجُحُودَ، ولا يطِيبُ لَهُ الكُنُودُ، ويكُونُ ذَا نَظَرٍ إلَىٰ الوجود والحياة بعيد، فإنّهُ لاَ يُنافِقُ وإنْ كانَ جباناً أو شديدَ الطَّمعِ، لأنّه سيجد فيما يؤمن به من حقٍّ مخاوفَ تَرْدَعُه عن الباطل، ومطامعَ أجلَّ تجعله يلتزم سبيل الحق والخير، وعندئذٍ يَمْتَصُّ سبيلُ الحقّ والخير الدينيّ جُبْنَه وطمَعَهُ، ولا يبقَى لديه منهما ما يَنْزِع به إلى النفاق الذي يجعل مَصِيرَهُ يوم الدين، في أسفلِ سافلين، وفي الدرك الأسفل من النار.

ولولا أن يكون المنافِقُ كذّاباً ذا قُدْرَةٍ فائقة على افتراء الكذب، وذا قُدْرةٍ فائقة على تَصَنُّعِ الكذِبِ في ظواهر أعماله، حتّىٰ صار خُلُقُ الكَذِب سَجِيَّةً مكتسبةً في نفسه، وشبيهاً بالسَّجايا الفطريَّةِ تَمَكُّناً وعُمْقاً، ومهارةً في السلوك الذي قد لا تَبْدُو عليه أمارات التَّصَنُّع بالكذب، لَمَا طاوعتْهُ نفسه أن يلتزم سبيل النفاق.

وذلك لأنّ النّفاقَ عَمَلِيَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ تَتَضَمَّنُ تَصَنُّعَ الكذب دوامـاً أو في معظم الأوقات، في القول والعمل، وهذا أمْرٌ لا يَسْتطيعُهُ ولا يُحْسِنُهُ إلاَّ كذّابٌ خبيث، مُمْتَهِنٌ لِلْكَذِب، جريءٌ علَيْهِ، وَقِحٌ في الْتِزَامه قادرٌ على أن يَبْهَتَ الناس في وجوههم، وذلك بأنْ يفْتَرِيَ علَيْهِمْ أشياء لم يقولوها ولم يعملوها، وأن يواجههم بها، ويَحْلِفَ على ذلك الأيمان المغلظة، دون أن يَتَلَجْلَجَ أوْ يتلَعْثَمَ أو يتَلَكّأ، وعلى مقدار مهارة المنافق في الكذب يكونُ تعمُّقُهُ في درك النفاق.

فالنفاق خُلُقٌ مُكْتسَبٌ مركّب، وليس خُلُقاً بسيطاً، إنّه طبخَةٌ شيطانيّة مُعقّدة في نفوس المنافقين.

واخفُّ دركات النفاق أن يتخذ المنافق وجهين: يَسْتَعْلِنُ بـأحدهما، فيُرْضِي بظاهرِهِ جماعة المسلمين، كاتماً عنهم الوجه الآخر ويستخفي بالآخر ويتآمر به مع

الكافرين الصُّرحاء، وهو يُخْبِرُهُمْ في السِّرّ أنّه معهم، وأنه يُريد أنْ يتظاهر بالانضمام إلى المسلمين ليخدم بذلك مصالح أعدائهم، دون أن يَحْذَر المسلمونَ مكايده الّتي يُدَبِّرُهَا ضِدّهم وهو ضمن صفوفهم، وهذا الوجْهُ الَّذي يُبِرُّ به لإخوانه الكافرين الشياطين وجْهٌ يَسُرُّهم ويُفْرِحُهُمْ لأنّهم يعتبِرُونه جاسوساً لهم في صفوف المسلمين المؤمنين، وما يُظْهِرُ به من الإسلام إنّما هو مُخَادعةٌ للْمُسْلِمين، بغيةَ خدمة مصالح أعدائهم.

وأشدّ من ذلك المنافق الذي يخادع المؤمنين ويخادع أعداءهم معاً، وهو في الحقيقة لا من هؤلاء، ولا من هؤلاء.

ويُمْكن أن نُسَمّيَ هذا مزدوج النفاق، ويُمكِنُ أنْ نُمَثّلَ لَهُ بيَهُوديٍّ تظاهر بالإسلام ليخادع المسلمين، ثمّ يَخْلُو بالمشركين فَيُبِرُّ لهم بأنّه سَيَخْدُم مصالحهم داخل صفوف المسلمين مُقَابِلَ مَنَافِعَ يَرْجُوها من المشركين، ثُمّ إذا خَلا بإخوانِهِ الشياطينِ من اليهود كشف لهم وجْهَهُ الحقيقيّ، وقال لهم: إنّي منكم، وإنّي أُخادعُ من أجلكُمُ المسلمين والمشركين الوثنيّين بوجْهَيْنِ مختلِفَيْن.

وقد يُوجَدُ مُنَافِقٌ مُثَلَّثُ النفاق، أوْ مُرَبَّعُهُ، أو مُخَمَّسُهُ، أو أكْثَرُ من ذَلِكَ.

وكلّما كانَ المنافِقُ أقْدَر على التلوُّنِ بالألْوانِ المختلفة، والتقلُّبِ بين الوجوه المتضادّة والمتناقضة والمتخالفة، كان أقْدَر علىٰ أنْ يَعْمَلَ في عدّة جهاتٍ متباينات في وقتٍ واحد، وأن ينافقها جميعاً، ويمكُرَ بها جميعاً.

* * *

(٣)

أقسام المنافقين

باعتبار وضعهم عند نشأة نفاقهم

المنافقون ينقسمون باعتبار وضعهم عند نشأة نفاقهم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

منافقون كانت لهم انتماءات غير إسلاميّة سابقة لدخولهم الإسلام، كاليهودية، أو النصرانية، أو المجوسية، أو الوثنيّة، أو الإلحادية.

ثُمّ دخَلُوا الإسلام نفاقاً بتأثير دافع أو أكثر من دوافع النفاق، ولتحقيق غاية أو أكثر من غايات المنافقين.

القسم الثاني:

منافقون كانوا مسلمين غير كاذبين في إعلانهم الإسلام، ثم ارتـدُّوا عن الإسلام سِرّاً، ولم يُعْلِنُوا ردّتهم، فهم كَفَرَةٌ مرتَـدُّونَ باطناً، وينافقون باسْتِبقاء الانتساب إلى الإسلام ظاهراً.

القسم الثالث:

منافقون ورثوا الانتساب إلى الإسلام من أُسَرِهِمْ أو بيئاتهم، ولكنّهم لم يدخلوا في الإسلام على سبيل الانتماء الإرادي، ولَمْ يجْرُؤوا على إعلان رفض هذا الانتساب، أو رأوْا أنّ مصالحهم في مجتمعهم تقضي بالمحافظة على انتسابهم إليه، وهم في داخلهم كافرون بعقائد الإسلام وقواعده ومبادئه وشرائعه كُلّها أو بعضها، فهم بسبب ذلك منافقون.

القسم الرابع:

منافقون ورثوا النفاق من أُسَرِهم أو بيئاتهم الخاصّة، فهم بسبب هذا الميراث الخبيث منافقون وأبناء منافقين.

* * *

استخلاص:

يظهر من هذا التقسيم

أنّ النفاق في الدين نفاق أصليّ ونفاق طارىء

الأقسام الأربعة للمنافقين التي سبق بيانها تكشف لنا أنّ النفاق في الدين منه ما هو نفاقٌ أصليٌّ، ومنه ما هو نفاق طارىء.

النفاق الأصلي:

قد تدفع المصلحة الدنيوية بعض الناس إلى أن يتظاهر بالانتساب إلى الإسلام، وهو غير مؤمن به في قلبه، فيكون منافقاً منذ المدّة الأولى لإعلانه الإسلام، ثم يستمرّ

على نفاقه، ويتبعه وارث النفاق عنه من أهله وذرّيته، فهذا هو النفاق الأصليّ، الذي لم يُسْبَقْ بإسلام صحيح، ونظيره من ينشأ في بيئة مسلمين من أصول مسلمة، إلاّ أنه منذ بلغ رشده لم يؤمن بالإسلام، لكنه قَبِلَ أن يتظاهر بكونه مسلماً تبعاً لأبويه.

النفاق الطارىء:

وقد يُعْلِنُ بعض الناس إسلامهم وهُمْ صادقون غير كاذبين، ثُمَّ يطْرَأُ الشَّكُّ على قُلوبهم، بعْدَ تَعَرُّضِهم لامتحانات مختلفة، يَمْتَحِنُ اللَّهُ بِهَا صِدْقَ إيمانهم، فيرتَدُّونَ عنِ الإسْلَام ارتداداً داخِلِيّاً، ويخشَوْنَ إعْلَانَ رِدَّتِهِمْ، ويستَمِرُّونَ علىٰ التظاهر بالإسلام، مخافة إجراء أحكام الرِّدَّةِ عليهم، أو مخافة فوات منافع أو مصالح تأتيهم بوصفهم مسلمين، ومن ذلك خسارتهم مكانتهم في مجتمعهم، وتعرّضهم للذّمّ والنقد والتلويم، إلى غير ذلك من صُوَر الضغط الاجتماعي، فهذا هو النفاق الطارىء الذي طرأ بعد إسلام صادق.

ومن هؤلاء من ينشأ في بيئة مسلمين من أصول مسلمة، وحين بلغ رُشده قَبِلَ الإسلام صادقاً تبعاً لأبويه، ثمّ طرأ الشّكُّ على قلبه، فارتدّ عن الإسلام ارتداداً داخليّاً ولم يُعْلِنْ رِدَّتَه، بل اسْتَمَرَّ متظاهراً بأنّه من المسلمين.

وقد تتكرَّرُ لدى بعض الناس حركة الدخول في الإسلام والخروج منه، بسبب ما يَعْرِضُ لتصوُّراتهم ولنفوسهم، لكن يظَلُّ ظاهرهم في مختلف الأحوال مستمرّاً على أنّهم مسلمون، وهؤلاء يقال فيهم: إنّهم آمنوا ثمّ كفروا، ثمّ آمَنُوا ثم كفَرُوا ثُمَّ ازدادوا كُفْراً.

وقد دلّ على هذا النفاق الطارىء ما وصف الله به طائفة من المنافقين، وذلك في قوله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ودلَّ عليه أيْضاً قول اللهِ عزّ وجلّ في سُورَة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

فقد أثبت إيمانهم أوّلاً، وعطف عليه إثبات كفرهم بحرف العطف الدّالّ على التراخي «ثمّ» فدلّ على أنّ كفرهم القلبيّ كُفْرٌ عارضٌ ولَيْس أصْليًا، وسياقُ الحديث في السورة عن المنافقين.

ووصف الله عزّ وجل طائفةً من المنافقين بالتردُّد بين الإيمان والكُفْرِ أكثر من مرّة، فقال تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾.

وسيأتي شرح هذه النصوص ـ إن شاء الله ـ في مواضعها لدى دراسة النصوص القرآنية المتعلّقة بالمنافقين.

* * *

(٤)
أقسام المنافقين باعتبار موقعهم في الكفر

وينقسم المنافقون باعتبار موقعهم في الكفر إلى قسمين:

القسم الأول:

منافقون لهم مذهب معيَّنٌ في الكفر، كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والشرك، والوثنيّة، والإلحاد، ونحو ذلك من مذاهب الكفر.

القسم الثاني:

منافقون ليس لهم مذهبٌ معيَّنٌ في الكُفر، وإنما هُمْ أصحاب مصالح دُنيويّة، فهم يتّبعونها حيثُ وجَدُوها، فإن وجدوها عند أهل اليمين تبعوهم لتحصيلها، وإن وجدوها عند أهل الشمال تبعوهم وانتسبوا إليهم لتحصيلها.

والمنافقون من هذا القسم هم منافقون مذبذبون، لا استقرار لأنفسهم، ولا ثبات لقلوبهم وعواطفهم وآرائهم.

إنّهم لا يُبطنون مَذْهباً معيّناً من مذاهبِ الكُفْر، لكنّهم إذا وجَدُوا مصلحةً لهم من مصالح الدنيا لدى غير المسلمين، لم يجدوا مانعاً لديهم من متابعتهم سرّاً، ومؤازرتهم في تحقيق أغراضهم، ولوكان في ذلك خيانة للمسلمين، الذين هم منهم بحسب الظاهر، ولو كان في ذلك أيضاً هدمٌ للإسلام الّذي يدّعون أنّهم منتسبون إلَيْه.

وحينما يتابعون سِرّاً أو يؤازرون فريقاً من أهل الكفر الذين لهم مذهب معيّن فيه، فإنّهم لا يتابعونهم إيماناً بمذهبهم، وإنما يتابعونهم ابتغاء مصلحةٍ دنيويّةٍ يرجونها لديهم.

فهم مذبذبون في مسافة وسْطَىٰ بين أهل الإيمان وبين الكافرين الذين لهم مذهبٌ مُعَيّنٌ في الكُفر، فلاهم منتسبون إلى أهل الإيمان انتساباً صحيحاً صادقاً، ولا هم منتسبون إلى أهل مذهب معيّن في الكفر انتساباً صادقاً.

إنّ مذهب هؤلاء: لا صِدْقَ في الانتماء، ولا صِدْق في الولاء، والنفاق سيّد الأخلاق، وأنفع الرفاق، وأسْتَرُ الأنْفاق، وافضل مذهب أن لا يكون للمنافق مذهب، فمذهبُهُ حيثُ يتحقّقُ لَهُ من مصالحه وأهوائه وشهواته مطْلَبُه.

وباستطاعتنا أن نقول: إنّ المنافق من هذا القسم له مذهبٌ في الكُفر، هو عدم استقرار الرأي والقلب، والتأرجُح بحسب أهواء نفسه وشهواتها، فحيث مالت أهواؤه وشهوات نفسه ومصالحه من دنياه مالَ فكره ورأيُه وقلبُه.

وهذا القسم من المنافقين لا يَعْترفُ لهم بالانتماء والولاء أهل الإيمان، ولا يعترف لهم بالانتماء والولاء أهل الكفر الذين لهم مذهبٌ معيَّنٌ في الكفر، ويَتَعامَلُون معهم في حدود ما يحقّقون لهم من منافع وخدمات ومصالح، وما يستفيدون منهم من اخبار، وما يُحَصّلُونه عن طريقهم من معلومات.

إنّهم إذا أقبلوا إلى أهل الإيمان مخادعين علم أهل البصيرة منهم أنّهم كذّابون قنّاصو منافع ومطامع، وإذا أقبلوا إلى من لهم مذاهب معيّنةٌ في الكفر، علموا أنهم

قناصو منافع ومطامع، فتعاملوا معهم على هذا الأساس، واتخذوا منهم أجراء، أو كلابَ صيْد لتحقيق أغراض لهم في صفوف المؤمنين المسلمين حقاً.

ولعلّ المنافقين من هذا القسم هم المقصودون بقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾.

هذا النصّ مشروحٌ شرحاً تحليليّاً وافياً في النص (١٨) من نصوص الدراسة القرآنيّة للمنافقين، الآتية في القسم الثاني من هذا الكتاب.

وللمناسبة هنا نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ يكشف فيه صفات المنافقين المذبذبين المتردّدين بين المؤمنين والكافرين، ابتغاء تَحْصيل المطامع والمنافع من كلٍّ من الفريقَيْن المتناقضيْن.

ويُحدّد الله عزّ وجلّ في هذا النصّ الموقف الذي يجب أن يتّخذه المؤمنون من الكافرين.

* إنّه موقف لا يسمح بالمجاملة في قضايا الدين، ولا يسمح بإقرار الاستهزاء بآيات الله والتكذيب بها، فإقرارُ الكُفْرِ كُفْر، وهو مع ادّعاء الإيمان والإسلام نفاق.

* وهو موقف لا يسمح للمسلمين بأن يتّخذوا الكافرين أولياءَ من دُون المؤمنين، ابتغاء الاعتزاز بهم، والتّقوّي بقوّتهم، فهو لا يكون إلّا ضدّ مقتضيات الإيمان والإسلام، أو ضدّ مصالح جماعة المؤمنين، وهو مظهر من مظاهر النفاق.

ولمّا كان المنافقون والكافرون مشتركين في الكُفْر بالحقّ الذي جاء من عند الله، كان من العدل أن يجمع اللَّهُ المنافقينَ والكافرين في جهنّم جميعاً.

ومن صفات المنافقين المذبذبين بَيْنَ المؤمنين والكافرين التي كشفها الله عزّ وجلّ في هذا النصّ الصفاتُ السّبْعُ التاليات:

الصفة الأولى:

أَنَّهُمْ يتربّصُونَ كَمَا يتربّصُ القنّاصةُ ما يريدون صيْدَه، فإنْ كان للمؤمنين فتْحٌ من الله على عدُوّهم، قالوا للمؤمنين:

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

فهم يطالبون في هٰذا بنصيبهم من الغنائم.

وإنْ كان للكافرين نصيبٌ من الانتصار على المسلمين لحكمة أرادها الله عزّ وجلّ، قالُوا للكافرين:

﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أي: ألم نُحِطْ بكم إحاطةَ حمايةٍ لكُمْ ونَحْنُ في صفوف المؤمنين، وبذلك منعناكُمْ وحَميناكُمْ من أنْ يَنْتَصِرَ المؤمنونَ عليكم؟

فهم يطالبون الكافرين في هذا بنصيبهم من الغنائم الّتي أصابوها من المؤمنين، أو يطالبون بأنْ يكونوا أهل مودّتهم، ومحلّ عنايتهم ورعايتهم، وأصحابَ حُظْوَةٍ لديْهم.

الصفة الثانية:

أنهم إذَا قامُوا إلى الصَّلاةِ قامُوا كُسَالَىٰ، يراؤونَ المؤمنين بها، لأنّهم لا يؤدّونها

عن عقيدةٍ وإيمان، وإنّما يؤدّونها خشية أنْ ينكشف نفاقهم بتركها.

الصفة الثالثة:

أنّهم لا يذكرون الله في كلّ أحوالهم إلّا قليلاً، ويدْخُلُ في هذا الذكر القليل ما يُراؤونَ به أمام المسلمين المؤمنين، وما قد يكون منهم من دُعاءٍ لله إذا تعرّضوا لمطلب من مطالب دنياهم، أو تعرّضوا لمأزقٍ حرج، ولم يجدوا سبباً مادّيّاً ميسوراً يُحقّق لهم مطلبهم، أو ينقذهم من مأزقهم، وربّما ذكروا الله وسألوه أن يحقّق لهم ما يحبّون، دون أن يكون اعتقادهم به اعتقاداً صحيحاً جازماً، ويكون حالهم حينئذٍ كحال من يلتمس معرفة مستقبله عن طريق المنجّمين، وقارئي خطوط الأكُفّ.

الصفة الرابعة:

أنّهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وسبب ذلك أنهم ﴿يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، أي: القوة الغالبة، وهم يجهلون أنّ القوّة كلّها هي لله عزّ وجلّ وحده لا شريك له.

الصفة الخامسة:

أنّهم يجالسون الكافرين ويَسْمَعُونَ مِنْهُم الكُفْرَ بآياتِ الله والاسْتِهزاء بها، فلا يُنْكِرونَ عليهم، ولا يفارقون مجالسهم، ويخالفون أمر الله في ذلك، فقد أنزل على المسلمين في القرآن ما يتضمّن:

﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾.

هذا البيان في هذا النص يُشير إلى ما سبق أن أنزله اللّهُ في العهد المكيّ، وهو قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

فأضاف النصّ المدنيّ الذي جاء مؤكّداً ومؤنّباً في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بيان أنّ إقرار الكفر كُفْر، والرضا بالكفر كفر، والمشاركة في مجالس الكفر

عن رضاً، أو مع القدرة على الإنكار أو المفارقة كُفر، فقال الله عزّ وجلّ فيه:

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

فأبان أنّهم مِثْلُهُمْ في الكُفر، وأنّ عَمَلَهُمْ هذا يدْمَغُهُمْ بالنفاق.

وعلى الرغم من هذا التحذير الشديد فإنّ المنافقين يجالسون الكافرين، ويَسْمَعُونَ مِنْهُمُ الكُفْر بآيات الله، والاستهزاء بها، فلا يُنْكرون، ولا يفارقونَ مجالسهم، لذلك فحكمُهُم مثل حكمهم، وهم معهم في جهنم.

الصفة السادسة:

أنّهم يتَذَبْذَبهم بين المؤمنين والكافرين يظنّون أنهم يخادعون الله، أي: يخادعون المؤمنين الّذين هم حزبُ الله.

لكِنّ الله عزّ وجلّ يُمْهِلُهُمْ ويُمْلِي لهم، حتّى يُنْزِلَ بهم عقابه العادل، وبذلك تكونُ مخادعتهم مردودةً عليهم، فما يحفرونه من حُفرٍ للمؤمنين يُسْقِطُهُم الله فيها.

إذن: فهم المخدوعون لا الخادعون، فجاء في النصّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ . . . ﴿١٤٢﴾﴾:

أي: يُمِدُّ لهم في الحياة الدنيا، فيَحْسَبُونَ أنّهم قد ظفروا بما أرادوا، لكِنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد أعَدَّ لهم انتقاماً عادلاً وعقاباً أليماً.

الصِّفَةُ السّابعة:

أنّهم ليس لهم رأيٌ ثابتٌ لا في جانب الإيمان، ولا في جانب الكفر، بل هُمْ متردّدُون، يتقلّبُونَ في المبادىء حسب تقلّبِ أهوائهم وشهواتهم.

وهذا الصنف المتردّد من الناس له حالتان:

* فهو إمّا أن يتَردّد بين الإيمان والكفر، فيؤمن تارةً ثم يكفر، ثمّ يؤمن ثم يكفر، وهكذا يَتقلّب كما تتقلّبُ دوافع نفسه، ودَواعي أهوائه وشهواته.

* وإمّا أن يَتَذَبْذَبَ وَيتَأَرْجَحَ نفْسِيّاً في المسافة الوسْطَى بين الإيمان والكُفر، ثمّ يلْجأ إلى المصالحة والمقاسمة بين الطرفَيْنِ المتناقِضَيْن، فيُعْطِي علانيّةً لجماعة

المسلمين، ويُعْطِيَ سِرَّهُ لأوليائه من الكافرين، ليستفيد من كلٍّ منهما، وليحميَ نَفْسَهُ من نِقْمَةِ كُلٍّ منهما.

ولمّا كان هذا الصنف من الناس عرضةً لهاتَيْن الحالتين، جاء قبل هذا النصّ الكاشف لبعض صفات هذا الصنف من المنافقين، قول الله عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾.

وأتْبَعَ هٰذِهِ الآيَةَ بِقَوْلِهِ:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾.

إنّ من الواضح أنّ التردّدَ بيْنَ الإيمانِ والكُفْرِ يَدُلُّ دلالةً وَاضحةً على أنَّ صاحبَهُ غَيْرُ ذي رأيٍ ثابتٍ، وأنَّ مَفْهُوماته في الحياة مفهوماتٌ خاضعةٌ لتقلُّبِ أهوائه، وأنَّ مراكزَ عقائِده أُلْعوبَةٌ في أيْدي شهواتـه، فإذا بـدا له أنّ ما يَهْوىٰ ويَشْتَهي يتحقّق في جانب الإيمانِ آمَنَ، وإذا بدا لَهُ أنّ الذي يَهْوَاه ويشْتَهِيهِ يتحقق له في جانب الكُفْرِ كَفَر.

وهٰكـذا، فقَلْبُهُ قُلَّبٌ، ونـرقُـهُ خُلَّب، إذا أرَدْتَ أنْ تَقبضَ عَلَيْـهِ وهـو في جـانب الإيمان بما يخالِفُ هواه تفلَّتَ إلىٰ جانبِ الكُفر، وانقلبتْ عقيدته، وكـذلك يفْعَـلُ وهُوَ في جانب الكُفر.

من أجْـلِ ذلك لا يقْبَـلُ اللَّهُ عز وجـلّ إيمانَ من عُـرِف منْـهُ التـردُّدُ بيْنَ الإيمان والكُفْر، ولا يَغْفِرُ الله له، لأنّ إيمانه حين يؤمن إيمانُ هوى، واتّباعٍ لمصلحـةٍ دنيوية، لا إيمانُ مُسْتَسْلِمٍ مطمئنٍّ لما عرفَ من الحقّ.

روي عن عليّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: يُسْتَتابُ المرتَدُّ ثلاثاً، ثم تلا هذه الآيَة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾.

إنّ هذا الصنف من الناس:

* إذا ازدادتْ جرأتُه، وَقلّ ذكاؤه، وعَظُمَتْ وقاحَتُـه، تردَّدَ بَيْنَ الإيمـان والكُفر، فكان متقلّباً لَا ثباتَ له.

* وإذا ضَعُفَتْ جُرْأتُهُ، وكَثُرتْ حيطَتُـه، وقلَّتْ وَقاحَتُـه، وهَذاهُ ذكـاؤه إلى أنْ يَخْشَىٰ مِنْ مَعَرَّةِ التَقلُّب، تَذَبْـذَبَ بَيْنَ الإيمان والكُفْـر، وتأرْجحَ نَفْسِيّاً بيْنَ النقيضَيْن، واسْتَرضَىٰ هَذَا الـطّرَف بوجْـهٍ، واسْتَرْضَىٰ الـطّرَفَ الآخَرَ بـوجْـهٍ آخـر، وأعْـطَىٰ هـذا علانيته، وأعْطَىٰ ذلك سِرَّه، وحاول أنْ يَنْفِيَ بـذلك عن نفسـه مَعَرَّةَ التَقَلُّبِ الَّـذِي يَدُلُّ على ضَعْفِ الرأي، وضعف الإرادة، وظنَّ أنّ أسلوبه هذا هو الأسلوب الذي يدلُّ على ذكائه وبراعَتِه وحُسْنِ تخلُّصه.

ومن هذا التحليل يتبيَّنُ لنا أنّ المتردّد الْقُلَّب، والمنافِقَ الْمُذَبْـذب، هما قسمـانِ لصنفٍ واحدٍ من الناس، وليسا صِنْفَيْن أساسِيَّيْن، واللَّهُ أعْلَم.

* * *

(٥)
دوافـع النفـاق

سلوك الكائن الحيّ مظهر من مظاهر دافعٍ نَفْسِيٍّ أو أكْثَرَ لديـه دفعه لاتخـاذ هذا السلوك.

والنفاقُ سلوكٌ في الحياة تتَّخذُه فئةٌ من الناس متأثِّرةً بدوافع نفسيّةٍ لديها.

وبالتأمُّل تنكَشِفُ لنَا الدوافع النفسيّـةُ التاليـة، الّتي يُمْكِنُ ان تكون دوافـع تدفـع الإنسانَ غير السَّوِيّ لِيَسْلُكَ مَسَالِكَ النفاق:

الدافع الأول:

الطمع بالمنافع الدنيويّة/التي يـرجو المنـافق تحصيلها بالانتساب إلى المسلمين، وبإعلانه قبول مبدأ الإسلام، وإعلانه الدخول فيه.

ولا بدّ أن يكون معلومـاً أنّه لا يكفي الـطّمع وحـده حتى يَسْلُك الإنسان مسـالك النفاق، بل لا بـدّ من أن يقترن الـطمع بـانحرافـات خلقيّة تتـولّد من اجتمـاعها ظـاهرة النفـاق، كـالكـذب، والخيـانـة، والغـدر، والجبْن، ونحـو ذلـك من جـذور أخـلاق المنافقين.

الدافع الثاني:

الخوف على نفسه أو ماله أو مصالحه الدنيويّة، إذا بقيَ معلناً كُفْرَهُ بالإسلام وجحودَهُ لعقائده وقواعده.

ولا يكفي هنا أيضاً الخوف وحده، حتى يسلُك الإنسان مسالك النفاق، بل لا بُدَّ من أن يقترن الخوف بانحرافات خلقيّة تتولّد من اجتماعها ظاهرة النفاق، كما سبق في دافع الطمع.

الدافع الثالث:

ابتغاء الكيد ضِدَّ الإسلام وجماعة المسلمين، عن طريق إعلان الدخول في الإسلام، ثم العمل على التخريب والهدم من داخل صفوف المسلمين المؤمنين، مع الشعور بالأمن والسّلامة وغَفْلَةِ الرقباء.

ولا يكون هذا الدافع إلاَّ عند عدوٌ بالغِ العداوة يريد هدم الإسلام، والإفساد بين المسلمين، وتوهين قواهم، أوْ لَدَىٰ مستأجَرٍ لهذه الغاية بما يُحِبُّ من مالٍ، أو شهواتٍ، أو جاهٍ، أو سلطان، أو لدىٰ مدفوع بوسائل الترغيب والترهيب، أو لدى مسلوب الإرادة من قِبَلِ مُنظَّماتٍ شيطانيّة خبيثة، تدفعُهُ للنفاق، حتَّىٰ تَسْتَغِلَّهُ لغاياتها وأغراضها الإجرامية الخبيثة.

الدافع الرابع:

التَعَصُّبُ لاسم «الإسلام» الذي ينتسب إليْهِ تبعاً لقومه أو عشيرته، وكراهيته إعلان الخروج عليهم، ومخالفتهم.

وهو في قلبه لا يؤمن بهذا الدين، بل يكْفُر به كُفْراً كُلِّيًّا، أو كُفْراً جُزئيًّا.

ثم قد يكون ذا عقيدة أخرى يعتقد بمقتضاها مذهباً آخر غير الإسلام، ممّا يتناقض معه، كالماركسيّة بمفهومات الماديّة الجدليّة، وكالقوميّة القائمة على الكفر بالله واليوم الآخر، وكالعلمانية الجاحدة للدّين ولما جاء فيه، وكالماديّة الملحدة وفق مفهومات الإلحاد الغربي.

وقد يكون غير ذي عقيدة خاصّة، بل هو من الّذين يتّبعون في الحياة أهواءهم

وشهواتهم أنى وَجَدُوها، ولا يُريدون أن يُفكِّروا في أيّة عقيدةٍ من العقائد حول الكون والحياة والمنشأ والمصير.

* * *

(٦)
أقسام المنافقين باعتبار غاياتهم ودوافعهم

ينقسم المنافقون باعتبار دوافعهم من النفاق، وغاياتهم التي يَرُومُون الوصول إليها من سلوك مَسْلَك النفاق، إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

المنافقون الذين نافقوا طمعاً في الحصول على منافع ومصالح دنيويّة يرْجُونها بانتسابهم إلى الإسلام وإعلانهم أنّهم مسلمون.

(١) فمن هؤلاء أعراب نافقوا إبّان امتداد الإسلام وانتشاره وكثرة فتوحاته، وتَدَفّق الغنائم على المسلمين من كلّ جهة، وقد دخلوا في الإسلام طمعاً في أن يشاركوا المسلمين فيما يصيبون من غنائم، وفي أن يكون لهم نصيبٌ من الأموال التي أخذت تتدفّق على المسلمين.

(٢) ومن هؤلاء تُجّارٌ دخلوا في الإسلام نفاقاً من جهاتٍ شتّى من العالم، ليكون لهم مجالات تجاريّةٌ واسعةٌ في العواصم الإسلاميّة، الّتي أخذت تزدهر بألوان الحضارة والثقافةِ والرُّقيّ المدني.

(٣) ومن هؤلاء طالبو حكم وسلطان، رأَوْا تعاظم مجد المسلمين، وامتداد سلطانهم في الأرض، فطمعوا في أن يكون لهم نصيب من الحكم والسلطان فدخلوا في الإسلام نفاقاً، وتَسلّلُوا إلى داخل صفوف المسلمين.

وعلى سُلّم النّفاقِ الماكر، وبحيلة استرضاء جماهير المسلمين، واصطياد أفرادٍ منهم في غفلاتهم وطيبة قلوبهم وصفاء سريرتهم رُبّما وصلوا إلى ما كانوا يطمعون فيه.

وربّما أثّروا بخُبْثٍ على بعض أهل الأهواء والشهوات، فاتّخذوهم مطايا حملتهم إلى المراكز التي كانوا يطمعون في أن يَصِلُوا إليها.

(٤) ومن هذا القسم فريقٌ ورثوا الانتساب إلى الإسلام، وهم غير مؤمنين به، أو ارتدُّوا بعد إيمانٍ به، واسْتَبْقَوْا نِسْبَتَهم الظّاهرةَ إلى الإسلام، ليُحافِظُوا على مطامِعَ ومنافعَ تأتيهم إذا كانوا في أقوامهم مسلمين.

ويلاحظ أنّ هذا القسم من المنافقين الطامعين له أمثلة واقعيّةٌ كثيرة، في بلاد المسلمين، وفي جميع عصور التاريخ الإسلامي، ويُوجَدُ في واقعنا المعاصر منها أعدادٌ جَمَّةٌ لا حَصْرَ لها، منبثّةٌ في كلّ موقعٍ من مواقع المسلمين، وفي كلّ جماعة أو هيئة أو منظمة من منظماتهم وهيئاتهم وجماعاتهم.

القسم الثاني:

المنافقون الّذين نافقوا خوفاً على أنفسهم أو أموالهم أو مصالحهم الدنيويّة المختلفة، أو زعاماتهم في أقوامهم الذين تخلّوا عنهم وأسْلَمُوا.

(١) فمن هؤلاء المنافقين «عبد الله بن أُبي ابنُ سَلُول» رأسُ منافقي المدينة في عهد الرسول ﷺ.

وكذلك الذين كانوا معه من المشركين، الّذين دخلوا في الإسلام نفاقاً من أهل المدينة.

(٢) ومن هذا القسم فئاتٌ دَخلت في الإسلام نِفاقاً إبّانَ الفتح الإسلاميّ الواسع، ليحموا أنفسهم وأموالهم ومصالحهم المختلفة، وكانوا محاربين أعداءً للمسلمين، وكان منهم أصحاب زعامات في أقوامهم فأسلموا نفاقاً ليحافظوا على زعاماتهم ومكاناتهم الاجتماعية في أقوامهم الذين أسلموا إيماناً وتصديقاً، وحرصاً على النجاة يوم الدين، ورغبة في الظفر برضوان الله ودخول جنّته.

ومن هذا القسم فريق ورثوا الانتساب إلى الإسلام، وهم غير مؤمنين به، أو ارتدُّوا بعد إيمان، ومنعهم من إعلان كفرهم الخوفُ على أنفسهم أو أموالهم أو مصالحهم.

القسم الثالث:

المنافقون الذين نافقوا ليكيدوا الإسلام وهم منتسبون إليه، وليكيدوا المسلمين وهم ضمن صفوفهم يتظاهرون لهم بالأخوة والولاء، وهم في الحقيقة مشاقُّون أعداء،

لا يألون المؤمنين خبالاً، إفساداً لمجتمعهم، وتهديماً لأبنيتهم وحصونهم ومعاقلهم، وتحريفاً لدينهم، وتلاعباً في سياستهم، وتفريقاً لصفوفهم، وتمزيقاً لوحدتهم، وتضليلاً لمن يستطيعون تضليله منهم، واستدراجاً لقادتهم إلى المزالق ومواطن الزلل، وتربُّصاً بالمسلمين المؤمنين أن تدور عليهم الدوائر حتَّىٰ يَنْقَضُوا عليهم من مأمنهم، مظاهرين ومناصرين أعداءهم المجاهرين بعدواتهم لهم.

(١) فمن هؤلاء منافقو يَهُودِ المدينة في عصر الرسول ﷺ الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً، كيداً، وابتغاء الإفسادِ وإثارة الفتن، والمكر بالمسلمين والرسول، وابتغاء تحريف الإسلام وإفساد مفهوماته، والكذب على الله والرسول، وإدخال الإسرائيليّات في تفسير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مهما سنحت لهم الفرصة لذلك.

(٢) ومن هؤلاء «عبد الله بن سبأ» المشهور «بابْنِ السوداء» وهو من يهود اليمن، دخل في الإسلام نفاقاً في عهد عثمان رضي الله عنه، وكاد الإسلام والمسلمين أيّما كيد، وأثار الفتنة على عثمان حتّى انتهت بمقتله، وبذر بزور تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعمل على شقّ صفوف المسلمين بدوافع سياسيّة، وُضِعَتْ لها بِدَعٌ اعتقادية كُفْرِيَّة[١].

(٣) ومن هؤلاء «ميمون بن ديصان القدّاح» وهو حَبْرٌ يهوديّ تظاهر بالإسلام نفاقاً، واتّصل في السلميّة من بلاد الشّام بـ «إسماعيل بنْ جعفر الصادق بنْ محمد الباقر بنْ عليّ زين العابدين بْن الْحُسَيْن بْن عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب» وانْدَسّ في شيعته، وتظاهر بالمحبَّةِ والخدْمةِ والولاء، ليُحْكِمَ مكيدته، ثمّ ظهر في الكوفة سنة «٢٧٦ هجرية» وأسّس مع «حمدان قرمط» مذهب الباطنيّة، الّذي تكوّنت منه فرقة ملحدة مرتدّة، كادت الإسلام والمسلمين كيداً كُبّاراً في التاريخ الإسلامي، وأنزلت بالمسلمين بلاءً عظيماً[٢].

---

(١) في القسم الثالث من هذا الكتاب تفصيل فتنته.

(٢) في القسم الثالث من هذا الكتاب تفصيل لطرف من فتنته، وفي كتاب «مكايد يهوديّة عبر التاريخ» تفصيل مطوّل لفتن القرامطة في التاريخ المنسوبين لحمدان قرمط، وهم في الحقيقة أتباع «ميمون القدّاح».

(٤) ومن هؤلاء فريق من يهود الأندلس، وذلك أنّه لما سقطت الدولة الإسلاميّة، في أيدي نصارى الإسبان بمساعدة المنافقين المندسين ضمن صفوف المسلمين، لم يستطع النصارى الإسبانيون الشديدو التّعصّب، الذين استَوْلَوْا على الأندلُسِ بعْدَ انحسار الدولة الإسلاميّة عنها، أن يتحمّلُوا وُجُودَ مُسْلِمين أو يهود تحت حكمهم، بدافع ضيق أفقهم، وضيق نفوسهم وشدّة تعصُّبِهم لنصرانيّتهم، ونقضوا عُهُودَهُمْ وَوُعُودهم السابقة.

ثُم أخذُوا يُكْرِهونَ النّاسَ على أنْ يَتَنَصَّرُوا، وإلاّ كان مَصِيرُهُمْ الإبادةَ الجماعيّة، أو الفرار بدينهم، إنْ وجَدُوا إلى الفرار سبيلاً، وكانَ هذا على خلاف العهود والوعود التي كانوا قد قطعُوها على أنفسهم حينَ تَسَلَّمُوا من المسلمين مقاليد الحكم.

وهاجر فيمن هاجر من الأندلس بسبب ذلك أقليّاتٌ يهوديّةٌ كانوا فيها، ففريق من هؤلاء اليهود هاجروا إلى المغرب الإسلاميّ واستوطنوا فيه، وتظاهر بعضهم بالدخول في الإسلام ابتغاء الكيْد والفتنة، وفريق آخر من هؤلاء اليهود هاجروا إلى تركيّا، واستوطَنوا فيها، ثمّ تظاهر فريق آخر من هؤلاء بالدخول في الإسلام، تبعاً لقائدهم «سباتاي سيفي ـ أوزيفي» الذي ادّعَىٰ فيهم أنه المسيح المنتظر، وعرف هؤلاء في تركيا باسم «الدونمة»[(١)]. ثم كان من هؤلاء المنافقين كيدٌ كبير للإسلام والمسلمين في تركيّا وسائر العالم الإسلاميّ، وكانُوا السبب في إسقاط الخلافة الإسلاميّة، وإقامة العلمانية الكافرة، وكان منهم «مصطفى كمال أتاتورك» وبسببهم مع الصهيونية العالمية، والصليبيّة الغربية تمَّتْ تجزئة الدولة الإسلاميّة، ودخل الاستعماريون بلاداً عربيّة ما كانوا يطمعون في أن يستعمروها.

(٥) ومن هذا القسم منافقون آخرون من نصارى ومجوس وغيرهم، دخلوا في الإسلام نفاقاً، ليمكروا به وبالمسلمين، وليكيدوهما كيداً عظيماً.

(٦) ومن هذا القسم فريق ورثُوا الانتساب إلى الإسلام، ولكنْ لعبت بأفكارهم ونفوسهم مكايد أعداء الإسلام، فكفروا، إلاّ أنّهم أخْفَوْا كُفْرَهُمْ كما أوصاهم

---

(١) في القسم الثالث من هذا الكتاب تفصيل عن هذه الفرقة المنافقة.

شياطينهم، ليكيدوا الإسلام وجماعة المسلمين، وهم بحسب الظاهر جزءٌ من المسلمين، ومن سلالاتهم.

القسم الرابع:

المنافقون الذين ورثوا الانتساب إلى الإسلام، لكنّهم غيرُ مؤمنين به، وربّما تيسّر لهم سبيل التخلّص من هذه النسبة، إلّا أنّ دافع تعصّبهم لقومهم وأهليهم جعلهم يحافظون على مظهر الانتساب إلى الإسلام.

فهم متنسّبون إلى جماعة المسلمين على سبيل العصبيّة لأهلهم وذويهم وقومهم، وليسوا منتسبين إلى جماعة المسلمين إيماناً بالإسلام، وتصديقاً لما جاء فيه من عقائد وقواعد وشرائع وأحكام.

فهؤلاء منافقون في الدين، متعصّبونَ للقوم.

ويوجد كثير من هؤلاء في واقع المسلمين المعاصر، عصر الإلحاد، والرِّدّة، والزّيغ المادّيّ.

وكثيرٌ من هؤلاء هم من الذين لعبت بأفكارهم ونفوسهم مكايد أعداء الإسلام، عن طريق الثقافات والعلوم المدسوسة بأفكار الإلحاد والمادّيّة الخالية من الإيمان بالله واليوم الآخر، أو عن طريق المنظمات الكافرة الملحدة التي تستدرج المنتسبين إليها إلى الفسق فالفجور فالكفر البواح.

* * *

(٧)
دركات النفاق

كما أنّ الكُفْر دركات بعضُها أسْفَلُ وأخسُّ من بعض، كذلك النفاقُ دركاتٌ بعضُها أسْفَلُ وأخسُّ من بعض.

وتتناسَبُ دركاتُ النفاق تسَفُّلاً وخِسَّةً وانحطاطاً مَعَ دركاتِ الكُفر، ويُضافُ إلى ذلك ما يَحمِلُهُ المنافق من ابتغاء الكيد ضدّ الإسلام والمسلمين، والإضرار بعقيدتهم، وإفساد شرائع الإسلام وأحكامه وتشويهها، والإضرار بجماعة المسلمين ودولتهم،

أو خدمة عدوّهم في تنفيذ مُخَطَّطاته داخل الأمة الإسلامية، مُستَخْدِماً الكذب والخيانة والمخادعة والمكر السّيّء، ومُسْتَغِلاً ثقةَ المسلمين به.

فالمنافق الطامع بالمنافع الّتي تأتيه من قِبَلِ المسلمين، أو الخائف على نفسه أو ماله أو أهله، أهْوَنُ شرّاً، وأَخَفُّ ضَرَراً، من المنافق الذي ينافق وهو يُضْمِرُ الكَيْدَ ضدّ الإسلام والمسلمين، ويحتالُ بمختلف الوسائل للإضرار بهم، وإفساد دينهم، وتدمير دولتهم.

وشرٌّ منه من كان قائداً يُنَظِّمُ منظَّمة نفاقٍ، ويضَعُ لها مبادىء الكفر، وخِطَط المكر والكيد والإفساد، ويوجّه حركتها، ويَقُودُ جيش الفتنة والشرّ في الظُّلُمات.

على أنّ النفاق كُلَّهُ شرٌّ من الكُفر، وأَسْوأُ منه، وأكثر منه خبثاً وضَرراً.

هذا هو النفاق في أصل الدّين، وهو النفاق الأكبر، وهو الذي يكون صاحبه كافراً في حقيقة حاله، منتسباً إلى الإسلام في ظاهره.

* * *

(٨)
النفاق الأصغر

ويُوجَدُ نفاقٌ لا في أصْلِ الدّين، وصاحبُهُ لا يكونُ كافراً خارجاً عن الإسلام في حقيقته، بل يكون عاصياً، أو فاسقاً، أو مُحْبطاً بنفاقه عمله الذي هو من أعمال الطاعة لله، أو نحو ذلك، وباستطاعتنا أن نُسَمِّي هذا النوْعَ من النفاق «النفاقَ الأصغر».

فكُلُّ من يُظْهِرُ خلافَ ما يُبْطِنُ ليُخَادع الناسَ بما يُظْهِر خداعاً لمْ يأذَنْ به الله، أو ليتوسّل بذلك إلى ما لم يأذن به اللَّهُ من الغايات، وكانَ ذلكَ في أُمورٍ لا تمسُّ أصلَ الدّين وعقائده، فهو منافق نفاقاً أصْغَر.

وبناءً على هذا التحليل للنفاق الأصغر يتّضِحُ لنا أنّ من يُرائي النّاسَ بفِعْلِ الأعْمَالِ الصالحة، ليثِقُوا به في أمورِ دنياهم، أو ليُعَظّموه، أو ليُكَرّمُوهُ من أجْلِ صلاحه وتقواه، هو منافق من مستوى هذا النفاق الأصغر، ويُطلق عليه اسم «مُراءٍ»

والمرائي هو الذي يُرِي الناسَ من مظاهر أقواله أو أعماله ما يَدُلُّ علىٰ غَيْرِ حقيقته الّتي يُحاول أن يخفِيَها عن الناس.

ومَنْ يكذبُ على الناس فَيُرْضِيهِمْ بأكاذيبه ليخدعهم، ولينال بالكذب ثقتهم، ثمّ يَغْدُرُ بهم، هو أيْضاً منافِقٌ من مستوىٰ النفاق الأصغر.

ومن يتظاهر بالفقر والمسكنة ليستدِرّ عطفَ الناس عليه، وهو في ذاته مخادع كذّاب، ليس بفقير ذي حاجةٍ حقيقيّةٍ، هو منافق من مستوى النفاق الأصغر.

ومن يتظاهر بالودّ والمحبّة وهو يُضْمر العداوة، وغرضه من ذلك مخادعة من يتظاهر له ليكيده، أو لِيَثِقَ به ويأمَنَ له، فيعمل ما لا يُريد وهو آمِنٌ من جِهَتِه، هو أيضاً منافِقٌ كذّابٌ من مستوى النفاق الأصغر.

وهكذا إلى صور كثيرة لا تكادُ تُحْصر.

والحيلةُ الكبرى للمنافق هي الكذب في القول، والكذب في ظواهر الأعمال، رغرضُ المنافق من هذا الكذب في القول والعمل مخادعةُ النّاس واستدراجهم إلى الثقة به، فيأتمنونه على أموالهم، أو أعراضهم، أو أسرارهم، أو عهودهم، ويصدّقون وعوده وعهوده.

فإذا خان فيما ائتمنوهُ عليه كانت خيانته استثماراً لنفاقه، وحين تنكشف خيانته، وينكشف غَدْرُه ونقضه لعهده وإخلافه في وعده، يحاول أن يَسْتُر نفسه بالمخاصمة الفاجرة، والأيمان المغلَّظة الكاذبة.

وهكذا تَجْتمِع في المنافق في معظم حالات نفاقه خمس خصالٍ هي من قبائح الصفات، وهي:

(١) الكذب في القول والعمل.

(٢) إخلاف الوعد.

(٣) الغدر بنقض العهد.

(٤) خيانة الأمانة.

(٥) الفجور في المخاصمة.

وهذه الخصال الخمس القبيحة قد جاء بيانُها فيما صحّ عن الرسول ﷺ، وفيما

يلي بيان ما جاء عن الرسول حول هذه الصفات:

* روى البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«آيَةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

وفي رواية: «وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

وفي رواية: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

* وفي رواية صحيحة الإسناد على شرط مسلم عن أبي هريرة، أنّ النبي ﷺ قال:

«من عَلامَاتِ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

* وروى النسائي والبزّارُ وغيرُهُما بإسنادٍ صحيح عن عبد الله بن مسعود، عن النبيّ ﷺ، قال:

«آيَةُ المنافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

* وروى أبو يَعْلَى عن أنس، بإسناد قيل فيه: إنّه حسن، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«في الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ ـ وإنْ صَامَ وصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ـ: إذَا حدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

* وروى البخاريُّ ومسلم وأحمد والترمذيُّ والنَّسائيُّ عن عبد اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، فَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا».

* وروى الإمام أحمد والبيهقي في الشعب وابن نصر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إنّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلاَمَـاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا، تحِيَّتُهُمْ لَعْنَـةٌ، وطَعَامُهُمْ نَهْمَـة، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُول، لا يَقْرَبُونَ الْمَسَـاجِدَ إلاَّ هُجْـراً (أي: بَعْدَ طُـولِ غياب) ولاَ يَـأْتُونَ الصَّـلاَةَ إلاَّ دُبُراً، مُسْتَكْبِرِينَ، لاَ يَأْلَفُونَ وَلاَ يُؤْلَفُونَ، خُشُبٌ باللَّيْلِ (أي: يسقـطون نيامـاً كالخشب فـلا يذكـرون الله) سُخُبٌ بِالنَّهَـار (أي: يكثرون الصيـاح والضجيج من أجـل دنيـاهم ولا تهذيب لديهم)».

* وعن سعـد بن منصـور في سننـه، عن سعيـد بن المسيب مـرسـلاً، عن النبي ﷺ:

«آيَةٌ بيننا وبين المنافقين شهودُ العشاء والصُّبْح لاَ يَسْتَطِيعُونَهُمَا».

وعن الصحابي أُمَامَةَ صُدَيّ بْنِ عَجْلاَنَ الباهِليّ أَنَّهُ قالَ:

«الْمُنَافِقُ الَّذِي إذا حَـدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَـدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خانَ، وَإِذَا غَنِمَ غَـلَّ، وَإِذَا أُمِرَ عَصَىٰ، وَإِذَا لَقِيَ جَبُنَ، فَمَنْ كُنَّ فِيـهِ فَفِيـهِ النِّفَـاقُ كُلُّهُ، وَمَنْ كَـانَ فِيـهِ بَعْضُهُنَّ فَفِيهِ بَعْضُ النِّفَاق».

هـذا الحديث موقـوف على أبـي أمـامـة البـاهلي، وبعضـه ثبت في المـرفـوع الصحيح، أمّا كـون المنافق إذا غَنِمَ غَـلَّ (أي: أخذ من الغنـائم قبـل تـوزيـع الإمـام أو القيادة المفوضة بذلك لها) وإذا أُمِرَ عَصَىٰ، وإذَا لَقِيَ جَبُنَ، فهي من صفات المنافق دون شكّ لأنّها من لوازم النفاق، وتدُلُّ صفاتُ المنافقين في القرآن عليها.

أقـول:

أمّا كون من اجتمعت فيه الصفات الأربـع كما جـاء في حديث عبـد الله بن عمر الصحيـح المرفـوع، أو الصفاتُ السّت كمـا جاء في حـديث أبـي أُمـامـة كـان مُنـافقـاً خالصاً، أو كـان فيه النِّفَـاقُ كُلُّه، فالمعنى كـان مُنافقـاً من مستوىٰ النفـاق الأصغر، إذا لم تكن مظهراً من مظاهر النفـاق في أصل الـدّين، لكنْ وجودَهـا مجتمعةً في شَخْصٍ واحِـدٍ أمارةٌ تَـدُلُّ على أنّ احتمالَ كَـوْنِه منـافقـاً في أصـل الدين احتمـالٌ قويٌّ، فحـالُه تستدعي المراقبة والحذر.

إنّ النفاق في أصل الدِّين هو إعلان قبول كلّ العقائد الإيمانيّة التي جاء بهـا دين الإسلام، وإعلان قبول الطاعة لله ورسوله والإسلام لأوامـر الله ونواهيـه، وإبطانُ الكُفْـرِ

بكُلٍّ أو ببعض العقائد الإيمانيّة التي جاء بها الإسلام، أو إبطانُ رَفْضِ الطاعة ورفْضِ الإسلامِ لله ورسوله، ولو لبعْضِ الأوامر أو النّواهي الصحيحة الثابتة، ولا بُدّ أن نَعْلَم أنَّ رفْضَ الطاعة جحوداً أو تمرُّداً على حقّ الله على عباده هُو من الكُفر، وهو غير الوقوع في المعاصي بدافع الشهوة أو هوى النفس مع الاعتراف والتسليم بحقّ الله الكامل على عِبَادِهِ في أن يطيعوه ويَعْبُدوه وحْدَهُ لا شريك له، فمِثْلُ هذا الوقوع في المعاصي لا يُدْخِل في الكُفْرِ، ولذلك كَفَر إبليس بمعصيته لأنه كان جاحداً حقّ الله عليه، ولم يَكْفُرْ آدم وزوجه بالمعصية لأنهما لم يكونا جاحدين، ودلّ على موقف إبليس إصرارُه وطَعْنُه في حكمة الله، ودلَّ على موقف آدم وزوجه قولهما:

«ربَّنا ظلَمْنا أنْفُسَنا، وإنْ لم تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرين».

* * *

(٩)
تخوّف الصحابة من النفاق الأكبر والأصغر

ولمّا كان النفاق بمستويَيْهِ الأكبر والأصغر من أشنع وأقْبحِ الخصال الّتي يتّصفُ بها الإنسان، كان أصحاب رسول الله ﷺ يتخوفون على أنفسهم تخوّفاً كثيراً منه ومن خصاله، ويتورّعونَ مِنْ أعْمالٍ كثيرة ليست هي من خصال المنافقين، مخافة أن يقعوا في شيءٍ من النفاق وهم لا يَشْعُرون.

حتّى بلغ الأمر بعُمَر بْن الخطّاب ــ رضي الله عنه ــ أنْ تخوّفَ علَى نَفْسِه من أن يكون من المنافقين، مع ما هو عليه من الإيمان الراسخ الذي شهد له به الرسول ﷺ، إذْ بشّرَهُ بالجنّة مع من بشّرَ من أصحابه، ودفعه تخوّفُه على نفسه أن سأل حذيفةَ بن اليمان صاحب سرِّ رسول الله ﷺ في المنافقين: هلْ ذكره الرسول ضِمْنَ مَنْ ذُكرَ مِنْ أسماء المنافقين، واستَحْلَفَهُ على ذلك فقال له: اللّهُمّ لا.

روى ابن عساكر في تاريخه، عن حذيفة بن اليمان قال: مَرَّ بي عمر بن الخطّاب وأنا جالس في المسجد، فقال لي: يا حذيفة، إنَّ فلاناً مات، فاشْهَدْهُ، ثمّ مَضَىٰ، حتى إذا كاد أن يخرج من المسجد التفت إليّ فرآني وأنا جالس، فعرف،

فرجع إليّ فقال: يَا حُذَيفَةُ انشدُكَ الله أمن القوم أنا؟ قلتُ: اللّهمَّ لا، ولنْ أبرّىء أحداً بعدك، فرأيت عَيْنَيْ عُمَرَ جَادَتا.

وبلغ الأمر كذلك بآخرين من أصحاب الرسول المؤمنين الصادقين، أنّهم كانوا يتخوّفون على أنفسهم من النفاق، لشِدَّةِ تحْذِير الرسول ﷺ منه، ولشِدَّةِ ما جاء في القرآن الكريم من توبيخٍ للمنافقين ووعيدٍ لهم بالعذاب الأليم، ولشِدَّةِ وكثْرَةِ تحذير المؤمنين من مكايدهم.

أخرج البخاريُّ في صحيحه عن ابْنِ ابي مُلَيْكَةَ قال: أدْرَكْتُ ثلاثينَ من أصحاب النبيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يخافُ النِّفاقَ على نَفْسِه، ما منهم أحَدٌ يقول: إنّه على إيمان جبريلَ وميكائيلَ.

قال: ويُذْكَرُ عَنِ الْحَسَنِ: مَا خافَهُ إلاّ مؤمنٌ، ولا أمِنَهُ إلاّ كَافِرٌ.

ويظهر لي أنّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يتخوَّفون على أنْفُسِهِمْ من النفاقَيْنِ الأكْبَرِ والأصْغَر، لكِنَهُمْ بسبب صِدْقِ إيمانهم كَانُوا يُوجّهون جُلَّ تَخوُّفِهم من أن يَقَعُوا في النفاق الأصغر الَّذِي قَدْ تَقَعُ مِنْهُمْ بعْضُ الصفاتِ الّتي هي منه، ولذلك كانوا يَحْرِصُونَ على البُعْد عنْ كُلّ ما يُحْبِطُ العمل، من رياءٍ وسُمْعةٍ، وطلَبٍ للدُّنيا بالدين.

أمّا تخوُّفُهم من النفاق الأكبر فالذي يظهر أنهم كانوا يَخْشَوْنَ أنْ يكونَ تناقُصُ مستَوَى إيمانهم عن مُسْتَوَى إيمانِ رسول الله ﷺ أومستوى إيمان جبريل وميكائيل، هو من النفاق الذي قد يخالط الإيمانَ ويُدَاخِلُه، فيَنْقُصُ من قيمته، ويُضْعِفُ من قُوّته، ويَتَصَوَّرُونَ أو يخشون أن يكون الإيمان المطلوبُ منْهُمْ هو الإيمانَ المساوي لإيمان جبريل وميكائيل.

لَقَدْ ثَبَّتُوا أنظارهم رضوان الله عليهم في قمّة الإيمان، فكان تَطَلُّعهم الدائم إلى هذه القمّة، وكانت هِمَمُهُمْ تَتَحَفَّزُ دائماً إليها، وكانوا يخشون أنْ يكون كلّ تقصير عنها جزءاً من النفاق، ومن أجل ذلك كانوا خير القرون.

ورُبّما كانوا يَخْشَوْن أن يكونَ حُبُّهُمْ لبعض الأمور الدّنيوية، كَحُبِّهم للْغَنَائم، أوحُبّهم لمجد الدنيا، أوحُبّهم لبعض الشهوات المباحات، الّتي قد يحصلون عليها عن طريق الجهاد في سبيل الله، من الشوائب التي قد تؤثر على صدق إيمانهم في

ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ، ويخشون أن يكون ذلك من شوائب النفاق، فهي تَنْقص من كمال إيمانهم، وربّما كانوا يتخوّفون من أن يُؤْثر حبُّهُمْ لما نالوه من الدنيا بسبب إسلامهم على صحة إيمانهم، وصدْقِ إسلامهم، وربّما كانوا يرون أن ما يعتريهم من الغفلات بسبب مشاغل الحياة، كانشغالهم بأهلهم، ونسائهم، وأولادهم، وأموالهم هو من نقصان الإيمان، وهو من شوائب النفاق.

وكلٌّ هذا ظاهرٌ من حرصهم الشديد على أن يَبْلُغُوا كمال الإيمان وكمال الإسلام، ومن حرصهم الشديد أيضاً على أن يكون إسلامهم خالصاً لوجه الله عزّ وجلّ، بريئاً من شوائب طلَبِ الدنيا به، ولا سيما حينما يُلاحظُون أنّ أشدَّ دوافع نفاق المنافقين رغبةُ نُفُوسِهِمْ في الحصول على مطالب الدنيا بالتظاهر بالإسلام، والانضمام إلى جماعة المسلمين.

فاحتمالات تخوف أصحاب رسول الله ﷺ على أنفسهم من النفاق تتلخّص بالأمور الثلاثة التالية:

الأمر الأول:

تخوُّفهم على أنفسهم من النفاق الأصغر، عن طريق ارتكاب صفاتِه في السلوك، أو ارتكاب بعضها.

الأمر الثاني:

تخوُّفهم من أن يكون نُقْصَانُ إيمانهم عن مستوى إيمان الرسول أو إيمان جبريل وميكائيل، هو من شوائب النفاق.

وربّما اعتبروا من نقصان الإيمان ما يعتريهم من الغفلات، بسبب انشغالهم بأهلهم ونسائهم وأولادهم، وأموالهم.

الأمر الثالث:

تخوُّفهم من أن تكونَ رغبَتُهُمْ في الحصول على مطالب الحياة الدنيا، وما يُحبُّونَ منها، عن طريق أعمالهم الإسلامية، كالجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله، هي من شوائب النفاق، فهي تؤثّرُ على صِدْقِ إسلامهم، وكمال إيمانهم.

ولهذه الأمور شواهد من سيرتهم رضيَ اللّهُ عنهم، فمنها ما يلي:

(١) روى مسلم بسنده عن أبي عثمان النهديّ، عن حَنْظَلَةَ الأُسَيِّديّ، (قال: وكان من كُتّاب الرسول ﷺ)، قال: لقيني أبو بكر فقال: كَيْفَ أَنْتَ يا حَنْظَلَة؟

قال: قلت: نافَقَ حَنْظَلَة.

قال: سُبْحَانَ اللَّهِ! وما تَقُول؟!

قال: قُلْتُ: نكونُ عنْدَ رسُولِ الله ﷺ، يُذَكِّرُنا بالنار والجنّة، كأنّا رَأْيُ عيْنٍ، فإذا خرجْنا من عند رسول الله ﷺ، عافَسْنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيْعَاتِ، فنسينا كثيراً.

قال أبو بكر: فوالله إنّا لنَلْقَى مِثْلَ هذا.

فانطَلَقْتُ أنا وأبو بَكْرٍ، حتّى دخلْنا عَلَى رسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: نافَقَ حَنْظَلَة يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟!».

قُلْتُ: يا رسُولَ الله، نَكُونُ عنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بالنّار والجنّةِ، حتّى كأنّا رَأْيُ عَيْنٍ، فإذا خَرَجْنَا من عندك عافَسْنَا الأزواجَ والأولادَ والضَّيْعَاتِ فنسينا كثيراً.

فقال رسول الله ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ، وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً» ثلاث مرّات.

أي: قال الرسول: «ساعة وساعة» ثلاث مرّات.

عَافَسْنَا: أي: خالَطْنَا وعاشرنا ممارسةً ومزاولة وعملاً.

الضَّيْعَات: أي: مَكاسِبَ العيش، كالتجارة والزراعة والصناعة والحِرْفة، واحدتها «ضَيْعَة».

فمن هذا الحديث يتّضح لنا أنّ حَنْظَلَة وأبا بكر رضي الله عنهما قد تَخَوَّفا علَىٰ أنْفُسِهِمَا من أنْ تكونَ الغفلة عن ذكر الله والدار الآخرة، انشغالاً بمتاع الحياة الدنيا، من نقص الإيمان، وأن يكون ذلك بسبب شوائبَ من النفاق.

(٢) وروى البخاري بسنده قال: «قال أناسٌ لابْنِ عُمَر: إنَّا نَدْخُلُ على سلطاننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلَّمُ بِهِ إذا خَرَجْنَا من عِنْدِهِم.

قال: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقاً».

قال ابن حجر في «الفتح» وفي رواية عروة بن الزبير عن الحارث بن أبي أسامة، والبيهقي، قال: «أتيتُ ابْنَ عُمَرَ فقلتُ: إنَّا نَجْلِسُ إلى أَئِمَّتِنَا هؤلاء، فيتَكَلَّمُونَ في شيءٍ نَعْلَمُ أنَّ الْحَقَّ غيْرُهُ، فَنُصَدِّقُهُمْ.

فقال: كُنَّا نَعُدُّ هَذا نِفاقاً، فلا أدْرِي كَيْفَ هُوَ عِنْدَكُمْ».

وظاهرٌ أنّ هذا من النفاق الأصغر الذي قد يكون من الكبائر ولا يبلغ مَبْلَغَ الكُفْر.

(٣) وروى ابن عساكر في تاريخه عن عمَّار بن ياسر قال: «ثَلاثَةٌ لا يَسْتَخِفُّ بِهِمْ إلاَّ مُنَافِقٌ بَيِّنٌ نِفَاقُهُ: الإمامُ الْمُقْسِط، ومُعَلِّمُ الْخَيْرِ، وذُو الشَّيْبَةِ في الإسلام».

(٤) وكان الحسَنُ البصريّ يقول: والله الذي لا إلَه إلاَّ هُوَ، ما مَضَى مؤمنٌ قَطُّ ولا بقي إلاَّ وهو من النفاقِ مُشْفِقٌ، ولا مضى منافقٌ قطُّ ولا بَقِي إلاَّ وهُوَ مِنَ النِّفَاقِ آمن.

وكان يقولُ أيضاً: مَنْ لَمْ يَخفِ النِّفَاقَ فَهُوَ مُنَافِقٌ.

وعنه أيضاً قال:

«من النفاق اختلاف اللِّسَانِ والقلب، واختلاف السِّرِّ والْعَلاَنِيَةِ، واخْتِلاَفُ الدُّخُولِ والخروج».

وظاهر أنّه في هذا يذكُرُ بعض صفات النفاق الأصغر، ويحذِّر منها، أمّا اختلاف الدخول والخروج فيريد منه مثل اختلاف أحوال الذين يكونون إذا دخلوا إلى أئمتهم صدّقوهم على باطلهم، وإذا خرجوا من عند أئمتهم قالوا الحقّ فيما بينهم، وأبانوا أنّ ما قاله أئمتهم باطل.

وكذلك ما رُوي عن ابن عُمر، وعمّار بن ياسِرٍ.

* * *

(١٠)
المنافق في التشبيهات النبوية

(١) شبّه الرسول ﷺ المنافق الذي يَقْرأُ القرآن بالرّيحانة، رِيحُها طيّبٌ وطعمها مُرٌّ، وشبَّهَ المنافق الذي لا يقرأ القرآن بالحنظلة، ليسَ لها ريحٌ طيّبٌ، وطعمها مرٌّ.

فقد روى البخاريُّ ومسلم وأحمد وأبو داود وغيرهما، عن أبي مُوسَىٰ الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«مَثَلُ المؤمِنِ الذي يقرأ القرآن [وفي رواية صحيحة: ويَعْمَلُ به] مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ.

ومَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَة: لا رِيحَ لَهَا، وطَعْمُهَا طَيِّبٌ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ، وطَعْمُها مُرٌّ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ: لَيسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[1].

(٢) ورَوَىٰ ابْنُ جرير عن قتادة مُرْسلاً، عن النبي ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤمِنِ والْمُنَافِقِ والْكافِرِ، كَمَثَلِ رَهْطٍ ثلاثَةٍ دَفَعُوا إلى نَهْرٍ، فَوَقَعَ الْمُؤْمِنُ فَقَطَعَ، ثُمَّ وَقَعَ الْمُنَافِقُ حَتَّىٰ إذا كَادَ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ الْمُؤْمِنِ نَادَاهُ الكافِرُ: هَلُمَّ إِلَيَّ، فإِنِّي أَخْشَىٰ عَلَيْكَ، وَنَادَاهُ الْمُؤْمِنُ أَنْ هَلُمَّ إِلَيَّ، فإنَّ عِنْدِي وعِنْدِي؛ يُحْصِي لـه مَا عِنْدَهُ، فما زَالَ الْمُنَافِقُ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهُمَا حَتَّىٰ وَقَعَ عَلَيْهِ أَذىً فغَرَّقَهُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ لَمْ يَزَلْ فِي شَكٍّ وَشُبْهَةٍ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَيْهِ الْمَوْتُ وهو كذلك».

في هذا الحديث وَصْفٌ للمنافقِ الشَّاكِّ الْمُتحيِّرِ، لا للمنافقِ الجازمِ بِمَذْهَبٍ مِنْ مذاهب الكُفْرِ.

---

(١) انظر شرح هذا الحديث في كتاب «روائع من أقوال الرسول» للمؤلف، وهو الحديث الخامس من الأحاديث المشروحة فيه.

(٣) وروى ابن جرير عن قتادة مرسلاً، أنّ النبـي ﷺ قال:

«مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَـلِ ثَاغِيَـةٍ (أي: شاة) بَيْنَ غَنَمَيْنِ، رَأَتْ غَنَمـاً عَلَىٰ نَشَزٍ (أي: مرتفع من الأرض) فـأتَتْهَا وَشَـامَتْهَا[١] فَلَمْ تَعْـرِفْ، ثُمَّ رَأَتْ غَنمـاً عَلَىٰ نَشْـزٍ، فـأتَتْهَا وَشَامَتْهَا فَلَمْ تَعْرِفْ».

وفي هـذا الحديث أيضـاً وَصْفٌ للمنـافقِ الشّـاكِّ المتَحَيِّـرِ، لا للمنـافق الجازم بمذهبٍ من مذاهب الكفر.

(٤) وروى مسلم وأحمد والنسائي عن ابن عمر، عن النبـي ﷺ قال:

«مَثَلُ المنافِقِ كمثلِ الشّاة الْعَـائِرةِ[٢] بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ مَرَّةً وَإِلَىٰ هَـٰذِهِ مَرَّةً، لاَ تَدْرِي إِلَىٰ أَيِّهِمَا تَتْبَعُ».

* * *

(١١)
من صفات المنافقين الجسديّة

(١) أخرج أبو نعيم في الطبّ، عن سَعِيد بن المسيّب:

«إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ أَصْفَرَ الْوَجْهِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلاَ عِلَّةٍ، فَذَلِكَ مِنْ غِشِّ الإِسْلاَمِ فِي قَلْبِهِ».

(٢) وأخرج الديلميُّ في مُسْنَد الفردوس، عن ابن عباس:

«احْذَرُوا صُفْرَ الوجوه، فإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عِلَّةٍ أَوْ سَهَـرٍ فَإِنَّـهُ مِنْ غِلٍّ فِي قُلُوبِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ».

(٣) وأخرج أيضاً عن عليّ:

«المنافِقُ يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ يَبْكِي كَمَا يَشَاءُ».

---

(١) شامَتْها: اي: نظرَتْ مَخايلها تريد أن تعرُف عليها، برؤية ضعيفة كليلة غير واضحة.

(٢) العائرة من الشاة: المتحيرة المتردّدة بيْنَ قطيعين لا تدري أيّهما تَتْبَع.

(٤) وأخرج ابن عديّ في الكامل، عن عقبة بن عامر:
«إذا تمّ فُجُورُ الْعَبْدِ مَلَكَ عَيْنَيْهِ فَبَكَى بِهِمَا مَتَى شَاءَ».



الفصل الرابع

مجالات النفاق وصورٌ منها

(١)
مقدمة

للنفاق مجالاتٌ متعدّدات بعدد مجالات الحياة الإنسانيّة وعلاقاتها الاجتماعية، ومنها المجالات التاليات:

المجال الأول:

النفاق في الدين، وهو كما سبق قسمان:

القسم الأول: النفاق الأكبر، وهو إبطانُ الكُفر، وإظهارُ الإسلام، وهو المقصود الأعظم من هذا السِّفْر.

وقد سبق تعريف هذا القسم، وتمييزه من غيره، وسيأتي إنْ شاء اللّٰهُ تفصيل ظَوَاهِرِه في السلوك، واستعراضُ أمثلته في التاريخ الإنساني.

القسم الثاني: النفاق الأصغر، وهو التظاهر بالأعمال الدينيّة الصالحة، ابتغاء مقاصِدَ دُنْيويّةٍ يَقْصِدُها المرائي عند الناس الّذين يَنْخَدِعون بأعمالِهِ، فَيستَغِلُّ انخداعَهُمْ به لتحقيق منافع لديهم يَسْتَثْمِرُهَا نتيجةَ مراءاته لهم.

وقد سبق تعريف هذا القسم، وتمييزُهُ من غيره، وله عُنْوانٌ خاصٌ به هو لفظ «الرِّياء» ومشتقّاته، وسيأتي إن شاء اللّٰهُ شرح الرِّياء بمقولة خاصة في هذا الفصل.

المجال الثاني:

نفاق الجاسوسيّة، وهي المهنة المنظّمة التي يعمل من يَعْمَلُ فيها لصالح فَرْدٍ أو مُنَظَّمَةٍ شعبيّةٍ أو دوليّة، من خلال علاقاتِهِ الاجتماعيّة بالأفراد والجماعات، على اختلاف طبقاتهم ومُسْتَوَيَاتهم، ومهنهم وأعمالهم، ذكوراً وإناثاً، وهو يَلْبَسُ كَذِباً وَزُوراً أقنعةً يُخْفِي تحتها أغراضَهُ الحقيقيّة.

المجال الثالث:

النفاق في السياسة والْحُكْمِ وَالإدَارَة، وهو سلوك اجتماعي يَعْتَمد علَىٰ الكذب، والتظاهر بالرِّقة، والأدب الجمّ، والتواضع، وحُسْنِ المجاملة، والمـوَدّةِ، والإحْسَانِ، والإكرام، والْبراءة، والرغْبَةِ في فعل الخير، وخدمة المصلحة العامّة، وإعطاء الوعود والعهود والمواثيق، مَعَ العزم على عدم الوفاء بها ابتداءً، مُخَادَعَةً وتغريراً، وتضليلاً للجماهير بوجهٍ عامّ، أو تضليلاً لمن يُرادُ استدراجُهُ واصطياده وإسقاطُهُ في الحبائل من المحاورين السّياسيِّين.

المجال الرابع:

النفاق في التعامل المالي، وهو يعتمد على الكذب والمخادعة، والمراوغة والغش، ويعتمد على التمويه والإيهام والاستدراج عن طريق الغفلات، أو الإغراءِ بالمطامع، إلى مزالق الخسارة، ليحقّق المتعامل المراوغ المخادع مكاسِبَ ومَرَابح، ما كان باستطاعته أن يحقّقها، لو سَلَك مَسْلك الصّدْقِ، والصراحة والنّصيحةِ والاستقامة.

المجال الخامس:

النفاق بتقديم الخدمات والمعونات والمساعدات الإنسانيّة، التعليميّة، أو الصّحيّة، أو الماليّة، أو النفسية، أو الخيريّة من مختلف وجوه البرّ، بغية تحقيق مصالح سياسية، أو اقتصاديّة، أو استعماريّة ضارّة، أو بغيَةَ نشر مذاهب فكريّةٍ باطلةٍ، والاستدراج للانتماء إليها واعتناقها.

المجال السادس:

النفاق الاجتماعي القائم بين الأفراد على إظهار الموَدّات والصّداقاتِ وتَصنُّع المجاملات، لا لتأليف القلوب على الحقّ والخير ابتغاء مرضاة الله، ولكن لاستدراج الناس وإيقاعهم في شَرَكٍ يَكْرَهُونَ الْوُقُوعَ فيه، كزواج غير مكافىء ولا مُلائِمٍ، أو شراكَةٍ في عَمَلٍ تَضِيعُ فيه أمْوَالُهُمْ أوْ جُهُودُهُمْ، أو قبولِ كِتَابَةِ شيءٍ أوْ حُضورِ جلسةٍ أو التصريح بكلامٍ أو القيامِ بعَمَلٍ عَنْ حُسْنِ نيّةٍ، فيكونُ من نتيجةِ ما تَوَرّطُوا فيه أن يخْسَرُوا مالاً، أو مركزاً، أو وظيفةً، أو مصلحةً، أو يَتَعرَّضوا لمهلكة في الأنْفُس، وكانَ

المنافقُ في هذا المجال يَبْتَغِي إيقاعَ فريسته فيما وقع فيه لمصلَحَةٍ لَـهُ، أو لِغَرضٍ في نَفْسِه خَبيث.

إلى غير ذلك من مجـالات مشابهـات، ولا يَدْخُـلُ تحْتَ عُنْـوانِ النفـاق في أيّ مجـالٍ من المجالات مـا يكون من مُصَـانعاتٍ ومُجَـاملاتٍ ومُـلاَيَنَاتٍ وإظهـارِ مـودّاتٍ وصداقاتٍ ومَعُوناتٍ ومُسَاعَداتٍ وإكراماتٍ وإحساناتٍ وعباراتِ مدحٍ وثناءٍ وتمجيدٍ، إذا كان الْغَرَضُ استنقاذَ المحتفَىٰ به من شَرٍّ هو فيه، أو استخراجَهُ من الظلماتِ إلى النّور، ومن الكفر بالحقّ إلى الإيمان به، ومن فِعْـلِ الشرّ والعمـلِ السّيىء، إلى فعل الخير والعمل الصالح، ومن معصية الله إلى طـاعته، أو كـانَ الغرضُ التـآخِيَ بيْنَ الْمُؤْمِنين، أو الإصلاحَ بين الزَّوْجَيْنِ، أو إِصْلاحَ ذَاتِ الْبَيْنِ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ مُتَخَاصِمَيْن، أو نحوَ ذلك مِنْ كـلِّ أَمْرٍ فيـه مَرْضَـاةٌ للّهِ عزّ وجـلّ، بل كـلُّ ذَلِكَ هـو من فِعْلِ الخيـر الـذي يحثُّ الإسلام عليه، ويُثْنِي على مَنْ فَعَلَهُ، ويُؤكِّدُ أنّ من فعَلَ شيئاً من ذلك ابتغاءَ مرضاة الله أثابَهُ اللّهُ عليه ثواباً كثيراً، وأعطاه أجراً كبيراً.

وفي مقالات آتياتٍ من هذا الفصل تفصيـلٌ ما لهـذه المجالات بـاستثناء النفـاق الأكبر فله الساحة العظمىٰ من هذا الكتاب.

* * *

(٢)

النفاقُ الأصغر (وهو الرّياء)

الرّياء: تظاهر المسلم بالأعمال المطلوبة في الدّين من الأعمال الصـالحة ابتغـاءَ مقاصدَ دنيويّةٍ يَقْصِدُها المرائي عند الناس الذين يرجو أن ينخدعوا بأعماله، فيَظُنُّـوه منْ أهلِ كمال التقوى، أو من الأبرار أو من المحسنين، فإذا انْخَدَعُـوا به، ووثقـوا بما رأوا من صلاحه وتقـواه، استغلَّ ذلـك في تحقيق مآربَ دُنْيـويّة لـديهم، وحين يخلو بنفسه أو مع خاصّته من عَارِفِي خَفَايَاه أو شركائه في المعاصي أو أقـرانه في مخـادعة النـاس، كانَ له سلوكٌ آخَرُ غَيْرُ السلوك الذي يظهر به أمَامَ العامّة.

* فطالبُ الذُّكْرِ والسُّمعَةِ الحسنةِ والمدْحِ والثّنـاء من الأعمال الصـالحة الـدينيّة الّتي يَعْمَلُهـا، غَيْرُ مخْلصٍ لله عـزّ وجـلّ في عمله، بـل هـو إمّـا طـالِبُ دنيـا فقط من

غير الله، وإمّا طالبُ ذَلِكَ مع طلَب ثواب اللَّهِ يوْمَ الدِّينِ إيماناً به، وهذا من الشِّرْكِ في عبادَةِ الله، وهو يُحْبط العمل، لأنّ الله لا يقْبلُ أعمالَ العبادةِ له ما لم تكن خالصةً لوجْهِهِ الكريم من شائبة الشِّرْكِ في إلَهِيَّتِه، ومنْ شائِبَةِ الشِّرْكِ في إخلاص العمل لله بابتغاء أغراض الدّنيا من الناس مع ابتغاء ثواب الله ورضوانه.

وطالب الذكر والسُّمعة الحسنة والمدح والثناء لدى الناس ممّا يعمل من أعمال دينيَّةٍ صالحة، سيَجِدُ ذَلِكَ ضِمْنَ سُنَنِ الله السَّبَبِيَّة، والله يُهَيِّىء ذَلِكَ له تحقيقاً لسنّته، ولكنّه لا يجعل له في الآخرة نَصيباً، وقد دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

ودلّ عليه أيضاً أحاديث نبويَّة صحيحة، منها:

(١) روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارَكَ وتعالى: أنا أغْنَى الشُّركاء عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِل عَمَلاً أشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

(٢) وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«قال الله عزّ وجلّ: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فأنا مِنْهُ بَرِيءٌ، وهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ».

(٣) وروى الإمام أحمد بسنده عن محمود بن لبيد رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ».

قالوا: وَمَا الشركُ الأصغرُ يا رسول الله؟

قال: «الرِّياء، يقول الله عزّ وجلّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُراءُونَ في الدُّنيا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً».

تُراءُون في الدنيا: أي: تراءُونهم.

(المسند ج ٥ ص ٤٢٨)

* وَطَالِبُ التعظيم والتبجيل والتقديس والاحترام من الأعمال الصالحة الدينيّة التي يعْمَلُها سَيَجِدُ في الناس من يُعَظِّمُونه ويُبَجِّلُونه ويُقَدِّسونه من أجل ما شاهدوا ويُشاهدون من مظاهر أعماله الصالحة التي يعملها، ضِمْنَ سُنَنِ الله السَّبَبيَّة، واللَّهُ يُهَيِّىءُ ذلِكَ لَهُ تحقيقاً لسنته، ولكنَّهُ لا يجعل له في الآخرة ثواباً عليها.

* وطالب مَتَاعِ الحياة الدنيا من التظاهر بأعماله الدينيَّة الصالحة التي يعملها يؤتيه الله ثوابَهُ من متاع الحياة الدنيا، ولا يَجْعَلُ الله له في الآخرة ثواباً عليها.

* * *

أمثلة

(١) من الناس من يتظاهر بالورع الشديد عن مواطنِ الشبهات، وَعَن فِعْلِ المكروهات، فضلاً عن المحرّمات كبائِرِها وصغائرها، وهو في سِرِّه من مرتكبي الكبائر الكبرى التي لا يأتيها الْفُسَّاق.

(٢) ومن الناس من يتظاهر بالإكثار من نوافل الصلوات والأذكار والأوراد والتسبيح وتلاوة القرآن أمام الناس، فإذا خلا بينه وبَيْنَ رَبِّهِ لَمْ يَفْعَلْ شيئاً من ذلك.

(٣) ومن الناس من يتظاهر بطول اللّحية وتعظيم السبحة، ويتظاهر بالْبَذَاذَةِ والرَّثَاثَةِ في ثيابه وهيئته، وبِلُبْسِ الْخَشِنِ من الثياب، ولُبْسِ الْمُرَقَّعات والباليات،

ولُبْسِ العِمَّةِ والطَّيْلَسانِ، وكَثْرَةِ العمل بحبّات السُّبْحَةِ إشعاراً بأنَّهُ في حالةِ ذِكْرِ الله، وحضور دائم مع الله، أمام من يُعْجِبُهم من الصالحين الزُّهْدُ والتقشُّفُ وما يُسَمَّى بالصوفية الّتي يبتعِدُ مُدَّعُوها عن شهوات الحياة الدنيا ومظاهر زينتها، ليكونوا فيما يزعمُونَ أهْلاً لاستقبال الإلْهامات والواردات الرَّبّانيّة، وكشف الحُجُبِ عن بعضِ المغيَّباتِ، ولئلاّ يكونوا من الذينَ أذْهبُوا طيباتِهِمْ في الحياة الدنيا.

فإذا خلا في نفسه، أو مع خاصَّته، كان من أكثر الناسِ نَهَماً ولهواً ولَعِباً، وغفْلَةً عن الله، واستغراقاً في انتهاب اللَّذّاتِ ممّا حلَّ أو حَرُمَ، وربّما كان تظاهره وسيلة يُخْفي بها ما يمارسُ في سِرِّه من كبائر إثْمٍ وفُجورٍ ولُصوصيَّة.

(٤) ومن الناس من يتظاهر بإعفاء اللّحية، وتقصير الثوب، وبمجافاة البدع المظهريّة، لدى من يحرصون على الالتزام بالسنة، ويُوجِّهون معظم أنظارهم للمظاهر الجسديَّة والشكليّة، وغرضُه من ذلك أن يثقوا به، فَيُسَهِّلُوا أموره الدنيويَّة لديهم، ولدىٰ من يَسْتجيبُونَ لهم، ثقةً بِسَلَفِيَّتِهِ، وهو لا يفْعَلُ من صالحات السلف إلاّ ما يتظاهر به.

ويَدُلُّ على أنّه مخادعٌ كذّابٌ ما يمارسُهُ دواماً من غيبة ونَميمَةٍ وكَذِبٍ وإفسادٍ بَيْنَ الناس، وإضرار بعباد الله، وتجريح للمخالفين في الرأي الاجتهاديّ من علماء المسلمين الماضين والحاضرين، وقذف الناس بما يفتري من عنده، أو يتخيَّلُه من ظنون، بغية إبعادهم عن مزاحمته في مائدة المنافع المادّيّة التي يَزْدَرِدُ ما يُوضَعُ عليها بِنَهَمٍ شديد، ويَبْتَلِعُ ما طابَ له من متاع الحياة الدنيا، مهما كان شأنُهُ حلالاً أو حراماً أو بين ذلك مما فيه شُبهات.

وربَّما يَتَّخِذُ ما يتظاهر به وسيلةً لإخفاءِ فجوره وآثامه ولصوصيَّتِهِ وتَجَسُّسِهِ لأعداءِ الإسلام والمسلمينَ، الذين يعمل جاسوساً لهم بين صفوف المسلمين المؤْمِنينَ الصادقين.

(٥) ومن الناس من يتظاهر بالورع العلميّ في تحقيق مسائل العلم، والتشدُّد بالْتِزام ما صَحَّ سَنَدُهُ عن المعصوم، والأخذِ بحديثِ رسول الله ﷺ على ظاهره.

فإذا أعْلَنَ رَأياً في الدِّين، أو انتصر لمذهبه في بعض مسائله، ثُمَّ جاء من يخالِفُهُ في ذلك، وأقام عليه الحجّة البرهانيّة النقليّة والعقليّة، تخلّىٰ عن كلّ ورعه السابق،

وَأَصَرَّ على رأيه مكابرةً ومعاندةً للحقّ، انتصاراً لنفسه ورأيه، أو انتصاراً لمذهبه، وانكشف لأهل البصيرة أنّ ورعهُ العلميَّ السابق لم يكُنْ إلاّ ستارةً يسْتُرُ بها انتصاره لمذهبه الذي يتعصَّبُ له.

ولو أنّه كان ذا دينٍ حقيقيّ، وكان يخشى الله حقّاً، لاتَّبَعَ الْحَقَّ أنَّى وجَدَهُ، ولو عند مخالفيه في أُسُسِ مذهبه التي يؤمن بها، لأنّ الدينَ دينُ الله، والاتباعَ فيه اتّباعٌ لله، وليس اتباعاً للرأي أو الهوى، ولا اتّباعاً لإمام بعينه من أئمة المذاهب.

(٦) وقد يتظاهر التاجر أو الصانع أو العامل بأنّه من المتقين المحافظين على صلواتهم، المؤدّين لزكواتهم، الصائمين الحاجين لبيت الله الحرام، التالين لكتاب الله، الذاكرين اللّهَ كثيراً، الملازمين للعلماء والوعاظ ومجالس العلم والخير، ابتغاءَ أن يثق الناس به، فيكونوا من زبائنه في متجره أو مصنعه، أو من مستخدميه في أعمالهم، وابتغاء أن يتعاملوا معه واثقين به، مُغْمِضي عيونهم عمّا يأخُذُ منْهُمْ ويُعْطِيهم، ثمّ يَسْتَغِلُّ هذه الثقة فَيَغُشُّ في بيعه أو في عمله، ويغْبِنُ غَبْناً فاحشاً، ويأكُلُ أموال الواثقين به بالباطل.

(٧) وقد يتظاهر السياسيّ طالبُ الحكم والسلطان والعلوّ في الأرض بالتديُّن والتزام أحكام الشرع الحنيف، لِيَثِقَ به النّاخبون المسلمون المتّقون، فينتخبوه، ويجعلوه وليّ أمُورهم، وهو في حقيقة حالِهِ فاسِقٌ فاجرٌ لا دينَ له، إنّما هَمُّهُ أن يظفر بالسلطة ليُحَقِّق مآربَهُ الشخصيَّة، ففي نفسه حبُّ السلطان والعلوّ في الأرض.

ثم إنّه عن طريق السلطان يستمتع بما يطلُبُ من شهوات وأموال ولذات، مع ما يُحَقِّقُه لنفسه من الاستمتاع بالأمر والنَّهْي والاستعلاء والاستكبار على عباد الله وإشباع شهوة نفسه إلى الحكم.

(٨) وقد يُقاتِلُ المقاتل ليقول الناس: إنّه شُجاعٌ بطل. وقد يتعلّمُ المتعلّم علوم الدّين ليُشار إليه بالبنان أنّه عالم عظيم، وليثني عليه القاصي والدّاني، وينالَ عند الناس سمعةً حسنةً وصيتاً واسعاً. ويُذْكَرَ على ألسنة المدّاحين من الشعراء والخطباء. وقد يتصدّقُ المتصدّقُ بأموالِهِ في وُجُوه الخير والبرّ لتَنْفُقَ تجارته أو صناعته، أو لينالَ بين الناس مَدْحاً وثناءً وذِكْراً حسناً.

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة يَصْعُبُ حصرها.

* * *

إحْبَاطُ عمل المرائي
بالنسبة إلى الثواب الأخروي

ولمّا كان الرّياء في الأعمال الصالحة الدينيّة من النفاق في السلوك الدِّيني، وهو النفاق الأصغر، وكان في حقيقة أمره من الشِّرْك في القصد من العمل، أو من ابتغاء مرضاة الناس فيه لا من ابتغاء مرضاة الله، ولمّا كَانَ الله عزّ وجلّ لا يقبل الشرك في إلهيّته، ولا يقْبَلُ الشِّرْكَ في الْقَصْدِ من الْعَمَلِ الدّينيّ الذي يُوجّهُ في الظاهر له عبادةً أو طاعةً أو تقرُّباً إليه بما يُجبُ من صالح العمل، كان من عدْلِ اللهِ وحكْمَتِه أنْ يَقْصُرَ أجْرَ العامل الْمُرائي على ما يَمْنَحُهُ وَفْق مجاري سُنَنِه من مطلوبٍ له من الحياة الدنيا، وأن يُحْبِطَ عَمَلَهُ عنده، فلا يَجْعَلَ لَهُ نصيباً من الثواب يوم الدين، إذْ يُقالُ له يومئذٍ: لقد أخَذْتَ أجْرَكَ في الدنيا مِمَّنْ كانَ عَمَلُكَ منْ أجْلِه، أو جرت سُنَّةُ اللهِ بمَنْحِكَ الثوابَ الّذي كنْتَ تَطْلُبُهُ من متاعِ الحياة الدنيا، وإشراكُكَ غيرَ اللهِ مع اللهِ في قَصْدِكَ من الْعَمَلِ الدّينيّ أخْرَجكَ عنْ دائرةِ الإخلاص لله في الْعَمَل، وكانَ اللهُ في الدّنيا قد أبانَ لَكَ أنّه لا يقبل من العمل الصالح الذي يرضاه إلّا ما كان خالصاً لوجهه، فلا تلومَنَّ إلّا نفسك.

وقد دلّت النصوص من القرآنِ والسُّنّةِ على هذا الإحباط، وفيما يلي طائفة منها:

* * *

من نصوص التحذير من الرياء
المحبط لعمل المسلم عند الله

(١) روى البخاري عن أبي موسى الأشعريّ قال: جاء رجُلٌ إلى النّبي ﷺ فقال: الرّجُلُ يُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ شجاعَةً، ويُقاتِلُ رِياءً، فَأيُّ ذلكَ في سبيلِ الله؟ قال:

«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

(الفتح/ رقم الحديث (٧٤٥٨))

(٢) وروَى البخاريُّ عن أبي سعيد الخدريِّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يَكْشِفُ رَبُّنا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ، ويَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ في الدُّنْيا رِيَاءً وسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فيعودُ ظَهْرُهُ طبقاً واحداً».

(الفتح / رقم الحديث (٤٩١٩))

أي: لا يستطيع السجود، لأنّه لم يكن من الساجدين في الدنيا حقيقة، بل كانَ من المرائين الذين يُرِيدُون أن يُقالَ عنهم بين المؤمنين قومٌ متقون.

(٣) وروى البخاري عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، ومَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ».

(الفتح / رقم الحديث (٦٤٩٩))

وعند مسلم:

«مَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللَّهُ بِهِ، ومَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ».

أي: من يقولُ لِيَسْمَعَهُ المسلمون فينَال عندهم صيتاً حسناً، ومَنْ يَعْمَلْ عملاً لِيَرَىٰ الناسُ عمَلَهُ فينال عندهم صيتاً وذكراً حسناً، فإنَّ الله عزّ وجلّ يُجَازِيه من جنس عمله، فيعطيهِ ما يُرِيدُ من ذكر حَسَنٍ في الدُّنيا، ويَحْرِمُهُ من ثوابِ عَمَلِه في الآخِرَة.

(٤) وروى البخاريّ عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «الْخَيْلُ ثَلاثَةٌ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، ولِرَجُلٍ سِتْرٌ، وعلى رَجُلٍ وِزْرٌ.

* فأمَّا الّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَما أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا[1] ذَلِكَ فِي الْمَرْجِ والرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ.

ولَوْ أنها قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ[2]، كَانَتْ آثارُهَا وأَرْواثُها حَسَنَاتٍ له.

(١) الطِّيَلُ والطِّوَلُ والطُّوَلُ: الحبلُ الذي يُرْبَطُ طَرَفُهُ في الدابة ويربط طَرَفُهُ الآخر في وَتِدٍ ونحوه، ويُطَوَّلُ للدابة فترعى وهي مُقَيَّدَةٌ به.

(٢) اسْتَنَّتْ: أي: جَرَتْ. شَرَفاً أو شَرَفَيْن: أي: شوطاً او شوطَيْن.

ولو أنَّها مرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ منه ــ ولَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ ــ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ له. فهي لذلك الرَّجُلِ أَجْرٌ.

* وَرَجُلٌ رَبَطَها تَغَنِّياً وَتَعَفُّفاً، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللّهِ في رِقَابِها ولا ظُهُورِها، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ.

* ورَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْراً وَرِيَاءً وَنِواءً فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ».

(الفتح/ رقم الحديث (٤٩٦٢))

نِوَاءً: اي: معاداةً، يُقَالُ لغةً: نَاوَأْتُ الرَّجُلَ مُنَاوَأَةً وَنِواءً إذا فَاخَرْتَهُ وعَادَيْتَهُ، والمراد معاداة أهل الإسلام، ولو من قبيل المنافسة، كما جاء في بعض الروايات.

(٥) وروى الإمام أحمد بسنده عن بُرَيْدَة الأسْلَمِيِّ قال: خرجْتُ ذاتَ يَوْمٍ لِحَاجَةٍ، فإذَا أَنَا بالنبيِّ ﷺ يَمْشِي بَيْنَ يدَيَّ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي جميعاً، فإذَا نَحْنُ بَيْنَ أيدينا بِرَجُلٍ يُصَلِّي، يكثر الرُّكوعَ والسُّجُودَ، فقال النبيّ ﷺ:

«أَتُرَاهُ يُرائي؟».

فقُلْتُ: اللّهُ ورسُولُه أعْلَمُ، فتركَ يَدِي من يديه، ثم جَمَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يُصَوِّبُهُما وَيَرْفَعُهُمَا، ويقول:

«عَلَيْكُمْ هَدْياً قاصِداً، عَلَيْكُمْ هَدْياً قاصِداً، عَلَيْكُمْ هَدْياً قاصِداً، فَإِنَّهُ مَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبْهُ».

أي: الْزَمُوا التوسُّط والاعتدالَ في العمل من أعمال الدِّين ولا تَغْلوا.

(٦) وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه قال: قلتُ: «يا رسولَ الله أَخْبِرْني عن الجهاد والغزو» فقال:

«يَا عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو، إنْ قَاتَلْتَ صَابِراً مُحْتَسِباً، بَعَثَكَ اللّهُ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَإِنْ قَاتَلْتَ مُرَائِياً مُكَاثِراً، بَعَثَكَ اللّهُ مُرَائِياً مُكَاثِراً.

يـا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْـرو، عَلَىٰ أيِّ حَـالٍ قَـاتَلْتَ أوْ قُتِلْتَ بَعَثَـكَ اللهُ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَالِ».

(مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود/ رقم الحديث (٢٤٠٨))

(٧) وروى أبـو داود عـن أبي مـوسى الأشعـريِّ، أنّ أعـرابيّـاً جـاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ الرَّجُلَ يُقاتِلُ للذِّكْرِ، ويُقاتِـلُ لِيُحْمَدَ، ويُقـاتِلُ لِيَغْنَم، ويُقـاتِلُ لِيُرَىٰ مَكَانُهُ؟» فقال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ أعْلَى فَهُوَ في سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ».

(٨) وروى ابْنُ مَاجَـهْ عَنْ أبِي سَعِيد بن أبي فَضَالَـةَ الأنصـاري قـال: قـال رسول الله ﷺ:

«إذَا جَمَعَ اللَّهُ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فيه، نَادَىٰ مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ، فَلْيَطْلُبْ ثوابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإنَّ اللَّهَ أغْنَىٰ الشُّرَكَـاءِ عَنِ الشِّرْكِ».

(٩) وروى ابْنُ مَاجَهْ عن أبي سَعِيدٍ قال: خَـرجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ونَحْنُ نَتَذاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فقالَ:

«ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟».

قُلْنَا: بلى، فقال:

«الشِّرْكُ الْخفِيُّ، أنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَىٰ من نَظَرِ رَجُلٍ».

(١٠) وروى ابْنُ ماجَهْ عن شدَّادِ بْنِ أوْسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«إنَّ أخْوَفَ مَا أخَـافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الإشْرَاكُ بـاللَّهِ، أمَا إنِّي لَسْتُ أقُـولُ: يَعْبُـدُونَ شمساً ولا قمراً وَلاَ وثناً، ولَكِنْ أعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ، وشَهْوَةً خَفِيَّةً».

(١١) وروى الترمِذِيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ».

قالوا: «يا رَسُولَ الله، ومَا جُبُّ الْحُزْنِ؟» قال:

«وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مائَةَ مَرَّةٍ».

قُلْنَا: يا رسول الله، ومَنْ يَدْخُلُه؟ قال:

«الْقُرَّاءُ الْمُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ».

(قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب)

(١٢) وروى الترمذيّ عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ حدَّثَهُ:

«أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَنْزِلُ إِلَىٰ العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ.

فأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو به رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرآنَ، وَرَجُلٌ قَتِيلٌ في سَبِيلِ الله، ورَجُلٌ كَثِيرُ المال.

فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِىءِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِي؟ قال: بلىٰ يا رَبِّ، قال: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ لَهُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويقولُ الله: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلاناً قارِىءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَىٰ بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ له: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ، حَتَّىٰ لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَحَدٍ؟ قالَ: بَلَىٰ يَا رَبِّ، قَال: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قال: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ له: كَذَبْتَ، وتَقُولُ له الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ. ويَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ: فُلانٌ جَوادٌ، فقدْ قِيلَ ذاكَ.

وَيُؤْتَىٰ بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِيمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّىٰ قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ له المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ. ويَقُولُ اللَّهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ».

ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَىٰ رُكْبَتِي، فقال:

«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

* * *

المراءاةُ هي في الأصل
من صفات الكافِرينَ والمنافقين

لمّا كانت المراءاة هي في الأصل من صفات الكافرين والمنافقين، وجدنا النصوص القرآنية جعلت مُراءاةَ الناس بأعْمال الخير التي ترضيهم من صفات هؤلاء.

(١) ففي سورة (الماعون/ ١٠٧ مصحف/ ١٧ نزول) وصف الله الّذين يكذّبون بالدّين بأنّهم يراءُون ويمنعون الماعون، فقال تعالى فيها بشأنهم:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

(٢) وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وصف الله الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر بأنّه يُنفِقُ مَالَهُ إذا أنفقه رِئاء النّاس فقال تعالى فيها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ... ۝٢٦٤﴾.

(٣) وَفي سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) وصف الله المشركين الّذين خرجوا من مكة إلى معركة بَدْر بأنّهم خرجوا بطراً وَرِئاء الناس، فقال تعالى فيها خطاباً للذين آمَنُوا:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٤٧﴾.

(٤) وفي سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) وَصَفَ الله الكافرينَ الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر بأنّهم إذا أنفقُوا أمْوالَهُمْ فإنّهم ينفقونها رِئاء النّاس، فقال تعالَى فيها:

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ۝٣٨﴾.

(٥) وفي سورة (النساء) أيضاً وَصَفَ الله عزّ وجَلّ المنافقين بأنّهم يُرَاءُونَ النّاسَ

في أعمالهم ذاتِ المظهر الإسلاميّ، فقال تعالى فيها:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾.

وما هو من صفات الكافرين والمنافقين أساساً في السُّلوك القوليّ والعمليّ، قد يكون من صفات المؤمنين المسلمين على سبيل المعاصي غير المكفِّرة، أو المقاصد المحبطَةِ للعمل عند الله عزّ وجلّ، بمعنى إبطال كونه عملاً صالحاً يُثِيبُ اللَّهُ عليه يوم الدين.

* * *

(٣)
نِفَاقُ الجاسُوسيّة

الجاسوسيّةُ الّتي تعمل لصالح منظماتٍ شعبيّة أو حكوميّة في حدود دولة معيّنة، أو على مستوىً عالميّ يشمل الدُّولَ والشعوب، ذاتُ أُسْلوبٍ من النفاق شديدِ المكر، خفيّ الوسائل، ذي نِظَامٍ وترتيباتٍ غايَةٍ في التدبير الشيطاني المحكَم، قائمٍ على دِراساتٍ نَفْسِيّةٍ واسعات، وخُطَطٍ مَدْرُوسة، وتجاربَ طويلة، وتدْريباتٍ مُضْنياتٍ تُكْسِبُ الْجَاسُوسَ مَهاراتٍ فائقاتٍ، يسْتطيعُ بها نَقْلَ معلومات للّذينَ ينافق من أجلهم، ويَعْمَلُ لصالحهم، قد تَبْلُغُ قيمةُ الخَبرِ الواحدِ منْها القناطيرَ المقنطرة مِنَ الذَّهبِ ونَفيسِ الجواهر الكريمة.

وقد تتحقّق بالجاسوسيّة فائدةٌ لمستخدم الجاسوسِ المنافق أكْثرَ ممّا تحقّقه حرْبٌ يُضَحّىٰ فيها بعشرات الألوف من الجيش المحارب.

وقد يُدَمّرُ جاسُوسٌ واحدٌ أُمّةً كاملةً، وَقَدْ يكُونُ سَبَباً في إسقاط عَرْشِ مُلْكٍ قَوِيّ الأَرْكان، مَتِين البنيان، وفي إسقاطِ دولة عُظْمَىٰ وامبراطوريّةٍ ذاتِ قُوىً تُرْهِبُ الْعَالَم.

وتُنْفِقُ الدُّول العظمى على الجاسوسية إنفاقات تَصِلُ إلى مِثْلِ ميزانيّة جَيْشٍ

بِمُعَدَّاتِه، وتُسَمِّي منافقيها من الجواسيس، والعاملين في خدمتها في الخفاء، أسماء مختلفة، مثل: المخابرات، الجيش السّرّي، البوليس السرّي، إلى غير ذلك من أسماء تمويهيّة، وهي جميعاً تعني الذين يعملون في الخفاء، ويلبَسُونَ مختلف الأقنعة المزوّرة النفاقيّة من رجالٍ ونساء، مهمتهم دواماً أن يكذبوا ويُظْهِرُوا خلافَ ما يُبْطِنُون، ويخادعوا من يتعاملون معه، لاصطياده وإيقاعه في شركهم، واستجراره إلى حبائلهم، أو لسرقة معلومات منه تفيد الجهة الّتي يعملون لها، وتضرّ الجهة التي يحاربونها حرباً سرّيّة باردة أو ساخنة.

والمنافقون من الجواسيس قَدْ يَصِلُون من البراعة وإتقان عمليّة النفاق إلىٰ أن يُنَافِقُوا عدّة جهاتٍ متعارضة متعادية، ويظهروا لكُلِّ جِهَةٍ بأنّهم منهم، ويعملون في خدمةِ مصالحهم ضدّ الجهات الأخرى التي يعملون أيضاً في خدمتها.

فبعض الجواسيس قد يكونُ مزدوج الجاسوسية، وبعضُهم قد يكون مثلّث الجاسوسية، وبعضهم قد يكون مربّعها، أومخمّسَها، وكلّما كان أكثر ذكاءً ودَهاءً وَقُدْرَةً على إخفاءِ هُوِيَّتِهِ، وخبثاً في طويّةِ نفْسِهِ، كان أقْدَر عَلَىٰ أنْ يُوزِّعَ نفاقه على جهات أكثر، مع تعادي هذه الجهات تعادياً قد يَصِلُ إلى مستوى الحرب الباردة أو الساخنة بينها.

إنّ الجيوش تُحَارِبُ بعضَها بعْضاً من مواقع حذر كلٍّ منها من عدُوِّه، أمّا الجواسيس المنافقون فيحاربون من مواقع الأمن، وهي المواقع التي لا رقابة فيها، وليس فيها تحصِينات تدفع مكايد العدُوِّ المخالط الْمُدَاخِل.

إنّ الجاسوس المنافق هو كاللّصّ المجهول الْمُسَاكِن في الدّار الّذي تَصْعُبُ مراقبته.

من أجل ذلك كانت عقوبة المنافق أشدّ من عقوبة الكافر المعادي المستعلن بعدواته.

ومن أجل ذلك كانت منزلة المنافق في الدرك الأسفل من النار.

* * *

(٤)
النفاق في السياسة والإدارة والحكم

تواضع معظم السياسيّين في العالم، على أنّ السّياسيّ البارع ينبغي أنْ يكون كذّاباً مخادعاً مراوغاً منافقاً مرائياً غدّاراً وخائناً، ينقض العهد ولا يفي بالوعد، يُظْهِرُ دَواماً خلاف ما يُبْطِن، وأنْ يكون مُجْرماً قتّالاً لا رحمة في قلْبِهِ ضدَّ خصومه ومنافسيه، مع التظاهر بأنّه من أكثر الناس رحمةً وشفقةً ورِقّةَ قلْب، ومن أكثر الناس رغبَةً في تحقيق العدل ورفْعِ الظلم وخدمةِ الضعفاء والمساكين، وأكثر الناس صِدْقاً وصراحةً وأمانة، وإذا كان في مجتمع متمسّك بالدّين فعليه أن يتظاهر بالتديُّن، والحرص على تطبيق التعاليم الدينيّة، دون أن يهتَمّ بتطبيق شيءٍ ممّا يتظاهر به، ما لم يكن له مصلحةٌ في ذلك، تخدُمُ سلطانه واحتفاظه به. وأنْ يكون في واقع حاله لا همّ له إلاّ تثبيت حكمه بأيّة وسيلةٍ مهما كانت غير أخلاقيّة، ففي سبيل تثبيت أركان سلطانه يجب أن لا يكون للأخلاق الفاضلة اعتبار لديه مطلقاً، وإلاّ انهارت قواعد حكمه وفقد سلطانه.

وجاء الإيطالي «نيقولا مكيافيلّي ١٤٦٩ ــ ١٥٢٧م» فجعل النفاق السياسيّ أمراً ضروريّاً لمن يتولّى الحكم والسلطان والإمارة، وزعم أنّ الإمارات لا تُنالُ ولا يُحْتَفَظُ بها ما لم تكن قائمة على قاعدة: «الغاية تبرّر الوسيلة» أي: غاية الوصول إلى سلطة الحكم والاحتفاظ بها تُبرّر أيّة وسيلة مهما كانت غير أخلاقيّة، ومهما كانت منافية لتعاليم الدين.

وذكر «ميكيافيلّي» أن تاريخ الإمارات في الأرض شاهدٌ على ذلك، فأكثر طلّاب الإمارة قدرةً على الوصول إليها والاحتفاظ بها، أقدرهم على استخدام الرّياء والنفاق وإتقان وسائلهما، وزعم أنّ الحاكم يُعَرِّض نفسه للهلاك إذا كان سلوكه متقيّداً دائماً بالأخلاق الفاضلة، لذلك يجب أن يكون ماكراً مكر الذئب، ضارياً ضراوة الأسد.

وذكر أنّ الأمير ينبغي أن يحافظ على العهد حين يعود ذلك عليه بالفائدة فقط، أمّا إذا كانت المحافظة على العهد لا تعود عليه بالفائدة فيجب عليه حينئذ أن يكون غدّاراً.

وقال: «بيد أنه من الضروري أن يكون الأمير قادراً على إخفاء هذه الشخصيّة، وأنْ يكون دعيّاً كبيراً، ومُرائياً عظيماً، والناسُ يَصِلُونَ في السّذاجة، وفي الاستعداد

للخضوع للضراوات الحاضرة، إلى الحدّ الذي يجعل ذلك الذي يخدع يجدُ دائماً أولئك الذين يتركون أنفسهم ينخدعون.

وسأنوّهُ فقط بمثْلِ حديثٍ واحد، فالإسْكَنْدَرُ السادس لم يَفْعَلْ شيئاً إلّا أن يخدع الناس، ولم يخطر بباله أن يفعل شيئاً آخر، ووجَدَ الفرصة لذلك، ولم يكن من هو أقدر منه على إعطاء التأكيدات، وتوثيق الأشياءِ بأغْلَظِ الأيمان، ولم يكن أحَدٌ يَرْعَى ذَلِكَ أقلَّ منه، ومع ذلك فقد نجح في خُدْعاته، إذْ كان يعرفُ هذه الأمور معرفةً طيّبة».

واستنتج «مكيافيلّي» من هذا أنّه لا يلزم الأمير أن يكون متحلياً بفضائل الأخلاق المتعارف عليها، ولكن يجب عليه أن يتظاهر بأنّه يتّصف بها، وينبغي له أن يَبْدُوَ فَوْقَ كلِّ شيءٍ متديّناً[1].

وسارَ السياسيّون وطلاب الحكم والسلطان وفق مذهب «مكيافيلّي» مرائين منافقين باستثناء المتقين الذين يخشون الله من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وهؤلاء قليلون في التاريخ الإنساني.

* * *

(٥)
النّفاق في التعامل المالي

الأصل في التعامل الماليّ أن يكون قائماً على الصِّدْقِ والأمانةِ والصراحة والعدل والإنصاف والنصيحة، بعيداً عن الغشِّ والخيانة والكذب والغبن الفاحش، حتّى لا يكون وسيلةً لأكْلِ أموال الناس بالباطل.

هذا ما أمر الله به في كلّ ما أنزل على رُسُلِهِ، وهذا الأصْلُ من قواعد التعامل الماليّ موضّحٌ ومشروحٌ في التعاليم الإسلاميّة أوْفَى شَرْحٍ، وأحكامُهُ مفصَّلَةٌ فيه أوْفَى تفصيل.

---

(١) اقرأ مذهب «ميكيافيلّي» وكشف زيف مذهبه في كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف.

وهو ما تدعو إليه فضائل الأخلاق، ومبادىء الحقوق الإنسانية، وإلاّ كان التعامل المالي وسيلة من وسائل ظلم الناس للناس، وتلاعب الشياطين أرباب الْحِيَلِ على أهل الغفلات، والبرءاء الذين ينخدعون بظواهر أحوال المرائين المنافقين، ولا يَكْتَشِفُون ما يُخْفُون وراء هذه الظواهر من أخلاق السَّطْوِ على حقوق الآخرين بالمكر والكيد والحيلة.

ويُلاحظُ أنّ كثيراً من الناس لا يخشون الله وعذابه ونقمته العاجلة والآجلة، فيحتالون في أبواب التعامل المالي، حتّىٰ يأكُلُوا أموال النّاس بالباطل، مستغلّين للوصول إلى الثراء الفاحِش جُهود غيرهم من أهل الكدّ والعمل.

وأكْثَرُ الّذِين يجمعون الأموال الطائلة إنما يجمعونها عن طريق أكل أموال الناس بالباطل، ويحتالون لتَحْصِيلها بحِيَلٍ كثيرةٍ يُمْكِنُ إدْخالُ معظمها تحت عنوان النفاق والرياء، وذلك لأنّ عمدتهم فيها الكذب والغش وخيانة الأمانة والمخادعة، وإظهارُ ما يغُرُّ ويَسُرُّ، وإخفاء ما يُنفِّرُ ويَضُرُّ، وادّعاء الربح المعتدل أو عدم الربح أو الخسارة، كذباً وزوراً، مع حَلِفِ الأيمانِ المغلّظة، وتقديم الوثائق المزوّرة، وكل هذه الخصال هي من خصال المرائين والمنافقين.

ومن الناس من يتظاهر بالأمانة والتقوىٰ وخشية الله، ليأْمَنَهُ الناس على أموالهم في الودائع، أو في المشاركات، فإذا سَقَطُوا في حبائله جَحَد حقوقهم، أو خان الأمانة وهم لا يشعرون، فأكَلَ أموالهم أو بعضَها ظُلْماً وعُدْواناً، واتّخَذَ لذلك ذرائع مختلفة، يُوهِمُ بها أنّه لم يكن خائناً ولا جانياً، وأنه شديد الورع بالنسبة إلى حقوق الآخرين، فهو لا يأخذ مال غيره بغير حقّ، ولا يُدْخِلُ علَىٰ نفسه مالاً حراماً، ولا مالاً فيه شبهة.

وكثيرٌ من التُّجّار والصنّاع والعمّال والموظفين يُظْهِرُونَ خلاف ما هم عليه، ويَلْبَسُونَ أثوابَ زور، ليَسْتُرُوا بها أعمالاً كثيرةً يأكُلُون فيها أموال الناس أو أموال الدولة بالباطل.

ومن حيلهم الغشّ، والتلاعب بالأسعار، وافتراء الوثائق المزوّرة، وحلف الأيمان الكاذبة، وتبديل المتفق عليه بغيره ممّا هو أقلّ من المتّفق عليه قيمة، وسرقة وقت العمل المأجور للقيام بأعمال خاصة تجرّ لِسارِقِ الوقت مكسباً ماليّاً أو منفعةً خاصة،

وربّما يَتَذرَّعُ سارقُ وقتِ الْعَمَلِ بأنّه يُعِدُّ نَفْسَهُ للصلاة، أو نحو ذلك من العبادات.

ومن يتابع قضايا الخلافات المالية الّتي تُعْرَضُ على قُضاةِ محاكم العدل، يكتشف آلافاً من حِيَلِ النفاق، الّتي اسْتَخْدَمَهَا آكِلُو أموال الناس بالباطل، ليتوصّلُوا بها إلى سلْبِ الناس أموالهم.

* * *

(٦)
النفاق بتقديم الخدمات والمساعدات الإنسانية

يلبس المبشّرون بالنصرانية، والمستشرقون، والمستعمرون، والشيوعيون، وسائر أعداء الإسلام والمسلمين أقنعة المساعدات والخدمات الإنسانيّة رياءً ونفاقاً لتحقيق أغراضهم الخاصّة داخل شعوب الأمّة الإسلامية.

* فمنهم مدفوعون بدافع العداء للإسلام والمسلمين، وغرضهم هدم الإسلام، وإبعاد المسلمين عنه، وجعلهم يكفرون به، ليكونوا تابعين لهم في عقائدهم ومذاهبهم، ومنفذين لمآربهم الخاصة في أنفسهم.

* ومنهم مدفوعون بدافع الطمع باستغلال الشعوب المسلمة، ونَهْب ثرواتها، فيُظْهِرُون لهم المودّة، والرغبة في أن يساعدوهم مُساعداتٍ إنسانيّة علميّة أو طبيّة أو مالية أو عسكرية أو صناعيّة أو زراعيّة أو نحو ذلك.

ثم تكون مساعداتهم ذات المظهر الإنساني للشعوب المسلمة بمثابة من يقدّم الطُّعْمَ الطيِّبَ للسّمك في البحر على شوكة حادّة ليصطاد به السّمك، فيتاجر به أو يأكله.

كم أسّس المبشرون من مدارس ومعاهد، وكم أسّس المستشرقون من جامعات، تحت ستار المساعدات التعليميّة الإنسانية، وكان هدفهم تنصير المسلمين، وتطويع الأجيال الناشئة من أبنائهم لِيَقْبَلُوا أن تستعمرهم الدول النصرانيّة التي تنتمي إليها هذه المدارس التبشيرية، والجامعات التبشيريّة والاستشراقية.

وكذلك فعل مؤسسو المدارس العلمانية الموجهة من قبل الدوائر الاستعمارية.

وكم من إرساليات طبيّة تبشيريّة وفدت إلى بلاد المسلمين، فأسَّسَتْ مستوصفات ومستشفيات لطبابة المرضىٰ من المسلمين، وكان هدفهم تنصير المسلمين، أو إخراجَهُمْ من الإيمان بالله إلى الكفر به، وانتزاع مكارم الأخلاق منهم، وتدمير مجتمعاتهم، وتطويع نفوسهم لقبول استعمار الدول النصرانيّة لهم.

وكم قدّمت الدول النصرانية أو العلمانية مساعدات مالية على سبيل قروض بفوائد، وقد تكون مغلّفة بعطاءات على سبيل مساعدات إنسانية، والغرض منها إحكام سيطرتها على البلاد والدول التي قدّمتْ لها هذه القروض والمساعدات، باستعمار مباشر أو غير مباشر.

ومن ذلك أيضاً تقديم المساعدات العسكريّة، وإتْباعُها بإثارة حروب إقليميّة، أو فتنٍ داخليّة تتحوّل إلى حروب أهلية، تُدَمِّر البلاد، وتهلك الناس، وتستهلك الثروات، وتُمزِّقُ الأُمَّةَ إلى فِرَقٍ وأحزاب متعادية يَحْقِدُ بَعْضُها على بعض، فتَبْتَعِدُ بذلك عن مواكبة الارتقاء العلمي والحضاري في مجالات القوىٰ الماديّة والصناعيّة والاقتصادية المختلفة.

ومن ذلك تقديم المساعدات الإداريّة، بإرسال مستشارين إداريين، وتقديم المساعدات السياسية، بإرسال مستشارين سياسيِّين، وتقديم المساعدات القانونية، بإرسال مستشارين قانونيين، والغرض من كلِّ ذلك تحويل بلاد المسلمين عن شرائع الإسلام وأحكامه في هذه المجالات، وتطبيق الأنظمة العلمانية المنافية في أسسها وتطبيقاتها لما جاء في دين الله للناس.

ونظير ذلك المساعدات الصناعية والزراعية التي تأتي باسم مساعدات إنسانية، إلّا أنها جميعاً أقنعة تخفي تحتها أغراضاً ومصالح شخصيَّةً للمنصِّرين، أو المكفِّرين، أو المستعمرين.

* * *

(٧)

النفاق الاجتماعي بين الأفراد

ليس من النفاق الاجتماعيّ المداراةُ، والمجاملةُ، والإكرام وحُسْنُ المقابلة،

وبشاشةُ الوجه، وأنواعُ العطاء المختلفة، والعفو والصفح والمسامحةُ والتغاضي عن السيئات، في التعامل مع المخالفين أو الخصوم أو الأعداء الكافرين، بغية تأليف قلوبهم لاعتقاد مبادىء دين الله الحقّ، ثم العمل بشرائعه وأحكامه، وإزاحة ما في نفوسهم من عقبات صادّة، تحجبهم عن إدراك الحقّ، والاستجابة لدعوته. أو بغية استجلاب مرتكبي المعاصي إلى طاعة الله عزّ وجلّ والعمل بمراضيه، وإنقاذِهم من عذاب الله ونقمته، أو بغيةَ تأليف قلوب الأعداء أو الحاقدين أو الحاسدين، لنزع ما في صدورهم من غلٍّ وحقدٍ وحَسَدٍ وعداوة، وبذْرِ بزور المودّة والمحبّة والأخوّة الصادقة الصافية فيها، حتى تَشُدَّهم روابط الإخاء، فيستعذبوا الولاء والصفاء، بعد أن استحكم فيهم داء العداء.

بل هذه الأعمال الحكيمة الرشيدة هي من الفضائل العظمى، ومن مكارم الشِّيَم ومحاسنِ الأخلاق، وكَمَالاتِ التعامل الاجتماعيِّ الأمثل، لأنّ الغرض منها مصلحةُ من يؤلّفُ قلبُه، وابتغاءُ مرضاة اللّه فيه، وليس للشيطان فيها حظٌّ ما، من جهة كونها وسائل هداية وإصلاحٍ وجَلْبِ خيرٍ لِمَنْ تُوَجَّهُ له، ويُعَامَلُ بها.

إنّما النفاق الاجتماعي ما كان من ذلكَ وسيلةً لإخراج المؤمِنِ من الإيمان إلى الكفر، ومن الإسلام والطاعة إلى المعصية والفجور، ومن مناصرة الحقّ والخير، إلى مناصرة الباطل والشرّ. ومَا كان من ذلك أيضاً وسيلة لاستدراج الإنسان حتّى يغترّ ويستسلم فيقع في مصيدة المنافق، وعندئذٍ يستغله لمصلحته، ويحقّق منافعه أو هواه منه أو عن طريقه، أو يسلُبُه ما يَمْلِكُ من مالٍ أو جاهٍ أو سلطان أو زوجة أو مسكن، أو يوقعه في مهلكةٍ ما حسداً وبغياً وظلماً.

* * *

أمثلة

* فمن أمثلة النفاق الاجتماعيّ التظاهر بالأمانة التامّة من مستوى الورع الذي لا يتورّعُهُ إلاّ الصّدّيقون، ليغترّ صاحب المال فيُسَلِّمَ مالَهُ في قرضٍ حسن، أو مشاركة في عمل ما، أو نحو ذلك، حتّى إذا تمكّن المنافق من الظفر بما يُريدُ ممَّنْ نافقَهُ، قَلَبَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ، وتغيّر عمَّا كان عليه من ورع وأمانة، فجحَدَ المالَ، وابْتَلَعَ ما كانت قد

وَصَلَتْ يَدُهُ إليه، وظهر على حقيقته باغياً ظَالِماً مُجْرِماً، ولصًّا خائناً.

* ومن أمثلة النفاق الاجتماعي تظاهر أَحَدِ الْخَاطِبَيْن أو كليهما بالحبّ والعطاء والتفاني في الخدمةِ وحُسْنِ المعاشرة، والتزام الأدب والحشمة ومكارم الأخلاق، والجود والتسامح والصفح والمعونة، للتغرير والظُّفرِ بإتْمام عقْدِ الزواج، حتَّى إذا تمكَّنَ المخادع منهما من تحقيق ما أراد من صاحبه ظهر على حقيقته، وانكشف أنّ كُلَّ ما كان قد تظاهر به لم يكُنْ إلاّ رياءً ونفاقاً ومخادعة وكذباً وزوراً، وشبكة وضعها ليصطاد بها ما كان يطمع في الحصول عليه، والظفر به لدى من نافَقَ له وخادعه.

ولمّا ظفر بما أراد سقط القناع، وظهرت من ورائه نفس الذئب الماكر الخدّاع، فتنكر لكلّ ما كان يتظاهر به، وساء خلقه، وساءت معاملته، واستشرى طمعه وجشعه.

• • •

الفَصْلُ الخامِسُ

مُلَخَّصُ صِفَاتِ ٱلمُنَافِقِينَ ٱلنَّفْسِيَّةِ وَآثَارُهَا فِي سُلُوكِهِمُ ٱلظَّاهِرِ وَٱلبَاطِنِ اقْتِبَاساً مِنَ ٱلنُّصُوصِ ٱلقُرْآنِيَّةِ ٱلآتِي تَدَبُّرُهَا فِي ٱلقِسْمِ ٱلثَّانِي

(١)

مقدمة

النصوص القرآنية الآتي تدبُّرها إن شاء الله في القسم الثاني من هذا الكتاب، والبالغة (٣٤) نصّاً من (١٦) سورة قد اشتملت على جَمّ غفير من صفات المنافقين النفسيّة، وآثارها في صفاتهم السلوكيّة الباطنة والظاهرة، وقد بلغ إحصاؤها بعد استخراجها من دلالات النصوص (١١٤) صفة نفسيّة وصفة سلوكية، في السلوك الباطن والظاهر، وما جاء مكرّراً منها قد ذكرته النصوص اللّاحقة للدلالة أنّ معالجتهم بوسائل التربية المختلفة الإقناعية والترغيبيّة والترهيبيّة والفاضحة والمنذرة بتعريتهم ومحاسبتهم ومعاقبتهم بيد الرسول وأيدي المؤمنين، من دون العذاب الأكبر الذي سيُعَذَّبونه يوم الدِّين، لَمْ تكُنْ ذات جدوى بالنسبة إلى بعضهم، الذين ما زالوا على قبائحهم الّتي كانوا عليها منذ مردوا على النفاق.

ويحسُن بنا أن نستعرض هذه الصفات في فصل خاصّ قبل دراسة النصوص المشار إليها دراسةً تدبُّريّة، وضمّ هذا الفصل إلى فصول القسم الأوّل من هذا الكتاب، المشتمل على مقدّمة وتعريفات عامّة.

فبيان صفات المنافقين من القضايا التي تدخل تحت عنوان التعريفات العامّة.

وقد سبق بيان صفات المنافقين الواردة في بيانات الرسول ﷺ، لدى شرح النفاق

الأصغر، وهي كما يلي جمعاً من عدّة أحاديث وردت في صفاتهم:

١ ـ الكذب في القول والعمل.

٢ ـ إخلاف الوعد.

٣ ـ الغدر بنقض العهد.

٤ ـ خيانة الأمانة.

٥ ـ الفجور في المخاصمة.

٦ ـ تحيّتهم لعنة.

٧ ـ طعامهم نُهْمَة (أي: يتناولون الطعام بشهوة مفرطة).

٨ ـ غنيمتهم غلول.

٩ ـ لا يدخلون المساجد إلّا قليلاً.

١٠ ـ لا يأتون الصلاة إلّا دُبُراً.

١١ ـ الاستكبار.

١٢ ـ لا يألفون ولا يُؤْلَفُون.

١٣ ـ خُشُبٌ باللّيل، أي: كالخشب لا يذكرون الله.

١٤ ـ سُخُبٌ بالنّهار، أي: يُكثرون الصياح والضجيج من أجل دنياهم.

١٥ ـ يتهرّبون من شهود صلاتي العشاء والفجر.

١٦ ـ عُصاةُ لله ورسوله.

١٧ ـ جبناء عند لقاء الأعداء في الحرب.

* * *

(٢)
ملخّص صفات المنافقين المقتبسة من النصوص القرآنية

أخذاً من النص (١) من سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول)
الآيتان (١٠ ـ ١١)

الصفة (١):

من صفات بعض الذين أسلموا دون أن يتمكّن الإيمان في قلوبهم أنّهم إذا تعرضوا لأذًى على أيدي الكافرين من أجل إسلامهم أعطوهم من بواطنهم ما يريدون،

وساروا معهم في الكفر، وربّما استبْقَوْا ظاهر انتمائهم إلى الإسلام نفاقاً لئلاّ يُدانوا بالردّة عن الإسلام.

* * *

أخذاً من النص (٢) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)
الآيات من (٨ ــ ٢٠)

الصفة (٢):
من صفات المنافقين أنّهم كذّابون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فيقولون آمنّا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين، إذْ قلوبهم منكرة جاحدة، فهم يكذبون عن تعَمُّدٍ وإصرارٍ في أخطر قضيّةٍ من قضايا الوجود والحياة، هي قضيّة الدين.

الصفة (٣):
أنهم مخادعون، فهم فيما يتظاهرون به من قول أو عمل يقصدون مخادعة المؤمنين، ليأمنوا جانبهم وليأمنوا جانب أعدائهم الكافرين، وليظفروا بالمغانم والمنافع من كلا الفريقين بحسب تصوّرهم.

الصفة (٤):
أنّهم مصابون بمرض خلُقيٍّ في قلوبهم، وهو ليس من أصل فطرتهم، لكنّه من مكتسباتِ إراداتهم فهو مرض مكتسب، وبسببه سلكوا مسلك النفاق.

الصفة (٥):
أنهم يُفْسِدون في الأرض بأقوالهم وأعمالهم، فإذا قيل لهم: لا تُفْسِدوا في الأَرض بَهَتُوا الحقيقة بكلّ وقاحة، وجعلوا الباطل حقّاً والحقّ باطلاً، دونما حياءٍ ولا تلجلج وقالوا: إنّما نحن مصلحون، وأخذوا يدّعون بأن سلوكهم المنافق المفسد هو من الأعمال الإصلاحية.

الصفة (٦):
أنّهم يدعون لأنفسهم الذكاء ورجاحة العقل والحكمة في تدبير الأمور، ويتّهمون المؤمنين بالسفاهة، أي: بنقص العقل وبأنهم محرومون من الحكمة والفطنة وحسن تدبير الأمور وتفهُّم غاياتها.

والحقيقة أنّ المنافقين هم السفهاء ولكن لا يعلمون، لأنّ أهـواءهم طمست على بصائرهم.

الصفـة (٧):

أنّ لهم أكثـر من وجه، وأدناها وجهـان، لهم وجه يستعلنـون به إذا لقـوا الذين آمنـوا، ولهم وجه آخـر يتوارون به ولا يُظْهِرُونه إلاّ إلى شيـاطينهم، أي: إلى إخـوانهم الكافرين أمثالهم، أو إلى الموسوسين لهم بأن يسلكوا مسْلَك النفاق من شياطين الإنس كاليهود، ويُعلّلون لإخـوانهم هذا التلوُّنَ بـأنهم يستهزئـون بالمؤمنين، أي: يستغفلونهم ويخدعونهم ويغرّرون بهم ويترصَّدُون غِرّاتهم للإيقاع بهم، أو التخلّي عنهم في أوقات الشدائد.

الصفـة (٨):

أن المنافقين صنفان:

الأول: صنف مـردوا على النفاق، فهم صُمٌ بكم عُمْي، لـذلك فهم لا يـرجعون إلى الحقّ ولا إلى طريق الهدى.

الثاني: صنف ما زال مـذبذبـاً بين الإيمان والكفـر، لكنّه إلى الثبـات في موقـع الكفر أقرب.

* * *

أخذاً من النص (٣) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً
الآيات من (٧٥ ــ ٨٢)

الصفـة (٩):

أنّ المنافقين من اليهود يغلب في شأنهم أنّ احتمال صدق إيمانهم مستقبـلاً يكاد يكون ميؤوساً منه، لعدّة عوامل نفسيّة قائمة لدى المجتمع اليهودي فصّلها النصّ.

* * *

أخذاً من النصّ (٤) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً
الآيات من (١٤٢ ــ ١٤٥)

الصفـة (١٠):

إثارة الشبهات والتشكيكات حول شرائع الإسلام وأحكامه ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

دلّ على هذه الصفة موقف المنافقين من قضيّة تحويل القبلة إلى الكعبة المشرّفة، بعد أن كان بيت المقدس هو القبلة التي يتوجهون لها في الصلاة.

* * *

أخذاً من النص (٥) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً
الآيات من (٢٠٤ ـ ٢٠٧)

الصفة (١١):
من المنافقين فريق يُعجِبُ قولُه في الحياة الدنيا من يلاقيه، ويدّعي أنّ قلبه ينطوي على الخير وحبّ الخير وابتغاء الخير، ويُشهِد الله بالأيمان على ما يدّعي أنّه في قلبه، وهو في الحقيقة من أكثر الناس مجادلةً بالباطل، وانحرافاً عن الحقّ.

فإذا تولّى عن مجلس محدّثه أو تسلّم سلطة ولاية سعىٰ في الأرض ليُفْسِد فيها ويُهْلِك الحرث والنّسل، وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة التي هو فيها مكبّلاً بسلاسل الإثم، فابتعد عن تقوى الله، وسارت به حتى أوصلته إلى أودية الجرائم العظيمة وأنواع البغي والطغيان.

* * *

أخذاً من النص (٦) من سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول)
الآيات من (٤٩ ـ ٥٥)

الصفة (١٢):
أن يقول المنافقون إذا تعرّض المؤمنون بسبب دوافع إيمانهم لمَا يُظَنُّ معه الهلاك أو الخيبة، كتورّطهم في معركة هم فيها دون عدُوّهم عدداً وعُدّةً: غَرَّ هؤلاء دينُهم.

أي: خدعهم وأطمعهم بالباطل دينهم، فاندفعوا بسفاهة وقلّة عقْلٍ اعتماداً على معونات غيبيّةٍ تأتيهم يتخيّلونها دون أن يكون لها في الواقع وجود.

والسبب في إطلاقهم هذه المقالة أنّهم غير مؤمنين، أو في قلوبهم مرض الشكّ والتردّد حول صدق ما جاء في الإسلام.

* * *

أخذاً من النص (٧) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول)
الآيات من (٦٩ ــ ٧٤)

الصفة (١٣):

من صفات المنافقين خطّة الدخول في الإسلام نفاقاً، ثم الارتداد عنه، إغراءً لغيرهم بالرّدّة، وقد بدأ هذه المكيدة طائفة من اليهود.

* * *

أخذاً من النص (٨) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً
الآيات من (١١٨ ــ ١٢٠)

الصفة (١٤):

من صفات المنافقين أنّهم إذا تمكنوا من أن يكونوا بطانة لقادة المؤمنين، لم يقصّروا في أعمال إفساد أحوال المؤمنين، وتوهين قواهم، وتمزيق صفوفهم، ومؤازرة أعدائهم ضدّهم، حتّى استئصال شأفتهم.

الصفة (١٥):

أنّهم يتمنّون أن ينزل بالمؤمنين كلّ بلاء وعنتٍ ومشقة وضرر، وهذا يدفعهم إلى اتخاذ الوسائل لتحقيق ما يتمنّون، وإلى تدبير المكايد ضدّهم.

الصفة (١٦):

أنّ أمارات بغضهم الشديد للمؤمنين تظهر فعلاً من أقوالهم وفلتات ألسنتهم، رغم شدّة حرصهم على إخفاء هويّتهم.

الصفة (١٧):

أنّ منافقي اليهود هم أخطر المنافقين وأخبثهم وموجّهوهم، مع أن المفروض أن يكونوا بخلاف ذلك.

الصفة (١٨):
إنْ تمسّ المؤمنين حسنةٌ تَسُؤ المنافقين، وإنْ تُصِبِ المؤمنين مصيبةٌ يفْرحِ المنافقون بها.

* * *

أخذاً من النص (٩) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً الآيات من (١٥٢ ــ ١٥٨)

الصفة (١٩):
إذا تحولت رياح النصر عن المؤمنين حين يكونون معهم في المعركة نزل بالمنافقين الهمّ والغمّ والخوف الشديد. واستولت عليهم الظنون التي هي من ظنون الجاهلية، وانطلقت ألسنتهم بالتلويم، مثل قولهم في معركة أُحُد: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا هٰهنا.

وحين لا يكونون مع المؤمنين في المعركة انطلقت ألسنتهم بما يكشف كفرهم في الباطن، مثل قول المتخلّفين عن غزوة أُحُد والمتخذلين عن الرسول بشأن الذين قُتلوا فيها من إخوانهم: لَوْ كَانُوا عِنْدنا مَا مَاتُوا وما قُتِلُوا.

* * *

أخذاً من النص (١٠) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً الآيات من (١٦٥ ــ ١٦٨)

الصفة (٢٠):
تخلّف المنافقين عن مشاركة المؤمنين في قتال أعدائهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وتعلُّلهم بمعاذير كواذب، كقولهم في غزوة أُحُدٍ للمؤمنين:

﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

جواباً على دعوتهم لهم بقولهم:

﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾.

وكقول المنافقين بعد غزوة أُحُدٍ بشأن من قُتِلَ من إخوانهم فيها:

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

الصفة (٢١):

حينما يقدّمون المعاذير الكواذب الّتي يظنّون أنّها ذاتُ قُوَّةٍ يَمْلَؤُون بها أفواههم مُتَشدِّقين، كأنّهم أصحاب حقٍّ.

وهذا تابع في الحقيقة لصفة الفجور في الخصومة التي هي من أصول صفات المنافقين.

* * *

أخذاً من النص (١١) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً الآيات من (١٧٦ ـ ١٧٩)

الصفة (٢٢):

إنّ الذين يبدؤون خطوات النفاق، يسارعون في الكفر حين توجّه لهم امتحانات صعبة، كالقتال في سبيل الله، أو المصائب الشديدة في الأموال والأنفس، لأنّ الشيطان يستحوذ عليهم بوساوسه وتسويلاته حينئذٍ.

* * *

أخذاً من النص (١٢) من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) الآيات من (٩ ـ ٢٧)

الصفة (٢٣):

التباطؤ لدى مشاركة المؤمنين في الأعمال الإسلامية العامة، كحفر الخندق في غزوة الأحزاب، والمراءاة بالعمل، والتستّر بالقيام بأهون الأعمال وأضعفها، والتسلّل إلى أهليهم بغير إعلامٍ ولا استئذان.

الصفة (٢٤):

إطلاق ألسنتهم بكلمات وعبارات الكفر عند الشدائد التي يتعرض فيها المسلمون لاحتمالات انتصار الكفّار عليهم.

كقولهم في غزوة الأحزاب: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

وكقول مُعَتّب بن قُشير، وكان من المنافقين: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط.

الصفة (٢٥):

إطلاق ألسنتهم بعبارات الإرجاف والتخذيل، والفرار من المعركة، والرجوع عن مواجهة العدوّ.

كقول طائفة منهم في غزوة الأحزاب: يا أهل يثرب لا مُقامَ لكم فارجعوا.

الصفة (٢٦):

التحايل للانسحاب من مواجهة العدوّ تعلُّلاً بأعذار كاذبة، وتوجيه طلبات الاستئذان بالرجوع إلى بيوتهم.

كقول طائفة منهم في غزوة الأحزاب مستأذنين بأن يرجعوا إلى المدينة، من أماكن المواجهة دون الخندق: إنّ بيوتنا عورة، مع أنّها في الحقيقة ليست بعورة، إنّما يريدون الفرار من المعركة.

الصفة (٢٧):

التخلّف والتثبيط والتعويق عن الخروج لمواجهة العدوّ، فهم لا يأتون للمشاركة في البأس إلاّ قليلاً، وحين يحضرون فإنّما يفعلون ذلك رياءً ومصانعة ومخافة أن ينكشف نفاقهم انكشافاً جليّاً لعموم المسلمين.

فقد كان المتخلّفون في غزوة الأحزاب يقولون لإخوانهم: هَلُمَّ إلينا، أي: تعالوا إلينا واتركوا مواقعكم، فعندنا الأمن والراحة والظلّ والطعام والشراب.

الصفة (٢٨):

كشف الله في هذا النصّ ممّا يكتمون في صدورهم أنّه لو دخل جيش المشركين المدينة وطلب منهم الكفر أو تسليم الرسول والمؤمنين لفعلوا ذلك، ولانحازوا إلى صفوف أهل الشرك والكفر من العرب واليهود.

وقد تحقّقت في الواقع هذه الظاهرة من صفات المنافقين في أحداثٍ كثيرة تاريخيّة، دخل فيها الغزاة الكفّار بلاد المسلمين، فكانوا أنصارهم وأعوانهم ومؤيديهم والمنحازين إليهم، وانكشفت فيها خياناتهم، وأنهم في الباطن كفّارٌ غير مؤمنين.

الصفة (٢٩):

أنّهم شحيحون على المؤمنين بأموالهم وأعمالهم ومعوناتهم وبكل شيء من أنفسهم وممّا يملكون، وأنّهم شحيحون عليهم أيضاً بمثل ذلك من غيرهم، فهم يكرهون أن يبذل أحدٌ لهم ماله أو عمله، أو شيئاً ما من نفسه أو ممّا يملك، وأنهم شحيحون على كلّ خير.

والسبب في ذلك أنّهم غير مؤمنين بجدوى البذل لصالح المؤمنين، أو البذل في سبيل الخير.

الشحيح: هو أشدُّ البخلاء بخلاً، فهو يبخل بماله وبمال غيره.

الصفة (٣٠):

أنّهم يُصابون بالذعر الشديد، إذا أقبلت الوسائل المخيفة، ولاسيما إذا كانوا في معارك قتالية.

ومن مظاهر ذعرهم الشديد أن تدور أعينُهم كدوران عيْني الذي يُغْشى عليه من خوف الموت، فيُغَطِّى وعيُه وإدراكه ذعراً وهلعاً بسبب انفعال الخوف في نفسه.

إنّهم في ساعات الخوف جبناء صامتون مُبْلسون منهارون، لا تتحرّك أسلحتهم ولا أيديهم بل تدور أعينهم ذعراً وهلعاً.

الصفة (٣١):

أنّهم إذا ذهبت أسباب الخوف واطمأنّوا وأحسُّوا بالأمن، انطلقت ألسنتهم بجرأةٍ صائحين في وجوه المؤمنين بكلام شديد عنيف يؤذيهم، وتمادوا مبالغين في خصومتهم لأتفه الأسباب.

وهذا يرجع إلى صفة الفجور فيهم، فمن علامات المنافق أنّه إذا خاصم فجر.

وللمنافقين عندئذٍ موقفان:

(١) فإن كانت المعركة لصالح العدوّ أخذوا يوجهون اللّوم والتشريب للمؤمنين، ولقائد معركتهم، ولبطانته الصادقة المخلصة، ويتبجّحون بصحة آرائهم الانهزامية.

(٢) وإن كانت المعركة لصالح المؤمنين أخذوا يطالبون بأوفر النصيب من

الغنائم، وتَعْلُو أصواتهم، ويتبجَّحُون ببطولاتهم، مع أنّهم كانوا جبناء انهزاميين.

الصفة (٣٢):

أنهم لا فائدة تُرجَىٰ من مشاركتهم للمؤمنين في معارك القتال، لأنّهم لا يقاتلون إلّا قتالاً قليلاً.

الصفة (٣٣):

أنهم مرجفون خلال معارك القتال. والإرجاف هو الإخبار بالأكاذيب لإثارة الفِتَن والاضطرابات، وإحداث الرجفان من الخوف.

* * *

أخذاً من النص (١٣) من سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) أيضاً الآيات من (٣٦ ــ ٤٠) والآية (٤٨)

الصفة (٣٤):

مشاركة الكافرين في ترويج مقالات السوء ضدّ الرسول ﷺ.

ففي زواج الرسول «زينب بنت جحش» مطلّقة «زيد بن حارثة» الذي كان الرسول قد أعتقه وتبنّاه، ردّد الكافرون والمنافقون معاً مقالة السوء حول شخص الرسول ﷺ، إذْ كانوا يقولون: إنّ محمّداً يحرّم نكاح نساء الأولاد، وقد تزوّج امرأة ابنه «زيد» الذي كان قد تبنّاه بعد أن أعتقه.

* * *

أخذاً من النص (١٤) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) الآيات من (٥٩ ــ ٧٠)

الصفة (٣٥):

إرادة المنافقين أن يتحاكموا إلى الطاغوت، استجابة لوساوس الشيطان الّذي يريد أن يضلّهم ضلالاً بعيداً، مع أنّهم مأمورون في تعاليم الدين أمراً صريحاً جليّاً أن يكفروا بالطاغوت، فلا شبهة لهم ولا عذر، لكن بواعث الكفر هي التي تدفعهم إلى إرادة التحاكم إلى الطاغوت في خصوماتهم.

* * *

أخذاً من النص (١٥) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً الآيات من (٧١ ـ ٨٤)

الصفة (٣٦):

التباطؤ والتهاون والتواني عن الخروج مع المسلمين لقتال عدوّهم، وهذه الصفة من مكررات ظواهرهم السلوكيّة الدالة على نفاقهم.

الصفة (٣٧):

تثبيط من يستجيب لهم من الجبناء وضعفاء الإيمان، وهذه الصفة من مكرّرات ظواهرهم السلوكيّة الدالة على نفاقهم.

الصفة (٣٨):

تحدّث بعضهم بالفرح والمسرّة إذا أصاب الخارجين من المسلمين للقتال مصيبة أو مضرّة، ويرى أنّ الله قد أنعم عليه إذْ لم يشهد مع المؤمنين قتال عدوّهم، فنجا بذلك ممّا نزل بهم.

الصفة (٣٩):

التحسّر والنّدم على ما فاتهم من الفوز بالغنيمة، إذا انتصر الخارجون من المسلمين، وأصابوا من عدوّهم غنائم.

وهم مع هذا التحسّر والنّدم يحسُدونَ الخارجين على ما أصابوا من غنائم حسَدَ مَنْ لم يكُنْ ذا وُدٌّ سابقٍ، فيقول القائل منهم:

﴿ يَـٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾.

الصفة (٤٠):

من ظواهرهم في السلوك أن بعضهم كان له موقفان متناقضان وهما ما يلي:

(١) قبل الإذن بالقتال كانوا يُطالِبُون بأن يؤذن لهم به، فيُؤْمَرُونَ بأن يكفُّوا أيديهم.

(٢) وبعد أن كتب الله على المسلمين القتال دبّ الخوف في قلوبهم فصاروا يخشون الناس كخشية الله، أو أشدّ خشية، وقالوا:

* ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾؟
* ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾.

الصفة (٤١):

من ظواهرهم في السلوك ما يلي:

(١) إنْ تُصِبْهُمْ حسنةٌ من نصرٍ أو غنيمةٍ أو أيِّ أمْرٍ قدريٍّ يسُرُّهم، كغيْثٍ وخصبٍ وسعة رزقٍ وصحة وبنين قالوا: هذه من عند الله، أي: لم تأتهم ببركة دعاء الرسول وبسبب إكرام الله له.

(٢) وإنْ تُصِبْهُمْ سيئةٌ من مصيبة في الأنفس أو في الأموال، من أمور قدرية يبتليهم الله بها قالوا: هذه من عند محمّد، أي: لم يُحْسِن التصرّف في إدارته أو في قيادته في السّلم والحرب.

(٣) أمّا من كان منهم ذا كفر وعنادٍ وقد مَرَد على النفاق، فإنّه يقول مقالة المشركين من قبل: إنّ ما نزل بنا من سيّئات ومصائب إنّما كان من شُؤْم دعوة محمّد الّتي فرّقت قومه، وجَلَبت النزاع والخلاف والحروب.

الصفة (٤٢):

من ظواهرهم في السلوك التناقض بين ما يُعْلِنون للرّسول أو إمام المسلمين من بعده من الطاعة والخضوع عند المواجهة، وبيْنَ ما يُبيّتُونَ إذا خرجوا من عنده من المعصية والمخالفة، والعمل بغير ما كانوا قد أعلنوه له.

الصفة (٤٣):

ومن ظواهرهم في السلوك ظاهرة إفشاء أمور المسلمين ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، والعمل على إذاعتها ونشرها، سواءٌ أكانت من أمور السلم أو أمور الحرب.

والسبب في هذا أنهم لا يشعرون في أنفسهم بالولاء للمسلمين، فهم لا يهتمّون لكتمان ما يضرُّ المسلمين إذاعته.

* * *

أخذاً من النص (١٦) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٨٨ ـ ٩١)

الصفة (٤٤):
أنّهم إذا تهيّأت لهم فرصة مظاهرة الكافرين من وراء المؤمنين ظاهروهم ضدّ المؤمنين.

الصفة (٤٥):
تَمنّي المنافقين أن يكْفُر المؤمنون حتّى يكونوا مثلهم سواءً في الكفر والسلوك.

وبذلك يتخلّص المنافقون من التناقض الذي هم عليه بين ظاهرهم وباطنهم.

وظاهر أنّ دوافع هذه الأمنيّة دوافع شيطانيّة خبيثة.

* * *

أخذاً من النص (١٧) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً
الآيات من (١٠٥ ـ ١١٦)

الصفة (٤٦):
من ظواهرهم في السلوك ظاهرة ارتكاب الجرائم وإلقاء تهمة ارتكابها على البرآء من الناس.

* * *

أخذاً من النص (١٨) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً
الآيات من (١٣٦ ـ ١٤٧)

الصفة (٤٧):
من صفات المنافقين المذبذبين بين الإيمان والكفر، أنّهم يؤمنون ثم يكفرون، ثم يؤمنون ثم يكفرون، وهكذا.

فهم في نوبة الإيمان يتطلّعون إلى الكافرين ذوي القوّة الظاهرة، فيبتغون أن يستندوا إليهم، ويتقوّوْا بهم، ويوالوهم من دون المؤمنين. وهذا يدفعهم إلى أن يكثروا من مجالستهم في مجالسهم، ويغضوا النظر عمّا يسمعون منهم من كفر بآيات الله المنزّلات على رسوله، واستهزاءٍ بها، ويخالفون ما سبق أن نهى الله المؤمنين عنه.

وهم في نوبة الكفر يَظَلُّون محافظين على الانتماء إلى الإسلام في الظاهر نفاقاً.

وهذا التردّد يجعلهم في حالة تربُّص دائم بين المؤمنين والكافرين، يراقبون الأحداث بين الفريقين، فمن غلب أو غنم منهما انقلبوا إليه مطالبين بالمشاركة، زاعمين له أنّهم منه، وهم يسلكون أسلوب المخادعة لسَتْر حقيقتهم.

ومن صفات هذا الصنف من المنافقين في ظاهرات السلوك النفاقيّ، وهو أيضاً من علامات سائر المنافقين غالباً، ما يلي:

(١) أنّهم مخادعون.

(٢) أنّهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى.

(٣) أنّهم يراءون الناس في أعمالهم الإسلاميّة، والمرائي لا يستطيع أن يكون منفعلاً انفعالاً ذاتيّاً مع العمل الذي يؤدّيه رياءً ومخادعة.

(٤) أنّهم لا يذكرون الله إلاّ قليلاً.

(٥) أنهم مذبذبون يتأرجحون بين المؤمنين والكافرين في ولائهم، وفي سلوكهم، فلا هم في الحقيقة منتمون إلى هؤلاء المؤمنين، في أقصىٰ جهة اليمين، ولا هم منتمون في الحقيقة إلى هؤلاء الكافرين في أقصىٰ جهة الشمال.

ويظلّون في حياتهم قلقين لا ثبات لهم، يتذبذبون على أرجوحة التنقّل بين الأضداد.

* * *

أخذاً من النصّ (١٩) من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول)

الآيات من (١٢ ـ ١٥)

الصفة (٤٨):

أنّهم باختيارهم الحرّ عرّضوا أنفسهم للفتنة والعذاب، بالضلال الإرادي، والْغواية، وإبطان الكفر، ورفض الحقّ.

الصفة (٤٩):

أنّهم يتربّصون أن تدور الدائرة على المؤمنين، حتّى يُعْلِنُوا كفرهم، وينقضُّوا عليهم مع الكافرين الصّرحاء.

الصفة (٥٠):

أنّهم ينظرون إلى براهين الحقّ الرّبّاني بالشّكّ والارتياب، في حين يتّبعون الباطل وضلالات الكفر بالأوهام والتقليد الأعْمَى.

الصفة (٥١):

أنّهم يتّبعون الأمانيّ الّتي تُطْمِعُهم بالباطل، وكلّما ظهرت خيبتهم نقلوا أمانيهم إلى زمن آخر، وهكذا حتى تَحِلّ بهم مناياهم دون تحقيق أمانيهم.

الصفة (٥٢):

أنّهم سَلّموا أنفسهم لوساوس الشيطان، فغَرّهم باللّهِ رَبّهم، وأطْمَعَهُمْ بأنّ الله لا يُنْزِلُ بهم عذابه، وبأنّ أخبار رسُل الله عن يوم الدّين أخبار غير صادقةٍ عن ربّهم.

* * *

أخذاً من النصّ (٢٠) من سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول)
الآيات من (١٦ ــ ٣٢)

الصفة (٥٣):

أنّهم في مجالس العلم الديني يتصنّعون التظاهر بأنّهم يستمعون الأقوال ويُصْغُون إليها، لكنّهم في الحقيقة منصرفون عنها في نفوسهم، فلا يَصِلُ إلى أدمغتهم وقلوبهم منها شيء.

إنّ قلوبهم مطبوع عليها بسبب انصرافهم عنها، وعدم إيمانهم بها أصلاً وفرعاً.

وممّا يدُلّ على هذا أنّهم حين يخرجون من مجالس العلم الدينيّ يقولون عقبها مباشرة: ماذا قال المحدّث في حديثه آنفاً.

الصفة (٥٤):

أنّهم كانوا إذا أُنزلت آياتٌ فيها الدّعوة إلى الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وقتال الكافرين، أصابهم الْهَلَعُ والْجزَعُ، فجعلوا ينظرون إلى الرسول ﷺ نظر الْمَغْشِيِّ عليه من الموت.

الصفة (٥٥):

أنّهم يقولون للكافرين سِرّاً: إنّنا لا نستطيع أن نُعْلِن ردّتَنا عن الإسلام، ولكن

سنطيعُكم في بعض الأمر، فندفع عنكم ونحن ضمن صفوف المؤمنين، ولا نكونُ جادّين في عداوتكم معهم، ولا في قتالكم إذا قاتلوكم، ونحن نوصل إليكم من المعلومات المفيدة لكم ما نستطيع إيصاله إليكم، دون أن ينكشف أمرنا عند المؤمنين.

الصفة (٥٦):

أنّهم يحملون في قلوبهم الأضغان والأحقاد ضدّ الإسلام والرسول والمؤمنين، وهذه الأضغان تشتمل على العداوة للإسلام والمسلمين ومن لوازمها إرادة الكيد، وتربُّص الفرص الملائمة لمحو الإسلام، واضطهاد المسلمين وتمزيقهم وإبادتهم.

الصفة (٥٧):

أنّ أهل الفراسة من المؤمنين يستطيعون أن يكتشفوا نفاقهم من علامات تظهر على وجوههم، وتبدو في بعض تصرّفاتهم.

الصفة (٥٨):

أنهم لا بُدّ أن تظهر في فلتات ألسنتهم، وما يرمزون إليه في لحن القول، أماراتٌ تدلُّ على هُوِيّتهم الحقيقيّة، يُدْرِكُ ذلك أهل الفطنة من الناس.

الصفة (٥٩):

طرحُهُم التشكيكات والشبهات بأسلوب أسئلةٍ يوجّهونها تتضمّن إلقاء الشكوك في قلوب ضعفاء الإيمان.

* * *

أخذاً من النص (٢١) من سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول)
الآيات من (١١ ــ ١٧)

الصفة (٦٠):

خيانتهم للمؤمنين بالاتصال بأعدائهم المحاربين لهم ووعدهم بأنْ ينصروهم ويَشُدّوا أزرهم، ويكونوا معهم، وأن لا يطيعوا أحداً في شأنٍ يضرُّ بهم.

الصفة (٦١):

جبنهم وعدَمُ وفائهم بوعودهم لإخوانهم من أهل الكفر، لأنّهم بنفاقهم

وتظاهرهم بأنّهم من المسلمين يخشون أن يكتشف المسلمون المؤمنون أمرهم خشيةً عظيمة، فينتقموا منهم بالعدل.

* * *

أخذاً من النص (٢٢) من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول)
الآيـة (١١)

الصفة (٦٢):
تصيُّد المناسبات لإشاعة الأكاذيب والافتراءات ونشرها، بغية تشويه صورة المؤمنين الطاهرين، والمؤمنات الطاهرات، بما يرمونهم به من ارتكاب الكبائر، حقداً على الإسلام والمسلمين.

ومن الأمثلة افتراء حديث الإفك وإشاعته ونشره.

* * *

أخذاً من النص (٢٣) من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) أيضاً
الآيـة (٣٣)

الصفة (٦٣):
الاستمرار على عادات الجاهلية دون اكتراث لنصوص الشريعة الإسلامية الّتي ألزمت بتغييرها، والاعتراض على التدخّل في الأمر من قِبَل القيادة الإسلاميّة، تذرّعاً بالمفهومات التقليديّة الجاهليّة القديمة.

ومن أمثلة ذلك استمرار «عبد الله بن أُبَي ابن سلول» على إكراه إمائه على الزنا، لتحصيل أجور فروجهنّ، مع أنّ الله قد حرّم على الإماء الزنا كما حرّمه على الحرائر، وجعل عليهنّ نصف ما على المحصنات من العذاب، ولم يرتدع حتى نزل صريح قول الله تعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . ﴿٣٣﴾﴾.

* * *

أخذاً من النصّ (٢٤) من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٤٧ ـ ٥٤)

الصفة (٦٤):

أنّهم لا ينفّذون بالتطبيق العملي مقتضيات إعلانهم بألسنتهم أنّهم آمنوا بالله وآمنوا بالرّسُل، والتزامهم بطاعة الأوامر والنواهي، بل يبتعدون ابتعاداً كاملاً عن مواقع الإيمان والطاعة.

الصفة (٦٥):

من الظواهر السلوكية للمنافقين أنّهم لدى خصوماتهم مع غيرهم أصحاب سلوكين مختلفين:

(١) فإنّ أحدهم إنْ كان يَعْلَمُ أنّ الحقّ له فإنّه يأتي متظاهراً بالإذعان والاستسلام لحكم الله والرسول، ليحكم له الرسول، أو ليحكم له الحاكم المسلم من بعده.

(٢) وإنْ كان يعلم أنّ الحقّ لخصمه أعرض متحايلاً، وتهرّب من التحاكم لحكم الله ورسوله، وطلب التحاكم إلى غير ذلك.

وهذه صفة الذين يطلبون التحاكم إلى القانون المدني، ويرفضون التحاكم إلى حكم الشرع الإسلامي، حينما يرون أنّ القانون يساعدهم على هضم حقوق خصومهم، وأنّ حكم الشرع الإسلامي لا يساعدهم على ذلك.

الصفة (٦٦):

المبالغة بإعطاء الوعود المؤكدة بالأيمان المشدّدة، وهم كاذبون في ذلك، لا يطبقون من وعودهم شيئاً.

ومن الأمثلة أنّ بعض المنافقين أقسموا للرسول جَهْدَ أيمانهم قائلين له: لَئِنْ أمرتنا بأن نخرج إلى القتال في سبيل الله، أو بأنْ نخرج منْ أموالنا وأهلينا لنخرجَنَّ طاعةً لكَ، وإيماناً واحتساباً، لكنّهم لدى التطبيق العملي تبيّن أنّهم كاذبون.

* * *

أخذاً من النص (٢٥) من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) أيضاً الآيات من (٦٢ ــ ٦٤)

الصفة (٦٧):

أنّهم إذا حضروا المجامع العامّة ذات الأهميّة العظيمة للإسلام والمسلمين ضاقت صدورهم، وثقُل عليهم أن يتصنَّعُوا الصبر على ما يجري فيها، ممّا لا يؤمنون به ولا بجدواه، وصَعُبَ عليهم أن يحبسوا أنفسهم مع المؤمنين طوال مدّة الاجتماع، ولا سيما إذا كانت فيه واجباتٌ عمليّة يضطرّون أن يشاركوا فيها، وهم لا يريدون أن يكشفوا أنفسهم عن طريق الاستئذان بالانصراف لقضاء بعض شؤونهم، لأنّ مدّة الغياب ستكون محسوبة عليهم، ولأنّ كثرة تهرّبهم من مشاركة المسلمين في أمورهم قد تكشف نفاقهم.

ولذلك فهم يتسلّلون مُسْتَخْفِين خروجاً وغياباً وعودة إن رجعوا، دون استئذان.

الصفة (٦٨):

سوء أدب المنافقين لدى مخاطبتهم الرسول أو قائد المسلمين، لأنّهم لا يُكِنُّون له الحبّ والاحترام والتوقير والتعظيم.

لذلك فهم بالتلقائية العاديّة التي لا يتصنّعون فيها يخاطبونه كما يخاطب الناس بعضهم بعضاً، ويدعونه كما يدعو الناس بعضهم بعضاً.

* * *

أخذاً من النص (٢٦) سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) وآياتها (١١) آية

الصفة (٦٩):

تظاهرهم بإعلانهم أنّهم يشهدون أنّ محمّداً رسول الله، أي: يدّعون أنّ ما يُعْلنونه بألسنتهم من أنّ محمّداً رسول الله مطابق لما يعتقدون في قلوبهم، والله يَعْلَمُ إنّهم لكاذبون.

الصفة (٧٠):

يتّخذون خَلِفَ الأيمان المؤكّدة ستارةً يَسْتُرونَ بها نفاقهم ومكايدهم ضدّ الإسلام والمسلمين، وأحداثُهم المريبة التي يُحدثونها، وعَدَمَ التزامِهم بسلوك سبيل الله كُلّما ابتعدوا عن أعين الرقباء من المؤمنين.

الصفة (٧١):

أنّ قلوبهم مقفلةٌ مطبوع عليها، لا تتلقّىٰ ما يُوجَّه لهم من تعليمٍ دينيٍّ ونصيحةٍ وترغيبٍ وترهيب.

الصفة (٧٢):

من المنافقين من هم ذوو أجسامٍ تُعْجِب الناظر إليها، وأصحابُ أقوالٍ متمّقةٍ تجذب لاستماعها، فيخدع بأجسامهم وأقوالهم الذين تَغُرُّهم المظاهر، ولا يبحثون عن البواطن.

وهؤلاء إذا حضروا مجالس العلم الدينيّ والذكر مع المؤمنين اختاروا لأنفسهم الأماكن التي يُسْنِدون إليها ظهورهم، كالْجُدُرِ والسواري، لأنها مريحةٌ لهم، وذات وجاهةٍ.

لكنّهم لا يَعُونَ ممّا يُقَالُ في هذه المجالس من علم وذكر شيئاً، لانصراف أذهانهم وقلوبهم، فهم كالْخُشُبِ المسنَّدة على الْجُدُر لئلا تسقط، وهذا يَدُلُّ على أنّهم كالنائمين ظاهراً أو باطناً.

الصفة (٧٣):

أنهم في حالة خوف وحذَرٍ دائم، إذْ هم يخشون أن ينكشف أمْرُهم، فيُؤْخَذُوا ويعاقبوا على كذبهم ونفاقهم وخياناتهم.

ولشدّة حَذَرِهم وتوقُّعِهم أن يفتضح كفرهم وينكشف أنهم منافقون، يحسبون كلّ صيحةِ تحذيرٍ مُريبةٍ صَيْحةً عليهم، ويحسبون أنّهم المعنيّون بها، وذلك بسبب ما يعرفون من أنفسهم في باطن أمرهم.

الصفة (٧٤):

أنّهم أشدُّ أعداء الإسلام والمسلمين، وإذا بحثنا عن السبب النفسيّ لهذا العداء الشديد، نلاحظ ما يعانون من آلام التناقض بين ما يتكلفون إظهاره وهم لا يؤمنون به، ويتكلّفون إبطانه وإخفاءه وهو عقيدتهم التي يؤمنون بها، والسلوك الذي يرتاحون لممارسته، فهذا هو السّبب.

لذلك فهم جديرون بأن ندعو الله أن يقاتلهم، إذْ لم يأذن للمؤمنين بأن يقاتلوهم

ما داموا يسترون كفرهم وعداءهم، ويظهرون إسلامهم وولاءهم.

الصفة (٧٥):

إذا ارتكب مستكبروهم ذنباً من الكبائر، أو أحدثوا حدثاً هو من مظاهر نفاقهم، ودعاهم بعض المؤمنين إلى الرسول ليعتذروا وليطلبوا منه أن يستغفر لهم، أعلنوا الرفض، بحركةٍ في رؤوسهم، وحركةٍ في أجسادهم، فهم يَلْوُون رؤوسهم، ويحجمون بأجسادهم.

والسبب في ذلك أنّهم غير مؤمنين بالرسول، وهم في نفوسهم مستكبرون.

الصفة (٧٦):

أنهم لا يألون جهدهم دواماً في التخذيل، والسَّعْي الدائب لصرف الناس عن مناصرة الإسلام والمسلمين، وتوهين قوة المؤمنين، وتقليل جماعتهم.

الصفة (٧٧):

تجرُّؤ زُعمائهم أحياناً وفي أحوال خاصة على إطلاق العبارات الّتي تدلُّ على عداوتهم الشديدة، ورغبتهم في إثارة فتنة، أو إقامة حرب، أو افتعال ثورة ضدّ جماعة المؤمنين وقائدهم.

ومن أمثلة هذا ما حصل من عبد الله بن أُبيّ ابن سلول إذْ قال في غزوة بني المُصْطَلِق: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعزُّ مِنْهَا الأَذَلّ.

* * *

أخذاً من النص (٢٧) من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول)
الآيات من (٥ ــ ١٠)

الصفة (٧٨):

أنّهم يمارسون في معظم تصرّفاتهم الوقوف في حدود معارضة ومخالفة لحدود الله.

وذلك بما يرتكبون من إثم وعدوان ومعصيةٍ للرسول ﷺ، فيفعلون كما يفعلُ الكافرون الصرحاء، إلاّ أنّ المنافقين يستخفون بأعمالهم ومواقفهم.

الصفة (٧٩):

أنّ لهم مجالس ومجامع وأحاديث سرّيّة يتناجون فيها بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، مَعَ أنّ الله عزّ وجلّ قد نهاهم عن التناجي وحذّرهم منه سابقاً، وذلك في الآية (١١٤) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول).

الصفة (٨٠):

أنّهم يقلّدون اليهود في تحيّاتهم للرسول وللمسلمين، ضمْنَ لَحْنِ القول الذي يمارسونه، كأن يقولوا في التحيّة: السّام عليك (أي: الموت) بدل: السلام عليك.

* * *

أخذاً من النص (٢٨) من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) أيضاً الآيات من (١٤ ــ ٢٢)

الصفة (٨١):

أنّهم يتخذون اليهود الذين غضب الله عليهم أولياء من دون المؤمنين، فهم ينصرونهم، ويستنصرون بهم، ويوادّونهم.

وهذه الصفة ملاحظة في المنافقين داخل الأمة الإسلامية منذ عصر الرسول ﷺ، حتى عصرنا الذي نعيش فيه الآن.

إنّهم يتّخذون اليهود الّذين غضب الله عليهم أولياء من دون المؤمنين، إذْ يجدون لديهم من الأهواء والشهوات ورغبات النفوس من الحياة الدنيا ما لا يجدونه لدى المؤمنين الصادقين.

الصفة (٨٢):

أنّ صفة الكذب واتّخاذ الأيمان الكاذبة ستارة يسترون بها كفرهم ونفاقهم ستلازمهم طوال رحلة حياتهم في الدنيا ما داموا منافقين، وسيُبْعَثُون إلى الحياة الأخرى وستظلُّ هذه الصفة ملازمةً لهم.

فهم إذا وقفوا في موقف الحساب بين يدي ربّهم يلجؤون إلى الكذب وحلف الأيمان الكاذبة أيضاً، لعلها تنجيهم عند ربّهم كما كانوا يصنعون في الدنيا، إذْ كانت

أكاذيبهم وأيمانهم الفاجرة تنجيهم من نقمة الرسول والمؤمنين عليهم، فقد كانُوا يُعَاملون ــ بمقتضى أمْر الله ــ بحسب ظاهرهم.

لكِنَّ أكاذيبهم وأيمانهم الفاجرة يوم الدين ستزيد من نقمة الله عليهم، ولا تنفعهم بشيء.

* * *

أخذاً من النص (٢٩) من سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول)
الآية (٩)

الصفة (٨٣):

وصول المنافقين إبّان نزول سورة (التحريم) إلى حالة من السُّوء تستدعي الأمر بمجاهدتهم بمختلف أنواع الجهاد التي تشمل في النهاية أقصاها الذي هو القتال.

* * *

أخذاً من النص (٣٠) من سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول)
الآيات من (١ ــ ١٧)

الصفة (٨٤):

شدّة غيظهم وحنقهم من انتصار المسلمين، ومن تهيئةِ الوسائل لانتشار دعوة الإسلام في الناس، وتكاثر المستجيبين لها.

الصفة (٨٥):

توقُّعهم استئصال شأفة المسلمين، حينما يجدون أنّ قوى أعدائهم تفوق قوّتهم بنسبة كبيرة، ولا يحسبون حساباً للمقادير والمعونات الربّانية لهم، وما يحيطهم به من رعاية وحماية.

الصفة (٨٦):

ملازمة تلفيق المعاذير الكاذبة كلّما تخلّفوا عن واجبٍ من الواجبات الإسلاميّة العامّة.

الصفة (٨٧):

مطالبتهم أن يشاركوا المؤمنين الصادقين في الخروج معهم لغزو قوم ضعفاء، من السهل الانتصار عليهم، ولديهم غنائم كثيرة، تُنال بأضعف مواجهة.

ووقاحتهم في توجيه الانتقادات إذا لم يُسْمَحْ لهم بالمشاركة عقوبة لهم على تخلّفهم عن الخروج، حينما كانوا يَرَوْن أنّ القوم الذين سيخرجون إليهم أولو بأس شديد، ومن الصعب الانتصار عليهم، والظفر منهم بالغنائم.

* * *

أخذاً من النص (٣١) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول)
بعض الآية (٤١)

الصفة (٨٨):
أنّهم يملؤون أفواههم تبجُّحاً بادّعاء أنّهم آمنوا، مع أنّ قلوبهم لم تؤمن، شعوراً منهم بأنّ المؤمنين يرتابون في صحة إسلامهم، فهم يملؤون أفواههم بالادّعاء مع رفع الصوت، وسيلةً من وسائل التغطية والتأثير على المؤمنين بغية نزع الارتياب فيهم من قلوبهم.

* * *

أخذاً من النص (٣٢) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٥١ ــ ٥٣)

الصفة (٨٩):
الذين في قلوبهم مرض الشكّ والرّيب وضعف الإيمان القريب من النفاق، ولم يَصِلْ بعْدُ إلى حضيضه، قد تظهر فيهم صفة مصانعةِ اليهود والنصارىٰ، خشية أن تدور الدائرة على المسلمين، فتشملهم مصائبها.

وهم يتصوّرون أنّهم بمصانعة اليهود والنصارى التي يتخذونها يحمون أنفسهم، ويكون لهم عندهم يدٌ يكافئونهم عليها.

* * *

أخذاً من النص (٣٣) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٥٧ ــ ٦٣)

الصفة (٩٠):

مُسَارعَة كثير من المنافقين في ارتكاب الإثم والعدوان وأكل المال الحرام، كالرّشوة وأكل الرّبا، ونحو ذلك.

والسبب في ذلك أنّ إسلامهم ظاهري فقط، لا يَعْتَمِدُ على قاعدة إيمانيَّة.

* * *

أخذاً من النص (٣٤) من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول)
الآيات من (٤٢ ــ ١٢٩ آخر السورة)

الصفة (٩١):

المعاودة إلى اتّخاذ وسيلة الإرجاف لتثبيط جمهور المسلمين عن الخروج مع الرسول إلى القتال.

فقد برزت هذه الصفة حين الدعوة إلى غزو الروم فيما يُعْرَفُ بغزوة تبوك.

الصفة (٩٢):

من الظواهر السلوكية للمنافقين أنّ لهم موقفين حين الدعوة للخروج إلى القتال في سبيل الله.

(١) فحين يكون الخروج إلى القتال سَفَراً هيّناً سهلاً، وفيه طَمَعٌ بغنائم فإنّهم يخرجون مع المؤمنين طمعاً بالغنائم.

(٢) وحين يكون الخروج إلى القتال سفراً شاقّاً صعباً، واحتمال الظفر فيه وتحصيل الغنائم ضعيفاً، فإنهم يتخلّفون، مستأذنين مع تلفيق الأعذار، أو غير مستأذنين، وحين لا يستأذنون يأتون بعد المعركة فيلفقون الأعذار الكواذب، ويحلفون بالله على صدقهم فيها.

الصفة (٩٣):

مَعَ مرور السنين التّسع، وعيش المنافقين ضمن المسلمين، فقد بقي حالهم كما كان منذ بداية العهد المدني، وهو كما يلي:

(١) إذا نزل بالمسلمين ما يَسُرُّهم ويُفرحهم ساءَ المنافقين ذلك.

(٢) وإذا نزل بالمسلمين ما يسوؤهم ويُحزِنُهم سرّ المنافقين ذلك وأفرحهم.

(٣) وحين تكون مصيبة المسلمين بسبب خروجهم لقتال عدوّهم، وكان المنافقون قد تخلّفوا عن الخروج، فإنّهم يقولون: لقد كنّا حذرين أذكياء، فلم نُورّطْ أنْفُسَنا كما ورّط المسلمون أنفسهم، ويتولّوْن وهم فرِحون.

هذه الظواهر الثابت تكرُرُها تَدُلُّ على أنّ الكافر في باطنه لا تتغيّر حاله تُجاه المؤمنين، مهما طالت مخالطته لهم، ما لم يتحوّلْ باطنه إلى الإيمان بما يؤمنون به، وعندئذٍ يَصْفُو ولاؤه لهم.

الصفة (٩٤):
أنّهم لا يأتون إلى أداء الصلاة إلّا وهم كُسَالَىٰ.

وقد سبق في النص (١٨) من سورة (النساء) بيان أنّهم إذا قاموا إلَىٰ الصلاة قاموا كسالى، فتكامل النّصان، وذلك أنّهم إذا حضروا لأداء الصلاة مع جماعة المسلمين من مواضع وجودهم فإنّهم يأتون وهم كُسالَىٰ، وإذا قاموا لأدائها بعد حضورهم قاموا كُسَالى أيضاً.

والسبب أنّهم كافرون لا يُؤْمنون بجدوى الصلاة.

الصفة (٩٥):
أنهم لا ينفقون نفقة واجبة أو غير واجبةٍ إلّا وهم كارهون، لأنّهم إنّما ينفقونها تقيّةً غير مؤمنين بأنّ لهم مصلحةً من إنفاقها، إذ هم كافرون.

الصفة (٩٦):
حينما تبدر منهم بوادر تُثِير ريبة المؤمنين فيهم، فَيُوجّهون لهم الأسئلة الاستفساريّة عن حقيقة هويّتهم، وصِدْقِ إيمانهم، يُسارِعُون إلى تغطية ما بدر منهم، بأن يَحْلِفُوا الأيمان للمؤمنين على أنّهم منهم، فيقولون لهم: والله إنّنا لمنكم.

وما هم في الحقيقة منهم، بل هم كافرون، قلوبُهم مع إخوانهم في الكفر، لا مع الذين آمنوا.

الصفة (٩٧):
أنّ المنافقين يتجدّد خوفهم الشديد إلى حدّ الجزع من أن يُنزل المؤمنون بهم

عقوبة الرِّدة، كلّما اكتشف المؤمنون بعض أمارات نفاقهم، وارتابوا بهم، ووجّهوا لهم عبارات الاستفسار عن هُوِّيتهم الحقيقيّة، أو نظرات الارتياب، فهم عندئذٍ يَفْرَقُونَ فرقاً شديداً، فيسترون أنفسهم بالأيمان الكواذب.

الصفة (٩٨):

أنهم من شدّة ذُعرهم عند ظهور أمارات نفاقهم للمؤمنين، يتمنَّوْنَ لو أنّهم يجدون أيّ مَخبأ يستترون به، ولو أنهم وجدوا ذلك لَوَلَّوْا إليه بسُرْعةٍ فائقةٍ كسُرعَةِ الْجَمُوحِ من الخيل.

الصفة (٩٩):

كان من المنافقين من يَلْمز الرسول في توزيعه للصدَقات، إذا لم يُعْطِهم منها، نظراً إلى أنهم غير مستحقّين، وهي زكوات تُصْرَفُ في الأصناف الثمانية، لكنّهم أهل طمع يرغبون في أن يأخذوا من الزكاة بغير استحقاق.

إنّهم إنْ أُعْطُوا منها رضوا ولو لم يكونوا من مستحقّي الزكاة، وإنْ لم يُعْطَوْا منها لعدم استحقاقهم، إذا هُمْ يسخطون.

وهذه الصفة ظاهرة في منافقة كلّ عصرٍ وأمّة ضدّ أولياء الأمور مهما عدلوا وأنصفوا.

الصفة (١٠٠):

من المنافقين من كان يؤذي النبيّ ﷺ باتّهامه بأنّه أُذُنٌ، أي: كالأذن التي تنقل ما تسمع، دون تمحيص وتثبّت ولا محاكمة عقليّة، فهو يتأثر بما يَسْمَع ويُخْبِرُه به المخبرون.

وهذه الصفة متكرّرة أيضاً في منافقة كلّ عصر وكلّ أمّة، ضدّ أولياء الأمور، مهما كان أولياء الأمور أهل عقل وحكمة ورويّة وتثبُّتٍ وبصيرة.

الصفة (١٠١):

أنّ المنافقين صنف متميّز عن سائر أصناف الناس، إذْ هُمْ متشابهون في صفاتهم النفسية والسلوكيّة.

الصفة (١٠٢):

أنّ المنافقين يأمرون بالمنكر ويَنْهَوْنَ عن المعروف، وهذا الوصف يتلاءم مع كفرهم في الباطن.

الصفة (١٠٣):

أنّ المنافقين بخلاء شحيحون، يقبضون أيديهم عن البذل في وجوه الخير، والبذل في الفضائل الإنسانية العامّة، زيادةً على بخلهم عن البذل في مصالح الإسلام والمسلمين.

الصفة (١٠٤):

أنّهم هم الفاسقون المنفردون بالدركة السفلىٰ من الفسق، فلا يشاركهم فيها أحَدٌ، أخذاً من قوله تعالى في السورة:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

الصفة (١٠٥):

أنّهم ينقضُون عهودهم ووعودهم ولا يَفُونَ بها، ولو كانت مع ربّهم إذا عاهدوه أن يُطِيعُوا بشرط أن يحقّق لهم ما طلبوا.

الصفة (١٠٦):

أنّهم يلمزون المؤمنين الصادقين في بعض أعمالهم التي يعملونها كالصدقات، ويتّهمونهم بأن لهم أغراضاً دنيوية من أعمالهم.

إنّهم يقيسون المؤمنين على أنفسهم، كما قال المتنبي:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِن تَوَهُّمِ

الصفة (١٠٧):

أنّهم يفرحون بقُعودهم وتخلُّفهم عن الخروج مع المؤمنين إلى قتال الكافرين، وهذا الفرح من لوازم كفرهم في الباطن.

الصفة (١٠٨):

أنّهم يكرهون أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وهذه الكراهية من لوازم كفرهم في الباطن.

الصفة (١٠٩) :

إصرارهم في كلّ معركة على تثبيط من يستجيب لهم عن الخروج إلى قتال الكافرين.

الصفة (١١٠) :

من منافقي الأعراب من يرىٰ أن ما يُكَلّفُ أنْ يدفعه زكاة ماله، أو غير ذلك من الواجبات المالية، مَغْرَمٌ يغْرَمُهُ بغير حق، فلو كانت له قوّة تحميه لامتنع عن بذل ما يُضْطرّ لبذله.

والسبب في هذا أنّ الأعراب يشعرون بأنّهم سادة أنفسهم في الصحراء، فليس عليهم واجبات اجتماعية يبذلونها، بخلاف أهل الحضر فإنّهم يشعرون بأنّ على الأفراد واجبات نحو المجتمع، ولو لم يأمُرْ بها الدّين.

الصفة (١١١) :

من منافقي الأعراب من كانوا يتربّصون بالرسول وبالمؤمنين أن تدور عليهم الدوائر.

ويظهر أنّ هؤلاء قد كانوا من المرتدين الذي ارتَدُّوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ.

الصفة (١١٢) :

التآمر على الأمّة الإسلاميّة مع أعدائها، وقد دلّ على هذه الصفة أحداث بناء مسجد الضِّرار، إرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الراهب الذي تآمر مع دولة الروم في الشام ضدّ الرسول ودولة الإسلام في المدينة.

الصفة (١١٣) :

الاستخفاف والاستهزاء بما كان ينزل من القرآن، غير مكترثين لما نزل فيه من بيانات فاضحات لهم، وكاشفات لصفاتهم النفسيّة وآثارها في ظواهرهم السلوكية، مع أنّها من البراهين الدّالة علىٰ أنّ القرآن كلام الله المطلع على قلوبهم ونفوسهم وأسرارهم، وما كانوا يدبّرون في الخفاء.

فكان يسأل بعضهم بعضاً: أَيُّكُمْ زاده ما نزل من قرآنٍ إيماناً.

سؤال يتضمّن الاستهزاء بما نزل من القرآن، والاشمئزاز منه.

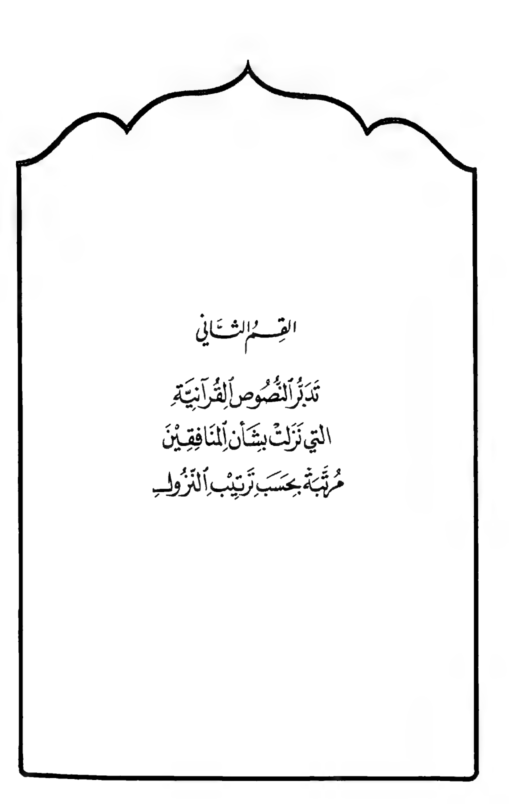
الصفة (١١٤):

الانسلال من المجالس التي كانت تُتْلَىْ فيها سُوَرٌ جديدة، بَعْد أن تتحادث عيونهم بعضها مع بعض بما يدُلُّ على العبارة التالية: هل يراكُمْ من أحدٍ من المؤمنين إذا انصرفتم من المجلس.

حتّىٰ إذا شعروا بأنّهم قادرون على أن ينسَلُّوا واحداً بعد واحدٍ انْصرَفوا تباعاً، لئلاّ يسمعوا تلاوة السورة الجديدة المنزّلة.

ويظهر أنّ هذا يكون مبنيّاً على اتفاق سابق فيما بينهم.





القسم الثاني

تدبّر النصوص القرآنية
التي نزلت بشأن المنافقين
مرتّبة بحسب ترتيب النزول

جدول النصوص الموضوعة للتدبّر

النص الأول: من سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) السورة (٨٥) من التنزيل المكي، الآيتان (١٠ ــ ١١).

حول بدايات ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي.

النص الثاني: من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني، الآيات من (٨ ــ ٢٠).

حول تعريف النفاق وذكر طائفة من صفات المنافقين وظواهر النفاق في السلوك.

النص الثالث: من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني، الآيات من (٧٥ ــ ٨٢).

حول توجيه المؤمنين أن لا يطمعوا في أن يؤمن لدعوتهم منافقو اليهود وسائرهم.

النص الرابع: من سورة البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني، الآيات من (١٤٢ ــ ١٤٥).

حول مشاركة المنافقين في إثارة الشبه بشأن تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة.

النص الخامس: من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني، الآيات من (٢٠٤ ــ ٢٠٧).

حول بعض صفات فريق من المنافقين وظواهر من سلوكهم وهم من الجبارين.

النص السادس: من سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) السورة (٢) من التنزيل المدني، الآيات من (٤٩ ــ ٥٥).

حول قول المنافقين بشأن البدريّين من المؤمنين إبّان غزوة بدر: غرّ هؤلاء دينهم.

النص السابع: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (٦٩ ــ ٧٤).

حول مكيدة اليهود بالدخول في الإسلام نفاقاً ثم الارتداد عنه، لإغراء غيرهم بالردّة.

النص الثامن: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١١٨ ــ ١٢٠).

حول نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة من المنافقين لأنهم مفسدون مبغضون مغيظون.

النص التاسع: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١٥٢ ــ ١٥٨).

حول ما جاء بشأن المنافقين وظواهرهم السلوكيّة بمناسبة أحداث غزوة أحد.

النص العاشر: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١٦٥ ــ ١٦٨).

حول بيان بعض مواقف المنافقين في غزوة أحد وإقناع المؤمنين بأنّ ما جرى لهم قد كان من أنفسهم.

النص الحادي عشر: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١٧٦ ــ ١٧٩).

حول الذين بدؤوا خطوات النفاق إبّان غزوة أحد ومسارعتهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم.

* عظات حركة النفاق اقتباساً من النصوص القرآنيّة المنزّلة في سورة آل عمران.

النص الثاني عشر: من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) السورة (٤) من التنزيل المدني، الآيات من (٩ ــ ٢٧).

حول مواقف المنافقين وظواهرهم السلوكيّة إبّان غزوة الأحزاب.

النص الثالث عشر: من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) السورة (٤) من التنزيل المدني، الآيات من (٣٦ ــ ٤٠) والآية (٤٨).

حول موقف المنافقين بشأن زواج الرسول من «زينب بنت جحش» ابنة عمته، بعد أن طلقها «زيد بن حارثة» الذي كان الرسول قد أعتقه وتبنّاه.

النص الرابع عشر: من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٥٩ ــ ٧٠).

حول تحاكم المنافقين إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به.

النص الخامس عشر: من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٧١ ــ ٨٤).

حول ظواهر من النفاق تبرز عند الدعوة إلى القتال وبعده.

النص السادس عشر: من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٨٨ ــ ٩١).

حول السياسة التي ينبغي معاملة المنافقين بها بحسب اختلاف أحوالهم.

النص السابع عشر: من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (١٠٥ ــ ١١٦).

حول ما يجب على القضاة والخصوم وأنصارهم بمناسبة حادثة سرقة المنافق من بني أبيرق.

النص الثامن عشر: من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (١٣٦ ــ ١٤٧).

بشأن قسم المذبذبين من المنافقين وبعض صفات عموم المنافقين.

النص التاسع عشر: من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) السورة (٨) من التنزيل المدني، الآيات من (١٢ ــ ١٥).

حول لقطات من مشاهد أحوال المنافقين يوم القيامة.

النص العشرون: من سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) السورة (٩) من التنزيل المدني، الآيات من (١٦ ــ ٣٢).

حول عدم تفهّم المنافقين لما يسمعون وهلعهم لدى سماعهم آيات الدعوة إلى القتال.

النص الحادي والعشرون: من سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول) السورة (١٥) من التنزيل المدني، الآيات من (١١ ــ ١٧).

حول موقف المنافقين وخياناتهم في أحداث إجلاء يهود بني النضير.

النص الثاني والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآية (١١).

حول موقف المنافقين من حادثة الإفك.

النص الثالث والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآية (٣٣).

حول موقف بعض المنافقين من إكراه الإماء على البغاء وفق العادة الجاهلية.

النص الرابع والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٤٧ ــ ٥٤).

حول كذب المنافقين في ادّعائهم الطاعة، ورفضهم التحاكم لله ورسوله.

النص الخامس والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٦٢ ــ ٦٤).

حول تسلّل المنافقين من المجامع العامة بدون إذن، وسوء أدبهم في خطاب الرسول.

النص السادس والعشرون: سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) السورة (١٨) من التنزيل المدني، وهي (١١) آية.

حول بيان حقيقة المنافقين وبعض صفاتهم الظاهرة والباطنة وبعض مواقفهم والتحذير منهم.

النص السابع والعشرون: من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) السورة (١٩) من التنزيل المدني، الآيات من (٥ ــ ١٠).

حول محادّة المنافقين لله ورسوله، وتناجيهم في السرّ بذلك، وتحيّتهم للرسول تحيّة منكرة.

النص الثامن والعشرون: من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) السورة (١٩) من التنزيل المدني، الآيات من (١٤ ــ ٢٢).

حول اتخاذ المنافقين اليهودَ أولياء لهم وتستّرهم بالأيمان الكاذبة واستحواذ الشيطان عليهم.

النص التاسع والعشرون: من سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) السورة (٢١) من التنزيل المدني، الآية (٩).

حول مجاهدة الكفّار والمنافقين والإغلاظ عليهم.

النص الثلاثون: من سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) السورة (٢٥) من التنزيل المدني، الآيات من (١ ــ ٧).

حول أثر الفتح المبين الذي حصل في صلح الحديبية على نفوس المنافقين المخلّفين وموقفهم.

النص الحادي والثلاثون: من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) السورة (٢٦) من التنزيل المدني، بعض الآية (٤١).

حول تكليف الرسول أن لا يحزن من أجل المنافقين الذين يسارعون في الكفر.

النص الثاني والثلاثون: من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) السورة (٢٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٥١ ــ ٥٣).

حول اتخاذ الذين في قلوبهم مرض من النفاق اليهود والنصارى أولياء.

النص الثالث والثلاثون: من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) السورة (٢٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٥٧ ــ ٦٢).

بشأن المنافقين من اليهود الذين دخلوا في الإسلام منافقين مكراً وكيداً.

النص الرابع والثلاثون: من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) السورة (٢٧) من التنزيل المدني، الآيات من (٤١ ــ ١٢٩ آخر السورة).

حول عدة ظواهر سلوكيّة للمنافقين بمناسبة أحداث غزوة تبوك وأخرى إبّانها.



النص الأول

وهو من سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول)
الآيتان (١٠ ــ ١١)
حول بدايات ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي

* قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ
وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

* * *

(١)
موضوع النّصّ وسبب نزوله

سورة (العنكبوت) من أواخر التنزيل المكي، نَزَل بعدها قبل الهجرة سورة (المطففين) فقط، باستثناء الآيات من (١ ــ ١١) منها، فهي مدنيّة، فالنصّ الموضوع للتدبّر نصّ مدنيّ، هذا على أرجح أقوال أهل العلم بعلوم القرآن.

وقيل: السورة كلّها مدنية، ورُوي عن علي بن أبي طالب أنّها نزلت بين مكة والمدنية.

فيظهر أنّ هذا النّصّ أوّلُ نصٍّ نزلَ في المنافقين، وتعرّض لهم ببعض بيان.

ما ورد في سبب النزول:

رُوِيَ مَا يَتضمّن أنّ هذا النّص نَزل بشأن فريقٍ أَسْلموا بمكّة، وكان حالُهُمْ مع المشركين حَالَ من لا يَصْبِر على الأذى الذي يتعرّض له من قِبَلِهم، فكانُوا إذَا لحقَهُم

أذىً من المشركين تأثَّروا بالأذى فأعْطَوْهم ما يُريدون منهم في الباطن، وحافظوا على انتمائهم للإسلام في الظاهر، ولم يُهاجروا في سبيل الله إلى دار الإسلام مع أنّهم أُمروا بالهجرة يومئذٍ.

ذكر هذا الضحّاك وجابر بن زيد، قال الشيخ «محمد الطاهر بن عاشور» في تفسيره: وذُكر أنّ من هؤلاء (أي: المشار إليهم في النص): «الحارثُ بنُ ربيعة بن الأسود ـ وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ـ وعليُّ بن أُميّة بن خلف ـ والعاصي بن مُنَبّه بن الحجاج».

موضوع النص:

يتناول هٰذا النصّ بدايات ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي، وكانت مع أواخر المرحلة المكيّة وبدْءِ ظروف المرحلة المدنية بعد الهجرة، وإلزام المؤمنين في مكّة بالهجرة إلى دار الإسلام في المدينة.

وكان سبَبُ هذا النفاق الذي نجمت بداياته في مكّة ضعفَ الإيمان، والحرصَ على الأموال والمساكِنِ والمصالحِ الدنيويّة في مكّة التي كانت يومئذٍ دارَ كفر، يُسيطر على شؤونها المختلفة المشركون.

فكان المسلمون فيها يتعرّضون للأذى والاضطهاد، أمّا أهل الإيمان القويّ الراسخ، فقد زادهم ذلك صموداً وثباتاً وتحدّياً، ومعظمهم هاجر في سبيل الله.

وضعف آخرون فأعطوا ما يريد المشركون منهم في ظاهر القول، أمّا قلوبهم فكانت مطمئنّة بالإيمان، وهؤلاء قد عذرهم الله، فقال تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

ومن الذين أعطوا المشركين ما أرادوا منهم في ظاهر القول تقيّة «عمار بن ياسر» لكِنَّ قلبه قد كان مطمئناً بالإيمان.

أخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم

وصحّحه، وابْنُ مردويه، والبيهقي، وابن عساكر، من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمّار، عن أبيه، قال:

(أخذ المشركون عمّارَ بن ياسر، فلم يتركوه حتّى سبَّ النبيّ ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فتركوه، فلمّا أتى النبيّ ﷺ، قال:

«ما وراءَك؟».

قال: شرٌّ، ما تُرِكْتُ حتّى نِلْتُ منكَ، وذكرتُ آلهتَهُمْ بخير.

قال: «كيف تَجدُ قلبكَ؟».

قال: مطمئناً بالإيمان.

قال: «إنْ عادُوا فَعُدْ».

فنزلت:

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

قال: ذلك عمّار بن ياسر:

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾.

عبدُ الله بن أبي سَرْحٍ).

وكان إيمانُ فئة ثالثةٍ ضعيفاً، فعادوا إلى الكفر باطناً، تحت تأثير ضغط المشركين، وفتْنتِهم لهم، وأثَّر الخوْفُ من التعذيب فيهم تأثيراً بلغ عُمْقَ قُلوبِهمْ، كما يُؤثِّر الخوف من عذاب الله العاجل والآجل، في فريق من الناس، فيؤمنون، ولكنّهم مع كفرهم باطناً حافظوا على ظاهر إسلامهم، ولا بدّ أن يكون هذا بعلم المشركين الذين هم في مجتمعهم، وكان استبقاؤهم الانتماء إلى الإسلام ظاهراً له عدّة دوافع، منها:

(١) أنْ لا يُوصَمُوا بالارتداد عن الإسلام بعد دخولهم فيه.

(٢) أنْ يكونوا محسوبين مع المسلمين إذا انتصروا واستقرّت لهم دولةٌ في المدينة، وأخذت تتّسع.

(٣) أن يكونوا في حالة سِلْم وأمْنٍ من قِبَلِ دَولَةِ الكُفْرِ في مكّة، ودولة الإسلام في المدينة.

فجاء هذا النص من سورة (العنكبوت) كاشفاً موقف هؤلاء المنافقين، ومُلَوّحاً لهم بالوعيد، أي: إذا لم يتوبوا، ويعودوا إلى الإيمان صادقين مخلصين، ويؤدّوا مقتضيات الإيمان الصحيح الخالي من النفاق.

* * *

(٢)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿أُوذِىَ﴾:

يُقَال لغة: آذاهُ يُؤْذِيهِ إيذاءً، أي: أنزل به ما يكرهُ. ويُقال: أذِيَ الرجلُ يأْذَى أذىً وَأذَاةً وأذِيّةً، إذا نَزَلَ به أذىً، والأذَى هو الضرر غير الجسيم، قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾:

أي: جعل التعذيب والأذى الذي يأتي من قِبَلِ الناس، فالمرادُ من الفتنة هُنَا التعذيبُ وإنزالُ الأذى.

* * *

(٣)
مع النصّ في التحليل والتدبّر

قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ... ﴿١٠﴾﴾.

مع بدايات ظهور النفاق في المجتمع الإسلامي من قِبَلِ بعض الذين أعْلَنُوا

إسلامهم في مكّة، ولم يُهاجروا مع المهاجرين، وكان ذلك إبّان هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ومع أوائلها على ما يظهر.

في هذه الأثناء أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت) بياناً يكشف فيه للرّسول وللمؤمنين معه هذا الفريق من الناس، ويُبيّن فيه للمنافقين أنفسهم أنّ ما في قلوبهم لا يخفى على الله منه شيء، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾:

أي: وُجِد فريقٌ من الناس مَنْ يقولون بألسنتهم: آمنّا بالله، فذكر سبحانه وتعالى أنَّهُمْ من الناس، ولم يذْكُرْ أنّهم من المسلمين أو من المؤمنين، لأنّ كلمة «الناس» كلمةٌ عامّة تشمل جميع الناس من أهل الإيمان وأهل الكفر. وذكر تعالى أنّهم يقولون بألسنتهم، ولم يذكر أنّهم يؤمنون بقلوبهم، ليشمل أيضاً ضعفاء الإيمان الذين لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم بَعْدُ، والّذين ظهرت منهم ظاهرة هي من أمارات النفاق أو تجرُّ إليه.

وكان هذا كما وضح لنا في أوّل بيان عن ظاهرات النفاق في المجتمع الإسلامي.

وهذه الظاهرة فيهم ذاتُ وجهين:

الوجه الأوّل: أنّهم إذا نالهم أذىً من جهة الذين كفَرُوا ارتدُّوا إلىٰ الكُفر سرّاً، واسترْضَوْا بردّتهم هذه الكافرين، واتّفقوا معهم على أن يكتموها عن المؤمنين، ليدفعوا بذلك عن أنفسهم ما يتوعّدهم به الكافرون من تعذيب أشدّ.

ونلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ عبّر عن ردّتهم هذه بأنهم جعلوا أذى الكافرين لهم، وَوَعِيدهم إيّاهم بتعذيبِ أشدّ من أَجْلِ إيمانهم، مِثْلَ عذابِ الله الذي قد يُنْزِلُ الله طائفةً منْه أحياناً بالكافرين تأديباً وتربيةً ودليلاً على عذابه الأكبر، ومثْلَ عذاب الله الذي يُنْذِرهم به إذا لم يؤمنوا، فيخافُ منهم من يخاف، فيؤمن ويُسْلِمُ، إيثاراً للسلامة، ودفعاً لعذاب الله الأشدّ الذي اشتملت عليه نصوص الوعيد للكافرين والعصاة المسرفين على أنفسهم بالفِسْق والبغي والظلم، فقال تعالى:

﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾:

أي: فإذا أُوذي من قِبَلِ الكافرين من أجل مَسِيرهِ في سبيل الله، ليرتَدّ عنه، ويسْلُكَ مسالِكَ الكافرين، ويتّبع خُطوات الشّياطين، جعل بتصوّره الفاسد الباطل، فِتْنَةَ الكافرين لَهُ بالتعذيب، مِثْلَ عَذَابِ اللهِ الذي يُؤَدِّبُ اللَّهُ بِهِ أَوْ يُعَاقِب، لِيَرْتَدِعَ الذي يتّقون عذابَ الله الشديدَ يوم الدين، مع أنّ الأَمْرَيْنِ مختلفان، فما يفعَلُهُ الناس من اضطهاد للمؤمنين إنما هو لإخراجهم من النور إلى الظلمات، ومن السّعادة إلى الشقاء الأبدي، وما يُجْريه الله من تأديبات للكافرين والعصاة، إنما هو لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشّقاء الأبديّ إلى السعادة الخالدة.

إنّ التَّعْبير بجعل هذا الفريق فِتْنَةَ الناسِ مِثْلَ عَذَاب الله كناية عَنْ رِدَّتِهم عن الإيمان والإسلام سرّاً، هو تعبير عن السبب النفسيّ الذي جعلهم يَرْتَدُّون. وقد جاء فيه الاستغناء بالتعبير عن السبب ليكون كنايةً تدلّ على ما نجم عنه من ظاهرة نفاق جمعت ردّةً معلومةً لأوليائهم من الكافرين، ومكتومةً عن جمهور المؤمنين، إذْ أبْقَوْا انتماءَهُمْ إلى الإسلام مُعْلَناً في الظاهر، برغبة المحافظة على كلمة الإيمان التي سبقت منهم تجاه المؤمنين.

وظاهرة النفاق هذه جاء في النصّ ما يدُلُّ عليها بوضوح، كما سيأتي في فقراته الآتيات.

الوجه الثاني: أنّهم وَطّنُوا أنْفُسَهُم على أن يقولوا للمؤمنين ببيان مؤكّد: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، فيما لو انْتَصَرُوا مستقبلاً على المشركين، وكانت لهم قُوّةٌ ودولة.

لكنّ احتمال انتصار المؤمنين على أعدائهم قد كان في تصوُّر هؤلاء احتمالاً ضعيفاً مشكُوكاً فيه، ورغم ذلك فقد احتاطوا لأنفسهم في أمرهم، فاتّخذوا لهم من سلوكهم الظاهر وجهاً، وفي بيان هذا الوجه قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

في هذا البيان نُلاحظ أنّه جاء ذكر النصر الذي سيأتي من الله للمؤمنين أمراً احتماليّاً مشكوكاً فيه، إذْ جاء التعبير عنه بكلمة ﴿إِنْ﴾ الشرطيّة التي تُسْتَعمل غالباً في الأمر ذي الاحتمال الضعيف المشكوك فيه. والسّببُ في هذا أنّ البيان جاء معبّراً عن حالة هؤلاء المنافقين النفسيّة، فهم كانوا يومئذٍ يستبعدون أن ينتصر المؤمنون في

المدينة على المشركين في مكّة، فكانوا يُقدّرون في نفوسهم أنّه إنْ حصل هذا الاحتمال الضعيف المشكوك فيه، فإنّ لديهم قولاً يقولونه للمؤمنين، بسبب انتمائهم إلى الإسلام الذي حافظوا عليه ظاهراً، ولم ينقضوه بألسنتهم كما نقضوه في سرِّهم، إذْ سيقولون للمؤمنين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو للرسول أوّلاً، ثُمّ لكُلّ صالح للخطاب من بعْدِهِ بصورةٍ إفرادِيّة، والغرضُ فيما يظهَر أن يكون التحذير من المنافقين تحذيراً إفرادياً لكُلّ المؤمنين، وأن يقوم كلّ مؤمن بواجب الحذر المطلوب من المنافقين، وواجب مراقبة الظواهر في السلوك للاستدلال بها على البواطن.

ونلاحظ أنّ الله تعالى أكّد هذه الظاهرة في هذا الفريق من الناس بالْقَسَمِ وما يَقْتَرِنُ به من مؤكّدات، فاللاّم في: ﴿لَئِنْ﴾ هي الموطّئة للقسم، وجملة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بما فيها من نون توكيد ثقيلة هي جواب القسم المحذوف.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

بعد بيان الظاهرة النفاقيّة ذات الوجْهَيْن، في هذا الفريق من الناس الذين تَعرّضَ النّصُّ لبيان حالتهم ذَكَرَ الله عزّ وجل بصفةٍ من صفاته الثابتة له تبارك وتعالى، وهي صفة شمول علمه لكلّ شيءٍ ظاهر وباطن، ومن ذلك عِلْمُهُ بما في صدور العالمين، فقال تعالى بأسلوب الاستفهام الذي ليس له عند من يؤمن بالله ربّاً خالقاً إلاّ جواب واحد:

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: أَوَلَيْسَ اللّهُ بأعلم من كلّ عليم بما في صدور العالمين جميعاً، ومنهم أصحابُ الصُّدُور أنفسهم، وممّا في الصدور الإيمان والكفر والنفاق، فمن أوّليّات القضايا الإيمانيّة المتعلّقةِ بالله الرّبّ الخالق أنّه عزّ وجلّ يُحِيط بكل شيءٍ علماً، فهو يعلمُ السّرّ وما هو أخفى من السّرّ، لا تخفىٰ عليه خافية.

فالجوابُ على هـذا السؤال لا بُدَّ أن يكـون: بلى. أي: هو أعلم من كـلّ عليم بما في صدور العالمين من الإنس والجنّ والملائكة وكلِّ ذي صَدْرٍ يحتوي شيئاً ما من كلّ كائن حيّ.

بعد التذكيـر بهذه الصفـة من صفات الله الجليلة، أبـان الله عزّ وجـلّ حكمته من تعريض الناس لفتنة المؤمنين والمسلمين بالكافرين، إذْ وضـع الناس مـوضع الامتحـان في ظروف الحياة الدنيا، ومن ذلك تمكين الكافرين ضِمْن أنظمة الكون السببيّـة، التي يتصرّف الناس فيهـا باختيـاراتهم الحرّة، من إيـذاء المؤمنين، أو تعـذيبهم في الحيـاة الدنيا.

إنّها حكمة الابتلاء الذي يَخْتَبِرُ الله به ما في قلوب الناس من إيمـان وكفر ونفـاق وغير ذلك، فقال تعالى:

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

أي: ولَيَعْلَمنَّ الله ـ بما يتعرَّضُ لـه النـاسُ تبـاعاً من امتحـانٍ في ظروفِ الحيـاة الدنيا ـ علماً بعْدَ الـوقوع الفعلي مـطابقاً لعلمـه السابق قبـل الوقـوع الفعليّ، لَيَعْلَمَنَّ حقيقةَ أحوالِ الّذين آمَنُوا صادقين، وحقيقة أحوالِ المنافقين، وهكذا إلى سائـر أحوال الناس جميعاً.

فتمكينُ اللَّهِ الذين كفروا من إيذاء المؤمنين أو تعذيبهم في ظروف الحياة الدنيا، يتمُّ به تمييزُ المؤمنين الصادقين، من ضعفاء الإيمـان، ومن المنافقين، وبـذلك يتحقّق العِلْمُ الرّبّاني الذي يتعلّقُ بما وقَعَ فعلاً، مـطابقاً للعلم الـرّبّاني الـذي كان متعلّقـاً بما سيقَع، ويتحقّق أيضاً للمـلائكة المـوكّلين بأعمـال العباد مثـلُ هذا العلم المستنـد إلى مـراقبتهم لما يعْمَـلُ العباد، ثم تَتِمُّ محـاسبةُ النـاس على ما صـدر عنهم في الـواقـع، لا على ما كان معلوماً لله بأنّه سيَصْدُرُ عنهم.

والله أعلم.

● ● ●

النـص الثانـي

من سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أول سورة مدنية
الآيات [من الآية (٨) إلى الآية (٢٠)]
حول تعريف النفاق وذكر طائفة من صفات المنافقين
وظـواهـر الـنـفـاق في الـسـلـوك

بعد أنْ أبان اللّهُ عزّ وجلّ في مَطْلع سورة (البقرة) صفات المتقين، فصفات الّذِينَ كفروا مُصِرّين على كفرهم عناداً مع ظهور الحق لهم، حتّى اسْتوىٰ بالنسبة إليهم الإنْذارُ وَعدمُه مَهْما كان الإنْذار الموجّه لهم إنـذاراً بعَاقبةِ إهْلاكٍ شديدٍ مَاحِقٍ، فإنّهم لا يؤمنون.

بعد ذلك ذكر الله عزّ وجلّ قِسْمَ المنافقين، وأبان حقيقتهم، وفصّل في بيانٍ دقيقٍ طَائِفَةً رئيسيّةً من صفاتهم، وهي الصفاتُ التي برزت فيهم إبّانَ المرحلةِ المدنيّةِ الأولى التي نزلت فيها سورة (البقرة) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ
مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا
إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ
﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا

ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى
ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾
صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

* * *

ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: [يُخادِعُونَ اللّهَ والَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخادِعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ وما يشْعُرُون].

وقرأ سائر القراء: [يخادِعُونَ اللّهَ والَّذِينَ آمَنُوا ومَا يَخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ ومَا يَشْعُرونَ]، وسيأتي في الشرح الحكمة من القراءتين إن شاء الله.

(٢) وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: [وَلَهُمْ عذابٌ أَليمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ].

وقرأ سائر القرّاء: [بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ].

وبين القراءتين تكاملٌ في المعنى، فهم يَكْذِبُونَ في ادّعاء الإيمان والإسلام إذْ هم منافقون، وهم يكذِّبونَ الرّسول، ويُكذِّبونَ بآيات الله وبكتابه.

* * *

مع النصّ في التحليل والتدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

فيه بيانُ أنه يوجد صنف من الناس أعلنوا بألسنتهم إسلامهم، ودخلوا ضمن صفوف المؤمنين، وقالوا مثل مقالة المؤمنين الصادقين: «آمنّا بالله وباليوم الآخر» مع أنّهم في حقيقة أمرهم ليسوا بمؤمنين، لأنّهم يقولُون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

إنّ قلوبهم غير مُؤْمِنَة، فالسنتهم بإعلانها تُقَدِّمُ ادّعاءً كاذباً، إذْ هُو غير مطابقٍ للواقع الذي هم عليه في دخيلة نفوسهم وقلوبهم.

ونلاحظ أنّ النصّ قد بدأ بتقديم تعريفٍ محدَّد لهذا الصنف من الناس: يقولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

واقتصر النصّ في بيان مقالتهم على إعلان الإيمان باللَّهِ وباليوم الآخر، لأنَّ هٰذين الرّكنين من أركان الإيمان هما الرُّكنان الأساسيّان في قضية الإيمان لسائر الأركان، وهي لوازمُ لَهُمَا أو فروعٌ عنهما.

* * *

وبعد التعريف بهذا الصنف من الناس، أخذ النصّ يبيّن طائفةً من صفاتهم النفسيّة والسلوكية.

فبدأ ببيانِ الباعث المباشر لهم على إعلانهم الكاذب، وهو رغبة المخادعة، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

قرأ جمهورُ القراء: [وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ].

وقرأ نافع وابنُ كثير وأبو عَمْرو: [وَمَا يُخَادِعُونَ].

المخادعة: هي إظهار ما يوهم الصدق والسّلامة والسّداد، وإبطانُ ما فيه خلاف ذلك.

والمخادَعَةُ تتضمّنُ استِغْفَالَ مَنْ يُراد خِدْعُهُ لإيقاعه فيما يكره، بأنْ يُظْهِرَ المخادِعُ لَهُ مَا يُحِبُّ، ويُخْفِيَ عنه ما يكرَهُ، تغريراً به.

وأصل مادّة «خَدَع» فيها معنى الاستخفاء والتواري، ومنها المخدع.

وفعل «يُخادِع» بهذه الصيغة يدُلُّ في الأصل على المشاركة، ويدلُّ أيْضاً على المبالغة والاجتهاد الزائد في العمل ولو كان من طرفٍ واحد، لأنَّ مَنْ يُغالِبُ غيره في عملٍ ما يُبالِغُ مِن طَرَفِه ببذل غايةِ الجَهْدِ الذي يستطيع بذله، والمنافقون يبالغون جدّاً

في استخدام الخداع، ويُمْعِنُونَ فِيهِ ببذل غايَةِ جَهْدهم، حتّى كأنّهم في معركةِ مُخَادَعَةٍ بَيْنَهُمْ وبين المؤمنين.

ويدلُّ الفعل المضارع في [يُخادِعُون] على تجديد الخدع وتكريره مع مرور الزمن، وهو ما يحتاج إليه المنافقون باستمرار.

أمّا مُخَادَعَتُهُمْ للذين آمنوا فظاهرة، ولكن كيف يخادعون الله وهو العليم بسرائرهم، وبكلّ مَا يَمْكُرون؟

والجوابُ أنّهم إذْ يخادعون الذين آمنوا مع أنّ الله معهم ما التزموا تعاليمَهُ وهُوَ وليُهم، إنّما يخادعون مَعَهُمُ اللَّهَ رَبَّهم، الّذي يتولّاهم بتأييدِهِ ونَصْرِه، ويحميهم من مكر المنافقين وكَيْدِهِمْ، لذلك فهم بغفلتهم عن هذه الحقيقة أو بجحودهم لها لا يَخْدَعُون ولا يُخَادِعُون إلاّ أنْفُسَهُمْ، إذ إنّهم هم الواقعون في شرّ أعمالهم، والساقطون في الْحُفَر الّتِي يحفرونها للمؤمنين، وهذا يُبيّن أنهم همُ الْمَخْدُوعُونَ لاَ الخادِعُون، نظراً إلى أنّ خديعتَهم مردودةً عليهم من حيث لا يشعرون، وسِهَامُهُم مُنْقَلِبةٌ إلى نُحُورهم وهم لا يعلمون.

فهم في مخادعتهم للمؤمنين المؤيَّدين من الله العزيز الحكيم يَكْبُو بهم ذكاؤهم، فَيَسْقُطُونَ في حُفْرَةٍ سحيقةٍ مِنْ حُفَرِ الحماقةِ والغباء.

إنّ من يخدعُ من لا يَنْخَدِعُ به، بل يَرُدُّ مَكْرَهُ إليه، ويقلبُ كيده عليه، إنّما يخدَعُ نفسه.

وتُنْبِىءُ القراءتان: [وما يُخادِعون ـ وَمَا يَخْدَعُون] على أنّ المنافقين فيهم مَنْ يَخْدَعُ بصورة عاديّة، وفيهم من يُخادع مبالغاً بحسب مقتضيات الأحوال، فتكاملت القراءتان في الدلالة على هذا الواقع، وجاء الاستغناء بقراءة [وما يَخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ] عن أن يَرِد في المقابل قراءةٌ فيها: يَخْدَعون الله. فالذين يخدعون الله لا يخدعون إلاّ أنفسهم، والذين يخادعون الله لا يخادعون إلاّ أنفسَهم.

* * *

وبعد ذلك بيّن الله عزّ وجلّ العلّة الأساسيّة التي جعلتهم ينافقون ويَخْدَعُون ويُخادِعُون فقال الله عزّ وجلّ:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾.

إنّ العلّة الأساسيّة لظاهرة النفاق لديهم أنّ في قلوبهم مرضاً، فما هو هذا المرض؟

لدى التحليل الفاحص يتبيّن لنا أنّ هذا المرض النفسيُّ الذي وصل إلى داخل دائرة قلوبهم هو من نوع الأمراض الخُلُقيّة، وهو مرض مركّب من عناصر هي في هيئتها التركيبيّة تُشَكِّلُ مرضاً مكتسباً عملت إراداتُهم على اكتسابه، وهي:

(١) الجبن المصحوب بالخوف من نزول المكاره، وفوات المصالح.

(٢) الطمع الشديد بالمنافع والمغانم الدنيوية.

(٣) خلُق الجحود والكنود، مع معرفة الحق وظهور أدلته، وهذا من بواعث الكفر في الباطن.

(٤) خلُق كراهية الحقّ الذي يخالف الأهواء والشهوات ونزعات الكبر والحسد، ورغبات الفجور في الأرض، وهذا من بواعث الكفر في الباطن أيضاً.

(٥) الشعور بالقدرة على اتّخاذ حيَل الإخفاء والمصانعة والتظاهر بغير ما في النفس من مشاعر وأحاسيس، وهذا من بواعثِ اتخاذ مسلك النفاق في الظاهر.

لكنّ الذين يعيشون في حالة التناقض بين ظواهرهم وبواطنهم، يتعرّضون باستمرار لعذاب القلَق، والخوف من الفضيحة، والضغط على النفس، لتعمل ما لا تهوى، بُغْيَةَ المصانعة والظُّهور بما يتلاءم مع الإعلان الكاذب.

وهذا نوع من العذاب يَجْنُونَه على أنفسهم بأيديهم، لذلك قال الله تعالى:

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾:

أي: فزادهم اللّهُ ألماً وعذاباً، كلّما زادوا نفاقاً، وتوغّلوا في قبائحه، وممّا لا ريب فيه أنّهم كلّما توغلوا في النفاق، وطال عليهم الأمد، وهُمْ يُشاهدون أنّ شوكة المؤمنين المسلمين الصادقين تشْتَدّ، وقُوّتَهم تعظم وتمتدّ، زاد عذابُهم النّفْسيُّ هذا، حتّى يتغلغل إلى عُمْقِ قلوبهم.

وعلى هذا فالمعنى: فزادهم الله عذاباً وألماً كلّما تطاول أمدهم في النفاق، وهذا من سنن الله في عقوباته المعجلة.

وفي هذا التعبير إيماءٌ إلى أنّ الله عزّ وجلّ سينْصُرُ المؤمنين ويُمَكِّنُ لهم في الأرض، ويَخْذُل الكافرين، ويسْلُبُهمْ أسباب القوة والتمكُّنِ في الأرض، وهذا أمر من شأنه أن يَغِيظَ المنافقين، لأنّهم مع الكافرين في الباطن، وهو يَزِيدُهم عذاباً وألماً.

ففي هذه الجملة إذاً: [فزادهم الله مرضاً] بيانٌ للعقوبة المعجّلة التي يُعانون من آلامها، عن طريق مرض قلوبهم نَفْسِه، الذي جعلهم يسلكون مسالك النفاق.

إنّ عذابَ النفس يكون من خلُق الخوف الذي يتولّد عن الجبن أوّلاً، ويزيدُه دواماً توقُّعُ انكشافِ أمرهم، وهَتْكِ سِتْرِهم.

ويكونُ أيضاً من القلق الذي يُولِّده الطمعُ مَعَ توقُّعِ الحرمان، وهو الطمع المتأرجح بين المؤمنين والكافرين المصحوبُ بالقَلَق والخوف من الحرمان، والخوف من هتك السِّتر والتعرّض للنقمة.

وقد يَمَسُّهُمْ عذابُ الضمير الذي قد يحدُثُ نتيجةَ جحود الحقِّ، مع الاستمرار على تلفيق الأكاذيب، وتصنُّعِ الظَّواهرِ المخالفةِ لطبيعة الفطرة البشريّة.

وقد يَنْزِلُ بهم عَذابُ آلام نَفْسِيَّةٍ شَدِيدةٍ نتيجةَ نَصْرِ الله المؤمنين الصادقين وتمكينِهم في الأرض قُوّةً وَسُلْطاناً، ونتيجةَ خِذْلانِ الكافرين، وسلْبِهِمْ شيئاً فشيئاً أسبابَ تمكُّنِهم في الأرض.

كُلُّ ذلك من العقوبات المعجّلاتِ اللّواتي يُعانُون من آلامها المتفَجِّرَةِ داخل نفوسهم، وعن طريق المرض نفسه، الذي جعلهم ينافقون، ظانّين أنّهم يَجْلُبون به لأنفسهم خيراً وسعادةً وراحةً ولذّاتٍ ومنافعَ ومصالح، ويَدْفَعُونَ به عن أنفسهم مَخَاطِرَ وَمَضرّات.

أمّا العقوبة المؤجّلة إلى يوم الدّين، فقد جاء بيانُها في قولِهِ تعالى:

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾.

قرأ الكوفيون: [يَكْذِبُون].

وقرأ باقي القراء العشرة: [يُكَذِّبون].

فدلَّ قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا﴾ مُسْتَخْدِماً صيغةَ الفعل الماضي، على أنّ سبب العذاب الأليم الذي هو لهم قد سبَق أيّام حياة ابتلائهم، أي: فهم الآن في حياة الجزاء يوم الدِّين.

وذكَرَ أنَّ السَّبَبَ الحقيقيَّ هو كُفْرُهم، إذْ كذَّبوا رَسُول اللّهِ في سَرَائِرهم، وكذَّبوا بما جاءَهُمْ به من عند ربّهم، وكذَّبوا بالنُّذُرِ، وكَذَّبوا بادّعائهم أنّهم مؤمنون صادقون في إعلانهم إسلامَهم، مع أنّهم منافقون يُبْطِنُون الكفر ويُظهرون الإسلام، فتكاملت القراءتان في الدلالة، إحْداهما أبانت كذِبَهُم، والأُخرى أبانَتْ تَكْذِيبَهُمْ بالحقّ، وهذا من إيجاز القرآن وإعجازه.

* * *

وبعد التعريف بهذا الصنف من النّاس، وبيان الباعث المباشر لهم على النفاق، وبيانِ العلّة النفسيّةِ الأساسيّةِ التي هي المرض الخُلُقيُّ الذي كان في هيئته التركيبيّة وآثاره من مُكتسباتهم الإراديّة، والذي وصل إلى عمق قلوبهم.

شرع النّص في بيان طائفةٍ من ظواهرهم السلوكيّة، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فَسادُ الشيء: تحوُّلُه عن حالة النفع والفائدة إلى حالةٍ دون ذلك، ويكون الفساد كُلّيّاً أو جُزْئيّاً.

وإفساد الشيء: يكون بتحويله عن حالة النفع والفائدة، إلى حالةٍ دون ذلك.

فإفسادُ الزَّرْعِ يكون بإتْلافه كلّه أو بعضه، وإفساد البناء يكون بالتهديم منه على وجهٍ يضرّ به، أو يُفوِّت من منافعه.

وإفْسادُ النفوسِ يكونُ بتحويلها عن صحتها الطبيعيّة أو الخلقيّة، إلى حالاتٍ تجرُّ لَهَا أو لغَيْرِها آلاماً ومتاعبَ.

والإفسادُ في الأرض يكون بممارسات الظُّلم والعُدْوَان، وقَطْعِ الطَّريق، والقتل،

واستعباد الناس، وأكل أموالهم بغير حقٍّ، وهَضْم حقوقهم، ويكون باستعمال المضارّ والمؤذيات ونشرها، وبمقاومةِ المؤمنين الصالحين، ونشر المعاصي والموبقات التي تجلُب للناس الشرورَ والآلام، والأمراضَ والأسقام، وأنواعَ العداوة والبغضاء والخصام، كَنَشْرِ الزّنا، والسَّرقة، واللّواطة، ونشر شُرب الخمور وتناول المخدِّرات المهلكات، ونَشْرِ القمار والرّبا، ومنع مساجد الله أن يُذْكَر فيها اسمه، وكمعاونة الكافرين، ومناصرة الظالمين، وخذلِ المؤمنين، وتدبير المكايد ضدّهم، ومخادعتهم والتغرير بهم.

ولذلك جاء في وصف قوم لوطٍ وصفُهم بأنّهم قومٌ مفسدون، بعد ذكر طائفة من أعمالهم، منها إتيان الفاحشة، وقَطْعُ الطريقِ، وإتْيانُ المنكرِ في ناديهم، فقال الله عزّ وجلّ في (سورة العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

وجاء في وصف فرعون وقومه، وصفُهم بأنّهم قوم مفسدون، بعد وصفهم بأنّهم قوم فاسقون، فدلّ على أنّ الفِسْقَ ممّا يؤدّي إلى الفساد في الأرض، فقال الله عزّ وجلّ في معرضِ الحديث عنهم في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ الفساد إنّما يظهر في الأرض بسبب ما يكسِبُهُ النّاسُ بأعمالهم، بمخالفة تراتيبه وأنظمته في كونه، القائمة على ما تقتضيه الْحِكْمَةُ، وبمخالَفةِ شريعته ومنهاجِ السلوك اللّذَيْن أبانَهما في الدّين الذي اصطفاه لعباده، فقال اللّهُ عزّ وَجلّ في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾.

وبعد معرفة حقيقة الفساد والإفساد نلاحظ -أنَّ المنافقينَ يُفْسدونَ في الأرض ولا يُصْلحون، لأنَّ خطّتهم في المخادعةِ، ونَقْلِ أخبار المؤمنين سِرّاً لأعدائِهِمْ. وتوهين قوى المؤمنين وتخذيلِهِمْ، والعبثِ بالدّينِ وإلقاء الشبهات حول، والكيد للإضرار بالإسلام، والمسلمين داخل صفوفهم، كُلُّ ذلِكَ من الإفساد في الأرض، بل هو الإفسادُ الأكبَرُ، فَهُمْ شرُّ المفسدين، أو من أشدّهم شرّاً، لأنّ ضررهم أنكى من ضرر الكافرين الصُّرَحاء، المجاهرين بكُفْرِهِمْ وعداوتهم.

لذلك يصحُّ أن يُقال في شأنهم على سبيل المبالغةِ، للإشعار بأنّهم في قمّة فئاتِ المفسدين:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

لكنّهُم لا يشعرون بهذهِ الحقيقة، وربّما يتصوّرونَ أنَّ نسبة إفسادهم أقلُّ من نسبة إفساد الكافرين الصُّرَحاء، باعتبار أنّهم يداهنونَ المؤمنين، ويشاركونَهُمْ في كثيرٍ من أعمالهم، ويَظْهَرُون بالمظاهر الإسلاميّة في معظم المناسبات العامّة.

وحينما يشعرون بأنّهم يفسدون إفساداً حقيقيّاً فإنّهُمْ يُحاولُون أن يستُروا أعمالهم بأقوالِهِمُ الكواذب.

وأحياناً يَرَون أنّهم بأنواع سلوكهم على خطّة النفاق يُصْلحون، بطريقةٍ ذكيّة، على خلاف طريقة الكافرين الذين يُواجِهُونَ أعداءهم من أهل الإيمان مواجهاتٍ صريحاتٍ مكشوفاتِ الوسائل والغايات.

من أجل ذلك، إذا قيل لهم: ﴿لا تُفْسِدُوا في الأَرضِ﴾.

قالوا: ﴿إنّما نحن مصلحون﴾:

وقد يُعلِّلُونَ مقالتهم هذه بأنّهم يُريدُون أن يُقَرِّبُوا وجهاتِ النَّظر بين فريقي المؤمنين والكافرين، فيمنعوا وُقُوعَ كارثة الهزيمة المنكرة بالْكَافِرينَ، إذا هم نقلُوا

أخبار تحرُّكات المؤمنين وأسْرارَهُمُ العسكريّة، فهم يعملون لصالح السِّلْمِ والأمن العامّ، ولصالح الأُخُوّةِ الإنسانيّة.

وربّما زعَمُوا للمؤمنين أنّهم يُريدُونَ أن يتخذوا أياديَ لهم مع الكافرين، حتّى يُخَفِّفُوا عنهم نقمتهم، أو حتّى يكونوا وُسَطاء صُلْحٍ ومُعاوَنَةٍ في الشّدائِد.

إلى غير ذلك من التعلاّت الّتي يَنْتَحِلُها المنافقون عادةً، وهي كثيرةٌ جدّاً، ولا نكادُ تُحْصَرُ.

ولكُلّ لوْنٍ من ألوانِ النفاق، ولكل صُورةٍ من صُوَرِه دعاوى يتستّرُ بها المنافقون، ويزعمون فيها أنّهم مُصْلِحُونَ غيْرُ مفسدين.

فمن ظواهر المنافقين السلوكية أنّهم يُفْسِدُون في الأرضِ بأقوالهم وأعمالهم.

فإذا قيل لهم: لا تُفْسِدُوا في الأرضِ، بَهَتُوا ناصحيهم، وكذبوا بكُلّ وقاحة، وَجعلوا الباطلَ حقّاً والحقّ باطلاً، دونما حياءٍ ولا تلجلُجٍ، وقالوا: إنّما نحنُ مصلحون، وأخذوا يعلّلون سلوكَهُمُ المنافق المفسد، بأنّه من الأعمال الإصلاحيّة، وربّما كانت غلبة أهوائهم عليهم تَجْعَلُهُمْ يتصوّرون أنّ مَا يفعلونه إنّما هو من قبيل الإصلاح، ولا إفساد فيه.

* * *

وبعد ذلك انتقل النّصّ إلى بيان ظاهرةٍ أُخرى من ظواهر سلوكهم، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

السفيه: هو ناقص العقل، قليل الإدْراك للأمور، ضعيف التفكير.

فمن ظواهر المنافقين السلوكيّة أنّهم يزعُمون لأنفسهم الذكاء ورجاحة العقل، وحسنَ التصرّفِ في الأمور، للتّخلُّص من المآزقِ الحرجة التي يواجهونها، ويَرَوْنَ أنّ المؤمنين الصادقين في إيمانهم أناسٌ سفهاء، ناقصو العقل، قليلو التفكير، يتأثرون ببادي الرأي وبادئِه.

فإذا قيل لهم: آمنوا كما آمَنَ النـاس، أي: كما آمن جمهـور المسلمين إيمانـاً صادقاً، قالوا: أَنُؤْمِنُ كما آمَنَ السُّفهاءُ؟!

هكذا بأسلوب الاستفهام الإنكاري الاستكباريّ التعجّبـي.

لكنّهم لـو كشفـوا عن حقيقـة الأمـر لَعَلِمـوا أنّهُمْ هُمْ أنْفُسُهم السُّفهـاء، نـاقصـو العقـل، قليلو التفكير، لا يتـدبَّرُونَ عـواقب الأمـور، بخـلاف المؤمنين، فـالمنـافقـون يدفعون بأنفسهم إلى مواقع الآلام المعجَّلَة، والشقاء الأبدي، بما اختاروا لأنفسهم من طـرائق، وأساليب، وحِيَـلٍ ذكيّة، زعمـوا أنّهم يحققون بهـا لأنفسهم الخير والسعـادة والأمن والسلامة والرفاهية.

ومن أكثر سفاهة ممن يَجْني على نفسه عاقبةً وخيمةً أليمة، وَعذاباً أبديّاً، وشقـاءً مُقيماً؟.

إنّهم بانحرافهم واتّباعهم أهواءَهم وشهواتهم، لم يستخدموا ذَكَاءَهم فيما هو خيرٌ لهم في عـاجلِ حيـاتهم وآجلِها يـومَ الدين، إنّمـا استخدمـوا ذكاءهم ومـا لـديهم من قدرات جِبِلِّيَة، للوصول إلى ما يَهْوَوْنَ ويشتهون من الحياة الـدنيا، التي تعلّقَتْ بهـا كُلّ هِمَّاتهم، وارتبطت بتحصيل لذّاتها كلّ همومهم، باعتبار أنّهم لم يؤمِنُوا بالآخرة.

وهـذه الظاهـرة نلاحظها في كـلّ الذين لا يكتـرثون للدّين، ولا يُقِيمُـونَ لـه في نفوسهم وزناً، إنّهم يتصوّرون أنّ المتديّنينَ ضعفاء العقول، ناقصو التفكير، تؤثّر عليهم الأوهام، وتستولي عليهم الخرافات الغيبيّة.

ولو عرف المنافقون الأذكياء، وسـائِرُ الكفرة، حقائقَ الإيمان بـالله واليوم الآخـر، وسائر حقـائق الدّين، ببصيـرة عقلية واعيـة عميقة، وببصيرة وجدانيّـة نقيّة سليمة من الغشـاوات، لعلموا أنّ أكثر الناس ذكـاءً ورجاحـةَ عقلٍ همْ من المؤمنين، الملتزمين بشِرْعَةِ الـدّين وَمِنْهاجـه، لأنّهم يعرفـون كيف يَبْنُونَ في حَاضِرِهم مستقبلَهُمُ السّعيـد، وكيف يَحْمون أنفسهم من المخاطر المرتقبة.

والأنبيـاء هم من أذكى النـاس، وأرجحهم عقـولاً، فهم في قمّـة أهْـلِ الـذّكـاء والفطنة والعقل في مدىٰ تاريخ البشريّة حتّى تقومَ الساعة.

أمّا جماهير الأتباع من المسلمين المؤمنين الصـادقين ففيهم المستويـات البشريـة

كلُّها، فيوجد في بعض أهل التقوى منهم غفلات فكريّة، وسذاجات، إلاّ أنهم بدوافع سلامة فِطَرِهم قبلوا مسيرة الإيمان والإسلام على مقادير أفْهامهم وتصوّراتهم، فسلموا، وحقّقوا لأنفسهم الراحة والطمأنينة والسعادة والنجاة يوم الدين، والله عزّ وجلّ لم يكلّفهم أكثر مما وهبهم من قُدْرات.

إنَّ فِطَرَهُمُ السليمة قد أعطتهم شعوراً فطريّاً بالحقيقة، وهذا الشعور الفطري السليم قد صاحبه من التفكير السليم بمقدار ما لديهم من هبات فكرية، وهذا يكفيهم لإيمانهم وإسلامهم، وتحقيق ما يُريدون من سعادة عاجلةٍ وآجلة، وبذلك تكونُ رؤيتهم للحقيقة أو إحساسهم النفسيّ الوجدانيّ بها أصحُّ من رُؤية أنصاف أو أرباع الأذكياء، الذين رفضوا الإيمان بالله واليوم الآخر، ورفضوا الإسلام والعمل بشريعته ومنهاجه.

ولدى التمحيص نُلاحظ أنّ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الأخر، يظلُّ الشَّكُّ والتَّخَوُّف يَمْلآنِ قلوبهم قلَقاً واضطراباً، فهم في الحقيقة السفهاء وناقصو التفكير والعقل، وإنْ كانوا في أعْمالِ الخبث، والمكر، والكَيْدِ، أذكياء، فذكاء المجرم لا قيمة له في ميزان العقلِ الصحيح، والفهم السديد.

من أجل ذلك وصف الله عزّ وجلّ المنافقين بأنّهم هم السفهاء، لا المؤمنون، وردّ عليهم الوصف الذي وَصَفُوا به المؤمنين، دون أن يزيد عليه شيئاً، حتى لا يَكُونَ في الزّيادة معنى الْجَنَفِ في الجزاء، فالسيئة تُرَدُّ بمثلها.

ولا تخفى نزعة العجب والكبر والاستعلاء والغرور بالنفس، واستنكارِ دعوتهم إلى الإيمان الصادق، في مقالتهم:

﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾؟!

لذلك ردّ الله عزّ وجلّ عليهم وصف السفاهة انتصاراً للمؤمنين بقوله تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

وباستطاعتنا أن نفهم من استعمال حرف الشرط «إذا» في قول الله تعالى:

(١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

(٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾.

أنّ على من اطّلع على أحوال المنافقين من المؤمنين الصادقين، أن يعظوهم وينصحوهم بترك الفساد في الأرض، وتَرْكِ خطّة النفاق، وبالإيمان الصادق الصحيح أُسْوةً بسائر المؤمنين الصادقين.

نظراً إلى أنّ حرف الشرط «إذا» يدخل على متحقق الوقوع، والمؤمنون من وظيفتهم العامّة أن يدعوا إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأنْ يأْمُروا بالمعروف وينْهَوْا عن المنكر، وبِما أنَّ الْمُنافِقَ لا بُدَّ ان يَنْكَشف أمْرُه لبعض أصدقائِهِ من المؤمنين الصادقين، فإنّ صديقه أو أصدقاءه لا يتركونه منْ دَعْوَةٍ ونُصْحٍ وأمرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر، إذ المؤمنون مَدْعُوُّون دواماً أن يقوموا بوظائف الدعوة إلى سبيل رَبِّهم، ووظائف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فدلّ استعمال «إذا» على توجيه المؤمنين لنُصْحِ من يرون فيه نفاقاً، وأنّ من المؤمنين من سَيَسْتَجِيبُون لهذا التوجيه، فهذا النُّصْحُ أمرٌ مؤكّدُ الوقوع، فلا تزال طائفة من المؤمنين ظاهرين على الحقّ حتى يأتي أمر الله.

وبما أنّ المنافقين لا يعلمون من أنفسهم أنَّهُمْ هُمُ السفهاء في الحقيقة دون المؤمنين، فإنّهم يُصابون نتيجة اعتدادهم بتفوُّقِهِمْ في الذكاء بعُقْدَةِ الغرور بالنفس، إذْ يَنْتَفِخُ هذا الغرور حتى يملأ جوانب النفس، فَيُغَشِّيَ عليها، فَيُخْفِيَ عنها وجه الحقيقة، ويَحْجُبَ عن بصيرَتِها كلَّ المنافذ التي يُمْكِنُ أنْ تَرَى منها الحقيقة، وبذلك يسقطون في أشدّ أوحال الغباء، من حَيْثُ يَتَصَوَّرُون أنهم أهْلُ الذُّكاء المتفوّق، والعقل الراجح.

إنّ مَقالَة المنافقين هُنَا تُشْبِهُ مقالةَ الكفّار من قَبْلِهِمْ، فَمَلأ وجُمْهُورُ قوم نوح قالوا له، كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾.

وكذلك قال له الملأ الذين كفروا من قومه كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ونـظير ذلـك قال مشـركو قـريش لرسـول الله محمد ﷺ إذْ طـالبوه بـطرد الفقـراء المؤمنين عن مجلسه حتّى يتّبعوه، أو بأنْ يكون له بهم اجتماع طبقيّ خاصّ، فأنزل الله عليه قوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

* * *

وبعـد ذلك انتقـل النصّ إلى ظاهـرة أخرى من ظـواهر سلوكهم، فقـال اللّهُ عـزّ وجلّ:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ خَلَوْا۟ ﴾:

يقال لغة: خلا به، وخلا معه، وخلا إليه، إذا اجتمع به منفرداً.

﴿ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾:

الاستهزاء: السخرية والاستخفاف بالمسخور منه.

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ ﴾:

أي: يَمُـدُّهُم بالقـوى والطاقـات ضمن سننه الـدّائمة التي بمقتضـاهـا يمُـدُّ كُـلَّ عباده، مُحْسنيهم ومُسيئيهم، مؤمنيهم وكفارهم، لاستكمال ظروفِ امتحانهم في الحياة الدنيا، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

فالْمَدُّ على هذا المعنى هو كالإمداد، ويَكُونُ بمتَابعـةِ العطاء بمـطالب الحياة من

خير أوْ شرّ. ومِنْ فعل «مَدَّ» الثلاثي على هذا المعنى قوله تعالى:

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ... ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان/ ٣١].

ويأتي المدُّ بمعنى الإمْهال.

والله عزّ وجلّ يَمُدُّهم من المدد بالعطاء لاستكمال ابتلائهم، ويَمُدّهم مُمْهلاً لهم ليستوفُوا كُلَّ الزمن المقدّر لابتلائهم، وعسَىٰ أن يثوبوا إلى رُشْدِهم، ويتوبوا إلى بارئهم.

وجاء ذكرُ ﴿في طُغْيَانِهِم﴾ لبيان أنّ الله عزّ وجلّ يَمُدُّهُمْ بعطاءاته ويُمْهِلُهُمْ، حالة كونهم منغمسين في طُغيانهم، لا أنّه يَمُدُّهُمْ بعُنْصرِ الطغيان.

﴿يَعْمَهُونَ﴾:

أي: يترَدَّدُون مُتحيّرين، لا يَدْرُونَ على أيّ منهج يَسيرون. ويكون الْعَمَـهُ أيضاً بمعنى انطماس البصيرة، فهو في الفكر والبصيرة كالْعَمَىٰ في البصر، والمعنيان مقصودان في النصّ.

فالمعنى الأول ينطبق على المنافقين المذبذبين الذين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والمعنى الثاني يناسب المنافقين الذين مردوا على النفاق وهم مستقرّون في مواقع الكفر جزماً.

فمن الظواهر السُّلوكية للمنافقين أنّ لهم أكثرَ مِنْ وجه:

* لهم وجه يستعلنون به أمام جمهور المؤمنين، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنّا.

والظاهر أنّهم يكرّرون هذه المقالة كلّما دعت المناسبة إلى ذلك، نظراً إلى أنّهم لا بُدَّ أنْ يُلاقوا المؤمنين كثيراً، فهم ضمن صفوفهم ويتكرّر لقاؤهم بهم.

ولعلّ الداعي إلى تكرير مقالتهم هذه أمام المؤمنين الصادقين شُعورُهم الداخلي بأنّ في تصرُّفاتهم ما يُكذّبُ ادّعاء إيمانهم، فهم يحاولون سَتْر ذلك بتكرير قولهم: «آمنّا» إذا لَقُوا فريقاً من الذين آمنوا، ورأوا في نظراتهم تشكُّكاً في صدق إيمانهم.

وهـذا نظير لجوء الكـذّاب إلى حلف الأيمان المغلّظة، لتـأكيد أنّـه يَصْـدُق في كلامه، ولا يكذب.

* ولهم وجه آخر يَتوارَوْنَ بِهِ وَلا يُظْهرونه إلاّ إلى شياطينهم، أي: إلى إخوانهم المنافقين أمثالهم، أو إلى أئمتهم في النفـاق، أو إلى أئمة الكفـر وقـادتـه، أو إلى الموسوسين لهم بـأن يَسْلكوا مسلك النفـاق من شياطين الإنس، كـاليهود، أو إلى كـلّ أولئك، وهو الأرجح.

وتفسير ﴿شياطينهم﴾ بـأنّهم الموسـوسون لهم من قـادة يهود قـول رُوِي عن ابن عباس، وهو قوي.

فإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا لهم: إنَّا مَعَكُمْ، فَأَكَدُوا لهم أنّهم معهم في حقيقة الأمر، كافرون بمحمد وبدينه، ولم يؤمنوا مع المؤمنين إيمـاناً صـادقاً، بـل هم أعداءٌ حقيقيّون لهذا الدين وللمؤمنين به.

وفي تعـدية فعـل «خلا» هنـا بحرف «إلى» معنى الميـل النَّفْسِي، أي: خلوا مع شياطينهم مائلين بقلوبهم إلى طريقتهم، يُسِرُّونَ اليهم بالمودّة.

ويُجِيبُ المنافقون على تساؤلٍ لا بُدّ ان يُوَجَّهَ لهم، وهـو: ما سَبَبُ هـذا التلَوُّنِ إذاً، فيعلّلون لشياطينهم سلوكهم هذا بقولهم:

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: ما نحن إلاّ مستهزئون بالمؤمنين، وذلك بأن نُظْهِر لهم أنّـا معهم نؤمِنُ بما يؤمنون به، فيَرْكَنُونَ لنا، ويطمئنّون إلينا، فنُصِيبُ منهم خيراً، ونترصّد غِرّاتهم لـلإيقاع بهم، أو التخلّي عنهم عنـد حاجتهم إلينـا، ونَنْصُرُ أعـداءَهُم الصرحـاء المجاهـرين بعداواتهم لهم، ونحن ضمن صفوفهم.

وظاهر أنّ هذا هو الاستهزاء من الدّرجة القصوى، أمـا صور الاستهـزاء الكلامي ونحوه التي تجري بين الناس فهي دون هذا النوع من الاستهزاء بدرجات متعدّدات.

يتكلم بعض النـاس بكلامٍ سخيف في محفـل، فيُرِيـدُ به أحَـدُ خصومـه كيداً، فيظهر له الإعجاب بما يقول، ليتمادى فيما هـو فيه، حتّى يَفْضَحَهُ، ويسقطه في أعين السامعين، ويُدْرِكُ الأذكياء انّ هذا الذي أظهر لـه الإعجاب قـد كان يُغَـرِّرُ به استهـزاءً

ليورّطه، فيندفع مُسْرعاً في الاتجاه الذي دفعه شطره، حتّىٰ يسقط في النهاية ويَسْخَر منه الناس.

كذلك يفعل من يُريد تَوْريطَ مغرور بنفسه ليصارع رجلاً قوياً لا يقوى على مصارعته، فيقول له: أنت أقوى منه وأقدر، وستصرعه وتَغْلِبُهُ بقوتك وحيلتك وذكائك، وهو في ذلك يستهزىء به ويستخفُّه لِيُسرِعَ في التورّطِ.

فإذا اغترّ وتورّطَ، سقط طريحاً كلمحٍ بالبصر، فسخر منه المشاهدون واستضحكوا.

على مثل ذلك تأتي صور الاستهزاء الماكر المستخفي المقنّع.

لكنّ لعبة الاستهزاء الكبرى إنّما يمارسُها المنافقون القادة، لأنّها في تصَوُّرِهِمْ لعبةُ توريطٍ لأمّةٍ كاملة، ولا تقتصر على مجلسٍ من المجالس، ولا على فردٍ أو أفراد، إنّها لعبة استهزاء طويلة المدىٰ، واسعةِ الساحة البشريّة، شاملة لعمل أمّة كاملة، بكلّ تصرّفاتها، وكُلّ أنظمتها، لتوريطها وإسقاطها فيما تكره، وهي تظُنُّ خلافَ ذلك، ولا تعلم من أين أُتِيَتْ.

وطريقة المنافقين في الاستهزاء طريقة منافقة مستخفية غير مستعلنة، وليست مثل طريقة استهزاء الكافرين الصرحاء، فللكافرين الصرحاء طريقةٌ أخرى في الاستهزاء، هي طريقة الذي يواجه خصمه بهزئه.

وقد يدرك المؤمنون أنّ المنافقين يستهزئون بهم، ويخدعونهم، ويستخفّونهم ليتورّطوا، وذلك من خلال تصرّفاتهم، وفلتات أَلْسِنَتِهِمْ، فمن الملاحظ أنّ المنافق إذا كان في مجلس من يخدعهم بنفاقه، ورأى أو سمع ما لا يُعْجِبُه ممّا لا يؤمن به باطناً، انفعلت نفسه تجاهه بحركة خفيّة من حركات الهزء والسخرية دون أن يملك نفسه، فإذا شعر بما جرى منه سارع إلى كتمه وإخفائه وإظهار خلافه لئلا يدلّ على حقيقته.

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ الله عزَّ وجَلَّ مطّلع عليهم، وهو ينتصر لأوليائه، فيستهزىء من أعدائه، فيملي لهم، ويمدّهم بإمدادات الحياة كالمال والصحة والبنين وأنواع القوى التي هي من عطاءات الله لعباده، حالةَ كَوْنِهِمْ منغمسين في طغيانهم يَعْمَهُون، أي: يتردّوون متحيّرين، لا يَدْرُون على أيّ منهاج يسيرون، وفي أي سبيل

يسلكـون، بسبب عمًى بصائرهم، ويُبْقي الله لهم إمداداتـه في الحيـاة ليستكمـل لهم ظروف امتحانهم فيها، حتّى آخر نقطة من أملٍ بـرجعتهم إلى الصواب، وتـوبَتِهِمْ من الكفر والنفاق.

إنّ المنافقين يتصوّرون أنّهم بمسايرتهم الظاهرة المنافقة للمؤمنين إنّما يستهزئـون بهم، لينتفعوا منهم، وليَتَّقُوا سلطانَهم ذا البأس، وليُوقِعُوهُمْ حين غرّاتهم بما يكرهون، وليتخلّوا عنهم عند الشدائد.

لكنّهم في الحقيقة هم الواقعون بما يكرهون في عاقبة أمرهم، لأنّ الله عزّ وجلّ عليم بكـل حركـاتهم وتَصَرُّفـاتِهِمْ، فهو سبحانـه يُمْلي لهم، ويَمُـدُّهم وهم سـائـرون منغمسون في طغيانهم، ومع هذا المدّ الذي يَـرَوْن فيه أنْصِبَتَهُمْ من المنـافـع والحمـاية وبعض أنـواع الكيـد متحقّقـةً لهم، تتكـاثف الغشـاوة على بصـائـرهم، فيسيـرون في تصرُّفاتهم على عَمَهٍ، ومع تعاظم الطُّغْيَان يَتَعاظم الْعَمَهُ، حتّى تنطمس بصائرهم تمـاماً عن رؤيَـةِ مصـائـرهم، ويكونـون بذلـك قد مَرَدُوا على النفـاق، فيتخبّـطون في أوديتـه بجُرأةٍ، دون أنْ يُحِيطُوا أنفسهم بحذر.

ويدركهم عدل الله، فيسقـطون في شرّ مـا يكرهـون، وينالـون عقوبـة استهزائهم بالمؤمنين، عندئذٍ يظهر أنّهم هُمُ المستهزأُ بهم حقيقة.

فمن استهزأ بمن يكون الله معه، فَيُمْلِي الله له، ويَمُدُّه بوسـائل حيـاته، ووسـائل ممارسته لأعمـاله، حتّى يـوقعه في مَهْلكتـه، عقاباً له على عمله، وينجي أوليـاءَهُ مِنْ مَكايِده، يكون في الحقيقة هو المستهزأ به.

ألا نفهم ذلك من قول الله عزّ وجلّ بشأنهم:

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾:

أي: حتّى يجدوا أنفسهم ساقطين بِخَيْبَاتِهم في أوحال ما يكرهون، عنـدئذٍ ينـظر المؤمنون إليهم نظر الكاشف لخباياهم المستهزىء بهم.

* * *

بعد ذلك جاء في النصّ الحكم عليهم، وتقويم سلوكهم في الحياة، وبيان أنّهم آثَـرُوا الضلالـة على الهدى، فبـذلُـوا الهـدى ثمنـاً، واشتـروا الضـلالـة ﴿فمـا ربحت

تجارتهم﴾ الدنيوية، إذْ جرّ النفاق عليهم عاقبة وَخِيمَةً في الدُّنيا ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ هداية تنفعهم في آخرتهم، فوزاً بالجنة وخلاصاً من عذاب النار، فخسروا بما اختاروا لأنفسهم ثواب الهدى العظيم الذي أعدَّه الله للمؤمنين الصادقين، وخسروا أنفسهم إذْ جَرُّوا لها العذابَ في الجحيم يوم الدين، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

شبَّهُ الله عزّ وجلّ تركهم لهدى الإيمان الصادق الذي كان في أيديهم، وباستطاعتهم أن يحتفظوا بِه ملكاً، هو وثمراتُه في جنات النعيم، وأخذهم لضلالة النفاق بَدَلَهُ، وما تجنيه عليهم من خيبةٍ وعذاب، بمن استبدل شيئاً بشيءٍ عن طريق الشراءِ والبيع.

ولمّا كان غرضهم من ذلك تحقيقَ الرّبح الدنيوي، فإنّ هذا الرّبح الذي هو غرضهم لم يَصِلُوا إليه، ولم يُحَقِّقوا منه ما كانوا يطمعون في أن ينالوه، لا من جهة المؤمنين، ولا من جهة الكافرين.

لذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿فما ربحت تجارتُهم﴾ ولم يقلْ: فكانت تجارتهم خاسرة، لأنّ الغرض بيان عدم حصولهم على ربحٍ دنيويّ من نفاقهم، وهذا الربح لم يظفروا بشيءٍ منه.

لكنّ خسارتهم العظمىٰ هي خسارتهم الأخرويّة، إذْ يُحْرَمُونَ في الآخرة من ثواب المهتدين، ويكونون فيها من المعذبين في الدرك الأسفل من النار، وهذا هو الخسران العظيم، الذي يخسرون به أنفسهم، وقد أشار إلى هذا الخسران العظيم قول الله عزّ وجل:

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

* * *

وبعد ذلك ضرب الله عزّ وجلّ للمنافقين مَثَلَين، يَدُلّانِ على أنّهم صنفان لا صنفٌ واحد.

فالأول: صنف مرد على النفاق.

والثاني: صنف ما زال مذبذباً، لا متجهاً بكليّته إلى هؤلاء الكافرين، ولا متجهاً بكليته إلى هؤلاء المؤمنين، لكنّه إلى الثبات في موقع الكفر أقرب.

فقال الله عزّ وجل في المثل الأول:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وقال اللّهُ عزّ وَجَلّ في المثل الثاني:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

مثلان ضربهما الله عزّ وجلّ لمجموع المنافقين، ولدى تحليلهما بنظرات ثاقبات يتبيّن لنا أنهما يدُلّان على أنّ المنافقين صنفان، وأنّ كُلّ مَثَلٍ منهما يُلْقِي الضوء الكاشف على صنف من صنفي المنافقين:

* فالمثل الأوّل منهما تضمّن تشبيهاً لحالة الصنف الأشدّ من صنفي المنافقين، وهو الصنف الذي مرد على النفاق، بَعْدرؤيته أضواء هداية القرآن، وسماعه إنذارات عذاب الله للكافرين، ولمّا مرد على النفاق ملتزماً الثباتَ في موقع الكفر، طَمَس الله بصيرته، بقانونه القَدَري في سُنَنِه الجاريات الثوابت.

* والمثل الثاني منهما تضمَّنَ تشبيهاً لحالة الصنف الآخر المذبذب الذي ما زال متردّداً مُختاراً بين الإيمان والكفر، وهو إلى الثبات في موقع الكفر أقرب، فهذا الصنف لم يطمس الله بصيرته إمْهالاً لـه، وليَمْنَحَهُ آخِرَ نقطة في كأس بصيرته، ولو شاء الله لطَمَسَ بصيرته، حُكْماً عليه بالجانب الغالب الأرجح من واقعه.

(١) فالصنف الأوّل، مَثَلُهُ (أي: وصفه) كمثل (أي: كوصْف) الذي استوقد ناراً في مفازة مظلمة مُوحِشَةٍ ضِمْن ليلٍ دامسٍ، فلمّا أضاءَتْ هذه النار ما حوله من ارض المفازة، ورأى صراطه، وعرف سبيل هدايته، ووَجَد أَنَّهُ على غير ما يهوى وما يشتهي، اتّخذ وسيلة أبعد عنه بها شُعاع الضوء، رافضاً الاهتداء بالنور، متأبياً ان يَسْلُكَ الصراط المستقيم، إصراراً على الْبَاطِل، ومعاندةً للحقّ، فوقع عليه قانون ذهاب النُّورِ، الذي تسبّب هو في إذهابه، فأمسَىٰ كالأصمّ الأبكم الأعْمَىٰ، غير مستعدٍّ لان يرجع إلى مواطِنِ النور.

وفي بيان حال هذا الصنف من صنفي المنافقين، قال الله عزّ وجل:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

مِنْ هذا الإيجاز الخاطف في هذا المثل، يستطيع المتدبّر اللمّاح، أنْ يفهم قصّة طويلة للممثَّل به، مطابقة لحالِ المنافقِ الممثَّل له، وهو المنافق الذي اختار بإصرار موقع الكفر في الباطن، ومرَدَ على النفاق في الظاهر.

مَن الَّذي يستَوْقِدُ النارَ ثُمَّ يُطْفِئُها ويبقىٰ في الظُّلُماتِ لا يُبْصر، فيكونُ كالأصمّ الأبكم الأعْمَىٰ، الذي يتخبَّطُ في ظلماته؟

لا بدّ أن يفهم المتدبّر الذكيّ اللّماح أنّه إنسانٌ في مَفازةٍ مُوحشةٍ مُظْلِمَةٍ، يتخبَّطُ في ظلماته على غير هدى.

ثُمَّ أدْرَك أنّ بإمكانه أن يجمع حطباً، وَيقدَحَ زِناداً، ويستوقِدَ بذلك ناراً، تُضِيءُ لَهُ ما حَوْلَهُ مِنَ الأرض، فَتُنِيرُ له طريقه، وتَهْدِيه إلى صراط نجاته.

ففَعَلَ ذلِك، واستوقد النار التي أراد، وأضاءت له النار ما حَوْلَهُ من الأرض، على محيط دائرة بِمِحْوَرِ مَكَانه، لكنّه رأىٰ أنّ صراط نجاته على خلافِ مَا يهوى ويشتهي في رحلته، ففيه تكليفٌ إيجابيٌّ بعمل لا يُحبُّ أنْ يعمله، وفيه تكليفٌ سلبيٌّ بترك عملٍ لا يحبُّ أن يتركه، فاتَّخذَ وَسيلةً للتخلّص من النور الذي كشف له الصراط، بإطفاء النّار، أو بغير ذلك، فأجرىٰ الله قوانينه الجبريّةَ القدريّة، فذَهَبَ بنوره ضمن ثوابت سُنَنه.

وهكذا كُلُّ من اتَّخَذ بإرادَتِه وسيلةً ذاتَ أثرٍ في سُنَنِ اللّهِ لأمْرٍ ما، أجرى الله له قوانينه الجبريّة القدريّة، فحقّق لَهُ مَا أراد من أمْر، سواءٌ أكان فيه نفعٌ له أو ضرّ.

فصار هذا المتخبِّط في مفازته يتحسَّس باللّمْس مَواقِع مفازَتِهِ، ويتنقّل من مَوْقعٍ إلى موقعٍ، كُلّما وجدَ في بعض ما تقع عليه لامِسَاتُه ما يُمتعُه وَيَلَذُّ له.

وَمعَ كُلّ تنقُّلٍ تخبُّطٌ وأشواكٌ وحُفَرٌ وعوارضُ مؤلمات. وهكذا ظلّ في متاهـاته، حتى انحدر إلى تهلكته وعذابه الأليم المقيم.

لكِنْ كَلِمات المثل في القرآن اقتصرتْ من الممثَّلِ بِهِ على عبارة:

﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾.

ووقف النصّ هنا في إيجاز بديعٍ، وترك لذكـاء المتدبّر الحصيفِ أنْ يملأ بقـايا هٰذِهِ اللّقطة من الممثَّلِ به.

إنّ مُسْتَوقِدَ النّار إنّما استوقدها للإضاءة، بدليل:

﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾.

والصورةُ تُوحي بأنّه في ليلٍ دامسٍ، وفي صحراء موحِشةٍ، وهذا ما دعاهُ إلى أنْ يتكلّفَ بحثـاً عن الوسـائل، ويطلُبَها لِيُوقِدَ النـار التي يُريـدُ، بدليـل استعمال فعـل: ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ دون فعل «أوقد» وبدليل حال الممثَّل لَهُ، الذي جاء في وصفه:

﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

لكنَّ هذا الذي اسْتَوقَد النار قد اتّخذَ وسَائِلَ ليتخلَّص مِنْ ضوئهـا، الّذي كشفَ لَهُ مَا حَوْلَه، فـدَلَّهُ عَلَىٰ خِـلافِ ما يَهْـوى، إمّا بغضِّ عيْنَيْـهِ، وإمّا بـإطفاءِ النّـار، وإمّا بالفرار من موقعها إلى مَوْقع آخر.

إنَّ تحديد وسيلةِ التخلُّصِ من ضوء النار لا تتعلّق به أهَمّيّةٌ حَتّىٰ تُذْكر، والتَّعْميمُ أولى، ليشمل كُلَّ الصُّور.

وقوانين الله عزّ وجلّ في الخلق تقضي بأنّ من اتخذ وسيلةً من الوسائل المحقِّقةِ في نظام التكوين الرَّبّانيّ لأمْرٍ منَ الأمور، فإنّ الله عزّ وجلّ يُحقّق هذا الأمْر، فَمَنْ رَمَىٰ

نفسَه من شاهقٍ على صخْرٍ حطّمه اللّهُ وكسّر عظامه وقتله، كذلك من اتّخذ وسيلةً لإطفاء النّار ذهبَ اللّهُ بنورِه.

كلُّ هذا يُدرِكُهُ المتدبّر الذكيّ اللّمّاحُ، دُونَ أنْ يُذْكر في العبارة.

وينْتقِل النَّصُّ مِنَ الممثَّلِ بِهِ إلىٰ الممثَّلِ لـه، فيأتي بنـاءُ الحكْمِ علىٰ المثَلِ كأنَّهُ عَيْنُ الممثَّلِ له، على طريقةِ القُرآنِ في أمثاله.

والممثَّلُ له هُو الصنف الأوّلُ من صنفي المنافقين كما سبقَ بيانه.

وقدْ دَلَّ هذا الحكْمُ على هُـوِّيَّةِ هـذا الصنْف، فَهُـو صنفٌ رفضَ الحقّ، وأصَرَّ على الكُفـر، ومَرَدَ على النفـاق، فقالَ اللّهُ عَـزَّ وجلَّ غِـطَاءً لِقَوْلِـهِ: [فلَمَّا أضـاءَتْ مَـا حَوْلَهُ]:

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾.

إنّ عبارة: [فلَمّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ]، هِيَ مِنَ الممثَّلِ بِه، أمّا مَا جاء غطاءً لَها فَهُو حكْمٌ يتعلَّقُ بالممثَّل له، وهم المنافقون المبطنون للكفر جازمين مُصِرِّين، المتظاهرون بالإسلام قناعاً كاذباً، وقـد مَرَدُوا على النفـاق، فهم غير مستعـدّين للرجوع إلى حديقة الإيمان، بعْدَ اختيارهم طريق الكفر باطناً، والنفاق بالإسلام ظاهراً.

إنّهم لمّا اختاروا لأنفسهم هذا الاختيار الآثم بإراداتهم، أجرىٰ الله فيهم قانونـه، فذهبَ بنور بصيرتهم الذي يوجّه مسامعهم لاستماع آيات الله، وبيانـات الرسـول ﷺ، ومواعظ الهداية، ويوجّه ألسنتهم الصادقـة للاعتـراف بالحقّ الـدينيّ، والدّعـوة إليه عن إيمـانٍ وصدقٍ، ويـوجّه أبصـارهم لمشاهـدة آيات الله في كـونه دواماً، والانتفاع منهـا بتمكين الإيمان وتعميقه.

لـذلك فهم بـالنسبة إلى قـطاع الهدايـة الرّبّـانية التي تُقـدّم لهم دلائـل السعـادة الأخرويّة الخالدة:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾.

كيف لا يكونون كذلك، وقد ذهبَ الله بنور بصيرتهم، إذ اتّخذوا باختيارهم الحرِّ

الوسائلَ إلى ذلك، بإصرارهم على الكفر، بعد معرفتهم دلائل الإيمان، ورؤيتهم أضواءَ آيات الله وبيانات الرّسول ﷺ، وابتغائهم تحصيل الأمن والمنافع من جهة جماعة المؤمنين، بإعْلانِ الإسلام نفاقاً.

ثُمَّ إنّ من اختار بإرادته الجازمة الواعية مثْلَ هذا الاختيار، لا يمكن في العادة أن يَرْجِع إلى مواقع النّور والهداية وصِدْقِ الإسلام، فقال الله عزّ وجل:

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

* * *

(٢) أمّا الصنف الآخر من صنْفَي الْمُنَافِقين، فمثَلُهم كمثل جماعَةٍ في مَفازَةٍ مظلمة بليلٍ دامسٍ، جاءَهُمْ سحابٌ مُمْطر، فأمطر عليهم مطراً غزيراً، فأصابتهم الحيْرَةُ يبتغون النجاة، ورافق ذلك رعْدٌ وبرق، فكانوا ضِمْنَ هذا الحدَثِ على مفازتهم، في مَطرٍ غزيرٍ مخيف، وفي ظُلُماتٍ مُوحِشات، وفي رعْدٍ يُثِيرُ الرُّعبَ، وفي برقٍ يتلامع بالضوء.

فهم كلَّما تواتر عليهم الرَّعْدُ الشديدُ المخيف القاذف بالصواعق، يجعلون أصابعهم في آذانهم خوْفاً من الصواعِقِ أنْ تأتيهم بالموت، وكُلَّما أضاء لَهُمُ البرْقُ مَشَوْا في ضوْئِه على مقدار ما يكْشِفُ لهم وَمِيضُه، فخُطُواتُهُمْ على طريقِ الهُدَىٰ قليلة بِقَدْرِ الْوَمَضَات، وكلَّما انتهتْ ومَضَاتُه السَّريعاتُ الخاطفاتُ توقَّفُوا في مواقعهم حَيارىٰ، لا يَدْرُونَ كيف يتصرَّفون.

إنّ أهلَ هذا الصنفِ من المنافقين لم يَصِلُوا بَعْدُ إلى مرحلة العنادِ والإصرار على الكُفْرِ، ورَفْضِ قَبُولِ الحقّ الذي جاء به كتابُ الله، وبيّنَهُ رسُولُ الله ﷺ، بل ما زالتْ لديْهم بقيَّةُ خيرٍ تَنْزِعُ في داخلهم إلى الاستجابة، لكنّها بقيَّةٌ ضعيفة.

إنّهمْ لم يَفْقِدوا القدرة على رؤية طريقِ الهداية، كما فقدها أفرادُ الصنف الأول، لكنّها بقيت لديهم في مستوى نزعاتٍ تشبه خواطِفَ البرق، وهي قويَّةٌ باهرة، إلاّ أنّها قصيرَةُ الزّمن، بينما هُمْ بحاجَةٍ لالتزام طريق الهداية إلى نور دائم الإشراق، أو طويل مُدَّةِ الإشراق، حتّىٰ يملكوا دوام الهداية.

ولَمْ يفقدوا أيضاً القدرةَ على سماع إنذارات العقاب الأليم جزاءً وفاقاً، لكنّها

بقيت لديهم في مستوى نزعات قليلات، تُشْبه الوحداتِ الـزمنيَّةَ القليلةَ الَّتي يـأتي فيها مـع المطر الغزير رعْـدٌ يقذف بـالصواعق، وهم بحـاجة لاجتناب سلوك سُبـل الكُفْـرِ والضَّـلال إلى خوفٍ دائم، أو طـويـل البقـاء من عقـاب الله الأليم، حَتَّى يملكـوا دوام اجتناب سُبُلِ الكُفْرِ والضلال.

فهم حيارى بَيْنَ بَيْن، ما زالَ يتجاذَبُهُمُ النقيضـان: الكُفْـرُ والإيمـان. وهم إلى الثبـات في موقـع الكُفر أقـرب. ويَصْدُقُ في شـأنهم على وجه العمـوم أنهم متردِّدُون مُذَبْذَبُون.

إنّهم يَسْمَعُونَ أحْيَاناً آياتِ الْوَعِيد التي تهزُّ قُلُوبَهُمْ هَزّاً عَنِيفـاً، فيخافـون، وتَنْزع قُلُوبُهم إلى اختيار الإيمان والثبات فيه.

وتتلامع أحياناً لعقولهم وألبابهم أضواءُ الحقّ الشديدة القويَّـةُ، الَّتي تشبهُ أضـواءَ البرقِ الَّذِي يخطف الأبصار لقوّته وشدّته، فتنزعُ قُلُوبُهُمْ لاختيار الإيمـان والثبات فيـه، واجتناب سُبُلِ الكُفْر والعصيان.

لكنّهم سرعان ما تغلبهم أهواؤهم وشهواتُهُمْ، فيقمعُونَ نوازعَ الخير في قلوبهم، ويُحْجِمُونَ عن قبولِ الحقّ، ويُعْرِضُونَ مائلين ميلاً شديداً إلى اختيار الثبات في مـوقع الكفر والعصيان.

فهم في وسَطٍ بين السَّمـع والصَّمم، بين البصـر والعمى، وهم إلى الصُّـمم والعَمىٰ أقرب، دلّ على هذا المشهد التمثيلي قولُ اللهِ عزّ وجلّ في المثل الثاني:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾.

﴿كَصَيِّبٍ﴾: الصَّيِّبُ المطرُ الغزيـر. والسحابُ الْمُصْطِرُ مَـطراً غـزيـراً. أي: أو المنافقون كجماعةٍ في مَفَازةٍ عَمَّهُمْ وَأَحاطَ بهم صيِّبٌ فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ، وهذا الرَّعْدُ قَدْ يقذف بالصواعق.

وحـرف (أو) هـو للتقسيم في التمثيـل، المنـاظر للقسمَيْن اللَّذَيْن ينقسمُ إليهمـا

المنافقون، كما تقول: الكلمةُ مثلُ: أكلَ يأكُل، أو سعيد وسماء وماء، أو في ولمّا وثمّ، أي: الكلمة: إمّا فعلٌ أو اسمٌ أو حرف. فليست كلمة (أو) في النصّ هنا للتشكيك، ولا للتنويع في ضرب المثل، إنما هي للتقسيم.

وهؤلاء الجماعة الذين هم في مفازةٍ مَغْمُورَةٍ بسحابٍ مُمْطرٍ مطراً غزيراً فيه رعدٌ وبرقٌ، يملكون أن يسمعوا صوت الرَّعْدِ الذي قَدْ يقذفُ بالصواعقِ، فكُلَّما سَمِعُوا الرَّعْدَ وأحسُّوا بمقدّمات الصواعقِ جعلوا أصابعهم في آذانهم من أثر قَعْقَعَةِ الصواعق، وفَزَعِها الشديد، والدّافعُ إلى ذلِك خَوْفُ الموت.

وجاء التعبير بالأصابع بدَلَ الأناملِ، لأنّ مَشاعِرَهُمْ تَنْدَفِعُ لو اسْتطاعوا أن يُدْخِلوا كُلَّ أصابعهم في آذانهم، ليَسُدُّوا عَنْهم وقْعَ الصوْت الشديد، الذي قد يكونُ مصحوباً بالصواعقِ التي تأتي بالموت، وهذا من الصدق الفنيّ.

وهؤلاء كلّما أضاء لهم البرقُ مَشَوْا في ضَوْئه، وإذا انْقطَعَ فأظلم عليهم الجوُّ قاموا، أي: وقفوا في موقعهم في الظلماتِ حيارى.

ودَلَّ النصّ على أنّ هذا الصِّنْفَ من صنفي المنافقين، يُحْكَمُ عليْه أيضاً بالكُفْر، وإنْ كانَ لديْه بقيّةُ أمَلٍ بالرَّجعة إلى الإيمان الصادق، لأنّ الإيمان لا يقبل التنصيفَ ولا التجزئة، فكيف بهم وهم أكثر مَيْلاً إلى جانب الكفر الجازم، وإلى الثبات الدائم في موقع الكفر، دون رجعة عنه، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾.

وما دام لدى هذا الصنف بقيّةُ أمَلٍ، فإنّ الله عزّ وجلّ في قوانينه القدَريّة التي تتمّ نَتيجة إراداتِ عباده الاختياريّة، يترُكُ لَهُمْ هذا المقدار القليلَ من الرغبات الضعيفات الضئيلات، الباعثات على استماع آيات الوعيد، ورؤية أنوار الحقّ، مهما قلّ هذا المقدار، إمْهالاً لهم، وليتْرُكَ لَهُمْ كلَّ فرصةٍ في الحياة الدّنيا قد تَسمَحُ لهم ولو في أضعف الاحتمالات، بأنْ يتماثلوا إلى العافية والشفاء، مع أنه لو شاءَ عزّ وجلّ لمّا تَرك لديهم هذه البقايا، على اعتبار أنّها بقايا ضعيفة، غير صالحةٍ بحسب العادة للتماثل إلى العافية، فإراداتُهُمْ ميّالَةٌ برُجْحانٍ إلى جانب الكفْرِ الجازم، لكنّ اللّهَ عزّ وجلّ لا يفْعَلُ ذلِكَ رَحمةً بهم، واستيفاءً لظروفِ امتحانهم، حتّى آخِرِ قطرةٍ من

الإمْهالِ الحكيم، دلّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النص:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ولو شاء الله لجعَلهُم مثل أهل الصنف الأوّل صُمًّا بُكماً عُمْياً.

ولم يَدْمَغِ الله عزّ وجلّ هذا الصنف الثاني بـأنّهم لا يرجعـون، كَما ذكـر بجانب أهـل الصنف الأوّل، نظراً إلى أنهم لم يَصِلُوا بَعْـدُ إلى مستـوى التصميم الجـازم على الثبات في موقع الكفر، عن وعيٍ كامل لمَا قرّروه لأنْفُسِهم بالاختيار الحرّ، لذلكَ فهم لم يَصِلُوا إلى حضيض:

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

إنّ هذا الصنف لم تنطَمِسْ بصيرتُهُ انطمَاساً تامّاً، بل يتلامع لـه نور الحقّ أحيـاناً فيراه، فيسير فيـه قليلاً، ويَسْمَـعُ إنْذاراتِ آياتِ اللّهِ أحياناً فَيَرْهبُ، لكنَّـهُ إذا اشْتَدَّتْ علَيْهِ سَدَّ سمعه عنها، وهو بعد ذلك يعودُ إلى حالَتِهِ الأولى.

وهكـذا نـلاحظ أنّ لـوحَـةَ المثـل بجملتهـا تُمثِّـلُ صـورةَ هــذا الصنف المتـردّدِ المذبذب الحيران من صنفي المنافقين.

* * *

خـاتـمـة

تحدّثَ هذا النصّ عن المنـافقين الـذين سلكـوا سبيـل النفـاق من عـرب أهـل المدينة، وعمّا ظهر من صفاتهم وخلائقهم وأنـواع سلوكهم مع المؤمنين، خـلال المدّة التي سبقت نزول هذا النصّ من المرحلة المدنيّة.

ويظهر أنّ الصفات التي تحدّث عنهـا هذا النصّ من صفـات المنافقين، هي من أولىٰ الصفات التي تبرز فيهم.

فهم بعد إعلانهم الكاذب، وسلوكهم مسلك المخادعة الملازمـة لهذا الإعـلان، استجـابةً لمـا في قلوبهم من مرض الانحـراف الخلقيّ الشائن، تـظهـر منهم القبـائـح التالية:

(١) يبهتون الناس، فيدّعُون مؤكّدين أنّهم مصلحون، ولا يشعرون بأنهم من أكثر الناس فساداً وإفساداً.

(٢) ويزعمون أنهم هم الأذكياء الفطناء الذين يعرفون مصلحةَ أنفسهم، فيحتالون لتحقيقها، ويَسِمُونَ المؤمنين الصادقين بالسفاهة، وضعف التفكير، وقلّة العقل.

ولا يعلمون أنهم من أكثر الناس سفاهةً، بالنظر إلى أنّهم يَسْعَوْنَ إلى شرٍّ مصير يصيرُ إليه الناس، وهو الدرك الأسفل من النار، أمّا ذكاؤهم فيستخدمونه في الحيَلِ الماكرة، لإخفاء هُوِيّتهم الحقيقية، وهُمْ غافلون عن حقيقة ما هم إليه صائرون.

(٣) ثمّ هم في تحرّكهم في المجتمع يظهرون للمؤمنين دائماً بوجهِ ادّعاءِ الإيمان، فإذا خَلَوْا إلى قادتهم منهم، أو إلى زعماء أهل الكفر الذين يشجعونهم على النفاق من العرب أو اليهود، كَشَفُوا لهم هوّية أنفسهم، وحقيقة ما في قُلوبهم، ويُبَيِّنُونَ لهم أنَّ مَا يَظهرونَ به أمام المؤمنين الصادقين، إنّما هو لُعْبَةُ استهزاءٍ بهم، وتغريرٍ لهم.

• • •

النصّ الثالث

من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)

الآيات من (٧٥ ــ ٨٢)

حول توجيه المؤمنين أن لا يطمعوا في أن يؤمن لدعوتهم منافقو اليهود وسائرهم

من الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً منذ أوائل المرحلة المدنية، فريق من اليهود، اشتركوا في خطة النفاق مع المنافقين من عرب يثرب، وربّما كان لهم في هذا دور المستدرج والموجّه والمدير والمدبِّر لحَركةِ النفاق.

فأنزل الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة) توجيهاً عامّاً للمؤمنين، يصرف فيه طمعهم عن التعلّق بإيمان اليهود، ويصف فيه لهم واقع حال اليهود، ويبيّن لهم فيه أقسامهم، ويذكر من ضمن هذه الأقسام قِسْمَ المنافقينَ منْهم، الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً وهم غير مؤمنين، فقال الله عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين بعد كلامٍ طويلٍ عن اليهود:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ
مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا
يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ
بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ
أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ

أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

* * *

ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

أَمانِيَ: بياء غير مشدَّدة قراءةُ أبي جعفر.

أمانِيَّ: بياء مُشَدَّدَة قراءةُ باقي القُرَّاءِ العشرة.

وهما وجهان لُغَوِيَّان للكلمة قُرِىء بهما في المتواتر.

خَطِيئَاتُهُ: بالجمع قراءةُ المدنيَّيْن: نافع وأبي جعفر.

خطيئَتُهُ: بالإفراد قراءةُ باقي القُرّاء العشرة.

وفي هاتَيْنِ القراءتَيْنِ تكامُلٌ فِكْرِيٌّ فقد تُحيطُ الخطيئَةُ الواحِدَةُ إذَا كانت من العقائدِ أو الأعمال التي تُسْقِطُ في الكفر، وقد تحيطُ عدّةُ خطيئاتٍ هي بمجموعها تُسْقِطُ في الكفر، لا أنّ الواحدة منها أو مادُونَ مَجْموعِهَا يُسْقِطُ في الكُفْر.

* * *

(١)
المفردات اللغوية في النّصّ

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾:

الطَّمَعُ بالشيء الرَّغبة فيه، ونشهّيه إذا كان مَمـا يُشْتَهَى. يقال لغة: طمِع فيه، وطَمِع به.

﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾:

التحريفُ الإمالةُ والتغيير. ويَكُونُ بتغيير الألفاظ، أو بتغيير المعاني.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾:

عَقْلُ الشَّيْءِ يكُونُ بربطِهِ بعقالٍ للمحافظةِ عليه، وفي الألفاظ والمعاني، يكونُ بحفظ الألفاظِ وتَدْوينِها، وفَهْمِ المعاني وضَبْطِها وإِدْراكِ حدُودِها، وقد يُصَاحِبُ ذلك تَسجيلُها في الشّروحِ والتفاسير، والكتب.

﴿خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾:

يقالُ لُغَةً: خلا به، وخلا معه، وخلا إليه، إذا اجتمع به منفرداً، وفي: «خَلاَ إليه» معنى خلا به مائلاً إليه، على سبيل تضمين خلا معنى مال.

﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

أي: بما فتح الله عليكم من فهم في معاني نصوص توراتكم الدالّة على البشائر بمحمّد رسول اللهِ ﷺ.

﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ﴾:

أي: غير متعلّمي القراءة والكتابة، فلا يَدْرُسُونَ نصوص الدين بتدبّر، والأميُّ هو المنسوبُ لأُمّه، أي: هو كما ولدته أُمّه بالنسبة إلى تعلّم القراءة والكتابة، ومتابعة الدراسة في الكتب، ويُطْلَقُ الأميّ على غير المتعلّم وإن كان يقرأ ويكتب، فالأمية ذات نِسَب.

﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

أي: إلّا قراءة بدون فهم ولا تدبّر، أو إلّا تلاوة عن طريق السماع.

﴿أَمَانِيَّ﴾:

بتشديد الياء وتخفيفها، جمعُ أمنيّة، والفعل «تَمَنَّى»، والمصدر «التَّمَنّي» وهو حركة النفس بما تشتهي وترغب، ويغلب أن يكون مستبعد الحصول عليه. ويأتي بمعنى القراءة والتلاوة، ويأتي بمعنى اختلاق الكذب.

ويأتي تفصيل ذلك عند الشرح التحليلي إن شاء الله.

* * *

(٢)
المعنى العامّ للنّصّ

إنّ معرفة إمكان تحقق غاية من الغايات في مجتمع ما من المجتمعات البشريّة، تتوقّفُ على دراسة واقع حال هذا المجتمع.

فإذا كانت ظاهرات هذا المجتمع بفِرَقِهِ وأقسامه، تدلُّ بحسب سُنَنِ الاجتماع البشريّ، على أنّه لا مطمَع في إصلاح النسبة الكبرى منه، كان الطمع بإصلاحه واستجابة أفرادِه للهداية، تعليقاً لرغبات النفوس والقلوب بأمْرٍ غير ذي جَدْوَىٰ سارّة.

فمن الحكمة السياسية في سير الدعوة ـ والحالُ كذلك ـ أن تُصْرَف الجهودُ إلى مجالاتٍ ومجتمعاتٍ تكونُ الدّعوة فيها ذات جدوىٰ سارّة، أو جدواها أعظم وأكثر، وأن يقتصر توجيه الاهتمام في المجتمعات التي تدلّ ظاهراتها على أنّها ميؤوس من إصلاح جماهيرها ولا مطمع فيه، على تصيُّدِ الأفراد الذين يكون الأملُ بهدايتهم قويّاً، أو تكون هدايتهم أمراً غير ميؤوسٍ منه بعد.

ومجتمع اليهود في عصر الرسول ﷺ، ومنذ أوائل العهد المدنيّ، قد دلّت ملاحظة واقع حالهم مع تكرار التجربات، على أنّ الطمع بهداية النسبة العظمىٰ منهم طمعٌ في غير محلّه. وذلكَ لأنّ الظّاهرات الاجتماعية التي تَكْشِفُهَا الملاحظة في مختلف فرقهم وأقسامهم وطبقاتهم، وتُثْبِتُها التجربات المتكرِّرات لهم، تدلُّ على أنّ هداية جمهورهم هي بمثابة الأمر الميؤوس منه، أوالذي لا مطمع فيه. فينبغي إذاً التعامل معهم على هذا الأساس، توفيراً للْجَهد، واستغلالاً له فيما هو أجْدَىٰ.

ومن البدهيّات أنّ التعامل مع مطموع بهدايته، غير التعامل مع ميؤوس من هدايته بحسب الظواهر الاجتماعية المعتادة، أو الطمع في هدايته ضعيفٌ جدّاً.

هذه قاعدةٌ من قواعد الدعوة إلى الله، علّمها الله عزّ وجلّ للمؤمنين، بقوله في سياق الكلام عن اليهود:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾؟!.

بصيغة الاستفهام التعجيبي.

أي: أفتطعمونَ أيُّها المؤمنون أن يؤمن جمهور اليهود، لأجل دعْوتكم، وحرصكم على هدايتهم، واتخاذ مختلف الأساليب لإقناعهم واسترضائهم؟!

هذا الطمع في غير محلّه، لأنّ الظاهرات الاجتماعيَّة التي برزت في مجتمع اليهود تدلُّ على أنّ هداية معظم أفرادهم أمْرٌ لا يصحّ أن يكون مطموعاً به، فالتعامل معهم على أساس الطمع بهدايتهم يبدّدُ جهودكم، ويصرفها عمّا ينبغي أنْ تُوجّه له، ومن ذلك توجيه الجهود لدعوة من يرجىٰ من أفرادهم أن يستجيب، وتوجيه الجهود لدعوة مجتمعات أخرى يكون بذل الجهود فيها أنفع وأجدى، إذْ هي للهداية والاستجابة والإصلاح أرْجىٰ.

وفي صيغة هذا الاستفهام التعْجيبيّ [أفتَطْمَعُونَ أنْ يُؤْمِنُوا لكُم؟!] توجيهٌ من الله للمؤمنين كي يصرفوا طمعهم عن استجابة جمهور اليهود لدعوتهم، ليوفّروا جهودهم التي يبذلونها بينهم لدعوة جماعات أخرىٰ هي أرجىٰ استجابةً للدعوة.

ثُمّ بيّن الله عزّ وجلّ بالتّحليلِ التفصيليّ واقع حال هذا المجتمع الذي يدلُّ على أنّ الأمل بهداية نِسْبَةٍ كبيرةٍ من أفراده أملٌ ضعيف، إذْ هُمْ:

* إمّا علماء، وأئمة وقادة، يحرّفون كلام الله عامدين متعمّدين، اتباعاً للهوى، والأملُ بهداية هذا القسم ضعيفٌ جدّاً، كما تدلّ سُنَن الاجتماع البشري.

* وإمّا منافقون، دخلوا في الإسلام نفاقاً، ومعظم هؤلاء هم من علماء اليهود الذين يعرفون الحقّ، وينحرفون عنه، فهم لا ينقصهم تعريف بالحقّ وبيان له، والأمل بهداية هذا القسم، واستجابته القلبية ضعيف جدّاً أيضاً، كأفراد القسم الأول.

* وإما وضاعون كذّابون، يكتبون الكتب من عند أنفسهم، ثم يزعمون لجماهيرهم أنّها مِن عند الله، ويتاجرون بهذه الكتب، فيبيعونها بثمن مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى ما سيلاقونه من عذاب عند الله على افترائهم عليه، والأملُ باستجابة هذا القسم للحقّ ضعيف جدّاً، لأنّه مُلْحَقٌ بقسم الذين يحرفون كلام الله، بل هو أبلغ جريمةً، وأعظم إثماً، وأشدّ جرأة على افتراء الكذب على الله، فأفراده يعرفون الحقّ ويتعمدون التزوير في أقبح صوره، ويتعمّدون الكذب على الله، اتّباعاً لهوى النفس، والمنافع العاجلة الدنيوية.

* وإمّا أُمّيّونَ جهلة، إلاّ أنّهم مُقلّدون متعصّبُونَ، يتّبعون أئمّتهم من اليهود اتّباعاً أعمى، ثقةً بهم، وتعصُّباً لهم، لأنهم من قومهم بني إسرائيل فيما يتصوّرون.

وما دام هؤلاء مرتبطين بأئمتهم هذا الارتباط الشديد على غير بصيرة، فلا أمل بهداية جمهورهم. هذا ما تدلُّ عليه سنن الاجتماع البشريّ.

وتأتي الآياتُ فتُبيِّن هذا الواقع الذي يكشفُ بالتفصيل أقسام مجتمع اليهود بصفة عامّة، أمّا الخارج عن هذه الأقسام فنادر قليل، حتّى كأنه لا يعتبر قسماً لقلّة أفراده، ونُدْرَتِهم، كالذين آمنوا صادقين، ومن الصادقين: «مخيريق» و«عبد الله بن سلام».

* * *

(٣)
مع النّصّ في التحليل والتّدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾:

أي: يسمعون كلام الله ويعقلونه، ثم يحرّفونه من بعد ما سمعوه وعقلوه، وهم يعلمون.

ففي هذه الآية بيان لقسم من أقسام اليهود، وهم فريق الأئمة والقادة والزعماء، وفيهم العلماء بالكتاب المنزّل عليهم.

وقد غدا من عادة هذا القسم أن يسمعُوا كلام الله من قرّائهم، فيعقلوه بالحفظ والاستذكار، ثمّ يحرّفوه بالتأويلات الباطلات، وبالزيادة والنقص والتغيير والتبديل، وذلك من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون من أنفسهم أنّهم يحرّفُون كلام الله، وإذْ يُمِيلُونه بالتأويلات الباطلات عن وجه دلالاته إلى معانٍ اخرى تُوافِقُ أَهْوَاءَهم، ويغيّرون بعض كلامه بقصد تغيير المعنى، أو يَزيدون أو ينقصون ويقتطعون النُصوص، كلُّ ذلك بقصد تغيير المعاني بحسب أهوائهم.

إنهم لا يقعون في خطأ التحريف نسياناً للنصّ، أو جهلاً بطرق التدبّر والفهم،

بل هُمْ يتعمّدون هذا التحريف استجابةً لأهوائـهم الخاصّة، أو استجابة لرغباتِ ملوكهم أو ذوي السلطان أو الجاه أو المال فيهم.

ومن بلغت بـه الجريمـة الدينيّـةُ إلى هذا المستوىٰ من تحريف كـلام الله الـذي يؤمن هو به، وقد ورثه عن قومه كابراً عن كابرٍ، ويفعلُ ذلك عن تعمّد وسابق إصرار، فإنه لا مطمع في هدايته واستجابته لـدعوة دين جـديد حقٍّ مُنزّلٍ من عند اللّهِ تخالف شرائعُهُ وأحكامُه أهواءه، ورسولُ هذا الدِّين من غير بني إسرائيل.

أو الطمعُ فيه ضعيف جدّاً، لا يستحقّ بَذْلَ الجهود الكبيـرة، أو الكثيرة، وحسبه إقامة الحجّةِ عليه بالتبليغ وتأكيد التبليغ، حتّىٰ لا يكون له عذرٌ عند الله.

إنّ هذا القسم يَرْكَبُ مركب الباطل مع علمه بأنه باطل، ومع علمه بوجه الحقّ، ويتحدّىٰ قضيّةً كُبرىٰ من القضايا التي يُؤْمن هو بها، في دينـه الذي يعتزُّ به، ويتعصّبُ له تعصباً لقومه، لا للحقّ الذي فيه.

فكيف يقبل اتّباع دين آخر، رسولُه عربيّ، والصفُّ الأوّل من الذين آمنوا به هم من العرب؟!

بعد بيان هذا القسم الأول جاء قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

فكشفَ اللّهُ عزّ وجلّ بهذا عن قسم آخر من واقع حال مجتمع اليهود، وهو قسم الذين تظاهروا بالدّخول في الإسلام مِنْهُم، وهم في حقيقة حالهم منافقون.

وقد اقتضىٰ البيان البلاغيّ الرفيع التّلْوينَ في عرض الأقسام فطُويتِ الإشـارة إلى أنّهم فريق آخر، للإشعار بأنّ هؤلاء المنافقين ليسوا إلّا قسماً قليلاً من اليهود، ويحمـل هـذا الطيّ معنى أنّ هؤلاء المنـافقين هم في الأصل من قسم العلمـاء والقـادة والأئمة المحرّفين لكـلام الله، فقـد دلّ هـذا النّصّ على أنهم في الأصـل من طبقـة علمـائهم وأحبارهم الذين يعرفون دلالات النصوص ويفهمونهـا، ويستطيعـون أن يَستَنْبِطوا منهـا

معاني دقيقة، إذ جاء فيه قولُ من لم ينافق منهم لمن نافق:

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟!.

إنّ هؤلاء المنافقين من علماء اليهود، كانُوا إذا لقُوا الـذين آمنُوا من المسلمين الصادقين، قالوا لهم: آمنّا مثلكم، فمحمّد رسول الله حقّاً، وهو الذي بشّرت به كُتُبُنا، فقد عرفناه بأوصافه المبيّنة لدينا، وقَدْ أُخِذ علينا العهدُ بأنْ نُـؤْمِنَ به إذا حـان حِينُه وبعثه الله.

دلّ على مقالتهم هذه التي طواها النصّ فلم يصرّح بها، أنّ النّصّ قـد بيَّنَ أنّهم كانُوا إذا خلا بعضهم إلى بعض (أي: خلا المنافقون منهم إلى غير المنافقين منهم)، قال غير المنافقين منهم للمنافقين مُلَوِّمِينَ: كيف تحدّثون المسلمين بما فتح الله عليكم من فهم في كتبكم حول البشائر بمحمّد في التوراة وسائر كتب العهد القـديم، إنّ هذا أمْرٌ سيتّخِذُهُ المؤمنون حجّةً عليكم يوم الدين عنـد ربكم، فلا يبقى لكم عُـذْرٌ تعتذرون به في جحود محمّد، وعدم الإيمان به.

إنّ إخوانهم لا يلوّمونهم من أجْلِ خطّة النفاق، فخطّة النفاقِ مَكِيدَةٌ متّفق عليهـا بينهم، لهدم الإسلام من داخله، إنّما يلوّمونهم على التصريح للمسلمين بمـا في كتب اليهود من بشائر تنطبق على محمّد ﷺ.

ولمّـا كان العلم بهـذه الحقيقة في كتب اليهـود إنّما وصلوا إليـه عن طريق الفهم والتدبّر والاستنباط، لا عن طريق نصٍّ صريحٍ غيـر قابـلٍ للتأويـل، سَمُّوا ذلـك فتحاً، أي: هـو باب من أبـواب العلم فُتِحَ لهم عن طـريق الفهم والتدبُّـر والاستنباط، لـذلك قالوا لهم:

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾؟!.

والمـراد: كـان عليكم أن تكتُمـوا هـذا الفهم في أنفسكم، لئـلّا يكـونَ مستنـداً ضدّكم عند ربّكم يوم القيامة.

ولكن من أعجب العجب أمر اليهود، إنّهم يتعـاملون مـع ربّهم كتعـاملهم مـع ملوكهم وعظمائهم من البشر. إنّهُم يتوهَّمُونَ أنّهم إذا كتموا هذا الفهم الذي فهموه من دلالات النصوص وأماراتها، والذي فتح الله به عليهم، كان لهم يوم الـدين مهربٌ بـأنّ

ما في كُتبهم غير قاطع الدلالة، فجحودُهم رسالةَ محمّد ﷺ لا يُشكّلُ نقضاً لصريح دلالات نصوص كتبهم، ويتوهّمُون أنّهم ربّما يجدونَ بذلك عذراً لهم عند ربّهم.

لذلك قال الله عزّ وجلّ في توبيخهم وإسقاط ذريعتهم التوهميّة هذه:

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؟!.

أي: سواءٌ عنده سبحانه أسَرُّوا ما وصلوا إليه من علم أو أعلنوه، فهو يعلَمُ ما يُسِرُّون وما يعلنون، لا تخفىٰ عليه خافيةٌ على غيره في السماوات ولا في الأرض ولا في أنفسهم، واليهود يعلمون هذه الحقيقة عن الله عزّ وجلّ ولا يجهلونها، لذلك وبَّخهُم الله بأسلوب الاستفهام، مستنكراً تجاهلهم، أوَتنْطلي حيلتهم على الله؟!

ثمّ إنّ علْمَ اللّهِ عزّ وجلّ بكتمانهم للحق، مع ملاحظة الإثم الذي يترتب عليهم بسببه، والذي يستلزم المحاسبةَ والجزاء، يدلُّنا عن طريق اللّوازم الذهنيَّة على أنّ الله عزّ وجلّ سَيُحَاسبهم، وسيجازيهم بالعدل على كتمانهم ما يعلمون من أمور الدّين، ومن حقِّ الرَّبِّ الخالق عليهم، وهذا مَا أنذرتهم به دلالات النصّ.

وتتّضحُ هُنا مَسْؤوليَّةُ الذين يفتح الله عليهم أبواب معارف ومفهومات يستنبطونها، وتجزم أفكارهم بصحتها، أو تترجّح لديهم صحتها، ثم لا يعملون بها، أو يكتمونها فلا يعلّمونها الناس، وهي من الأمور التي يجب بيانها ويحرُمُ كتمانها، إذْ هي من أمور الدين الأساسية، أو من أمور الشهادات بالحقوق، أو من ضروريات الحياة.

أمّا القسم الثالث من أقسام اليهود فقد جاء بيانهم في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

فذكر الله في هذه الآية قسم الأمّيّين، وَلَا أرىٰ أنْ يكون المرادُ بالأميّة هنا قاصراً على الذين لا يقْرؤُون ولا يكتبون، بل الأميَّةُ هُنا يدخلُ فيها الجاهلون بالدّين، والجاهلون بدلالات نصوص الكتب الدّينيّة، ولو كان هؤلاء يقرؤونَ ويكتبون، لأنّ من يقرأ ولا يفهم ما يقْرَؤهُ هوَ بمثابة الذي لا يقرأ ولا يفهم، كلاهما جاهل بالمعاني المرادة، فكلاهُمَا أميٌّ.

وبناءً على هذا نستطيع أن نفهم معنى كلمة ﴿أمانيّ﴾ في الآية. فالأماني كما

سبق بتشديد الياء وتخفيفها جمع «أُمْنِيَة» والفعل «تمنَّى» والمصدر «التمنّي» والتمنّي في اللّغة يأتي دالاًّ على عِدَّةِ معانٍ:

أولاً:

* فيأتي بمعنى تشهّي حصول أمرٍ مرغوب فيه.
* ويأتي بمعنى حديث النفس بما يكون وبما لا يكون من مرغوب.
* ويأتي بمعنى سؤال الله في الحوائج.

وهذه المعاني الثلاثة تدور حول حركة النفس بما تشتهيه أو ترغب فيه، سواءٌ أبقيَ تشهيّاً، أو ارتقىٰ إلى مستوى حديث النفس، أو ارتقىٰ إلى مستوىٰ الطلب والتعبير اللساني.

والغالب في التمنّي أن يكون لأمور بعيدة المنال، بخلاف الرجاء.

ثانياً:

* ويأتي التمنّي في اللّغة بمعنىٰ القراءة والتلاوة، يقالُ لُغَةً: تَمَنّىٰ الكتابَ إذا قرأه، أو تلاه، قال الشاعر كعبُ بن مالك في مرثيته لعثمان بن عفّان رضي الله عنه:

تَمَنَّىٰ كِتَابَ اللّٰهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لاَقَىٰ حِمَامَ الْمَقَادِرِ

أي: تَلَا كتابَ الله.

وفي لسان العرب لابن منظور: «تمنّىٰ الْكِتَابَ قَرَأَهُ وكَتَبَه». فأضاف معنىٰ الكتابة.

وعلى معنى القراءة والتلاوة فُسِّرَتْ كَلِمَةُ «تَمَنّىٰ» وكلمةُ «أمنيّة» في قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ ﴾.

إذا تَمَنّىٰ: أي: تَلا وقرأ كتاب الله.

أَلْقَىٰ الشيطانُ في أمنيّته: أي: في تلاوته وقراءته.

ثالثاً:

* ويأتي التمنّي في اللّغة بمعنى اختلاق الكذب، يقال لغةً: فلانٌ يَتمنّى الأحاديث، أي: يفتعلها ويختلقُها. ويقولون: تَمنّى الحديث إذا اخترعه.

ويقول الرجل: والله ما تمنّيْتُ هذا الكلام ولا اختلقته. وقال رجلٌ أعرابيٌّ لابن دابٍ وَهُو يحدّث: أهذا شيءٌ رَوَيْتَه أم شيءٌ تمنّيْتَهُ، أي: افتعلته واختلقته. ورُوِيَ عن عثمان رضي الله عنه قولُه: «ما تمنيتُ منذ أسلمتُ» أي: ما كذبت.

ومن التمنّي هذا أن يقول الإنسانُ ما لا حقيقة له، وما ليس له به علْمٌ وهو يحبُّهُ، فإذا حدّثَ بِهِ قال الناس: هذه أُمنيّة، أي: شيءٌ لا صِحّةَ له، ومن التّمنّي أنْ يدّعي الإنسان الإيمان قولاً باللسان، دون أن يكون لهذا الادّعاء حقيقة راسخة في القلب، وأثرٌ في السلوك، وعليه يفهم ما رُوي عن الرسول ﷺ:

«ليسَ الإيمانُ بالتّمنّي، ولا بالتَّحَلّي، ولكِنْ ما وقرَ في القلب، وصدّقه العمل»[1].

أي: ليس الإيمانُ بالقول الذي يظهره الإنسان بلسانه فقط، ولكنّه حقيقة تكون راسخة في القلب، ويكون لها آثارٌ في العمل دالّةٌ عَلَيْها.

هذه هي المعاني التي تدور عليها كلمة «أمانيّ» وحين ننظر إلى قسم اليهود الأميّين في الدين وفي فهم النصوص المنزّلة، المقلّدين لعلمائهم، أو قادتهم وأئمتهم وزعمائهم، والمتعصبين لهم، ونسبُر واقع حالهم نُلاحظ أنّهم يدورونَ حوْلَ الأمور التالية:

(١) فالذين يقرؤون ويكتبونَ لا يعلمونَ كتابَ اللّهِ إلاّ عِلْمَ قِراءَةٍ وكتابةٍ فقط، وهم لا يفهمون دلالات نصوصه. فحالهم حال المقلّد الأعْمَى بتعصُّبٍ لِمَنْ يُقلّده.

ويقال في شأنِ هؤلاء:

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

---

(١) عن الجامع الصغير عن الديلمي في مسند الفردوس وأشار إلى أنه ضعيف.

أي: لا يعرفونه إلاّ معرفة قراءة وكتابة، دُونَ علم بدلالاته.

(٢) والـذين لا يقرؤون ولا يكتبـون، قد يحْفـظُونَ عن طَرِيقِ السَّمَـاعِ شيئاً من الكتاب فيتْلونه تلاوةً دُون فهم ولا تدبّر.

ويقال في شأن هؤلاء أيضاً:

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

أي: لا يعلمونه إلاّ علم تلاوة فقط دون علم بدلالاته.

(٣) ومن هؤلاء فـريق لا يقرأ ولا يَكْتُبُ ولا يحفظ شيئـاً من الكتاب، لكنّـه قد يسمَعُ مَا يُتْلَىٰ مِنْهُ، وهؤلاء أشدُّ حَالاً في الأميَّة من القـارئين ومن التالينَ، فهم عميـانٌ مقلّدون، لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيَّ، أي: إلاّ سَمَاعَ تلاوَةٍ أو قراءة.

وهؤلاء جميعاً قد تدخل عليهم التحـريفات المختلقـات التي افتراهـا المحرّفـون والوضّاعون الكذّابونَ، فيردّدُونهـا كمَا أُمْلِيَتْ عليهم، أوْ كُتِبَتْ لَهُم، تَرْدِيدَ الْبَبَّغَـاوات، وحين يردّدونها إنّما يُردّدونَ أكاذيب وَمفتريات.

وفي هذه الحالة أيضاً يصحّ أن يقال بشأنهم:

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

أي: لا يعلمونَ إلاّ أكاذيب ومفترياتٍ على الله، وهم يظنُّونَ ظنّاً باطـلاً أنّها من كلام اللهِ المنزّل، وتكونُ الأماني عَلَىٰ هذا بمعْنَىٰ الأكاذيب والمفتريات.

وهؤلاء الأميُّونَ اليهود يسيطر عليهم اتجاهان:

الاتجـاه الأوّلُ:

اعتقادهم بأنّ اصطفاء بني إسرائيل بإنزال التوراة والزبور وسائر ما في كتب العهد القديم على رُسُلٍ منهم قد جعل لهم الاستحقاق المنفرد بـدخول الجنّـة، وهذه فكـرة باطلة اختلقها لهم محرّفو كتبهم ومغيرو مفهومات دينهم، ووافقت أهواءهم وما يشتهون. وأرْضَت في نفوسهم العقدةَ القبيحة التي ورثُوها جَانحاً عَنْ جَانحٍ، والّتي يُعَبِّرون عنها بأنّهم أبناء الله وأحبّاؤه.

واعتقادهُمْ بأنَّ لهم الاستحقاق المنفرد بدخول الجنّةِ قَدْ عبّر القرآن عنه بقول الله عزّ وجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

أي: تلك أكاذيبُ ومفترياتٌ يفترونها، وهي تُوافِقُ ما يشتهون ويرغبون فيه.

وهذا الاعتقاد الفاسد الذي يعتقده الأمّيُّون من اليهود اتّباعاً لتضليلات محرّفيهم والمفترين مِنْهُمْ على الله، يدخل في عموم قول الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

إذْ هُمْ لا يعلمونَ الكتابَ المنزّل عليهم إلاّ أنّه تضمّن ما يدُلُّ على تحقيق أمانيهم بأنّ لهم وحدهم الجنّة، وهي الفكرة التي اختلقها لهم الوضّاعون والمحرّفون لكتبهم من أحبارهم والذين يكتبون الكتاب بأيْديهم ويزعمون لهم أنّه من عند الله وما هو من عند الله.

الاتجاه الثاني:

اتّخاذُهُمْ آيات الكتاب المنزّل على بني إسرائيل تمائم وتعاويذ ورُقَىً، لتحقيق أمانيهم في الحياة الدُّنْيا، كمطالب الشفاء، والثراء، والإنجاب، والزواج، والذّرّيّة، والجاه، والسلطان، والنّصر، وغير ذلك.

أمّا ما في الكتاب من شريعة، ومنهاج، وتكاليف، وأحكام، ووصايا، ومفهومات دينيّة، فهم عنّها ناؤون، ولَهَا مُجافونَ، وبها زاهدون.

وهذا الواقع يدخل أيضاً في عموم قول الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾:

أي: لا يعلمون الكتاب إلاّ أنّه وسيلة تتضمّن مؤثراتٍ غيبيّة تتحقّق بها أمانيهم الدنيوية.

هذا هو حال الأمّيّين منهم، فهمْ لا عِلْمَ لهم بالدِّين، ولا بدلالات كتب ربّ العالمين، إنّهم لا يعلمونَ الكتاب إلاّ أمانيّ، يقرؤون بغير علم أو يتلون بغير علم،

ويتلَقّوْنَ عن قادتهم الدِّينيِّينَ مُفتريات وتحريفات، ويحسبونها من كلام الله، ويعتقدون أنّ الله اصطفاهم بالكتاب، وجعلهم أبناءه وأحباءه، وخصّهم بالجنّة، وإذا تعلّقوا بالكتاب اتّخذوهُ للتمائم والتعاويذ والرقى فقط، من أجل بلوغ أمانيهم في الحياة الدنيا.

ومستندهم في كلّ ذلك الظَّنُّ الضعيفُ، الّذي لا ينفع في إثبات الحق، ولا يُعْذَرُ به صاحبه، لأنّه قائم على الثقة بأئمتهم الذين ليسوا أهلاً للثقة، وعلى التقليد الأعمى، والتعصُّب الذميم المقيت، وعلى الأوهام التي لا سَنَدَ لَها، وتُقَدِّم مع ذلك عقائد باطلة تتنافى مع كمال صفات الله عزّ وجل، في عِلْمِهِ وعَدْلِه وحِكْمَتِه، دلّ على ذلك قولُهُ تعالى في الآية: ﴿وإنْ هُمْ إلاّ يظنُّونَ﴾.

أي: ما هُمْ في كلّ اتجاهاتهم الاعتقادية والفكرية والسلوكية إلاّ يَظُنّونَ ظنّاً ضعيفاً، ويعتمدون على هذا الظنّ في كلّ أبنيتهم الفكرية والسلوكية.

وما دام هؤلاء الأميّون من اليهود على وضعهم هذا من التقليد الأعمى مع الجهل المطبق، والتعصّب المتحجّر الذميم، فالأمل بهداية النسبة العظمى منهم ضعيف جدّاً.

بعد بيان قسم الأميّين من اليهود جاء قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾.

قد يكونُ المشار إليهم في هذه الآية قسماً رابعاً من أقسام اليهود، وهم قسم الكتبة الوضاعين، الذين يتاجرون بكتابة الكتب، فيكتبونَ الكتب المفتراة على الله، ليبيعوها من عامّة اليهود، فيزعمون لهم أنّها من عند الله، وما هي من عند الله، ليكسبُوا بذلك مالاً قليلاً، وعرضاً يسيراً من أعراض الحياة الدنيا.

وقد اقتضىٰ الأسلوب البلاغيّ الفنّيّ التّلوين في عرض الأقسام، فجاء ذكر قسم هؤلاء الْعاتين في ارْتكاب جريمة الافتراء على اللّهِ من أجْلِ ثَمَنٍ ماليّ يسيرٍ، بأسلوب توجيهِ الإنذار القويّ لهم بعذابٍ شديدٍ، وهُو عَذابٌ يُعَبَّرُ عنْهُ بعبارة «ويل» وهذه الكلمة

قد تكون اسماً علماً على وادٍ في جهنم، جاء وصفه في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) مع ترديد آية:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ فيها.

وقد أبان الله عزّ وجلّ الجريمة العظيمة لقسم هؤلاء الكَتَبَةِ من اليهود، فذكر أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم، أي دون أن يستندوا في كتابته إلى أدلّة نقلية موثقة بالفكر السليم، فعملهم صناعةٌ يدويّة، ثمّ يقولون لعامّة اليهود الذين لا علم لهم بوسائل إثبات النّصوص: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً[1].

ولمّا كانت جريمتُهُمْ هذه تنحلُّ إلى كبيرتَيْن هما:

الأولى: الافتراء على الله.

الثانية: المكسب الحرام عن طريق الافتراء على الله.

بيّن الله عزّ وجلّ أنّ عذابهم الشديد مفصّل إلى عَذَابَيْن كلُّ منهما شديدٌ إلى دركة «ويل».

(١) فويلٌ لَهُمْ ممّا كتبتْ أيديهم، أي: من مفتريات على الله.

(٢) وويلٌ لَهُمْ ممّا يكسبُون، اي: من مالٍ حرام.

* * *

وبعد بيان أقسامهم ذكر القرآن من أقوالهم ما يتضمّن بعض أوهامهم التي خفّفتْ لديهم قيمة جرائمهم الكبرى، منها الافتراء على الله، ومنها الكفر بالإسلام، وبالرسول محمد ﷺ، ومنها النفاق في دين الله، إذْ يزعمون أنّها جرائم لا تصلُ إلى تخليدهم في النار بَلْ يعذَّبُونَ عليها في النار عذاباً يسيراً أيّاماً معدودة، وذلك في قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

---

(١) يقال لكلٍّ مِنْ بَاذِلِ القيمة وباذِلِ السلعة من المتبايعين شارٍ، فباذلُ القيمة شارٍ للسلعة، وباذل السلعة شارٍ للقيمة، وذلك لأنّ العمليّة هي تبادل بين الطرفين، فكلُّ منهما شارٍ وبائع.

لقد افتروْا على الله إذْ زعموا أنّ الله يُكَرِّمُهُمْ كرامةً خاصّةً بهم لأنهم بنو إسرائيل، فمهما أجرموا، واستحقوا النار، والخلودَ فيها على جرائمهم الكبرى، فإنّ الله عزّ وجلّ لن يعذّبهم في النارِ إلاّ أيّاماً معدودة.

ومعلومٌ أنَّ مثل هذا الأمر لا يمكن أن يُعرَفَ إلاّ عن طريقِ بيانٍ ربّانيٍّ خاصٍّ، وعهْدٍ تَعَهَّدَ اللّهُ به لَهُم، وهذا أمْرٌ لَمْ يحصُلْ في أيّ نصٍّ مُنَزَّلٍ، أوعلى لسان أيّ نبيٍّ أو رسول.

ولذلك علَّم الله رسوله وكلُّ مؤمنٍ أهلٍ لمناظرتهم أن يُنَاظِرَهُمْ بِطَرْحِ السؤال التالي عليهم:

﴿أَتَّخَذتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾؟.

وبعد طرح هذا السؤال عليهم لا بُدّ أن يكون موقفهم كما يلي:

الأول: إمّا أن يقولوا: نعم، وعندئذٍ يطالبون بالنّص عليه من كتبهم، ولن يجدوا ذلك في نصٍّ صحيح النسبة إلى الله.

الثاني: وإمّا أن يأتوا بأدلّةٍ ذهنية أو استنباطيّة ضعيفة، لا تقوى على إثبات دعواهم، وباستطاعة المناظر الكفْءِ أنْ يُدحِضها لهم.

الثالث: وإمّا أن لا يجدوا دليلاً يستدلّون به، فينقطعون.

وفي كلّ ذلِكَ تنتهي مناظرتهم بإفحامهم، أو مراوغتهم وتهربهم، وتدمغهم الحجّة، وتسقط دعواهم.

وفي هذا التعليم قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَتَّخَذتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾؟.

وبعد انقطاعهم في المناظرة، أو إفحامهم ودمغهم بالحجّة، يحسُنُ في نهاية الموقف نُصْحهم، أو تلويمُهم وتبكيتهم، والتعبيرُ الذي دلّ على الأمرين معاً، قول الله عزّ وجلّ في الآية التعليمية:

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠﴾؟!.

أي: ثبت أنه لا دليل لكم، بل تقولون ما لا علم لديكم به، أتقولونَ على الله ما لاَ تعلمون؟! أي:

* اتَّقوا الله واحْذَروا عاقبة الافتراء عليه. (في النّصح).
* كيفَ تفترون مثل هذا الافتراء على الله؟ (في التلويم).
* أتتجرّؤونَ على الله فويل لكم. (في التبكيت).

والتعبير الوارد في النصّ بصيغة الاستفهام يصلح لكلّ ذلك، فما أبدع البيان القرآني!.

وبعد ذلك أبان الله عزّ وجلّ قضاءه الجازمَ في موضوع الجزاء بالعدل على الخطايا وكَسْب السيئات، وعلى الإيمان وعمل الصالحات، وهو من القضايا التي لها صفة الثبات في كلّ رسالات الله لعباده المنزّلة على كلّ رُسُله، وذلك في قول الله عزّ وجل:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

بلىٰ: جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ، يمكن تقديره كما يلي: ربّنا ألَسْتَ تُعذّب اليهود ضمن قانون موحّدٍ شاملٍ لكُلِّ عبادك؟

فقال تعالى: ﴿بلى﴾ والقانون الموحّد الشامل لكلّ العباد هو: ﴿مَنْ كسب سيئة وأحاطت به خطيئته...﴾.

فقول الله عزّ وجل: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾.

وفي القراءة الأُخرى:

﴿وأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ﴾: أي: كفر فأحاطتْ به خطيئته التي أسقطتْهُ في الكُفْر، أو أحاطت به مجموعةٌ من الخطيئات التي أسقطته في الكفر.

فأولَئِكَ الْبُعَداءُ عَنْ مجالات الرحمة بسبب كفرهم، هم أصحاب النار الذين هم فيها خالدون.

وذلك لأنّ من كفر بما يجب الإيمان به، أو ارتكبَ عدّة خطِيئاتٍ اعتقادية وسلوكية أوقعته في الكفر، فقد سدّ عن نفسه كلّ منافذ النّجاة، وكلّ منافذ وصول رحمة الله الشاملة إليه، فلا بُدّ أنْ يكون خالداً في النار بمقتضىٰ قضاءِ الله الجازم، في قانونِ العقوبات الربّانية، فالكُفْرُ لا تشملُهُ رحمةُ الغفران، لذلك فهو من أصحاب النار الخالدين فيها أبداً.

هذه حقيقة قطعيّة من حقائق الدِّين، في كلِّ ما أنزل اللّهُ مِنْ شرائعَ لعباده، وقد دلت عليها نصوص قرآنية كثيرة، ودلّ على أنّها هي المرادَةُ هنا في هذه الآية، مقابلتها بما في الآية التالية لها، وهي:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

إنّ الكفر وحده موجبٌ للخلود في النار، ولكن لمّا كان موضوع النقاش مع اليهود حول ادّعائهم أنّهم لن تمسَّهم النار على كسبهم السيئات إلاّ أيّاماً معدودة، ردّ الله عليهم فأبان لهم أن من كسبَ سيئة وكان كافراً قد أحاطت به خطيئته فهو مقضيٌّ عليه بالخلود في النار.

أمّا من كسب سيئةً ولم يكفر فلم تُحِطْ بِهِ خطيئته، فقد سكت النصّ هنا عن بيان قضاء الله في شأنه.

ودلّت نصوص أخرى على أنّ من ماتَ على معصيته من غير توبة، وكان مؤمناً، استحقّ العقاب على قدْر معصيته، ولكنّ أمر معاقبته فعلاً متروكٌ إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء غفر له، وهو سبحانه العَليم بعباده، الحكيم في قضائه وقَدَرِه، وَفي عِقَابِه وعَفْوِه.

● ● ●

النصّ الرابع

من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)
الآيات من (١٤٢ ـ ١٤٥)
حول مشاركة المنافقين بإثارة الشُّبَهِ
بشأن تحويل القبلة إلى الكعبة المشرّفة

قضيّةُ تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة عن جهة الشّام حيث مسجد الصخرة في القدس، قضيةٌ دينيّةٌ شاركَ المنافقون بإثارة الشبهات حولها، لفتنةِ المؤمنين عن دينهم، كما شاركَ فيها اليهود، وعربُ مكة المشركون، وبعض المسلمين من ضعفاء الإيمان.

وبشأنها أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (البقرة):

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ
وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا
لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ
فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ
فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ
قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٖ قِبْلَةَ بَعْضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ
مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

وفيما يلي البيان والتحليل مع تدبّر النصّ:

(١)
موقف الناس إبّانَ تحويل القبلة
إلى الكعبة المشرفة في عَهْدِ التنزيل

السُّفَهاء: جمع سفيه، والسفيه هو الجاهل الطائش، ذو العقل الضعيفِ والخفّةِ، الذي لا رَزانةَ له ولا وَزْنَ لرأيه. وهو صفة مشبهة من فعل «سَفُهَ» أي: صار السفه سجيّةً له.

وأصل السفه في اللّغة الخفّة وسرعة الحركة، وخفة العقل والرأي. ومن كان سفيهاً كان طائشاً سَيِّىء التصرّف، لا يُحْسِنُ إدارةَ أمواله، ويتأثر ببادي الرأي وبادئه، دون رويّةٍ ولا تثبّت، فيقع في أخطاءٍ فاحشة.

ومن يكونُ فيه سفَهٌ يحكم على الأشياء بسرعة، وتثيرُهُ العوارض الخفيفة، فتُفْقِدُه صوابه، وربّما دفعه ذلك إلى ارتكاب حماقات مختلفات، منها سلاطة اللّسان بالشتائم، ومنها المقاتلة دون داعٍ لها، ومنها الإسراف والتبذير وسُوء إدارة الأموال بدون عقل، ومنها التهوُّر والتورّط في المضايق والمهالك. إلى غير ذلك من تصرّفات بالغة الحمق والجهل.

وقد جاء وصف المنافقين في أوائل سورة (البقرة) بأنّهم هم السُّفَهاءُ، في مقابل اتّهامهم المؤمنين بأنّهم سفهاء، ومن سفاهة المنافقين تعريضهم أنفسَهم للدرك الأسفل من النار.

ووصف الجنُّ إبليس بأنّه سفيههم، فقالوا كما أخبر الله عزّ وجلّ في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ۝٤﴾.

وذلك لأنّه تطاول على ربّه بحماقة بالغة، وخفّةٍ وطيشٍ، وعدم تقديرِ عاقلٍ لسوء المصير، فكان ذلك سبباً في طرده من رحمة الله، وحلولِ اللعنة عليه، والحكم عليه بالخلود الأبديّ في جهنّم.

ووصف الله عزَ وجلّ الذين لا يحسنون التصرف في أموالهم، وهم الصغار والمبذّرون المبذّدون لأموالهم، ومن لا عُقولَ لهم، بأنّهم سفهاء، فقال تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾.

ووصف موسى عليه السلام الذين أشركوا من قومه فعبدوا العجلَ في غيبته عنهم بأنهم سفهاء، فقال لربّه كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟!.

أمّا المرادُ من السُّفهاء في هذا النصّ، وهم الذين صدر عنهم ما كان متوقّعاً منهم مقالة:

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ... ۝١٤٢﴾:

أي: ما صَرَف المسلمين عن التوجُّهِ لقبلتهم الّتي كانوا يتوجّهون في صلاتهم لها، وهي بيت المقدس؟!

ففيه للمفسرين عدّة أقوال:

* فقيل: هُمُ اليهود، وهو مرويٌّ عن البراء بن عازبٍ، وابن عباسٍ، ومجاهد.

* وقيل: هم المنافقون، وهو مرويٌّ عن السُّدّي.

* وقيل: هم المشركون من أهل مكة، وهو مرويٌّ عن ابن عباس والبراء بن عازب أيضاً، والحسن، وهو ما ذهب إليه الزجاج.

روى ابن جرير بسنده عن السّدّي قال: كان النبيُّ ﷺ يُصَلّي قِبَلَ بيت المقدِسِ، فنسختها الكعبة، فلمّا توجّه الناسُ قِبَلَ المسجد الحرام اختلف الناس فيها فكانُوا أصنافاً:

* فقالَ المنافقون: ما بالُهُمْ كانوا على قبلةٍ زماناً، ثُمّ تركوها وتوجّهوا إلى غيرها.

* وقال المسلمون: ليت شِعْرنا عن إخواننا الذين مَاتُوا وهم يُصَلُّونَ قِبَلَ بيت المقدس، هلْ تقبّلَ اللَّهُ مِنّا ومِنْهُمْ أو لا؟

* وقالت اليهود: إنّ محمّداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، ولو ثبت على قبلتنا لكنّا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر.

وقال المشركون من أهل مكة: تحيّر على محمّد دينُه، فتوجّه بقبلته إليكم، وعلم أنكم كنتم أهْدَىٰ منه، ويوشك أنْ يدخُل في دينكم.

فأنزل الله جلّ ثناؤه في المنافقين: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ وأنزل في الآخرين الآيات بعدها.

* * *

أقول:

الذي أراه أنّ المنافقين واليهود والمشركين وكلّ الكافرين يَصِحُّ أنْ يقالَ في وصفهم: سُفهاء، لأنهم بحماقاتهم، وضعف إراداتهم، وخفتهم وطيشهم في أيدي أهوائهم، سَبَّبُوا لأنْفُسِهِمُ الطرد من رحمة الله، والخلودَ في عذاب جهنّم.

فلا مانع من أن تستخف حادثةُ تحويلِ القبلة أصناف الكافرين جميعاً، وتستخفّ معهم أيضاً بعض المسلمين الذين لم يتمكّنُوا في الإيمانِ الراسخ بَعْدُ، لإطلاق مثل هذه المقالة، اعتراضاً على هذا التبديل في القبلة، أو تساؤلاً واستفهاماً لإزالة الشُّبْهَة التي قد تمسُّ النفوس الضعيفة بشكّ.

وقد سبق في آيات سورة (البقرة) ما يدلّ على أنّ اللّهَ عزّ وجلّ قد ينسخ بعض آياته بِتَبْدِيلِ مثلها أو خير منها، ليمتحن طاعة المسلمين وصِدْقَ إيمانهم.

وكانت حادثة تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة امتحاناً صعباً للمسلمين، وأسلوباً تربويّاً رائعاً لتأصيل المفهومات الصحيحة لقضيتي الإيمان والطاعة، وَإنْ تعرّض هذا التبديل لسهام الشبهات الباطلات، التي لا بدّ أن يُطلقها أعداء الإسلام وخصومه.

إنّ تأصيلَ مفهومات الإيمان والطاعة في الإسلام ضرورةٌ تستَدْعِي إثارة جَدَلٍ مع

الخصوم حول قضيّةٍ قد تُشْكل عليهم، فيثيرون حولها شبهاتهم.

وبعدَ إثارة الشبهات لا بُدَّ أنْ ينتصر الحق، وتتكشَّفَ المفهومات الصحيحة وتتأصّل، وتُصَحَّح المفهومات الخاطئة التي قد تسيطر على بعض المنتسبين إلى الدين.

* * *

هذه الحادثة وأمثالُها لا بُدّ ان يُسَاهِمَ في إثارة الشبهات حولها جميع أعداء الإسلام وخصومه، سواءٌ من كان منهم مُظْهِرَ العداوة، كاليهود والمشركين، وغُلاةِ النصارى، أو كان مُبْطِنَ العداوة كالمنافقين.

ومع إثارة الشبهات:

* فقد يتساءل عن سبب التحويل، وعن حكم الصلوات السابقات إلىٰ جهة بيت المقدس بعض المسلمين، الذين لم تتوضحْ لديْهم بَعْدُ ولَمْ تتعمَّقْ مفهومات الإيمان والطاعة، إذْ مازالت بعض مفهومات الجاهلية الوثنيّة عالقةً في أذهانهم ونفوسهم.

* وقد يتزلْـزلُ إسلام بعض المسلمين الـذين لمَّا يَـدْخُلِ الإيمانُ في قلوبهم، فيرتدّون عن الإسلام، وهؤلاء إمّا أن يُعْلِنُوا ردّتهم، وإمّا أن يُخْفُوها، فيكُونُوا مِن الّذِينَ طرأ عليهم النفاق بعد أن كانوا مسلمين.

وبذلك تظهر لنا جوانب من حكمة الله العليم الحكيم في امتحان قاسٍ مثل هذا الامتحان، حول القضيَّتَيْنِ الأساسيَّتَيْنِ من قضايا الدين، هما:

* قضيَّةُ الإيمان.
* وقضيَّةُ الطاعة.

* * *

أمّا اليهود: فقد كان منهم ما رواه الطبريّ بسنده عن ابن عباس قال: «لمَّا صُرفت القبلةُ عن الشام إلى الكعبة ـ وصُرِفَتْ في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينةَ ـ أتَىٰ رسولَ الله ﷺ: رِفَاعَةُ بنُ قيس، وقَرْدَمُ بْنُ عَمْرٍو، وكعبُ بْنُ الأشْرَف، ونافِعُ بن أبي نافع، أو رافِعُ بنُ أبي رافع (روايتانِ عند الطبري)[1] والحجَّاجُ بْنُ عَمْرو حليفُ كعبِ بْنِ الأشْرَف، والرَّبيعُ بن الربيع بن

(١) رواية ابن هشام عن ابْن إسحاق: رافعُ بن أبي رافع.

ابي الْحُقَيْقِ، وكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ ابـي الْحُقَيْقِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، مَا وَلَّاكَ عَنْ قبلتِك الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهـا، وأنت تَزْعُمُ أنَّـكَ علَىٰ مِلَّةِ إبراهيمَ ودينـه؟! ارْجِعْ إلى قبلَتِـك الَّتي كنتَ عليها نَتَّبِعْكَ وَنُصَدِّقْكَ.

وإنَّما يُريـدون فتنته عن دينـه. فأنـزل الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَـاءُ مِنَ النَّاسِ: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُـوا عَلَيْهَا﴾ إلى قـوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُـولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾...».

وهؤلاء الذين جاء ذكرهم في هذه الرواية كلّهم من اليهود.

وقال اليهودُ أيضاً فيما رواه الطبريُّ عن السُّدّي: «إنّ محمّداً اشتـاقَ إلى بَلَدِ أبيه وَمَوْلِدِه».

وَروى البخاري عن البراء بن عازب أنّ اليهود وأهل الكتاب أنكروا ذلك[1].

وَأمّا المنافقون: فقد كان منهم ما رواه الطبريّ بسنده عن السُّدّي، أنّهم قالوا:

«ما بالُهُمْ كانُوا على قِبْلَةٍ زَمَاناً، ثُمّ تركوها وَتوجّهوا إلى غيرها؟!».

وأمّا المشركون: فقالوا كَما رواه الطبري بسنده عن السُّدّي:

«تحيَّـرَ علىٰ محمّـد دينـُهُ، فتـوجّـه بقبلتـه إليكم، وعلم أنَّكُمْ كنْتُمْ أهْـدَىٰ مِنْـهُ ويُوشِكُ أنْ يدخُلَ في دينكم».

وأمّا المسلمون: فقال ابْنُ جَرِيج: بلغني أنّ ناساً ممّن أسلم رجَعُوا فقالوا: مـرّةً هَـهُنَا ومرّةً هنـهُنا.

(عن الطبري)

أقول: وقد أشار النصّ إلى هؤلاء بقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ... ﴿١٤٣﴾﴾.

(١) انظر الحديث رقم (٤٠) في فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر.

وتساءل مَنْ تساءلَ منهم عن حكم الصلوات السابقات إلى بيت المقدس: هلْ ذهبتْ ضائعةً؟ وقالوا: ليتَ شِعْرَنا عنْ إخواننا الذين ماتُوا وهُمْ يُصَلُّونَ قِبلَ بيْتِ المقدس: هلْ تقبَّلَ اللّهُ منّا ومنهم أم لا؟

(ابن جرير الطبري عن السدّي)

فأجاب الله عزّ وجلّ عن هذا التساؤل بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾:

أي: ليس من شأنِهِ سبحانه، ولا من حكمته، ولا من قانون جزائه على الصالحات، أنْ يُضيع ثوابَ صلواتكم التي توجّهتُمْ فيها شطر بيت المقدس، والّتي هي ثَمَرَةٌ منْ ثمراتِ إيمانكم، فالأساس في عبادة اللّهِ هو الإيمانُ، ومن لوازم الإيمان الطاعَةُ في الأمْرِ، فَمَنْ أطاع أمْرَ الباريء مؤمناً به ثَبَتَ له الأجْرُ، ولو أنّ الله وجّههُ في كلّ يوم لقبلَةٍ ما في صلاته، فتوجَّهَ على وفق الأمر لكان ثوابُ الصلاة ثابتاً، لتحقُّقِ الإيمان والطاعة، وفي التعبير بالإيمان الدّال على الطاعة التي هي من لوازمه إشعارٌ بأنّ الجهات والأماكنَ لَيْسَ لَهَا في ذواتها صفاتٌ تستَحِقُّ ارتباط طاعة اللّهِ بها، ولولا الأمْرُ الرّبّانيُّ بتخصيصها لما تفاضل مكان على مكان، ولا زمان على زمان، فهِيَ جميعها تستَوِي في أنها خَلْقٌ من خلق الله، والذي يُمَيِّزُ بعضها من بعضٍ هو الأمْرُ الرّبّاني، والتخصيصُ الرّبّاني، والعبادةُ في كلّ الأحوال للّهِ وحده لا شريكَ له.

وبناءً على هذا فالعباداتُ ومنها الصلواتُ التي لا تكونُ ثمرَةَ إيمانٍ صادِقٍ صحيح ـ كالتي تكونُ نفاقاً، أو رياءً أو عادةً لا تُقصَدُ منها عبادة الله، أو خاليةً من مضمونها الحقيقي ـ عباداتٌ ضائعاتٌ، يجعلها الله هباءً مَنْثوراً.

ومن أجل الدلالة على هذه الحقائق جاء التعبيرُ بالإيمان، بدلَ الصَّلاةِ، في مقام تحقُّقِ الأجْرِ وعَدَمِه، باعتبار أنّ الأصل في الدين هو الإيمان، وأمّا العملُ فيُقْبَلُ عِنْدَ اللّهِ منْهُ مَا كان أثراً من آثاره، وثمرةً من ثماره.

وأمّا المسلمون المؤمنون الصادقون: فاستجابوا وأطاعوا، ولم يكُنْ منْهُمْ إلاّ التسليم التّامُّ، لأنّهم يعلمون أنّ الطاعة ثمرة الإيمان، والإيمانُ موصولٌ بالله لا بالأشياء الماديّة.

وقد أشار الله عزّ وجلّ إلى سلوك هؤلاء بقوله تعالى في النصّ:

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

والّـذينَ هداهُمُ الله، أي: حكم لهم بـأنّهم مَهْدِيُّونَ وعَلِمَ أنّهم مَهْـدِيُّونَ، هُمُ الذين صَدَقُوا في إيمانهم، والتزموا طاعةَ أوامر ربّهم في أعمالهم وعباداتهم.

* * *

(٢)

قصّة القبلة قبل التحويل إلى الكعبة المشرّفة وبَعْدَهُ

رُوِيَ أنّ رسول الله ﷺ كانَ يُصلّي إلى الكعبة أوّل الأمْر، ثُمَّ أمَرَهُ اللَّهُ أن يتوجّه شطر بيت المقدس، ودَلَّ على أنَّ هذا أمْرٌ من الله عزّ وجلّ قولُه تعالى في النصّ:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا ... ﴿١٤٣﴾﴾.

فهذه القبلة هي بجعل الله، أي: بأمره التكليفيّ.

وفي الصلاة إلى بيت المقدس رُوِيَ أنّ الأنصار في المدينـة صَلَّوْا إلى بيت المقدس ثلاث حِجَجٍ قبل هجرة الرَّسُولِ ﷺ إليها. ورُوِي أنّهم صَلَّوْا إليه سنتين.
(روايات ساقها الطبري)

وأمّا بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، فوردت بشأنها عـدّة روايات، أشهرها أنّ المسلمين صلّوْا إلى بيت المقدسِ سبعة عشر شهراً، وقيل: صَلُّوا ستّةَ عشر شهراً، وقيل: ثمانية عشر شهراً.

قال ابن حجر في فتح الباري[١]:

«إنّ العلماء اختلفوا في الجهة الّتي كان النبيّ ﷺ يتوجّه إليها، للصلاة وهو بمكة، فقال ابن عبّاسٍ وغيرُه: كان يُصلّي إلى بيت المقدس، لكنّه لا يَسْتَدْبِرُ الكعبة، بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس. وأطلقَ آخرون أنّه كـان يُصلّي إلى بيت المقدس، وقال آخرون: كان يُصلّي إلى الكعبة، فلما تحوّل إلى المدينة استقبـل بيت المقدس،

(١) انظر فتح الباري الجزء الأول الصفحة (٩٦).

وهذا ضعيف، ويلزم منه دعوى النسخ مرّتين، والأوّل أصحّ، لأنّه يجمع بين القولين، وقد صحّحه الحاكم وغيره من حديث ابن عبّاس».

وحين كانت الصلاة إلى جهة بيت المقدس قال اليهود: ما بالُ مُحمّد يُصَلّي إلى قبلتنا، ولا يتّبعُ ديننا.

وكره رسول الله ﷺ أن يسمع مثل هذه المقالة، فجعل يُقلّبُ وجهه في السماء بعض الأوقاتِ، مُشْعراً في نفسه برغبته في أن تكونَ الكعبةُ هي قبلة المسلمين في الصلاة، وربّما يكونُ في ذلك إشارةٌ إلىٰ أنّ الرسول ﷺ دعا ربّه في هذا الأمر، كما جاء في بعض الروايات عن ابن عبّاس. أو يكون الأمر مجرّد رغبة داخليّة، وحركة بوجهه نحو السماء أحياناً، والرغبة دون دعاء أكثر دلالة على التأدّب مع الله فيما يقضي به من أحكام دينه.

فقول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾.

يَدُلُّ علىٰ الرَّغبة صراحةً، وليس فيه دلالة صريحة على الدُّعاء.

ومعنى: ﴿قَدْ نَرَىٰ...﴾ أحياناً نَرَىٰ تقلُّبَ وجهكَ في السماء، راغباً في تحويل القبلة إلى الكعبة.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾.

هي الكعبة المشرفة.

وبعد ذلك أمر الله الرسول والمسلمين باتّخاذ الكعبة قبلتهم، وبتوجّههم في صلواتهم شطر المسجد الحرام، حيثما كانوا من الأرض بعيداً عنه، فقال تعالى:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾:

أي: فأتبع وجْهَكَ جِهَةَ المسجدِ الحرام في الصلاة، وحيثما كُنْتُم أيُّها المؤمنون المسلمون لله فأتْبِعُوا وجُوهَكُم جِهَةَ المسجدِ الحرام في صلواتكم، ويرى الجمهور أن المراد من المسجد الحرام الكعبة المشرفة، لكثرة الأخبار الدالةِ على أنّ القبلة صُرِفت للكعبة.

شَطْرُ الشيءِ: نِصْفُه، وجهتُـه وناحيتـه، وقد يُـرادُ الجزْءُ منْـهُ. فالمتـوجّهُ للشيء يكفي أنْ يُواجِهَ بكُلِّهِ جزءاً منْه، وعلى هـذا فيكْفِي أن يكون الـوَجْهُ مـواجهاً لجـزءٍ من الكعبة أو جهتها عند البُعْدِ في الصلاة.

* * *

وقبل توجيه الأمر بالتحويل إلى جهة المسجد الحرام أخبر الله رسوله بما سيقـوله السفهـاء من الناس حول حكم هـذا التحـويـل، وبمـا سَيُثـار حـولـه من اعتـراضـات وتسـاؤلات، فهيّأ الله رسـوله والمؤمنين معـه تهيئةً نفسيَّـةً مستعـدّة لتلقّي الاعتـراضـات والتساؤلات.

فبدل أن تأتي آية: ﴿قد نرى تقلُّبَ وجهك في السَّمَاءِ. . .﴾ أولاً، وبعدها تأتي آية: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم. . .﴾ حسب المتبادر للأذهان من الترتيب، بدأ الله بآية: ﴿سيقول السفهـاء. . .﴾ مراعـاةً للبدء التـربوي بـإعداد النفـوس وتهيئتها لتلقي أحداث ما بعد التكليف الجديد قبل تَوْجِيهِ التَّكْلِيف.

وهو أسلوبٌ تربويٌّ رفيع، قاعدتـه إعداد النّفس قبـل توجيـه التكليف، نظيـر أن يقول الرئيس الأعلى لعامل من عُمّاله اختاره لحلّ مشكـلاتِ ولايةٍ من وِلَايـاته: سـوف تلاقي متاعب كثيرةً أنت أهلٌ لها، وقادر على حلّها في ولاية كـذا، اذهبْ إليها فـأنت والٍ عليها منذ الآن.

وعلّم الله رسولـه والمؤمنين معـه كيف تكونُ أجـوبتهم لـدفـع شبهـات مثيـري الشبهـات، حول الأمـر بتحـويـل القبلة إلى المسجـد الحـرام، ولتصحيح مفهـومـات المسلمين حول قضيتين أساسيتين من قضايا الدين، هما:

* قضية الإيمان.
* وقضية الطاعة لأمر الله كيف كان الأمر.

وروايـات أسباب النـزول تقصُّ قصة اعتـراضات اليهـود والمنـافقين والمشـركين وتساؤلات بعض المسلمين حول حادثة تحويل القبلة، ثُمَّ يأتي في آخرهـا، فأنـزل الله قوله: ﴿سيقـول السفهاء من النـاس. . .﴾ فأشعـر هذا بـأنّ نزولَ هـذه الآيةِ كـان بعد الاعتـراضات والتسـاؤلات. وأخذ بعض المفسـرين في تأويـل حـرف المستقبـل في:

﴿سيقول﴾ باعتبار أنّ الروايات تشعر بأنّ مقالة هؤلاء السفهاء حدَثَ مضى قبل نزول الآية.

وأرى أنّ تأويل الروايات أولى من تأويل النصّ القرآنيّ وإخراجه عن أصل دلالته.

فأصحاب الروايات قد لا يريدون ترتيب نزول النصّ بعد ورود مقالة السفهاء من الناس، وإنما يكشفون فقط عمّا جرىٰ منهم، وعمّا نزل بشأنهم، وبشأن مقالاتهم، دون تحديد السابق واللاّحق.

ومعظم روايات أسباب النزول الواردة في هذا الموضوع تعوزها الدقة، وأسانيدها ضعيفة، وعمدتها فهم صحابي، أو خبر تابعي.

وتظلّ دلالات النصّ القرآني هي الأقوى، ولا داعي لتأويله وصرفه عن ظاهره.

* * *

(٣)
إسقاط الشبهات والتساؤلات حول تحويل القبلة

إنّ تحديد القبلة في عبادة الصلاة ونحوها أمرٌ هو في الأصل من أمور التكاليف التعبُّديّة المَحْض، التي تَقْبَلُ في مسائل الدّين التغيير والتبديل، والغرض منها مُجَرَّد امتحانِ الطاعة، فإن اقْتَرن بها حكمةٌ ما فهي نافلةٌ ومزيدُ عنايةٍ من الحكيم الخبير.

والقيامُ بالتكاليف التعبُّديَّة كلّها إنَّما هُو مظهر من مظاهر الطاعةِ لمن له الأمر والنهي.

والطاعةُ في الدين أَثَرٌ من آثار الإيمان بحقّ الخالق علينا في أنْ نَعْبُده ولاَ نُشرِك بعبادته أحداً.

فليس لمكان العبادة حقيقةٌ ذاتيّةٌ خاصةٌ به تُميِّزُهُ من غيره من الأمكنة، مُنْفَكّةٌ عن أوامر مَنْ لَهُ حَقُّ الأمر بالعبادة، حتّى يكون تَعلُّقُ العابدين بالمكانِ لذاتِ المكان.

ومن لَـهُ حقُّ الأمر والنهي، وعلينا واجب طاعته، إذا أمرنا بفعل الشيء إيجاباً

وجب علينا فِعْلُه، وإذَا نَهانَا عن فعل ذلك الشيء تحريماً حرُم علينا فعله. وإذا أذن لنا بأن نفعل أو نترك ذلك الشيء جاز لنا أنْ نَفْعَلَهُ أوْ نتركه.

ومَنْ لهُ حقُّ الأَمْرِ والنَّهي، وتجب علينا طاعته، إذا أمرنا بأن نتوجّه في صلاتنا إلى بيتِ المقدسِ أوْ أيَّةِ بقعة من الأرض، وجب علينا ذلك، وإذا غيّر أمره فأمَرنَا بأن نتوجّه شطر المسجد الحرام في مكة، أو أيَّةِ بُقْعَةٍ من الأرض، وجب علينا ذلك، ولم يَجُزْ لنا أنْ نتوجّه في صلاتنا كما كُنّا نَتوجَّهُ بحسَبِ أمره السّابق.

وإذا أذِنَ لنا بأن نتوجّه لأيّة جهةٍ نُريدُها كان لنا ذلك دون حرج، كما أذِنَ لنا بأن ندعوه في غير الصلاة متوجهين لأيّةِ جهةٍ من الجهات كلها، والأصْلُ أنَّ السماء في حالة رفع الرّأس هي قبلة الدعاء، أمّا في حالة القيام في الصلاة والركوع والسجود فموضع السجود هو قبلة الدعاء.

وهكذا سائر الأُمور التعبُّديّة التي يُقْصَد منها في الأصل امتحان الطاعة، والطاعةُ للّهِ دون ملاحظة مصلحةٍ دنيوية من ممارستها، أصْدَقُ مُعَبِّر عن صِدْقِ الإيمان بالله وباليوم الآخر، وسلامته من الشوائب.

هذا هو المفهوم الإسلاميُّ الصحيح حول التكاليف التعبُّدِيَّةِ المحْضِ، وارْتباطها بقضيتَي الإيمان والطاعة.

ولكنّ كثيراً من الناس لا تَتّضحُ لديهم هذه الحقيقة الكبرى من حقائق الدين، فيقعون في أخطاءٍ كثيرة، وأكثر هذه الأخطاء شيوعاً ارتباطُهُمْ بأمكنة العبادات التي جعل الله لها خُصُوصِيَّاتٍ بالأمر التعبُّديّ ارتباطاً وثنيّاً، أو فيه رائحةُ الوثنيَّةِ، وكذلك الأزمنة، والأشخاص، فيتوهَّمُونَ أنّ الأمكنة أو الأزمنة أو الأشخاص ذواتُ قدسيّة ذاتيّة، تستَحِقُّ أن يكونَ لَهَا نصيبٌ من العبادة، وهذا من الشرك، ويتوهَّمُونَ أنّ ارتباط أعمال العباداتِ بها ارتباطٌ لذواتها، لا من أجل أوامرِ مَنْ لَهُ حَقُّ التكليف.

فإذا غيَّر الآمر أمْرَهُ ظَنُّوا أنّ خطأً ما قد حصل، إمّا في أمره السابق، أو في أمْرِه اللاّحق، وتقومُ من أجل ذلك في نفوسهم الشُّبُهات.

ولمَّا كان الرسولُ ﷺ يعلَمُ تَساوِيَ الأمكنة في أصل المفهوم الديني، دون ملاحظة العوارض التي تجعل لها اعتبارات خاصّة، فقد كانَ يُرضيه صلوات الله عليه

أنْ يكون للمسلمين قبلةٌ متميّزة، لا أن تكونَ قبلتُهم قبلةَ أهلِ الكتاب، وكان يسُرُّهُ أن يُخلِّدَ ذِكْرَىٰ أبويه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، اللَّذَيْن رفعا قواعد الكعبة المشرفة، بيت اللَّهِ الحرام، وأنْ تكونَ القبلةُ في هذا الدين الخاتم أوّلَ بيت وُضِع للناس، فحقّق اللَّهُ رغبتَه، وكان له بذلك قضاءٌ سابقٌ وافقَهُ ما رَغِبَ فيه الرّسولُ ﷺ.

* * *

إنّ ارتباط النفوس التي تظلُّ فيها عوالقُ ونَبْثَةٌ، بالأماكنِ على تَوَهُّمِ أنّ للأماكن قُدْسيَّاتٍ من ذوات تكويناتها، سيدفع أصحابَها للاعْتِراضِ على تَغْيير أماكن العبادات، ومن ذلك تغيير القبلة.

ولكنّ ذلك لا يكونُ إلاّ عن سَفَاهَةٍ، بِطَيْشٍ وسُرْعَةٍ في إصْدارِ الأحكام دون رَوِيّة، وعن قِلّةِ عقْلٍ، وعدم بصيرةٍ بحقيقة الدين.

فالطاعةُ في الدِّين النابعةُ من قاعدة الإيمان بمن له حقُّ الطاعة والعبادة وحده، هي الأثرُ الأوّلُ المباشرُ للإيمان، وليس للأمكنة ولا للأزمنة أيُّ موقعٍ في ماهيَّةِ الدِّين، وَإن اقتضت الحكْمَةُ بَعْدَ ذلك في أوامر الدِّين ونواهيه ربط بعض العبادات بأمكِنَةٍ خاصّةٍ أو أزْمِنَةٍ خاصّة.

مع العلم بأنّ الأمكنة والأزمنة ونَحْوها من الأمور القابلة للتغيير والتَّبْدِيل، وفْق حكمة مَنْ لَهُ حَقُّ الطّاعة، فهي تدخل في فئة: «ما يقبلُ التغيير» لا في فئة: «الثوابت التي لا تقبل التغيير» كالعقائد، والأسس الأخلاقيّة، وأسس الحقوق.

ومقالة هؤلاء السفهاء في موضوع تحويل القبلة تتمثّل بعبارة الاستنكار التي لا بُدَّ أنْ يطلِقُوها فيقولوا:

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ... ﴿١٤٢﴾﴾؟!!

وفي طرح التشكيكات حول صحّة الصلوات التي صلّوها سابقاً مُتوجهين شطر بيت المقدس.

والمعنى: أيّ شيءٍ صَرَفهم عن قبلتهم الّتي كانُوا عليها؟!! هلْ كانُوا على خطإٍ فرأوْا الصوابَ فتحوّلُوا إليه؟! أو الدِّينُ لعبةٌ في أيديهم يغيّرونَ فيه ويُبَدِّلُونَ حسبَ أهوائهم؟! أو الدِّينُ من مبتدعاتهم فَهُمْ يقرّرونَ فيه الأحكام على ما يشاءون؟!

ويتضمَّنُ هذا التساؤلُ جحودَ هذا الدّين كلّه، وجحودَ أن يكونَ من عنْد الله، إذْ لوْ كان من عند الله ـ بحسب زعمهم ـ لما تعرّض لمثل هذا التغيير الجوهريّ، الذي يمَسُّ مُقدَّساً عظيماً من مُقدَّسات الدّين، ألا وهي القبلة.

وجاء الجواب التعليميُّ العقليّ البرهانيُّ الهادىء، الذي يهدم كلّ البناء التهويليّ الاعتراضيّ، الذي يَنْفُخُ في تكبيره وتعْظيمه السّفهاء، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ . . . ﴿١٤٢﴾﴾:

أي: إنّ العبادة لله وحْدَهُ، والتوجُّهَ في الحقيقة لله وحْدَه، ولمّا كان الله غير منظور حتى نتوجّه بوجوهنا لَهُ مُباشَرَةً، كانَ من الحكمة تحديدُ جِهَةٍ ما، في أيِّ مكانٍ من الأرض، ومَشْرِقُ الأرض ومَغْرِبُها وسائِرُ جهاتها وكُلُّ مكانٍ في العالم هو مِلْكٌ لله عزّ وجلّ، وخَلْقٌ من خلقه، وجاءَ ذِكْرُ المشرق والمغرب اكتفاءً بهما عن ذكر غيرهما، أوْلأنّ كُلَّ مَكانٍ في الأرض تُشْرِقُ من جهته الشمسُ هو مشرق، وكلَّ مكانٍ تَغْرُبُ من جهته الشمس هو مغرب، فعمُّ المشرقُ والمغرب كلَّ مَكانٍ في الأرض.

فحيثُ يأمُرنا اللّهُ عزّ وجلّ أن نتوجَّهَ في عبادته يكونُ ذلِكَ قِبْلَتَنا، إذاً فلَيْسَ لبيتِ المقدسِ، ولا للكعبة المشرَّفةِ خصوصيَّةٌ ذاتيّةٌ من ذاتيهما، وإنّما أتاهما التشريف والتخصيص بتشريف الله لهما، وبِجَعْلِهما قبلةً، وأماكن عبادة تُضاعف فيها الحسناتُ، والأجر علَيْهَا.

ولله أنْ يأْمُر في وقتٍ ما بالتوجُّهِ لمكانٍ ما، وفي وقت آخر بالتوجُّه لمكانٍ آخر، فالأماكن كلُّها خلقٌ من خلْقِ الله.

هذا هو الصراط المستقيم في فهم الدّين، حول موضوع القبلة، فمن فهمه حقّ فهمه، واسْتَسْلَم لله عزّ وجلّ في كلّ أوامره ونواهيه، وأطاع دون اعتراض، كان من الذين اهتدوا إلى صِراطٍ مستقيم.

ولذلك أتبع الله قوله:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ . . . ﴿١٤٢﴾﴾.

بقوله تعالى:

﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾:

أي: فهو سبحانه يُرْشِدُ أصحابَ المشيئة، الذين منحهم في تكوينهم جهاز المشيئة، إلى صراطٍ مستقيم.

فَمَنْ قَبِلَ هدايَةَ اللَّهِ عزّ وجلّ سلك الصراط المستقيم، وأطاع الله مُسْتَسْلِماً دُون اعتراض، ومن أبىٰ تنكّب الصراط المستقيم، وَعَدَلَ عنه، فضلّ وغوىٰ.

وقد سبَقَ التمهيدُ في سورة (البقرة) أيضاً ببيان هذه الحقيقة من الحقائق الدينيّة، قبل آيات تحويل القبلة، إذْ قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾.

﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾:

أي: فأينما تُوجِّهوا وُجُوهَكُم في صلواتكم فَهُنَاكَ يُقَابِلُكُمْ وَجْهُ اللَّهِ إذَا قَصَدْتُمُ التَّوَجُّهَ لَهُ.

وجاء في الآية التكميلُ بمثابة التعليل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾:

أي: فهو بسعته محيط بكلّ شيء، فأينما وَجَّهْتُم وجوهَكم كانَ اللَّهُ في مُواجهتها، فتحقَّق بذلك التوجُّهُ له، وهو بشمُولِ عِلْمِهِ يَعْلَمُ مَقَاصِدَكم من توجُّهكم له في العبادة. فهو يُجَازِيكم على عباداتكم بفضله الثوابَ الجزيل الَّذِي وَعَدَكُمْ إيّاه.

ثم جاء في السورة بعد هذه الآية بَيَانُ قِصّة بناء الكعبة، وما لهذا البيت من سوابق تاريخيّة، وكيف جعله الله مثابةً للناسِ وأمْناً، وكيف عهد الله إلىٰ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلامُ بأنْ يُطَهِّرَاهُ للطائفين والعاكفين والرُّكَّعِ السُّجُودِ، وكيف رفع إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام القواعد منه. فدلّ ذلك علىٰ أنّ هذا البيت الرّبّاني بيتٌ تاريخيٌّ عتيقٌ له ذكرياتٌ دينيّة قديمة.

وكانت هذه التمهيداتُ بمثابة الإعداد النفسيّ، والأمارات المشعرات بأنّ أوامر ستتْزِلُ بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام، في مكة، والكعبةِ بيت الله فيها. مع ما فيها مِنْ بيانٍ للمفهومات الدينيّة في هذا الموضوع، المتضمّنةِ الإقْنَاعَ بأنّ قضيّة القبلة من

القضايا التي تقبل التغيير والتّبديل، وليست من الثوابت التي لا تقبل التغيير ولا التبديل، وأنَّ أيّ مكانٍ متَى نزل الأمر الربّانيُّ بتعيينه قِبلةً وجَبَ على النَّاس اتّخاذُهُ قبلةً حسب الأمر، فللّه مِلْكُ المشرق والمغرب، والعبادةُ الصادقة لله تتحقّق بالتوجُّهِ القلبيّ والنفسِيّ لله، أمّا الوجوه فأينما تولّت فثمَّ وجْهُ اللّهِ متَى تحقّق التوجُّه القلبيّ والنفسيُّ له سبحانه.

ومع ذلك فطاعة الأمر لقبلةٍ يُعيّنُها الباري سبحانه وتعالى واجبةٌ، لأنّ حكمة توحيد اتّجاه المسلمين لقبلة واحدة تستدعي تعيين مكانٍ معيّنٍ يتوجّهونَ له.

وفي هذا تحريرٌ للنفوسِ المؤمنة من كلّ شوائب الوثنيات، وتجريدٌ لها وهي تتوجّه للقبلة من القبلة ومن غيرها، لتخلُصَ العبادةُ لله الخالق وحده، الذي لا يتجسّدُ في شيءٍ من الكون، ولا يَحِلُّ في شيءٍ من الكون.

* * *

(٤)

مقاصِدُ الشارعِ الحكيم من تحويل القبلة

كلُّ ما يُجْرِيه الله عزّ وجلّ في خلقه، وفي أحكام دينه لعباده بما في ذلك النسخُ والتبديلُ، مَشْمُولٌ بعلم الله المحيط بكلّ شيءٍ، وبحكْمَتِهِ العظيمة.

فمن حِكَمِ الله عزّ وجلّ في النسخ مُراعاةُ التدرُّجِ في التكاليف، وهو من القواعِدِ التَّرْبَوِيَّة العظيمة.

ومنها بيان أنّ الطاعةَ مُرتبطَةٌ بالأمر الرّبّاني لا بالمصالحِ التي يُحقّقُها تطبيقُ التكاليف الرّبّانية، مهما كانت مصالحَ عظيمة وضروريّة.

ومنها تعليمُ الْعِبَادِ عَدَمَ الإصرار على اختيارٍ اختاروه في أوامرهم ونواهيهم، ونُظُمِهِمْ، وكُلِّ ما هو مَتْرُوكٌ لَهُمْ من أُمورِهِمْ، بل عليهم أن يُطَوِّرُوا اختياراتهم إلى الأفضل والأحسن والأكمل دواماً، دون عنادٍ ولا استكبار.

فإذا رأَوْا أمراً أفضلَ من أمرهم السابق بعد التجربة والملاحظة نسخوا الأمر السابق وعَدَّلُوا إلى الأمر الأفضل.

وإذا رأوا نظاماً أفضل أو مادَّةً في نظام من الأفضل تعديلُها إلى ما هو خير نَسَخُوا السابق وعدَّلُوا، وقرَّرُوا العمل بما هو أصلح وأفضل وأحسن.

وهكـذا يفعلون دواماً في كـلِّ ما هـو متروك لهم من أمـور حياتهم، تـرقّياً شـطر الأفضل والأحسن والأكمل دواماً.

وقد ضرب الله لنا من نفسه مثلاً في ذلِكَ لِيُعَلِّمَنا، مع أنَّهُ عزَّ وجـلَّ قادرٌ على أن يَخْتار الأَحْسَنَ ابتداءً.

ودلَّنا على هذه الحكمة بقوله تعالى في سورة (البقرة):

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

أي: فمع قدرته على كُلِّ شيءٍ ابتداءً يَنْسَخُ إلى خيرٍ ممَّا نَسخ أو إلى مثله، لكنّه لاّ ينسخ إلى ما هو دونَ ما نَسَخ.

لكنَّ كثيـراً من النـاس يُعـانـدون استكبـاراً، فيصرُّون على آرائهم واختياراتهم السابقات، ويُصِرُّون على أوامرهم ونواهيهم إذا كانَ لهم أوامـر ونواهي في أقـوامهم، مهما ظهر لهم أنَّ النسخ والتبديلَ أو التعديل هو الأَفْضَلُ والأَحْسَن والأكمل.

وقـد أبان الله عـزَّ وجلَّ الحكمـة من أمره السـابق بالتـوجُّه في الصـلاة جهة بيت المقدس، الذي نسخه بالأمر بالتوجُّهِ إلى الكعبةِ المُشرفَةِ في حالة القرب منهـا، وشطر المسجـد الحرام في حـالة البعـد، ألا وهي امتحانُ المسلمين الـذين اتَّبعوا الـرَّسُول، وهذا الامتحان يهدف إلى اختبار صدقِ إيمانهم بالله وحده، وفَهْمِهم لمعنى الطاعة في الدين، وهل ارْتِباطُهُمْ بالقِبْلَةِ ارتباطٌ فيه وثَنِيَّةُ المُشركين، حين كانوا يتعلَّقُونَ بأوْثانهم، ويتمسَّحُـونَ بأجسـادها، ويُقـرِّبون لهـا القرابينَ، فقـال الله عـزَّ وجـلَّ في النصّ الـذي نتدبَّره:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ... ﴿١٤٣﴾ ﴾.

فالمؤمنون الذين فَهِمُوا حقيقةَ الإيمان يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ في بلاغاته عن ربِّـه، وفي

سُنَنِه الَّتِي يَسُنُّها، وبالنسبة إلى تحويل القبلة فإنَّهم لا يَرَوْنَ فيه إلاَّ ما عليهم من واجب الامتثال والطاعة، فهُمْ عبادُ الله، وعليهم أن يُطيعُوهُ في كُلِّ أوامره ونواهيه، وعليهم أن يتحوّلُوا فوراً إلى القبلة الجديدة الَّتِي وجَّهَهُم لها، إنّهم لا يعبدون القبلةَ أيّاً كانت تلك القبلة، حتّى يكبُر في نفوسهم التحوُّلُ عَنْها.

أمّا المسلمون الّذين لمّا يدخُلِ الإيمان في قلوبهم، فقد يكون تحويلُ القبلَةِ سَبباً في توضيح حقيقة الدِّين في نفوسهم، وفي تصحيح إيمانهم. وقد يكون سبباً في ردّتهم، لأنّهم في الأصل لم يبتعِدُوا عن مفهوماتهم الوثنيّة السابقة، فينقلبون على أعقابهم مرتدِّين.

الأعقاب: جمع عقب، وهو عظم مؤخر القدم، يقال: رجع على عَقِبه، إذا رجع على الطريق الذي جاء منه.

وأما المنافقون فقد يكون سبباً في كشف نفاقهم، وإظهار حقيقة حالهم.

وأبان الله عزّ وجلّ أنَّ قضِيَّة تحويل القبلة قضيَّةٌ كبيرة في نفوس الذين ما زالت مفاهيم الوثنيّة عالقةً في أفكارهم، إنها الجهةُ الّتي يتوجَّهُونَ لها في أعظم عباداتهم، وهي الصلاة، فكيف يُمْكِنُ أنْ تتعرَّضَ للتّغْيير والتبديل، لكِنَّ الذين اهتدَوْا إلى حقيقة الإيمان الصافي من كلّ شوائب الوثنيّات، لا يَرَوْنَ في تحويل القِبلَةِ شيئاً، ولو نزلَ الأمر في كلّ يوم بأنْ يتوجَّهوا شطْرَ قِبْلَةٍ جديدة، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في النَّصّ:

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ... ﴿١٤٣﴾﴾:

أي: وإنْ كَانَتِ الطَّاعَـةُ فِي التَّحوُّلِ عَنِ القِبْلَةِ السَّابقَةِ إلىٰ القِبلَةِ الّتي نزل بها الأمْرُ الجديد، لكبيرةً صَعْبَةً ثَقيلَةً شَدِيدَةً، إلاَّ علَىٰ الَّذِينَ أدْرَكُوا حقيقةَ مَفْهوم الإيمان، ومَفْهوم الطاعة لله، ومَفْهومِ العبادة، ومَفْهُومِ القِبْلَة، فوجدهم اللّهُ مَهْديين فحكَمَ لَهم بالهداية، فهم الذين هدى الله، وهؤلاء لا يجدون الطاعة في ذلك صعبةً على نفوسهم، بل يجدونها صَغِيرَةً هيّنة سهلة، بخلاف الذين ما زالوا مُتأثِّرينَ برواسِبَ وَثَنِيَّةٍ، فإنّهم يجدون الطاعة في هذا الأمر كبيرةً صَعْبَةً، وقد تَفْتِنُهُمْ عن دينهم، فينقلبونَ على أعْقابِهِمْ مُرْتَدِّين عن الدين.

ومن الحِكَم الإضافية الّتي تأتي متأخِرةً في الحسبان، أن تكونَ القبلَةُ وسَطاً في معمور الأرض، وهو أمرٌ تنفرد به الكعبَةُ المشرَّفة.

وربّما نجد الإلماح إلى هذه الحكمة من طرفٍ خفيٍّ في الحديث عن وسطيّة هذه الأمّة المحمّدية بين الأمم، ضِمْنَ عَرْضِ موضوع تحويل القبلة، وما سيثار عليه من اعتراضات يطرحُها السفهاء من الناس، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾ ﴾.

﴿أمّة وسطاً﴾: أي: أُمّةً عدولاً، تُبَلّغونَ دين الله للناس كَمَا تلَقَّيْتُموه من الرسول محمد ﷺ، لتكونوا إذا بَلَّغتُمْ شُهداءَ على من لم يستجب لكم في بلاغ الدين من الناس يَوْمَ الدِّينِ، كما يَكُونُ الرَّسُولُ شهيداً على من بلّغَهُ دينَ اللّهِ من أهْلِ عصْرِه، وأنتم منهم، إذ حمّلكُمْ مسؤوليّة التبليغ، مع مسؤوليّةِ عملكم في ذواتِكُمْ مَا علمتم من بلاغ الرسول، فمسؤوليَّةُ تَبْليغِ هذا الدين تحملها الأمّة الإسلامية.

هذا ما دلّ عليه النصّ في صريح ألفاظه.

ولا يبعُدُ أن يكون المشارُ إليه في قول الله تعالى: ﴿وكذلِكَ﴾ كلاماً مطوياً تَدُلُّ عليه سوابق النّصّ ولواحقُه.

أي: وإذْ جعلنا الكعبة القبلةَ في مكانٍ وسطٍ من الأرض، جعلناكم أيها المسلمونَ أتباعَ محمّدٍ بهذا الدين أمّةً وسَطاً، عدولاً في التّبْليغ، وعدولاً في الشهادة، وجعلنا مجتمعكم الرائد في مكانٍ متوسّطٍ من الأرْض، وجعلناكم بهذا الدين الوسَط الذي تحملونه للناس مُبلّغين وسَطاً بين الناس، لا غالين، ولا مُفْرِّطين، فلا أنتم تَغْلُونَ في التّعلّقِ بالماديات، تعلُّقَ اليهود والوثنيين، بَلْهَ المادّيين الدّهريين، ولا تَغْلُونَ في البُعْد عن الماديّات، وفي قَهْرِ مطالب الجسد وشهواته، غلُوَّ مُتَصَوِّفَةِ الْهُنُود، ورُهبانِ النصارى، وأشباههم.

وعدالةُ هذه الأمّة مكتسبةٌ من وضوح قاعدة الإيمان في الإسلام، بعد تجارب الأمم السابقة، ومِنْ تَمَثُّلِ الأخلاق الإيمانية الإسلامية القائمة على الصدق والأمانة،

وأُذَكِّر بأنَّ مُعْظَم فضائل الأخلاق هي وسَطٌ بين أقصيَيْنِ غَيْرِ حَسَنَيْن، فيُلْحقُ هذا بعموم وَسَطِيَّةِ هذه الأمّة المحمّديّة.

* * *

(٥)

ما جاء في النصّ حول مشاركةِ أهل الكتاب في إثارة الشبهات بشأن تحويل القبلة

إنّ علماء أهل الكتاب الذين شاركوا في إطلاق الشبهات حول تحويل القبلة، يعلمون أنّ تحديد القبلة أمر تكليفيّ، لامتحانِ الطاعة، وهو قابل للتغيير والتبديل، فَبَنُو إسرائيل في مصر حين بعث الله فيهم موسى وهارون عليهما السلام، قد جعل الله لهم بيوتَهُمْ قبلَةً، وهو ما بيَّنه الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) الآية (٨٧) أي: أن يجعلوها مفتوحة إلى جهة القبلة وهي الكعبة في الأرجح.

ثمّ تحوّلتْ بعد ذلك قبلتهم إلى بيت المقدس، فهم يعلمون أنّ الله عزّ وجلّ إذا أمر بالتوجُّه لجهةٍ ما في الصلاة، كان الحقُّ في التوجُّه لتلك الجهة، ثمّ إذا أمر بالتوجُّهِ لجهةٍ أُخرى كانَ الحقُّ في التوجُّه للجهة المعينة في الأمر اللاّحق.

ويرجّح هذا الرأي ما روي عن ابن عباس: أنّ موسى عليه السلام كانت الكعبة قِبْلَتَهُ، وروي عن الحسن، أنّه قال: الكعبة قبلة كُلِّ الأنبياء.

فإنْ صحَّ هذا فإن علماء أهل الكتاب يعلمون أنّ التوجُّه في الصلاة للكعبة أمرٌ دينيٌّ قديم فهو حقٌّ من ربّهم.

وقد يفهم ذلك من قول الله عزّ وجلّ في النصّ الذي نتدبّره:

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

وبما أنّهم يعلمونَ أنّه الحقُّ من ربّهم، فإنّ مُشاركتهم في إثارة الشبهات يستحقُّونَ عليه المؤاخذة الخاصّة والعقاب الخاص، فقالَ تعالى في الآية:

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾:

أي: وعلم الله الملازم لحكمته وعَدْلِهِ يقتضي معاقَبَتَهمْ على أعمالهم.

وفي هذا البيان معنى التحذير والوعيد، من محاربة هـذا الدين بـإثارة الشبهـات الباطلاتِ حول شريعته ومنهاجه وأحكامه.

* * *

(٦)

حول مـزالـق الاستـدراج الماكرة
التي قام بها فريق من أحبار اليهود

سبق في المقولة (١) ما رُوِي عن ابن عبّاس من أنّه لمّا صُـرِفتِ القبلَةُ عن الشام إلى الكعبة أتىٰ رسولَ الله سبعةٌ من أحبار اليهود وكبرائهم فقـالوا: يَـا مُحمّد، مـا وَلّاكَ عن قبلتك الّتي كُنْتَ عَلَيْها وأنتَ تَزْعُمُ أنّكَ على مِلّةِ إبراهيمَ ودينه؟! ارجعْ إلىٰ قبلتك الّتي كُنْتَ عليها نتّبِعْكَ ونُصَدِّقْكَ.

قال ابْنُ عبّاس: وإنّما يُريدون فِتْنَتَهُ عَنْ دينه.

ونُـلاحظُ أنَّ في النّصّ الّذي نـتـدبَّرُهُ تَعْقِيباً على هـذه الْمُفـاوضـةِ الاسْتِدْراجِيَّةِ الْمَاكِرَةِ من اليهود.

فقد أبان الله عزّ وجلّ فيه لرسوله أنّ قصّـة رفض أهل الكتـاب لاتّباعـك لا تنتهي بأن تَتّبِعَ قبلتهم، فهم سيظلون على رفضهم الحقّ الذي جِئْتَ به.

وذلِـك لأنّ رفضهم ليس ناشئـاً عن جَهْـلٍ حتّى تُعلِّمَهُمْ، ولا عن حـالـةٍ نفسيّةٍ عارضةٍ حتّىٰ تَسْتَرْضِيَهُمْ، وإنّما هُوَ عن إصرار على معاندةِ الحق بالباطل تعصُّباً وأنـانيّةً واستكباراً واتّباعاً للهوى.

فلو أتيتهم بكل آيةٍ مِنْ شأنها إقناعُهم بالحقّ الـذي جِئْتَ به، مـا استجابـوا لك، وما اتَّبَعُوا مِلّتَك ولا قِبْلَتَكَ، ما دامت أسباب رفضهم ليست نـاشئةً عن جَهْلِهِمْ، وعَـدَمِ قناعتهم، وإنّما هي ناشئةٌ عن عوامل نفسيّةٍ أُخْرى.

إنّ اتّباع القبلة مظهرٌ من مظاهر اتّباع الملّةِ والدّين، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾:

أي: ما تبعوا مِلَّتكَ الَّتي يلزم من اتّباعهم لها أن يتّبِعُوا قِبْلَتَـكَ، فأُطْلِق الـلازمُ، مُراداً مع إرادة الملزوم ضمناً بالاقتضاء العقلي.

والمعنىٰ: سوف لا يستجيبون لك إذا جاريتهم فرجعْتَ إلى قبلتك السابقة، فلقد كُنت عليهـا ولم يَسْتَجيبُوا لـك، ولم يصدّقـوك، فكيْفَ إذا انـزلَقْتَ معهم في عَـرْض الاستدراج الذي عرضوه عليك؟!. إنّهم سَيتّخِذُون ذلـك ذريعةً للتشكيك في دينك، ولفتنة المسلمينَ عن دينهم.

واتّباعُكَ قبلَتَهُمْ لا يكفي لإزالة الموانع التي تمنعهم من الإيمان بك واتّباعك.

إنّهم لنْ يَـرْضَوْا حتّىٰ تَتّبِع ملّتهم وأنْت لَنْ تَفْعَلَ ذَلِـكَ، فما أنت بتـابـعٍ مِلّتَهُمْ وَلاَ قِبْلَتَهُمْ، إذْ لا تتّبعُ قبلتَهُمْ دُونَ أمْرٍ رَبّـانِيّ حتّىٰ تَتّبعَ مِلّتَهُمْ، وهـذا أمر لا يمكن أن تفعله، فَأَنْتَ رسُولُ على الحق، وهم على الباطل.

وفِرَقُ أهلِ الكتـاب لا يَتّبِعُ بعضُهُمْ قبلةَ بعض أيضـاً، لأنّ اتّباع القبلَةِ مـظهرٌ من مظاهر اتّباع المِلّةِ، وكلُّ فريقٍ منْهُمْ ملازِمٌ مِلّته، لا يُفارق قبلته حتى يفارق ملّته.

فقال الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾.

وبعد ذلك قال اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

إنّ الـرّسُولَ صلوات الله عليـه لا يمكنُ أن يتّبعَ أهـواء أهلِ الكتـاب، ولا أهْـوَاءَ غَيْرِهِمْ من مِلَلِ الكفر، ولكنّ قواعدالتكليف والتّحْذِير والتربية الـرّبّانيـة قواعـدُ عامّـةٌ، يُخاطِبُ الله بها جميع عباده من أفْضـل المرسلين حتّىٰ أشـدّ الناس كُفْـراً وعناداً وبُعْـداً عن رحمتـه، فما أحَـدٌ يُعْفَى من الحكم عليه بـالـظُّلْمِ إذا ظلم، وما أحَدٌ يُعْفَىٰ من الحكم عليه بالكفر إذا كفر، ولا مِنْ مُعاقبته عقاب الكافرين، وما أحَدٌ يُعْفَىٰ من الحكم عليه بالشِّرْكِ إذا أشرك، وهكذا إلى سائر قواعد الابتلاء والجزاء.

وتَمَشّياً مع هذه الكليّات العامّة نَجِدُ النصوصَ الـرّبّانيّـة تُسوّي في الخـطاب بها

الجميع، ولا تَسْتَثْني إلاّ فاقِدي أَهْلِيَّةِ التكليف، ولو كان المخاطَبُ بها معصوماً.

وفي هذا تحقيقٌ شامل لقانون العدل، المبنيّ علَىٰ سنَّةِ اللّهِ الثابتة في الابتلاء والجزاء.

وحين يُدْرِكُ آحادُ الناس أنّ الرَّسول بل أفضل الرُّسل سيكونُ من الظالمين بحكم الله لو اتّبع أهواء أَهْلِ الكفر، فإنّه يقول في نَفْسه: كيْفَ إذاً حَالُ الّذين ليس لهم عند الله تفضيلٌ ولا تمييزٌ ولا تخصيص؟!



النـصّ الخامـس

من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)
الآيات من (٢٠٤ ــ ٢٠٧)
حول بعض صفات فريق مـن المنافقين
وظواهر من سلوكهم وهم من الجبّارين

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

من الظاهر في الآيات الثلاث الأولى من هذا النّصّ أنها نزلَتْ لبيان حال صنفٍ من المنافقين بوجه عام.

* * *

(١)
حول أسباب النزول

من حكمة الله في تنزيل القرآن مُنَجَّماً، تَرَقُّبُ أدنى المناسبات لإنزال بيانَاتٍ ومفهومات وكُلّيّاتٍ عامّات، وقد لا يَنْطَبق النّصّ بكلّ عناصره على كلّ عناصر المناسبة. كالأب المربّي المعلّم لأولاده، إذا مرّ بهم حيوان أعطاهم درساً من دروس عالم

الحيوان. وإذا مرّوا بشجرٍ ما أعطاهم درساً من دروس الأشجار وسائر النباتات، وإذا قُدِّمَتْ لهم باقةُ ورد أعطاهم درساً من دروس الورود والأزهار، وهكذا.

وقد استبصر علماء أصول الفقه هذه الحقيقة فقالوا: العبرة بعموم النّصّ لا بخصوص السبب.

وقد رُوي في أسباب نزول هذا النّصّ روايتان ضعيفتا الإسناد:

* إحداهما عن ابن عباس، قال: لمّا أصيبت هذه السّرية أصحاب خُبيب بالرجيع بين مكة والمدينة، قال رجالٌ من المنافقين: يا ويحَ هؤلاء المقتولين، أو المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هُمْ قعدوا في بيوتهم، ولا هُمْ أدّوْا رسالة صاحبهم، فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا. . .﴾ الآيات.

وهذه الرواية موقوفة على ابن عبّاس.

* والأخرى عن السدّي، قال: نزلت في الأخنس بن شُرَيقٍ الثقفي، وهو حليف لبني زهرة، أقبل إلى النبي ﷺ في المدينة، فأظهر له الإسلام، فأعْجبَ النبيَّ ذلكَ منْهُ، وقال: إنّما جئتُ أريدُ الإسلام، والله يَعْلَمُ أنّي صادق، ثُمَّ خرج من عند النبي ﷺ، فمرَّ بزرعٍ لقومٍ من المسلمين، وحُمُر، فأحرقَ الزّرْعَ وعقرَ الْحُمُر، فأنزل الله عزّ وجلّ: (الآيات). وهذه الرواية موقوفة على السدّي.

وقصة أصحاب الرجيع كما رواها ابن هشام عن ابن إسحاق خلاصتُها أنّه قدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُدٍ رهْطٌ من عضَلٍ والْقَارة[1]، فقالوا: يا رسولَ الله، إنّ فِينَا إسْلاَماً، فابْعثْ نفراً من أصحابك يُفَقِّهُونَنا في الدين، ويُقْرِئُونَنا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسولُ الله ﷺ نفراً ستّةً[2] من أصحابه، وهم: مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَد الغنوي، وخالدُ بْنُ الْبُكَيْر اللّيثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخُبَيْبُ بْنُ عَدِيّ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَّة، وعبد الله بن طارق.

---

(١) عضَل والقارَة: قبيلة جدّها عضَلُ بن الهُون بن خُزَيمة بن مدركة من كنانة من مُضَر. وسُمُّو القارة لاجتماعهم والتفافهم، وكانوا يجيدون الرمي بالسهام.

(٢) وروي أنهم عشرة، ستةٌ من المهاجرين، وأربعةٌ من الأنصار.

وأمّر رسُولُ الله ﷺ على القوم مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغنوي، فخرج مع القوم، حتى إذا كانُوا على الرجيع (وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدور الهَدْأة وهو موضع بين عسفان ومكة) غَدَرُوا بهم، فاستصرخوا عليهم هُذَيْلاً، فَلَمْ يَرُعِ القَوْمَ وهم في رحالهم إلاّ الرجالُ بأيديهم السيوف، قَدْ غشُوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم، فقالوا لهم: إنّا والله ما نريد قتلكم، ولكنّا نُريد أن نُصيبَ بكم شيئاً من أهل مكة، ولكُمْ عهدُ الله وميثاقُه أن لا نقتلكم.

فأمّا مَرْثَدُ بن أَبِي مَرْثَد، وخالدُ بن البُكَير، وعَاصِم بنُ ثابت، فقالوا: والله لا نَقْبَلُ من مُشركٍ عَهْداً، ولا عَقْداً أبداً.

وقاتل القومَ عاصمٌ، ومرثدٌ، وخالدٌ، حتىٰ قُتِلوا.

وأما زَيدُ بن الدَّثِنَة، وخُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ، وعبدُ اللّهِ بْنُ طارقٍ، فلانُوا ورَقُّوا، ورغِبُوا في الحياة، فأعطَوْا بأيديهم، فأسَرُوهم، ثُمَّ خرَجُوا إلَىٰ مكَّة لِيَبِيعُوهُمْ بِهَا، حَتَّىٰ إذا كانُوا بالظهران انْتَزَع عَبْدُ الله بن طارق يَدَهُ مِنَ القِرانِ، ثُمَّ أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم، فرمَوْهُ بالحجارة حتّىٰ قتلوه، وقَدِموا بزَيْدٍ وخُبَيْبٍ مكة، فباعوهما من قريشٍ بأسيرين من هذَيْلٍ كانا بمكّة.

أمّا زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ فاشتراه صفوان بنُ أمية ليقتله بأبيه، وأمر بقتله.

وأمّا خُبَيْبٌ فاشتراهُ حُجَيْرُ بن أبي إهاب التميمي، ثُمَّ خَرَجُوا به إلى التنعيم فقتلوه[1].

* * *

(٢)
المفردات اللُّغويَّة

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

أي: وبعضُ الناس فحرف (مِنْ) للتبعيض، وظاهرٌ في النصّ أنّ المراد من هذا

(١) للقصة تفصيلات عند ابن هشام لم أذكرها اختصاراً.

الفريق قسم من المنافقين لأنه يُظهر شيئاً، ويُبطِنُ ويعمل خلاف ما يظهر ويدّعي بأقواله.

﴿مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾:

أعْجَبَ الشيءُ يُعجِبُ، إذا أوجد في النفس العَجَب، والعَجَبُ: انفعالُ استحسانٍ يعرضُ للنفس من مثيرٍ لهذا الاستحسان، وكثيراً ما يكونُ من أمرٍ غير مألوف ولا معتاد.

ويُستعملُ العَجَبُ بكثرةٍ في استنكارِ غير المألوف.

والنُّصوصُ فيها أحياناً معنى الاستحسان، كقول القائل: أعجبني هذا الأمر، أي: أرضاني حسنُهُ. وفيها أحياناً معنى الاستنكار أو الإنكار لأنَّه غير مألوفٍ ولا معتاد.

ومن الفهم الدقيق في هذه المادة قول الكواشي[1]: يقال في الاستحسان: أعجبني كذا، ويقال في الإنكار: عجبتُ من كذا.

﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾:

أي: يحلف بالله على أن سريرته مطابقة لعلانيته، أو يقول: الله يشهد أني صادق، أو نحو ذلك.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾.

الألَدّ لغةً: هو شديد الخصومة الْخَصِمُ الْجَدِلُ الشحيح الذي لا يميل إلى الحقّ. وجَمْعُه: «لُدّ» و «لِدَاد».

قال السُّدّي: أَلَدُّ الخِصَام، أي: أعوج الخِصَام.

يُقالُ: رجُلٌ أَلَدُّ بيِّن اللَّدَد، أي: شديد الخصومة. ويقالُ: امرأةٌ لَدَّاء، وقَوْمٌ لُدٌّ.

واللَّدَدُ: الخصومة الشديدة.

---

(١) أحمد بن يوسف الشيباني الموصلي (٥٩٠ ـ ٦٨٠هـ) من أهل الموصل، فقيه شافعي، وعالم بالتفسير، له عدة كتب مخطوطة، نقل بعض المفسرين عنها.

وقول الله عزّ وجل: ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾: أي: وتُنذِر بالقرآن قوماً خُصَماء عُوجاً عن الحقّ.

﴿الْخِصَامِ﴾: قال الخليل: هو مصدر بمعنى المخاصمة، كالقِتال، والطِّعانِ، بمعنى المقاتلة والمطاعنة.

وعليه فقول الله تعالى: ﴿وهو أَلَدُّ الخصام﴾: أي: شديد الجدل مجانب للحقّ في المخاصمة، حريص على الغلبة بالباطل.

وقال الزجاج: الخِصَامُ جمعُ خَصْمٍ، كصِعَابٍ وَصَعْبٍ، وضِخَامٍ وضَخْمٍ. وعلى هذا فمعنى: ﴿أَلدُّ الخصام﴾، مُخَاصِمُ الْمخاصِمين بشدّة.

قال السُّدّي: ﴿أَلدُّ الْخِصام﴾: أي: أَعْوَجُ الخصام. وقال قتادة: معناه أنه جَدِلٌ بالباطل.

وأرى أنّه لا مانع من اعتبار كلمة «ألدّ» أفعل تفضيل بمعنى: الأشدّ، والأكثر خصومة بالباطل، لأنّهُ يُقالُ لُغَةً: لَدَدْتُ فُلاناً أَلُدُّهُ، أي: جادلته فغلبته. ويقالُ: ألَدَّهُ يلدُّهُ، أي: خَصَمَهُ، واسم الفاعل من لَدَّ، لادّ، ومبالغته: لَدُود.

أقول: فيجوز قياساً أن يُشْتَقَّ من «لَدَّ» الثلاثي أفعلُ تفضيل، فيقالُ: «ألَدُّ» وعلى هذا فمعنى ﴿وهُوَ أَلَدُّ الخصام﴾: وهو أشَدُّ الخصومة بالباطل من غيره، وأكثر المخاصمين جدلاً، وأغلَبُهُمْ لأقرانه بغير حقّ، وهذا فيما أرى هو الأقرب، ولا حاجة معه إلى أيّ تأويل.

﴿الْخِصَامِ﴾: يأتي مصدراً لخاصَمَ، يقال: خاصمه مخاصمة وخصاماً، إذا جادله ونازعه، والإضافة على مَعْنى في.

﴿وإذا تَوَلّى﴾: التولّي الإدبار والانصراف، والمعنى: إذا أدبر وانْصرف، ويقال لغة: تولّى الأمرَ إذا قام به، وحَمَلَ مُهِمَّة شؤونه، وذو الولاية العامّة كالسلطان والحاكم والقاضي يتولّى أمور من هم تحت ولايته.

ومن أسماء الله الوليّ، بمعنى الناصر، وقيل: بمعنى المتولّي لأمور العالم والخلائق القائم بها، المتصرّف فيها.

فهذا المنافق الذي يُعْجِبُك قولُهُ في الحياة الدّنيا، لأنّه مُمكَّنٌ فيها من أن يدّعي بلسانِهِ خِلافَ ما في قلبه ونفسه، وخلافَ ما يعملُ في سرّه، أو ما ينوي أن يعْمله في مستقبل أمره، يقولُ لكَ في حديثه ما يُعْجِبكَ عن إيمانه وصدقه وإخلاصه، أو ما يعجبك من مواعيده وما يعزم أنْ يَعْمَلَهُ، فإذا انْصرفَ عن مجلسك وأدْبر، وكذلك إذا تولّى وِلاَيَةً مَا يستطيعُ أنْ يقوم بشؤونها ويتصرَّفَ فيما هو تحت سلطانه بها، سَعَىٰ في الأرْض لِيُفْسِدَ فيها. أمَّا في الآخرة فلا يستطيع أن يقول غير الحقّ.

﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

السَّعْيُ المشيُ الحثيثُ بهمَّةٍ ونشاط واجتهاد، ويطلق على كلّ عمل وكسب بهمة وخفّةٍ ونشاط واجتهاد، وجاء ذكر: ﴿في الأرض﴾ لبيان مُتعلَّق همّته وَمطامعه، فأهواؤه وشهواتُه ومطامعُه كلُّها أرْضيات، لا عُلْويٌّ فيها: إنّه أرضيٌّ دُنياوي.

﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾:

في هذا بيانُ بعْض آثار سعيه، وبالتأمُّل نُدْرِكُ أنّه يسعىٰ لتحقيق أهوائه وشهواته ومطامعه ولذّاته وسائر مطالب نفسه وجَسدِه، فتعترضه عقباتُ حُقُوقِ الآخرين ومصالِحهم، وواجبات ربِّ العالمين عليه، ومحظوراتٌ كثيرات، وهذه العقبات لا تُجتازُ إلّا بالإفسادِ في الأرض، وإهلاكِ الحرث ــ الحرثُ كنايةٌ عن الثروة النباتية ــ وإهلاكِ النَّسْلِ ــ النَّسْلُ كنايةٌ عن الثروة الحيوانية التي تتكاثر عن طريق التناسل ــ فيتّخِذُ الوسائل المفضية للإفساد في الأرض، وإهلاكِ الحرث والنسل، ليصل إلى مطالب نفسه وجسده.

وعلى هذا فمُتَعَلَّقُ ﴿لِيُفْسِد﴾ محذوف، ويمكن تقديره كما يلي: إذا تولّى سَعىٰ يبتغي الوصولَ إلى مطالبه الأرْضية، فتعترضه العقبات، فيتَّخِذُ مُخْتلفَ الوسائل لِيُفْسِد في الأرض، ويُهْلِكَ الحرثَ والنسل، ممّا يهيِّئُ له في تصوره مطالبَ نَفْسِه وجسدِه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾:

الفساد ضدّ الصلاح، ويكون بإتلاف ما هو نافع، أو ما نفعه غالبٌ راجح، دون الاستفادة بذلك في نفع مكافىء أو راجح.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

أيْ: اتّقِ عِقَابَ اللّهِ على إفسادك في الأرض، وإهـلاك الحرث والنسـل، وعلى معصيتك له. وعبـارَةُ ﴿اتّق الله﴾ ضُمِّنَتْ معنى: خف الله، والزم المـواطن التي تقيك من عذابه، وهي مواطن طاعته.

﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾:

العزّة هي القوة الغـالبة، فهـو يَغْتَرُّ بقـوّته الغـالبة التي يتمكن بهـا في تصوّره من تحقيق مطالبه في الحياة الدنيا، غيرَ مكترثٍ لما يَجْنِيه من إفسادٍ في الأرض وَإهـلاكٍ للحرث والنَّسْلِ ومعصيةٍ للباري عزّ وجل، وغيرَ عابىءٍ بالعواقبِ الوخيمة التي أُعـدّتْ للآثمين.

ومشـاعر هـذه العزّة الـرّعنـاء الحمقـاء تـأخذُهُ بعيـداً عن المـواطنِ الـواقيـة من عذاب الله مُكَبَّلاً بسلاسِلِ الإثم.

وإذا أخـذَتْهُ عِـزَّتُهُ الحمقـاءُ مُكَبَّلاً بسَـلاَسِلِ الإثم بعيـداً عن مواطن تَقْـوىٰ الله، أخذتْهُ العـزّةُ الحقيقية التي هي لله فـألقته في جَهنَّم يَـوْمَ الـدين بجـريـرة الإثم الـذي ارتكبه، والتعبير بهذا نظير قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

وبهذا الفهم نكونُ قد هُدِينا بتوفيق الله إلى فَنٍّ بديعٍ من فنونِ الإعجاز البـلاغي في القرآن، وهو استخدام جُملةٍ كامِلَةٍ بمَعْنَيَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ في الواقع، ومن دون ذلك كان التعبير يجري كما يلي: وإذا قيل له اتّق الله أخذتْـهُ عزَّتُـهُ التَّوَهُّمِيَّـةُ مُكَبَّلاً بحبـال الإثم وسـلاسله، فأخـذتْهُ عـزّة الله الحقيقية فقـذفته في جهنّم بجـريرة الإثم الـذي ارْتَكَبـه. واختُصِرت الجملة الأولى، فصارت: أخـذَتْهُ الْعِزَّةُ بالإثم، واخْتُصِـرَتِ الجملةُ الثانيـة فكانت كذلك: أخَذَتْه الْعِزَّةُ بالإثم، فجاء في النصِّ القرآنيِّ الاكتفاءُ بـإحدىٰ الجملتين المختصرتين، مع إرادة الدلالة على ما دلّت عليه كلٌّ من الجملتين المطوّلتين.

ودَلَّ على معنى الجملة الأولى ارتباط العبارة بما قبلها، وهو:

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

ودَلَّ على معنى الجملة الثانية ارتباطُ العبارة بما بعدها، وهو:

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

وشبيهٌ بهذا خطابُ اللّهِ لِلْكافرين بعد أحداث موقعة بَدْر، وكانُوا قد طلبوا الفتح من الله على المسلمين، وذلك في قوله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

أي: إنْ تَطْلُبُوا الفتْحَ لكم أي النّصرَ على المسلمين، فقد جاءَكُمُ الفتْحُ وهو النصر للمسلمين عليكم، فبحذف المتعلّقات صحّت العبارة للضدّين.

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾:

أي: فكافيه جَهَنَّمُ. حَسْبُ هنا مبتدأ بمعنى كافٍ وخبرُه جَهَنّم. والضمير في فَحَسْبُهُ مضاف إليه، والفاء فيها معنى الترتيب والتفريع على ما سبق.

﴿جهنّم﴾: اسم علم من أسماء النار التي أعدَّها الله ليُعَذِّبَ بها الكافرين والعصاة، وهو ممنوع من الصرف للعلميّة والتأنيث.

ويقال للقعر البعيد جهَنّمُ وجِهِنّام، وبئرٌ جهنّم وجِهنّام بكسر الجيم والهاء وتشديد النون، أي: بعيدَةُ القعر.

وبعضُ اللُّغويين يَرونَ لفظ جَهَنّم أعجميّاً، فقيل: فارسيٌّ مُعرّب، وقيل: عِبريٌّ، وأصله بالعبرانيّة كِهنّام، وعلى هذا فالمانع له من الصرف العلمية والعجمة.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾:

اللّام هي لام الابتداء، وتفيد توكيد مضمون الجملة: بِئْسَ: فعلٌ جامدٌ لإنشاء الذّم، وهو منقولٌ للدلالة على معنى الذّمّ من بَئِسَ إذا أصاب بُؤْساً.

﴿المِهادُ﴾: المكان الممهَّد المُوَطَّأ، وأُطْلِقَ على مكان المعذبين في جهنّم مِهاد على سبيل التهكُّم، لأنّ الشيءَ الممهّدَ المفروش لهم في النار هو أماكن التعذيب الشديد، وهذا ليس من التمهيد ولا التوطئة، بل هو ضدُّ ذلك تماماً.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

الشراء والبيع سواء، فكلاهما تبادل، أي: وبَعْضُ النـاس وهم أهـل الإيمـان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدّعوة إلى الله، يبيعُ نفسه في الحياة الدنيا مجاهداً في سبيل الله ابتغاء مرضاته، لِيَكُونَ عوض ذلك سعادة نفسه يوم الدين في الخلود بجنات النعيم.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

﴿رؤوف﴾: مأخوذٌ من الرأفة، وهي شدّة الرحمة، فالمراد من الرؤوف أنّه سبحانه هو المنعم بجلائل النّعم ودقائقها. والرأفة كالرحمة من صفات الله عز وجلّ.

وفي الإتيان باسم الله الرؤوف هُنَا إشعارٌ للصنف الأول المنافق المغترّ بعزته بأنَّ باب رحمة الله ما زال مفتوحاً له يستقبله إذا تاب إلى ربّه وأناب، وهو في حياة الابتلاء في الحياة الدّنيا. ففي ذكره دعوة إلماحيّةٌ للتوبة والإصلاح، فالله تعالى رَؤُوفٌ بالعباد كلّ العباد، ضمن القواعد العامّة للابتلاء والتوبة والجزاء.

وفيه أيضاً إلماح للمجاهدين في سبيل الله بصدق ضمن ما أذن لهم، بأنّ الله سيكون رؤوفاً بهم، فينصرهم، ويؤيّدهم، إذا التزموا شريعته ومناهجه، وسُنَنَهُ التكوينيّة والبيانية.

* * *

(٣)
مفهومات مأثورة حول النّصّ

(١) روى الطبرّي بسنده أنّ عليّاً رضي الله عنه قال بشأن الفريقين الّذيْن ذكرهما الله في هذا النص: اقتتلا وربِّ الكعبة.

(٢) وروى الطبري عن ابن زيد قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا صلّى السُّبْحَةَ (هي صلاة التطوّع ـ ولعلها هنا سنة صلاة الظهر) وفرغ دخَلَ مِرْبَداً له (المِرْبَدُ موقف الإبل ومَحْبِسُها) فأرسَلَ إلى فتيان قد قرؤوا القرآن، منهم ابن عباس، وابنُ أخي عُيَيْنَة.

قال: فيأتون فيقرؤون القرآن ويتدارسونه، فإذا كانت القائلة (أي: وقت نوم القيلولة) انصرف.

قال: فمرُّوا بهذه الآية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ . . .﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

فقال ابن عباس لبعض من كان إلى جَنْبه: اقتتل الرّجلان.

فسمع عمر ما قال. فقال: وأيّ شيءٍ قُلتَ؟

قال: لا شيءَ يا أميرَ المُؤمِنينَ.

قال: ماذا قُلتَ؟ اقْتَتَلَ الرَّجُلانِ؟

قال: فلما رأى ذلك ابن عبّاسٍ قال: ارى هَهُنا مَنْ إذا أُمِرَ بتقوى اللهِ أَخَذَتْهُ العزَّةُ بالإثم. وأرى مَنْ يَشْرِي نفسه ابتغاء مرضاة الله، يقومُ هذا فيأمُرُ بتقوى الله، فإذا لَمْ يَقْبَلْ وأخذتْهُ العزَّةُ بالإثم، قال هذا: وأنا أشتري نفسي، فقاتله، فاقْتَتَل الرَّجُلانِ.

فقال عمر: للهِ تِلادُكَ يا ابْنَ عبّاس. (أي: لله قديمُكَ وأَصْلُكَ ـ التلاد في اللغة: المال القديم أورده عمر رضي الله عنه على التّشبيه).

(٣) معظم السلف فهموا أنّ هذا النصّ نزل في المنافقين، وفيمن يجاهدهم بلسانه، ثم بسلاحه إن استطاع.

* * *

(٤)
البيان التحليليّ العامّ

في هذا النص بيان لطائفة من صفات صنف من المنافقين، وهو صنفٌ ذو مكانة في قومه، وذو بيانٍ ولَسَنٍ وذكاء، تعجبُ السامعينَ أقوالُه في أمور الحياة الدنيا، ويستطيع التّصنُّع والتظاهر بغير ما يُبْطِن، ويستطيع الواحد منهم أن يستولي في المجلس على جلسائه بزخرف القول، والكلام المجوّد المنمّق، الذي يوهم أنه صدق، وهو كذّابٌ يخالف باطنُه ظاهِرَه، وتُخالف حقيقة أمره ما يَدَّعيه بلسانه، ويلجأ لتغطية كذبه إلى تأكيد أقواله بالحلف بالله. وبإشهاد الله على صدق إيمانه، أو صدق

حبّه وولائه، أو صدق أقواله، أو نحو ذلك، وهو في حقيقة أمره كذّاب مخادع منافق.

ثم إذا تولّى مدبراً منصرفاً، وانطلق إلى شؤونه وأعماله كذّبت أعماله أقواله، فكشفت أعماله عمّا في خبيئة نفسه وقلبه.

إنّه يسعى بهمة ونشاط واجتهاد في سُبُل الأرض المختلفة، ليحقّق ما يهوى ويشتهي وما يَطْلُبُ لنفسه أو جَسَده، من مطالب الحياة الدنيا، كالمال، والنساء، وأنواع متاع الحياة الأخرى، وكالجاه والسلطان والعلوّ في الأرض، فإذا اعترضته عقباتٌ في سُبُله لا نُجْتاز إلاّ بالإفساد في الأرض، بتضليل النّاس، وصَدِّهِمْ عن صراط الله المستقيم، ودينه الحقّ القويم، ونَشْرِ الفاحشة فيهم، ودفعهم إلى ارتكاب المهلكات الموبقات، فعل ذلك بجرأة إبليس اللّعين، غيرَ مكترث لِعاقبةٍ، ولا متحسّس بعاطفةٍ نبيلة.

وإذا اعترضته عقباتٌ في سُبُله لا تُجْتاز إلاّ بإهلاك الثروات من الزراعة، والثروات من الأنسال الحيوانية، أو بإهلاك الناس بقتل الرجال وذبح الذراري وتعقيم النساء فعل ذلك طاغياً باغياً مُجْرماً، غير مكترث لعاقبةٍ وخيمةٍ وعذابٍ من الله شديد، ولا متحسّس بعاطفة إنسانيّة نبيلة كريمة.

إنّ هذا الصنف من الناس يوجد في مختلف مستوياتهم وطبقاتهم، فمنهم الطغاة البغاة المتجبّرون في الأرض، الذين يحاولون فرض سلطانهم على الشعوب بالقوّة، وبقمع كلّ من يتحرّك مطالباً بالحرّيّة ورفع الظلم، والتخلّص من الاستبداد. ويوجد في أعوانهم ونصرائهم ومؤيديهم وجنودهم.

ويوجد هذا الصنف في طبقة طالبي جمع الثروات والاستكثار من الأموال على اختلافها، واتّخاذ أعظم القصور، وأفخم المراكب، والاستمتاع بألوان المطاعم والمشارب وغير ذلك من متاع الحياة الدنيا.

ويوجد في سائر طبقات الناس على مقاديرها، وإمكانات الإفساد فيها وإهلاك الحرث والنَّسْل، كلٌّ على قَدْر مستواه، وفي حُدود إمكانات تحرُّكه في المجتمع البشري، وفي حدود ما أوتي من ذكاء وحيلة، وقدرة على مخادعة الناس، وختل ما يريد الوصول إليه بالحيلة أو بالقوة.

وهذا الصنف من أهل النفاق من الناس، حين يشعر بأنّه قد غدا ذا قوّة وسلطانٍ في الأرض، امتلأ غروراً بنفسه، وانتفخ كبراً، وصار يأبَىٰ أن تُوجّه له أيّةُ ملاحظة،

وأيّةُ نصيحة تحذّره مغبّة طغيانه وبَغْيه وإفساده في الأرض.

فإذا قال لـه ناصـح مؤمن ذو جرأةٍ أدبيّـة: اتّقِ الله، وكُفَّ عن الطغيان والبغي، والإفسـاد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، أخـذتْهُ العزّةُ أي: القوة الغالبة التي يشعر بأنه قد استغنى بها، ومَلَكَ كلَّ أمْرِه، والمقترنةُ برغبة الإثم، فاستحوذت على كلِّ تفكيره، وكلِّ مشاعره، وأصـابتْ سائـر جوانب الخيـر في فطرتـه بالشّلل، فاندفـع مع أهوائه وشهواته كالأعمى الأصمّ الأبكم.

ومن استحوذت عليه مشاعر الاستغناء بالقوة المقرونـة بابتغـاء الإثم، لم يكن منه إلّا البغي والطغيان، والظلم والعدوان، فـربما قتـل من قال لـه: اتّقِ الله وربّما زاد في طغيـانـه وبغيه على النـاس، وربّـما أمعن في الإفسـاد في الأرض ومحـاربـة دين الله والمؤمنين به، كما هو مُشاهد في أحوال الطغاة البغاة، الّذين يكونون في أوائل أمورهم مُعْجِبين بأقوالهم، ويُشْهِدُونَ الله على ما في قُلوبهم من خيرٍ ورغبة في الإصلاح والنفع العامّ.

لكنّهم ينصـرفـون ويعـطون أدبـارهم لكـل أقـوالهم المُعْجِبـة الجميلة الحلوة، فيسعـون في الأرض فسـاداً وَيُهْلِكُـون الحـرث والنّسْـلَ لتحقيق مـآربهم ومـطامعهم وأوطارهم.

فإذا كان لهم سلطانٌ في الأرض استكبروا وطغوا وبَغَوْا، وإذا نصَحَ أحَدَهُمْ دَاعٍ مِنْ دُعاة الحقّ بتقوىٰ الله استحوذَتْ عليه مشـاعر اعتـزازه بقوّتـه، واستغنائـه بما يملك التصـرّف فيه، فطغىٰ وأخذتـه عزّتُـه مكبّلاً بسـلاسـل الإثم الكبيـر بعيـداً عن مـواطن تقوىٰ الله، إلى أودية الجرائم العظيمـة، وأنواع البغي والـطغيان، حتّىٰ تقْبِضَ عليـه يدُ العزة الحقيقية الرّبانيـة فتأْخُـذه بآثـامه، أخْـذَ عزيـزٍ مقتدر، فَتُهْلِكُـهُ، ثُمّ تدفـع به إلى مصيره في جهنم، حيثُ يَلْقَى فيها ذُلّاً وهَواناً وصَغاراً، وعذاباً أليماً بما يَمَسُّه من سَقَر.

ويتسلّطُ هـذا الصنف الطاغي، وهـو في أوْجِ سُلْطانِه وطُغْيـانِه على الـدُّعاة إلى سبيـل ربهم بالحكمـة والموعـظة الحسنة، فَيُنَكّـلُ بهم، قتْلاً ونفيـاً وتشريـداً، وحـربـاً بالأقواتِ وسائرِ ضروريّاتِ الحياة.

فـلا سبيل حينئـذٍ للخلاص إلّا بـإعداد العـدَّة المكافئة للثورة عليـه، ومقاتلتـه،

ومُجاهدته في سبيل الله، لإسقاط تسلُّطِه، وتخليص الناس منه، ومن بَغْيِه وطُغْيانه، دون تورّط بأعمال غِيْر مكافئة في سُنَن اللَّهِ السببيّة، لئلا تنتهي بالخيبة والفشل، فتُعْطِي عَكْسَ الأثر المرجوّ، وتزيد الطاغي في طغيانه وبغْيِه وتَسلُّطِهِ وعُدْوانِه.

وفي الإشارة إلى هذه الوظيفة من وظائف المؤمنين قال الله عزّ وجلّ في النص:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

فهو ناصر المجاهدين في سبيله ما التزموا طاعته، وقابل توبة التائبينَ من أهل الطغيان والبغي إذا صدقوا وآمنوا وأصلحوا.

وقد أدركَ المرادَ مِنْ ذكر هذا الفريق المجاهد في سبيل الله عقب ذكر ذلك الصنف المنافق الطاغي الباغي: عليُّ بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، فقال كلٌّ منهما: اقتتلا وربِّ الكعبة.

* * *

(٥)

مع النصّ في التحليل والتدبّر

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وبعضُ النّاسِ صنفٌ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ الإيمانيُّ الإسلاميُّ في الحياةِ الدنيا، التي يجْري حكم الناس فيها على الظاهر، ويعجبُك قولُهُ في أُمُور الحياة الدنيا وشؤونها، إذْ هو فيها ذكي ألمعيّ مُبين، يقدّم آراءً وأفكاراً تُرضي وتُثير الإعجابَ بما فيها من حكمة وعلم وفهم سديد للأمور، في السِّلم والحرب، وتصريف أمور المال والمجتمع.

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾:

أي: ويُؤكِّدُ دَعَاوَاه الْعَريضةَ بالأيمان المغلظة، وبقوله: واللّهُ على ما أقولُ شهيد، إذْ يزعم بأقواله أنّهُ مؤمن تقيٌّ نَقِيٌّ يَبْتغِي الخير، ونُصْرَةَ المجتمع، أو نصرةَ الإسلام والمسلمين، ويريدُ الإصلاح والنفع العام، ويُريد، ويُريد، ممّا يسُرُّ النّاس، ويُقَدِّمُ كثيراً من زُخْرُف القول، لِيَثِقَ بِهِ النّاسُ، ويطمئنوا له، ويُسلِّموه مقاليد أمورهم.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤﴾:

أي: وهو أشدُّ المخاصمين خصومة ومجادلةً بالباطل، فمن صفاته أنّه قوي المجادلة، قويُّ الحجّة غلّابٌ لمن يخاصمه، يجادل بالباطل، فيغالط، ويزوِّر، ويُزخرف الأقوال، ويُنمِّق بياناته وأدلته، ويُظْهِرُ ويَطْوِي، ويكذبُ ويكتم، ليُهَيْمِنَ على الناس، ويُقنعهم بآرائه، وأفكاره، التي له منها مصالح خاصّة، ويُلْبِسها زوراً وتزييفاً أثواب ابتغاء الخير والمصلحة العامّة، أو مرضاة الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾.

أي: ومن صفاته أنه بَعْد أن يخدع الناس بزخرف أقواله وآرائه، ويُقنِعَهُمْ بسلامَةِ نيّاته وما يبْتغِي لهم من خيرٍ ونفع وصلاحٍ وإصْلاحٍ أو مرضاةٍ للّٰهِ عزّ وجلّ، ينصرف عنهم فيسْعَىٰ سعْياً حثيثاً بهمّة ونشاط لتحقيق أهدافه الخاصّة في المال والشهوات والأهواء والسلطان والاستعلاء في الأرض بغير حقّ، وذلك لا يتمّ له إلّا بأنْ يُفسِد في الأرض بتضليل الناس وصدّهم عن سبيل الحقّ، وطاعة الله عزّ وجلّ، ودفعهم إلى الموبقات المهلكات من كلّ خلق أو سلوك أو مذهب فكريّ أو عملي.

ولكنْ لا بدَّ أن يعترض سُبلَهُ الضالّةَ مناصرون للحقّ، كاشفون لزيوف تضليلاته، فيراهم عقبة في طريق تحقيق أهوائه وشهواته ومطامعه، فيدفع أنصاره وأعوانه لمقارعة أنصار الحق، وقمعهم، ومقاومة دعوتهم فلا يتمّ له ذلك إلّا بأن يُهلك الحرث والنَّسْلَ بحروب ظالمة آثمة طاغية باغية، أو بأشكال من الفتن يحصل بها إهلاك للحرث والنسل.

فإذا صمَد أنصار الحقّ، وكانُوا قُوَّةً قادرة على مقاومة قوى الطغيان، واتّبَعُوا منهج الله في الدعوة إليه، والجهاد في سبيله ونصرة دينه حقّاً وصِدْقاً، نصرهم الله، لأنّه سبحانه لا يُحِبُّ الفساد، وبما أنّه لا يحبُّ الفساد فإنّه يُمِدُّ عباده المجاهدين في سبيله المؤمنين الصادقين، بالنّصر، ضمن سننه الثابتة، المبيّنة في دلالات كتابه المجيد، وسنّة رسوله الأمين، والّتي حقّقَتْها التجارب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾:

أي: وقد يتغلّبُ هذا الصنف الطاغي الباغي لقلّةِ أنصار الحقّ وضعفهم وتفرُّقهم، أو لأنهم لم يُحقّقُوا في أنفسهم الشروط المطلوبة لنصر الله لهم بحسَب سُنَنِه الثابتة.

عندئذٍ تقتصر أعمال الدعاة إلى الحقّ على مستوى الجرأة الأدبيّة، ومقابلة الطاغي بالنصح، فإذا قال له مؤمن ناصح: اتق الله، أخذتْه العزّة ـ أي قوّتُهُ الغالبة ـ المقترنة بابتغاء الإثم، فسارت به في طريق الكبر والطغيان والفجور، بعيداً عن مواطن طاعة الله ورحمته وغفرانه وعفوه، فرفض دعوة الناصح الصادق الأمين، وربّما سطا عليه وبغى، وربما زاد فساداً في الأرض وطغياناً، وإهلاكاً للحرث والنسل. ويظلُّ هكذا حتّى تأخُذَهُ عزّةُ الله وقدرته بجرائر آثامه، فتهلكه، ثُمّ تقذف به في جهنم.

ولكن هل من سبيل لأنصار الحق ودعاته، قبل أن يأخذه الله بحكمته أَخْذَ عزيز مقتدر؟

الحلّ: تركُه في الحالة الراهنة لله عزّ وجل، فالله هو الذي يتولّى الأمر بحسب حكمته في عباده في الحياة الدنيا، أمّا في الآخرة، فحسبُ هذا الطاغي الباغي جَهَنَّمُ وبِئْسَ المهاد.

أمّا على المدى البعيد فعلى المؤمنين الصادقين أن يُعِدُّوا الْعُدَّةَ المكافئة لنُصْرَةِ الحق، وإزهاقِ الباطل، وإسْقاط أهْلِهِ من ذوي السلطان، وقَمْعِ جنودهم وأنصارهم، وتبديد قواهم.

وعندئذٍ يظهر فريق مجاهد في سبيل الله باللّسان والقوة فيبيعون أنفسهم لله مجاهدين، ابتغاء مرضات الله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

في هذه الآية إيماءٌ ضمنيٌّ إلى ضرورة إعداد العدّة الكافية الوافية للقيام على الطاغي المتسلّط.

فإذا استكملوا الشروط اللازمة لتحقيق النصر، وإسْقاطِ الظلم، وَإقامةِ العدل، وقاموا متوكلين على الله ذي العزّة الحقيقية الدائمة، نظر الله إليهم بعين الرأفة، فأمدّهم بتأييده ونصره، وخذل الطاغي وأنصاره وأعوانه، وجعل لأوليائه التمكين في الأرض، واستخلفهم استخلافاً محفوفاً بالعناية والتأييد، كما استخلف الذين من قبلهم.

● ● ●

النصّ السادس

من سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) ثاني سورة مدنية
الآيات من (٤٩ ـ ٥٥)
حول قول المنافقين بشأن البدريّين من المؤمنين
إبّان غزوة بدر: غرّ هؤلاء دينهم

نزلتْ سورة (الأنفال) بعد غزوة بدر الكبرى، وقد اشتملت على تعقيبات وبيانات وأحكامٍ وإرشادات وتوجيهات ومُسْتَخْلَصات، حول أحداث هذه الغزوة.

وكان لا بُدَّ أن تَتعرّض هذه السورة لبيان ما كان من المنافقين، ومن الذين في قلوبهم مرض دون النفاق، ومن التعقيب عليه بما يُعمِّق المفهومات الدينيّة، ويَرُدُّ الشُّبهات.

إنّ المنافقين، والذين في قلوبهم مرض دون النفاق، كالشك، لم يخرج منهم أحد مع الرسول ﷺ لهذه الغزوة، وذلك لأنّ الرسول ﷺ ندب المسلمين ندباً لاعتراض قافلة قريش، ومصادرتها، بتخيير دون إلزام، وما كان ظنُّهم أنّهم سَيَلْقَوْنَ حرباً مع جيش خرج للقتال من مكة، فخرج من خَفَّ للأمر ونشط له.

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يخفّون ولا ينشطون ما دام الأمر ندباً لا إلزام فيه.

بيد أنَّ الأنباء كانت تَصِل تباعاً إلى المدينة وإلى مكة وإلى غيرهما، على ألسنة الغادين والرّائحين.

وقد خرجت قريش بجيش قوامه قرابة ألف مقاتل لمنع المسلمين من مصادرة قافلتهم، واتّجهوا شطر ماء بدر.

وانْحرفَ قائد القافلة أبو سفيان بن حرب عن الطريق الذي يترصَّدُهُ المسلمون، فنجا بها.

وتحوّل الأمر من مصادرة القافلة إلى مواجهة جيش مقاتل مختالٍ بعدده وعُـدّته، فقد كان المسلمون قلّةً في عددهم وعُـدّتهم، وكـان المشركون كثرة بالنسبة إلى المسلمين، في عددهم وعُدّتهم.

ولمّا كانت الأنباء تسري، وتتصل تباعاً إلى المدينة وإلى مكة، فلا بُدَّ أن يكون للناس على اختلاف عقائدهم وولاءاتهم مواقف مختلفة.

* فالمؤمنون المسلمون يدعون الله ويتضرّعون إليه أن ينصر الرسول والذين معه في مواجهة العدوّ عند ماء بدر.

* والمشركون مطمئنون إلى قُوّتهم، وتَفوُّقِهِمْ في عَدَدِهم وعُدَدِهم.

* أمّا المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، فقد أبان الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال) موقفهم الذي دلّت عليه عبارتُهُم التالية:

﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ....﴾.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ
يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً
أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ
وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا
ظَالِمِينَ (٥٤) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥)﴾.

* * *

(١)
الفكرة العامّة للنصّ

قال المنافقون، وقال الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، وهو مرض الشّك والتردُّد مع أنّهم منتسبون إلى الإسلام لكنْ لمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قلوبهم: غَرَّ هؤلاء الذين خرجوا لاعتراض قافلة قريشٍ ومصادَرتها، غَرَّهُمْ دِينُهُم، فتورطوا وأَلْقَوْا أنفسهم بأيديهم إلى التهلكة، ودفعوا بأنفسهم إلى مواجهة جيشٍ قويّ لَا قِبَلَ لهم به، ولَيْسَتْ قُوَّتُهم مكافئة للصمود له، فضلاً عن الانتصار عليه.

فأبان الله عزّ وجلّ أنّ مقالتهم باطلةٌ ساقطة، ببرهان الواقع، ولا أدلَّ على الحقيقة من برهان الواقع.

فالرَّسُولُ والذين خرجوا معه إلى بدر قد انتصروا مَعَ قلّتهم عدداً وعُدَّةً، ومَعَ كَثْرةِ عدوّهم عدداً وعُدَّةً وتمويناً، ومَعَ اعتزازهم وكبريائهم وخُيَلائهم وجبروتهم.

وقد أمّد الله القلّة المؤمنة بجنودٍ من الملائكة يضربون وجوه الكافرين وأدْبَارَهم، فيذوقون العذاب على أيديهم، حتّىٰ يُوقِعُوهم صَرْعىٰ قتلىٰ، فَيَتَوَفَّوْهم، ويقال لهم: ذُقْتُم في المعركة عَذَابَ الضربِ والقتلِ، وذُوقُوا يومَ الدِّين عذابَ الحريق، في جهنَّمَ وبئسَ المصير، ذلك بسبب ما قدَّمَتْ أيديكم الكاسبةُ من أعمالٍ ظالمة آثمة، عوقبتم عليها بالعدل والقسطاس المستقيم، ومَا ظلمكم ربُّكم مثقال ذرة، فالله عزّ وجلّ لا يظلم أحداً شيئاً، وليس هو بظلّام للعبيد في أيّ شيءٍ يتعلّقُ بهم، بل هم الظالمون لأنفسهم في الحقيقة، لأنّهم جَنَوْا على أنفسهم بمعاندة الحقّ، ومقاوَمَتِه، وبارتكاب الظلم والبغي والعدوان ومعصية الرسول.

وهذا الذي جرىٰ للمشركين في معركة بدرٍ إنّما هو تطبيقٌ لسُنّةٍ من سُنَنِ اللّٰهِ الدّائمة التي لا تبديل لها ولا تحويل.

فَشَأْنُ الله في عباده كذلك، إنّ مظهر سُنّتِهِ الّتي جرَتْ لمشركي قريشٍ على قَدْرِ حَاجَةِ العقوبةِ يومئذٍ، وعلى قدر ما تقضي به الحكمة، يُشْبِهُ مَظْهَر سنّتِهِ الّتي جَرَتْ فيما مضَىٰ من القرونِ الأولى لآلِ فرعون والّذين كفروا بآيات اللّٰهِ البيانية بسبب كفرهم

بها، فأخذهم اللهُ بذُنُوبهم بألوانٍ من العذاب الجزئي غير الشامل، والذي كان على قدر حاجة العقوبة التأديبية، وعلى قَدْرِ ما تقضي به الحكمة.

وما ينتظرهم من إهلاك شامل عامٍّ إذَا وَصَلُوا إلى مرحلة اليأس من صلاحهم أو صلاح بعض منهم تِباعاً يُشْبِه مظهَرَ سُنَّتِهِ التي جرتِ لهؤلاء المهلكين الأولين أنفسِهِمْ بِسَبَبِ تَكذيبهم بآياتِ اللّهِ التكوينيَّةِ الجزائية العقابيَّةِ وغيرِها من الخوارق والمعجزات، فاستَحَقُّوا الإهلاكَ الشاملَ بسبب ذُنُوبهم، وعدمِ اتِّعاظِهم بألوان العقاب الجزئي المماثل لما حصل للمشركين في بَدْر.

أي: فإذا لم يتّعِظ المشركون بما جرى لهم في بدرٍ من عقاب جُزْئِيّ تأديبيّ غير شامل، وكذَّبوا بهذه الآيات الجزائية، واستمرُّوا على مقاومتهم لرسالة الرَّسُول، فإنّ الله يُهْلِكُهُمْ إهلاكاً عامّاً شاملاً، كما أَهْلَكَ عاداً بالريح الصرصر العاتية، وكما أهلكَ ثمودَ بالصيحة، وكما أهلك آل فرعون بالإغراق في البحر.

ومع أنّ الله عزّ وجلّ لَمْ يخلُقْ عباده ليهلكهم، بل ليبلوهم، لكنَّهُمْ إذا وَصَلُوا إلى حالةٍ صاروا فيها شرّاً حقيقيّاً مدمّراً حتّى لَا تُرْجَى مِنْهم تَوْبَةٌ ولا استغفار، ولا صلاح، كان إهلاكُهم في الحياة الدنيا إهلاكاً شاملاً هو الحكمة، وعندئذٍ تتحقق فيهم سُنَّةُ اللّهِ في الإهلاك الشامل، كشأنِ الله عزّ وجلَّ في إهلاكِ أُمَّةٍ من دَوابِّ الأرض يَكْثُرُ شرُّها وفسادها، وتدميرها، وتخريبها، وتَسَلُّطها عَلَى الحرث والنسل، فَيُسَلِّطُ عليها ما يُبيدها، حتى يرجع ميزان الكائنات إلى حالة الاعتدال المتوازن، الذي لا يطغى فيه نوع على نوع، ولا جنسٌ على جنس، ممّا قضى الله ببقائه، ولم يأتِ أجلُ إنهاءِ أُمَّتِهِ.

لكنَّ شرَّ الدّوابِّ التي تستَحِقُّ هذا الإهلاكَ العامَّ الشامل هُمُ الكافرون من الناس، الذين وصلُوا إلى حالةٍ من العناد والإصرار والظلم والطغيان ميئوس من صلاحها عن طريقِ إراداتهم بتوبتهم واستغفارهمْ وإنابتهم إلى ربّهم بالإيمانِ الذي يُرجَىٰ معه إصلاح العمل، وتركُ الظُّلم والطغيان والبغي في الأرض بعد ذلك.

وإذا كان هؤلاء هم شرّ الدواب فهم أحقُّ بأن يُسلِّط الله عليهم ما يكون به هلاكُهم الشامل.

هذه هي سُنَّةُ الله، فاعتبروا يا أولي الألباب.

* * *

(٢)
المفـرداتُ اللُّغويـة

﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾:

هُمْ فئة غير المنافقين بدليل عطفهم على المنافقين، مع أنّ المنافقين في قلوبهم مرض، لكنّ المرض الذي في قلوبِ المنافقين مـرض خُلُقيٌّ شَنيعٌ أوصلهم إلى ركـوب مركب النفاق جازمين بأن يكون ظاهرهم على خلاف باطنهم.

أمّا هذه الفئة فلم تنافق ولكنّ منهم من كان لَدَيْهم ميل إلى الإسلام، وقد أنْتَمَوْا إلى الإسلام صَادِقين، غير أنّ الإيمانَ لمّا يدخلْ في قلوبهم، فمـرضُهم إذاً هو من قبيـل مرض الشّكّ في صحّة القاعدة الإيمانيّة، ومرضُ عـوارض الشبهاتِ الّتي تُـورِثُ القلَقَ والحيـرة، مع الـرغبة في السـلامة والحـرص على النجاة من عـذاب الله، والرغبـة في الحصول على الأجْرِ الموعود به لأهلِ الإيمان والإسلام، إذا كان الأمر حقّاً.

وقد جاء ذكر هذه الفئة في عدّة نصوص قرآنية منها مـا في الآية (١٢) من سـورة (الأحزاب/ ٣٣) والآية (٦٠) منها والآية (٥٣) من سورة (الحج/ ٢٢).

وجاء ذكرهـا ضمن عموم الـذين في قلوبهم مرض، وهـو المرض من المستـوى الشديد، والمستوى الذي من دونه، كما في الآية (٥٢) من سورة (المائدة/ ٥).

﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾:

يقال لغة: غرَّه يَغُرُّه غرّاً وَغُروراً وَغِرَّةً، فَهُو مَغْرُورٌ وغريـر، أي: خَدَعَـهُ وأطْمَعَهُ بالباطل.

والمعنى: خـدعَ هؤلاء الذين خـرجـوا إلى بـدر من المسلمين دينُهم، وأطمعهم بالباطل، فاندفعُوا إلى تهلُكَتِهِمْ.

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾:

الأدبار جمع الدُّبُر، وهو في اللُّغة الظهرُ، والاسْتُ (وهو الْعَجُزُ، وقَدْ يُرادُ به حلَقَةُ الدُّبُر).

وعن مجاهد، وسعيد بن جبير أنّ المراد من أدبارهم أستاهم، ولكِنّ الله كريمٌ يُكَنِّي.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾:

ظلّام: صيغة مبالغة، والأصل أنّ نفي صيغة المبالغة لا يُفيد نفي الوصف من دون مبالغة، فحصل في هذا إشكال عند بعض المتدبرين لكتاب الله.

وأقول: لقد جاء في النصوص القرآنيّة نفي الظلم عن الله ولو كان بمثقال ذرّة، وجاء فيها أنّ الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكنّ الناس أنفسهم يَظْلِمُون. فَنَفْيُ كُلِّ الظلْم عن الله عزّ وجلّ منصوصٌ عليه حتماً.

بقي أن نفهم السرّ في استعمال صيغة «ظَلّام» هنا، وفي أربعة مواضع أخرى من القرآن: (١٨٢) آل عمران/ ٣ ـ (١٠) الحج/ ٢٢ ـ (٤٦) فصلت/ ٤١ ـ (٢٩) ق/ ٥٠ ـ (٣٣) الإسراء/ ١٧.

والجوابُ الأحسنُ هو أنّ مَنْ يظلم مَجْمُوعَةً من النّاس بأدْنَى ظُلْمٍ لكلِّ واحدٍ منهم أو لعَدَدٍ كبير منهم، فهُو يَسْتَحِقُّ أنْ يُقال بشأنه «ظَلّام». وللدّلالة على هذه الفكرة، وتحذير كلّ ذي سلطان، وكُلِّ من يستطيع أن يَظلم عدداً كبيراً من الناس، بسلطانه أو بحيلته ووسائل مكْره، من أنّه إذا فعل ذلك كان ظلّاماً، واستحقّ بعمله عُقُوبَةَ الظّلّامِينَ، لا مجرّد عقوبة الظالمين، استخدم القرآن كلمة [ظلّام] مضافة إلى الجمع.

فجاء الأداء التعبيري مطابقاً في دلالته للواقع بالتكافؤ، فهو سبحانه لا يظلم أحداً شيئاً، وليس بظلّام للعبيد الذين هم جمع، وسوّى سبحانه في هذا الموضوع نَفْسَهُ بخلقه، وفي هذا غاية العدل، وغاية الروعة في الأداء البياني.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

الدأْبُ: العادةُ والشأن. والمرادُ: كشأن الله وعادته الثابتة المعروفة عنه في عقوباته للأمم السابقة.

أي: كَسُنَّتِه فيهم، وهي سُنَّةٌ متكرِّرةٌ في كُلِّ الأمم.

والمعنى: عاقب الله المشركين في غزوة بدرٍ بأيدي المؤمنين، وبجنود من الملائكة مُسَوِّمين، على مجرى سنته التي سبقت أمثالُها في آل فرعون والذين من قبلهم حتى قوم نوح عليه السلام.

والكلام على تقدير: كدأب الله في عُقُوبَةِ وإهلاك آل فرعون والذين من قبلهم، باعتبار أنها ظواهر جزائيَّة متكرِّرة.

فالعقوبة والإهلاك من الله عزّ وجلّ، فالأمرُ إذاً سُنَّةٌ من سُنَن الله التي لا تعطيل لها ولا تبديل ولا تحويل.

فالتعبير هنا يفيد ما يفيده قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾:

الهلاكُ: الموت. والمرادُ إماتَتُهُمْ إماتَةً جماعيَّةً بوسائل فيها تعذيب لهم، وإهانةٌ وإذلالٌ، ومَحْقٌ.

﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾:

جاءَ في هذا بيانُ وَسيلَةِ إهلاكهم، لأنَّهُمْ ذُكِرُوا بصَريح العبارة فيما سبق، بخلاف المُهْلَكِينَ الآخرينَ، فإنَّهُمْ لَمْ يُذْكَرُوا بصريح العبارة، وإنَّما ذُكِرُوا بوَصْفٍ عامٍّ شامل هو:

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

* * *

(٣)
ما رُوي في سبب النزول

(١) روى الطبريّ بسنده عن عامر حول الآية الأولى من هذا النص، قال: كان

ناسٌ من أهل مكّة تكلّموا في الإسلام (أي: تكلّموا في رغبتهم في الإسلام واتّباع الرسول ﷺ) فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلمّا رأوْا قلّة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

(٢) وروى الطبريّ بسنده عن مجاهد قال في الآية: «فئةٌ من قريش: قيْسُ بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلّب، وعليّ بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبّه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكّة، وهم على الارتياب، فحبَسَهُمْ ارتيابُهم، فلمّا رأوْا قلّةَ أصْحابِ رَسُولِ الله ﷺ قالوا: غَرَّ هؤلاء دينهم، حتى قَدِموا على ما قدِموا عليه، مع قلّة عددهم وكثرة عدُوّهم».

من الظاهر أنّ ما ذُكر في هاتين الروايتين يشير إلى مقالة الذين في قلوبهم مرض، لا إلى المنافقين.

ومن البدهيّ أن ندرك أنّ المنافقين في المدينة، والذين في قلوبهم مرض فيها أيضاً، قد قالُوا هذه المقالةَ نَفْسَها، أو عبارةً بمعناها، لأنّ الكافر في باطنه، وكذلك الشاكُّ لا بُدَّ أنْ يقولَها إبّان المعركةِ القائمة، فالدّلائلُ المادّيّة في كُلٍّ منَ الفئتَيْن المتقاتِلَتَيْن تدلُّ على أنَّ النصر سيكون لصالح من يملكون القوّةَ عَدَداً وعُدَّةً حتْماً، وإذا كان الأمر كذلك فالمسلمون متورطون، وقد غرَّهم دينُهم.

هذه الكلمة لا بدّ أن يقولَها المنافقُ، بلسانه أو بقلبه، إنّ طبيعة نفاقه وما يُفْرِزُهُ النفاق عادةً، سيَدْفعه تلقائيّاً إلى أن يقولَها.

* * *

(٤)

مع النّصّ في التحليل

في هذا النّص بيانٌ لموقف من مواقف المنافقين، يشاركهم فيه الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، وهو في قضية الإيمان مرضُ الشّكّ، وعَدَمِ ثباتِ الإيمان واستقراره في القلوب.

هذا الموقف يظهر عند مُواجَهة المؤمنين للكافرين في قتالٍ جادّ، وتكون قُوىٰ المؤمنين في المقاييس السببيّة الماديّة أقلّ من قُوى الكافرين، كما كان الحال في غزوة بدرٍ الكبرى، إذْ كانَ المؤمنين (٣١٣)[١] وكان الكافرون قرابة الألف، وكانت فوارق القُوَىٰ العتادية والتموينيّة أكثر من هذه النسبة.

في مثل هذا الموقف لا بدّ أن يقول المنافقون وأشباههم، الذين لا يؤمنون بالقوىٰ المعنويّة الإيمانيّة، ولا بالقُوىٰ الغيبيّة التي يؤيّد الله بها أولياءه، وينصرُهُمْ بها على أعدائه، ويُعَدِّلُ بِها ميزان تفاوُتِ القوىٰ الماديّة التي يَرْجَحُ بها الكافرون رُجحاناً ظاهراً، لا بُدَّ أن يقول المنافقون وأشباهُهم عندئذٍ مقالةً تنسجم مع نظرتهم غير الإيمانيّة.

إنّهم بحساباتهم الماديّة يُقَدِّرونَ أنَّ الكثرةَ ستنتصر على القلّة لا محالة، إذاً فما الذي يدفع هؤلاء المؤمنين لإلقاء أنفسهم بالتهلكة الواضحة الّتي لا أمَلَ فيها بالظفَر والنّصر؟

بالتفكير الماديّ يَرَوْنَ أنّ المؤمنين في غُرورٍ من أمرهم، ويقولون في أنفسهم: ما الذي غرّهم، وقد كانوا مِثْلَنا بالأمس القريب وقبل أن يؤمنوا بهذا الدّين، فقد كانُوا يفكّرون بمثل ما نفكّر به، ويقدّرون الأمور مثلَ تقديرنا؟

إنّ الجديد في الأمر عليهم هو دينهم الذي آمنوا به، فوعدهم بإحدى الْحُسْنَيَيْن في اعتقادهم، إمّا النصر في الدنيا مع الأجْرِ والثواب، وإمّا الشهادة والظفر برضوان الله والجنّة.

وبما أنّ هذه المفهومات لا يؤمن بها المنافقون، ولمّا يؤمنْ بها الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، فلا بُدَّ أن يعتبروها من قبيل الغرور، أو التغرير بهم، فهم بها يندفعون إلى تهلكتهم.

إذاً: فهم يقولون بعد هذه التحليلات الماديّةِ الصِّرْف: غَرَّ هؤلاء دينهم. أي:

---

(١) أو أكثر من ذلك قليلاً: (٣١٤) أو (٣١٧) أو (٣١٩)، والعدد الأخير جاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب.

خدعهم وأطمعهم وورطهم في التهلكة ما آمنوا به من هذا الدين الذي لا أساس له من الحقيقة، أو هو أمْرٌ مشكوك فيه.

إنّ حساباتهم وتقديراتهم مادّيّةٌ سطحيّةٌ ظاهريّة بحت، بعيدة عن المفهومات الإيمانيّة، وبعيدةٌ أيضاً عن شواهد التاريخ التي سبقت للمؤمنين أتباع الرُّسل، وبعيدةٌ عن الاعتبار بها، فقد أثبتت هذه الشواهد أنّ المؤمنين بالله واليوم الآخر، الملتزمين بسُنَنِ الله التكوينيّة، وبياناته التعليميَّة، لَدَيْهِمْ مَزيدٌ على قوى غيرهم من جهتين:

الأولى: شِحْنات القوى المعنوية الإيمانيّة التي تُضيفُ إلى القوى المادّيّة قُوىً احتياطيّة كمينةً في الإنسان، وتحجُبُ المثبّطات والمضعفات كالجبنِ والخوف والشكّ والحيرة والتردّد، عن أن تتحرّكَ وتنشَطَ أثناء معارك القتال فتُلْغِيَ أثَرَ نِسْبَةٍ كبيرة من القوى المادّيّة التي كانت حاضرةً منظورة داخلةً في الحسبان.

الثانية: القوى الغيبيّة الرّبّانية المؤيِّدة والمثبِّتة، وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّه قد أيّدَ المؤمنين في بدر وأمدَّهم بآلاف من الملائكة، للمعونة والتثبيت، لا للقيام بكلّ المهمّة.

لقد قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض: «غَرَّ هؤلاءِ دِينُهُمْ» وكرّروا هذه المقالة بدليل الفعل المضارع في: ﴿إِذْ يقولُ المنافقون...﴾ قبل أن تنتصر القلة المؤمنة في بدر على الكثرة الكافرة، تقديراً منهم بأنّ النّصر سيكون للكافرين، وأنّ الهزيمة والهلكة ستحلّان بالمؤمنين، وهو حُكْمٌ منهم مبنيٌّ على الظواهر السببيّة المنظورة.

فكان الردّ الرّبّانيُّ العملي بقلب موازين القُوى لصالح المؤمنين، ونصرهم نصْراً مؤزّراً عظيماً على مُشْركي قُرَيش، وجيشهم المستكبر المختال.

وكان الرّدّ الربّانيُّ القوليّ عقب حكاية مقالة المنافقين والّذين في قلوبهم مرض، يتلخّص بثلاثة عناصر:

الأوّل: بيانُ العقيدة الإيمانية الفكرية بالنسبة إلى هذا الموضوع، وهي: أنّ من يتوكّل على الله صادقاً في توكُّله، ملتزماً منهاجه وصراطه المستقيم، تولّاهُ الله بتأييده ونَصْرِه، وما النصْرُ إلّا من عند الله، واللّهُ عَزيزٌ قويٌّ غالب، حكيمٌ في تصاريفه

بمقاديره، يضعُ النَّصْرَ بحكمتِهِ في الجهةِ التي تستحقّ النصرَ على ما يَعْلَمُ مِنْ بَواطِنِ الأُمورِ، وغاياتها، وآثارها التربوية، أو التأديبيّة، أو الجزائيّة.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النص:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

الثاني: بيانُ نتيجة المعركة التي ظنّ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون المجاهرون بكفرهم، قَبْلَ بَدْئِها وأثناء قيامها، أنَّ الهلكة ستكون فيها للقلّةِ المؤمنة، وأنّ النصرَ سَيَكُونُ للكَثْرَةِ المشركة.

إذْ قَلَبَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها بتأييدٍ مِنْ عنده مَوازِينَ القوى فنصَرَ المؤمنين على المشركين، وأمَدَّ المؤمنين بجنُودٍ من الملائكة، فقاتلوا أعداء الله مع أوليائِهِ بِنِسَبٍ مِن القُوى القتاليّة محدودة، لا بقُوىً ملائكيّةٍ كَقُوى الملائكة المُرْسَلَةِ لإهلاكِ قوم لوط.

دلّ على هذا من النصّ قول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

ودلّ عليه أيضاً بعض ما جاء في السورة قبل هذا النصّ، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

فحدَّدَ الله للملائكة مَقاديرَ أعمالهم في نُصْرة المؤمنين، فهي مقاديرُ للتّثبيتِ، لا لِلقِيَامِ بكُلِّ المهمّة، وفي حدود ضَرْبٍ فَوْقَ الأعْناقِ، لإضْعافِ الرؤوسِ وإلقاءِ الرُّعْبِ، وضَرْبٍ عَلَىٰ الْبَنانِ لإضعافها عن قبض الأسلحة، ويرى بعض أهل التأويل أنّ الخطاب في (فاضربوا) موجّه للمؤمنين.

أمّا عند قبض الأرواحِ وَتَوَفّي أنْفُس الصَّرْعَىٰ مِنْهُم فالملائكةُ يَضربُونَ وُجوهَهُم

إهانةً وإذلالاً، لأنهم صرفوها عن الحق ويَضرِبُون أدبارَهُمْ إيلاماً وتعذيباً، فآلام الأدْبار من أشدّ أنواع الآلام، ولأنهم أعطَوْا أدبارهم للحقّ بدل وجوههم.

ويقال لهم: وذوقُوا عَذابَ الْحَرِيق، أي: ذوقُوا هذا العذابَ وذوقوا عذابَ الحريق أيضاً.

فَهَلْ هم مع الضرب يمسُّهم عذابٌ فوقَ الضَّرب هو من نَوْع عذاب الحريق، كحريقِ الشّراراتِ الكهربائية، وهذا هو الأظهر فيما أرَىٰ، أو: وذوقوا بعد الموت في مُدَّة البرزخ عذاباً هو من نوع عذاب الحريق. أو: وذوقُوا يوم الدِّين بعد البعث والحساب عذاباً في جهنم هو عذابُ حريقٍ فيها.

كلُّ ذلكَ محتمل، وقد يكون كلُّ ذلكَ متحقّقاً والله أعلم.

الثالث: بيانُ أنّ هذه العاقبة للكافرين ليست هي من قبيل المصادفة، ولا هي حَدَثٌ شاذٌ لا نظير له في مجرىٰ التاريخ الإنساني، بل هي سُنّةُ اللّهِ في عباده.

ألَمْ يُهْلِكِ اللّهُ عزَّ وجلَّ آل فرعون، والّذين كفروا من قبلهم، انتصاراً لرسُله، وللمؤمنين معهم؟

لقد أخذهم اللّهُ بذنُوبِهِمْ إنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شديدُ العقاب.

فلقد كانُوا في نعمة المال والسلطان والقوة في الأرض، ثمَّ جاءتهم نعمة الرُّسُل والدّعوة إلى الإيمان بالحقّ الذي يمنح الطمأنينة، والدّعوة إلى صراط الله المستقيم الذي يُحَقِّقُ لهم الراحة وطمأنينة القلب والعافية في الدنيا، ثمّ النجاة من عذاب الله، والفوزَ والسعادة بجنّاتِ النعيم يوم الدين.

فغيَّرُوا ما بأنفسهم تُجاه هذه النعمة، إذْ عَمِلوا بنقيض ما هدتهم إليه بياناتُ الرسول ومعجزاتُه ودامغاتُ حُجَجه وبراهينه، وعَمِلوا بنقيض ما هدتهم إليه دلائلُ عقولهم وموازين أفكارهم التي فطرهم اللّهُ عليها، والتي يُدْرِكُونَ بها الحقَّ إذا أُقِيمَتْ لَهُمْ أدلّته وبراهينه، وعَمِلوا بنقيض ما فُطِرتْ عليه نفوسُهُم من نُزوع ضمائرهم إلىٰ الإيمان باللّهِ وعبادته.

وإذْ غيَّروا بذلك ما بأنفسهم، من سلامة الفطرة الرَّبّانيّة، ومسخوا إنسانيّتهم

المكرّمة بأصل الخلق، ووضعُوا بدلَ قواعد الفضيلة في فطرتها، جحوداً وكِبْراً وَرغْبَةً في الْفُجور، ونكَسُوا فطرتهم، وانْحَدَرُوا بتكوينهم النَّفْسِيّ إلىٰ أَسْفَلِ سافلين، حَتَّىٰ صَارُوا شرَّ الدَّوَابّ عند الله، وأضلَّ سبيلاً من الأنعام، لأنّ كفرهم قد كان نتيجة إرادةٍ للكفر والجحود، لا جهلاً بدلائل الإيمان، ولا جهلاً بأنَّ الله حقّ، والرَّسُولَ حقّ، وما أُنْزِل من عند الله على لسانِ رسُلِه حقّ، لذلك فهم لا يؤمنون مَهْمَا قُدِّمَتْ لهم من أدلّة وَبيانات.

فاستحقُّوا أولاً بمقتضى حكمةِ اللّهِ وعَدْلِهِ، أنْ يسلُبَهُم الله بَعْضَ النِّعم الَّتِي كان قد أنعم بها عليهم، وأن يسلّط الله عليهم بعض أسْواط التأديب والتربية والتذكير والإنذار، ليرجعوا عن غيّهم، ويتوبوا إلى بارئهم، فلَمْ يَرجعوا وعلّلوا ما جرىٰ لهم من عقوبات جُزْئيّة، وجزاءات تأديبيّة منذرة، بأنّها ظواهر طبيعيَّةٌ تجري نظائرها دواماً وتكراراً في مجرى الأحداث الكونيّة، وليست عقوبات وجزاءاتٍ ربّانية مقصودة للتأديب والإنذار، دلَّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ولمَّا لَمْ يَتَّعِظوا بالعقوبات والجزاءات الرّبّانيّة التأديبيّة الإنذاريّة، التي لم تصلْ إلى الإهلاك العامّ الشامل، واستمرُّوا على كفرهم وظُلْمِهم، وكذَّبُوا بهذه الآيات من آيات الله التأديبيّة كآيات الدّم والضفادع والقُمّلِ والأخذ بالسنين العجاف الّتي كانت لآلِ فرعون، أنزل الله عليهم ما تَمّ بِهِ إهْلاَكُهُمْ إهلاكاً عامّاً شاملاً، كالريح الصرصر العاتية على عاد، والصيحة المهلكة على ثمود، والحاصبِ المدمّر على قوم لوط، والاسْتِدْراجِ إلى البحر فالإغراق لآل فرعون وجنوده.

دلّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ويتساءل المتدبّر: لِمَ أنزَلَ اللّٰهُ عليهم هذا الإهْلاكَ الْعَامَّ الشّامِلَ، وهُمْ خَلْقٌ من خلقه، وعبيدٌ من عبيده؟

ويأتي البيانُ القرآنيُّ دالاًّ على أنَّ سُنَّةَ اللّٰهِ في الأحياء واجِدَةٌ، ومن سنّته في الأحياء أنَّهُ إذا وصلتْ أُمَّةٌ مِنْهَا في موقع من الأرض إلى مستوى من الإفساد العامّ الشامل، حتّى صارتْ طُغْياناً، وصار رجاء الخير في مقدار صالح للبقاء منها أمْراً ميؤوساً منه، كان من الحكمة التخلُّص منها بالإهْلاكِ العامّ الشامل.

ومن هذه الأحياء الأقوامُ من البشر، بل هم إذا فسدوا فساداً عامّاً، وطغَوْا طُغْيَاناً عامّاً، ووصلوا إلى مرحلة اليأس من صلاحهم أو إصلاحهم بألوان التربية والتأديب، عن طريق اختياراتهم وإراداتهم الحرّة، كانُوا شرُّ الدَّوَابِّ على الأرض عند الله، بحسب علمه وحكمته وقضائه وقدَرِه، فكانُوا أحقَّ بالإهلاك العامّ الشامل من الحشرات والفواسق التي تتكاثر حتى تصل إلى مستوى الإفساد والتدمير، وتغيير موازين بقاء الكائنات، بأجناسها وأصنافها المختلفات.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

* * *

(٥)
تدبُّر النّصّ

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ...﴾.

جاء الحديث في سورة (الأنفال) عن عدّة مواقف كلٌّ منها مُصَدَّرٌ بكلمة «إذْ» ولفظ «إذْ» ظرف زمان، وهو أقلّ لفظ بعدد حروفه من ظروف الزمان، ويَسْهُل النُّطْق به، وهو يدلُّ على وقْتٍ مّا أو أوقات ما، دون تحديدٍ بقلّةٍ أو بكثرة.

قال النحاة: وهو ظرف للزّمن الماضي، ويجب إضافته إلى الجمل.

أقول:

ولعمومه وقلّة حروفه وسهولة النطق به كثر استعماله في القرآن.

ويظهر من سبْر النّصوص القرآنيّة أنّ الغرض من ذكر الزمن بحرف «إذْ» بيان ما جرى فيه، وجاء ذكر الزمن للدّلالة على أنّ الأمر حدثٌ جرى، وليس أمراً ثابتاً دواماً.

وبالتدبُّر العميق نُدْرِكُ أنَّ متعلّق هذا الظرف في القرآن ـ أي: العامل فيه ـ يختلف باختلاف المواطن، وقد يكون أحياناً محذوفاً، ويقدِّره المفسّرون بفعل «اذكر» أو «اذكُروا» إذْ قد جاء مصرّحاً به في بعض المواضع، مثل قول الله تعالى في سورة (الأنفال) خطاباً للمهاجرين:

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

لكن قد يكون تقدير فعْل «اذكر» في بعض المواطن التي لا يكون فيها المتعلّق مذكُوراً غير ملائم.

والمواقفُ الّتي صُدِّرَتْ بحرف «إذْ» قبل هذه الآية من سورة (الأنفال) هي ما يلي:

(١) ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ... ﴿٧﴾﴾.

(٢) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ... ﴿٩﴾﴾.

(٣) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ... ﴿١١﴾﴾.

(٤) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴿١٢﴾﴾.

(٥) ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ... ﴿٢٦﴾﴾.

(٦) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ .. ﴿٣٠﴾﴾.

(٧) ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا .. ﴿٣٢﴾﴾.

(٨) ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ... ﴿٤٢﴾﴾.

(٩) ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا . . . ﴿٤٣﴾ ﴾.

(١٠) ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا . . . ﴿٤٤﴾ ﴾.

(١١) ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ . . . ﴿٤٨﴾ ﴾.

ولكلّ مِنْها الْمُتَعلّق المناسبُ لهُ، مذكوراً أو محذوفاً، والمحذوف يمكن إدراكه وتقديره بالتدبّر والتأمل.

والمناسبُ فيما أرى بالنسبة إلى قول الله عزّ وجلّ:

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ . . ﴿٤٩﴾ ﴾.

أن يكون تقدير الكلام كما يلي: لَقَدْ نصرَكُمُ اللَّهُ إذْ يقول المنافقون. . .

. . . بدليل قول الله في آخر الآية:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾:

أي: فإنّ الله نَاصِرُهُ وإنَّهُ عَزِيزٌ حكيم.

وقَدْ جَاءَ بيانُ هذا الكلام الْمَطْويّ، والَّذي يمكن أنْ يُقدَّر فَهْماً، في قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) تعقيباً على أحداث غزوة أحد:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

والمشار إليه باسم الإشارة ﴿هؤلاء﴾ هم المؤمنون مع الرسول في بدر.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

في هذه الجملة بيان لِبُطلان مقولةِ المنافقين والذين في قلوبهم مرض، فكراً واعتقاداً.

﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم يجزم فعلين أوّلُهما فعل الشرط، والآخرُ جوابُه وجزاؤه.

وقد ذُكِرَ في الآية هُنا فعلُ الشرط فقط، وهو ﴿يَتوكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾ وهو مجزوم.

والتوكُّل: تفويضُ القلْب واستسلامُهُ الكاملُ لله عزّ وجلَّ، مع القيام بكل الأسباب الّتي أمر الله باتّخاذها لتحقيق المطالب ضمن سُنَنِهِ التكوينيَّة، فهو وظيفة قلبيّة فقط من الوظائف الإيمانية للقلوب، وليس وظيفة من أعمال الجوارح الظاهرة، والتخطيط لها، والتفكير فيها، واتّخاذ التدابير اللازمة للقيام بها، فهٰذه لها واجبات عمليّة غيرُ التفويض والاستسلام، واللّهُ يأمر بها، والمفرّطُ بها عاصٍ لأمر الله.

هذا فعلُ الشرط، فأينَ جوابُه؟

بالتدبُّرِ نَرَىٰ أنَّه حُذِفَ لفظه، ولكن أشير إليه بالجملة المصدَّرة بالفاء الّتي تدخُلُ عادةً على جملة الجواب التي يمتنع أنْ تكون شرطاً، ومن هذه الجمل الجملة الاسمية، كجملة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فدلّ كونُ اللّهِ عزيزاً، أيْ قويًا غلاّباً، وكَوْنُ اللّهِ حَكيماً يضَعُ الأمور في مواضعها، على أنَّ اللّهَ يَنْصُرُ مَنْ يتوكّلُ عليه، متّخِذاً الأَسْبابَ الّتي أمر بها، وهذه سُنَّةٌ ثابتةٌ من سُنَنِ اللّهِ في عباده، ومن تطبيقاتها، ما حقَّقَ للمؤمنين في بدر من نصْرٍ مؤزّرٍ مَعَ قلّتهم وذِلّتِهِمْ.

* * *

١

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

وقرأ ابن عامر: [إِذْ تَتَوَفَّى].

في هذه الآية بيانٌ لبُطْلان مقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، بحدثٍ مَشْهُودٍ هو قَتْلُ من قُتِلَ من المشركين في بدر، وحَدَثٍ غير مشهودٍ للنّاس، وهو ضربُ قتلاهُمْ على وجوههم وأدبارهم من قِبَلِ ملائكةِ قبضِ الأرْواح حينَ يَتَوفَّوْنَهُمْ لتَذُوقَ أنفسُهم الموتَ، والإهَانَةَ والعَذَابَ، وما تمّ بعد ذلك من تحقيق النصر للمؤمنين.

وجاء التعبير عن الحدث غير المشهودِ للناس بعبارة: ﴿لَوْ تَرَىٰ﴾ أي: لو ترى أيُّها الرائي أيّاً كنتَ، لأذْعَرَكَ الْمَشْهَدُ، ولَهَالَكَ الأمر، لشدّته وما فيه من هَوْلٍ تَنْفَطِرُ منه القلوب، وهو أسلوبٌ للدلالة على هولِ المشهد.

وجواب الشرط «لو» محذوف، يُعْلَمُ مضمونُه من حالة حَدثِ ضرب الملائكة لهم على وُجوههم وأدبارهم، ويمكن تقديره بنحو، لهالَكَ المشهد. أو لرأيت مشهداً عجباً مخيفاً.

يتوفّى: التَوفّي: قَبْضُ الرُّوحِ، مع ملاحظة بلوغِ أعمارِهم غاية آجالها المقدّرة المقضيَّة، لأنّه يُقَالُ: تَوَفّى المدَّةَ إذا بلغ نِهايتَها، وتوفّى المالَ، إذا أخذه فلَمْ يُبْقِ منه شيئاً، وقضاء الله بإماتتهم في مصارعهم مقرونٌ بإنهاء آجالهم.

﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾:

﴿الّذين كفروا﴾ مفعول به مقدّم، و﴿الملائكةُ﴾ فاعلٌ مُؤخر، وقُدِّمَ المفعولُ به هُنا لأنّ الغرضَ التّنبيهُ على حالةِ قَتْلَى المشركين في بدر، فهم الأحقُّ بأولويّة الاهتمام، لا قابضو أرواحهم من الملائكة.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾:

جملةٌ في موضع الحال، أي: يتوفّونهم حالة كونهم يضربُونَ وُجُوهَهم وأدبارهم إهانَةً وإذلالاً وتَعذيباً.

واسْتُعْمِل الفعلُ المضارعُ في الجملتين لإحضار صورة الحدث الماضي في الذهن، كأنّه حدَثٌ يجري متكرّراً، أمّا تجديدُ الضَّرب وتكريرُه فهو لكل فردٍ منهم، إذْ كانت تتوالَى عليه الضربات، وأمّا تجديد التوفّي وتكريره فهو أمر يُلاَحَظُ تتابُعُهُ بالنسبة إلى مجموع الأفراد، إذْ لم يَحْدُثْ دُفعةً واحدة، وإنّما جاء تَوفّيهم متتابعاً، فحدَثُ التوفّي مُتكرِّر بالنسبة إلى الجميع، وإنْ كان بالنسبة إلى كلّ واحدٍ منهم واحداً غير متكرّر.

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾:

أي: ويقال لهم مع حَدثَيْ الضَّرْب والتَّوفّي: ذوقوا عذاب الحريق. **الحريقُ**: اضطرام النار، واللّهب، واسم من الاحتراق.

واستُعْمِلَ الذوقُ للدلالة على الإحساس الكامل بالشيء، لأنّ اللّسان أكثر الحواس إدراكاً مباشراً لأكثر المختلفات من الأشياء التي تُدركُ بالحسّ.

وقد سبق بيان احتمالات معنى هذه الجملة:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾:

المشار إليه هو ما جرى لهؤلاء القتْلَى من المشركين في بدر، والخطابُ لهم، وهو تابع لما يُقال لهم، واستُعْمِلَتْ إشارة البعيد للدلالة على عظم شأنه، وأنه جاءهم من ربّهم العليّ الأعلى.

أي: هذا الذي جرى لكم هو بسبب ما قدّمت أيديكم، أي: من عمل إراديٍّ كان من كسبكمْ، وهو كفرهم وتكذيبهُمْ وظُلْمُهم، وحربُهُمْ للرسول والمؤمنين معه.

وجاء في القرآن التعبير عمّا يكسِبُه الإنْسان بعمله في الحياة الدنيا من خيْرٍ أو شرٍّ بفعل «قَدَّم» وتصريفاته، لأنَّ كسْبَ الإنسانِ هو الذي يقدّمه أمامه لآخرته.

وفي مقابله جاء التعبير عمّا تركَ الإنسان من عمل في الحياة الدنيا، ومنه واجباتٌ يتركها بفعل «أخَّر» وتصريفاته، لأنَّ ما لم يعمله الإنسان في الحياة الدنيا قدْ أخَّرَهُ وأبقاهُ هُو وَزَمَنهُ في الماضي، فإنْ كان واجباً حُوسِبَ على تأخيره له.

وجاء استعمالُ «اليدين» و«الأيدي» كنايةً عن كُلِّ كسب إراديٍّ يكسِبُهُ الإنسانُ بإرادته الحرّة، لأنَّ عملَ الأيدي هُو أبرزُ مظهر مادّيّ للكسب الإراديّ، فيدخُلُ في عموم الكسب الإراديّ أعمالُ القلوبِ والنفوسِ الإراديّة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾:

أي: وهذا الذي جرى لكم هو بسبب صفةِ العدل الربّاني، ومظاهرها من الجزاءِ بالعقاب. وجاء التعبير عن العدل بنفي الظلم عن اللّهِ عزّ وجلّ، لأنَّ نَفْيَ الظُّلْمِ يشْمَل الجزاء بالعدل، ويشملُ أيضاً الجزاء ببعض حقِّ العدل، وهو المقرون بشيءٍ من الغفران والعفو والتسامح.

فدلَّ النَّصُّ ببيان السَّبَبَيْن على أنَّ تطبيقَ الجزاء بالعقاب له سببان:

السبب الأول: كَسْبُ الجاني.

السبب الثاني: عَدْلُ المجازي.

فلو لم يكن كسْبٌ فيه جناية وظلم لما حصل الجزاء بالعقاب. ولو لم يكن في الوجود مُجازٍ قادرٌ عادلٌ لما حصل الجزاء بالعقاب أيضاً.

فكان من دقّة البيان وروعته بيان السَّبَبَيْن معاً في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

وقد سبق بيان ما يتعلّق بصيغة ﴿ظلّام﴾.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

البيان في هاتين الآيتَيْن يُنَبِّه على العقوبات الجزائيّة الْجُزئية دون الإهلاك العامّ الشامل للقوم، وهي عقوباتٌ يراد منها التأديب والتبصرة والتذكير بعدلِ الله، والإنْذارُ بما هو أشدّ، كعُقُوباتِ الرِّجز الّتي أنزلها اللّهُ على فرعون وشعبه آياتٍ لموسَىٰ عليه السلام وهي: رِجْز السنين، ورجز نقص الثمرات، ورجزُ الطوفان، ورِجْز الجراد، ورجزُ القُمّل، ورجزُ الضفادع، ورِجْز الدّم، وكان لكلّ أمّةٍ أجرمَتْ عقوباتٌ تلائم جرائمها.

وأشار إلى أنّ أخذهم بذنُوبهم قد كان بحدود هذه العقوبات الجزئية، ما جاء في الآية الثّانية من التعبير بتغيير النعمة، أي: إلى مصائب في الأموال والأنفس، ومؤلمات من العوارض العامّة التي فيها صور مختلفات من العقاب، وكلُّ ذٰلِكَ دون الإهلاك العامّ الشامل.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾:

أي: كسُنّةِ اللّهِ في عِقاب كُفّارِ الأُمم الغابرة.

والمشَبَّهُ حالُ مُشركي قريشٍ وتطبيقُ سُنّةِ اللّهِ فيهم، كما طُبِّقَتْ في كُفّار الأمم

من قبلهم، فالمشبّه به حال كفّار الأمم السابقة، وتطبيقُ سنّة الله فيهم.

وسُنّةُ الله هذه فيها أوّلاً عُقُوباتٌ جزئيةٌ محدودة، وفيها أخيراً إهلاكٌ كُليٌّ شاملٌ، حين تنتهي ظروف امتحان القوم مع الإمهال الطويل، ويصلُون إلى درجة اليأس من تأثير وسائل إقناعهم وإصلاحهم.

والمعنى: دَأْبُ اللَّهِ وسُنّته في مُعَالجة ومُعاقبةِ كُفّارِ قريشٍ كدأبه في مُعَالَجةِ ومُعَاقبة كفّار أهل القرون الأولى.

فنصر الله المؤمنين عليهم في موقعةِ بدرٍ، وقَتْلُ بعضِ قادتهم وسادتهم، وأَسْرُ فريقٍ منهم، وجعل ما ساقوا من أموالٍ وسلاح غنيمةً للمسلمين، هو من صور العقاب الجزئي التأديبي الرَّبّانيّ لهم.

والإضافة في: ﴿كَدَأْبِ آل فرعون﴾ على تقدير محذوف بين المضافِ والمضافِ إليه، وبالتأمل استطعنا اكتشافه، وهو كدأب: أيْ كشأنِ وعادةِ وسُنّةِ اللَّهِ في عقاب آل فرعون والذين من قبلهم.

وهذا العقاب الْجُزْئيُّ قد كان بسبب أَنَّهم كَفَرُوا بآياتِ الله، ولا بُدَّ أن تكونَ هذهِ الآيات هي ما يلي:

(١) الحجج والبراهين المثبتة لقضايا الدّين، وصدق رسالة الرسول.

(٢) المعجزات وخوارق العادات التي أيّد الله بها رسُله.

(٣) آيات الله البيانية المنزّلة على رُسُلِه.

(٤) آيات الله التي فطر الله النفوس عليها، والتي تنزع بالنّفس الإنسانية من داخلها إلى الإيمان بالله وعبادته.

هذه الآيات كُلُّها قد كفرُوا بها مع إدْراكهم لدلائلها، فكفرهم بها كُفْر جُحودٍ لا كفرُ جهل، ومارسوا الأعمال التي هي من آثار كفرهم، وهي ذُنُوبٌ ومعاصٍ تدفعهم إليها أهواؤهم وشهواتهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

أي: فأخذهم الله من مواقع النِّعَم، ونَقَلَهُمْ إلى مواقع المصائب والآلام، بسبب ذُنُوبِهم، الّتي رَتَّبَ اللَّهُ عليها أنواعاً من العقاب المعجل في الدنيا.

والمعنىٰ: أنّ اللّٰه قد غير أحوالهم بهذا الأخذ، من أحوال الموسَّع عليهم بالنِّعَم، إلى أحوالٍ من الشَّدائد المؤلماتِ، تأديباً وعقوبة وإنذاراً بما هو أشدّ، وتبصرةً وذكرى، لعلهم يتوبون ويستغفرون من ذنوبهم، ويؤمنون برسول ربِّهم، وبما أنزل الله عليه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾:

في هذه الجملة الختامية للآية تذكيرٌ ببعض عناصر القاعدة الإيمانية بالله، وتثبيتٌ لها، من خلال ظواهر الأحداث التي تدلُّ عليها.

فكونُ الله قد أخذ هذه الأمم بذنوبها، فأنزل عليها ألواناً وصوراً من العذاب، وقلّبهم في المصائب والآلام ليَتُوبوا ويستغفروا، إنّما هو مظهرٌ لصفة قوّته وحكمته وعدلِهِ وشِدَّةِ عقابِهِ إذْ كان من مقتضيات علمه وحكمته أن يعاقبهم عقاباً شديداً.

وهو دواماً قويٌّ شديد العقاب فليحذر الكفّارُ وأهل كبائر الذنوب.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

دلّت هذه الفقرة على سُنّة مِنْ سُنَنِ اللّهِ الدائمةِ في خلقه، وهيَ أنّ الأصلَ إبقاءُ مجاري النِّعم الّتي يُنْعِم الله بها على أيّ قوم، بسبب مكافأتهم، أو امتحانهم وابتلائهم، ما دامت أحوالُ أنفسهم متمشّيةً مع فطرتها السليمة التي فطرها الله عليها، لم يُشوّهوها، ولم يَمْسَخُوها، ولم يعملوا على إفسادها، فإذا فعلوا ذلكَ التغييرَ في أنْفُسهم غيَّر اللّهُ لَهُمْ في مجاري نعمه، فسلبَ منها، وأنزلَ المصائب، ومسَّهُمْ بالضُّرّ، جزاءً وتذكيراً وإنذاراً.

﴿ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ . . . ﴾:

أي: ليس من شأن الله سبحانه وتعالى أن يُغيِّر نِعْمَةً أنْعمها على قوم ما. إنّ هذا سُنّةٌ من سننه عزّ وجلّ. لَمْ يَكُ: أي: لم يَكُنْ، ففي اللّسان العربي حذفُ هذه النون إذا كان الفعل مجزوماً بالسكون غير متصل بضمير نصب ولا بساكن.

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾:

أي: فإذا غيّروا ما بأنفسهم كما سبق في الشرح آنفاً غيّرَ اللّهُ في النِّعَم الّتي كانت مستمرّةَ الْمَدَدِ والعطاءِ فيهم، وهذا أيضاً سُنّةٌ من سُنَنِ اللّهِ عزّ وجلّ في الناس.

فهما سنّتان:

(١) سُنّةُ ثَباتِ النِّعم ما دامت الأَنْفُسُ على فطرتها.

(٢) سُنّةُ التغييرِ إلى الأَدْنىٰ وإلىٰ الضُّر إذا غيّر القوم ما بأنفسهم، بإفسادهم فِطَرَها، أو عَدَم استجابتهم لنداءاتها الوجدانيّة الْفُضْلَىٰ.

ذلك: المشار إليه بهذا الاسم من أسماء الإشارة في الفقرة، هو أَخْذُ الله لَهُمْ بذنوبهم، والمعنى: حصَلَ لهم ذلك:

بأنّ الله... أي: بسبب تطبيق هذا القانون من قوانين الله فيهم، وهو المشتمل على سُنّتَي الثبات والتغيير.

أَنْعَمَها: الفاعل ضمير مستتر يعود على «الله» والضّمير الظاهر مفعول به، يقال لغة: نعمةٌ أنعَمَها اللّهُ عليه، ونِعْمَةٌ أنعم الله بها عليه.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

أي: وهذا التغيير في مجاري النعم، وتبديلها ببعض مجاري الضّرّ والبؤس والنِّقَم بسبب أنّ الله سَميعٌ عَليمٌ.

أي: سميعٌ لكل ما يصدُر عنهم من أقوال وأصوات، عليم بكلّ ما يصدُرُ عنهم من أعمال إراديّة ظاهرة وباطنة، من أعمال السوء والشرّ والضرّ.

وسميع أيضاً لدعاء رسُلِهِ، ودُعاء المؤمنين، وعليم بما ينالُهم من أذى أقوامهم الكافرين لهم، وعليم بأحوالهم الداعية إلى معاقبة مضطهديهم.

فدلّ قولُ الله ﴿فَأَخَذَهُم اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقولُهُ تعالى ﴿وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عليم﴾ على أنّ التغيير المذكور في النّصّ له سببان:

السبب الأول: ذنوبُ الأقوام الّتي وصلت إلى المستوى الداعي إلى العقوبة في

الحدود التي لا تصلُ إلى الإهلاك العامّ الشامل.

السبب الثاني: عدلُ اللهِ وحكمتُه الملازمان لكونه سميعاً عليماً، وقد سبق قبل هذا في النّصّ بيان عزّة الله وحكمته، وبيان قوّته وشدّة عقابه، والإشارة إلى عدله، وجاء هنا بيان كونه سميعاً عليماً، فاكتمل بيان كلّ صفاتِ الله التي من ظواهرها مُعاقبته للكافرين والظالمين والمجرمين وسائرِ المذنبين.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

البيان في هاتين الآيتين يُنَبِّهُ علىٰ خاتمة العقوبات الدنيوية، وهي عقوبةُ الإهلاك العامّ الشامل، للأقوام التي تصلّبَ فيها الكفْرُ والعنادُ، واستشرىٰ فيها الظلْمُ والفساد، حتى صارت أقواماً ميؤوساً من صلاحها بإراداتها الحرّة، عن طريق الإقناع، أو وسائل التأديب والتربية، أو العقوبات الجزائية الجزئية دون الإهلاك الشامل.

فالأقوام الذين عُوقبوا بالعقوبات الجزئية فلم يرتدعوا بها، ولم يَرَوْا أنّها آياتٌ من آيات الله الهاديات إلى الإيمان، وإلى الاستقامة على طريقة الرحمن، بل كَذَّبُوا بها، وفسَّرُوها بأنّها ظواهر طبيعيّة من ظواهر أحداث الكون، وأنّها تجري دون قَصْدٍ وإرادةٍ علويّة، هُمْ أنفسُهم الذين استحقوا بما وصلوا إليه الإهلاك العامَّ الشاملَ، فأهلكَهُمُ اللّهُ بذنُوبهم.

فاقتضىٰ البيان إعادة ذكرهم بِفَنّيَّةٍ بديعة فقال تعالى:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

هذه العبارة قد سبق شرحها، ولكنّهم بعد المعالجة بالعقوبات الجزئيّة أضافوا إلى كفرهم السابق، تكذيبهم بأنّ ما جرىٰ لهم من أحداث هو من عقوبات الله لهم،

وهو من آيات الله الدالاّت على عزّته، وحكمته، وقوّته، وشِدَّةِ عقابه، وعَدْلِهِ، وأنّه سميعٌ بصير، فقالَ تعالَى مبيّناً هذا التكذيب الذي أضافوه إلى كفرهم السابق:

﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾.

وإذْ قَدْ وَصَلُوا إلى هذه الحالة الميئوس من صلاحها بإراداتهم الحرَّة، فإنّ أمر إهلاكهم العامّ الشامل، هُوَ مَا تقتضيه الحكمة، فقال تعالى:

﴿ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ ﴾.

أي: أهلكْنا آلَ فرعَوْن والَّذِينَ مِنْ قبلهم من الأقوام التي أهلكت بسبب ذُنُوبهم.

ولمَّا كانَ آل فرعون مَذْكورين باسمهم على وجه التّعيين، كان الأداء البيانيّ الأتمّ يقتضي ذكر الوسيلة التي تَمَّ بها إهلاكُهُم، فقال تعالى:

﴿ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ ﴾.

وبعد ذلك أبان الله عزّ وجلّ أنّ ذُنُوبَ هؤلاء الأقوام المهلكين لم تكن من الذنوب الّتي تكثُرُ في الأمم، فلا تقتضي الحكمة إهلاكهم إهلاكاً شاملاً، بل كانُوا ظالمين بجملتهم، فالحكمة تقتضي إهلاكهم، فقال تعالى:

﴿ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤ ﴾:

أي: فهم جميعاً قد اشتركوا في مقتضى واحد وهو الظلم فتناظروا في الهلاك وإن اختلفت وسائل الإهلاك.

وأبان الله بعد ذلك أنّهم قدْ وصلُوا إلى مرحلةِ اليأس من صلاحهم بإراداتهم الحرّة، فكان من الحكمة في عالم الابتلاء إهلاكُهُمْ وإبادتهم.

وأبان أنّهم قد صاروا شرَّ الدّوابّ عند الله، الّتي تستحِقُّ في عالم الأحياء الإبادة، فقال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥ ﴾:

أي: إذا كانت الحشرات والفواسق الضارة قد وصلت إلى نسبة تستحقُّ معها الإبادة لشرِّها وضرِّها، فإنَّ شرّاً منها دوابُّ بَشَرِيّة وصلَتْ في كفرها وشرِّها إلى حالةٍ

ميئوس من صلاحهم معها، وقد دلّ على أنّ صلاحهم بإراداتهم غير متوقّع ولا مرجُوّ، قولُهُ تعالى في الآية:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

أي: فهم لا يؤمنون في المستقبل مهما عُولجوا بالوسائل، فقد جُرّبُوا بكلّ الوسائل النافعة المؤثّرة فيمن لديهم أقلُّ استعداد للهداية والاستجابة، فلم يهتدوا ولم يستجيبوا، فمن الْخَيْر للبشريّة إهلاكهم إهلاكاً شاملاً، تخليصاً للمجتمع الإنسانيّ منهم، إذْ تجاوز ظلمهم وطغيانهم حدود الضرر المعتاد في المجتمع البشري، وصمّموا على أن يسلكوا مسلك المقاومة للحق، والتصدّي لمنع دعوة الحقّ، واضطهاد المؤمنين.

إنّهم لم تنقصهم القناعة، ولكنهم فقدوا السلامة النفسيّة والصحة الأخلاقية، فهم مرضىً في نفوسهم وأخلاقهم، ويحملون الوباء للناس والذراري، فاقتضت حكمة القضاء والقدر أن تتدخّل للإنقاذ بإفناء حملة الوباء.

هذا ما تقضي به حكمة الحكيم، وهذا هو الذي أجراه الله عزّ وجلّ في المهلكين الأوّلين.

وهو سنّةٌ للّهِ دائمة، فليتعظ بها أولو الألباب، وليَعْتَبِرْ بما جرى للأوّلين المعتَبِرُونَ، من المخاطَبين في النصّ، ومن معاصِريهم، وممن سيأتي بعدهم.

انتهى تدبُّر النص والحمد لله على فتحه.



النـصّ السابـع

من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية

الآيات من (٦٩ ــ ٧٤)

حول مكيدة أخباث اليهود بالدخول في الإسلام نفاقاً

ثـم الارتـداد عـنـه لإغـراء غـيـرهـم بـالـردّة

سورة (آل عمران) ثالث سورة مدنية، وقد جاء فيهـا بيان عـدّة أمور تتعلّق بـأهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، باعتبار أن العهد المدني للرسول ﷺ قد كثرت فيه علاقة الدعوة الإسلامية بأهل الكتاب.

وممّا جاء فيها بيانُ مكيدة يهوديّة تواصىٰ بها طائفة من اليهود، وهي أن يتـظاهروا بالإسلام والدخول فيه نفاقاً، ثُمّ يرْتَدُّوا عنه مفتعلين أيّ سبَب للارتداد عنه، بغية التأثير على بعض من دخـل في الإسلام من عـرب يثرب، فيـرتدوا عنـه كما يـرتـد عنـه هـذا الفريق الماكر من اليهود.

وبهذا الأسلوب يفتحون طريق الارتداد لأمثالهم من منافقة عرب يثرب، ويُهوّنون على من يصعُبُ عليهم الالتزام بأحكام الإسلام وتكاليفه أمْر الارتداد عنه.

نجد بيان هذه المكيدة في أحَدِ دُروس السّورة، وهو قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ
ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ
أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن

تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

وقرأ ابن كثير المكي: [ءَأَنْ يُؤْتَى] بزيادة همزة للاستفهام وتسهيل همزة (أن) من غير إدخال.

* * *

(١)

الفكرة العامّة للنّص

اشتمل هذا النّص على بيان حركة تضليل للمسلمين قام بها طائفةٌ من أهل الكتاب، وقد كانُوا من اليهود، على أنّ النّص يعطي بظلاله دلالةً على وجود هذه الطائفة دواماً في كلّ أهل الكتاب، وفي المقدّمة منهم من كانوا من اليهود، ثم من كانُوا من النصارى.

هذه الطائفة المقصودة قصداً أوّليّاً في النصّ قد ودّت لو تستطيع إضلال المؤمنين، وإخراجهم عن دينهم.

ولمّا اشتدّت لديها هذه الرغبة الآثمة، الدالّة على مبلغ ضلالهم عن الحق بإرادةٍ منهم، وإمعانهم في التوغُّلِ في أوحال الضلال بارتكاب جريمة إضلال الناس عن الحقّ، وعن صراط الله المستقيم، بدأت تتّخذ الوسائل لذلك:

الوسيلة الأولى: التضليل الفكريُّ بلَبْسِ الحقّ بالباطل، أي: بخلط الحقّ بالباطل، ودسّ عناصر الباطل ضمن عناصر الحقّ.

وهذه الوسيلة هي من أخبث وأخطر وسائل التضليل في كلّ العصور، لأنّ عناصر الحق في مجموع الأفكار المعروضة توهم أنها كلّها حقّ، فيغلط النّاظر إليها، فيعتنق الباطل المندس ويعتقده على توهُّم أنه حقٌّ.

الوسيلة الثانية: كتمان الحقّ الذي يعلمونه من كتبهم، فكتمانُ الحقّ من وسائل التضليل، ككتمان الشهادة التي يُضلّل كتمانُها قضاة العدل.

الوسيلة الثالثة: هي وسيلة الدخول في الإسلام نفاقاً، والارتداد عنه بسرعةٍ سخطةً عليه.

والغرض فتنة المسلمين الصادقين عن دينهم، وتشجيع الذين في قلوبهم مرض النفاق، أو مرض دون النفاق كالشكّ والتردّد وعدم الاقتناع بعناصر القاعدة الإيمانيّة، مع صدق الانتماء إلى الإسلام، أو الميل إلى هذا الانتماء الصادق.

وهذه الوسيلة هي الوسيلة التي تدخلُ في موضوع بحث النفاق، وأعمال المنافقين، وهي تشبه وسيلة لصوص الحمام وهو يطير في السماء، إذْ يبعث أحدُهُمْ سِرْباً من طيوره، ليقوم بجولة طيران يستمتع بتحليقه وتحويمه ثم هبوطه في بُرْجه، وعودته إليه بعد جولة رياضيّة من جولات الطيران.

فيأتي آخر من أصحاب هذه المهنة، وهو لصٌ من لصوصها، فيرسل حمامةً من حمامه، فتختلط بذلك السِّرب، وهي معلّمة بإتقانٍ أن تعود إلى برجها، ولهؤلاء في اللُّصوصيّة والصيد وسائل استدراج.

حتّى إذا حان وقت الهبوط والعودة، عادت المختلطة إلى صاحبها، فتغلط معها حمامات من السِّرب، أو تستدرج بوسيلة شيطانية، فتهبط معها، وتصلُ إلى بُرْج اللّص صاحب الحمامة الواحدة، فيصيد منها بشبكته ما يصيد، ويخسر صاحب السِّرب عدداً من طيوره.

فهذه حيلة من حيل التضليل، ووسيلة شيطانية من وسائل المضلِّلين، وهي من الحيل اليهوديّة التي لهم منها عدّة أغراضٍ خبيثة.

* فمنها أن يصيدوا عند ردّتهم بعض المسلمين فيفتنوهم عن دينهم، ويرتدوا معهم.

* ومنها أن يشجعوا منافقي العرب، والذين في قلوبهم مرض دون النفاق على الارتداد.

* ومنها أن يُحدِثوا في صفوف المسلمين تصدُّعاً، فيفقدوا ما هم عليه من تماسك وترابط وتلاحم وطمأنينة، ويخسروا قدراً عظيماً من طاقاتهم القائمة على مبدأ التلاحم في جسديّةٍ واحدة.

* ومنها أن يقذفوا في قلوب المسلمين الشّكّ والحيرة، فينتج عن ذلك القلق والاضطراب.

* * *

وخاف أصحابُ هذه الحيلة الشيطانيّة الخبيثة على جماعتهم من اليهود إذا دخلُوا في الإسلام نفاقاً أنْ يتأثروا به، فيُؤمنوا به إيماناً صادقاً، فأوصى بعضهم بعضاً فقالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

أي: ولا تؤمنوا منقادين حقاً مسلّمين صدقاً إلّا لمن تبع دينكم، وهو اليهودية.

* * *

ولكن ما السبب الداعي إلى إصرار اليهود على أنّ دينهم هو الدين الحق، وأنّه لا يأتي بعد موسى دينٌ حقٌّ من عند الله، وإصرارهم على كتمان ما لديهم من بشائر بالنبيّ الرسول محمّد ﷺ؟

والجواب: يوجد احتمالان:

الاحتمال الأول: أن يتوهَّموا أنَّ موسى عليه السلام هو صاحب الهدى بنفسه.

والرّدّ على هذا الاحتمال قد جاء ببيان أنّ الْهُدَى هدى الله، وليس هدى موسى حتّى ينحصر به الْهُدَىٰ.

الاحتمال الثاني: أن يكون رفضهم للإيمان بمحمّد ﷺ، وللإيمان بما جاء به عن الله، ناشئاً عن حسَدٍ له وللعرب، إذْ جاء الرسُولُ المخلّص الموعود به، من غير اليهود، أو من غير سلالة بني إسرائيل.

والردّ على هذا الاحتمال قد جاء بتوجيه الإنكار عليهم، لجحودهم الحقّ بغياً وحسداً من عند أنفسهم، أنْ يُؤْتَىٰ أحدٌ مثلما أوتوا.

أي: أتريدون أن تستأثروا وحدكم دون عباد الله أجمعين بفضل الله عزّ وجلّ ذي العطاء الواسع، والعلم الشامل، وهو بحكمته يختصُّ برحمته من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

* * *

أمّا كتمانُهم ما عندهم من بشائر وما أُخِذ عليهم من عهد، بشأن رَسُولِ الله محمد ﷺ، فالدوافع له أن لا يكون ذكره والإعلان به حجّةً عليهم عند المناظرة، ولا حجّةً عليهم عند ربّهم، ولئلاّ يعْلَم به عامّة اليهود والأميّون فيهم فيتأثر به ذوو العقل والإنصاف والخشية من الله عزّ وجلّ، فيؤمنوا ويُسلموا ويتّبعوا الرسول.

وقد جاء في النصّ بيان بعض هذه الدوافع، وتُرِكَ بيان بعضها، لأنّ المتدبر الحصيف يسهلُ عليه إدْراكُهُ.

* * *

(٢)
المفردات اللّغويّة للنّص

﴿وَدَّت طَّآيِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾:

﴿ودَّتْ﴾: يقال لغةً: وَدَّهُ يَوَدُّهُ وُدًّا، ووِداداً ومَوَدَّةً، إذا أحبّه، والودّ من الحبّ هو ما كان هادئاً ثابتاً كالمودّة بين الأصدقاء.

ويأتي الودّ بمعنَى التّمني والرّغبة الشديدة، وما في النّص هنا على هذا المعنى، فهو المناسبُ لما جاء فيه.

﴿طائفَة﴾: الطائفة هي الجماعة والفِرْقة، وجماعة من الناس يجمعهم مذهب واحد، أو رأيٌ يمتازون به. وقد يُطْلَق اللفظ على واحد يمثل رأياً انفرد به، أو عملاً انفرد به.

﴿من أهل الكتاب﴾: المرادُ بالطائفة من أهل الكتاب هنا جماعة من اليهود، لأنّ النصّ نزل بشأن جماعةٍ منهم، والكلام عن حدث سبق نزول النص.

بيد أنّ هذا الحدث هو من الأحداث التي تكرَّرتْ نظائِرُها فيما بَعْدُ وتتكرّر دواماً، فالعناية بذكره في القرآن تَدُلُّ على أنّ له نظائرَ ستحدث في المستقبل، وأنّ على المسلمين أنْ يكونُوا على بصيرة بها، وحذَرٍ منْها.

﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾:

﴿لو﴾: هنا للتمنّي، وهي لا تحتاج جواباً، واعتبارُها هكذا أهون من اعتبارها شرطيّةً مستعملةً في التمنّي وجوابُها محذوف.

﴿يُضِلُّونكم﴾: يخرجونكم من الهداية الّتي أنتم فيها إلى الضلال، وهو الضياع في متاهات الباطل، وأودية القبائح والسيئات والمعاصي والمنكرات، إلى سائر ما يُوبِق ويُهلك، من فكر أو خلق أو سلوك.

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ؟﴾:

استفهام إنكاريٌّ توبيخيّ.

﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ؟﴾:

اللَّبْس: هو خلط الشيء بالشيء، تقولُ لغة: لَبَسَ فُلانٌ الشيءَ بالشّيء يَلْبِسُهُ لَبساً، أي: خلطه به، للتّمويه، والتّغرير، والتّضليل.

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾:

أي: أولَ النهار، والأصل في وجْه كلّ شيء: أوّلُ ما يُقابلك منه، وما يُقْبِل من كلّ شيء، فهو من الدهر أوّلُه، ومن النهار أوّلُه، ومن النجم ما يبدو لَكَ منه، ومن الثوب ما ظهر لك منه، ومن المسألة ما ظهر لك منها، وهكذا.

* * *

(٣)

ما روي في سبب النزول

(١) روى الطبري بسنده عن ابن عباس، قال: «قال عبد الله بْنُ الصيْف، وعديّ بن زيد، والحارثُ بن عوف، بعضهم لبعض: تعالَوْا نُـؤْمِنْ بماأُنْـزل على محمّد وأصحابه غُدْوَةً، ونكْفُرْ به عشِيَّةً، حتّى نَلْبِسَ عليهم دينهم، لَعلّهم يصنَعُون كما نَصْنَعُ فيرجعوا عن دينهم، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿يا أهل الكتابِ لِمَ تلبسُونَ الحقّ بالباطل...﴾ إلى قوله: ﴿واللهُ واسعٌ عليم﴾...».

(٢) وروى الطبريّ بسنده عن قتادة في قول الله عزّ وجل: ﴿آمِنُوا بالّذِي أُنْـزِلَ علىٰ الّذِينَ آمَنُوا وَجْـهَ النّهارِ واكْفُـرُوا آخِرَهُ﴾، فقالَ بعضهم لبعض: أعطُوهُمْ الرِّضا

بدينهم أوّلَ النهار، واكفُروا آخره، فإنَّه أجْدَرُ أن يصدّقوكم، ويَعْلمُوا أنَّكُمْ قد رأيتُمْ فيهم ما تكرهون، وهو أجدَرُ أنْ يرجعُوا عن دينهم.

(٣) وروى نحوه عن أبي مالكٍ الغفاري، قال: قالت اليهود: أَسْلِمُوا أوّلَ النهار، وارتدوا آخره، لعلهم يرجعون، فأَطْلَعَ اللَّهُ على سرّهم.

(٤) وروىٰ الطبريّ أيضاً بسنده عن السُّدّي قال: كان أحبار قرى عَرَبِيَّة، اثْنَيْ عشر حبراً، فقالوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمّد أوّل النهار، وقولوا: نشهدُ أنّ محمّداً حقٌّ صادقٌ، فإذا كان آخر النهار فاكْفُروا وقولوا: إنّا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا، فحدَّثُونا أنّ محمّداً كاذب، وأنكم لَسْتُمْ على شيءٍ، وقد رجعنا إلى ديننا فَهو أعْجَبُ إلينا من دينكم، لعلّهم يشُكُّونَ، يقولون: هؤلاءِ كانُوا مَعَنَا أوّلَ النّهار، فما بالُهُمْ؟

فأخبر اللَّهُ عزّ وجلّ رسوله ﷺ بذلك.

(٥) وروى عن ابن عباس أيضاً: «أنّ طائفة من اليهود قالوا: إذا لقيتم أصحاب محمّد ﷺ أوّل النهار فآمِنُوا، وإذا كان آخره فَصَلُّوا صلاتكُمْ لعلّهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب، وهم أعلم منّا، لعلّهم ينْقَلِبون عن دينهم، ولا تؤمِنُوا إلاّ لِمَنْ تَبعَ دِينَكُمْ».

(٦) وجاء في سيرة ابن هشام: أنّ طائفةً من اليهود تذاكرُوا فيما بينهم لتدبير مكيدة الدخول في الإسلام صباح النهار، والخروج منه آخره، ليقلّدهم العرب المسلمون في ذلك.

وذلك أنه اجتمع عبد الله بن الصيف، وعَدِيُّ بن زيد (وهما من يهود بني قينقاع) والحارث بن عوف (وهو من يهود بني قريظة) فقال بعضهم لبعض: تعالَوْا نؤمن بما أنزل على محمّد وأصحابه غدوة، ونكفُرْ به عشيّة، حتّى نَلْبِسَ عليهم دينهم لعلهم يصنَعُون ما نصنع، ويرجعون عن دينه، ففضح الله مكيدتهم هذه، وأنْزل فيهم قوله: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب. . .﴾ الآية.

ورُوي غير ذلك، وكلّها روايات تدور حول مَكْرٍ مَكَرَهُ طائفة من اليهود، جاء بيانه في النصّ القرآنيّ الذي نتدبّره.

* * *

(٤)

مع النّص في التحليل والتدبّر

قال الله عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين أصحاب الرسول ﷺ:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٦٩﴾:

أي: تَمَنَّتْ طائفة من أهل الكتاب، وقد كانُوا فريقاً من اليهود لو يُضلُّونكُمْ عن طريق هدايتكم، فَيُخرجُوكم عن دينكم، إلى متاهات الضياع، وأودية الكفر، والفسق والفجور.

وقيل: إنّ جماعة من يهود بني قُريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، دَعَوْا عمَّارَ بْنَ ياسر ومعاذَ بن جبل وحذيفة بن اليمان إلى الرجوع إلى الشرك.

هذا التمنّي مع محاولات الإضلال، والإخراج من دين الإسلام ظاهرة متكرّرةٌ لدى جميع أهل الكتاب في كلّ عصور تاريخ الأمة الإسلامية، وهذه الطائفة موجودة دواماً في اليهود وفي النصارى، وموجودة أيضاً لدى غيرهم من ملل الكفر، ولا سيما قادة المذاهب الماديّة الإلحادية كالشيوعيين.

وقد نزل قبل هذه الآية قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩﴾.

وهذا التَّمنّي جاء التعبير عنه من قبل بعضهم بهجاء النبيّ ﷺ، كما كان يفعل الشاعر اليهوديّ كعبُ بنُ الأشرف.

ويَظْهرُ أنّ تمنّيهم كانَ في حدود حركاتٍ نفسيّة، وتعبيراتٍ كلاميّة، كانت فيما بينهم، وأقوالٍ هجائية يطلقها شعراؤهم، وهو ما جاء بيانه في آية «البقرة».

ثمّ تحوّل تمنّيهم إلى اتّخاذ وسائل مع بعض المؤمنين لإضلالهم، وإخراجهم عن دينهم، وهو ما جاء بيانُه في النصّ الذي نتدبّرُه من سورة (آل عمران)، ويدُلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ فيه: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أنفسهم﴾ أي: إنَّ ما يحاولونه بوسائلهم الْمُضِلَّةِ لإخراج المؤمنين الصادقين عن دينهم لا يؤثّر فيهم، فمن آمن بالإسلام عن اقتناعٍ وبصيرة وصدّق لا يرتدُّ عنهُ إلى الشرْك، أو إلى أيّ مذهب من مذاهب الكفر، أو إلى أي دين باطل محرّف.

إذاً فهم لا يُضِلُّونَ إلاّ أنفسهم، إذْ يُضِيفُون إلى كفرهم الذي سيعاقبون عليه، شرّاً آخَرَ يستحقُّونَ عليه عقاباً آخر عند الله، ألا وهو رغبتهم بإضلال المهتدين، وممارسانهم العملية لإضلالهم، فيكونون بذلك قد أضلّوا أنفسهم إضلالاً جديداً مضافاً إلى ضلال كفرهم في أنفسهم.

وما يحاولونه من إضلال الّذين آمنوا حقّاً وصدقاً، لا يتحقّق لهم، وذلك لأنّ من آمن وصدّق في إيمانه عن اقتناع وبصيرة، لا يتأثّر بوساوس ودسائس الْمُضلّين، بل تزيده هذه إيماناً وشدّة تَمسُّكٍ بما يؤمن به من الحقّ.

إنّما قد يتأثّر بوساوس ودسائس ووسائل المضلّين، الذين في نفوسهم نزغات الضلال، والاستعداد له، وأعمال المضلّين تضيف إلى ما في نفوسهم من نزغاتٍ، قوىً مساعدةً للسَّيْرِ في طريق الضلال، وليست هي المؤثر الحقيقيّ، لذلك تكون مسؤوليّات من ضلّوا متأثرين بوسائل المضلّين مسؤوليات كاملات.

هذا ما نستطيع أن نفهمه من قول الله تعالى في الآية:

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٦٩﴾.

أمّا أنهم لا يشعرون فنفهم منه أنّهم لا يشعرُون بأنّهم لا يُضِلُّونَ إلاّ أنفسَهُمْ، والشعورُ هو أوّلُ إدْراكٍ للشيء، فنفيُه يُفيدُ نفيَ أدْنَى دَرَجاتِ الْمَعْرِفَة، فهم غافلون عن الحقيقة سادِرُونَ في غَيِّهم، يقومُونَ بأعمالِ إضْلالِ المهتدين، كأنّهُمْ يُمارسُونَ هِدَايَتَهُمْ إلَى الحقّ.

بعد بيان هذا التمنّي لدى طائفةٍ من أهل الكتاب خاطَبَ اللّهُ أهْلَ الكتاب جميعاً

بقوله:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾؟؟.

في هذا الاستفهام الذي اشتملت عليه الآية مواجهة لهم بالاستنكار والتوبيخ على كفرهم بآيات الله الكافيات لإثبات الحق، ويزيد في دواعي التوبيخ كَشْفُ أَنَّهُمْ يعلمونَ أنها حقٌّ علْماً بلَغ مرتبة من يشهد الشيء شهودَ عِيان، إذْ قال لهم: ﴿وَأَنتُمْ تَشهَدُونَ﴾ أي: والحال أنتم تشهدون الأدلّة الدامغة لكم بأنَّها حقٌّ.

وآيات الله تَشْمَلُ الآيات العقليّة، والآيات الوجدانية، وآيات الله الجزائية، والخوارقَ والمعجزاتِ، والنصوصَ القرآنية، وما لديهم من بشائر عن محمّد ﷺ، وما أُخذ عليهم من عهود ومواثيق أن يؤمِنُوا به حين يبعثه الله، وَيَتَحقَّقُوا من أنّه هو المبشَّرُ بِهِ الموصوف في كتبهم.

ويدخُلُ في عموم هذا الخطاب الطائفةُ الّتي تودُّ إضلال المؤمنين المسلمين، دخُولاً أوّليّاً.

وقد خاطَب اللّهُ عزّ وجلّ بمضمون هذه الآيةِ أهل الكتاب خطاباً مباشراً بنفسه، لشدّة الأهمية، باعتبار أنّ المضمون يتعلّق بأصول الإيمان بالله، وهم يزعمون أنّهم يؤمنون به وبآياته.

وبعد ذلك خاطبهم أيضاً خطاباً مباشراً بقوله لهم:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾؟؟.

وفي هذا الاستفهام أيضاً الذي اشتملت عليه هذه الآية مواجهة لأهل الكتاب بوجهٍ عامٍّ ـ والمقصودُ علماؤُهم وأحبارهم العالمون بالحق والباطل ـ بالاستنكار والتوبيخ على عَمَلَيْنِ من أعمال التضليل التي يمارسونها.

الأوّل: لَبْسُهُمُ الحقَّ بالباطِلِ، أي: خلطهم الحقَّ بالباطل، للتمويه والتضليل، والإيهام بأنّ الباطِلَ المندسَّ هو من قضايا الحقّ.

وهم يعلمون أنّهم يفعلون ذلك تضليلاً للناس، وتغريراً بهم.

الثاني: كتمانُهم الحقّ، ومن الحقّ الذي يكتمونه ما في كتبهم من البشائر بنبيِّ اللهِ ورسوله محمد ﷺ، وهمْ يعلَمُون انْطباقها عليه تماماً، لتعدُّدِ صفاته في كتبهم، وانطباقها جميعاً عليه ﷺ.

وهكذا ظهر لنا كيف خاطبهم الله عزّ وجلّ بطريقةٍ مباشرةٍ، موبّخاً لهم على أمور ثلاثة:

الأمر الأول: كُفْرُهم بآيات الله وهم يشهدون أنّها حقّ.

الأمر الثاني: لَبْسُهُم الحقّ بالباطل، وهذا من وسائل تضليلهم للناس.

الأمر الثالث: كتمانُهُم الحق، وهدفُهم من كتمان الحق ما يلي:

* أن لا تقومَ عليهم الحجّة بأنّهم يرفضون الحقّ مع علمهم به.

* وتضليل من يتأثّر بهم من أتباعهم وعوامّهم، أو من غيرهم من العرب الذين لم يسلموا بَعْدُ، أو أسلموا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم.

بعد ذلك كشف الله مكيدتهم التي تعتمد على الدخول في الإسلام نفاقاً، فالخروج منه سخطةً عليه، وفضحهم فيما تآمروا عليه قبل التنفيذ فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ . . .﴾:

أي: وقالت طائفة من أهل الكتاب بعضهم لبعض: أعْلنوا إيمانكم بالّذي أُنزل على الّذين آمنوا أوّل النهار، واكْفُروا آخر النهار، رجاء أن يرتدَّ معكُمْ بعض المؤمنين بمحمّد عن الدّين الّذي جاء به. ولكنْ إيّاكم أن تؤمنوا إيماناً صادقاً، أو تتأثّروا إذا دخلتم في الإسلام نفاقاً بما فيه من آيات، فتؤمنوا بعد ذلك إيماناً صادقاً، وإيّاكُمْ أنْ تنقادوا أو تُسْلِمُوا للمؤمنين.

وقال قادتهم من أحبارِهم وعُلَمائهم لمن وجَّهُوهم للقيام بمكيدة النفاق: ولاَ تُؤمِنُوا مُنْقادِينَ أو مُسْلِمِينَ إلاّ لمن تَبِعَ دينكُمْ من اليهود المحافظين على يهوديّتهم.

هذا ما تدلُّ عليه تعدية فعل «ولا تُؤْمِنُوا» باللاّم، وذلك لأنَّ فعل «آمَنَ يُؤْمِنُ»

يُعدَّىٰ بحرف «الباء» فتقول: آمَنَ بِهِ، ويؤمن به، فإذا عُدِّيَ باللاّم فهو على تضمين فعل «آمن» معنى فِعْلِ «أسْلَم» أو «انقاد» فيُعدَّىٰ حينئذٍ تَعْدِيَتَهُ، وهذا من الإيجاز القرآنيّ الّذي يُستفاد مِنْهُ معنَىٰ كُلٍّ مِنَ الفعلَيْن، فيُذْكَرُ الفعلُ الأوّل بلفظه، ويقدَّرُ الفعلُ الآخَرُ بدلالة تعديته، فالمعنى: ولا تُؤْمِنُوا بغير دينكم، ولا تُسْلِمُوا إلاّ لِمَنْ تَبِعَ دِينكم، أي: وكونوا على حذر شديدٍ حينما تعلنون إيمانكم نفاقاً بالّذي أنزل على الذين آمنوا.

وبعد أن فضح الله مكيدتَهُم التي كانت سرّاً فيما بينهم كلّف اللّهُ رسولَهُ أنْ يتولّىٰ مجادلتهم، وإقناعهم، وإقامة الحجّة عليهم، تُجاه هذه المكيدة القائمة على خطّة النّفاق، وعلّمه طريقة مجادلتهم، فأعطاه رُموزَها.

وهذا التعليم هو في مضمونه مناظرةٌ غير مباشرة لهم، وتعليمٌ لأهل المناظرة والمجادلة من المؤمنين، تبعاً لتعليم الرسول.

فقال الله عزّ وجلّ لرسُوله:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

في هذا النصّ مقتطعات هي بمثابة الرّموز من مقولات فيها ردود وإقناعات وحُجَجٌ دوامغ ضدّهم، وكشْفٌ لدوافع نفسيَّةٍ تدمغُهم بالانحراف عن الحقّ، والخروج عن دين الله للناس.

(١) فالمقولة الأولى: اخْتُزِلَ مِنْهَا:

﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

(٢) والمقولة الثانية: اخْتُزِلَ مِنْهَا:

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾.

وفي قراءة المكي: [أَأَنْ يؤتَىٰ أحدٌ مِثْلَما أُوتيتم].

(٣) **والمقولةُ الثالثةُ**: اختزل منها:

﴿ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾.

(٤) **والمقولةُ الرابعة**: خلاصتها:

﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

(٥) **والمقولة الخامسة**: خلاصتها:

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

إنّ موقف اليهود يتلخّص برفض كلّ دينٍ جديد جاء بعد موسى عليه السلام، ما لم يكن تابعاً له، ومعتمداً على ما جاء في نصوص التوراة.

فما هي أسبابُ هذا الموقف المتعنّت؟

بالتفكير المتعمّق ينكشف لَنَا أنَّ موقفهم يشتمل على ثلاثة عناصر:

العنصر الأوّل: دعوى باطلة لا دليل عليها.

العنصر الثاني: دوافع نفسيّة من وراء الدعوى الباطلة.

العنصر الثالث: كيدٌ تَضْليلي، لصدِّ الناس عن الدين الحقّ، وصراط الله المستقيم، وإيهام الناس بأنّهم على الحقّ.

* **أمّا الدعوى التي لا دليل عليها**: فهي ادّعاؤهم أنّه لاَ هُدىٰ إلاّ هُدىٰ موسى عليه السلام.

وفي هذا حصرٌ للهداية به، بقَطْع صِلَتها بالله منَزّل الهدى على موسى، ومن له أمرُ الْهُدىٰ كلّه، أو بإلزام الله بأنْ لا يُنَزّل هُدىً على أحدٍ بعد موسى، أو بادّعاءِ أنّ الله التزم بأن لا يُنَزّلَ هدى على أحدٍ بعده، وأَخْبَرَ بذلِكَ في التوراة أو على لسَانِ موسى عليه السلام.

والرَّدُّ على هذا الادّعاء الكاذب الباطل يكونُ بِبَيَانِ أنَّ الْهُدىٰ هُدىٰ الله، فهو الذي أوحى إلى موسى وكلّمه، وهو الذي أنزل عليه التوراة، وهو الذي اصطفاه رسولاً.

وبما أنَّ الأمر كذلك فالمناظرة لأصحاب هذه الدَّعْوىٰ تكون بطرح الأسئلة التالية، ومناقشتهم على أساسها:

(١) هلْ يمتنع على الله أن يُنزِّل هدى آخر على من يصطفي من عباده، بعد الهدىٰ الذي أنزله على موسى؟

(٢) هل يمتنع على الله تعالى أن يبعث رسولاً أوْ رُسُلاً بالدِّين الحقّ للناس، وبأحكام وتكاليف فيها تعديل ونسخ وزيادات؟

(٣) هل يتنافىٰ مع حكمته سبحانه شيءٌ من ذلك؟

(٤) هل أبان الله في التوراة أو على لسان أيّ نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل أنّه قطع الرسالات وختمها بموسى، فلا رسول بعد موسى؟

والجواب في كلّ هذه الأسئلة هو النفي حتماً، فإذا لم يُجيبُوا بالنفي فالحجج البرهانيّة تدمغهم كما يلي:

أوّلاً: البرهان العقلي يُثْبتُ أنَّ الله أن يُنزِّلَ هدى آخر بعد الهدى الذي أنزله على موسى، وأنّ لله أن يبعث رسولاً ورُسُلاً بعد موسى، وأنّه لا يتنافى شيءٌ من ذلك مع حكمته عزّ وجلّ.

ثانياً: إنّهم يُثْبِتُونَ في كتُبهم عدداً كثيراً من أنبيائهم أوحى الله إليهم بكلام من كلامه، وأنزل عليهم هُدىً زائداً على الهدى الذي أنزلَهُ على موسى.

ثالثاً: الدليلُ النقْليُّ يُثْبتُ أنَّ الله عزّ وجلّ قد بيّن لأهل التوراة أنّه سَيُرْسِلُ النبيَّ الخاتم، وأخذ العهد والميثاق عليهم أن يؤمنوا به إذا جاء، وأن يتّبعوه، ويعملوا بما يأتيهم به عن ربّهم.

ولكنّ اليهود كَتَمُوا ما في كتبهم من بشائر بالنبيّ المنتظر، وجحدوها بعد بعثة النبيّ محمّد ﷺ، أمّا قبل بعثته فقد كانوا يظهرونها، ويتحدَّثُونَ بها.

هذه الحجج الدامغات قد رمزت إليها الفقرة المختزلة من المقولة الأولى من التعليم الرّباني:

﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

أي: وبما أنّ أصل الهدى هُدَى الله لا هُدَى موسى أو غيره، فللّه أن يرسلَ غير موسى رسُلًا يحملون للناس هُدَى الله، ولله أن يكلّف الناس باتّباع من يختارهم ويصطفيهم لحمل رسالاته.

إنّ مَثَل مَنْ يرفض الرّسُول اللاحق متعصباً للرّسُول السّابق، كمثل من يرفُضُ مبعوث الملك القائم تعصباً لمبعوثه السّابق الذي مضى زمانه، والمبعوث إنّما يُمثّلُ مَنْ بعثه، ويُبَلّغ كلامه، وليس يمثّل نفسه، ولا يعبّر عن إرادته الخاصة.

* **وأما الدافعُ النفسيّ**: فهو يرجع إلى أنانيّة اليهود المفرطة، ورغبتهم الشديدة في حصر كلّ الخير الرّبّانيّ ببني إسرائيل، وحسَدِهم العربَ إذْ بعث الله النبيَّ الرسول المنتظر منهم لا مِنْ بني إسرائيل.

يضاف إلى ذلك إرادتُهم العمل بالتحريفات التي أدخلوها على دين الله، لأنها توافق أهواءهم وشهواتهم، وليس فيها تكاليفُ شاقّةٌ تصطدم مع ما يَهْوَوْنَ من فجور وظلم وعدوانٍ على الناس، ورغبةٍ في التسلّط على شعوب الأرض.

* **وأمّا الكيدُ التضليليّ**: فقد تمثّل بعنصرين كما سبق:

الأول: لَبْسُ الحقّ بالباطل وهم يعلمون.

الثاني: كِتْمانُ الحقّ وهم يعلمون.

وهذا لا يحتاج من المناظر أكثر من التوبيخ على لَبْسِ الحقّ وكتمانه، بعد تمييز عناصر الباطل من عناصر الحقّ، وبعد كشف ما لَدَيْهم من علمٍ يكتمونه، وإقناعهم بأنّ كلا طريقتي التضليل ممّا يزيدهم ضلالاً عند الله ولا يُفيدُهم في الوصول إلى ما يَهْوَوْنَ ويشتهُون من إضلال المؤمنين الصادقين الفاهمين لعناصر إيمانهم.

والأسْلُوبُ الإقناعيّ حول الدافع النفسيّ والكيد التضليلي يتلخّص بما يلي:

(١) إنّكُمْ تكرهون حسداً وبغياً من عند أنفسكم أن يؤتى أحد مثْلما أُوتيتم، وهذا لا ينفعكم عند الله بشيء بل تُضِلُّونَ به أنفسَكم.

(٢) هل تملكون أن تمنعوا أنْ يُؤْتَى أحدٌ مِثْلَما أوتيتم من اصطفاء موسى وعدد من الأنبياء منكم، وأنتم تعلمون أنّ الأمر تابع لإرادة الله، ولحكمته في عطائه واختياره

واصطفائه، وتعلمون أنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء؟

(٣) هل ينفعكم أن تلبسوا الحقّ بالباطل، وأنتم لا تُضلُّون به إلّا أنفسكم، أمّا من تقصِدُون إضلالهم من المؤمنين الصادقين فإنكم لا تستطيعون التأثير عليهم؟

(٤) هل ينفعكم في محاولة تضليل المؤمنين الصادقين أهل البصيرة أن تنافقوا أوّل النهار بإعلان الإيمان، وترتدوا عن الإسلام آخره؟

إنّكم لا تُضلّون بهذا النفاق إلّا أنفسكم، إذْ تزيدون جرائمكُمْ عند ربكم.

(٥) هل ينفعكم عند الله أن تكتموا الحقّ الذي تعلمونه من دينكم، متوهّمين بهذا الكتمان أنّكُمْ لا تعطون المؤمنين، ما يتخذونَهُ حُجّةً عليكم يُحاجّونكُمْ به عند ربّكم؟ ويقيمون به الحجّة عليكم في الدنيا؟

أليس الله عليماً بما تكتمون؟!

(٦) اعلَمُوا أنَّ من الحقائق الثابتة التي لا تملكون بمحاولاتكم وألوان مكركم وكيدكم وحيلتكم ومغالطتكم تغييرها:

* أنَّ الفضل بيد الله وحده، فلا تملكون أن تمنعوا فضل اللّهِ عن أحدٍ أراد الله أن يمنَحَهُ من لَدُنْهُ فضلاً، فهو سبحانه يؤتيه من يشاء، من كلّ قوم، ومن كلّ شعب، كلُّ الناس عباده، وهو سبحانه عليم حكيم، يختار بعلمه وبحكمته من هو أهلٌ لأن يمنحه فضله ويختصه به.

وهو سبحانه إذْ يعلَمُ أنّ بعضَ عباده من أيّ قوم من الحكمة أن يختصه برحمةٍ من رحماته، أو نعمةٍ من نعمه، فإنّه يختصُّه بها، وهو سبحانه ذو الفضل العظيم على كلّ عباده، لا أحد منهم له حقٌّ ذاتيٌّ بفضل من فضل الله، سواءٌ منهم من اختصّه برحمة زائدة، أو من لم يختصه.

هذه العناصر الجدليّة والإقناعية قد أشارت إليها أو دلّت عليها المختزلات والملخصات التي اشتمل عليها النصّ بياناً وتعليماً، وهي:

(١) ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾:

أي: لا يؤثرون بوسائل إضلالهم على المؤمنين الصادقين، إنّما يُمْعِنُون في إضلال أنفسهم، بارتكاب آثام يستحقون عليها عقاباً فوق عقاب كفرهم وتولّيهم عن دعوة الرّسول محمّد ﷺ.

(٢) ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾؟؟:

أي: لِمَ تُعَرِّضون أنفسكم لعقاب الله بالكفر الإراديّ بآياته الّتي تَشْهَدُونَ بُرْهَانَ أنّها آياتُ الله حقاً وصدقاً، فلا عُذْر لكُمْ عنده في أن تكْفُروا بها.

(٣) ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟؟:

أي: لَبْسُكُمْ لا ينفعُكُمْ، بل يَدْمغُكُمْ عند الله بجريمة تحريف الدّين، وكتمانِ الحقّ الذي فيه، وهذا يُضِيف إلى عقابكم عقاباً آخر.

(٤) ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾:

أي: فليس هُدَىٰ موسى أو أحدٍ من بني إسرائيل حتى تتعصّبُوا له تعصُّباً قومياً، والله يصطفي لتبليغ هُداه من يشاء، من بني إسرائيل أو غيرهم.

(٥) ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾:

أي: اترفضون هدى الله الّذي أنزله على رسوله محمد حسداً من عند أنفسكم، وكراهية أن يؤتى أحَدٌ من خلق الله مِثْلَما أُوتيتم من اصطفاء رسُل منكم، وإنزال هُدى الله عليهم؟ أو اتكفرون بما أنزل من عند ربكم وتتخذون وسائل الإضلال عنه لأجْلِ أنّه غاظكُمْ أن يُؤْتَىٰ أحَدٌ مثلما أُوتيتُمْ؟

(٦) ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾:

أي: أتكْتُمونَ الحَقَّ الذي عندكم عن المسلمين وأنتم تعلمونه، خشية أن يُحاجُوكُمْ عِنْدَ رَبكم، أليس الله عليماً بكلّ ظواهركم وبواطنكم، وبكل ما تُعْلِنُون، وما تُسِرُّون؟ إنّه لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبكم على كتمان الحق.

وترابط الجملتين كما يلي: أتحسدون فتجحدون وتُضِلُّون، أو تَتّبعون أهواءكم فتجحدون وتكتمون ما عندكم خشية أن يحاجوكم به عند ربكم.

(٧) ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

أي: إنَّ العطاء الزائد الذي يتفضّل الله به على عباده، ليس لأحد به حقٌّ، وليس لأحدٍ أن يُطالِبَ به الله، ولكنّ الله هو الذي يؤتيه بحكمته مَنْ يشاء.

على أنّ الله عزّ وجلّ قد منَح مِنْ فضله كلَّ عباده، إذ هو سبحانه واسع الجود، واسع العطاء، واسع الفضل، يمنح منه عباده بحكمته المقرونة بعلمه المحيط بكلّ شيء، ما يشاء على ما يشاء.

الفضل: هو الزيادة، ويأتي بمعنى الإحسان والعطاء، ابتداءً دون علة ولا جزاء.

(٨) ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

أي: وبما أنَّ الاصطفاء بالنبوّة والرّسالة فضلٌ يتفضّل به الله بمقتضى علمه وحكمته على من يشاء من عباده، وهو من الله رَحمةٌ، فهو عزّ وجلّ يختص بفيض فضله ورحمته من يشاء من عباده، على أنّ مشيئة الله عزّ وجلّ مقرونةٌ بواسع علمه، وعظيم حكمته.

(٩) ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

أي: والله ذو الفضل العظيم على كلِّ عباده، من اختصه منهم برحمة خاصّة، ومن لم يختصه منهم بها، أليس من فضل الله تكريم بني آدم وتفضيلهم على كثير ممّن خلق تفضيلاً عظيماً؟ ألا يكفي بني إسرائيل أن جعل الله منهم أنبياء ورُسلاً وملوكاً؟ أيرون أن يحتكروا لأنفسهم كُلَّ فضل الله، فهم يكرهون أن يأتي من غيرهم الرسول الخاتم الموعود به؟ أفيَتّبع الحقُّ أهواءهم؟ هذا مرفوضٌ حتماً.

* * *

وبعد بيانات عديدة تتعلّق بأهل الكتاب من اليهود عقب هذا النصّ الذي تدبّرناه من سورة (آل عمران) ومناقشات لهم متعدّدة، قال الله عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

• • •

النصّ الثامن

من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية
الآيات من (١١٨ ـ ١٢٠)
حول نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة من المنافقين
لأنهم مفسدون مبغضون مغيظون

في هذه السُّورة حذَّر الله المؤمنين الصادقين من اتّخاذ المنافقين الّذِينَ تَبْدُو عليهم أماراتُ النفاق وعلامَاته، بِطَانةً مُداخِلةً مُخَالطة، تطَّلِعُ علَىٰ الأسرار، وتَعْمَلُ على ضُرّ المسلمين المؤمنين، وإفساد خططهم، ونَقْلِ المعلومات إلى أعدائهم المجاهرين بعداواتهم، وتثبيط المؤمنين عن الخروج مع الرسول في الغزوات، وعن المشاركة الجادة في القتال، إلى غير ذلِكَ من أعمالِ فَسادٍ وإفساد. فصّلَتْ وقائعها نصُوصٌ قرآنية متعدّدة، وأطلَقتِ الأفكارَ للحذر من نظائرها وأشباهها، وتقديرِهَا ذِهْناً، ومتابعةِ تحرُّكَاتِ المنافقين بمقتضاها.

فقال اللّهُ عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين الصادقين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ
قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ
تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ
وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾.

(١)
القراءات المتواترة في هذا النص (من الفرش)

* في الآية (١٢٠):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [لا يَضُرُّكُم] من ضَرَّهُ يَضُرُّه.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عَمْرو ويعقوب [لاَ يَضِرْكُمْ] من ضَارَهُ يَضِيرُهُ إِذَا أَضرَّ به.

والمعنى في القراءتين واحد، واللفظتات مادّتان لغويتان متكافئتان.

* * *

(٢)
الفكرة العامّة للنصّ

اشتمل هذا النصّ على تحذيرٍ شديدٍ للمؤمنين، من اتّخاذ بطانةٍ تَطَّلِعُ على أسرار المؤمنين، من المنافقين المخالطين للمؤمنين في الأعمال العامّة، ومختلِف أنواع الحركات والنشاطات اليوميّة، فضلاً عن الكافرين المجاهرين بكفرهم وعداواتهم، ويُلْحَق بهم الذين لا يُؤْتَمَنُون على أسرار المسلمين من الذين في قلوبهم مرض دون النفاق، ومن الفاسقين الذين يَسْهُلُ عليهم بيع ضمائرهم للأعداء.

وقد بيَّن النَّصُّ أسباب هذا التحذير الشديد، فالمنافقون في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (آل عمران) وهي مرحلة ما بعد غزوة أحد، التي انْخَذل فيها المنافقون عن الرسول والمؤمنين معه، بقيادة عبد الله بن أبي ابن سلول، وهي مرحلةٌ بلغ المنافقون فيها مبلغ التكتُّل المستور، وتدبير المكايد ضدّ المؤمنين في الخفاء، وقد طال بهم الانتظار، واشتدّ غيظهم من الرسول ﷺ ومن المؤمنين الصادقين معه.

* أمّا أسبابُ التحذير الشديد من اتّخاذ بطانةٍ من المنافقين فهي كما يلي:

الأوّل: أنهم لا يُقصِّرون ولا يبطّئون في إفساد أحوال المؤمنين، وإنزال الضَّرر بهم، وتوهين قواهم، وتمزيق صفوفهم، ومؤازرة أعدائهم ضدّهم، حتّى استئصال شأفتهم.

الثاني: أنهم يتمنَّوْنَ أنْ ينـزل بالمؤمنين كُلُّ بلاءٍ وعَنَتٍ ومَشَقَّةٍ وضـرَرٍ، وهـذا يدفعُهم إلى اتّخاذ الوسائل لتحقيق ما يتمنَّوْنَ، وإلى تدبير المكايد ضدّ المؤمنين.

الثالث: أنّ أمارات بُغْضِهم للمؤمنين قد ظهرت فعلاً منْ أقوالهم وفلَتَاتِ ألسنتهم، والخبير الذكي الْفَطِن يستطيع أن يكتشف ما في خبايا القلوب والنفوس، من معاريض الأقوال وفلتات الألسنة.

هـذا مع أنهم يُبالغون جدّاً في كتْم ما في قلوبهم ونفوسهم، لئلا ينكشف للرسول ﷺ أو للمؤمنين الصادقين نفاقُهم فيحاسبوهم على كفرهم في باطنهم الذي تظهر دلائل الإدانة به.

الرابع: أنّ ما تُخفيه صدورُهم من بَغْضاء للمؤمنين، وما تَدْفَعُ إليه هـذه البغضاء من مكرٍ وكيدٍ، واتّخاذ الوسائل للإضرار بالمؤمنين، هو أكبرُ ممّا ظَهَرَ من أمارات البغضاء علَىٰ ألسنتهم.

الخامس: أنّ منافقي اليهود منْهُمْ وهم أخطرُهم وأخبثُهُمْ ومُوَجّهوهم كان المفروض فيهم أن يكونُوا أخفّ شرّاً وضرّاً من منافقي المشركين، بسبب أنّ المسلمين المؤمنين الصادقين يؤمنون بكتُب الله كلها، ومنها التوراة، وبسبب أنهم يُحبُّونَ هؤلاء المنافقين بدافع الأخوّة الإيمانيّة، وبراءةِ قلوبهم ونفوسهم تجاههم، إذْ يعاملونهم بحسب ظاهرهم.

لكنَّ هؤلاء المنافقين من اليهود يقابلون محبّةَ المؤمنين لهم بالبغض إلى حدّ أنهم إذَا خَلَوْا عَضّوا أنَامِلَهُمْ منَ الغيظ من المؤمنين، فلو أمكنَهُم أن يَعَضُّوهم عضّ افتراسٍ للفتك بهم لفعلوا ذلك، فَعَبّروا عن مشاعرهم هـذه بعضّ أناملهم، دلّ على هذه المشاعِرِ قوله تعالى في النصّ خطاباً لمؤمنين:

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

ودلّ هـذا أيضاً على كفرهِمْ في قُلُوبهم على نقيض ما يتظاهرون به من إيمانٍ وحبٍّ للمؤمنين، فإذا لَقُوا المؤمنين قالوا لهم: آمَنا، أي: ونحنُ نحبُّ إخواننا المؤمنين، وإذا خلوا كشفوا كفْرَهم وبُغضَهُم للمؤمنين المصحوبَ بإرادة الفتك بهم.

ولا بُدَّ أن يدفعهم غيظُهُمُ الشديدُ من المؤمنين إلى تدبير المكايد ضدّهم.

السادس: أنهم يرقبون أحوال المؤمنين وما ينزل بهم تباعاً يوماً فيوماً، بعين عدوٍّ حاقدٍ ماكر. فإنْ تَمْسَسْهُم حسنةٌ ما ولو كان مسّاً رفيقاً، وبنسبة قليلة، ساءهم ذلك، وإنْ تُصِبْهُمْ سيئةٌ ما يفرحوا بها، لأنّهم في قلوبهم ونفوسهم أعداءٌ للمؤمنين، ممتلئون غيظاً منهم، وبغضاً لهم.

هذه هي أسباب التحذير من المنافقين عامّة، ولا سيما منافقو اليهود، فهم الأخبث والأشدّ كيداً ومكراً، وغيظاً وحنقاً، وعداوةً وبُغضاً.

* وأمّا المنهج الرّباني الّذي وجّه الله المؤمنين أن يسلكوه في هذا النّصّ، لاتّقاء شرورهم، فيتلخّص بالأعمال التالية:

أوّلاً: ألاّ يتّخذ المؤمنونَ بطانةً من المنافقين، أي: ألاّ يُقرِّبُوهم إلى أماكن أسرارهم، ولا يُطْلِعُوهم على ما يُدبّرون ويُخطّطون، ولا على ما يُعِدُّون من قُوى يجب إخفاؤها عن العدوّ.

فمن الواجب على المؤمنين ألاّ يجعلوا أحداً من المنافقين بعض خاصّتهم، أو مستشارينَ لهم، أو وُلاةً أو أمراءَ أو موظّفين وعُمّالاً في المواطن التي يَطّلِعُون فيها على أسرار المؤمنين، وبواطن أمورهم وتدبيراتِهم وخُطَطِهم.

ثانياً: أن يثقوا بالله ويتوكّلُوا عليه، فهو الذي سَيَنْصُرُهُمْ ويحميهم من مكايد المنافقين وشرورهم، إذا اتّبعوا أوامره واجتنبوا نواهيه، والتزموا مناهجه في السّلم والحرب، ومنها أن لا يتخذوا بطانةً من غير المؤمنين الصادقين الأكفياء لحمل أمانة أسرار المسلمين.

وأن يعلنُوا للمنافقين بوجه عامّ، دون تعيين أسمائهم، أو تحديد أعيانهم بالخطاب، فيقولوا لهم: موتُوا بغيظكم، أي: استمروا على غيظكم حتّى تأتيكم آجالكم، أو ليشتدَّ غيظكم حتّى يكون سبباً قاتلاً لكم مُميتاً، فإنَّكُمْ لنْ تُحقّقوا ما تَتَمَنَّوْنَ في المؤمنين، إذ سينصرهم الله ويؤيّدهم بتأييد من لدنه، ويخذُل أعداءهم المجاهرين بعداواتهم وأعداءهم المستخفين بعداواتهم من المنافقين، وسيُحْبِط الله مكايد المنافقين وكلَّ تدبيراتهم ضدَّ المؤمنين، أو ضدّ انتشار الدّين وظهوره، وسيزداد بذلك غيظُهم، وسيستمرّ فيهم حتى يكون قاتلاً لهم، أو مصاحباً لهم بآلامه حتّى

يموتُوا وهم مغتاظون أشدَّ الغيظ.

واكْتَفَىٰ النصُّ بـإشارَةِ عبـارة: ﴿قل: مُوتُـوا بغيظكم﴾ للدِّلَالـة علىٰ كُـلِّ هـذه المعاني.

والخطاب بوجـهٍ عامٍّ دون تعيين أشخـاص، فيه من الحكمـة أن تبقىٰ لهم ذرائع الاستخفاء بكُفْرهم والتبرّي من أنّهم مقصودون بالخطاب، والتبرّي من معرَّةِ النفاق.

ثالثاً: أن يصبـروا عليهم، ولا يُنْزلـوا بهم نِقْمَتَهُمْ قبل أنْ يـأذن الله لهم، أوتَثْبتَ إدانَتُهمْ صـراحةً بـالكفر والـرِّدّة، كما هـو معلومٌ من أحكـام الـدين، دلَّ علىٰ هـذا في النصّ: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾.

رابعاً: أنْ يتَّقوا اللَّهَ ربَّهم في كـلِّ أعمالهم، وأن يكـونُوا على حَـذَرٍ شديـدٍ من المنافقين، وفي حالة مراقبـةٍ تامّـةٍ لهم ولتحرّكـاتهم، ولما يـدبّرون في الخفـاء، ليتّقوا شُـرورهم، وليُبادرُوهم بـإحباط أعمـالهم ضدّ المؤمنين أو ضـدّ الإسـلام قبـل أن تبلُغَ مَداها. دلّ على هذا في النّصّ: ﴿وَتَتَّقُوا﴾.

الـنـتـيـجـة:

فإذا حقّق المؤمنون التوجيهات الرّبّانيّة التي جاءت في هذا المنهج، لَمْ يضُرَّهُمْ كيـدُ المنـافقين شيئـاً، لأنّ الله سيكـون معهم ونـاصِـرَهم ومؤيِّـدَهم، ومُحْبِطَ مكـايـد أعدائهم، ومنهم المنافقون المندسون في صفوفهم والمخالطون لهم. فالله واسع قدير، محيط بمـا يعملون، فلا يسمح لمكايـدهم بأن تصـل إلى غايتهم منهـا. دلّ على هذه النتيجة في النصّ:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

* * *

(٣)
المفردات اللُّغويّة للنّصّ

﴿لا تتَّخذوا﴾: اتَّخَذَ: افتَعَل من «أخذ» ويأتي الأخذ والاتّخـاذ في اللُّغَة بمعـانٍ كثيرة، منها: حيازة الشيء، والحصولُ عليه، وتناوله، وقَبُولـه، ولَوازِمُهـا، ومع اللُّوازم

تكثر المعاني وتتشعب، فأخذ ذي السلطان لأحد الناس يأتي بمعنى حبسه، أو معاقبته، أو قتله، أو إهلاكه، أو نحو ذلك، وفي كلّ نصٍّ يُحمَل على المعنى الملائم له.

وأخذ الشيء للشيء يأتي بمعنى تغلُّبه عليه، وإحاطته به، ومصاحبته له، ونحو ذلك.

ويُعدّى فعل «أخذ» بالباء فيكون بمعنى الإلزام، أو المعاقبة. ويُعدّى بعلَى فيكون بمعنى المنع والتضييق، وهكذا تكثر المعاني.

فأخذ المذهب واتّخاذه هو بمعنى اعتقاده والتزامه والسير على منهاجه.

واتّخاذُ الصديق، أو الخليل، أو البطانة، هو بمعنى الموافقة والقبول، أو مباشرة الأسباب المؤدّية إلى أن يكون صديقاً أو خليلاً أو بطانة.

إلى غير ذلك مما يكون من لوازم الأخذ والاتّخاذ باعتبار أنّ الأخذ هو من المعاني الكلية العامّة الأولية.

﴿بِطَانَةً﴾: بطانَةُ الثوب هي ما يلي البدن منه، وهي خلاف ظِهارته، مأخوذة من البُطْن، فبطْنُ كُلّ شيءٍ جَوْفُه، أو مأخوذ من فِعْل: «بَطَنَ» بمعنى خَفِي، وضِدُّهُ «ظَهَرَ».

واستعمل لفظ «بِطانَة» بمعنى الأخِلّاء المداخلين المطّلعين على الخفايا والأسرار الباطنة، والمستشارين المستَخْلَصِين، إذْ تُكْشَفُ لهم الأسرار، وما يُحْرَصُ على إبقائه باطناً غيْرَ ظاهر لعموم الناس، باستثناء الأمناء عَلَيْها، من أخِلّاء، أوْ أهل دينٍ وعقل يَصْلُحُون للمشورة.

وأُطلق على هؤلاء بطانة تشبيهاً لهم ببطانة الثوب، ودرج عليهم لفظ البطانة على سبيل الاستعارة، لأنهم أقرب من غيرهم إلى معرفة الأسرار والخفايا.

﴿من دونكم﴾: أي: من غيركم، وكلمةُ «دُون» هي في الأصل ظرف مكان صالح لكل الجهات ما عدا المكان الذي يكون فيه ما تضاف إليه، لكنّ جذْر معناها يُفيد معنى المكان التّحْتِيّ حسّاً أوْ معنًى، وقد نُهمل ملاحظة هذا المعنى لدى الاستعمال.

واشتُقّ من معنى المكان التَحتيّ كلمةُ «الدُّون» بمعنىٰ الْخسيسِ الحقير.

لذا أُلاحظ في معنى «مِنْ دُونِكُمْ» من غيركم ممّن هم سَافِلون بكفرهم أو نفاقهم أو تردُّدِهم وعَدَمِ ثباتِ إيمانهم من الذين في قلوبهم مرض، وقد يُلْحقُ بهم الفاسقون الّذينَ لا أمانة لهم على الأسرار، فهم ليسوا في مرتبة المؤمنين الصادقين القائمين بمقتضيات إيمانهم.

وكلمة (من) في هذا التعبير هي بمعنى التبعيض، وهو أحد معانيها، أو بمعنى الجنس، أي: لا تتخذوا بطانةً كائنة بعض غيركم السافلين عن مرتبتكم في الإيمان، أو: لا تَتَّخِذُوا بطانةً هي من جِنْسِ غيرِكُمُ السافلين عن مرتبتكم في الإيمان.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: أي: لا يُقَصِّرون مُجْتهدين، ولا يُبْطِئون في إلقاء الإفساد والإضرار بكم.

يألو: مضارع فعل: ألا، يألُو، أَلْواً، وأُلُوّاً، وأُلِيّاً، وهو يأتي بمعنى اجتهد، وبمعاني فَتَر وضعُف، وقصَّر، وأبطأ.

تقول لصديقك: لَا آلوك نُصْحاً، أي: لا أَنْقُصُكَ نُصْحاً، فأنا أبذُلُهُ لك مجتهداً غيرَ فاترٍ ولا ضعيفٍ ولا مُقصِّرٍ ولا مُبَطِّىء.

وتقول لعدوِّك: لَا آلوهُ خَبالاً، أي: لا أنقصُهُ ما أستطيع من فسادٍ وإضرارٍ به، فأنا أجتهد في ذلك فلا افترُ ولا اضعُفُ ولا أُقصِّر ولا أُبَطِّىء.

خبالاً: الخبالُ النقصان، والهلاك، والسُّمُ القاتل، والخبالُ فساد العقل، والجُنون، وفسادُ عضو من الأعضاء من داءٍ أو قرح، أو قطع أو نحو ذلك، وهو مصدر خَبِلَ يَخْبَلُ خَبْلاً، وخَبالاً.

ويُقالُ: خَبِلَتْ يَدُهُ إذا شَلَّتْ، فَهُو خَبِلٌ وأَخْبَلُ، وهي خَبْلاء، والجمع «خُبْل».

ويأتي الْخَبْلُ بمعنىٰ الجراحِ، والفتنةِ من جراحٍ أو قتل.

فمادةُ الكلمة تدور حول أنواع الإفساد والإضرار.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّم﴾: أي: تَمَنَّوْا عنَتَكُمْ، أي: مشقتكم والإضرار بكم، وإفساد أعمالكم.

الْعَنَتُ: المشقَّةُ، والتَّعبُ، وشِدَّةُ الضَّرَرِ وتَحمُّلِ الألآم والفسادُ.

يقالُ لغةً: عنِتَ الشيءُ يَعْنَتُ عَنَتاً، إذَا فَسَدَ. وعَنِتَ فُلانٌ يَعْنَتُ إذا وقَعَ في مشقَّةٍ وشدّة. وعَنِتَ الْعَظْمُ إذا انْكسَرَ بعد الجبر. ويقال: أعْنَتَ فُلانٌ فلاناً إذا أوقعهُ في مشقةٍ وشِدَّةٍ. وأعْنَتَ المريضَ، إذا أضرَّ به، وأفسَدَهُ.

﴿البغضاء﴾: شِدَّةُ البغض.

﴿من الغيظ﴾: الغيظُ أشدّ الغضب من أمرٍ مكروه، مع عدم التعبير عنه بما يُهَوِّن من ضغطه على النفس، ولكن يُلازمه غالباً الرغبة بالانتقام.

﴿بِذَاتِ الصُّدور﴾: أي: بصاحبة الصدور، وهي ما يكون في القلوب والنفوس من خواطر، وانْفعالات، وحركاتٍ وجدانية، ونيّاتٍ ونحو ذلك. فذاتُ الصدور هي صَاحبة الصدور المختصَّةُ بها، والتي لا تكون في غيرها، وقد تظهر في السيما الظاهرةِ أماراتُها، وفي الأعمال آثارُها.

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾: المسُّ هو الالْتصاق السطحيّ الخفيفُ بين الشيئين. والحسنَةُ: ما يسُرُّ من خير.

﴿وإِنْ تُصِبْكُمْ سيِّئَةٌ﴾: يُقَالُ: أصابَ الشيءُ، إذا أدْركه أو نَزَل به، وهو أبلغ من المسّ لأنّه قد ينفذ إلى العُمْقِ، كإصابة السّهم الهدف.

والمصيبة: من فعل أصابَ، وهي تُطْلَقُ على كُلِّ مَكْرُوهٍ يحلُّ بالإنسان، جمعها مصائب. والْمُصَابُ: الشّدَّةُ النازلة.

والسيِّئَةُ: ما هو مكروهٌ مِنْ شرّ أو ضُرٍّ أو أيّ مؤلم.

﴿كَيْدُهم﴾: الكيْدُ: الاحتيال، والاجتهاد، والحربُ، وكلُّ تدبير لأمرٍ ما، والمادّة تدور حول اتخاذ أعمال وتدبيراتٍ تُوقع المقصودين بالكيد بما يكرهون، وهو يكون في الشرّ، ويكون في الخير، لكنّ كَيْدَ المنافقين للمؤمنين لا يكون إلاّ شرّاً.

* * *

(٤)

حول سبب النزول

لم يأت في أقوال شيوخ المفسّرين من الصحابة والتابعين روايات تبيّن سبب نزول هذا النّص.

لكن تواردت أقوال أكثرهم على أن المراد بما جاء فيه المنافقون، ولا سيما اليهود منْهُمْ، فالآيات قبل هذا النّص تتحدّث عن اليهود من أهل الكتاب، وفي هذا النصّ إشارةٌ إليهم في قوله تعالى: ﴿وتُؤْمِنُونَ بالكتابِ كُلّه﴾ أي: وتؤمنون بكلّ الكتب الرّبّانية ومنها التوراة التي يؤمنون هم بها، ولا يؤمنون بالقرآن كتاب الله الخاتم للكتب الربّانيّة.

والقول بأنّ هذا النصّ قد نزل في المنافقين. رواه الطبريّ بأسانيده عن مجاهد، وقتادة، والربيع، والسدّي، وابن جريج، وابن زيد، وهو إحدى روايتين عن ابن عبّاس، ويدلّ على هذا من النصّ قوله تعالى فيه:

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ... ﴿١١٩﴾﴾.

* * *

(٥)

مع النص في التحليل والتدبّر

قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾.

أي: يا أيّها الذين آمَنوا صَادِقِينَ في إيمانكم، لا تتّخذوا أخِلّاءَ، أو أصفياء، أو أصدقاء، أو أولياء، أو عُمّالاً في أعمالٍ يطّلعون فيها على أسرار المسلمين، وخفايا أمورهم، وما يُدَبِّرون من خطط للسلم والحرب، من دون المؤمنين الصادقين في إسلامهم، أي: من غير نوعهم وصنفهم وجنسهم، لئلاّ يتمكّنوا بذلك من مخالطتكم ومداخلتكُمْ في أموركم المهمّة، فيطّلعوا بذلك على أسراركم، وبواطن أحوالكم وشؤونكم، ثمّ يتّخذوا من مواقعهم أسباباً للإضرار بكم، وإفساد أموركم.

إنّ على المؤمنين الصادقين ألاّ يتخذوا من غير المؤمنين الصادقين في إيمانهم وإسلامهم أصدقاء ولا وُلاةً ولا أمراء ولا مستشارين ولا عُمّالاً وموظفين يطّلعون على أسرارِ الدولة الإسلاميّة وبواطن أمور المؤمنين.

ولمّا كان الخطاب في هذا النصّ للذين آمَنُوا، فالذين هم من دونهم يشمَلُ كلَّ غير المؤمنين الصادقين في إيمانهم وإسلامهم، ويتناول أوّل ما يتناول المنافقين وأهل الرِّيب الذين في قلوبهم مرض، لأنهم المخالطون الداخلون في صفوف المسلمين، بمقتضى ظاهر إسلامهم، وهم الذين قد يتّخذ المؤمنون بطانةً منهم، اغتراراً بهم، وعملاً بظاهر أحوالهم، إذْ قد أعْلَنُوا انتماءهم إلى الإسلام.

أمّا الكافرون الصُرَحاء المجاهرون بكفرهم وعداواتهم من المشركين أو أهل الكتاب أو غيرهم، فالتَّحذيرُ من اتّخاذ بطانةٍ مِنْهُمْ أَمْرٌ معلومٌ لدَى المؤمنين، فقد سبَقَ فيما نزَل من القرآن قبل هذا النصّ النَّهْيُ عن اتّخاذ الكافرين أولياء، ولو كانت هذه الموالاةُ في حدود المناصرة، والموادّة الّتي لا تصِلُ إلى مستوى اتّخاذ بطانةٍ منهم، إذْ هُمْ مُفَارِقُونَ مباعدون غيْرُ مخالطين، واحتمالُ اتّخاذ بطانةٍ منهم أمرٌ مستبْعدٌ جدّاً في مفهوم المؤمنين، الذين عاصروا رسُولَ الله ﷺ، وعاصروا مراحل تنزيل القرآن.

ففي أوائل سورة (آل عمران/ ٣) قال الله عزّ وجلّ:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

ففي هذه الآية نَهْيٌ مُشَدَّدٌ للمؤمنين عنْ أن يتّخذوا الكافرين أولياء من غير المؤمنين الذين هم دونهم بسبب كفرهم، على أيّة صورة من صُوَر الموالاة، ومَنْ يفعل ذلك فليس من الله في شيء، أي: أخرج نفسه بعمله من دائرة الرَّبَّانيّين المنسوبين في ولائهم إلى الله، الذين يتولّاهم الله بمعونته ونَصْرِه.

* وقولُ الله عزّ وجل:

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

يُبَيِّنُ أنّ أيّةَ موالاة مهما كان مستواها ضعيفاً فهي موالاة مَنْهيٌّ عنها نهياً جازماً

مُشدَّداً فيه، وهذا الاستثناء لم يُبِحْ إلاّ المصانعَةَ الصُّوريَّةَ، لاتّقاء شرورهم.

أمّا اتّخاذُ بطانةٍ منهم فهي موالاةٌ من مستوىً رفيع جدّاً، وهو أمرٌ لا يليقُ إلاّ بالْخُلّص من المؤمنين، فلا يجوز اتخاذُ بطانةٍ من الكافرين بداهة.

لكنّ الأمر الذي قد تحصُلُ فيه شبهة هو اتّخاذُ المنافقين بطانةً، فجاء النَّصُّ للتحْذيرِ منه بالقصْدِ الأوّل، مع شمول النصّ للكافرين، والفاسقين والذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، إذْ كُلُّهم يدخلون في عُموم وصف:

﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾.

إنّ الذين هم من دون المؤمنين الصادقين يَبْدأ فَصْلُهُمْ اعتباراً من الملاحدة الدهريين، فالمشركين، وأهل الكتاب من اليهود، فأهل الكتاب من النصارى وأشباههم، فالمنافقين الذين ظاهِرُهُم الإسلام ويخالطون المؤمنين، فالذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، إذْ هم من دون المؤمنين الصادقين، وَغَيْرُ مأمونين على أسرار المسلمين.

وأُطْلِقَ علىٰ المقرّبين من مواقع أسرار الرّجل بطانة، لأنّ بطانة الثوب هي الأقرب إلى بدن لابسه، والأدنىٰ إلى ملامسة بشرته، ومناطق عوراته.

والمقرّبون هم الذين يخالطون من الداخل، ويطّلعون على الأسرار، ويكونُونَ أعلم بمواطن الضعف، ومواطن القوّة، فإذا كانُوا في حقيقة أمرهم أعداءً، كانُوا أشدّ نكاية، وأبلَغ إضراراً وإفساداً.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾:

أي: لا يُقَصِّرون مجتهدين، ولا يُبَطِّئون في عملٍ يبغونكم به فساداً ونقصاناً وإضراراً، دونما فتور ولا ضعف، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

فهم يَطْلُبُونَ لكم في نفوسهم هذه الأمور، ويعملون جاهدين غير مقصّرين،

ولا مبطئين ولا فاترين ولا ضعفاء في تحقيقها بمختلف الوسائل، استجابةً لما في قلوبهم نحوكم من عداوة وكراهية وحقد.

﴿لا يألونكم﴾ فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿بطانة من دونكم﴾ والكاف في ﴿يألُونَكُم﴾ مفعول به أوّل و ﴿خبالاً﴾ مفعول به ثانٍ على رأي الزمخشري، وقيل: منصوب بنزع الخافض، وقيل: منصوب على أنه تمييز بتأويل متكلّف.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾:

أي: تمنّوا أي ينزل بكم الضرر الشديد، والأذى، وأنواع المشقة، والتعب، وأن تَحْبَطَ أعمالكم وتَفْسُد.

وهذا التّمني يدُلُّنا على أن هدفهم إضعاف قوى المؤمنين، وتوهين أمرهم، وتفريق صفّهم، وإنزال الهزائم بهم، للتخلّص منهم، ومن دينهم، ومن ظهور دعوتهم التي بدأت تكتسح عقائدهم، وتنسف زعاماتهم، وتفوّت عليهم مصالحَ وأهواءَ وشهواتٍ ظالمات يحققها لهم كفرهم.

وفي بيان تمنّيهم هذا دلالة على الدافع النفسيّ الذي يجعلهم لا يألون المؤمنين خبالاً.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾:

أي: قد ظهرت البغضاء التي يطوونها ويكتمونها في نفوسهم وقلوبهم من أفواههم، إذْ تنطلق منها ما بين حين وآخر فلتات أقوال تدلُّ على ما يكتمون، وهم قد يبطّنون أقوالهم بمعانٍ يرمزون لها رمزاً، ويشيرون إليها من طرفٍ خفيّ.

وجاء تأكيد الجملة بحرف «قد» للتنبيه على أنّ ما يبدو من أفواههم من العلامات والأماراتِ كافٍ لمعرفتهم والحذر منهم.

وفلتات الأقوال من العلامات والأمارات التي تدلّ على ما في النفوس، وقد بيّن الله عزّ وجلّ لرسوله ثم لكلّ مؤمنٍ من بعده هذه العلامة التي تدلُّ على نفاق المنافقين بقوله تعالى في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: ولو نَشاءُ فَضْحَهم لأريناكَ علامَاتِ نِفاقِهِمْ في وجوههم، فهي سِيما (أي: علامة) خاصة تَتميَّزُ بها وجوه المنافقين، يُبْصِرُها من وهَبهُ الله معرفة سيما الوجوه وأماراتها، وهو من عِلْم الفِرَاسة، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «اتَّقُوا فِراسةَ المؤمِنِ فإنّه ينظُرُ بنور اللّهِ عزّ وجلّ».

(عن الجامع الصغير (١٥١))

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾:

أي: ولَتَعْرِفَنَّهم فيما تُشِير إليه أقوالُهم من طرفٍ خفيّ، أو ما تَسْبِق إليه تعبيراتُ ألسنتهم ممّا يعتلج في نفوسهم، دون وعْيٍ منْهم لما انفلت من ألسنتهم.

لَحْنُ القول: هو رمْزُه وما يتضمّن الإشارة إلى المراد من طرف خفيّ، وما يفهمه السامع بالتأمُّل فيه من وراء لفظه. ولَحْنُ القول أيضاً: الخطأ فيه، وهو ما يعبَّرُ عَنْه بفلَتَات الألسنة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾:

أي: وما تخفي صدورهم الحاوية لقلوبهم ولِعُمْقِ نُفُوسهم مِنَ البغضاء أكبَرُ ممّا تَدُلُّ عليه رُموزُ أقوالهم وفلتاتُها التي تَصْدُرُ من أفواههم، لأنهم يَحْبِسون ألسنتهم، فلا يسمحون لها بأن تعبّر عن كلّ ما في صدورهم، حتّى لا تنكشف ضمائرهم وما يكتمون فيها من بغضاء للمؤمنين، ومن كفرٍ بالإسلام، الأمر الذي يكشف أنهم منافقون كذّابُون في ادّعائهم الإيمان والإسلام.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

أي: قد أوضحنا لكم العلامات والدّلائل الّتي تـدُلُّكُمْ على أعدائكُمُ المخالطين لكُمْ، وبيّنّا لكُمُ العظات التي تحميكُمْ من شرورهم، والتي تَتَبيَّنُونَها، وتستهدُونَ بهديها إنْ كنتم تعقلون، أيّها المؤمنون.

فجواب الشرط في ﴿إنْ كنتم تعقلون﴾ محذوف دلّت عليه جُملَةُ ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات﴾، والتقدير: قد بيّنّا لَكُمُ الآيات فأنتم تَتَبيَّنُون دلالاتها وتعملونَ بمقتضاها إنْ كُنْتُمْ تعقلون.

والمراد من العقل هنا فيما يظهر العقلُ العلمي بمعنى المحافظة في التذكّر الدائم على ما جاء في البيان، واسْتنباطِ ما تَدُلُّ عليه الأمارات والعلامات الظاهرات من دلالات كاشفات للبواطن، وبمعنىٰ العقل الإرادي، ويكون بشِدَّة الحذر وضبطِ النفس، وعدم الاستجابة لما يُخَادِع به المنافقون ممّا يُرضي أهواء النفوس وشهواتها، أو يَغُرُّها من أقوالٍ أو أعمال أو مُرْضِيات أخرىٰ لها ظواهر كاذبات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿هَٰأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾:

أي: ها أنتم أيُّها المؤمنون الصادقون تحبُونَ هؤلاء المنافقين، اغتراراً بظاهر إسلامهم، ومخادعتهم بإظهار مودّاتهم في أقوالهم، وببعض ظواهر أعمالهم، فتعتبرونهم إخوةً لكُمْ أصْفياءَ أخِلَّاء، وتجعلونهم بطانَةً لكُمْ وهم في حقيقة أمرهم لا يُحِبُّونكم بدليل ما يظهر من أفواههم مما يدُلُّ بأماراته على ما في قلوبهم نَحْوكم من بغضاء، فاعرفوا دليل الأمارات، ولْتَكُنْ هاديةً لَكُمْ في الحيطة والحذر والمراقبة الدائمة وعدم الاستئمان.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾:

إنّ من المنافقين شياطين من اليهود، وهم مقصودون بالنّصّ قصْداً أوّليّاً لأنّهم أخبثُ المنافقين وأشدُّهم مكراً، وكَيْداً، وبغضاً للمؤمنين، فنبَّهَتْ هذه الجملةُ عليهم.

والمعنىٰ الذي تدلُّ عليه: هو أنّه قد كان المفروض في المنافقين من اليهود ألاّ تكونَ هذه البغضاء لكم في قلوبهم، لأنّكم تؤمِنُون بكُتبِهِمْ وبسائرِ الكُتُب الرّبّانيّة.

لكِنَّهُمْ على خلاف ذلك، فلا تثقوا بهم، ولا تنتظروا منهم خيراً.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾:

أي: والمنافقون لهم وجهان:

الأول: وَجْهٌ يخادِعُونَكُمْ به إذا لَقُوكُمْ، فإذَا لَقُوكُمْ قالُوا لكُمْ: آمَنَّا معكم مثْلَ إيمانكم، ونحن نُحِبّكُمْ ونُوَدُّكم، لأنّكم إخواننا في الدين، وهُمْ في الادّعاءَيْنِ كاذبون.

الثاني: وجْهٌ يُظْهِرُونه إذا خلَوْا، فَهُمْ إذا خلَوْا بأَنْفُسِهِمْ، أو خلا بعضهم إلى بعض كشفُوا حقيقة كُفرهم بما أعْلَنوا أمام المؤمنين أنّهم آمَنُوا به، وكشَفُوا ما في قلوبهم من غيظٍ من المؤمنين ومن الرسول ﷺ.

ومن مظاهر تعبيراتهم الحركية عن غيظهم من المؤمنين، أنْ يَضَعُوا أناملهم في أفواههم ويَعَضُّوا عليها غيظاً وحنقاً، وعَضُّ الأنامل عند الغيظ والحنق عادة معروفة عند كثير من النّاس. والمرادُ أنّهم عبَّرُوا عن غيظهم، سواءٌ أفعلُوا هذه العادة أو لم يفعلوها، على أنّ كلّ حركة نفسيّة لا بدّ لها في العادة من تعبير ظاهر، بالأقوال أو بالأفعال، أو بسيما الوجوه.

ومع الغيظ الشديد يفكّرون ويُقَدِّرون ويحاولونَ جَهْدَهم غالباً اتّخاذَ الوسائل للنكاية بالمؤمنين، وتدبير المكايد لهم، وإفساد أمورهم، وإنزال العنت بهم، تحقيقاً لأمانيهم.

وقد يسأل سائل: ما موقع ﴿عليكم﴾ هنا في النصّ، وقد كان يكفي أن يُقال: وإذا خَلَوْا عَضُّوا الأنامل من الغيظ؟

وأقول:

إنّهم في موقف الْعَجْز عن نِكَايَةِ المؤمنين وإنزال المصائب فيهم، مع وجود الرَّغبة العارمة في نفوسِهم للتخلُّصِ مِنْهُمْ بأيَّة وسيلة، وحينما يَخْلُون ويتحرّرُون من ضغط المراقبة، وتتحرّكُ أعضاؤهم للتعبير عمّا في نفوسهم وقلوبهم ضدّ المؤمنين، فإنّ تخيُّلَهُمْ يسْبِقُهُمْ إلى تصوُّرِ القبض على المؤمنين وافتراسهم بأسنانهم عضّاً ونهشاً، لكنَّهُمْ حين يُقَدِّمُونَ الصُّورَ المتخيَّلةَ بأيديهم إلى أفواههم لا يَجِدُون ما يَعَضُّونه إلّا أنامِلَهُمْ، بيد أنّ نفوسهم من الداخل تَعضُّكُمْ أنتم، فالتعبير الملائم للحالتين النفسيّة الباطنة، والحسّيّة الظاهرة، أن يُقَالَ كما جاء في النصّ بإبداعه العجيب مع إيجازه: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنامِلَ مِنَ الغيظ﴾.

عَضُّوا: حركةٌ حسيّة ظاهرة.

عليكم: حركة نفسيّة باطنة.

الأنامل: حركة حسيّة ظاهرة.

من الغيظ: حركة نفسية باطنة.

و (مِنْ) في ﴿من الغيظ﴾ للابتداء، ابتداءً من عُمْقِ الغيظ حتّى ضغط الأسنان بالعضّ، الذي يتوهّمون أنّه عضٌّ عليكم لإيلامكم وافتراسكم، أو للتعليل، لكن المعنى الأول أدقّ.

وتَدُلُّ عبارة ﴿عليكم﴾ على أنّهم يشدّدون عضهم على أناملهم، لأنّهم يتوهّمُونَ أنّهم يعضُّونها وأنتم فيها، رغبةً في إيلامكم، وهم في الواقع يؤلمون أنفسهم، وهذا غايةٌ في التعبير عن شدّةِ غيظهم، الذي غفلوا معه عن آلام أناملهم.

وفي العبارة حذف من الأوّل لدلالة الآخر، وحذف من الآخر لدلالة الأول وهو ما يسمّى عند البلاغيين «الاحتباك» وبإبراز المحذوفين تكون العبارة كما يلي: وإذا لقوكم قالوا: آمنّا ونحنُ إخوانكم ونحبّكم وإذا خلوا قالوا: لم نؤمن بل نحن على ديننا الأول، وعضوا عليكم الأنامل من الغيظ.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ :

أي: لن تصلوا إلى ما تتمنَّوْنَ من كيد المؤمنين وعنتهم، وإفساد أمورهم، والإضرار بهم، وإيقاف مسيرة دعوتهم، ومناصرةِ أعدائهم الظاهرين ومؤازرتهم، بُغْيَةَ استئصال القوّة الإيمانيّة، والتخلُّص من دين الإسلام.

إنّ الله سَيَرُدُّ كَيْدَكم إلى صدوركم، ولنْ يضرَّ المؤمنين كيْدُكم شيئاً، مهما كان كيداً كُبّاراً.

فاستَمِرُّوا على غيظكم تكتَوُون بآلامه ما حَيِيتُم، حتَّىٰ يشتَدّ ويتزايَدَ بانتصار المؤمنين وهزائم أعدائهم، فيكونَ سبباً لموتكم، فتموتوا به، أو حتَّىٰ تنتهي آجالكُمُ المقدَّرة لكُمْ، فَتَمُوتُوا وأنتم مُلْتَبسونَ بغيظكُم تُعَانُونَ آلامه.

فالله عزّ وجلّ لن يَتْرُكَ أولياءَهُ المؤمنين المتقين، تُفْسِدُ أُمُورَهُمْ مكايدُ المنافقين المخالطين المداخلين، ما دام المؤمنون يهتدون بِهَدْيِ بيانات الله وعظاته لهم.

أمّا استخفاء المنافقين بعداواتهم وبغضائهم ومكايدهم فلن ينفعهم في إضرار المؤمنين، وذلك لأنّ الله عزّ وجلّ يعلَمُ ما يكْتُمون، وما يُخْفُون عن المؤمنين في خلواتهم، ويعلَمُ ما يُضْمِرُون لهم في صُدُورِهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ :

أي: بالأسرار والنيّات والرغبات المصاحبات للصدور، فضلاً عمّا هو دون ذلك في الخفاء، ممّا يُبَيِّتونه ضدّ المؤمنين في خلواتهم.

ويدخُل في عموم عبارة ﴿ذات الصدور﴾ ما تُضْمِرُه الصدور حتّى أعماق الأفئدة، من كفرٍ، وبغض، وغيظ، وحقد، وإرادة سوءٍ وشرّ، وتدبيرات كيدٍ، وتمنّي عَنَتِ المؤمنين، وحبّ انتصار الكفر والكافرين، إلى غير ذلك من ثوابتَ ومتحرّكات داخل النفس.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾:

أي: ومن علامات نفاقهم وكفرهم الذي يُبْطِنونه، وما يحملون لكم في نفوسهم من البغضاء أمران:

الأمر الأول: ما يظهر على وجوهم وفي أقوالهم من أمارات مَساءتهم، إنْ تَمْسسكُمْ حسنةٌ ما، ولو مَسّاً رفيقاً قليلاً، لأنّ الحسنة لكم تسرُّكُمْ، ومسرّتكُم تسوؤهم.

الأمر الثاني: ما يظهر على وجوههم وفي أقوالهم من أمارات فرحهم، إنْ تُصِبْكُمْ سيِّئةٌ ما، ولو إصابةً بالغة، لأنّ السيئة لكم تسوؤكم، ومساءتُكُمْ تسُرُّهم.

واستعمال (إنْ) الشرطية هنا للدلالة على مطلق الشرط، دون النظر إلى أنّ الشرطَ مشكوكٌ في وقوعه، لأنّ الحياة فيها دواماً تعاقبُ ما يسُرُّ وما يسوء، لكن يُختار غالباً للشرط المشكوك فيه، استعمال حرف (إنْ) ويُختارُ للشرط المتحقّق الوقوع استعمال حرف (إذا) كما يقولُ البلاغيون.

على أنّ حَرْف (إنْ) هو أصل أدوات الشرط، فلا يلزم دواماً في شرطها أن يكون نادراً أو مشكوكاً في وقوعه، بل قد يكون متحقّق الوقوع.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

في هذا التعليم بيان للمؤمنين أنهم إن حققُوا بإراداتهم أمرين تولّاهم الله، فلَمْ يَضُرَّهُمْ كيْدُ المنافقين شيئاً.

الأمر الأول: الصبر، وفي التوجيه للصبر على المنافقين، وعدم التَّسرُّع بمقارَعتِهِمْ مقارَعةً علنيّةً واضحة، كمقارعة الكافرين الصرحاء، بيانٌ للمنهج الرّبّاني في معاملة المنافقين، الذين لم يُعْلِنوا كُفْرَهُمْ صراحةً، بل اقتصرت دلائل كفرهم ونفاقهم على الأمارات التي لم تصِلْ إلى درجةِ الإدانة القضائيّة بالكُفْرِ والرِّدّة.

الأمر الثاني: التقوى، وتعني التقوىَ هنا ما يشمل قضيتين:

* قضية اتّقاء سخط الله وعذابه، بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، ولا سيما ما نهىٰ عنه من اتّخاذ بطانة من المنافقين والكافرين والذين في قلوبهم مرض الشكّ والرّيب، وعدم سلامة الإيمان.

* وقضية اتّقاء مكر المنافقين ومكايدهم، بشدّة الحذر منهم، وبوضعهم موضع المراقبة الدائمة، وبعدَمِ تقريب أحدٍ منهم، أو مُخاللته ومصافاته، أو مصادقته بطمأنينة، فهم أعداءٌ مُقَنَّعُون بأقنعة أولياء وأصدقاء ومحبّين، وهي أقنعة كاذبات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾:

أي: فهو سبحانه وتعالى يفسد عليهم كلَّ مخطّطاتهم، ويردُّ عليهم مكرهم وكيدهم، ومن ذلك كشف ما يُدَبِّرون للمؤمنين، قبل أن يصلوا به إلى الإضرار بهم.

كيف يفلتون من الله العليم الحكيم، وهو بكلّ ما يعملون محيط. وبما أنّ الله عزّ وجلَّ محيطٌ بما يَعْمَلُ المنافقون، وهو العليم بذات صدورهم، وقد وعدَ الله المؤمنين بأن لا تضرُّهم مكايد المنافقين شيئاً، إذا صبروا واتّقوا كما أمرهم، ولم يتّخذوا منهم بطانة، وكانوا على حذر دائم منهم، وتفرُّسٍ بما يظهر من أماراتٍ عليهم، في أقوالهم أو أعمالهم أو حركاتٍ وتغيّراتِ وجوههم.

إنّ الله عزّ وجلّ لن يدعَ مكايد المنافقين تبلغ إلى مداها فتضرّ أولياءه المؤمنين العاملين بوصاياه.

هذا وعدٌ من الله عزّ وجلّ، مشروطٌ بالتزام مناهجه ووصاياه وما وعظهم به.

● ● ●

مقدمـة عامـة

للنصوص (٩) و (١٠) و (١١) من سورة (آل عمران)
حول ما جاء بشأن المنافقين وظواهرهم السلوكية
بمناسبة أحداث غزوة أحد

اشتملت سورة (آل عمران) على عدّة بيانات تتعلق بغزوة أحد وأحداثها، ومن أحداثها ما كان من المنافقين فيها، فجاء في هذه البيانات فَضْحُ أقوال وأعمال المنافقين التي ظهرت منهم خلال أحداثها وعَقِبَها، مع التعقيب عليها بالتحليل، والتوجيه، والبيان الديني، الموجّه لهم أو للرسول والمؤمنين.

وقد جاء في السورة ثلاثة نصوص حول هذا الموضوع، أحدها الآيات من (١٥٢ ـ ١٥٨) منها، والثاني الآيات من (١٦٥ ـ ١٦٨) منها، والثالث الآيات من (١٧٦ ـ ١٧٩) منها.

وقبل تدبُّر هذه النصوص الثلاثة نستعرض قصة المنافقين في غزوة أحد.

* * *

مواقف المنافقين في غزوة أُحُد

(١)
موجز معركة أحد

(١) استقرّ رأي زُعماء قريش على أن يثأروا لأنفسهم من الهزيمة المخزية، التي حلّت بهم في معركة بدرٍ الكبرى، فقرّروا أن يخرجوا لقتال المسلمين في المدينة، فأعدُّوا جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، بكامل عدّتهم وعتادهم.

(٢) وبعد اثني عشر شهراً من هزيمتهم المنكرة في بدر، وفي أوائل شهر شوال لثلاث خلون منه، خرجت قريش بحدّها وجدّها وحديدها، لقتال المسلمين في المدينة، وخرج من اجتمع معها، ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة.

وأخرجوا معهم نساءهم ليزدن في حماستهم، وشدّة بأسهم، ونزلوا مقابل المدينة قريباً من أحد.

(٣) وعَلِمَ الرَّسُولُ ﷺ بتحرُّكهم منذ خرجوا من مكّة، ولمّا سمع بوصولهم استشار المسلمين في الأمر، وعرض عليهم رأيه، فقال لهم:

«فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة، وتَدَعُوهم حيث نزلوا، فإنْ أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإنْ هم دخَلُوا علينا قاتلناهم فيها؟».

وروى الطبري بسنده عن قتادة أنّ الرسولَ ﷺ قال لأصحابه يومئذٍ:

«إنّا في جُنَّةٍ حَصِينَةٍ فدعوا القوم، إنْ يدخُلوا علينا نقاتلْهم، فقال ناسٌ من أصحابه من الأنصار: يا نبيّ الله، إنّا نَكْرَهُ أنْ نقتل في طُرقِ المدينة، وقد كُنّا نمتنع في الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحقُّ أن نمتنع فيه، فابْرُزْ بنا إلى القوم»[١].

وكان رأي كبير المنافقين عبد الله بن أُبَيّ بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ في ذلك، يرى ألّا يخرج إليهم.

وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج من المدينة لقتال جيش قريش خارجها.

(٤) فقال رجال من المسلمين من الذين فاتهم شهود بدر: يا رسُول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرونَ أنّا جَبُنّا عنهم وضعفنا.

وكان من كبار الراغبين في الخروج حمزة بن عبد المطلب عمّ الرسول ﷺ.

(٥) فقال عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول[٢]: يا رسول الله، أقم بالمدينة، لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قطُّ إلّا أصاب منّا، ولا دخَلها علينا إلّا أصَبْنَا

(١) انظر الطبري، الجزء الرابع ص ١٦٤.

(٢) سَلُول: جدّة عبد الله بن أُبَيّ لأبيه، وعبد الله بن أُبَيّ هذا هو كبير منافقي المدينة.

منه، فدعهم يا رسول الله، فإنْ أقاموا أقاموا بشرّ مَحْبِس، وإنْ دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهُمُ النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رَجَعُوا رجعُوا خائبين كما جاءوا.

(٦) فلم يزل الذين كانَ من أمرهم حبُّ لقاء القوم يُلِحُّونَ على رسول الله ﷺ بالخروج إلى عدُوِّهم، حتّى دخل رسول الله ﷺ بيتَهُ، فلبِسَ لِباسَ الحرب استجابة لرأيهم وهم الأكثر عدداً، وكان ذلك عقب صلاة الجمعة الرابع عشر من شهر شوال للسنة الثالثة للهجرة.

(٧) وقال سعد بن معاذ، وأُسَيْدُ بن حُضير، لجمهور المسلمين الذين أَلَحُّوا على الرسول ﷺ بالخروج: استَكْرَهْتُم رسولَ الله على الخروج، فَرُدُّوا إليه الأمر، فندموا على ما صنعوا.

(٨) وخرج رسول الله ﷺ على المسلمين لابساً لباسَ الحرب، إشعاراً بأنّه قرّر الخروج لقتال المشركين.

فلمّا رأَوْه لابساً لِباس الحرب قالُوا: يا رسول الله، استكرهناك ولم يَكُنْ ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلّى الله عليك.

فقال رسولُ الله ﷺ: «ما يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إذا لبسَ لأمَتَهُ أن يضعها حتّى يحكُم الله بينه وبين عدوّه».

لأمَتَه: اللأمة درع الحرب، أو لباس الحرب من درع وغيره.

وفي رواية الطبري عن قتادة «أنّ الرسول بعد أن قال له ناسٌ من أصحابه من الأنصار: فابرُز بنا إلى القوم، انطلَق فلبس لأمته، فتلاوم القوم، فقالوا: عرَّض نبيُّ الله ﷺ بأمر، وعرَّضتُمْ بغيره، اذْهَبْ يا حمزة فقُلْ لنبيِّ الله: أمْرُنا لأمرك تَبَعٌ، فأتَى حمزة فقال له: يا نبيَّ الله إنَّ القوم قد تلاوموا، وقالوا: أمرنا لأمرك تَبَعٌ، فقال رسول الله ﷺ: إنّه ليس لنبيّ إذا لبس لأمَتَهُ أن يضعها حتّى يُنَاجِزَ، وإنّه ستكُونُ فيكم مصيبة.

قالوا: يا نبيَّ الله، خاصّةً أو عامّةً؟ قال: ستَرَوْنَها».

(٩) وخرج رسول الله ﷺ بألف من المسلمين بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، وبات ليلة السبت خارج المدينة، في مكان بينها وبين جبل أُحُد. وقبيل طلوع الفجر أدلج متّجهاً شطر أُحُد.

(١٠) عندئذٍ انخذل عن الرسول ﷺ عبد الله بنُ أُبَي بن سلول، كبير المنافقين، ومعه ثلاثمائةِ رجلٍ من قومه، من أهل النفاق والرّيب، وقفلوا عائدين إلى المدينة.

وقال في تعليلِ انخِذاله: أطاعهم وعصاني (يشير إلى الذين ألَحُّوا على الرسول بالخروج) ما ندري علاَم نَقْتُلُ أنفسَنا هٰهُنا أيُّها الناس.

فـاتْبَعَهُم عبدُ الله بنُ عَمْرو بن حَرام ينـاديهم: يا قـوم، أُذكِّرُكُمُ الله ألاّ تخذلوا قومكم ونبيَّكم عندما حضر عدُوُّكُمْ.

فقال المنافقون: لو نعلَمُ أنَّكُمْ تُقاتلون لما أسلمناكم، ولكنّا لا نرىٰ أنّه يكونُ قتال.

وهذا تعليلٌ ظاهريٌّ كاذب.

فلمّا استعصَوْا علَيْه وأبَوْا إلاّ الرجوع إلى المدينة قال: أبعدكم اللهُ أعداءَ الله، فَسَيُغْنِي الله عنكم نبيّه.

(١١) وهمَّت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا (أي: أن تَضْعُفَا وتَجْبُنَا) تأثُّراً بما فعل عبد الله بن أُبَيّ ومن تَبِعَه من قومه، لكنّهما لم تفعلا فقد ثبّتهما الله.

وهاتان الطائفتان هما: بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج.

(١٢) وأراد رسول الله ﷺ أن يختصر الطريق إلى أُحد، وأن يتفادىٰ العبور من طريقٍ يمرُّ بها على المشركين فقال:

«مَنْ رجُلٌ يخرجُ بنا على القوم من كثَبٍ[1]، من طريقٍ لا يمرُّ بنا عليهم؟».

---

(١) من كثَب: أي: من قُرْب.

فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، فنفذ بالمسلمين في حرَّة بني حارثة، ومن أموالهم، حتّى سلك في مال لِمِرْبَعِ بن قَيْظِي، وكان رجُلاً منافقاً ضريرَ البصر.

فلمّا سمع حِسَّ رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب، ويقول: إنْ كنتَ رسولَ اللّهِ فإنّي لا أُحِلُّ لك أن تَدْخُلَ حائطي، وظهر نفاقه.

وابتدره المسلمون ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ:

«لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب وأعمى البصر».

(١٣) ومضى رسول الله ﷺ بالمسلمين حتّى وصل إلى جبل أُحُدٍ، وجعل منزله هُناك، واتّخذ لجيشه منزلاً في الشعب من جبل أحد في عُدْوَة الوادي، وعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة، وظَهْرُه إلى جبل أُحُد.

(١٤) ومع أوّل النهار من يوم السبت الخامس من شهر شوال لسنة ثلاث هجريّة، عبّأ الرسول ﷺ أفراد جَيْشِه، ورتَّبَهُمْ صفوفاً للقتال.

واختار من الرُّماة كتيبةً عددُها خمسون رامياً، وأمّر عليهم عبد الله بن جُبَيْر الأنصاريَ الأوسيّ، واختار لهم موضعاً مُشْرِفاً على ساحة المعركة، وهو جَبَلٌ صغيرٌ قُرْبَ أحُدٍ، يقع وراء جيش المسلمين، ليحموا ظهور الجيش، من غارات خيل المشركين إذا جاءت من ورائهم.

وقال الرسول ﷺ لأمير الرماة:

«انضح الخيل عنّا بالنَّبْل، لا يأتُونَا مِنْ خلفنا، إنْ كانت لنا أو علينا، فاثْبُتْ مكانك، لا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكَ».

وقال للرُّماة:

«احْمُوا ظهورَنا، فإن رأيتمونا نُقْتَلُ فلا تنصرُونا، وإن رأيتمونا قد غَنِمْنا فلا تَشْرَكُونا».

وفي رواية البخاري أنّه قال لهم: «إنْ رأيتُمونا تَخْطَفُنَا الطير فلا تَبْرَحُوا مكانكم حتّىٰ أُرسِلَ إليكم، وإنْ رأيتُمونَا هَزَمْنَا الْقومَ وَوَطِئْنَاهُمْ فلا تَبْرَحُوا حتّى أُرْسِلَ إليكم».

(١٥) ونَهىٰ الرسول ﷺ المسلمين عن مباشرة القتال حتّى يأْذَنَ لهم، وحضّهم

على المصابرة، وشدّة البأس عند اللّقاء، وقال لهم:

«إنّكم ستظهرون فلا تأخذوا ممّا أصبتُمْ من غنائمهم شيئاً حتى تَفْرَغُوا».

ثمّ التقىٰ الفريقان، ودنا بعضهم من بعض، واقتتلوا حتّىٰ حَمِيَت الحرب، فأنزل الله عزّ وجلّ نَصْرَهُ، وصدَقَ المسلمين وعْدَهُ، فحسُّوا المشركينَ بالسُّيوف، حتّىٰ كشفوهم عن مُعَسْكَرِهم، وكانت الهزيمة في المشركين لا شكَّ فيها.

روىٰ عبد الله بنُ الزُّبير عن أبيه أنّه قال: والله لقد رأيْتُني أَنْظُر إلىٰ خَدَمِ سوق هِنْدٍ بنت عُتْبَة وَصَواحِبِهَا مُشَمِّراتٍ هوارب، ما دون أَخْذِهِنَّ قليلٌ ولا كثير.

ونظير ذلك عن البراء بن عازب، فيما رواه البخاري.

(١٦) وتَبِعَ المسلمون المشركين يُعْمِلونَ فيهم السلاح، وينتهبُونَ الغنائم.

(١٧) ولمّا رأىٰ الرُّماةُ الّذين كانُوا حُرّاسَ ظهورِ المسلمين ما حلّ بالمشركين من هزيمة كشفتهم عن مُعَسْكرهم، انْطَلَق أربعون منهم وهم يتنادَوْنَ: الغنيمةَ الغنيمةَ لا تفتكُمْ. وأميرُهُمْ عبد الله بْنُ جُبَيرٍ ينهاهم، ويقول لهم: أَنَسِيتُمْ ما قال لكُمْ رسولُ الله ﷺ.

ولكنّهُمْ أصرُّوا على معصيتهم طمعاً بالغنيمة، وقالوا: واللّهِ لنأتِيَنَّ النّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ من الغنيمة.

وثبتَ عشرةٌ منهم مكانهم، وقالوا: لن نَتْرُكَ موضعنا حتّىٰ يأذَنَ لنا نبيُّ الله ﷺ، وعلى رأسهم عبد الله بْنُ جُبَيْر.

(١٨) وخلّىٰ الرُّماةُ الذينَ تركُوا مواضعهم ظهورَ جيش المسلمين لغارات خيلِ المشركين دون حماية.

عندئذٍ دارتْ كتيبةٌ من خيولِ المشركين بقيادة خالد بن الوليد، (ولم يكُنْ قد أسلم بعد) وأغارتْ على الرّماةِ العشرة الذينَ بقوا في مواضعهم فأبادتهم.

وخلَتْ ظُهورُ جيشِ المسلمين من أيّةِ حماية، فأغارَتْ خيلُ المشركين على المسلمين من وراء ظهورهم، فاستدار المسلمون يدافعون الغارة المهاجة من ورائهم.

(١٩) عندئذٍ رأى جيشُ المشركين المنهزم ما حلّ بالمسلمين، فاستداروا وكرُّوا على المسلمين، ووقع المسلمون عندئذٍ بين فريقين من العدوّ كأنهم بين حَجري رَحا، ودارَتْ الدائرةُ عليهم، وسقط منهم سبعون قتيلاً، وصاح صائح ألا إنَّ مُحمّداً قد قُتِل.

(٢٠) وأصْعَدَ جمهورٌ كبيرٌ من جيشِ المسلمين هاربين نحو المدينة، وفي بُطونِ الأودية والشعاب، حتّى وصلَ بعضُهم المدينة ودخلها، وانطلَقَ بعضُ المسلمين شطر جبل أُحد.

والرسول ﷺ يُنادِي المسلمين المنهزمين: إليَّ عبادَ الله، ولم يكُنْ حولَهُ منهم إلاّ تسعةُ مقاتلين يحمونَهُ من هجماتِ المشركين، سبعةٌ من الأنصار واثنان من المهاجرين.

وافتداه هؤلاء النفر بأنفسهم، وحَمَوْهُ بأجسادهم، وقاتَلُوا قتال الأبطال الذين لا يخشونَ الموت، ويرونَ الشهادة في سبيل اللّهِ باب الجنَّةِ والسعادة الأبديّة والنعيمِ المقيم.

وقُتِلُوا جميعاً إلاّ طلحة بن عبيد الله، فقد جُرِحَ نَيِّفاً وثلاثين جرحاً، وأصيبت يَدُهُ فَشَلَّتْ، إذْ كان يَقِي بِهَا النبيَّ ﷺ.

(٢١) وسَمِعَ كثيرٌ مِنَ المسلمين صوتَ رسولِ الله ﷺ يناديهم، فأخذوا يفيئونَ إليه، ويجتمعونَ حوله، ويحمونه ويفتدونه بأنفسهم.

وأصيبَ رسُولُ الله ﷺ، فدخلَتْ حَلْقَتَان من حَلَقِ المِغْفَر[١] في وجنته، انتزعَهُمَا منها أبوعبيدة بنُ الجرّاح بأسنانه، فسقطت بذلك ثنيّتاهُ، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ[٢] ﷺ، وأصيبت ركبتُه بخَدْش.

---

(١) المِغْفَر: زَرَدٌ ينسج من الدروع على قدر الرأسُ يُلْبَس تحت القلنسوة، وجمعُه المغافر، وهو من الغَفْرِ بمعنى الستر. يُقال: غفرَ الشيءَ إذا ستره وغطّاه.

(٢) ثنيّتاه: الثنيّة: هي إحدى الأسنان الأربع التي في مقدّم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من تحت. رَبَاعيتُه: الرَّباعيَة: هي السِّنّ بين الثنية والناب، وهي أربع، رباعيتان في الفكّ الأعلى، ورَباعيتان في الفكّ الأسفل.

(٢٢) وقَتَلَ اللَّعِينُ ابنُ قَمِئَةَ مُصْعَبَ بنَ عمير، الداعيةَ البطل، حاملَ لِوَاءِ المسلمين يومئذٍ، وهو يفتدي رسول الله ﷺ بنفسه.

وكان مُصْعبُ بْنُ عُمَيرٍ يُشبهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فظنَّ ابْنُ قَمِئَة أنّه قتلَ الرسول، فَذهبَ إلى قومه وأخبرَهُمْ أنَّه قتَلَ محمّداً.

(٢٣) وأنزل الله النُّعَاسَ أَمَنَةً على طائفةِ المؤمنينَ الثابتين مع رسول الله ﷺ.

فعن الزبير قال: كُنْتُ مع النبي ﷺ حينَ اشتدّ الخوفُ، فأرسَلَ اللَّهُ علينا النومَ. وقال عبد الرحمن بنُ عوف: أُلْقِيَ النومُ علينا يومَ أُحُد.

(٢٤) وشاعَ مقْتَلُ النبيِّ ﷺ بين المشركين، وكثيرٍ من المسلمين المتفرّقين عن موقع الرسول ﷺ.

ثمّ علم المسلمون كذب الشائعة، وعرفوا مكان الرسول ﷺ، فأخذوا يفيئون إليه.

(٢٥) ثمّ انسحب الرسول ﷺ مع المسلمين إلى معسكرهم في الشِّعْب من جَبَلِ أُحُد.

وأراد المشركون أن يُتَابِعُوا قتال المسلمين في معسكرهم في الشِّعْب، فصَعَدُوا الجبل، فتصدّى لهم عُمَرُ بْنُ الخطّاب، ورهطٌ من المهاجرين، فقاتلوهم حتّىٰ أهبطوهم من الجبل.

* * *

(٢)
مواقف المنافقين في غزوة أُحُد

تتلخّص مواقف المنافقين في هٰذه الغزوة بما يلي:

(١) انخذالُ عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول، مع نحو ثلث الجيش من قومه من أهل النفاق والرِّيب.

(٢) موقف المنافق الضرير مِرْبع بن قَيْظِي، إذْ حاولَ منع الرسول والمسلمين من عبور أرضه إلى أُحُدٍ.

(٣) أُصيبَ يزيدُ بنُ حاطب بن أميّة بن رافع بجراحةٍ يوم أُحُدٍ، فأُتِيَ به إلى دار قومه وهو على شَفَا الموت، فاجتمع إليه أهل الدار، فجعل المسلمون من الرجال والنساء يقولون له: أَبْشِرْ يا ابْنَ حاطبٍ بالجنة.

وكان أبوه حاطبٌ شيخاً عَسَا (أي: أسَنَّ) في الجاهليّة، فقال: بأيِّ شيءٍ تُبَشِّرونه؟ بجنَّةٍ من حَرْمل؟! غررتم والله هذا الغلامَ من نفسه.

وكانت الأرض التي دُفِنَ فيها تُنْبِتُ نبات الْحَرْمل، ومرادُه أن يقول: ليس له جنَّةٌ إلاّ هذه الأرض التي دُفِنَ فيها، فهو إذن ينكر البعث ويوم القيامة.

في مثل هذا الموقف الحزين تظهر كوامنُ النفوس، في فلتات الألسنة، ولو كان حاطبٌ هذا مؤمناً صادقاً في إسلامه، ما ظهر على لسانه مثل هذا الكلام في شأن ابنه الشهيد يوم أُحُدٍ.

(٤) وكان في المسلمين رجلٌ يُقالُ له: «قُزْمان» لا يُدْرىٰ ممّن هو، وكان رسول الله ﷺ إذا ذُكِرَ له يقول: «إنّه لَمِنْ أهل النار».

فلمّا كان يومُ أحد خرج مع المسلمين، وقاتل قتالاً شديداً، فقَتَلَ وحْدَهُ ثمانيةً أو سبعةً من المشركين، وكان ذا بأس، فأثْبَتَتْهُ الجراحة، فاحْتُمِل إلى دار بني ظَفَر.

فجعلَ رجَالٌ من المسلمينَ يقولون له: والله لقدْ أبليتَ[1] اليوم يا قُزْمانُ فأبْشِرْ.

فقال: بماذَا أُبَشَّرُ؟ فوالله إنْ قاتَلْتُ إلاّ عن أحْسَابِ قومي، ولولا ذلك ما قاتَلْتُ.

فلمّا اشتدّت عليه آلام الجراحة، أخَذَ سهماً من كنانته فقَتَلَ به نفسه.

وهكذا كشف عن حقيقة نفسه، وأنّه كان كافراً مُنافقاً حينما علم أنَّهُ ميِّتٌ بجراحَتِه.

(١) أبليت: أي: اجتهدت في القتال اجتهاداً عظيماً، يُقالُ لغة: أبْلَى في الأمر، إذا اجتهد فيه وبالَغَ.

(٥) وخرج مع المسلمين يوم أُحُدٍ الحارثُ بن سُوَيْد بن صامت، وهو من المنافقين، فلمّا التقى الناس عَدَا على رجُلٍ من المسلمين فقتله، وهو المجذّر بن ذياد البلوي، لأنّ المجذّر بنَ ذياد كان قد قتل أباه سُويداً في بعض الحروب الجاهليّة التي كانت بين الأوس والخزرج، فخرج مع المسلمين لِيَسْتغِلَّ الْحَرْبَ القائمةَ فيُصِيبَ ثاره. وبعد أن قتله فرّ إلى مكّة ولَحِقَ بقريش.

وهكذا عبّر النفاقُ عن نفسه بهذا الموقف الخائن الغادر.

(٦) عن الزُّبير أنّه قال: «كنْتُ مع النبيِّ ﷺ حين اشتدّ الخوف، فأرْسَلَ اللَّهُ علينا النوم، وإنّي لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشَيْرٍ والنُّعاسُ يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلْنا هٰهُنا».

(٧) كان عبد الله بْنُ أبي بن سلول قبل أُحُدٍ لَهُ مقامٌ يقومُه إذا جَلَس رسولُ الله ﷺ يومَ الجمعة وهو يخطب الناس، فيقول: أيُّها الناس، هذا رسولُ الله بين أظْهُرِكُمْ، أكرمَكُمُ اللَّهُ وأعزَّكُمْ بِهِ، فانْصُرُوهُ وَعزِّروه[1]، واسْمَعوا له وأطيعوا، ثُمَّ يجلسُ.

فلمَّا كان منه ما كان يومَ أُحُد، إذ انْخَذل عن الرسول ﷺ بنحو ثُلُثِ الجيش، قام يوم الجمعة ليقول كلامه الذي كان يقولُه قبل أُحُد، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحِيه، وقالوا: اجلِسْ أيْ عَدُوَّ الله، لسْتَ لذلِكَ بأهل، وقد صَنَعْتَ ما صنعت.

فخرج يتخطَّى رِقابَ النّاس وهو يقول: والله لكأنّما قُلْتُ هُجْراً[2] أنْ قُمْتُ أُشَدِّدُ أمرَه؟

فلقيه رجُلٌ من الأنصار بباب المسجِدِ فقال: ما لَكَ؟ ويْلَكَ!

قال: قُمْتُ أُشدّد أمْره، فوثب عليّ رجالٌ من أصحابه يجذبونني ويُعَنِّفونني، لكأنّما قلْتُ هُجْراً (وفي رواية: بَجْراً، أي: أمراً عظيماً) أنْ قُمْتُ أُشَدِّدُ أَمْرَهُ؟

---

(١) عزّروه: أي: أعينوه وقَوُّوه وعظِّمُوه ووقِّروه.
(٢) الْهُجْرُ: الكلامُ القبيحُ.

قال: ويلكَ، ارجعْ يسْتغْفِر لكَ رسُولُ الله ﷺ.

قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

وهكذا كشف عن نفاقه أيضاً ببعض أقواله، وكان قد كشف عنه بانخذاله.

(٨) بدأ المنافقون بعد أُحُدٍ يَهْمِسُون بشأن الذين قُتلوا من المسلمين فيقولون: لو كانوا عندنا ولم يخرجوا إلى قتال المشركين في أُحُدٍ ما ماتُوا ومَا قُتِلُوا.

• • •

النص التاسع

من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنيّة

الآيـات مـن (١٥٢ ـ ١٥٨)

حول أحداث غزوة أحد وبعض ما كان من المنافقين فيها

يقول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران):

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن
يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ
عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ
عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا
تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ
عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ
لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل
لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ
وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى
ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
حَلِيمٌ (١٥٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ

وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

* * *

ما في النصّ من القراءات المواترة (من الفرش)

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف [تَغْشَىٰ] أي: الأَمَنَةُ تَغْشَىٰ.

(٢) وقرأ البصريان: ابو عمرو ويعقوب: [قُلْ: إِنَّ الأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ] برفع لفظ «كُلُّ» وهو مبتدأ، وجملة [كلُّهُ لِلَّهِ] خبر إنَّ والمعنى واحد.

(٣) وقرأ ابن كثير المكي، وحمزة والكسائي وخلف: [واللَّهُ بما يَعْمَلُونَ بَصير] بياء الغائب، وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني مرَّةً بالخطاب ومرَّةً بالغيبة، أو على التوزيع، فالتي بالخطاب للمؤمنين، والتي بالغيبة للكافرين.

(٤) وقرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف: [مِتُّم] بكسر الميم الأولى، وهو وجه عربي لهذه الكلمة، يقال: مُتُّم ومِتُّم بالضمّ والكسر.

(٥) وقرأ كلُّ القراء غيرُ حفص: [خَيْرٌ ممَّا تَجْمَعُونَ] بتاء الخطاب، فَبَيْنَ القراءتين تكامل في الأداء البياني.

* * *

(١)
الفكرة العامّة للنّص

* بدأ النّصّ ببيان صدق وعد الله للمؤمنين بالنّصر والتأييد قبل أُحُدٍ، وهو الوعد الذي أخبرهم به الرسول ﷺ، إلاّ أنّه وَعْدٌ كسائر وُعود الله لخصوص المؤمنين مشروط بالطاعة والتزام التكاليف، وعدم المعصية لله ولرسوله، وللأئمة والقادة من المؤمنين القائمين على حدود الله المطيعين لرسوله.

وببيان أنّ هذا الوعد قد تحقّق فعلاً في المرحلة الأولى من المعركة، لمّا التزم المسلمون بالطاعة، فلمّا عصى فريقٌ كثير العدد منهم طمعاً في الغنائم، وتركوا مواقع

القتال المحدّدة لهم، أمسك الله عنهم معونته، وصرفهم عن التمكن من الظفر بعدوّهم، وأوقع فيهم القتل فقُتِلَ من انتهت آجالُهم، ليكشف الصادقين في إيمانهم مريدي الآخرة، ويكشف في الواقع العملي مريدي الدنيا منهم.

* وأبانَ اللَّهُ عزَّ وَجلَّ فيه أنّه عفا عن المسيئينَ من أهل الإيمان منهم فضلاً منه، لأنهم مؤمنون عصَوْا وَنَدِمُوا وحَصَل لَهُمُ التأديب.

* وصَوَّر النصّ حالة هزيمة الأكثرين منهم سالكين في صعيد الأرض مسالك شتّى، مع أنّ الرسُول ﷺ كان يدعوهم إليه، كي يثبتوا معه، وهو في موقِعِهِ من المعركة ضِمْنَ الفِرقة التي كانت أكثر ثباتاً، ملتفةً حولَهُ تُدافع عنه وتَفْديهِ بأنْفُسِها.

فلمّا فعلوا ذلك جازاهم الله عليه بتراكم الغمّ عليهم، وكان جزاءً تربويّاً من الله لهم يصحّ أن يسمّى ثواباً باعتبار ما يُفضي إليه، كي يتعظوا ويستبصروا الحقّ ومنهجَ الله، وليعْلَمُوا سُنَّة الله في خلقه، فلا يحزنوا مستقبلاً على أشياء فاتتهم، ولا يحزنوا بسبب مصائب اصابتهم، وليَعْلَمُوا أنَّ ما فاتهم أو ما أصابهم إنَّما هو بقضاء الله وقدره أو إذنه وعلمه، لحكمةٍ أوحِكَمٍ هو يَعْلَمُهَا، منْها التأديبُ والتربية والمجازاة على بعض المعاصي، فيكون ذلك من المكفّرات للذنوب، ولمّا كان الله عليماً خبيراً بما يعملون ظاهراً وباطناً، فكلُّ تصاريفه سبحانه وتعالىٰ حكيمة.

* وأبان الله عزّ وجلّ في النصّ أنّه بعد أن أنزل بالمسلمين في معركة أحُدٍ ما أنزل، جزاءً على ما كان من كثير منهم من طمع بالغنائم، وما كان منهم أيضاً من معصية للرسول، أنزل على طائفة منهم وسيلةً من وسائل الأمن لقلوبهم. وهو النعاسُ الذي يصرف الأفكار والتصوّرات عن الاشتغال بما وقع للمسلمين في المعركة.

لكنّ طائفةً أخرى لم تَرْقَ إلى مستوى إسعافها بهذه الأَمَنَةِ من الله، فشغَلَهُمُ الْهَمُّ على أنفسهم، وأخذت أفكارُهُمْ تتخبّطُ في ظنون باطلة، كالظنون التي تجلبها المفهومات الجاهلية لأصحابها، وأخذوا يُطْلقون عبارات تدلُّ على النفاق أو مرضٍ في القلوب أخف من النفاق، ويُخْفون في أنفسهم ما لا يُبْدونه للرّسول ﷺ، ويقول قائلون منهم: لو كان لنا من الأمر في صنع قرارِ الخروج إلى العدوّ أو عدم الخروج إليه شيءٌ، لكُنّا ألزمنا الرّسول بعدم الخروج، ولما قُتِلَ مَنْ قتل منّا في أُحُد.

وعلّم الله رسوله ما يبيّنُ لهم به المفهوم الدقيق للقضاء والقدر، السابقين للأحداث والوقائع، وأنّ كُل ميّتٍ ماتَ في أُحُدٍ قد ماتَ بأجَلِهِ، وبعِلْمِ اللّهِ وإذْنِهِ، وأنّه لو لم يخرج المسلمون لمواجهة عدّوهم عند أُحد، لَخرَجَ هؤلاء بسبب آخر غير قتال المشركين، فقُتِلُوا في المواضع التي قتلوا فيها، والتي كانت مضاجعهم التي هي مضاجِعُ موتهم الْمُشْبِهِ للنَّوْم، في انتظار بعثهم الْمُشْبِهِ لليقظة من النوم.

وعلّم الله رسوله أيضاً أن يُبَيِّن لهم حكمة ما حدث للمسلمين في أُحد، وأهم عناصر هذه الحكمة ما يلي:

(١) كشف ما في الصدور من إرادة الآخرة، أو إرادة الدّنيا، الأمر الذي لا يُكشف إلّا عند المطامع، والشدائد المؤلمات المحزنات.

(٢) تمحيص ما في القلوب من عوالق وشوائبَ، فالشدائد كالنار تنقي الشوائب، وتجمع المعدن الصافي إلى بعضه خالصاً نقيًّا.

(٣) تعميقُ إيمانهم بأنّ اللّهَ عليم بذات الصدور، مهما كانت صاحِبَةُ الصدور هذه التي هي من الرغبات والنيّات ونَحْو ذَلك خفيّةً مكتُومةً لم تظهر علاماتٌ لها على سطح السلوك، وأنّ ما يُجْريه الله سبحانه من أحداث ظاهرات لا نعلَمُ لها في الناس أسباباً ظاهرة، فلا بُدّ أنّ لها أسباباً باطنةً كامنةً في الصدور، واللّهُ عليم بها، ويُجْري تصاريفه سبحانه بما يُلائمها.

* وجاء في النصّ بيانٌ عن الذين فرُّوا مُدْبرين من المعركة خوفاً على أنفسهم، وأنّ ذلكَ الفشَلَ والضَّعْفَ الذي حصل لهم، إنّما استزَلّهُمُ الشيطان له، وأزلَقَهُمْ فيه بسبب بعض الكسب الذي كسبوه، وهذا الكسبُ هو معصية الرسول طمعاً بالدنيا والغنائم.

ودلّ هذا على أنّ المعاصي التي تجرّ إليها النفس بمطامعها وشهواتها تُمَكِّنُ الشيطان من الإنسان، فيستدرجُه إلى مواطن الزَّلَلِ، ومزالقِ الخيبة والفشل.

لكنّ الله تداركهم بعفوه، فهي من أُولَيات تجرباتهم، فعفا عنهم، إنّ الله غفورٌ حليم لا يستعجل بالعقوبة.

* وخاطب الله عزّ وجلّ المؤمنين في النصّ، فنهاهم عن أن يكونوا في مفهوماتهم كالمنافقين وسائر الكافرين، وهي المفهومات التي عبّر عنها المنافقون إذْ قالوا بشأن الذين قُتِلوا في أُحُد: لو كانُوا عندنا ما مَاتُوا وما قُتِلُوا.

إنّها مقولَةٌ لا تَصْدُر إلاَّ من منابع الكفر بالله وقضائه وقَدَره، وهي مقولَةٌ وخيمةٌ من آثارها توليدُ الْحَسْرَة في القلوب، والحسرةُ مِنْ مُعَجَّل العقاب على الكفر.

بخلافِ أهل الإيمان فإنّهم يُسَلِّمُونَ تسليماً، فتكون قلوبُهم مُطْمَئِنَّةً سعيدةً خاليةً من الْحَسْرَة وآلامها.

* وأتمّ الله عزّ وجلّ النصّ بعقائد إيمانية ذاتِ ارتباطٍ بأحداث موقعةِ أحد، وهي في موضوع الحياة والموت، وموضوع مجاري مقادير الله، وموضوع يوم الدين الذي يُحْشر فيه الناس للحساب، وفصل القضاء، والجزاء.

* * *

(٢)
المفرداتُ اللّغويّة للنّصّ

﴿صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾:

يقالُ لُغةً: صَدَقَ فلانٌ في الحديث يصْدُق صِدْقاً، إذا أخبر بما يُطابقُ الواقع.
ويقال: صَدَقَ فُلانٌ فلاناً في الحديثِ صِدْقاً، وصَدَقَهُ الْحديث، إذا أنْبَأَه بما يطابقُ الواقع فيستعمل لازماً، ومتعدياً لمفعولٍ به واحد، ومتعدّياً لمفعولين.

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾:

الْحَسُّ في اللّغة القتلُ الشّديد باستئصال، والمعنى بدأْتم تقتلون فيهم قتلاً مُتتابعاً فيه معنى الغلَبَةِ المستأصلة، والظاهر أنّ المراد من الحسّ هنا إزاحة العدُوّ وكشفُهُ عن مواقعه إلى ما بعد مَحَطّ رِحالِه حَيْثُ توجدُ الغنائم.

﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾:

أي: بِعِلْمِه وإباحَتِهِ وتمكينه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾:

«إذا» هُنا اسم زمان مع تجريده من معنى الشرط، أي: حتى وقتِ فَشَلِكُمْ، وحين تُجرَّدُ من معنى الشرط تكون لمطلق الزمن، فلا تختصّ بالمستقبل.

والْفَشَلُ: هُو الفزع، والجبن، والضعف، والوهن.

وتَنَازَعْتُم: التنازُعُ هو التّخالُفُ والتخاصُمُ، وتَدافُعُ الحجج في الخصومة.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾:

أي: ردّكم الله وحوّلكم عن التسلُّط عليهم بالقتل.

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾:

أي: ليكْشِفَ مَنْ يُريدُ الدّنيا منكم ومن يريد الآخرة، ومن يَصْبِرُ صادقاً محتسباً أجره عند الله، ومن يَفِرُّ مُصْعِداً في الأرض لا يلوي على شيء، يبتغي النجاة بنفسه.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾:

أي: إذْ تَنْطَلِقُون فارّين هائمين في كلّ اتّجاه، في الوادي، ونحو المدينة، ونحو الجبل، والإصعاد في اللّغة: هو الـذهابُ في الأرض والإبعـادُ فيها، لأنّ وجْـهَ الأرض يُسمّىٰ صعيداً، وكذلك الترابُ يسمّىٰ صعيداً.

وجاء الخطابُ عامّاً والمراد مَنْ فرَّ وأصعَـدَ، نظراً إلى أنَّ العـدد الأكثر قـد فعلُوا ذلك.

﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾:

أي: ولا تَعْطِفُون على أحـدٍ منكم، ولا يَلْتَفِتُ بعضُكُمْ إلى بعض، لأنّ كلَّ فـارٍّ قد طلَبَ النجاة لنفسه.

ومن عادَةِ المنصرف عن مكانٍ ما، أو أيِّ شيْءٍ، إذا خطر في باله ما انصرف عنه أو أراد الـرُّجوع إليـه، أو الانضمـام إلى بعض جمـاعتـه المنْصَـرفين مثله، لـوى عنقـه وجسمـه أو لوىٰ عُنُقَ دابّتـه، أو لوىٰ حـركة سيره منعطفـاً إلى من ينضمّ إليه، لكنْ إذا انشغَلَتْ ساحَةُ تفكيره بالفرار والنجاة فقط لم يَلْوِ على أحد.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾:

أي: يناديكم إليه وهو في الفئة الأخرى منكم الذين ثبتوا فلم يفرُّوا.

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾:

أي: فجازاكم على فراركم، والأصل في الثواب الجزاءُ على الطاعة، قيل: واستُعْمِل هنا بمعنى مُطْلَقِ الجزاء، أقول: أرى أنَّ في اختيار فعل «أثاب» هنا معنى الترفُّق بالمسلمين، إذ ما حصل لهم لم يكن في الحقيقة عقاباً، وإنما كان للتربية والتأديب، وما يحصل به ذلك هو في حقيقته بمنزلة الثواب، لأنه لِخَيْر من يُرادُ تأديبه وتربيتِه، فإذا تأدَّبَ جرَّه ذلك إلى اغتنام الثواب العظيم.

والنُّصوص القرآنية التي جاء فيها لفظ «ثواب» وفعل «أثاب» جميعها جاءت بمعنى الجزاء على الطاعة وفعل الخير ممَّا يُحِبُّ المُثابُ أن ينالَهُ لا ممَّا يَكْرَهُ، باستثناء هذه الآية، وبالفهم الذي فهمناه نقول: إنَّ الفعل لم يخرج عن أصل معناه، بالنظر إلى الغاية البعيدة المرادة منه.

واستعملتْ كلمةُ «مَثُوبَة» في القرآن مرتين:

الأولى: التي في الآية (١٠٣) من سورة (البقرة/٢) وهي بمعنى الجزاء بخير.

والثانية: التي في الآية (٦٠) من سورة (المائدة/٥) وهي فيما أرى بمعنى المكانة، لأنَّ أهل الكتاب المرادين في الآية هم من اليهود الذين كانوا يستهزئون من المسلمين إذا نادوا إلى الصلاة، ويتخذون عبادتهم لربهم هزُواً ولعباً، فقال الله لهم:

﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾.

فهم يستهزئون من مكانة المسلمين في الصلاة يسجدون إلى ربِّهم، وهم شرُّ مكانةً عند الله، فقد لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَة الطاغوت. وجاء قوله: ﴿أولئك شرٌّ مكاناً﴾ دليلاً على المراد من «مثوبة» والله أعلم.

وفعل «ثَابَ» هو بمعنى رجع، والمكانُ الذي يُرجَعُ إليه مثوبٌ إليه، والمكانَةُ التي يُرجعُ إليها: مَثُوبة، أي: مرجوعٌ إليها.

وجاء فِعْلُ (ثُوِّبَ) بالبناء للمجهول، وهو من ثَوَّبَهُ بمعنى عوّضَهُ، فقال تعالى في سورة (المطففين/٨٣):

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

إنّهم كانوا في الدّنيا يضحكون من الذين آمنوا، أمّا في الآخرة فالـذين آمنوا من الكفّار يضحكون، فهل عُوِّضُوا على ضحكهم من المؤمنين في الدنيـا، بضحك عليهم من المؤمنين في الآخرة؟

وبهذا استوفينا كُلَّ ما جاء هذه المادة، ونستطيع بعد هذا السبر والتحليل أن نقرّر أنّ الثواب في القرآن قد استعمل في الجزاء بما هو محبوب وخير.

﴿غمّاً﴾: الغمّ: الكرب، وسُمّيَ الكربُ غمّـاً لأنـه يشتمـلُ على القلب ويُغلِّفـه ويَسْتُرُهُ بالمؤلمات.

﴿غمّاً بغمّ﴾: أي مُلْتَبِساً ومُلْتصِقاً ومُتّصلاً بغمّ آخر. أو بسبب ما أنزلوه بـالرّسـول والمؤمنين الصادقين معه من غمّ.

﴿أمَنَةً﴾: أمْناً، مصدر «أمِن» أي: اطمأنَّ ولم يخف، فهو آمِنٌ وأَمِنٌ وأمِينٌ.

﴿إلى مضاجعهم﴾: المضاجع جمع مَضْجَع، وهو مَوْضِعُ الضُّجوع، والضجوع وضْعُ الجنب على الأرض أو نحوها للراحة أو النوم. شُبِّهت المواضع التي ارتمى عليها شهداء المسلمين في أحدٍ أو دفنوا فيها بـالمضاجع الّتي تكونُ للرّاحـة أو النوم، لأنّهم في تمام الراحة بعْدَ استشهادهم، وكأنّهم نائمون، وحينما يُبْعَثُون فكـأنّهم ينهضون من مضاجع راحَتِهِمْ ونَوْمِهِم.

﴿وليُمَحِّصَ مَا في قُلوبكُمْ﴾: تمحيصُ الشيء تخليصُه مما يُخالِطُهُ ممّا لا خير فيه للغاية المرادة منه.

فـالممحّصُ من الخيـل والإبـل هـو الشـديـد الْخَلْقِ، الـذي ذهَبَتْ من جسمـه الشُّحوم وعناصر الترهُّل والضّعف، فصار لحماً مكتنزاً قوياً.

والوتَرُ الْمُمَحَّصُ هُو الذي أزيل عنه الشَّحْمُ لفتله وإحكـام إبرامه. ويقال مَحِصَ الحَبْلُ يَمْحَصُ مَحصاً فَهُوَ مَحِصٌ وَمَحِيصٌ، إذا ذهَبَ وَبَرُهُ حتّى صار أمْلَسَ أجْرَدَ.

﴿تَوَلَّوْا﴾: أي: أدْبَروا فارّين مُنْهَزِمين، والتولّيّ إدارة الظهر وإعطاءُ الدُّبر. ويَتْبَعُهُ غالباً الانصراف والابتعاد.

﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشيطان﴾: أي: استدرجهم حتى أوقعهم في الزَّلَل، أوحملهم على الوقوع في الزَّلل بالوسوسة والتسويلات، والاستدراج.

الزَّلَلُ: الخطأ في الرأي أو النيّة أو القول أو العمل الباطن أو الظاهر.

والزَّلَلُ: الذنب والإثم، وأصل الزَّلَلِ الانزلاقُ في طين أوْعَنْ صخرة أونحو ذلك، والوقوع بسبب ذلك في مزلقٍ غير محمود، ومنه قولهم: زلّت قدمه إذا زَلِقت.

يُقال: زَلَ يَزِلُ وَيَزَلُ زَلاًّ وزليلاً ومَزَلّةً، إذا زلق.

ويُقال: أزلَّ الرَّجُلُ نِدَّهُ عَنْ مَقامِهِ إزْلالاً، إذا دفع به. حتّى زَلِقَ، وكذلك أزَالَهُ.

وصيغة «اسْتَزَلَّ» من معانيها طَلَبُ تحقيق مضمون الفعل، والسَّعْيُ لهُ باتّخاذ الوسائل، حتّى يحصل المطلوب، وهذا ينطبق على ما يفعله الشيطان دواماً في الإغواء، وما فعله في الذين أوقعهم في الزَّلَل يوم أُحُد.

﴿قالُوا لإِخْوانِهِم﴾: أي: لأجْلِ إخوانهم، أوعن إخوانهم، فاللّام للتعليل، أو هي بمعنى «عن» .

إذا ضربوا في الأرض: الضرب في الأرض الإبعادُ فيها سَيْراً، وهو كناية عن السفر.

﴿غُزًى﴾: جَمْعُ غازٍ، والغازي هو الذي يقصِدُ عدُوَّهُ للقتال.

﴿حَسْرَةً﴾: الْحَسْرَةُ أشَدُّ النَّدمِ، وبالغ الألم على ما فات من المحابّ، بسبب من الأسباب.

(٣)
ما رُوي في سَبَب النزول

اتّفق شيوخ أهل التفسير من السَّلَفِ على أنّ هذا النصّ قد نزل بمناسبة الأحداث التي جرت في موقعة أحد.

والآيات فيه ظاهرةُ الاتفاق مع أحداث هذه الغزوة.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾.

في هذا القول إشارةٌ إلى الوعد الرّبّاني بالنصر قبل معركة أحد، وهو ما أخبر به الرسول ﷺ المسلمين قَبْلَ بدءِ المعركة، فقال لهم:

«إنّكُم ستظهرونَ فلا تأخذوا مما أصَبْتُم من غنائمهم شيئاً حتّى تفرَغوا».

وقال للرماة:

«لا تَبْرَحوا مكانكُمْ إنْ رأيتُمونا قد هزمناهم فإنّا لنْ نزال غالبينَ ما ثَبَتُّمْ مكانَكُم».

وعن البراء أنه قال لهم: «لا تبرحوا مكانكم، إنْ رأيتُمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإنْ رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينُونا».

وقد تحقّق النصر للمؤمنين مُدَّةَ محافظتهم على الطاعة لأوامر الرسول ﷺ، وصدّق الله وعده، ونَصْرُ اللّهِ لعباده المؤمنين مشروط بالطاعة ومُلازَمَةِ منهاجه.

لكنّ أكثر المسلمين في المعركة طمعوا في الغنائم فعصَوْا أمرَ الرّسول، ولا سيما معظم الرماة، فأقبلوا على جمع الغنائم قبل أن يأذن لهم الرسول ﷺ.

وكانوا قبل المعصية يَحُسُّونَ المشركين حَسّاً، قتلاً وضرباً وإزاحة لهم عن مواقعهم، ومَحطِّ رِحَالِهِم، الأمر الذي أغراهم بجمع الغنائم الوفيرة، ونلاحظُ في معنى الْحَسِّ هنا، هذِه الإزاحة عن مَحطِّ رحالهم المستأصلَةَ لِمُقَاتِلَتِهِم بالإبعاد عن متراكمات الغنائم، ولا يَقْتَصِر الحسُّ على مجرّد معنى القتل، لأنّ قتلى المشركين لم يَصِلُوا إلى المقدار الّتي تُشَمُّ منه رائحة الاستئصال بالقتل، والحسُّ فيه معنى الاستئصال، فهو استئصالٌ لهم بإزاحتهم مُنْكَشِفِين فارّين عن محطِّ رحالهم.

وهـذا الحسّ من المؤمنين للمشـركين لم يتحقَّقْ لهم إلاّ بـإذنٍ من الله، فلولا أنْ أذن الله بذلك إذْناً دينيّاً، وإذْناً قَدَرِيّاً بالتمكين، وتيسير الأسْباب، ما استطاع المسلمون أن يَتَسلَّطُوا بسيـوفهم على أعـدائهم، ويَحُسُّـوهم حتّىٰ أجْلَوْهُمْ عن مـوقعهم، وخلّفـوا وراءهم غنائمهم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾.

أي: استَمرّتْ ظاهرةُ توالي حَسِّ المؤمنين للمشـركين في أُحُدٍ حتّىٰ حَـلَّ الْفَشَلُ ـ وهو الضعف والجبنُ والْفَزَعُ والوهن ـ بمداهمة كتيبة خـالد بن الـوليد على الخيـول من وراء ظهـورهم، إذْ تَرَكَ مُعـظم الـرُّمـاة مـواقعهم، وقـد كـانـوا فيهـا دِرْعـاً لـظهـور المسلمين.

وقد حصل الأمر وفق الترتيب التالي:

أوّلاً: عصَىٰ معظم الرُّماة، فتركُوا مواقعهم حين أراهم الله ما يُحبُّون من النَّصر، ووجود غنائم العدوّ سهلة التناول، وطَمِعَ أكثرِ المسلمين في المعركة بالظفر بها، قبـل أن يأذن الرسول ﷺ لهم بذلك، وجاء التعبير عن هذا بقوله تعالى:

﴿وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾.

ثانياً: وقع الخلاف بين المسلمين في الأمر القائم حول متابعة القتال والثبات في المواقع وفق أوامر الرسول، أو ترك المواقع والإسراع إلى جمع الغنائم، ووقع الجـدال فيما بينهم، فتفرّقت وحدةُ الكلمة، ووحدة الصف، وجاء التعبير عن هذا بقوله تعالى:

﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾.

ثالثاً: دبَّ الضّعْفُ في صفوف المسلمين بسبب التنازع وتفـرّق الكلمة، وتمـزّق الصف.

وهجم العدوّ عليهم من وراء ظهورهم، فـاضطربـوا، واختلّ نـظامهم، وأصابهم

الفزع، ورأوْا أنّهم مَحْصُورون مُحاطون من أمامهم ومن خلفهم، ووقع القتل فيهم، فجَبُنوا، وَعَدَوْا فارّين، وكان هذا هو الفشل الذي حلّ بهم، وجاء التعبير عنه بقوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾.

رابعاً: وكان السبب الداخليّ في النفوس الذي جرّ إلى المعصية والتنازع والفشل، هو وجود فريق كثير فيهم أخذتْ نُفُوسُهُمْ تدور دواليبها حول إرادة الدّنيا، أي: إرادة الحصول على الغنائم والتسابق إلى حيازتها. وجاء التعبير عن هذا السبب النفسيّ بقوله تعالى:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾.

فالتّرتيب الّذي جرَىٰ في الواقع كما يلي: إرادة الدنيا، فمعصية، فتنازع، ففشل.

ولكِنْ: لِمَ انْعَكسَ هذا الترتيب في البيان القرآني؟

الذي يظهر لي أنّ الغرض الدلالةُ على أنّ ظُهورَ المسلمين على عدوّهم قَدِ استَمرَّ حتّىٰ حلّ بهم الفشل، ولم تَتَحوّلْ رياحُ النّصر عنهم إلى عدُوّهم عند المعصية والتنازع في الأمر، بل أخذ الأمر يتَسَلْسَلُ على مراحل، ولو انعكسَ الترتيبُ في النصّ لأَوْهَمَ أنّ ظهور المسلمين على عدّوهم قد توقّف منذ لحظة معصية الرُّماة، وهذا خلاف الواقع، وخلافُ سنّة الله في الأحداث.

والنّصُ يهدف إلى الإعلام بأنّ توقف النّصر وتحوُّلَ رياحه قد حصلا بعد حصول الفشل.

فالدّقّةُ في التعبير تقتضي أن يأتي البيانُ دالاً على أنّ حركة الظُّهور على العدُوّ قد توقفت عند حصول الفشل.

إذن: فقد كان لهذا الانتصار نهايةٌ توقّف عندها، وهذه النهاية مقرونة بحصُول الفشل، فالتعبير القرآنيُّ دالٌ على هذه الحقيقة بدقّة بالغة، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾:

أي: حَتَّى وقْتِ فَشَلِكُمْ.

ولكن لا بدَّ أيضاً من بيـان التراكُمـاتِ السببيّة الَّتي أدّت إلى الفشـل، باعتبـارها أسباباً متتابعةً لحصوله.

فذكر الله عزّ وجلّ السبب المباشر للفشل أوّلاً، وبعده ذكر السبب الذي كان قبله فأدّى إليه، وبعد ذلك ذكر السّبب النفسي الإراديّ الداعيَ، الذي تتوقّفُ عنده سلسلة الأسباب بداهةً.

* أمّا السبب المباشر للفشل فهو التنازع في الأمر، ولذلك جاء ترتيبه بعد ذكر الفشل مباشرةً، فقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

وفي نصّ سابق في النزول لهذا النّصّ أبان الله عزّ وجلّ للمؤمنين أنَّ التنازُعَ يؤدّي إلى الفشل، إذْ قال الله تعالى لهم في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

فكان هذا البيان بعد غزوة بدر بمثابة التوطئة الإنذاريّة الَّتي كـان على المسلمين في أُحد أن يضعوها نُصْبَ اعْيُنِهم، حتّىٰ لا يتنازعُوا فيفشلُوا، ولا يعْصُوا الله ورسـوله، ومتىٰ فشلوا ذهبت ريحُهُمْ، أي: ذهبت قُوَّتُهُمُ المعنويّة التي فيها سِرُّ انتصارهم على أعدائهم في المعارك.

فما جرى للمسلمين في أُحُدٍ قد كان ظاهرةً من ظواهر سُنن الله، الَّتي أبانهـا الله لهم في كتابه بعد غزوة بدر الكبرى.

* ولكن ما سبب التنازع الذي حصل في أحد؟

الجواب: معصيةُ من عصىٰ من المسلمين أمرَ الرَّسُـول، ومخالفتهم لإخـوانهم، وتمزيقُهُمْ للصفّ، فجاء قـوله تعـالى: ﴿وعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مـا أراكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ عقب قوله تعالى:

﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾.

فحصل بهذا الإشارةُ إلى أنّ العصيان هو سَبَبُ التنازع.

* حسناً، فما هو السَّببُ النفسيُّ الإراديُّ الداعي الذي تنتهي عنده سلسلة الأسباب، والذي أدّى إلى معصية من عصىٰ منهم؟

الجواب: إرادةُ مطامع الدنيا من العصاة، وإنْ كان الفريق الآخر يريد ثواب الآخرة. فجاء قوله تعالى في آخر بيان سلسلة الأسباب:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾.

وهكذا جاء الترتيب في البيان القرآني كامل الدّقة في الأداء، ومطابقاً لما يرادُ الدلالةُ عليه.

يضافُ إلىٰ ذَلِكَ أنّ التَّسلْسُل المنطقيّ لبحث آيةٍ ظاهرة، وكشف الأسباب التي أدّت إليها، يقضي بأنْ تُحدَّد الظَّاهِرَةُ أوّلاً، وبعد ذلك يُنْظر إلى السبب المباشر الذي أدىٰ إليها، ثم إلى السبب الذي أدّى إلى السبب المباشر، وهكذا تَسَلْسُلاً مع الأسباب، حتّىٰ يَنْتَهِيَ البحث عند السبب الأوّل، الذي تنتهي عنده عقلاً سلسلة الأسباب.

والإرادةُ ودواعيها عند ذوي الإرادات الحرّة، تُعْتَبر هي السبب الأوّل الذي تَقِفُ عنده عقلاً سلسلة الأسباب، ولا يُبْحَثُ بعدها عن سبب آخر.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

أي: وبعد توقُّف حركةِ الظُّهُورِ والتّسلُّط عن العدوّ بسبب حصول الفشل، وبَعْدَ مرورِ مُدَّةٍ من الزمن حصل فيها وُجُومٌ واضطرابٌ ضِمْنَ الْمَعْرَكَةِ، صرفكم اللَّهُ عنهم. نَفْهم هذا من العطف بحرف العطف (ثُمَّ) الدّالّ على التراخي.

وبهذا الصَّرْف انعكَسَتْ رِياحُ النصر بتقدير الله وحكمته، لكَشْفِ أحوال المسلمين مُريدي الدنيا، ومُريدي الآخرة، وكَشْفِ الصّابرين الصّادقين، وغيرهم، كلٌّ بحَسَبِ مَرْتَبَتِه في الإيمان والصِّدقِ مع الله في المعركة، فالمصائبُ كَواشِفُ، والشّدائد كواشفُ، والمطامع كواشفُ، وأصْلُ الامتحان أنْ يوضع الْمُمتَحَنُ في المواقف التي تَكْشِف حقيقتَهُ، إرادةً، أو خُلُقاً، أوْ استعداداً، وتكشف صدقه وإيمانه، أو ما دون ذلك من درجات، حتّىٰ أدنىٰ الدركات الّتي هي دركة النّفاق.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ والابتلاءُ الامتحان للكَشْفِ.

وهذا الامتحان يستلزم التربية والتأديب، فالإنسان كثيراً ما يكون امتحانه الذي ليس هو الامتحان الأخير لِتَرْبِيَته وتأديبه بما يجب أو ينبغي أن يكون عليه.

وقد أثبت هذا الامتحان أن معظمهم لم يستطع الثبات عند تحوُّل رياح النصر عنهم، لكنّه قد كان لهم جميعاً دَرْساً تربويّاً تأديبيّاً رائعاً، أعدَّهم إعداداً ممتازاً للمعارك القادمات.

وإنّما جعل الله عزّ وجلّ هذا الصَّرْفَ للمؤمنين عن الظهور على عدوّهم ابتلاءً، ولم يجعله جزاءً، لأنّه سبحانَهُ وتعالَىٰ قد مَنَحَهُمُ العفو، دَلَّ على هذا قولُ الله لهم عقب بيان غرض الابتلاء:

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

والعفْوُ أرْقَىٰ مرتَبَةً من الغفران، لأنّ الغفران سَتْرٌ، أمّا العفو فهو مَحْوٌ للأثر.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

انتقلَ النّصّ بهذا إلى بيان مرحلةٍ تاليةٍ من مراحل المعركة، وهي مرحلة انْهزام معظم المسلمين، الأمر الذي ما كان ينبغي أن يصدُر منهم، بعد أن أدركوا أنّ المعصية والطمع في الغنائم قد حوّلا عنهم رِيَاحَ النّصر.

أي: اذكروا عند كل قتال لعدوّكم حالكم في غزوة أحد إذْ كنتم تُصعِدُونَ في الأرض هائمين منطلقين منهزمين في شتّى الاتجاهات، في الوادي، وشطر المدينة، ونحو الجبل، ولا تَلْوُونَ مُنْعَطِفين على أَحَدٍ من الثابتين أو الفارين، يَطْلُبُ كُلُّ واحدٍ منكُمُ النجاة بنفسه، فلا يلتفت بعضكُمْ إلَىٰ بعض، ولا تستجيبُونَ لنداء الرسول الذي كان يناديكُمْ: إلَيَّ عِبادَ الله ارجعوا، إلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ارْجِعُوا، إلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ مَنْ يَكِرُّ فلَهُ الجنَّة، يُنَادِيكُمْ وهو ثابت في موقعه مع الفئة الثابتة المدافعة عنه، وهي الفئة الأخرىٰ من فِئَتَيْكُمْ، الفئةِ المنهزمةِ، والفئةِ الأخرى القليلة الثابتة التي لم تفرّ ولم تتزلْزل، بل صَمَدت وصَبَرَتْ.

وجاء استعمال الفعل المضارع في حكاية أمْرٍ مضىٰ لتصوير ما وقع كأنه حدَثٌ يقع.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾:

أي: فجازاكم جَزَاءَ تأديبٍ وتَرْبِيةٍ فأنْزَل بكم كَرْباً محيطاً ضاغطاً على القلب وكلِّ النفس موصولاً وملتبساً وملتصقاً بكرب آخر (فالباء للملابسة أو الإلصاق).

أو: فجازاكم جزاء تأديب وتربية فأنْزَل بكم كَرْباً محيطاً ضاغطاً على القلب وكُلِّ النفس بسبب ما أنزلتموه بالرسول والثابتين معه من الصادقين، من غَمّ إذْ طمعتم بالغنائم فعصيتم فلم تَثْبُتوا وانهزمتم ولم تستجيبوا لنداءات الرسول ﷺ: (فالباء بمعنى المقابلة أو السببيّة).

وهذا الجزاء يصحّ تسميتُه ثواباً باعتبار غايته التأديبية التربويّة، المفضية إلى التزام منهج الله، فتحصيلِ الأجر العظيم، والثواب الجزيل.

وعلى المعنى الأول، المأخوذ من كون الباء للملابسة أو للإلصاق يكون الغمُّ الأول هو ما حصل لهم بسبب ما نزل بالمسلمين من جراحة، وبسبب مقتل إخوانهم الذين قُتِلوا، وفوات الغنائم التي كانُوا قد بدؤوا بجمعونها، ويكون الغمُّ الثاني هو

ما حصل لهم بسبب الشائعة التي قيل فيها: إنّ محمّداً قد قُتل، فكان هذا الغمّ أشدّ عليهم من الغمّ الأوّل، ثم ما كان من انعطاف ثُلّةٍ من المشركين على فريق منهم وهم في الشِّعْبِ من الجبل، يَبْغُونَ استئصالهم، غير أن الله قد أظفر المؤمنين بإنزال جماعة المشركين الذين عَلَوُا الْجَبَلَ بقيادة أبي سفيان.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

في هذا بيانٌ للغرض التربويّ من مجازاتهم بالغمّ على ما كان منهم، ونلاحظُ أنّ بيان الغرض التربويّ هنا موافق للمرحلة التي وصلَتْ إليها مَسِيرَةُ المعركة.

لقد جاءت الحركة متسلسلةً ملائمةً لتطوُّراتِ الواقع الذي تدرّجَ فيه المسلمون في معركة أُحُد.

إنّ صرفَهُمْ عن عدوّهم أوّلاً قد كان لامتحان إيمانهم وثباتهم، فلما لم يثبتُوا جازاهُمُ اللَّهُ غَمّاً بِغَمّ، ولكنْ لم يكن هذا الجزاءُ عقاباً في الحقيقة، بل هو أسلوب تربَوِيٌّ تَأديبيٌّ.

والْغَرضُ التربويُّ التأديبيُّ هنا: أنْ تتأصَّلَ وَتتعمَّقَ في قلوبهم ونفوسهم الطُّمَأْنينة، والتسليمُ لله فيما تجري به مقاديرُهُ الحكيمة، ولوْ جاءت على خلاف ما يَهْوَوْنَ ويشتهون، ولو جاءت كذلك في صورة مصائب ونكباتٍ، أو فواتِ مطامع ورغائب كانُوا يُحِبُّونَها ويَرْجُونها.

فالإيمان الصادق الراسخ يستلزمُ ألّا يكونَ قِتالُهم طمعاً في الغنائم، حتّى يتهافتوا عليها، إذا ظنُّوا أنّهم ظافرون بها، ويتركوا واجبات الثَّباتِ والطَّاعة.

والإيمانُ الصادق الراسخ يستلزم أن يُسلّموا لحكمة الله دائماً فيما تجري به مقاديره، سواءٌ نزل بهم ما يُحِبُّونَ أو ما يكرهون، وأنْ يعلمُوا أنّهُ هُو الخير لهم، ومتَىٰ رسَخَتْ في قلوبِهِمْ هذه الحقيقةُ لم يحزنُوا على ما فاتهم مما يحبُّون، كفوات الغنائم،

ولم يحزنُوا على ما خسِرُوهُ بسبب المصائب التي نزلت بهم، كَجِراحَة أبدانهم، وقتل إخوانهم.

فما اكتسبُوهُ من تربيةٍ إيمانيّةٍ فيما نزل بهم، ومن إعداد نفسيٍّ لِمُسْتَقبل سعيدٍ ظافر، أعظمُ بكثير ممّا فاتَهُمْ، وممّا خسروه فيما أصابهم.

وأشار قولُ الله عزّ وجل في آخر الآية:

﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣ ﴾.

إلَىٰ أنّ تصاريفه تعالى في عطائه ومنعه، ونَصْرِهِ وعَدَمِ نصره، مظاهِرُ لحكمته المستندة إلى علمه وخبرته، والخبرة هي العلم بالشيء بعد تجربته وامتحانه في الواقع، وهذا العلم يشمل الدقائق والخفايا عن تجربة.

إنّه سبحانه وتعالى خبيرٌ بما يعملون، هذه حقيقة من حقائق صفات الله، من لوازمها ما يلي:

- إذا كان ما يعملونه يقتضي بحسب حكمته أن ينصُرَهُمْ نَصَرهم.
- أو يقتضي بحسب حكمته أن يصرفهم عن عدوّهم صَرَفَهُم عنه.
- أو يقتضي بحكمته ان يُنْزِلَ الغمَّ فيهم أَنْزَلَ الغمَّ فيهم.

إذن: فليرجعوا إلى نفوسهم فَلْيَلُومُوها، ولِيُسَلِّموا للهِ في قضائه وقدره، ولْيَعْلَمُوا أنّ الله عزّ وجلّ لا يَقْضِي إلاّ ما فيه الحكمة والخير.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ ﴾.

في هذا بيان أنّ الله عزّ وجلّ تَدارَكَ أَهْلَ الإيمان الصادقِ الثابتينَ والذين ثابوا إلى رشدهم بمشاعر الأمن والسكينة بعد الغمّ الذي غَلَّفَ قُلوبهم.

وقد دبَّتْ إليهم مشاعر الأمن هذا في نُعاسٍ يَغْشَىٰ، فيصرفُ الأذهانَ عن التفكُّرِ فيما نزل بهم من مصيبة، وعن الوساوس المزعجة، ويصرفُ النُّفُوسَ عن مشاعر

الخوف والقلق والاضطراب، وعن الاهتمام بذواتهم وأهليهم، فالنوم لا يأتي إلاّ مع الأمن، أمّا مع الخوف والذعر والقلق وثورة الأفكار فإنّ النّوْمَ لا يَجِدُ له سبيلاً.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ... (١٥٤)﴾.

وفي هذا بيانٌ عن طائفة المنافقين وأهل الريب وضعفاء الإيمان، فدلَّ على أنهم بَقُوا في الغمّ، لم تأتهم الأمنَةُ من الله، إذْ لمْ يُسلِّموا أمْرَهُمْ لله ومقاديره، وحِكْمَتِه في تصاريفه، فاتَّجَهَتْ كُلُّ أفكارهم وتصوُّراتِهِمْ للاهتمام بأنفسهم، وما نزل بهم وبإخوانهم، وما يَخافُون منه على أنفسهم في المستقبل، بعد هذا الذي نزل بهم، فأهَمَّتْهُمْ أنفسُهُم، ونَسُوا أمر الدين وغايات الجهاد والدّعوة، وواجباتهم نحو ربّهم، وما تَتَطلَّبُ منهم طاعتُه ورضوانه.

وبذلك ثارَتْ في قلوبهم الشُّكوك، واهتاجَتْ في نفوسهم الآلام، وصاروا يستعيدون في أفكارهم وحركات قلوبهم ونفوسهم الأمور التي كانت قد جَرَتْ قبل خروجهم من المدينة إلى المعركة، ويسترجعون أنهم كانُوا من الفريق الذي لم يكُنْ يرى الخروج إلى العدوّ، فلم يَعْمَلِ الرّسولُ برأيهم، وإنّما عمل برأي المتحمّسِينَ للخروج.

إنّهم طائفةٌ قد تراكبت عليهم عدّة أمراض:

المرضُ الأول: مرضٌ نفسيّ، يتجلّى بشدّة خوفهم، وبتوجُّه كلّ همِّهم نحو أنفسهم، ومستقبل أمرهم في المعركة وبعدَها، فهُمْ في همِّ النجاة وبلوغهم مأمنهم، وهمّ احتمال تعاظم أمر المشركين وسائر الكافرين، وتضاؤلِ أمْرِ المسلمين، حتّى يكون للمشركين سلطانٌ يستأصلون به المؤمنين، وكلُّ الذين معهم، يضاف إلى ذلك هَمُّ ما نزل بهم من جراحة.

المرضُ الثاني: مرضٌ فكريٌّ اعتقاديٌّ، فما نزل بالمسلمين من هزيمة جعلهم يظنُّونَ بالله غير الحقّ ظنَّ الجاهليّة، أيْ: جعلهم يظنُّونَ بالله ظنوناً باطلة، منافية لقواعد الإيمان بالله، وهذه الظُّنون مشابهة لظنون الجاهلية التي لا تستند إلى أساس إيمانيٍّ صحيح.

وقد يكون من هذه الظُّنون شكُّهُمْ في تأييد الله للمؤمنين، وشكُّهُمْ في وعود النّصر الذي تكفّلَ الله به لأوليائه على أعدائه، وأشباه هذه الظنون الباطلة، التي أثبت الواقع بعد ذلكَ خلافها.

المرض الثالث: ما كان من آثاره إعلانُهم التّلْويم على الخروج إلى أُحُد، وأنّ البقاء في المدينة كان هو الأعقلَ والأحزم والأصحّ رأياً. ولكنّ الرسول لم يعمل برأيهم، إذْ لم يجعلْ لهم من الأمر شيئاً بحسب تصوّرهم، مع أنه ﷺ استشار وعمل برأي الأكثريّة، وقد كان على خلاف رأيه.

وفي التعبير عن هذا التلويم جعلوا يقولون مُكَرِّرين مقالتهم: «هَلْ لَنَا من الأَمْرِ مِنْ شيءٍ؟» أي: لم يكُنْ لنا من الأمر أقلُّ شيء، ولم يكُنْ لرأينا اعتبار، ونحن أهل العقل والرأي والحكمة. دلّ على التكرير فعل ﴿يَقُولُونَ﴾.

وكان لا بُدَّ من ردّ هذه المقالة المُعْلَنَة، فخاطب الله رسوله بقوله: «قُلْ: إنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله»، أي: ليس الأمر لكم، ولا لي، ولا للفريق الآخر الذي كان متحمّساً للخروج، بل إنّ الأمْرَ كلَّهُ لله، ومن منهاجه العمل بالشورى والأخذ برأي الأكثريّة المؤمنة، ما لم ينزل من لدنه أمْرٌ خاصٌّ. وقد اقتضت حكمتُه سبحانه فوق ذلك بأن يمتحن جماعة المسلمين في هذه المعركة، ويُمحّصَ ما في قلوبهم. فجرت مقاديره على ما قد وقع فعلاً.

المرض الرابع: إنكارهم في قلوبهم لركن الإيمان بالقضاء والقدر، وأنّه بمحابّه ونِعَمِه، ومكارهه ومَصَائِبه من الله عزّ وجل، أو شكُّهم في هذا الركن، مع إيمانهم وتعلّقهم التامّ بالأسباب. دلّ على هذا قول الله تعالى في النصّ:

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾.

وكان لا بُدَّ أيضاً من ردّ هذه المقالة التي ردّدوها في نفوسهم ولم يعلنوها بألسنتهم أمام المسلمين، وكان لا بدّ من بيان عنصر من عناصر العقيدة الإيمانية في القضاء والقدر، فعلّم الله رسوله في تتمة الآية ما يقوله لهم، وتعليم الله لرسوله يتضمّن تعليماً لسائر المؤمنين، ولا سيما أهل العلم منهم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾:

أي: لو لم تخرجُوا إلى قتال المشركين في أُحُدٍ وبقيتُم في بيوتكُمْ في المدينة، لخرج الذين كُتِبَ عليهُمُ القتل بعِلْم الله وقضائه وقدره، بسبب ما من الأسباب، ولو كان غير سبب الخروج إلى القتال، ولسقَطُوا صرعىٰ في الأماكن التي سقطوا فيها قتلىٰ فكانت مدافنهم مضاجعَهُمْ المريحةَ لهم، لأنّهم مؤمنون، حتى ساعة يُبْعَثُون. ففي العبارة محذوفات تُفْهَم باللّوازم الذهنية، أي: لبرزوا ولتعرّضوا لسبب من أسباب الموت فكانوا صرعى فانتهوا إلى مضاجعهم.

وفي هذا تعليم من الله للرسول ﷺ ولسائر المؤمنين من بعده كيف يكون الجواب على المقالة التي قالها فريق من المنافقين والذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هٰهُنَا».

وهذه المقالة ربّما ألقت شُبُهَاتٍ في بعض قلوب المؤمنين، فكان لا بُدَّ من معالجة شاملة، فاشتمل التعليم على ثلاث مقولات:

الأولى:

﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾.

﴿لَبَرَزَ﴾: أي: لَخرجَ إلى البَراز، والْبراز الفضاءُ الواسعُ.

الثانية:

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾.

﴿ليبتلي﴾: أي: ليمتَحِنَ فيَكْشِفَ بالامتحان ما في صُدُورِكُمْ.

الثالثة:

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: ولِيُنَقِّيَ ويُخَلِّصَ ما في قلوبكم من شوائب لا تتلاءم مع كمال الإيمان.

فالمقولة الأولى: تتناول التصحيح الاعتقادي بشأن ركن الإيمان بالقضاء والقدر، وجاء التصحيح ببيان أنّ الذين قُتلوا في أُحُدٍ كان لا بُدَّ أن يَسْقُطوا في مصارعهم بقضاء الله وقدره على كلّ حال، فآجالهم محتومة، ومصارِعُهُمْ مقدَّرة مكتوبة معلومة.

إذن: فقد كان خروجهم إلى معركة أُحُد سبباً لتحقيق المقضيّ المقدر لا محالة، لكنّ جهادهم في سبيل الله قد أكسبهم الشهادة وأجْرَهَا العظيم عند الله، إذا كانوا حقّاً قد خرجوا جهاداً في سبيله وابتغاء مرضاته.

والمقولة الثانية: تتناول بيان غرض امتحان ما في صدور الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى أحد، وصدور الذين لم يخرجوا، والذين انخذلوا من بعض الطريق إلى أحد.

ويشمل ما في الصدور عناصر الإيمان، وعناصر الأخلاق، والنيّات، والإرادات، ونوازع الأهواء والشهوات، وحركات الأنفس في ابتغاء الدنيا وثوابها، أو ابتغاء الآخرة وثوابها.

والمقولة الثالثة: تتناول بيانَ الغرض التربويّ، وهو تمحيص ما في القلوب.

وقد عرفنا أنّ التمحيص يدور حول معنى تنقية الشيء وتخليصه ممّا لا خير فيه للغاية المرجوة منه.

فتمحيص ما في قلوب المؤمنين يفيد تخليصها مما لا خير لهم فيه عند ربّهم، وفي آخرتهم.

ويكون ذلك بتنقية الإيمان وتخليصه من شوائب الشكوك والشبهات، وغير ذلك من مفهومات منافية لعناصر الإيمان الحقّ.

ويكون أيضاً بتنقية النيّات والمقاصد ممّا يخالطها من ابتغاء العاجلة، وإرادة زينة الحياة الدنيا.

ويكون أيضاً بتنقية الجذور الخلقيّة ممّا يخالطها مما لا خير فيه، كالجبن والبخل، والحسد والكبر، وحبّ الفخر، والطمع بالمال والجاه ونحو ذلك.

فالتمحيصُ وَسِيلةٌ تربويّةٌ تَهْدِفُ إلى تربية الإنسان من مستوى العمق فيه، وهو عُمْقُ قَلْبِه، فمن صلح قَلْبُه صلح كيانُه كلُّه.

والأزماتُ والمصائب تُمَحِّص ما في قلوب المؤمنين، إذْ تهزُّها هزّاً عنيفاً، وتُوقِدُ فيها حرارةَ الإيمان، وتُدَرِّبُها عملياً على تقبُّلِ مقادير الله بالصبر، وتَنْفِي عنها كثيراً من أدران الشبهات، وأخلاط الانحرافات الخلقية، وتُعَلِّمُها عن طريق الألم والحرمان وتراكب الغمّ، كيف تصحّح نيّاتها في السّلم والحرب، والأمن والخوف، وعند المطامع، وفي أحوال الذُّعر، وتكْشِطُ عَنْها وبَرَ التّعلُّقِ بزينةِ الحياة الدنيا، حتّى تكون ربّانيّةً خالصةً لله تعالى، وابتغاء ثواب الآخرة.

نفهم كلّ هذا من قوله تعالى:

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

ولدفع توهُّم أنّ ابتلاء الله لما في صدورهم قد كان لكشف أمر لم يكن معلوماً لله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً قال عزّ وجلّ في ختام الآية:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾:

أي: عليم بكلّ صاحبةِ الصدور، والأمورُ التي تختصُّ بالصدور حتّى عُمْقِ الأفئدة، تشملُ العقائد، والنّيات، والعواطف، وحركات الأنفس وانفعالاتها، وما فُطِرَتْ عليه أو اكتَسَبَتْهُ من أخلاق، وغير ذلك.

إذن: فالابتلاءُ لا للكشف العلميّ بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ، وإنّما للكشف التّسْجيليّ والإعلامي للملائكة، وللناس يوم الدين، وهو الذي تَجْري بموجبه المحاسبةُ والجزاء، ولكشف بعضه للناس في الدنيا، لحِكَمٍ كثيرة.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

بهذا انتقل النصُّ إلى كشف جُذُور عوامل الهزيمة الّتي كانت من المنهزمين في أُحُد، وهم الّذين أصْعَدُوا في الأرض، فلَمْ يَلْوُوا على أحد، والرّسولُ يدعوهم في أُخْرىٰ فِئتَي المسلمين.

أي: إنّ الذين ولَّوْا أدبارهم منهزمين فارّين من مواجهة العدُوّ يوم التقىٰ الجمعان في أُحُدٍ، ما أوقعهم في الزَّلَلِ الذي وقَعُوا فيه إلاّ الشيطانُ الذي أطمعهم بالمغانم أوّلاً، وخوَّفهم من أن يُقْتَلوا ثانياً، وكان ذلك بسبب بعض ما كَسَبُوا، وهو إثم معصية الرسول، إذْ أرادوا الدُّنيا لمَّا لاَحَتْ لَهُمُ الغنائم مطروحةً لآخِذِيها، وهذا الكَسْبُ الذي بَذَرُوا بِهِ مِنْ عنْد أنْفسِهِمْ أضعف بصيرَتَهُم الإيمانية، فكان للشيطان بذلك مَدْخَلٌ للتأثيرِ فيهم بوساوسه ودسائسه وتسويلاته، واستدراجِهِم إلى أُمُورٍ أُخرىٰ جعلَتْهُمْ يزِلُّون، فيسقُطون فيما يكرهون من غَمّ مُضاعفٍ، فيه قتلٌ وجراحة، وخوفٌ وقَلَقٌ.

لكنَّ الله تبارك وتعالى أكّد لهم أنّه تداركهم بحلمه ورحمته مرّةً أُخرىٰ في مراحلِ المعركة، فعفا عنهم، إنّه جلّ وعلا غَفُورٌ حليم.

أي: وسعهم بحلمه، فغفر لَهُمْ أوّلاً، ثُمّ عفا عنهم.

المغفرة: الستر. والْعَفْو: الْمَحْوُ وَعَدَمُ إبْقاء أي أثَرٍ للذنب.

وجاء بيان العفو أوّلاً لأنَّهُ غايةُ البشارتين، فهي الأحَقُّ بالتقديم، وجاءت الإشارة إلى أنّ المغفرة سبقت العفو، من خلال الآية بذكر اسمين من أسماء الله، أحدهما: غفور، والآخر: حليم. أي: حَلُمَ فغفَرَ ثُمّ عَفَا.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ

أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى: [وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] فجمعت القراءتان أسلوب الحديث عنهم بالغائب، وأسلوب مواجهتهم بالخطاب، أو مواجهة الذين آمنوا بالخطاب، والحديث عن الكافرين بالغائب، وكلُّ ذلك من الأداء البديع، مع الإيجاز بتغيير حرفٍ واحد.

وانتقل النَّصُّ هُنَا إلى تحذير المؤمنين من أن يكُونوا كالذين كَفَروا، وقالوا: لأجل إخوانهم الذين ماتُوا في أسفارهم بحوادث بَرّيّة أو بحريّة أو غير ذلك، أو قُتِلُوا في معارك حربيّة وهم غُزاة: لَوْ كَانُوا عِنْدَنا مَا عرّضوا أنفسهم للحوادث فماتُوا، وَما دَخلُوا في الحربِ فَقُتِلُوا.

إنَّ من اللّوازم الفكريّةِ للكفر بالله أو بقضائه وقدره، سواءٌ أكانَ كُفْرَ كافرٍ صريحٍ، أوْ كافرٍ مُنافقٍ يُخْفي كُفْرَه مخادَعة، اعْتِبارَ الأَسْبابِ الكَوْنِيّة ذاتَ أَفْعَالٍ حقيقيّة ذاتيّة في مُسَبَّباتها، على خلاف العقيدة الإيمانيّة الّتي تُقرِّرُ أنّها أسبابٌ ترتبطُ بِهَا مُسبَّباتُها بتأْثير الخالِق وقضائه وقدَرِه من خلالها، أو من ورائها، فهو سبحانه الْفَعَّالُ الحقيقيُّ في كلّ الظّواهر الكونيّة، وهو المقدِّر لَهَا والقاضي بها قبْلَ حُدُوثها.

ولكنّ أفعاله سبحانهُ مستُورَةٌ بقوانين الكون، وبأنظمة الأسباب وارتباط مسبَّباتها بها، ليَمْتَحِنَ بذلكَ إيمان الناس بالغيب.

فكَمَا أنَّ ذَاتَهُ سبحانه وتَعالى غَيْبٌ عَنّا كذلكَ أفعالُه في كونه غَيْبٌ عنّا، نُشاهِدُ ظواهرها المقترنة بأسبابها، والعقلُ المفكّر يدُلُّنا على أنَّ الأسباب لا تفعل بذواتها، وأنّها بحاجة إلى مُسبّب حقيقيّ لها، عليم قدير حكيم يُتْقِنُ كلَّ شيءٍ صُنعاً.

وقد انطلقَتْ أثناء يوم أُحُدٍ كلمةُ النفاق التي قالها بعض المنافقين، وهي: «لو كانَ لنا من الأمْرِ شيءٌ ما قُتِلْنا هٰهُنَا».

وانطلقت بعد يَوْمِ أحد كلمة النفاق التي قالها كبير المنافقين عبد الله بن أُبَيّ

ابْن سلول، ورَدّدَها بلسانه أو بقلبه سائر المنافقين، بشأن من قُتِلَ من إخوانهم في أحد، وهي: «لو كانوا عنْدنا ما قُتلوا».

وانطَلَقَتْ قبل المعركة في مناسباتٍ مختلفات من عموم الكافرين، وتنطلق دواماً، بشأن من يَمُوتُ أو يُقْتَلُ في سَفَرٍ أَوْ غَزْوَةٍ، مقالَةُ: «لو كانُوا عِنْدَنَا ما مَاتُوا وما قُتِلُوا».

فدَلَّ النَّصُّ بإيجازه واختزاله على هذه الصور الثلاث:

- من قُتِلَ في أُحُدٍ من المسلمين.
- من يموت بحادث مهلك في سفره ضارباً في الأرض للتجارة أو غيرها.
- من يُقْتَلُ غازِياً في معارك القتال ولو لم يكن في سبيلِ الله.

وهذه المقالة من اللوازم الفكرية الطبيعيَّة للكُفر بقضاء الله وقدره في الحياة والموت، فلا بُدَّ أن تظهر على ألسنة الكافرين كلّما وُجد المحرِّض على انطلاقها، دون حذر يدعو إلى الاستخفاء بها، سواءٌ أكانوا كافرين صرحاء، أو كانُوا كافرين منافقين، ولذلك آثر النَّصُّ بدقَّتِهِ وإيجازه إسناد هذه المقالة إلى الذين كفروا، ولم يَخُصَّها بالمنافقين الذين قالوها في معركة أُحُدٍ.

ولِئلا يقع بعض الذين آمنوا في زلَّة تَرْديد هذه المقالة التي هي من الثمرات الخبيثة للكُفْر، ومن لوازمه، خاطب الله الذين آمنوا محذِّراً لهم، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزًّى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ... ﴿١٥٦﴾﴾:

أي: ما مات من مات منهم بحادث مُهْلِكٍ وهو مسافرٌ يَضْرِبُ في الأرض للتجارة أو السياحة أو غير ذلك، ومَا قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهم في معركة قتال غازياً.

والمعنى: يا أيُّها الذين آمَنوا لا تكونُوا كالكافرين الَّذِين من عادتهم ومظاهر كفرهم في كلِّ وقتٍ «ماض، وحاضر، ومستقبل» إذا ضَرَبَ إخوانٌ لهم في الأرض مسافرين، فتعرَّضوا للهلاك، أو خرجوا غزاةً فقُتِلُوا، قالوا: لو كانوا عندنا ما ماتُوا وما قُتِلُوا.

وأصل نَسَق ترتيب الكلام كما يلي:

يا أيّها الذين آمنوا لا تكونُوا كالذين كفروا: إذا ضَرَبَ إخوانُهم في الأرْضِ فماتوا (أي: بحادث مهلك) أو كانُوا غُزًّى فقُتِلُوا، قالُوا من أجلهم: لو كانوا عندنا ما ماتُوا وما قُتِلُوا.

ولكن جاء في النّصّ تقديم عبارة ﴿قَالُوا لإخوانهم﴾ على ذكر الشرط، تنبيهاً على بشاعة هذه المقولة بالمنظار الإيمانيّ، وأنّ المؤمن لا يقولُهَا ولا يقول ما هو شبيه بها.

ومثل هذا التعبير القرآني يصلُحُ لبيان ما كان وما هو كائن وما سيكون.

واقتضتِ التربيَةُ الرّبّانيّةُ بيانَ الحقيقة من كلّ أطرافها حول هذا الموضوع، وهي تشتمل على خمسة أمور:

الأمر الأول: بيانُ أنّ العقوبة القدريّة التي تأتي نتيجةً طبيعيّةً بمقتضى سُنَّةِ الله في خلقه للكفر ومفهوماته، أنْ يذُوقَ الكافرون آلام الحسرة، على ما فاتَ من المحابّ، عند كلّ مصيبةٍ تنزل فيهم.

وذلك لأنّهم يعتقدون أنّهم لو فعلوا كذا أو لم يفعلوا كذا، لَمَا نزلت بهم هذه المصيبة.

دلّ على هذه العقوبة قولُ الله تعالى في النّصّ: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

بخلاف أحوال المؤمنين بالله وقضائه وقدره، فإنهم إذا نزلت بهم مصيبةٌ ما ولو كانُوا هم الكاسِبين لأسبابها، لم يذوقوا آلام الحسرة على ما كان منهم، إلّا أن تكون المصيبة نتيجة معصية لله عزّ وجلّ، وعندئذ يتحسّرون لأنّهم عصَوْا، لا لأنّهم قد نزلت بهم المصيبة، إذ يعلمون أنّها مكفّرة للخطيئة، وهي لخيرهم تأديباً وتربية وجزاءً.

أما فيما عدا ذلك فإنّهم يؤمنون بأنّ ما جرى بقضاء الله وقدره، سواءٌ أكانوا هم الكاسبين للأسباب التي باشروها، أو لم يكونُوا الكاسبين لها، ويؤمنون بأنّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكُنْ.

وانتفاء ألم الحسرةِ لا يستلزم انتفاء ألم الحزن، فالحزنُ عند نُزولِ المصيبة يذوقه المؤمنون والكافرون جميعاً.

أمّا آلام الحسرة على ما جرت به مقادير الله فلا يذوقُها إلاّ الذين لا يؤمنون إلاّ بالأسباب، وهم بقضاء الله وقدره كافرون، ويقولون: لو لم تحدُث الأسباب لمَا حدَثتِ المُسَبَّباتُ المؤلمات.

الأمر الثاني: بيان أنّ الحياة والموت من الأمور التي يتولاّها القضاءُ والقدَرُ استقلالاً، دون أن يكون للأسباب تأثيرات حقيقيّة فيها، وإنْ كانت لها تأثيرات صوريّة، فحين لا يكون لله عزّ وجلّ قضاء وقدر بحياة أو موت، لم تفعل الأسباب شيئاً إنْ وجدت، أو تتدخّل المقادير الرّبانيّة بصرف الأسباب، أو إقامة الحواجز دونها.

دلّ على هذا الأمر قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾.

الأمر الثالث: بيانُ أنّ أعمالَ ذوي الإرادات الحرّة في الحياة أنواع من الكسب السببيّ الذي ناط الله عزّ وجلّ به الحساب والجزاء بالثواب أو بالعقاب، وإن كانت في الحقيقة وباطن الأمر لا تؤثّر في تغيير مقادير الله.

وإشارةً إلى هذه الحقيقة من حقائق الابتلاء ضِمْنَ دائرة القضاء والقدر، قال الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾:

أي: والعليم البصير بما يعمل عبادُهُ بإراداتهم الحّرة، إذْ يستخدمون ما سُخِّرَ هُو لَهم في أنفسهم وفي الكون من حولهم تسخيراً مصحوباً بالإمداد والعلم والمشاهدة والمراقبة الدائمة، هل يُبقي لهم إمداده وتسخيره وتيسير الأسباب إذا لَمْ يكُنْ له فيما يتحقّق بهذه الأسباب ضمن قوانينهاالتي جعَلَهَا هُوَ لها قضاءٌ وقدرٌ؟!

هذا أمر لايقْبله فكر أيّ ذي فكر، فضلاً عن فكرالمؤمن بالله وقضائه وقدره، ومشاعرِ ضميره ووجدانه.

الأمر الرابع: وهو مبنيٌّ على ما سبق، فمَنْ قُتِلَ غازياً في سبيل الله عزّ وجلّ،

أو مَاتَ بحادثٍ ما، وهو مُسَافِرٌ في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فأجره ثابت عند الله، ولو كان القضاءُ الرّبانيُّ من الأمور النافذة لا محالة، قتلاً أو موتاً.

فالعملُ ثَمَرَةُ إرادةٍ حُرَّةٍ مُخْتارَة، وله جزاؤه عند الله، والإرادة لا تغيّر في تطبيقات القضاء والقدر لكنّها تجعل الأمر المقضي المقدّر طاعةً أو معصية، فيكون لصاحب الإرادة الحرة أجرٌ بسبب إرادته الصالحة التي فيها طاعةٌ لله، ويكون على صاحب الإرادة الحرة وزرٌ بسبب إرادته السيئة التي فيها معصية لله، وقد يكون كسبه مكروهاً أو مباحاً. والمحاسبة عند الله على النيّاتِ والإرادات من وراء الأعمال، وعلى مقادير قُوَّتها في استعمال الْمُسَخَّراتِ بالقضاء والقدر.

وثوابُ من قُتِلَ أو مات في سبيل الله يَشْمَلُ عُنْصُرين:

الأول: مغفرةٌ من الله لِسَوابق الذنوب والآثام.

الثاني: رحمةٌ من الله في دار رحمته، وهي جنّات النعيم.

دلّ على ذلك قول الله تعالى في النص:

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

أي: فالمغفرة والرحمةُ اللّتان تكونان لهم من الله خيرٌ من كلّ ما يجمعه أهلُ الدنيا لِمُتَعِهِم ورفاهيتهم ومفاخرِهِم.

الأمر الخامس: بيان أن الجزاء الرّبّاني الأوفى على الصالحات في الحياة الدنيا، التي يقدّمُها المؤمنون الصادقون، إنّما يكون بعد هذه الحياة الدنيا، يوم يُحْشَرُ الناس إلى ربّهم.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

مع دلالة الآية السابقة، أي: ولئن قُتِلْتُمْ في سبيل الله أو مُتُّمْ في سبيل الله أيّها المؤمنون الصادقون، ليَغْفِرَنَّ الله لكم، ولَيَرْحَمَنَّكُمْ، يوم الدين يوم تُحْشَرونَ إليه، وذلكَ يشتمل على نعيم لا نهاية له، ومجْدٍ ومُلْكٍ عظيمين، عند ربّ كريم، وهو خير

لكم من كلّ ما يجمع الجامعون من الدنيا التي يرون فيها وسائل سيادتهم وعزّهم ومجدهم ومفاخرهم.

وجاء تقديم القتل على الموت في الآية الأولى، وتقديم الموت على القتل في الآية الثانية، إشعاراً بأنّ من خرج في سبيل الله فإنّ له مغفرةً من الله ورحمة، سواءٌ أقُتِلَ مجاهداً، أو مات بحادث ما في خروجه، فالأمران متساويان ما دام الخروج خروجاً في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

فتمّ بذلك بيان العقيدة الإيمانيّة من مختلف الجوانب:

* وبعض ما اشتمل عليه النصّ هو ردٌّ على أوهام الكافرين والمنافقين ومقالاتهم.

* وبعض ما اشتمل عليه النصّ هو بيانٌ وإقناع وترغيب للمؤمنين.

* * *

(٥)

نظرة عامّة حول النص في نقاط

(١) قبل معركة أُحد وعد الله المؤمنين بالنصر على عدوّهم وعداً مشروطاً بالطاعة والتزام منهج الله.

(٢) وبدأت المعركة وصدق الله المؤمنين ما وعدهم من النّصر حتى عصَوا وتنازعوا فدبّ إليهم الفشل، فتحوّلت عنهم رياح النّصر، والسبب في ذلك حبّ الدنيا، والطمع بجمع الغنائم.

(٣) صرف الله المؤمنين عن التسلّط على عدوّهم بعد معصيتهم أمر الرسول ليبتليهم، فيمتحن صبرهم وثباتهم وإيمانهم، ويكشف ما في صدورهم. ومع ذلك فقد عفا الله عنهم، وجعل رياح النّصر تتحوّل عنهم إلى عدوهم لتربيتهم وتأديبهم.

(٤) لكن معظم المسلمين في أُحُدٍ لَمّا أُخِذوا على حين غرّة، وحوصروا من أمامهم ومن وراء ظهورهم، لم يصبروا ولم يثبتوا، بل أخذوا يَفِرُّون منطلقين مصعدين هَرَباً في كلّ اتّجاه، ولا يَلْوُون رؤوسهم ولا أجسامهم على أحد، ولا يستجيبون لدعاء

الرسول الذي كان يدعوهم وهو ثابت في موقعه مع الفئة المؤمنة الأخرى، وهي الفئة الثابتة الفدائية.

(٥) فأثاب الله الفارّين غمّاً بغمّ، جزاء ما أحدثوا من غمّ، أو غمّاً موصولاً بغمّ وملتصقاً بغمّ. ومن الأغراض التربوية لهذا الجزاء:

* ألاّ يحزنوا مستقبلاً على ما فاتهم، ولا على ما خسِرُوهُ بسبب ما أصابهم ونزل بهم.

* ليعلَمُوا أنّ تصاريف الله في عطائه ومنعه، ونصره وعدم نصره، مظاهر لحكمته المستندة إلى علمه وخبرته.

(٦) خصّ الله طائفة المؤمنين الثابتين فأنزل عليهم النّعاس الذي جلب إلى قلوبهم الأمن.

أما طائفة المنافقين وأهل الريب وضعفاء الإيمان فقد استمرّوا في الغمّ والخوف والقلق يُعذّبون، لأنّهم قد أهمتهم أنْفُسُهم، وهم يظنُّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهلية، وجعلوا يقولُون بألسنهم وفي نفوسهم مقالات جاهليّة.

(٧) علّمَ الله الرسول والمؤمنين الصادقين من بعده، أن يُبَيِّنُوا لأصحاب المقالات الجاهلية، المفهومات الإيمانيّة السليمة، وحكمة الله في مقاديره.

(٨) أبان النصّ جذور عوامل الهزيمة، التي جعلت الشيطان يستزلّهم بسبب ذنوبٍ كسبوها.

(٩) حذّر الله المؤمنين من أن يكونوا كالذين كفروا في مفهوماتهم وأنواع سلوكهم، فيقولوا مثل مقالاتهم الجاهليّة.

(١٠) تخلّل ما سبق إيضاح جملة من المفهومات الإيمانية الاعتقادية، التي من شأنها تصحيح السلوك، بعد تعميق الإيمان.

(١١) أبان الله عزّ وجلّ بعض مواقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض دون النفاق خلال أحداث غزوة أُحُد.

● ● ●

النـصّ العاشـر

من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنيّة
الآيــات مــن (١٦٥ ــ ١٦٨)
حـول بيان بعض مواقف المنافقين في غـزوة أُحـد
وإقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم

هـذا النص كالنصّ التاسع اشتمـل على بيانـات تتعلّق بغزوة أُحُدٍ وأحـداثهـا، وما كان من المنافقين فيها، فيُقال فيه مـا سبق عرضـه في النصّ الثامن، بـاستثناء تَـدَبُّر آياته، وما دلّ عليه من معانٍ وأفكار.

يقول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦
وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا
لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي
قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ
فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾.

* * *

ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

* قرأ هشام عن ابن عامر: [لَوْ أَطَاعُونَا مَـا قُتِّلوا] بتشديـد التّاء، وهـو بالتّشـديد يُفِيدُ معنى التكثير، فـدلّت القراءتـانِ على أنّ فريقـاً من المنافقين قـالوا: [لـو أطاعـونَا

مَا قُتِلوا] وفريقاً آخر من المنافقين قالوا: [لَوْ أَطَاعُونَا مَاقُتِلُوا] يُصوّرون بقولهم أنَّ مَا حدَثَ قد كانَ تَقْتِيلاً شَدِيداً من المشركين للمسلمين بانتصار وغَلَبَةٍ وعُنْفٍ ونكاية، وهذا التعبير يدُلُّ على انفعال قائله وثورة نفسه على الأمر كلّه.

* * *

(١)
المعنى العامّ للنّص

يبيِّن هذا النصّ للمؤمنين ثمّ من شاء أن يفهم كلام الله، حكمةَ اللّهِ فيما جرى للمسلمين في أُحُدٍ من مُصِيبَةٍ على أيدي أعدائهم، ويزيلُ عنهم إشكالاً قد يثير شبهةً تستدعي جلاءً.

هذا الإشكال قد حرّك لدى المسلمين تساؤلاً، ظهر في العبارة التالية: ﴿أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾، أي: من أين حصل هذا المصابُ؟ أو كيْفَ حصلَ هذا المصاب؟ وتتضمّن هذه العبارة معنى:

ـ هل تخلّى الله عنّا، وقد وعدنا بالنصر؟

ـ هل آثر المشركين علينا بالغلَبَةِ وهم الكافرون به؟

ـ ألسنا نَنْصُر دينه ونُعْلي كلمته، وأعداؤنا يقاتلونَنا لنصرة الكُفْر وإعلاء كلمة الشيطان؟

وهو إشكال يقوم في نفوس المسلمين في كلّ معركة ينهزمون فيها، ويغفلُون عن إخلالهم بشروط النّصر الذي وعدهم الله به، ويَرَوْن أنّ من حقّهم على الله أن ينصرهم على كلِّ حالٍ، ولو لم يُحقّقوا في أنفسهم الشروط التي يجب عليهم أن يحقّقوها، حتّىٰ يستحقّوا نصر الله والفتح بحسب وعده، بمعوناتٍ إضافية يكمُلُ لهم فيها النقص في أسبابهم عن أسباب عدوّهم ضِمْن النِّسَبِ التي وعَدهم بها في سورة (الأنفال).

ومعالجةُ هذا الإشكال الذي عَبّر عنه تساؤلهم: [أَنَّى هَـٰذا؟] اشتملت على عدّة بيانات، وهي البياناتُ التاليات:

البيان الأوّل:

ما كان من حقّكُمْ أيُّها المؤمنون أن تَطْرحُوا مثل هذا التساؤل، وقد نصرَكُم الله في بدر فأصبتُمْ من عدُوّكم يومئذٍ مِثْلَيْ ما أصابَ منكم في أُحُدٍ، لقَدْ قتلْتُمْ منهم سبعين، وأسرْتُمْ سبعين، وكان بإمكانكم أن تقتُلُوا هؤلاء الأسرى، وقتْلُهُم كان أولى لكم، لكِنَّكُمْ آثَرْتُمْ قبُول الفدية منهم، أمّا في أُحُدٍ فقد قَتَلُوا منْكُمْ سبعين فقط، وكانُوا في كلتا المعركتين أكثر منكُمْ عَدَداً وعُدَّةً.

دلّ على هذا قول الله تعالى في النصّ:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾؟!.

هذا من جهة المقارنة العامّة بين مصيبتكم ومصيبة أعدائكم.

البيان الثاني:

إنّ ما نزل بكم من مصيبة في أُحُدٍ قد كان بسبب من عند أنفسكم:

ـ ألم تعصُوا أمر الرسول؟

ـ ألم تطمعوا في الغنائم وتتركوا مواقع القتال قبل أن يؤذَنَ لكُمْ؟

ـ ألم تتنازعوا في الأمر؟

ـ ألم تفشلُوا فتضعفُوا وتجبنُوا وتَفْزَعُوا؟

ـ ألم تنهزموا حتى صرتُمْ تُصْعدُون في الأرض ولا تَلْوُون على أحَدٍ؟

ـ ألَمْ يعْصِ فريقٌ منكم الرسولَ إذْ كان يدعوكُمْ في أُخْرَاكُمْ: إليَّ عباد الله، وأنتم مُنْهزِمون؟

ـ ألا تكفِي كلّ هذه الأسباب لتركِكُمْ لأنفسكم ووسائلكم حتّى نزل بكم ما نزل من مصيبة، بإذن الله وتمكينه؟

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ يُجيبُهُمْ عن طريق رسوله:

﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾.

البيانُ الثالث:

ليس ما جرى لكم من مصيبة على أيدي أعدائكم عجزاً في قدرة الله عزّ وجلَّ عنْ نُصْرَتكم، فالله عزّ وجل قادر على نصرتكم دواماً مَع كلّ ما كان منكم، لكِنَّ هذا يتنافَى مع حكمته الّتي قضت وقدّرت تأديبكم وتربيتكم، وتمييز المؤمنين الصادقين من غيرهم، وابتلاءَ ما في صدوركم، وتمحيصَ ما في قلوبكم.

أشار إلى هذا قول الله عزّ وجلّ في ختام الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾:

أي: فهو قادرٌ على نَصْرِكُمْ، وقادرٌ على مجازاتكم بالغمّ الذي نزل بكم، وقادر على تمكين أعدائكم من الظُّهُور عليكم.

البيان الرابع:

إنّ ما أصابكم يوم الْتقَى جَمْعُكُمْ وجَمْعُ مُشرِكي قُرَيشٍ في أُحُدٍ قد أصابكم بإذْنِ اللّهِ، أي: بتمكينِهِ أعداءكُمْ من الظهور عليكم، وإصابتِكُم بما أصابوكُمْ به، ورفع يد معونته الناصرة لكم، وجعلكم تتصرَّفُون ضمن حُدود قُواكم ووسائلكم، مع حمايته لكم من أن تُصابُوا بأكثر مما أُصبْتُم.

ولو لم يأذن الله بذلك إذنَ تمكينٍ قَدَرِيّ لما استطاعوا أن يُصِيبوكُمْ بما أصابوكُمْ به.

لو لم يأذن بذلك لأقام العقبات في طريق أعدائكم، ولأفسد خططهم، ولألْقَى في قلوبهم الرُّعب، أو لأمدّكُمْ بالملائكة كما فعل في يوم بدرٍ الكبرى، إلى غير ذلك من وسائل نصره جلّ وعلا.

فالإذن هنا هو من قبيل التمكين القدَرِيّ ضمن حدود الأسباب والمسببات في سنن الله الدائمة.

نفهم هذه المعاني من قول الله عزّ وجل في النصّ:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

البيان الخامس:

إنّ ما نزل بكم من مصيبة في أُحُدٍ كان له في حكمة الله غاية، وهي:

أوّلاً: أن يكشف الله بالامتحان المؤمنين الصادقين منكم، ويكشف ضُعفاء الإيمان، وأهل الرَّيْب والشكّ والنفاق، الذين خرجوا مع الرسول إلى قتال المشركين في أُحُد.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴿١٦٦﴾﴾:

أي: وليَعْلَمَ المؤمنين بحسب مراتبهم ودرجاتِ إيمانهم ضعفاً وقوّةً.

ثانياً: وأن يكشف نفاق الذين انْخَذلوا عن الرسول في أُحُد، والذين لم يخرجوا معه إطلاقاً.

فالحوادث الشديدة تكشف ما في القلوب والنفوس فتظهرها على سطح السلوك، بأقوالٍ وأعمال إلى غير ذلك من أمارات.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجل في النّصّ:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾.

وهذا الكشف يجعل المعلوم الْمَخْفِيَّ في القلوب وسرائر النفوس معلوماً في الأقوال والأعمال وسائر الأمارات والعلامات.

وعلمُ الله السابق لحدوث المعلوم، والمطابقُ لما سيحدث يصير علماً مطابقاً لما حدَثَ فِعْلاً، وعلى هذا المعنى جاء في النصوص: وليَعْلَمَ الله، ونحو ذلك.

البيان السادس:

التنبيه على بعض مظاهر النفاق، بالنسبة إلى الذين لم يحضروا معركة أُحُدٍ، بغية تعريتهم، وتبصير المؤمنين بأمارات وعلامات نفاقهم، ومن ذلك يتدرّب المؤمنون على معرفة علامات النفاق، وكشف المنافقين بها، فمن هذه العلامات الدالّات على النفاق والمنافقين ما يلي:

(أ) قيل لهم قبل المعركة: تعالَوْا قاتِلُوا في سبيل الله قتال المؤمنين الصادقين. أو تعالَوْا ادفعُوا عن أرضكم وأموالكم ومفاخركم وإخوانكم، أوْ قِفُوا في المعركة موقف المدافع لا موقف المهاجم المستبسل الشجاع.

فقالوا تَعلُّلاً بأقوال باطلة، زاعمين أنها نِتاج عقل وحكمة وبصيرة: لو نَعْلَمُ أَنَّهُ سَيكُونُ قِتالُ لاتَّبَعْنَاكم، ولدافعنا عنكم، ولمَا خذلْنَاكُم، ولكنّنا نرى أنه لن يكونَ قتال.

أي: عند المواجهة ستَرَوْن أنَّكُمْ أضعفُ من عدوِّكم، وأنّه لا قِبَلَ لكُمْ بجيشهم، فترجعون إلى المدينة، إذْ ترون رأينا الذي كُنّا قد رأيناه، من البقاء في المدينة، وعدم الخروج إلى العدو، فالمدينة أحْصَنُ لكم.

أو لو نعلم أنّه سيكون قتال يُظَنُّ معه النَّصْرُ لاتَّبَعْنَاكُمْ، ولكن سيكون إلقاءُ بالأنفس في التهلكة، كما قال عبد الله بن أبي بن سلول حين انخذل مع قومه: ما ندري علامَ نَقْتُل أنْفُسَنا هٰهُنا أيُّها الناس.

دلّ على هذا أيضاً قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾:

أي: هم يوم تعلُّلِهِمْ بهذا القول الذي ذكروه بأفواههم للاعتذار عن المشاركة في القتال، والّذي يزعمون أنّه لا ينقضُ إسلامهم، إذْ هُوَ مبنيٌّ بزعمهم على اجتهاد يُعْذَرُونَ به، قد كانُوا أقربَ للكُفْرِ الصريح منهم لادّعاء الإيمان، فأقوالهم هذه مع خذلهم الرسول والذين آمنوا وخرجوا معه للقتال، كافية لأنْ تكشف اقترابهم من مواقع الكفر الصريح، وابتعادَهُمْ عن مظلّة دعوى الإيمان.

وربُما كان فيهم فريقٌ لم يَكُنْ منافقاً من قبل، إلاّ أنَّهُمْ قد أنْشَؤوا في هذه المرحلة نفاقاً، وخَطَوْا فيه خُطُواتٍ كانوا بها أقرب للكفر الخالص منهم للإيمان الذي كانُوا فيه.

فدلّ النصّ بهذا على أنّ الأمارات والعلامات القويّة تَسْمَحُ للمؤمنين بأن يحكموا على من ظهرت منه باقترابه من الكفر، وابتعاده من الإيمان، وأنّ ادّعاء الإسلام والإيمان مع ذلك هو من قبيل النفاق.

وهذا يرجّح شدّةَ الحذر ممّن تظهر عليه هذه العلامات وأشباهُها، وضرورةَ توجيه المراقبة الدائمة له، وَوَضْعِه مَوْضِع من يُظَنُّ فيه النفاق، فلا يُؤْتَمَنُ على أسرار المسلمين، ولا يُتّخذُ بِطانَةً لأولي الأمر منهم.

ونُلاحظ في النصّ أنّ الله عزّ وجلّ بعد توجيهه المؤمنين لمنهج التَّبصُّر بالأمارات والعلامات الدّالّاتِ على نفاق المنافقين للحذَرِ منهم، أبان أنّ هؤلاء الذين قالوا للمؤمنين: ﴿لو نعلم قتالاً لاتَّبعْنَاكم﴾ هُمْ كذّابون، منافقون، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فقال تعالى:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾:

أي: إنّهم لا يُريدُونَ نُصْرَةَ الرسول ولا المؤمنين معه مطلقاً، حين قالوا: ﴿لو نعلم قتالاً لاتَّبعْناكُمْ﴾.

فقد عَلِمُوا أنه سيكون قتالٌ، وأنّهم لو نَصَروا إخوانهم لأمكَنَ انْتِصَارُهُمْ على عَدُوّهم، ومع ذلك قَعَدَ من قَعَدَ منهم فلم يخرج، وانْخَذَل من انْخَذَل منهم من بعض الطريق.

لكنَّ الله عليم بما يكتمون في صدورهم، لأنّه سبحانه عليم بكلّ شيء، ومنه ما تُوَسْوِسُ به النفوس، وتخفيه القلوب.

* * *

(ب) وبعد أن قعد المنافقون عن الخروج مع الرسول ﷺ إلى موقعة أُحُدٍ، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ من المسلمين فيها، قالُوا عن إخوانهم الذين قُتِلوا مع من قُتِل: لو أطاعونا فقعدوا معنا ولم يخرجوا مع الرسول والمؤمنين ما قُتِلوا.

هذه المقالة تتنافَىٰ مع صحّة الإيمان بالله عزّ وجلّ وقضائه وقدره وعظيم حكمته، وهي تدلُّ على أنّ القلب غَيْرُ صحيح الإيمان، فهو في كُفْرٍ، أو ريْبٍ أو زَيْغٍ عن الحقّ، قديمٍ أو طارىء، فهي علامة من علامات النفاق.

كشف مقالتهم هذه قول الله عز وجل في النّصّ:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

وبياناً لفساد هذه المقالة التي تُعَبِّر عن جهلهم بقضاء الله وقدره أو جُحُودِهم له علّم الله رسوله ما يرُدُّ به عليهم، وهو ردّ يَرُدّ به كلُّ مؤمنٍ بعد الرّسول، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾:

أي: إنَّكُم تَدَّعُونَ أنّ الذين خرجوا إلى أُحُدٍ من إخوانكم فقُتِلُوا، لو استجابوا لتثبيطكم فأطاعوكم ولم يخرجوا للقتال، ما قُتِلُوا، فَلَمْ يَمُوتُوا.

والجوابُ أنَّ هذا الادّعاء ادّعاءٌ كاذبٌ مخالفٌ للواقع والحقيقة، وهم غير صادقين فيه، لأنّ الموت قضاءٌ رَبّاني محتومٌ للناس جميعاً، ولكلّ حيٍّ أجلٌ لا يتقدّم ولا يتأخّر، ومن جاء أجلُهُ ذاق الموت عنده لا محالة، سواءٌ أتعرَّض لسبب القتل أو لم يتعرَّض له، وإن كان على الإنسان أن يتخذ الحيطة لنفسه فلا يتعرّض لأسباب القتل دون إذْنٍ أو تكليفٍ ديني من الله عزّ وجلّ، وإلاّ كان عاصياً، بدليل نصوص اخرى.

فإنْ كنْتُم صادقين في أنّ من حَمَى نفسه من أسباب الموت الظاهرة التي تعرفونها وتتقونها، لم يَمُتْ في أجَلِه المقدَّر له، فادرؤوا عن أنْفُسِكُمْ الموت، بحماية أنفسكم من أسبابه.

ولَنْ يستطيعوا ذلك.

وهذا الجواب قد تَضَمَّنَ بَيَاناً لِبَعْضِ الحقيقة حول قضيّة الموت. وبعضٌ آخَرُ من هذه الحقيقة قد تضمَّنَهُ جواب سابق في الآية (١٥٤) من السورة نفسها، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ... ١٥٤﴾:

أي: لخرجوا بسبب آخر إلى البَرَاز (وهو الفضاء الواسع) الذي قُتِلُوا فيه، فكان

مَصِيرُ بُروزِهم إلى الاستقرار في مدافنهم التي دُفِنُوا فيها، فكانت مضاجعهم المريحة إلى يوم يُبْعَثُون، كمضاجع النائمين المستريحين.

وفي نصوص أُخْرَىٰ جاء استكمال سائر عناصر الموضوع.

* * *

(٢)
المفردات اللُّغويّة في النّصّ

﴿أَوَلَمَّا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، الذي فيه معنى العجيب من مقالتهم: ﴿أَنَّىٰ هذا؟﴾. والواو عاطفة، أي: أتقولون هذا وأنتم الْمُتَسَبِّبُون فيما نزل بكم، إنّ هذا الأمر مستنكر استنكاراً يَتعجّبُ منه المتعجّبون.

«لَمَّا» هنا اسمُ زمان، فهي ظرفيّةٌ بمعْنَىٰ «حين» وتختصُّ هذه بالماضي، ولتضمُّنها معنى الشرط كانت بحاجة إلى جواب، ويكون جوابُها فعلاً ماضياً كما في النصّ هنا، أو جملةً اسميّة مقرونةً بـ«إذا» الفجائية، أو بالفاء. وقد يُحْذَفُ جوابها لوجود دليلٍ يَدُلُّ عليه.

و «لمّا» الظرفية هذه تُلازم الإضافةَ إلى جُمْلة الشرط.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾:

أي: أوَحِينَ أصابتْكُمْ مُصِيبَةٌ...؟

﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾:

أي: قد نِلْتُم مِثْلَيْها، المثلُ الْمُسَاوِي، فالْمِثْلانِ هُما مُساوِي الشّيء وقَدْرُهُ مَرّةً أخرى، وفي هذا إشارة إلى أنهم في بدر قتلوا سبعين من المشركين، وأسَرُوا سَبْعين، لكن المشركين في أحد لم ينالوا أكثر من قتل سبعين من المسلمين.

يقال لغة: أصَابَ الإنْسانُ من المالِ وغيره: أي: أخذ وتناول، ونَالَ. وقد كثر في السُّنّة استعمال فعل «أصَابَ يُصِيبُ» بمعنىٰ: نال، وأخذ، وحاز، واستمتع، مثل: أصابَ كذا من الغنيمة، أي: نال وأخذ.

وأصابَ من امْرأتِه، أي: استمتع بهما، فكلُّ شيءٍ يحصلُ الإنسان عليه يقال فيه: أصَابَهُ.

﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾:

هذه جملةُ جواب «لمَّا».

«أنَّى» هُنَا استفهامية، فهي أداة استفهام، وتأتي بمعنى: «مِنْ أيْنَ» وبمعنى: «كيْفَ».

والاستفهام هُنَا استفهام تَعَجُّبِيٌّ، وهو بمعنى: كيفَ خذَلَنَا ربُّنا وقد وعَدَنا النَّصْرَ على لسانِ رَسوله؟! أو من أيِّ مكانٍ دخَلَتْ علينا هذه المصيبة؟!

ويظهر أنَّ أصحاب هذه المقالة لم يفطنوا إلى المعصية التي ارتكَبَهَا الطامعون في جمع الغنائم، التَّارِكون لمواقعهم قبل أن يأذن لهم الرسول ﷺ، منصرفين لحيازة ما انكشف عنه المشركون من أموالهم، فقالوها مُتَعَجّبين وباحثين عن العلّة، هل هي من كيفيّة الإخلاف في الوعد، أو من جهة أنفسهم إذْ تَسَبَّبوا فيما يستحقّون به أن يرفع الله عنهم عونه ومَدَدَهُ لهم حتى النّصر المبين، فجاء استعمال «أنّى» صالحاً للمعنَيَيْن.

وجاء الجوابُ مُبَيّناً مكان سبب المصيبة، إذْ علّم الله رسوله أن يقول لهم:

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾:

أي: أنْفُسُكُمْ هي المكان الذي صدر عنه السَّبَبُ، فحلّ بكم ما حلّ من مُصِيبَةِ القتل والهزيمة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾:

هو يومُ أحد، والجمعان هُما جمع المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، وجمع لمشركين بقيادة أبي سفيانَ بْنِ حَرْب، والمرادُ من التقائهما التقاؤُهُمَا على تقاتُلٍ وحَرْب.

﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾:

الإذْنُ في اللُّغة يأتي بمعنَى العِلْم، يقال: أذِنَ فُلانٌ يأْذَنُ بالشيء إذْناً وأذَناً إذا عَلِمَ به.

ويأْتي الإذْنُ بمعنَى الإباحة ولكن هذا المعنى لا يصلُحُ هُنا، فالله لا يُبيحُ للمشركين إباحةً تشريعيَّةً حُكميَّةً قَتْلَ المؤمنين.

لكنَّ العَالِمَ بالشَّيْءِ عنْدَ حُدُوثه، وهو قادر على أن يَمْنَعَ حُدُوثَهُ، بِمَنْعِ إمْدادِه الفاعل بالطاقة اللازمة له، أو بإقامة العقبات والموانع، أو بالصرف والتحويل، فإنّ عِلْمَهُ عندئذٍ يُعْتَبَرُ مقروناً بالتمكين القدري.

فيكونُ مَعْنَى ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ على هذا، فبِعِلْمِهِ وتمكينه تمكيناً قَدَرِيّاً، وتَسْخِيرِهِ الأسْبَابَ والمسبَّبات. وضِمْنَ هٰذا المعنى تُفهَمُ مُعظَمُ النُّصُوصِ القرآنية الّتي جاء فيها نحو هذا الاستعمال، مثل: [بإذْنِ الله ــ بإذْنِ رَبِّهِ ــ بإذْنِ رَبِّهِمْ ــ بإذْنِ رَبِّها ــ بإذْنِهِ، والضمير لله].

وقد يأتي الإذْنُ في القرآن مقترناً بمعنَى الإباحة الشرعيَّة، والتمكينِ القَدَرِي، دون أن ينْفكَّ عن معنَى العلم، ومن هذا ما جاء في النَّصّ السابق: خطاباً للمؤمنين:

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾:

أي: بعِلْمِهِ وإباحَتِهِ وتمكينه وتسخيره الأسباب والمسبَّبات.

والاستئذان: إعلامٌ مع طَلَبِ الإباحة والتمكين.

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾:

فادْرَؤوا، أي: فادْفَعُوا، الدَّرْءُ: الدَّفْعُ. يقال لغةً: دَرَأَهُ يَدْرَؤُهُ دَرْءاً ودَرْأَةً إذا دَفَعَهُ، وتَدَارَأَ القَوْمُ: أي: تدافعوا في الخصومة ونحوها واخْتَلَفُوا.

وتقولُ: دَرأتُ الشيءَ، إذا دفعْتَهُ عَنْكَ.

وقول الله تعالى:

﴿فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾:

أي: تَدارأْتُم فيها، بمعنى اختلفتم وتدافعتم، فكلُّ فريق يَدْفَعُ عَنْ جهتِهِ قَتْلَ

النَّفس الّتي قُتِلَتْ من بَني إسرائيل، ويُلْقِي التهمة على الفريق الآخر.

* * *

(٣)
ما رُوِي في سبب النزول

هذا النّصّ كسابقه اتّفق شيوخ أهل التفسير من السّلَف عَلىٰ أنَّ هذا النصّ قد نزل بمناسبة الأحداث التي جرت في موقعة أُحُدٍ.

والآيات فيه مع سِبَاقِ النّصّ وسياقِهِ في السورة ظاهرةُ التوافق مع أحداث هذه الغزوة.

* * *

(٤)
مع النّصّ في التحليل والتّدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾؟!.

أي: أو حِينَ أصابَتْكُمْ أيُّها المسلمون مصيبةٌ وهي مصيبتُكم الحاصلة يَوْمَ أُحُد، إذْ قُتِلَ منكمْ سبْعون، وكُنْتُمْ قَدْ أصَبْتُمْ من عَدُوِّكُمْ مِثْلَيْها في بدر، فَقَتَلْتُم منهم سبعين، وأسَرْتم سبعين كانَ في مقدوركم ان تقتلوهم ايضاً، لمّا حصل ذلك قُلْتُمْ من أيْنَ حصل هذا؟! أو كيف حصل هذا؟! متعجبين من الأمر، ظَانِّينَ أنّ من حقّكُمْ على الله أن يَنْصُركُمْ على كُلِّ حالٍ ولَوْ عَصَيْتُمْ، وَخَالَفْتُمْ، ولَمْ تُحَقِّقوا في أنْفُسِكُمْ شُروطَ النصر.

إنَّ تعَجُّبَكُمْ ممّا أصابكم هو الذي يستحقُّ أن يَتَعجَّبَ منه المتعجّبونَ لو تبصّرْتُم.

فالاستفهامُ في: ﴿أو لَمّا أصابتكم مُصِيبَة؟!﴾ استفهامٌ تعجيبيٌّ من تعجُّبهم بقولهم: ﴿أنّى هَذا؟!﴾.

والجواب الرّبّاني الذي أمر الله رسوله أن يجيبهم به هو ما جاء في:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ: هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: تسألونَ: من أيْنَ حصل لكم هذا الذي نزل بكم، متوهّمين أنّه من جهةِ إخلاف الوعد؟ أوْ كيف حصل لكم هذا وقد سَبَقَ وعدُ الله لكم بالنّصر على لسان رسوله؟ وجوابكم أنّ ما حصل لكم هو من عِندِ أنْفُسِكُمْ فما في أنفسكم قد كان هو السبب الذي جَلَبَ لكُمْ مَا أصابكم من مصيبة.

إنّ وعد الله لكم بالنّصر مشروط بأن لا تُخِلُّوا بما أوجب عليكم، أمّا وقد وُجِدَ في نفوسِكُم الطّمَعُ في الغنائم، وإرادةُ الدنيا، فجرَّكُمْ ذَلِكَ إلى التنازع في الأمر، والمعصية للرسول، فالفشلِ، والانهزام، فما بعد ذلك من أشياء، فالأمْرُ كُلُّهُ من عِندِ أنْفُسِكم.

أمّا أسبابُ الله فقد كانت مُمْتَدَّةً إليكم، لكنَّكُمْ ابْتَعَدْتُمْ عَنْها، وتركتموها، فكيف تنصُرُكُمْ أسبابٌ لم تمسِكُوها، بَلْ تحوَّلْتُمْ عَنْها؟! كيف تشربون من حوضٍ هجرتموه، واندفعتم نحو سراب غَرَّكُمْ بأوهامه؟! كيف تَطْلُبُونَ من الله نصراً خارجاً عن حدود إمكانياتِ أسبابكم، وقد خالفتم أَمْرَهُ وعَصَيْتُمْ رسُولَهُ وَعَصَيْتُم قادَتَكُمْ؟!

إنّ ما نزل بكم لَمْ يكُنْ تجاوزاً لقدرة الله، وإفلاتاً من سلطانها، بل هو ضِمْن سلطانها، ولكن اقتضت حكمته جلّ وعلا أن يُنْزِل بكم ما نَزَل بكم، دلّ على هذا:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

فأكّدَ اللَّهُ لهم أنّه على كلّ شيءٍ يشاؤُهُ سبحانه قديرٌ، لا يُعْجِزُهُ مِنْهُ شيء، ولو كان خَلْقَ السماواتِ والأرضِ وما فوقَ ذلك أو نَسْفَها وإزالَتَها إلى العدم، فما بَالُكُم بِنَصْرِكم على عدوّكم، وهي من صُغْرَيات الأحداث؟!.

لكنّ الله عزّ وجلّ لا يُجري تصاريفه في كونه بمقتضيات صفة قدرته فقط، بل يُجْري تصاريفَهُ بقدرته القادرة على كلّ شيء، المقرونة بعلمه المحيط بكل شيء، وحكمتِه التي بِهَا تَتِمُّ إرادتُهُ، وقضاؤه وقَدَرُه.

إذن: فعليكم أن تبحثُوا عَنْ حكمة رَبِّكم فيما أَذِنَ بأنْ يَنْزل بكم من مصيبة في أحد، وكذلك في كلّ مصيبة تنزل بكم مستقبلاً.

إنّ البحث والتأمل يَهْدِيانكم إلى اكتشاف أنّ حكمة الله عزّ وجلّ قضت أن يؤدّبكم، ويُرَبّيَكم، ويَبْتَلِي ما في صدوركم، ويمحّصها ويميّز المؤمنين الصادقين، ومن هم دون ذلك حتى دركة المنافقين.

وقد جاء ما يدُلُّ على عناصر هذه الحكمة في نصوص سابقة، ونصوص لاحقة، جاء فيها بيانات وعظات وتعليقات على أحداث معركة أُحُدٍ.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾:

أي: وما أصابكُمْ من مُصيبة تعجّبْتُمْ منْ نُزُولها بكم، يومَ الْتقى جَمْعُكُمْ وَجَمْعُ مُشْركي قُرَيش في أُحُدٍ، فقد كانَ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ، أي: بِعلْمه وتمكينه تمكيناً قَدَرِيّاً وتَسْخِيره الأسبابَ والْمُسَبَّباتِ، إذْ مكّن أعداءَكُمْ مِنْكُمْ لحِكْمةٍ اقْتَضَتْها إرادته، وهي تربيتُكُمْ وتأديبكُم، وليمتحنَكُمْ، فيكشف المؤمنين الصادقين، ويميّزهم من غيرهم أصحاب الرّيب والشّكّ، وضعفاء الإيمان، فيعلَم حدوثَ ما سبقَ في علْمِهِ أنّه سيَحْدُثُ، وليعلَم أيضاً على وجه الخصوص الذين نافقُوا، أي: أنْشَؤُوا نِفَاقاً عند هذا الامْتحان، أو تظاهروا برغبات إسلامية وهم مُنافقُونَ في الحقيقة.

وقد دلّ على نفاقهم هذا أنّهم قيل لهم قبل معركة أُحُد: تَعالَوْا قاتلوا في سبيل الله مؤمنين صادقين، أو تعالَوْا إلى المعركة مدافعين عن جماعة المسلمين، أو مدافعين عن أحسابكم وأهل بلدكم، فقالوا متعلّلين بأعذارٍ ظاهرة البطلان: لو نعلم أنّه سيكون قتالٌ

لاتّبعناكم وقاتلْنا معكم، ولكن سترون عند وصولكم إلى موضع المواجهة أنّ رأيَنا هو الأصوب، وترونَ أنّ المغامرة تهلكَة، وترون الرّجوع للاعتصام بالمدينة، أو لو نعلمُ أنه سيكونُ قتالٌ يُظَنُّ معه النّصر لاتبعناكم.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾:

ما اسمُ موصول تضمَّنَ معنى الشرط، لذلك اقترن الخبر بالفاء ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

معطوفة على جملة مقدّرة دلّتْ عليها عبارة ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لتربيتكم وتأديبكم، وليَعْلَمَ المؤمنين.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾:

معطوفة على سابقتها. نافقوا: أي: أحدثوا نفاقاً، أو تظاهروا بإسلاميات هم بها كاذبون منافقون.

وقد عرفنا أن المراد من علم الله هنا أن يعلم الأمر بَعدَ وقوعه، المطابقَ لِعِلْمِهِ السابق به قبلَ وقوعه.

* * *

* قولُ الله عزَّ وجلّ:

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

نحن نعلم أنّ المنافقَ كافرٌ في باطنه غير مؤمن، فكيف يكون هؤلاء الذين نافَقُوا أقرب للكفر منهم للإيمان؟

لدينا احتمالان:

(١) إمّا أن يكونوا قد أنشؤوا نفاقاً لم يكونوا فيه، وساروا فيه خطوات، لكنهم لم ينغمسوا بَعْدُ بالكفر الثابت، فيكونوا كافرين منافقين، وقد صاروا بخطواتهم هذه أقرب للكفر منهم للإيمان.

(٢) وإمّا أنْ يكونُوا قد أظْهَرُوا بأقوالهم وأعمالهم ما قدَّمُوا به دليلاً من الأمارات

والعلامات الماديّة، ما يُمَكِّنُ المسلمين من الحكم عليهم بأنّهم قد صاروا أقرب للكفر منهم للإيمان.

فالدلائل تُرَجِّحُ احتمال كُفْرِهِمْ على احتمال كونهم مؤمنين.

وفي هذا إرشادٌ رَبّانيٌّ إلى أمارات الإدانة البشريّة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾.

يكشفُ الله بهذا أنّهم كذّابون، ومِنْ أكاذيبهم قولُهُم لِبَعْضِ الّذينَ خرجوا مع الرسول إلى معركة أحد من المؤمنين: لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُمْ.

فهم يقولون بأفواههم كلاماً عمّا في قُلُوبهم، مع أنّه ليس في قُلوبهم ذلك الذي ادّعَوْهُ وقالُوه بألسنتهم، إنّهم يكتمون في قلوبهم عدم الرغبة بنُصْرَةِ الرَّسول، وعدم الرغبة بانتصاره، ويظهرون بألسنتهم الإسلامَ، وادّعاءَ الإيمان، والحرصَ على انتصار الإسلام، وانتصار الرسول والمؤمنين معه، وهم في كلّ ذلك كاذبون، وأقوالُهم إنّما هي أُسْلُوبٌ من أساليب النفاق.

وإذا كان ما يكتمونه في قُلوبهم، قد يَنْشَغِلون عنه، فلا يكون حاضراً دواماً في تصوراتهم، وحركاتِ أفكارهم، وخلجاتِ نُفُوسهم، فالله عزّ وجلَّ لا يعزُبُ عنه عِلْمُ ذلك في أعماق قلوبهم، طرفةَ عَيْنٍ ولا أقلَّ من ذلك. إنّهم قد يغفُلُون عمّا يكتمون في قلوبهم، لكنّ الله عزّ وجلّ عليم به دواماً، لذلك جاء في النَّصّ:

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾:

أي: أعلم منهم بما يكتمون في قلوبهم، يضاف إلى هذا أنّ بعضَ مَا يكتمون في قلوبهم هو من قبيل المشاعر الحبيسة الغامضة، الّتي لا تستطيع أذهانهم ولا تصوُّراتهم تَحْديدَ حقيقتها، لكنّ الله يعلم حقيقتها علماً دقيقاً شاملاً، فهو سبحانه أعلم بما يكتمون.

ويلاحظ أنّه قد جاء التعبير هنا بالأفواه، على خلاف ما جاء في سورة (الفتح/

٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) من التعبير بالألسنة، في قوله تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ... ﴿١١﴾﴾.

وبتأمّلِ النَّصَّيْنِ وَمَضَامينهما نرى أنَّ التعبير بالأفواه يُشْعِر بأنّهم يملؤون أفواههم متشدّقين بكلام يفخّمونه على قَدْرِ تجاويفها، حينَ يزعمون أنّهم حريصون جدّاً على مشاركة المؤمنين في القتال والدفاع، لو أنّهم يعلمون أنه سيكون قتالٌ فعليٌّ جادّ. وهي حركة تلقائية يندفع الكذّابُ المنافِقُ إلى تَصَنُّعِها، ليُغطّي بها كذبَهُ ونفاقه.

أمّا التعبير بالألسنة فقد جاء في وصف كلام معتذرين مستغفرين، وهؤلاء يأتون عادة مُتَمَسْكِنِين لا يتشدّقُون، وقَدْ يَغُضُّون من أصواتهم، ويكتفون بتحريك ألسنتهم.

فالتشدُّق بالمعاذير من أمارات الكذب، وعلامات النفاق.

وضَح لنا أنّ هذا البيان قد تضمَّن ما يلي:

(أ) كشف الله فيه واقع حال المنافقين في سريرتهم على خلاف ما يتظاهرون به في أفواههم متشدّقين.

(ب) أعلم الله المنافقين أنّه لا تخفىٰ عليه منهم خافية.

(ج) أبان الله للمؤمنين بعض أمارات النفاق وعلاماته، وهو التشدّق بالأفواه لدىٰ المعاذير ودعاوى صدق الإيمان والإسلام والحرص على المسلمين والرغبة في البذل من أجلهم، مع مخالفة الأعمال للأقوال.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾:

أي: : هؤلاء المنافقون الّذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، هُمُ الّذين قالُوا بعد معركة أُحُدٍ عن إخوانهم، أو لأجل إخوانهم الذين قُتِلُوا فيها، والحالُ أنّهم

كانوا قد قَعَدُوا عن المعركة ونَصَحُوا إخوانهم بعدم الخروج: لو أطَاعونَا فيما نصحناهم به ما قُتِلُوا.

هذه المقالة من مقالاتهم تدُلُّ على عدم فهمهم لركن قضاء اللّهِ وقدره من أركان الإيمان، أو عدم إيمانهم به كلّيّاً.

وقد تتضمَّنُ هٰذِه المقالةُ تَصَوُّرَ أنَّ تَفادِيَ أَسْبَابِ الموت كُلِّها يمنع حدوث الموت ويَدْرَؤُهُ، فجاء البيان التالي في تتمّة الآية، وهو:

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

أي: قل لهم يا مُحمَّدُ جواباً على ادّعائهم أو تصَوُّرهم الذي تضمّنَتْهُ مقالَتُهُمْ: فادْفَعُوا عن أنفسكُم الموتَ إذا جاءت آجالكُمْ، إنْ كنتم صادقين في ادّعاء أنّ تفاديَ أسباب الموت يمنع حدوث الموت ويدرؤه.

والجواب هنا خاصٌّ بالرّدّ على مذهب المادّيّين السّببيّين، الّذين لا يؤمنون بمقادير الربّ الخالق في الحياة والموت، والوجود والعدم.

وفي نصوص أُخرىٰ جاء الرّدّ على الأوهام الأخرى حول هذا الموضوع، ومنها جميعاً تُستَخْرَجُ كُلُّ الرّدُود التي يَتَكامَلُ بها عِقْدُ الموضُوع.

● ● ●

النصّ الحادي عشر

من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية
الآيـات مـن (١٧٦ ـ ١٧٩)
حـول الذين بـدؤوا خطـوات النفاق إبّـان غـزوة أحـد
ومسارعتهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم

هذا النص مثل النصّين السابقين التاسع والعاشر، اشتمل على بيانات وعظات وتعليقات ومتابعات تتعلّق بالأحداث التي جرت في غزوة أُحُد، وما استتبعتْ هذه الغزوة، وما كان من المنافقين فيها وبعدها.

يقول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران) خطاباً لرسوله:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

* * *

ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

(١) قرأ نافع: [وَلَا يُحْزِنْكَ] بضمّ الياء، من أحْزَنَهُ الأمرُ يُحْزِنُه. وهي لُغة، أمّا

قراءةُ سائر القرّاء فهي من حَزَنَهُ الأمْرُ يَحْزُنُهُ، وهي لُغَةٌ. قال الجوهري: حزنَهُ لُغةُ قريش، وأَحْزَنَهُ لغة تميم.

(٢) وقرأ حمزة: [وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا] بتاء الخطاب وفتح السّين، فبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، قراءة جمهور القراء تتحدّث بالغيبة عن الذين كفروا، وقراءة حمزة تخاطبُ الرّسُول وكلّ مؤمنٍ خطاباً إفرادياً، وهذا من الإيجاز الذي يعتمد على تغيير حرف واحد.

(٣) وقرأ ابن عامر وعاصم وأبو جعفر: [وَلَا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا] بفتح السّين وياء الغائب، وقرأ سائر القرّاء العشرة [وَلَا يَحْسِبَنَّ الذينَ كفَرُوا] بكسر السّين وياءِ الغائب. وهما لغتان للكلمة، يقالُ: حَسِبَهُ يَحْسَبُهُ وَيَحْسِبُهُ بفتح السين وكسرها في المضارع حِسْبَاناً بكسر الحاء، أي: ظَنَّهُ يظُنُّهُ ظنّاً باطلاً.

(٤) وقرأ حمزة والكسائي وَخلَفٌ: [حَتَّىٰ يُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ] من مَيَّزَ بالياء المشدّدة يُمَيِّزُ تمييزاً، وقرأ سائر القُرّاء [حَتَّىٰ يَمِيزَ] من مَازَ يَمِيزُ مَيْزاً، أي: عزل الشيء وفرزه ونحّاه، وهما لغتان في الكلمة والمعنى واحد.

* * *

(١)
المعنى العام للنّص

مواقف المنافقين وأهل الرّيب والشّك وضعفاء الإيمان في معركة أُحُدٍ وما بعدها، قد آلَمَتِ الرسول ﷺ، وفريقاً من المؤمنين الصادقين، فاقتضت الحكمةُ العِلاجيّةُ التربويّة، إنزال بيانٍ خاصّ مُوجّه للرّسول، ويستفيدُ منه سائر المؤمنين تبعاً، مع ما فيه من توجيهٍ غير مباشر لأصحاب هذه المواقف.

فقال الله عزّ وجل لرسوله:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

في هذا النّصّ قضيّتان:

* **القضية الأولى**: متابعة حركة تدرُّج الذين سلكوا مسلك النفاق، وذلك لأنّهم بعد أن خَطَوُا الخطوات الأولى في النفاق، تبعاً للذين كانُوا منافقين من قَبْلُ، أخَذَتْ خُطُواتُهُمْ تتسارع في طريق الكفر، ويُخشَىٰ أن يَصِلُوا قريباً إلى حضيضه الوخيم.

* **القضيّة الثانية**: مُتابعةٌ تربويّة من الله لرسوله تُبَيِّنُ له أنّه لا ينبغي له أن يحزن إذا وجد بعض أتْبَاعه ارتدُّوا منافقين، بعد أن كانُوا في ظاهر حالهم مؤمنين، فأخذوا يسارعون في طريق الكفر إلى شقائهم، نظراً إلى أنّهم سائرون في مسيرتهم المرتَدَّة إلى مواقع الكفر الخالص في الباطن.

وهذا الحزنُ يُحرّكه في الرّسول ﷺ أمران:

الأمر الأول: رحمته صلوات الله عليه وسلامه بهم، وحرصُه عليهم، وخوفه من سوء المصير الذي هم إليه سائرون فصائرون.

الأمر الثاني: تخوّفُه ﷺ من تناقُصِ أنصار هذا الدين، ومن حصول الضرر في مسيرة الدّعوة الرّبانية.

وقد عالجتْ تربية الله لرسوله هٰذين الأمرين ببيانٍ لكُلٍّ منهما.

(أ) أمّا تخوّفُه على الدّعوة الإسلاميّة الرّبّانيّة من تناقُص أنصارها، وارتِدَادِ بعْضِ المنتمين إليها، بسُلوكهم مسالكَ النفاقِ الذي يجرُّهُمْ إلى الكُفْر الخالص، فقد جاء البيان بخصوصه يكشف للرسول ﷺ أنّ هؤلاء الذين يُسارِعُونَ في الكُفر لنْ يضُرُّوا الله شيئاً.

أي: لن يضُرُّوا الله في مسيرة أنظمة أكوانه شيئاً، ولن يضرُّوا الله في ذاته أو صفاته شيئاً، ولن يضُرُّوا دينَ الله المؤيّد بتأييده شيئاً. فظهور هذا الدّين لا يؤثّر عليه ارتداد المرتدّين عنه، بنفاق أو بغيره، ولو انحازوا إلى أعداء الإسلام بكلّ صراحةٍ ووقاحة، فهم غير صالحين منذ البداية لأن يكونُوا جنود دعوة، أو جنود جهاد في سبيل الله صادقين، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النص:

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ... ﴿١٧٦﴾﴾.

(ب) وأمّا رحمته ﷺ بهم، وخوفُه عليهم من سوء المصير، فقد جاء البيان بخصوصه يكشف للرسول أنّ من اختار لنفسه الكفر فقد قذَفَ هو بنفسه إلى حيث يستحقُّ بعدل الله في حسابه وعقابه الحرمانَ من نعيم الجنّة، والعذابَ الأليم في النار.

وعَدْلُ اللّهِ في أحكامه من إرادته الْعَدْلِيّة، وتنفيذ هذه الأحكام من إرادته الجزائية الحكيمة العادلة، ومن استحقّ ذلك بإرادة الله الحكيمة العادلة، المبْنِيّة على قضائه بالعدل، وحكمه بالعدل، المستند إلى فعل المجرمِ باختياره الحرّ، فليس هو بأهل لأن تَرْحَمَهُ، وتَحْزَن من أجله.

دلَّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٧٦﴾:

أي: فليس لهم حظٌّ في الجنّة، وهذا من عدل الله بإرادته الحكيمة، ولَهُمْ في النّار عذابٌ عظيم، وهذا أيضاً من عدل الله بإرادته الحكيمة.

وبعد الحديث عن الذين سلكوا مسلك النفاق مسارعين في الكفر تبعاً للّذين مرَدُوا على النفاق، أبان الله عزّ وجلّ في النّصّ حال الذين استكملوا مسيرتهم في النفاق، واستقرّوا في الكفر، فاستبدلوا الكُفْرَ بالإيمان، ولم يبْقَ في قُلوبهم أيّ الْتِفاتٍ إلى مواقع الإيمان، وأمْسَوْا في مواقع الكفر الخالِصِ في الباطن.

إنّهم أيضاً مثلُ الّذين يسارعون في الكُفر:

(١) لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً.

(٢) ولهم عذابٌ أليم.

دلّ على هذا الفريق قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٧﴾.

ومن هذا نُلاحظ أنّ حركة النفاق قد تتابَعَتْ خِلال أحداث غزوة أُحُدٍ وبَعْدَها ضمن خطٍّ بيانيّ اشتمل على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: بَدْؤُهُمُ السَّيْرَ في طريق النفاق.

دلّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ في النصّ السابق من سورة (آل عمران):

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾.

المرحلة الثانية: مسارعتهم في طريق الكفر مُتجهينَ شَطْرَ غايته، بَعْدَ انْزلاقِهِمْ في المرحلَةِ الأولى.

دلّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجل في هذا النّصّ الحادي عشر الذي نتدبَّره:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

المرحلة الثالثة: بلوغُهُمْ إلى غاية الكُفر، واستقرارُهُمْ في مَوْقِعِه، إذِ اشْتَرَوُا الكُفر بالإيمان.

دلّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ أيضاً:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

وبَعْدَ أنْ تحقّقَ هؤلاء الذين نافقوا بالكُفرِ الخالص، إذْ وصَلُوا إلى غاية الطريق التي انزلَقُوا في مبادئها أوّلاً، ثمّ سارعوا منحدِرين في أواسطها، حتّى اشْتَرَوُا الكُفرَ بالإيمان في غايتها، واستقرُّوا في موقع الكُفْر، وأبْقَوا ظاهر الانتماء إلى الإسلام نفاقاً، تحوّل الحديث عنهم إلى كلامٍ عن كافرين.

وهنا يكشف اللّهُ عزّ وجلّ طرفاً من حكمته في إمهالهم، وعدم المسارعة في الانتقام منهم.

فالله عزّ وجلّ يُمْلِي لهم ليَتمادَوْا في مُمارسات الكُفر، فيزدادوا إثْماً، وإذا ازْدادُوا إثْماً كانت إدانتُهم بالكفر أقوى أدلّة وأكثر براهين، ولم يكن لهم يوم الدّين ما يعتذرون

به، من أنَّ ما كان منهم قد كان أثر طَيْشٍ عارضٍ، أو انفعالٍ طارىء، أو جهالةٍ كان من الممكنِ أن يَصْحُوا منها، لو تُركَتْ لهم فُرصَةُ التوبةِ والرُّجْعَةِ.

فَمَنْ أُمْهِلَ مَعَ الإِنْذارِ إمهالاً كافياً للتوبة، وقد فتحت له أبوابُها، ثُمَّ ظلَّ مكابراً معانداً، يزداد إثماً وطُغياناً، فقد أسقط كلَّ أعذاره، وكُلَّ تعلُّلاته، واستَحَقَّ العقاب بلا شفقةٍ ولا رَحْمةٍ، لأنَّه لم يشفق هو على نفسه، ولم يرحَمْها.

فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

بعد ذلك التفت النَّصّ إلى المؤمنين ليُبَيِّن الله لهم فيه حكمته حول تساؤلات قد تقع في نفوسهم، ولو لم ينطقوا بها في ألسنتهم، ومن هذه التساؤلات ما يلي:

التساؤل الأوّل: لماذا أنزل الله بنا هذه المصيبة العامّة الّتي شَمِلَتِ المحسنين والمسيئين يومَ أُحُدٍ؟

وجاء جواب هذا التساؤل النفسي في قول الله عزَّ وجلَّ في النصّ:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾.

أو: [حَتَّىٰ يُمَيِّزَ الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ] في القراءة الأخرى.

أي: ليس من شأن الله ولا من شأن حكمته في مسيرة أوليائه حاملي رسالته، أن يتركهم وقد اختلط بينهم الأخباث المنافقون اختلاطاً يجعل جماهير المؤمنين لا يميِّزون بسببه المنافق الخبيث من المؤمن الطيِّب.

فهذا الاختلاط من شأنه في نظام الأسباب والمسبَّبات أن لا يُمَكِّنَ رسالة الله من أن تبلُغَ مداها الظَّافر، ولا يُمَكِّنَ المؤمنين الصادقين من الظُّهورِ في الأرض على أعدائهم الكثيرين، لأنَّ المنافقين سيتابعون عبثهم من داخل صفوف المؤمنين، ويُتابعون مكايدهم، حتّى يحتلُّوا مراكز القيادة، فيعطفوا برسالة الإسلام عن صراط الله المستقيم، ويسلُكُوا بجماهير المؤمنين في مسالكَ شيطانيّة خبيثة، وعندئذٍ تسقط المسيرة في براثن الشياطين.

فَسَلامةُ مسيرة الدعوة الربّانية، وتنامي الأمّة الإسلاميّة، يقتضيان هذا التمييز.

التساؤل الثاني: إذا كانت الغاية تميز المنافقين الأخباث المندسين في صفوف المؤمنين من المؤمنين الصادقين، لتحذير المؤمنين من مكايدهم، أما كان من الممكن أنْ يُنَوِّر الله بصائر المؤمنين فيكشف لهم بذلك المنافقين، دون ابتلائهم بامتحان عامٍّ يتعرَّضون فيه للمصائب العامّة؟

وجاء جوابُ هذا التساؤل النفسي في قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: ليس من سنة الله ولا من حكمته أن يختصَّكُمْ بالاطّلاع على بواطن قُلُوب المنافقين، فتحذروهم بناءً على علمكم بهم. إنَّ ما تُكِنُّهُ القُلُوب هو من دوائر الغيب الذي حجبه الله عن الناس بحسب سنَّته الثابتة.

هذه هي القاعدة والسُّنَّةُ الثابتة، ولكن قد يجتبي الله من رُسُلِهِ مَنْ يشاءُ، فيُطْلِعُهم على ما يشاء ممّا هو غيبٌ عن الناس بحسب سنته، لحكمة من حكمه الجليلة تبارك وتعالى:

وبياناً لهذا الاستثناء قال الله عزّ وجل:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾.

فعلَى المؤمنينَ إذَنْ أَنْ يَدْفَعُوا عن أنفسهم وأذهانهم كلَّ الْخَواطِر الَّتِي تُشَكِّكُ في حكمة الله في تصاريفه بقضائه وقدره، مهما كانت مُخَالفةً لمَا يُحِبُّونَ، ومهما اشتملت على مكارهٍ لهم يكرهونها.

فمثلُ هذه الخواطر تُؤثّر على كمال الإيمان الذي يستوجب التسليم الكامل لله فيما تجري به مقاديرُه، ويستوجبُ الثّقة التامّة بأنّه هُوَ الأحكم والأصلح، فهو سبحانه وتعالى العليم الحكيم، الذي لا تنفكُّ حكمتُه العظيمة عمّا تجري به مقاديره، وإن جاءت على خلاف ما يهوى المؤمنون أو يحبّون.

وإرشاداً إلى هذا العنصرُ من عناصر الإيمان، وتنبيهاً على وجوب التقيُّد به، والحذر من خَدْشِهِ بالخواطر والتساؤلات حول مقادير الله الحكيمة، قال الله عزّ وجل

للمؤمنين بعد بيان سنته الحكيمة لهم:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾:

أي: فأكملوا عناصر إيمانكم بالله وبعلمه وحكمته، وأكملوا عناصر إيمانكُمْ برُسُلِهِ، ولا ترتابوا في صدق وعودهم، ولا تنقصوا هذا الإيمان شيئاً، أو تجرحوه بالخواطر المُشَكِّكة بكمال حكمة الله عزّ وجلّ، وإن تُؤْمِنُوا هذا الإيمان الكامل المصحوبَ بالتسليم التامّ لله ورسوله، وتتقوا مخالفة أوامر الله والرسول ونواهيهما، فلكُمْ بهذا الإيمان وهذه التقوىٰ أجرٌ عظيم.

* * *

(٢)
المفردات اللغويّة للنّصّ

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾:

الحزن: قال اللغويّون هو نقيض الفرح، وخلاف السرور. أقول: يمكن أن نُعرِّفه بأنّه مشاعر ألم في النفس بسبب محبوب أو مرغوب به فات، أو بسبب مكروه نازل، أو بسبب مكروه متوقّع النزول كالحزن على محكوم عليه بالإعدام.

وفعله: حزَنَه يَحْزُنُهُ وأحْزَنَهُ يُحْزِنه حُزْناً، فَهُوَ مَحْزُونٌ وحزينٌ وحَزِنٌ، وهم حِزَانٌ وحُزَناء.

﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾:

السُّرْعَةُ: العجلة، وهي في العمل ذي الحركات المتتابعات، إنجازُ الحركات مع تقليل الوقت بحسب نسبة السُّرْعة، وعَكْسُهَا البطء، ولكلٍّ منهما درجات كدرجات الحرارَة والبرودة.

والمسارَعَةُ، فيها معنى المبالغة في السُّرعَة، لأنّ صيغة المفاعلة إنْ لم تَدُلّ على المشاركة فهي للمبالغة. يقال: سارَعَ يُسارِعُ مسارعَةً إلى الأمر، أي أسرع بحركته أو في طريقه للوصول إلى الأمر.

ومعنى يسارعون في الكفر، يُسَارِعُونَ بخطواتهم المتتابعات في مُنْحَدرات الكفر، بسلوكهم مسالك النفاق، وغاية مسارعتهم الوصولُ إلى حضيض الكفر.

﴿حَظًّا﴾:

الحظُّ: النصيب من الخير أو النعمة أو السعادة أو الفضائل النفسيّة أو ما فيه نفع، وقد جاء في القرآن استعماله في النصيب من الميراث، وفي النصيب من الأموال، وفي النصيب من فضائل الأخلاق، وفي النصيب في الآخرة من الجنّة، وفي النصيب من الوصايا والشرائع والأحكام الدينية الرّبانية (وقد استعملت الكلمة في القرآن سبع مرّات).

﴿اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾:

أي: استبدلُوا الكفر بالإيمان، فأخذوا الكفْرَ وتركوا الإيمان، وفي هذا التعبير استعارة قائمة على تشبيه عمليّة ترك الإيمان واعْتناقِ مفهومات الكفر، بعمليّة البيع والشراء.

﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾:

أي: نُمْهِلُهُم. يقالُ لغةً: أملَىَ الله له، أي: أطال له وأمْهَلَهُ. ويقال: أَمْلاهُ اللّهُ العيشَ، أي: أمهلَهُ وطَوّل له.

﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾:

الخبيثُ: الرَّدِيء الفاسدُ الضَّارُ من كلّ شيء، وقد يطلق على الشيء الكريه في رائحته أو منظره، ولو كان نافعاً كنباتي الثوم والبصل كَرِيهَي الرائحة مع نفعهما.

يُقَالُ: خَبُثَ الشيءُ خُبْثاً وخباثةً، إذا صار فاسداً رديئاً مكروهاً، فَهُو خبيث.

والطَّيِّبُ: ضِدُّ الخبيث، ويُطْلَق على الطاهر، والطيبُ من المآكل ما هو لذيذ لا ضرر فيه، الطيبُ من الأرض ما كان منها طاهراً نظيفاً، وما كان منها خصيباً حسن الإنبات. والشجَر الطيّب الذي يؤتي أُكُله جيّداً بإذن ربّه، والشجر الخبيث لا يخرج إلاّ عَسِراً نكِداً.

وهكذا فكلمتا الطيب والخبيث من الكلمات العامّة، المتضادّة.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾:

الغيبُ أمْرٌ نِسْبِيٌّ وهو كُلُّ محجوب عن إدراك المدرِكِ فهو بالنسبة إليه غيب، وقد لا يكون غيباً بالنسبة إلى غيره، فما يكون غيباً بالنسبة إلى بعض المخلوقات قد يكون مشهوداً بالنسبة إلى مخلوقات أخرى، والحجاب الذي يجعل الشيء غيباً، قد يكون الماضي، أو المستقبل، أو البعد المكاني، أو وجود حاجز، أو عجز أداة الحسّ عن الإدراك.

﴿يَجْتَبِى﴾:

أي: يختار ويصطفي، يُقالُ لغةً: اجتباهُ يجتبيه اجتباءً، إذا اختاره واصطفاه لنفسه.

* * *

(٣)

ما روي في سبب النزول

ظاهر هذا النصّ كسابقيه، قد نزل بمناسبة الأحداث التي جرت في موقعة أُحُدٍ، وبعدها، والآيات فيه ظاهرة التوافق مع هذه الأحداث.

* * *

(٤)

مع النَصّ في التحليل والتَدَبُّر

* قولُ الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

أو: [وَلاَ يُحْزِنْكَ] في القراءة الأخرى.

أي: ﴿ولا يحزنْك﴾ يا محمّد ﴿الذين﴾ كانوا معك مسلمين، ثُمّ بدؤوا خُطُوَاتهم في أوائل سُبُل النّفاق مع المنافقين، وهم الآن يُسارعون بأعمالهم الظاهرة والباطنة ﴿في﴾ طريق ﴿الكفر﴾ مُتَوجِّهين إلى مواقع الكُفر الخالص، الذي ليس فيه من عناصر الإيمان شيء.

وبهذا الفهم يتضح لنا الغرض من تَعْدِية فعلِ ﴿يُسَارِعُون﴾ بحرف ﴿في﴾ فليس الغرض مجرّد التعبير بأنّهم يسارعون إلى الكفر، بل الغرضُ بيانُ حركةِ أعمالهم التي يُسارعون بها، والإشارةُ إلى السُّبُلِ التي يجعلون حركتهم السّريعة فيها، وبَيَانُ الغاية التي تَنْتَهِي عندها مُسَارعتُهم وهي الكُفْر الخالص.

فدلَّ على الأول فعل ﴿يسارِعون﴾ ودلَّ على الثاني حرف ﴿في﴾ ودلَّ على الثالث كلمةُ ﴿الكفر﴾، وبإبراز المطويات بَيْنَ المثاني تَظْهَرُ المعاني.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

أي: ﴿إنهم﴾ بسلوكهم مسالك النفاق، ومسارعتهم في طريق الكُفر مُتَّجهين للاستقرار في الكُفْر الخالص ﴿لَن يَضُرّوا الله شيئاً﴾ لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في قوانين كونه، ولا في سُنَنِه الثابتةِ التي يُجْرِي على وفقها تصاريفه في السماوات والأرض والأحياء والناس، ولا في مسيرة دعوة رسوله التي قضىٰ لها بالظهور والانتصار والاستعلاء في الأرض على سائر الدعوات، مهما تألّب عليها الأعداء من الخارج والداخل، أو انْحسر عن مُناصَرتِها المنافقون والمرتدُّون.

لَا تحزنْ يا مُحمّد من أجل الدِّين وحرصك على ظهوره وانتصاره، فَهُو مؤيَّدٌ بتأييد الله، وسَيُظهرهُ اللّهُ على الدّينِ كُلّه ولو كره المشركون، ولو كره الكافرون.

ولا تحزَنْ من أجْل هؤلاء المسارعين في الكُفْر، فإنّهم لا يستحقُّونَ شفقتكَ عليهم، ولا رحمتَكَ بهم، وارْضَ بمُرادِ اللّهِ فيهم، فإنَّهُمْ بمُسَارَعَتِهِمْ فِي الكُفْرِ استحقّوا أن لا يكون لهم حظٌّ سعيد في الآخرة، واستحقوا أن يكون لهم عذابٌ عظيم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

أي: ولمَّا اسْتَحقُّوا بمقتضى قانون العدل الحكيم، أن لا يكون لهم حظٌّ سَعِيدٌ في الآخرة، وأنْ يكونَ لهم عذابٌ عظيم، فإنّ إرادة اللّهِ المتابِعةَ لحركةِ أعمالهم الْمُتَتابِعَةِ المتجدِّدَة في الجرائم، تقضي بأن لا تجعَلَ لَهُمْ حَظّاً سعيداً في الآخرة في جنات النعيم، وتقضي بأن يكون لهم عذابٌ عظيم، ملائمٌ لجرائمهم العظيمة، في دار العذاب الأليم.

هذا هو مقتضى حكمة اللّهِ الرَّبِّ العليم الحكيم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

أي: هؤلاء الّذين نافقوا ثُمَّ أخذوا يُسارِعُون بأعمالهم وممارساتهم في طريق الكفر، قد انتهت بِهِمُ المسيرة المنحدرة المجرمة، إلى أنْ بَلَغُوا موقع الكفر الخالص من كل عناصر الإيمان، فاستبدلوا الكفْرَ بالإيمان، فالْقَوْلُ فيهم الآن كالقول فيهم إذْ كانوا يسارعون في الطريق الموصل إلى الكفر الكامل، مع التَّنْبيه على أنّ العذاب العظيم الذي لهم، هو عذاب أليم أيضاً، فهو عظيمٌ وأليم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾:

أي: هؤلاء الذين اسْتَقرُّوا في الكُفْر في الباطن، مع اتّخاذ تقيّة النفاق في الظاهر، نُمْهِلُهُم كما نُمْهِلُ سَائِرَ الْكافرينَ المنافقين والمجاهرين بكفرهم، فيحسَبُونَ أنَّ مَا هُمْ فيه هو لمصلحتهم، إذْ يمكِّنُهم من الاستقرار في معيشة هادئة مطمئنّة، بعيدين عن أن تنزل بهم نقمة المؤمنين الصادقين.

لكنّ ظَنَّهم هذا ظنٌّ مُغْتَرٌّ بالظواهر، غَيْر مستَبْصِر بحقائق الأمور. إنّهم ينخدعون بإمْهال الله لهم، فيظُنُّونَ أنّه لا تُوجَدُ قُوّةٌ غيبيَّةٌ قاهرةٌ قادرةٌ على الانتقام منهم، إذْ قدْ

مَضَتْ مُدَّةٌ كافيةٌ فيما يَعْرِفونَ مِنْ طَبائعِ البشر، لإنْزالِ النَّقمة بهم، لكنَّها لم تَنْزِل بَعْدُ، فلو كان هذا الدين الذي كفروا به في سريرتهم حقّاً، لنزلت بهم نقمة الله، عقاباً لهم على كفرهم ومكايدهم.

إنّ ظنَّهم هذا ظنٌّ باطل، فالإمْهالُ له في قضاء الله وقدره حكمة بالغة.

وكذلك من ظنّ مثل هذا الظّنّ من المؤمنين بوجْهٍ آخرَ فظنُّه غير صحيح أيضاً.

إذَنْ: فصحِّحْ فَهْمَكَ أيُّها المؤمنُ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾.

إذن: فلا يَغْتَرَّنَّ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ فَنُمْهِلُهُم، ولاَ نُعَجِّلُ لهم العقاب ﴿خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ﴾ بلْ هُو إذَا لم يَتُوبُوا إلى بارئهم، ويرجعوا إلى مواقع الإيمان والتَّقوى، شرٌّ لهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ في مُدَّةِ الإمهالِ حين يُصِرُّونَ على كُفْرِهم وَلاَ يتوبُون، وبازدياد آثامهم مع وضوح الحقّ لهم تنقطعُ يومَ الحساب والجزاء أعْذارُهم، فلا يبقىٰ لهم عذْرٌ يعتذرون به، وتكون متراكمات آثامهم برهان إدانتهم القاطعة بأنّهم ممعنون في الكفر والفجور، ولم يكن كُفْرُهُمْ وفجورُهم منْ قبيل النزعات الطارئات التي يرجع الإنسان عنها عند صحوات الضمير، وبذلك يستحقون دخول دار العذاب يوم الدين، ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: أي: مُذِلٌّ لهم، وهو في مقابل كِبْرِهِمْ وتطاوُلِهم على مَقام الخالق القادر القاهر المنعم جلّ وعلا.

فتحصّل أن لهم عذاباً عظيماً أليماً مُهيناً.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾:

أي: وأمّا أنتم أيُّها المؤمنون فلا تَعْبَثُ فيكم وساوسُ الشيطان وخواطر السوء، فتقومَ في أنْفسِكم مُقْتَرَحاتٌ تقترحونها على اللّهِ، فيما هو من خصائص مقاديره

الملازمة لعلمه وحكمته، فتظنّوا أنّه قد يكونُ من الأصلح أن يَنْصُرَكم دون ابتلائكم لتمييز المنافقين المخالطين لكم من المؤمنين الصادقين، أو يكشِفَ لكم المنافقين فيُطلعَكُمْ على ما في قلوبهم، فتُميِّزُوهم عنْكُم، وتُنَقُّوا صُفوفكم منهم.

اعلموا أنّه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾:

أي: ليس من شأنه ولا من سنّته أن يَتْرُكَ المؤمنين على مثل ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين فيهم، حتّى يتركَكُمْ وأنتُمْ مُؤمِنُون على ما أَنْتُم عليْهِ من اختلاط المنافقين فيكم ﴿حتّىٰ يَميزَ﴾ المنافِقَ ﴿الخبيثَ مِنَ﴾ المؤمن ﴿الطيِّب﴾ بالامتحان الشديد، الذي يأتي ببعض المصائب للجميع، ولولا ذلك لاستمرّ المنافقون الأخباث يعبثون في صُفوفكم حتّىٰ يُفْسِدُوا كُلَّ أعمالكم ومُخطّطاتكم، ولم يَزِيدُوكُمْ إلّا خبالاً، فساداً وإفساداً وإضراراً.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾:

أي: وليس من شأنه ولا من سُنّتِهِ، أن يُغَيِّرَ نظامَ حِكْمَتِه في خَلْقِه، فَيَخْتَصَّ المؤمنينَ وأنْتُم مِنْهُمْ بإطْلاعِهِم على الْغَيْب، ومِنْهُ سَرائِرُ الْقُلوب، حتّىٰ تَكْشِفُوا المنافقين في صُفُوفِكُمْ، فتُميِّزوهم، وتَعْزِلُوهُمْ، وتَنْبِذُوهم من صفوفِكُمْ.

فقضِيَّةُ الإطّلاع على الْغَيْبِ ممّا يَخْتصُّ الله به رُسُلَه الذِين يَجْتَبِيهم ويصطفيهم بمشيئته لحمل رِسَالَاته، ولا يَجْعَلُه أمراً عامّاً لكُلِّ المؤمنين.

إذَنْ: فاحْذَروا أيُّها المؤمنونَ من هذه الخواطر والوساوس، لئلّا تَجْرَحَ إيمانَكم، إذ هي شُكُوكٌ في كمالِ حكمةِ الله ﴿فآمِنُوا بالله﴾ إيماناً كاملاً نقيّاً من الشكوك، ومن أن تَظُنُّوا بالله مَا لَا يَلِيقُ بكمال صفاته، و ﴿آمِنُوا﴾ بـ ﴿رُسُلِهِ﴾ وبِصدِّقهم فيما يُبلّغون عن رَبّهم، ومن ذلك وَعْدُهم لكم بتأييد الله ونصره ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ هذا الإيمانَ الصادقَ الذي لا تُخالطُه شكُوكٌ ولا ظنُون لا تليقُ بالله ورُسُله ﴿وتَتَّقُوا﴾ الله في أعمالكم الباطنة والظاهرة ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عظيمٌ﴾ عند ربكم في عاجل أمركم وآجله.

وجاء ذكر الرُّسل هنا مع أنّ المقصود الرسولُ محمّد ﷺ لتثبيت عقيدة الإيمان بكلّ الرُّسل، وأن المؤمن المسلم لا يفرق بين رسولٍ وآخر في قضية الإيمان.

● ● ●

عظات حركة النفاق

اقتباساً من النصوص القرآنية
المنزّلة في سورة آل عمران

أوّلاً: نَهَى الله المؤمنين نهياً مُشدَّداً عن اتّخاذ بطانة لهم من المنافقين، فضلاً عن اتّخاذ بطانةٍ من الكافرين المجاهرين بكفرهم.

السبب:

(أ) لا يقصّرون في إفساد أحوال المسلمين من الداخل.

(ب) يَوَدُّون كلَّ عَنَتٍ ومشقّةٍ وضرر وإضرار للمؤمنين.

أمارات المنافقين:

(أ) قد بدت البغضاء من أفواههم وفلتات ألسنتهم.

(ب) إنْ تَمْسَسْكُمْ حسنةٌ تسؤهم وإنْ تُصبكُمْ سيِّئةٌ يفرحوا بها.

حقيقتهم تجاهكم:

(أ) ما تُخفي صدورهم من البغض لكم أكبر مما يظهر على ألسنتهم من فلتات أقوال.

(ب) إنَّهم لا يُحبُّونكم مطلقاً.

(ج) إذا خَلَوْا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ.

* * *

ثانياً: الامتحان الشديد في غزوة أحد كشف منافقين كانوا يُخْفُون نفاقهم، ودفع بعض ضعفاء الإيمان وأهل الرِّيب، للسير في طريق النفاق مع المنافقين، حتّى بلغوا غايته، فكانوا كافرين في حقيقة حالهم، وباطن أمرهم.

الظـواهـر:

(أ) تخلّف منافقون عن الخروج مع الرّسول ﷺ.

(ب) انخذل منافقون وهم في الطريق، ورجعـوا إلى المدينـة، وقالـوا: لو نعلم قتالاً لاتّبعناكُمْ.

(ج) لمّـا تعرّض المسلمـون بسبب مخالفـاتهم لما تعـرّضـوا لـه من مصـائب، نجمت بدايات النفاق في أهل الريب والشكّ وضعفاء الإيمان.

فظهر فيهم:

* مَنْ يظنّون بـالله غير الحق ظنَّ الجـاهلية، ويقـولون أقـوالاً تتنافى مـع صدق الإيمان.

* ومَنْ قـالوا: إنّـه لم يكُنْ لنَا من الأمـر شيءٌ، إذْ لم يَعْمَـلِ الـرَّسُـولُ بـرأينـا ومَشُورتِنَا الصائبة.

* ومَنْ قَالوا: لو كان لنـا من الأمر شيءٌ، مـا قُتِلَ من قُتِـلَ مِنَّا هَهنـا في معركـة أُحُدٍ.

* * *

ثالثاً: كان من المنافقين الذين انخذلوا عن الرسول في بعض الطّريق، والآخرين الذين لم يخرجـوا مع الـرّسول ابتـداءً، أنّهم استغلوا ما حـدث من قتلٍ في المسلمين وهزيمة، فقالوا: لو كانَ إخوانُنا عندنا فلم يَخْرُجوا إلى المعـركة كمـا لم نخرج نحنُ مـا قُتِلُوا. وقالوا: لو أطاعَنَا إخواننا فارْتَدُّوا معنا، أو لم يخرجوا ابتداءً ما قُتِلوا.

العـظـات:

من هذه الظواهر التي سجّلها القرآنُ لحركة النفاق، وعـالجها بـالتربيـة الإيمانيـة الإسلامية، وبتصحيح المفهومات، تصحيحاً محاصراً من كلّ الجـوانب بالبيـان والإقناع القائم على الحجج والرُّجوع إلى الأسس الإيمانيّة، يتّخذ المؤمنون عظاتٍ يتّعظون بهـا لحركات النفاق في كُلِّ عصر، ويتخذون تجـاهها المـواقف الإسلاميـة التي وعظهم الله عزّ وجلّ بها، وحذّرهم فيها من الانزلاق مـع مؤمرات الكيـد الّتي يكيدهـا المنافقـون، وهم مخالطون مُداخلون.

● ● ●

مقدمة عامة

حول موجز غزوة الأحزاب

(١) كان يهود بني النضير قد أجلاهم الرسول ﷺ في شهر ربيع الأول سنة أربع للهجرة، عقاباً لهم على خيانتهم، ونقضهم للعهد، إذْ دبّروا مؤامرة اغتياله صلوات الله عليه، لمّا قدم إليهم مع نفر من كبار أصحابه، في شأن مشاركتهم في دية قتيلين من بني عامر، حسب بنود المعاهدة القائمة بينهم وبين المسلمين.

(٢) وكان قد ارتحل معظمهم إلى خيبر، وآخرون منهم إلى الشام، وكان قائدهم وحبْرهُمْ يومئذٍ «حُيَيّ بن أخطب».

(٣) اجتمع زعماء يهود «بني النَّضِير» في خيبر، وقرّروا تأليب العرب مع آخر قبيلة يهودية بقيت في المدينة، وهم «بنو قُرَيظة» على المسلمين، وتجميعهم في جيش واحد، يكون قادراً على استئصال شأفتهم، وإبادتهم عن آخرهم.

(٤) فخرج عشرون من رؤساء اليهود وساداتهم، منهم نفرٌ من بني النّضير، ومنهم نفر من بني وائل.

فمن بني النضير: «سلّام بن أبي الْحُقَيْق، وحُيَيُّ بْنُ أَخْطب، وكِنَانَةُ بنُ الربيع».

ومن بني وائل: «هوذة بن قيس، وأبو عمّار».

فحرّضوا قريشاً على قتال المسلمين، وبيّنوا لهم خطّتهم في أن تجتمع كلمة قبائل مشركي العرب ويهود بني قريظة ضدّ المسلمين، وأن يضربوهم في المدينة ضربة واحدةً، فاستجابت قريش لذلك.

(٥) ثُمَّ خرج الوفد اليهوديّ إلى قبائل غطفان، فدعوهم إلى مثل ما دَعَوْا إليه قريشاً، فاستجابوا لهم طمعاً في الغنائم.

(٦) وعلم الرسول ﷺ بنبأ اجتماع قريش ومن معها، وقبائل غطفان[1] على حرب المسلمين، وضربهم عن قوسٍ واحدة.

فاستشار أصحابه، ثمّ قرّر خطّة الاعتصام بالمدينة، واتّخاذ موقف الدّفاع، وقَبِلَ مَشُورة «سلمان الفارسي» بحفر الخندق في الجهة المكشوفة من المدينة وهي الجهة التي يمكن أن يُدَاهِم منها جيش الْعَدُوّ.

(٧) وقام المسلمون بحفْر الخندق قبل قدوم جيش الأحزاب، وعَانَوا بذلك مشقّةً كبيرة.

(٨) قدمت كتائب الأحزاب، وكانت كما يلي:

(أ) «أربعة آلاف» من قُرَيش ومن معها.

(ب) «ستّة آلاف» من قبائل غَطَفان.

ونزلت خارج المدينة.

(٩) قدم «حُيَيُّ بن أخطب» سيّد يهود بني النضير، ورأس تدبير المكيدة ضدّ المسلمين، إلى سيّد يهود بني قريظة «كَعْب بْنِ أَسَد» فما زال يحاول إقناعهُ بوسائله حتّى جعله يوافق على نقض العهد مع الرسول ﷺ، والاشتراك في قتال المسلمين مع قبائل العرب القادمة إلى المدينة، والغدر بالمسلمين من وراء ظهورهم.

واختار «حُيَيُّ بن أخطب» لإقناع الْقُرظيين بنقض عهدهم مع الرسول ﷺ الوقتَ المناسب الذي يشعرون به أنّ المسلمين قد أَمْسَوْا في موقف الضعف، وفي شدّة بالغةٍ من أمرهم.

---

(١) كانت منازلهم بنجد ممّا يلي وادي القرى، وجبل طيّء، ويرجع نسبهم إلى مَعَدّ بن عدنان، أسلموا ثم ارتدوا بعد وفاة الرسول ﷺ، فحاربهم أبو بكر الصديق، إذ بعث إليهم خالد بن الوليد، فقتلهم شرّ قتلة. كانوا يعبدون «العُزّى» وكان لهم صنم في مشارف الشام يحجُّون إليه، يقال له: «الأقَيْصر». (معجم قبائل العرب).

(١٠) وعلم الرسول ﷺ بما فعل يهود بني قريظة من نقض لعهدهم، فاهتمّ للأمر، ولكنّه توكّل على الله، وأظهر للمسلمين ثقته التامّة بالله وبنصره.

ففرّق الله بين اليهود وأحزاب العرب، برجلٍ من غطفان، أسلم وجاء إلى رسول الله ﷺ، وهو «نُعَيْم بن مسعود بن عامر الأشجعي».

فقال له الرسول: إنّما أنت فينا رجلٌ واحد، فخذِّل عنّا إن استطعت، فإنّ الحربَ خُدْعَة.

فقام «نُعَيم» بحيلة محكمة فرّق فيها بين الأحزاب.

(١١) حاصر جيش الأحزاب المسلمين من وراء الخندق، لأنّهم لم يستطيعوا اختراقه، وتناوش الفريقان بالنّبل، واقتحم بعض فرسان المشركين من مكان ضيّقٍ من الخندق، فانبرىٰ عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه لِعَمْرو بنو عبد ودّ، وكان من أقوى العرب وأشجعهم، فنصره الله عليه فقتله، ففرّ من كان قد اقتحم، وقفل رجاعاً إلى جيش المشركين.

(١٢) وطال الحصار، حتى بلغ قريباً من شهر، من آخر شوال إلى أواخر ذي القعدة، ونزل بالمسلمين جوعٌ وخوفٌ وليالٍ باردات، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر من شدّة الخوف، وابْتُلي المؤمنون ابتلاءً عظيماً، وزُلْزِلوا زِلْزالاً شديداً، فالعدوّ أمامهم بجيشه الكبير المحاصر لهم، واليهود الذين نقضوا العهد من وراء ظهورهم يُعِدُّونَ الْعُدَّة لِحَرْبهم.

(١٣) ونجم نفاق المنافقين في صُوَرٍ متعدّدة، قبل وصول جيش الأحْزاب، وبعد وصولهم ومحاصرتهم للمدينة.

وأخذت الظنّون والمقالات السّيّئات تدور في نفوس المنافقين وعلى ألسنتهم وفي نفوس الذين في قلوبهم مرض في أثناء الحصار.

فمن مواقف النفاق في هذه الحادثة المواقف التالية:

الموقف الأول: أخذ رجالٌ من المنافقين يبطّئون في عملهم بحفر الخندق،

ويراؤون مُراءاةً، ويستترون بالعمل الهيِّن الضعيف، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير إعلام للرسول ولا استئذان منه.

الموقف الثاني: قولهم: ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً، وقال: «مُعتّبُ بن قُشير» وهو من المنافقين: كان محمّد يَعِدُنَا أنْ نأكُلَ كنُوز كسرى وقيصر، وأحدُنَا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط.

الموقف الثالث: قول طائفة من المنافقين: يا أهلَ يثرب لا مُقَامَ لكُمْ فارْجعوا. قيل: إنّ قائل ذلك هو «أوسُ بن قَيْظِي» ومن كان على رأيه من قومه.

الموقف الرابع: استئذان فريقٍ منهم النبي ﷺ بأن يرجعوا إلى المدينة، متعلّلين بأنّ بيوتهم عورة، أي: مكشوفة للعدُوّ، وهي في الحقيقة ليست بعورة، إنّما يريدون الفرار من المعركة.

فقال «أوسُ بْنُ قيظي»: يا رسول الله، إنّ بيوتَنَا لعورة من العدُوّ ـ يتحدّث عن بيوت ملأٍ من رجال قومه ـ فأْذَنْ لنا فلنرجع إلى دارنا، وإنّها خارجة من المدينة، والحقيقة أنَّهُمْ كاذبون.

الموقف الخامس: تَخلّف فريقٌ من المنافقين، وجعلوا يثبطون إخوانهم عن الخروج لمواجهة الأحزاب، ويقولون: «هلُمَّ إلينا» أي: إلى الأمن والراحة والظلّ والطعام والشراب.

وهذا الفريق ديدَنُهم التخلّفُ عن مواقع الجهاد في سبيل الله، ولا يأتون مواطن البأس إلّا قليلاً، مصانعةً ورياءً، ولئلاّ ينكشف نفاقهم لجميع المسلمين.

(١٤) وبعد شقّ الصفّ الذي صنعه «نُعَيْمُ بنُ مسعود الأشجعي الغطفاني» بين يهود بني قريظة والأحزاب القادمين لحرب الرسول والمسلمين من قبائل العرب، رأى العرب أنّ اليهود قد أخلفوهم، وطال عليهم الحصار، وكادت تنفد مؤنهم وهلكت جمالهم وخُيولهم.

وجاءتهم ليلة شديدة الريح والْبَرْد، وجعلت الريح تقوّض خيامهم، وتقلب قدورهم، وتطفىء نارهم، ولا تُقِرُّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً، وأرسل الله جنداً غَيْر مرئية، فألقت في قلوبهم الرعب.

عندئذٍ رأى أبو سفيان قائد جيش قريش أنَّ استمرار الحصار غير ذي فائدة والحالة هذه، وربّما ازداد بهم الأمر سوءاً، فرآها المسلمون فرصة ينقضّون بها عليهم.

فقام في القوم فقال:

«يا معشر قريش، إنَّكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلَكَ الكراع والخفّ (أي: هلكت الخيل والإبل) وأَخلَفَتْنا بنو قُريظة، وبلَغَنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدّة الرّيح ما ترَوْن، ما تطمئنُّ لنا قِدْر، ولا تقومُ لنا نار، ولا يستَمْسك لنا بناء، فارتَحِلُوا فإنِّي مُرْتحِلٌ».

ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، ولم يطلق عقاله إلّا وهو قائم.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فشدّوا رحالهم وانصرفوا إلى بلادهم.

(١٥) ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٣٣].

● ● ●

النصّ الثاني عشر

من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) رابع سورة مدنية
الآيـات مـن (٩ ـ ٢٧)
حول مواقف المنافقين وظواهرهم السلوكية إبّان غزوة الأحزاب

* قال الله عزّ وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا
لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ
الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا
اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ
فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ
مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا
اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ
الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ
سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ
مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ
الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ
سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ

عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ
فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ
لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا
ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا
وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم
مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن
شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ
وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾
وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

* * *

مَا في النّصّ من القراءات المتواترات (من الفرش)

(١) الآية (٩): قرأ أبو عَمْرو: [وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيراً] بياء الغيبة، وباقي القرّاء [بما تَعْمَلُونَ] بتاءِ الخطاب، ففي القراءتين تكامل فكْري، فالتي بتاء الخطاب تبيّن للمؤمنين أن الله عليم بما يعملون هم، والتي بياء الخطاب تبيّن أنّ الله عليم بما يعمل الجنود الذين جاءوهم.

(٢) الآية (١٠): قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أثبت الألف ﴿الظنونَا﴾ مطلقاً المدنيان والشامي وشعبة. وحذف هذه الألف مطلقاً حمزة وأبو عمرو ويعقوب.

وحذفها وصلاً وأثبتها وقفاً ابن كثير، والكسائي وحفص وخلف في اختياره. وهي وجوه من الأداء جائزة في اللّسان العربي.

(٣) الآية (١٣): قرأ حفصٌ عن عاصم [لا مُقَامَ لَكُمْ] أي: لا إقامة لكم مصدر ميمي من أَقَام.

وقرأ باقي القرّاء: [لَا مَقَامَ لَكُمْ] أي: ليس لكم هُنا مَكان قِيام، اسم مكان من قامَ. ففي القراءتين تكامُلٌ فكري، أي: ليس لكم إقامة ولا مكان قيام.

(٤) الآية (١٤): قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير [لأَتَوْها] أي: لجاؤوا إليها.

وقرأ باقي القراء العشرة [لآتَوْهَا] بمدّ الهمزة، أي: لأعْطَوْها، ففي القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، أي: لأتوا الفتنة فدخَلُوا في غَمْرتها، ولأعْطَوْهَا من أنفسهم بالارتداد عن الإسلام وإعلان الكُفْر.

* * *

(١)
المفردات اللُّغويّة في النصّ

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾:

أي: من قِبَلِ نجد، وموقعها الجغرافي موقع علوّ بالنّسبة إلى المدينة.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾:

أي: من مكّة، وموقعها الجغرافي منخفضٌ بالنسبة إلى المدينة.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾:

أي: وإذْ مالَتْ عن سوائها ومُسْتَوى نظرها، ويكون من الخوف، ومن الحيرة، ومن عوامل أخرى في النفس.

وأصل الزيغ في اللُّغة الميلُ والبعدُ، يقال: زاغت الشمسُ إذا مالت إلى الغروب، وزاغ السالك عن الطريق إذا عدل عنه، ذاتَ اليمين أو ذاتَ الشمال. وزاغ الفكر إذا عدل عن الصواب، وزاغ القلب إذا مال عن الحقّ والهدى، إلى الضلالة والرّدَى.

زاغَ يَزيغُ: أي: مَالَ. ويُقَال زاغَ عنْه، أي: مالَ وعَدَلَ عنه.

﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾:

جمع «حَنْجَرَة» وهي الحُلْقُوم، ومَجْرىٰ النَّفَس في الرقبة. ويُقال لِلحَنْجَرَةِ الحُنْجُورُ أيضاً.

﴿ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾:

أي: امْتُحِنَ إيمانُ المؤمنين امتحاناً شديداً، بدليل وصف زلزلتهم بأنها زلزلةٌ شديدة.

﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾:

الزَّلْزَلَةُ: الهزُّ والتحريك بشدّة، تقول لغة: زَلْزَلَهُ زَلْزَلَةً وَزِلْزالاً، إذا هزّه وحرّكه حركةً شديدة.

والمعنى: حُرِّكُوا بالامتحان تحريكاً شديداً واصلاً إلى الأعماق، فمن لم يكن في أعماقه إيمانٌ راسخٌ أصابَهُ الاضْطرابُ والقلَقُ والخوفُ والضّجر، وظهرت منه تصرُّفاتٌ تكشف سَرائرَ نفسه وقلبه، أمّا صادق الإيمان وثابته فتزيدُ الزلزلة إيمانَهُ رُسُوخاً وعمقاً واستقراراً.

﴿ إِلَّا غُرُورًا ﴾:

الغُرُور: مصدر غرَّهُ يَغُرُّهُ، أي: خدعه وأطمعه بالباطل. وسبق في النصّ (٥) من سورة الأنفال.

﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾:

البيتُ العَوْرَةُ هو كُلُّ بيتٍ فيه خَلَلٌ أو هو بعيد عن الحماية ويُخْشَىٰ دخولُ العدوّ إليه، أو دخوله منه إلى ما يروم.

والعورةُ: الخلَلُ والعَيْبُ في الشيء ـ وكُلُّ ما يَسْتُرُهُ الإنسان استنكافاً أو حياءً ـ وما يجب سَتْرُه شرعاً.

﴿ مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾:

جمعُ «قُطْر» و القُطْر: الناحية، فمعنى ﴿من أقطارها﴾ من نواحيها كُلِّها، أي: دخل عليهم جيشُ العدوّ من كُلِّ نواحي المدينة فلم يَبْقَ لهم مهرب ولا مفرّ.

﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾:

المراد هنا من الفتنة الخروج من الدين، والارتداد عنه، وإعلان الكفر، وَفْقَ طَلَبِ الكُفَّار المهاجمين بقوّتهم وأسلحتهم.

﴿لَآتَوْهَا﴾: بالمدّ والمصدر إيتاء، وفي القراءة الأخرى: «لأتَوْهَا» والمصدر إتيان:

أيْ: لَجاءُوا إلى الفتنة فكَفَروا بالدين، ولم يثبُتوا على إسلامهم طلباً للسلامة والأمن، ولأعْطَوْا الكافرين ما يبتغون منهم من فتنة، أي: من كُفْر.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟﴾:

أي: وما توقَّفُوا ومَا أقامُوا، يُقالُ: تَلَبَّثَ بالمكان، إذا توقَّف وأقام.

﴿يَعْصِمُكُم﴾:

أي: يحفظكُم ويَقِيكم ويمنعكُمْ. يقال لغة: عَصَمَ الشيء إذا منَعَهُ وحفظه ودفَعَ عنه.

﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

الوَلِيُّ: الّذي يتولّى رعايةَ كُلِّ شُؤُونِ من هُوَ تَحْتَ وِلايته، ومِنْها الحماية والنُّصرة، أمّا النّصير فهو المناصر بقوة وصدق وإخلاص، ولو دون وِلَايةٍ شاملة.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾:

التعويق: هو التثبيط عن فعل الخير، والحبسُ والصرفُ عنه بالقول أو بالفعل.

يقال لغة: عَاقَهُ عن الشيء يَعُوقُهُ عَوْقاً، وعوَّقه يُعوِّقُه عن الشيء تعويقاً، إذا منَعه منه، وشغله عنه. فهو عَائِق، ومُعَوِّق.

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾:

هلُمَّ: اسمُ فعلٍ بمعنى تعالَوْا، تستعمل هكذا في لغة الحجازيين بلفظ واحد للمذكر والمؤنث، المفرد والمثنى والجمع، وهو الأفصح، وتستعمل في لغة بني تميم وأهل نجد بإلحاق علامات التثنية والجمع والتأنيث، فيقال فيها: هلُمَّا، وهلُمُّوا، وهلُمِّي، وهَلْمُمْنَ.

﴿ٱلْبَأْسَ﴾:

يطلق على الحرب، وهو المراد هنا، ويُطلق على الشدّة في الحرب، وعلى العذاب الشديد، وعلى الخوف، ويصلح هذا المعنى أيضاً في هذا النّص.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾:

أَشِحَّة: جمع شحيح، وهو البخيل الشديد البخل، ويجمع أيضاً على «شِحاح» و «أشِحَّاء».

﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾:

السَّلْقُ: في اللّغة هو الصِّياح وشِدَّة الصوت، ويقال: سلقه بالكلام سَلْقاً إذا آذاه بكلامه الشديد العنيف، وأسمعه منه ما يكره فأكثر عليه، وبالغ في مخاصمته.

حِدَاد: أي: قويّة جارحة للنفوس، كالسيوف المحدَّدة المسنونة القواطع للأجسام.

﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾:

أي: أبْطلها. يُقالُ لغة: حَبِطَ عَمَلُهُ يَحْبِطُ حَبْطاً، وحُبُوطاً، إذا بَطل. وأَحْبَطَ اللّهُ عَمَلَهُ يُحْبِطُهُ إذا أبطله، فلَمْ يكن له أثر.

﴿يَوَدُّوا﴾:

أي: يتمنَّوا، فالمراد من الودّ هنا التمنّي.

﴿بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾:

البادي: اسم فاعل من: بَدَا يَبْدُو بَدْواً وبَداوَةً إذا خرج إلى البادية، فهو بَادٍ، ويقال: بدا إلى البادية، وأقام بالبادية، فهو بادٍ، البادية فضاء واسعٌ فيه المرعىٰ والماء.

﴿أُسْوَةٌ﴾:

أي: قُدْوَةٌ يُقْتَدَىٰ به. يقالُ: أَسَا يأسُو فلاناً بفُلانٍ إذا جعلَه يأتسي به. ويُقالُ: ائْتَسَىٰ به، إذا اتّخذه أُسْوةً واقْتَدَىٰ به.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾:

النَّحْبُ: يأتي في اللُّغة لعدّة معانٍ، منها: الحاجة ـ والمدّة والأجل ـ والنذر والعهد.

وهذه المعاني الثلاثة كلُّها تصلح هنا في هذا النصّ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله في التدبّر.

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾:

أي: من حُصُونهم وآطَامِهِمْ، واحدها صِيصَة، يقال للحصن: صيصَة، وجمعها صَيَاص.

* * *

(٢)

سبب النزول

من الواضح في هذا النّصّ أنّ سبب نزوله غزوة الأحزاب، التي تُسَمَّىٰ أيضاً بغزوة الخندق. وعلى هذا أئمة أهل التفسير من السلف فمن بعدهم.

* * *

(٣)

مع النّصّ في التحليل والتدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

وفي قراءة أبي عمرو: [وكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيراً].

عرضت هذه الآية من هذا النصّ نتيجة غزوة الخندق قبل ذكرِ أيّ حدثٍ من أحداثها، مقرونةً بالبدء بالتذكير بنعمة الله على الذين آمنوا، إذْ دفع الله عنهم جيشَ

عدوِّهم بالريح، وبجنود غير منظورة، والظاهر أنّ هذه الجنود من الملائكة، وكان عملهم إلقاء الرعب والخوف في قلوب المشركين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾:

نداءٌ من الله للمؤمنين الذين كانوا مع الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب، فهم المقصودون أوّلاً وبالذات، ويشمل هذا النداء كلّ مؤمنٍ من بعدهم، باعتبار أنّ نعمة الله على المؤمنين في هذه الموقعة وما تضمّنته من عظات، قد شملت كلّ المؤمنين حتّى قيام الساعة، إذْ هي نعمة جرّت للمؤمنين خيراً عظيماً ينعمون بثمراته، وينتفعون من عظاته إلى أن تقوم الساعة.

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾:

أي: ردّدوا في تذكُّركم هذه النعمة من حين لآخر، ولا سيّما عند المناسبات الدّاعيات لتذكرها، للاستفادة من عظاتها، وأنت خبير أنّ التذكُّر الفكريّ يجلبُه غالباً المحافظةُ على تكرار الذكر باللّسان، وبهذا نستطيع أن نفهم أنّ النصّ يدعو الذين آمنوا أن يذكروا بألسنتهم من حين لآخر أحداث غزوة الأحزاب، ليجدّدوا في أذهانهم تذكُّرها، بغية الاستفادة من عظاتها، وأنّ على الدعاة منهم أنْ يُذَكّروا جماهير المؤمنين بها.

هذا التوجيه يُقاس عليه أشباهه ونظائرُه، فتجديدُ ذكر أحداث غزوات الرسول ﷺ ممّا يحثُّ القرآن عليه، وكذلك سائر النظائر للاستفادة من عِبَرِ التاريخ.

﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾:

أي: جنود كثيرة بالنسبة إلى جنودكم، وهم جنود الأحزاب «قريش، وغطفان، ومن معهم».

والمعنى: اذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم في الزمن الذي جرت فيه أحداث غزوة الأحزاب إذْ جاءتكم...

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾:

أي: ريحاً شديدةً شاهدتموها، فجعلتْ تقوّضُ خيامهم، وتكْفأ قدورهم، وتقطّع حبالهم، فلا يقرّ لهم قرار.

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾:

أي: وجنوداً خفيّةً من الملائكة، وكانت وظيفة هذه الجنود من الملائكة أن يقذفوا الرُّعبَ في قلوب الأحزاب.

وطوى النصّ هنا بيان ما فعلته الريح والجنود من الملائكة بجنود الأحزاب من إلقاء الرعب في قلوبهم، وحَمْلِهم على الانصراف والارتداد على أعقابهم خائبين، اعتماداً على ما يُدركه الذّهن باللّزوم العقلي، لأنّ المرسِل للريح والجنود هو الله عزّ وجل، فلا بدّ أن يكون ذلك راداً عن المؤمنين به وبرسوله بأس عدوّهم، واعتماداً على ما جاء بعد ذلك في البيان التفصيليّ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾:

وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [يَعْمَلُون]: أي: ومن صفات الله الدائمة أنه سبحانه وتعالى بصير بما يعمل عباده جميعاً، مؤمنوهم وكافروهم.

وتكاملت قراءتا [تَعْمَلُون] و [يَعْمَلُون] في بيان المعنَىٰ الشامل، وفي الأداء البياني، ممّا يحققه خطاب المؤمنين من أغراض بيانية وفكرية، وممّا يحققه الحديث عن جنود الأحزاب بالغيبة من أغراض بيانية وفكرية أيضاً.

أي: إنّ الله عزّ وجل مطّلع دواماً على جميع أعمالكم الظاهرة والباطنة، فهو يعلم من كان منكم ثابتاً صادقاً متوكّلاً على ربّه، واثقاً بوعده ووعد رسوله صابراً محتسباً، ويعلم من كان مُرْتجفاً خائفاً، ومن كان متزلزلاً مضطرباً، ومن كانت الظنون تتلاعب بقلبه ونفسه.

ونلاحظ في هذه الآية أنّها اشتملت على موجزٍ مختزل لغزوة الأحزاب، أمّا أهمُّ تفصيلات أحداثها، ممّا يتضمّن عِظَاتٍ وأغراضاً تربوية، فقد جاء بيانه في سائر آيات النصّ.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾:

أي: اذكروا نعمةَ الله التي أنعم بها عليكم في الزمن الذي جرت فيه أحداث غزوة الأحزاب، إذْ جاءتكُمْ جنودٌ كثيرة بالنسبة إليكم من فوقكم، أي: من قِبَل نجد، فموقعها الجغرافي موقع علوٍّ بالنسبة إلى المدينة، والجنود الآتون من قبل نجد هم قبائل غطفان (بنو فزارة، وبن مُرّة، وبنو أشجع، وبنو أسد، ومن تابعهم من أهل نجد».

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾:

أي: من مكة، وموقعها الجغرافي موقع منخفضٌ بالنسبة إلى المدينة، والجنود الآتون من جهة مكة هم: «قريش، وأحابيشهم، ومن تابعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان».

وقد أقاموا الحصار وراء الخندق، واشتدّ الأمر على المسلمين شدّةً عظيمة.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾:

أي: واذكروا الحالة التي وصلتم إليها من الشدّة حينئذٍ، إذْ زاغت الأبْصارُ من الجوع والخوف، فصارت تميل عن سوائها، لما في النفس من حاجة واضطراب. وإذْ بلغت القلوب الحناجر من شدة الخوف، أي: صرتم تشعرون بانقباضها وانشمارها من مواطنها، إلى الحناجر من شدّة الخوف الذي نزل بكم.

ومع ما في قوله تعالى: ﴿وبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ﴾ من تعبيرٍ أدبيٍّ رفيع في وصف حالتهم، ويبدُو فيه أنّ المبالغة أحد عناصره الكبرى، فهو تعبير مطابق لمشاعرهم بصدقٍ فنّيّ كامل، إذْ هو يكشف حالة مشاعر أنفسهم بصدق. إنّ الخائف الذي يَمَسُّهُ الذُّعْر الشديد يشعرُ بأنّ قلبه قد انْشَمَرَ منقبضاً إلى حَنْجُرته فيكاد يختنق، مع أنّ القلب لم يبرح مكانه من الصدر.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾:

أي: وتظنُّونَ بالله الظُّنونَ المختلفة، فمنكم صادق الإيمان يظُنُّ بالله أنّه سينصرُ رسوله والمؤمنين معه، ويردُّ كيد أعدائهم في نحورهم، ومنكم من يظُنُّ غير ذلك من ضعفاء الإيمان ظنوناً دون ذلك فيها ارتيابٌ وتشكُّك.

وشرّ هذه الظنونِ ظنون المنافقين الذين قال قائلهم وهو «معتّب بن قُشَيْر»: كان محمّد يَعِدُنا أن نأكل كُنُوز كسرىٰ وقيصر، وأحدنا لا يقدر أنْ يذهب إلى الغائط.

حتى حاول بعض المنافقين الفرار من موقعه، متظاهراً بالاستئذان الذي يتعلّل له بما يبرّره بحسب الظاهر، وهو في الحقيقة كاذب، فقال «أوس بن قيظي» عن ملأٍ من رجال قومه: يا رسول الله، إنّ بيوتنا لعورةٌ من العدوّ، فأْذَنْ لنا فلْنرجع إلى ديارنا، وإنّها خارجة من المدينة.

وما كان يمنع المنافقين من التخلّي والفرار من مواقع الترقُّب للقتال إلّا خوف نقمة الرسول والمؤمنين من قومهم. إذا انتهت أحداث الغزوة.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾:

أي: هُنَالِك في ذلك الموقع الذي كان فيه المسلمون مُحاصَرين، داخل المدينة من قبل أحزاب العرب، امْتُحِن المؤمنون ومن معهم من مُدّعي الإيمان امتحاناً قاسياً، وزُلْزلوا زلْزالاً شديداً، على غربال التجربة العنيفة المرّة، فَنُخِلُوا بها نخلاً، ظهر فيه من كان قويّ الإيمان صادق اليقين، ومن كان دون ذلك، ومن كان في قلبه مرض. وسقط في الامتحان من ظهر نفاقه بقوله أو بعمله، وكذلك الأحداث الشديدة على النفوس، والتي فيها متاعب وآلام، وجوع مُمض، وخوفٌ هالعٌ، هُنَّ كواشف ما في القلوب والنفوس، ومُمَحِّصات.

ومن شأن الزلزلة الّتي هي حركة عنيفة أن تجمع الأشباه والنّظائر إلى بعضها ضمن الخليط، فإذا كانت على الغرابيل أسقطت ما لا تمسكه، وطيّرت مع الريح ما لا وزن له.

* * *

بيان مواقف المنافقين في غزوة الأحزاب

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

هذه المقالة إحدىٰ ظواهر النفاق الّتي ظهرت من المنافقين في غزوة الأحزاب، وذكرها القرآن في هذا النّص.

وهي مقالة قالها المنافقون، لأنّهم في باطن أمرهم كافرون بالله ورسوله، ويطرحونها لتشكيك المؤمنين بدينهم وبرسولهم.

وردّد هذه المقالة ضعفاء الإيمان، وأهل الريب والشك، وأهل الطّيش الّذين لا بصر لهم بالأمور، ولا رويّة عندهم ولا صبر، وجاء التعبير عنهم بأنّهم الذين في قلوبهم مرض.

روى الطبريّ عن قتادة أنّ ناساً من المنافقين قالوا في غزوة الأحزاب: قد كان محمّد يَعِدُنا فتح فارس والرّوم، وقد حُصِرْنا هٰهنا، حتّى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعَدَنا الله ورسوله إلّا غروراً.

وفي رواية ابن إسحاق، أنّ هذه الكلمة الكبيرة: «ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً» كلمة قالها «مُعَتِّب بنُ قُشَير» يوم الخندق.

وروى الطبري أيضاً عن ابن زيد، قال: قال رجلٌ يوم الأحزاب لرجل من أصحاب الرسول ﷺ: يا فُلانُ، أرأيت إذْ يقولُ رسولُ الله: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كِسْرىٰ فلا كِسْرىٰ بعده، والذي نفسي بِيَده لتُنفَقَنَّ كُنوزُهما في سبيل الله» فأين هذا من هذا وأحدنا لا يستطيع أن يخرج يبول من الخوف؟ ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً.

فقال له: كذبت، لأخبرنّ رسول الله ﷺ خبرك.

قال: فأتى رسول الله ﷺ فأخبره فدعاه، فقال: «ما قُلْتَ؟» فقال: كذَبَ عليّ يا رسول الله، ما قلتُ شيئاً، ما خرج هذا من فمي قطّ.

ودلّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ المنافقون...﴾ على أنّ هذه المقولة ردّدها المنافقون والذين في قلوبهم مرض، ولم تكن مجرّد مقولة قالها واحد منهم، فصيغة الفعل المضارع تدلّ على التكرير والتجدد، ولا سيما أن النصّ يخبر عن حدث مضىٰ.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾:

يَثْرِب: قال الطبري: اسم أرض يقال: إنّ مدينة الرسول ﷺ في ناحية تقع منها.

وفي لسان العرب: يثرب: مدينة سيدنا رسول الله ﷺ. وروي عن النبي ﷺ أنه نهى أن يقال للمدينة: يثرب، وسمّاها طَيِّبة، كأنّه كَرِهَ الثَّرْبَ، لأنه فسادٌ في كلام العرب. قال ابن الأثير: يثرب: اسم مدينة النبيّ ﷺ قديماً، فغيّرها وسمّاها طيبة وطابةً، كراهية التثريب، وهو اللّوم والتعيير.

مَقَام: فيها قراءتان: بفتح الميم، أي: لا مكان إقامة لكم هنا عند الخندق. وبضمّ الميم، أي: لا إقامة لكم هنا.

وفي قول طائفةٍ من المنافقين: [لَا مُقَامَ لكم فارْجِعُوا] دعوة للتخلّي عن الرّسول ﷺ والمؤمنين الصادقين معه، وهي تعبّر عمّا يكنّه قائلوها من نفاق وعدم إيمان، وفيها إعرابٌ عمّا تكنّه صدورهم من عدم اعتراف بالاسم الإسلامي الذي سمّى الرسول به المدينة، إذْ انطلقت ألسنتهم بقصد أو بدون قصد بالاسم الجاهليّ الذي نهىٰ الرسول ﷺ عنه، ولفلتات اللّسان دلالات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

عن ابن عباس: أنّ أصحاب هذا الاستئذان هم بنو حارثة، وقد استأذنوا في أن

يتركوا مواقعهم في الغزوة، وينصرفوا إلى بيوتهم.

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾:

العورة الخللُ في الشيء، فهو بذلك عرضةٌ للسلب والنهب والسرقة ونحو ذلك.

يقولون: [إنّ بُيوتَنا عَوْرَة] أي: لَيْسَت محروسة ولا محصّنة، فهي عرضة لأن يتسلّل إليها العدوّ، فيسطوَ عليها ويسرق ما فيها، أو يُداهمنا من قِبَلها.

ولكنّها في الحقيقة ليست كما قالوا. وقد بيّن الله كذبهم في مقالتهم، وغرضهم الحقيقي من استئذانهم المعلّل بمقالتهم الكاذبة، فقال تعالى:

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾.

ورَدَ أنّ الرسول ﷺ بعث من كشف له الحقيقة، فبيوتهم ليست بعورة كما زعموا.

إنّهم ما يريدون باستئذانهم إلّا فراراً من مواجهة العدوّ، وهروباً من موقع المرابطة، لأنهم منافقون، ولا يؤمنون بجدوى ما يفعلون، لكنّهم بعد تظاهرهم بالإسلام لا يستطيعون إلّا المصانعة والمخادعة والمراوغة والتستر بالأكاذيب والتِّعِلّات الباطلات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤﴾:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾:

أي: ولو دخل جيش المشركين المدينة، وهجموا عليهم من جميع نواحيها، فداهَمُوهم وهم في بيوتهم.

﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾:

أي: ثُمّ بعد ذلك طلب منهم المشركون أن يكفُروا بالإسلام، ويعودوا إلى

الوثنيّة والشرك، وهذه هي الفتنة في الدين، أوطلبوا منهم تسليم الرسول والمؤمنين لفعلوا.

﴿لَآتَوْهَا﴾ فيها قراءتان بهمزة واحدة من «أتى» وبالمدّ من «آتى»:

أي: لأتَوُا الفتنة الّتي طُلِبَتْ منهم فكفَروا، ولم يتَثَبّتوا على إسلامهم الذي يتظاهرون به، طالبين السلامة والأمن، فهم إمّا منافق أو في قلبه مرض دون النفاق.

أو [لآتَوْها] كما جاء في القراءة الأخرى، والمعنى: لأعْطَوْها.

فتكاملت القراءتان فكريّاً وأداءً بيانيّاً، أي: لأتَوْا إلى مواقع الكفر بأجسادهم وأنفسهم، ولأعْطَوْا ما يُطلبُ منهم من كفرٍ، ومن لوازمه القولية والعمليّة، ولاستجابوا للكافرين، وأعلنوا ردّتهم عن الإسلام، ولسلّموهم أهل الإيمان الصادق.

إنّهم بعد أن كشف الله عزّ وجلّ كذبهم في ادّعائهم أنّ بيوتهم عورة، وأبان حقيقة غرضهم من الاستئذان في الذهاب إلى بيوتهم، وأنّهم ما أرادوا إلاّ الفرار من مواجهة العدوّ، جنباً وعدم إيمانٍ بمشاركتهم للمسلمين في أعمال الجهاد قال الله بشأنهم:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

ولكِنَّ الله عزّ وجلّ أنذرهم بأنّهم لو دخلوا في الفتنة طلباً للأمن، فكفروا وارتدّوا عن الإسلام، لعاجلهم الله بالعقاب، فما استطاعُوا أن يتلبّثوا إلاّ زمناً يَسيراً في بيوتهم، أو في المدينة وفي الأمن الذي ظنّوا أنّ الفتنة في دينهم تحقّقه لهم، فقال تعالى:

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾:

أي: وما بَقوا في بيوتهم في المدينة إلاّ زمناً يسيراً، لو حصل منهم ما ذُكر سابقاً، لأنّ الله سيمكّن المؤمنين منهم حينئذٍ، فيقتلونهم، أو يلجئونهم إلى الفرار أو الجلاء عن المدينة، حتى يكونوا مطاردين مشرّدين في الأرض.

واستمرّ النصّ القرآنيّ يتحدّث عنهم وهو معرض عن مخاطبتهم، فذكر أنّهم

كانوا قد عاهدوا الله من قبلُ، إذْ حلفوا أن يثبتوا في المواقع مع الرسول والمؤمنين، وأن لا يولّوا الأدبار، والمفروض في المسلم أن يحافظ على عهده، وذلك في البيان التالي:

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾:

أي: وكان عَهْدُ اللّهِ مسؤولاً عنه، فمن نقض عهد الله جعل نفسه تحت طائلة العقوبة الرّبانية.

رُوِي أنّ هذا النصّ نزل في بني حارثة، إحدى الطّائفتين اللّتين همّتا في غزوة أُحُد بأنْ تفشلا، وهما «بنو سلمة وبنو حارثة» فنزل بشأنهم ما نزل من قرآنٍ يومئذٍ، فعاهدوا الله أن يثبتوا ولا يولّوا الأدبار بعد ذلك.

لكنّ بني حارثة كان منهم ما كان من أصحاب الاستئذان المعلّل بالكذب في غزوة الأحزاب، وهو يدلّ في أقلّ الأحوال على مرضٍ في قلوبهم، دون النفاق، وهو الأرجح، لذلك ذكّرهم الله بعهدهم، وهدّدهم تهديداً ضمنيّاً بقوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللّهِ مسؤولاً﴾.

واستمرّ النّصّ معرضاً عن مواجهتهم بالخطاب، تربيةً لهم، إلاّ أنه خفّف من ثقل الإعراض، بتكليف الرسول ﷺ أن ينقل لهم مقولةً إقناعيّة، تتّصل بقضيّةٍ أساسيّةٍ من قضايا الإيمان، ولعلّ مرض قلوبهم فيها هو المؤثر في الظواهر السلوكيّة التي تكرّر ظهورها منهم، فجاء في البيان التالي:

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

هذه المقولة الإقناعيّة التي كلّف الله رسوله أن ينقلها إليهم على لسانه، شارحاً لمضمونها، ومبيناً له، تتضمنّ إشعاراً بأنّ الله معرضٌ عنهم، لأنّ الذنب قد تكرّر منهم.

ففي غزوة أُحد كانت مخاطبتُهم فيها رقّةٌ وتلطّفٌ بالعتاب، باعتبار أنّ ما كان منهم في أُحدٍ قد كان ذنباً أوّليّاً في تجربة أُولى من تجارب القتال بالنسبة إليهم فقال الله تعالى في ذلك خطاباً لجميع المؤمنين في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

لكن لمّا تكرّر الأمر من بني حارثة في غزوة الأحزاب، اقتضت الحكمةُ التربويّة التشديدَ في الأسلوب التربوي.

فارتفع من أسلوب التلطّف إلى أسلوب الإعراض، فالتّنبيهِ المشدّد على قضيّة أساسيّة من قضايا الإيمان الّتي لو كانت سليمةً لديهم ما تكرّرتْ منهم ظاهرة الفرار الجماعيّ من الزحف.

إنّ ظاهرة الفرار من مواجهة العدُوّ حين تدعو الضرورة إلى هذه المواجهة ترجع إلى الخوف من الموت، والحرص على الحياة، وكلا الأمرين ينموان في الأنفس ــ مع وجود موجبات التضحية والاستبسال في القتال ــ بمقدار تناقص الإيمان بقضاء الله وقدره، وتناقُص الإيمان بأنّ الحياة والموت خاضعان خضوعاً كاملاً لسلطان الله وإذنه، وبمقدار الغفلة عن ملاحظة عقوبة الله الّتي قد ينزلها الله بالّذين يولُّون الأدبار عند واجب الزحف لقتال العدُوّ.

لذلك جاء تنبيهُهُم على هذه الحقيقة من الحقائق الإيمانية.

فالفرار من الموت باتخاذ الوسائل المادّية للحماية منه، وكذلك الفرار من القتل للحماية من الموت ولدفعه، لن ينفعهم شيئاً في دفع الموت أو القتل عنهم، إذا كان أمراً مقضيّاً بقضاء الله.

فإنْ فرُّوا من القتل بتجنُّب مواقع القتال، ظانّين أنّ ذلك يحميهم من الموت،

فإنّهم لن يتمتّعوا بالحياة إلاّ قليلاً، إذْ سيأتيهم الموت حسب آجالهم المقرّرة في قضاء الله وقدره.

ثمّ إنّ فرارهم في المواطن التي لا يجوز لهم فيها أن يفرّوا يجعلهم عصاةً، وهذا يعرّضهم لعقاب الله ونقمته، فإذا أراد الله بهم سوءاً عقاباً لهم على فرارهم، فمن ذا الذي يعصمهم من الله؟

إنّهم عندئذٍ لا يَجدون لهم من دون الله وَلِيّاً يتولاّهم، ولا نصيراً ينصرهم.

ومع ذلك فقد ترفّق النّصّ بهم، ففتح لهم نافذةً إلى رحمة الله إذا تابوا واستغفروا، نلاحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ ضمن نصّ الإنذار الشديد، فقبله: ﴿قُلْ: مَنْ يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ وبعده: ﴿وَلَا يَجِدُونَ من دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً ولا نصيراً﴾.

إنّ نافذة الرحمة هذه مرتبطةٌ بكلامٍ مطويّ، يمكن تقديره على الوجه التالي:

قُلْ: مَنْ ذا الذي يعصمكم من الله إنْ أراد بكم سوءاً، أو من ذا الذي يمنع عنكم رحمة الله إذا تبتم واستغفرتم وأراد بكم رحمةً.

وأُقفِلَت النافذة، واستمرّ النّصّ يُتمُّ موضوع الإنذار فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ معرضاً عنهم، وموجهاً الخطاب لغيرهم.

وهنا انتهى المقصود ببيانه حول حادثة استئذان الفريق الذين كانوا في غزوة الأحزاب يستأذنون الرّسول في ترك مواقعهم حيث هم مرابطون، متعلّلين بأنّ بيوتهم عورة.

وانتقل النصّ إلى بيان الظاهرة الرابعة من أعمال المنافقين في هذه الغزوة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

هـذه الظاهـرة الرابعـة من أعمال المنـافقين، وهي ظـاهـرة التخلّف والتثبيط عن مشاركة المؤمنين في مواقع القتال.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ﴾:

قد: لتحقيق وتأكيد حصول العلم، والتحقيقُ أحد معاني حرف «قد».

﴿ ٱلْمُعَوِّقِينَ ﴾:

التعـويق هو التثبيط عن العمـل، والحبْسُ والصرف عنـه، والشُّغْـل عنه بغيـره. يقال: عاقَهُ وعوَّقه، إذا منعه أو حبسه أو ثبَّطه أو صرفه، أو شغله عمّـا يهُمُّ به من عمـل بأية وسيلة من الوسائل.

﴿ هَلُمَّ ﴾:

اسم فعل بمعنى تعالَوْا، تُستعمل هكذا في لغة الحجازيين، بلفظ واحد للمـذكر والمؤنث، المفرد والمثنىٰ والجمع، وهو الأفصح.

وتُلحق بها علامات التثنية والجمع والتأنيث في لغة بني تميم، فيقال فيهـا: هلُمَّا وهلمّوا وهَلُمّي وهلْمُمْنَ.

﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ ﴾:

أي: ولا يأتون مواقع القتال. البأس في اللّغة يأتي بمعنى: «الحرب ــ والعذاب الشديد ــ والخوف» والمراد منه هنا الحربُ.

لقـد تخلّف فريق من المنـافقين في بيوتهم، فلم يخرجـوا إلى مكـان التـربُّص لمواجهة العدوّ في غزوة الأحزاب عند الخندق، ولم يشاركوا المجاهـدين، وجعلوا مع ذلك يعوّقون إخواناً لهم من أقاربهم، ويثبّـطونهم، ويدعـونهم إلى البقاء في منـازلهم، ويثيرون الرعب في قلوبهم، ويقولون لهم: لا يستطيع محمـد وأصحابـه أن يثبتوا لهـذا الجيش المتفوّق عليهم عدداً وعدّة، القادم لغزوهم من أحزاب العرب، وأنّهم هالكـون لا محالة، فما لكم ولهذه المخاطرة.

ويَحلفُ حالفُهم أنّ محمّداً سوف لا يستقبل المدينة أبداً بعد هذه الموقعة.

ويقولون لإخوانهم الذين يظنّون أنّهم لن يبلُغوا محمّداً ﷺ ما يدعونهم إليه: هلُمّ إلينا، أي: تعالَوْا إلينا، واتركوا مشاركتكم لجيش المسلمين، واستمتعوا معنا بالأمن، والراحة، والظلّ، والطعام الطيّب والشراب الوافر الحسن.

إنّهم فريق من المنافقين جريئون في ممارسة الأعمال التي تدلُّ على نفاقهم، فالتخلّف عن الرسول ﷺ في مواطن البأس دَيْدَنُهم، فهم لا يأتون البأس إلّا قليلاً، أي: بمقدار ما يكفي ـ بحسب تصوُّرهم ـ للمصانعة والمخادعة والرّياء، وفي الأحوال التي يكون الطمع بالغنائم فيها هو الأرجح بحسب تصوُّراتهم وتقديراتهم للأمور.

وقد أخبر الله فيما أنزل من قرآن بهؤلاء المنافقين المتخلفين المعوّقين لإخوانهم والذين يدعونهم إلى الانخذال عن الرسول والمؤمنين، فكشف أحوالهم، وسجّل ذلك عليهم في آياتٍ تُتْلَى، ليكونوا مثلاً للمنافقين في كلّ زمان، مع ما يتضمّن البيان القرآنيُّ من عظةٍ للمؤمنين، وتحذيرٍ لهم من مكايدهم.

وتابع النّصُّ الكلام عن هذا الفريق المتخلّف المثبّط، فكشف صفاتهم النفسيّة، وآثارها في سلوكهم، فجاء في وصفهم:

* * *

* قول الله عز وجلّ:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَشِحَّةً﴾:

جَمْعُ شحيح، وهو شديد البخل. ولفظ «أشِحّةً» منصوب على الحال، وصاحبُها المعوِّقون والقائلون لإخوانهم: هلُمَّ إلينا المذكورون في الآية السابقة، والمراد جميع المنافقين.

يقال: شحَّ بالشيء، إذا أمسكه، وشحّ على فلان أو على الشيء، إذا بخل عليه ببذلٍ ما، من مالٍ أو عمل أو غير ذلك.

يبيّن الله للمؤمنين أنّ من صفات المنافقين أنهم شحيحون عليهم، بأموالهم وأعمالهم ومعوناتهم وأنفسهم، وهم فوقَ ذلك شحيحون عليهم بمثل ذلك من غيرهم، فهم يكرهون أن يبذل أحدٌ لهم من ماله أو عمله أو نفسه.

والشحيح هو أشدّ البخلاء، لأنّ بخله لا يقتصر على كراهية أن يبذل من ماله أو نفسه، بل هو يكره أيضاً أن يبذُلَ غيره من ماله أو نفسه، فهو بدافع من شُحِّه يعوّق ويثبّطُ ويخذِّل عن البذل.

إنّهم أشحةٌ على المؤمنين خاصة، وقد لا يكونون أشحة على غير المؤمنين، وذلك لأنّهم منافقون، لا يؤمنون بما يؤمن به المؤمنون، ولا يسعَوْنَ لتحقيق الغاية التي يسعون إليها، بل لهم في قلوبهم اتّجاه آخر مباين مباينةً كُلّيَّةً لاتّجاه المؤمنين، وليس المظهر الذي هم فيه إلاّ مظهراً كاذباً، ومن الطبيعيّ في حال من يكون كذلك أن يكره كلّ ما يدعم الاتجاه المباين والمناقضَ لاتجاهه، وأن يكون شحيحاً عليه ببذلٍ منه أو من غيره، وشحُّهُ هذا يدفعه إلى محاولات الصدّ عن أن يبذلَ أحدٌ في هذا الاتجاه من ماله أو عمله أو نفسه.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾:

أي: فإذا جاء ما يُثِيرُ الْخَوْفَ في نُفُوسِهِم رأيتَهم من شدة الخوف الذي لم يخفّف منه الإيمان بالغاية المحققة للسعادة ينظرون إليك مذعورين تدُور أعْيُنُهم كدوران عَيْنَي الذي يُغْشَىٰ عليه من الموت.

﴿يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾:

أي: يُغْمى عليه من خوف الموت، فَيُغَطَّىٰ بسبب انفعال الخوف في نفسه وعْيُهُ وإدْراكُهُ ذُعْراً وهلعاً.

وأصل مادّة الكلمة من الستر العامّ بغطاءٍ أو نحوه. وفعلُ «يُغْشَىٰ عليه» يُشعِر بأنّ سحابات الإغماء تُغشّيه وتنقشع عنه، وهكذا يتكرّر الأمر.

فالذي يُغْشَىٰ عليه من الموت النازل به تدور عيناه زائغتَيْن بين حالتي الوعي والإغماء الذي يُغطّي وعْيَه.

وهؤلاء المنافقون قوم جبناء جبناً عظيماً، وحريصون على الحياة حرصاً شديداً، لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، فهم إذا جاءت الأسباب المخيفة من الموت، أثارت خوفهم الشديد، وذعرهم البالغ مدّاه، وظنّوا أنّ الموت نازل بهم لا محالة، فأخذت سحاباتٌ من الوهم تشبه غشاوات الموت تجلّل نفوسهم، فيكون من مظاهرها أن يُصابوا بالوجوم والسكون الآخذ بهم إلى الغيبوبة، فتراهم ينظرون إليك والحال أنّ أعينهم تدور مثل دوران عينَي الذي يُغْشَىٰ عليه من الموت.

ومن التقابل بين حالتهم عند الخوف وحالتهم إذا ذهب الخوف نلاحظ أنّ في الكلام محذوفاً مقدّراً، وهو ما قدّرناه من مجيء الأسباب المخيفة للجبناء.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾:

أي: فإذا ذهَبَتِ الأسباب المخيفة، وأحَسُّوا بالأمنِ انطلقَتْ جُرْأتُهم عليكم بألسنتهم السّليطة.

﴿سَلَقُوكُمْ﴾: السَّلْق في اللّغة: الصّياحُ وشدّة الصّوت. ويقال: سلقَه بالكلام سلقاً، إذا آذاه بكلامه الشديد العنيف، وأسمعه منه ما يكره فأكثر عليه، وبالغ في مخاصمته.

﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ﴾: أي: بألسنة قوية جارحة للنفوس، كالسيوف والسكاكين المحدّدة المسنونة القواطع للأجسام.

إنّهم في ساعات الخوف جبناء صامتون مُبْلِسُون منهارُون لا تتحرّكُ سُيوفهم، ولا أيّ سلاحٍ من أسلحتهم، بل تدور أعينهم ذعراً وهلعاً، كأن الموت نازل بهم، فإذا ذهب الخوف، وتحرّكت ألسنتهم، فلهم موقفان ألسنتهم فيهما سليطة حِداد:

(١) فإنْ كانت المعركة لصالح العدوّ أخذوا يوجّهون اللّوم والتثريب للمؤمنين، وقائد معركتهم، وبطانته الصادقة المخلصة، ويتبجّحون بصحة آرائهم الانهزامية التي كانوا يطرحونها ولو بالهمس أو في الخفاء.

(٢) وإنْ كانت المعركة قد انتهت بانتصار المؤمنين أخذوا يطالبون بأوفر النصيب من الغنائم، وتنطلق ألسنتهم كالسيوف الحداد القواطع، وتعلو أصواتهم، كأنهم قد كانوا أصحاب الصولة الكبرى في القتال، ويتبجّحون ببطولاتهم، ويطالبون بأنصبتهم من الغنائم، كأنّهم قد كانوا هم فرسان المعركة الأوائل، والمستحقين لأوفر النصيب.

على ضدّ ما يفعل المؤمنون الصادقون الباسلون الذين يقدّمون أعظم التضحيات، ويُبْلون أحسن البلاء، فسيوفهم وأسلحتهم هي العاملة في المعارك، ثم تكون ألسنتهم في حالة الهزيمة عاذرة، ونفوسهم صابرة. وعند توزيع الغنائم تكون ألسنتهم شريفةً قاصرة، وتكون نفوسهم عفيفة شاكرة.

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾:

أي: ليسوا فقط أشِحَّةً بالأموال والأعمال والأنفس منهم ومن غيرهم عليكم لذواتكم وأشخاصكم، بلْ هم أشحّةٌ بكلّ ذلك على الخير أين كان الخير، لأنهم لا يؤمنون بفائدة البذل في سبيل الخير ومرضاة الله عزّ وجلّ، وظاهر أن من لَمْ يؤمن بجدوىٰ شيءٍ من الأشياء، فلا بدّ أن يكون شحيحاً عليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾:

أي: أولئك البعداء عن مهابط رحمات الله عزّ وجل، وهم قسم من المنافقين الذين جاء وصفهم أنهم يتخلّفون عادة عن مواطن البأس، ولا يأتونه إلاّ قليلاً، ويثبطون إخوانهم، ويدعونهم للتخلّف، وهم أشِحّةٌ على المؤمنين وعلى كلّ خير، وهم جبناء خوّارون إذا جاءت أسباب الخوف، فإذا ذهبت كانوا أصحاب ألسنة سليطة مؤذية في التلويم، وفي طلب أوفر نصيب من الغنائم.

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾: وإن تظاهروا بالإسلام، بل هم كافرون من مستوى الكفر الذي لم تختلط به أضواءٌ إيمانية.

﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي: أبطل الله أعمالهم، فلم يجعل لها الآثار الّتي تُرجَىٰ منها عادة.

ولكن ما هي أعمالهم الّتي يلاحظ فيها أنّ الله عزّ وجلّ قد أحبطها؟

لدى التحليل نلاحظ أنّ لهم صنفين من الأعمال، ولكلٍّ منهما إحباطٌ مناسب له.

الصنف الأول: أعمال إسلاميّةٌ في ظاهرها، كإقامة الصلاة مع المسلمين، وحضور معارك الجهاد في بعض الأحيان، ودفع الزكاة الملْزَمين بدفعها.

وإحباط هذا الصنف من الأعمال يكون بإسقاطه من سجلّ حسناتهم، لأنّه ليس نابعاً من منابع الإيمان، ولا أثراً من آثاره، فهو غير ذي قيمة عند الله، إنّه مصانعة ونفاق ورياء، هم به كاذبون، وقد أخذوا جزاءه في الدنيا، بحَقْن دمائهم من القتل الذي كانوا يستحقونه لو أظهروا كُفْرهم.

الصنف الثاني: أعمال كَيْدٍ ضدّ الإسلام والمسلمين، كأعمال التعويق والتخذيل والتثبيط التي يقومون بها.

وإحباط هذا الصنف من الأعمال يكون بكشف عناصره للمسلمين، وإفساد الخطط الّتي تدبّر فيه، وإبطال أثر المكايد التي تُحاك فيه.

وهذا الصنف من الأعمال هو الصنف الذي يلائمه قوله تعالى بعد قرار الإحباط: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ :

ونستطيع بالاستنباط أن نقدّر للصنف الأوّل المعنى الذي يناسبه، وفق قاعدة العدل الرّبّانيّة، وتقدير الكلام يمكن أن يكون كما يلي:

أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فأحبط الله بمقتضىٰ عدله أعمالَهم التي يظهر منها أنها أعمال حسنة؛ لأنها غير صادرة عن إيمان، وأحبط بمقتضىٰ حكمته ونصرته لأوليائه أعمالهم التي يكيدون بها المسلمين، وكان ذلك على الله يسيراً.

ويتابع النصّ الكلام حول هؤلاء المتخلفين عن غزوة الأحزاب، والمثبطين لإخوانهم عن شهودها، فيصف حالهم بعد انصراف الأحزاب، وهو:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

إنّ الأحزاب قد انصرفوا عن حصار المدينة دون أن ينالوا خيراً، وكفَى الله المؤمنين القتال.

ولكن ما زال المنافقون المختبئون في منازلهم خائفين متوارين، يحْسَبُون الأحزاب لم يذْهبوا، لأنّهم لا يفارقون مخابئهم في منازلهم، ليعرفوا ماذا حدث في المدينة.

وفي هذا تصوير بديع دقيق لشدّة لصوقهم في أرض مخابئهم، وذعرهم من الأحزاب، وتوقعهم أنّهم لا بدّ مداهمون المدينة، ومنتصرون على المسلمين.

لكنهم بعد ذلك علموا من إخوانهم وذويهم برجوع أحزاب العرب خائبين وسلامة جيش الإسلام في المدينة.

وكان تخلُّفهم أمراً يُدانُون به، ويُحاسبهم عليه الرّسول ﷺ والمؤمنون.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾:

﴿بَادون﴾: جمع «بادٍ» وهو الذي خرج إلى البادية، وترك الحاضرة.

أي: وإن يأت الأحزاب مرّةً أخرى لقتال المسلمين، يودّ هؤلاء المنافقون لو أنّهم بادون في الأعراب، بعيدين عن المدينة، ولا شأن لهم في الصراع الدائر بين المسلمين، وبين أعدائهم من العرب، ومن هنالك يسألون حاملي الأخبار عن أنباء الحرب الدائرة بين المسلمين وأعدائهم.

لقد كانوا عند قدوم الأحزاب يعتقدون أنّهم لا محالة منتصرون على المسلمين، اعتماداً على الظواهر السببيّة، فاكتفَوْا بالتخلُّف عن المشاركة، ليكون ذلك عذراً لهم عند جموع الأحزاب، بأنّهم لم يكونوا مع المقاتلة من المسلمين.

لكنّهم بتخلُّفهم قد عرّضوا انفسهم للمحاسبة من قِبل الرسول والمؤمنين، فلو

جاء الأحزاب مرّةً أخرى فإنّ الأمر لا بُدَّ أن يختلف، إنّهم لا يستطيعون أن يتخلّصوا من الإدانة بالتخلّف، ومن المعاقبة عليه، ولا يملكون الشجاعة على مشاركة المسلمين في قتال أعدائهم.

لذلك فهم يتمنّون عندئذٍ لو أنّهم كانوا بادين في الأعراب، يسألون من بعيد عن أنباء معركة المسلمين مع أعدائهم دون أن يكونوا مع هؤلاء أو مع هؤلاء، حرصاً على سلامة أنفسهم من مقاتلة الأحزاب، وسلامة أنفسهم من محاسبة المؤمنين.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

أي: وإنْ يأت الأحزاب مرّةً أخرى، واضطُرّ هؤلاء المنافقون أن يكونوا في صفوف مقاتليكُمْ، لئلاّ تحاسبوهم على تخلّفهم عنكم، ما قاتلُوا معكم إلّا قتالاً قليلاً كمّاً وكيفاً، يراءونكم به، ويصانعونكم فيه، محافظةً على مظهر انتمائهم إليكم بادّعاء الإسلام.

ومع ما في هذا من بيان لصفات هؤلاء المنافقين، ففيه إشعارٌ ضمنيٌّ للمؤمنين بأن لا يضعوهم في حساب القوى الّتي يملكونها ضدّ أعدائهم، بل عليهم أن يعتبروهم قوّة تثبيط.

وجاء في نصّ آخر بيان اعتبارهم قُوىً سلبيّةً لا قُوىً إيجابيّة، وهو ما في قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿خَبَالًا﴾:

أي: فساداً وإفساداً وإضراراً.

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾:

أي: وَلأسْرعوا وهم بين صفوفكم ينشرون أسباب فتنة المسلمين المؤمنين عن دينهم، إذ بين المسلمين من قد يستمع لهم، ويصغي لأقوالهم ويتأثّر بها.

فتكاملت النصوص في الدلالة على أنّ وجود المنافقين في صفوف المسلمين أثناء معارك القتال بمثابة قُوًى سلبيّة، تضاف إلى قوى الأعداء، ولا تحسب ضمن قوى المسلمين.

والمعنى: أنّ على المؤمنين أن لا يعلّقوا على المنافقين أملاً ما، مهما كان ضعيفاً، بل عليهم أن يثقوا بالله عزّ وجلّ ويتوكّلوا عليه، ولا يضعوا في حسابهم إلاّ القوى المؤمنة الصادقة في إيمانها، والصادقة في جهادها، والمخلصة لربّها ولدينها.

وعليهم أن يتأسَّوْا في ذلك برسول الله ﷺ الذي يتوكّل على الله وحده، ولا يضع في حسبانه إلاّ الله ومن اتّبعه من المؤمنين، امتثالاً لقول الله عزّ وجل لرسوله في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وإشارةً إلى هذه المعاني خاطب الله المؤمنين بما في قوله:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿أُسْوَةٌ﴾:

قُدْوَةٌ يُقْتدى به، في عمله وخلقه وكلّ ما يصدُر عنه.

والمعنى المشار إليه المناسب للموضوع، مع عموم الآية في دلالتها الكليّة، يمكن أن نوضحه بما يلي:

كما أنّ الرسول لا يقيم للمنافقين وزناً، لدى حساب قوة جيشه، بل يكتفي بربّه، وبمن اتّبعه من المؤمنين، فيا أيُّها المؤمنون اتّخذوا رسولكم أُسوةً لكم في ذلك، إنّكم ما اتّخذتموه أسوةً إلاّ ظفرتم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يستفيد منها ويَسْعَد بها ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو الله والْيَوْمَ الآخِرَ وذَكَرَ اللَّهُ كثيراً﴾.

﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾:

أي: يرجو مترقّباً عونه ومَدَدَه ونصره وثوابه ورضوانه.

﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾:

أي: ويرجو السعادة الخالدة يوم الدين وما فيه من أجرٍ عظيم للمتقين والأبرار والمحسنين.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾:

أي: وكان مع ذلك على صِلَةٍ بالله تعالى في معظم أوقاته، لأنّه كان كثير الذكر له.

فمن يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً فإنّه يتّخذ رسول الله أسوةً حسنةً له.

وهنا ينتهي الكلام في النصّ عن مواقف المنافقين في غزوة الأحزاب (الخندق) ومواقف الذين في قلوبهم مرض، منذ بداية قدوم الأحزاب حتّى رجوعهم خائبين لم ينالوا خيراً.

* * *

وصف حال المؤمنين

بعد ذلك شرع النّص يلخّص مواقف المؤمنين بدءاً من أوّل قُدوم الأحزاب.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: ذلك ما كان من أمر المنافقين والّذين في قلوبهم مرض، وأمّا المؤمنون فحالهم هو ما أصف لكم.

لمّا رأى المؤمنون جيشَ الأحزاب، لم يرهبوا ولم يخافوا، ولم يقولوا مثل مقالة

المنافقين: ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً، ولكنّهم قالوا: هذا ما وَعَدنا الله ورسوله وصَدَقَ الله ورسُوله.

إنّ كثرة الجيش القادم لقتالهم لم تَفُتَّ في أعضادهم، بل حدّثتهم قلوبهم المؤمنة بأنّ الله قد ساق لهم هذا الجيش الكبير الذي يفوقهم عدداً وعُدّة، ليحقّق لهم ما وعدهم به من التأييد والتمكين، والنصر والفتح المبين.

فالله عزّ وجلّ لم يُخْلِفْهم وعده، والرسول ﷺ لم يكذبهم في شيء، والأحداث الماضية شواهد، فلا بدّ في هذه الحادثة أن يكون الله معهم ظهيراً نصيراً.

إنّ ثقتهم بالله ورسوله قد كانت في حصنٍ حصين، من ثبات الإيمان ورُسوخ اليقين، فلا تستطيع أن تنال منها شيئاً نِبالُ الشكوك التي يقذفها الخوف، وإن كان جيش العدوّ أكثر منهم عَدداً وعُدّة.

وما زادهم ما رأوا من كثرة عدوهم، إلاّ إيماناً بأنّ الله عزّ وجل سَيُحَقّق لهم ما وعدهم من التأييد والنصر، وما زادهم إلاّ تسليماً لقضائه الحكيم.

ولكنّهم لا يعلمون كيف يكون تحقيق وعْد الله، ولا يعلمون مدى الابتلاء الذي سيخوضونه قبل ذلك.

كلُّ المؤمنين الصادقين كانوا كذلك تفاؤلاً بإقبال بشائر تحقيق وعد الله، وزيادةَ إيمانٍ بالله ورسوله حين قدوم الأحزاب لحربهم.

لكنهم فيما بعد، ولدى ممارستهم التطبيقية لأعمال المرابطة والمصابرة والجهاد، كانوا على درجات، بحسب ما لدى كلٍّ منهم من قُوّة وصبر.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾:

أي: بعض المؤمنين كان منهم هذا الصدق، ولم يَنْفِ الله عزّ وجلّ الإيمان عن الذين لم يكونوا كذلك، بل أثبت أنهم من المؤمنين أيضاً.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾:

أي: فمن هؤلاء المؤمنين الصادقين مَنْ قضَىٰ نَحْبَه.

النَّحْبُ في اللّغة: يأتي بعدّة معانٍ، منها ما يلي: «الحاجة ـ والمدّة والأجل ـ والنذر، والعهد».

وهذه المعاني كلُّها تصلح هنا، فلقد كان المؤمنون قد عاهدوا الله أن ينصروا رسوله، ويقاتلوا معه أعداءَ الله حتّى يُقتلوا أو تنقضي آجالهم، أو يتحقّق النصر الذي هو حاجة كلّ مؤمن.

فكان منهم من قَضَىٰ نحبَهُ، فجاهد صادقاً مخلصاً، ومات موتاً طبيعيّاً، وكان منهم من قضىٰ نحبَهُ، فجاهد صادقاً مخلصاً، وقُتِلَ فكان شهيداً في سبيل الله، فَنَالَ حاجتَه من الشهادة.

وكلٌّ منهما قضى نذره إنْ كان قد نذر، وقضى عهده الذي عاهد الله عليه إنْ كان ممّن عاهد الله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾:

أي: ومن هؤلاء المؤمنين الذين صدقوا ما عَاهدوا الله عليه مَنْ يَنْتَظِرُ أن يقضيَ نَحْبَهُ بالشهادة، أو بانتهاء الأجل، أو بتحقيق نصر الإسلام والمسلمين الذي هو حاجة كلّ مؤمن، مع قيامه بما عاهد الله عليه.

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾:

أي: وكلا الفريقين الذين قضوا نحبهم، والذين ينتظرون قضاءه حتى غايته، ما بدّلوا فيما عاهدوا الله عليه تبديلًا ما، بل حافظوا على عهودهم، ونفّذوها ووفَّوْا بها.

وسكت النصّ عن قسم آخر من المؤمنين، وهم الذين لم تَقْوَ إراداتُهم على الوفاء العمليّ الكامل بما عاهدوا الله عليه، مع سلامة إيمانهم، وتسليمهم لله

عزّ وجلّ. ولا بدّ أن يكون التبديل بين العهد والتنفيذ عند هؤلاء وهم من المؤمنين الصادقين على درجات ومستويات بعضها أدنى من بعض، وهي تناسب تفاوتهم في قُوى إراداتهم، وتفاوتهم في نِسَب شجاعاتهم، وفي نِسَب غَلَبَةِ أهوائهم عليهم، ونِسْبَةِ تعلُّقهم بالدّنيا وما فيها.

* * *

بيان الغاية من
الابتلاء بمواجهة جيوش الأعداء

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾:

أي: لقد كان هذا الابتلاء بمواجهة جيوش الأعداء ليتحقّق به كشف أحوال المنتسبين إلى الإسلام، وبعد الكشف يأتي تحقيق قانون الجزاء.

أمّا المؤمنون الصادقون في إيمانهم فيجزيهم بحسب صدقهم، في إيمانهم، وفي عملهم، ويتفاوت الجزاء بحسب درجة كلِّ واحدٍ منهم، في الصّدق إيماناً، ووفاءً بالعهد، وعملاً.

وأمّا المنافقون الذين أعلنوا إسلامهم وهم في داخل قلوبهم كافرون، فيكشف بالامتحان نفاقهم، وكذبهم في ادّعائهم الإيمان، وبعد الكشف يأتي تحقيق قانون الجزاء:

(١) فإنْ أصَرُّوا على نفاقِهِمْ، ولم يصلحوا من أحوالهم، استحقُّوا أنْ يُعَذِّبهم الله بمشيئته المقترنة بكمال حكمته وعلمه، فقال تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾:

أي: ويعذّب المنافقين الذين لم يتوبوا من نفاقهم، إنْ شاء تعذيبَهُمْ، وعلّق الله

تعذيبهم بمشيئته، لبيان أنّ ظواهر عدله في خلقه سبحانه، لا تحصل بالضرورة الجبريّة، وإنّما تحصل بالمشيئة، لكنّنا نعلم أنّ مشيئته تعالى لا تنفكُّ عن حكمته، ونعلم أنّ حكمته تعالىٰ مقترنة بكمال علمه، وعظيم قدرته على كلّ ما يشاء.

(٢) وإنْ تابوا واستغفروا وأصلحوا وآمنوا إيماناً صادقاً، فإنّ الله عزّ وجل يتوب عليهم، ويقبل استغفارهم رحمةً منه، فقال تعالى:

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: إذا تابوا من نفاقهم، وصحّحوا عقيدتهم، وقوّموا سلوكهم.

ونلاحظ أنّ الله يفتح لهم بهذا باب التوبة ليتوبوا ويستغفروا، حتى يتوب عليهم، ويغفر لهم ويرحمهم، ودلّ على أنّ توبة الله عليهم إنّما تكون بعد توبتهم هم من نفاقهم ما نعلم من قانون الله في الجزاء، فمن موادّه أنّ الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به، ويَغْفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء، والنفاق أشدّ في دركات الكفر من الشرك.

وأطمعهم الله بمغفرته ورحمته إذا تابوا واسْتَغْفروا، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

أي: هو سبحانه في الكينونة الدائمة المستمرة كثير الغفران لمن استغفره من عباده، كثير الرحمة بخلقه.

* * *

بيان فصل الختام
من فصول غزوة الأحزاب

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾:

أي: ردُّ الله الأحزاب عن المدينة إلى دِيارِهِمْ مصْحوبين بغيظهم، يكْتَوُون بنار الغيظ الذي اغتاظوه نتيجة خيبتهم، وعدم تحقيق شيء مما جمعوا جموعهم له.

وتحقّق بذلك النصر المعنوي العظيم للمؤمنين على أحزاب العرب المشركين، لأنّ الله قد قطع به دابر غزو العرب الكافرين لهم بعد يوم رجعة الأحزاب عن المدينة خائبين.

جاء في صحيح البخاري أنّ الرسول ﷺ قال لأصحابه حين أجْلَى اللَّهُ الأحزاب:

«الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزونَا، نَحْنُ نَسِيرُ إليهم».

وهذا في الحقيقة نصر عظيم وفتح مبين، فلقد كان مقدّمة للفتح الذي جاء بعد ذلك.

﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾:

أي: ما نال الذين كفروا من جمعهم أحزابهم، وقُدومهم لحرب المسلمين في المدينة خيراً ما صغيراً ولا كبيراً.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾:

إذْ ألهم الله سلمان أن يُشِير بحفر الخندق، فكان بمثابة الدّرع للمدينة، وإذْ بعث على المحاصِرين بعد أن أجهدهم طول الحصار، الريحَ الباردة والجنودَ الخفيّة، فأزعجتهم، وحملتهم على أن يرتدّوا على أعقابهم خائبين تتميّز قلوبهم من الغيظ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾:

أي: ومن أوصاف الله في الكينونة الدائمة المستمرّة أنه قويٌّ على ما يشاء، عَزِيزٌ غالبٌ لكلّ القوى.

وحقّق الله عزّ وجلّ للمؤمنين نصراً مادّيّاً عظيماً في توابع غزوة الأحزاب، على الذين ظاهروا أحزاب العرب من أهل الكتاب، وهم يهود بني قريظة، إذ انكفأ

المؤمنون على حصونهم، بعد جلاء الأحزاب عن حصار المدينة، فحاصروهم، فقذف الله في قلوبهم الرُّعب، فنزلوا من حصونهم مستسلمين خائفين فقتل المسلمون رجالهم، وأسروا نساءهم وذراريهم، وغنِمُوا أرْضهم وديارهم وأموالهم، فقال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾:

أي: من حصونهم، وكان هؤلاء المظاهرون من أهل الكتاب هم من اليهود.

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾:

في هذا بيان للسبب الذي جعلهم ينزلون من حصونهم مستسلمين.

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾:

أبانت روايات السيرة النبويّة أنّ المسلمين قتلوا رجالهم، وأسَرُوا نساءهم وذَراريهم.

ونلاحظ في هذه العبارة جمالاً في الأداء البياني، إذ جاءت كلمة «فريقاً» في البدء والختام، وبينهما فعلا «تقتلون وتأسرون».

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾:

أي: وجعل ارضهم وديارهم وأموالهم ميراثاً لكم، ووصفَ الله هذه الغنائم بأنّها ميراث أورثَهُ الله للمؤمنين، لأنّ الرِّجالَ المالكين لها قُتِلوا، وللدّلالة على أنّ عودة هذه الأرض والديار والأموال إليهم أو إلى نساءهم وذراريهم أمر ميؤوس منه، كما أنّ من مات لا تعود أمواله إليه، إذْ تصير ميراثاً لغيره.

ومع قرار الميراث المنجّز الذي منح الله به المسلمين أرض بني قريظة، وديارَهُم وأَمْوالَهُمْ، أنزل الله عزّ وجلّ قراراً آخَرَ محقَّقاً، هو بحكم القرار المنجّز تماماً ومُلْحَقٌ به، إلاّ أنّ زمن التنفيذ لم يأت بعد، ألا وهو توريثهم أرضاً لم يطؤوها بعد، وفسّر الواقع بعد ذلك أنّها أرض الفتوحات الإسلامية في أرض العرب وغيرها من بلاد الدّنيا.

وهذا من أنباء الغيوب القرآنية الّتي تحقّقت فيما بعد، وكان هذا القرار الرّبانيُّ المحقّق إعلاناً عن بدايات النصر العظيم، والفتح المبين.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾:

أي: ومن أوصاف الله في الكينونة الدائمة المستمرّة أنّ الله قدير على كلّ شيء؛ يريد فعله وتكوينه، فنصره لرسوله وللمؤمنين على الذين كفروا وعلى الذين ظاهروهم من أهل الكتاب، أمْرٌ صغير من هذه الكليّة العامّة الكبرى.

• • •

نظرة عامة حول بعض ما جاء في سورة الأحزاب بعد هذا النص ممّا له تعلقٌ ما به

(١)

ثمّ جاء في سورة (الأحزاب) بيان تربويٌّ من الله عزّ وجلّ لرسوله، حدّد له فيه وظيفته تجاه رسالته ودعوته، وهي تتلخّص بمنهج إيجابي، ومنهجٍ سلبي.

* فالمنهج الإيجابي يتناول العناصر التالية:

(١) التّبليغ التّامّ لحقائق الدين، ولواجبات الناس تجاه ربّهم عزّ وجلّ، وهذا التبليغ يعطيه حق الشهادة عليهم يوم الدين.

(٢) التبشير لمن آمن وأطاع بالنعيم المقيم الخالد في جنات النعيم.

(٣) الإنذار لمن كفر وعصىٰ بالعذاب الأليم في دار العذاب يوم الدين.

(٤) الدعوة إلى الله وإلى سبيله بالوسائل التي أذن بها، المقترنة بالحكمة والموعظة الحسنة.

(٥) أن يكون للناس سراجاً منيراً، أي: قدوة حسنة يقتدي به الناس في أقواله وأعماله وأخلاقه وسائر تصرفاته الاختيارية.

(٦) تبشير جماعة المؤمنين بأنّ لهم من الله في الدنيا فضلاً كبيراً، وهو ثواب يعجّله الله لهم، إذْ ينصُرُهم، ويستخلفهم في الأرض، ويذلّل لهم كنوزها وخيراتها، ويُمَكِّن لهم سلطانهم، ويسخّر لهم أسباب ووسائل التأييد والتمكين.

وهذا يتضمن التلويح بإنذار غير المؤمنين، بأنّ الهزائم ستلاحقهم ضمن

سنن الله في المجتمع البشري، وأنّ الله سيجعل الذين آمنوا خلفاءهم في ملكهم، ووارثي أرضهم والخيرات الّتي هي في أيديهم عند نزول النصّ.

وقد دلّ على هذا المنهج الإيجابي قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾﴾.

* والمنهج السُّلبيُّ تُجاه الكافرين والمنافقين في مجال الدعوة يتناول العناصر التالية:

(١) عدم طاعة الكافرين والمنافقين في أيّ أمرٍ من الأمور التي تتنافَى مع رسالة الرسول، أو تتنافى مع واجباته تجاه دعوته، أو تجاه ربّه، أو تجاه أيّة قضيّة من قضايا المسلمين، فقال الله لرسوله:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ . . . ﴿٤٨﴾﴾.

(٢) عدم الاشتغال بمدافعة أذاهم، أو الانتقام منهم إذا آذوه باتّهامات، أو مطاعن، أو شتائم، أو طرح تشكيكات وشبهات.

وذلك لأنّ صرف جهده لمدافعة أذاهم قد يحقّق للكافرين والمنافقين بعض ما يريدونه، من إيقاف الدّعوة عن مسيرتها، وشغل الرسول وأصحابه بصراعات شخصيّة، فتتحوّل الرسالة عن أهدافها وواجباتها، إلى نزاعات حول الأشخاص، ويضيع الْجَهْدُ المبذول سُدىً، وتظهرُ العصبيات والأنانيات.

لكنّ رسول الدّعوة، وأمّةَ الدَّعْوة، ليس همُّهم أشخاصهم، إنّما همُّهم الأكبر مبادئهم، وتبليغ رسالة ربّهم، والرغبة بهداية عباد الله إلى دين الله، ودعوة الناس إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فقال الله تعالى لرسوله:

﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ . . .﴾:

أي: دع التفكير في أذاهم الموجّه منهم لك وللمسلمين، ودع الاشتغال بدفعه، ودع تدبير الأمور الرامية إلى الانتقام منهم على أذاهم، وتجمَّلْ بالصّبر والصفح.

ويلاحظ أنّ التعبير بقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أذاهم﴾ عن هذه المعاني التي فهمناها منه، فيها من الإيجاز والتعميم لكلّ الصّور ما لا يوجد بأسلوب بياني آخر.

(٣) التوكّل على الله في التزام هذا المنهج، ثقة بأنّ الله سيحقّق له ولأصحابه نتائج يحبّونها أعظم بكثير ممّا لَوْ شغلوا أنفسهم بمدافعة الأذى، أو الانتقام من الذين يوجّهونه ضدّهم، فقال الله تعالى لرسوله:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

* * *

(٢)

ثم تحدّثت السورة عن جملة أحكام: منها ما يتعلّق بالنكاح والطلاق وما يستتبع، ومنها أحكام خاصّةٌ بالنبيّ، ومنها أحكام من أحكام آداب الدخول إلى بيوت النبي، وبيان أنّ بعض تصرّفات المسلمين كانت تؤذي النبيّ، ويستحيي أن ينهى عنها، والله لا يستحيي من الحق، والتوجيه لسؤال أزواج النبيّ من وراء حجاب، وتحريم نكاحهنّ من بعده، والأمر بالصلاة والسلام على النبي، ثمّ أتبع الله ذلك بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

فتولّى الله عزّ وجل الدّفاع المباشر عن رسوله، ضدّ الّذين يؤذونه بشكل عامّ، وجعلهم ملعونين في الدنيا والآخرة، وأنذرهم بعذابٍ مُهين.

واللّبيب يلمح أنّ ثِقَلَ هذا الدّفاع موجّه ضدّ الكافرين والمنافقين، الذين قال الله لرسوله بشأنهم قبل ثماني آيات: ﴿وَدَعْ أذاهم﴾.

لكنّ الله عزّ وجلّ قد جعل هذا البيان ضمن أوامر موجهة للمؤمنين، ليشعُر الكافرون والمنافقون أنّه إذا كان انتصار الله لرسوله بهذا الشكل ضدّ الذين يؤذونه ولو كانوا من المؤمنين، فكيف يكون انتصار الله له ضدّ الكافرين والمنافقين.

إنّ هذا التعريض من أقوى أساليب التهديد، وذلك لأنّ الذي يشتدُّ في معاقبة أوليائه شدّةً بالغة انتصاراً لحبيب له، لا بدّ أن يكون عقابه لأعدائه أشدّ وأعظم في انتصاره لهذا الحبيب.

وغلّف الله هذا الانتصار العظيم لرسوله بمتابعة بيان أحكام خاصّةٍ بالمؤمنين، فيها التحذير من إيذائهم بالاتهامات الباطلات، وفيها أمر المسلمات بالحجاب، كي يعرفْنَ أنّهنّ حرائر عفيفات، فلا يؤذين بقولٍ أو عمل.

* * *

(٣)

ثم توجهت السورة مباشرة للمنافقين، ومرضى القلوب، والمرجفين في المدينة، بإنذارهم بأنّهم إذا لم ينتهوا عن أعمالهم، وحركاتهم المبطّنة بالعداء للإسلام والمسلمين، والتي فيها إيذاءٌ للرسول، فَسُيسلِّط الله رسوله عليهم، وينْهي أسلوب التغاضي عنهم، والصبر عليهم، والتسامح معهم، كما سلّط على أمثالهم فيما شرع لرسله السابقين، إذا تمادَوْا في غيّهم، ولم ينتهوا عن إيذاء رسول الله فيهم، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

وقد جعلهم الله في هذه الآيات ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المنافقون الذين ينطبق عليهم كلُّ صفات المنافقين.

القسم الثاني: الذين في قلوبهم مرض، وهؤلاء ناس قد أسلموا، ولكن في قلوبهم شكوك وشبهات، ولم تتكامل عناصر الإيمان في قلوبهم.

وهؤلاء يتأثرون بوساوس المنافقين والكافرين وتسويلاتهم، فهم يتابعون المنافقين، ويسيرون معهم، ويتحرّكون مثل تحرّكهم تأثراً بهم، دون أن يكونوا منافقين تماماً.

القسم الثالث: المرجفون، وهم طائفة من المنافقين ومن الذين في قلوبهم مرض، تواقحوا فظهرت منهم عبارات التخذيل، والإرجاف بأنّ المسلمين مهزومون

لا محالة، كمقالتهم التي جاء ذكرها في أوائل السورة: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

ووصَفهم الله بأنهم مرجفون دمغاً لهم بما ظهر من صفاتهم، وهو الإرجاف بالهزيمة ورواية الأخبار الكاذبة المخذلة.

الإرجاف في اللّغة: هو الإخبار بالأكاذيب، لإثارة الفتن والاضطرابات، وإحداث الرجفان من الخوف.

وهؤلاء الأقسام الثلاثة، إنْ لم ينتهوا عن تحركاتهم العدائية، فإنّ الله عزّ وجلّ سيغري رسوله بهم، أي: يوجّهه للانتقام منهم، والتسلّط عليهم، ومعاقبتهم على أعمالهم، ثم طردهم أو فرارهم من المجتمع الإسلامي الذي يتحرّكون فيه تحرُّك عداء، ولا يقفون فيه عند حدود مظاهر النفاق والمسايرة، وتنفيذ واجبات الانتماء إلى الإسلام.

وبعد طردهم من المجتمع الإسلامي، أو فرارهم خشية إنْزال العقوبات بهم، يكونون مطاردين أينما ثقفوا، وحينئذٍ يكون حالهم حال ردّةٍ عن الإسلام بعد الانتساب إليه، والمرتدون المحارَبُونَ يُؤخذون ويقتّلون تقتيلاً شنيعاً.

وليُعْلَمْ أنّ معاملتهم بهذا الأسلوب إن استمرُّوا على مكايدهم وتصرُّفاتهم العدائية، وهم داخل صفوف المسلمين، هي سنة الله في الذين خلَوْا من قبلُ، من أتباع الرسالات الربّانية السالفة، وهذه السنة هي من السنن الثابتة في الشرائع الرّبّانية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

وفي هذا دلالة على أنّ المنافقين متى بلغت بهم الحال إلى هذا المستوى من صناعة المكايد، وتدبير الأمور العدائية للإسلام والمسلمين داخل المجتمع الإسلامي، فإنّ حكم الله فيهم هو معاقبتهم ومحاسبتهم على أعمالهم، ثم نفيهم، ثم مطاردتهم في مواطنهم التي يدبّرون فيها المكايد، وملاحقتهم للقبض عليهم بجريمة الرّدّة والخيانة العظمىٰ، وتقتيلهم تقتيلاً شنيعاً.

وهذه السنّة هي سنّة الله في كلّ ما أنزل على رسله السابقين.

* * *

(٤)

ثم ختم الله سورة (الأحزاب) بقوله عزّ وجل:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

فأبان الله عزّ وجل في هذا الختام للسورة مسؤوليّة أمانة الاختيار وشروطه، وثمرة هذه المسؤولية وهي الجزاء بالعدل والفضل.

أمّا الجزاء بالعدل: فقد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾.

وأمّا الجزاء بالفضل: فقد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ويَتُوبَ اللّهُ عَلَىٰ المؤمنين والمؤمِنَاتِ وَكَانَ اللّهُ غفُوراً رَحِيماً﴾.

• • •

مقدمة عامّة

حول عادة التبني الجاهليّة وإلغائها وإلغاء أحكامها وكلّ آثارها وتكليف الرسول أن يكون أول مطبّق لهذا الإلغاء وموقف الكافرين والمنافقين من ذلك

كان التَّبنّي في الجاهلية عادةً متّبعةً ذات شريعةٍ من شرائعهم المتوارثة، وذات أحكام وأعراف ثابتة، هي لديهم بمثابة أحكام دينيّةٍ لا يجوز الخروج عليها ولا مخالفتها.

وقضت حكمةُ الله في دينه الذي اصطفاه لعباده أن يُلْغي عادة التبنّي، لأنّها لا تقوم على أساسٍ تكوينيّ، ولا على ضرورة اجتماعيّة، بل من شأنها أن تَحْرِمَ ذوي الحقوق الطبيعيّين من بعض حقوقهم في الإرث، وتستلزم تَحْريمَ نكاحٍ لم يُحرّمْه الله على عباده.

ومعلومٌ أنّ إلغاء هذه العادة الجاهليّة التي صارت شريعة من شرائع القوم المتوارثة، والتي لها عندهم أحكام في الإرث وتحريم النكاح ثابتة، وأعراف متّبعة، لا بُدّ أن يثير في نفوس الكافرين والمنافقين استعظام هذا الإلغاء واستنكاره، ولا بدّ أن يحرّك أَلْسِنَتَهُمْ بالنقد والاعتراض والاستنكار واستعظام الأمر، ومحاولات التشنيع على أحكام هذا الدين الجديد، باعتبار أنّ التبنّي هو في ظاهره سلوكٌ إنسانيٌّ نبيلٌ، فيه عطف ورحمة وتوادٌّ وتواصل.

فكيف يأتي محمّد الذي يقول: إنّه يُبَلّغ عن الله، ويدعو إلى التوادّ والتراحمُ والتواصل، فيُعْلِنُ إلغاء التبنّي، وإلغاء كلّ آثاره التي هي من أحكام الجاهليّة

وتقاليدها، ثمّ يتزوّجُ هو مطلّقة «زيد بن حارثة» الذي كان قد تَبنّاه على عادة الجاهلية، فكان يقال له: زيد بن محمد؟!

إنّ هذا الأمر مثيرٌ جدّاً لنفوس غير المؤمنين، من التقليديّين المتأثرين بالأعراف الجاهلية.

إنّ قضيّة إبطال عادة التبنّي الجاهلية قد استدعت قبل إنزال أحكامها في الإسلام، وقَبْل تغيير التقليد الجاهليّ فيها، عن طريق البيان القولي والعملي، التمهيدَ لها بإعداد نفس الرسول ﷺ ونفوس المؤمنين لذلك.

ولا سيّما أنّ التغيير العمليّ لهذا التقليد الجاهليّ بتطبيق حكم الله المنزّل أمْرٌ سيَتحمّلُ الرّسول نَفْسُه عِبْءَ أوّل منفّذٍ له، وهو بذلك يُعرّض نفسه لاتّهامات تمسُّ شخْصَه الكريم صلَواتُ الله وسلامه عليه.

وهذه الاتّهامات تُمكّن الكافرين والمنافقين من توجيه مقالة السوء له، على اعتبار أنّه يفعل في نظرهم وبحَسَب تقاليدهم الجاهلية كبيرةً من الكبائر الّتي يستنكف عن فِعْلِها مشركو العرب، اتّباعاً لتقاليدهم وأعرافهم، وأحكام جاهليّتهم.

ولهذه المقالات التي يتهيّا للأعداء من الكافرين والمنافقين أن يطلقُوها ضغطٌ اجتماعيٌّ يحذَرُه عادةً عظماء الرّجال وقاداتهم، ويخشَوْنَ منه على مكاناتهم الاجتماعيّة، ولا سيما إذا كانت لها ذرائع من شُبَهٍ يُمْكِنُ تفسير سلوكهم معها بأنّه تابع لهوىً شخصيّ ذاتي، ومن أجله قاموا بتغيير أعرافٍ وتقاليدَ وأحكامٍ مستندُها في تصوّر الناس فضيلةٌ إنسانية.

وقد جاء هذا التمهيد في أوّل سورة (الأحزاب) في خطاب الله لنبيّه بقوله عزّ وجلّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾.

إنّ الرّسول المبلّغ عن الله، والّذي يُعلِنُ دواماً تجرُّدَهُ عن الهوَىٰ والمصلحة

الخاصّة، ويشتدُّ على النّاس لتزكية نفوسهم وتطهيرها من أهوائها الجانحة، ومن نزعاتها الّتي تدفعُها إلى مخالفة شريعة الله، لتحقيق شهواتها ومصالحها الخاصّة الدنيوية، لَيَجِدُ أقسى امتحانٍ يتعرّضُ له أنْ يُكلّف القيام بأعمالٍ يمكن أنْ تُستَغلَّ ضدَّ نزاهته وتجرُّدِه، ويُمكِنُ أنْ تُستَغَلَّ لاتهامه بالهوى النفسيّ الخاصّ، وللتّشهير به تجريحاً في بلاغاته عن ربّه، وممارساته في أعماله الخاصّة.

وبالنظر إلى بشريّته صلواتُ الله عليه فقد يدفعه الْحَذَرُ الشديد من أن تُمسَّ قُدسيّةُ رسالَتِه بمطاعن الشبهاتِ، إلى الترددِ أو التمهُّل والتريُّث، في القيام بالتكليف الخاص المحاطِ بشُبُهاتِ الاتّهامات الشخصيّة.

لذلك بدأه الله عزّ وجلّ بقوله له:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

من المعلوم بداهةً في صفات الرسول لدى المؤمنين أنّ التقوى سِمَةُ الرُّسول الدّائمة، فمن صفاته العصمة عن المعصية، بل هو صلوات الله عليه فوق مرتبة المتقين والأبرار، إنّه قمّةُ المحسنين.

لكنَّ التمهيد للتكليف الخطير الذي يخاف فيه الرسول على قدسيّةِ رسالته من مطاعن الكافرين والمنافقين، التي يُلْقون فيها الشبهات الخادعات، يتطلّبُ التحذير الشديد من التردّد أو التريّث، وقمّةُ هذا التحذير بالنّسبة إلى الرسول ﷺ أمْرُهُ بأن يتقيَ الله.

وقد جاء في البيان الإشارة إلى أنّ موضوع التكليف الآتي سوف لا يثير الشبهات حولَه إلّا الكافرون والمنافقون، وهؤلاء ليس من شأن الرسول أن يتأثّر بمطاعنهم، واتّهاماتهم أو بالشبهات التي يستغلّونها، فلا ينبغي أن يكون لضغطهم الاجتماعي أيُّ تأثيرٍ على نفسه.

ولمّا كان مثل هذا التأثير ربّما يولّد حركة التباطؤ في تنفيذ حكم الله، وهذا التباطؤ يُفهم منه الاستجابة للمؤثرات الاجتماعية، وهذه الاستجابة هي في معناها نوعٌ من أنواع الطاعة لأصحابها، ولو مع الكراهة لها، قال الله عزّ وجلّ له:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ :

أي: ولَا تَتأثّرْ بأقوال الكافرين والمنافقين واتّهاماتهم وضغوطهم الظالمة.

ولمّا كانت أحكامُ الله وأقضيتُه القدريَّةُ والتشريعيَّةُ، تستند إلى علمه الشامل لكل معلومٍ موجود أو معدوم، وإلى حكمته العظيمة الّتي يختار بها دون اضطرارٍ ولا إجبارٍ ما هو أحكم وأعدل، انسجاماً مع كمال صفاته عزّ وجلّ ختم الله الآية الأولى من السورة بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ :

أي: إنّ صفتي كمال العلم وكمال الحكمة هما من صفات الله الأزليّة، فهما إذاً أبديتان، لأنّ ما كان أزليّاً فهو أبديٌّ لا محالة، ومن كان عليماً حكيماً فهو لا يختار في أحكامه وأقضيته القدَريّة والتشريعيّة إلّا ما هو الأحكم والأعدل، ولا مُجْبِر له سبحانه، بل أفعاله وأوامره الحكيمة هي من مقتضىٰ كمال صفاته عزّ وجلّ.

هـذا التمهيد الموجّه للرسول بطريقة مباشرة، يتضمّن توجيهاً غير مباشر للمؤمنين، وللآخرين، إذْ فيه إشعار بأنّ الرّسول وهو النبيُّ المجتبىٰ، يقَعُ تحت طائلة العقاب إذا عصىٰ، فكيف يكون حال من دونه، وفيه إعلامٌ بأنّ زواج الرّسول من مطلقة زيدٍ الذي كان قد تبنّاه قبل تحريم التبنّي وإلغائه، تكليفٌ من الله له لا خيرةَ لهُ فيه، ومخالفةُ هذا التكليف تعرّضه للعقوبة.

بعد هذا التمهيد بيّن الله عزّ وجلّ لرسوله الحدود التي يكون بالتزامها متحقّقاً بتقوى الله، فقال تعالى له:

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ :

أي: مهما أمرك ربُّكَ أو نهاك عن شيء بطريق الوحي فأنت مكلّف ان تتّبعه، وإن خالف هواك، وإن تصوّرت أنّه يؤثر على صِدْقِك في رسالتك، وعلى كمال نزاهتك وتجرُّدِك عن الهوى وعن المصالح الشخصيّة، فالله عليم حكيم.

وإشارةً إلى أنّ أيّ إخلالٍ أو تقصيرٍ بهذا الاتّباع المأمور به لا يخفى على الله منه شيء، قال الله له في آخر هذه الآية الثانية من السورة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾.

هـذه الخبرة الربّانيّـة المحيـطةُ بكـلّ مـا يَعْمَـل الخـلائق، هي مِنْ صفـاتِ اللّٰهِ الأزليّـة، فَمَا يجـري من شيءٍ من الخلائق إلّا كـان محاطاً مُـلاحَقاً بـالعلم الـرّبـاني التفصيليّ المتتبِّع لكُلّ الدقائق الظاهرة والباطنة بعد امتحان، ومـا كان أزليّـاً فهو أبـديٌّ لا محالة.

وتلطُّفاً بحال الرسول ﷺ مع قصْدِ التعميم جاء الكلام على صيغة الجمع، فقال تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُون خبيراً﴾ لا على صيغة المفرد: بما تعمَلُ خبيراً.

لكنّ الـرسـول ﷺ قـد يتعرّض في قضيّـة اتّباعـه لمـا يُـوحَىٰ إليـه من ربّـه حـول موضوع إلغاء عادة التبنّي وإلغاء كلّ آثارها وأحكامها الجـاهلية قـولاً وعملاً، لاتّهـامات ومقالات سوء تُوجَّه ضدّه.

وهذا يستدعي في التربية الحكيمة تهيئة نفس الرسول وقلبه وفِكْرِهِ تهيئةً نابعةً من القاعدة الإيمانيّة، وهي في هـذا الموضـع التذكيـرُ بـالتـوكُّلِ على الله، الـذي وجّه لـه التكليف، فهـو الذي يحميـه ويصونـه، ويجعل مـا يخشىٰ منه سبَبـاً في زيادة التمكين لنُبُوّته ورسالته، وكمالِ نزاهتـه، ورفع ذكـره، مع مـا يُصيب ممّا يشتهي لنفسـه وجسده فقال الله عزّ وجلّ لَهُ في الآية الثالثة من السورة:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

* * *

بعد التمهيدات التربويّة من الله عزّ وجلّ لرسـوله محمّـد ﷺ في الآيات الثـلاث الأولَيَـاتِ من سورة (الأحـزاب) انتقلت السـورة إلى بيـان حقائق عقليّـة وعلميّة تكشف فساد مفهومات وأحكام جاهلية شائعة، منها التبنّي ومـا يَسْتَتْبِعُهُ من أحكـام متوارثـة في العادات والتقاليد الجاهليّة.

* * *

المفهومات الجاهليّة التي تعرّض لها النصّ

المفهوم الأوّل: ادّعاء بعض أهل الجاهليّة أنّ له قلبين:

* روي عن ابن عبّاس أنّه قال: كان رجلٌ من قُرَيشٍ يُسَمَّى مِنْ دَهْيِهِ (أي: من دَهائِهِ) ذا القلبين فأنزل الله في شأنه قوله:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾.

* وروي في سبب نزول هذه الآية عن مجاهد، أنّه قال: إنّ رجلاً من بني فِهْرٍ قال: إنّ في جوفي قَلْبَيْنِ أَعْقِلُ بكُلٍّ واحد منهما أفْضَلَ من عقل محمّد ـ وكَذَبَ ـ فأنزل الله هذه الآية.

نعم: كذبَ وخَسِىء.

* وروي عن قتادة وعن عكرمة نحو ما رُوِيَ عن ابْنِ عباس.

وهذا الادّعاء ادّعاءٌ كاذبٌ ليس له في الواقع حقيقة ينطبق عليها وربما كانت فكرةُ وجود أفراد في الناس يمكن أن يكون للواحد منهم قلبان، من الأفكار الجاهلية الشائعة.

المفهوم الثاني: كان أهل الجاهليّة يعتبرون الظهار طلاقاً تحرُم به المرأة، وأصْلُ الظهار في عرفهم أن يقول الزوج لزوجته: أنت عليّ كظهر أُمّي، أي: حرامٌ عليَّ معاشَرتُكِ كحرمةِ أُمّي عليّ.

وهذا كذبٌ مخالفٌ للحقيقة، فالزّوجة لا تكونُ أمّاً، والأمّ لا تكونُ زوجة، وجعل الزّوجة المأذون بمعاشرتها كالأمّ الّتي تَحْرُمُ معاشرتُها هو من قبيل الجمع بين الضدَّيْن اللّذَيْن لا يجتمعان، فهو كذب تنطق به الأفواه فقط، ولا يَجِد في الواقع حقيقةً ينطبق عليها.

والجمع بين الضدّين مرفوضٌ بداهةً في العقول.

المفهومُ الثالث: التّبنّي الذي يجعل بحسب التقاليد والأعراف الجاهليّة من ليس ابْناً في الحقيقة ابْناً بالادّعاء والإلزامِ بعقدٍ اختياريّ إراديّ يُعلِنه المُتَبَنّي ويقبَلُهُ المتبنّى.

وهذا التّبنّي يستَتْبِعُ عندهم جميع الأحكام الخاصة بالابن النّسبي، ومنها الميراث، ومنها تحريمُ زوجةِ هذا الدّعي على من تَبَنّاه تحريماً مؤبّداً، كما لو كان ابْنَهُ

حقيقةً، فلو طلّقها أو مات عنها لم يحلّ في عرفهم لمن تَبنّاهُ أن يتزوّجها، نظراً إلى أنّها بمثابة زوجة ابنهِ النَّسبي.

وهذا عدوانٌ على ما هو من خصائص الله عزّ وجلّ في قضيَّةِ التحليل والتحريم، وكذبٌ على الواقع والحقيقة، وذلك لأنّ تبنّيَ مَنْ ليس ابْناً في الحقيقة لا يزيد على كونه كلاماً كذباً صادراً عن الأفواه فقط، تفاخراً بعملٍ إنسانيّ، لا تعبيراً عن الواقع، بل الواقع بخلافه تماماً.

* الواقع يقول: إنّ الْمُتَبَنّى ليسَ ابْناً في الحقيقة.

* والادّعاء يقول: إنَّهُ ابْنٌ.

هاتان قضيَّتان مُتَناقِضَتان، والتناقُضُ مرفوضٌ في بداهة العقول.

* * *

البيان القرآني

جاء البيان القرآني كاشفاً للحقيقة في هذه القضايا الجاهليّة الثلاث، وذلك في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾.

(١) ما جَعلَ اللّهُ لرجُلٍ من قلبين في جوفه.

(٢) وما جعل أزواجكم اللاّئي تظاهرون مِنْهُنّ أُمّهاتِكُمْ.

(٣) وما جعل أدْعِيَاءَكُمْ أبْناءَكُمْ.

والجامع لهذه القضايا الجاهلية الثلاث أنّها قضايا كاذبات، بينها وبينَ الواقع تناقض، والتناقض مرفوضٌ في العقول بداهةً، لذلكَ فهو لا يستتبع أحكاماً تستند إلى اعتباره مقبولاً غير مرفوض.

فالقضيّة الأولى:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ... ﴿٤﴾ ﴾:

أي: ولا لامرأة من باب أولى، وخُصَّ الرجلُ بالذِّكر، للردّ على من ادّعى ذلك من رجال العرب، أمّا النساء فما ادّعت ذلك واحدة منهنّ.

والسياقُ يدلُّ على أنّ المراد مِنْ نَفْيِ أنْ يكون لأيّ إنسانٍ قلبان، هو نفي الازدواجيّة المتناقضة في ذاتيّة الإنسان العاقلة المريدة، وهذا من جعل الله وخلقه، وفطرته الّتي فطر الناس عليها، ولو شاء غير ذلك لفعل.

فإذْ ليس للإنسان إلاّ قلبٌ واحدٌ يعقل به ويُريدُ به، فإنّه لا يُمْكن لهذا القلب الواحد أن يكون متناقضاً مع نفسه، ولا أنْ يقبلَ المتناقضات، ولا أن يسلّم بها.

إنّه لا يُمكن للقلب الواحد العاقل المريد أنْ يؤمن بالله حقَّ الإيمان، وتكون عناصر هذا الإيمان واضحةً لديه، ثُمّ يؤمنَ مع ذلك بالطاغوت، لأنّ الإيمان الصحيح بالله الواحد الأحد يستلزم استلزاماً عقليّاً الكُفْرَ بالطاغوت.

إنَّ الإيمان بـ «لا إلَه إلاّ الله» لا يمكنُ أن يجتمع في قلبٍ واحد مع الإيمان بإلَه غير الله، لأنّهما قضيتان متناقضتان:

الأولى: تنفي وجود إلَه غير الله.

والثانية: تثبت وجود إلَه غير الله.

وهذا تناقضٌ مرفوضٌ بداهة، والفكرُ الواحد، والقلب الواحد لا يمكن أن يقبل التناقض، تلك فطرةٌ قاهرةٌ فطر الله الخلْقَ عليها.

ولكن قد يخفىٰ التناقض، حين يكونُ بيْنَ لوازم المتناقضات، عندئذٍ فقد ينساق الإنسان مع المتناقضات في الحقيقة جهلاً منه بواقع تناقضها، لا ازدواجاً في هُوِيّتِهِ ذاتِ الشخصيَّة الواحدة.

إنّ من لوازم الإيمان الصحيح الواضح الشامل لكلّ عناصر القاعدة الإيمانيّة في الإسلام، أنْ لا يُوجَد في قلب المؤمن بها تناقض في التقوى.

فالله عزّ وجلّ بموجب هذا الإيمان هو وحْده الأهل لأنْ يُتّقىٰ، فإذا أمر بشيء، أو نهىٰ عن شيء، فإنّ المفروض في المؤمن ذي الإيمان الكامل أنْ يوجّه كلَّ ما لديه من خوف وخشية لتقوى الله، لأنّه هو الذي بيده كُلُّ شيء، وهو القادرُ على كلّ شيء،

والمحاذير الأخرى التي تخضع لسُنَن الله في كونه لا يصحُّ أن تأخذ حظّاً من الخوف والخشية مناقضاً لما يجب أن يكون لله وحده.

وهُنا نقول: إنّ ملاحظة سُنن الله فيما خلَق وذرأ وبرأ، ومنْها سُنَنُه في المجتمع البشري، قد يكون فيها مخاوف تستدعي من الإنسان أن يخافها ويخشاها.

وإنّ أوامر الله ونواهيه وزواجره تستدعي من المؤمن أن يتّقِيَ مخالفتها.

فإذا تناقضت مقتضياتُ تقوى الله، مع مقتضيات الخوف من غير الله، فإنّ مقتضيات تقوىٰ الله هي الأحقُّ بأن تمتصَّ كُلَّ عناصر الخوف والخشية في هذا المجال، وهذا ما تستلزمه الْهُوِيَّةُ الواحدة للقلب الواحد في الإنسان.

لكنّ وُضوحَ رؤية الحقيقة بهذا العمق انتقالاً من اللّوازم إلى أصل عناصر القاعدة الإيمانية قلّما يوجد عند الناس.

وإذْ أمر الله عزّ وجلّ نبيّه في الآية الأولى من سورة (الأحزاب) بأنْ يتّقي اللّهَ وَلا يُطيع الكافرين والمنافقين خوفاً من تشنيعاتهم عليه، وحفاظاً على قُدسيّة رسالته، ونزاهته من الأغراض الشخصيّة الدنيويّة في القضايا الدينيّة، وفي كُلّ تبليغاته عن ربّه، أَرْشَدَهُ إلى الأساس العميق الذي يستلزم أن يُحصر تقواه بالله، ولا يخشىٰ أحداً سواه، مهما كانت الدواعي لهذه الخشية، وذلك بمقتضى وحدة الْهُوِيّة للقلب الواحد الذي لا يقبل بفطرته التناقض.

إنّ هذا البيان يقدم برهاناً عقليّاً وعلميّاً على ضرورة الالتزام بجانب تقوىٰ الله، إذا تعارضت مع الخوف من غيره، وعلى أنّ هذا هو ما تقتضيه الفطرة الّتي فطر الله الناس عليها، إذا كمل الإيمان، ووضحت الرؤية.

وحين يقبل الإنسان التناقض في بعض الأمور فذلك لخفاء التناقض عليه، وعدم وضوح الرؤية له، باعتباره من لوازم المتناقضات.

وكثيراً ما يَخْفَىٰ التناقُضُ على الناس بين لوازم المتناقضات، ولو وضحت لهم الرؤية تماماً لرفضُوا التناقُضَ ومَا قَبلوه.

وإذا قال قائل: إنّ هذه المعانيَ العميقة الّتي دلّ عليها النّصُّ قلَّ مَنْ يفهمها من الناس.

فإنّنا نَقُول له: إنّ الخطاب في هذه الآيات للرسول محمّد صلوات اللّهِ عليه ومن كان مِثْلَه كفَتْه الإشارات والتلميحات الضّمنيّة، والموجزات اللّفظية، وإنْ كانت خفيَّةً عميقةَ الْمُدْرَكِ، يصعُبُ على أكثر الناس إدراكُها.

وهٰذا من أسرار القرآن وبدائعه وروائعه.

* * *

القضيّة الثانية:

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ . . . ﴿٤﴾﴾:

أي: كما أن أزواجكم اللائي لا يصحّ في حكم الله أن يَكُنَّ أمّهاتكم اللائي ولدنكم فلا يجوز لأحد أن يتزوّج بأمّه، ما جعل الله أزواجكم إذا ظاهرتم منهنّ فقال قائل لزوجته: أنتِ عليّ كظهر أمّي ــ أي: حرام عليّ كرحمة أُمّي عليّ ــ ما جعلهنّ أُمّهاتِكُم لقولكم ذلك بأفواهكم، ولا جعلهنّ في التحريم مثل حرمة أمّهاتكم.

فالزوجة ليست أُمّاً في الحقيقة، ولا تكونُ في التحريم مثل الأمّ إذا ظاهر زوجها منها.

ومرجع هذا أيضاً من الناحية العلميّة والشرعيّة إلى التضادّ بين حقيقتين:

الأولى: الزوجة الّتي ليست أمّاً في الواقع لا تكون بالقول أُمّاً (الزوجة ليست أُمّاً).

الثانية: الأمُّ لا يصح في حكم الشرع أن تكون زوجة (الأم ليست زوجة).

فكيف يجمع المظاهر من زوجته بين حقيقتين متضادّتين، زوجتي ليست أمي، زوجتي أمي، لمجرد كلام يقولُه بِفيه، وهو لا أساس له في الواقع ولا في حكم الشرع.

وقد أوجب الله على من يظاهر من زوجته الكفّارة عقوبة له، إذْ حرّم على نفسه ما أحلّ الله له. والكفارةُ هي: تحرير رقَبَةٍ من قبل أن يتماسّا، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يَتماسّا، فمن لم يستطع فإطعامُ ستين مسكيناً.

وقد أنزل الله حكم هذه الكفارة في أوّل سورة (المجادلة) التي نزلت بَعْدَ أربعَ عشرة سورة من إنزال سورة (الأحزاب).

* * *

القضيّة الثالثة:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ... ﴿٤﴾﴾:

الدَّعِيُّ: المتَبَنّى الذي تبنّاهُ رجلٌ فدَعاهُ ابْنَهُ، وهو ليس بابْنِهِ في الحقيقة.

والدَّعِيُّ: أيضاً المنسوبُ إلى غير أبيه، والجمع أدعياء.

أي: وما جعل الله أدعياءَكُم ـ الذين تَتَبَنَّونَهُم وهم ليسوا بأبنائكم نسباً ـ أبناءَكم، ولا لَهُمْ أحكامُ أبنائكم فيما اصطفى لكم من الدِّين.

فإذا قال قائلكم لمن ليس ابنَهُ نسباً: أنتَ ابني ترثني وأرِثُك، فإنّ إنْشاءَهُ لعَقْد التَّبَنّي هذا لاغٍ وباطل، ولا يغيّر من الحقيقة شيئاً. فالواقع بخلاف ذلك، إنّ الإرادة القدريّة لم تجعله ابْنَهُ نَسَباً، بل جعلته نسْلَ شخصٍ آخر، كذلك إرادة الله التشريعيّة لم تَجْعلْه ابْنَه حُكْماً إذا تَبَنّاه، لأنّ التبنّي ولوازمه على خلاف مقتضيات الحكمة الرّبانية.

ومرجع هذه القضيّة أيضاً التّضادُّ بين حقيقتين:

الأولى: من ليس ابناً في النّسب بمقتضى الأدلة المثبتة للنسب، لا يصحّ في حكم الشرع أن يُلحَق بغير أبيه، على أيّة صورة من صُور الإلحاق النَّسبي، ومن ذلك عقْدُ التّبنّي، فلا أثر للتبنّي لا في النّسَبِ ولا في الحكم الشرعي.

الثانية: التّبنّي يتضمّنُ إثبات حقوق البُنُوّةِ لمنْ ليس ابْناً في النسب، فيكون المتبنَّى شريكاً في الميراث كالابن، إلى غير ذلك من أحكام، وهو يتضمّن إثباتَ شيء، مضادّ للواقع.

وقد جاءت هذه القضيّة الثالثة تمهيداً لما سيأتي في السورة من تكليف الرسول ﷺ أن يتزوّج بنت عمته: «زينب بنت جحش» التي كان قد زَوّجها على كراهية منها «زَيْد بن حارثة» الذي كان عبداً أهدته إيّاه خديجةُ زوجتُه رضي الله عنها، ثم

أعتقه الرسول وتبنّاه قبْلَ أن ينزل في الدين إلغاءُ حكم التبنّي، فلمّا قضى زيدٌ مِنْها وطَراً طَلَّقَها، وأمَرَ الله رسوله بأن يتزوَّجها، تأكيداً عملياً لإلغاء عادة التبنّي الجاهلية، التي نزل بإلغائها القرآن.

والفاصل بين هذا التمهيد وبين التكليف الآتي يُناسب الفاصل الزمنيّ الذي كان بين الأمرين.

* روى البخاريّ بسنده عن عبد الله بن عمر قال: إنّ زَيْدَ بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كُنّا ندعُوهُ إلاّ زيدَ بْنَ مُحمّد، حتّى نَزَلَ القرآن: [ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ].

(الحديث رقم (٤٧٨٢) في فتح الباري)

* وأخرج ابنُ أبي حاتم عن السُّدّي قال: «بلَغَنا أنّ هذه الآية: ﴿أي: وتُخْفي في نَفْسِكَ ما اللَّهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النّاس واللَّهُ أحقُّ أن تَخْشَاهُ﴾ نزلت في زينب بنت جَحْشٍ، وكانت أمُّها أُمَيْمَة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ أراد أن يُزَوِّجها زَيْدَ بْنَ حارثة مولاه، فكَرِهَتْ ذلك، ثُمّ إنّها رَضِيَتْ بما صنع رسول الله ﷺ فزوّجها إيّاهُ.

ثم أعْلَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ نبيَّهُ ﷺ بَعْدُ أنّها من أزواجه، فكان يستحي أنْ يأمُرَ بطلاقها، وكان لا يَزَال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس (أي: خصام وخلاف وشجار بين الأزواج، وهو بسبب ترفُّع زينب على زيد الّذي كان عَبْداً) فأمره رسول الله ﷺ أن يُمْسِكَ عليه زوجَهُ وأنْ يتّقِيَ الله، وكان يخشَى الناس أن يعيبوهُ عليه، ويقولوا: تزوّجَ امرأةَ ابْنِه، وكان قد تبنَّى زيداً»[1].

* وروى عبد الرزّاق عن معمر عن قتادة قال: «جاء زَيْدُ بنُ حارثة فقال: يا رسول الله، إنّ زينب اشتدّ عليَّ لسانُها، وأنا أُريدُ أن أُطَلِّقَها، فقال له: اتّقِ الله وأَمْسِكْ عليك زوجَكَ، قال: والنبيُّ ﷺ يُحِبُّ أن يُطلِّقها ويَخْشَى قَالَةَ النّاس»[2].

* * *

(١) انظر فتح الباري، الجزء /٨/ الصفحة (٥٢٣).

(٢) انظر فتح الباري، الجزء /٨/ الصفحة (٥٢٤).

بعد بيان الحقّ والسبيل الأقوم حول القضايا الجاهلية الثلاث، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

أي: ذلك القولُ الذي تقولونه في القضايا الثلاث قاصر على كونه قولاً صادراً عنكم تملؤون به أفواهكم فقط، ولا يطابقُ من الحقّ شيئاً، ولا يوافق حكماً شرعيّاً منزّلاً من عند الله.

فهو منحصر في كونه كلاماً كاذباً، أو عُدْواناً على حقّ الله فيما هو من خصائص الألوهيّة، لما في بعض هذه القضايا من تحريم ما لم يحرّمه الله، وترتيب حُقُوقٍ لم يقضِ بها اللّهُ عزّ وجلّ.

وقد دلّ على القصْر تعريف طرفي الجملة الخبريّة: [ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بأفواهكم]:

[ذٰلِكُمْ]: مبتدأ، وهو معرفة، لأنّه اسم إشارة، أشير به إلى كلامٍ معيّن معروف سبق بيانه.

[قَوْلُكُم]: خبر، وهو معرفة، لإضافة القول إلى ضمير المخاطب الذي هو معرفة جليّة.

[بأفواهكم]: قيدٌ دلّ على أنّه ليس قولاً معتبراً، إذ هو مجرّد قول بالفَمِ فقط، ولو مَلأْتُمْ بِهِ فراغ أفواهكم.

* * *

ولمّا كانت القضايا الجاهلية الثلاث بمجموعها تشتمل على نوعين:

النوع الأول: كلامٌ يتحدّث عن الواقع حديثاً كذباً باطلاً.

النوع الثاني: كلامٌ ينشىء أحكاماً تشريعيّةً جاهليةً تجانب سبيل الهدى، وما أنزل الله بها من سلطان.

قال الله عزّ وجلّ عقب بيانها: وبيان كلمته حولها:

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾.

أي: فهو سبحانه يقول الحقّ بالنسبة إلى الواقع والحقيقة.

وهو يَهْدِي السبيل الأقوم الأحقّ بأن يكون هو السبيل لا غيره بالنسبة إلى الكلمة التشريعيّة.

(١) ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾:

قول حقٌّ مطابق للواقع تماماً.

(٢) ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾:

قول حقٌّ مطابق للواقع من الناحية المادّية الواقعيّة، وهو قول يهدي السبيل الأقوم من الناحية التشريعية التي قد تعتمد على أقوال الناس والتزاماتهم، كالنُذور، وعقود الزواج، وكلمة الطلاق، وسائر عقود التمليك والتوكيل وغير ذلك.

لكن السبيل الأحكم والأقوم في كلمة الظهار أن لا تكون محرّمة للزوجات اللائي أباحهنّ الله لأزواجهنّ، فمن قال هذه الكلمة عوقب بالكفّارة، حتّى لا يقولها مرّةً أُخرى.

(٣) ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾:

قول حقٌّ مطابقٌ للواقع تماماً من الناحية المادية الواقعية. وهو قول يهدي السبيل الأقوم والأحكم من الناحية التشريعيّة.

فالسبيل الأقوم يقضي بأن لا يؤسِّس عَقْدُ التبنّي حقوقاً واحكاماً تشريعية، هي في الأصل للأبناء من النسب.

إذاً فعَقْدُ التَّبنّي امرٌ لغْوٌ لا أثر له في الإسلام.

* * *

ثُمَّ بَيَّنَ الله عز وجلّ الحكمة منْ إلغاء عادة التَّبنّي الجاهليّة وأحكامها، في حكم الإسلام، وبيَّنَ المنهجَ الأقْوَمَ في معاملة من نُريدُ أنْ نَعْطِفَ عليه بـالتَّبنّي، وبيَّن أحكامَ الْخطأ والْعمْدِ في قضيَّةِ الانتماء النَّسبيِّ، فقال عزّ وجلّ:

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ

﴿ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾:

أي: انسُبُوا الأبناء إلى آبائهم الّذِينَ خرجوا من أصلابهم، بحسب ما يظهر لكُمْ في الدلائل الإنسانية، ولاّ تنسُبُوهُمْ إلى غير آبائهم بالادّعاء والتبنّي.

﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾:

أي: نسبةُ الأبناء إلى آبائهم النَّسَبِيّينَ أعدلُ عند الله من نسبتهم إلى من يعطف عليهم فَيَتَبَنَّاهُمْ.

وقال تعالى: ﴿أَقْسَط﴾: اي: أكثر قِسْطاً، وإشعاراً بأنّ دافع التبنّي في الأصل قد يكون دافعاً إنسانيّاً نبيلاً، فقد يكونُ رحْمةً بالمتبنَّى، أو تشريفاً له وتكريماً، وقد يكون ستراً لحاله إذا كان مجهول النّسب كاللُّقَطاء، وكالصِّغار الذين يُسْرَقُون من أهليهم، أو يؤسرون ويُسْتَرَقُّون ظلماً وعدواناً.

فالدافع له قد يكون الرغبة بتحقيق عدالة اجتماعيّة تُعوِّض الْمُتَبَنَّى عمّا فقده.

لكنّ التّبنّي قد يتولّد عنه مشكلاتٌ اجتماعيّة، ومنافاة لقواعد الحقّ والعدل، أكثر من العدالة الاجتماعيّة التي قد تتحقّق به.

فالتبنّي يجعل المتبنَّى وارثاً موروثاً كالابن، وهنا يأتي الوارثون من النسب فتثور في نفوسهم اعتراضاتٌ وأحقاد، ويحاولون بكل الوسائل إلغاء عقد التبنّي، لئلاّ يشاركهم في حقوقهم غريبٌ عن أسرتهم.

والتبنّي يجعل قسماً من النساء اللائي يجوز الزواج منهنّ محرّماتٍ لمجرّد كلمة التّبنّي، فتصير الغريبات بعقد التبنّي بنات وأخوات وعمّات وخالات ونحو ذلك، وهنَّ لَسْنَ كذلك.

إلى غير ذلك من مشكلات.

ولدى الموازنة بين رغبات العدالة الاجتماعية التي قد يحقّقها التبنّي، والحقوق التي يهضمها التّبنّي، وأنواع الظلم التي قد يَجْلُبها، والأحكام المنافية للحكمة التي

يستلزمها من تحليل وتحريم، نلاحظ أنّ نسبة الأبناء إلى آبائهم النسبيّين أقسط وأكثر عدلاً، وأعظم حكمة، وهو ما بيّنه الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ... ۝٥﴾.

أمّا مشكلة مجهولي النّسب الذين لا يُعلم آباؤهم من المسلمين، وهم في المجتمع الإسلامي قليلون نادرون، فالعطف عليهم يكون بإعلان أخوّتهم الإسلامية، فإذا نُسِبَ أو انْتَسَبَ سواءٌ أكان حُرّاً أو عبْداً، فهو أخو بني فلان الذين جعلوه أخاهم في الدّين، من ذوي الأنْساب الظاهرة المعروفة، وهذه الأخوّة تدخُلُ ضمنَ الأخوة الإيمانيّة، ولا تستلزم أحكاماً خاصّةً ماليّةً ولا غيرها، لأنها أُخوّةٌ في الدين فقط لا أُخُوّةٌ في النّسب.

وإذا كان رقيقاً وأعتق فهو مولى من أعتقه.

وبياناً لذلك قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ... ۝٥﴾.

لكنَّ الذين نَنْسُبُهُم إلى آبائهم بحسب ما يظهر لنا من الأدلة والأمارات وانتماءات الناس، قد لا يكونون كذلك في واقع الأمر، فهل نحن مكلّفون أن لا نَنْسُبَ الناس إلى آبائهم إلاّ إذا كنّا على يقين من ذلك؟

وجاء الجواب القرآني على هذا التساؤل بقول الله تعالى:

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ... ۝٥﴾:

أي: في نسبة الأبناء إلى آبائهم بحسب ما ظهر لكم من الأدلة والأمارات وانتماءات الناس، فلستم مكلّفين أن تتبُعوا اليقين العلميّ في هذا الأمر، والخطأ في هذا لا جُناح فيه.

أمّا التعمُّد الإرادي في نسبة الإنسان إلى غير أبيه فهو محل المسؤولية الدينيّة، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ... ۝٥﴾:

أي: ما تعمّدت قلوبُكُمْ تعمُّداً إرادياً من نسبة إنسان إلى غير أبيه، وأنتم تعلمون أنّه ليس أباه، ففي هذه الحالة يكون عليكم جُناحٌ في هذه النسبة، وأنتم بها آثمون تشهدون شهادة زور، وأنتم عالمون بأنّها كذب وزور.

ومن رحمة الله وفضله أنّه يفتح لعباده باب غفرانه ورحمته، ليستغفروه ممّا ارتكبُوه من آثام بَعْدَ بيانِ أحكام شريعته لهم، أمّا مواقع الإثم فهي الّتي من سقط فيها عصَىٰ واستحقّ المؤاخذة والعقاب، فقال الله عزّ وجلّ في ختام الآية مبيّناً لهم أنّه غفور رحيم بعباده دواماً:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾.

* * *

وإذْ قد تضمّنتِ الآيات السابقات من السورة إلغاء التّبنّي وأحكامه الجاهلية، ومنها التوارث على أساسه، تمهيداً لتكليف الرسول ﷺ أن يُطَبّق إلغاءه عمليّاً بنفسه، في أن يتزوّج «زينب بنت جحش» ابنة عمته، وهي مطلّقة «زيد بن حارثة» الذي كان يقال له بمقتضىٰ تَبَنِّيه له: «زيد بن محمد».

ولمّا كان في أصل قصّة تزويج الرسول زينب من زَيْد بن حارثة نوعٌ من الولاية الإلزاميّة بأن يتزوّجا، فقد جاءت الآية السادسة من السورة تعالج الإجابة على تساؤلات تدور حول ولاية الرسول ﷺ، وحول حقّ التوارث، والمخرج لمن أراد أن يُحْسِنَ لوليّه من غير أولي الأرحام، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ... ۝٦﴾:

أي: فإذا تولّىٰ لهم أمراً، أو عقد لهم عَقْداً، أو كلّفَهُمْ عملاً، فهو نافذٌ عليهم بحكم ولايته الإلزامية، ومن ذلك تزويجه «زينب بنت جحش» من «زيد بن حارثة» وهي لهذا الزواج كارهة.

ولمّا كان الرسول أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، فهو بمثابة الأب المجبر، وعليه فأزواجه بمثابة الأمهات لهم، فلا يجوز لأحد أن يتزوّج بإحداهنّ من بَعْدِه، مع كَوْنهنّ مأموراتٍ بالتّسَتُّرِ منهم، فقال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ... ۝٦﴾.

هذه قضيّة جرّتها المناسبة وهي ليست من أصل الموضوع، وتعتبر أمثال هذه الإضافة من الطرائف الفكريّة في البيان، ومن روائع الأدب.

وإذْ قد تمّ إلغاء التبنّي وَمَا يستتبعُ من أحكام، ومنها التوارث، فلا بُدَّ من التنبيه على من هو أحقُّ بالتوارث، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ . . . ﴿٦﴾﴾.

فكان في هذا بيانٌ لإلْغاء التوارث على أساس التّبنّي الذي جاء في السباق، وإشعاراً بإلغاء التوارث على أساس الهجرة والمؤاخاة الذي كان بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة حتّى نزلت آيةُ المواريث.

ولَكنْ ما المخرجُ لمن أراد أن يصنع لِوَلِيِّهِ أو صديقه أو أخٍ في الإسلام معروفاً؟

وجواباً على ذلك قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

أي: إنّ باستطاعتكم أنْ تَفعَلُوا إلى أوليائِكُم معروفاً بالوصية، أو بالعطاء وأنتم أحياء، فهو المخرج، ولا داعي لجعل ذلك ضمن حقوق التوارث.

* * *

وبعد ذلك ذكّر الله عزّ وجلّ رسوله محمّداً ﷺ بأنّ التّبليغ، واتّباع ما يُوحى إليه من ربّه، والتزام كمال التقوى، وعدمَ طاعَةِ الكافرين والمنافقين، القضايا التي بدأت بها السورة، هي ممّا أخذ الله عليه ميثاقَ النّبيّين، وجعَلَهُ ميثاقاً غليظاً على أُولي العزم من الرُّسُل، محمّد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

وظاهر أنّ ميثاق التبليغ بصدقٍ يستلزم تقديم شهاداتهم يوم الدّين بأنّهم قد بلّغوا الأمانة وأدّوا الرّسالة.

إنّهم لا شكّ صادقون، وهم سيُسألون يوم الدين عمّا بلّغوه لأقوامهم، وهو ما أمرهم الله بتبليغه بصدقٍ وأمانة، فيُقدّمون شهاداتهم، وبياناً لذلك قال الله عزّ وجلّ:

﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ... ⁽٨⁾﴾.

فوصفهم بكونهم صادقين، ووصف ما بلّغوه بأنّه صِدْق، فالسؤال للشهادة، التي هي من حجج الإدانة للذين تبلّغوا ولم يستجيبوا.

وبعد هذه الشهادة، ومحاسبة أهل الكفر على رفضهم بلاغات رسُلِ ربّهم، يصدُر الحكم على الذين كفروا بأنهم أصحاب النار هم فيها يعذّبون عذاباً أليماً، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ⁽٨⁾﴾.

فاكتفى بذكر الإعداد عن ذكر تنفيذ الجزاء، كما اكتفى بالسؤال عن ذكر المحاسبة لأن الأشياء تدلُّ باللزوم الذهني على المقترنات بها، ولواحقها في سلسلة الموضوع.

* * *

وقضَتْ حكمةُ الله عزّ وجلّ مع إنْزال التشريع بإبطال عادة التبَنّي الجاهلية، وإلغاء الأحكام المترتّبة عليه، كالميراث، وتحريم الزواج من مطلّقة المتبنّىٰ، أن يقضي بتزويج «زينبَ بنت جحش» من «زيد بن حارثة» الذي كان عبْداً للرّسول ثُمّ أعتقه وتبنّاه، ليُشعِر بإلغاء الفوارق الطبقية في مفهومات الإسلام، فهذا الرسول يزوّج ابنة عمته لمولاه وهي قرشية عريقة، وقضىٰ الله أنْ لا يتِمّ وِفاقٌ بينهما حتىٰ طلّقها زيد، وأعلَمَ اللّهُ رسوله بأنها ستكون إحدى زوجاته، وتهيّبَ الرّسول ﷺ من مواجهة الناس بحدَثٍ يُباشِرُه بنفسه، مُخالفٍ لأعراف القوم في الجاهلية وصَدْرِ الإسلام، ومستنكرٍ عند العرب بحسب تقاليدهم، ومن شأنه أنْ يُثِيرَ مَقالاتٍ سُوءٍ تَمَسُّ نزاهته، من جهة الكافرين والمنافقين، فحاول الرسول ﷺ تَهْدِئَةَ نفس «زيد بن حارثة» تُجاهَ تَعالِي زينب عليه، حين شَكَىٰ تصرُّفاتها نَحْوه، وقال له: أمْسِكْ عليك زوجك، مع علمه بأنّ قضاء الله نافذٌ لا محالة.

لكنَّ الخلاف اشتدَّ بين زيد وزينب حتّى طلّقها، عندئذ أمر الله رسوله بأن يتزوّج زينب، فأطاع لأمر الله عزّ وجلّ.

ولمَّا تمّ الأمْرُ أخذ المنافقون يقولون: إنّ مُحمَّداً يُحرِّم نِكاحَ نساء الأولاد، وقد تزوّج امرأة ابنه زيد.

قال ابن الأثير: «وتكلَّمَ المنافقون في ذلك، وقالوا: إنَّ محمّداً يُحَرِّم نكاح نِسَاءِ الأولاد، وقد تزوّج امرأةَ ابنه زيد، لأنّه كان يقال له: زَيْدُ بنُ محمد»(١).

وإذْ قد رُوِيَ أنَّ المنافقين وجَّهُوا هذا الانتقاد للرسول ﷺ، فمِنَ المرَجّح أنْ يكونَ الكافرون الصرحاء قد رَدَّدُوا مثل هذه المقالة، وقد يدُلُّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ له في صدر السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾:

وقول الله عزّ وجَلَّ له بعد عرض البيانات المتعلّقة بزواجه من زينب بنت جَحْش في السورة نفسها أيضاً:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

فأضاف في التوجيه الثاني إرشادَهُ بأن يدعَ أذاهم، أي: بأن يتركه ويُهْمِلَهُ، ولا يَشْغَل نفسَه بردِّه وبالانتصار لكرامته، فمن شأن هذا التَّرْكِ والإهمال للأذى أن تنطفىء ناره، أو يذوب جليده وينساح في الأرض.

وصاحب الأذى يجد نفسه قميئاً أمام من سدَّد له سهام أقواله وتشنيعاته.

● ● ●

(١) انظر أسد الغابة، ج/٧ ص ١٢٦.

النصّ الثالث عشر

من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) رابع سورة مدنية
الآيـات مـن (٣٦ ـ ٤٠) والآية (٤٨)
حـول موقف المنافقين مـن زواج الرسـول مطـلقة
«زيد بن حارثة» الذي كان قد أعتقه وتبنّاه

* قال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

* وقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

* * *

مَا في النّصّ مِن القراءات المتواترات (من الفرش)

* قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف وهشام: [أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ] بياء التذكير.

* وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ] بتاء التأنيث.

وهما وجهان نحويّان في استعمالات العرب لأن لفظ [الْخِيَرَة] مجازيّ التأنيث.

* * *

(١)
المعنى العام للنص

ذكر الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ لقطات من قصّة تزويج «زينبَ بنت جحش» من «زيد بن حارثة» أوّلاً، ثم تطليق زيدٍ لها، وتكليف الله رسولَه بأن يتزوّجها، بُغْيَةَ إلغاء عرف التبنّي الذي كان عند أهل الجاهلية، وبقي في صدر الإسلام حتى نزل إلغاؤه نصّاً، وبصورة عمليّة ينفّذُها الرسول بنفسه. وذكر فيه أيضاً بيانات تتعلّق بهذا الموضوع.

(١) **فجاء في اللّقطة الأولى**: الإشارة إلى أن تزويج الرسول ﷺ «زينب» من «زيد» قد كان بتوجيه من ربّه. وجاءت فيها الإشارة الضمنيّة إلى أنّه حصل تمنُّعٌ أوّل الأمر (أي: من زينب، لتعاليها بطبقتها الاجتماعية) حتّىٰ علمتْ أنّه أمْرٌ واجبُ الطاعة، فأطاعت وهي كارهة، لأنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة خيارٌ في أمرهم ولو كان من خصوصياتهم الشخصية، إذا قضىٰ الله ورسولُه فيه أمراً.

(٢) **وجاء في اللّقطة الثانية**: بيانٌ عمّا كان من الرسول محمّد ﷺ حين شكا «زيد بن حارثة» للرسول عدم صبره على تَرَفُّع زينب عليه، وأنه يريد طلاقها، فقال له الرسول: «أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتّقِ الله» مع أنّ الله عزّ وجلّ كان قد أعلمه بأنّها ستكونُ إحدى زوجاته، إلاّ أنّه خَشِي من قَالَةِ السوء أن تُوجَّهَ له من أجل أنّه إذا تزوّجها بعد طلاق زَيْدٍ لها قال الناس: تزوج محمّد زوجة ابنه (أي: من كان قد تبنّاه) لأنّهم كانُوا في الجاهلية يرون أنّ المتبنّىٰ بمثابة الابن تماماً.

فوجّه الله لرسوله عبارات التشجيع على تجاوز خشية الناس، وعدم الاكتراث لها، لدى تنفيذه حكماً دينيّاً من أحكام الله عزّ وجلّ، وإن كان يتعلّقُ بِمَا قَدْ يُقالُ فيه: إنّ له فيه هوى نفسيّاً.

(٣) وجاء في اللّقطة الثالثة: بيانُ طلاق «زيد» لـ «زينب» وتزويج الله رسوله منها، ليكون أوّل مُنَفِّذٍ بنفسه لإلغاء عرف التَّبنّي وأحكامه وما يستتبعه، ويكون بذلك قُدْوَةً للمؤمنين، فلا يَجِدُ بعد ذلك أحدٌ منهم حرجاً في أن يتزوّج مَنْ كانت زوجَةَ مُتَبَنَّاهُ على عرف أهل الجاهلية.

(٤) وأبان الله عزّ وجلّ للمؤمنين وللناس أجمعين: أنّ النبيّ بشرٌ من البشر في أحكام الدين حلاله وحرامه، وهو فيها كسائر الناس، فما أباحه الله للجميع ولم يحرّمه عليه بالخصوص، فلا حرج عليه فيه.

وأبان أنّ النبيّ محمّداً ﷺ في هذا شأنه كشأن سائر النبيين من قبله:

* فهم يشاركون الناس في فِطَرِهم، وفي تناول المباحات التي أباحها الله من أكل وشرب وزواج وسائر لذات الحياة.

* وهم جميعاً يُبَلِّغُونَ رِسالات الله، فما أمرهم الله بقوله قالوه، ومَا أمرهم بفعله فعلوه، ليكونوا أسوةً لمن بعدهم من المؤمنين، فَدَلَّ بهذا على أنّ فعلَ الرسول تبليغٌ عمليٌّ لرسالة الله.

* وهم جميعاً يخشون الله في تبليغ رسالاته، ولا يخشَوْنَ أحداً غيره ويتوكّلون عليه، مكتفين بأنّه حسيب، أي: كافٍ لمن توكّلَ عليه، ومحاسبٌ لمن يَتعرَّضُ لهم بالأذى، أي: ومجازٍ، فالحساب يستتبع الجزاء.

(٥) وأبانَ الله للناس: أنّ مقولة التبنّي أو عَقْد التَّبَنّي لا يُؤثر في تغيير الحقيقة شيئاً، فزيد هو ابنُ حارثة، وليس ابنَ مُحمّد كما تُطلقون استناداً إلى تبنِّيه له فيما سبق، لقد تمّ إلغاء عرف التبني.

ومحمّد لم يُبْقِ الله له ولداً ذكراً يَبْلُغُ مبلَغَ الرّجال، فما كان مُحمّدٌ أبَا أَحَدٍ مِن رِجالكُم.

وأشار الله عزَّ وجلَّ إلى الحكمة من ذلك ضمناً، فقال تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾:

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمّا شاء أن يختم النُّبُوّاتِ التي جعلها في سلالة إبراهيم عليه السلام من بعده، أوقف الذريّات الذكور عند محمّد بن عبد الله في عرق النبوّة الموصول بشطر سلالة إسماعيل بن إبراهيم، كما أوقفها في عرق النبوة الموصول بشطر سلالة إسحٰق بن إبراهيم، عند يَحْيىٰ وعيسىٰ عليهم السلام.

نُدْرِكُ هٰذا من قوله تعالى: ﴿وكانَ الله بكلّ شيءٍ عليماً﴾ بعد قوله: ﴿وخَاتَمَ النبيّين﴾ مع قوله تعالى بشأن إبراهيم عليه السلام في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ . . . ﴿٢٧﴾﴾.

(٦) وتعرُّضَ الرَّسُولُ ﷺ للأذىٰ من قِبَلِ الْكَافرينَ والْمُنافقين من أجْلِ تنفيذِه عَمَلِيّاً إلغاء حُكم التَّبَنّي، فَثَبَّتَه اللّهُ، فأكّد له أن لا يطيع الكافرين والمنافقين، ونَصَحَهُ بأن يَدَعَ أذاهم، فيُعْرِضَ عنه ولا يُقابله بشيء، وأن يتوكّل على الله.

* فعدمُ مقابلة الأذىٰ بمثله من شأنه نسيانُ أصل الموضوع في المجتمع البشري.

* ومن توكّل على الله كفاه الله، فصرف عنه كلَّ همٍّ وغمٍّ وأذىٰ، وردّ عنه كيد أعدائه وخصومه.

* * *

(٢)
المفردات اللّغويّة للنصّ

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾:

هذا الاستعمال ونظراؤه في القرآن، مما سُلّط فيه النفيُ على جملة مصدّرة بفعل

الكون يدلّ على نفي اجتماع خبر كان واسمها دواماً، نظراً إلى أنهما متنافيان، والمتنافيان لا يجتمعان.

فمعنى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

لا يجتمع بصورة دائمة موتُ نفسٍ ما وإذْنُ اللهِ بموتها غير موجود، فموتُ أيّة نفس مع عدم إذن الله به، أمران متنافيان لا يجتمعان.

ومعنى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

لا يجتمع بصورة دائمة اصطفاء اللهِ لبشرٍ بالكتاب والحكم والنُّبوّة، وأمرُه للنّاس بأن يعبدوه من دون الله، إذْ هُما أمران مُتَنافِيان لا يجتمعان.

وحين يأتي في الكلام اسمُ كانَ او خبرها وَصْفاً مشتقّاً أو بمعناه، ورأينا أنّ الاجتماع المنفيّ غيْرُ متحقّقٍ دواماً في الأفراد، فالمرادُ من الوصف المشتقّ كمالُه، أو كمال مرتبة من مراتبه، أو أنّ هذا الوصف المشتقّ غير موجودٍ في الحقيقة.

فمعنى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

لا يجتمع بصورة دائمة كمال الإيمان وقتْلُ إنسانٍ مُؤْمنٍ عَمْداً.

ومعنَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

لا تَجْتَمِعُ النُّبوَّةُ والغُلُول بحال من الأحوال، فإنْ وُجِدَتِ النُّبُوَّةُ فلا غُلول، وإنْ وُجِدَ الغُلُولُ فَلاَ نُبوّة.

وبناءً على هذا البيان التحليليّ أقول في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

المعنى: لا يجتمع بصُورَةٍ دائِمَةٍ كمالُ مرتَبَةِ التَّقوى، واختيارُ غَيْرِ ما قضاه الله ورَسُوله من أمرٍ تكليفيّ. دلّ على أن المراد كمالُ مرتبة التقوى من مراتب الإيمانِ التّنبيهُ في الآية على أن المخالف عاص.

أمّا ما قضاه الله بأمرٍ تكوينيّ فهو نافذٌ حتماً، ولا خِيرَةَ فيه لأحدٍ أصلاً، مُؤمِنٍ أو كافرٍ.

﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾:

أي: إذا أمضى الله ورسوله أمراً تكليفيّاً، وتمّ إبلاغُهُ لِلْمُكلّف.

أصل الإمضاءِ البَتُّ والإنهاء، ويكونُ بالنسبة إلى الإرادة التكليفيّة، بَتَّ التكليفِ وإنهائِهِ وإعلامِهِ للمكلّف.

الْخِيَرَة: اسمٌ بمعنَى الاختيار والتَّخيُّر، تقول لُغةً: اخْتَارَ الشيءَ وتَخيَّرَهُ إذا انتقاهُ وفضَّله على غيره. وتُطْلَقُ «الْخِيَرَةُ» على ما يُخْتَارُ.

فالمؤمنُ المتَّقِي لله لا يَختارُ لِنَفْسِهِ غَيْرَ ما قضاهُ الله ورسولُهُ من تكليف.

﴿ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾:

أي: فقد خَرَجَ عن صراط الاستقامة على طاعة اللهِ، ودَخلَ في متاهاتِ الضلالِ المبينِ الواضح الذي لا شُبْهَةَ فيه، وقذف بنفسه إلى المعصية واستحقاقِ العقاب والمؤاخذة.

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾:

الْحَرَجُ: الضيقُ والشدَّة، والمَضَايقُ الّتي لا يَسْتَطيعُ السالِكُ النفوذَ مِنْها، والْحَرَجُ: غَيْضَةُ الشَّجرِ الملتفّة التي لا يستطيع الداخل إليها أن ينفُذ فيها، وضِدُّ الحرَجِ في المعنويات الأعمال والتكاليف التي فيها يُسْرٌ وسُهُولَة، وكذلك الْيُسْرُ والسُّهُولة.

ونفي الحرج في الشرعيات يدلُّ على الإباحة، أو رفعِ التحريم والحظر.

﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾:

أدعياء: جَمْعُ «دَعِيّ» وهو هنا الْمُتَبَنَّى، ويأتي بمعنَى المتَّهَمِ في نَسَبِه، وبمعنى المنسوبِ إلى غير أبيه.

﴿وَطَرًا﴾:

الْوَطَرُ: الحاجة التي فيها مأربٌ وَهِمَّةٌ، وجمعه «أوطار» ويُقَالُ: قَضَى مِنْهُ وطره، أي: نال منه بُغْيَته. وجاء التعبير بقضاء الوطر في هذا النّصّ كنايةً عن إنهاء الحاجة لمعاشرة الزوجة بطلاقها، فالطلاقُ عن عزمٍ إراديّ تعبيرٌ عن إنهاء رغبةِ الزوج بزوجته، وأنّه لم يَبْقَ لَهُ وطرٌ لديها.

مُبِيناً: اسم فاعل من: «أَبَانَ» الشيْءُ إذا ظهر واتَّضَحَ من اللازم، ويُستعْمَل الفعل متعدّياً، فتقول: أَبَانَ فلانٌ الشيءَ إذا أوضحه وأظهره، كما يستعملُ «بَانَ» لازماً ومتعدّياً أيضاً مثل «أبان».

* * *

(٣)

ما رُوي في سبب النزول

معظم الروايات تدُلُّ على أنّ النّصّ نزل بشأن تزويج الرسول «زينب بنت جحش» ابنة عَمَّتِهِ، لمولاه «زيد بن حارثة» ثمّ طلاق «زيد» لها وزواج الرسول منها بأمر الله، كما سبق بيانه.

* * *

(٤)

مع النّصّ في التحليل والتدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ... ﴿٣٦﴾﴾.

هذه الجملةُ مَبْدُوءَةٌ بحرف العطف، وقد لا يظْهَرُ في السوابق القريبة ما يُلائم أَنْ تكونَ معطوفةً عليه، لَكِنْ إذا رَجعنا إلى صدر السورة وتركْنَا ما عرضته من أحداث رُوعِيَ في ترتيب ذكرها حِكَمٌ بيانيّة تستدعي تدبُّراً عميقاً، رأينا أنّها معطوفةٌ على ما جاء في الآية السادسة من السورة، وهي:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ... ﴿٦﴾ ﴾.

إذا تدبَّرنا هذه الآية وما جاء فيها، وجدنا من المناسب جداً أن يُعطف عليه:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾... إلى آخر الآية.

ولا يضرّ كونُ الفاصل طويلاً، لأنّ السورة القرآنية هي بمثابة شجرة متشابكة الأغصان، ولأواخِرها صِلَةٌ بأوائلها، وبالعناصر الرئيسة لموضوعها.

والمعنى: ليس من وصف المستكملين شروطَ مَرْتبة التقوى من المؤمنين والمؤمنات إذا أمضى الله ورسوله أمراً تكليفيّاً إلزاميّاً بفعلِ شيءٍ أو ترك شيءٍ أن يكون لَهُم اختيار آخر غير ما أمضى الله ورسوله، أو شيءٌ آخر يختارونه غيرُ ما أمضى الله ورسوله من أمر، وإنْ كانُوا مُمَكَّنين من ذلك بإرادة الله التكوينيّة، لكن تقواهم تمنعهم.

وجاء ذكر الله مع ذكر الرّسول للإشعار بأنّ ما يَعْزِمُ عليه الرسول من أمرٍ ويقضيه مُلْزِماً به، فهو من أمر الله وقضائه؛ إمّا بتكليف من الله وهو مُبلِّغ، أو بإذْنٍ من الله وإمضاءٍ لما قضىٰ به الرّسول، فهو أيضاً من قضاء الله وأمْرِه، وحين لا يكون لِلّٰه في الأمر قضاء، فإنّه يُوقف رسوله عن إمضائه ولا يأذَنُ لَهُ به.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

المعصية: هي مخالفةُ الأمر الإلزامي أو النهي الإلزامي لمستحقّ الطاعة، وبين معصية الله ورسوله تلازم، فمن عصى الله فقد عصىٰ رسوله، ومن عصىٰ الرسول فقد عصى الله، وكذلك فمن أطاع الله فقد أطاع رسوله، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. إذْ كُلُّ مَا يأمُرُ به اللّهُ يأمر به الرسول، وكلّ ما ينهىٰ عنه الله ينهى عنه الرّسول، وكلُّ مَا يأمُرُ به الرسولُ من أمور الدين يأمُرُ به الله، وكلُّ مَا ينْهىٰ عنه الرسول من أمور الدين ينهىٰ عنه الله.

ولمّا كانت معصيةُ اللّهِ ورسوله تُخرِجُ العاصي عن صراط الله المستقيم، الذي

يُوصِلُ من التَزَمه إلى النجاة من عذاب الله، والظفر بثوابه، ولمّا كان الخروج عنه يوقع الخارج في استحقاق عذاب الله، والحرمان من ثوابه، على مِقْدارِ نسبةِ خروجه، فلا بُدَّ أن يكون العاصي لله ورسوله قد ضلّ بعصيانه فابْتعد عن صراطِ النجاة والظُّفر بالثواب، وضلالُه هذا ظاهر واضح جليٌّ لدَىٰ كلّ مؤمنٍ صحيح الإيمان.

وهو أيضاً مُبيِّنٌ كاشفٌ لمَا في نفسه من نقص في الإيمان، أوحبٌّ للعاجلة وإيثارٍ لهَا، أو ضعفٌ في الإرادة أمام مطالب الأهواء والشهوات.

والضلال: هو الضياع، والابتعادُ عن طريق الهدى.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

زيدُ بنُ حارثة هو الذي أنْعَمَ الله عليه عن طريق الاسترقاق حتّى صار لخديجه، فمحمّدٍ ﷺ، ثم أنْعم عليه بالإيمان والإسلام فكان من طليعة الصف الأوّل، ثم صار أحد كبار أصحاب الرسول ﷺ. وأنْعم الرسولُ عليه بـالعِتْقِ، وبالتبنّي قبل إلغائه، فبتزويجه من «أمّ أيمَن» مولاته، فبتزويجه من «زينب بنت جحش» وهي ابنةُ عمته «أميمةَ بنتِ عبد المطلب» فبإعلانِ أنّه حِبُّ رَسُولِ الله بعد إلغاء التبنّي، إلى غير ذلك من إنْعامات جاءت بعد ذلك، وبين ذلك.

لمّا جاء زيد يشكو لرسول الله تَعالَىٰ «زينب» بأسرتها وحسبها ونسبها عليه، ورغبته في طلاقها، وكان قد أُعْلِمَ بأنها ستكونُ إحدىٰ زوجاته بحكم من الله لِتَثْبيت حُكمِ الله بإلغاء التبنّي وكُلّ توابعه، قال الرسول له:

﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾.

ويبدو أنّ زيداً كرَّر شكواه، وكرَّر الرَّسُولُ مقالته هذه له، لذلك ذكَّرهُ الله بما كان يقول لزيد عند متكرِّرات شكواه، فاستعمل الفعل المضارع الذي يدلّ على تكرير الْحَدَث.

أي: واذكُرْ إذْ كُنْتَ تَقُولُ هذا القول، وكان الرسول ﷺ في كُلِّ مَرَّةٍ يُخْفِي في نفسه ما الله مُبْدِيه.

ولو أنَّ الحادثة جَرَتْ مرةً واحدةً لكان البيانُ المطابق يقتضي أن يجيء كما يلي: وإذْ قُلْتَ... وأَخْفَيْتَ.

إذْ: ظرف زمان لما مضى، متعلّقٌ هنا بفعلٍ محذوف تقديره: اذْكُرْ.

ومقالة الرسول لزيدٍ في المرّات اشتملت على إرشادين بنصيحتين:

(١) أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ.

(٢) واتّقِ الله.

* أمّا قوله له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾:

فنلمحُ فيه نَصِيحتَيْنِ:

الأولى: أنْ لاَ يُطلِّقها.

الثانية: أنْ يتحمَّلَ تعاليها عليه.

فالأولَى نأخذُهَا من «أمْسِكْ» أي: لا تُطلِّق، والثانية نأخُذُهـا مِن «عَلَيْكَ» وذلك لأنّ الأصل في الزوجات أنْ يَكُنَّ تَحْتَ أزْواجِهنّ، لاَ فوقهم، لكنّ «زينبَ» لمّا كانت متعاليةً مُتَرَفِّعةً، غير واضِعَةٍ نفسها موضع التَّحْتِيَّة، نَصَحَهُ الرّسول بأن يَصْبِرَ على تعاليها ويتحمَّلها، وإنْ كان مثلُ هذا يشُقُّ على الـرِّجال، لكِنَّ من فَعَلَهُ من أجلِ حُسْنِ المعاشرة الذي أمر الله به كان مأجوراً.

ولا ننسَى أنّ «زينبَ» تزوَّجته طاعةً لله ورسُوله وهي كارهة.

* وأمّا قولُهُ له: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾:

أي: واتّقِ الله بحسن معاشرتها بالمعروف، ولا تَظْلِمْها من أجل نَفْسِها المتعالية الكارهة لهذا الزواج، والراضِيَةِ به امتثالاً.

ومع تذكير الله رسولَهُ بهذه الحادثة ذكّره أيضاً بأنه كان يخفي مع مرّات الشكوى في نفسه أمراً، فقال له: ﴿وتخفي في نفسك ما اللهُ مُبْديه﴾.

أي: لكنّ هذا الأمر الذي تخفيه في نفسك أَمْرُ اللّهُ مُبْدِيه (أي: مظهره وكاشفه) الآن، دَلَّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ في الآية نفسها.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾.

أي: تُخْفِي علمكَ بأنّها ستكونُ زَوْجةً لكَ بأمْرِ الله، وأنّ زيداً سيُطلّقُها لا مَحالة.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

وتقول مع ذلك لزيد: أمْسِكْ عليك زَوْجكَ واتّقِ الله.

وأبان الله لرسوله دافِعَهُ لمقالة النّصح وَإخفاء ما أخفاه في نفسه فقال له:

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾:

أي: توالت عليك في مرّات الشكوى خشيةُ مقالة الناس فيك: إنّ محمّداً ينهى المؤمنين عن الزواج ممّن كُنّ زَوْجَاتِ أبنائهم، وهو الآن يتزوّج مُطَلّقَةَ ابْنِه بالتبنّي، فتقول لزيد: «أمسك عليك زوجَكَ واتّقِ الله» ولا تقولُ له طلّقها، أو افعلْ ما يناسبك، فإن لله قضاءً بأن تكونَ زوجةً لي، لكيلا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم، تَخْشَىٰ مقالةَ الناس، واللّهُ أَحَقُّ أن تخشاه فتسرعَ إلىٰ تنفيذ أَمْرِ الله بجُرْأةٍ وصراحَةٍ، دون اكتراث لما يَعِيب عليك الناس، ما دُمتَ مطيعاً لربّك تسعَىٰ في مرضاته.

بعد ذلك أَدْمَجَ اللّهُ إبداء ما كان يخفيه الرسولُ ضِمْن حكاية طلاق «زيد» لـ «زينب» وتزويج الله زينب رَسُولَ الله، فقال تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾.

جاء التعبير بعبارة «قضَىٰ زيدٌ مِنْها وَطَراً» عن طلاقه لها، لأنّ المطلّقَ عن عزمٍ وتصميم لا عن انفعال طارىء لا يُطلّق إلاّ إذا انقطعت علائق وَطَرِ نفسه بمطلّقتِه، والوطَرُ كما عرفنا: حاجةُ النّفس المتعلّقةُ بما تحتاجُ له.

فدلّ هذا التعبير بإبداعه على عدة قضايا:

الأولى: طلاقُ زيدٍ لزينب.

الثانية: أنّه كان طلاقاً عن إرادة جازمة منه ورغبة ذاتيّة فيه.

الثالثة: أنّ وطَرَهُ النفسيّ الذي كان متعلقاً بها قد انتهى فعلاً، فلم تَعُدْ بالنسبة إليه زوجةَ شهوة ولا مصلحة.

الرابعة: أنّه لم يطلّقها إيثاراً للرسول على نفسه، ولا لأنّه شعر برغبة الرّسول فيها.

وفي هذا دفعٌ لكلّ الأوهام التي يمكن أن تَرِدَ حول هذا الموضوع، والأكاذيب الّتي يختلقُها الوضّاعون.

وقد افترى الوضّاعون قديماً مفتريات على الرسول لم تصحّ سنداً، وتمسّك بها أعداء الإسلام بعد ذلك من مبشرين ومستشرقين، وأضافوا إليها أوهاماً ممّا يَعْرِفُون من سُلُوك عظمائهم ومقدّسيهم، وغلا بعض علمائنا السابقين في نَقْل كلّ ما يقع لهم من روايات فنقلوا السقيم مع السليم، وربما نقلوا الموضوعات، وجعلوها ضمن موسوعاتهم، فاتّخذ منها أعداء الإسلام ذرائع لمحاربة دين الله ورسول الله.

وأبان الله عزَّ وجلَّ حكمة تزويجه زينب لرسوله فقال تعالى:

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾:

أي: قضينا بهذا الزواج وأمَرْنَا به لكي يكونَ الرُّسُولُ فيما يطبّق من أمر الله قُدْوَةً للمؤمنين، فَلَا يَكُونَ على المؤمنين بعد تطبيق الرسول بنفسه لحكم الله حَرَجٌ وَلا تخوّفٌ من مقالة الناس، في تزوّجهم إذا رغبوا من اللّواتي كُنَّ أزْوَاجَ أدعيائهم الذين كانوا قد تَبَنَّوْهُمْ، وفق العرف القديم عند أهل الجاهلية.

والجمع بين اللام التي للتعليل و«كي» التي هي للتعليل أيضاً يفيد توكيد التعليل بالعلّة المذكورة بعدهما مع بيان أهميتها.

ونلاحظ أنّ الجملة القرآنية التعليليّة هذه مختزلةٌ اختزالاً من كلام يدلُّ على الفهم الذي وضح في الشرح. وأقلّ ما يمكن أنْ نبرزه من المطويات للتعبير عن كامل

المعنى بعبارة صريحة واضحة لا محاذيف فيها، أن نقول:

﴿لِكَيْلَا يكونَ﴾ بَعْدَ زواج النّبي من زينب مطلقةِ زيد الذي كان قد تبنّاه ﴿حَرَجٌ فِي﴾ أن يتزوجوا من اللّواتي كُنّ مِنْ ﴿أزواجِ أدْعِيائهم﴾ إذا صِرْن خليّاتٍ من زواج.

بعد ذلك أبان الله عزّ وجلّ أنّهُ إذا قضىٰ الله أمراً أن يكون ولـو من خلال إرادات الناس، فإنّه لا بُدَّ أنْ يتحقق ويكونَ أمراً مَفْعُولاً، فقال تعالى:

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

إنّـه سهل عليـه سبحانـه، فهو يُحرِّكُ القلوب، فتتّجه لتحقيق أمـر الله، فتتحرّكُ الإرادات، وتسير الأفعال على وفقها، وتتمُّ النتائج على وفق مراد الله وأمره.

والأمر هنا أمْرٌ تكويني، وليس أمراً تكليفيّاً فيما يظهـر، حتّى يكون قـابلاً للفعـل أو التـرك من الموجَّـه لهم التكليف، والمفعولُ هـو المراد بـالأمـر، فـأمْرُ الله مكـوَّن، والمراد به مفعول وكائن لا محالة.

بعد ذلك وجّه الله الخطابَ للمؤمنين وغيرهم ولا سيما أهلُ الكتاب الـذين يؤمنون برسُلِهم وكُتُبهم، فأبان فيه أنّه لا حرجَ على النّبي المجتَبَىٰ وهو بشرٌ من البشـر في أن يكـون له زوجـات، وفي أن يستمتع بمـا أباح الله لـه من لذّات، فشـأنُ كلِّ رُسُـلِ الله كذلك، ولا سيما حينما يكون الأمر يتضمَّن تبليغَ رسالات الله عَمَلِيّاً، ليكونـوا بأفعـالهم أسوةً حسنةً للناس من ورائهم، فجاء في النص:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

فيما فَرَضَ الله له: أي: فيما أباحَهُ لَـهُ، أو خصَّهُ بـه من أحكام إبـاحة. وأصـلُ الفَرْضِ حزٌّ يُجْعَلُ على عُود، أو خشبةٍ، أو حَجَرٍ، أو نحو ذلك، لبيان المقادير، كالْحَزّ المتدرّج على المِسْطَرة لبيان مقادير الأطوال، وكـالْفُروضِ التي تُجْعـل على الرُّخـامَة لتكون ساعةً شمسيّةً تبيِّن الوقت مع تحرُّكِ الظلِّ، ونحو ذلك.

وأحكامُ الله حُدُودٌ على مقاديرَ مفروضةٍ، أي: مبيّنة بفواصل.

ـ فما أباحه الله لعباده فقد فرضه لهم: أي حدّه لهم، وأبَانَ فيه الحدود، ومنه ﴿قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم﴾ أي: أباح لكم ذلك.

ـ وما حرّمه أو أوجبه على عباده فقد فرضَه عليهم، أي: حدده لهم وأبان فيه الحدود، ومنه ﴿قَدْ عَلِمْنَا ما فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ في أَزْوَاجِهِمْ﴾.

فالفرقُ بين الفَرضَيْن أنّ فرضَ الإباحة يُعدَّىٰ باللام، وأنّ فرض الإلزام يُعدّى بحرف «على».

والْقَدْرُ المحدّد من الميراث فريضة، وجمعها فرائض، وسميت بذلك لما فيها من تحديدات تُعْرَفُ بها قسمة المواريث، وهي تحديدات مبيّنَةٌ مفصَّلة مفروضة.

واستعملت كلمة «الفريضة» في القرآن بمعنى المهر المحدّد عند عقد النكاح.

والمعنى: ليس على النبيّ دَواماً وهو بشَرٌ من البشر من أيّ حَرَجٍ يُضَايِقُهُ في استمتاعه بما أباح الله له، سواءٌ أكان ذلك مباحاً لسائر المؤمنين أيضاً، أو كان خاصّاً به فقط.

فإذا اتّجهت نَفْسُ النبيّ للاستمتاع بما أباح الله له، فليس عليه أدنَىٰ حرجٍ في أن يستمتع، وليس من الفضيلة أن يُجَاهِدَ نفسه في كفِّهَا عن المباح الْمُسْتَوِي الطرفين، بل من الخير أن يستمتع، ليستبقيَ طاقات مجاهدته حتى يستخدمَها فيما هو من الفضائل من أفعال يمارسها، أو يكفَّ نفسه عنها.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾:

أي: ليس على النبيّ محمَّدٍ من حرجٍ قليلٍ ولا كثير فيما أباحَ اللّهُ له، حالة كون رفع هذا الحرج طريقةَ الله في منهاجه للأنبياء الذين خَلَوْا من قبلِ مُحمَّد، والّذين جعلهم الله بشراً.

فنصبُ «سُنَّةَ الله» فيما أرَى نصبٌ على أنه حال وتقدير الكلام: النبيُّ مرفوعٌ عنه الحرجُ فيما أباح الله له، حالةَ كون رفع الحرج هذا سنّةَ الله في الأنبياء الذين خلوا

من قبل، إذ خلقهم بشراً، وجعل لهم طبائع البشرية، وأباح لهم أشياء من متاع الحياة الدنيا كما أباح لسائر البشر.

السُّنَّةُ: في اللّغة الطريقة، والسّيرة، والعادة الدائمة.

وسنّة الله: طريقته الدائمة، وسُنَنُه: طرائقه الدائمة في خلقه، أو في أحكامه وشرائعه. وسنّةُ الله في الأنبياء أن يجعلهم عباداً بشراً، وأن يُبيح لهم مباحات تتطلّبها طبيعتهم البشرية.

خلَوْا: أي: مَضَوْا في الأزمان السابقة، فمعظم الأنبياء كانت لهم زوجات، وبعضهم كداود وسليمان كان له زوجات متعددات بكثرة عدا الجواري اللّواتي يستمتع بهنّ.

والمعنى: ليس محمّدٌ في هذا بِدْعاً في الرُّسُل، بل شأنه كشأنهم، طعاماً، وشراباً، وزواجاً، واستمتاعاً باللّذّاتِ المباحات في الحياة الدنيا، فليس لأحد من الناس أن يعيبه بشيءٍ من ذلك، إنّ النبيّ بشرٌ من البشر، وعبْدٌ من عباد الله، اصطفاه الله لتبليغ رسالته لنظرائه من عباد الله، وليكونَ لهم أسوة حسنة، مبلّغاً دينَ الله بأقواله، وأفعاله، وإقراراته.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾:

أي: وكان أمْرُ الله في التكوين، وأمر الله في التشريع، مسبوقاً دواماً بقَدَرٍ وموجّهاً بقدر، أي بتَحْديدٍ دقيق لمقادير كُلِّ شيء: فأمْرُ التكوين يَتمُّ على وفق المقادير التي حدّدها الله بإرادته الحكيمة، ومن ذلك أن يجعل للبشر طبائعهم الجسديّة والنفسيّة، ومنهم الأنبياء المصطفون. وأمْرُ التشريع يتمّ على وفق المقادير التي حدّدها الله بإرادته الحكيمة، وفرضَ مُمَيّزاً حُدُودَ ما ألزم به فعلاً أو تركاً، وحُدُودَ ما رغّب فيه فعلاً أو تركاً، وحُدُودَ ما أباحَهُ إباحَةً مُسْتَوِيَةَ طَرَفَي الْفِعْلِ والترك، وجعل أنبياءه وغيرهم سواءً في ذلك، ورُبّما زاد الأنبياء تكليفاً، وربّما خصّهم ببعض المباحات لحكمةٍ من حكمه الجليلة. فأمْرُ الله إذاً ذُو قَدَر.

وكان أمْرُ الله أيضاً مَقْدُوراً، أي: نَفْسُ الأمر وذاتُه أيضاً مَقْدُور.

مَقْدُور: اسم مَفْعُول من فعل «قَدَرَهُ يَقْدِرُه» فحين يوجّهُ الله أَمْرَ التّكْوين أو أَمْرَ التّشْريع فالأَمْرُ نفسه مَقْدُور، أي: مُحدَّدٌ بسابق الإرادة كما أنّه يُوَجّه لتنفيذ مَحْدُودات المقادير.

ومن جملة النصوص نَسْتَفيدُ أنّ أفعال الله، وأحكامه وتكاليفه تَتِمّ مَسْبُوقة بما يلي:

الأول: شمولُ العلم المحيط بكلّ شيء.

الثاني: الإرادةُ الّتي تتوجّهُ لتُخصّص من الأفعال والتشريعات وكلّ ما هو من متعلّقاتها دون إجبار ولا إلزام ولا تلقائيّة طبعيّة.

الثالث: الحكمة في اختيار ما تتوجّه لتخصيصه الإرادة بمقاديره الصغرى والكبرى، ومن ذلك لحظة توجيه الأمر.

الرابع: إمضاءُ وبتُّ ما تمّ اختياره، وهذا هو القضاء، والقضاء في اللغة الإنهاء والإمضاء.

وبهذه الأربع يتحقّقُ القضاء والقدر. فالقضاء إمضاءٌ والقدر يتمّ به تخصيص المرادات الحكيمة بكل مقاديرها، ومنها أوقاتُ توجيه أوامر التكوين أو التشريع.

الخامس: وعند حُلُولِ الأجل لتنفيذ ما تمّ بالقضاء والقدر يتوجّه أمْرُ التكوين، أو أمر التشريع، والتكليف.

أمّا أمْرُ التكوين فيتمّ تنفيذ المأمور به بالْقُدرَةِ الرّبّانيّة التي لا يُعْجزها شيءٌ من مرادات الله، ممّا تمّ بقضائه وقدره.

وأمّا أمْرُ التشريع والتكليف، فيتمّ بتوجيهه فقط، ويستتبع تبليغه وبيانه لِمَنْ يُرادُ خِطابُهُمْ به، ويستتبع التكليفُ الحسابَ والجزاء، وكلُّ ذلك إنّما يتحقق بالعلم والحكمة والإرادة والقدرة وكثير من صفات الله عزّ وجلّ الأخرى.

بهذا التحليل نستطيع أن نفهم قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

وهذه الجملةُ مُعْتَرِضَةٌ بين الموصوفين ـ وهم الأنبياء الذين خَلَوْا مِنْ قبل ـ وصفتهم بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾:

أي: الذين يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللّهِ بأقوالهم وأعمالهم وتقريراتهم، ومن تبليغ رسالات الله بأعمالهم أن يفعلوا ما أباح الله للناس، ليكونوا أُسْوةً للناس في ذلك، وليس من شأنهم أن يتورّعُوا عمّا أباح الله إباحةً مستوية الطرفين.

وأَوْمَأَ اللّهُ لرسوله بهذا البيان إلى أن يَهْتَدِيَ بِهُدَى الأنبياء والرُّسُل من قبله، فيخشىٰ الله، ولاَ يخشىٰ أحداً إلاّ الله، كما أنّ الرُّسُلَ مِنْ قبله كانوا يبلّغون رسالات الله بأقوالهم وأعمالهم، ويخْشَوْنَهُ ولاَ يخشَوْنَ أحداً إلاّ الله.

الخشية: خوفٌ مصْحُوبٌ بتقدير واحترامِ المخوفِ منه.

ولمّا كانت الخشيةُ من الله لا تستلزم عدمَ الخشية من غيره اقتضى البيان التصريح بالأمرين فقال تعالى:

﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

والذي يجعلُهُم لا يخْشَوْن أحداً إلاّ الله هو أنهم تَوَكّلُوا على الله، واكتَفَوْا بالاعتماد عليه، دلّ على هذا قول الله في آخر الآية:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

حسيباً: أي: كافياً، من الْحَسْب، وهو الاكتفاء، والمعنى: وكفىٰ بالله كافياً لمن توكّلَ عليه.

أو فعيل من الحساب، بمعنىٰ سريع الحساب، فهو يحاسبُ من لم ينفّذ أوامره، والحسابُ يأتي بعده قرار الجزاء.

والمعنى الأوّل فيما أرى هو الأكثر ملاءمة في هذا النّصّ.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

بعد إلغاء عُرْفِ التَبنّي بحُكْمِ اللَّهِ أبانَ الله عزّ وجلّ للقوم، والمَعْنِيُّون منهم على وجه الخصوص الذين أرجفُوا بإشاعة مقالة السوء فقالوا: «إنّ محمّداً يُحَرِّم نكاح نساء الأولاد وقد تزوّج امرأة ابنه زيد» إذ كان يقال له: زيدُ بن محمّد، أبان الله لهم أنّ محمّداً ما كان أبا أحدٍ من رجالكم، وذلك لأنّ أولاده الذكور «إبراهيمَ القاسم، والطيّب، والطاهر» ماتوا وهم صغار لم يبلُغوا مَبالغ الرّجال.

أي: فزيد ليس ابنَ محمّد، والله إنّما حرّمَ زوجات الأبناء من الأصلاب، ولم يُحرِّم زوجات الأدعياء.

وينطلق الذهن فيتساءل: لماذا لم يُبْقِ الله لرسوله محمّد ولَداً ذكراً؟

وقد أجابَ الله عزّ وجلّ عن هذا التساؤل ببيانِ حِكْمتِه في ذلك فقال:

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾:

أي: لمّا قضى الله بختم الرسالات والنبوّات كلّها بمحمّدٍ، لم يُبْقِ له ولداً ذكراً، حتّى لا يَبْقَى مِنْ سُلالَةِ النُّبُوَّةِ عامِلٌ وِراثي، إذ جَعلَ اللَّهُ النبوة والكتابَ في ذرّيّة إبراهيم، كما سبَق بيانه، ولم يبق ذُرّية ذكوراً لآخر أنبياء بني إسرائيل يحيى وعيسى.

ودلّ هذا على أنّ العامل الوراثي الناقل للخصائص المؤهّلة للاصطفاء بالنبوة إنّما ينتقِلُ في الذكور لا في الإناث، فلا تُنبَّأُ امرأة.

ودلّ على أنّ كلّ رسولٍ نبيٌّ، فإذا انتفت النبوّة فلا رسالة، فكفَى ذكرُ كونه خاتم النبيين عن ذكر كونه خاتم المرسلين، لأنّه إذا كان خاتمَ النبيّين فهو خاتم المرسلين حتماً.

وخَتْمُ النبيّين بمحمّد هو من حكمة الله، وحكْمَةُ الله في اختياراته لا تَتِمّ ما لم يكن عَليماً بكُلّ شيء، فقال تعالى في ختام الآية:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾:

أي: وهو عليم دواماً بكلّ شيء.

وبعد زواج الرسول من ابنة عمته «زينب بنت جحش» تعرَّض لأذى الكافرين والمنافقين، وتوجّهتْ نحوه الضُّغوط الاجتماعية الّتي ربّما أثّرتْ على ضعفاء الإيمان من المسلمين، فوجّه الله لرسوله ما يُثَبِّتُه به على طاعة الله، والقيام بما فرض الله له، والقيام بتبليغ رسالة ربّه بقوله وعمله فقال له ما جاء في الآية (٤٨) من السورة وهو:

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

(١) ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

تأكيد لما جاء في صَدْرِ السُّورَة، من جهة اللّفظ، لكن هناك قبل أن يؤدّي رسالة ربّه في موضوع التبنّي، وهُنَا بَعْدَ أَنْ أدّى رسالة ربّه بقوله، وبفعله.

(٢) ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾:

أي: اتْرُكْ أذاهُمْ، فلا تَهْتَمّ له، ولا تنظُرْ إليه، ولا تَشْغَلْ نفسَك بدفْعِهِ أو الانتصار لنفسك.

وهذه وصيّةٌ ربّانيةٌ نفيسة لكلّ مَنْ يتعرّض للأذى، فَتَرْكُ الأذى، وعدمُ الاهتمام به من شأنه أن يُطْفِىء نَارَ المؤذين، ويبطِّىء حركتهم، ويجعل أقوالهم كالهباء المنثور، بخلاف مقاومته، فإنّها توقد نار الأذى، وتضاعف من جهود المؤذين، فتزيد من آلام الأذى.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾:

تأكيد لمَا جاء في صدر السورة أيضاً، أي: ومن توكّل على الله كفاه ما أهمّه، وردّ كيد أعدائه إلى نحورهم.

• • •

النص الرّابع عشر

وهو من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) سادس سورة مدنية

الآيــات مــن (٥٩ ــ ٧٠)

حول تحاكم المنافقين إلى الطاغوت وقد أُمِرُوا أن يكفروا به

قال الله عزّ وجل فيها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ
فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا (٥٩) أَلَمۡ
تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن
يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا
بَعِيدٗا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا (٦١) فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ
ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا (٦٢) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ
ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا (٦٣)
وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا (٦٤)
فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ
حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا (٦٥) وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ
ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ
وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا (٦٦) وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا (٦٧) وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا (٦٨)

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾».

* * *

(١)
موضوع النّصّ وسبب نزوله

في هذا النصّ بيانٌ لظاهرةٍ من ظواهر النفاق، وهي ظاهرة التحاكم إلى غير حكم الله ورسوله، والصدّ عن حكم الله والرسول، في كلّ ما هو مشمول بحكم شرعيٍّ دينيّ، حَكَمَ به الله، أو حَكَمَ به رسوله ﷺ، ودلّ عليه نصٌّ صريحُ الدّلالة من قرآنٍ أو سنّة، أو استنبطه الفقهاء المجتهدون ممّا دلّت عليه نصوص القرآن الكريم، أو دلّت عليه السنّة المطهّرة.

وقد نزل هذا النصّ بسبب ما كان من بعض المنافقين قبل تنزيله، إذْ دعاه خصمه إلى حكم الله ورسوله في خصومةٍ بينهما، فرفض التحاكم إلى الرسول، وصدّ عنه صدوداً منكراً، وأراد أن يتحاكما إلى الطاغوت، أي: إلى حكم أهل الكفر، من اليهود أو المشركين، ظنّاً منه أنه سيجد لنفسه مخرجاً فيهضم من حقّ صاحبه، أمّا الرسولُ ﷺ فسيحكم بالحقّ فلا يجد عنده مخرجاً.

وقد ورد في أسباب النزول عدّة روايات تدور كلّها حول ذلك.

(١) روى الطبري بسنده عن عامر، قال: كان بين رجل من اليهود ورجلٍ من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو خصمه إلى اليهود، لأنه يعلم أنّهم يقبلون الرشوة، وكان اليهوديّ يدعو إلى المسلمين، لأنّه يعلم أنّهم لا يقبلون الرشوة، فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهنٍ من جُهَيْنة، فأنزل الله قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ. . . ﴿٦٠﴾».

حتّىٰ بلَغَ: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾.

(٢) وروى الطبريّ بسنده عن الشَّعْبيّ روايةً مشابهةً لروايته السابقة عن عامر، وروى عن قتادة أنّ المسلم المنافق هو رجلٌ من الأنصار يقالُ له: بِشْر.

(٣) وروى الطبريُّ روايةً أخرىٰ فيها أنّ المسلمَ المنافقَ هو من منافقة اليهود.

أقول: كون هذا المنافق من اليهود هو ما يشير إليه النصّ بدلالاته، ففيه ما يلي:

﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

فَذِكْرُ ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ في هذا المقام يُشْعِر بأنهم كانُوا من أهل الكتاب، قبل الإسلام.

وفيه أيضاً:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

ففي هذا إلماح إلى ما كتب الله على بني إسرائيل أيّام موسى عليه السلام، وهؤلاء يزعمون أنّهم أحفاد أولئك، وأنّهم قبل الإسلام كانوا يهوداً، وأنّهم يؤمنون بما أُنزل على موسىٰ وعلى سائر أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

ويؤيد كونه من اليهود الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً ما جاء في الرواية التالية:

(٤) وروي عن السّدّي قال: كان ناسٌ من اليهود قد أسلموا، ونافق بعضهم، وكان فريق منهم من بني النضير، وفريق منهم من بني قريظة، فقتل رجلٌ من بني النضير رجلاً من بني قريظة، فتحاكموا إلى النبيّ ﷺ، فقال النضيري: يا رسول الله، إنّا كُنّا نعطيهم في الجاهليّة الدِّية ستين وَسْقاً، ولا يقتلون منّا مقابل قتيلهم، فنحنُ نعطيهم اليوم ذلك، فقال القرظيّون: لا، ولكنّا إخوانُكم في النسب والدّين، ودماؤنا مثْلُ دمائكم، ولكنَّكُمْ كُنْتُمْ تَغْلِبُونَنا في الجاهليّة، فقد جاء الله بالإسلام.

وحكم الرسول ﷺ بقتل النُضيري، وقَتَلَهُ بصاحبِه.

فتفاخَرَتِ النضيرُ وقُرَيظَةُ:

فقالت النضير: نَحْنُ أَكْرَمُ مِنْكُمْ.

وقالت قُرَيظَةُ: نَحْنُ أكرمُ منكم.

وطالب المنافقون من قريظة والنّضير بأنْ يحكم بينهم في مفاخرتهم أبو بَرْزَةَ الأَسْلَميّ الكاهن.

وقال المسلمون منهما: بل النبيُّ ﷺ هو الذي يحكم بيننا.

(٥) وروي عن ابن عبّاس، أنّ الطاغوت الذي أراد المنافق التحاكم إليه، هو اليهوديّ كعب بن الأشرف.

(٦) وأخرج ابن أبي حاتم، والطبرانيّ بسنده إلى ابن عباس، قال: كان أبو بَرْزَة الأسلميّ كاهناً يَقْضِي بين اليهود فيما يتنافرون فيه. (أي: يتفاخرون فيه). فتنافر إليه ناسٌ من المسلمين فأنزل الله قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ... ﴿٦٠﴾﴾ الآيات.

* * *

(٢)
نظرة مجملة عامّة إلى النّص

(١) يبدأ النصّ بتكليف الذين آمنوا أنْ يُطيعوا الله والرسول وأُولي الأمر منهم.

فإن حصل التنازع بينهم في شيءٍ سواءٌ أكان بينهم وبين أولي الأمر منهم، أو بين أفرادٍ أو جماعاتٍ منهم، فهم مكلّفون أن يردُّوه إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله، وإلى رسول الله في حياته، ثمّ إلى سنّته التي صحّت عنه من بعده، هذا إذا كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً.

(٢) بعد ذلك عرض النصّ قصة طائفة من المنافقين يزعمون أنّهم مؤمنون، ثُمّ يُريدُونَ أنْ يتحاكموا إلى الطاغوت، أي: إلى حكم الجاهليّة، وإلى حكم من يحكم بأحكام الجاهليّة من الناس، كحكْم الكهّان، أو حكم طاغوت من طواغيت أهل

الكتاب، مثل: «كَعْب بْنِ الأَشْرَفِ» عدوّ الإسلام، والعدوّ الكبير للرسول ﷺ من اليهود.

وقد جاء عرض قصة هؤلاء بأسلوب التّعجيب من التناقض المستغرب بين زعمهم، وبين ما يريدون من التحاكم إلى الطاغوت.

وكان من أمر هؤلاء المنافقين أنّهم إذا قيل لهم: تعالَوْا إلى ما أَنْزَلَ الله، وتعالَوْا إلى الرسول ليحكُمُ بينكم نفروا، وصدّوا عن الرسول صدوداً قبيحاً منكراً.

(٣) وبعد ذلك ألمح النصّ إلى احتمال تسليط الله عزّ وجلّ رسولَهُ عليهم، لمعاقبتهم على أعمالهم المنافية لمقتضيات الإيمان، والدّالة على باطن الكفر المستور بالنفاق، فتصيبهم مصيبة عقاب الرسول لهم، بسبب ما قدّمت أيديهم من جُرْم عظيم، وأنّهم حينئذٍ يسارعونَ إلى الاعتذار عن جرمهم المنافي لادّعائهم الإيمان منافاةً كليّةً، بأَنْ يحلفُوا للرسول بالله، على أنهم ما أرادوا بعملهم هذا إلاَّ إحساناً وتوفيقاً.

ويطرح المتدبّر هنا سؤالاً، وهو: ما معنى أنّهم ما أرادوا إلاّ إحْسَاناً وَتوفيقاً؟

أقول: حين نلاحظ أنّ الخصومة كانت بين مسلمين منافقين، وبين غير مسلمين، كما جاء في معظم روايات سبب النزول، يظهر لنا أنّهم يستُرون غرضهم الأساسيّ من التحاكم إلى الطاغوت، وهو أن يحكُمَ لهم ولو كان الحقّ لخصمهم، ويتعلّلُونَ أمام الرسول، وأمام المسلمين، فيما لو حُوسِبُوا على عملهم، بأنّهم قد كان لهم هدفٌ دينيٌّ من وراء ذلك، وهو الإحسان والتوفيق.

ولكن كيف نتصوّر هذه التعلاّت التي يمكن أن يُزيِّنُوا فيها، أنّهم ما أرادوا بالتحاكم إلى غير حكم الله والرسول إلاّ الإحسانَ والتوفيقَ؟

ويخطر لي في ذلك أنّهم يقولون مثلاً: إنّ خصمنا غير مُسْلم، وهو لا يؤمن بما أنزل الله، ولا يؤمن بالرّسول، فلو دعوناهم إلى الرسول ليحكُمَ بيننا، لكان في ذلك تهمة أننا ندعوهم إلى زعيمنا لِيُحَابِيَنَا فيحكُمَ لَنَا.

ويقولون: إنّهم لا يُريدون أن يضعوا الرسول موضع الاتّهام والتجريح من قِبَلِ الكافرين به، فمرتبة الإحسان لمقام الرسول تدعوهم إلى إبعادِهِ عن مواضع الشبهات والاتّهامات من قِبَلِ الكافرينَ به.

لذلك دعوناهم إلى رجُلهم اليهودي «كعب بن الأشرف» أو إلى الكاهن الوثني «أبي بَرْزَةَ الأسْلَميّ» الذي ليس هو منّا ولا منهم.

ويقولون: إنّنا نُريد أن نصل إلى التوفيق بيننا وبين خصمنا، على يد أيّ مُوفّق، وذلك بالمصالحة بيننا مصالحةً توفيقيّة، ولم نقصد رفضَ الحكم بالحقّ، ولم يخطر في بالنا أنّ حكم اليهودي أو الكاهن الوثني سيكون لصالحنا، هاضماً حقّ خصمنا، فآثرنا بذلك التحاكم إليه ليحكم لنا بالباطل.

وهكذا تبدو مقالتُهم مُزيَّنة لعملهم، وساترةً لجريمتهم، وما دامت إرادتهم الحقيقية شيئاً في ضمائرهم، وليس عليها بيّنات قضائيّة، فإنّ وسيلتهم لتأكيدها هي أن يحلفوا بالله على ما زيّنوه.

(٤) وهنا بيّن الله لرسوله إدانتهم بعلمه بما في قلوبهم، ولكن لم يسمح له بأن يحاسبهم على جريمتهم حساباً مادياً، إذْ لا يملك بيّنةً قضائيّةً بشريّةً تكشف إرادتهم الحقيقيّة.

وبيّن له المنهج التربويّ العلاجيّ الذي يتّبعه معهم، وهو يتلخّص بثلاثة عناصر:

العنصر الأوّل: الإعراض عنهم، بعدم مؤاخذتهم، مع إشعارهم بأنّ جريمتهم مكشوفة له، وقد استوجبت منه أن يُعْرِض عنهم إعراض مُسْتاءٍ من عملهم.

العنصر الثاني: أن يَعِظَهم ببيان وجوب التحاكم إلى الله وإلى الرسول، مهما كانت الدواعي، ومهما زُيِّنَ لهم الشيطان أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وَبِبَيان عاقبتهم عند الله.

العنصر الثالث: أن يقول في سرّهم قولاً كاشفاً حقيقة ما في أنفسهم، بالغاً ما أسرّوه في أعماقها، ليعلموا أنّ الله يُطلع رسوله على خبايا قلوبهم، ونواياهم، فهم مهما تظاهروا بحُسْنِ إسلامهم معروفون للرسول بنفاقهم، إذْ يُعْلِمُه الله عزّ وجلّ بحقيقةِ ما في قلوبهم.

(٥) بعد ذلك بيّن الله عزّ وجلّ وجوب طاعة الرسول، وأنّ محمّداً ليس بِدْعاً

في الرُّسُل، بل كُلّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ السابقين، إنَّما اصطفاه الله وأرسله إلى قومه، ليكون قائداً مطاعاً من قِبَلِ الذينَ آمَنُوا به، في كلّ ما يأمرهم به، وفي كلّ ما ينهاهُمْ عنه.

وألمح الله عزّ وجلّ إلى أنّ الرسول لا يأمُر ولا ينهى إلّا بإذن الله، فهو مأذونٌ من قِبَلِ الله بأنْ يأْمُرَ وينْهَى في الدّين، وعلى مَنْ آمَنَ به أن يُطيعَهُ، فطاعَتُهُ جزْءٌ مِنْ طاعة الله، كماجاء في نصٍّ لاحِق من سورة (النساء) نفسها، وهو قوله تعالى:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

(٦) بعد ذلك فتح الله باب الاستغفار والتوبة، فقال لرسوله:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾.

وفي هذا الأسلوب إطماعٌ لهم بأنهم إذا تابوا واستغفروا، وعفا عنهم الرسولُ واستغفرَ اللّهَ لهم، تابَ الله عليهم، وشملَهُم برحمته.

ومع هذا الإطماع نلاحظ أنّ النصّ لم يخاطبهم خطاباً مباشراً، بل خاطب الرسول بشأنهم، معرضاً عنهم، لِعِظَم جُرْمِهِمْ.

(٧) وبعد ذلك بيّن الله عزّ وجلّ قاعدةً كبرى من قواعد الإيمان، وشرطاً أساسيّاً من شروطه، فقال تعالى خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

فَدلَّ هذا على أنّ سلامة الإيمان من النقضِ أو النقص مشروطة بتحقيق كُبْرى لوازمه، ومن هذه اللوازم الكبرى، ما يلي:

(أ) تحكيمُ الّذينَ أعْلنوا إسلامهم رَسُولَ الله في كلّ ماشجر بَيْنَهُمْ من خلافاتٍ وخصومات.

(ب) أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً (أي: ضيقاً وعدم ارتياحٍ) مما قضى

الرسول، وهذا من آثار الإيمان الصحيح الكامل بالله ورسوله واليوم الآخر، النفسيّة الداخليّة.

(ج) أن يُسلّموا لحكمه تَسْليماً كاملاً لا يشوبه شكٌ ولا اعتراضٌ ولا معصية، وهذا من آثار الإيمان الظاهرة، بعد صدور الحكم.

(٨) وبعد ذلك كشف الله عزّ وجلّ أنّهم لو لم يدخلوا في الإسلام نفاقاً، وبَقُوا على يهوديّتهم، فإنّهم ليسوا على مثل بني إسرائيل الأولين، الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، فإنّ أولئك لمّا كتب الله عليهم الخروج من مصر بقيادة موسى وهارون عليهما السلام خرجوا طائعين، وحين ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل، وكتب الله عليهم أن يتوبوا إلى بارئهم فيقتلوا أنفسهم، أطاعوا، فاجتمعوا يقتل بعضهم بعضاً.

لكن هؤلاء لو كتب الله عليهم هذا الذي كتبه على أسلافهم ما فعلوه إلاّ قليل منهم، فهم في اليهودية ليسوا ذوي دين صحيح، وهم حين دخلوا في الإسلام منافقون، أو قريبون من النفاق.

وأتبعه ببيان أنّهم لو فعلوا ما يوعظون به من التحاكم إلى الله وإلى الرسول لكان خيراً لهم، وأشدّ تثبيتاً لهم في الإيمان، وأنّهم لو فعلوا ذلك لآتاهم الله من لدنه أجراً عظيماً، ولهداهم في حياتهم صراطاً مستقيماً، وهو صراط الإسلام، الذي يشرح الله له صدور الذين آمنوا حقّاً وصدقاً، فكان سبب طمأنينتهم وسعادتهم في العاجل والآجل.

(٩) وأخيراً ختم الله النصّ ببيان الثمرة الأخروية لمن آمن وأطاع الله وأطاع الرسول وأولي الأمر من المؤمنين، وأنّ الذين يطيعون الله والرسول فإنّ الله عزّ وجلّ يجعلهم في جنات النعيم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

ذلك الفضل من الله، يعطيه سبحانه الذين آمنوا وعملوا صالحاً، والتزموا في حياتهم الدنيا طاعة الله والرسول.

وأنهى الختام ببيان صفة من صفات الله عزّ وجلّ ذات صلة بموضوع النصّ،

لتثبيت عُنْصُرٍ من عناصر القاعدة الإيمانية، فالمنافقون يكتمون نفاقهم، لكنّ الله عليم بهم، وبما في سرائرهم، فقال تعالى:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠﴾.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿أَطِيعُوا﴾:

الطاعة: الانقياد، والعمل وفق رغبة المنقاد له. يُقال: طاعَه يَطُوعُه طَوْعاً، وطَاعَهُ يَطيعُه طَيْعاً، وطَاع لَـهُ يَطُوعُ لـه، ويَطيعُ له، إذا انْقاد له، وعمل على وفق رغبته.

ويقال: أطاعه، إذا انْقاد وخضع له، وكذلك انْطاع له.

﴿وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾:

أولو الأمر: هم الذين لهم حقّ الأمر بحكم الشرع على من يتولَّوْن أمورهم، فالأمير من أولي الأمر، والخليفة من أولي الأمر، والزوجُ من أولي الأمر على زوجته، والأب على أولاده من أولي الأمـر، ومن لهم حقّ الفتوى في الدين من أولي الأمـر ضمن اختصاصهم، والقاضي في مجال القضاء من أولي الأمر، وكذلك كلّ راعٍ هو مسؤول عن رعيته.

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ﴾:

أي: فـإن اختلفتم، والمعنى أن كـلّ فـريق من المختلفين يحـاول أن ينتـزع الاعتراف بأنّ الحقّ هو ما يدّعيه هو.

﴿فِي شَيْءٍ﴾:

أي: في شيءٍ ما، ممّا له في الدين حكم، أو بيان، أمّا الأمور المتروكة للناس، كالعلوم التي تكتسب بالوسائل الإنسانيّة فمرجعها البحث الإنساني، فالعقليّات لبراهين

العقل، والحسيّات لمشاهدات الحواسّ، والتجريبيّات للتجارب، والخبريّات للتثبّت من صحة الأخبار بمقتضىٰ برهان العقل، لذلك جاء قوله تعالى:

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾:

فدلّ فعل «رُدُّوه» على أنّ مصدر الحكم أو البيان مصدر دينيّ، فوجب عند التنازع في الأحكام والبيانات ذات المصدر الديني ردُّها إلى كتاب الله بحثاً واستنباطاً، وإلى ما ثبت عن الرسول ﷺ في أقواله أو أعماله أو أخلاقه أو إقراراته، أو إلى ما يقاس على ما جاء فيهما أو في أحدهما.

فردّ الشيء إلى الشيء إنما يكون بإرجاعه إليه، وهذا يدلُّ على أنه كان لديه أوّلاً، فصدر عنه، فهو يُردُّ إليه.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾:

أي: وأحسن رَدّاً وإرجاعاً، يقال: أوّلَهُ تأويلاً إذا ردّه وأرْجعَهُ إلى مكانه الذي كان فيه.

وتأويل الألفاظ يكون بإرجاع دلالاتها إلى المعاني المرادة منها، في أصل التعبير.

﴿يَزْعُمُونَ﴾:

يدّعون بألسنتهم، يطلق الزعم على الظنّ الضعيف، وعلى الادّعاء دون بيّنة مُثْبِتَةٍ للادّعاء، وأكثر ما يستعمل في الادّعاء الكاذب، والاعتقاد الباطل، وفي الادّعاء الذي تحيط به شبهاتٌ وشكوك بأنه ادّعاء كاذب، ولذلك قالوا: الزعم أخو الكذب. وقالوا: «زعَموا» مطيّة الكذب. وفي الحديث: بئس مطيّة الرجل «زَعَمُوا» وقال شُرَيْح: «زَعَمُوا» كنية الكذب.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾:

أي: يريدون أن يرفعوا خصومتهم إلى حاكم ليفصل الحكم بينهم.

﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾:

الطاغوت: هو كثير الطغيان، وكلّ رأس في الضلال، ويطلق على الشيطان، والكاهن، والساحر، وكلّ ما عُبد من دون الله، وبيت الصنم، (يستوي فيه المفرد

وغيره، والمذكر والمؤنث، وأصله من فعل طغَىٰ طَغْياً، وَطُغْياناً، إذا جاوز الحدّ المقبول، وصار ضارّاً، أو مفسداً، أو ظالماً معتدياً جائراً. والمراد من الطاغوت كلّ معبود أو مطاع من دون الله، ومنهم الكهّان، والأحبار والرّهبان.

﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾:

أي: يُعْرِضونَ عَنْكَ إعراضاً شديداً، الصدّ في اللّغة الإعراض، والانصراف عن الشيء، يقال: صَدَّ عنه يَصِدُّ ويَصُدُّ صَدّاً وصُدُوداً، إذا أعرض وانصرف عنه، ويستعمل متعدّياً، فيقال: صَدَّهُ عن الأمر يَصُدُّهُ صَدّاً، إذا منعه وصرفه عنه.

﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾:

الإحسان: فعل ما هو حسن وجيّد، وأحْسَنَ الشيءَ إذا أتقنه. وأحْسَنَ إلَيْهِ وأحْسَنَ بِهِ، إذا فعل ما هو حَسَنٌ من أجله.

التوفيق: إذا كان بين خصمين فالمراد منه الإصلاح بينهما، والتوفيق في الأمور تيسير ما هو ملائم لصلاحها، وبلوغ المطلوب الحسن منها.

ويظهر أنّ المراد هنا في النصّ هو المعنى الأوّل منهما.

﴿وَعِظْهُمْ﴾:

الوعظ: هو النصح المقرون بما يثير الرغبة أو الرهبة للانتفاع بالنصح، واتباع ما هدىٰ إليه فعلاً أو تركاً.

﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾:

بليغاً على وزن «فعيل» صيغة مبالغة لفاعل، يقال: بَلَغَ الأمْرُ بُلُوغاً وبَلاَغاً، إذا وصل إلى غايته، فالقول البليغ هو الذي يصل إلى غاية مداه في قُوَّةِ التأثير، فمن كان لديه استعدادٌ للتأثّر بالقول البليغ أثّر فيه على مقدار استعداده.

﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾:

الظلم: تجاوز الحدّ، ووضع الشيء في غير موضعه، فمن عصى الله ورسوله فقد ظلم، ومن اعتدى على حقّ غيره فقد ظلمه، ومن فعل شيئاً يُعرّضهُ للعقوبة ويجرُّ

لَهُ ما يكره في عاجل أمره أو آجله فقد ظلم نفسه، ولمّا كانت معاصي العباد لربّهم لا تضرُّ اللّٰهَ شيئاً، وإنّما يُعرّضون بها أنفسهم لعقوبات الله، فإنهم يكونون بها ظالمين لأنفسهم.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾:

شَجَرَ بَيْنَهُمْ: أي: اختلف الأمر بينهم. ويُقالُ: شَجَرَ بينهم الأمْرُ يَشْجُرُ شَجْراً إذا تنازعوا فيه. واشْتَجَرَ القومُ تخالفوا. واشتَجَرَ القومُ وتَشَاجَرُوا، أي: تنازعوا. والمشاجرة المنازعة.

قال الزجاج في قوله تعالى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فيما وقع من الاختلاف في الخصومات حتى اشتجروا وتشاجروا، أي تشابكوا مختلفين.

والتشاجر مأخوذ من الشجر، لتشابك أغصانها بعضها ببعض.

﴿حَرَجًا﴾:

أي: ضِيقاً. قال الزجاج: الْحَرَجُ في اللُّغة: أَضْيَقُ الضِّيقِ أي: إنّه ضيّق جدّاً.

والْحَرَجُ في الأصل كما قال ابن عبّاسٍ هو الموضع الكثير الشجر الذي لا يَصِل إليه الراعية، ففي قول الله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قال: وكذلك صدر الكافر لا يصلُ إليه الحكمة.

فالمؤمن لا يجد في نفسه ضيقاً من حكم الله ورسوله، إذا كان على خلاف ما يهوى، لأنّ طاعة الله والرسول، وحبّ الحقّ، وابتغاء ثواب الآخرة، نصُبُ في نفسه الرضا، فتنْفَرج سعيدة بحكم الله والرسول.

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾:

أي: وينقادوا لحكم الرسول انقياداً كاملاً، ويرضوا به رضاً صحيحاً لا تصحَبُهُ كراهية ولا استياء.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾:

أي: فرضنا عليهم. وإطلاق فعل «كتب» على معنى «فرض» هو من قبيل المجاز

المرسل، وهو من إطلاق الْمُسَبَّب على السَّبَب، فالإلزام التكليفي بالأمر سَبَبٌ يَنْزِل به بيان من الله، وهذا يُكتَبُ في اللّوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، وفي الكتب الربّانية المنزّلة، فالكتابة مُسَبَّبة عنه.

وليست كلُّ كتابة جاءت في القرآن أو في السنة هي على هذا المعنى، فالأصل في الكتابة تسجيل معلومٍ ما، سواء أكان أزليّاً نفياً أو إثباتاً، أو كان حادثاً بقضاء الله وقدره، أو كان من اختيارات العباد التي جعلها الله من وُسعهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾:

أي: ولو أنهم فعلوا ما يُنْصحون به، من أوامر الله ورسوله إلزاماً أو ترغيباً، ومنه تحكيم الرسول فيما شجر بَيْنهم.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

أي: لكان فعلُهم خيراً لهم في عاجل أمرهم وآجله.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾:

أي: وأشدَّ تثبيتاً في مواقع الإيمان الصادق، والإسلام الصحيح، الذي يكون فيه العمل الظّاهر دالاً بصدق على ما في الباطن.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

إذاً: حَرْفُ جوابٍ وجزاء. أي: وَلَوْ أنهم فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ إذاً لآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنّا أجراً عظيماً. فَحَرْفُ (إذاً) هنا واقع في جواب الشرط وجزائه.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾:

أي: ولكانت لهم من معونة الله وتوفيقه في الحياة أن يسلكوا الصراط المستقيم، فيكون ذلك مُحَقّقاً لهم طمأنينة القلب، وسكينة النّفس، وبلوغ المقاصد من أقصر الطرق، وأوسعها، وهو الصراط المستقيم، صراط الله الذي أبانه الله ورسوله للناس.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ﴾:

أشارَ إليهم بإشارة البعيد، إشعاراً بارتفاع منزلتهم جدًّا عن سائر العباد.

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾:

أي: مع الّذين قضىٰ الله بالإنْعَام عليهم يوم الدين في جنّات النعيم، وفي منازل الفردوس الأعلى منها.

الإنْعَام: الإعطاء الزائد ممّا يُحَقِّقُ قدراً وافراً من النّعيم وطيب العيش، وأهل الفردوس في الجنة هم أَنْعَمُ أهل الجنّةِ بفضل العطاء الزائد الذي يكرمُهُمْ الله به.

وقد جاء في هذا النصّ تفصيلُ ما جاء مُجْملاً في سورة (الفاتِحَة):

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

فقال تعالى هُنا بَياناً للذين أنعم عليهم:

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾:

فدلّ على أنهم يكونون رُفقاء النبيّين في دار النعيم، وهم من أهل الفردوس الأعلى، والرفقاء يشاركون رفقاءهم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

أي: ذلك المقام الرفيع عطاءٌ من الله بفضل منه، إنعاماً وإكراماً.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾:

أي: كفىٰ اللّهُ حالة كونه عليماً بكلّ شيء، أو المعنى كفى علمه بأحوال عباده المنافقين، وعبادِهِ المؤمنين الصادقين، ليجزي كلاًّ بحسب حاله، فلفظ «عليماً» حالٌ أو تمييز، ويرى بعضهم التمييز أرجح.

والباء في «بالله» حرف جرّ زائد يُزَاد للتأكيد، وهو هنا تأكيدُ كِفاية علم الله.

* * *

(٤)

مع النصّ في التحليل والتدبر

يأتي هذا التدبُّر في فِقَرات عشر:

الفقرة الأولى: بيان قاعدة وجوب طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر من المؤمنين، والردّ إلى الله والرسول في حالة التنازع في شيء ما.

* قول الله عزّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾.

في هذه الآية ستُّ قضايا:

القضية الأولى:

يُنادي الله عزّ وجلّ الَّذين آمَنُوا، فيخصُّ المؤمنين بهذا النداء مشيراً به إلى أنّ اتّصافهم بصفةِ الإيمان الصحيح الصادق لا بُدَّ أنْ يكون وازعاً لهم ودافعاً إلى تنفيذ التكاليف التي يوجّهها لهم، إذْ يُذَكّرُهُمْ بحقّ الله عليهم، وبمسؤوليّتهم تُجاهه، وبالجزاء الذي أعدّه سبحانه، ثواباً أو عقاباً، نظراً إلى أنّه من أركان الإيمان.

وفي ندائهم بوصف الذين آمنوا، إلماحٌ إلى أنّ الإعراضَ عن تنفيذ التكاليف الرّبّانيّة، وعدمَ الاهتمام بها والاكتراثِ لها، إنّما يكونُ عند عدم صدق الإيمان المدَّعَىٰ، وذلك في حالة النفاق، أو يكون عند نقص الإيمان وضعفه، أو غلبة سلطان الهوى، وذلك في حالة العصيان والفسوق وتراكم الغفلات عن الله، واليوم الآخر.

القضيّة الثانية:

الأمر بطاعة الله عزّ وجلّ، بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي: يا أيُّها الذين آمنوا لِيُطِعْ كلُّ فردٍ منكم الله في كلّ ما يأمر به، وفي كلّ ما ينهىٰ عنه، سواءٌ أكان المطلوب من الأمور التي لها صفة العمل الفردي، أو من الأمور التي لها صفة العمل الجماعي.

فالطاعة لله عزّ وجلّ هي العبادة العمليّة لَهُ، وهي من كُبْرَيات ثمرات الإيمان الصحيح الصادق، بعد إعلان الخضوع لأوامر الله، بإعلان الإسلام له، والاستسلام لأوامره ونواهيه.

القضيَّة الثالثة:

الأمر بطاعة الرسول ﷺ، بقوله تعالى: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا، لِيُطِعْ كلُّ فرد منكم الرسول في كلّ ما يأمر به، وفي كلّ ما ينهىٰ عنه، سواءٌ أكان المطلوب من الأمور التي لها صفة العمل الفردي، أو من الأمور التي لها صفة العمل الجماعي.

فطاعة الرسول ﷺ جزءٌ من طاعة الله عزّ وجل، لقول الله عزّ وجل في سورة (النساء) أيضاً:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

والرّسول مأذون بالتفويض الإلٓهي في أن يأمر وينهىٰ وراء ما يبلّغه عن ربّه، إذْ هو معصوم عن الخطأ في بيان الشرائع الربّانيّة، ابتداءً أو بالمتابعة والتسديد.

وقد جاء التصريح بأنّه مأذون من الله بأن يأمُرَ وينهى في الشرائع في القيادة والإدارة، وهذا شامل لكلّ الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، فقال الله عزّ وجلّ فيما يأتي من النصّ الذي نتدبَّرُه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ. . . ﴿٦٤﴾﴾.

فدلّت هذه النصوص على أنّ كل رسُولٍ أرسله الله قد أذن الله له بأن يأمر وينهىٰ وراءَ تَبْلِيغِه ما أمر الله به ونهى عنه، وأنّ أمّته الذين استجابوا لدعوته فآمنوا قد أمرهم الله أمراً مباشراً بطاعته، دون البحث عن الدليل الخاص الذي استند إليه الرسول في الموضوع الذي امر به أوْ نَهىٰ عنه.

القضية الرابعة:

الأمر الربّاني للمؤمنين بأن يطيعوا أُولي الأمر منهم، فقال الله عزّ وجلّ ﴿وَأُولي الأَمرِ مِنْكُمْ﴾ أي: وأصحاب الأمر منكم.

أمّا أولو الأمر فهم كلُّ من جعل الله له ولاية ما على رعيَّةٍ ما، بدءاً بأمير المؤمنين والخليفة الأعلى، وتنازلاً إلى كلّ ذي ولاية، حتى الزوجِ في ولايته على زوجته وأولاده، والأم في ولايتها على من هم تحت رعايتها من أولادها. كلٌّ في حدود رعيّته، وفي حدود اختصاصه.

(١) فأصحاب السُّلطة التنفيذيّة والحكّام الإداريّون وكلّ من له ولاية عامّة أو خاصة، يدخلون في عموم «أولي الأمر» ضمن حدود دوائرهم واختصاصاتهم.

(٢) وأهل الاجتهاد والاستنباط من العلماء المجتهدين الموثوقين، الذين يستنبطون الأحكام الدينيَّة من مصادرها التشريعية، يدخلون في عموم «أولي الأمر» ضمن حدود اختصاصاتهم.

(٣) وأهل الحلّ والعقد في كلّ اختصاص من الاختصاصات، كالصحّة، والاقتصاد، والتعليم، والإدارة، والسياسة، وغير ذلك، يدخلون في عموم «أولي الأمر» ضمن حدود دوائرهم واختصاصاتهم.

وهكذا..

ونلاحظ في الآية أنّ الله عزّ وجلّ لم يُعِدْ فعل الأمر بطاعة أولي الأمر من المؤمنين، كما فعل في الأمر بطاعة الرسول، بل اكتفى بالعطف المباشر، أي: لم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم.

ونستطيع بالتأمل مع دلالات نصوصٍ أخرى أنْ نفهم أنه سبحانه قد دَلّ بهذا على أنّ طاعة أولي الأمر من المؤمنين ليست مطلقةً، كما هي حال طاعة الرسول.

وبالبحث ومتابعة تدبُّر سائر النصوص من الكتاب والسنّة، نعلم أنّ طاعة أولي الأمر من المؤمنين مشروطة بشرطٍ عامّ، وهو أن لا يكون أمرهم أو نهيهم في معصية لله أو الرسول، أو في تغييرٍ أو مخالفةٍ لحكم اللهِ أو الرسول في أيّةِ قضيّةٍ من القضايا.

فليس لأولي الأمر تفويض مطلق، بل لهم إذْنٌ مقيَّدٌ في أن لا يكون في معصية الله أو رسوله، أو في مخالفة لحكم جاء عن الله أو رسوله.

وطاعة أولي الأمر مشروطة أيضاً بأن يكونوا من المؤمنين، أمّا طاعة من يتولّى أمور المؤمنين من غير المؤمنين، فلا تدخل في عموم هذا الأمر الرّبّاني، وهي قضية تخضع ـ في غير معصية الله ورسوله ـ لمقتضيات جلْب المصالح والمنافع، ودفع المضار والمفاسد، بحكم الضرورة.

وقد دلّت النصوص على أنّ الطاعة إنّما تكون في المعروف، فلا تكون في المنكر، وأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وبنظرة عامّة فاحصة نكتشف أنّ طاعة أولي الأمر من المؤمنين تكون على وجوه، فمنها الوجوه التالية:

الوجه الأول: مباحات عامّة يأمرون أو ينهون عن شيء منها.

الوجه الثاني: أن يكون تكليفهم بياناً في فتوى شرعية، أو إعلاناً إداريّاً، أو تنفيذاً قضائيّاً، لحكم الله أو حكم رسوله.

وفي هذا ليس لأولي الأمر من المؤمنين على من هم تَحْتَ وِلايتهم من المؤمنين أيُّ حكم استقلالي، إنما يستخدمون سلطانهم لحمل من هم تحت ولايتهم على تطبيق أحكام الله ورسوله، أو كشفها وبيانها لهم، وتعريفهم بها.

الوجه الثالث: أن يستنبطوا أحكاماً دينيّة بطرق الاستنباط الشرعية المأذون بها لأهل الاجتهاد في استنباط أحكام الدين، كَفَهْمِ النصوص، أو القياس عليها بإدراكات استنباطيّة تختلف فيها إدراكات أهل الاستنباط من المجتهدين، والهدف منها التعرُّف على حكم الله ورسوله، وهذا من خصائص فئة من المؤمنين ذات أهلية لهذه المهمّة.

وبعد استنباط الحكم الذي يراهُ أهل الاجتهاد، يوجّه أولو الأمر من المؤمنين الأمرَ به، فيكون واجب الطاعة.

الوجه الرابع: أن يضعوا أنظمة إدارية لتنظيم أمور المؤمنين المدنيّة، وهذا من خصائص ذوي الأهلية لوضع الأنظمة الإدارية المدنية. وبعد اعتمادها من ذوي الاختصاص، يوجّه أولو الأمر من المؤمنين الأمر بها، وعندئذٍ يجب على المؤمنين طاعة الأمر والعمل بها.

وهذه خاضعة لاحتمالات التغيير والتبديل، بحسَب المصلحة التي يراها ذوو الاختصاص، ويأمر بها بعد ذلك أولو الأمر.

القضيّة الخامسة:

ما تضمّنه قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾:

أي: فإن تنازعتم يا أيها الذين آمنوا في شيءٍ من الأحكام، أو الأوامر التي يوجّهها أولو الأمر من المؤمنين، فقال بعضكم: إنّ حكم الله، أو حكم رسوله في هذه المسألة كذا. وقال آخرون منكم: بل حكم الله أو حكم رسوله فيها كذا. أو قال بعضكم: إنّ هذا الأمر التنظيمي ليس فيه معصية لله والرسول. وقال آخرون منكم: بل فيه معصية لله والرسول. فإنّ عليكم جميعاً أن تردُّوه إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله، لمعرفة الحكم الشرعيّ منهما.

وطريق الردّ إلى الكتاب والسُّنة هو الردّ إلى أولي الأمر من أهل الاستنباط المجتهدين، الذين يبحثون في آيات كتاب الله، وفيما صحّ من سنة رسول الله، للتعرّف على حكم الله ورسوله، فيما قام حوله التنازع، كما قد جاء التصريح بأنّ المجتهدين أهلَ الاستنباط همُ الذين يعلمون بالاستنباط الحقّ والصواب في قضايا المسلمين العامّة، من قضايا الأمن والخوف، أي: السِّلم والحرب، فقال تعالى في سورة (النساء):

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ... ﴿٨٣﴾﴾.

أي: إلى الرسول في حياته وتحت قيادته، وإلى أولي الأمر منهم إذا كانوا في سراياهم أو أقاليمهم بعيدين عن الرسول، ثم بعد وفاته ﷺ في كلّ الأحوال.

وهذا الرّدّ إلى الله والرسول، عن طريق اكتشاف أهل الاجتهاد والاستنباط، الذين يُحْسِنُون تدبُّر كلام الله في القرآن، وفهم بيانات الرسُول عليه الصلاة والسلام، في حال التنازع في الأمرِ الْمُهِمّ، يَدُلُّ على أمرين:

الأمر الأول: أنّ المؤمنين متى أجمعوا على أمر ولم يتنازعوا فيه، فإنّ حُكْمَ اللّهِ فيه، أوْ وَجْهَ الْحَقّ والصَّواب، أو الوجْهَ الأحْسَنَ والأَفْضَل، هو فيما أجمعوا عليه، وهذا من عصمة الله لجماعة المؤمنين في هذه الأمّة مِنْ أنْ تَجْتَمِعَ فَتُجْمِعَ عَلَىٰ ضلالة.

إذْ جعل النّصّ الرّد إلى الله والرسول مُقيّداً بظاهرة التنازع، فدلَّ على أنّه لا رَدّ

في حالة الإجماع، نظراً إلى أنّه لا يكون إجماع للمؤمنين على ضلالة، ولا على أمرٍ فيه معصية لله ورسوله.

وقد روى البخاري ومسلم عن المغيرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

فإذا اتفقَتْ أُمَّةُ مُحمَّدٍ على أمر فهو الحقّ والصواب، أو الأحسن والأفضل، إذْ تدخل فيهم الطائفة التي هي على الحقّ، والتي لا تزال في أمّة محمد ﷺ.

وإذا اختلَفُوا وتنازَعُوا فالحقّ والصواب، أو الأحسن والأفضل، ما عليه طائفة منهم، وهذه الطائفة ظاهرة بيّنة، ليست خفيّةً ولا مستُورة.

الأمر الثاني: أنّ مَنْ لم يكن أهلاً لاستنباط خفايا الأحكام من مصادرها، أو استنباط وجه الحقّ والصواب، أو الأحسن والأفضل من أماراته، فلا يجوز له أن يتصدّى للاستنباط ويَبُتَّ فيه رأياً.

وباستطاعتنا أن نفهم من الإحالة على أهل الاستنباط من المؤمنين، أنّه إذا بقي التنازع والخلاف الاجتهاديّ، فالترجيح العقليُّ يقضي بترجيح رأي الأكثرية من أهل الاستنباط المعاصرين، وهذا قابل للتعديل في أزمان لاحقات، فقد يختلف الترجيح، أو يكثر عدد الذين كانوا قلة في زمن سابق، أو يحصلُ إجماعٌ لاحقٌ، وعندئذٍ يكون ما أجمعوا عليه هو الحق والصواب، أو الأحسن والأفضل.

وقد جاء تقييد الأمر بالرّد إلى الله والرسول بقيد: ﴿إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ للإشعار بأن عدم الرّدّ إلى الله والرّسولِ من الأمور المنافية لمقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، وذلك لأمور:

(١) لأنّ الإيمان بالله يدفع إلى معرفة حقّ الله على عباده، وإفراده بالعبادة، ومنها طاعته والعمل بأوامره ونواهيه، وتطبيق أحكام شريعته لعباده.

(٢) ولأنّ الإيمان باليوم الآخر يدفع إلى طاعة الله في أوامره ونواهيه، بدافعي الرغَب بثوابه في دار النعيم، والرَّهَب من عذابه وعقابه في دار العذاب.

ويُمْكِنُ أنْ يكون قيداً لكلام مطويّ تقديره كما يلي:

وأنتم تردّونه إلى الله والرسول إنْ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر.

والغرض بيانُ أنّ المؤمنين الذين يكون إيمانهم صحيحاً سليماً صادقاً حاضراً في تصوّراتهم فإنّهم يردُّون كلَّ شيءٍ يتنازعون في حكمه إلى الله والرّسول بدوافع من إيمانهم الصحيح الصادق الماثِل في تصوُّراتهم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ أي: ذلك الرَّدّ الذي هو رفيع المقام في مراتب الدِّين هو خير لكم أيها المؤمنون، وهو أَحْسَنُ تأويلاً، أي: إرجاعاً من أن تردُّوا ما تنازعتم فيه من أمرٍ إلى حكم آخر، كتحكيم العقل، أو العرف، أو القوانين الوضعيّة، أو تحكيم الطاغوت، أو غير ذلك. وهو أيضاً أحسنُ عاقبة يؤول أمركم إليها.

* * *

الفقرة الثانية: عرض ظاهرة تحاكم المنافقين إلى الطاغوت، وتركُهم التحاكمَ إلى كتاب الله وإلى الرسول في خصوماتهم، على خلاف مقتضيات الإيمان، دلّ عليها:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

أَلَمْ تَرَ: الخطابُ للرَّسُولِ أوّلاً، ثم من بعده إلماحاً وتعريضاً لكلّ من يَصْلُحُ لأن يخاطب به، حتّى المنافقين المتحدَّث عَنْهم في النّصّ، للتعجيب من سلوك المنافقين المتناقض، بين ادّعاء الإيمان والعمل بخلاف مقتضياته من التحاكم في خصوماتهم إلى الطاغوت، مع إرادة ذلك عن تصميم.

والمعنى: انظر تجد سلوكاً متناقضاً عجباً، لفئة من المنتمين إلى الإسلام، وهم

الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزِلَ إليك يا محمد، وما أنـزل من قبلك، وهم مع ذلـك يُريدون أنْ يتحاكموا إلى الطاغوت.

لقد جاء التعبير بأنّهم ﴿يُريدون﴾ بصيغة الفعل المضارع الذي يدلُّ على الحركة المتجدّدة، لإفادة أن سلوكهم لم يكن نتيجة نزوة طارئة، أو شهـوةٍ عارمـة، أو رغبةٍ في المعصيةِ عارضة، وإنما كـان نتيجة عمـل إراديّ قلبـيّ متجددٍ، لا يكـون في العادة إلّا أثراً لعقيدة مضادّةٍ لادّعاءِ الإيمان بالله ورسـوله، وهـذا يدلُّ على أن إعـلانَهُم بألسنتهم أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وهو القرآن، ومـا أُنزل من قبلك وهـو التوراة ومـا أنزل على أنبياء بني إسرائيـل، إعلانٌ كـاذب، فهو أحرى بأن يكـون زعماً، لا خبـراً يترجح فيه الصدق، أو يُظَنُّ فيه الصدق.

ولمّا كانوا يُكرّرُون دواماً هذا الإعلان جاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿يَزْعُمـون﴾ بصيغة الفعل المضارع.

أي: فهم بتكرارٍ يَدّعون الإيمانَ ادّعاءً كاذبـاً، وهم بتكرارٍ يُـريدون أن يتحـاكموا إلى الـطاغوت، أي: إلى غيـر حكم الله ورسولـه ــ وقد سبق بيـان هـذا فيمـا ورد من أسباب النزول ــ مـع أنّهم قد أُمِـرُوا بأنْ يكفُـرُوا بالـطاغوت، وذلـك في عدّة نصـوص قرآنية منها ما يلي:

* قول الله عزّ وجل في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾.

* وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

* وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾:

أي: والكافر بالشيء لا تتوجّه إرادته بتصميم للتحاكم إليه، فتوجُّه الإرادة لـه دليل عدم الكفر به.

وإرادتهم التحاكُمَ إلى الطاغوت ضلالٌ بعيدٌ عن دائرة الإيمان والعملِ بمقتضاه، وتحاكُمُهُم الفعلي إلى الطاغوت ضلالٌ بعيد عن صراط الإسلام، وكلٌّ مِنْ هٰذيْنِ الضلالين يطابق مراد الشيطان فيهم، إذْ هو يُريد أن يجدهم ضالِّين عن دائرة الإيمان، وعن صراط الإسلام ضلالاً بعيداً.

ألم يتعهّد بإغواء ذُرّيّة آدم أجمعين إلاّ عباد الله منهم الْمُخْلَصينَ والْمُخْلِصِينَ، منذ حكم الله عليه بالغواية إذْ عصى أمر الله، وأصرّ على عصيانه، ولم يتراجع ولم يَتُبْ ولم يستغفر؟

وقد أبان الله عزّ وجلّ إرادة الشيطان المتجدّدة دواماً أن يَضِلَّهُمْ ضلالاً بعيداً في النصّ الذي نتدبّره، فقال تعالى:

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾.

وإذا كان الشيطان يُريدُ دواماً أنْ يُضِلَّهُمْ، فهو يتخذ دواماً كلّ ما يستطيع من وسائلِ إغواءٍ لإضلالهم، وحين يَضِلُّون خروجاً عن دائرة الإيمان، أو خروجاً عن صراط الإسلام، فإنّهم يحقّقون في أنفسهم مراد الشيطان فيهم، إذْ إنّ أكبر همّه أن يجدهم يوم الدين في جهنّم يُعَذَّبُونَ معه.

ومن دلائل نفاق هؤلاء، وأنّهم ليسوا مجرّد عصاةٍ بدوافعِ نَزَواتٍ أو شَهواتٍ أو نَزَعاتٍ عارضاتٍ، أنّهم إذا ذُكِّرُوا باللّهِ واليوم الآخر، وقيل لهم: تعالَوْا إلى ما أنزل اللّهُ في كتابه فاعْمَلُوا به، وتَعالَوْا إلى رسول الله ﷺ ليحكُمَ بَيْنَكُمْ، كانَ رَدُّ فعلهم التِّلْقَائِيُّ السّريع الذي يَصْدُر عنهم دون رويّة، باعتباره أثر كُفرٍ مُستَقِرٌ في النّفس، هو

أن يصدُّوا عن الرسول أوعَنْ دعوةِ الدّاعي إليه صُدُوداً كاشفاً هُوِيّتهم الحقيقيّة، ودالاًّ على أنّهم منافقون.

ومن هـذا نعلم أن ردود الأفعال التلقـائيّة كـواشفُ لما في البـواطن، والله يُعلّمُنا هذا الأسلوب من أساليب اختبار المنافقين، فقال الله عزّ وجلّ في النص:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

أي: أمّـا غير المنـافقين فتكونُ لهم أحـوالٌ أخرى غيـر هـذا الصُّـدود الكـاشف للنفاق.

فالذي لا يكون منافقاً يُلاحظ أنّ ردّ فعله استجابةٌ للدعوة، وتوبةٌ، أو لينٌ وسكينةُ نفسٍ، أو محاولةٌ ما للتغلّبِ على الهوى، بقدر قوة الإيمان لديْه، وقوةِ إرادته الإيمانيّة في التغلب على دوافع النفس المضادة.

إنّ وضع كلمة ﴿المنـافقين﴾ في قولـه تعالى: ﴿رأيْتَ المنـافقين يَصُدُّون عنْك صـدوداً﴾ بدل الضميـر، إذ كان السيـاق في البيان العـادي، يقضي بأن يكـون النص: رأيتهم يَصُدّونَ عنكَ صُـدوداً. قد دلّ على هـذه المعاني التي وضحت لنا آنفاً، ودلّ على أنّهم بسلوكهم الماديّ الإيجابي بتحـاكُمِهِمْ إلَىٰ الطّاغُـوت، والسَّلْبِيّ بصدودهم التلقـائي السّريـع عن الاستجابة لدعـوة الـداعي إلى التحـاكم إلى مـا أنـزل الله وإلى الـرسول، قـد كشفوا كُفـرهم البـاطن، ونفـاقهم فيما يـدَّعون بـألسنتهم فصارت إدانتهم بالنفاق مقترنة بالسلوك المادّي الذي يدلُّ على حقيقتهم.

لـذلك اقتضىٰ الأداء البيـانيُّ الرفيـع إعلان أنّهم منـافقون، وتـركَ الكنـايـة عنهم بالضمير، والعدولَ عنه إلى الاسم الصـريح، وهـو وصفهم بأنّهم منـافقون. مـع ما في هذا الأسلوب من دلالة احترازية لإخراج عصاة المؤمنين من غير المنافقين، وهم الذين إذا ذكّروا بالله واليوم الآخر، لأنوا، ولَم يَصُدُّوا هذا الصدود، وكان منهم سلوك ما يـدلّ على عدم نفاقهم.

فكشف النص واقع التباين بين ما يُعْلِنُه المنافقون دواماً، وما يكون من سلوكهم،

وهذا أمر مثيرٌ للعجب حقاً، أليس عجيباً أنْ يُكذِّبَ الواقع العمليّ الدعوىٰ الكلاميّة، وأن يظهر ما بينهما من تبأين وتناقض؟!

إنَّ الأمر المنطقيّ الطبيعيّ الذي لا يثير العجب والاستغراب، هو التطابق بين الادّعاء والواقع، أمّا التناقض أو التضادّ بينهما فهو المثير للعجب حقاً.

هذا ما دلَّ عليه الاستفهام التعجيبي في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ . . . ﴾.

إلى آخر النص، فهي تثير التَّعَجُّبَ من واقع حالهم المتناقض بين الادعاء والسلوك.

الفقرة الثالثة: طرح احتمال تمكين اللّهِ رسُولَه من معاقبتهم على نفاقهم الذي ظهرت آماراته، مَعَ بيان تَعِلّاتهم التي ستكون منهم للاعتذار عن سلوكهم، دلَّ عليها:

* قول اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

أي: فكيف تكون حالُهم، إذا أذِنّا لك يا محمّد بمعاقبتهم على نفاقهم الذي ظهر لك من أماراته ما يدينهم بالكفر والرِّدّة، فحلّت بهم مصيبة حكمك عليهم بالرِّدة، التي تجعل دماءهم مستباحةً بسبب ما قدّمَتْ أيديهم؟

والجواب المطويّ الذي لم يذكر في النصّ، ونستطيع فهمه: هو أنّهم سيصابون بالهلع والخوف الشديد عندئذٍ، فيفكِّرُونَ في انتحال الأعذار الّتي يرون أنها تخرجهم من مواقع الإدانة فالعقاب، ثمّ يسعَوْنَ إليكَ مذعورين، يحلفُون بالله على أنّهم ما أرادوا بعملهم إلّا إحساناً وتوفيقاً.

وبالتأمل في واقع حالهم، والتفكر فيما يمكن أن يقدّموه من عذر، يظهر لنا أنّهم يعتذرون بأمرين:

الأمر الأول: أن خصومتهم مع كافر غير مسلم، فهم لا يريدون أن يضعوا الرسول موضع الاتّهام والتجريح من قبل أهل الكفر، إذْ رُبّما اتّهموه بمحاباة من هو

مؤمن به، فمن الإحسان إلى الرسول إبعاده عن مواطن الاتهامات والشبهات، بالتحاكم إلى غيره من غير المسلمين.

الأمر الثاني: أنّهم لم يتحاكموا إلى الطاغوت ليحكُم بينهم بدل حكم الله ورسوله، وإنما ذهبوا إلى بعض أهل الخبرة في حلّ الخصومات، من غير المسلمين، ليوفق بينهم وبين خصومهم توفيقاً يقوم على المصالحة وترضية الفريقين، لا على الحكم بينهما بحكم مخالف لحكم الشرع.

دلّ على هذين الأمرين قولهم: ﴿إِنْ أردنا إلاّ إحساناً وتَوْفيقاً﴾ أي: ماأردنا ألاّ إحساناً للرسول، وإجراء توفيق بيننا وبين خصمنا، وليس في هٰذيْنِ الأمْرين منافاة لقاعدة الإيمان، ولا لصراط الإسلام.

ويُؤكّدون هذا الدفاع عن سلوكهم لتبرئة أنفسهم بالحلف بالله، والحلف بالله حجّةُ من لا بيّنَةَ له، فهو من أكبر وسائل الكذّابين والمنافقين، ولا سيما حين يتحدّثون عن سرائرهم، وضمائرهم.

* * *

الفقرة الرابعة: المنهج الربّاني في معالجة المنافقين حول مثل هذه الظاهرة من ظواهر سلوك المنافقين، يبينه:

* قول الله عزّ وجل:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ۝٦٣﴾.

أولئك: أشار الله إليهم بإشارة البعيد، تعبيراً عن انحطاط دركتهم وبعدها الشديد إلى الأسفل. والمعنى: أولئك البعداء جدّاً عن الإيمان وعن مواطن القرب من الله ومن رحمته، أولئك: يعلم الله ما في قلوبهم من كفر، مع تظاهرهم بالإسلام نفاقاً، فلا تَشْغَلْ قلبك يا محمّد بهم، ولا توجّه جهودك لمعاقبتهم على ما بدر منهم من دلائل نفاقهم وعامِلْهُمْ وفق هذا المنهج ذي المراحل الثلاث:

المرحلة الأولى: أعرض عن معاقبتهم ومؤاخذتهم على ما بدر منهم، وأعطهم

من وجهك إعراضاً يُشعِرُهم بأنّك مستاءٌ ممّا فعلوا، ويُشعرهم بأنّك خبيرٌ بما فعلوا.

المرحلة الثانية: عِظْهُمْ بالتحذيرِ منْ مَغبَّة تحاكمهم إلى غير حكم الله ورسوله، وبالإطماع بثواب الذين يُحَكِّمُون كتاب الله وسنَّة رسوله في كلّ ما شجر بينهم، وبما يُصَحِّحُ إيمانهم ويقوّيه ويرسّخه.

فالوعظ هو النصح بما هو خير، مع التحذير من المخالفة بسوء العاقبة، ومع تليين القلب بوسائل الإقناع والترغيب.

المرحلة الثالثة: قل لهم في أنفسهم، أي: في سِرِّهم، أو في شأن حقيقة أنفسهم، قولاً بليغاً، أي: بالغاً عمق وجدانهم، حيث تكون غاية التأثير.

وإذا أمعنا النظر في نوع هذا القول البليغ، لم نجد أبلغ من أن يكشف الرّسول لهم في كلام يُسِرّ لهم به، حقيقة نفاقهم الذي يكتمونه، مع بعض أعمالهم التي يخفونها، ممّا يدلّ على أنهم منافقون، ليعلموا أنّهم مكشوفون للرسُول، وأنّ الله عزّ وجلّ قد أطلعه على سرائرهم، فما يتظاهرون به من إسلام ومتابعة إنما هو نفاق، وما يقدّمونه من معاذير وتعلّات، لا يقبلها الرسول مصدِّقاً لهم، وإنّما يقبلها لأنّ السياسة اقتضت أن يعاملهم بحسب ظواهرهم، لا بحسب بواطن سرائرهم، وما يُخْفُون في صدورهم.

وبعد أن يكشف لهم في سرّهم ما يَعْلَمُه من حقيقة أمرهم، يتوعّدهم بإعلان حقيقة كفرهم أمام المسلمين، وعندئذٍ فلا بدّ أن يُدانُوا ويعاملوا معاملة أهل الكفر، أو أهل الرِّدّة.

* * *

الفقرة الخامسة: بيان أنّ كلّ الأمم مأمورون بطاعة رُسُلِهم وهو ما في:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ . . . ﴿٦٤﴾﴾:

أي: وما أرسل الله من رسول لأمّةٍ من الأمم إلّا جعل هذا الرّسولَ في أمّته قائداً وإماماً يطيعونه بإذن الله، فيجب عليهم طاعته فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه بإذن الله،

من كلّ أمرٍ داخلٍ في حدود إمامته وقيادته، إذْ أذِن الله له بأن يأمرهم وينهاهم، وكلّفهم طاعته في ذلك.

فليس محمّدٌ ﷺ بصاحب خصوصيّةٍ في هذا الأمر، بل كلُّ رُسُل الله لأقوامهم كانوا بالتّولية الربّانيّة والإذن الرّبّاني كذلك. ونلاحظ أنّ التّنبيه على هذه السنّة الربّانيّة الدائمة في شأن الإلزام بطاعة الأمم لرسلهم، من أساليب التربية النافعة، القائمة على الإقناع وقاعدة التساوي.

وفي هذا النص حصر بالنفي والاستثناء، وجيء فيه بلفظ (مِنْ) الزائدة لتأكيد استغراق النفي لكلّ أفراد الرُّسل.

* * *

الفقرة السادسة: إطماع الّذين تحاكموا إلى الطاغوت بتوبة الله عليهم وغفرانه لهم، إذا استغفروا الله وتابوا إليه، وصَدَقُوا في انتمائهم إلى الإسلام، أو صحّحوا إيمانهم، واستغفر لهم الرسول، دلّ عليها:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾:

أي: ولو أنهم بَعْدَ أن ظلموا أنفسهم، فلم يَضُرُّوا أحداً غير أَنْفُسِهِمْ بالتحاكُم إلى الطاغوت، جَاءُوكَ يا مُحمّد، فأعْلَنُوا تَوْبتهم مما فعلوا، واستغفروا الله، وطلبوا منك أن تستغفر لهم، فاستغفرت لهم بوصفك رسولاً، ولذلك وُضع الوصف الظاهر «الرسول» موضع الضمير، إذْ لم يَقُلْ: واستغفرتَ لهم، لوجدوا الله تَوّاباً رحيماً، فهو يتوب عليهم أي: يعود عليهم بتوجُّهاته كما تابوا، ويرحمم فيغفر لهم ذنوبهم، ويزيدهم من فضله رحمةً منه.

فباب التوبة مفتوحٌ لهم ولغيرهم، ما داموا أحياءً، ولم يُقْفَلِ الباب العامّ للتوبة.

وهنا نلاحظ أنّ التربية الرّبّانيّة تقوم باستمرار، على الإطماع بالتوبة والاستغفار، مهما عظم جُرْمُ المذنب، وتَعِدُ بقبول التوبة، وبالعفو والغفران لمن تاب واستغفر

صادقاً مخلصاً في توبته واستغفاره، ما دام باب التوبة مفتوحاً.

* * *

الفقرة السابعة: من دلائل صحة الإيمان وصدقه تحكيم الرسول ﷺ فيما شجر بين المسلمين، دون شعور بالحرج من أقضيته، ودون رفض أو عصيان لأوامره ونواهيه، دلَّ عليها:

قول الله عزّ وجل:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

جاء في هذا التعبير تكرير حرف النفي، وبينهما قسم، ويمكن أن نفهم هذا التعبير بأحد وجهين:

الوجه الأول: أن يكون: «وَرَبِّكَ لا» تأكيداً بالقسم وحرف النفي الثاني، لحرف النفي الأول. والأصل: «لا. لا» تأكيداً، وجاء القسم بينهما تأكيداً مضافاً لحرف النّفي الثاني، وهذا من أساليب تأكيد النفي عند العرب.

الوجه الثاني: أن يكون حرف «لا» الأول جواباً لسؤال مطويّ، تقديره: أيكونُ الّذين لم يُحَكِّموا رسول الله فيما شجر بينهم وبين الآخرين مؤمنين؟

والجواب «لا» ونسمّي هذه حرف جواب، وهي تنفي ما جاء في السؤال، وهذه تُحْذَفُ الجمل بعدها كثيراً. ثم جاء تأكيد الجملة بقوله تعالى:

﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ...﴾

إلى آخر النص.

والمعنى: وربّك يا محمّد لا يكونون مؤمنين صادقي الإيمان أو كاملي الإيمان هم ولا غيرهم، حتى يُحكّموك في كلّ خلافٍ على حقّ متشابك فيما بينهم، كتشابك أغْصَان الشجر بعضها في بعض، الأمر الذي أحدث خصومة بينهم.

ولا يكفي مجرّد تحكيمهم لك، بل لا بُدّ أن يتحقّق فيهم أمران آخران يأتيان بعد أن تقضي بينهم:

الأمر الأول: ألاّ يجدوا في داخل أنفسهم حرجاً «أي: ضيقاً وانزعاجاً» ممّا قضيت به عليهم.

وهذا التكليف موجّه لحركة نفوسهم الإراديّة التي يؤثر فيها صدق الإيمان.

الأمر الثاني: أن يُسلّموا تسليماً كاملاً، فلا يعارضوا ولا يمانعوا في تنفيذ قضائك، بل يسارعون في تنفيذه مسلّمين مستسلمين. وهذا التكليف موجّه لتصرفاتهم الماديّة الظاهرة.

ويتساءل المتدبّر: هل المراد نفيُ دخولهم في دائرة الإيمان إذا أرادوا ذلك؟ أو نفي ارتقائهم إلى مرتبة الإيمان الماثل في التصوّر والمؤثر في السلوك بالتوبة، وترك العصيان؟

وأُجيبُ بأن التعبير في الآية يصلح للأمرين معاً، وذلك كما يلي:

(١) فهو بالنسبة إلى المنافقين يدلُّ على أنهم لا يدخلون في الإيمان الصحيح، حتّى يتخلّصوا من نفاقهم بصدق الإيمان، فيكون من آثاره تحكيم الرسول فيما شجر بينهم...

(٢) وهو بالنسبة إلى المؤمنين العصاة يدلُّ على أنهم لا يرتقون إلى مرتبة الإيمان الماثل في التصوّر، والمؤثر في سلوكهم، حتى يظهر من آثاره تحكيم الرسول فيما شجر بينهم...

وقد سبق في النصّ ما يشير ضمناً إلى هذا الصنف في قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾:

أي: أمّا غير المنافقين من الذين قد يتحاكمون إلى الطاغوت فإنّهم لا يَصُدُّونَ صدوداً منكراً، بل يتعظون، أو تلين قلوبهم، أو تكون منهم محاولات ما للتغلّب على أهوائهم، بمقدار نسبة ما لديهم من إيمان عامل مؤثر، كما سبق بيانه.

الفقرة الثامنة: استثارة دافع الاقتداء بأسلافهم، مع بيان أنّهم أسوأ حالاً ممّا كان عليه أسلافهم حين كانوا يذنبون، دل عليها:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ... ﴿٦٦﴾﴾.

قرأ ابن عامر فقط: [إلّا قليلاً مِنْهُمْ].

فالرفع على أنه بدل من الضمير في «ما فعلوه» والنصب على الاستثناء من الكلام المنفي.

وهما وجهان جائزان عند النحاة.

أي: ولو أنّا كتبنا فريضةً عليهم لِيُكَفِّروا عن ذنبهم الذي ارتكبوه بتحاكُمهم إلى الطاغوت، كما كتبنا فريضةً على أسلافهم الذين عبدوا العجل:

﴿أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾:

«أنْ» حرف تفسير، و﴿اقْتُلوا أنْفُسَكُم﴾ بيان للفريضة التكفيريّة التي كتبَها الله على أسلافهم، ويذْكُر الله أنّه لو كتبها على هؤلاء ما فعلوا القتل لأنفسهم إلّا قليل منهم.

وكذلك لو أنّا كتبنا فريضةً عليهم من الفرائض الجهاديّة أنْ يخرجوا من ديارهم، كما كتبنا فريضةً جهاديّة على أسلافهم أن يخرجوا من مصر مهاجرين مجاهدين بقيادة موسى وهارون عليهما السلام، ما استجاب من هؤلاء الخُلُوف لأمْرِ التكليف إلّا قليل منهم.

إذن: فهؤلاء أسوأ حالاً من أسلافهم اليهود، مع ما كان عليه أسلافهم من سوء حال، وقسوة قلب، وفسق ومعصية لله عز وجلّ ولرسله.

وبهذا نلاحظ أنّ الآية تُشعر بأنّ هؤلاء المنافقين قد كانوا من منافقة اليهود، وهو ما جاء في طائفة من روايات أسباب النزول.

* * *

الفقرة التاسعة: عَوْدٌ إلى معالجتهم بالموعظة المشتملة على الترغيب، دل عليها:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

في هذه الفقرة من النصّ شرط وجزاء:

* أمّا الشرط فهو:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

والذي يوعظون به في موضوع هذا النص نستخلصه مما سبق من بيان فيه وهو ما يلي:

(١) طاعة الله عزّ وجلّ.

(٢) طاعة رسوله ﷺ.

(٣) طاعة أولي الأمر منهم.

(٤) ردّ كلّ ما يتنازعون فيه من أمور الدين إلى الله والرسول.

(٥) عدم التحاكم إلى الطاغوت.

(٦) تحكيم الرسول فيما شجر بينهم.

(٧) الرضا النفسي الكامل بحكم الرسول، دون شعور بالضيق والكراهية، ولو خالف الهوى.

(٨) التسليم الكامل، بتنفيذ ما يقضي به الرسول دون معارضة ولا تهرّب.

(٩) التوبة والاستغفار بعد أن ظلموا أنفسهم.

* * *

* وأمّا الجزاء فهو عطاءٌ ربّاني يتكوّن من أربع ثمرات:

الثمرة الأولى: ماذلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَكَانَ خيراً لهم﴾ أي: لنالُوا بفعلهم ما يُوعظون به خيراً ممّا يفوتهم من دنياهم بسببه، إذْ يُعوِّض الله عليهم من فضله ما هو أفضل وأحسن، كسعةٍ في الرزق، وطمأنينةٍ في النّفس، وسلامةٍ، ومجد، إلى غير ذلك من مطالب الحياة الدنيا التي كانوا يرجونها بالتحاكم إلى غير حكم الله ورسوله، وهذه الثمرة هي إحدى سنن الله في عباده في الحياة الدنيا.

الثمرة الثانية: ما دَلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾:

أي: ولكان فعلُهُمْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ أشدّ تثبيتاً لهم في الإيمان، وفي أماكنهم بين المسلمين، وهذا التّثبيتُ يَصرفُ عنهم قلق النفس الذي يجلبُهُ النفاق، أو تجلبُه المعصية التي هي ثمرة ضعف الإيمان، ويَصْرِف عنهم الخوف من انكشاف حالهم للمسلمين الذي قد يعرّضهم للعقاب والمؤاخذة، ويجعل لهم تمكيناً راسخاً مطمئناً بين صفوف المسلمين، الأمر الذي يَجْنِي لهم نفعاً عظيماً، إذْ به ترتفع أقدارهم، وبه يكتسبون الثّقة الاجتماعية، فتنفتح لهم في المجتمع الإسلامي أبوابٌ كثيرة من الخير الذي يرغبون فيه، ويكونون فيه أصحاب وزنٍ اجتماعيٍّ ثقيل، وهذا من التثبيت.

وهذه الثمرة هي إحدىٰ سُنَن الله في الأَنْفُس، وفي الاجتماع البشري.

الثمرة الثالثة: ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

أي: وَلآتَيْنَاهم في الآخرة يومَ الدّين أجراً عظيماً، وهذا الأجر العظيم يكونُ في جنّات النعيم، التي جاء وصفها في نصوص كثيرة من القرآن الكريم.

ولمّا كانت هذه الثمرة أمراً أخرويّاً على خلاف الثمرتين السابقتين، بدأها الله عزّ وجلّ بحرف «إذاً» الذي هو حرف جواب وجزاء، مع أنّ البَيَان كان يكفي فيه: ولآتَيْناهم من لدُنا أجراً عظيماً. لكنّ إضافةَ حرف «إذاً» لا بُدّ أن تُشْعِر بشيء، فما هو هذا الشيء الذي استدعى الاهتمام بذكر هذا الحرف الذي هو للجواب والجزاء، والكلام معطوفٌ على ما فيه «اللام» الواقعة في جواب الشرط؟

أقول: إنّه التنبيهُ على أنه جزاءٌ أخروي عظيم جدّاً، وليس هو من نوع ما سبق حتى يُعطف عليه عطفاً عادياً.

الثمرة الرابعة: ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

الصراط المستقيم هو صراط الله المبيّن في الإسلام بمعالمه الكبرى، وكثير من تفصيلاته، أمّا سائر التفصيلات التي تحتاج إليها مستجدّات الحياة فتقاسُ عليها، ويُسْتَهْدَىٰ فيها بهديها.

لكنّ إدراكَ تفصيلات هذا الصراط يحتاج إلى هداية خاصّة، زائدةٍ على البيان العامّ، وزائدةٍ أيضاً على ما يستنبطه المجتهدون، من أهل الاستنباط.

والهداية إليها تحتاج معونةً من الله وتوفيقاً، فالذين يَفْعَلُون ما يوعظون به ممّا سبق بيانه، يُمِدُّهم الله بمعونته، ويوفقهم، ويُنوِّرُ بصائرهم لمعرفة الحقّ في الأمور، وإدراكِ وجْه الخير، ومعرفة الأنفع والأقوم والأصلح، ويَصْرِفُ عنهم وساوس الشياطين وتسويلاتهم، التي تُبعدهم عن الصراط المستقيم في مسيرتهم في حياتهم، وهكذا تكون هدايتهم إلى صراطٍ مستقيم.

أمّا الذّين لا يفعلون ما يوعظون به، من طاعة الله، وطاعة رسوله، وطاعة أولي الأمر منهم، وردّ كلّ ما يتنازعون فيه من أمور الدين إلى الله والرسول، وعدم التحاكم إلى الطاغوت، والرضا النفسيّ الكامل بحكم الله ورسوله، دون شعور بضيق أو كراهية، والتسليم الكامل بتنفيذ أحكام الله ورسوله، ومتابعة مخالفتهم بالتوبة والاستغفار، فإنهم سيتخبطون في حياتهم في سُبلٍ ومتاهاتٍ متشعبات، ولا يهتدون إلى صراط مستقيم.

وجاء عطف هذه الثمرة على ثمرة الأجر العظيم في الآخرة، لأنَّهُما ثمرتان متماسكتان، فالأجر العظيم طريقه الصراط المستقيم.

الفقرة العاشرة: إقفال النصّ ببيان أنّ الذين يطيعون الله والرسول على ما سبق بيانه، سيكونون في جنّات النّعيم يوم الدين رفقاءَ الذين أنعم الله عليهم من النبيّين

والصدّيقين والشهداء والصالحين، دلّ عليها:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

في هذه الفقرة ترغيب بالمنازل الرفيعة في جنّاتِ النعيم، مع رفاق أجلاء قد أنعم الله عليهم نِعَماً فائقات، في منازل الفردوس الأعلى، وهؤلاء الرِّفاق هم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

هذه المنازل الرفيعة والصحبةُ الجليلة المجيدة تكون لِمَنْ يُطيعُ الله والرّسول طاعة مستوفية شروطها، على ما سبق بيانه في النصّ.

وقد اشتملت هذه الفقرة على شرط وجزاء، وربط للنصّ بما يلائمه من القاعدة الإيمانيّة:

* أمّا الشرط ففي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أي: طاعةً مستوفية كامل شروطها، على ما سبق بيانه في فقرات النصّ التّسع «مَنْ: اسم شرط جازم».

* وأمّا الجزاء ففي قوله تعالى:

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾.

﴿فأولئك﴾: الفاء واقعة في جواب الشرط وجزائه، والكلام بعدها هو الجزاء، واسم الإشارة مبتدأ.

أي: فالمطيعون لله والرسول على ما سبق بيانه، وأشير إليهم بإشارة البعيد، تعبيراً عن ارتفاع مكانتهم، وارتقاء درجتهم، وبعد منزلتهم عند الله عن سائر الناس من دونهم.

﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾:

خبر للمبتدأ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ والمعنى هم رفقاء الذين قضى الله بالإنعام عليهم يوم الدين، في منازل الفردوس الأعلى من جنّات النعيم جزاءً لهم بما كان منهم من أعمال صالحاتٍ، وابتغاءٍ لرضوانِ الله، وعملٍ بمحابّه.

وجاء بيانُ أصناف الذين أنعم الله عليهم بقوله تعالى:

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

(مِنْ) لبيان أصناف الذين أنعم الله عليهم، وهم:

(١) النبيّون: وهم يَعُمُّون المرسلين، لأنّ كلّ رسولٍ نبيٌّ، وهم من أهل الفردوس الأعلى في جنّات النعيم، الذين أنعم الله عليهم بفضله العظيم، ولو لم يكونوا أهل المرتبة العليا من عباد الله ما اصطفاهم الله بالنبوّة، وهم على درجات متفاضلات.

(٢) الصدّيقون: الصِّدِّيق هو الدائم التصديق بالحقّ، الذي لا يلوي عنه ولا ينحرف، مهما كانت الدواعي. وهو أيضاً الذي يُصَدِّقُ عملُهُ قولَه، فلا يكون لديه نفاق ولا رياء. وصيغة «فِعِّيل» من صيغ المبالغة السماعية.

وإذا كانت صفة الصدّيق ممّا يتّصفُ به غيرُ الأنبياء من فضلاء المؤمنين، فلا بدّ أن تكون صفةً للأنبياء والمرسلين، ولذلك وصف الله بها إبراهيم عليه السلام وإدريس عليه السلام إشعاراً بأنّ كلّ النبيّين صدّيقون، ووصفَ الذين آمنوا بالله ورُسُلِه إيماناً صحيحاً صادقاً بقوله: أولئكَ هُمُ الصِّدّيقون، ويدخل فيهم ببداهة النبيون، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ... ﴿١٩﴾﴾.

وفي مقدّمة الصِّدِّيقين من أتباع النبيّ محمّد ﷺ سَيِّدُنا أبو بكر رضي الله عنه.

(٣) الشهداء: وهم مَنْ ثَبَتَتْ لهم الشَّهادةُ في سبيل الله، بأن جاهدوا جهاداً صادقاً لتكون كلمة الله هي العليا، فقتلوا في سبيل الله.

الشهداء: جمع شهيد، وأصل «الشهيد» صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الشاهد»

وهو الحاضر العالم بظواهر أشياء وأحداث أدركها وهو حاضر، فهو يقدّم شهادته بها، وقد أطلق في لسان الشرع وَفق هذا المعنى اللّغوي، في عدة مواضع.

وأطلق لفظ «الشهيد» أيضاً وجمعه «الشهداء» في لسان الشرع على من قتل في سبيل الله، وهذا هو الأصل فيمن يستحقّ هذا الإطلاق.

وسمّى الرسول ﷺ من مات من المؤمنين مبطوناً، أو غريقاً، أو بالحريق، أو تحت الهدم، أو بذات الجنب، أو نحو ذلك شهيداً، وينبغي أن تكون شهادة هؤلاء نوعاً آخر غير شهادة الذين يُقتَلُون في سبيل الله فيكونون أحياءً عند ربّهم يرزقون، كما ثبت في القرآن والسّنة.

وتخصيصُ بعضٍ من يموت من المؤمنين بلقب أو بوصف «شهيد» فيه عدّة احتمالات ذكرها العلماء:

الاحتمال الأول: أنّ لفظ «الشهيد» يطلق في اللّغة على «الحيّ» فَسُمِّيَ الذي يقتل مؤمناً في سبيل الله، محتسباً أجره عند الله شهيداً، إذْ تكونُ له بعد موته حياةٌ عند ربه، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

وقد جاء بيان نوع حياتهم هذه عند ربّهم، فيما رواه مسلم في صحيحه، أنّ عبد الله بن مسعود قال: أما إنّا سألنا عن ذلك «يعني رسول الله ﷺ» فقال: (أي في بيان ما جاء في قوله تعالى: ﴿بَلْ أحياءٌ عند ربّهم يُرْزَقون﴾):

«أَرْوَاحُهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إلى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطّلَاعَةً:

فقال: هل تَشْتَهُونَ شَيْئاً؟

قالوا: أيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي ونَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟!

فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا قالوا: يارَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْواحَنا في أَجْسادِنا حَتَّى نُقْتَلَ في سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حاجَةٌ تُرِكُوا».

الاحتمال الثاني: قال ابنُ الأنباري: سُمِّي الشهيد «شهيداً» لأنّ الله وملائكته شُهُودٌ لَهُ بالْجَنَّة، أي: فهو مشهودٌ له بالجنّة، ففعيل على هذا بمعنى «مفعول».

الاحتمال الثالث: وقيل: لأنه حيٌّ لم يمت، فكأنه شاهد أي حاضر، ففعيل على هذا بمعنى «فاعل».

الاحتمال الرابع: وقيل: لأنّه يَشْهَدُ ما أعدّ الله له من الكرامة بالقتل، ففعيل على هذا بمعنى «فاعل».

الاحتمال الخامس: أنّه مشهودٌ له بِحُسْنِ الخاتمة، باعتباره قُتِلَ وهو يجاهد في سبيل الله، ففعيل على هذا بمعنى «مفعول».

أقول: كلّ هذه المعاني صالحة، فلا مانع من ملاحظتها جميعاً في تعليل هذه التسمية، والله أعلم.

(٤) **الصالحون**: جمع «صالح» وقد جاء في القرآن وصفاً للأنبياء والمرسلين، إذ الصلاح شرطٌ لمن هم أدنى مرتبة من الأنبياء، وما هو شرط للمرتبة الأدنى هو شرط للمرتبة الأعلى بداهة.

وجاء وصفاً لمن هم دون الأنبياء من المؤمنين، ودون الأبرار من الصالحين، فقد جاء وصفاً لمن هم أهل الدّرجة العليا من المتقين، فهم من الصالحين أيضاً، ويلحق أيضاً بهم الذين يُقصرون بحقوق هذه الدرجة لكنّهم أوّابون، فقال الله عزّ وجل بشأنهم في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إنْ تكونوا مستَوْفين حقوقَ مرتبَةِ المتقين بتأدية الواجبات وترك المحرّمات بصورة إجمالية عامّة، لكنّكم تُذْنِبون وتخطئون، فتتبعون ذنوبكم وخطاياكم بالتّوْبَة إلى الله والاستغفار والرجوع إلى صراط الاستقامة، فإنّه يَغْفِرُ لكم، ولا يخرجكم من

زُمَرِ الصالحين، وهذا فضل من الله دواماً بالنسبة إلى الأوابين الرّجاعين إليه:

﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾.

فلا تخرجكم إذَنْ هذه الذُّنوب والخطايا المتْبُوعَةُ بالتوبة والاستغفار عن زُمْرة الصالحين، وكذلك حال الأبرار إذا كانوا خطّائين أوّابين من باب أولى، وكذلك حال المحسنين بل هم أحقّ.

فالصالحون وصف يطلق على أهل مرتبة الإحسان، وعلى أهل مرتبة البرّ، وعلى أصحاب الدرجة العليا من مرتبة التقوى، ولا تخرجهم الخطايا عن زمرة الصالحين إذا كانوا أوّابين.

هذا ما هدى إليه تدبُّر نُصُوصِ الصالحين في القرآن الكريم.

فمن يُطع الله والرسُولَ يَجْعَلْه اللّهُ مع هؤلاء الزّمر الأربع الذين أنعم الله عليهم يوم الدين في جنات النعيم.

بعد هذا البيان أثنى الله على مرافقة هؤلاء الزّمر، فقال تعالى:

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

«الرفيق»: المرافق المصاحب، يستوي فيه المفرد وغيره.

«حَسُنَ»: فعلُ مَدْح، يَجْري مجرى «نِعْمَ» وفيه معنى التعجب: أي: أَحْسِنْ بأولئك رَفيقاً «أولَئكَ» فاعل «حَسُنَ» و «رفيقاً» تمييز أو حال.

والمعنى: ونعمتِ الصحبَةُ صُحْبَةُ هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، فقد حَسُنَ هؤلاءِ رفيقاً، لأنّ من كان رفيقاً للمنعّمين كان معهم مُنعَّماً، ومن كان رفيقاً للسعداء كان معهم سعيداً.

وأشار الله إليهم بإشارة البعيد تعبيراً عن ارتفاع منزلتهم عنده بالنسبة إلى من دونهم من الذين لا يكونون مع الذين أنعم الله عليهم.

ولكن هل ينالون هذا العطاء الرّبّاني بالاستحقاق الأصلي، أم بفضل من الله؟

ويأتي الجواب في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

أي: ذلك النعيم الذي يُصِيبُه هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، ويُصِيبُه معهم الذين يطيعون الله والرسول كما سبق به البيان، هو فضل من الله يتفضّل به على هؤلاء الزمر، بوعده الكريم، وليس باستحقاقهم الذاتيّ له.

وفي هذا ربط بعنصر من عناصر القاعدة الإيمانية في الجزاء، وهي أن العقاب بالعدل، وأنّ الثواب بالفضل.

وأخيراً ختم الله عزّ وجلّ ببيان عنصر آخر من عناصر القاعدة الإيمانية، ملائم لما جاء في النصّ، فالامتحان في الحياة الدنيا بالتكاليف الرّبانيّة، ومنها الإيمان، والطاعةُ لأوامر الله ونواهيه، ونيّةُ ابتغاء مرضاة الله في كلّ مطلوب اختياريّ من العباد طلبه الله منهم، لا بدّ أن يكون كلُّ ذلك مُحاطاً إحاطة تامّةً بعلمٍ شامل، يَجْري على وفقه الحسابُ والجزاء بالفضل أو بالعدل، لمختلف زُمَرِ المكلّفين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾:

أي: والله بكلّ شيءٍ عليم، وكَفَىٰ بالله عليماً بكلّ ما يفعل عباده، وبكلّ ما يضمرون في قلوبهم ونفوسهم، من إيمان، أو كفر، ونيات، وغير ذلك وبكلّ ما يُظْهِرونه من أعمال صادقة أو كاذبة.

فمن كان منافقاً متظاهراً بأنّه من المؤمنين المسلمين، فالله عزّ وجلّ يَعْلَمُ ما في قلبه، وكفى بالله عليماً يعلم حقيقة ما في القلوب والنفوس، لا تخدعه الظواهر، وهو سبحانه يضع الناس في الدرجات والمراتب بحسب ما يعلم من أحوال قلوبهم وسرائرهم، لا بحسب ظواهر أعمالهم المخالفة لما في دخائل نفوسهم.

وبهذا الختام أقفلت وحدة هذا النّصّ.

● ● ●

النصّ الخامس عشر

وهو من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول)

سادس سورة مدنية

الآيات من (٧١ ـ ٨٤)

حول ظواهر من النفاق تبرز عند الدعوة إلى القتال وبعده

* قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ ﴾.

﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣ ﴾

﴿ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤ ﴾

﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ
إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا
أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ
عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ
يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ
أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾

﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

* * *

(١)
موضوع النَّصّ

أمر الله عزّ وجلّ الّذين آمنوا بأن يأخذوا حِذْرهم فيتأهَّبُوا لدرْءِ كَيْد أعدائهم، آخذين بأسباب المبادهة، قبل أن يُبَاغِتهم عدُوُّهم وهم على غير استعداد لمواجهته وصدّ كيده.

ومن أسباب المبادهة أن ينفروا إلى القتال أو التصدّي للمواجهة جماعات متفرّقة أو مُتتابعة، أو جيشاً واحداً، فالمبادهة هي الخطّة الحربيّة الأكثر سلامة، والأَرْجَى لتحقيق النّصر.

عقب هذا أبان الله عزّ وجل مواقفَ من مواقف المنافقين وضعفاء الإيمان الذين يستجيبون لوساوسهم ومكرهم الإفسادي، وهي تَتلخَّصُ بما يلي:

(١) التباطُؤ والتَّهاون والتواني عن الخروج مع المسلمين لقتال عدوّهم.

(٢) تثبيط من يستجيب لهم من الجبناء وضعفاء الإيمان.

(٣) تحدّث بعضهم بالفرح والمسّرة إذا أصاب الخارجين من المسلمين للقتال مصيبة أو مضرّة، ويرى أنّ الله قد أنعم عليه، إذْ لم يَشْهَدْ معهم قتال عدوّهم فنجا بذلك من المصيبة.

(٤) التَّحسُّرُ والنّدم على ما فاتهم من الفوز بالغنيمة، إذا انتصر الخارجون من المسلمين، وأصابوا من عدوّهم غنائم، وهم مع هذا التحسّر يَحْسُدون الخارجين على ما أصابوا من غنائم حَسَد من لم يكن ذا وُدٍّ سابق، فيقول القائل منهم: يا ليتني كنْتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

(٥) ما يوجد لدى بعضهم من التناقض بين ما كانوا يُطَالِبُون به قبل الإذن بالقتال، وبين حالهم بعد أن كتب الله عليهم القتال.

فقبل الإذن بالقتال كانوا يُطَالِبُون بأن يؤذن لهم به، فيُؤْمَرُون بأن يكُفُّوا أيديهم.

وبعد أن كتب الله على المسلمين القتال دَبَّ الخوف في قلوبهم، فصاروا

يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية، وقالوا:

* ربّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ؟

* لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجلٍ قريب.

(٦) أنّهم إن تُصِبْهُمْ حسنةٌ من نَصْرٍ أو غنيمةٍ أو أيِّ أَمْرٍ قَدَرِي يسُرُّهم كَغَيْثٍ وخِصْبٍ وسَعَةِ رزقٍ وصحّة وبَنِين قالوا: هـذه من عند الله، أي: لم تـأتهم ببركـة دعاء الرسول، وبسبب إكرام الله له.

وإنْ تُصِبْهم سيّئةٌ من مصيبة في الأنفس أو في الأموال من امور قدريّةٍ يبتليهم الله بها قالوا: هذه من عند محمد، أيْ: لم يُحْسِنِ التصرّف في إدارته أو قيـادته في السلم والحرب.

أمّا من كان منهم ذا كُفْرٍ وعناد فإنّهم يقولون مقالة المشركين من قبل:

إنّ ما نزل بنـا من سيّئاتٍ ومصـائب إنّما كـان من شُؤْم دعـوة محمّد الّتي فـرّقت قومه، وجلبت النزاع والخلاف والحروب.

(٧) التّناقض بين ما يُعلِنُونَ للرسول من الطاعة والخضوع عند المـواجهة، وبين ما يُبَيِّتُونَ إذا خرجوا من عنده من المعصية والمخالفة، والعمل بغير ما أعلنوا له.

وخلال عرض هذه التصرّفات التي تصدر من المنـافقين ومن الذين يتـأثّرون بهم من ضعفاء الإيمان، شرحت الآيات المفهومات الإيمانية الملائمة لموضوعاتها.

فالظاهرات السلوكية التي أبانها هذا النصّ هي من أعمال المنـافقين أساسـاً، ثمّ من أعمال أهل الرّيب والشّك وضعفاء الإيمان، وربّما يشاركهم في بعضهـا بعض أهل الغفلة من المؤمنين.

وفيه أيضاً بيانٌ لبعض ظاهرات أخرى تكـون من المؤمنين، ولكنّها لا تـتلاءم مع صـدق الإيمان، ولا مـع اندفـاعاته الحماسيـة التي قد تـظهر قبـل الاختبـار بـالتـطبيق العَمَلِيّ، وقد ضُمَّت هذه لبعض ظاهرات المنافقين في النّص، للإشعار بأنّـه يَنْبغي أنْ لا تظهر إلّا من المنافقين، إذْ هي تتلاءم مع طبيعة النفاق، ولا تَتَلاءم مع طبيعة الإيمان الصحيح الصادق، لكنّ الله يعلم ما في النفوس فيُعامِل كلَّ إنسان بحسب مـا في نفسه

وقلبه من إيمانٍ أو كفرٍ، أو شكٍّ، أو جُبْنٍ، أو حُبٍّ للحياةِ الدُّنيا وتعلُّقٍ بها، فيُحاسِبُ ويُجازي بمقتضاها، لا بمقتضىٰ ظاهرات الأعمال فقط.

واشتمل النّصّ أيضاً علىٰ توجيهاتٍ رَبّانيَّةٍ حَوْلَ هٰذِه الظاهرات الّتي أبانَها، من خلال دعوة المؤمنين إلى الاستعدادِ، وأخذ الوسائل كلّها التي يقتضيها الحذرُ مِنَ الأعداء دون تفريط، وأتبع ذلك بالأمر بالخروج لقتال العدوّ حسْبَ الظروف الداعية بأسلوب الْوَحدات التي تَنْبَثُّ عصابات موزّعات تَنالُ من العدوّ النَّيلَ المطلوب، أو بأسلوب الجيش المجتمع الذي يخرج إلى القتال بقيادة واحدة.

ومن البدهي أنّ القيادة هي التي تقرّرُ القتال، وهي التي تقرّر أسلوب الوحدات التي تَنْبَثُّ على شكل عصابات، أو أسلوبَ خروج جيشٍ نظاميٍّ يقاتلُ جيشاً نظامياً.

واشتمل النصّ على الترغيب بالأجر العظيم لمن يُقاتل في سبيل الله، والتّنبيه على بعض المقتضيات التي دعتْ إلى أمرِ المؤمنين بقتال عدوّهم من أهل الشرك في مكة، إبّانَ تنزيل هذا النّصّ، وهي الانتصار لدين الله، وإنقاذ المستضعفين من الرّجال والنساء والولدان، الذين يتعرّضون لظلم كفّارِ مَكّة لهم من أجل إيمانهم وإسلامهم، وهم يدعون الله قائلين:

(١) ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾.

(٢) ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾.

(٣) ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

وقد دلّ النّصّ على أنّ الله تباركَ وتعالىٰ اختار أن يجعل إنقاذهم وتلبيَةَ مطالبهم، بتكليف المؤمنين قتالَ قادة الكفر وجنودهم، لينصُرَهُمْ عليهم، فيتحقق بذلك انتصار الإيمان وقَمْعُ الكفر، وابتلاءُ المؤمنين، وإنقاذُ المستضعفين، وتَحْريرُ البلد الحرام من الشرك والمشركين، وتمحيصُ المؤمنين، وكشفُ نفاق المنافقين وأهلِ الرَّيْبِ وضعفاءِ الإيمان.

* * *

أمّا الظواهر التي أبانها النصّ فأعرضُها بشيءٍ من التفصيل فيما يلي:

الظاهرة الأولى: ما يَفْعَلُه المبطِّئون عن القتال، فإذا خرج المؤمنون إلى القتال لم يخرجوا معهم، ودَعَوْا من يستجيب لهم من أهل الريب وضعفاء الإيمان إلى عدم الخروج، ثم هم بعد المعركة على إحدى حالتين:

(١) إنْ تعرَّضَ المسلمون لمصيبة، كهزيمة أو كثرة شهداء، فرحَ هؤلاء المتخلفون، وقال قائلهم: قد أنعم الله عليّ إذْ لَمْ أكنْ مع المسلمين حاضراً المعركة التي أصابتهم فيها المصيبة.

(٢) وإنِ انتصرَ المسلمون، ونالوا من عدوِّهم غنائم تتحلّب لها أشداق أهل الطمع بالدنيا، تحسَّرُوا وَنَدِمُوا حسداً، وقال قائلهم: يا ليتني كنْتُ مَعَهُمْ فأفوز فوزاً عظيماً، أي: بما أنالُ من نصيبٍ من الغنائم، وبما أحافظُ به عليه من سَتْرِ حالٍ بين المسلمين، إذْ قد يكشفُ التخلُّف المتكرّر نفاقه.

الظاهرة الثانية: مَا يكونُ من أهل الاندفاع الحماسيّ من إظهار الرّغبة بلقاء العدوّ ومقاتلته، قبل أن يجدّ الجدّ، ويأتي الإذن بالقتال، أو تُوجَّه نصوص الأمر به.

وهذا فريق يوجد في الناس دواماً، فمنهم صادقون ظاهراً وباطناً، إذا حَزَبَ الأمر وجاء الإذن بالقتال كانوا مع مقدمة المقاتلين الصادقين ومنهم صادقو الرغبة، لكنّهم إذا جدَّ الجدُّ وحزبَ الأمر، ودُعُوا إلى القتال، جَبُنُوا وتَخَاذَلُوا، وضعُفُوا عن مواجهة المقاتلين في مَعَارِكَ يَكونُ فيها قَتْلٌ وجراحة وآلام، وكانت رغبَاتُ حبِّ السلامة وحبّ الحياة أقوى في قلوبهم ونفوسهم من رغبات قتال العدوّ ودواعيه. ومنهم كذَّابُون يتظاهرونَ نفاقاً أو رياءً، وليس لديهم رغبةٌ أصلاً في مواجهة العدوّ لأنهم غير مؤمنين، أو هم شاكُّون لم يصحّ إيمانهم بَعْدُ، أو هم ضعفاء الإيمان. فهم في ساعات الأمن والسِّلْم يتظاهرون بالدعاوىٰ الكواذب، ويُسَابقون إلى إعلان رغباتهم بالقتال تفاخراً وتكبُّراً، يَسْتُرون بذلك حقائق ما في نفوسهم، ابتغاء مكانةٍ أو مصلحةٍ أو جاهٍ بين المسلمين. إنّهم رَغَّاؤون نَفَّاشُونَ كَذَّابونَ، فإذا جاء الأمر بالقتال جعلوا يُسَوِّفُون ويُماطلون ويطلبون التأخير والتأجيل إلى أجل آخر قريب.

الظاهرة الثالثة: ظاهرة هي من ظواهر المنافقين أساساً، وتُوجَدُ عند أهل الريْبِ، وضعفاءِ الإيمان بالرسول ﷺ.

من المعلوم أنّ الرسول في أمّتِهِ قائدٌ وإمامٌ يَسُوسُهم ضمن ما يرى من مصلحة وخيرٍ للإسلام والمسلمين، لكنْ قَضَتْ حكمة الله في خلقه أن يمتحنهم بالحسنات التي تسرُّهم، وبالسّيئاتِ الّتي تُزعجهم أو تؤلمهم، وهم يُحِبُّون الحسنات منها، ويكرهون السّيئات، ويغفلون عن أنّ الله عزّ وجَلّ يبلُو عبادهُ بالشرّ (أي: بالمصائب) وبالخير (أي: بالنِّعَم) فِتْنَةً (أي: امتحاناً واختباراً).

فإذا تصرف الرسول ﷺ تصرُّفات بمقتضى إمامتِه وقيادتِهِ الإداريّةِ والسياسيّة والعسكريّة لأمّتِه، فكان من نتائجها حَسَنَاتٌ دُنيويَّةٌ كنَصْرٍ وتَمكِينٍ وَغَنَائِمَ، بقضاء الله وقدره، قال المنافقون: هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ اللَّهِ، جاحدين حكمةَ الرسول في إدارته وسياسته، أي: لم تكن حكمةُ الرسول هي السبب في جلب هذه النتيجة الحسنة التي سرَّت المسلمين.

وإذا تصرّف الرسول ﷺ بمقتضى إمامته وقيادته الإدارية والسياسية والعسكرية لأمته، فكان من نتائجها سَيِّئَاتٌ دُنيويَّةٌ، كهزيمة وخسارة شهداء من المؤمنين، وظفرِ الأعداء بغنائم من المسلمين، وقد حصل ذلك بقضاء الله وقدره، قال المنافقون، ومعهم أهل الرِّيب والذين في قلوبهم مرض: هَٰذَا الذي حصل هو من عند محمّد، أي: بسبب تصرّفه الذي لم يكن ملائماً للمصلحة، ومن أمثلة هذا ما قاله عبد الله بن أبي ابن سلول بعد غَزْوة أُحدٍ، وسُقُوط من سقط من المسلمين شهداء فيها، إذْ قال: أطاع الأحداث وعصاني، وقال المنافقون معه: لو كانوا عندنا مَا مَاتُوا وما قُتِلوا، وجعلوا الرّسول هو السبب فيما نزل من مصيبة بالمسلمين في غزوة أُحُد.

الظاهرة الرابعة: نَقْضُ ما يُعْلِنه المنافقون من طاعةٍ لأوامر الرَّسُول، وتَبْيِيتُ غيره حينما يَخْلُو بعضهم ببعض، فيقرِّرُونَ أُموراً أُخرى غير الَّتِي أَعْلَنُوها حينما كانوا عند الرسول في مجلسه يُظْهِرونَ الْوِلاء والطَّاعَة، وهذه ظاهرة تتناسب مع طبيعة النفاق لا محالة، وقد يسير مع المنافقين أَهْل الرِّيب وضعفاء الإيمان، لكنّهم بالتّبع لا بالأصالة، فالذين يُبَيّتون الخلاف بعد إعلان الطاعة هم منافقون حتماً.

الظاهرة الخامسة: أنّ المنافقين ومعهم أهل الرّيب وضعفاء الإيمان، وربّما انساق معهم أهل الخفة والطيش، من صفاتهم الدائمة أنّهم يتسقطون الأحداث والأنباء

والأخبار التي تتعلّق بالمسلمين، من قضايا الأمن وقضايا الخوف، أي: من أمور السِّلم والحرب، فيذيعونها وينشرونها، ويتحدّثون فيها بزعم المشاركة في حلِّ مشكلاتها، لأنهم لا يشعرون داخليّاً بالولاء للمسلمين، فهم لا يهتمّون لكتمان ما يضرُّ المسلمين إذاعَتُهُ من أمور السلم وأمور الحرب، وهذا يشمل كلّ القضايا.

فالمنافقون ومن يسيرون معهم لا غَيْرةَ لهم على مصالح المسلمين، فلا يَهْتَمُّون لكتمان شيءٍ من أمورهم التي قد يضرّ إعلانُها مصالحهم، وقد يصل بعضها إلى عدوّهم، فيكيدهم، ويمكُر بهم.

وخلال عرض هذه الظواهر شرحت الآيات المنطق الإيماني، وقدمت التوجيهات المناسبات، وعالجت ونصحت ووعدت وأوعدت.

* * *

(٢)
المفردات اللّغويّة في النّص

﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾:

الحِذْرُ، والحَذَرُ: هو التَّيَقُّظ والتّأهُّب، واتّخاذُ الوسائل اللازمة مخافة مباغتة المكاره، من عدُوٍّ مداهم، أو صائل مهاجم، أوذي ضُرٍّ مُتَرصِّد، يترقَّبُ الغِرّات والغفلات، أو أيّ عارضٍ من عوارض الكون يحمل المصائب.

تقولُ لُغَةً: حَذِرَ يَحْذَرُ حِذْراً وَحَذَراً.

وأمْرُ الله المؤمنين بأن يأخذوا حِذْرهم من عدُوّهم ليس أمراً بأن يخافوا عدوّهم، ولكنّه أمرٌ باليقظة حتّى لا يباغتوهم وهم غافلون، وأمرٌ باتّخاذ الوسائل الكافية لصدّهم وقمعهم، إذا داهموا مباغتين في حين غِرّة، أو مترصّدين وقت غفلة.

﴿فَٱنفِرُواْ﴾:

أصل النفر التفرُّقُ عن ذُعْر، أو الشرودُ عن ذُعْر. ومنه نُفُور الدابة، ونُفُور الظباء، ويقال: نَفَرَ عن الشيء خوفاً منه، ونَفَر إلى الشيء طلباً للأمن عنده.

ثمّ استعمل لمطلق التفرّق. ومنه قولهم: نَفَر الحجاجُ من منى، يَنْفِرُونَ نَفْراً ونَفراً. ويسمّى اليومُ الثاني من أيّام التشريقِ يَوْمَ النَّفْر، لأنّ الحجّاج فيه يَتَفرَّقُونَ.

واستُعْمِلَ النَّفْرُ أيضاً بمعنَىٰ الخروج لدفع الخطر، ولقتال العدُوّ، وهذا المعنى هو المراد هنا في النصّ، وهو اصطلاح قرآني لما سيأتي بيانه.

والنَفِيرُ: هُمُ القومُ الّذِين يخرجُون لِدَفْعِ الخطر، أو لقتال العدُوّ.

﴿ثُبَاتٍ﴾:

جَمْعُ ثُبَة، أي: جماعة، قال علماء اللّغة: الثُّبَةُ: الجماعة، والعصبةُ مِنَ الفُرْسان، والجمع: ثُبَات، وثُبُون، وثِبُون.

فمعنى قوله تعالى ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾: اخرجوا لدفع خطر أعدائكم، ومجاهدتهم جماعات متفرّقاتٍ متتابعات، أو متفرّقات لجهاتٍ مختلفات بحسب الحاجة.

﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾:

أي: أو اخرجوا لقتال عدوّكم جيشاً واحداً مجتمعاً متماسكاً قويّاً، فكلمة «جميع» تُفِيدُ الاجتماع على الأمر رأياً وعملاً.

والتوجيه لأن ينفروا ثُباتٍ أو ينفروا جميعاً فيه التنبيه على أنه ينبغي لهم أن يفعلوا ما يوجبُه عليهم أخذُ الحذر، أي:

* فإن اقتضى الأمر أن تنفروا جماعات متفرّقات فافعلوا ذلك.
* وإن اقتضىٰ الأمر أن تنفروا جميعاً جيشاً واحداً متماسكاً قويّاً فافعلوا ذلك.

ومعلومٌ أنّ القيادة المسؤولة المراقبة لواقع العدوّ، والتي تخطّط لدفع خطره، أو مقاتلته، هي التي تقرّر هذا أو هذا.

وجاء في تعليم قرآني آخر أنه مَا كان للمؤمنين أن ينفروا كافة، فظهر أن المراد من قوله تعالى:

﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾:

أن ينفر الجيش المهيّأ للخروج بصورة جماعيّة لا أن ينفر كلّ المؤمنين.

ونستطيع أن نفهم من ترتيب الأمر بالنفر على الأمر بأخذ الحذر، أنّ من عناصر أخذ الحذر الذي يُخْشَى عنده من أن يُباغِت العدوّ جيشَ المسلمين على حين غرّة، أن تختار القيادة المسلمة الْحَذِرَةُ خُطةَ البدء بالتحرّك لمواجهته وقتاله، وعدم ترك الفرصة له أنْ يكون هو البادىء بالقتال، ما دام الأمر قد وصل إلى مرحلة التصادم المرتقب، فإمّا أن يكون هو البادىء، وإمّا أن يكون المسلمون هم البادئين.

أي: فَمِنْ أَخْذِ الْحِذْر حينئذٍ أن يكون المسلمون هم البادئين.

أشار إلىٰ هذه القاعدة العسكرية قول الله عزّ وجلّ في النص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾﴾.

فرَتّبَ الأمر بالنَّفْر بمعنى بَدْءِ القتال، على الأمر بأخذ الحذر، إذ عَطَفَه بفاء العطف التي تدلّ على الترتيب مع التعقيب.

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾:

﴿وَإِنَّ منكم﴾: أي: وإنَّ من جمعكم المشتمل على المؤمنين الصادقين، وأهلِ الرِّيب، وضعفاء الإيمان، والمنافقين.

﴿لَمَنْ﴾: أي: لَفَريقاً، واللاّم هذه لتأكيد وجود هذا الفريق.

﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾: اللام، قالوا: هي واقعة في جواب قسم محذوف، والمراد تأكيد المضمون. وقيل اللام للتأكيد أيضاً، فهو تأكيد بعد تأكيد.

الْبُطْءُ، والإِبْطاءُ، والتَّبْطِيءُ، هو تأخير العمل عن الوقت الذي ينبغي القيام به فيه، تكاسلاً، أو رغبة بعدم القيام به، لدافع من الدوافع.

ويُقالُ: بَطَّأَ فُلانٌ بفُلانٍ، إذا ثَبَّطَهُ عن أمْرٍ عزَم عليه.

ويمكن فهم ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ بمعنيَيْن:

الأول: بمعنى أنّه هو بنفسه يتباطأُ عن الخروج إلى القتال في سبيل الله.

الثاني: بمعنى أنّه يُثَبِّطُ غيرَهُ عن الخروج، ويكون المَعْمُول محذوفاً، تقديره:

وإنّ منكم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ بغيره من المؤمنين، أو ضعفاء الإيمان وأهل الريب، فيجعله يتباطأ.

ويمكن حمل ما جاء في النصّ هنا على المعنَيَيْن معاً، فهذا الفريق يُبَطِّىء هو بنفسه، ويبطِّىء بغيره، فيجعله بتثبيطه يُبْطِىءُ عن الخروج للقتال في سبيل الله.

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم﴾:

أصل المادّة من أَصَابَ السَّهْمُ الهدفَ، إذا وقع فيه ولم يُخْطِئْه. والإصابةُ حين تكون مؤلمةً لمن وقعت عليه أو على شيءٍ يخصُّه فهي بالنسبة إليه مُصيبة له. ومنه أطلق العرب على النازلة المؤلمة مصيبة، وجمعها مصائب، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾.

ويرمي الصيّاد سهمه إلى الصيد، فإنْ أصابه ولم يخطئه، أثْبَتَه، فنالَهُ صيداً، ومن هذا أطلق العرب عبارة: أصاب الشيءَ، بمعنى: ناله وظفر به. وأطلق العرب على الأفكار والأعمال المطابقة للحق أو الخير أو ما هو أحسن وأفضل، اسم «صواب»، وقالوا: «أصاب» إذا جاء بالصواب.

ولمّا كان مُسَدِّد السهم إلى هدف إنما يُسدِّده بإرادته، أطلق العرب كلمة أصاب بمعنى أراد على وجه العموم، وبمعنى: قصد الصواب وأراده.

ويرمي ذو العطايا أعطياته إلى من يريد الإنعام عليهم، فمن أصابَتْهُ كانت له نعمةً وفضلاً، فالإصابة هنا سارّة، وعلى هذا المعنى قول الله تعالى في النصّ: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ﴾.

فتَوجُّه المادّة في كلّ موضع بحسب المعنى الملائم للسِّباق والسِّياق.

﴿فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

أصل الفضل الزِّيادة، ولمّا كانت عطايا الله عزّ وجلّ لعباده فيضاً منه، دون استحقاقِ أحدٍ لهذا العطاء مهما كان شأنه، كان عطاؤه جديراً بأن يوصف بأنه فضل، فالله ذو الفضل العظيم.

﴿مَوَدَّةٌ﴾:

مصدر «وَدَّ» تقول: وَدَّهُ يَوَدُّهُ وُدّاً بتثليث الواو، ووُداداً بتثليث الواو أيضاً، ووَدَادَةً، ومَوَدَّةً.

الوُد: نوع من الحبّ الهادىء الثابت الذي يكون بين الأصحاب والإخوان وذوي العلاقات القويّة، ولا يطلق على المشبوب بالعواطف الثائرة، أمّا الحب فهو لفظ عامّ يطلق على كلّ الأنواع وكلّ المستويات، من الحبّ بدافع الجنس، إلى الحبّ السامي الرفيع فهو جنس لأنواع مختلفة، ومستويات متفاوتات.

﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾:

«يا» حرف تنبيه، أو حرف نداء، والمنادىٰ به محذوف تقديره: يا هذا، أو يا هؤلاء، أو هو بجرّد من نفسه مخاطباً فيناديه. «ليتَ» حرف تَمَنٍّ، «التمني هو طلب ما لا طمع فيه، أو طلبُ ما فيه عُسْرٌ» وهو يعمل عَمَل «إنّ» فينصبُ الاسم ويرفع الخبر، وضميرالمتكلّم اسمها، والنون للوقاية. وجملة «كُنتُ مَعَهُمْ» خبر «لَيْتَ» والمراد من النداء وما بعده هنا التحسُّر.

﴿فَأَفُوزَ﴾:

الفَوْزُ يأتي بمعنىٰ الحصول على أمرٍ مرغوب فيه. ويأتي بمعنى النجاة من مكروه والمرادُ هنا المعنى الأول، لأنه يتحسّر على مرغوبٍ فاته بتخلُّفه، إذْ فاته الظفر بمشاركة المجاهدين الذين خرجوا لملاقاة العدوّ في الغنائم التي نالوها، ويستر حاله بين المؤمنين، لأنّ التخلّف عنهم قد يكشف نفاقه.

﴿يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

يقال لغة: شَرَىٰ الشيءَ واشْتَراه إذا باعَهُ. قال الفرّاء: للعرب في شَرَوْا واشْتَرَوْا مَذْهَبان، فالأكثر منهما أن يكون شَرَوْا بَاعُوا، واشْتَرَوْا ابْتَاعُوا، ورُبّما جَعَلُوهُما بمَعْنَىٰ بَاعُوا.

وممّا جاء في القرآن من استعمال «شَرَىٰ» بمعنى باع ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (يوسف/١٢) بشأن يوسف عليه السلام:

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾:

أي: باعوه بثمن بخس، والذين باعوه رجال القافلة الذين التقطوه من الجُبّ.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/٢):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾:

أي: يبيعُ نَفْسَهُ لربّه ابتغاء مرضاتِهِ.

أقول: إذا كان فعل «شرى» أو «اشترى» بمعنى «باع» فالمأخوذُ هو الذي دخلت عليه الباء. وإذا كان بالمعنى الآخر وهو المعنى الذي اشتهر عرفاً، فالمتروكُ هو الذي دخلت عليه الباء.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾:

أي: المضطهدين بسبب ضعفهم عن المقاومة. وأصل المستَضْعَف هو من وُجد ضعيفاً، أو عُدَّ ضعيفاً، أي: فهم بسبب ضعفهم يضطهدهم المشركون ويُذِلّونهم، ويحاولون إكراههم على الكفر والفسوق والعصيان لله ولرسوله.

﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾:

وِلْدان جَمْعُ وَلِيد، قال الجوهري: الصبيّ والْعَبْد، كصبيّ وصِبْيَان. وقال ثعلب: الوليد الطفل، والأنثى وَلِيدَة، وتجمع على وِلْدان وَوَلاَئِد، وقد تُطْلَق الوليدةُ على الجارية والأمة وإنْ كانت كبيرة.

أقول: فيُحْمَلُ لفظ الْوِلْدانِ في النصّ على كل معانيه: الصبيان والعبيد، والإناث الصغيرات، والجواري والإماء، وهذا من الإيجاز في القرآن المجيد، ومعلوم أنّ هؤلاء جميعاً من الذين يُستضعفون في الناس.

﴿مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾:

المراد مكّةُ يومئذٍ بدلالة قرائن أحوال النصّ، لأنّ الصراع يومئذٍ كان بين المؤمنين في المدينة بقيادة الرسول ﷺ، وبين أئمة الشرك والكفر في مكّة، وهؤلاء هم الذين كانوا يضطهدون المستضعفينَ فيها من الذين آمنوا ولم يستطيعوا الهجرة، واللّحاق بالمؤمنين في المدينة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾:

الطّاغوت: صيغة مبالغة من الطغيان، وهي تطلق على الواحد والجميع والمذكّر والمؤنث، وتجمع على «طَواغيت».

ويُرادُ من الطاغوت كلُّ مَعْبُودٍ أو مُطَاع من دون الله على غير منهج الله، كـاهناً كـان أو شيطاناً أو وثناً أو راسـاً مُضِلاً من النـاس، كالأحبـار والرهبـان الّذين يُشَرِّعون لأتباعهم شرائع ويَضَعُون أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان، فيُطيعهم أتباعهم فيها.

المعنى: والـذين كفروا يقـاتلون في سبيل الـطاغـوت من أشخـاصٍ أو مبـادىء باطلة، أو شياطين، أو نحو ذلك، وهم بذلك يكونون أولياء الشيطان، لذلك قال تعالى خطاباً للمؤمنين عقب هذه الفقرة:

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾.

الكيـد: هو تـدبير الأمـور بباطـل أوبحقّ، بخيرٍ أو بشـرّ، ويطلقُ على الحـرب، وعلى إعداد الوسائل الحربية للنكاية بالعدوّ.

ويؤكد ربّنا أنّ كيد الشيطان ضعيفٌ دواماً، ففعْل «كان» بصيغة المـاضي يدلُّ في الصفـات على الكينونـة الدائمـة المستمرّة غـالباً، ويـظهـر هـذا في معـظم النُصـوص القرآنية.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ﴾:

الفعـل في : ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ يتعدّى بنفسه لغـة، ولكنّ النص جـاء هنـا (وتكـرّر في القرآن) متعدّياً بحرف الجرّ (إلى) فما الغرض البياني في هذا؟

بـالتأمل يبدو لنا أن معمول: ﴿ألم تَـرَ﴾ محـذوف، وأن عبـارة ﴿إلى الـذين﴾ معمول لفعل محذوف، على طريقة التضمين، والتقدير: ألم تر أيهـا الرائي أمـراً عجباً ناظراً إلى الذين قيل لهم:

﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾:

أي: امتنعوا عن قِتال أهل الكفر، وكـانَ هذا قبـل أنْ ينزل الإذن بـالقتال. يقـال

لُغةً: كفُّ الرجلُ الشيءَ، إذا ضمّ بعضَهُ إلى بعض، فعبارة: «كُفوا أَيديَكم» كِنَايةٌ معناها: امتنعوا عن القتال، لأنّ من ضمّ يده إلى جسده، تعذّر عليه أن يقاتل بها عدوّه، فالمقاتلة لا بدّ فيها من مدّ الأيدي إلى جهة العدوّ على أيّة صورة من صُوَر المدّ.

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ﴾:

أي: فحين أُذِنَ لَهُمْ بالْقِتَالِ، ثُم أُلْزِمُوا به، وكُتِبَ ذلِكَ في صُحُفِ الملائكةِ، وأُنْزِلَ في القرآنِ، وكُتِبَتِ الآيات المنزَلَةُ فيه، وصَارَ قضيَّةً مُبْرَمة.

«لمّا» ظرفية بمعنى حين.

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾:

الخشيةُ هُنا مُطْلَقُ الخوف. وخشيةُ الله تكون غالباً مقرونة بتعظيم وإجلال وحبّ لدى صادقي الإيمان، لأنّ فيها عدّة معانٍ: ففيها معنى الخوف من عقابه ونقمته، وفيها معنى الخوف من سخطه والإخراج من دائرة رضاه وحُبّه، وفيها معنى الخوف من فوات المطموع فيه من ثوابه العظيم، وفضله الجسيم، والحرمان من منازل المقرّبين.

«إذا» حرف في الأرجح ومعناه المفاجأة، وتعرف بأنها: إذا الفجائية.

﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾:

لولا: بمعنى «هلّا» حرف تحضيض. والأجلُ القريب يحتمل عدّة احتمالات، منها أجلُ موتهم الطبيعي، ومنها أجل الاستعداد بأنواع القوى المتفوّقة على قوى المشركين، ومنها الأجل الذي يُترَقَّبُ معه بَدْءُ المشركين القتال، وأرى أنه مطلب مماطلة وتسويف.

﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾:

الفتيل: الخيط الذي في شِقّ النّواة، وكلُّ ما فتله الإنسان بين أصابعه من خيطٍ أو وسخٍ ونحو ذلك.

المعنى: ولا تظلَمُون مقدار فتيل.

﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ :

بُـروج جمع بُـرْجٍ ، وهو الحصن ، والبنـاء العالي الـذاهب في السمـاء ، والبيتُ المحصَّنُ الذي يُبْنَىٰ على سور المدينة ، وعلى سور الحصن .

مُشَيَّدَة : أي : محكمة البناء ، ورفيعة البنيان ، ومطليّة بالشِّيد ، وهو كـلُّ ما يُـطْلَىٰ البناء به من جصٍّ ونحوه .

والمعنى : ولـو كنتم في حُصُونٍ محكمةِ البناء رفيعـةٍ مُحْمِيَّةٍ بـالأسوار ، مـطليّـة بالشِّيد لا تَنْفُذُ إليها القواتل من الأسباب ، كالآفـات والحشرات وتغيُّـراتِ الحرّ والبـرد ، وإذا كـانت مُشَيَّدَةً كـاملة البناء ، مكسـوَّةً بالشِّيـد ، فلا بـدّ أن تكون أبـوابُها ونـوافـذُهـا مستكملةً كُلَّ مَا يلزم لها من إتقان وإحكام وتحصين .

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ :

الحسنةُ ضدّ السيِّئـةِ من قول أو فعـل ، وتُطلَقُ الحسنـة على النعمة التي تَسُـرُّ من نزلت به وتُطلَقُ السيئةُ على المُصيبة ، وكُلِّ مَا يَسوءُ مَنْ نَـزَلَتْ به . وهـذا هو المـراد من الحسنةِ والسيئةِ هُنا في النصّ .

أمّا الحسناتُ والسيّئات من أفعال المكلفين فهي مـا يحب الله من عباده وأضـدادُ ذلك ، وقد وعد الله على الحسنات بالثواب ، وأمّا السيئات فإمّا أن يعاقب عليها أو يغفـر بمقتضى حكمته عزّ وجلّ ، باستثناء الشرك فما هو أشدّ منه كالإلحاد والنفاق .

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ :

أي : ومن أدبر وانْصَرَف ولم يُطِعْك فما أرسَلْنَاكَ يا محمَّدُ عليهم حفيظاً .

الحفيظ : والحـافظ هو المـوكَّل بـالشيء ليحفظه . والمعنى : لستَ مـأمـوراً بـأن تحفظهم من التوّلي والانصراف عن صراط ربّك ، وتَمْنَعَهُم بالإلزام والإكراه ، لأنّهم في ظروف امتحان إراداتهم الحرّة ، والإكراهُ يُنافي طبيعة الامتحان .

فمـا جاء هنـا نظير قـولـه تعـالى لـرسـولـه في سـورة (الإسـراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ :

أي لست وكيلاً عليهم حتى تكون مُلْزِماً لهم إلزاماً بالإكراه بمقتضى الوكالة، ولا وكيلاً عن ربّك حتى تتولّى محاسبتهم ومعاقبتهم.

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾:

أي: أَمْرُنا وشأنُنا طاعةٌ لأمرك، أو عَمَلُنا طاعةٌ لأمرك، وهذا قولٌ بألسنتهم غير صادر عن إرادةٍ صادقة من قلوبهم لأنّهم منافقون.

﴿ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾:

الْبَرَازُ: بفتح الباء المكان الفضاء من الأرض البعيد الواسع، وإذا خرج الإنسان إلى ذلك الموضع قيل: بَرَزَ يَبْرُزُ بُروزاً، أي: خرج إلى البراز.

والمراد أنّهم خرجوا إلى المكان الذي يأمنون فيه، مطمئنّين إلى أنّهم غيرُ واقعين تحت أعين الرّقباء الذين يرصدون ما يُدَبّرون ويُبيّتون.

﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾:

يُقَال لغة: بيَّتَ الأمر إذا دبَّرَهُ ليلاً، أو عَمِلَهُ أو نواهُ ليلاً، وكلّ عَمَلٍ يُعْمَلُ ليلاً يسمّى تبييتاً، أخذاً من البيت، لأنّ الناس يأوون إلى بيوتهم ليلاً. وكلُّ مَنْ أدركه اللَّيْلُ فقد باتَ، نامَ أو لم يَنَمْ.

أي: فهم يستخفون بحذر شديد في اختيار المكان، وهو المكان الخالي من المراقبة، واختيار الزمان، وهو جوف اللّيل، ليدبّروا فيه أمراً آخر غير ما أعلنوه من طاعة، ولا بدّ أن يكون هذا الأمر عصياناً ومكراً سيّئاً.

﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾:

أي: يَعْلَمُ ويُسَجِّلُ ما يبيتون ويدبّرونه من السوء ليلاً، وقد فُهِم العلم لزوماً ذهنيّاً.

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾.

أي: فأعْطِهِمْ عارِضَكَ، وهو جانِبُ الوجه، والمعنى: فقابل تولّيَهُم وإدبارهم بالإعراض فقط، لا بمثل تولّيهم وإدبارهم.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾:

التَّدَبُّر هو التفكُّرُ في القضايا وفي معاني النصوص حتى أدبارها وأواخر مواقعها الفكريّة، وفي عواقب ماله عواقب منها. والمادة مشتقة من دُبُر الشيءِ وهو آخره، ولمّا كانت عواقب الأمور هي أواخر ذيولها كان التدبيرُ النظرَ في العواقب، وإعدادَ ما ينبغي لها. وكلّ ذلك من الحكمة في الفهم أو في التخطيط والعمل.

فتدبُّر القرآن هو التفكّر العميق ببصيرة لفهم معانيه، حتّى الأطراف البعيدة التي يدلّ عليها النّصُّ من نصوصه، ولو عن طريق اللوازم الذهنيّة، وفحوى الكلام، وما يَقْتَضيه النّص لإحكام الترابط بين مفرداته وجُمله.

﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾:

أي: اختلافاً بينه وبين الحقّ، أو بينه وبين ما هو خيرٌ وأفضل وأحكم وأقوم، أو بين بعض نصوصه وبين بعض آخر منها.

﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾:

يقال لغةً: أذاعَ الأمرَ أو الخبرَ، وأذاع به إذا أفْشَاهُ ونشره، ويُقالُ: ذَاعَ الْخَبَرُ إذا فَشَا وانتشر.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾:

أي: ولو أرجعُوه، واستعمال الرّدّ هُنا يدُلُّ على أنّ الأمر هو بالأصل منوط بمرجع قيادي فيستفتَىٰ فيه الرسول أو أولو الأمر من قادة المسلمين، إذْ هو فيما يظهر أمر يتعلّق بأمور المسلمين العامّة، التي لا يصحّ فيها التصرّف من قبل الأفراد، بل يجب ردّها إلى ذويها، وهو قائد الأمة، وأولو الأمر المختصون الذي هم مؤهلون لمعرفة البواطن، واستنباط ما هو الأنفع والأصلح لجماعة المسلمين.

﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾:

استنباطُ الشيء اسْتِخْرَاجُه من مواطن العمق التي هو فيها. وأصل الفعل من نَبَطَ الشيءُ يَنْبِطُ إذا ظهر من مكانٍ كان خفيّاً في باطنه، يُقالُ لغةً: حفَرَ الأرْضَ حتّىٰ نَبَطَ الماءُ، أي: ظهر، ويقال: جدَّ في التنقيب حتّىٰ نَبَطَ المعدن، أي: ظهر، ويُقالُ أَنْبَطَ الشيءَ إذا أظهرَهُ وأبرزَه واستَخْرَجَه.

فالاستنباط من هذا، والقضايا الفكرية في أعماقها جوانب خفية إنما يستنبطها المؤهلون للاستخراج والبحث في أعماق الأفكار، والنصوصُ الرفيعة في أعماقها معانٍ خفيّة، إنما يستنبطها المؤهلون لتدبّر النصوص واستخراج ما فيها.

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أي: حرّضهم على القتال. التحريضُ هو الحثُّ بتأكيد ومتابعة، والتحضيض، قال الجوهري: التحريض على القتال الحثُّ والإحماءُ عليه. قال الزّجاج: تأويل التحريض في اللّغة أن تحثَّ الإنسان حثًّا يعلَمُ معه أنّه حَارِضٌ إنْ تخلّف عنه، قال: والحارضُ الذي قد قارب الهلاك.

أقول: قد يكون أصل المعنى اللُّغوي الحضّ والإحماء على القتال ولو دفعت بهم الحماسة إلى أن يُقاربوا الهلاك، أو الحض والإحماء لدفع أن يكونوا مقاربين الهلاك.

﴿أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

البأسُ: الشدّةُ في الحرب. والعذابُ الشديد.

﴿تَنكِيلًا﴾:

عقاباً رادعاً، يقال: نكّل به إذا عاقبه عقاباً رادعاً لغيره.

* * *

(٣)

مع النصّ في التحليل والتدبّر

ويأتي هذا التدبُّر في فِقَرات:

الفقرةُ الأولى: تتضمّن تكليف الله الذين آمنوا أن يأخذوا حِذْرهم، وأن يخرجوا لقِتال عدوّهم متفرّقين على شكل عصابات أو فِرَق، أو مجتمعين في جيشٍ، بحسب ما تقتضيه المصلحة والحكمة في الحرب.

قال الله عزّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾.

في هذه الآية ثلاثُ قضايا:

القضيـة الأولـى:

هي أنّ الخطاب فيها موجَّهٌ للّذين آمنوا، فيخصُّهم الله عزّ وجلّ بالنـداء، إشارة إلى أنّ اتّصافهم بصفة الإيمان الصحيح الصادق، لا بدّ أن يكون دافعاً لهم إلى إمْضاءِ التكـاليف الربّـانية المـوجّهة لهم، إذْ يتضمّن نـداؤهم بوصف كـونهم مؤمنين تذكيـرَهم بحقّ الله عليهم، وبمسؤوليتهم تُجاهه، وبـالجزاء الـذي أعدّه سبحـانـه لعباده ثـواباً أو عقاباً، فهذه أمور هي من عناصر القاعدة الإيمانيّة.

وفيه أيضاً إلمـاح إلى أنّ الإعراض عن إمضـاء التكاليف الربّانيـة، يكون بسبب عدم صدق الإيمان، أو ضعفه، أو غلبة سلطان الأهواء والشهـوات وضعف الإرادة تجاه مطالب الحياة الدنيا.

القضيـة الثانيـة:

أمْرُ المؤمنين بأن يأخُذوا حِذْرهُم، فقال اللّهُ عزّ وجلّ لهم: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

لم يأت التعبيرُ بصيغة: احْذَرُوا، وإنّما جاء بصيغة «خُذوا حِذْرَكم» فما الحكمـةُ البيانية في هذا مع أنّ عبارة «احذروا» أخصر؟

بالتفكّر يَظْهرُ لنـا أنّ الأخذ في اللّغـة هو في الأصـل يُطلَقُ على تنـاول أو حيازةِ شيءٍ ماديّ يُقْبَضُ بالأيدي، أو يُضَمُّ إلى التملُّك بوسيلةٍ مشابهة، ثمّ حصـلَ توسُّعٌ في دلالة مادّة الأخذ، فصارت تدلُّ على الأمور المعنوية التي ليس فيها أشياء ماديّةٌ تُـؤخذ، أو تَأخذ.

فجاءت التعبيرات في القرآن وفيها: أَخْـذُ الميثاق، وأخْـذُ الإصْر، وأخـذُ الأمْر، وأَخْذُ العفو.

وجاءت فيه التعبيرات وفيها أنّ الأشياء المعنوية تأخُذُ أيضاً، فمنها: أخذَتـه العزّة ـ فأخذهم عذَابُ يَوْمِ الظُّلّة ـ لا تأخُذْكُم بهما رأفَةٌ في دينِ الله ـ.

ولـمّا كان الأَخـذُ في أصله أمراً مـاديّاً مُحسّـاً، وكانت الـطبائـع البشريـة تطمئنُّ

للحسيّات في التوثُّق من تحقُّق الأمور، أكثر مما يحصُلُ لديها في الفكريّات والنَّفسيات وسائر المعنويات، مهما عظمت لديها البراهين والأدلّة أو المشاعر كان استعمال الأخذ بجانب المعنويّات أكثر تأكيداً على لزوم التحقُّق مما جاء الأمر بأخذه من هذه الأمور المعنويّة، كأخْذِ الحِذْر، وأخذ الميثاق، وأخذ الإصر، وهو العهد، وأخذِ العفو، ونحو ذلك، وكان استعمال أخذ المعنويات للحسّيات أو للمعنويات آكَدَ في الدلالة على تحقُّق ما تضمَّنَه الإسناد من مجرّد نسبة المسنَدِ إلى المسند إليه، فعبارة: «أخذَتْهُ العِزّة» آكد من عبارة: فاعتزّ، أو تعزّز. وعبارة: «لا تأْخُذْكُمْ بهما رأفة» آكد من عبارة: فلا ترأفُوا بهما. مع ما في معنى الأخذ من إبعاد المأخوذ عن مكانه إلى مكانٍ آخر ماديٍّ أو معنويّ.

وهذا من دقائق البيان القرآني العجيب.

يضاف إلى ما سبق أن موضوع أخذ الحِذْر يلزم لتحقُّقِه في الواقع مع التيقُّظِ والتأهب، اتّخاذُ الوسائل اللازمة لدرء المخاطر، وكثيرٌ منها أمورٌ تُجْمَعُ وتُؤْخَذُ، كالأسلحة، وأمورٌ تُعَدُّ وتُهيَّأُ، كالحصون والخنادق، وأمورٌ تُكْتَبُ في الصحف والرقاع، كالعهود والمواثيق والاتفاقات، وهي تؤخذُ ويحتفظُ بها، للتقاضي بمقتضاها. فالتعبيرُ بأَخْذِ الحذر من أدقِّ التعبيرات الدّالّات على جملة معانٍ مُرادة، لا تدُلُّ عليها عبارة: احذروا.

إنّ الأمر باتخاذ الوسائل قضيّة تُفْهم بفحوى الكلام ولوازمه الفكرية، وتفهم أيضاً بإشارة عبارة «خُذُوا».

القضية الثالثة:

أمْرُ الله الذين آمنوا بالخروج إلى مقاتلة العدوّ، ومداهمته في مواقعه، وعدَمِ انتظاره حتى يكون هو المهاجم، فإمّا أن يكون على طريقة عصابات أو جماعات متفرقات، أو عَلى طريقة جيشٍ موحَّد مستكملٍ شروطه القتالية، في الهجوم، والدفاع، والانسحاب، والكرّ والفرّ، كلّ ذلك بحسب ما تقتضيه المصلحة التي تُقَدِّرُها القيادة العسكرية المؤهّلة لتدبير شؤون الحرب، فقال الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

وقد جاء هذا الأمر مُرَتَّباً بالفاء العاطفة على الأمر بأخْذِ الْحِذْرِ، ليدُلَّ على أن اليقظة والحذر واتِّخاذَ الوسائل، يجب أن تكون قبل الخروج لقتال العدوّ، إذ هي شروط تسبق الشروع بالقتال المطلوب.

وقد خصّ الله عزّ وجلّ في القرآن لفكرة الخروج للقتال في سَبِيلِهِ مادة «نَفَر» ومشتقّاتِها، وهي ما جاء في هذا النصّ من سورة (النساء) وما جاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) في ستة مواضع منها.

أمّا مادة «جاهد» ومشتقاتها فقد جاءت عامّة، للدّلالة على الجهاد بالدعوة والكلمة، والجهاد بالأموال، والجهاد بالأنفس، ومنه القتال.

وأمّا مادة «خرج» ومشتقاتها، فلم تستعمل في القرآن بجانب الدعوة إلى الخروج للقتال، إنّما جاءت في معرض الهجرة، وجاءت في مناسبات الكلام عن المنافقين وخروجهم أو عدم خروجهم مع المسلمين لقتال المشركين.

وسائر النصوص القرآنية في هذا الموضوع جاء فيها استعمال مادّة «القتال» ومشتقاته.

أما القتال فهو التعبير المباشر الذي يدلُّ على المقصود، والتعبير به يستدعي لوازمه من الإعداد التّام، والخروج إلى جهة العدوّ إن اقتضى الأمر ذلك، وهذه تُفْهم باللُّزوم الذهنيّ، وقد يدلّ عليها فحوى الكلام.

وأمّا «نَفَر» ومشتقاتُها فالظاهر أنّها اختيرت من الكلمات اللّغويّة لتكون مصطلحاً قرآنيّاً للدّلالة على فكرة الخروج للقتال.

وبين هذا المصطلح وأصل المعنى اللّغوي مناسبة ظاهرة مُرادة، فالنَّفْر والنُّفُور حركة انزعاج تتّجه إلى مواطن الأمن والسلامة بهمّة وقوّة ونشاط، والمطلوبُ في الْخُروج إلى القتال أن يكون مقترناً بهمّة وقوّة ونشاط، وحالَةِ توثُّبٍ نفسيّ وقلبيّ وحَرَكِيّ، لا أن يكون مجرّد خروج بارد، فمُطْلَقُ الخروج قد يكون مقروناً بتكاسل وتثاقل وضعف، والله عزّ وجلّ يُوصِي المؤمنين بخلاف هذا، فكان اختيارُ مادّة «نَفَر» ومشتقاتها مصطلحاً للخروج إلى القِتالِ في سبيل الله اختياراً حكيماً مُلاحَظاً فيه المعاني التي سبق بيانُها، مع ما في النَّفْر والنُّفُور في سبيل الله من نهاية سعيدة فيها الأمن والفوز بجنات النعيم.

الفقرة الثانية: تتضمّن بيان ظاهرةٍ وتوابعها من الظاهرات السلوكيّة للمنافقين، وقد يشاركهم فيها من هم دون المنافقين من أهل الرّيب، وضعفاءُ الإيمان، وأصحابُ الأهواء الذين تضعُف إراداتهم عن التضحيات، وعن مخالفة مطالب نفوسهم من الحياة الدنيا، هذه الظاهرة دلّ عليها:

قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

(١) قرأ ابن كثير وحفصٌ ورُوَيس: [كَأَنْ لَمْ تَكُنْ] بالتاء الفوقية.

(٢) وقرأ باقي القراء العشرة: [كَأَنْ لم يَكن] بالياء التحتيّة.

فالقراءة الأولى جاءت مطابقة لتأنيث «مودّة» والقراءة الأخرى روعي فيها أنّ «مودّة» تأنيثها مجازي، مع وجود الفاصل الذي يحسُن معه التذكير.

في هذا النص أربع قضايا متداخلةٍ منصوصٍ عليها، وقضايا أخرى تفهم من فحوى النصّ باللّزوم الذهني، أو بدلالات نصوص أخرى مقيِّدةٍ أو شارحة لبعض ما جاء فيه من أفكار، أو بدلالاتٍ إلماحيّة في النص.

ففيه خطاب المؤمنين بأنّ فريقاً يَعُدُّونهم منهم بحسب ظاهر انتمائهم، توجد منهم ظواهر من السلوك عند الدعوة إلى النَّفْر لقتال الأعداء من أهل الكفر، منافية لما يدفع إليه الإيمان الصحيح الصادق، فهي من الأمارات على النفاق أو الشك أو ضعف الإيمان.

* فيوجد من هذا الفريق تباطُؤٌ عن الخروج مع المؤمنين للقتال، أخذاً من بطَّأ اللازم.

* ويوجد منْهُ تثبيط لغيره عن الخروج للقتال، أخذاً من بطَّأ المتعدي. ففعل «لَيُبَطِّئَنَّ» مستعمل في مَعنَيَيْه.

هذا في بداية الأمر عند الدعوة إلى النَّفْر، أمّا بعد انتهاء لقاء الأعداء في مواجهةٍ قتاليّة، فالنصّ يخاطب المؤمنين بما يتضمّن ما يلي: إنّكم إمّا ممتحنون بمصيبة أصابتكم في لقائكم لعدوّكم، كقتل أو جرح أو هزيمة أو خسارة ماليّة، وإمّا مُمْتحنون بفضل من الله أصابكم، من نصْرٍ وغنيمةٍ وتحقيقٍ لما ترغبون.

* فإن أصابتكم مصيبة على أيدي عدوّكم، وقد أذن الله بها لحكمةٍ يُريدُها، كامتحانكم، وتربيتكم وتأديبكم، وإجراء سنّته في عباده، قال هذا الفريق: قد أنعم الله عليّ إذْ ألهمني أن لا أخرج مع المؤمنين، فلا أكونَ معهم شاهداً حاضراً هذا اللّقاء الخاسر الذي جلَبَ المصيبة لهم، وهو تعبير فيه نفثات الشماتة، ويدلّ على كذب ادّعاء الإيمان، أو على الشك أو ضعف الإيمان.

* وإنْ أصابكم فضلٌ من الله، فظفرتم وغنمتم ندمَ وتحسّر على ما فاته من غنيمة ومن سَتْر حالِه بين المسلمين، وقال متندّماً مُتحسّراً، يا ليتني كُنْتُ معهم فأفُوزَ فوزاً عظيماً، إنّ كلَّ هَمِّهِ محصور بأمور الدّنيا، لذلك لا يرى الفوز العظيم إلّا المكاسبَ منها، والغنائم من زينتها ومتاعها.

لماذا يتندّم ويتحسّر؟ ألم يكن بحسب الظاهر واحداً منكم إسلاماً وإيماناً فيما يُظْهِرُ لكم من أمْرِه، يُبادلكم المودّة، ويُظهر لكم أنه يحبّ الخير لكم؟

لماذا طفح الحسد في نفسه، فعبّر عنه لسانه بالتحسّر؟ إن صاحب المودّة الصادقة لا يَحسُد على نعمة أصابها من يودّه، بل يفرح له بها، ويدعو اللّهَ أن يجعلها له متاعاً حسناً، وعَوْناً له على طاعة الله وتحقيق مراضيه، واختيرت فكرة المودّة دون صدق الإيمان للدلالة على أنّ العبارة عبارة حسد.

ما الذي كان يمنعه من الخروج مع المؤمنين حين دُعُوا لقتالِ عدُوّهم؟ ألم يكن بحسب ادّعائه واحداً منهم؟

إذن: فحال هذا الفريق المتخلف بعْدَ انتهاء معركة المواجهة للعدوّ:

* إمّا شامت، أو قريب منه، بحسب كفره أو شكّه أو ضعف إيمانه، لذلك جاء التعبير القرآني صالحاً ملائماً لكل ذلك، فقال تعالى معبّراً عن مقالته:

﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾.

* وإما حاسد، ويستوي في الحسد المنافق والشاكّ وضعيف الإيمان، فجاء التعبير القرآنيّ ملائماً للمنافق الحسود، ومن يكون مثله في الحسد ممن هو دونه، فقال تعالى معبّراً عن مقالته:

﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

ونلاحظ في النصّ أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل عبارة: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ معترضةً بين: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وبين ﴿يا لَيْتَني كُنتُ مَعَهُمْ فأفوزَ فوزاً عظيماً﴾ للدلالة على أنها عبارة حسَدٍ ثائر، ولتدلّ بالتقابل على أنّ عبارة ﴿قَدْ أنعم الله عليَّ إذْ لم أكن معهم شهيداً﴾ هي عبارة شماتة أو قريب منها.

أمّا الدوافع لهذه الظواهر السلوكيّة، فنستطيع استنباطها بالتأمل في أصل الموضوع المرتبط بالإيمان وجوداً، أو انعداماً، أو شكاً، أو نقصاناً. والله أعلم.

وننظر في المتقابلين:

(١) ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ﴾.

(٢) ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ﴾.

فنرى الأوّل من غير تأكيد «فإنْ» للدلالة على نَدْرته وقلّته.

ونرى الآخر مؤكّداً «ولَئِنْ» للدلالة على أنّه هو القاعدة المؤكّدة بالنسبة إلى المؤمنين، إذا التزموا بالشروط التي يستحقون بها نصر الله لهم، وإمدادهم بمعونته وفضله.

ونرى أنّ الأول جاء التعبير فيه بعبارة [مصيبة].

ونرى أن الآخر قد جاء التعبير فيه بعبارة [فضل من الله].

ومقتضى المتبادر من التقابل أن يكون التعبير بعبارة: «نعمة».

فما الحكمة من ترك هذا المتبادر؟

بالتفكر والتدبّر نُلاحظ أنّ أصل الكلام قبل اختصاره واختزاله هو على نحو ما يلي:

فإنْ أصابتكم مصيبة بإذن الله وتمكينه على مقتضى حكمته في التربية والتأديب والامتحان وإجراء سننه العامّة قال: قد أنْعم الله علي إذْ ألْهمني فلم أكُنْ معهم شهيداً حاضراً المعركة. ولَئِنْ أصابتكم نعمةٌ من فضل الله عليكم بمقتضى حكمته، ليقولَنّ: يا ليتني كنت مَعَهُمْ فأفوز فوزاً عظيماً.

وعند الاختزال والاختصار حُذِفَ من الكلام ما هو معلوم في تصاريف الله ومقاديره، إذ قد جاء بيانه في نصوص قرآنيّة أُخرى، وهو ما يدلّ على حكمة الله، وحُذِف أيضاً ما يمكن إدراكه ولو لم يذكر في صريح اللفظ ما يدلّ عليه.

وحُذِفَ من ثاني المتقابلين ما يُقابل لفظ [مصيبة] مثل كلمة: «نعمة» استغناءً بدلالة التقابل، وحلّ محلّ المحذوف عبارة [فضل من الله].

وحُذِفَ من أوّل المتقابلين ما يقابل عبارة [فضل من الله] مثل عبارة: «بإذن الله وتمكينه» استغناءً بدلالة التقابل أيضاً.

فجرى حذف من الأوائل لدلالة الأواخر، وحذفٌ من الأواخر لدلالة الأوائل، وهذا ما يُسمّى عند أهل البديع «الاحتباك».

ونلاحظ أنّه جاء في أوّل المتقابلين فعل [قال] بصيغة الفعل الماضي، للإشارة إلى أنّ قوله هذا قد حصل فِعلاً، بعد موقعة مضت، ونأخذُ من فعل الشرط أنّه سيقول هذا القول بعد كلّ موقعة قادمة تحصُل فيها هزيمة للمسلمين. أمّا ثاني المتقابلَيْن فقد جاء التعبير فيه بصيغة: [لَيَقُولَنَّ] وهي صيغة مؤكّدة تدلّ على المستقبل، ونفهم من هذا أنّه لم يقُلْ بَعْدُ هذا القول، لكنّ واقع حاله النّفسيّ بسبب نفاقه أو شكّه أو ضعف إيمانه، لا بُدّ أن يُفرز مثل هذا القول.

* * *

الفقرة الثالثة: تتضمّن حثّ المؤمنين الراغبين في الآخرة وما أعدّ الله فيها من أجرٍ عظيم، أن يبذلوا متاع الحياة الدنيا، ويُضحُّوا بها، مقاتلين في سبيل الله، وهم إذا فعلوا ذلك أصابوا إحدى الحسنيين مع الأجر العظيم عند الله. فإمّا أنْ يُقتَلوا وإمّا أن يَغْلِبُوا عدوّهم إذْ ينصرهم الله عليه.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

في هذه الآية قضيتان:

القضيةُ الأولى:

دعوة المؤمنين الذين ارتقوا في مراتب الإيمان فكانوا من أهل مرتبة البرّ، أو أهل مرتبة الإحسان، إلى أن يقاتِلُوا في سبيل الله.

وقد دلّنا على أنهم قد ارْتَقَوْا فَوْقَ مَرْتَبَةِ التقوىٰ (وهي مرتبة تأدية الواجباتِ وتركِ المحرَّمات) أنَّ الله عزّ وجلّ ذكرهم بوصفٍ مُتَكَرِّر فيهم، يَبْرُزُ في مُتَجَدِّد سلوكهم، وهو كونهم يَبْذُلُونَ الحياة الدنيا ومتاعها وشهواتها ومطالبَ أهوائهم منها، ابتغاء الظفر بثواب الآخرة، فهم كلَّما أرادوا سلوكاً ما ورأَوْا أنّ تحقيقَ ثواب الآخرة يتطلَّبُ منهم التضحيةَ بما يُحِبُّون من زينة الحياة الدنيا، ضَحَّوْا به، طمعاً بما هو خيرٌ عند الله.

ففِعْلُ [يَشْرُون] بمعنىٰ يبيعون، وهو فعل مضارع يُفيد التجدُّدَ والدَّوام، يدلّ على تكرّر هذه الظاهرة في سلوكهم.

وهذه التضحية المتجدّدة في السلوك تكون في أعمال البرّ، وأعمال الإحسان، كالإنفاق فوق ما يجب إنفاقه، وقيام الليل فوق الفرائض، وصيام النوافل المسنونة، وأنواع التطوّع في مختلف العبادات، وكالصبر في البأساء والضرّاء، والعفو والصفح عن المسيء، والحِلْم، والاشتغال بمجاهدة النفس لاكتساب فضائل الأخلاق فوق المقادير الواجبة منها إلى غير ذلك، وكَتَرك المكروهات وما هو خلاف الأولى ممّا لا يليق بالمقرّبين أن يفعلوه.

ومن هذا نُدْرِكُ أنَّ الأمر في قوله تعالى:

﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أَمْرٌ ترغيبيٌّ، وليس أمراً إلزامياً، لأنَّهُ مُوَجَّهٌ للذين من عادتهم أنهم يَشْرُون «أي: يبيعون» الحياة الدنيا بالآخرة، وليس موجّهاً لمطلَقِ المؤمنين، ولمطلق المسلمين.

أمّا المراد من الحياة الدنيا، فما فيها من متاع وزينة وما تحبّ النفوس وتهوى وتشتهي. وأمّا المراد من الآخرة، فما فيها من ثواب جسيم وأجر عظيم في جنّاتِ النعيم.

والكلام على تقدير يبيعون متاع الحياة الدنيا بثواب الآخرة، أقيم المضاف إليه فيهما مقام المضاف المحذوف.

القضية الثانية:

وَعْدُ من يُقَاتِلُ في سبيل الله صادقاً محتسباً أَجْرَهُ عند الله، بأنّ الله سوف يؤتيه يوم الدِّين أجراً عظيماً.

* قول الله تعالى:

﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

لا بدّ أن يُحْمَل عَلَىٰ كونه صادقاً محتسباً أَجْرَهُ عند الله، لأنّ المنافق والمرائي لا يكون قتالُهُما ـ ولو قَاتَلا ـ في سبيل الله، والكافر لا يكون قتاله في سبيل الله، والذي يقاتل للمغانم، أو ليُقَال إنّه شجاع، أو للفخر، أو ليدافع عن أحساب قومه، أو ليحقق أمجاداً لهم، لا يكون قتالُه في سبيل الله، فسبيل الله له شرطان:

الشرط الأول: قلبي، وهو أن ينوي به رضوان الله وطلب ثوابه، وهذا لا يكون إلّا من مؤمن.

الشرط الثاني: أن يكون لإعلاء كلمة الله ونصرة دين الله، وضمن ما شرعه الله وأذن به في القتال.

إذا تحقّق هٰذان الشرطان كان القتال في سبيل الله.

* قول الله تعالى:

﴿فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾:

نلاحظ فيه الاقتصار على احتمالي الشهادة أو النّصر، ولم يتعرّض النصّ للاحتمال الثالث، وهو الهزيمة والفرار، ولا للاحتمال الرابع وهو الوقوع في الأسر، فما الحكمة في هذا؟

بالتفكُّر والتدبّر ندرك ما يلي :

(١) أنّ الله عزّ وجل أمر في أوّل النّص بأخْذِ الحِذْر، وفهمنا من ذلك أنّ إعداد كامل الوسائل القتالية للمعركة ضمن أنظمة الله السببيّة في كونه هو من لوازم أخذ الحذر.

إذن فالمواجهة فيها كفاية لاكتساب النّصر بالنسبة إلى الوسائل.

(٢) أنّ المؤمن يرجو من الله ما لا يرجو عدوّه الكافر المقاتل له، فهو يباشر قتاله بكلّ شجاعة، ثقةً بوعد الله، وطمعاً فيما عند الله من أجر عظيم.

إذن فهو لا يجْبُن ولا يضعف، فلا ينهزم ولا يفرّ، ولا يمكّن العدوَّ من أسره إلاّ عند الضرورة القصوى.

(٣) أنّ الدّعوة موجَّهةٌ للأبرار والمحسنين، وهؤلاء متفوقون في مراتب الإيمان، فالاستشهاد من قِبَلِ أفرادهم هو السبيل لتحقيق انتصار جماعة المسلمين على عدوّهم.

إذن : فالواحد منهم إمّا أن يُقتَلَ وإمّا أنْ يَغْلِبَ، فلا يفِرّ، ولا يُمَكِّن عدوَّه من أسره إلاّ مضطرّاً.

أما الانسحاب من المعركة فهو أمر لا يقرّرهُ الفرد المقاتل، وإنّما يُقرّره أمير الجيش وقادة عمليّاته، فما دام التوجيه للقتال قائماً مستمرّاً، فليس أمام الفرد المقاتل إلاّ أن يُقْتَلَ أوْ يَغْلِب، فإن فرَّ فهو متولٍ عند الزّحف، ويكون تولّيه من الكبائر الكبرى، وهذا لا يفعله المتقون فضلاً عن الأبرار والمحسنين، وأما أسره فيستبعده النصّ عن الذكر، ليستبعده المقاتل عن تصوّره، حتى يكون ضرورة.

* قول الله تعالى :

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ :

وعدٌ ربّانيٌ بأجْرٍ عظيم.

الفاء واقعة في جواب الشرط (وَمَنْ يُقَاتِل).

﴿سوف﴾: حرف استقبال، قيل: هو مثل السين، يختصّ بالمضارع، ويخلّصه للاستقبال. وقيل: هو أوسع من السين استقبالاً، أي: فهو للمستقبل البعيد.

﴿أجراً عظيماً﴾: جاء لفظ «أجر» منكّراً للدلالة على كثرته عدداً، وَوُصِف بأنه عظيم للدلالة على جسامته في كيفيته ونوعه، وثوابُ الله في الآخرة كثير الكمّ، عظيم الكيف.

* * *

الفقرة الرابعة: تتضمّن بيان الموجب لقتال المشركين، وهذا الموجب يتلخّص إبّان نزول النّصّ بأمرين:

الأمر الأول: الانتصار لدين الله الذي يحاربه هؤلاء المشركون.

الأمر الثاني: إنقاذ المستضعَفين في مكة من الرجال والنساء والولدان الذين يُضطهدون، ويَدْعُون ربّهم أن يخرجهم منها، ويجعل لهم من لدنه وليّاً، ويجعل لهم من لدُنْه نصيراً.

* فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

في هذه الآية قضيّةٌ واحدة، هي بيان الموجب لقتال مشركي مكّة إبان نزول النصّ، مع الإلماح بالاستفهام إلى الإنكار على الذين يودّون إعفاءهم من القتال المدعوّين إليه.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ ؟﴾

صُدِّر بالعطف على ما جاء في الآيات السابقات، وهو من عطف الجمل، للدّلالة على أنّ المعطوف تابع للموضوع الذي بدأ به النص، وهو أخذ الحذر، والحثُّ على القتال في سبيل الله.

«ما» اسم استفهام، وهو في محل رفع مبتدأ، ومعناه: أيُّ شيءٍ؟.

«لَكُمْ» متعلق بمحذوفٍ هو خبر، تقديرُه ثابتٌ لكم.

والمعنى الذي يدلّ عليه هذا التعبير هو: أيُّ شيءٍ من الأعذار ثابتٌ لَكُم حالَةَ كونكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ...؟ فجملة ﴿لاَ تُقَاتِلُونَ﴾ ولواحقها في محل نصب على أنّها حال. والغرض أنّه لا عُذْرَ لكم.

والخطابُ تابعٌ لخطاب الذين آمنوا الذي بدأ به النصّ، فلا الْتِفَاتَ فيه فيما أرى.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: ما لكم لا تقاتلون قتالاً كائناً في سبيل الله، والمعنى أن سبيل الله ظرفٌ له، وسبيل الله يشمل كلّ ما شرعه الله لعباده وارتضاه لهم من الدّين، ويشمل استجماع النيّة في ابتغاء مرضاته، والأجرِ العظيم منه، في كلّ عمل ظاهر أو باطنٍ يكون مطابقاً لما شرعه، أو أوصىٰ به، أو رغّب فيه، أو اذن به.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

أي: وفي سبيل نُصْرَةِ وإنقاذ هؤلاء المستضعفين.

ومع أنّ نصرة هؤلاء بالقتال، هي من القتال في سبيل الله، لأنّ الله يأمر بنُصْرَتهم ويحُثُّ عليها، إلاّ أنّ في ذكرهم استثارةً للْعَاطِفَة نحوهم، باعتبارهم إخواناً في الإيمان والإسلام، وهم في مكة يتعرّضون لظلمٍ واضطهادٍ من قبل أئمة المشركين فيها،

فالأخوَّةُ الإيمانية تَسْتحثُ العاطفة لإنقاذهم، بعد أن جاء الإذن بقتال هؤلاء المشركين، وعدم كفّ الأيدي عنهم.

هذا النّصّ وارد بمناسبة المستضعفين في مكّة إبّان نُزول سورة (النساء) ولكن له حكم القاعدة العامة، إذ يقاس عليه كلّ أحوال المستضعفين من المؤمنين في كلّ بلد وفي كلّ عصر، إذا استطاع إخوانهم نصرتَهُمْ، فالله عزّ وجلّ يقدّم لنا الأمثلة والنماذج لنقيس عليها أمثالها وأشباهها.

والمستضعفُون كانوا رجالاً لا يستطيعون المقاومة ولا الهجرة، ونساءً، وصغاراً من صبيان وبناتٍ لا يجدون حيلة، وعبيداً أرقاء وإماءً.

وقد رُوي عن ابن عبّاس أنّه قال: «كنتُ أنا وأمّي من المستضعفين».

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾:

أي: إنّ هؤلاء المستضعفين يدعون ربّهم بهذا الدّعاء، فيخبر اللَّهُ به إخوانَهم المؤمنين في المدينة.

هذا الدُّعاء يشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا. دلَّ هذا المطلب علىٰ أنّهم غَيْرُ مُمَكّنين من الهجرة، وأنهم لا يَجِدُون حيلة ولا وسيلة للخروج، بغية الخلاص من ظروف الاضطهاد الذي هم فيه.

ودلّ على أنّهم مظلومون مضطهدون وصْفُهُمُ القريةَ وهي مكّة يومئذٍ بأنّ أهْلَها ظالمون.

الظالم أهلُها: «الظالم» نعتٌ سببيٌّ للقرية، وهو في الحقيقة وصف لأهلها، والنعت السببيُّ يطابق ما قبله في حركة الإعراب، وفي التعريف أو التنكير، ويراعىٰ

في تذكيره أو تأنيثه ما بعده، ويكون مفرداً دائماً إلّا جمع التكسير، فيجوز فيه الوجهان: الإفرادُ وجمع التكسير.

المطلب الثاني: وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً. أي: مَنْ يَتولّى أمورنا، غير أوليائنا الذين يضطهدونَنا ويظلمونَنا من المشركين، من أجل إيماننا بدينك، وإسلامنا لك ولرسولك.

الولي في اللّغة: من يتولّى أمور من هو تحت رعايته وإدارة شؤونه وتدبيرها، فوليّ اليتيم هو الذي يلي أموره ويقوم بكفايته، ووليّ المرأة الذي يتولّى عقد نكاحها.

المطلب الثالث: واجعلْ لنا من لَدُنْكَ نصيراً. أي: ضاقت حيلَتُنا، فلا نجد من إخواننا مَنْ ينصرنا، وإننا نعذُرهم فوضعهم ربّما لا يسمح لهم بنُصرتنا، فاجعل لنا من لَدُنْكَ أنت نصيراً ينصرنا ويُنقذنا، فيرفع عنا الظلم والاضطهاد، حتى نمارسَ ديننا بحرّيّة.

* * *

الفقرة الخامسة: تتضمن بيان الفروق ما بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين، مع حث المؤمنين على قتال الكافرين ملاحظين أن كيد الكافرين الحربي كَيْدٌ ضعيف دواماً، لأنّ الشيطان الذي يقاتلون في سبيله ذو كيدٍ ضعيف دواماً، أمّا الله الذي يقاتل المؤمنون في سبيله فكَيْدُه الذي أوصاهم به في الحرب كَيْدٌ متين، مع ما يمدّهم به من عونٍ غيبيّ، لا يدخل في حساب الأسباب البشريّة.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

في هذه الآية ثلاث قضايا:

القضية الأولى:

بيان أنّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً بالله ورسوله واليوم الآخر، وبكلّ ما جاء به الرسول ﷺ عن ربّه وما أذن له به، إذا قاتلوا وفق ما يقتضيه إيمانُهم منهم،

فإنّهم يقاتلون في سبيل الله، أي: ضمن سبيله منهجاً وعملاً وغاية ونيّة، فلا ينحرفون عنه.

وحين يخالفون فلا يَلْتزمون المنهج، ولا يتقيّدون بالعمل الإسلامي المشروع في القتال، ولا يتقيّدون بالغاية الإسلامية، ولا بنيّة ابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة، فإنّهم يَتنكّبُونَ سبيله بمقدار المخالفة، فيُحْرَمُون من النتائج التي يحبّونها على مقادير تنكّبهم.

قول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾:

أي: الذين يصحّ أن ينطبق عليهم كمال هذا الوصف.

قول الله تعالى:

﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: يتقيدون في قتالهم بحدود سبيل الله منهجاً وعملاً وإعداداً وغاية ونيّة، ما داموا متحلّين بكمال وصف الذين آمنوا، وسبيل الله يجمع كلّ عناصر الخير.

ومع أنّ التعبيرَ تعبيرٌ خبريّ يَدُلّ على اللّزوم بين كمال الإيمان والقتال في سبيل الله، فهو يتضمّن توجيهاً للذين آمنوا بأن لا يقاتلوا إلاّ في سبيل الله منهجاً وعملاً وغاية ونيّة.

القضية الثانية:

بيانُ أنّ الذين كفروا يقاتلونَ في سبيل الطّاغوت، أي: في سبيل الشيطان الذي يمثل الداعي إلى كلّ شرّ، فسبيل الشيطان بوجه عامّ يحتوي على كلّ عناصر الشرّ، والسالكون فيه يمارسون من الشرور على مقادير تأثرهم بإغواء الشيطان.

قول الله:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: والـذين رفَضُوا الإيمانَ وأَبَوْا أَنْ يُسْلِمُوا، بعد إعلامهم بأركان الإيمان

مقرونةً بأدلّتها، مـا دفعهم إلى هذا الكفـر إلّا تأثُّـرهم بإغـواء الشيطان، فهم إذا قـاتلوا المؤمنين فإنّهم يقاتلونهم ضمن حدود سبيل الطاغوت.

لذلك وصفهم الله بقوله:

﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾.

وسبيل الطاغوت سبيل يحتـوي على كلّ الشّـرور، فهم يَسلكون في قتـالهم هذا السبيل.

وقد دلّ على أنّ المراد من الطاغوت هنا الشيطان ما جاء في تتمة الآية.

القضيـة الثالثـة:

حثّ الذين آمنوا علىٰ أن يقاتلوا الكافرين باعتبـارهم أولياء الشيـطان، وناصـري الشرور التي يدعو إليها، مع ترغيبهم بأنّهم أقوى منهم، وسينتصرون عليهم، نظراً إلى أن كيد الشيطان ضعيف دواماً، فكيد أوليـائه الـذين يقاتلون في سبيله، وضمن خـططه ووصاياه التي يوسوس بها، وتهديهم إليها أفكارهم الشيطانية، هو كيد ضعيف، بالنسبة إلى قوى المؤمنين الذين يتقيدون بحدود سبيل الله إعداداً ومنهجـاً وخطة وعمـلاً وغاية ونيّة، ويتلقَّوْنَ من الله المدد والعون، لينصرهم على عدوّهم.

قول الله تعالى:

﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ ﴾:

خطاب للذين آمنوا، وهو أمر ترغيبيّ كما سبق بيانه.

قول الله تعالى:

﴿ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾:

أي: الذين كَفَرُوا، وقد ذكرهم الله بـوصف آخر من أوصـافهم، وهو أنّهم أوليـاءُ الشيطان، أي: نُصَراؤه ومؤيّدو خططه وأعمـاله التي يـدبّرهـا لإغواء بني آدم أجمعين، فالذين كفروا قد جنّدوا أنفسهم في كتائب الشيطان، لكنّهم مهما دبّروا من مكايـد ضدّ الذين آمنوا فمكايدهم شيـطانية ضعيفـة بالنسبـة إلى قوى الـذين آمنوا، إذا كـانوا حقّاً يقاتلون في سبيل الله منهجاً وخطّة وعملاً وغايةً ونيّة وإعداداً.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾:

أي: إنّ كيد الشيطان هو ضعيف دواماً، إذ فعل «كان» يدلُّ في الصفات على الكينونة المستقرّة المستمرّة غالباً.

* * *

الفقرة السادسة: تتضمّن بيان ظاهرة من ظواهر النفاق وهي ظاهرة إبداء الرغبة بالتعجّل قبل الإذن بالقتال، والخوف منه عند الإذن به أو الأمر به، مع التسويف وطلب تأخيره إلى أجلٍ قريبٍ على سبيل المماطلة.

وهذه الظاهرة قد تكون من أهل الشكّ والرّيب، ومن ضعفاء الإيمان، ومن أهل الجبن والتعلّق بالحياة الدنيا، وربّما كان هؤلاء هم المقصودون، بالدرجة الأولى لأن المرحلة المكيّة لم يكن فيها نفاق، والمسلمون فيها هم الذين طُلِبَ منهم كفّ أيديهم.

وتتضمّن التوجيه الربّاني حول هذه الظاهرة.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

في هذا النصّ قضيتان:

الأولى: بيان الظاهرة المستنكرة، مع التعجيب منها والتوجيه لاستنكارها.

الثانية: التوجيه الرّباني الإقناعي لمعالجتها.

القضية الأولى:

يوجه الله النظر الفكري بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ التعجيبي، لاستثارة

العجب والاستنكار لظاهرة ذات طرفين متضادّين متخالفين حول موضوع واحد، هي ظاهرة التحمّس للقتال عند الأمر بالكفّ وعدم الإذن به، والتخاذل عنه وطلب التأجيل مماطلة وتسويفاً عند الأمر به.

والخطاب موجّه بصيغة المفرد للرّسول أوّلاً، ومن بعده إلى كلّ ذي نظر فكريّ.

قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

أي: ألم تُدرِكْ ببصيرتك الفكريّة؟ والاستفهام هنا استفهام تعجيبي استنكاري.

قول الله تعالى:

﴿إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾:

أي: قيل لهم لا تقاتِلُوا الكفّار والمشركين الذين يضطهدونكم من أجل دينكم، وكان هذا ظاهراً في المرحلة المكيّة، التي لم يكن فيها منافقون يومئذ، وروي عن ابن عبّاس أنّ من هؤلاء: «عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود، وقدامة بن مظعون، وأصحابهم».

وربّما كان من المنافقين وأهل الريب والشكّ وضعفاء الإيمان في أوائل المرحلة المدنية قبل الأمر بالقتال تظاهُرٌ بالتَّحمُّسِ لمقاتلة مشركي مكةّ لأسباب مختلفة، فقيل لهم: كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ.

قول الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾:

أي: حافظوا على حدود ركني إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فدلّ هذا على أن ركني الصلاة والزّكاة من أركان الإسلام كانا قد شُرِعَا والمسلمون ما زالُوا مأمورين بكفّ أيديهم عن قتال أعدائهم، وقد جاء في عدد من السّورالمكية الحث على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو في مضمونه أمر تكليفي.

(١) ففي معرض الحديث عن موسى عليه السلام وبني إسرائيل قال الله

عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾.

(٢) ثم في صدر سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) المكية، قال الله عزّ وجلّ:

﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

(٣) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في صدر سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) وهي سورة مكيّة قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

(٤) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في أواسط العهد المكي وعيداً للمشركين بالويل، ذاكراً من صفاتهم أنهم لا يُؤْتُونَ الزكاة، فقال تعالى في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾.

(٥) ثُمّ أنزل الله عزّ وجلّ في أواخر العهد المكي الأمر بإيتاء ذي القربى حقّهُ والمسكين وابْن السبيل ووعد على ذلك بالفلاح لمن يريد به وجه الله، ومهّد لتحريم الرّبا بأنّه لا يربُو عند الله، ورغب في إيتاء الزكاة بالوعد بالإخلاف المضاعف، فقال تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾».

فهٰذِه النصوص المكيّة تَدُلُّ على أنّ الزكاة كانت واجبة مُنْذُ العَهْدِ المكي. فقول الفقهاء: إنّ الزكاة شُرِعَتْ في السنة الثانية من العهد المدني ينبغي أن يُحْمَل على معنى قيام الدولة الإسلامية بجبايتها، وتوزيعها على مستحقيها، أوعلى تحديد المقادير المفروضة منها في مختلف الأموال، بينما كان التكليف تكليفاً عامّاً يتبع الحاجات والضرورات.

قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾:

أي: فحين بُتَّ الإِذْنُ بالقتال ثمّ الأَمْرُ بِهِ، وجاء التعبير عن إبرام الأمر وبتّه بالكتابة، لأنّ من عادة العظماء إذا بتّوا وأبرموا أمراً عامّاً كتبوه، ولم يكتفُوا بمجرّد التوجيه الكلاميّ، وهو من باب إطلاق اللاّزم وإرادة الملزوم.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ... ﴿٧٧﴾﴾.

«إذا» فُجائيّة كما سبق، والمعنى أنّ فريقاً من الذين كانوا يتعجّلُون المطالبة بالقتال قبل الإذن به، ولم يكن من الحكمة في بناء الأمة الإسلامية ذلك التعجل، يُفاجئون بعد الإذن بالقتال والأمر به بظاهراتٍ ثلاث مضادّة لمَا كانوا يُبْدُونَه من رغبات التعجّل.

الظاهرة الأولى: خشيَتُهُمْ مِنْ مُلاقاة الناس في القِتَال كخشيتهم من ملاقاة الله يوم الحساب أو أشدّ خشية، أو من عقابه المعجل على مخالفة التكليف.

الخشية: حركة نفسيّة، ولكن لمّا كانت لها آثار في السلوك الظاهر كانتْ ظاهرة مُدْرَكَةً بآثارها.

وسبب هذه الخشية كفْرٌ في الباطن وهو عند المنافقين. أو شكٌّ وهو عند أهل

الرّيب بالدين وما جاء فيه. أو ضعف إيمان وهو عند العصاة، أو تعلّق بالدّنيا وهو عند الغافلين الذين يحبُّون العاجلة. وقد جاء النصّ عامًّا ليشمل كلّ هؤلاء.

وجاء ذكر هذه الظاهرة ضمن ظواهر النّفاق للإشعار بأنّها في الأصل هي من صفات المنافقين، فعلى المؤمنين أن يحذروها لئلا تجرّهم إلى النفاق، ولئلا تكون علامة من علاماته فيهم، وكذلك الظاهرتان الثانية والثالثة.

الظاهرة الثانية: انزعاجُهم وتذمُّرهم من إلزامهم بالقتال، حتّى قالوا: رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنا القتال؟.

أي: أما كان من الممكن أن تنصُرنا على عدوّنا دون أن تُكلّفنا قتاله، فتتولّى أنت إهلاكهم، وهذه مقولة تصلحُ لأن يقولها المنافقون والشاكّون وضعفاء الإيمان والغافلون الذين استأثرت بتصوراتهم الحياة الدنيا، وكذلك من شغلتهم الدنيا عن طلب الآخرة.

ويلاحظ أنّ المطلب هنا مشابه لمطلب بني إسرائيل، إذ قالُوا لموسى عليه السلام:

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾:

ولكنّه بأسلوب آخر غير مباشر، إنّه أسْلُوب المتسائل عن الحكمة.

وقد أجاب الله عزّ وجل عن هذا التساؤل فيما أنزل في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) التي أنزلت بعد سورتين من نزول سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ... ④﴾:

أي: فحكمةُ الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا هي الداعيةُ إلى تكليف المؤمنين قتالَ المشركين، ولولاها لكان أمر الانتقام من الكافرين يسيراً.

أمّا أسلوب بني إسرائيل فهو خَشِنٌ جافٌّ يُعْلِن الرَّفْضَ بوقاحة.

الظاهرة الثالثة: التّسْويفُ والمماطلة بطلب التاخير إلى أجلٍ قريب، دلّ عليها قولهم:

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾.

بمعنى: هلَّا أَخَّرْتَنَا إلى أجل قريبٍ، والأجلُ القريب الذي يطلبون تأخير إلزامهم بالقتال إليه، قد يُعَلِّلونه بتكاثر عدد المسلمين، أو استكمال استعداداتهم لمقاتلة عدوّهم.

يرى بعض أهل التفسير أنّ المراد من قولهم هذا تأخيرُهم حتى يموتوا موتاً عادياً في آجالهم.

لكنّ هذا التفسير لا يُناسب الموضوع هنا، ولو كان هو المراد لكان التعبير على نحو: لولا أعفيتنا حتى نموت في آجالنا.

فطلبُ التأخير تأجيل وتسويف ومماطلة، ولهذا التعبير نظيران في القرآن هما بمعنى التأجيل لإصلاح الحال واستدراك ما فات:

الأول: ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) بشأن بيان طلب الظالمين حين يرون نُذُرَ العذاب النّازل بهم، وهي مقدمات ما أنذرهم به رسولهم، وهو قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾:

أي: يُقْسِمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَتَعَرَّضُونَ لإهلاكٍ جَمَاعِيٍّ عقاباً لهم، مع أنهم سكَنُوا في مساكن الذين أهلكوا من قبلهم إهلاكاً جماعيّاً بسبب أنهم ظلموا أنفسهم، كما ضرب الله لهم الأمثال من الظالمين الأوّلين الّذِينَ أنزل بهم عقابَهُ فأهلكهم إهلاكاً جماعيّاً.

الثاني: ما جاء في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

فهذا عندما يأتيه الموت، ويُدْرك أنه نازل به، وتتكشف له أشياء من عالم الآخرة، يدعو ربّه أن يؤخّره إلى أجل قريب فيباشرَ ببذل الصدقات وفعل الصالحات، لكنّ الله لا يستجيب لطلبه، ولا يغيّر سنته في امتحان عباده، وإنهاء ظروفه بحلول الأجل المقرّر للموت.

القضية الثانية:

ما تضمّنه قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... ﴿٧٨﴾﴾.

في هذا النص يعلّم الله عزّ وجلّ رسوله فكلَّ مؤهّل لتقديم الحجج الإقناعية من بعده، كيف يقدّمُ الحقائقَ الإقناعية للّذين جبُنوا عن قتال الكافرين حينما أَمر اللَّهُ به، بعد أن كانوا يتظاهرون بالتحمُّس لمقاتلتهم حين كانوا مأمورين بكفّ أيديهم، وقالوا بعد الإذن به ثم الأمر به:

(١) ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾؟

(٢) ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

وفي هذا النصّ التعليمي توجيه للإقناع بأربع حقائق:

الحقيقة الأولى: أنّ متاع الحياة الدُّنيا الّذي يحرصون عليه متاعٌ قليل:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.

حين يبحث المتفكر المجرّب في الحياة الدنيا يجدُها مزيجاً من المتاعب والآلام والأكدار والمنغصات والكَدّ والكَدْحِ ولَقَطَاتٍ من اللَّذّات وسُحُباً ملونةً بأصباغ جميلةٍ من أحلام الأماني.

أمّا ما فيها من لذّاتٍ ملتقطاتٍ من مجموع المزيج، فهي لذّات سريعات عابرات غير مستقرّات، فهي متاعٌ سريع الزوال قليل المقدار.

﴿متاع﴾: المتاع في اللّغة، قال الأزهريّ فأمّا المتاع في الأصل فكلُّ شَيْءٍ يُنْتَفَعُ به، ويُتَبَلَّغُ بِهِ، وَيُتَزَوَّدُ، والْفَنَاءُ يأْتِي عليه في الدنيا.

أقول:

جاء استعمال هذه المادة ومشتقاتها في القرآن زائداً على ستين مرّة، وكلّها فيما يُنْتفع به في الحياة الدنيا وهو عُرْضَةٌ للفناء، وسُرعةِ الزّوال.

إنّ الأشياء التي يُنْتَفَع بها صائرة إلى الزوال بين زمنٍ قصير وزمن أطول. والاستمتاع بالأشياء أكثرُهُ ينقضي في زمنٍ قصير يسير.

* وقد وصف الله عزّ وجلّ الحياة الدّنيا بأنها مَتَاعُ الْغُرُور، والْغُرُورُ هو الْخِدْعُ والإِطْمَاعُ بالْبَاطل، فقال تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

* ووصف الله عزّ وجلّ كلّ الحياة الدنيا بجانب الآخرة وبالقياس عليها بأنّها متاع، فقال تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

* وأنذر الرسول صالح عليه السلام قومه ثمود بعد أن عقروا النّاقة بالعذاب النازل بهم بعد ثلاثة أيّام وقال لهم كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في قوله تعالى:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

فكان بقاؤهم في دارهم في حياةٍ عاديّة ثلاثة أيّام ممّا يصحّ أن يقال بشأنه لهم: «تَمتَّعُوا».

فدلّتنا الاستعمالات القرآنية على أن المتاع والتمتّع والاستمتاع ونحوها تطلق ويراد منها ما يعقبه الفناء، أو هو سريع الزوال.

بخلاف ما في الجنة يوم الدين من خيراتٍ حسانٍ ولذّاتٍ فقد سمّاهُ الله نعيماً مقيماً، وجعل من خصائص أقسام الجنّة أنها جنّاتُ النعيم، وقال تعالى في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشأنها:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

إن من يؤمن بهذه الحقيقة يزهد في الحياة الدنيا، ويقلّ تعلّقه بها.

الحقيقة الثانية: أنّ الآخِرَةَ خيرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ. أي: من أدنى درجات التّقوى، باتّقاء الخلود في النّار بكلمة التوحيد، حتّى قمّة المتقين، فقمّةِ الأبرار، فقمةِ المحسنين.

خَيْر: أفعل تفضيل، أي: أخير وأحسن وأفضل وأكثر تحقيقاً لمطالب النفوس ولذّاتها. والأَخْيَرِيَّةُ تشملُ ما زاد بدرجَة، وما زاد بدرجات لا تُقَدَّرُ بمقدار، انطلاقاً إلى غير نهاية، وليس في اللّغات كلمات تدلّ على نِسَب درجات التفاضل، فاقتصر النّصّ القرآنيّ على التعبير بكلمة خير.

لكن جاء في بيان الرسول ﷺ ما يُصوّر كلّ لذّاتِ الحياة الدّنيا وما فيها من متاع، وكلّ آلامها وما فيها من عذاب، بصورة كاشفة لِقَدْرٍ كبير من الحقيقة، فقد روى الإمام مسلم، والإمام أحمد، والنسائيّ والبيهقيّ، عن أنس، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ في جَهَنَّم صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ واللّهِ يَا رَبّ.

ويُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ وَاللّهِ يَا رَبّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ».

(حديث صحيح)

إنّ من يؤمن بهذه الحقيقة تهون عنده الدنيا، ويسهل عليه أن يبذل نفسه ابتغاء ما عند الله من أجر عظيم.

الحقيقة الثالثة: أنّ الجزاء يوم الدين على السيئات بالعدل الربّاني، وأنّ الجزاء على الحسنات وفعل الخيرات بالفضل الرّباني، لذلك فلا يُظْلَمُ المسيئون ولا يُظلم المحسنونَ شيئاً مهما قلّ، ولو كان بمقدار أقلّ الأشياء وأحقرها.

دلّ على هذه الحقيقة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: ولا تظلمون يوم الدين، يوم الحساب والجزاء، عند الله ربّ العالمين، شيئاً مهما كان ضئيلاً حقيراً، كالخيط الذي يكون في شقّ النواة، أو بمقدار ما يفتل الإنسان بين إبهامه وسبّابته من وسخ يجمعه ليرميه.

والسبب في ذلك أنّ الثواب على الحسنات يضاعف أضعافاً كثيرة، وهو في الأصل عطاء بفضل الله، فلا ظُلْمَ فيه، أمّا العقاب على السيئات فيقترن بعفو كثير، والأصل في الجزاء على السيّئات هو ما أبانه الله بقوله تعالى في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ... ﴿٢٧﴾﴾.

إنّ من يؤمن بهذه الحقيقة، يخشى اكتساب السيئات من دركة النفاق إلى دركة المعاصي والمخالفات العادية، ويندفع لفعل الطاعات والصالحات طمعاً بثواب الله عزّ وجلّ.

الحقيقة الرابعة: أنّ الموت المقدَّر المقضيّ بقضاء الله وقدرِه حتْمٌ لا مهربَ منه ولا مفرّ، ولا يستطيع مخلوق أن يتّقيه مهما اتّخذ من وسائل يتصوّرُها عاصمةً له من الموت، كبروج مشيَّدةٍ مُحصَّنةٍ مَحْمِيَّة ضمْن أسوارٍ وحُصُون.

وقد جاء بيان هذه الحقيقة في التعليم بقوله تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ... ﴿٧٨﴾﴾.

والمعنى: ما الداعي إلى المماطلة والتسويف في موضوع الأمر بقتال أعدائكم، وكلّ إنسان يموت بأجله، سواءٌ أقاتل أو لم يقاتل.

إنّ من يؤمن بهذه الحقيقة يُؤْثِرُ أن يموت شهيداً لينال كرامة الشهداء، وهو خير له عند ربّه من أن يموت موتاً عادياً دون أن يغنم الشهادة وأجرها العظيم وكرامتها عند الله.

* * *

الفقرة السابعة: تتضمّن بيان ظاهرة من ظواهر النفاق لدى المنافقين، وهي ظاهرة نسبة ما يُصيبهم من حسنة بسبب حُسْنِ القيادة والإدارة النبوية إلى محض القضاء والقدر من الله، ونسبةِ ما يُصيبهم من سيئةٍ إلى سوء القيادة والإدارة النبوية، وتتضمن أيضاً التوجيه الربّاني إلى الحقّ في الذي يصيب الناس من حسناتٍ وسيئات.

قال الله عزّ وجل:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

إيرادُ هاتين الآيتَيْنِ ضِمْنَ مَوْضوع الدعوة إلى القتال في سبيل الله كما يُلاحظ من سِياقِ النّصّ وسِياقِهِ، قَبْلَهُما وبَعْدَهُما، ومَا يَبْرُزُ مِنْ ظواهِرَ هي في الأساسِ ظواهرُ نفاق، وقد تظهر من أهل الشك والرّيب، وقد يَظْهر بعضها من ضعفاء الإيمان، ومن أهلِ الغفلات الذين سيطرت الحياةُ الدُّنيا على أفكارهم وتصوّراتهم مع صحة إيمانهم، يدلُّ على أنّ هذه الظاهرة الّتي كشفتها وعالجتها هاتان الآيتان ظاهرة نفاقيّةٌ تَبْرُزُ عند الحصائل التي تكونُ من النتائج القريبة للمعركة القتاليّة، في أثناء القتال أو بعد انتهاء المعركة. وهذه الحصائل منها ما يَسُرُّ كالنصر والغنيمة، وكلُّ واحدة مما يسرّ تُسمّى في اللّغة: حسنة، ومنها ما هو مكروه كالقتل والجرح والخسارة والهزيمة، وكل واحدة من النّوازل المكروهات تُسمّى في اللغة: سيئة.

فالمنافقون في حالة ظفر المؤمنين بما يحبّون من حسنات نَصْر وغنيمة، يقولون:

هذه من عند الله، أي: من محض فضل الله في عطائه، ولم يكن لحكمة الرسول في إدارته وسياسته وقيادته وأمره بقتال العدوّ تسبُّبٌ في إكرام الله لهم بالنّصر والغنيمة.

وهٰذِهِ في المنافقين بين المسلمين، وهم في باطنهم مشركون يؤمنون بالربّ الخالق، ويشركون به، ولا يؤمنون بالرّسول، نظير مقالة المادّيّين الملحدين الذين يجحدون الرّبّ الخالق، إذْ يَقُولُونَ عمّا يناله المؤمنون من فضل الله، هذا قد جاء على سبيل المصادفة.

والمنافقون في حالة إصابة المسلمين بما يكرهون من سيئات قتلٍ أوْجَرْحٍ أو خسارةٍ أو هزيمة، يُلْقُون تبعةَ ذلك على الرسول ﷺ، وأنّه قد كان بإدارته، أو قيادته، أو أمره بالخروج إلى قتال العدوّ، هو السبب فيما نزل بالمسلمين من سيئات يكرهونها.

هذا ما يَدُلُّ عليه سباق النّصّ وسياقه، ولا يمنع أن تكون هذه الظاهرة من الظواهر التي تكون أيضاً في الأحوال العاديّة، عند نزول النعم والمصائب التي يُصرّفُها الله كما يشاءُ في عباده، للابتلاء، أو التربية، أو الجزاء، فحين تنزل النّعم، يقول المنافقون: هذه من عند الله، أي: هي عطاء من خزائن ملك الله. وحين تنزل المصائب، يقول المنافقون مُتَطيِّرين بالرّسول ضِمْنَ خرافة التشاؤم بالأشخاص ذوي الإدارة والسلطان والحكم: هذه من عندك. أي: من الشؤم الذي هو عنْدَك، الجالب للمصائب والمكاره.

وهذا كلامٌ لا يقولُه إلاّ المنافقون، وأهلُ الرّيبِ الّذين رجَحَتْ لَدَيْهم كِفّةُ التكذيبِ على كِفّة التصديق.

وهذه الطّيَرة معروفةٌ في الناس قديماً، ولا سيما عند أهل الكفر بالله وبحكمته، فمن أمثلتها ما كان يقوله آل فرعون في عهد موسى عليه السلام، وهو ما ذكره الله بقوله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

ونتساءل: هل كانوا يواجهون الرّسول ﷺ بقولهم حين تصيبهم السيّئة: «هذه من عندك»؟

لدينا احتمالان:

- **أرجحهما فيما أرى**: أنّهم كانوا يقولونها في نفوسهم وهمساً فيما بينهم وهم في مجلس الرسول. فالله أذاعها وكشفها لرسوله ولسائر متلقّي الذكر الحكيم، وأعلمهم بذلك أنّ ما يُسِرُّون به لا يخفى على الله منه شيء، ويتضمّن هذا الإعلان حجّةً عليهم بأنّ محمّداً هو رسول الله حقاً وصِدْقاً، ووسيلةَ إقناعٍ لأهل الريْب بصدقِ الرسول.

- **الاحتمال الثاني**: أن الله يخبر رسوله خطاباً بمضمون ما يقولون في غيبته عنه، وهذا من أساليب الكلام الخبريّ القائم على إخبار المخاطب على سبيل الخطاب بما جرى الحديث عنه بضمير الغائب، كأن تقول لمخاطبك: فلانٌ أثنى عليك، فقال: أنت عالم فصيح اللّسان، شجاعٌ في الحقّ، جواد. مع أنّه قال في غيبته: هو عالم... إلى آخر الكلام.

أمّا موضوع ما ينزل بالناس من حسنات «أي: مِنْ نِعَمٍ» وما ينزل بهم من سيئات «أي: من مصائب» فينعلّق به قضيتان:

القضيـة الأولـى:

هي قضيّة الفاعلِ الحقيقيّ لما يَنْزِلُ من نِعَمٍ ومَصَائب، والمرسلِ لها من خزائنِ ملكه التي هي عنده في كونه.

ففاعلها جميعاً، ومُرْسِلُها جميعاً من عنده، إنّما هو الله عزّ وجلّ، وذلك إنّما يَتمُّ بأمره سبحانه، وهو أمر التكوين، لما أراد ممّا قدّره بمقاديره، وأمضاهُ بقضائه.

ودفعاً للالْتِباس والخلْطِ بين الأسباب والحِكَم والْفِعْلِ التنفيذي الذي هو تكوين لما قضاه الله وقدّره، قال الله عزّ وجلّ مُعَلّماً رسوله فكلَّ داعٍ من بعده، أن يقول للذين قالوا ما سبق بيانه، ولأشباههم:

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

أي: كلُّ ما يجري في الكون ومن ضمنه الحسناتُ والسيّئات «أي: النِّعَمُ والمصائبُ» الّتي تنزل بالعباد هي من عند الله، وظاهرٌ أنَّها لا تُفْرَزُ من خزائِنِه إلاّ بأَمْرِه، وبقضائه وقَدَرِه وإرادته.

وهذه قضيّة هي من بدهيّات القاعدة الإيمانية، التي جاء بيانها فيما نزل من قرآن طوال العهد المكّي ونحو ربع العهد المدنيّ قبل نزول سورة «النساء» وجاء بيانها على لسان الرسول ﷺ خلال هذه المدّة، وكان على الّذين تحدَّث الله عنهم بقوله:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ... ﴿٧٨﴾﴾.

أن لا تَخْطُرَ على نفوسهم خواطر الشِّرْكِ السَّبَبِيّ، ولا خواطر الشرك الخرافيّ القائم على التطيّر، لذلك قال الله بشأنهم:

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾؟!.

أي: أيُّ شيءٍ ثابتٌ لهؤلاء من انحراف نفسيٍّ أو خلقيٍّ أو فِكْريٍّ حالة كَوْنهم لا يكادُونَ يَفْقَهُونَ حديثاً؟!

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾:

أي: لا يَقْتَرِبُون من فقه حديثٍ ما، والذي لا يقتربُ من الشيء، لا يتصف به، ولا يَدْخُل في حدوده.

الفقه: هو الفهم العميق للأشياء، وللنصوص، وعدم الاكتفاء بالإدراكِ السطحيّ.

والمعنى أنّ هؤلاء يدركون من الأحاديث سُطُوحَها الظاهرة، ولا يكلّفون أنفسهم إعمال أفكارهم لفقه دلالاتها العميقة، فيقعون في أغاليط فكرية، ينشأ عنها مثل الذي عبَّروا عنه بقولهم السابق بيانه.

ولو فقهوا لأدركوا أنّ الشيء يُنْسَبُ إلى فاعله الحقيقيّ نسبة الفعل والتكوين، ويُنْسَبُ إلى غير فاعله الحقيقيّ لعلاقةٍ ما من العلاقات، كأنْ يكون هو السَّبب، أو هو المقتضي، أو من أجله فُعِل، ونحو ذلك.

فيقال: هذا السارق قطع يد نفسه، أي: كان السبب بقطع يده. ويقول الرجل لمطلقته التي ردّها: أولادي منك هم الذين ردّوك إليّ، أي: من أجلهم أرجعتك إلى عصمتي، وهكذا.

وهنا تظهر لنا القضية الثانية:

القضيـة الثانيـة:

هي قضية نسبة الفعل أو الحدث أو الشيء إلى من كان هو السبب الداعي لوجوده، أو من أجله أو لمصلحته أوجده مُوجِدُه أو جلبه، وأتى به، أو لأمرٍ ما يتعلّق به، كامتحانه، أو تربيته وتأديبه، أو ثوابه أو عقابه.

وبياناً لهذه القضية الثانية مقارنة بالقضيّة الأولى، قال الله عزّ وجل لرسوله، ويقاس عليه سائر الناس:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ . . . ﴿٧٩﴾﴾:

أي: كلُّ الحسنات «وهي النِّعَم» التي تُصيبُكَ فهي عطاءٌ من فضل الله ليس لك تَسَبُّبٌ فيها.

وكلُّ سيِّئةٍ تُصيبُكَ فهي بسبب أو مُقْتضٍ أو داعٍ من نَفْسِك، والنَّفْسُ هي الكاسبة، فإذا كانت السيئة للامتحان والابتلاء، فاختبار نفسه هو الداعي، وإذا كانت للتربية والتأديب، فهما المقتضي، وإذا كانت للجزاء فنفسه الكاسبة هي السبب. فكون ما أصاب الإنسان من سيِّئةٍ هو من نفسه، ينبغي أن يُفهم على هذا، فالإسناد ملاحظٌ فيه هذه العلاقة، لا الخلق والتكوين والإيجاد. فعلّمنا الله عزّ وجلّ بهذا أنّ الحَدَثَ يُنْسَبُ إلى فاعله ومُوجده، ويُنسَبُ إلى مُسَبِّبه، ويُنسب إلى من كان لمصلحته، أو من أجله، أو لأمرٍ ما يتعلّقُ به.

وإدراك هذه النسب في النصوص بحسب العلاقات يحتاج إلى فقه، وهو الفهم العميق الذي لا يقتصر على السطوح، بل يكون فيه تعمُّقٌ وتَدَبُّر.

ولمّا كانت مقالة المنافقين والشاكّين التي عرضها النّص إنما قالوها بسبب تكذيبهم الرسول وعدم تصديقهم برسالته، وَاسَى الله رسوله بقوله له:

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾:

أي: لئن كذَّبك أو شكَّ فيك هؤلاء القلّة من المنافقين وأهل الرّيب، فأنت لست رسولاً لهم فقط، ولا رسولاً للعرب فقط، بل أنت رسول من الله للناس جميعاً.

وإنْ كنت تحتاج من يشهد لك بأنّك رسولُ حقٌّ وصدق، فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شهيداً يَشْهَدُ لك بذلك.

والمعنى: ألم يشهد لك بأنّك رسوله، عن طريق معجزة القرآن، والمعجزات الأخرى التي أمدّك بها، وما آتاك من تأييد ونصرٍ مبين، وما سيُؤتيكَ من معجزات وتأييد ومَدَدٍ وفتحٍ في البلاد والعباد وتمكين.

* * *

الفقرة الثامنة: تتضمّن بيان أنّ طاعة الرّسول من طاعة الله وخطاباً للرّسول بأنّ من تولّى عن طاعته، مدبراً ظهره لأوامره ونواهيه، فعلى الرسول أن لا يهتمّ له، ولا يشغل به باله، فإنّ الله لم يُرْسلْه حفيظاً على الناس، ضابطاً لهم عن الانحراف، ومانعاً لهم من التَّوَلّي عن الخروج عن الصراط.

وفي هذا توجيهٌ وتربيةٌ لكل داعٍ إلى دين الله وصراطه المستقيم من بعده، أو آمر بالمعروف ناه عن المنكر، إذ هم ليسوا مسؤولين عن حفظ الناس على التزام صراطه، إنما هم مسؤولون عن الدعوة لمن هم خارج الصراط، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمن هم داخله، ومحاولة إلزامهم الصراط ما أمكن عن طريق اختيارهم الحرّ.

قال الله عزّ وجل:

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

في هذه الآية قضيّتان:

القضية الأولى:

أنّ طاعة الرسول في أوامره ونواهيه هي من طاعة الله، والسبب في ذلك أنّ الله عزّ وجلّ قد أمر بطاعته دون قيد، لأنّه قد عصمه جلّ وعلا في قضايا الدّين عن أن يأمُر

بشيءٍ نهى الله عنه، أو ينهى عن شيءٍ أمر الله به.

وهذه القضية واضحة من صيغة الشرط والجزاء في قوله تعالى:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

وقد جاء النّصّ عامّاً في الرسول، فلم يقل الله لرسوله: من يطعك فقد أطاعني، للدّلالة على أن صفة الرسالة تقتضي هذه الطاعة، فهي إذاً تشمَلُ كُلَّ رَسُول، فيلتقي النصّ هنا مع قوله تعالى في النّصّ السابق له من سورة (النساء) نفسها:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ... ﴿٦٤﴾﴾.

ويزيد عليه فكرة أنَّ طاعة الرسول هي من طاعة الله.

القضية الثانية:

أنّ الرسول لم يُرْسِلْه الله حفيظاً على الناس، إذن فهو ليس مسؤولاً عن تولّي من تولّى منهم، ويُفيدُ ذلك لزوماً إشعارَهُ بأن لا يهتمّ لمن يتولّى منهم، ولا يشغلَ به بالَهُ.

دلّ على هذه القضيّة قوله تعالى:

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

تولّى: أدار ظهره وانصرف، وهذا إنما يفعله الكافرون، والمنافقون.

حفيظاً: الحفيظُ هو الموكَّلُ بالشيء المؤتمن عليه ليحفظه وهو «فعيل» صيغة مبالغة لحافظ. فالحفيظ على الشيء هو المسؤول عن سلامته، والمكلّف أن يمنعه من الخروج عن موقع سلامته، ويمنع عنه ما يَضُرُّ سلامته، كالحفيظ على الأموال في مخازنها، والأنعام والخيل ونحوها.

لكنَّ الرسول مبلّغ للناس دين الله، وهادٍ وداعٍ ومرشد، ولم يَجْعلْه الله عليهم حفيظاً، حتّى يكون مسؤولاً عند الله عن تولّي من تولّى منهم، أو إدبار من أدبر، أو إعراض من أعرض وعرّض نفسه لعذاب الله.

وإذْ لم يجعلْه الله حفيظاً عليهم فمن الخير أن لا يشغل قلبه ونفسه بالذين يَتَوَلَّوْنَ، وعليه أن يهتمّ بوظيفته التي كلّفه الله إيّاها.

وإذا كان الرسول كذلك فالدعاة من بعده هم أجدر بأن يكونوا غير مسؤولين عمّن تولّى، لأنّ الله لم يجعل أحداً حفيظاً على الناس.

وقد جاءت هذه الفقرة تمهيداً للفقرة التالية لها.

* * *

الفقرة التاسعة: تتضمّن بَيَانَ ظاهرةٍ من ظواهر النفاق لدى المنافقين، وهي ظاهرة إعلان طاعة الرسول في أوامره ونواهيه في وجهه، فإذا خرجوا من عنده وخلوا بعيدين عن الرُّقباء، بيّتَ طائفة منهم المعصية والمخالفة مع ما يبيّتون من أمور كيديّة أخرى.

وهذه الظاهرة هي من سمات المنافقين مع قادة من دخلوا فيهم نفاقاً، وهي سمةٌ متكرّرة فيهم.

وتتضمّن أيضاً بيان ما ينبغي للرسول ﷺ أن يفعله إذا اكتشف هذه الظاهرة، ويقاس على الرسول كلُّ قائد للمسلمين من بعده.

وتتضمّن توجيهاً إقناعيّاً للمنافقين بصِدْق الرسول، عن طريق حَثّهم على تدبُّر القرآن ليعلموا أنّه كلام الله حقّاً وصدقاً، وإذا كان هو كذلك فمبلّغه عن ربّه صادق لا محالةَ في أنه رسول الله.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

في هذا النصّ ستُّ قضايا:

(١) بيان الظاهرة النفاقية، وهي التضاد بين إعلان الطاعة وتبييت ما يضادها.

(٢) وبيان أنّها معلومة لله، وأنّ الله يكتب عليهم ما يبيتون، ومن الكتابة ما تقوم به ملائكة تسجيل أعمال العباد في الكتب والصحف.

(٣) توجيه الرسول للإعراض عنهم، وعدم الاهتمام بهم، وكأنّ شيئاً لم يكن.

(٤) توجيه الرسول للتوكُّل على الله وتفويض أمرهم إليه.

(٥) بيان أنّ من توكّل على الله ضمن حدود أوامر الله ونواهيه ووصاياه كفاه.

(٦) حضّ المنافقين بأسلوب الحديث عن الغائب على أن يتدبّروا القرآن ليعلموا أنه كلام الله، مع لفت النظر إلى أنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً عن الواقع والحقّ، واختلافاً كثيراً بين بعض نصوصه وبعضها الآخر، فإذا ثبت لديهم أنّه كلام الله ثبت لديهم أنّ مبلّغه عن ربّه هو رسول الله حقًّا وصدقاً.

وتفصيل هذه القضايا فيما يلي:

القضية الأولى:

قال الله عزّ وجلّ في بيان هذه الظاهرة النفاقية:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ... ﴿٨١﴾﴾.

جاء بيان هذه الظاهرة ضمن الظواهر النفاقية التي تبرز عند الدعوة إلى القتال، للإشعار بأنّ ظهورها عند هذه المناسبة هو الأكثر والأغلب، وهو الذي يلفت الأنظار.

ولكنّ للنصّ دلالةً عامّةً تشمَلُ مُنَاسَباتٍ أُخْرىٰ، كمناسبات الأمر بالإنفاق في سبيل الله، والأمر بالدعوة إلى دين الله، والأمر بكتمان أسرار المسلمين عن أعدائهم، إلى غير ذلك من أمور تُهِمُّ المسلمين بصفةٍ عامّة.

وقد دلّ قولُه تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾:

على أنّ قولهم ﴿طاعَةٌ﴾ مسبوق بتكليف من الرسول بأمر أو نهي، مثل: استعدّوا لقتال العدوّ فإنّا خارجون لملاقاتهم، فيقولون: طاعة، مع من يقول ذلك من المؤمنين الصادقين.

«طاعةٌ» خبرٌ لمبتدأ محذوف، تقديره: أمرُنا طاعةٌ.

﴿ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ ﴾:

جاء استعمال فعل ﴿بَرَزُوا﴾ هنا، وجاء استعمال فعل ﴿خَلَوْا﴾ في النصّ الذي في (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن المنافقين:

﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ . . . ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي النصّ الذي في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأنهم أيضاً:

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ . . . ﴿١١٩﴾ ﴾.

مع أنّ الهدف من الاستعمالين واحد، فهل هو مجرّد تنويع في التعبير؟

بالتأمل والتفكّر يظهر للمتدبّر أنّ فعل ﴿بَرَزُوا﴾ الدّال على خروجهم إلى الفضاء الواسع الخالي من الشجر ونحوه، بعيدين عن الرقباء والعيون الرواصد، هو الأليق هنا، لأنّ الموضوع يتناول غالباً الأوامر التي تتعلّق بموضوعات القتال، وهي قد تكون أوامر صادرة خارج حدود البلد، والمكانُ الخالي الذي يمكن أن يُبَيِّتَ المنافقون فيه أمراً مخالفاً لما أعلنوا الطاعة فيه، هو «الْبَرَاز» أي: الفضاء الواسع الخالي من الشجر ونحوه، ليكونوا فيه بعيدين عن الرقباء. وهذا من الدّقّة العجيبة في انتقاء الألفاظ القرآنية في مواضع استعمالاتها.

ومتابعةً للدّقة التعبيريّة الدّالة على معانٍ مقصودة جاء استعمال فعل «بَيَّتَ» في النصّ، الدّال على أنّ تدبيرهم يكون في «الْبَرَاز» من جهة اختيار المكان، وفي اللّيل من جهة اختيار الزمان، فالتبييتُ هو التدبير أو العمل في اللّيل، ويشمل هذا التبييتُ معصيتهم لما أعلنوا الطاعة فيه، وتدبيرَ أمورٍ أخرى تهدف إلى إحباط أعمال المسلمين، ونصرة أعدائهم عليهم.

ومن الدقة أيضاً عدم التعميم باستعمال كلمة «طائفة» الدالة على أنّ بعضهم يفعل ذلك لا جميعهم، لكن الظاهرة هي من ظواهر المنافقين التي قد يُفرِزها النفاق في سلوك الناس.

القضية الثانية:

أنّ هذه الظاهرة النفاقية معلومة لله عزّ وجلّ، وأنّ الله يكتُب عليهم ما يُبَيِّتون،

فقال تعالى في النصّ:

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

وظاهر أنّ الحادثة لا تُكتَبُ من قِبَل الحكيم العليم إلاّ وهي معلومة له، فدلّت الكتابة على العلم لزوماً.

لكن قد يقال: لقد سبق في التنزيل القرآني قبل هذا النصّ ما يدلّ على علم الله بأعمال العباد، وعلى أن ما يعملونه يُسجّل عليهم في صحف أعمالهم، فما الذي أضافهُ النصّ هنا في هذا الموضوع؟ هل هو مجرّد التأكيد والتنبيه على هذه الحقيقة من حقائق مراقبة أعمال العباد؟

أقول:

إنّ بيان أنّ الله يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُ المنافقون من أمور مضادّة لإعلان الطاعة الذي كان منهم في مجلس الرسول، عند عرض هذه الظاهرة، يتضمّن إلماحاً بتهديدٍ خاصٍّ هو لازم فكريٌّ لتوجيه العناية لكتابة ما يُبيّتون تباعاً، دون إهمالٍ تُترقَّبُ فيه التوبة، هذا التهديد الخاص يُمْكِن إدراكُه استنباطاً، وهو أنّ الله عزّ وجلّ سيُحْبِطُ ما يُبيّتون، ويَرُدُّ عليهم مكرهم وكيدهم، إذا مكروا مكراً أو كادوا كيداً.

ويؤدّي هذا التهديد غرضين:

الغرض الأول: إلقاء الرعب والتخاذل في قلوب المنافقين.

الغرض الثاني: طَمْأَنَةُ قَلْبِ الرسول والمؤمنين بأن الله مُحْبِطٌ كيد المنافقين، فَلْيستمروا فيما هم فيه، ولا يَكُنْ ما يُبيّت المنافقون سبباً في إقلاقهم وإلقاء الوهن والتخاذل في قلوبهم ونفوسهم، وجاءت القضيّة الثالثة مرتبةً على هذه الطّمأنة.

القضية الثالثة:

وهي توجيه الرسول ﷺ للإعراض عنهم، وعدم الاهتمام بهم، وطرح القلق من جهتهم، دلّ عليها قول الله لرسوله:

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾:

أي: أعطهم عارضك وجانِبَكَ إشعاراً بأنّك عارفٌ بما يُبيّتون، كارهٌ لما يفعلون، غيرُ مكترث لمكرهم وكيدهم.

ولا بدّ أن نفهم أنّ الإعراض عنهم وسيلة إيجابية تربوية بالنسبة إليهم، وليس إهمالاً لهم ولا تهاوناً بأمرهم.

فإنّ هذا الإعراض يُشْعِرهم بصغارهم، وبأنهم مكشوفون، ويُلْقي في قلوبهم الرعب والوهن، ويجعلهم بين المسلمين كالمنبوذين الذين يَكرهُ الرّسُول النظر إليهم، فتتخاذل عزائمهم عن تنفيذ ما بيّتوا، إذْ أدركوا أنهم صاروا تحت المراقبة والمحاسبة، فهم لا يستطيعون التحرّك بحريّة المطمئن على سلامة نفسه، الواثق من أنّ العُيُونَ لا ترصُدُه، وأنّ أعماله ستحقق غاياتها.

وما هو توجيه للرسول هو توجيه لكل قائد للمسلمين من بعده، ما لم يكن من خصوصيات النبوّة والرّسالة.

القضيّة الرابعة:

وهي توجيه الرسول للتوكّل على الله، بقول الله تعالى له:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

لمّا تضمّن التوجيه للإعراض عن المنافقين، عدمَ اتخاذ أعمالٍ فيها محاسبةٌ لهم، ومكاشفةٌ لهم بما يفعلون، إذ يلزم من ذلك معاقبتهم بصراحة، أو وضعهم موضع الأعداء الصرحاء، وهو أمرٌ منافٍ للحكمة الإداريّة والسياسيّة، اقتضى الأمر الإشعار بأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي يتولّى إحباطَ ما يُبَيِّتُون مكراً وكيداً، ولكنّ شرط ذلك مع تنفيذ الإعراض عنهم صدقُ التوكّل القلبيّ على الله، فأمر بالتوكُّل عليه.

واقتضى التوجيه للتوكُّلِ على الله تَقْديمَ الوعد بأن يكفي الله من توكّلَ عليه ما أهَمَّه، فجاءت القضيّةُ التالية تُلمح إلى هذا الوعد.

القضية الخامسة:

وهي بيان أن من توكّل على الله كفاه، بقول الله تعالى:

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾:

أي: ومن كان الله عزّ وجلّ وكيلاً عنه، يتولّى أمره فيما هو وكيل عنه به، فإنّه لا بدّ أن يكفيه كلّ ما يُهِمُّهُ تحقيقُه في ذلك الأمر.

وقد دلّتنا النصوص القرآنيّة المنبثّة في سور متعددة على أنّ التوكّل على الله وظيفة قلبيّة إيمانيّة، يجب أن تكون ضمن حدود أوامر الله ونواهيه ووصاياه، وضمن اتّخاذ الأسباب التي أمر بها.

والمح قول الله تعالى:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

إلى وعدٍ من الله بأن يكفي من توكّل عليه، مع قيامه بما هو مطلوب منه دون تهاون ولا كسلٍ ولا تفريط.

القضية السادسة:

وهي حضّ المنافقين بأسلوب الحديث عن الغائب على أن يتدبّروا القرآن، ليعْلَمُوا أنّه كلام الله، وتنزيلٌ من لدنه حقّاً وصدقاً، مع التّنبيه على أنّ القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، أي: اختلافاً بينه وبين الواقع والحقّ، واختلافاً بين بعض نصوصه وبعضها الآخر، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

وفي هذا الحضّ عودٌ بهم إلى القاعدة الإيمانية التي لم تكتمل في قلوبهم، فهم لم يؤمنوا بَعْدُ بصدقِ الرسول محمّد ﷺ، ولا بصدق بلاغه عن ربّه، ومنها القرآن.

فقدّم لهم دليلاً بُرهانيّاً على صدق القرآن، وصِدْقِ رسالة الرسول، ولكن إدراكهم لهذا الدليل البرهاني يتطلّب أن يجتهدوا في تدبُّر القرآن، وتفهُّمِ دلالاته، فإنّهم إذا فعلوا ذلك أدركوا أنه مطابق للحقّ والواقع في كلّ قضاياه، وأدركوا أن نزوله منجماً مفرقاً لم يؤثر على وحدته وتكامل الحقائق فيه، وأدركوا أنه لو كان من أوضاع البشر، ومن تأليف الناس وصناعتهم، لوجدوا فيه تناقضات بينه وبين الحقّ والواقع، ولوجدوا فيه تناقضات بين بعض نصوصه المتقدمة نزولاً، وبعض نصوصه المتأخرة نزولاً، ولا سيما التي بينها أزمان تُقدّر بسنين.

إنّهم لـو تدبّـروه بإنصافٍ وتجرُّدٍ من سوابق الرفض، لـوصلوا إلى الاقتناع بـأنه كتابٌ من عند الله، وحين يصلون إلى هـذه الحقيقة، ينتقلون تلقائيّاً إلى الاقتناع بأنّ محمّداً رسول الله حقّاً وصدقاً.

ثم إذا كـانت لـديهم إرادةُ الاعتـراف بـالحقّ آمنـوا، وصـدّقـوا في إسـلامهم، وتخلّصوا من رجْس النفاق، أو من رجس الرِّيْب والشك.

ويُعلّمنـا الله بهذا الأسلوبِ الإقنـاعيِّ أنّ العلاج ينبغي أن يكـون بـالـرجـوع إلى مواطن العلل في الجذور والأصول والقواعد الأولى، ولا يكون العـلاج من الفروع مـع فساد الجذور والأصول والقواعد، إنّ الْعِلَلَ يجب أن تُعَالَجَ من مواطنها.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّـرونَ﴾: حضٌّ على التّدبّـر، والتدبُّـر تفكُّرٌ دقيق عميق تُـلاحظ فيـه العواقب ببصيرة، حتى الأطراف البعيدة التي يَدُلُّ عليها النصّ.

والاختـلاف: يشملُ التنـاقضَ والتضادَّ، فـالمختلفان في اللّغـة همـا اللّذان قـد لا يكون بينهما ائتلاف ولا اتّفاق. وهذا المعنى اللّغوي غيـرُ المعنى الاصطلاحي عنـد علماء المنطق والأصوليين، الذين يجعلون التخالف هو التغاير بين معنيين، مـع إمكان اجتماعهما وإمكان ارتفاعهما في شيءٍ واحد.

وقد جاء خطابُهم في الآية بـأسلوب الخطاب بضمير الغائب مـلائماً لـوصيّة الله لرسوله بالإعـراض عنهم، ففي المواجهـة بخطاب الحـاضر إقبـال يشعر بـالرضـا، أمّا الخطاب بضمير الغائب فيُشْعِرُ بالإعراض وعدمِ الرضا.

* * *

الفقـرة العاشـرة: تتضمّن بيان ظـاهرة من ظـواهر النفـاق لدى المنـافقين، وهي ظـاهرة إفشـاءِ أمور المسلمين، وإذاعتهـا ونشـرهـا، من أمـور السّلْم والحـربِ، لأنهم لا يشعـرون في أنفسهم بالـولاء للمسلمين، فهم لا يهتمّون لكتمـان ما يضـرّ المسلمين إذاعته.

وهذا يشمل كلّ القضايا، ولكنّه في قضايا الحرب أشدّ خطراً وأشدّ ضرراً، فجاء بيـان هذه الـظاهرة ضمن الـظواهر النفـاقية التي تبـرز عند الـدعوة إلى القتـال وبعده،

للإشعار بأنّ ظهورها عند هذه المناسبة شديد الخطورة، وقد يجلب شرّاً كبيراً لجماعة المسلمين، وللمصالح الإسلامية.

وقد تُوجد هذه الظاهرة عند أهل الشكّ والرِّيب وضعفاءِ الإيمان، وعند أهل الخفّة والطيش، ومن لا بصيرة لهم بعواقب الأمور.

وتتضمّن هذه الفقرة أيضاً التوجيه لما يجب على جمهور المسلمين أن يفعلوه بالنسبة إلى قضايا المسلمين العامة، من أمور الأمْن والخوف «أي: من أمور السِّلْم والحرب».

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

في هذه الفقرة من النصّ ثلاث قضايا:

(١) بيان الظاهرة النفاقيّة، وهي التسرُّع إلى إفشاء أمور المسلمين وإذاعتها ونشرها، تعلُّلاً بالرّغبة في المشاركة في الأمور العامّة، أو غفلة أو غباءً وسوء تقديرٍ لعواقب الأمور من قبل أهل الخفة والطيش من السّواد العام.

(٢) التوجيه لما يجب على جماهير المسلمين بالنسبة إلى القضايا العامة التي تَهمُّ المسلمين، وتتعلّق بمصالحهم العامة من أمور السلم والحرب.

(٣) بيان عناية الله بالمسلمين تُجاه هٰذِه الظاهرة الخطيرة، التي من شأنها إفْسادُ أمور المسلمين، وإحْبَاطُ أعمالهم الإسلامية، وهذه العناية الرّبانية تتناول أمرين:

الأمر الأول: فَضْلُ الله عليهم بالحماية والحفظ، إذْ يكفُّ بفضله السنة المؤمنين عن المشاركة في نشر ما يجب كتمانه من معلومات، ويُلْجمُهم عن التسرُّعِ في التأثر بالإشاعات والإرجافات المذاعة بينهم.

الأمر الثاني: تداركُ الله جماعةَ المسلمين برحمته، كلّما بدرت من أفرادٍ منهم بادرة خطيئة في هذا الأمر، إذ يعفو عنهم، ويتوبُ عليهم، ويجعل ما أخطؤوا فيه

مُتَدارَكاً بما يقي من الآثار الضارّة لجماعة المسلمين، وأعمالهم الإسلامية.

القضية الأولى:

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ....﴾.

الضمير في ﴿وَإِذَا جاءَهُمْ﴾ يعودُ على من جرى الحديث عنهم في النصّ وهم المنافقون، وهم المعنيُّون بالدرجة الأولى، وقد يُلْحَقُ بهم في بعض الظاهرات التي هي من صفاتهم أساساً من هم لم يصلوا إلى دركة النفاق، كأهل الريب والشك، وضعفاء الإيمان، وقد يتأثر ببعض أخلاقهم بعضُ المؤمنين من أهل الخفة والطيش الذين ينخدعون بشياطين المنافقين الذين يتظاهرون بأنّهم مؤمنون مسلمون.

وفعل «جاء» قد توسّع العرب في معناه حتى صار يشمل كلّ ماديّ ومعنوي انتقل إلى مكان لم يكن فيه، فبالتوسع يقال: جاء الخبر، وجاء الأمر، وجاء الخوف، ونحو ذلك.

﴿أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾:

أي: أَمْرٌ ما على وجه العموم من أمور الأمن، التي يعبّر عنها في متعارف عصرنا اليوم «أمور السّلم» أو من أمور الخوف، التي يُعَبَّر عنها في متعارف عصرنا اليوم «أمور الحرب».

ودلّ إطلاقُ كلمة «أمر» بالتنكير الذي يفيد هنا التعميم، أو يفيد أنه أمرٌ ذو أهمية، على أنّهم يُسارِعُون إلى تلقُّفِ الأمور المهمة من أخبارٍ وأنباء وأحداث ووقائع، فيذيعونها وينشرونها، ويتحدّثون بها، ويحاولون التدخل فيها، والمشاركة في حلّها، إظهاراً للاهتمام بها، والحرص على مصالح المسلمين العامّة. فينخدع بهم بعض العامة من غيرهم فيشاركونهم في الإذاعة والنشر، ومحاولات التدخل في الأمرِ لطرح الآراء والمقترحات، ومعالجة مشكلاته بصورة غوغائية، تسمح للمنافقين باستغلال المشاركات الغوغائية للإضرار بالمسلمين، وبالمصالح الإسلامية، وتمكين أعدائهم من تحقيق بعض أغراضهم، وأخطرُها الأمور المتعلّقة بقضايا الخوف والحرب مع الأعداء.

وجاء البدء بذكر «الأمن» في النصّ لأنّ أزمان السّلم أكثر وأطول من أزمان الحرب، على أن من أمور السّلم ما يكون في إفشائه خطر جسيم، ونفع للعدوّ عظيم.

القضيّة الثانية:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ... ﴿٨٣﴾﴾.

دلّ التعبير بفعل «رَدُّوهُ» على أن المسؤول عن النظر في الأمور العامة، التي تتعلّق بالمصالح العامّة للإسلام وجماعة المسلمين، هو الرّسُولُ عند إمكان الرّدّ إليه، بوصفه إمام المسلمين وقائدهم وصاحب إدارتهم وسياستهم في حياته. فإنْ لم يمكن الرّدّ إليه لبُعْدِ المكان، أو لأن الرسول قد انتقل من الحياة الدنيا، فالردّ يكون لأولي الأمر من المسلمين، لأنهم هم المسؤولون عن النظر في الأمور العامة، الإدارية والسياسية والحربية وغير ذلك، وليس من حقّ جمهور المسلمين الثرثرة ببحث الأمور المهمة، ونشرها وإذاعتها، أما تقديم المشورة لأولي الأمر بطريقة لا إذاعة فيها ولا نشر، فهو من حقّ أهل الكفاية لتقديم المشورات النافعات، من قبل كل المسلمين.

ودلّ قولُه تعالىٰ بشأن أولي الأمر من المسلمين:

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ... ﴿٨٣﴾﴾.

جواباً للشرط في: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ على أنّ الأمر الذي يقوم المنافقون ومن معهم بإذاعته، هو من الأمور المهمّة المشكلة التي تتطلّب استنباط الحلول لمعالجتها، دفعاً للمخاطر، وجلباً للمنافع، وتحقيقاً للعمل الأفضل الذي ينتج خيراً للإسلام والمسلمين، ويكون أقرب لمرضاة الله، وأوفق لمصالح المسلمين.

ونلاحظ أن جواب «لو» في حالة الردّ إلى الرسول مطويٌّ في النصّ للعلم به، ويمكن تقديره كما يلي: لكفىٰ المسلمين ما أهمهم منه، بالوحي، أو بحسن إدارته وسياسته ومشورته لأهل الرأي من أصحابه.

أمّا في حالة الرّدّ إلى أولي الأمر منهم، فقد جاء حوله البيان الذي يتضمّنُ توجيهاً لأولي الأمر الأعلين، بأن يستشيروا أهل الرأي والاختصاص الذين يستنبطون الحلول المناسبة لمعالجة الأمر الطارىء، والذين يدخلون في عموم أولي الأمر من المسلمين.

ونستطيع أن نستخلص من هذه القضية ما يلي:

(١) على المسلمين أن يردّوا الأمور المهمة العامة إلى الرسول في حياته، فهو صاحب الحق فيها، والمسؤول عن معالجتها، وسيجدون لديه الحلول المناسبة لها.

(٢) على المسلمين أن يردّوا الأمور المهمة العامة بعد الرسول إلى أولي الأمر منهم، فهم أصحاب الحقّ الإداريّ فيها، والمسؤولون عن معالجتها. ونفهم من هذا أن أولي الأمر هم قادة، ومجالس شورى، فالقادة هم السلطة العليا الآمرة، وأعضاء مجالس الشورى هم السلطة المشيرة ذات المشورة الإلزامية[١].

القضيـة الثالثـة:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

في هذه القضيّة يخاطب الله عامّة المؤمنين محذّراً إيّاهم من أن يتأثّروا بوساوس ودسائس المنافقين، الذين يتحرّكون في ظاهرات نفاقهم متّبعين الشيطان، الذي يستخدمهم لإفساد أمور المؤمنين المسلمين، والإضرار بهم، وبرسالة الإسلام.

ولمّا كان هؤلاء المنافقون مداخلين مخالطين، ومجهولي الهويّة بالنسبة إلى عامة المسلمين، كان لحركاتهم الشيطانية تأثير بين المسلمين صادقي الإسلام.

لكن الله عزّ وجلّ لمّا أمر بالإعراض عنهم، ولم يأذن بحربهم ومعاقبتهم وطردهم من صفوف المسلمين، حتّى يُذان من يُدانُ منهم، بما يُوجب محاسبته ومعاقبته بجُرْم مشهودٍ، كان من حكمته عزّ وجلّ أن يتدارك عامّة المؤمنين بأمرين:

الأمر الأوّل: أن يتفضل عليهم فيحفظهم من التأثر بطائفةٍ من دسائس المنافقين، التي هي في الحقيقة اتّباع لأوامر الشيطان، إذْ يكشف لهم بما يَشاءُ من سبب خطر

(١) ينظر تفصيل هذا الموضوع في الفصل الثاني من كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف ولا سيما ما في الصفحة (٦٩٦).

ما يكون من هؤلاء وضرَره، ولو كان مع ظنّهم أنّهم مسلمون اجتهدوا فأخطؤوا، فهم ربّما لا يعتبرونهم منافقين، ولكن لا يتّبعونهم، إذْ يعدُّونهم مخطئين، وهذا من فضل الله على المؤمنين، ومن معونته لهم.

الأمر الثاني: أن يرحمهم بالعفو والمغفرة، فإذا تأثّر بعضهم ببعض دسائس المنافقين عن ضعف أو غفلة، تداركَ الله برحمته فعفَا وغَفر، وحمَى المسلمين والإسلام، من أن يكون لتأثّرهم كبير خطر أو ضرر.

ولولا هذان الأمران: فضلُ الله على المؤمنين، ورحمتُه بهم، لكان للمنافقين تأثير كبير على جمهور المؤمنين إلاّ قليلاً منهم، فاتّبعوا بهذا التأثير الشيطانَ، فنزل بالمؤمنين بلاء عظيم، وخطر جسيم، وتمكن أعداؤهم منهم.

ويدلّ هذا على أنّهم إذا مكّنُوا المنافقين من أن يَبُثّوا دسائسهم ووساوسهم في صفوفهم، فتأثّروا بهم تأثّراً عاماً، إذْ لم يكن فيهم نسبةٌ كافية ممن هم أهلٌ لأن يحفظهم الله بما يعطيهم من رُشْدٍ وبصيرة، بسبب ارتفاع درجتهم في الإيمان والإسلام، فإنّ البلاء العظيم والشرّ الجسيم واقع بهم لا محالة، بسبب المنافقين، الذين يجعلونهم بوساوسهم ودسائسهم يتّبعون الشيطان.

هذه المفهومات قد دلّ عليها نصّ هذه القضية دلالة دقيقة عجيبة، من العسير إدراكها، لولا مراعاة قاعدة وحدة النصّ، وضرورة البحث عن روابطه، مع الاستعانة بالله وفتحٍ منه سبحانه.

لكن بعد اكتشافها وعرضها تُصْبح واضحةَ الروابط، سهلةً قريبةَ الْمُدْرَك.

* * *

الفقرة الحادية عشرة: تتضمن تكليف الرسول ﷺ (ويُقَاسُ عليه خلفاء المؤمنين وأمراؤهم وقادتهم من بعده) أن يقاتل في سبيل الله (أي: حين توجد دواعيه وتتوافر شروطه)، وتتضمّن بيانَ أنّ مسؤوليته عن القتال مسؤولية شخصية في العمل، ومسؤولية تحريض بالقول مع ما يجتمع معه من وسائل تحريض أخرى كالتربية وتقديم المغريات والمثيرات المشروعة. وتَرْجِيَةٌ من الله بأنْ يكفّ بأس الذين كفروا، مع بيان أنّ الله أشدُّ بأساً من كل ذي بأس، وأشدّ تنكيلاً من كلّ ذي تنكيل.

قال الله عزّ وجل:

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ۝٨٤﴾.

في هذا النص بيان وظيفة إمام المسلمين وقائدهم الأعلى، بالنسبة إلى مهمة القتال، بدءاً بالرسول ﷺ فمن بعده من أئمة المسلمين وقادتهم.

لقد ظهر لنا أن موضوع النّص بفقراته كلّها يدور حول قتال من تدعو الضرورة أو الحاجة إلى قتالهم من أعداء المسلمين من أهل الكفر، ودعوة الذين آمنوا إلى أن يأخذوا حِذرَهم وينفِرُوا إلى قتال عدوّهم، وكشف الظواهر النفاقية من تخاذل وتثبيط، وتضادّ بين ما يُعْلِنُون من طاعة وما يبيّتون من أضدادها، وتشكيكٍ في الرسول، ومحاولاتِ بثّ القلاقل والفتن بإذاعة الأمور المهمّة العامّة المتعلقة بشؤون السلّم والحرب.

بعد كلّ ذلك كان لا بدّ من تحديد وظيفة إمام المسلمين وقائدهم الأعلى، وما هي مسؤوليته، وكان لا بدّ من إطماعه وإطماع الذين آمنوا معه برجاء أن يمدّهم الله بمَدَدٍ من عنده، وأن يكون معهم، فيكفّ عَنْهُمْ بأس الذين كفروا.

فاشتملت هذه الآية الختامية من هذا النصّ على خمس قضايا:

القضية الأولى:

أمر الله الرسولَ (وكذلك كل إمامٍ من أئمة المسلمين من بعده) بأن يقاتل في سبيل الله، باعتبار الرسول أوّلَ المسلمين المكلفين المطالبين بما يطالب به عامة المسلمين، وكذلك ينبغي أن يكون الأئمة من بعده، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: حينما تتوافر الدواعي للقتال، وتتهيّأ أسبابه وشروطه، فالأمر بالقتال يتناول أوّل ما يتناول إمامَهم وقائدَهم الأعلى، وهو الرسول في حياته، فإمامُهم الأول من بعده.

ولم يُطلق الله عزّ وجلّ الأمر بالقتال، بل جعله مُقيَّداً بأن يكون في سبيله،

وسبيل الله في القتال مُبيَّن في عدة نصوص من القرآن الكريم.

القضيّة الثانية:

بيان أن إمام المسلمين وقائدَهم لا يحمل من مهمّة القتال الفعليّ أكثر من إلزام نفسه، لأنّ الإنسان مهما بلغت مكانته الإدارية والسياسية في الناس، فإنّه لا يملك إلاّ نفسه، إذن فهو لا يكون مسؤولاً عن وزر غيره، مهما كان من أقرب الناس إليه، إلاّ أن يكون متأثراً به، فيحمل وزر تأثيره فيه، وهذا من عمله، دون أن يُخفّف حَمْلُه هذا من مسؤولية من تأثّر به عما فعل بإرادته.

فقال الله عزّ وجل لرسوله:

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾:

أي: لا تُكَلَّفُ نَفْسَ غيرك، والمعنى: لا تُكلَّفُ إلاّ إلزامَ نَفْسِك فقط دون غيرك، فأقيم المضاف إليه مقام المضاف الذي حُذِفَ إيجازاً، والمعنى يقتضيه بداهة.

القضية الثالثة:

تكليفُ الرّسول (وكذلك كلّ إمام من أئمة المسلمين من بعده) أن يحرّض المؤمنين على القتال (أي: الذي وُجدت دواعيه وتوافرت شروطه وأسبابه). والمراد من القتال هو القتال في سبيل الله، لأنه هو الذي أمر الله به رسولَهُ في صدر الآية.

والتحريض كما سبق بيانه هو الحث وإثارة الحماسة بتحريك الدوافع وإلهاب الحميّة.

ولمّا كانت مُقَاتَلَةُ المؤمنين للكافرين من مرتبة البرّ، بحسب مقتضيات المرحلة التي نزل فيها النصّ، وليس من مرتبة التقوى، قال الله لرسوله:

﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولم يقُلْ له: وكلّف المؤمنين، أو: وأْمُر المؤمنين. فما هو من مرتبة التقوى التي يَعْصِي مخالف تكاليفها، يكون التكليف فيه بالأمر والإلزام، وما هو من مرتبة البرّ والإحسان يكون التوجيه له بالحثّ والتحريض، وشدّةِ الترغيب.

وباستطاعتنا أن نفهم من هذا النصّ أنّ الرسول قد كان في هذه المرحلة مكلّفاً

بإلزام، وهذا مِثْلُ أمره إلزاماً بقيام اللّيل، أما المؤمنون فدعوتهم إلى القتال هي من درجة التحريض والحث والترغيب دون تكليف إلزاميّ، فقتالهم إذا قاتلوا هو من مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، وهما فوق مرتبة التقوى.

وهل نقيس أئمة المسلمين من بعد الرسول على الرسول في هذا، أو هم مثل سائر المسلمين؟

الجواب يحتاج بحثاً متأنّياً طويلاً، والمسألة من المسائل الاجتهادية.

القضية الرابعة:

ترجِيَةُ الله عزّ وجلّ الرّسولَ والذين آمنوا أن يكفّ بفضله عنهم بأسَ الذين كَفَرُوا، أي: إذا قاتلوا في سبيل الله، ضمن حُدودِ أحكام دين الله ووصاياه، فقال الله عزّ وجل عقب القضايا الثلاث السابقة:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

«عَسَى» فعلٌ جامد معناه التّرجّي. وقد جعل الله كفّ بأس الذين كفروا على سبيل الترجية، لا على سبيل الوعد المجزوم به، لأنّ الوعد المجزوم به يَتَطَلَّبُ شروطاً، على المقاتلين من المؤمنين أن يحققوها بإراداتهم في أنفسهم وأعمالهم، وهذا أمر متروك لحرّية المكلفين، ولمّا لم يشتمل النصّ هنا على ذكر هذه الشروط، كان المناسب الاكتفاء بالترجية هنا.

أمّا في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) التي نزلت بعد (النساء) بسورتين، فقد جاء فيها الوعد مجزوماً لأنّه جاء جزاء لشرط يحققه المؤمنون في أنفسهم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾.

وهم لا ينصرون الله إلّا إذا التزموا بما أمر الله به ونهى عنه في كلّ ما يتعلّق بقتال الكافرين، باعثاً، وشروطاً وأسباباً وغاية.

وكَفُّ بأْسِ الَّذِينَ كَفَرُوا يكون بإحباط أسبابهم القتاليّة، وتوهين قواهم في

حربهم للذين آمنوا، وإفساد خططهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وضرب قلوب بعضهم ببعض، وغير ذلك.

القضية الخامسة:

ختم النصّ بالتنبيه على جزئيّة من جزئيّات القاعدة الإيمانية، ذات صلة بالتَّرْجِيَةِ التي أطمعهم الله بها، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾:

أي: أشدُّ بأساً منهم ومن كلّ ذي بأس، وأشدّ عقاباً رادعاً من كل ذي عقاب رادع.

والتنبيه على هذه الجزئيّة تَنَزُّلٌ يُراد منه التَّلْويحُ بتهديد الكافرين، مع طَمْأنة المؤمنين، حول موضوع القتال بينهما، وذلك لأنّ من بيده مُلْكُ السماوات والأرض وهو على كلّ شيء قدير، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، هو أسمى من عبارة: «أشدُّ بأساً وأشدّ تنكيلاً» بحسب صفة قدرته القادرة على كلّ شيء. لكنّه تعالى لا يُطْمع المؤمنين في تأييده ونصره بكامل قدرته، إنما يطمعهم منها بمعونةٍ هي أشدّ بأساً من بأس عدوّهم، وأشدُّ عقاباً وتنكيلاً، وهذا المقدار يكفي لتهديد الذين كفروا، وبهذا يتحقق المقصود هنا والله أعلم.

● ● ●

النصّ السادس عشر

وهو من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول)

سادس سورة مدنية
الآيات من (٨٨ ـ ٩١)

حول السياسة التي ينبغي معاملة المنافقين بها
بحسب اختلاف أحوالهم

قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً
فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ
عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ
سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ
أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾﴾:

* * *

(١)
ما في النصّ من القراءات المتواترات (من الفرش)

في الآية (٩٠):

(١) ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: قراءة جمهور القُرَّاء [حَصِرَتْ]: أي: حالة كونهم قَدْ حَصِرَتْ صُدُورُهم على أحْسَنِ وُجوه الإعراب.

(٢) [أَوْ جاءُوكُمْ حَصِرَةً صُدُورُهُم]: قراءة يعقوب فقط، أي: ضَيِّقَةً صُدُورُهُمْ، على الحال أيْضاً، والقراءتان متكافئتان في الإعراب والمعنى، أمّا عدم وجود حرف «قد» قبل جملة الحال المصدّرة بالفعل الماضي، فهو من الأدلّة التي تشهد لرأي الكوفيّين والأخفش من البصريين القائلين بأنّه لا يشترط، لكثرة وروده في لسان العرب. واشتراطُهُ دَفَعَ ببعض أهل التأويل إلى أن يتكلّفوا تأويلات في الآية تَخْرُج بالنّصّ عن دلالته التي تُدْرَكُ بالبداهة لدى تلاوته مترابطاً.

ومعنى: [حَصِرت صُدُورُهم]: ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ. الْحَصَرُ: ضَرْبٌ مِنَ الْعِيِّ في اللّسان، وضِيقُ الصَّدْر، يُقالُ لُغَةً: حَصِرَ يَحْصَرُ فَهُوَ حَصِرٌ.

* * *

(٢)
موضوع النّصّ وما وَرَدَ في سَبَب نزوله

تدور آيات هذا النّص حول بيان السياسة التي ينبغي للمؤمنين معاملةُ المنافقين بها، بحسب اختلاف أحوالهم داخل المجتمع الإسلامي أو خارجه.

فالذين هم ضمن المجتمع الإسلامي مخالطون مداخلون يعاملون بمقتضى السياسة التي عاملهم بها الرسول ﷺ، وجاء بيان أطراف منها في نصوصٍ متعدّدة.

والذين هم خارج ديار الإسلام، يعاملون بسياسة مختلفة، بحسب اختلاف أحوالهم، وقد جاء في هذا النصّ تفصيل هذه الأحوال، وبيان السياسة التي ينبغي اتّباعُها في كُلِّ حالَة.

وما ورد من سَبَبِ النُّزُول يُساعِدُ على فهم دلالات آياتِ هذا النصّ.

* * *

ما وردِ من سبب النزول

(١) روى البخاري ومسلم والإمام أحمد عن زيد بن ثابت (واللفظ ما عند الإمام أحمد) أنّ رسول الله ﷺ، خرج إلى أُحُد فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله فيهم فرقَتَيْن:

ــ فِرْقة تقول: نقتُلُهُمْ.

ــ وفِرْقة تقول: لا، هم المؤمنون.

فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ في المنافقين فئتين. . .﴾ فقال رسول الله ﷺ:

«إِنَّها طيبةُ، وإنّها تَنْفِي الْخَبَثَ كما يَنْفِي الكيرُ خَبَثَ الْحَدِيد». أي: إنّ المدينة طيِّبَة، لا تقبل الأخباث دواماً في أرضها، وإنّها بما تتعرّضُ له من تطهير تنفي الأخباث منها، كما ينفي كير الحدّاد خَبَثَ الحديد بحرارته وجَمْرِهِ ومطارِقِ الحدّاد على الحديد الذي يُحْمَىٰ فيه، فلا ضَيْرَ من إغضاء النظر عن المنافقين المخالطين المداخلين فيها مؤقّتاً، حتّى تأتي احداثٌ جَمْرِيَّةٌ تنفيهم، وتُبعِدُهم عن مجتمع المسلمين فيها.

وقد ذكر ابن إسحاق في موقعة أحد، أنّ عبد الله بْنَ أُبَيّ ابن سَلُول، رجَع يومئذٍ بثلث الجيش، منخذلاً عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين، رجَع بثلاثمائة، وبقي النبيّ ﷺ في سَبْعمائة.

(٢) وروى ابن أبي حاتم عن العوفيّ عن ابن عباس، أنّ الآية نزلَتْ في قومٍ تكلّموا بالإسلام (أي: أعلنوا أنّهم أسلموا، ولكنّهم بقوا في مكة مع المشركين بغير إذن خاصّ من الرسول، ومكّة يومئذٍ قد كانت دار حربٍ بالنسبة إلى المسلمين).

قال ابن عباس: وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكّة يطلبون حاجةً لهم، فقالوا: إنْ لقينا أصحاب محمّد فليس علينا منهم بأسٌ (أي: بسبب إعلانهم الإسلام، فالمسلمون يعتبرونهم منهم فلا يتعرّضون لهم بأذىً).

وإنّ المؤمنين لمّا أُخْبِروا أنّهم خرجوا من مكّة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنّهم يظاهرون عليكم عدوّكم. وقالَتْ فِئَةٌ أُخرَىٰ من المؤمنين: سُبْحانَ الله (أو كما قالوا): أتقتُلُون قوماً قَدْ تكلّموا بِمِثْلِ ما تَكَلَّمْتُمْ بهِ؟! من أجْلِ

أنهم لم يهاجروا ولم يتركُوا ديارَهم نَسْتَحِلُّ دِماءهم وأموالهم؟!

فكانوا كذلك فئتين، والرّسولُ عندهم لا يَنْهَى واحداً من الفريقين عن شيء، فنزلَتْ: ﴿فَما لَكُمْ في المنافقين فئتين...﴾.

ورُوِي قريبٌ من هذا عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وعكرمة، ومجاهد والضّحاك، وغيرهم.

وتردَّدَتْ أقوال أهل التأويل في اعتماد الرواية الأولى الأصحّ التي جاءت في الصحيحين، ورواها الإمام أحمد. واعتماد الرواية الأخرى، إذْ في النصّ ما يلائمها صراحةً، وهو قوله تعالى فيه:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

أقول:

باستطاعتنا أنْ نفهم النصّ بطريقة تلائم الروايتين معاً دون إشكال، وسيأتي تفصيلها إن شاء الله، لدى تدبّر فقرات النصّ.

* * *

(٣)

المفردات اللّغوية في النّصّ

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؟:

أيْ: أيُّ شيء حصل لكم أيُّها المؤمنون، في شأن المنافقين حالة كونكم افترقتم فيهم فرقتين؟

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾:

﴿ما لَكُم﴾ مبتدأ وخبر، بمعنى: أيُّ شيء حصل لكم، ﴿في المنافقين﴾ أي: في شأن المنافقين، وهو متعلّق بما تعلّق به الخبر.

﴿فِئَتَيْنِ﴾:

أي: حالة كونكم فئتين. الفئة: الفرقة والطائفة، أصل الكلمة كما قال

ابْنُ بَرّي: «فِئْوٌ» والتاءُ عوضٌ عن الواو، وهي من «فَأَوْتُ» أي: فرَقْت، لأنّ الفئة كالفِرقة.

ولفظ «فئتين» حال من ضمير المخاطبين في الخبر.

والاستفهام في الجملة يتضمّن معنى الإنكار على المؤمنين، في افتراقهم بشأن المنافقين فرقتين، إذْ كان المفروض أنْ لا يفترقوا، لوضوح أمر المنافقين الذين أظهروا بما كسبوا ما يدلُّ على ردّتهم عن ظاهر إسلامهم، وارتكاسهم في الكفر الذي دلّ عليه سلوكهم، فأجرى الله سنّته فيهم فأركسهم بما كسبوا، ومكّنكُمْ من أن تحكموا عليهم بهذا الارتكاس.

﴿أَرْكَسَهُم﴾:

أي: ردَّهُمْ على أعقابهم ونَكَّسَهُمْ، فقلَبَهُمْ على رؤوسهم.

الرَّكْسُ: ردُّ أوّل الشيء على آخِره، وقَلْبُه على رأسه. يُقالُ لغة: رَكَسَهُ يَرْكُسُهُ رَكْساً، فَهُو مَرْكُوسٌ وَرَكِيسٌ، ويقالُ: أَرْكَسَهُ يُرْكِسُهُ إركاساً، وركَّسَهُ يُرَكِّسُهُ، بمعنى رَدّه على عَقِبِه، ونَكَّسَهُ.

والمرادُ أنّهم كَسَبُوا إثْماً عظيماً دلّ على حقيقة كفرهم بعدَ ظاهر الإسلام الذي أعلنوه بألسنتهم، فَرَدَّهم الله بسبب ذلك على أعقابهم منقلبين، مُنَكَّسِين تنكيساً معنويّاً، فهم بسبب ذلك تجري عليهم أحكام الكافرين، بما شرع الله للمؤمنين من أحكام إدانةٍ بالكفر، استناداً إلى ما كان منهم من كَسْبٍ إجراميّ.

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

أي: فلا تتّخذوا منهم جماعةً تُصَافُونهم، وتتبادلون معهم الودّ والتعاون والأعمال الأخوية التي يتولّى بها بعض الجماعة عن بعض أمورَهُ آمِناً مطمئنّاً، غيْرَ حذِرٍ من الغَدْرِ والخيانة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾:

أي: فإنْ أدْبَرُوا وابتَعَدُوا ولم يعملوا بمقتضى الإسلام الذي أعلنوه، ومنه المهاجرةُ من دار الكفر، وتركُ مظاهرة الكافرين المحاربين.

﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾:

الميثاق والموثق: الْعَهْد، وجمعه مواثيق.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾:

أي: ضاقت صدورهم. الْحَصَرُ في اللغة: ضِيقُ الصَّدْرِ، وضَرْبٌ من الْعِيِّ في اللّسان، يُقالُ لغةً: حَصِرَ يحْصَرُ فهُوَ حَصِرٌ.

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾:

أي: كُلّما رُدُّوا إلى اختبار صدق إسلامهم الذي أعلنوه، بما يخالف رغباتهم وما يَهْوَوْن.

﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾:

أي: نُكِسُوا في الفتنة، إذْ يظهر من سُلوكهم حقيقة كفرهم.

﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾:

السَّلَمُ: الاستسلامُ والانقيادُ، وهو مصدر يقع على الواحد والاثنين والجميع إذا وُصِفَ بِهِ الأشخاص.

﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾:

أيْ: حيْثُ ظَفِرْتُمْ بهم، وقدرتُمْ على الإحاطة بهم.

* * *

(٤)

مع النّصّ في التحليل والتدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾؟!.

يخاطب الله عزّ وجلّ بهذا المؤمنين من أصحاب الرسول الّذين اختلفوا في شأنِ المنافقين، الّذِينَ كان مِنْهُمْ كَسْبٌ من عَمَلٍ ظاهِرٍ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مُنَافِقُونَ غيرُ صادقين في إعلانهم الإسلام.

فمنافقو المدينة انخذلوا عن الرسول ﷺ في معركة أُحُد، بقيادة كبيرهم عبد الله بن أبي بن سلول.

ومنافقو مكّة الّذين أعلنوا إسلامهم، ولم يُهاجروا في سبيل الله، إيثاراً لمصالحهم، فقد ظهر من أعمالهم الدّالّة على نفاقهم، أنّهم كانوا يظاهرون المشركين.

فاشترك هذان الفريقان في ظاهرة متماثلة، وهي ارتكابهم من الأعمال ما يدلُّ على حقيقة نفاقهم، إذْ كان عملهم من قبيل الخيانة العظمىٰ للْمُسلمين، التي لا تظهر غالباً إلّا من الكافرين، وهي خذلُ المسلمين، ومظاهرةُ أعدائهم الكافرين المحاربين، العاملين على إلغاء الإسلام، وإفناء المسلمين.

ولمّا كانت هذه الظاهرة السلوكيّة ذاتَ دلالة واضحة على أن مرتكبيها منافقون، غيرُ صادقين في إعلانهم الإسلام، كان مقتضى الاستدلال بالظواهر يَسْتَدْعي أن لا يفترق المؤمنون في الحكم على أصحاب هذه الظاهرة، بل كان عليهم أن يكونوا مجمعين على الحكم عليهم بالنفاق، إذْ أمر الخيانة العظمىٰ الّتي تعرّض الإسلام والمسلمين لإلغاء الوجود، أو استعلاء الكفر والكافرين في الأرض، ليس من الكبائر التي قد يسقط بها المؤمنون في كُتَلٍ مجتمعة، فاجتماع فريقٍ على ارتكابها يدلُّ علىٰ كُفْرِهِمْ في الباطن.

لذلك وجّه الله عزّ وجل التلويم للمؤمنين بأسلوب الاستفهام الذي يحمل معنى الإنكار عليهم، وهذا الإنكار هو في الحقيقة موجّه للفئة التي حاولت أن تبرّىء المنافقين من الإدانة بالنفاق، أي: بأنهم في باطن أمرهم كافرون غير مؤمنين.

وأبان الله عزّ وجلّ سبب توجيه هذا الإنكار للفئة التي حاولتْ تبرئتهم وإيجاد معاذير لهم، وهو أنّهم ارتكَسُوا بما كَسَبُوا مِنْ خيانة عظمىٰ، إذْ إنّ هذه الكبيرة ذات دلالة واضحة على ارتدادِهم عن ظاهر الإسلام إلى ظاهر الكفر، والله في أحكام شريعته قد مكّن المؤمنين من أن يستندوا إلى الظواهر للحكم على البواطن.

فمن سجد للصنم وعَبَدَه حكمنا عليه بالشرك، ومن أهان كتاب الله وداسَهُ أو دسّه في القاذرات عامداً متعمّداً باختياره الحرّ، حكمنا عليه بالكفر والرّدّة، وإذا اجتمع فريق

من المسلمين على مظاهرة الكافرين ضدّ الإسلام والمسلمين حكمنا عليهم بالرِّدة عن الإسلام، وعاملناهم معاملة المرتدين الكافرين.

وعبارة:

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾.

التي هي جملة حاليّة وتُشير إلى حالة المنافقين، تَدُلُّ على قضيَّتَيْن:

القضية الأولى: أنّ المنافقين كسبوا إثماً عظيماً من مستوى الكبائر العظمىٰ الدّالة على ردّتهم عن ظاهر الإسلام الذي يُعْلِنُونه، فردَّهُم الله به إلىٰ الكفر، وجعلهم منكّسين تنكيساً معنوياً، إذ كشف بما جَنَوا وأَجْرَمُوا انتكاسهم، في مجرىٰ مقاديره.

كذلك كل مَنْ أسرّ شراً فلا بُدَّ أَنْ يعمل عملاً أو يتصرّف تصرّفاً يُظهر الله به ما أخفىٰ مِنْ شَرّ.

القضية الثانية: أنَّ الله وضع للمؤمنين فيما أنزل على رسوله قواعد يستطيعون بمقتضاها أن يحكموا علىٰ مَنْ عمل أعمال الرّدّة بالارتداد عن الإسلام، وأنْ يحكموا على مَن عمِل أعمال الكفر بالكفر، وأن يحكموا على من عمل أعمال الفِسْق بالفِسْق، وهكذا، وهذه الأحكام أحكامٌ أذن الله بها للمؤمنين، فهي منه سبحانه.

إذَنْ: فمن أرْكَسَه الله في أحكام شريعته بما كسب، فعلينا أنْ نُرْكِسَهُ، فنَحْكُمَ عليه بالارتكاس، أي: بالرِّدّة والانقلاب منكّساً.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝٨٨﴾.

استفهام يحمل معنى الإنكار أيضاً موجّه للفئة التي حاولت من المؤمنين تبرئة المنافقين المعنيّين في النصّ كما ورد في سبب النزول.

والمعنىٰ: أتريدون بفتواكم التي قدّمتموها أن تحكموا بالهداية لمن حكم الله عليهم بالضلالة، وأنزل إليكم القواعد التي تبيّن لكم إدانتهم بالكفر، وتدُلُّكم على أنّ ظاهر إسلامهم إنّما هو نفاق؟!

فالحكْمُ لهم بالهداية حكْمٌ على خلاف الأسس التي شرعها الله فيما أنزل على رسوله، وعلى خلاف قواعد الأحكام بين العباد.

وجاء استعمال التعبير بالإرادة دون الرّغبة أو الودّ، لأنّ ما كان من هذه الفئة قد اقترن بسلوك ظاهر، ولم يقتصر على حركة داخلية نفسيّة.

ودلّ الفعل المضارع [أتُريدُون] علىٰ تكرّر هذه المحاولة منهم، والمجادلة من أجل تبرئة المنافقين من الإدانة بالرِّدّة والكُفر.

وأبان الله عزّ وجلّ لهذه الفئة أنّ حكمهم بالهداية للمنافقين المعنيّين لا ينفع هؤلاء المنافقين شيئاً عند الله، ولا يكون سبيلاً لنجاتهم عنده تبارك وتعالى، فمَنْ حكم الله عليه بالضلالة فأضلّه، فلن تَجِد له ــ يا مَنْ تُناصِرُهُ وتَحْرِصُ على نجاته وهدايته ــ سبيلاً لهدايته ونجاته عند ربّه، فما الحكْمُ النافع عند الله إلاّ لله وحده لا شريك له، أمّا فتاوى المخلوقين في براءة الضالّين والحكم لهم بالهداية فهي لا تغني شيئاً عند ربّ العالمين، فقال تعالى:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾:

أي: ومن يحكم الله عليه بالضلالة بسبب ما هو عليه من ضلالة فلن تَجِدَ له ــ يا من تريد الحكْم له بالهداية ــ سبيلاً كي تجعله عند ربّه مَهْدِيّاً من أهل الإيمان والنجاة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾.

أبان الله عزّ وجلّ بهذا صفة من صفات المنافقين النفسيّة، تُجاه المؤمنين، وهي حركةُ نَفْسٍ لا يُعْلِنُونها، لكنّها تَعْمَلُ في داخلهم عَمَلها.

والمعنى: ودّ المنافقون مُتَمنِّين أن تكْفُروا أنتم أيّها المؤمنون الذين تدافعون عنهم كفراً باطناً، كما كفروا هم في قلوبهم مع تظاهرهم بالإسلام نفاقاً، فتكونوا مباشرةً مِثْلَهُمْ في حالَتي الباطن والظاهر، وعندئذٍ يتهيّأ لهم أن يتخلّصوا من التناقض بين الظاهر والباطن، فيما بينكم وبينهم.

ويعجبني هنا من كلام النحاة اعتبار «لو» مصدريّةً، ولكِنْ مع بقاء معنى التمني الذي تدلُّ عليه كلمة «لَوْ» أحياناً.

وجاء استعمال التعبير بالودّ هُنا لأنّ ما هو عند المنافقين تجاه المؤمنين قد اقتصر على حركةٍ نفسيّةٍ قلبيّةٍ داخليّةٍ، ولم يكن له أثر في سلوك عمليّ ظاهر، على خلاف ما كان من الذين دافعوا عنهم من المؤمنين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: فلا تتّخذوا أيُّها المؤمنون من المنافقين عُصْبةً ذاتَ وُدٍّ لَكُمْ تُصافُونَهُمْ وتَتَبادَلون معهم التَّعاون والأعمال الأخويّة التي يتولّى فيها بعضُكم عن بعضٍ أموره آمناً مطمئناً، غَيْرَ حَذِرٍ من الغدر والخيانة، فالمنافقون خونةٌ غير مأمونين على مصالح المؤمنين، وهم ليسوا مؤهَّلين لهذا الإخاء الذي يكون معه تبادُل الولاء.

وفي هذا النَّهي إشارةٌ إلى احتمال أن يكون دِفَاعُ من دافع عنهم من المؤمنين متأثراً برَغبة أنْ تكون لهم عندهُمْ يدٌ، حتّى يكونوا أولياء لهم، يحقّقون لهم مصالح، ويتبادلون معهم المنافع، ويتعاونون ويتناصرون فيما بينهم.

هُنا نتوقّف قليلاً عند نهاية قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

ولدى مراجعة النصّ من أوّله، وإمعان التدبّر، يبدو لنا أنّ الله عزّ وجلّ تحدّث أوّلاً عن قسمين من المنافقين، هما:

ـ الذين انخذلوا عن الرسول ﷺ في أُحُد من أهل المدينة.

ـ والذين أعلنوا الإسلام من أهل مكّة، ولم يُهاجروا، لكنّهم صاروا يوالون المشركين ويظاهرونهم، ولم يكن بقاؤهم في مكّة بتوجيه من الرسول، ليكونوا عيوناً للمسلمين على عدّوهم.

هذان القسمان يجمع بينهما أنّ المؤمنين افترقوا في أمرهم إلى فئتين:

(١) ففئة قالت: هؤلاء منافقون، ظهر من أعمالهم ما يَدِينهم بالكُفر.

(٢) وفئة قالت: هم مؤمنون، قد تكلموا بمثل ما تكلّمتم به، فجمع الله عزّ وجلّ البيان بشأنهما فقال تعالى:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

وهُنا سكتَ النّصّ عن القسم الأول، وهُمْ مُنافقو أهلِ المدينة، اعتماداً على ما يفهمُه المسلمون من سياسة الرسول ﷺ بشأنهم، وهو قبُولُ ظاهرهم، وعدَمُ معاقبتهم بالقتل الذي يستحقّونه على أعمالهم الّتي تُنبِىء عَنْ كُفْرهم، لئلاّ يُقال: إنّ محمّداً يقْتُل أصحابه، وهي سياسة تتعلّق بالمنافقين المخالطين المداخلين الذين يُعْطون بحسب الظاهر ولاءهم الكامل للمسلمين المؤمنين وقيادتهم، ولا سيما في أوائل بناء الدولة الإسلاميّة.

وإذْ سكَتَ النصُّ عن بيان السياسة التي ينبغي معاملةُ هذا القسم من المنافقين بمقتضاها، أبان الله عزّ وجل الحكْمَ بالنِّسْبة إلى المنافقين الآخرين الذين هم في دار الكفر، ويُظاهرون الكفّار المحاربين للمسلمين، فقال تعالى بشأنهم في استكمال الحديث عن المنافقين:

﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أي: فلا تتّخذُوا من المنافقين أولياءَ حتّىٰ يُهَاجرُوا في سبيل الله، إذا لمْ يكونوا من أهل دار الإسلام وسكّانها، والمعنى: حتّىٰ يَنْتقِلُوا من دار الكفر التي يحاربُ أهلُها المسلمين إلى دار الإسلام، وتكونَ هجرتهم في سبيل الله، لا هجرةَ المكرِ والخديعة، لطعنِ المسلمين في ديارهم.

أمّا السّياسة التي ينبغي اتّباعُها بالنسبة إلى هؤلاء المنافقين، الّذينَ يُظاهِرُونَ الكافرين المحاربين، ولا يهاجرون في سبيل الله، فقد أبَانَها الله عزّ وجلّ بقوله في النّصّ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾:

أي: فإن لم يستجيبوا لمطلب الهجرة الصادقة في سبيل الله الدالّة على براءتهم من وصمة النفاق، أو تخلُّصهم من رِجْسِه، بل أدْبروا وبَقُوا في دار الكُفْرِ يظاهرون من هم في حالةِ حرْبٍ ضدّ المسلمين، فخذوهم أسرى إن استَطَعْتُمْ وخذوا ما معهم من أموالهم، واقتلوهم في أيّ مكان وجدتموهم فيه إن ظفرتم بذلك.

ولا تتّخذُوا منهم وليّاً يتولّى أيّ أمْرٍ من أموركم، لأنه غير مأمون، ولا يَصْلُح لإنشاء علاقة ولاءٍ بينكم وبينه، ما دام ظهيراً للكفّار المحاربين، ولا تتخذوا منهم على وجه الخُصوص نصيراً تعتمدون عليه في نُصْرة شيءٍ من قضاياكم، فهم ليسوا أمناء على شيءٍ من ذلك، إذْ هم في حقيقتهم أعداء، والاغترار بظاهر ما يقولون بألسنتهم لا يليق بأهل الإيمان الصادق الذين يعملون بوصايا الله عزّ وجلّ.

واستثنى الله عزّ وجلّ مِنْ هذا القسم من المنافقين فريقين:

الفريق الأوّل: من ينحاز منهم إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، فيصلون إليهم، ويدخلون فيهم، فهؤلاء يعاملون معاملة هؤلاء القوم، فلا تُطبّق بشأنهم قاعدة:

﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

فقال الله عزّ وجل بشأن هذا الفريق:

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾.

وفي التعبير بـ «يصِلون» دلالة على أنّهم لا يحمون أنفسهم بمجرّد الانتماء، أو عقد معاهدةٍ مع هؤلاء القوم، بل لا بُدّ أن يَصِلوا فِعْلاً إليهم، ويدخلوا ضمنهم، وبذلك يُعامَلُون كما يُعَامَل هؤلاء القوم.

وهذا من أحكام العلاقات الدوليّة الّتي شرعها الإسلام، ولم يَكُنْ للنّاسِ نصيبٌ ما منها، وقد ألزم المسلمين بها، ولَوْ لم يلتزم بمثلها أعداؤهم.

الفريق الثاني: من يأتي المسلمين مُسْتَسْلِماً مُعْلِناً وقوفه على الحياد، فهو

لا يريد أن يقاتل المسلمين مع قومه، ولا يريد أن يقاتل قومه مع المسلمين، فقد ضاق صَدْرُه عن قتال المسلمين وعن قتال قومه، مؤثراً السلامة لنفسه.

إنّ هذا الفريق لا تنطبق عليهم أيضاً قاعدة:

﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

بل يُتْرَكُ ويُغْضَى النظر عنه، فقال الله عزّ وجلّ بشأنهم:

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾.

إنّ مجيئهم مُسْتَسْلِمين قد يُغْرِي بعْضَ المؤمنين بمعاقبتهم بالقتل جزاء ما كان منهم من مظاهرةٍ للكافرين المحاربين، مع أنّهم كانوا قد تظاهروا بالإسلام.

لكِنَّ اللّهَ عزّ وجلّ قَدْ حماهم بمجيئهم واستسلامهم، وحسبُ المؤمنين من مجيئهم واستسلامهم أنَّهم انْفَصَلُوا عن قومهم المحاربين، وأضْعفوا بهذا الانفصال قوّة قومهم.

ولو شاء الله لجعل في قلوبهم قدراً من الحميّة والشجاعة، وبذلك يكونون محاربين للمسلمين مع قومهم المحاربين لهم، ويكونون بذلك مدداً وقوّة للكفار المحاربين، هذا ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾.

وفي هذا تحذير من عدم التزام حدود الله في معاملتهم، وإشعارٌ للمؤمنين بأنّ مجيء هذا الفريق مستسلمين من عناية اللّهِ ومعونته لأوليائه.

إذن: فالسياسة التي يجب اتّباعها معهم، هي قاعدة:

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾:

أي: فإنْ قرَّروا اعتزال الدُّخول في صفوفكم، واعتزال مشاركة جيشكم في قتال قومهم، واعتزال الدخول في المقاتلين من قومهم لقتالكم، وألْقوْا إليكُمُ السَّلَمَ، وأعْلَنُوا حيادهم التامّ، وطبّقوا ذلك فِعْلاً، فلَمْ تبدُرْ منْهم بادرةٌ تسوؤكُمْ فما جعل اللَّهُ لكم أيّها المؤمنون عليهم سبيلاً، تتخذون منه ذريعةً لأخذهم وقَتْلِهم.

إنّه اختيار يحميهم، وفي بيان هذا الاحتمال الذي قد يختاره جبناء المنافقين ليأْمَنُوا على أنفسهم إضعافٌ لجيش العدوّ من جهة، ولعلّ بعضَهُمْ يصحّ إيمانه مستقبلاً، أو يكونُ من ذُرِّيَّتِهِ مؤمنون صادقون من جهة أخرى، فيكون ذلك خيراً لجماعة المؤمنين الصادقين.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

بعد بيان الفريقين اللّذيْن سبَقَ شرْحُ أحوالهما واللّذين مرّ المؤمنون في عصر الرسول معهم بتجارب واقعيّة، تحدّث الله عزّ وجلّ عن منافقين آخرين، سيظهرون في المستقبل، يُرِيدُون أنْ يتّخذُوا بالنّسبة إلى أعمال القتال موقف الحياد، طلباً للأمن من جهتكم ومن جهة قومهم، وهؤلاء يتظاهرون بالإسلام، ويؤثرون في القتال موقف الحياد، ثم تظهر منهم أعمالٌ تدُلُّ على أنّهم في الباطن كافرون، ويتهرّبون من أن يُوضَعُوا موضع الامتحان الكاشف لهويّة نفاقهم، لكنّهُمْ كلّما رُدُّوا إلى الفتنة بامتحانٍ صعْبٍ على نفوسهم أُرْكِسُوا فيها، أي: ظهر بها عدم صدقهم في إسلامهم، وأنّهم مُنَافقونَ غير صادقين في إسلامهم.

والسياسة مع هؤلاء أن يُعْطَوْا الأمن كالفريق الّذين جاؤوا مستسلمين معلنين حيادهم، بشروط ثلاثة:

(١) أن يعتزلوا صفوف المسلمين الصادقين.

(٢) أن يُلْقُوا للمسلمين الاستسلام.
(٣) أن يَكُفُّوا أَيْديَهُم عن المسلمين.

فإن أَخلُّوا بشرط من هذه الشروط انطبقت عليهم قاعدة:

﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

وبشأن هؤلاء الّذين سَيُوجَدُونَ ويُواجهُ المسلمون المؤمنون مُشْكِلَتَهُم، قال الله عزّ وجلّ:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ...﴾.

أي: وأولئك الأخباثُ الْبُعَداءُ عن رحمة الله جَعَلْنا لَكُمْ أيُّها المؤمنون عليهم حُجَّةً واضحةً أن تُعامِلُوهم بمقتضاها معاملة الكفّار المحاربين، إذا أخلُّوا بالشروط الّتي سبق بيانُها.

● ● ●

النصّ السابع عشر

وهو من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) سادس سورة مدنية

الآيـات مـن (١٠٥-١١٦)

حول ما يجب على القضاة والخصوم وأنصارهم

بمناسبة حادثة سرقة المنافق من بني أُبَيْرِق

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ
خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ
أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ
مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾
هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ
يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾
وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ
تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا
مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ

اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ
غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ
أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا
بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾.

* * *

(١)
ما في النّصّ مِنَ القراءات المتواترات (من الفرش)

في الآية (١١٤):

(١) قرأ جمهور القرّاء [فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجراً عظيماً] بنون المتكلم.

(٢) وقرأ أبو عمرو البصري وحمزة وخلف [فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ أَجْراً عظيماً] بياء الغائب.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، فمن كان في حالة حضورٍ مع الله كانت قراءة [نُؤْتِيهِ] ملاءمة لحالته، ومن كان غير ذلك كانت قراءة [يُؤْتيه] ملاءمةً له.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وما ورد في سبب نزوله

يدور هذا النّصّ حول بيانِ وجوبِ الحكم بما أنزل الله من أصول وقواعد للفصل بين الخصوم، وتحذيرِ القاضي من أن يقف موقف الدفاع عن أحد الخصمين لاحتمال أن يكون من الخائنين، وتحذير كلّ صالحٍ للخطاب من أن يكون مدافعاً محامياً (= خصيماً) يجادِل لمصلحة من كان من الخصمين خائناً، ومن أنْ يُجادل عن الذين يختانون أنفسهم، مع الترغيب في الاستغفار والتوبة، لدى السقوط في مخالفة هذه التعاليم الرّبّانيّة.

وفيه تحذيرٌ شديدٌ للمذنب العاصي من اتّهام غيره من الْبُرَآء بما ارتكب هو من

إثم، ليخلّص نفسه من تبعة جريمته، أو ليُبّعد عن نفسه التُّهَمَة الملاحقة له بالدلائل والأمارات.

وفيه بيان أنّ التناجيَ في السِّرّ بين الناس داخل المجتمع المسلم أكثره لا خير فيه، إذ الخيرُ لا يحتاج إلى التناجي في السرّ، باستثناء بعض الأمور، ومنها:

- الأمرُ بالصدقة، لستر حال المتصدِّق عليه.

- والأمرُ بالمعروف ويدخل فيه النهي عن المنكر، لستر حال من يوجَّه له ذلك، إذا كان من أهل الذنوب أو المقصّرين المتهاونين.

- والإصلاحُ بين النّاس، لأنّ المذاكرات العلنية في قضايا الإصلاح بين الناس قد تزيد بينهم شقّة الخلاف.

وفيه التحذير من مشاقة الرسول، ومن اتّباع غير سبيل المؤمنين، خارجاً عن جماعتهم لاحقاً بغيرهم، ويمكن أن يدخل في عُموم اتباع غير سبيل المؤمنين مخالفة ما يقرّر جمهور أهل الحلّ والعقد منهم من الأمور التي هي من المصالح العامّة، الّتي جعلها الله منْ أمْرهم، وجعَل البتّ فيها قائماً على قاعدة الشورى، التي يُعْتَمَدُ فيها رأيُ الأكثريّة، ويمكن أن يدخل أيضاً ما يُجْمعون عليه من حكم شرعي.

وأخيراً فتح الله للمذنبين باب مغفرته، مبيّناً أنّه لا يَغْفر أنْ يُشْرَكَ بِهِ، ويَغْفرُ ما دون ذلك لمن يشاء، وبما أنّ الشركَ هو أوّل دركات الكفر، فإنّ الله لا يغفر ما هو أشدّ من الشرك حتماً، وهذا يُفْهم بأنّه الأولى بالحكْم.

والخطاب الموجّه في النّصّ للرسول موجّهٌ في الحقيقة لكلّ صالح للخطاب به من المسلمين حتى آخر الناس في الحياة الدنيا، لأنّ مضمونه ليس من خصائص النبيّ ﷺ، فمن أساليب القرآن في الخطاب أن يُخاطب الله رسوله ببعض الأمور الشاملة لكلّ المؤمنين، باعتباره أول المؤمنين، وقائدهم، وأوّل المطيعين المسلمين الملتزمين لأوامر الله، المجتنبين لنواهيه، وللإشعار بأنّ الرّسول أوّلُ المكلفين الْمُلْزَمينَ بشرائع الإسلام وأوامر الدين، فهو أتقاهم لِلَّه.

* * *

ما وردَ في سبب النزول

روى الترمذي في سننه قال: حدّثنا الحسنُ بْنُ احْمَدَ بْنِ أبي شُعَيْبٍ أبو مُسْلِمٍ الحرَّاني، حدّثنا محمّد بن سَلَمَةَ الْحَرَّانِي، حدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانَ قال:

«كان أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقَالُ لَهُمْ بَنُو أُبَيْرِقٍ: بِشْرٌ وبَشِيرٌ ومُبَشِّرٌ، وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً مُنَافِقاً يَقُولُ الشِّعْرَ يَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ثُمَّ يَنْحَلُهُ بَعْضَ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَقُولُ: قَالَ فُلاَنٌ كَذَا وَكَذَا، قَالَ فَلاَنٌ كَذَا وَكَذَا، فَإذَا سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ذٰلِكَ الشِّعْرَ، قَالُوا: وَاللّهِ مَا يَقُولُ هٰذَا الشِّعْرَ إِلاَّ هٰذَا الْخَبِيثُ، أَوْكَمَا قَالُوا، وقَالُوا ابْنُ الأُبَيْرِقِ قَالَهَا.

قال: «وَكَانَ أَهْلَ بَيْتٍ حَاجَةٍ وَفَاقَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلاَمِ، وَكَانَ النَّاسُ إِنَّمَا طَعَامُهُمْ بِالْمَدِينَةِ التَّمْرُ والشَّعِيرِ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ[1] من الشَّام مِنَ الدَّرْمَكِ[2] ابتاع الرجل منها فخصَّ بِهَا نَفْسَهُ، وَأَمَّا الْعِيَالُ فَإِنَّمَا طَعَامُهُمُ التَّمْرُ والشَّعِيرُ.

فَقَدِمَتْ ضافِطَةٌ[1] مِنَ الشَّام فابْتَاعَ عَمِّي رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ حِمْلاً مِنَ الدَّرْمَكِ[2]، فَجَعَلَهُ فِي مَشْرَبَةٍ[3] لَهُ، وفي الْمَشْرَبَةِ سِلاَحٌ وَدِرْعٌ وَسَيْفٌ، فَعُدِيَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الْبَيْتِ، فَنُقِبَتِ الْمَشْرَبَةُ[3] وأُخِذ الطَّعَامُ والسِّلاَحُ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أخِي، إنَّهُ قَدْ عُدِيَ عَلَيْنَا فِي لَيْلَتِنَا هٰذِهِ، فَنُقِبَتْ مَشْرَبَتُنَا، فَذُهِبَ بِطَعَامِنَا وَسِلاَحِنَا».

---

(١) الضَّافِطَةُ: العِيرُ تحمِلُ المتاع. ومن الناس الحمَّالُونَ والْمُكَارُونَ الذين يَجْلُبُونَ الميرة والمتاع لِلْمُدُن، والْمُكاري هو الّذي يُكْرِي الأحمال، وكانوا يومئذٍ قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرها. (عن لسان العرب).

(٢) الدَّرْمَكُ: الدقيق الأبيض.

(٣) الْمَشْرَبَةُ: الْغُرْفَةُ، وهيَ عُلِّيَّةٌ تُبْنَى في الأعلى فوق سطح المبنى الملاصق للأرض. وجمعُها: مَشْرَبَات، وَمَشَارِب.

قال: «فَتَحَسَّسْنَا فِي الدَّارِ، وَسَأَلْنَا، فَقِيلَ لَنَا: قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أُبَيْرِقٍ اسْتَوْقَدُوا فِي هذه اللَّيْلَةِ، وَلاَ نُرَى فِيمَا نُرَى إِلاَّ عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ».

قال: «وَكَانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ قَالُوا وَنَحْنُ نَسْأَلُ فِي الدَّارِ: وَاللَّهِ مَا نُرَى صَاحِبَكُمْ إِلاَّ لَبِيدَ بْنَ سَهْلٍ: رَجُلٌ مِنَّا لَهُ صَلاحٌ وإِسْلاَمٌ، فَلَمَّا سَمِعَ لَبِيدُ اخْتَرَطَ[1] سَيْفَهُ، وَقَالَ: أَنَا أَسْرِقُ؟! فَوَاللَّهِ لَيُخَالِطَنُّكُمْ هَذَا السَّيْفُ أَوْ لَتُبَيِّنُنَّ هَذِهِ السَّرِقَةَ. قَالُوا: إِلَيْكَ عَنَّا أَيُّهَا الرَّجُلُ فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا.

فَسَأَلْنَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا (أي: بَنُو أُبَيْرِق).

فَقَالَ لِي عَمِّي: يَا ابْنَ أَخِي، لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ».

قَالَ قَتَادَةُ: «فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلَ جفاءٍ[2]، عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ فَنَقَبُوا مَشْرَبَةً لَهُ، وأَخَذُوا سِلاَحَهُ وَطَعَامَهُ، فَلْيَرُدُّوا عَلَيْنَا سِلاَحَنَا، فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلاَ حَاجَةَ لَنَا فِيهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: سَآمُرُ فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أُبَيْرِقٍ أَتَوْا رَجُلاً مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَيْدُ بْنُ عُرْوَةَ، فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَعَمَّهُ عَمَدُوا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلِ إِسْلاَمٍ وَصَلاحٍ، يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلاَ ثَبَتٍ»[3].

قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ: «عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلاَمٌ وَصَلاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَلاَ بَيِّنَةٍ؟!».

قال: «فَرَجَعْتُ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أُكَلِّمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ.

فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، مَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقال: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

---

(١) اخترط السَّيْف: إذا سلّه من غِمْدِه ليقاتل به.

(٢) أهل جفاء: أي أهْلُ سوءِ خُلُق.

(٣) الثَّبتُ: الحُجَّة.

فلَمْ يَلْبَثْ أنْ نزَلَ القُرْآنُ:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾.

بني أُبَيْرِق.

﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ ﴾:

أيْ: مِمَّا قُلْتَ لِقَتَادَة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

أي: لو اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ لَغَفَرَ لَهُمْ.

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾.

قوْلُهُ للَبِيد.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾.

فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ بِالسِّلَاحِ فَرَدَّهُ إلى رفاعة، فقال قتادة: لَمَّا أَتَيْتُ عَمِّي بالسِّلاحِ وَكَانَ شَيْخاً قَدْ عَسِيَ[1] أَوْ عَشِيَ في الْجَاهِلِيَّة، وكُنْتُ أَرَى إسْلَامَهُ مَدْخُولاً، فلَمَّا أَتَيْتُهُ بِالسِّلاحِ قالَ: يا ابْنَ أَخِي هُوَ في سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَهُ كَانَ صَحِيحاً.

فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لَحِقَ بَشِيرٌ بِالْمُشْرِكِينَ، فَنَزَلَ عَلَىٰ سُلَافَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ سُمَيَّة، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

فَلَمَّا نَزَلَ عَلَىٰ سُلَافَةَ رَمَاهَا حَسَّانُ بْنُ ثابتٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ شِعْرِهِ، فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَىٰ رَأْسِهَا، ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ فَرَمَتْ بِهِ فِي الأَبْطَحِ، ثُمَّ قالَتْ: أَهْدَيْتَ لِي شِعْرَ حَسَّانٍ، ما كُنْتَ تَأْتِينِي بِخَيْرٍ.

قال أبو عيسى الترمذي: هذا حَديثٌ غريب، لَا نعلَمُ أحداً أسنده غير محمَّدِ بْنِ سَلَمَةَ الْحَرَّانِيِّ.

وهذا الحديث رواه ابن جرير، وابْنُ المنذر، وابْنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكِمُ وَصَحَّحهُ عَنْ قَتَادَة بْنِ النُّعْمان. ورواه آخرون مُرْسلاً.

* * *

(٣)
المفردات اللّغويّة في النّصّ

﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾:

الخائِنُ: اسم فاعل من (خانَ يَخُونُ خَوْناً وَخِيَانَةً وَمَخَانَةً) والخيانة ضدّ الأمانة،

---

(١) عَسِيَ: أي كبرت سِنُّهُ.

فهي تشمَلُ كلّ نقص من الحقّ، وعدم أداء للواجب، وعدمِ وفاء بالعهد عمداً مع القدرة عليه، وكلُّ عُدْوانٍ على ما استُؤمِنَ الإنسانُ عليه، من جَسَدٍ أو مَالٍ أو عِرْضٍ أو قَوْلٍ أو عمل أو نيَّةٍ، أو سِرٍّ أو مَشُورَةٍ، أو نَحْوِ ذلك.

﴿خَصِيمًا﴾:

الْخَصِيم: المخاصِمُ المجادِل المنازع، لنفسه أو لغيره، في خصومة بين فريقين بحقٍّ أو باطل.

﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾:

أي: يَخُونون أنفسهم، اخْتَانَ مثل خَانَ مع زيادة في معنى قباحَةِ الخيانة، لأنها خيانةٌ للنَّفْس، وعبَّرَ اللَّهُ عن المعاصي بأنّها من قَبِيل خِيانَةِ الإنسان لنفسه، لأنّ نَفْسَهُ أمانةٌ بين يدي إرادته، فإذا عصىٰ اللَّهَ عزّ وجلّ من أجلِ أهوائه وشهواته عرَّض نفسه للعقوبة الإلٰهيّة، فيكونُ بذلك قد خان نفسه، وظَلَمَ نفسه، وأقْبَحُ الخيانة أن يخون الإنسان نفسه، وأقبح الظلم أن يظلم الإنسان نفسه.

وقد جاء في القرآن فعل «اختان» في خيانة الإنسان لنفسه فقط.

﴿يَسْتَخْفُونَ﴾:

اسْتَخْفَىٰ وتَخَفَّىٰ واخْتَفَىٰ بمعنىٰ اسْتَتَر وتَوارَىٰ، وفي «اسْتَخْفَىٰ» معنى زيادة اتّخاذ وسائل الاستتار، أخذاً من الصيغة المزيدة بالسين والتاء.

﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾:

أي: إذْ يُدَبِّرونَ أَمْرَهُمْ بليل، التَّبْييتُ: عَمَلُ الشيء أو تدبيره أو الاتفاقُ عليه لَيْلاً.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾:

السُّوءُ: كُلُّ مَا يَقْبُحُ، واسْمٌ جامعٌ للآفات، وكلّ فعل شائن.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾:

أي: ومن يَضُمُّ إلى نَفْسِه بِعَمَلِهِ ذَنْباً يَسْتَحِقُّ عليه العقوبة بالعدل، وهو بهذا الضمّ يحْمِلُهُ ثِقلاً على نفسه.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾:

الْخَطِيئَةُ: تَقَعُ على الفعل المخالف للصواب بقصدٍ أو بغير قصْدٍ، وتَقَعُ على الذُّنوبِ كُلِّها صِغَارِها وكِبَارِها، أمَّا الإثم فهو الذنْبُ وجاء إطلاقه في القرآن على جميع المعاصي صغارها وكبارها.

﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾:

أي: ثُمَّ يَقْذِف به إنْسَاناً بريئاً، مُتَّهِماً إيَّاهُ بـه، ليُبْعِدَهُ عَنْ نَفْسِـه، وليَحْمِيَ نَفْسَه من تَبِعَتِه أو عقوبته.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾:

أي: فقد كَلَّفَ نفسه حَمْلَ عِبْءٍ ثَقِيل لا يُحْمَلُ إلاّ بمشقّة.

﴿بُهْتَٰنًا﴾:

الْبُهْتَانُ: افتراءُ الكذب، واتِّهامُ البريء بذنْبٍ لم يَرْتكبْه، ظلماً وعدواناً.

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾:

أي: وذنباً واضحاً جليّاً، لا تخالطه شبهةٌ قَدْ تُساعِدُ على تخفيف حَجْم الجريمة، فهو من الكبائر.

﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾:

الْهَمُّ: حركَةٌ نفْسِيَّةٌ لِتَنْفِيذِ أمْرٍ ما، وهو فوق الرَّغبة، ودون الإرادة التي يَقْتَرِنُ بها الجزمُ، ويكون التَّنفيذُ في وقته عِنْد عدم الموانع ومَعَ توافر وسائل التنفيذ.

الطائفة: الجماعة والفرقة من الناس، والجزء والقطعة من الشيء.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾:

الكتابُ هو القرآن، والحِكْمَةُ كُلُّ ما دَلَّتْ عليه السُّنَّةُ النبويّة من قَوْلٍ، أو فِعْلٍ، أو إقْرار، أو خلُق.

وجاء عند الإمام أحمد في مسنده وأبي داود وغيرهما أن الرسول ﷺ قال: «ألا أُوتِيتُ الكتابَ ومثلَهُ مَعَهُ»، وهو حديث صحيح.

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾:

يُقالُ لغةً: نَجا فُلانًا الْحَدِيثَ يَنْجُوهُ نَجْواً، أي: أسَرَّ إلَيْهِ الْحديث.

فالنَّجْوَى: الإِسْرَارُ بالحديث. ويُطْلَقُ هذا اللفظ على المتناجين، من قبيل الوصف بالمصدر، ويستوي فيه الواحد وغيره، يقال: هم نَجْوى.

﴿ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾:

أي: رِضَىٰ الله، يقالُ لغةً: رَضِيَهُ، وَرَضِيَ به، ورضي عنه، يَرْضَىٰ رِضاً، ورِضاءً، ورِضْوَاناً، وَمَرْضَاةً. والرِّضىٰ هو قَبُولُ الشيء مع الاكتفاء به.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ﴾:

أي: ومَنْ يُخالِفِ الرَّسُول ويُعاديه، ويَتَّخذْ لِنَفْسِه شِقّاً غَيْرَ شِقِّه.

﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾:

تَوَلَّىٰ فُلَانٌ فُلاناً، أو تَوَلَّىٰ فُلانٌ الشيء، إذا أحبَّهُ، ونصرَهُ، ولَزِمَهُ، أو اتَّخَذَهُ وَليّاً له.

فَمَنْ تَوَلَّىٰ بإرادَتِهِ شيْئاً ما طائعاً مختاراً، وَلاَّهُ اللَّهُ إيَّاهُ في مجرى سُنَنِه التكوينيّة.

﴿ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ﴾:

اي: نُذِقْهُ عذابَ الاحتراق في نار جَهَنَّم، جَهَنَّم: اسم علم من أسماء النار التي أعدّها الله ليُعذّب فيها الكافرين والعصاة يوم الدين، وهو ممنوع من الصرف للعلميّة والتأنيث.

ويقال: بِئْرٌ جهنم، أي: بَعيدةُ القَعْر. ويقال للقَعْرِ البعيد «جهنَّم».

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتّدبّر

* قولُ الله عزّ وجل لرسوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾.

يتحدَّثُ الرَّبُّ في هذا المقام بضمير المتكلّم العظيم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا﴾ مُؤكِّداً البيانَ بحرْفِ التّوكيد «إِنَّ» فيقولُ لرسوله: إِنَّا بعظَمَةِ الْعِلْمِ الشامل والحكمةِ الكاملة، والتَّنَزُّهِ عمّا لا يَلِيقُ بجَلالِ الرُّبُوبيّةِ، أنـزلنا إِلَيْكَ الكِتابَ الْقُرْآنَ مُتَّصِفاً بِـالْحَقِّ الَّذِي يَقْتَرِنُ بكلّ قَضِيَّةٍ خَبَرِيّةٍ مِنْ قضاياهُ.

وما أنزله الله إلى رسوله بوصفه مكلَّفاً، ومَبلِّغاً ما أَنْـزَلَ الله إليه، هُـوَ أيضاً مُنَـزَّلٌ إلى الناس المأمُورِينَ بتَدبُّرِه والعملِ بما جاء فيه، وهذا النصّ مُطَالَبٌ بمضمونه القضاةُ والحكام على وجه الخصوص.

ومن الحقّ الـذي أنـزلَـهُ الله في القـرآن أُصـولُ الحقُـوق بين النـاس، وقـواعِـدُ العدلِ، وقواعدُ الْحُكْم بالحقِّ والعدل بَيْنَ الْخُصوم، فهذا هو ما أراه الله لرسـوله فكـلُّ حاكمٍ وقاضٍ مِنْ بعده، بمعنى أعْلَمَهُمْ به علماً بيّناً لا غموض فيه، حتّى كـأنَّهُ مَـرْئِيٌّ بالْحِسِّ الْبَصَرِيِّ دون غَبَش، لمن تدبَّرُه بصِدْقٍ وفَهْمٍ سليم.

فجملةُ ﴿لتحكُمَ بَيْنَ النّـاسِ بِمَـا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ تعليليّـة، تُبَيِّنُ الحكمـة مِنْ بعض مـا جاء في القـرآن وهو مـا يَتعلّق بأصـول وقواعـد الحكم بين الناس بـالحقّ والعدل، وذلك لأنّ القرآن يشتمل على قضايا أخرى ذواتِ عِلَلٍ وَحِكَمٍ أُخْرَىٰ تكليفيّةٍ وإِرْشَاديّة وتعليميّة وغير ذلك.

وبعد هذه الجملة تـوجد جملة محـذوفة لفـظاً مقدّرة حكمـاً، وهي: فاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، بدليل قوله تعالى بَعْدَ ذلِكَ: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ فدلَّتْ جُمْلَةُ النهي هذه المصدَّرة بحرف العطف، على أنّهـا معطوفة على الجملة المحذوفـة المقدّرة.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾:

أي: ولا تكُنْ لأجل الخائنين ولتبرئتهم مخاصماً مُدافعاً عنهم من حيْثُ لا تشعُر، بسبب عَدَم تقيُّدِك تقيُّداً تامّاً بأصول وقواعد الحكم بين النّاس بالحقّ والعدل، التي أراك الله إيّاها ببيان تعليميّ جَليٍّ شبيهٍ بالرُّؤيَةِ البَصَريّة.

وهذا النهْيُ يشمَلُ بعمومه ولوازم دلالته عدّة صور:

الصورة الأولى: نهْيُ كلّ مؤمن عن أن يدافع عن الخائنين، ويجادل لتبرئتهم، سواء أكان قاضياً، أو وسيطاً، أو شفيعاً، أو وكيلاً، أو مُحامِياً، أو شاهداً أو حَكَماً، أو غير ذلك، فالدّفاع عن الخائن والمجادلةُ لتبرئته خيانة، ومعصيةٌ من الكبائر، لأنّها تُساعِدُ على إبطال الحقّ وإحقاق الباطل.

الصورة الثانية: نَهْيُ القَاضي أو الحاكم المؤمن عن أن يتأثّر بعاطفة ما، فيَنْحازَ إلى أحد الخصمين ويُجَادِلَ عنه ظانًّا أنّه صاحب حقّ، فيقع في احتمال أن يكون للخائنين خصيماً.

الصورة الثالثة: نَهْيُ القَاضي أو الحاكم المؤمن عن أن يتسرّع في حكمه أو إبداء رأيه في إدانةِ أو تبرئةِ أحَدِ الخصمين قبل استكمال أصول وقواعد الحكم بين النّاس بالحقّ والعدل، التي أبانها الله عزّ وجلّ، لأنّ ذلك مظنّة الوقوع في احتمال أن يكون للخائنين خصيماً.

فَنُزِّلَتْ مَظِنّةُ الوقوع في تبرئةِ الخائن منزلةَ المخاصمة الفعليّة عنه، والمجادلة من أجله.

وقد وُجد في قصة السارق من بني أبريق من جعل نفسه خصيماً لأجلهم مُدافعاً عن مجرمهم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦)﴾:

أي: واستغْفِرِ اللَّه ممّا وَقَعْتَ أو قد تقعُ فيه من تقصيرٍ أو مخالفةٍ في هذه الأمور، يَغْفِرِ الله لك، دلّ على جواب الطلب هذا وصف الله عزّ وجلّ بأنه غفور رحيم دواماً، الذي تضمّنَه قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

فعل «كان» في مثل هذا الاستعمال يدلّ على الكينونة الدائمة.

غَفُوراً: أي: كثيرَ المغفرة عظيمَها. رَحيماً: أي: واسعَ الرحمة عظيمها. أخذاً من صيغتي المبالغة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾:

جملة معْطوفة على جُملة ﴿وَلاَ تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً﴾ وما عُطِفَ عليها.

وقد يبدو أنّ مضمون الجملتين واحد، فالخصيم لتبرئة الخائنين هو الذي يدافعُ ويُجادل عنهم، والمجادلُ عن الذين يختانون أنفسهم هو الذي يحاول بأقواله تبرئَتَهُمْ، فالمعنَان متماثلان بحسب الظاهر مع اختلاف في اللّفظ.

ولكن إذا لاحظنا أنّ القرآن استعمل فعل «اخْتَانَ» في خيانة الإنسان لنفسه فقط، في هذا النصّ، وفي نصّ آيات الصيام في سورة (البقرة/٢ مصحف/ ٨٧ نزول) إذ جاء فيه:

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴿١٨٧﴾﴾:

أي: كنتم تعاشرون الزوجات في ليالي رمضان، إذ كان هذا محرّماً في أوّل الأمر ثُمّ أذن الله به. ولم يأت استعمال فعل (اختان) في غير هذين النّصين.

إذا لاَحظنا هذا أَدْرَكْنَا أنّ الله عزّ وجَلّ قد جعل الخيانة قسمين:

الخيانة الأولى: خيانةُ الإنسان لحقوق الآخرين من الناس، وجاء فيها استعمال فعل «خان».

الخيانة الثانية: خيانة الإنسان لِنَفْسِهِ فيما للَّهِ عليْهِ من تكاليف وأمور تعبُّدِيّة، وجاء فيها استعمال فعل «اخْتَان».

والله عزّ وجل نهى المؤمن سواءٌ أكان حاكماً أو قاضياً أو وكيلاً أو شاهداً أو وسيطاً أو محامياً أو غير ذلك، عَنْ أن يُدافع ويُجادلَ عمّن خانَ غيره من الناس وعمّن اختان نَفْسَه في أمْرٍ يتعلّق بينه وبين رَبّه فقط، ويؤكد هذا الفهم أنّ الله استعمل كلمة «خصيم» بجانب القسم الأول، وفعل المجادلة بجانب القسم الثاني.

ونحن نعلم أنّ دلالات النصوص المنزّلة لا تقتصرُ على العناصر التي جاءت في سبب النزول ولو صحّ، لأنّ المناسبة قد كانت مفتاحاً لتنزيل النصّ ذي الصيغة الكليّة العامّة التي تشمل العناصر التي جاءت في سبب النزول، وتشمل غيرها.

وهذا المعنى هو ما يُريده الأصوليون بقولهم: العبرةُ بعمومِ النصّ لا بخصوص السبب.

وقد جادل عن المجرم من بني أبيرق مجادلون لتبرئتهم مما جنى جانيهم من كبيرة السرقة.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾.

الْخَوَّان: هو كثير الخيانة، أو الذي صارت الخيانة عادة لازمة لَهُ، أخذاً من صيغة المبالغة «فعَّال».

والأثيم: هو كثير ارتكاب المعاصي والذنوب، أو الذي صار ارتكاب الإثم عادةً لازمةً له، أخذاً من صيغةِ المبالغة «فعيل».

فالخوّانُ الأثيم لا يُحِبُّه الله، إذْ أخْرج نفسه بخياناته وآثامه التي يلازمها من دائرة محبّة الله لعِباده، ومن أخرج نفسه من هذه الدائرة تراكمت على قلبه ونفسه الظلمات، وصار محلاً لتساقُط سخَطِ الله عليه ونقمته، وابْتَعَدَ عن مجالات مغفرة الله ورحمته.

وجاء في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: لا يحبُّ كلَّ خوّانٍ لحقوق الله عليه كفور بأنْعُمِهِ، فلا يخرج المؤمِنُ من كلِّ دائرة محبَّةِ اللّهِ حتّى يكونَ خوّاناً أثيماً، أوْ خوّاناً كفوراً.

لكن خيانة قَوْمٍ ما لجماعةِ المؤمنين في عُهودِهِمْ، وتَدْبيرَ المكايد ضدّهم كافيةٌ لإخراج هؤلاء الخائنين من دائرة محبَّةِ الله، ولو لم يصلوا إلى دركةِ خوّانين، وفيها يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: فانبذ إليهم عهدهم، وأعلمهم بذلك، وكُنْ معهم على سواءٍ في عدم الالتزام بالعهد السابق.

وهكذا تكاملت النُّصوصُ في دلالاتها.

وقد كان في قصة بني أُبَيْرِق من هو خوّان أثيم، وهو منافقهم السارق.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

أي: يُحاولون جَهْدَهُمْ اتّخاذ وسائل الاستتار عن أعين الناس ومراقبتهم لارتكاب جرائمهم وآثامهم في الخفاء، وهم لا يستطيعون الاستخفاء عن الله العليم السميع البصير الذي هو معهم شاهدٌ حاضرٌ أينما كانوا، ومهما استَخْفَوا. وقد كان من بني أبيرق أنهم استخْفَوْا بجريمتهم من الناس، لكنهم لم يستطيعوا الاستخفاء من الله، وقد فضحهم الله.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾:

أي: والله عزّ وجلّ مَعَ هؤلاء الخائنين ومَعَ كلِّ خائنٍ حينَ يُبْرِمُونَ في اللّيل حيْثُ يسْتخفون عن أعيُنِ الرُّقباء مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ الّذي يجعلونه متضمّناً خطط الخيانة التي سيعملون بمقتضاها.

وإذا كان الله معهم عليماً بما يُبيِّتون فإنّهم لن يستطيعوا أن يَفْلِتوا من عقاب الله متى شاء الله إنزال عقابه فيهم، ولن يستطيعوا أن يُنَفِّذوا أمراً لم يأذَنِ الله بتَنْفيذِهِ ضِمْنَ مقتضى حكمته.

وقد كان من بني أبريق تبييتُ قولٍ فيما بينهم لا يرضاه الله.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨﴾

أي: واللَّهُ بما يعملون محيطٌ دواماً، لا يَتْرُكُ من أعمالهم عملاً يُحقِّقُ أهْدافَهُمْ منه إلّا أنْ يأذَنَ بذلك ضمن مجاري حكمته، فإنْ أحْبَطَهُ فبحكمته، وإنْ أذِنَ بنفاذه فبحكمته، والله في كلّ الأحْوال لا يَهْدِي كَيْدَ الخائنين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

هذا الخطاب موجّه على وجه الخصوص للذين جادلوا مدافعين عن الخائنين من بني أُبَيْرق، بأنّهم أهل إسلام وصلاح، بغيةَ تبرئتهم وإبعاد تهمة السرقة عنهم، وموجّه على وجه العموم لكلّ من أخذ يدافع عن أيّ خائنٍ أو مجموعةٍ من الخائنين حتى آخر الدهر.

ويُلاحظ أنّه قد كان يكفي في التعبير لتوجيه الخطاب أن يقال: هَا أنتم جادَلْتُمْ، فلماذا جاء التعبير: ها أنتم هؤلاء جادلتم؟

قال النُحاة: إنّ حرف (ها) الذي للتنبيه لا يدخل إلّا على اسم الإشارة الذي لغير البعيد، وعلى الضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة، مثل: ها أنتم هؤلاء ــ ها أنتم أولاء ــ ها أنا ذا ــ والجملة بعد هذا التعبير تأتي حالية أو خبراً بعد خبر. والثالث أن تدخل بعد (أيّ) في النداء نحو ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾.

واعتبر النحاة التعبير بنحو ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ من التعبيرات العربيّة المتبعة، التي يلازمها هذا الأسلوب، وجعلوا: أنتم هؤلاء ـ أَنْتُمْ أولاء ـ أنا ذا ـ مبتدأً وخبراً.

وقالَ بعض النحاة: إنّ «هؤلاء» في مثل [ها أنتم هؤلاء جادلتم] و[ها أنتم هؤلاء حاجَجْتُم] و[ها أنتم ألاء تُحبّونَهُمْ] نداءٌ معترض بين المبتدأ الذي هو ضمير الرفع والخبر الذي هو الجملة بعد اسم الإشارة المنادىٰ بحرف نداءٍ محذوف، ولم يرضه سيبويه.

أقول: هذا الفهم أقرب لكمال التعبير القرآنيّ، ويكون نداء المخاطبين باسم الإشارة، فيه معنى التوبيخ لهم في هذه الاستعمالات القرآنية الثلاثة، كما يقول القائل: إليك عني أنت يا هذا، وابتعدوا عني أنتم يا هؤلاء.

أمّا تخريج العبارة على طريقة جمهور النحاة فتكلُّفٌ لا يتلاءم مع ما يُفْهَم من التعبير بالتلقائية، والله أعلم.

والمعنى: ها أنتم يا هؤلاء الذين أعنتم الخائنين على تبرئتهم من جريمتهم، جادلتم عنهم في الحياة الدنيا، فدفعتم عنهم أمام الناس التُهَمَةَ، وحميتموهم من العقوبة، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة، حين يحاسبهم على خياناتهم، ويَدينهم بجرائمهم، استناداً إلى صحف أعمالهم وشهادة جوارحهم عليهم، وعلمه بواقع حالهم؟!

إنّ الجواب البدهيّ لهذا السؤال: لا أحد، إنّهم سَيُدانون ويستحقون عقاب الله بالعدل.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

(أم) هي هنا المنقطعة بمعنى «بل»، والمعنى: بلْ من يكون يوم القيامة عند ربّ العالمين وكيلاً على الخائنين، يتوكَّلُ أمْرَ إبعاد عقاب اللّهِ عنهم وحمايَتِهم منه؟!

إنّ الجواب البدهيّ لهذا السؤال: لا أحد.

الوكيل على إنسان أو غيره هو الذي يتولّى مَصالِحَهُ وحمايتَه ويَقِيه من السُّوءِ

ويرعى مختلِفَ شؤونه، ويوم الحساب لا وكيلَ ولا نصيرَ من دون الله، ولا شفيعَ إلاّ بإذنه.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

بعد الوعيد الضمنيّ بالعقوبة على جريمة الخيانة، فتح الله عزّ وجلّ في هذه الآية للمذنبين باب الاستغفار والرجعة إليه بالاعتراف بالذنب، وطلب المغفرة، ولا يكون الصّدق في هذا إلاّ مع الندم والعزم على الاستقامة، فمن صدق في رجعته لربّه واستغفاره من ذنبه وجد الله كثير الغفران واسع الرحمة.

السُّوءُ: في اللُّغَةِ كُلُّ ما يَقْبُحُ، وكُلُّ ما يكرهُهُ ويَسْتاءُ منه مَنْ مسُّهُ، أو مَسّ شيئاً يَحْرِص هو على سلامته.

وأُطْلِقَ عَمَلُ السُّوء في القرآن على ارتكاب الذّنْب سواءٌ أكان من الصغائر أو من الكبائر، لأنّه عملٌ قبيح من جهة، وعقوبته تَسُوء مرتكبَهُ من جهة أُخْرَى، وإذا كان هذا العمل من قبيل العدوان على ذي شعور يُدْرِكُ العملَ القبيح فإنه يسوؤه أنْ يُعْتَدَىٰ عليه.

﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾

أي: بارتكاب معصية من المعاصي الظاهرة أو الباطنة مع الناس أو بينه وبين ربّه، لأنّه يعرّض نفسه لعقوبة الله ونقمته، وظلم النفس يكون بارتكاب أعظم المعاصي كالكفر بالله والنفاق والشرك، بارتكاب الكبائر وكلّ معصية تجلُب لمرتكبها عقوبةً أو خُسْراناً عند الله.

ونتساءل: لم قسّم الله في هذه الآية المعاصي إلى قسمين:

القسم الأول: سمّاهُ اللّهُ سُوءاً.

والقسم الثاني: وصفه الله بأنه من قَبِيلِ ظُلْم مرتكبه لنفسه.

وبالتأمّل يُمْكن أن نُجيب: بأنّ عمَلَ السُّوء يشمَلُ كلّ عمل يُدْرِك النّاسُ قُبْحه، فيسوؤهم أن يرتكبه مذنبٌ، أمّا المعاصي التي يظلم الإنسان بها نفْسَه ففيها أنواع لا يُدركُ كثير من النّاس قُبْحَهَا، كالأمور الخاصّة بين العبْدِ وربّه، وبدأ الله بما يُدْرِكُه النّاسُ من عمل السُّوءِ، وهو بعضُ أفراد ما يظلم به العبْدُ نفسه، وبعدَهُ ذكر العنوان الذي يشْمَلُ كلّ الذُّنوب، ما يُدْرِكُ النّاس سُوءَهُ منها وما لا يُدْرِكون، ممّا أبانه الله لعباده فيما أنزل على رسوله، ولا سيما الأمور التعبُّديّة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾:

أي: ومَنْ يضُمُّ إِلَىٰ نفسه بعمله إثْماً يَحْمِلُ ثقْلَهُ، فإنّما يكْسِبُهُ جانياً عَلَىٰ نَفْسِهِ ظالماً لها، ولا يكْسِبُهُ لنفسه وإن بدا لَهُ في عاجلِ أمْرِهِ أنّهُ لمنفعته ولذّتِهِ، لأنّ العبرة بعواقب الأمور، لا بأوائلها الّتي تغُرُّ المتعجّلين، والإثم هو الذنْب الذي يستحقّ مرتكبُه العقوبة، من صغائر الذنوب وكبائرها.

إنّه بعمله الذي يظُنُّ أنّه يكْسِبُ بِهِ شيئاً لمصلحة نفسه، إنّما يكسب به شيئاً يُنْزِلُ به على نفسه ضرراً وعقوبة، فهو على نفسه لا لها.

إنه سيكون عرضةً للحساب وفصل القضاء والجزاء يوم الدّين، وقد دلّ على هذه الأمور قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾.

فالله عزّ وجلّ بعلمه الشامل يحاسبه على عمله، وبحكمَتِه يجازيه بالعدل، إنْ لم تقتضِ حكمة الله أن يشمله بمغفرته والتجاوز عن معاصيه.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

الْخَطِيئةُ: تُطْلَقُ عَلَىٰ ما يُخالِفُ الصّوابَ والْمَطْلُوبَ من العبد عن عَمْدٍ أو خطَإٍ،

من صغار المخالفاتِ وكبارِها، وعلى الذنوب كلّها.

والإِثْمُ: هـو الذنْبُ الـذي يستَحِقُّ عليه فاعله العقوبـة من الصغائـر والكبـائـر.

والمعنى: ومن يَعْمَـلْ خَطِيئةً أو يَعْمَلْ إثْماً، ثمّ يَرْمِ بـالَّذِي كَسَبَـهُ من خَطِيئةٍ أَوْ إِثْمٍ إنْساناً بَرِيئاً، لِيُبْعِد التُّهمَةَ عنْ نَفْسِـه، أو لِيُوقِـعَ الْبَرِيء في نـظر النّاس بـارتكاب الإِثم مكراً به وكيداً له، وليتخلّص منه أو من مكانتـه الاجتماعيّة، بما يَنـزل فيه من عقـابِ عمـلٍ لم يعمله. فقد احْتَمَـل من الجـرائم جِمْلاً ثقيلاً لا يستـطيع حمله إلاّ بتكلُّفٍ ومشقة، وهذا الحمل يَشْتَمِل على جريمتين كبريين:

الجريمة الأولى: الْبُهْتان وهو افتراء الكذب.

والجريمة الأخـرى: الإِثْمُ المبين، وهو ماكان منه من قَذْفٍ لِلْبـريء بما يَجُـرُّ عليه العقوبـة، وهو ظلْمٌ عـظيم، من الكبـائر الكبرىٰ، وبمـا يَصِمُه في نـظر النّاس من ارتكاب الإِثْم الذي هو بريء منه، وربّما يكون هذا أشدّ إيلامـاً له من العقـوبة، وهـو أيضاً ظلم عظيم من الكبائر الكبرى.

وقد اشتملت قصّة بني أُبَيْـرِق على هذا النوع من الجرائم، إذ ارتكب مـرتكبهم الإِثم الكبير، ثمّ رَمَوْا به شخصاً غيرَهُ من البرءاء.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ... ﴿١١٣﴾﴾

أي: ولَوْلا فضلُ الله عليك يا محمّـدُ بالبصيرة والْحِفْظِ، وكَفُّ المضلّين عَنْكَ، ولولا رحْمَتُه أيضاً بالمغفرة لما لا يليقُ بمنزلتكَ العظيمة، لَهَمَّتْ طـائفةٌ مِنْهُمْ مِنْ أهـل الكيد والمعصية والنفاق، أنْ يُضِلُّوكَ عَنِ الحقّ بما رغبوا في أن يُقدِّمـوا لَكَ من حُجَـجٍ وأقوال كاذبة خادعة، لكنّهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى مستوىٰ الْهَمِّ[1] الذي هـو دون

(١) أخطأ بعض أهل التـأويل في تفسيـر الهمّ بالإِرادة الجازمة أو بالعزم. فـأوقعهم هذا الخـطأ في مفاهيم غير مُـرادةٍ من النص. انظر في (الفصـل الرابع) من كتاب الأخـلاق الإِسلاميـة وأسسهـا للمؤلف: مستويات توجّه النفس إلى العمل الإِرادي بمواقع المسؤوليّة.

الإرادة الجازمة التي تدفع إلى التنفيذ عادة، فضلاً عن أن يصلوا إلى مستوى الإرادة الجازمة، ثم التنفيذ بسبب فضْلِ اللّهِ عليك ورحمته، فوجودُ فضلِ الله عليك ورحمتِهِ، جَعَل رغباتهم لا تَصِلُ إلى مستوى الهمّ بأنْ يُضِلُّوك.

ولو أنّهم حاولوا أن يُضِلُّوكَ فإنّهم لا يُضِلُّون إلاّ أنفسهم، إذْ ينكشِفُونَ ويَسْقُطون في المكيدة الّتي سَيَكِيدُونها، وَمَا يَضُرُّونَكَ بضَررٍ ما من شيءٍ من الأشياء الّتي يُمْكِنُ أنْ تَضُرّ.

فبسبب فضل الله عليك ورَحمته ما وقع منهم همٌّ بأن يُضِلُّوك، ولو وقع منهم هذا الهمّ لما أضلّوا إلاّ أنفسهم، ولَمَا استطاعوا أن يَضُرُّوك ضرراً مُنْتَزعاً من شيءٍ من الأشياء.

وفي هذا البيان تنبيهٌ موجَّهٌ لأهل الكيد والمكر أنْ يَكُفُّوا كُلّ حِيَلِهم، فالله حافظٌ رسولَهُ من كلّ ما يُمْكن أن يكون منهم من مكرٍ سَيِّىءٍ وكيد عظيم، وعاصِمٌ له من الناس.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

يُتَابع الله خطابه لرسوله فيَمتَنُّ عليه بأنّهُ أنزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ الّذِي هُو القرآنُ المجيد، وأنزل عليه الحكمة، وهي كلّ ما دَلَّتْ عليه السُّنَّةُ النبويّةُ من قول أو فعل أوْ خُلُقٍ أوْ إقرار. وعلّمه فوقَ ذلِكَ من العِلْمِ في غير قضايا الدّين ما لَمْ يَكُنْ يَعْلَمْ.

وامْتَنَّ عليه بأنَّ فضله عليه بذلك وبغيره من عطاءاتٍ جليلات كانَ عظيماً.

والمقصود من توجيه هذا الامتنان إشعارُهُ بمسؤوليته العظيمة تجاه ربّه، بالنسبة إلى كلّ ما تفضّل الله بِهِ عليه، من تشريف بإنزال الكتاب والحكمة عليه، وهبة العلم، وعطاءات الفضل العظيم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾.

بمناسبة التّناجي السّري الذي حصل بين بني أُبَيْرق وبعض الذين جادَلُوا عنهم من أوليائهم، وجّه الله عزّ وجلّ عامّة المسلمين بشأن الاجتماعات السّرية، التي تكون داخل المجتمعات، بعيداً عن مراقبة قادة المسلمين ذوي البيعة الإسلامية الصحيحة، مبيّناً لهم ضرورة اليقظة والحذر من التجمُّعات التي تحدُث داخل المجتمع المسلم، والتي تكون فيها النَّجْوىٰ، أي: الأحاديث السّرّيّة بعيداً عن علم ومراقبة القيادة المؤمنة المسلمة.

إنّ الاجتماعات السّرّيةِ التي تكون فيها النَّجْوى بعيداً عن علم ومراقبة قيادة المسلمين المؤمنة الرّشيدة اجتماعاتٌ مشبوهة بصفةٍ عامّةٍ لا خير في كثير منها:

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾.

فالقاعدة العامّة بالنسبة إلى هذه التجمُّعات والتّكتُّلاتِ التي لها مجالس نجوىٰ تجري فيها أحاديث سرّيّة، أنّها لا خير في كثير من نجواها، بل احتمالات الإضرار فيها بمصالح المسلمين أفرادهم أو جماعاتهم أو دولتهم هي الاحتمالات الأكثر.

إذن فيجب مراقبتها والحذر منها، ويجب على جماهير المسلمين أنْ لا يَلْجَؤوا إليها باستثناء بعض الصّور، ومنها صور ثلاثة يُمْكن أن يُقاسَ عليها أشباهها، وهي ما أبانَهُ الله عزّ وجل بقوله:

﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ ﴾:

فالصورة الأولى: مجلسٌ تكونُ فيه نَجْوىٰ قائمة على أمر بصدقة لذي حاجةٍ متعفّف يكره أن تفتضح حاجته، محافظةً على مكانته الاجتماعية، فالنجوى في هذا الأمر نجوى خير، يعطي الله من يفْعَلُها ابتغاء مرضاته أجراً عظيماً.

والصورة الثانية: مجلسٌ تكونُ فيه نَجْوىٰ قائمةٌ على أمْرٍ بمعروف أو نهي عن منكر، لشخصٍ بعينه أو أشخاصٍ بأعيانهم، فواجب النصيحة في مثل هذه الحالة أنْ

تكون نَجْوىٰ، حديثاً في السِّر، لا حديثاً معلناً، وإلاّ كان فضيحةً لا نصيحة، وربّما جرّأته الفضيحة على التمادي في الغيّ، والمجاهرة بالإثم، مع المكابرة والعناد، فالنجوىٰ القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأشخاص بأعيانهم يُعْطِي الله من يفعلها ابتغاء مَرْضاته أجراً عظيماً.

والصورة الثالثة: مجلسٌ تكونُ فيه نجوىٰ قائمةٌ على محاولةِ إصلاحٍ بين فريقين مُتخاصمين أومتعاديَيْن من الناس، فالنجوىٰ في قضايا الإصلاح بين النّاس تُهَيّىءُ أحْسَنَ الظروف لتقريب وجهات النظر، وتهديم عوامل الشّقاق والخلاف، وتغيير الأفكار التي تستثير الغضب وتوقظ الحميّات والأنانيات، وإطفاءِ نار الفتنة، وإعْطاءِ فرصة للمُصْلِحِين أن يكتموا عن الفريقين كثيراً ممّا يَعْلَمون ويَسْمَعُون منهما، وأن يقولوا من عندهم ما يكون سبباً في تأليف القلوب، وإنشاء المودّات، عملاً بقول الرسول ﷺ:

«لَيْسَ الْكَذّابُ بالَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْراً، ويَقُولُ خَيْراً».

(حديث صحيح رواه البخاري ومسلم
والإمام أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم)

فَيَنْمِي خيراً: أي: يُبَلِّغُ حَدِيثاً ويَرْفَعُه على وجْهِ الخير، للإصلاح. يُقالُ لُغَةً: نَمَىٰ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ، إذا رَفَعَهُ وَبَلَّغَهُ عَلَىٰ وَجْهِ الإصلاح.. أمّا نَمّىٰ الْحَدِيثَ بالتَّشْدِيد يُنَمّيه تَنْمِيَةً، فهو أنْ يُبَلِّغ أحَد الفريقين كلاماً عن الفريق الآخر، على وَجْهِ الإفساد والنميمة، وهذا مذموم، وهو من الكبائر.

فلاحِظِ الفرقَ بَيْنَ نَمَىٰ الْحَدِيث يَنْمِيه بالتخفيف وبَيْن نَمَّاهُ يُنَمِّيه بالتشديد.

فالنجوى القائمة على الإصلاح بين الناس ابتغاء مرضاة الله يُعطي الله عليها أجراً عظيماً.

وبعد بيان الصُّور الخيّرة المستثناة من عموم النجوىٰ، قال الله عزّ وجل:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

المشار إليه باسم الإشارة [ذَٰلِكَ] الصور الثلاث التي سبق شرحها.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

يدخل في عموم مشاقة الرسول كلّ عمل يخالف سبيل المؤمنين، ومنه التناجي في السّر بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، بدليل الإحالة على هذا النص في النصّ اللاحق الذي أنزله الله في سورة (المجادلة) في الآية (٨) منها، كما سيأتي بيانه إن شاء الله(١).

ومن هذه المشاقة ما كان من المنافق السارق من بني أبَيْرق «بشير» على ما جاء في رواية سبب النزول، إذْ فرّ من المدينة دار الإسلام يومئذٍ، وخرج عن جماعة المسلمين، واتّبع غير سبيلهم، ولحق بالمشركين في مكّة، حين انكشف أمره، وخاف من إنزال عقوبة السّرقة به، وقد أبان الله عزّ وجلّ سُنّته الثابتة في كلّ من يشاقق الرسول من بعدما تبيّن له الهدى (وهو الحق الذي أنزله الله على رسوله) ويتّبع غير سبيل المؤمنين، بإرادته الحرّة، وهذه السُّنَّة تتلخص بثلاثة عناصر.

العنصر الأول: أنّ الله عزّ وجلّ يُمَكِّنُهُ مِنْ مُتابعة مسيرة حياته، وفق ما اختار هو لنفسه، حتى تنتهي رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، ليلقىٰ عند ربّه يوم الدّين حسابه وجزاءه.

فما اختار لنفسه فتولّاه، بأن أحبّه واعتقده ولزمه واتّبعهُ، من مفهومات، وأعمال، وشياطين إنسٍ وجنّ، ولّاه الله إيّاه، فسخّر لَهُ الوسائل والأسباب، ومختلف الظروف لما يُرِيدُ ممّا تولّى، ومكّنه من ذلك ضمن سنته العامّة لكلّ عباده، دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجل:

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾:

---

(١) وهي قول الله تعالى فيها: ﴿ألم تَرَ إلى الذين نُهُوا عن النجْوى ثم يعودون لما نُهُوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول...﴾ (من المجادلة/٥٨).

أي: نمكّنه من أن يتولّى ما اختار هو لنفسه أن يتولاّه، فنجري لـه الأسباب على وفق السُّنن العامّة، دون أن نمنع عنه شيئاً منها، ما لم تَقْضِ الحكمة العامة له أو لغيره بعدم تحقيق مراده.

العنصر الثاني: أن يُذيقَه الله عـذاب الْحَرِيق في جَهَنَّم. يُقَـالُ لُغَةً: صَلِيَ النَّـارَ وصَلِيَ بِهَا يَصْلَىٰ صَلًى وَصِلِيّاً، إذا احْتَرَقَ فيها. ويُقال: أَصْلاهُ النَّارَ وَأَصْلاهُ بِهـا وفيها وعليها إذا شَوَاهُ عليها وأَحْرَقَهُ.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾.

العنصر الثالث: أن يجعله الله خالداً في جهنّم إذ تكون هي مَصِيرَهُ الأخيـرَ الذي هو صائر إليه، وسَاءَ ذَلِكَ المصير، دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

إنّ التّعذيب بنار جهنّم قـد يكون تعـذيباً مُـؤَقَّتاً، إذْ يكـون المصير الأخير لبعض المعذّبين فيها الجنّةَ دار النعيم، لكنّ هذا الذي شاقّ الرسول واتّبعَ غير سبيل المؤمنين يُصْلِيه اللَّهُ جَهَنَّم، ويجعلُها مَصِيره الأخير، فيكـون خالـداً فيها، ولتـأكيد الـدّلالة على هذا المعنى، جاءت جملة الـذّم: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ مفصولـة بالعـطف الذي يقتضي نوعاً من التغاير الذي فيه إضافة عنصر جديد للعنصُرَيْن السـابقين، وليست مجرّد جملة ذمّ لجهنّم.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

اشتملت قصّة سرقـة المنافق من بني أُبَيرق على كبيرة السـرقة، والكبيـرة الأشدّ التي هي قذف أحد البرآء بها، وعلى الكبيرة المكفّرة الكبـرى التي هي مُشَاقّةُ «بَشير» للرسول، وخروجُه عن جماعة المسلمين، ولُحُوقه بالمشركين.

إنّ هـذه المناسبـة استدعت أن يُنـزِل الله بيانـاً حول مـا يَغْفِـرُه ومَـا لا يغفـره من المعاصي.

فـوضع الله عـزّ وجلّ حـدّاً فاصـلاً، أبانَ فيـه أوّل دركاتِ الكبـائـر الكبـرى الّتي لا يَغْفِرها، إذْ تَقَـعُ تَحْتَ أَدْنَىٰ دَرَجاتِ الإيمـان والإسلام، وتبـدأُ عندهـا أوّل دركـاتِ الكفر.

ونفهم من بيـان هذا الحـدّ الفاصـل أنّ مَا هُـو أشدّ من هـذه الدَّركـة من دركات الكفر، لا يَغْفِره الله من باب «أَوْلَىٰ».

إنّ أوّل دركات الكبائر التي لا يغفرها الله دركةُ الشركِ به، إذن: فما هو أشدّ من الشرك كالكفر بوجود الله، والكفر بصفاته، والكفـر برسُلِهِ وبمـا أَنْزَلَ، إلى سـائر أنـواع الكفر وصُوَرِه جرائم لا يغفرها اللّهُ حتْماً.

وبعد بيان هذا الحدّ الفاصل أبان جلّ وعـلا أنّ ما هـو أخفُّ من دركة الشـركِ به من كلّ المعاصي كبائرها وصغائرها قابلةٌ لأنْ يَغْفِرَها الله لمن يشاء.

بعد هذا أبان تعالى السبب في كونه لا يغفر الشّرك به فما هو أشدّ من الشرك من أنواع الكفر، وهو أنّه ضلال بعيدٌ جدّاً، فصاحِبُ هذا الكفر قد أبعد نفسه عن كلّ دائرة رحمة الله بالعفو والغفران، فهي لا تشملُه، فقال تعالى:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

ونُلاحظ في هذه الآية دليلاً لقول جمهور الفقهاء والعلماء من أنّ من ترك الصلاة تهاوناً وتكاسلاً غير جاحد لها ولا مستكبـر عن عبادة الله، فـإنّه لا يكفـر، ولا يخرج من الملّة، ولا يكـون محرومـاً من احتمال أن يغفـر الله له إذا شـاء، لأنّ ترك الصـلاة دون الشرك بالله حتماً.

● ● ●

النصّ الثامن عشر

وهو من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول)

سادس سورة مدنية

الآيات من (١٣٦ ـ ١٤٧)

بشأن قسم المذبذبين من المنافقين، وبعض صفات عموم المنافقين

قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ
وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا (١٣٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا
لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا (١٣٧) بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) ٱلَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ
وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟
أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)
إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ

ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى
ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟
وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾».

* * *

(١)
ما في النّصّ من القراءات المتواترات (من الفرش)

* في الآية (١٣٦):

(١) قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمرو، وابْنُ عامر: [وَالْكِتَابِ الَّذِي نُزِّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ] بالْبِناءِ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ في «نُزِّلَ» و«أُنزِلَ».

(٢) وقرأ بَاقِي العُشرة: [نَزَّلَ وَ أَنْزَلَ] بالبناء للمعلوم في الفعلين.

وفي القراءتين تنويعٌ في الأداء البياني، وقراءة جمهور القرّاء تُفسّر القراءة الأخرىٰ.

* في الآية (١٤٠):

(١) قرأ عاصم، ويَعْقوب: [وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ] بالبناء للمعلوم. في فعل [نَزَّلَ].

(٢) وقرأ باقي القُرّاء الْعَشرة: [وَقَدْ نُزِّلَ عَلَيْكُمْ] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

وفي هاتين القراءتين أيضاً تنويعٌ في الأداء البياني.

* في الآية (١٤٥):

(١) قرأ الكوفيُّونَ «عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف»: [في الدَّرْكِ] بإسكان الرّاء.

(٢) وقرأ باقي القرّاء العشرة: [في الدَّرَكِ] بفتح الرّاء.

والقراءتان وجهان عربيانِ للكلمة، وقيل: «الدَّرَك» بفتح الراء جمع «دَرَكَة».

* في الآية (١٤٦):

(١) قرأ يعقوب في الوقف: [وَسَوْفَ يُؤْتِي] بإثبات الباء على القاعدة النحوية.

(٢) وقرأ باقي القراء العشرة [وسَوْف يُؤْتِ] بحذف الياء مطلقاً وصلاً ووقفاً، مراعاةً لرسْمِ المصحف، وحذف الياء جاء للتخفيف ومراعاة حالة الوصل. فالقراءتان وجهان من الأداء العربي.

* * *

(٢)
موضوع النصّ

يتناول هذا النصّ الحديث عن صنفٍ من المنافقين، وهم المنافقون المذبذبون بين المؤمنين والكافرين، المتردّدون بين الإيمان والكفر، فهم قَلِقُون لا استقرار لهم، ولا ثبات لهم على رأيٍ اعتقاديٍّ واحد، ولا منهج سلوكي صادقٍ واحد.

وتناول هذا النصّ كشف طائفة من صفاتهم، فهم يؤمنون، ثُمَّ يكْفُرونَ، ثمّ يؤمنون، ثمّ يكْفُرونَ، وهذا الترددُ يجعلهم في حالة نوبة الإيمان يتطلّعون إلى الكافرين ذوي القوّة الظاهرة، فيبتغون أن يستندوا إليهم، ويتقوَّوْا بهم، ويوالُوهُمْ من دونِ المؤمنين، وهذا يدفعهم إلى أن يُكْثِروا من مجالستهم في مجالسهم، ويُغْضُوا النظر عمّا يَسْمعون منهم من كُفْرٍ بآياتِ الله المنزّلة على رسوله واستهزاءٍ بها.

وهذا التردد الذي هو وصفهم، إذْ يتعاقبُ عليهم الإيمان والكفر، يجعلهم وهم في نوبةِ الكفر يظلُّونَ محافظين على الانتماء إلى الإسلام في الظاهر، ويجعلُهم في حالة تربُّصٍ دائمٍ بيْنَ المؤمنين والكافرين، يُراقبون الأحداث بين الفريقين، فمن غلَب أو غَنِم منهما أقبَلُوا عليه مطالبين بالمشاركة، زاعمين له أنّهم منه.

وحالة التذبذب النفسيّ لدى هذا الصنف من المنافقين تدفعه إلىٰ أن يتّخذ أسلوب المخادعة لسَتْر حقيقته.

ومن علامات هذا الصنف من المنافقين في ظاهرات السلوك الإسلاميّ، ومن علامات سائر المنافقين ما يلي:

(١) أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالَىٰ، يراءون الناس، إذْ لم تَسْتقِرُّ قُلوبُهم، على الإيمان حتّى يؤمنوا بجدوى الصلاة، وكذلك سائر الأعمال الإسلامية، والمرائي لا يستطيع أن يكُون مُنْفَعلاً انفعالاً ذاتيّاً مع العمل الذي يُؤدِّيه رياءً ومخادعة.

(٢) أنّهم لا يذكُرون الله إلاّ قليلاً، إذْ هُمْ في نوبة اتّجاه قلوبهم للإيمان وبقائها فيه قد يذكرون الله عزّ وجلّ، لكِنّ هذه النوبة لا تطُول، إذْ سَرْعان ما يَرْتدُّونَ إلى الطرف الآخر الأقصَىٰ باطناً، وإنْ ظلُّوا محافظين في الظاهر على الإسلام ومشاركة المسلمين في أعمالهم، والانخراط في صفوفهم.

وجاء في النصّ مُراعاةُ نوبة الإيمان الذي يكون له إشراقٌ ما في قلوبهم، فيُطالبُهم بأن لا يتّخذوا الكافرين أولياء، لئلاّ يجعلوا للِهِ عليهم حُجَّةً واضحةً بأنّهم يستحقون العقاب الشديد، كما هو موجه لسائر المؤمنين.

وجاء في النّصّ مراعاةُ نَوْبَةِ الكُفْر الّذي يُغلّفُ بصائرهم، مع محافظتهم على ظاهر إسلامهم، فيُوجّه لهم الوعيد بأنّ المنافقين في الدَّرْكِ الأسفل من النار.

وبعد ذلك يفتح الله عزّ وجلّ لهم باب التوبةِ وإصلاحِ وضعِهم بالإيمان الثابت المستمرّ، والاستقامة علىٰ مقتضيات الإيمان، وإخلاص دينهم لله عزّ وجلّ، ويَعِدُهُمْ بأن يكونوا مع المؤمنين، ويتجاوز عن تقلُّبهم السابق بين الإيمان والكفر، إذا تابوا وأصْلحوا واعتصموا بالله، وأخلَصُوا دينهم لله، ويُبيّن الله لهم أنّه ليس له سبحانه غرضٌ خاصٌ بعذابهم، أي: لكِنْ قانون الجزاء العامّ الذي تقتضيه الحكمة لا بُدّ أن يُنَفَّذ بالعدل، فإذَا تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله، وأخْلَصُوا دينهم لله، استَحقُّوا بمقتضى قانون الجزاء العام وقانون الغفران لمن تاب قبل فوات الأوان أن يغفر الله لهم ما كان منهم قبل التوبة والاستقامة من تردُّدٍ وتقلُّبٍ بين الإيمان والكُفر.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

هذه من الصفات السلبيّة لله عزّ وجلّ، أي: من صفاته الّتي يتّصف بها دواماً من الأزل إلى الأبَدِ أنه سبحانه لا يغفر لمن تردّدوا بين الإيمان والكفر، ثمّ استقرّوا أخيراً على الكُفْر وازدادوا فيه، وانتهت رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا وهُمْ كذلك.

واللّام في [لِيغْفِرَ] يُسمّيها النُحاةُ لامَ الْجُحودِ، لوقوعها بَعْدَ كَوْنٍ منْفيٍّ، أي: هي لتأكيد معنى النفي.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

يُقالُ لغةً: بَشَرَهُ يَبْشُرُهُ، إذا أخبرَهُ بما يَسُرُّهُ ويُفرِحُهُ، وكَذلِكَ أَبْشَرَهُ، وبَشَرَهُ يَبْشُرُهُ بَشْراً وبِشْراً وبُشُوراً، والاسم «البُشْرَى» وقد تُستَعْملُ هذه المادّة اللّغوية في الإخبار بالشّر وبما يَسُوء، وقد يقال: هذا على سبيل التهكّم، باستعمال اللّفظ في ضدّ ما وُضِع له.

﴿ٱلْعِزَّةَ﴾:

العزّة: هي القُوّةُ الغالبة، يقول العرب: مَنْ عزّ بزّ، أي: من غلَب سلَب.

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾:

أصل الْخَوْضِ الْمَشْي في الماء وتحريكه، ثمّ استُعْمل في التّلبُّسِ بالأمر والتّصرُّف فيه. ومن التوسُّع استعمال «الْخوض» بمعْنَى اللّبْسِ في الأمر، فالْخَوْضُ من الكلام ما فيه الكذِبُ والباطل.

تقول لغةً: خاضَ الماءَ يَخُوضُهُ خَوْضاً وَخِياضاً، وتَقُولُ اخْتاضَ وتَخوّض.

واسْتُعْمِلَ في بيانات الرسول التّخَوُّضُ في مال الله. بمعنَى التّصرُّفِ فيه بما لا يرضاه الله، وجاء في سورة (الأنعام/٦) استعمال الخوض في آياتِ الله بمعنى الطّعْنِ فيها والكُفْرِ والاستهزاء بها، فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴿٦٨﴾﴾.

وقد جاء بيان هذا الْخَوْض في آيات الله في قوله تعالى الذي نتدبّره من سورة (النساء):

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾:

التَّرَبُّصُ الانْتِظَارُ، يُقالُ لُغَةً: تَرَبَّصَ فُلانٌ بفلان، أي: انتظَرَ بِهِ خيراً أو شرّاً يحلُّ به. وكذلك يُقالُ: رَبَصَ بِفُلانٍ يَرْبُصُ رَبْصاً. ويقال: تَرَبَّصَ بسلعَتِهِ الْغَلاءَ، أي: انْتَظَرَهُ.

﴿فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

أي: نَصْرٌ من الله.

﴿نَصِيبٌ﴾:

النَّصِيبُ الحظُّ من كُلِّ شيءٍ، والجمع: «أنْصِبَاء وأَنْصِبَة ونُصُب».

﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾:

يقال لغة: اسْتَحْوَذَ على الشيء، إذا حَوَاهُ. والحاوي للشيء يضمُّه ويحميه.
ويقال: استحوذَ عليه إذا غَلَبَهُ واستولى عليه.

قال أبو إسحٰق: أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عليْكُمْ معناه: الم نستولِ عليكم بالموالاة لكُمْ.
وقال الجوهري: أي: الم نَغْلِبْ علَىٰ أُمُورِكُمْ ونَسْتَوْلِ على مَوَدَّتِكُمْ.

أقول:

بما أنَّ من معاني استحوذ على الشيء معنىٰ «حَوَاهُ» فلا حاجة إلى اعتماد المعنى الآخر وهو الغلبة على الشيء والاستيلاء عليه بالقوة، وتكلُّفِ تأويل الجملة حتى تتَّفِق مع ما هو ظاهر من المراد منها.

وعلى هـذا يكون المعنىٰ: ألم نُحِطْ بِكُمْ إحاطة حمـايةٍ ومعـونة ونُصْـرَة، وتأتي جملة:

﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

بمعنىٰ ونَحْمِكُمْ ونَحْفَـظْكُمْ مِنْ تَسَلُّطِ المؤمنين عليكم، وغَلَبَتِهِم لكُمْ، مُتَمِّمَـةً لفكرة الاستِحْواذ بمعنىٰ الإحتواء والإحاطة، فالْمَنْعُ في اللُّغَةِ الحمايَةُ والحفظ.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾:

المخادعة: هي إظهار ما يُوهم الصدق والسّلامة والسّداد، وإبطان ما فيه خلاف ذلك.

والمخادعة تتضمّن استغفال مَنْ يُرادُ خِـدْعُهُ، لإيقـاعه فيمـا يكره، بـأن يُظْهِـرَ لَهُ المخادِعُ ما يُحبّ، ويُخْفي عنه ما يَكْرَهُ، تَغْريراً به.

وأصلُ مادّة «خَـدَعَ» فيها معنى الاستخفـاء والتواري، ومنهـا «المخدع». وفِعْـل «يُخادع» بهذه الصيغة يدُلُّ في الأصـل على المشاركـة، ويَـدُلُّ أيضـاً على المبـالغة والاجتهاد الزائد في العمل ولـو كان من طرفٍ واحد، لأنّ مَنْ يُغـالبُ غيره في عَمَـلٍ ما يُبالِغُ من طرفِهِ بِبَذْلِ غايَةِ الْجَهْدِ الذي يَسْتَطِيعُ بَذْلَهُ، والمنـافقون يُبـالغُونَ جـدّاً في استخدام الخداع، ويُمْعِنُونَ فيه ببَذْل غاية جَهْدهم، حتّى كـأنّهم في معركـة مخادعـة بينهم وبَيْنَ المؤمنين.

ويـدُلُّ الفعل المضـارع في [يُخَادِعُـون] على تجديـد الخدع وتكريره مـع مرور الزّمن، وهو ما يحتاج إليه المنافقون باستمرار.

ونتساءل: كيف يخادعون الله وهو العليم بسرائرهم، وبكلّ ما يمكرُون؟

والجواب: أنّهم حين يخادعون الذين آمنوا مع أنّ الله معهم، وهـو وليّهم، إنّما يخادعون معَهُمُ الله ربَّهم، الذي يتولّاهم بتأييده ونصْـرِه، ويحميهم من مكر المنـافقين والكافرين ومكايدهم. فالمنافقون بسبب غفلتهم عن هذه الحقيقـة، أو بسبب جحودهم لها لا يَخْدَعُـونَ إلاّ أنفسهم، وذلك لأنّهم هم الـواقعون في شـرّ أعمالهم، والسـاقطون في الْحُفَـر التي يحفرونهـا للمؤمنين، وهذا يُبَيّن أنّهم هم المخـدوعون لا الخـادعون،

نـظراً إلى أنّ خديعتهم مـردودةٌ عليهم من حيث لا يَشْعُرونَ، وأنّ سِهـامَهُم مُنْقلِبةٌ إلى نُحُـورِهِمْ وهُمْ لاَ يَعْلَمُون، وبمـا أنّ ما يجـري عليهم إنما يجري بتـدبيـر الله العـزيـز الحكيم، وهذا التدبير خفي عنهم، والله يُعاقبهم بمثل عملهم، إذْ يستدرجهم من حيثُ لا يَشْعُرون، حتى يُوقِعَهُمْ بشرّ عَمَلِهم الذي يمكُرُون به، أو بنظيره، قـال الله عزّ وجـلّ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. أي: مجـازيهم بمثل عملهم، أو مـوقعهم في عاقبـة الأمر الذي أرادوه للمؤمنين، وخادَعُوا فيه.

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾:

أي: يُظْهِرُونَ للنّاس أنّهم اهل خيـر وصلاح، وهم على ضـدّ ذلك. يقـالُ لغة: رَاءَاهُ يُرَائِيهِ مُرَاءَاةً، ورِءَاءً وَرِيَاءً، أي: أراه أنّه متّصفٌ بالخير والصّلاح على ضدّ ما هو عليه.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾:

يقـالُ لغة: ذَبْـذَبَ فُلاَنٌ فُـلاَناً، إذا جعَلَهُ حيْـرانَ يَتَرَدَّدُ بين طـرفين، أو فريقين. وذَبْـذَبَ الشيءَ إذَا حرّكَـهُ، فصار قَلِقاً مضطربـاً. ويُقَـالُ: ذَبْـذَبَ الشَّيْءُ الْمُعَلَّقُ، إذَا تحرّكَ وتردّدَ في الهواء. ويُقالُ: ذَبْذَبَ فلاَنٌ: إذا تردّد بين أمْرين، أو بيْنَ رَجُلَيْنِ مثلاً، فلاَ تثبُتُ صُحْبتُه لواحدٍ منهما.

فَمُذَبْذَب: اسم مفعول، من ذَبْذَبَـهُ الْمُتَعَدِّي، فمـا الذي جعـل هذا الصِّنْف من المنافقين مُذَبْذَبِين؟

بالتفكّر يَتَبَيَّنُ لنا أنّ عواملَ في داخلهم مُتَضَادّة تَتجاذَبُهُمْ بين أقصَيَيْنِ مُتَباعِـدَيْن، همـا الإيمانُ والكُفْرُ، نَجْدُ الخير ونَجْدُ الشّـر، فالـرُّؤْيَةُ الفكريّة السّليمـة، ومشـاعرُ الْبَصِيرَة الوجدانيّة، ولَمّـةُ الْمَلَكِ في داخلهم، تَجْذِبُهُمْ إلى جـانب الإيمان والمؤمنين، وأهـواءُ نُفُوسهم، وشهـواتُهم، وتعلّقُهم بـالـدّنيـا، ووسـاوسُ شيـاطِينِ الإنْسِ والجنّ، تَجْذِبُهُمْ إلى جانب الكُفْـر والْكافـرين، وإذْ قَدْ فقَـدُوا الإرادة الجازمـة الحازمـةَ بعَدَمِ اسْتعمالِهِم لَهَا صَارُوا مُذَبْذبِينَ بَيْنَ قُوّتَيْنِ مُتكافِئَتَيْن.

﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

أي: حُجّةً واضحةً.

﴿فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾:

الدَّرْكُ، والدَّرَكُ: أسْفَلُ كُلِّ شيءٍ ذي عُمْقٍ. والـدَّرْكُ الأسْفَلُ من النـار، الطَّبقـةُ السُّفلَى من طَبَقاتِها النازلة في اتّجاه أعماقها. فدار العـذاب يومَ الـدّين كالْبِئْرِ تبدأ من أعلى إلى أسْفـل، ودارُ النعيم يـوم الـدين بعكس ذلـك تبـدأ من أدنَى إلى أعلى، والفردوس منها أوسط الجنّة وأعلاها.

وعلى اعتبـار أن (الدَّرْك) بفتـح الراء هـو جمع دَرَكَـة، فـإنّ الـدركـة هي عكس الدرجة، فالدرجة إلى الأعلى والدركة إلى الأسفل.

﴿تَابُوا﴾:

أي: رجعُوا عن مَعْصيتهم، يقال لغة: تابَ، يَتُوبُ، تَوْباً وتَوْبَةً، ومَتاباً، وتَابةً، فهُو تائبٌ وتَوّابٌ.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾:

أي: فعلُوا مَا هُو صَـالحٌ بَعْـدَ تَوْبَتِهِمْ وأصلَحُـوا الفساد الـذي كان في نفـوسهم وأعمالهم، من جرّاء ما كان في قلوبهم من نفاق.

﴿وَٱعْتَصَمُوا بِٱللَّهِ﴾: أي: تَقَوَّوْا بالله، وامتنعوا به، ولم يبتغوا العزّة عند الكافرين.

﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾:

الإخلاص لله في الدين، هو ابتغاء مرضاة الله في كلّ عمَلٍ من الأعمال الدينيّة، القوليةِ والعملية الظاهرة والباطنة.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتّدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

إنّ الإيمان حركةٌ قلبيّةٌ كَحَرَكةِ الحياة، من آثاره حركَةُ العبادات التي يجب أن تتجدّد دواماً، دليلاً على فاعليّة الإيمان وحياتِهِ وحركته.

فإذا لم يكُنْ للإيمان مَدَدٌ يُغذّيه ويُجدّدُه دواماً سَكَنَ وبَرَد، وصار قابلاً لعوارض الأمراض، وكلّما طال تخزينُه أو سَجْنُه مُهْملاً نائماً غافلاً، لا يأتيه مَدَدٌ يُغذّيه بوسائل حياته وحركته وفاعليّته، كانَ أشدّ عُرْضَةً للضعف والأمراضِ التي تفسده، وإذا طال عليه الأمدُ وهو على هذه الحالة كان بمثابة شيءٍ لا فائدة منه من صنوف المهملات، وربّما نَبَذَهُ القلْبُ وتخلّىٰ عنه، وتحوّل إلى الكُفْر الذي تُمِدُّهُ دواماً الشُّبُهات والشهوات والأهواء ووساوسُ شياطين الإنس والجنّ.

من أجل ذلك، وبمناسبة الحديث الذي سيتناول المنافقين المذبذبين بين الإيمان والكُفْر، إذْ يُؤْمِنُونَ في نوبةٍ من حياتهم، ثمّ يكْفُرونَ في نوبةٍ أُخرى، مع المحافظة على ظاهر إسلامهم، ثم يعودون إلى الإيمان في نوبة، ثم يعودون إلى الكفر، وهكذا. خاطَبَ الله عزّ وجلّ في بداية هذا النّصّ الذين آمنوا، فأَمَرَهُمْ بأن يُمِدُّوا إيمانَهُمْ دواماً، بما يُغذّيه ويجدّده، ويجعله حيًّا يقظاً ذا حَرَكةٍ كَحَرَكَةِ الحياة، وذا فاعليّة في السُّلوك الظاهر والباطن الملائم لمقتضياته، وبما يمْنَعُ عنه العوارضَ التي تُضْعِفُهُ، وتُمْرِضُه، وتُضْنيه، ثمّ قد تُميته.

إنّ الحبَّ وهو من أشدّ العواطف الفعّالة في النفس، إذا لمْ يكُنْ لهُ وقودٌ دائم سَكَنَ، ثمّ هَجَعَ، ثمّ استولت عليه الغفلات، ثم سَلَا، ثمّ ضَعُفَ وهَزُلَ، ثمّ مات، فَنُبِذ، وكذلك سائر العواطف.

والإيمان مع جانبه العقليّ العلميّ في دائرة الإسلام، لَـهُ في القَلْبِ حياةٌ عاطفيّة، وهذه الحياة العاطفيّة هي التي تَجْعَلُهُ يُحَرِّكُ الإرادةَ التي توجّهُ السلوك، وحينَ يَفْقِدُ الإيمانُ حياتَهُ العاطفيّة بسبب عدم إمداده بالأغذية التي تُلائمهُ ليبقىٰ حيًّا يقظاً، فاعِلاً، فإنّ الإرادةَ تَسْتَوْلي عليْها عواطفُ أُخرى من عواطف النّفس، وهذه العواطف مضادّةٌ للإيمان، فتُوجّه سلوك الإنسان وِجْهةً أُخرىٰ مضادّةً للسلوك الإيمانيّ، وبمرور

الزمن لا يَبْقَى للإيمان قُوَّةٌ فاعلة، ولا أثرٌ في السلوك، وينتهي به الأمر إلى أنْ يُمْسِيَ مَريضاً ضاوياً، ثمّ يكون عُرضةً لأن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويُطْرَح خارجاً.

فالمؤمنون مطلوبٌ منْهُمْ أن يُجَدِّدوا إيمانهم ويُمدّوهُ دواماً بوسائل التغذية الملائمة له، التي تمدّه بالحياة والحركة والفاعليّة، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ... ﴿١٣٦﴾﴾.

وهذا نظير أن نَقُول: يا أيُّها الأحياء أحيُوا أنفسَكُم دواماً بالغذاء والوقاية والدواء، وسائر وسائل استمرار الحياة.

إنّهم وهم يُخاطَبُونَ يَتمتَّعُونَ بالحَيَاةِ، لكنّ هذه الحياة لا تستمِرُّ فيهم ما لم يُمِدُّوها بما يُغذّيها ويقيها ويَحْميها ويُعالجها إذا مسَّها عارضُ مَرَض، فهم مُطَالبُون بأن يُحْيُوا أنفسهم على هذا المعنى.

واقتصر النصُّ هنا على بعض أركان الإيمان لأنّ الإيمان بالكتاب الذي نَزَّله الله على رسوله، يَتضَمَّنُ الإيمانَ بكلّ أركان الإيمان وعناصره، ولا يكون الإيمان بالكتاب إلّا مسبوقاً بالإيمان باللّهِ ورسوله.

وجاء الأمر بالإيمان بالكُتُب السابقة على وجه الخصوص، لتبرئة المؤمنين من التعصُّب للقرآن ضدّ سائر الكتب الربّانيّة المنزّلةِ مِنْ قبله، فالإيمان في الإسلام لا يتمّ ما لم يتحقّق الإيمان بكلّ الأنبياء والمرسلين، وكلّ الكتب الربّانيّة المنزّلة.

والمراد من الكتاب الذي أنزل من قبلُ كلُّ الكتب الربّانية المنزّلة من قبل القرآن، وذلك لأنّ أداة التعريف (أل) في [الكتاب] للجنس، فهي تشمل كلّ الكتب.

ولمّا كان إهمال الإيمان بعدم تغذيته الدائمة التي تجدّد حياته وقوّته وفاعليّته، قد يُعرِّضُهُ للضعف والهزال والموت، وعندئذٍ يحلُّ الكفر محلّه في القلب، حذّر الله مَنْ يُحْدِثُ كُفراً بَعْدَ إيمان، فقال تعالى:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

فشمَل في التحذير من الكُفْرِ كلّ عناصر الإيمان الأصول، وذلك لأنّ الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، هو من توابع الإيمان بالله في الحقيقة، وقد فُصِل في البيان النبويّ، فجاءَ رُكناً خاصًا لأهميّته، ولمّا يُلابسُهُ من مسائل تُشكل على كثير من الناس.

ونفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ بصيغة الفعل المضارع الدالّة على إنشاء الكُفْر في الحال أو المستقبل، على تحذير المؤمنين على وجه الخصوص من أنْ يُنْشِئُوا كُفْراً بعد إيمانهم، ويفعَلُوا كما يَفْعَلُ المنافِقُونَ المذبذبون الذين سيأتي الحديث عنهم، فهذا البيان هو بمثابة التوطئة للحديث عن هذا الصنف من المنافقين.

وجواب الشرط في قوله تعالى ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ هو قوله تعالى:

﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾:

أي: فقد ابتعَدَ عن صراط الهدى، وسَلَك مسالك الضياع، وأوغل في هذه المسالك إلى متاهات هو فيها بعيد جدًّا عن مهابط رحمة الله وغفرانه وعفوه.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾.

في هذه الآية بيانٌ لصنف من المنافقين وهم المنافقون الْمُذَبْذَبُونَ بين الإيمان والكُفر، والمؤمنين والكافرين.

إنّ هذا التَّذَبْذُب ناتجٌ عن تساوي قُوّتي الْجَذْبِ في داخل نفوسهم نحو الخير والشر، مع ضعْفٍ في إراداتهم عن أنْ يحزمُوا أمْرَهُم، ويستقِرُّوا كُلّياً في إحْدَىٰ جِهَتَي الْجَذْب المتضادّتين المتباعِدَتَيْن في أقْصَيَيْن مُتبايِنَيْن.

وعلى سبيل المصالحة بين قُوّتَي الجذْب المتكافئتَيْن في داخلهم، التي لا يمكن أن تحصُل في وقت واحدٍ، للتناقض بين الإيمان والكفر، فهما لا يجتمعان معاً في قلب رجل واحد، إذْ لم يجعل الله لرجُلٍ من قلبين في جوفه، يَلْجأُ هؤلاء العاجزون

إلى اتّخاذ أسلوب استرضاء الفُوَّتَيْنِ بالتَّناوُب في مختلف الأزمان والأوقات، فيؤمنون حيناً، ويكفُرونَ حيناً، ويتردَّدون بين الإيمان والكفر، والمؤمنين والكافرين.

لكِنَّ هذا التردُّد والتَّذَبْذُبَ المتناوب لا يَلْبَثُ طَوالَ عُمْرِ الواحد من هذا الصنف من المنافقين، إذْ لا بُدَّ بَعْدَ حين:

ــ إمّا أنْ تَزْدَادَ لَدَيْه قُوَّةُ الجاذِبِ إلى الإيمان، فيزداد إيماناً ويَسْتَقِرّ فيه، وعندئذٍ يَشْمَلُهُ اللّهُ عزّ وجلّ بمعونته، ويُثَبِّتُهُ في الإيمان، ويُحَقِّقُ له الهداية، ويَشْمَلُهُ بمَغْفِرَتِه وعَفْوِه وواسع رحمته.

ــ وإمّا أنْ تَزْدَادَ لَدَيْهِ قُوَّةُ الجاذِبِ إلى الكُفر، فيزدادَ كُفْراً ويستقرّ فيه، وعندئذٍ يجعله الله مع صنف المنافقين الكافرين في الباطن دواماً، ممن وصفهم الله بقوله في أوائل سورة (البقرة/٢):

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۞﴾.

إنّه حين يزدَادُ كُفراً ويستقرّ فيه بعد طول تردّدٍ يُمْسِي إنساناً كافراً، لا يغفرُ الله له، ولا يَهْدِيه سبيلاً إلى نجاته وخلاصِهِ ممّا هو فيه، بل يَتْرُكه وشأنَه وكُفْرَهُ وما اختار هو لنفسه من سبيل، تطبيقاً لسنّته العامّة في امتحان عباده ضمن ظروف اختيارهم الحرّ، ويُمْسي شأنُه في هذا كشأن سائر الكافرين عن إصرارٍ وتصميم، ذَا حالةٍ ميؤوسٍ من إصلاحها باختياره.

لكنّه حين كان في أطوار التردّد والتذبذب، كان حالُه كحالِ المريضِ المحتار الذي يحتاج إلى مساعدة، فيساعدُهُ الله بأنواع من المساعدات الّتي تُنَوِّر بَصيرته عسَى أن يتّجه بإرادته الحرّة إلى الثبات في الإيمان، والاستقرار فيه.

فدلّ قولُه تعالى في الآية:

﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾:

على أنّ عوامل الكفر فيهم قد زادت على مقدار التكافؤ مع عوامل الإيمان، فاستقرُّوا في الكفر باطناً مع المحافظة على ظاهر الانتماء إلى الإسلام.

فانْطَبق عليهم من موادّ قانون الامتحان مادّتان:

الأولى: دلّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

أي: من صفاته الدائمة سبحانه أنّه لا يغفر لمن استقرّ في الكُفْرِ وأصرّ عليه دواماً، حتى لَقِيَ ربّه وهو على ذلك، وإنْ زعم في الظاهر أنّه مسلم.

الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾:

أي: ومن صفاته الدائمة سبحانه أنّه لا يهدي من استقرّ في الكفر بإرادةٍ واعيةٍ جازمة، وأصرّ عليه دواماً سبيلاً يحقّق له النجاة والخلاصَ ممّا هو فيه، بل يتركُه وشأنَه وكُفْرَهُ، وما اختار هو لنفسه من ضلالة، تطبيقاً لحكمة الاختبار القائم على حريّة الإرادة في الاختيار.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾.

خطابٌ مُوجّه لكُلّ من يصلحُ للخطاب من المؤمنين، بأن يقول للمنافقينَ بأُسلوبِ الإعلام العامّ: أَبْشِرُوا بعذابٍ اليم أعَدَّهُ اللَّهُ لكُمْ.

هذا الخطاب الموجّه بأسلوب الخطاب الإفراديّ لكلّ مؤمنٍ صالح للخطاب يحقّق غرضين:

الغرض الأول: إلزام أفراد المؤمنين بأن يوجّهوا ضدّ المنافقين ضغطاً اجتماعيّاً، يُمارسُه كلُّ واحدٍ بمفرده، ليجدَ المنافقون أنفسهم منبوذين داخل المجتمع المسلم المؤمن.

الغرض الثاني: إشعار المنافقين بإعراض الله عنهم، وأنّهم ليسوا أهلاً لمخاطبتهم بأسلوب الخطاب المباشر لهم، فهو يكلف كلّ مؤمن بأن يوجّه لهم هذا الخطاب.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

في هـذا بيان لبعض صفـات المنافقين، فمن صفـاتهم أنّهم يجعلُونَ الكـافـرين أولياء لهم، يوادّونهم، ويتعاونون معهم، ويتواعدون معهم على المناصرة والتـأييد، من دُونِ المؤمنين، أي: من غيرالمؤمنين الذين هم دون المؤمنين عنـد الله، لأنّهم سافلون عقيدةً وسلوكاً، وسافلون منزلةً في دار العذاب يوم الدين.

﴿ يَتَّخِذُونَ ﴾:

أي: يجْعَلُونَ. «اتَّخذَ» على وزن «افْتَعَل» من الأخـذ، ومن معاني هـذه الصيغة المبـالغـةُ في معنى الفعـل، والاجتهـادُ في الطَّلب، فهم يعملون مجتهـدين متخـذين مختلف الوسائل لجعل الكافرين أولياء لهم.

﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾:

كلمة «دُون» في اللّغة، تأتي في الأصل مقابلة لكلمة «فـوق» فهي مثل: «تحت» وكلٌّ من «فَوْق ودُون» يُستعْمَلُ في الحسيّات والمعنويات.

ودرج المفسّرون على تفسير عبارة «من دُون» بعبارة: «من غير».

أقـول:

من حُسْنِ التدبّر أن نلاحظ في العبارة معنى الدُّونيّة إضـافةً إلى معنى المغـايرة، في كُلِّ ما تظهر فيه الدّونيّة، مثل: [من دون الله ـــ من دون المؤمنين ـــ شهـوة من دون النساء] إلى غير ذلك.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾.

في هذا كشفٌ للباعث على اتّخاذ المنافقين الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

إنّهم يَبْتَغُونَ عند الكافرين القوَّةَ الغالبـة، لأنّهم يتصوّرونَ أنّ الكـافرين أشـدُّ قوةً

ومَنَعَةٌ مِنَ المؤمنين، وأنَّ الغَلَبَة بَعْدَ الحروب الدائرة بيْنَ الْفَرِيقَيْن ستَكُونُ للكافرين، فَهُمْ يحاولون أن يُوالُوهُمْ سِراً، ليكونَ لهم حُظْوةٌ عندهم، متَى كانَ لهم النّصْرُ والغَلَبَةُ على المؤمنين في المستقبل.

فكشَفَ اللّهُ عزّ وجلّ هذا الباعث لديهم بأسلوب طرح الاستفهام دُون مُواجَهَتِهم به، بل خاطبَ المؤمنين به، فقال تعالى:

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾:

أي: أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْقُوَّةَ الْغَالِبَةَ.

بعد طرح هذا السؤال أبَانَ اللّهُ عزّ وجلّ أنّ كُلّ الْقُوَّة الغالبة لله وحْده، فَهُو يمْنَحُ منها عبادَهُ بحسب حكمته، في مجاري مقاديره، فمن كان مؤمناً بالله حقّاً اعتمد عليه، وسلَكَ سبيل المؤمنين، وانضمّ إليهم صادقاً مخلصاً، ولم يتّخذ الكافرين أولياء له من دون المؤمنين، لأنّ المؤمنين هم أولياءُ الله، فهو ناصِرُهُمْ إذا صدَقُوا، وأخلصوا، واتّخذوا الأسباب التي أمر بها، فإذا فعلوا ذلك فلَنْ يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، فقال تعالى:

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾:

أي: فإنْ كانوا يَبْتغُونَ عند الكافِرِينَ العزّة، فإنّ العزّةَ لله جميعاً، وبسبب ذلك فإنّهم لن يحصلُوا على العزّة عند الكافرين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ . . . ﴿١٤٠﴾﴾.

يُذَكِّرُ الله المسلمينَ في هذا بمَا كانَ قد أنزله في العهد المكي، ممّا مضمونُه النّهي عن مجالَسَةِ الكافرين والقعود معهم، إذَا أخذوا يَخُوضُون بألسنتهم في الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، ونفهم أنّ مجالستَهم والسُّكُوتَ على طعنهم في آيات الله هو مظْهَرٌ من مظاهر موالاتهم، من إيراد هذا البيان بعد قوله تعالى في وصف المنافقين:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ ﴾.

وهو أيضاً يُشير إلى ما يُمارِسُه المنافقون من مُجالَسةِ اليهود في المدينة، والسّكوتِ على ما يكون منهم من طَعْنٍ في دينِ الله، وآياته المنزّلات، وما يمارسه بعض المنافقين من لقاءاتٍ لبعضِ المشركين من أهل مكة، في أسفار هؤلاء أو هؤلاء، وما يَسْمَعُونه منهم من طعن في آيات الله وكفر واستهزاءٍ بها، وهم يسْكُتون فلا يُفارقون مجالسهم، ولا يقومون بما يجب عليهم من دفاعٍ عن آيات ربّهم.

وقد سبق ذكر النصّ الذي كان أُنْزِل في العهد المكيّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للرّسول ولكلّ مسلمٍ مؤمنٍ من بَعْدِهِ:

﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٦٩ ﴾.

ويُمكن أن يُقاس على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها كلُّ طعن في الدّين ومظهرٍ من مظاهر الكفر، إذ هو إمّا من قبيل المشاركة الصامتة، على طريقة الشيطان الأخرس، أو من قبيل موالاة الأشخاص والسُّكوت عن جرائمهم.

وتحمل مجالسة عصاة المسلمين في حال ارتكابهم لمعاصيهم، دون موعظتهم أو مفارقتهم قدراً من الإثم يتلاءَمُ مع نسبة المعصية وحَجْمِها في حكم الإسلام.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ ... ﴾:

أي: إذا جالستموهم وقعدْتم معهم وهم يخوضون في آيات اللّهِ كُفراً واسْتِهْزاءً بها فإنكم تكُونُونَ في تلْك الحالة مثْلَهُمْ في ارتكاب الإثْمِ العظيم.

ولَيْسَ معنى هذا أنَّكُمْ تكونون كافِرِينَ دَوَاماً، إلاّ إذا كان الْمجَالِسُ لهم من أهل

النفاق، فإنّه حينئذٍ يكون من أهْلِ الكُفْرِ باطناً وظاهراً، إذا انْكَشفَ للمسلمين أمْرُهُ، أو إذا كان راضياً بما يقولون.

ومن العجيب ما رُوِيَ عن مقاتل بن حيّان كما ذكر ابْنُ كثير في تفسيره، وعن الكلبي كما ذكر الشوكاني في تفسيره أنَّ هٰذِهِ الجملة منسوخة بقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦):

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

وسبَبُ العجب أنّ هذا النَّصَّ من سورة (الأنعام) هو من أواسط التنزيل المكي، وأنّ النّصّ المدَّعَىٰ نَسْخُهُ من سورة (النساء) هو من الثلث الأول من التنزيل المدني، فكيف يستقيم أنْ يَنْسَخَ تنزيلٌ مكيٌّ تنزيلاً مَدَنيّاً، هذا آتٍ من عدم النظر في ترتيب النزول وعدم مراعاته.

إنّه لا نسخ هنا، وقوله تعالى:

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾:

نصٌّ مُحْكَمٌ بلا ريب.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

في هذا بيانُ عاقبةِ المنافقين الذين يجالسون الكافرين راضين بما يخوضون فيه من كُفْرٍ بآياتِ اللّهِ واستهزاءٍ بها، غير تاركين مجالسهم ولا منكرين عليهم، لأنّ هذه المجالسة بهذه الأوصاف هي من علامات النفاق.

والعقوبة هي أن يجمع الله بين المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً، يذوقون معاً عذابها، ويمسُّهم الحريق منها، نظير ما اجتمعوا في الدنيا على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، بعضهم لبعض أولياء، لكنهم في جهنم يجمعهم الله وهم يومئذٍ

بعضهم لبعض أعداء، فالأخلاّء يومئذٍ بعضُهُمْ لبعض عدوٌّ إلاّ المتقين.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿١٤١﴾﴾.

في هذا بيان وصْفٍ آخر من أوصاف المنافقين، وهو الانتظار والتربُّص اليقظ، وَتَرَقُّبُ ما يجدُّ من نتائج الأحداث بين المؤمنين والكافرين، طلباً للسلامة والمغنم، من هؤلاء أو هؤلاء.

أمّا نتائج الأحداث فتَتَرَدَّدُ بين احتمالين:

الأول: أن ينصُرَ الله المؤمنين على الكافرين، وفي هذه الحالة يسارع المنافقون دون إبطاء للمشاركة في الغنائم، قائلين لجماعة المؤمنين: أَلَمْ نكُنْ معكُمْ في الموقعة؟ استفهام تقريري، والمؤمنون لا بدّ أن يُجيبوهم بحسب ما رَأَوْا من ظاهر شُهُودِهم الموقعة معهم، فيقولوا لهم: بلى.

عندئذٍ يُطالِبُ المنافقون بأن يُقْسَم لهم من الغنائم كما يُقْسَمُ لسائر المؤمنين المقاتلين المجاهدين في سبيل الله بصدْقٍ، ويُخْفِي المنافقون ما كانوا عليهم من خَذْلٍ في الحقيقة، وتظاهُرٍ كاذبٍ بالمشاركة في القتال، فقال الله تعالى خطاباً للمؤمنين بشأن المنافقين:

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ... ﴿١٤١﴾﴾؟.

الثاني: أن يكون للكافرين نَصِيبٌ ممّا كَسَبُوا بأسْبَابهم، ضِمْنَ سُنّةِ الله عزّ وجلّ، في رِحْلَةِ الابتلاء، وبمقتضى حِكْمَتِه التربويّة، أو الجزائيّة، أو الاسْتِدْراجيّة والإمهالية، كما حصل لهم في معركة أُحُدٍ ثانياً، وفي معركة حُنَيْن أوّلاً.

وفي هذه الحالة يسارع المنافقون دون إبْطاء قائلين لجماعة الكافرين: أَلَمْ نكُنْ مُحْتَوِينَ عليكم احتواء حمايةٍ وحفظٍ ومُدَافعة، بِعَدَمِ مُقَاتلتكم في المعركة، وبالعمل على إضعاف صفوف المؤمنين، وإيجاد التخلخل فيها، مع حركات الإفساد والتثبيط.

ولِعِلْم الكافرين بحقيقة حالهم في المعركة وقبلها لا بُدَّ أن يقولوا لهم: بلى.

عندئذٍ يكون لدى المنافقين الجرأةُ الكافية لمطالبة الكافرين بتعويض ما فعلوا من أجلهم داخل صفوف المؤمنين.

فقال الله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

اقتصر النصّ على إيراد التساؤل في الحالَيْن، لأنّه يدلُّ لزوماً على ما يُرِيدُونَ من ورائه من منافع ومكاسب.

ويُلاحظُ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ جَعَلَ مَا يُصيبُه المؤمِنُونَ في المعارِك من عـدُوِّهم فتحاً منه، أمّا ما يُصِيبه الكـافرون من جمـاعة المؤمنين، فهـو نصيب، أي: حظٌّ من حظوظِ الدّنيا، مكّنَهُمُ اللّهُ من الحصول عليه بأسبابهم التي اتَّخذُوها، وطاقاتهم التي بذلوهـا، ضمن مجاري سُنَّتِه في الحياة الدنيا لعباده جميعاً.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

تعقيباً علىٰ حالة التربُّص الّتي تكونُ من المنافقين، ومـا يحدُثُ بعـدها من نصْـرٍ من الله للمؤمنين، أو نَصِيبٍ يحصُـلُ للكافـرين، اقتضىٰ البيان أن يشتمـل على إيضاح قضيَّتَيْن:

القضيـة الأولى: عـاقبـة هؤلاء وهؤلاء يـوم القيـامـة، وقـد دلّ عليهـا قـول الله عزّ وجل:

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ... ﴿١٤١﴾﴾.

هذه الجملة على إيجازها ذاتُ لوازم فكـريَّة تَشْمَـلُ البعث، والحساب، وفصـلَ القضاء، والجزاء في جنات النعيم، أو في جهنم دارِ العذاب الأليم.

القضيـة الثانيـة: حالـةُ هؤلاء وهؤلاء في ظروف الحيـاة الدنيـا، وقـد دلّ عليهـا

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾.

ولكنْ كيف نفهم هذا الوعد الرّبّانيّ المقطوع به؟

أمّا الانتصارات الوقتيّة في بعض المعارك فَهذهِ لا تتنافَى حَتْماً مع الوعد الرّبّاني، لأنّها خاضعة لسُنَن الأسباب والمسبّبات، وظروف الابتلاء والتربية والجزاء في الحياة الدنيا، وقد وُجد شيءٌ منها في حياة الرسول ﷺ، وهو القائد لأمته، وأصحابه خيرة الأمّة.

وأمّا الانتصارات الحاسمة والغلبة الدّائمة واستباحة بيضة المسلمين العامّة فهي التي تتنافَى مع الوعد الرّبّاني.

ولكِنْ مَنْ هُمُ الموعُودون بهذا الوعد الرّبّاني؟

هل هم المسلمون الّذين هم غُثَاءٌ كغُثاء السيل، ليس لديهم من حقيقة الإسلام عقيدةً وتطبيقاً إلاّ الاسمُ والانتماءُ إليه؟

هل هُمُ الكثرة المنافقون الموالون لأعداء الإسلام؟

هل هُمُ الّذين حرّفوا مفهومات الإسلام وبدّلوا فيها؟

وهؤلاء جميعاً ليسوا بمؤمنين حقّاً، حتّىٰ يستحِقُّوا تطبيقَ الوعد الرّباني بصفتهم الجماعيّة.

بقي أنّ الّذِينَ يَسْتَحِقُّون هذا الوعْد هُم الأُمّةُ ذاتُ الأكثريّة المؤمنة المسلمة، العامِلُون بوجه عامّ بمقتضى إيمانهم، في أفرادهم، وفي مجتمعهم، وفي دولتهم، هؤلاء هُمُ الذين ينطبق عليهم الوعد الرّبّانيّ، فلَنْ يَجْعَلَ الله للكافرين عليهم سبيلاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها، بمعنى أن اللّهَ عزّ وجلّ لا يُمَكِّنُ الكافرين من استخدام السُّبُل المهيَّأةِ في الحياة الدنيا للناس، على وجهٍ يستطيعون به التَّغلُّب الدائم على المؤمنين، والسيطرةَ عليهم سيطرةً مستمرّة، بل يساعِدُ المؤمنين إذا عملوا بما أمرَهُمُ الله به من إعداد المستطاع من القوة، حتى يتفوَّقُوا بأسبابهم على أعدائهم،

ويكونوا هم المنصورين الغالبين، وقد كان هذا مستمّراً في قرونٍ عديدةٍ من الدهر، حتى كثر فيهم الملاحدة والمنافقون والفجرة.

ويستحقّ عمومِ المؤمنين ولو لم يحقّقوا في أنفسهم مقتضيات الإيمان على الوجه المطلوب، أن لا يستبيح عدُوُّهم بَيْضَتَهُمْ وَيَسْتأْصِلَ شأفَتَهُمْ ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطار الأرض من الكافرين، كما جاء في بيان الرسول ﷺ.

روى مسلم عن ثوبان، قالَ: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللّهَ زَوَى لِي الأرْضَ[١]، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْها، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ والأَبْيَضَ، وَإنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وأنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ[٢]، وإنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإنَّهُ لاَ يُرَدُّ، وَإنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً».

وهذا الوعد بالنسبة إلى عموم أمّة محمّد مع معاصيهم وانحرافاتهم مُتحقق دواماً.

وأخيراً تَسْتَحِقُّ من عموم هذا الوعد طائفةٌ من المؤمنين أن يظَلُّوا ظاهرين على الحقّ يعملون به، لا يَضُرُّهم من خالَفَهُمْ، حتَّىٰ يَأْتِي أَمْرُ اللّهِ.

روى البخاريّ ومسلم والإمام أحمد، عن معاوية، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللّهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاسِ».

وروى مسلم وغيره عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) زَوَىٰ: أي: قبض وجمع، يقال لغة: زَوَاهُ يَزْوِيه زَيّاً إذا قبضه وجمعه.

(٢) بيضةُ الشيء: أصله، وبيضةُ القوم: حَوْزَتُهُمْ وجماعتهم وساحَتُهُمْ.

«لا تَزالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ، وهُمْ كَذٰلِكَ».

وهذا أمر مشاهد في تاريخ المسلمين دواماً، والمرادُ من الظهور ظهورُ حجتهم واعتزازُهُمْ بإسلامهم وإعلانُهم له.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ . . . ﴿١٤٣﴾﴾.

في هذا بيان خَمْسِ صفاتٍ من صفات المنافقين السلوكيّة.

الصفة الأولى: أنّهم يُخادعون الله، أي: يُخادِعُون المؤمنين الذين هم أولياء الله، ظانّين أنّ خداعهم تنطلي عليهم، لكنّ الله عزّ وجلّ الذي هو وليّ المؤمنين، يُساعد المؤمنين شديدي الحذر العاملين بمقتضىٰ إيمانهم، ومنه اتّخاذ الأسباب على ما ينبغي، ضِمْنَ أنظمة وقوانين الأسباب والمسبّبات الكونية، فيكْشِفُ الله لهم خدائع المنافقين، ويحميهم من تأثيراتها، فيرتدّ كيد المنافقين إلى نحورهم، وبذلك يكونُ الله عزّ وجلّ هو خادعهم، أي: رادّ خدائعهم عليهم، دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ . . . ﴿١٤٢﴾﴾.

الصفة الثانية: أنّهُمْ إذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كُسالَىٰ، وذلك لأنّهم غير مؤمنين باطناً، فهم لا يؤمنون بجدوىٰ الصلاة، وإنّما يُؤدُّونها بحضور المؤمنين ستراً لنفاقهم، ومعلوم أنّ من يَعْمَلُ عملاً ما وهو غير مؤمن بجَدْواهُ لنفسه فإنّما يؤدّيه بتَثاقُلٍ وكَسَلٍ وفُتُور، ولا يُمارسُهُ بنشاطٍ وهمّة ورغبة. دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ . . . ﴿١٤٢﴾﴾.

الصفة الثالثة: أنّهُمْ يُراءُون النّاسَ في أعمالهم الدّينية المختلفة، ومنها الصلاة، أي: فإذا خلَوا إلى أنفسهم لم يُؤدُّوا هذه الأعمال، لأنّ أصل غرضهم من أدائها أنْ

يُظْهِروا لِجَماعة المؤمنين المسلمين، أنّهم منهم إيماناً وإسلاماً، وأنّهم صادقون في إسلامهم غير كاذبين.

دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

الصفة الرابعة: أنَّهُم لا يَذْكُرُونَ اللّهَ إلاّ قَلِيلاً، وقد سبَقَ بيانُ سبَبِ ذكرِهِمُ اللّهَ قليلاً إذا كَانُوا منْ قسم المنافقين المترَدِّدِينَ، الَّذِينَ لَمْ يَسْتَقِرُّوا بَعْدُ في الكُفْرِ دواماً في داخلهم.

أمّا المنافقون الذين استقروا في الكُفْر دواماً وانْتَهَتْ لديهم حالة الترَدُّد، أو كانوا مستقرّين في الكُفرِ مُنْذُ البداية، فإنّ ذكْرَهُمُ القليل لله هو من قبيل ذكر المشركين وسائر الكافرين الصرحاء، الذين يؤمنون بربوبيّة الله، لكنَّهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ بِإِلَهيّته، ولا يؤمنون برسوله، ولا بما أنزل عليه، وإن ذكروا الله فإنّهم يذكرونه لدنياهم لا لآخرتهم، دل على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الصفة الخامسة: أنَّهُمْ مُذَبْذَبُونَ يتأرجحون بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ والكافرين في ولائهم، وفي سلوكهم، فلا هم متمونَ حقيقة إلَىٰ هؤلاء المؤمنين الواقفين في أقصىٰ جهَةِ اليمين، ولا هم متمون إلى هؤلاء الكافرين الواقفين في أقصىٰ جهة الشمال، ويظلّون في حياتهم هكذا قلقين لا ثبات لهم، يتذبْذَبُونَ على أُرْجوحةِ التنقُّل بين الأضداد، دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ... ﴿١٤٣﴾﴾.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

في هذا تهديدٌ للمنافقين بأنّ الله عزّ وجلّ سيحكم عليهم بالضلال، وسيجازيهم على ضلالهم بما يستحقّون بمقتضىٰ قانون العدل، ومن يحكم اللّهُ عليه بالضلال

فليس له بعد الله من يحكُمُ لـه بالهـداية، أي: ليس لـه من يُنجيه من عـذاب الله على ضلاله، وليس له من يتّخذ لـه سبيلاً مـا يجعله من أهل دار النعيم، أو من النـاجين من عذاب الجحيم، بفِدْيةٍ أو شفاعة أو غير ذلك.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾.

بمناسبة بيـانِ أنّ مِنْ صفاتِ المنـافقين أنّهُم يتّخِذُونَ الكـافـرينَ أوليـاءَ مِنْ دون المؤمنين، وهـو ما جـاء في الآية (١٣٩) التي سبق تـدبُّرُ دلالاتهـا، وجّه الله عـزّ وجلّ للذين آمنوا النّهْيَ الخاصّ بصورةٍ مباشـرة أنْ لاَ يتّخِذَ أحـدٌ منهم الكافـرين أوْلياءَ من دون المؤمنين، وخـاطبهم بهذا النهي إشعـاراً بخطورة المنهيّ عنه، وأنّـه ليس مجـرّد وصفٍ يتّصفُ به المنافقون مِنْ جملة ما يتصفون به، بل هو من الكبائر التي يُحـذِّر اللّهُ الّذين آمنوا منها تحذيراً مشدّداً، فقال الله تعالى في هذا الخطاب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾.

وأبَانَ اللّهُ عزّ وجلّ بعد هـذا النهي الجازم الحـازم أن الذين يتّخـذون الكافـرين أولياء من دون المؤمنين يرتكبون من كبائر الإثم ما يجعلُونَ به للّهِ عليهم سلطاناً مبينـاً، أيْ: حجّةً واضحة جليّةً لا شبهةَ فيهـا وهي تَقْتَضي أن يرفـع عنهم ولايته، ويُنـزِل بهم عقوبته.

وجـاء هذا البيـان بـأسلوب الاستفهـام التحـذيـري قبـل ارتكـاب المنهيّ عنـه، والإنكاريّ بعد ارتكاب المنهيّ عنه، فقال الله تعالى:

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾.

السلطان المبينُ هنا: هو الحجّةُ الواضحـة الجليّة التي لا شبهـة فيها تجعـلُ لهم عُذْراً ما.

ومعلومٌ أنّ المؤمن الصـادق الإيمـان لا يُـريـد أن يـرتكب من الإثم العـظيم

ما يكون لله به عليه سُلْطانٌ مبين، يقتضي تعرّضه لعقاب الله، ورفع ولايته عنه.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

بعد الحديث عن المنافقين المذبذبين، وبيانِ طائفة من صفات عموم المنافقين، أبان الله عاقبتهم يوم الدّين، باستثناء التائبين منهم الذين تابُوا توبةً نصوحاً، وتخلّصوا من كلّ عناصر النفاق التي كانت تنزع فيهم لارتكاب الآثام الكبرىٰ الّتي هي مظاهر سلوكيّة لا تجتمع غالباً إلّا في المنافقين.

أمّا عاقبة المنافقين الذين يموتون وهم منافقون فهي أنّهم يكونون يوم الدين بعد الحساب وفصل القضاء في الطبقة السُّفْلىٰ من طبقات دار العذاب النار، يذوقون فيها عذاباً خالداً.

ودلّ على هذه العاقبة قولُ الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

فهم يوم الدين في الدَّرْكِ الأسْفَل من النار، أي: في الطبقة السُّفلى من طبقاتها، وتدلّ قراءة «في الدَّرَكِ» إذا قلنا: إنّها جمع «دَرَكة» على تفاوت منازل المنافقين في الطبقة السفلى من النار، تبعاً لتفاوت شرورهم في نفاقهم.

ولتَيْئيسِهِم من النّجاة خاطبَ الله عزّ وجلّ كلّ من يستمع هذا الخطاب أو يَتْلُوه من الذين يَصْلُحُون للخطاب ويكونون خالدين يوم الدّين فقال تعالى له:

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾:

أي: ولن تجد أيُّها المخاطَبُ أيّاً كُنْتَ للمنافقين نصيراً ينصُرُهُمْ فيرفع عنهم عذاب الله، أو يحميهم منه يوم الدين.

ولم يخاطب الله المنافقين بهذا الخطاب للإشعار بأنهم وصلوا إلى حالةٍ من

الإصرار والعناد لا ينفعهم معها الاهتمام بتوجيه الخطاب لهم، إذ استوى لديهم الإنذار وعدمُه، مع ما في عدم توجيه الخطاب لهم من الإعراض عنهم إعراضَ مَقْتٍ وغضب.

واستثنى الله من عموم هؤلاء المنافقين الّذِين تابوا توبةً نَصُوحاً، وقد أبان الله عناصر هذه التوبة الصادقة النّصوح:

العنصر الأول: أن يتوب المنافق إلى اللّهِ من نفاقه، وذلك بأن يرجع إلى الله معلناً رجعته إلى الإيمان الصحيح الصادق، نادماً على ما كان منه.

العنصر الثاني: أن يُمارِسَ العملَ الصالح الذي يقتضيه الإيمان الصحيح الصادق، من ظاهر السلوك وباطنه، وأن يُصْلِح من نفسه وسُلوكه ما كان أفسدَهُ النفاق السابق، وأن يُصْلِح من آثار سلوكه ما يستطيع إصلاحه منه.

العنصر الثالث: أن يصرف عن نفسه تصوُّرات الاعتزاز بالكافرين، وأن يعتصم بالله يَبْتَغِي العزّة والقوّة والْمَنَعَةَ لَديه، منضمّاً إلى جماعة المؤمنين المسلمين الصادقين.

العنصر الرابع: أن يجعلَ أعْمَالَهُ الدِّينيّةَ التي يَقُوم بها خالصةً لله عزّ وجلّ، لا يبتغي منها مُرَاءاةَ النّاس، أو مغانم الدنيا ومنافِعَهُ مِنْها.

دلّ على هذه العناصر قولُ الله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

وهنا يرد سؤال: هل استثناء هؤلاء التائبين يُخرجُهُمْ من أن يكونوا في الدرك الأسفل من النار فقط، أم يجعلهم مع جماعة المؤمنين، تجري فيهم أحكام المؤمنين، ويُجَازَوْنَ جزاء المؤمنين في جنّاتِ النعيم؟

لقد أجاب الله على هذا التساؤل بقوله تعالى:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

ونلاحظ في هذا أنّ كون هؤلاء التائبين مع المؤمنين لا يقتصر على الأحكام

الدنيوية، بل سوف تجري عليهم يوم الدين أحكام المؤمنين الأخرويّة بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ المؤمنين أَجْراً عظيماً﴾

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

صدِّرت هذه الآية باستفهام يُراد منه النفي، إذْ هو موجّه لانتزاع الجواب من المخاطبين بالنفي، أي: لا يَفْعَلُ الله بعذاب المعذّبين من عباده شيئاً لنفسه عزّ وجلّ، فهو لا يَجْلُبُ به لنفسه نفعاً، ولا يدفع به عن نفسه ضرّاً، لكنّ قانون العدل العامّ لا بُدَّ أن يتحقّق، هذه الحقيقة هي من بَدَهِيّات قواعد الإيمان في الدين الذي اصطفاه الله للناس، وقد جاء شرحها في الحديث القدسي الصحيح عن رسول الله ﷺ:

روى الإمام مسلم، عن أبي ذرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنادة، عن النبيّ ﷺ، فيما يروي عن الله تبارَكَ وَتَعَالَى أنّه قال: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،

فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ»(١).

فلا طاعةُ العباد تنفع اللَّهَ شيئاً، ولا معصيتُهُمْ لـه تَضُرُّهُ شيئاً، وإنّما يُحْصِي الله أعمـال عباده في رحلة امتحـانهم في الحياة الـدنيا، ثُمَّ يُـوَفِّيهم الجـزاء عليهـا، ضِمْنَ قَانُونِ الْفَضْلِ، وقَانُونِ الْعَدْلِ، فمن وجـدَ من الجزاء خيـراً، فَلْيَحْمَدِ اللَّهُ عَلَىٰ فَضْله، ومَنْ وجَدَ من الجزاءِ غير ذلك، فـلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ، لأَنَّـهُ هُو الـذي جَنَىٰ على نفسه، باستخدامه قوانينَ الله، وسُنَنه الثابتة.

إنّ من أدخل يَدَهُ في النّار أَحْرَقَ الله له يَدَهُ، ضمن سنّته الدّائمـة، الشاملة لكـلّ عباده، ومَنْ كفر بالله، أوسَلَكَ سبيل النفاق، عاقبه الله ضِمْنَ سنّته الـدائمة، الشـامِلَةِ لكُلِّ عباده، ومن دَسَّ لَغماً موقوت التفجير ولـو بعد سنين عـديدة تحت صَـرْحِهِ، فَجَّـرَ اللَّهُ لَهُ لَغمَهُ في الوقت المحدّد فـدَمّر لـه صرحـه، ضمن سنّته الـدائمة، الشّاملة لكلّ عباده.

فمعنى قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ؟﴾.

بهذه الصيغة الاستفهامية التي يُقْصَدُ منها انتـزاع الجواب: لا يفْعـلُ الله بتعذيبـه لكم على آثامكم وجرائمكُمْ شيئاً لنفسه سبحانه، من جلب نفع أودفع ضرٍّ.

أي: وإنّمـا هي أعمالكم يحصيهـا الله لكُمْ ثُمَّ يُـوفِّيكُمْ إيّـاهـا، ضِمْنَ القـانـون العـامّ، فهو سبحـانه لا يفعـل شيئـاً لنفسـه بعـذابِكُمْ إن قـدّمتم من العمـل مـا يقتضي تعذيبكم.

أمّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

(١) عن «رياض الصالحين» للنووي، الباب الحادي عشر في المجاهدة الحديث رقم (١١١).

﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

فهـو شرط حُـذِفَ جوابـه، للعلم به، والمعنى: إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ آتـاكُمْ أجـراً عظيماً، ولا يَنْقُصُ ذلِكَ العطاءُ العظيم من مُلْكِه شيْئاً، ولا يزيـدُ شُكْرُكُم وإيمـانُكُمْ في مُلْكِه شيئاً.

وبعد هذا أبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ من صفاته أنَّهُ شـاكِرٌ عَليم. أمّـا صفةُ الشّكـر، فهي تناسب مكافأة عباده المؤمنين الشاكرين، وأمّـا صفة العلم، فهي تنـاسب قضية إحـاطته علماً بأعمـال عبـاده جميعـاً، من يستحقّ منهم الثـواب، ومن يستحقُّ منهم العقـاب، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض، فقال تعالى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾:

أي: إنَّـهُ شاكـرٌ عَليمٌ دواماً، وذكـرُ كونـه شاكِـراً عليماً يـومىء إلى صفة عـدله، بقرينة ما يفعلُ الله بعذَابِكُم؟

ويُلاحَظُ أنَّ الله عزّ وجل قَدَّمَ شُكْرَ عباده على إيمـانهم مع أنّ الشكـر أثرٌ سلوكي من آثار الإيمان، فقال تَعالى:

﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

وبالتفكّر يظهر لنا أنّه بدأ تعالى ببيان ما يَظْهَرُ للناس من سلوك، وأبان بعده شرط صحّة هذا السلوك وقبـوله عنـد الله، وهـو الإيمـان الـذي تنعقـد عليـه القلوب، فمن لم يصحّ إيمانه لم يكن لعمله الصالح ثمرةٌ عند الله.

● ● ●

النصّ التاسع عشر

وهو من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول)
ثامن سورة مدنية
الآيات من (١٢ ــ ١٥)
حول لقطات من مشاهد أحوال المنافقين يوم القيامة

قال الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ
آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ
الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ
وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ
مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

* * *

(١)
ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (١٣):

(١) قرأ جمهور القرّاء: [انْظُرُونَا] بضمّ الظاء ووصل الهمزة من «نَـظَرَهُ» بمعنى انتظره.

وقرأ حمزة فقط [أَنظِرُونا] بكَسْرِ الظاء من «أَنْظَرَهُ» بمعنى أَمْهَلَهُ، قال الزجاج: قيل: معنى «أَنْظِرُونا» انْتَظِرُونا أيضاً، ومنه قول عَمْرو بن كُلْثُوم:

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا ... وأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا

وقال الفراء: تقول العرب: أَنْظِرني، أي: انْتَظِرْني قليلاً، ويقولُ المتكلم لِمَنْ يُعْجِلُه: أَنْظِرْني أَبْتَلِعْ ريقي، أي: أمهلني.

فالقراءتان على هذا هما بمعنى: انتظِرُونا وتمهَّلُوا من أجْلِنا ولا تسْبقونا.

* في الآية (١٤):

(١) قرأ جمهور القرّاء [الأَمَانِيُّ] بتَشْديد الياء.

وقرأ أبو جعفر فقط بتخفيف الياء ساكنة.

والقراءتان وجهان عربيان لهذه الكلمة، فهما متكافئتان، وكلاهما جمع أُمنيّة، كما يُقال: في أُضحيّة أضاحٍ وأضاحيّ، وفي أُثفيّة أثافٍ وأثافيّ.

* في الآية (١٥):

(١) قرأ جمهور القرّاء [لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ] بالياء من يُؤْخَذ.

وقرأ ابنُ عامر وأبو جعفر ويعقوبُ [لَا تُؤْخَذُ] بالتاء.

والقراءتان وجهان عربيان لأن لفظ «فِدْيَة» مجازي التأنيث، فيجوز في الفعل المسند إليها التذكير والتأنيث.

* * *

(٢)

موضوع النص ودلالاته بوجه عامّ

يقدّم هذا النصّ لقطات من مشاهد أحوال المنافقين يوم القيامة، مقابل بيان لقطات من مشاهد أحوال المؤمنين.

هذه اللّقطات تصوّر معاملة المنافقين يوم الحشر بمثل ما كان منهم في الدنيا، إذْ كانوا بين صفوف المؤمنين، ينتمون إليهم ظاهراً، ويعملون بمثل أعمالهم الظاهرة،

لكنّهم كانوا منخذلين عَنْهُمْ سرًّا، ومتّجهين لغير اتّجاههم، وسالكين غير سبيلهم باطناً، وكانوا لا يملكون نور الإيمان الصادق والإسلام الصحيح، بخلاف أحوال المؤمنين، فقد كان لكلٍّ منهم من النور بمقدار قوّة إيمانه والتزامه بشرائع الإسلام وتطبيقاته.

ففي يوم القيامة يتعرّض أهل المحشر لظلمة شديدة لا يرون فيها مسيرهم الذي يُقادُون أو يساقون فيه إلى موقف حسابهم، ثمّ إلى مصائرهم، باستثناء المؤمنين، فإن الله عزّ وجلّ يَهَبُهُم نوراً يوجّهونه بأيمانهم، وهذا النور يَسْعَىٰ بين أيديهم في مسالكهم مع سعيهم في مسيرهم، نظير النور الكهربائيّ الذي يوجّهه راكب السيّارة في اللّيل، إذْ يكشف له الطريق أمامه، وعلى مقدار سرعة سيّارته يَسْعَىٰ نوره بين يديه كاشفاً له طريقه.

أمّا المنافقون فيُحشرون أوّل الأمر مع المؤمنين، باعتبار أنّهم كانوا في الدنيا معهم بحسب الظاهر.

ثمّ يُؤمر المؤمنون بأنْ يتوجّهوا لموقف حسابهم، فيتوجّهون ساعين، ويُسْرِعُ كلٌّ منهم على مقدار ما كان يَمْلِكُ من قوّة إيمان، وكثرة زادٍ من العمل الصالح، ويجعل الله لهم نوراً يمشون فيه، وهذا النور يَسْعَىٰ بين أيديهم، ويملكون بَثَّهُ وتوجيهه بأيمانهم، ويقالُ لهم لتطمئن قلوبهم ونفوسهم:

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

ولمّا كان المنافقون محرومين من الإيمان ومن زاد العمل الصالح فإنّهم لا يملكون القدرة على السّعْيِ السّريع في اتجاه موقف حساب المؤمنين، ولا يملكون بأيمانهم نوراً يبثُّونه ليسْعَىٰ بين أيديهم، فهم في بداية المسيرة يستفيدون من نور المؤمنين، فيمشون وراءهم قليلاً، ثمّ ينقطعون عجزاً عن المتابعة، ويسبقهم المؤمنون، وتسبقهم معهم أنوارُهم، حتى من كان لديه منهم من النور ما يكشف له بين يديه موطىء قدمه.

عندئذٍ يقول المنافقون والمنافقات لمعارفهم من المؤمنين، انتظرونا وتمهّلوا قليلاً من أجلنا، لنستفيد من نوركم، ونسير معكم في سُبُلكُمْ، فلا يستجيب لهم المؤمنون، لأنه لا يُسْمَحُ لهم بذلك.

ويُقال للمنافقين والمنافقات:

﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾:

أي: فليست هـذه الجهة جهةَ مَسِيركم، إنها جهة المؤمنين، وليست جهة الكافرين ولا المنافقين.

ويقال لهم أيضاً:

﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ﴾:

أي: الْتَمِسُوا نوراً بأنفسكم ممّا قدَّمْتُمْ من كسب في دنياكم، إنْ كنتُم قادرين على التماس نور، فليس لكافر ولا لمنافق يوم الدين أن يكونَ كَلّاً على مُؤْمنٍ في إيمان أو عمل صالح، أو آثار ذلك وثمراته.

هذا القول يقال لهم من قِبَلِ الموكَّلين من الملائكة بقيادة الناس أو سوقهم في يوم الحشر، أو هو قول يخلقه الله جواباً لهم، فهم يسمعونه ولا يرون مصدره.

حينئذٍ يقيم الله عزّ وجلّ بين المؤمنين والمنافقين سوراً يحجبُ المنافقين عن متابعة السَّيْر في جهة مَسِير المؤمنين، ويجعل الله لهذا السور باباً، يدخل منه بقايا المؤمنين المقصِّرين في السير، الذين ليس لهم من القوّة الإيمانية، ولا من النور ما يجعلهم من السابقين، لكنْ لديهم قليل من ذلك، فيقف الحرّاس على الباب، ويسمحون لهم بالدخول منه بحسب مراتبهم ودرجاتهم في الإيمان والعمل الصالح، حتى يدخُلَ أضعَفُهم إيماناً، وأفقرهم نوراً، وعندئذٍ يُقْفَلُ الباب على المنافقين، ويُحْجَزُونَ، ويُصْرَفُونَ إلى جهة الكافرين، فيكونون معهم، لأنّهم كانوا مع الكافرين في الدنيا باطناً.

وهذا السور له باطنٌ حسَنٌ جميل، وهو ما هو منه إلى جهة المؤمنين، وله ظاهر مخيف موحش، وهو ما كان منه إلى جهة المنافقين، ففي جهة باطن السّور تتنزّل رحمات الله على المؤمنين بما يُسْعدُهم ويفرحهم ويطمئن قلوبهم ونفوسهم. أمّا ظاهر السّور فيأتي مِن قِبَلِه أنواع من العذاب للمنافقين، وبذلك يشتدّ عليهم الموقف حتّى يحاسَبوا ويُساقُوا إلى دار العذاب.

حينئذٍ لا يبقى أمام المنافقين إلّا وسيلة نداء المؤمنين، فينادونهم:

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

يريد المنافقون أن يشهد لهم المؤمنون لدى ربّهم أنّهم كانوا معهم في الدنيا، فمن حقّهم أن يكونوا معهم في الآخرة.

فيُجيبُهم المؤمنون قائلين: ﴿بَلَىٰ﴾:

أي: لقد كُنْتم معنا في الظاهر.

وأتبعوا هذه الإجابة بما يدُلُّ على أنّهم لم يكونوا معهم في الباطن، أي: فليس من حقهم أن يكونوا معهم في باطن السور، ولا أن يكونوا بعد ذلك معهم في الجنّة.

فذكروا بالتفصيل أموراً خمسةً دالّةً على أنّهم لم يكونوا مع المؤمنين في الباطن، وهي ما يلي:

الأمر الأول: أنّهم فتنوا أنفسهم، أي: أضلّوا أنفسهم وعرّضوها لعقاب الله ونقمته، باختيار الكفر باطناً، ومخادعة المؤمنين ظاهراً، واتّخاذ وجهين متناقضين.

الأمر الثاني: أنّهم تَرَبّصُوا أنْ تدور الدائرة على المؤمنين فَيَنْقَضُّوا عليهم مع الكافرين.

الأمر الثالث: أنّهم ارتابوا في الحقّ الذي جاءهم من عند ربّهم على لسان رسوله، مع أنّه لم يكن لهم عُـذْرٌ في أن يرتابوا فيه، لوضوحه، وقوّة أدلّته وبراهينه الدامغة.

الأمر الرابع: أنّهم غرَّتْهُمُ الأمانيّ الّتي كانوا يُمَنُّون بها أنفسهم، وكان شياطين الإنس من اليهود والمشركين وغيرهم من الكافرين يُمَنُّونهم بها، واستمرّت تغُرُّهم هذه الأمانيّ حتى جاءتهم مناياهم وماتوا على كفرهم ونفاقهم دون توبة.

الأمر الخامس: أنّهم غرَّهُم بالله الْغَرُورُ، وهو الشيطان، بما كان يوسوس لهم من أفكار وضلالات، كالتشكيك في البعث والحساب وعذاب الآخرة، والتشكيك في الرسول والقرآن، وكتزيين أنواع الشرك والكفريات التي كانوا يعتقدونها، إلى غير ذلك من زيوف.

بعد هذا البيان التفصيلي يقال للمنافقين: فاليومَ لا يؤخذ منكُمْ فديةٌ ما عمّا قدّمتم ولا من الذين كفروا، ولا بُدَّ أن تُلاقوا جزاءكم بالعدل، ومأواكم الذي ستأوون إليه النار، هي الّتي ستتولّىٰ أمور عذابكم عن طريق خزنتها من الملائكة الغلاظ الشداد، وهي المصير الذي ستصيرون إليه، وبِئْسَ المصير هي.

* * *

(٣)
المفردات اللُّغوية في النّصّ

﴿ بُشْرَىٰكُمُ ﴾:

أي: ما تُبَشَّرُونَ به، الْبُشْرَىٰ: اسم يُطْلَق على الشيء السّارّ المفرِح الذي يأتي به الخبرُ أو العلم.

﴿ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾:

الفوز: الظفر، والنجاة من الشرّ، والربح.

﴿ ٱنظُرُونَا ﴾:

أي: انتظِرُونا، يقالُ: نَظَرَهُ بِمَعْنَىٰ انتظَرَهُ.

﴿ ٱنظُرُونَا ﴾:

أي: أَمْهِلُونا بالانْتظار، أو انتظرونا.

﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾:

أي: نستَفِدْ من نُوركم، يُقالُ: اقتبَسَ فلانٌ من فُلانٍ نوراً أو علماً، إذا استفاده منه.

﴿ فَٱلْتَمِسُواْ ﴾:

أي: فاطْلُبُوا نوراً، وابحثوا عن نور بأنفسكم ولا يسمح لكم أن تستفيدوا من نور غيركم.

﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾:

ضَرْبُ السّور إقامتُه وإنْشاؤه وإحداثه، يقول العربيّ: ضربتُ بيتاً إذا نصبه وأقامه أو بَناه، وأطلق على إنشاء الأبنية فعل الضرب، لأنّ عمل الضرب باليد أو بالأدوات من أهمّ أعمال إنشائها. والسُّور: كلُّ ما يحيط بشيء من بناء أو غيره.

وعُدِّي فعل «ضُرِبَ» بحرف الجرّ «الباء» لأنّه ضُمّن معنى فعل «يحجز» أو «يفصل» فالمعنى: فَضُرِبَ بيْنهم حاجزٌ أو فاصل بسورٍ يفصل بين المؤمنين والمنافقين.

﴿ مِن قِبَلِهِ ﴾:

أي: من جهته، قِبَلُ الشيءِ: جِهَتُه وناحيتُه.

﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾:

أي: اضْلَلْتُمْ أنْفُسَكُمْ وَعَرَّضْتُموها لعذاب الله ونقمته، وهذا فيما أرى أولَى المعاني بالاعتبار هنا من معاني الفتنة.

﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾:

التَّرَبُّصُ الانتظار، يُقَال لغة: تربَّصَ فُلانٌ بِفُلانٍ، أي: انتظر شرّاً أو خيراً يحلّ به.

﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾:

أي: شكَكْتُم، يقال لغة: ارتاب في الأمر وارتاب به إذا شكَّ فيه. وارتابَ به إذا اتّهمهُ بأمرٍ مستنكر، ككذب أو سرقة أو خيانة ونحو ذلك.

﴿ وَغَرَّتْكُمُ ﴾:

أي: خَدَعَتْكُمْ وأطمعتكُمْ بالباطل.

﴿ الْأَمَانِيُّ ﴾:

جمع «الأُمْنِيَّة» وهي ما يتمنَّى الإنسان حصوله مما هو بعيد المنال.

﴿ الْغَرُورُ ﴾: كلُّ خدّاعٍ يُطمع بالباطل، وصيغة «غَرُور» من صيغ المبالغة، أي:

شديد الخدع عظيم الحيلة، ويطلق غالباً هذا اللفظ على الشيطان، ومن كان مثله في التغرير والمخادعة للإضلال.

﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾:

الْفِدْيَةُ ما يُقَدَّمُ من مالٍ أو غيره لإنقاذ مُسْتَحِقّ العقاب، وتخليصه من تَبِعَةِ ما جَنَى.

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾:

أي: مَنْزِلُكُمْ الذي تَأْوُونَ إليه النار، يقال: أَوَى إلى المكان إذا نزل فيه، فهو مأواهُ.

﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾:

من معاني «الْمَوْلَىٰ» من يتولّى أمر من هو مشرف عليه، وهذا المعنى هو أَلْيَق معاني هذه الكلمة هنا. فالنار عن طريق خزنتها من الملائكة، هي التي تتولّى أمور تعذيب المنافقين يوم الدين.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

بِئْسَ: فعل جامد لإنشاء الذّم، وهو منقولٌ للدّلالة على معنى الذّم من «بَئِسَ» إذا أصابَ بُؤْساً، ضِدّ «نَعِمَ».

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: اسم المكان الذي سيصيرون إليه، أو مصدر ميمي من «صار».

والمعنى: وبِئْسَ المصير النار التي سيصيرون إليها.

يقال لغة: صار إلى كذا بمعنى انتقل إليه، أو تحوّل إليه، أو انتهى إليه.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ :

أي : يا مَنْ تصلحُ للخطاب ضَعْ في ذاكرتِكَ مشْهداً من مشاهد يَوْم القيامة، فاذْكُرْ من حينٍ لآخر يوْمَ تَرَى إذْ تَقُومُ القيامة، ويُحْشَرُ الناس للحساب وفصل القضاء، المؤمنينَ والمؤمناتِ محظوظين بميزة خاصّةٍ دون سائر أهل الحشر.

هذه الميزة هي أنّهم أصحابُ نورٍ يكْشِف لهم سُبُلَهُمْ في مَسِيرِهِمْ، فكُلٌ مِنْهُمْ لَهُ نورٌ خاصٌ بِهِ يَكْشِفُ لَهُ الْمَسِير الذي يَسِيرُ فيه عَبْرَ ظَلامٍ مُحيطٍ مُجَلِّل، ولا بُدَّ أن يكون نورُ كلِّ واحدٍ منهم على مقدار قُوّةِ إيمانِه في الدنيا، ومقدارِ زادِه من العمل الصالح.

هذا النّور الذي يكون لكلّ مؤمنٍ ومؤمنة نورٌ يَسْعَىٰ في سُبُلِ أرضِ الحشر أمامَ السّاعين فيها على مقادير سَعْيِهم شدّةً وضعفاً، فساعٍ منهم بسرعةٍ فائقة، ونورُه يَسْعَى بين يديه بمثل سُرْعته، وساعٍ منهم بسرعة دون ذلكَ، وتتنازلُ السّرعات حتى أدناها، ونورُ كلّ واحد منهم يسعى بين يديه على مقدار سرعته، وسرعتُه في سعيه يومئذٍ تناسب سَعْيَهُ في طاعة الله ومراضيه في الحياة الدنيا.

وهذا النور يملكون بثَّهُ وتوجيهه بأيْمانهم، كالمصابيح الكهربائيّة الّتي اكتشفها الناس لإنارة طرقاتهم في اللّيل، ذاتِ الأنواع المختلفة، فمنها ما يستعمله الناس في مركباتهم، ومنها ما يحمله المشاة بأيديهم.

فالنص على تقدير: اذْكُرْ يا من يصلحُ للخطاب ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ حالةَ كَوْنِهم ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ﴾ الخاصُّ بكلِّ واحدٍ منهم بحسب إيمانه وما قدّم من عمل صالح في مرضاة الله ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِم﴾ لِكَشْفِ طُرُقَاتِهم بحسب مقدار سعْيِ كلٍّ منهم، ودلّت الحاجة إلى النور على أنّ مُحِيطَ المكان محيطٌ مظلم لا نور فيه إلّا ما يكون ساعياً بين أيدي المؤمنين الساعين، ﴿وَ﴾ وسيلة بثّ هذا النور وتوجيهه تكون ﴿بِأَيْمَانِهِم﴾.

وضع في ذاكرتك أيضاً يا من تَصلُح للخطاب أنّ المؤمنين والمؤمنات لهم ميزةٌ أُخرى يميّزهم الله بها، دون سائر أهل المحشر يوم القيامة.

هذه الميزة الأخرى هي أنهم يُبشَّرون قبل الحساب وفصل القضاء بِبُشْرَىٰ، فيقال لهم:

﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ . . . ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ بُشْرَىٰكُمُ ﴾:

أي: الشيء السّارُّ المفرح الذي تبشّرون به، وهو مبتدأ.

﴿جَنَّٰتٌ﴾:

خبرٌ. إنَّها جَنَّةٌ عُظْمَىٰ مفصَّلة إلى جنّات.

ومن أوصافها أنّها تَجْري من تحتها الأنهار التي جاء في نصوص قرآنية أخرى وصفها، فمنها أنهار ماء غير آسن، ومنها أنهار لبن، ومنها أنهار عسَلٍ مُصَفّىٰ، ومنها أنهار خمْرٍ لا غولَ فيه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾:

أي: هي معدّةٌ لكُم، فإذا دخلتموها كُنْتُمْ خالدين فيها.

بعد عرض هذه اللّقطات من مشاهد يوم القيامة ممّا هو خاصٌّ بالمؤمنين والمؤمنات، أبان الله لنا على سبيل الترغيب في أن نكون من أهل الإيمان، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾:

أي: ذلك الثوابُ الرّفيعُ يوم الدين للمؤمنين والمؤمنات هو وحْدَهُ الفوز العظيم، الجامع للظفر بما هو فوق أمانيّ العباد ومحابّهم، وللربح العظيم على العمل القليل، وللنجاة ممّا هو معدٌّ للكافرين والمنافقين من عذاب أليم، وضمير (هو) ضمير فصل لتأكيد التخصيص.

ونلاحظ أنّ هذا النور الذي عرضته هذه الآية على أنّه خَبَرٌ عن مَشْهدٍ مقتَطَعٍ من مشاهد يوم القيامة، قد جاء بيانه في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) نفسها بأسلوب وعْدٍ من الله للمؤمنين من أهل الكتاب إذا اتقوا وآمنوا برسوله محمد ولا سيما

النصارى الذين اتّبَعُوا عيسَىٰ بصدقٍ، فقال تعالى فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٨﴾:

أي: يا أيها الذين آمَنُوا برسُل الله السابقين وبما جاؤوا به اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد ﷺ، يؤتكم كِفْلَيْن (أي: نَصِيبَيْن) من رحمته، مقابل إيمانكم أولاً برسلكم، ثم إيمانكم بمحمّد. ويجعل لكم نوراً من الهداية تَمْشُون به في الدنيا، ونوراً تمشونَ بـه يوم القيامة، ويغفر لكم، والله غفورٌ رحيم.

وجاء بيانه أيضاً في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نـزول) بأسلوب وعْـدٍ من الله لعصاة المؤمنين، فقال تعالى فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾.

نُلاحِظُ في هذه الآية أنَّ دُعَاءَ المؤمنين يوم القيامة ربَّهُمْ أن يُتِمَّ لَهُمْ نُورَهُمْ وَيَغْفِرَ لهم، يدُلُّ على أنَّ نور كلِّ واحد منهم نـورٌ ناقصٌ عن مـرتبة الكمـال التي يشاهـدونها لـلأنبياء والمـرسلين، ولا بُدّ أن يكـون ذلك بسبب مـا كان منهم من تقصيـرات وذنوبٍ ارتكبُوها وضعفٍ في الإيمان، فهم يسألـون الله أن يُتِمَّ لَهُمْ نُورَهُمْ ويغفرَ لهم، حتّىٰ يكونوا مع السابقين، ونفهم ذهناً بمقتضى قانـون العدل الربّاني أنَّ نقص النـور لكلِّ واحد منهم يعادل تقصيراته وما ارتكب في الحياة الدّنيا من سيّئات، وهذا يَشْهَدُ للتصوّر الذي أظهره تدبُّر الآيـة التي هي موضـوع البحث من سورة (الحـديد) كمـا سبَقَ البيان حولها.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ ﴾.

أي: وَضَعْ في ذاكرتِكَ أيضاً يا من تصلُح للخطاب مشهداً آخرَ من مشاهدِ يـوْم القيامة مـوصولاً بـالمشهد السـابق، فاذكـر من حينٍ لآخر، يـوم تَرَى إذْ تَقُـومُ القيامـة، ويُحْشَرُ النَّاسُ للحساب وفصْلِ القضاء، المنافقين والمنافقات، يَمْشُـون وراء المؤمنين والمؤمنات بتباطؤٍ وضَعْفٍ وعَجْزٍ، وهم يقولـون للّذين آمنوا انتـظِرُونا وتمهَّلُوا من أجْلِنا حتى نستفيد في مسيرنا خَلْفَكُمْ من نُورِكُمْ، في هذا الظلام الدامس.

ونستـطيع أنْ نـدركَ أنّ هذا إنّمـا يكون قبل الحساب وفصـل القضاء، إذْ يـزعم المنافقون والمنافقات أنّ خداعهم للمؤمنين ما زال سارياً تبعـاً لما كـانوا فيـه في الحياة الدنيا، أمّا بعد الحساب وفصل القضاء، فإنّ الحكم بشأنهم يكون قـد صَدَر، وعنـدئذٍ يُجْمَعُون مع الكافرين، وتنكشف سرائرهم للجميـع، فما يـذكره بعض المفسـرين ممّا يخالف هذا لا يستقيم، ومنه قول بعضهم: إنّ هذا يكون على الصراط.

دلَّ على هذه اللقطة من مشاهد يوم القيامة قول الله تعالى:

﴿ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾:

أي: اذكُـرْ يا مَنْ تَصلُح للخـطاب ﴿يَوۡمَ يَقُـولُ...﴾، فضَع هـذا في ذاكـرتـك ليكون واعظاً لك ومُنْذِراً، فتكون شديد الحذر من أن تَسْلُكَ مسالك النفاق والمنافقين.

ولمّا كان المنافقون والمنافقات على علم بـأنّ النور الـذي يستهدي بـه المؤمنون والمؤمنات إنما هـو نور إيمـانِ كلٍّ منهم ونـورُ عمله الصالـح في الحياة الـدنيا، فـإنّهم يقولون لهم:

﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾.

ولاَ يقولون لهم: نقتبس من النور الذي تستهْدُون به في ظلمـات المحشر، إنهم يعلمون أنه نُورُهُمْ المنبعث من كلٍّ منهم.

ودلّ المشهد على أن الذين آمنوا يَسْعَوْنَ، أي: يُسْرِعُون في السّير لأنّ نورَهُمْ يَسْعَى بيْن أيديهم، فسَعْيُ نورهم جاء كناية عن سعيهم، ولو كانوا مستقرين في أماكنهم لكان نورهم مستقرّاً معهم.

ودلّ المشهد على أن المنافقين والمنافقات يحاولون اللّحاق بالّذين آمنوا، استمراراً لما كانوا عليه من نفاقٍ في الحياة الدّنيا، ولكنّ الضعف والعجز الناجمين عمّا كانوا عليه من كفر في الباطن لا يمكّنانهم من مسايرة أضعف المؤمنين إيماناً وأقلّهم عملاً صالحاً.

ولا بدّ أن يكون هذا السّعي في اتّجاه موقف الحساب وفصْلِ القضاء الخاصّ بالمؤمنين والمؤمنات.

عندئذٍ يقال لهم:

﴿ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ ﴾:

أي: ليسَتْ هذه الجهة جهتكم، ولا تصْلُحون للّحاق بالذين آمنوا في مسيرهم، لا بالاستحقاق ولا بالتبعيّة، فمكانُكُم الخاصُّ بكم هو وراءَكُمْ، فارجعوا إليه، وسيروا في الاتّجاه المعاكس حيث يَسِيرُ الكافرون الصرحاء.

فالذي يظهر أنهم يُخْدَعون في أوّل الأمر فيُحْشَرُون مع الذين آمَنُوا، ثُمّ إذا دُعِي الذين آمَنُوا للسعي في اتّجاه موقف حسابهم، مشىٰ معهم المنافقون مشي الضعفاء العجزة، فيسبقهم كلّ المؤمنين، عندئذٍ يكونون كالذيل، ثم ينفصل الذيل عن مؤخّرة المؤمنين والمؤمنات، وتَشْتَدُّ على المنافقين والمنافقات الظلمات، فلا يستطيعون متابعة اللّحاق بالذين آمَنُوا، فيطلبونَ منهم الانتظار، عندئذٍ يوجّه لهم النّداء الربّاني، عن طريق الملائكة أو عن طريق خلْق صوتٍ يسْمَعُونه:

﴿ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ ﴾.

إنّهم يُجَازَوْن في موقف الحشر بمثل ما كان منهم في الحياة الدُّنيا، كانوا يُخادعون الله والذين آمَنُوا، فمن العدل أن يُعَاملوا يوم القيامة بمثل عملهم في الحياة الدنيا.

ولست أرى أنّ عبارة ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ تأكيدٌ لعبارة ﴿ارْجِعُوا﴾ على اعتبار أنّ الرُّجُوع يستلزم السَّير إلى الوراء، بل أرَى أن عبارة ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ هي على معنَى: إلْـزَمُوا وَرَاءكم، أي: فالجهةُ الّتي هي وراءَكم المعاكسةُ لجهة الذين آمَنُوا هي الجهة التي ستتخذون خطوط مسيركم فيها مع الكافرين، إلى موقف حسابكم، فإلىٰ جهنّم، أمّا جهة الذين آمَنُوا فهي إلى موقف حسابهم، فإلى الجنة، وإن استحقّ بعضهم مقداراً من التعذيب في النار.

ويقال لهم أيضاً بعد أمرهم بالرّجوع، وأمرهم بأن يلْزَمُوا وَرَاءَهم:

﴿فَٱلْتَمِسُواْنُورًا﴾.

أي: فاطلبوا نوراً بِجَهْدِكم من عملكم، إن كنتم قادرين على ذلك، وابْحَثُوا عن نورٍ تستهدون به بأنفسكم، فإنّه لاَ يُسْمَحُ لكم اليوم أن تستفيدوا نوراً من غيركم كما كُنْتُمْ في الدّنيا تُشَاركون الذين آمنوا في ثمرات أعمالهم، إذ كنتم تزعمون أنّكم منهم، وأنتم كاذبون، فاليوم لا كَذِب ولا مخادعة، إنّه يوم الدين يوم الحقّ والعدل بالنسبة إلى الكافرين، ويوم الفضل والإحسان بالنسبة إلى المؤمنين.

وعقب هذا القول الذي يُوَجَّهُ للمنافقين والمنافقات يُقَامُ سورٌ حاجزٌ بين المؤمنين والمنافقين، لئلا يُتابع المنافقون السَّير خلف المؤمنين على سبيلِ المكابرة ونجاهلِ الإعلان، بظلٍّ ثقيل، وتطفُّلٍ عليل، ويُجْعَلُ في وسط هذا السّور باب، ولا بدّ أن يكون على الباب حُرّاس، ويظهرُ أنّ الغرض من هذا الباب فحص المتخلّفين المقصّرين في السَّير من عصاة المؤمنين، وضعفاء الإيمان الّذين لم يَبْلُغ ضعف إيمانهم إلى دركة الشرك أو النفاق، فمن كان له قَدْرٌ ما من نور الإيمان والعمل الصالح مهما قلَّ أُذِنَ لَهُ بالدُّخولِ من هذا الباب إلى جهة المؤمنين، ويُمْنَعُ المنافقون ويُرَدُّون.

هذا السّورُ لَهُ بَاطِنٌ يَقعُ إلى جهة المؤمنين، وله ظاهر يقع إلى جهة المنافقين.

ونعلم من سنّةِ الله في الخَلْقِ أنّ الباطنَ يكون في العادة ليناً ناعماً ضامّاً لمَا يحْتَوِي علَيْه برفقٍ وحفظ، بخلاف الظاهر فإنّه يكون عادة قاسياً خَشِناً، يجد من يقترب منه ما يَصدُّه ويَرُدُّه ويؤذيه.

ووفق هذه السنّة يجعل الله هذا السّور ذا باطنٍ لينٍ مؤنسٍ ناعم حسَنٍ جميل، وذا ظاهر صَلْدٍ خَشِنٍ يأتي من جهته العذاب، الذي ينزل بمن يقترب منه، ويُحاوِلُ تَسَوُّرَه، لينخرط في جماعة المؤمنين، وهو ليس منهم، فبطاقة الدخول من الباب لا بُدَّ أن تكون بطاقة من نور الإيمان والعمل الصالح في الحياة الدنيا.

فقال تعالى:

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

فلا يستطيع المنافقون والمنافقات الاقتراب من السور، ولا يُسْمَحُ لهم بالدّخول من الباب، نظراً إلى أنّهم لا يملكون نور إيمان وعمل صالح، ولو من أقلّ الدرجات.

عندئذٍ لا يبقى أمام كلّ واحد منهم إلاّ أن ينادي مَعارِفَه من المؤمنين ألم أكُنْ معكم؟! لعلّ بعضهم يرضىٰ أن يشْهَدَ له بأنّه كان في الدنيا مع المؤمنين، فيشفع ذلك له عند ربّه، فيأذن لملائكته بأن يُلحقوه بهم.

لكنّ المؤمنين يكونون قد اكتشفوا حقيقة معارفهم من المنافقين، فيجيبونهم بما يدُلُّ على أنهم كانوا منافقين كاذبين، مع المؤمنين ظاهراً، وليسوا مع المؤمنين باطناً.

فقال تعالى:

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

اسْتُعمِلَ فعْلُ ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ نظراً إلىٰ حاجز السور الذي أقيم بين الفريقين، فمنعهما من التحادث والتخاطب بصوت منخفض.

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؟!

يدعو المنافقون بهذا الاستفهام الذين آمنوا بأن يشهدوا لهم عند ربّهم بأنّهم كانوا في الدنيا مع المؤمنين.

فيقول المؤمنون لهم: ﴿بَلَىٰ﴾: أي: بلى لقد كنتم معنا في ظاهر انتسابكم

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ لم تكونوا معنا في حقيقة إيمانكم وولائكم، بل كنتم على خلاف ذلك ونقيضه في باطن أمركم.

واليوم نذكر لكم بالتفصيل حقيقة أمركم تجاه دين ربكم وتجاه رسوله والمؤمنين.

أولاً: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾:

أي: أضللتُمْ أنفسكم وعرضتموها لعذاب الحريق في نار جهنّم، باختياركُمُ الحرَّ سُبُلَ الضّلال والغواية وإبطانِ الكُفْر، ورفض الحقّ الذي جاء به رسولُ ربكم، وكيدِ الإسلام والمسلمين، ومخادَعَةِ الله ورسوله والمؤمنين.

ثانياً: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾:

أي: وانتظرتُمْ أنْ تَدُور على الإسلام والمسلمين الدوائر، فتنقَضُّوا على المسلمين الصّادقين مع الكافرين الصرحاء قتلاً وسَلْباً وتشريداً، وعندئذٍ كُنْتم ستُعْلِنُون كفركم وعداونكم الصريحة، ولكنّ اللّهَ عزّ وجلّ نصَرَ المؤمنين وخذل الكافرين، فردّ كيدكُمْ عليكم، فكنتُمْ أنْتُم المكيدين.

ثالثاً: ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾:

أي: وشككْتُمْ بصدقِ رَسُولِ ربكم مع كلّ ما شاهدتموه من دلائل نبوّته ورسالته، وشكَكْتُمْ في صحّة ما جاء به وبلّغه عن ربّه، مع أنّه حقٌّ تشهد له براهين العقل، ويشهد له الواقع، وتشهد له التجارب.

رابعاً: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾:

أي: واطْمَعَتْكُمُ الأَمَانِيُّ الّتي كُنتُمْ تَتَمَنَّونَهَا بالبَاطِل، وتُؤجّلُونها من حينٍ إلى حين بعده، كلّما توالتِ الآجالُ دون تحقيقها ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بإنْهَاءِ آجالكُم أنتم في الحياة الدنيا، فحلّت بكم مناياكم، دون تحقيق أمانيكم، وأنتم ما تزالون على نفاقكم، كُفْراً في الباطن وإسلاماً في الظّاهر.

خامساً: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾:

أي: وخدَعكم باللّهِ رَبِّكُمُ الشيطانُ الْغَرُورُ، إذ كان يَعِدُكُمْ ويُمنّيكم ويوسوس لكم ويسوّل، فيزيّن لكم أنواع الشرك، وصُور الكفر، ويقدّم لكم زيوف الأفكار

والضلالات بزخارف الأقوال، وما يصطنعه هو وجنوده من شياطين الإنس من فلسفات وسفسطات وأفكار باطلة، ويزيّن لكم التشبث بالحياة الدنيا وزيناتها، ويصرف عن تصوّراتكم الآخرة وما أعدّ الله فيها من عذاب خالد للكافرين والمنافقين، ومن نعيم خالد للمؤمنين، بالتشكيك بأخبار الرسُل عن الله ربّهم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

هذا بيان رَبّانيٌ يُوجّهُ لَهُمْ عَقِبَ الْجوَار الّذِي يكونُ بينهم وبين المؤمنين، على طريقة النداء، إذ يحجز بين الفريقين السُّور المضروب بينهما.

هذا البيان الرّبّاني يأتي إعلاناً عامّاً يسمعه المنافقون جميعاً، في موقفهم يوم القيامة، لتيئيسهم من النجاة، وقطع آمالهم، حتى لا يُحَاولوا اتّخاذ سببٍ ما أو حيلةٍ ما، طمعاً في الخلاص ممّا هم فيه.

صوتُ مَلَكٍ يَتْلو عليهم هذه الآية بحسب لغاتهم، أو إذاعةٌ تَبُثُّها عليهم بخلق الله، أو شيءٌ آخر يوصلها إلى أسماعهم وقلوبهم بخلق الله، الله أعلم.

هذا البيان يشتمل على أربع قضايا:

القضية الأولى:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: فالْيَوم لاَ تُقْبَلُ مِنْكُمْ وَلاَ من الّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً صَرِيحاً فِدْيَةٌ ما لو كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ دَفْعَ فديةٍ تَدْرؤون بها عذابَ اللّهِ الخالدَ عنْكُمْ.

وجاء التعبيرُ بنَفْيِ أخْذِ الفدية عن قبولها، لأنّ قبولَها يستلزم أخذها، على أنّهم لاّ يملكون يومَ القيامة شيئاً يُقدّمونه، لا فِدْيَةً ولا دُونَها، إنّ ما يملكه المكلّفُ يوم الدين هو عمله الصالح الذي قدّمه في الحياة الدنيا، والمنافقون والكافرون ليس لهم أعمال صالحة مقبولة عند الله حتّى يُقدّموا منها فِدْيَةً ما.

القضيّة الثانية:

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾:

أي: مكانُكُم الّذي تأوون إليه وتنزلون فيه النّارُ دارُ عذاب الكافرين والمنافقين والعصاةِ يوم الدين.

القضية الثالثة:

﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾:

أي: النّارُ دار العذاب يوم الدين هي الّتي تتولّى شُؤونكم، ومَنْ كانت النار هي مولاه كانت ولايَتُها عليه ولايةَ تعذيب وتنكيل.

وقد نُزِّلَتِ النار مَنْزِلَةَ ذي حياةٍ وإرادةٍ يَتَولّىٰ شؤون من يَقَعُ تحْتَ سيطرته على سبيل المجاز في التعبير، بتنزيل غير ذي الحياة منزلة ذي الحياة، أو على سبيل ملاحظة خزنَةِ النار من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يتولّون تعذيبَ أهلها، على سبيل المجاز المرسل، من إطلاق المحلّ وإرادة القائم على شؤونه.

القضية الرابعة:

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

أي: وهذه النار هي مصيركم الأخير الذي ستصيرون إليه، فلا خلاص لكم منها، لأنكم فيها خالدون، وبِئْسَ الْمَصِيرُ الذي ستصيرون إليه هي.

وينتهي النصّ بهذا الختام أعاذنا الله من الكفر والنفاق.

● ● ●

النصّ العشرون

وهو من سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول)

تاسع سورة مدنية

الآيات من (١٦ ـ ٣٢)

حول عدم تفهم المنافقين لما يسمعون وهلعهم لدى سماعهم آيات الدعوة إلى القتال

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ
تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ
ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ
وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ
ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا
لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ
سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ

سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟
رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ
أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ
شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

* * *

(١)
القراءات المتواترات في هذا النصّ (من الفرش)

* في الآية (١٦):

(١) قرأ جمهور القُرّاء [آنِفاً] بمدّ الهمزة.

وللبزّي روايةٌ عن ابن كثير [أَنِفاً] بالقصر، والأخرى كقراءة الجمهور.

آنفاً: بالمدّ هي بمعنى الزمن الماضي القريب من زمن التكلّم، أي: ماذا قال منذ قريب إذْ كان يتكلّم.

أَنِفاً: بالقصر هي بمعنى المتبرّم المتشكّي الذي يظهر انزعاجه، كالبعير الذي يُساقُ بالخطام من أَنْفِهِ، فهو ينقاد كارهاً مُتشكّياً، يقال: بعيرٌ مأنوفٌ، أي: يُساقُ بأَنْفِهِ فهُو أَنِفٌ، ويُقالُ: أَنِفَ البعيرُ إذا شكا أَنْفَهُ من الخطام الذي فيه ويُساقُ منه.

ويقال أيضاً: بعيرٌ آنِفٌ بالمدّ إذا كان دائم التشكّي مثل: أَنِفٍ، بالقصر.

ففي القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، أي: ماذا قال محمّد في خطبته أو حديثه الذي قاله من قريب حالة كونه متشكّياً متبرّماً من أحوال بعض الناس، أي: ماذا يقصد من تَشَكّيه، ومَنْ هُمُ الأشخاص الذين يتحدّث عنهم متبرّماً من أحوالهم؟

* في الآية (٢٢):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [عَسَيْتُمْ] بفتح السين.

وقرأ نافع فقط [عَسِيْتُمْ] بكسر السين.

وهما وجهان عربيان في هذه الكلمة.

(٢) قرأ جمهور القرّاء العشرة [تَوَلَّيْتُمْ] على البناء للفاعل.

وقرأ رُوَيْسٌ فقط عن يعقوب [تُـوُلِّيتُم] بضمّ التاء والـواو وكَسْرِ اللّام على البناء للمفعول.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

تَوَلَّيْتُم: تأتي بمعنىٰ تسلَّمتُمْ ولاية أمور الناس، وتأتي بمعنى أدبرتم عن الحقّ وانصرفتم عن طريقه.

تُوُلِّيتُم: هي بمُعْنَى أُسْنِدَتْ إليكُمْ ولاية أمور الناس.

(٣) قرأ جمهور القرّاء العشرة (وَتُقَطِّعُوا] بتشديد الفعل من «قَطَّع» المشدّد الطاء.

وقرأ يعقوب فقط [وَتَقْطَعُوا] بالتخفيف.

وفي القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ من الناس المرادين من يبالغ في تقطيع أرحامه، ومنهم من يقطع رحمه دون إسراف.

* في الآية (٢٥):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [وَأَمْلَىٰ لَهُمْ] أي: أملَىٰ الشيطان لهم.

وقرأ أبو عَمْـرو: [وَأُمْلِيَ لهم] بالبناء للمفعول وفتح الياء، أي: وأُمْلِيَ لهم من قِبَلِ من يؤثّر عليهم.

وقرأ يعقوب [وَأُمْلِي لهم] بالبناء للفاعل على أن الفاعل ضمير المتكلّم وهو الله عزّ وجلّ.

وفي هـذه القراءات تكـامل في الأداء البيـاني وتكامـل في أداء المعنى المـراد.
يقال: أَمْلَى له: إذا أطال له وأمْهَلَهُ.

* في الآية (٢٦):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [أَسْرَارَهم] جمع «سِرّ».

وقـرأ حفص عن عاصم، وحمـزة والكسـائي وخلف العـاشـر [إِسْرَارَهُمْ] بِكَسْـرِ الهمزة، مصدر أَسَرَّ إِسْراراً.

وفي القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فالله يعلم أسرارهم التي يخفونها، ويعلم عملهم إذ يُسِرّون به.

* في الآية (٢٨):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [رِضْوَانَهُ] بكسر الراء.

وقرأ شعبة فقط [رُضوانه] بضمّ الراء.

وهما وجهان عربيّان لكلمة رضوان.

* في الآية (٣١):

(١) قـرأ جُمْهُـورِ القـراء العشـرة: [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَـاهِـدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخبَارَكُمْ] بنون العظمة في الأفعال.

وقـرأ شعبـةُ فقط: [وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ يَعْلَمَ المجـاهِـدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّـابِـرِينَ وَيَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ] بياء الغائب.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

وقرأ رُويس عن يعقوب: [وَنَبْلُو] بإسكانِ الواو على استئناف الجملة دون عـطف فعـل [نَبْلُو] على فعل [نَعْلَمَ] فيكـون فعل [نَبْلُو] مـرفوعـاً، أي: ونحن نبلو أخباركم، وهو وجه من الأداء البياني ذو دلالة خاصة مضافة.

* * *

(٢)
موضوع النص بوجه عامّ

يكشف هذا النص حالة المنافقين وهم في مجالس العلم الديني، ويبيّن أنّهم يتصنّعون التظاهر بأنهم يستمعون الأقوال ويصغون إليها، لكنهم في الحقيقة منصرفون عنها في نفوسهم، فلا يصل إلى أدمغتهم وقلوبهم منها شيء، إنّ قلوبهم مطبوعٌ عليها بسبب انصرافهم عنها، وعدم إيمانهم بها أصلاً.

ويكشف أيضاً حالةَ المنافقين حين كانوا يستمعون الأيات المنزّلات المتضمنات الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله بالأموال إعداداً لقتال الكافرين، وبالأنفس في الخروج لمقاتلتهم، وهي الآيات التي كان رسول الله ﷺ يتلوها على المسلمين في المجامع العامّة التي كان يشهدها المسلمون، المؤمنون منهم والمنافقون.

فقد كان المنافقون إذا أُنزلت سورة محكمة وذُكر فيها الدعوة إلى قتال الكافرين أصابهم الهلع والجزع، فجعلوا ينظرون إلى الرسول ﷺ نظر المغشيّ عليه من الموت.

وبعد كشف هاتين الظاهرتين من أحوال المنافقين يتابع النصّ معالجتهم بالإقناع، والموعظة، والدعوة إلى تدبّر آيات القرآن، والوعيد بالعاقبة الوخيمة والعذاب الأليم، والإنذار بفضحهم أمام سائر المسلمين، بإخراج ما في سرائرهم وضمائرهم من أضغان.

وضمن ذلك يبيّن الله عزّ وجلّ حكمته في الابتلاء الذي يكشف به المؤمنين والكافرين، والمطيعين والعاصين، والمجاهدين والقاعدين المتخاذلين، والصابرين والجزعين، إلى غير ذلك من تصرّفات الناس الإرادية التي تصير بعد الوقوع أخباراً.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النّص

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

أي: ومن الذين كفروا منافقون ضمن جماعة المسلمين يستمعون إليك يا محمّد، بمعنى يصغُونَ سمعهم إليك، فيُميلون آذانهم ورؤوسهم تظاهراً بأنّهم مُهْتمُّون بما تقول، سَتْراً لنفاقهم.

يقال لغة: استَمَع له واستَمَع إليه، وكذلك تَسَمَّع إليه، بمعنى أصغى إليه، أي: أمال رأسه وأذنه إليه ليتسمَّع منه ما يقول.

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾:

أي: ماذا قال محمّد في الزمن الماضي القريب إذْ كُنّا في مجلسه. وأحياناً يقولون هذا القول على معنى: ماذا قال محمّد وماذا يَقْصِدُ ومَنْ يَعْني بقوله الذي يَتَشكّى به، وذلك حين يُعَرِّض بالمنافقين وأعمالهم غير السّارة، وعلى هذا المعنى تُحْمل قراءة «أَنِفاً» أي: ماذا قال حالة كونه متشكّياً متبرّماً. فكلمتا «الأنِف» و «الآنِف» تأتيان في اللغة بمعنى المتشكي، كما سبق في البيان لدى توجيه القراءات.

﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾:

الطبع في المادّيات كالختم، وقد كان من عادة الملوك وغيرهم إذا أرسلوا رسائل، وأرادوا المحافظة على سرّية ما فيها، أقفلوها بإحكام، ووضعوا عند مكان إقفالها طيناً خاصّاً، يطبعون عليه خاتمهم الخاصّ بهم، فيجفّ الطين ومثالُ الخاتم مطبوعٌ عليه، فلا يمكن معرفة ما في داخل الرسالة إلّا بكسر خاتم الطين.

وعلى سبيل التوسّع في التعبير بنقل ما هو للمادّيات إلى المعنويات، جاء في القرآن التعبير بالطبع والختم على القلوب، للدلالة على أنّها صارت محجوبة عن إدراك أيّ شيءٍ يتعلّق بما هي محجوبةٌ عنه.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾:

تُطْلَق الساعةُ في القرآن على الزمن الذي يكون عنده إنهاء نظام الحياة الدنيا

لجميع الخلائق، وتُطلَق أيضاً ويُرادُ ساعـةُ البعث إلى الحياة الأخرى، حياة الحسـاب والجزاء، ويُدْمَجُ المرادانِ في تعبير واحد لأنّ ساعة الإنهاء مقدّمة لساعـة ابتداء الحيـاة الأخرى.

وساعةُ كلّ حيٍّ في الحياة الدنيا هي ساعةُ موته، وعنـد بعثه إلى الحيـاة الأخرى لا يشعرُ بالنسبة إلى الزمن إلّا كمـا يشْعر النـائم إذا صحا من نـومه، كـأنّه لم يلْبث بين الموت والبعث إلّا ساعةً من نهار.

﴿بَغۡتَةً﴾:

أي: فجأةً. يُقال لغةً: بَغَتَهُ يَبْغَتُهُ بَغْتاً وبَغْتَةً، بمعنىٰ فَجَأَهُ يَفْجَؤُهُ فَجْئاً وفَجْأَةً.

فالساعة الأولى والساعة الأخرى لا تأتيان بقضاء الله وقدره على جميع الأحياء إلّا فجأةً.

﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾:

أشراط الساعة علاماتُ قربها، وأماراتها، أَشْرَاط: جَمْعُ شَرَط، بفتح الراء، وهو الْعَلَامة، ويقال: أَشْرَطَ الشيْءَ إذا جعل له علامة.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾:

﴿أَنَّىٰ﴾: هنا بمعنىٰ «كيف». ﴿ذِكْراهم﴾ أي: تذكّرهم، والمراد التذكر النافـع، لأنّ الساعة متى جـاءت لم ينفع التـذكّرُ صـاحِبَهُ، لقـد مضى زمن الابتلاء، وأقبـل يوم الجزاء.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾:

التَّقَلُّبُ: التنقّلُ، والتصرُّف في الأعمال، يقال لغة: تقلّبَ في الأمور إذا تصـرّف فيهـا كيف يشاء. ويقـال: تقلّب في البلاد إذا تنقّـل فيها، فلفظُ «مُتَقَلَّبٌ» اسم مفعـول بمعنى الكسب الـذي حصل نتيجة تقلّب كـاسبِـه وتصرُّفه. أو مصـدر ميمي، بمعنى التقلّب.

فالمعنى: والله يعلَمُ ما تعملون في تصرّفاتكم، ويعلَمُ حركتكم في تقلّبكم.

﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾:

أي: وسكونكم واستقراركم ومكان إقامتكم وزمانه. يقال لغة: ثوىٰ بالمكان وفي المكان يَثْوِي ثواءً وَثُويًّا، إذا أقام فيه واستقر.

فلفظ «مَثْوىٰ» اسم مكان من ثَوَىٰ، واسمُ زمان، ومصدرٌ ميمي. فالمعنى: والله يعلَمُ ثـواءكم، أي: استقراركم وسكـونكم، ويعلم المكـان الـذي تَثْـوُون فيـه، ويعلَمُ الزمان الذي تثوون فيه، لا يخفىٰ عليه سبحانه من ذلك شيء.

﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾:

أي: هلاّ نُزِّلَتْ سورةٌ تأمر بالقتال، فلفظ «لَوْلَا» هنا للتحضيض بمعنى «هلاّ».

﴿مُّحْكَمَةٌ﴾:

أي: واضحة الدلالـة، لا غموض فيهـا ولا شبهة ولا تحتـاج إلى تأويـل. ولا يَرِدُ هنا أنّها غير منسوخة، لأنّ السورة حين إنزالها لا تنزل منسوخـة، بل قـد تكون نـاسخة لما نزل قبلها، فتفسير بعض أهل التأويل كلمة «محكمة» هنا بمعنى غير منسوخـة، من التّسرع.

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

هو مرضٌ أشدُّهُ النفاق، وقد يَخِفّ إلى ما هو قريبٌ من النفـاق، كضعف الإيمان الشديد.

﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾:

أي: مثل نظر الـذي انتابـه إغماءةُ مقـدمات المـوت، فجلّلت بصره، فصـارت عيناه تدوران على غير هُدى، أو جَمَدَتْ عيناه عن الحركة كمـا ينظر الشـاخص ببَصَرِه عند الموت، وهذا يكون من شدّة جزعهم وانزعاجهم.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾:

هذه عبارة تهديدٍ ووعيد، قال الأصمعي: معنى قـولهم في التهديـد: أولى لك، وَلِيَكَ وقاربَكَ مَا تكره. قال ثعلب: لَمْ يُقَلْ في «أَوْلَىٰ» أَحْسَنُ ممّا قالَهُ الأصمعي.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ :

حضٌ علىٰ تَفَهُّمِ دَلالاتِ آيات القرآن فهماً يُتابع سلسلةَ لوازم معانيها حتى آخِرِها. فَتَدْبِير الأمر وتدبُّرُهُ إنّما يكُون بالنظر في عواقبه، إذْ دُبُرُ كُلِّ شيءٍ عَقِبُهُ ومُؤخّرهُ.

﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ :

أي: «بلْ» أعلى قلوبٍ أقفالها «أمْ» هنا هي التي تسمّىٰ المنقطعة، وهي بمعنى «بل» مع الاستفهام، فهي استفهام مستأنَفٌ بعد كلام يتقدّمُها بإضرابٍ عنه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ :

أي: رجعُوا إلى الكفر الذي كانوا فيه بعد أن تبيّن لهم هدى الإسلام الذي دخلوا فيه، والمراد أنهم رجعوا إلى الكفر باطناً، دون أن يعلنوا ردّتهم، فهم من الذين طرأ عليهم النفاق.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ :

كلّ متمرّد مفسد من الإنس والجن، وإمامُ الشياطين إبليس، وجنودُه ذريّته، ومعهم كلُّ متمرّد على ربّه من الجنّ والإنس.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ :

أي: زيّنَ لهم الباطل والضلال والشرّ، وحبّب ذلك إليهم، وأغراهم به، وسهّلَهُ لهم.

﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ :

أي: طوّل لَهُمْ وأمْهَلَهُم، والمراد أنّه صبر طويلاً في التسويل لهم، حتى تمكّن من إغرائهم وإغوائهم، إذْ لم يتمّ له الأمر إلّا بعد جَهْدٍ جهيد، وصبْرٍ مديدٍ، ومتابعةٍ في خطوات متدرجة عديدة.

﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ :

أي: أَبْطَلَها.

﴿ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾:

أي: أحْقادهم وما يُضمِرُونَ في صدورهم من عَدَاوَةٍ وغَيْظٍ وإرادةِ كَيْدٍ للإسْلَام والمسلمين.

أضغان: جمع «ضِغْن» وهو الحقد الشديد. والحقْدُ: هو إضمارُ العداوة، مع إرادة الكيد، وتربّص الفرصة للإيقاع بالمحقود عليه.

﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾:

السّيما العلامة، والمعنى أنَّ المنافقين لهم علاماتٌ خاصة في ظواهرهم تدلُّ على نفاقهم، فمن عرفها عرفهم بأشخاصهم.

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾:

لَحْنُ القول هو القول الذي يُرادُ منه غير ظاهره، ويفهمه الْفَطِن من وراء لفظه بالفطنة والتأمل، وأصل اللّحن إمالة الكلام إلى نَحْوٍ من الأنحاء لغرض التعمية والإخفاء عمّن لا يُراد إعلامه بالمقصود منه.

حكى ابن كثير عن عثمان بن عفان أنّه قال: ما أسرّ أحدٌ سريرة إلّا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

قال: وفي الحديث: «ما أسرّ أحدٌ سريرة إلّا كساه الله تعالى جلبابها إنْ خيراً فخير أوْ شرّاً فشرّ».

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾:

الابتلاء الامتحان والاختبار وكشف ما في السرائر.

﴿ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾:

الصدّ الإعراض عن الشيء والانصراف عنه، وفعل «صَدَّ» يستعمل لازماً ومتعدّياً، يقال صدّ عن السبيل إذا أعرض، ويقال صدّ غيره عن السبيل إذا منعه وصرفه.

﴿ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾:

أي: وعادَوْا الرسول وخالفوه، يقال لغة: شاقَّهُ مُشاقَّةً وشِقَاقاً، إذا خالفه وعاداه، قال الزجاج: الشقاق العداوة بين فريقين، والخلاف بين اثنين، سُمّي ذلك شقاقاً، لأنَّ كل فريق من فرقتي العداوة قصَدَ شِقّاً، أي: ناحية، غير شِقّ صاحبه.

* * *

(٤)
مع النّصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

في مَعْرِض الحديث عن الذين كفروا ابتداءً من أوّل السورة، تحدَّث هذا النصّ عن المنافقين، باعتبارهم يدخلون في عموم الكافرين، لأنّهم كافرون باطناً، وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام بحسب الظاهر، وتعرّض أيضاً لضعفاء الإيمان الذين قد يشاركون المنافقين في طائفةٍ من الظواهر السلوكيّة، لتحذيرهم من أن تجرّهم أعمالهم للانغماس في حَمْأةِ النفاق.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

أي: ومن الكافرين مُنافقون يَسْتَمِعُون إليكَ يا محمد مُظْهِرين إصغاءَهم إليك بإمالة رؤوسهم وتوجيه آذانهم مخادعين بأنهم مسلمون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾:

أي: ويستمرّون مظهرين إقبالهم على تلقّي العلم حتّى إذا خرجوا منْ عندكَ وفارقوا مجلسكَ الذي كنت تحدّث فيه وتتلو آيات الله، توجَّهوا لأولي العلم من المؤمنين الذين كانوا معهم في المجلس فقالوا لهم: ماذا قال محمّد حين كنّا عنده في الزمن القريب؟ فيكشفون بسؤالهم هذا أنّ ما كانوا يظهرونه من إصغاء لاستماع أقواله لم يقترن به توجُّهٌ فكريٌّ مطلقاً، بل كانت أفكارهم وقلوبهم منصرفة عنه انصرافاً كلّياً.

وأحياناً يقولون كما دلّت القراءة الأخرى: ماذا قال حالة كونه متشكّياً متذمّراً،

وماذا يعني من قوله، ويظهر أن هذا القول كانوا يقولونه حينما كان يتحدّث عن صفات المنافقين، ويكشفُ سرائرهم، ويتذمّر من أعمالهم غير السارّة.

وقد استفدنا المعْنَيَيْن من قراءتي: [آنِفاً] و[أَنِفاً] كما سبق بيانه، وهذه الظاهرة من منافقي عصر النبوّة، ظاهرةٌ تتكرّرُ من منافقي كلّ عصر وكلّ أمّة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾:

أي: أُولَئِك البعداءُ عن رحمة الله، والبعداءُ عن تَفَهُّمِ العلم النافع ليوم الدين، والنافع لحياةٍ دنيويّة رضيّةٍ سَعيدة، الّذين اتّخذُوا من الأسباب الصارفة عن الحق والهداية إلى الصراط المستقيم، ما كان من نتيجته ضمن سنن اللّهِ السببيّة أنْ تُقْفَل قلوبُهم فلا تصلَ إليها دلالاتُ أقوالِ الحقّ والهداية إلى الصراط المستقيم، بل يُطبَعُ على أقفالها إيذاناً بأنّها صارت غير مستعدّةٍ لتقبل الحقّ والهداية مطلقاً، أي: صارت بمثابة حُجُراتٍ صمّاء، لها أبواب، وهذه الأبوابُ سكّرَتْ وأُقْفِلتْ وضُرِبَ الختمُ على هذه الأقفال.

فليس الطبعُ على قلوبهم أمْراً جَبْريّاً، بل هو نتيجة ما يفعلون من أسباب.

ونتيجةً لإقفالِ قلوبهم والطَبْعِ عليها بالنّسبة إلى الحقّ والهدىٰ إلى صراط الله، فلا بدّ أن تكون أهواؤهم هي التي توجّه إراداتهم وتُحرِّك سلوكهم في الحياة، فقال تعالى:

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾:

الأهواءُ: رَغباتُ الأنْفُسِ من زينة الحياة الدنيا، ومتَاعِهَا، وشهواتها، وهذه الأهواء إذا لم تكن موجّهةً ومنضبطةً بشريعة الله لعباده، انطلَقَتْ في المعاصي والفساد والإفساد في الأرض، وقادَتْها الشياطين إلى الشرور والمهالك، ومسَالِكِ الضلال والبغي والظلم والعدوان.

وسُمِّيَتْ أهْوَاءً، لأنّ النفوس تنجَذِبُ إليْها انجذابَ مَنْ يَهْوِي بنْ مكانٍ مرتفعٍ آمنٍ إلى مَهْواةٍ مُهْلكةٍ، تَسْتقْبِلُ الهاوي إليها بالعذاب الأليم، والشقاء الدائم.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾.

أي: وفي مقابل أُولئك المنافقين المندسين ضمن جماعة المسلمين، يظهرُ في الصورة المؤمنون الذين اختاروا لأنفسهم بإراداتهم الحرّة الإيمانَ الصادق، فلم يسلكوا مسالك النفاق، فاهْتَدَوْا بهذا الاختيار الحكيم إلى الحق وصراط الله المستقيم، فانطلقوا في مسيرتهم في الحياة متّجهين ضمن حدود هذا الصراط، ابتداءً من أوّلِهِ، إيماناً وعملاً صالحاً.

لكنّ السالك في طريق الحقّ والهدى يظلُّ عُرضةً في رحلته في الحياة الدنيا للخروج عنه من ذات اليمين أو ذات الشمال، فهو بحاجة إلى مزيد من الهداية بالتوفيق والمعونة من الله، إذا استعان بالله وسأله التوفيق والسداد والرشاد، وصدَقَ في الطلب، فيزيده الله هُدىً، حتى يُكْمِلَ مسيرته في الحياة مُعَاناً موفقاً على مقدار صحة إرادته، وصدقه في الطلب والاستعانة بالله وحسن التوجّهِ في ابتغاء مراضي الله.

والهدى الذي يزيده الله عزّ وجلّ منه، يكون بفتح أبواب المعرفة له، فيزدادُ علماً بالله، ويزداد مما يُسْعِدُه في آخرته فهماً وبصيرة مشرقة، ويكون بإعانة الله له، على ذكره وشكره وحسن عبادته، والعملِ بمراضيه، واجتنابِ ما يُسْخِطُه في حركته وسكونه.

دلّ على هذا كلّه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُم هُدىً﴾.

وبعد تقلّبِهِ في مختلف أعماله وتصرّفاته في الحياة مَهْدِيًّا، بعاملين:

فالأول منهما: إيمانُه وصدقُه ورغبته في الاستقامة على صراط الله، والتجاؤه إلى الله في أن يُمِدّه بالعون والتوفيق والسداد.

والآخر منهما: توفيق الله ومعونته له، وشرحُ صَدْرِه للعمل الصالح، وتنويرُ بصيرته لإدراك المعارف الرّبّانية.

بعد ذلك يُؤْتِيه الله عزّ وجلّ تَقْوَاهُ، وإيتاءُ هذه التقوى يكونُ بمنحه مَلَكَةَ الاستقامة على ما يقيه من المعاصي والآثام، وذلك لأنّ الممارسة الطويلة على أي

عمل من الأعمال، وأيّة مهارةٍ من المهارات الجسدية أو النفسية أو الفكريّة يُكْسِبُ العادة، الّتي تكونُ مَلَكَةً تَصْدُرُ عنها ظواهرها السلوكيّة بالتّلقائيّة، دون تكلُّف زائدٍ ومعاناة، وهذا مُشاهَدٌ لدى كلّ أصحاب المهارات، حتى المهارات الفكرية والنفسية. والتقوىٰ في السلوك الباطن والظاهر تنطبق عليها هذه السُّنّة من سُنَن الله في الأحياء، وسُنَن الله تتمُّ بخلقه في الأشياء وفي الأحياء.

وإيتاءُ هٰذِهِ التقوى يكون أيضاً بأن يَكْتُبَه الله عنده من المتّقين، فيُعْرَفُ لدىٰ الملائكة بهذه الصفة، ويُلْقِي الله في قُلُوبِ الناس ما يُشْعِرُهُمْ بأنّه من المتقين، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما يَزالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عند اللّٰهِ صِدِّيقاً».

وما يكتبه الله عنده يقذفه في قلوب عباده.

دلنا على هذه المعاني قوله تعالى:

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فهل ينظرون؟﴾:

أي: فهل ينتظرون؟

طرح هذا السؤال يدلُّ على أن المنافقين ينتظرون شيئاً، وأنّ الله عزّ وجلّ يقطعُ آمالهم ويُيْئِسُهُمْ من تحقيقِ ما ينتظرونه حتّىٰ قيامِ الساعة، التي ستأتي الناسَ وسائرَ الخلائق بغتةً، أي: مفاجأة، فقد أخفى الله عزّ وجلّ العلْمَ بوقتها عن كلّ عباده في الأرض والسّماء.

فما هو الشيء الذي ينتظرونه؟

دلّ النصّ السابق من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) على أنّ المنافقين كانوا يَتَرَبَّصُون، أي: ينتظرون أن تدور الدائرة على الرسول والذين آمَنُوا معه، حتّى يكْشِفُوا حقيقتهم، ويَنْقَلِبُوا صَراحةً ضدّ أُمّةِ الإيمان، مُناصرين ومُوالِينَ أمّةَ الكفر الصريح.

فأبان الله عزّ وجلّ لهم وللمؤمنين أنّهم إذا كانوا ينتظرون شيئاً سيتحقّقُ بلا ريب، فَإنّ ذلك الشيء يَنْحَصِرُ في الساعة التي يكون بعد قيامها حسابُهم وفَصْلُ القضاءِ بشأنهم، ثم عذَابُهُمْ في نار جهنّم.

إنّهم يُنْكِرُون الساعة ويومَ القيامة وما فيه من حساب وجزاء، فهم لا ينتظرون ذلك بتصوّرهم وإراداتهم، لكنَّ واقِعَ انتظارهم لن يكون بعده إلاّ ما سيكرهون، إنّهم ينتظرون شيئاً لا يتحقّق، ولكن الذي سيتحقق بعد انتظارهم هو الأمر الذي لم يكونوا يَنْتَظِرُونه ولا يَتَوَقَّعُونه.

فالبيانُ تحدّثَ عن واقع انتظارهم، وجاء لمرادهم منه فَأيأسَهُمْ من وقوعه، بأسلوب حصر واقع انتظارهم في أمْرٍ حَتْمِيّ الوقوع، وهي الساعة.

وهذا من بديع دمْجِ عِدّة بيانات في جملة استفهاميّة قَصِيرة:

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ؟﴾.

نظير ما لو طمع جماعة من النّاس بمقدم فاتح جبّارٍ مثل «هولاكو» لينقذهم من خصومهم السّياسيّين في بلدهم الذين يُنَافِسُونَهُم في المصالح، بأُخُوّةٍ ورَحْمةٍ، فخرجوا لاستقبال هذا الفاتح الجبّار وجيشه، وقاموا ينتظرون، فجاءهم خبيرٌ فقال لهم: هل تنتظرون إلاّ قطعَ رؤوسكم ونثر أشلاء أجسادكم للسباع؟ أي: إنّ ما تنتظرونه لن يتحقّق لكم، ولكنَّ الذي سيتحقّق هو أن الجبار وجيشه سوف يَبْدَؤون بقتلكم وإبادتكم قَبْلَ أن يدخل بلادكم ويقاتل خصومكم.

فدلّ طرح هذا الاستفهام على نفي حصول ما ينتظرون بتصوُّرِهم المريض، وإثبات حصول شيء سيتحقق بعد واقع انتظارهم، وحَصْرِ واقع حال انتظارهم في حصول هذا الشيء.

وقد دلّ على الحصر النفيُ المستفاد من الاستفهام مع أداة الاستثناء «إلاّ».

وإذْ قد ورد ذكر الساعة فإنّ من الحكمة الرّفيعة في البيـان الدينيّ أنْ يُضـاف إلى المقصود من ذِكْرِها بيانٌ عنها، يتعلّقُ بزمنها، وأماراتها، مع تـوجيه العـظة لمن شاء أنْ يَذّكَر.

ـ أمّا زمنها فإنّها لا تأتي إلاّ بغتةً، فقد أخفاه الله عن كلّ خلقه، فقال تعالى:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ؟﴾

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾: بدل اشتمالٍ من الساعة.

وجاء التعبيرُ بهذا الأسلوب هنا وفي الآية (٦٦) من سورة (الـزخرف)، ولم يـأت بأسلوب: هل ينظرون إلاّ أنْ تأتيهم الساعة بغتة؟ لأنّ في تقديم ذكـرِ السّاعـة لفتَ نظرٍ إلى حقيقـة السّاعـة أوّلاً، فهذه معـرفةٌ يُقْصَـد تثْبيتُهـا ابتـداءً، ثم يـأتي مـوضـوعُ وقتِ إتْيانها، فهي جزئيّةُ معرفة تأتي في الدرجة الثانية بعد إثبات أصل قضيّـة السّاعـة، ومع هـذه الإضافة الفكريـة لم تزدْ عبـارة النصّ حرفـاً واحداً، إذْ لم يحصـل في العبارة إلاّ تقديم كلمة السّاعة، وهذه من بدائع القرآن.

ـ وأمّا أمارات الساعة، فقد قال الله عزّ وجل بشأنها في النصّ:

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾:

أي: جاءتْ علاماتها، ومن هذه العلامات ما تحقّق في الـواقع، كبعثـة الرسـول محمد ﷺ بالدّين الخاتم، وانشقاق القمر، ومن هذه العلامات ما أعْلَمَنَا الله ورسوله به ممّـا سيتحقّق، ومجيءُ العلم بهذه الأشراط على لسان الـرسول المؤيّـد بـالمعجـزات الباهرات هو بقوّة مجيئها في الواقع، على أنّ القرآن ببقائه محفـوظاً وتـلاوته في تـوالي العصور هو بمثابة بيانٍ رَبّاني متجدّد، فكُلّما ظَهَرَ شَرْطٌ من أشـراطِ السّاعـة، يقترن بـه النصّ القرآني:

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

يُضافُ إلى هٰذَيْن الأمـرين أنّ القرآن من أسـاليبه أن يتحـدّث عن الأمر المتحقق الوقوع في المستقبـل بصيغة الفعـل الماضي، للدلالـة على أنه لا بـدّ أن يتحقّق، كما نقول لمن أطلق قذيفةً إلى هدفٍ معيّن، وهـذه القذيفـة محكمة التسـديد: لقـد أصاب

الهدف. ولو أنها ما زالت سائرةً في طريقها لم تُصِبْ هدَفَها، ومن هذا قول الله عزّ وجلّ في أول سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾.

أمّا تفصيل أمارات الساعة فموجود في كتب الحديث وكتب العقيدة[1].

ــ وأمّا توجيه العظة لمن شاء أن يتذكّر منهم، فقد جاء في قوله تعالى:

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾:

أي: فكيف تكونُ نافعةً لهم ذكراهم للسّاعة، وصارفة عنهم عذابها، إذا لم تحصل لهم هذه الذكرى إلاّ بعد مجيئها.

إنّهم يومئذٍ لا يملكون أن يعملوا عملاً يَنْفَعُهم، فقد انتهت رحلةُ الابتلاء وجاء يومُ الحِساب والجزاء.

من أجل ذلك فالعاقل الحصيفُ الرَّشِيدُ هو الذي يتدارك أمره وهو في رحلة ابتلائه، فيعملُ فيها ما ينفعه عند ربّه في اليوم الآخر، يوم الحساب والجزاء، إذْ يُدْرِكُ أنّه إذا جاءت الساعة لم ينفعه من الإيمان والعمل الصالح إلاّ ما كان قد قدّمه قبل موته في الحياة الدنيا حين كان في رحلة الامتحان.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾.

يوجّه الله عزّ وجلّ في هذه الآية الخطاب للرّسول فلكلّ من يصْلُح للخطاب بمضمونها من بعده بصورةٍ إفراديّة، لأنّ مسؤوليّة كلّ مخاطب بها مسؤوليّة فرديّة تُجاه الله عزّ وجل.

(١) انظر بحث أمارات الساعة في كتاب «العقيدة الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

والفاء في ﴿فاعلم﴾ جاءت تفريعاً على ما تضمنّه الكلام السابق في السورة، الذي تعرّض للكافرين، ولفئة المنافقين منهم، وللمؤمنين، وتَجْمَعُ هذه الأصنافُ الثلاثةُ جميع المكلفين، المأمورين بأن يعلموا دين الله لعباده، ويؤمنوا به، ويعملوا به.

وقد دلّت هذه الآية على جملة قضايا أصولٍ من قضايا الدين، وهذه القضايا بعضُها مذكور بصريح اللّفظ، وبعضُها مطويٌّ يُفْهَمُ بدلالات اللُّزوم العقليّ، وبالقرائن، وبما يُفْهَمُ اقتضاء من ترتيب الجمل المنتقيات اختزالاً من موضوعاتها، وبدلالات نصوصٍ أخرى موزعات في سور القرآن.

القضيّة الأولى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾:

أي: فاعلم أنَّ الشأن العظيم الجليل في الوجود «لاَ إلَه إلاّ الله» أي: لا معبود يستحقّ العبادة كائنٌ في الوجود كُلّه إلاّ اللّهُ وحده، لاَ شَرِيكَ لَهُ.

والأمرُ بالعلم بهذه الحقيقة العظمىٰ من حقائق الدين يتضمّنُ ويستلزم ثلاث قضايا هي: طلبُ العلْم بهذه الحقيقة عِلْماً فكريّاً عقليّاً مقروناً بأدلّتها، وطَلبُ الإيمان بهذه الحقيقة إيماناً إراديّاً يتمُّ بالاعتراف والتسليم القلبي مع الطمأنينة التامة وانعقاد ذلك بالعاطفة، وطَلبُ العَمل بمقتضىٰ توحيدِ الإلَهيّة لله عزّ وجلّ. فالقضية الأولى من هذه القضايا الثلاث قد فُهِمتْ من صريح اللفظ، والقضيتان الثانية والثالثة تُفْهَمان باللّزوم العقلي، وبقرينة عطف جملة ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ على جملة ﴿فاعلم﴾ لأنَّ الاستغفارَ إنما يكونُ بَعْدَ مخالفةٍ للعمل بمقتضىٰ «لا إلَه إلاّ الله»، والعملُ بمقتضىٰ «لا إلَه إلاّ الله» لا يكون إلاّ بعد الإيمان بمضمون «لا إلَه إلاّ الله» إيماناً صحيحاً، فظهرت لنا بهذا التحليل القضايا الثلاث، فمنها ما هو مصرّح به، ومنها ما هو مطويّ.

وكلٌّ من العلْمِ والإيمانِ والعَملِ بمضمون «لا إلَه إلاّ الله» له مستويات، أدناها هو الذي يكون به أدنى الإيمان والنجاةُ من الخلود في النار، وأعلاها هو ما يكون به استحقاقُ الفردوس الأعلى في جنّات النعيم، المخصّصُ لخيرة عباد الله الصالحين، المصطفين الأخيار، من الأنبياء والصدّيقين ومن تبعهم بإحسان.

إنّ العِلْمَ بالله وكمالاته وصفاته الحسنىٰ وآثار قدرته وإرادته وحكمته كلّما ازداد ازْدادَ العلْمُ بمضمون «لا إلّه إلّا الله» وكلّما ازداد هذا العلم ازدادتْ نسبة الإيمان بمضمون «لا إلّه إلّا الله» وازداد الدافع للقيام بأنواعٍ من العبادات تستدعيها نسبة العلم والإيمان اللّذين ازدادا.

فمن الحكمة تُجاه هذه النِّسَب المتفاضلة ذواتِ الدرجات المرتقيات أن يكون الخطابُ في قول الله عزّ وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ موجّهاً لكلّ من يصلُحُ لأن يُخاطَبَ بمضْمُونه، فغير المؤمن يطالب بالعلم بها وبالإيمان والعمل من مستوى الدرجة الدنيا، والمؤمن يُطالب بمثل ذلك ولكن بأن يرتقي في درجات العلم والإيمان والعمل، بدءاً من درجته التي هو فيها، حتّىٰ الأنبياء والرُّسل مطالبون بزيادة العلم والإيمان والعمل بمضمون «لا إلّه إلّا الله»، ويشهد لهذا قول الله لرسوله محمد في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

وبهذا الفهم يسقط ما طُرِح من إشكال حول أمر الرسول بأن يعلم أنّه «لا إلّه إلا الله» مع أنّه عالم بذلك، إذِ الجواب أنّ مضمون «لا إلّه إلّا الله» قابلٌ دون حدود لزيادةِ العلم فالإيمان فالعمل.

القضية الثانية:

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾.

إنّ الأمر بالاستغفار ملاحظ فيه قضيةٌ مطويّةٌ في النّصّ سبق بيانها، وهي الأمر بالعمل بمضمون «لا إلّه إلّا الله» بعد الإيمان به.

ولكلّ أهل مرتبة من مراتب المؤمنين: «المتقين، والأبرار، والمحسنين» تكاليف مطالبون بها ليكونوا حقّاً من أهل تلك المرتبة، لكن بني آدم خطّاءُون جميعاً، فكلُّ أهل مرتبة تقع منهم خطايا بالنسبة إلى حقوق تلك المرتبة، فهم بحاجة إلى أن يستغفروا الله عزّ وجل من خطاياهم تلك، ليغفر الله لهم، فلا ينزلوا عن مَرْتَبَتِهم.

إنّ أهل مرتبة «الإحسان» مثلاً إذا ارتكبوا تقصيرات تقتضي إنزالهم عن هذه

المرتبة إلى مرتبة «الأبرار» مطلوبٌ منهم أن يستغفروا لذنوبهم حتى يُحافظوا على مرتبتهم بفضل الله وغفرانه، وهكذا إلى سائر المراتب ودرجاتها.

ومطلوبٌ من كلِّ مؤمن بدءاً من الرسول ﷺ حتى آخر المؤمنين درجةً، أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، توثيقاً للرابطة الجماعية والأخوَّة الإيمانيّة بين المؤمنين، وهذا من روائع الوحدة الجماعية الإيمانيّة.

القضيّة الثالثة:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾:

أي: والله يعلم حركتكُمُ التي بها تتصرّفون وتتقلّبون في الأعمال، ويَعْلَمُ مكانها وزمانها، ويَعْلَمُ سُكُونكم واستقراركم ومكانهما وزمانهما.

إنَّ إثبات قضيّة العلم الربّاني بكلِّ ما يصدُر عن العباد من حركة وسكون بعد الأمر بعلم «أنّه لا إلٰه إلّا الله» والإيمانِ والعمل بمضمونها، يدلُّ على أنَّ التكليف يترتب عليه الحساب والجزاء، فهو يستدعي العلم بما يصدر عن المكلفين من أعمال صالحة وسيئة، فجاء ذكر العلم بعبارة:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾.

وفي اختيار المتقلَّب والمَثْوىٰ في هذا المقام إيجاز بديع، لأنهما يدُلَّان على الحدث ومكانه وزمانه، كما جاء بيانه فيما سبق لدى شرح المفردات اللّغويّة، والتدبُّر الأمثل يقتضي هنا أن نحمل اللّفظ على كلِّ معانيه التي يدلُّ عليها، إذ صيغة «متقلَّب» وصيغة «مَثْوَى» تصلح كلٌّ منهما لأن تكون اسم مكان واسم زمان ومصدراً ميميّاً[1].

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾﴾.

(١) انظر القاعدة الثامنة والعشرين، من كتاب «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ» للمؤلف.

يعرضُ الله عزّ وجلّ موقفَيْن متناقضَيْن أمام قضيّة واحدة:

الأول: موقف الذين آمنوا إيماناً صادقاً.

الثاني: موقف الّذين في قلوبهم مرض النفاق فما هو أقلّ من النفاق كضعف الإيمان، وعدم الصدق الكامل فيه.

أمّا القضيّة فهي قضية إنزال الأمر الصريح الواضح البيّن الْمُحْكَم بقتال الذين كفروا، لإعلاء كلمة الله، وتأمين الدعوة إلى دين الله، ونشر الحقّ والعدل في الأرض.

وقد كان موقف الذين آمنوا إيماناً صادقاً بالنسبة إلى هذه القضيّة أنّهم كانوا يقولون من حين لآخر مطالبين بتحضيض: لولاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ بيّنةٌ واضحةٌ نُؤْمَرُ فيها صراحةً بالتوجُّهِ إلى الأُمَمِ الكافرة لقتالها، بغية إعلاء كلمة الله، وتأمين الدعوة إلى دين الله، ونشر الحقّ والعدل في الأرض.

لكنّ موقف الذين كان في قلوبهم مرض النفاق فما هو أقلّ منه، قد كان موقفاً مختلفاً، فلقَدْ كانوا إذا أُنزِلَتْ سورة محكمةٌ بيّنةٌ واضحة لا غموض فيها، وجاء فيها ذِكْرُ القتال، بوصْفِه والدّعوة إليه، والحضّ عليه لاغتنام الأجر العظيم عند الله، ولو لم يَقْترِنْ ذلك بما يجعلُه فريضةً لازمةً، هَلِعُوا وظهرَتْ على وجوههم علامات الهَلَعِ ودَلائِلُه.

فكانوا إذا تَلاَ الرسول ﷺ آيات القتال وهم حاضرون يستمعون، يُصابون بالهلَع خوْفَ أن يُؤْمَروا بما هم به كافرون باطناً، أو بما لم يؤمنوا بعْدُ به إيماناً صحيحاً كاملاً، ويستدْعِي منهم تعريضَ أنفسهم للقتل، وهم حريصون على الحياة، وهذا الهلَعُ الذي تُصابُ به قلوبُهم ونُفوسُهم تدلّ عليه عُيُونُهم، إذْ يَنظُرونَ إلى الرسول ﷺ مبْهُوتين نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عليه من الموت، أي: كنَظَر الذي انتابَتْهُ إغْمَاءَةُ مقدّمات الموت، فجلَّلَتْ بصره، فشَخَصَتْ عيناه جامدتين، أو صارت تدوران بحَيْرةٍ على غير هُدى، لأنّهم لا يستطيعون أن يعترضوا بألسنتهم، إذْ يخْشَوْنَ انكشاف هُوِيَّتهم للمؤمنين، فتظهرُ انْفِعَالاتُهم الداخليّة أماراتٍ على وجوههم، وهذا شيءٌ لا يملكون منعه ولا دفعه، إلاّ بالتدرب والممارسة الطويلة.

وبعْدَ بيان هذه الظاهرة المنافية لمقتضى الإيمان الصحيح، والدّالّة على وجود

مرض داخلي في مركز الإيمان داخل القلب قال الله عزّ وجلّ:

﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾:

أي: فقد اقترب منهم ما يكرهون، بمحاولتهم الخلاص من القتال الذي يكرهون، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾:

جملة مستأنفة، حُذِفَ منها أحدُ رُكْنَي الإسناد فيها. والمعنى: المطلوبُ من المسلم في موضوعِ آيات القتال طاعةٌ وقولٌ معروف، أي: أن يُعْلن الطاعة وأن يقول بلسانه قولاً معروفاً، والقولُ المعروف من مسلم صادق الإسلام هو ما يدلُّ على صدق إسلامه، كأن يقول: سمعتُ وأطعت، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللّهم أمدّنا بعونٍ من لدنك، اللّهم ثَبّت أقدامنا وانْصُرنا على القوم الكافرين، اللّهم اقضِ لنا الخير حيث كان الخير، واكتب لنا السلامة والعافية، ونحو ذلك، إنّه لم يدخُلْ بعْدُ معركة القتال حتّى يُصابَ بالْهَلَع، وينظُرَ مثل نظر المغشيّ عليه من الموت.

لكنّ هؤلاء لا يستطيعون صرف الانفعالات المضادّة عن قلوبهم ونفوسهم، وتجاه الدعوة العامّة لقتال أوليائهم في الباطن، من المشركين واليهود والنصارى، إذ هم منافقون أو قريبون من النفاق، فالأمر بالنسبة إليهم أخْطَرُ منْ مُجرَّدِ كونهم يخافون على أنفسهم من الموت إذا خرجوا إلى القتال.

وإذْ كان هذا هو المعنى المراد قال الله تعالى:

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾:

أي: بعد إعلان الطاعة والقول المعروف قبل أن يجدّ الجدّ، يأتي في المستقبل احتمال صدور الأمر الجازم بالخروج الفعليّ إلى القتال، إذا عزَمَ أولياءُ الأمر وهم قادةُ المسلمين على الإلزام بالخروج للقتال، وعندئذٍ فقد يُفَسَّرُ التخاذل بالجبْن، الذي

لا يُنَافِض الإيمان، أمّا الهلَعُ منذ نزول آيات القتال بوجه عامّ فهو من أمارات النفاق، أو الضعف الشديد في الإيمان المشوب بشوائب النفاق حتماً.

وهكذا أشار النصّ إلى أنّ الجبْنَ عن قتال الكافرين في أيّام المعارك لا يدُلُّ على النفاق، إذْ قد يكون ظاهرةً من ظواهر الضعف البشري، عند فريق من المؤمنين الصادقين في إيمانهم، فقال تعالى:

﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾:

أي: فلو صدقوا الله في قتال الكافرين حينئذٍ ولم يَضْعُفوا عن القتال بسبب الجبن، لكان ذلك الصدق خيراً لهم عند ربّهم، إذْ يكون أجرهم عنده عظيماً.

والمعنى: ولو لم يَصْدُقوا في القتال يوم المعركة لما كان ذلك دَليلاً واضحاً على كفرهم، لاحتمال أن يكون أثَرَ جُبْنٍ في قلوبهم، الأمر الذي لا يتعارض مع صحّة أصل الإيمان، وقد اشتهرت عبارة الصِّدْق في القتال بمعنى بذل غاية الوسع فيه، لأنّه يدلّ حقّاً على طلب ثواب الآخرة وابتغاء مرضاة الله بصدق.

عبارةُ [عَزَمَ الأمْرُ] فيها إسناد فعل «عَزَمَ» إلى «الأمر»، فالأمر هو الفاعل في هذه الجملة، والمرادُ من الأمر أمْرُ التوجيه الفعلي الجازم لقتال الكافرين، والمرادُ من العزم هُنَا الإرادةُ من مستواها الأعلى المعلَنَةُ من قِبَلِ وَليّ الأمْرِ بالإلْزام بالخروج للقتال.

فكيف يُسْنَدُ العزمُ الذي هو فعلُ وليّ الأمر، إلى المأمور به، وهو التوجُّه للقتال.

قال البلاغيون: هذا من المجاز العقلي، الذي يُسْنَدُ فيه الفعل أو ما في معناه لغير من هو له، ممّا يُلابسه بوجه من الوجوه، كالمفعول به، والمصدر والزمان والمكان والسبب.

وهنا أُسْنِدَ الْفِعْلُ إلى المعمول، إذِ الفاعل لفعل «عَزَمَ» هو وليُّ الأمْر، والمَعْمُولُ هو الأمْرُ بالقتال، وقَدْ أُسْنِدَ فِعْلُ «عَزَمَ» إلى المفعول به، وهو «الأمر» أي: الأمْرُ بالقتال، فهو من قبيل المجاز العقلي، أمّا السّكّاكي فيدخل المجاز العقلي في عموم الاستعارة.

أقـول: هذا الأسلوب المجازي هُو من المجازات الموجودة كثيراً في كلام العرب، وهو من روائع مجازاتهم.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾﴾.

في هذا معالجةٌ لأفكارٍ يتحدّث بها المنافقون في أنفسهم، ولا يُفْصِحون عنها بألسنتهم، ونَسْتطيع أن نستدلّ عليها من طريقة المعالجة.

إنّهم يقولون في أنفسهم: لِمَاذا نُؤْمَرُ بالقتال الّذي قَدْ يَنْجُمُ عنه إفسادٌ في الأرض، وخرابٌ للعمران وإهلاكٌ للحرث، والذين نُؤْمَرُ بقتالهم قد يكونون من أرحامنا، ومن أقرب الناس إلينا، فلِمَاذا نُقاتِلُهُمْ ونُقطّع أرْحامنا؟!

والجوابُ على هذا الحديث النفسيّ الذي يتردّد في صدور المنافقين يكون بكشف ما سيكون من سلوكهم، لو كانوا هم أصحاب القوّة، وكانوا هم أولياء الأمر، وكانت الدولة القائمة دولَتهم، فَماذا سيفعلون؟

إنّهم إن تَوَلَّوا فسيكونون جبّارين في الأرض، لا تُمْسِكُ بهم رحمة، ولا تَرْدَعُهُم مبادىء.

إنّهم سيُفْسِدون في الأرض أيّما إفْساد، وسيقطّعون أرحامهم، لتحقيق أغراضهم الشخصيّة، ومصالحهم الدنيويّة، ولا تكون لهم مبادىء ولا قِيمٌ يدافعون عنها، إنّ قيمهم ستكون أهواءهم وشهواتهم ورغباتهم الخاصّة.

وقد عرض الله عزّ وجلّ عليهم هذا الجواب بأسلوب الاستفهام، فقال تعالى مخاطباً لهم:

﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾؟﴾!

وقد دلّت شواهد التاريخ على أنّ المنافقين ما ظهرتْ لهم دولة في الأرض، ولا قام لهم سلطان تولَّوْا فيه على عباد الله، إلاّ أفْسَدوا في الأرض إفساداً عظيماً، وقطّعوا أرحامهم، فلم يَعْبَؤوا بقوميّة ولا دين ولا مبدأ، بل كانت أهواؤهم ومصالحهم الخاصة هي الموجّهة لهم، بأنانيّة مقيتة لا تعترف بمبدأ ولا بقيمة من القيم.

هكذا كان المنافقون في الشعوب النصرانية، وهكذا كان المنافقون في تاريخ

الأمّة الإسلاميّة، وقد شهدنا في عصرنا الحاضر الذي عشناه أمثلةً كثيرةً من تولّي المنافقين وإفسادهم في الأرض، وتقطيعهم أرحامهم، وقتلهم لقومهم بلا شفقة ولا رحمة.

فمن الحكمة في البيان أن يُعْرِضَ الله عزّ وجل عَنْهُمْ بعد أن وَجّه لهم الخطاب، ويخاطِبَ الذين آمَنُوا بشأنهم فيقول:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: أولئك البعداء عن دائرة الإيمان، وعن الصِّراطِ المستقيم، الَّذِين طردَهُمُ الله فأخرجهم عن دائرة واسع رحمته، فهم في ضلالهم يتردّدون ويتحيّرون، وفي الظُّلُماتِ يتقلّبُونَ، وفي المهالك يتخبطون.

لقد اختاروا لأنفسهم السَّيْرَ في الظُّلُمات، بعيداً عن دعوة الحقّ، وأنوارِ الهداية، فجرت فيهم سُنَّةُ اللّهِ أَنْ لا يسمَعُوا شيئاً من بياناتِ دعوةِ الحقّ، وأن لا يَرَوْا شيئاً من معالم الهدى، كَمَنْ في أُذُنَيْهِ صَمَمٌ وفي عينيه عمىً بالنسبة إلى ذلك، وهذا من كسبهم الذي جَنَوْا بِه على أنفسهم، إذ اسْتخدموا سُنَّة الله التي تُصِمُّهم وتُعْمِيهم باختيارهم، ولم يَسْتَخْدِمُوا سُنَّة الله التي يكونون بها سميعين مبصرين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾؟!.

إنّ قوله تعالى خطاباً للمنافقين:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾:

تضمَّنَ مخاطَبَتَهُمْ بجواب إِسْكاتِيٍّ لَهُمْ يستند إلى ما في ضمائرهم وسرائرهم من رغباتِ إفسادٍ في الأرض وتقطيعٍ للأرحام لتحقيق مصالحهم وأهوائهم وشهواتهم الدنيوية.

أمّا الجواب الذي يتضمّن تبرير قتال الكافرين بالاستناد إلى مبادىء الحقّ والخير ومصالح الإنسانية جمعاء، فهو موزّع في سُور القرآن المختلفة، وعلى طالب الجواب

أن يتدبّر القرآن، لا أن يطرح شبهاته، ويدعها تتردّدُ في نفسه، دون أن يتدبّر القرآن وآياته، وهو يزعُمُ أنّه من المسلمين.

ولم يخاطبهم الله بهذا، بل أعْرَضَ عَنْهم وخَاطب المؤمنين به، فقال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ؟!﴾:

أي: ليتعرّفوا من خلال التدبّر على ما يدفعون به كلَّ شبهاتهم وأوهامهم.

والاستفهام هنا هو من قبيل الاستفهام التوبيخيّ لهم على إعراضهم عن القرآن وتدبّر دلالات آياته، وتركِ نفوسهم وعقولهم وقلوبهم عُرضةً لوساوس الشياطين، تطرح فيها الشبهات.

بعد هذا الاستفهام التوبيخيّ لهم قال تَعالَىٰ:

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: بل أحالُهُمْ التي هم عليها أنّ على قلوبٍ مريضةٍ في داخلهم أقْفَالَها، الّتي ضَرَبتها على أنفسها، بكُفْرِها وعنادها، بعد أن غلّقَتْ أبوابَها، لتمنع واردات المعارف الدينيّة، والهداية الرَّبّانيّة؟؟.

وهذا الاستفهام هو من قبيل الاستفهام التقريري، ويتضمّن التوبيخ أيضاً.

والمعنى أنهم أقفلوا قلوبهم، وانْصَرفُوا عن تدبُّر القرآن، وظاهرٌ أنّ جعل القلوب ذاتَ أبواب وأقفال هو من قبيل الاستعارة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾.

يكشف الله تعالى في هاتين الآيتين حالةَ ذوي النفاق الطارىء من عموم المنافقين، وهم الذين طرأ عليهم الاستقرار في النفاق بعد ضعف الإيمان الذي كانوا

فيه، وتبيَّنَ لهم به الهدى، وقد طرأ عليهم الاستقرار في النفاق بعد أن وجدوا أنفسهم مدعوّين للقتال، ويوجد في الذين سيقاتلونهم أقارِبُ وأرحامٌ لهم، وآخرون كانوا أولياءهم قبل الإسلام.

فوصف الله عزّ وجلّ هذه الفئة من المنافقين بأنّهم ارتدُّوا علىٰ أدبارهم، أي: رجَعُوا إلى الكفر الذي كانوا فيه قبل الإسلام، بعد أن تبيّن لهم الهدىٰ الذي تلقَّوْهُ من تعاليم الإسلام، وبيانات آيات الله في كتابه.

ولم يَرْجِعُوا إلى الكفر في ردّة ظاهرة، بل ارتدُّوا إلى الكفر بردّةٍ باطنة، فكانوا بذلك منافقين.

﴿عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾:

«أدْبار»: جمع «دُبُر» ودُبُر كلِّ شيءٍ عَقِبُهُ ومؤخّره، والشّيْءُ الذي كانوا قد تركوه بالإسلام وراء أدبارهم، هو الكفر، وحين ارتدُّوا سالكين جهة أدبارهم، ماشين في السُّبُل الّتي كانوا فارقوها، فإنهم قد انقلبوا بذلك على أدبارهم كافرين، لكنّهم لم يعلنوا كفرهم وردّتهم، بل استبقوا ظاهر انتمائهم إلى الإسلام، فهم بذلك قد نافقوا نفاقاً طارئاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾.

اسمُ موصول وصلته وهو اسمُ «إنَّ» التي جاءت لتأكيد الخبر، فما هو الخبر؟

الخبر هو جملة:

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾:

أي: إنّ الذي جعلهم يرتدُّون على أدْبارِهِمْ هو أنّ الشيطانَ سَوَّلَ لَهُمْ وأَمْلَىٰ لهم.

ونتساءل: كيف سوّل لهم الشيطان وأمْلَى لهم؟

أقول:

إنّ الشيطان حرّكَ في نفوسهم مصالحهم وأهواءهم تُجاه أوليائهم السابقين من أهل الكفر، حينما وُجِد المثير، وهو دعْوَتهم إلى قتالهم.

وهنا تنطلق في أذهانهم سلاسل الأفكار، وتتقلّب في داخلهم أحاديثُ النفس، ومعلومٌ أنّ الشيطان يجري من ابْنِ آدم مجرى الدَّم.

فيقولون: لمَاذا نُقاتل من كانوا أولياءنا بالأمس قبل أن نُسلم، فنقتلُ منهم ويقتلون منا؟ ولماذا نخسر مصالحنا معهم؟ أليس العيش معهم بسلام خيراً لنا في حياتنا؟ ما هذا الدين الجديد الذي مزّق وحدتنا، وشقّ صفوفنا، وجعل أمتنا أُمّتين، وعرَّضَنا للشقاق والخلاف والتقاتل؟ ألا يمكن أن تكون قصّة البعث والدار الآخرة مقولةً مخترعة؟ ألا يمكن أن يكون وجودنا مقتصراً على وجودنا في هذه الحياة الدنيا؟

وهكذا إلى سلسلة تساؤلات تسويليّة، صبر الشيطان طويلاً وهو يقذف بها واحدة بعد أخرى، فكلّما ولّد تسويلٌ شكّاً، انتقل إلى تسويل آخر، بأسلوب الخطوات المتدرّجة، فيكون الشيطان بذلك قد سوّل لهم، وأملى لهم، أي طوّل صبره لأجل إغوائهم، أو طوّل لهم الحبل لينطلقوا في سلاسل الأفكار التي تُغْويهم وتغريهم، وبهذا يكون بدْءُ التسويل بالأفكار من الشيطان، ثم تتوارد سلاسل الأفكار الباطلة من تطويل الشيطان الحبل، حتى يسوموا في المرتع الذي يجعلهم فيه، كمن يأتي لدابته فيطعمها قبضة من نبات الأرض، حتى إذا استطابته وضعها في مكان ذلك النبات، وطوّل لها الرسن وأملاه لها، حتى ترتع بنفسها، لكنها لن تأكل إلاّ من النبات الذي وضعها هو فيه.

فما الذي جعل الشيطان يسيطر عليهم بالتسويل لهم والإملاء لهم، حتى أخرجهم من الإيمان إلى الكفر مرتدين منافقين؟

إنّه ضعف إيمانهم الذي أزلقهم فجعلهم يقولون لأهل الكفر من أوليائهم السابقين: المشركين واليهود والنصارىٰ بمناسبة دعوتهم إلى قتالهم: سنطيعكم في بعض الأمر.

فالإنسان متى انزلق في الخطيئة الأولى سَهُل على الشيطان أن يستدرجه إلى ما بعدها، حتى يطرحه في الهاوية، إذا لم يتب من قريب، ويرجع إلى الطاعة والاستقامة.

أبان الله عزّ وجلّ هذا السبب الذي جعل الشيطان يتسلّط عليهم فيسوّل لهم

ويُمْلي لهم، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ... ﴿٢٦﴾﴾.

المشار إليه بلفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو مضمون:

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

والمعنى: ذلك كان بسبب أنّهم قالُوا للّذين كرِهُوا ما نزَّل الله، وهم أهل الكفر من المشركين واليهود والنصارىٰ، فهم الذين كرهوا ما نزّل الله على رسوله بوجه عام، وكرهوا ما نزَّل الله من دعوة المؤمنين إلى قتالهم على وجه الخصوص.

ويظهر أنّ الكافرين استدرجوا من كانوا أولياءهم قبل الإسلام من ضعفاء الإيمان، فقالُوا لَهُمْ: كيف تقاتلوننا مع محمّد وأصحابه، وأنتم إخواننا قبل هذا الدِّين، وكانَ بينا وبينكم مودّة وصفاء وموالاة؟! فأجابوهم بأنّهم لا يستطيعون أن يرجعوا إلى الكفر، ويحاربوا الرسول وأصحابه، وبَعْدَ مراوضة ومفاوضة، قالوا لهم مداراة لهم، ومحافظةً على مودّتهم: سنطيعكم في بعض الأمر، فقبلوا منهم ذلك.

ويمكن أن يدخل في بعض الأمر هذا إعلامُهم ببعض الأخبار والتحركات، وأنّهم إذا واجهوهم في القتال فإنّهم يراءُون بقتالهم ويكفّون عنهم فعْلاً.

فاتخذ الشيطان من هذا المنزلق سبباً يجُرُّ به هؤلاء إلى الكفر والنفاق.

ولمّا كان هذا الأمْر قد حدَثَ سِرّاً بين الفريقين، كان من الحكمة في البيان أن يختمه الله بقوله:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾:

جمع «سِرّ» كما جاء في قراءة الجمهور.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾:

مصدر «أَسَرَّ» كما جاء في القراءة الأخرى.

فدلّت القراءتان على أن الله عزّ وجلّ يعلم «أَسْرَارَهم» التي أَسَرُّوا بها للّذين كرهوا ما نَزَّلَ اللَّهُ من دَعْوة المؤمنين إلى قتالهم، ويَعْلَمُ حدثَ الإسْرار الذي كان منهم في زمانه ومكانه.

وبيانُ هذا العلم يتضمن إشعاراً بأنهم مُهَدَّدُونَ بفضيحتهم لدى الرّسول والمؤمنين، ومُهَدَّدُون بمعاقبتهم على ما كان منهم من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يُسِرُّون إليهم بالمودّة، وببعض المعونة والمناصرة.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

بعدما سبق من حديثٍ حولَ المنافقين وبعضِ صفاتِهم في السلوك الظاهر والباطن، اقتضت الحكمةُ الرّبانيّة في الدعوة والتربية، إنذارَهُمْ بما هو مُعَدٌّ لهم عندما تتوفاهم ملائكة الموت، إذْ يواجهون ساعتئذٍ أوّل عذابهم مع أوّل منازلهم في الآخرة.

إنّ ملائكة الموت إذا جاءتهم لتَقْبض أرواحهم، فإنَّ أوّل ما تلقاهم به من تعذيبٍ أن تضربَ وُجوهَهُمُ المنافقة الكاذبَةَ الّتي كانوا يستقبلون بها المؤمنين، زاعمين بها لهم أنّهم مؤمنون مثلهم، وهم كاذِبُون، وأن تضربَ أدْبارَهم الّتي ارتدُّوا عليها مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى، فكفَرُوا بعد إيمانهم.

وقد جاء هذا الإنذار بأسلوب الاستفهام عن حالتهم حين يضرب الملائكة وجوهم وأدْبارهم ساعة قبض أرواحهم عند انتهاء آجالهم في الحياة الدنيا.

أي: فكيف تكونُ حالتُهم النفسية والجسدية حينئذ؟ إنّ جواب هذا الاستفهام يُدْرَك بالبداهة، فلا حاجة إلى التصريح به في البيان البليغ، إنّ حالتهم تكون حالة الأشقياء التعساء الخاشعين المعذّبين المخزيين النادمين على ما كان منهم من كفر ونفاق.

هذا ما نفهمه من قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾؟!.

بعد هذا الإنذار أبان الله عزّ وجلّ سَبَب إنْزَال الْعَذابِ بِهِمْ، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

المشار إليه بلفظ [ذَلِكَ] ما سبق بيانه من ضَرْب وجُوهِهِمْ وأدبارهم عندما تتوفاهم الملائكة. والباءُ في [بِأَنَّهُمْ] سببيّة، أي: بسبب أنهم، وجاء في الآية ذِكْرُ سببَيْن:

الأول: أَنَّهُمُ اتَّبعُوا مَا أَسْخَطَ الله، وذلك لأنهم حين ارتدّوا على أدبارهم في الباطن كافرين، فإنّهم منذ تلك اللّحظة اتَّبعُوا الأهواء والشهوات وخطوات الشياطين، وتعاليم المضلّين من الإنس والجنّ، وكلّ ذلِكَ من الأمور التي تسخط الله عزّ وجلّ، لأنّها تناقضُ الدين الذي ارتضاه لعباده، دلّ عليه قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾.

الثاني: أَنَّهُمْ كَرِهُوا رِضْوَانَ اللّٰه، وذلِكَ لأَنَّهُمْ كرِهُوا العمل بما أنزل الله لعباده من أوامر ونواهي، ومنها الإذن بقتال الذين كفروا لإعلاء كلمة الله وتأمين الدعوة إلى دينه، وإقامة الحقّ والعدل في الأرض، فهي الأمور التي رضيها لعباده، وجعل رضوانه على عباده لا يتحقّق إلّا إذا أطاعوه فيما رضي لهم من عمل.

فجمعوا بين الخسّتَيْن، المعصية التطبيقيّة العمليّة، والكراهية القلبيّة لدين الله والعملِ بمراضيه، فكانوا بذلك كافرين، لا مُجرَّدَ عُصَاةٍ مؤمنين، إذْ كَراهيةُ رِضوان اللّٰهِ من نواقض الإيمان.

أمّا أعمالهم الصالحة التي عملوها في مدّة إيمانهم قبل ردّتهم إلى الكفر في الباطن فإنّ الله عزّ وجلّ يُحْبِطُها لهم، لأنّ الكفر كان السبب في إلغائها، ومعنى «يُحْبِطُها» يُبطِلُهَا ويُلْغيها.

وكذلك يحبط الله أعمالهم التي يعملونها ضدّ المؤمنين، لمناصرة الكافرين الصرحاء الذين اتفقوا معهم على أن يطيعوهم في بعض الأمر، وينصرُ الله أولياءَه ضدّ أعدائه من الكافرين والمنافقين.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ۝٢٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٠﴾.

هاتان الآيتان تُعالجان قَضِيَّةَ إخفاء المنافقين هُوِيَّةَ أنفسهم، التي تُضْمِر الأضْغَان، أي: الأحْقاد المشتملة على العداوة للإسلام والمسلمين، مع إرادة الكيد، وتَرَبُّص الفرصِ الملائمة لمحو الإسلام واضطهاد المسلمين وتمزيقهم وإبادتهم.

وهذه المعالجة تناولت تَحْذِيرَ المنافقين من كشف هوِيّتهم الحقيقية للرّسول وللمؤمنين، وتناولت الإلماح للمؤمنين بأنّ باستطاعتهم التعرّف عليهم بوسيلتين:

الوسيلة الأولى: التفرّس في سيماهم، وهي العلامات التي قد تظهر أحياناً على وجوههم وفي أعمالهم وتصرّفاتهم، ولكنّ هذه الفراسة تحتاج خاصيَّة استشعار يمنحها اللَّهُ لبعض عباده، وتقدّم ظنّاً، يمكن بالبحث والمتابعة للتصرفات السّرّية تأكيده أو رفضه.

الوسيلة الثانية: التعرّف عليهم من خلال أقوالهم التي لا يستطيعون أن يجعلوها صريحة واضحة تندفع بالتلقائيّة، بل لا بدّ أن تدخل فيها تعريضات وتلميحات ورمزيات وكنايات تكشف مراداتهم، وبالتالي تكشف هوِيّاتهم الحقيقيّة، وقد جاء التعبير عنها بعبارة «لَحْنِ القول».

فهي أمور ثلاثة قد يفضحهم الله عن طريقها:

الأمر الأول: وضعهم في اختبارات صعبة يكشف الله بها أضغانهم، فيعرفُ المؤمنون بذلك حقيقتهم.

دلّ على هذا الأمر قول الله عزّ وجل:

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ۝٢٩﴾:

أي: إذا تركنا أمْرَ عقابهم منذ أوّل منازل الآخرة حتى بلوغهم الدرك الأسفل من النّار يوم الدين، أَحَسِبَ هؤلاء الذين في قلوبهم مرض النفاق أنْ لن يُعَرِّضَهُم الله في حياتهم الدنيا لاختبارات صعبةٍ على نفوسهم يُضْطرون معها أن يُعبّروا عن أضغانهم

المكتومة في صدورهم، بأعمالهم وأقوالهم، فينكشفوا للرّسول وللمؤمنين، فيعاملُون بمقتضاها على أنهم كافرون مرتدُّون، وعندئذ يُنزل المؤمنون بهم العقاب الملائم.

فعل «حَسِبَ» لم يأت في القرآن إلّا بمعنى الظنّ الكاذب والتوهُّم الضعيف المردود.

الأمر الثاني: السيما، وهي العلامة الظاهرة التي تدلّ على ما في الباطن، فمن سُنَّةِ الله في الوجود كلّه أنْ جعل لكلّ أمْرٍ مخْفِيٍّ في الباطن ما يدُلُّ عليه من الظاهر، يعرف هذا من يعرفه من أهل الفراسة أو الخبرة الطويلة، ويجهله من يجهله وهم الأكثرون.

إنّ لذي النفس الثعلبيّة علاماتٍ في وجهه وتصرّفاته تدلّ على ثعلبيّته، وللغضب الداخلي علامات في الظاهر، وللخوف علامات، وللحبّ علامات، وللكراهية علامات، وللثمرة الطيبة علامات، ولغيرها علامات، ولأحواض النِّفْط في باطن الأرض علامات في ظاهرها يستشعرها الخبراء، وللماء في باطن الأرض علامات في ظاهرها يدركها طائر الهدهد، وبعضُ المتنصتين على الأرْض بآذانهم من الناس، إلى غير ذلك.

فمن أسرّ سَريرة من خير أو شرّ ألبسه الله منها رداءً.

دلّ على هذا الأمر قول الله لرسوله:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾:

أي: ولو نشاء لأريناكَهُمْ بأشخاصهم، وعندئذ تكتشف أنّ لهم سيما في وجوههم وتصرّفاتهم تدلُّ عليهم، فمن وهبه الله قدرة التفرس في الناس، أو كانَ ذا خبرة بأحوال المنافقين نتجت عن تعامله معهم، كان مؤهلاً لأن يعرف المنافق عن طريق العلامات الظاهرة التي خبرها في المنافقين، أو لديه القدرة الخاصة على استشعارها.

الأمر الثالث: لَحْنُ القول الذي يجري في أقوالهم في كثير من الأحيان، لأنهم لا يستطيعون دائماً أن يكونوا صُرحاء، يقولون ما هو في باطنهم، لذلك فهم يتكلّفون أن يقولوا في مجالس المؤمنين ما لا يعتقدون، ومع هذا التكلّف لا بدّ أن تغلبهم طبيعة

نفوسهم، فيظهر في فلتات ألسنتهم ما يدلّ على حقيقتهم، أو يقولون أقوالاً مزدوجة الدلالة، فإحدى الدلالتين لما يظهرون من إسلام، والأخرى لما يُبْطنون من كفر، والألمعيّ الْفَطِن يدرك الدلالة الأخرى التي يكشف بها نفاقهم وباطن كفرهم، ومن لحن القول الذي يصْدُر عنهم أنْ يُتَابِعوا اليهود في تحيّتهمْ للرسول والمؤمنين، فيقولوا: «السّام عليكم» بدل «السلام عليكم» فيخفوا اللام من لفظ السلام، والسّام هو الموت، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله في النص (٢٧) من سورة (المجادلة).

دلّ على هذا الأمر قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾:

أي: ولتعرفنّهم في لحن القول الذي يقولونه أمامك، ولو لم نعيّنْهُمْ لك بأشخاصهم. ويظهر أنّ هذه المعرفة لا تختصّ بالرّسول، إلاّ أن الرسول أكثر فطانة من غيره، فمعرفته للمنافقين عن طريق لحن القول أسَدّ وأشدّ.

وأخيراً يوجّه الله عز وجلّ الرسول والّذين آمنوا للعمل على كشف المنافقين بمختلف الوسائل المتاحة، لا من أجل إدانتهم بالكفر ما لم يعلنوه، ولكن للحذر منهم، ولئلا يغترّوا بهم، فيقعوا فريسة مكايدهم وهم داخل صفوفهم، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٠﴾:

أي: واعْمَلُوا للحذر من المنافقين بملاحظة علاماتهم، والتّفطُّن إلى لَحْنِ أقوالهم وتَتَبّع تصرّفاتهم، لاستبطان هوّيتهم الحقيقية، والله الذي يعلَمُ أعمالكم يُعينُكم ويهديكم، ويكشف أضغانهم لكم.

أقول:

ومع الأسف الشديد فقد سقط المسلمون في حبائل كثير من المنافقين، لأنّهم لم يتنبّهُوا لهذا التعليم والتوجيه الرّبّاني، وظنُّوا أنّ الأمر بمعاملة الناس بحسب ظواهرهم يلغي واجب التفرّس والتتبع والحذر الشديد.

إنّ معاملة الناس بحسب ظواهرهم تقتصر على دائرة الحكم عليهم بالرّدة أو الإسلام، ولا تتعداها لاتّخاذ بطانة من المشكوك في أمرهم، ولو بالتفرس والظنّ،

فتقريب المشكوك فيهم إلى مواطن معرفة الأسرار، أو إلى مراكز القيادة والتوجيه، أو إلى كراسيّ الاستشارة، ورطةٌ عظمى تُدَمّر شؤون الأمة الإسلامية، وتسمح للأعداء بأن يتسلّلوا للقبض على نواصي إدارتها، وهي غافلة مُغرَّرٌ بها، تسير بغباء، بدعوى حسن الظنّ، والعمل بالظاهر.

وكم من عدوّ للإسلام أعلَن إسلامه فقامت دعاية الفرحة به، ورفعته طائفة إلى مراكز القيادة والتوجيه، فكان الموجّه والمستشار الكبير لمشكلات المسلمين.

هذا غباء، ومخالف لوصايا ربّنا عزّ وجلّ، ويتضمّن خيانةً للأمة الإسلامية، وخيانةً للإسلام.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

بمناسبة الكلام المتعلّق بقتال الكافرين، وهلَع المنافقين لدى سماعهم الآيات التي يُذكرُ فيها القتال، وشبهاتهم التي تتردّد في صدورهم، وقد يظهر بعضها في لحن القول الذي يقولونه، وقد يرافق ذلك تساؤلات، منها: ألَا يستطيع ربّنا أن يتخذ من لَدُنْهُ وسائل يَنْصُرُ بها الذين آمنوا على الذين كفروا، دون أن يعرّض أولياءه المؤمنين لقتال الكافرين؟.

وفي هذه الآية أبان عزّ وجلّ أنّ من أغراض أمر المؤمنين بأن يقاتلوا الكافرين، ابتلاءَ المؤمنين أنفسهم، فبهذا الابتلاء يتميّز المجاهدون بحسب مراتبهم ودرجاتهم من غير المجاهدين، ويتميّزُ الصابرون بحسب مراتبهم ودرجاتهم من غير الصابرين، ذوي الهلع والجزع، وتنكشف أمور كثيرة تُميّز طلاب الآخرة من طلّاب الدنيا، وتكشف المنافقين وأعمالهم، إلى غير ذلك، والخطابُ في هذه الآية موجّه لعموم المسلمين وفيهم المنافقون.

فأكّد الله عزّ وجلّ بالقسم وتوابعه إرادتَهُ الجازمة في امتحان المسلمين فقال:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾:

أي: ياأيها المسلمون جميعاً.

وأبانَ أنّ حكمة الابتلاء ستستمرّ مع ظروف الحياة الدّنيا، حتى يعْلَمَ في تتابع الأجيال المجاهدين، أي: على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، وحتى يعْلَمَ الصابرين، أي: على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم.

وحتّىٰ يعْلَمَ أخبار جميع المسلمين، في مجال نصرة الدين، ومقاتلة الكافرين، أي: حتّىٰ يعلم ما يكون من كلّ منهم من تصرّفات وأعمال، وسمّاها الله عزّ وجلّ أخباراً لأنها بعد الوقوع تغدو أخباراً كاشفة لما في السّرائر، فقال تعالى:

﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾.

وقد أكّد الله عزّ وجلّ وفصّل في هذه الآية بالقسم ما جاء في أوائل السورة نفسها من غير قسم ولا تفصيل، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ... ﴿٤﴾﴾.

إنّ وجود الإنسان في هذه الحياة الدنيا قائم على حكمة الابتلاء فيها، ليكون أساساً للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء بالفضل أو بالعدل في الحياة الأخرى يوم الدّين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

في ختام هذا النصّ من سورة (محمّد) الذي عالج قضايا تتعلّق بالمنافقين، قضت حكمة الله بأنْ يُبيّن لهم وللمؤمنين أنّ الاهتمام بمعالجتهم إنما هو من أجلهم، لإنقاذهم وإسعادهم، لا من أجله ولا من أجل دينه ولا من أجل رسوله، وذلك لأنّهم مهما عملوا من عمل وكادُوا من كَيْدٍ ومَكَرُوا مِنْ مكْرٍ، فإنهم لَنْ يضُرُّوا اللَّهَ شيئاً في ذاته أو دينه أو رسوله، لأنّه عزّ وجلّ سَيُحْبِط أعمالهم، أي: يُبْطلُها ويلغي آثارها، أمّا الدين والقرآن فقد تكفّل الله بحفظهما، وأمّا الرسول فقد تكفّل الله بعصمته من الناس،

بقيت أعمالهم التي يعملونها ضدّ جماعة المسلمين، وهذه تدخل في حكمة الابتلاء، فإذا تقيد المسلمون بمنهاج الله واتبعوا تعاليمه في المنافقين، فسيكشفهم الله لهم وينصرُهم عليهم، وإن أهمل المسلمون منهاج الله، ولم يتبعوا تعاليمه في المنافقين، فمن سنّة الله أن يتركهم وشأنهم، وينزل فيهم عقابه، ويمكّن أعداءهم منهم، وهذا ما حصل في عصور تاريخ المسلمين.

فالمنافقون الذين تعرّضت لكشفهم ومعالجتهم معظم آيات هذا النصّ، هم الذين طرأ عليهم النفاق، من بعد أن أسْلَمُوا وتَبيَّن لهم الهدى، فارتَدُّوا على أدبارهم كافِرين.

فمن المناسب أن تُبيّن آية الختام كُفْرَهُمْ في الباطن، وصدُّهُمْ عن سبيل الله، ومشاقتهم للرسول، وأن تُبَيِّنَ أنّ ذلك كلّه قد حصل منهم بعد ما تبيّن لهم الهدى، وأن تبني على هذه الأوصاف التي حدّدتها لهم قضيتين:

الأولى: أنّهم لن يضرّوا الله بكفرهم وصدّهم ومشاقتهم الرسول شيئاً.

الثانية: أنّ الله سَيُحْبِطُ أعمالَهُمْ ضدّ دينه وكتابه ورسوله، مهما كادوا ومكروا مَكْراً كُبَّاراً داخل صفوف المسلمين.

فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

أي: إنّ هؤلاء الذين كفروا مرتدين عن الإسلام في الباطن، وظلُّوا محافظين على انتمائهم للإسلام في الظاهر.

﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: أعرضوا عن دين الله وامتنعوا عن متابعة المسير فيه، وربّما منعوا غيرهم أيضاً عن ذلك سرّاً.

﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾:

أي: وعادوا الرَّسُول وخالفوه، وجعلوا أنفسهم باطناً في شقٍّ غير شقه.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾:

أي: من بعـد أن أسلموا ورأوا وضـوح صراط الله المستقيم، وتبيّن لهم أنـه حقّ وخير ورشاد، وأن النور يملؤه.

﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾:

أي: في ذاته، أو دينه، أو كتابه أو رسوله.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾:

أي: وسيبطل ويلغي أثر أعمالهم التي يعملونها بالكيد والمكر عن طريق النفاق، ليحفظ دينه وكتابه ورسوله والمؤمنين الصادقين الملتزمين منهاج الله وتعاليمه وسنة رسوله.

وانتهى النص

• • •

النصّ الحادي والعشرون

وهو من سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول)

«السورة الخامسة عشرة من التنزيل المدني»

الآيـات مـن (١١ ـ ١٧)

حـول موقف المنافقين وخيـانتهم
في أحـداث إجـلاء يهـود بني النضـير

قال الله عزّ وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ
لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ
بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤)
كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ
لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ
عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾.

* * *

(١)

القراءات المتواترة في هذا النصّ (من الفرش)

* في الآية (١٤):

(١) قرأ جمهور القُرّاء العشرة: [مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ] جَمْع «جدار».

وقرأ ابن كثير المكي وأبو عمرو البصري: [مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ] بالإفراد. فدلّت القراءتان على أنّهم إنْ كانوا قلّة يكفيهم جدار واحد، فإنّهم لا يقاتلون إلاّ من وراء جدار، وإنْ كانوا كثيرين يحتاجون جُدُراً كثيرة، فإنَّهُمْ لاَ يُقَاتِلُونَ إلاَّ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ.

* في الآية (١٦):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [إنِّي أخافُ] بإسكان الياء من [إنّي].

وقرأ المدنيان نافع وأبو جعفر، والمكيّ ابن كثير، والبصريّ أبو عَمْرو: [إنّيَ] بفَتْح الياء.

والقراءتان لغتان في ياءِ المتكلّم.

* * *

(٢)

موضوع النصّ وسبب نزوله

تعرّض هذا النصّ لبيان ما كان من المنافقين من خيانة للرسول وللمؤمنين، إذْ بعثوا إلى يهود بني النضير يشدّون أزرهم، ويَعِدُونهم بالنصر، حين حاصرهم الرسول وأصحابه، ثم أجلاهم، لأنّهم دبّروا أمر قتله غيلةً وهو في حيّهم.

ودار النصّ حول كشف خيانة المنافقين هذه، وما يتطلّبه البيان الربّاني بشأنها يومئذٍ.

سبب النزول:

لا خلاف في أنّ سورة (الحشر) نزلت بمناسبة ما كان من يهود بني النضير من خيانة ونقض للعهد، بمحاولتهم اغتيال الرسول ﷺ في ديارهم، فحاصرهم، وألقى الله في قلوبهم الرّعب، ثم طلبوا إجلاءهم، فوافقهم.

فمناسبة إنزال الآيات الّتي تكشف موقف بعض المنافقين الخائن خلال تلك الأحداث، تابعة لإنزال السورة كلّها.

لذلك كان ابن عبّاس يسمّي سورة «الحشر» سورة «بني النضير» كما روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرهما.

خلاصة القصة:

لمّا قدم الرسول ﷺ المدينة، وقامت فيها النواة الأولى لدولة الإسلام والمسلمين، كتب لليهود فيها عهداً أمَّنَهُمْ فيه على أرواحهم، وأموالهم، وأعراضهم، وحرّياتهم الدينيّة، بشرط ألّا يغدُروا، ولا يخُونوا، ولا يُعِينُوا أحداً على المسلمين، ولا يَمُدُّوا يداً بأذى، لكنّهم ما لبثوا حتى خالفوا في كلّ ذلك.

فكان الرسول ﷺ يعاقب من ينقض العهد منهم أوّلاً بأول، بحسب قبائلهم، ولا يُعامِلُهم جميعاً بخيانة قبيلة واحدةٍ منهم.

فخانت يهود بني قينقاع، فحاصرهم الرسول وأصحابه، وألقى الله الرعب في قلوبهم، ونزلوا بعد محاصرته لهم خمس عشرة ليلة على حكمه، فتوسط من أجلهم رئيس المنافقين «عبد الله بْنُ أبي بن سلول» لدى الرسول، وكانوا حلفاءه وحلفاء قبيلته الخزرجيين سابقاً، فاكْتَفَى الرسول بإجلائهم عن المدينة، فخرجوا منها إلى الشام، ونزلوا بأذرعات، ولم يلْبثوا حتّى هلَكَ أكثرهم.

واستمرّ الرسول ﷺ يعامل سائر اليهود في المدينة بحُسْنِ الجوار، وبمقتضى بنود العهد والموادعة، في الكتاب الذي كان قد كتبه لليهود، منذ قَدِم المدينة.

وقد تضمّن الكتاب إقرارهم على أوضاعهم الأولى، ومنها الاستمرار على ما كانوا عليه معَ عَرَب المدينة في الدّيات، فهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، ونظراً إلى الأحْلافِ التي كانت بين عرب المدينة ويهودها، فإنّهم كانوا يشتركون في دفع الديات، وقد أقرّ الرسول ﷺ هذا من أعرافهم.

ودعت المصلحة الأدبيّة أن يدفع المسلمون دية قتيلين مشركين من بني عامر، قتلهما أحد المسلمين، واسمه: «عمْرو بن أُمَيَّة» وكان معهما عقد من رسول الله ﷺ لم يعلم به عمْرو.

وقد فعل «عمْرو بن أميّة» ما فعل انتقاماً لوفد المسلمين، الّذين ذهبوا إلى بني عامر، بجوار سيّدهم «أبي براء بن مالك» وكانوا سبعين رجُلاً، يحملون معهم بطلبٍ من سيّدهم «أبي براء بن مالك» كتاب رسول الله ﷺ، ولكنّهم لمّا وصلوا إلى القوم عدا عليهم منهم «عَامِرُ بن الطُفيل» واستصرخ على المسلمين بعضَ القبائل، فأجابوه، وأحاط بالمسلمين، فقتلهم كلّهم، ولم يَسْلَمْ منهم إلاّ «كعبُ بن زيد الأنصاري» فقد تركوه وبه رمَقٌ، فعاش حتّى قُتِلَ يومَ الخندق.

إلاّ أن النبيّ ﷺ ــ مع ذلك ــ رأى أن يدفع دية القتيلين من بني عامر، لأنّ معهما عقداً منه، فقال لعمْرو بن أمية: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لأَدِيَنَّهُمَا».

وعملاً بالأعراف والأحلاف المتبعة، في جمع الديات من القوم ومن أحلافهم، فقد جمع الرسول ﷺ من المسلمين ما جمع، وخرج مع نفرٍ من أصحابه، فيهم أبو بكر، وعمر، وعلي، إلى بني النضير، وطلب منهم أن يُشَارِكوا في دية القتيلين، لِيُشْعِرَهم بالتزامه بكتاب العهد، وبِحُسْنِ الجوار، وبسلامة نيّته نحوهم، وبأنّ إجْلاءَ بني قينقاع قد كان بسبب ما كان منهم من شرٍّ ونقضٍ للعهد.

فقال رؤساء بني النضير: «نعم يا أبا القاسم، نُعينُكَ على ما أحببت، ممّا استعنت بنا عليه».

وذهبوا ليفكروا فيما يدفعون من المال، مساهمة في دية القتيلين، وخلا بعضهم ببعض، ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ إلى جنب جدارٍ من بيوتهم، مع النفر من أصحابه.

فقال اليهود في خلوتهم: «إنّكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فَمَنْ رجُلٌ يَعْلُو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرةً فيريحنا منه؟».

فانتدب لذلك «عمرو بن جَحّاشٍ بنِ كعب» أحد يهود بني النضير، فقال: «أنا لذلك» فنهاهم عنه أحد أحبارهم، وهو سلاّمُ بن مِشْكَم، وقال لهم: «هو يعلم» فلم يقبلوا منه.

وصعد «عمْرو بن جحّاش» ليلقي على الرسول ﷺ صخرة يغتاله بها، فنزل على رسول الله ﷺ الوحي من السماء بما أراد القوم، وأنّ اليهود قد ائتمروا به ليقتلوه،

وطلبَ منْهُ الانسحاب في صمت، فقام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتّى آتيكم، وخرج راجعاً إلى المدينة دون أن يُخْبر أصحابه بالأمر، وظنُّوا أنّه قد ذهب لبعض حاجته، وهو عائد إليهم.

فلمّا طال انتظار أصحاب الرسول قاموا في طلبه، فالْتَقَوْا برجُلٍ مُقْبلٍ من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيتُه داخلاً المدينة.

فأقبل أصحاب الرسول ﷺ حتّى انتهَوْا إليه، فأخبرهم الخبر، وبما كانت اليهود قد دبّرت من الغدر به، وشاع في المدينة خبر المكيدة التي دبّرها يهود بني النضير، لقتل الرسول غيلة وغدراً، وضجّ المسلمون بالتذمّر، وأخذ اليهود يلوم بعضُهم بعضاً على هذه الجريمة الشنعاء، ولم يُنكروا مكيدة الغدر بالرّسول.

عندئذٍ أمر الرسول ﷺ بالتهيُّؤ لحرب بني النضير، والسّير إليهم بعد الذي كان منهم، واستعمل على المدينة «ابْنَ أُمّ مكتوم».

وسار بالمسلمين في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، حتّى نزل بهم، فتحصّنُوا من المسلمين في حصونهم، وحاصرهم رسول الله ﷺ حصاراً دام ست ليالٍ.

وفي هذه الأثناء لعبت أصابع النفاق الموالية لليهود، فبعث إليهم رهطٌ من المنافقين، منهم: «عبد الله بن أبي بن سلُول» رئيس المنافقين في المدينة و«وديعة، ومَالِكُ بنُ قَوْقل، وسُوَيد، ودَاعِس» أن اثبتُوا وتمنَّعُوا، فإنّا لن نُسْلمكُمْ، فإن قُوتلْتُم قاتلنا معكم، وإنْ أُخْرِجْتُمْ خَرَجنا معكم.

فانتظر يهود بني النضير منهم أن يَنْصُروهم فلم يفعلوا، وخافوا على أنفسهم، وقذف الله الرُّعب في قلوبهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يُجْلِيهم كما أجلَى بني قيقناع، ويكُفّ عن دمائهم، على أنّ لهم ما حملت الإبلُ من الأموال إلّا السلاح، فوافق الرسول على ذلك، فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل، فكان الرجلُ منهم يهدم بيته عن نِجَاف[1] بابه، ليحمله معه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى

(١) نِجَافُ الباب: الخشب الذي يلصق بالجدار عند فتحه الباب، من الجانبين ومن الأعلى.

خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وأنزل الله فيهم وبمناسبة ما جرى من هذه الأحداث سورة (الحشر).

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

استفهام عن عدم وجود الرُّؤية، بمعنى العلم، والغرضُ منه الإعلام بالمسْتَفْهَم عنه، أو لفتُ النظر إليه لمعرفته، أو التَّنبيهُ عليه لاستحضاره في الذهن، تمهيداً لبناء ما يراد التعريفُ به وبيانُه من قضايا تتعلّق به.

والخطابُ موجّه لكل مؤمن بأسلوب الخطاب الإفرادي، ومع هذا الخطاب يَسْمَع المنافقون، وإخوانهم من الكافرين الصرحاء، فيحذر من يَحْذر، أو يَتُوب من يتوب، أو يكفُّ من يكف، ويعلم الجميع أنّ الله لا يخفىٰ عليه شيء.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾:

أي: إلى الذين سبق منهم النفاق، فهو مستمرٌّ فيهم، وبمقتضاه يكون منهم تصرّفات منافية لمقتضى الإيمان، وعُدّي فعل «ترى» بحرف الجر «إلى» لتضمينه معنى فعل «تنظر» فالمعنى: ألم ترَ ناظراً إلى الذين نافقوا.

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾:

أي: ليهود بني النضير الذين كفروا بالرسول محمّد وبما جاء به عن ربّهم من الحقّ والْهُدى، وجعلهم الله إخوانهم لأنّهم اشتركوا معهم في هذا الكفر، إذ المنافقون كافرون باطناً بمحمّد وبما جاء به عن الله.

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾:

أي: نُقسِمُ لكم لَئِنْ أخرجكم محمّد إذا أجهدكم الحصار، ولم تستطيعوا مقاتلة أصحابه، لنَخْرُجَنَّ معكم. اللام في [لَئِنْ] موطئة للقسم، واللاّم في [لَنَخْرُجَنَّ] واقعة في جواب القسم، وجوابُ القسم سدَّ مسدّ جواب الشرط.

﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾:

أي: ولا نُطِيعُ في شأن حربكم وقتالهم، أو إخراجكم، أو سلبكم أحداً أبداً، لا محمّداً وصحبه، ولا غيرهم، فأنتم إخواننا وحلفاؤنا.

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾:

أي: والله يَعْلَمُ عِلْم شهود لأحوالهم ظاهراً وباطناً، ويقدّم شهادتَهُ بذلك في بيانه للمسلمين المؤمنين. والقول الذي يشهد الله به هو: إنَّهُمْ لكاذبون أي: فيما قالوا لإخوانهم من أهل الكتاب «يهود بني النضير».

فعل «شَهِد» يأتي بمعنى «حَضَرَ» ويأتي بمعنى: أخبر بأنه يعلم بأن الواقع هو ما قَدَّمه من خبر عِلْمَ شهودٍ، أي: حضور، والحاضر يُدْرِكُ ما حضره بحواسه.

﴿ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ﴾:

أي: ولئِنْ حَضَروا المعركة لِنُصْرَتِهم لَجبُنوا عن مواجهة المؤمنين، ولأداروا ظهورهم فارّين هاربين.

يأتي فعل «ولَّى» بمعنى «استقبل» وعلى هذا فمعنى «لَيُوَلُّنَّ الأدْبار»: لَيَسْتَقبِلُنَّ الأدْبارَ فارين.

ودُبُر كلّ شيءٍ: عقبه ومؤخره، وجمعه «أدبار».

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾:

أي: لا يفهمون الأمور فهماً سديداً عميقاً. الفقه في اللّغة: الفهم المؤدّي إلى العلم بحقيقة الأمر وباطنه، يقالُ: فَقِهَ الرجل إذا فَهِمَ وعلم، ويقال: فَقُهَ بضمّ القاف، إذا تمكن من الفهم والعلم، حتى صار ذلك ملكةً له، وذلك في الموضوع الذي صار فيه فقيهاً، وغُلِّبَ الفقه في الدلالة على علوم الدين، لأنها أشرف العلوم التي تُفْهَمُ وتُعلم، ويدُلُّ الفقه على فهم المعاني الدقيقة والخفيّة.

﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾:

شَتَّىٰ: جَمْعُ شَتِيت، أي: متفرّق غير مجتمع، والمعنى: وقلوبهم متفرّقة غير مجتمعةٍ على رأيٍ واحد، أو عاطفة واحدة.

﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾:

العقل يأتي بمعنيين، بمعنى الإمساك بالمعرفة في الأداة العاقلة داخل القوة الإدراكية. وبمعنى ضبط النفس عن اتباع الهوى بإرادة حازمة.

واليهود الذين لم يسلموا لله ولرسوله محمّد لا يعقلون على المعنيين، فهم لا يمسكون في الأداة العاقلة لديهم ما قد يصلون إليه من معارف تخالف تحريفاتهم وأهواءهم، ولا يَضْبِطون نفوسهم عن اتّباع الهوى بإرادة حازمة.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾:

المراد يهود بني قَيْنُقَاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ أوّل من أجلىٰ من اليهود في المدينة.

﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾:

أي: سُوءَ عاقبة أمْرِهم. الْوَبَالُ في اللغة: الشّدَّةُ، والثِّقَلُ، وسُوءُ العاقبة.

* * *

(٤)
مع النَّصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ . . .﴾.

تتحدّث هذه الفقرات من هذا النصّ الموضوع للتدبّر، عن ظاهرة من ظواهر نفاق الذين مرَدوا على النفاق في المدينة، وعلى رأسهم «عبد الله بنُ أبي بْنُ سلول» وهي ما كان منهم من ولاء في السّرّ ليهود بني النضير، حين حاصرهم الرسول، كما جاء بيانه في القصة التي سبق ذكرها في سبب نزول سورة (الحشر).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾:

أي: ألم تَرَ نَاظراً إلى الذين نافقوا، وجاءت تعدية فعل «ترى» بحرف «إلى» لتضمينه معنى فعل «تنظر» والغرض تأكيد الحث على المطلوب، فالاستفهام هنا ليس لطلب الفهم، بل هو مستعمل مجازاً لأغراض أخرى، منها ما يلي:

(١) الإعلام بالمستفهم عنه وبيانُ حصوله.

(٢) لفت النظر إلى المستفهم عنه لمعرفته.

(٣) التنبيه على المستفهم عنه لاستحضاره في الذهن.

وكلّ ذلك يكون بمثابة التمهيد لما يراد التعريف به وبيانه من قضايا تتعلّق بالمستفهم عنه.

المراد: اعلم علماً بيّناً واضحاً شبيهاً بالذي يُدْرَكُ بالحسّ البصري، أو وَجِّه نظرَكَ للمعرفة، أو تَنَبَّهْ، أو أحضرْ في ذاكرتك، يَا من له بصيرة من كلّ من يَصْلُح للخطاب، ما جرى من الذين مردوا على النفاق في المدينة، وخُذْ حِذْرَك منهم، وحاذر أن تسلك مسالك النفاق.

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾:

أي: حالة كونهم يقولون لإخوانهم المشاركين لهم في الكفر الذي عقد بينهم أُخُوَّةً خاصّةً، قائمة على الاتحاد في الكفر برسول الله محمّد وبما جاء به عن ربّه، والمراد من إخوان المنافقين هنا يَهُودُ بني النضير، وقد وصفهم الله بقوله: الذين كفروا من أهْلِ الكتاب، وقد دلّت المناسبة والقرائن على أنهم يهود بني النضير، فلم يمنع وصفهم بأنّهم من أهل الكتاب أن يوصفوا أيضاً بأنّهم كافرون، لأنّ من كفر ببعض ما يجب في دين الله الإيمانُ به فهو من الّذين كَفَروا، ولو كان مؤمناً بعناصر أخرى من أركان الإيمان، لأنّ الإيمان الذي يُخرج من كلّ دائرة الكفر هو الإيمان بكلّ العناصر التي يجب الإيمان بها في دين الله، أمّا من يؤمن ببعضها ويكفر ببعضها فإنّه يُحْكَمُ عليه بأنّه كافر، على أنّ الكفر له منازل ودركات، بعضها أخسّ من بعض، وأنْـزَلُ من بعض.

ونفهم من النصّ أنّهم كانوا يُكَرِّرُون لهم القول، دلَّ على هذا التكرير استعمال الفعْل المضارع، إذ لو كان مرّةً واحدة لكان المناسب أن تكون عبارة النصّ: إذْ قالوا لإخوانِهِمْ من أهل الكتاب.

فماذا كان يقول المنافقون لإخوانهم هؤلاء حين حاصرهم الرسول ﷺ وأصحابه؟

لقد جاء في النصّ بيان ثلاث مقالات:

المقالة الأولىٰ:

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾:

أي: نُقْسِمُ لكم لَئِنْ أُخْرِجتُم من مساكنكم في المدينة، بأن عجزتم عن المقاومة والمواجهة، واضْطُرِرْتُم إلَىٰ قبول الْجَلاَء، لَنَخْرُجَنَّ معكُمْ من ديارنا ولنرافقنكم في جلائكم.

هذه المقالة تدلّ على مقالة مطوية، نستطيع فهمها دون إجهاد فكري، وهي: اثبُتوا ولا تجبنُوا وقاوموا الحصار، فنحن معكم وسَنَدٌ لكم ضمن صفوف أصحاب محمد. وقد جاء في قصّة الحادثة في السيرة، أنهم قالوا لهم: اثبُتوا وتمنَّعُوا فإنّا لن نُسْلِمَكُمْ.

المقالة الثانية:

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾:

أي: ونحن لا نُطيع في قبولِ الإضرار بكم، وتَرْكِ موالاتكُمْ، أوعدم الخروج معكم أحداً كائناً مَنْ كان، على مدى المستقبل من الزمان، ولو كان من الأهل والذرّيّة.

هذا المحذوف في عبارة [فيكم] يُفْهَمُ من سِياق الكلام وسباقه، ومن قرائن الحذث، فمن أسلوب القرآن حذفُ ما يمكن إدراكه ذهناً بالقرائن أو بإشارات بعض الألفاظ.

ومن الظاهر أنّ هذه الجملة غير داخلة في الْمُقْسَمِ عليه، بل هي معطوفة على الجملة السابقة، فهي من مقول القول، وغير مؤكّدة بالقسم، لكن إذا كانت مؤكّدةً مِنْ

جهة المعنى لجملة ﴿لنخرُجَنَّ معَكُمْ﴾ فإنها تكون من توابع المقسَم عليه.

المقالة الثالثة:

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾:

أي: وإن قُوتِلْتُمْ من قبل محمد وأصحابه، لنؤيدنَّكُمْ ولنُعاوِنَنَّكُمْ ولنُدافِعَنَّ عنكُمْ، ولنكونَنَّ شركاءكم في جبهة القتال، أو مُخذِّلين عن مقاتلتكم، ونحن داخل صفوف المسلمين.

وفي التعقيب على هذه المقالات التي كرّر المنافقون قولها لإخوانهم في الكفر من يَهُود بني النضير، جاء في النصّ القول التالي:

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢)﴾.

لقد جاء في مقدّمة هذا التعقيب الكاشف لأحوال المنافقين المباينة لأقوالهم، بيانٌ عامٌ يَنْسِفُ كلّ مقالاتهم نَسْفاً، وفي هذه المقدمة يقول الله عزّ وجل:

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾:

أي: فلا صحّةَ مطلقاً لأيّة مقالةٍ من المقالات الثلاث التي قالوها، فلا ينبغي الاهتمام بمواعيدهم لإخوانهم من الكافرين، ولا ينبغي أن تَفُتَّ مقالاتُهم في أعضاد المؤمنين، فالمنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قُلُوبهم.

ولمّا كان الله عزّ وجلّ يَعْلَمُ حقيقة المنافقين علْمَ شُهُودٍ لمَا في صُدورهم، فإنّه إذا أخْبَرَ بما يعلَمُ عنهم فإنّهُ يُخْبِر خَبَرَ شهادة، وهو لا يُحدِّثُ حديث ناقل أخبارٍ عن غيره.

إنّ خبر الشهادةِ خَبَرُ مُشاهِدٍ حاضِرٍ مُعاين، فليطْمَئنَّ الرسول والمؤمنون، ولْيَكن

إخوان المنافقين من الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم على علم بحقيقتهم. ولْيَعْلَمِ المنافقون أنْفُسُهم أنهم لله مكشوفون، وعند المؤمنين بصفاتهم مفضوحون.

وبعد البيان العامّ المؤكّد بصيغة «يشهد» وبأداة التوكيد «إنّ» وبلام الابتداء المزحلقة إلى الخبر «لَكَاذِبون» جاء في النصّ تفصيل كذبهم في مقولاتهم الثلاث، بعباراتٍ مؤكّدةٍ مسوقة بأسلوب القسم في كلّ واحدة منها.

وقد جاء هذا التفصيل بأسلوب طرح الاحتمالات التي يُتَصَوَّر حصولُها وبيانِ ما سيكون من المنافقين مع كلّ احتمال منها.

الاحتمال الأوّل: أن يَتعرَّضَ إخوانُهم الذين كفروا للإخراج والطرد من المدينة، وموقف المنافقين عند حصول هذا الاحتمال، هو ما أبانه الله بقوله:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾:

أي: فهم كاذبون في قولهم لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ وقد أثبتَ الواقع ذلِكَ، فقد طلب بنو النضير من الرسول ﷺ الجلاء، فوافق على جَلاَئِهم، ولم يَجْلُ معهم من المنافقين أحد، ولم يستطع المنافقون أن يدافعوا عنهم، ويثبّتوهم في مساكنهم.

وبافتضاح هذه المقالة الكاذبة سقطت مقالتهم الثانية التي قالوها، وهي: ﴿وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً﴾. فسُكُوتُ المنافقين حينما أجلى الرسول بني النضير، وعدَمُ تقديم أيّ شيءٍ يُثْبت ولاءهم لهم، وعدَمُ اتّخاذ ما يحميهم من الجلاء طاعَةٌ جبانَةٌ خرْساء لإجراءات الرسول في إخوانهم.

الاحتمال الثاني: أن يتعرّض إخوانهم الذين كفروا لمواجهة قتالية يواجههم بها الرسول وأصحابه.

وموقف المنافقين عند حصول هذا الاحتمال هو ما أبانه الله بقوله:

﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾:

أي: فهم كاذبون أيضاً في قولهم لهم: ﴿وإنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾.

إنَّ المنافقين لم يختاروا لأنفسهم سبيل النفاق إلّا بسبب جُبْنِهِمْ ولو كانت لديهم الشجاعة الكافية لكانوا كسائر الكافرين الصّرحاء، كاشفين حقيقة هويّاتهم، ويُواجهون جماعة الذين آمنوا بعداءٍ سافر.

فكيف وهم منافقون مداخلون مخالطون ينصرون إخوانهم الذين كفروا إذا تعرّضوا لمواجهة قتالية مع المؤمنين، إنّ المنافقين لو بدرت منهم أَيَّةُ بادرة فيها مناصرة للذين كفروا، لكان ذلك منهم من قبيل الخيانة العظمى، ولانتقم منهم المؤمنون انتقاماً شديداً، والمنافقون يعرفون هذه الحقيقة، ويَجْبُنُون عن مواجهة ما هو أقلّ منها بكثير، فكَيْف تكون منهم نصرةٌ لإخوانهم الذين كفروا في قتالٍ وحالتهم هذه؟!

ومع ذلك فقد طرح النصّ احتمال أنْ تأخذهم ثورة الحميّة عند قيام المعركة القتالية، فيدخلوا لِمُنَاصَرة إخوانهم الكافرين، لكن موقفهم حينئذٍ يكون موقف الْمُدْبِرين لا المقبلين، إنهم يستقبلون جهة أدبارهم فارّين هاربين جبناء، حينما يَرَوْنَ أنّ الأمر جدٌّ، وأنّ المؤمنين أهلُ بأس، يرون الموتَ طريقاً إلى الفردوس الأعلى في جنّات النعيم، فلا يَهابُونَه، وقد يُحِبُّون الشهادة في سبيل الله أكثر من حبّ الكافرين والمنافقين للحياة، فقال تعالى:

﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾.

فماذا يكون حال المنافقين إذا وَلَّوا الأدبارَ في مثل هذا الوضْعِ الشائن الخائن؟ هلْ يَنْجُونَ بفرارهم؟ وهل يَسْلَمُون؟ وهَلْ يَجِدُونَ مَنْ يَنْصُرُهم من الله ومن مُلاحقة الذين آمنوا لهم؟

أجاب النصّ على هذا السؤال المطويّ، فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾:

أي: ثم مهما تراخى بهم الزمن، فارّين بعد خيانتهم العظمى للمؤمنين، بُوقُوفِهم ضدّهم مناصرين للذين كفروا، فإنّهم لا يُكْتَبُ لهم النصر، عن طريق النجاة بالفرار، أو الخلاص من متابعة المؤمنين لهم، أو الخلاص من نزول عقوبة الله فيهم المعجّلةِ في الدنيا، فإنّ واحداً من العقاب سينزل بهم لا محالة، وهذا إنذارٌ من الله لهم، إذا انحازوا إلى الذين كفروا مناصرين لهم ضدّ المؤمنين.

هذا الفهم أولى فيما أرى من اعتبار ﴿ثُمّ لا يُنْصَرُونَ﴾ راجعاً إلى إخوانهم الكافرين الصرحاء، فأمر أولئك تحكمُه سنّة الله العامة، بين المؤمنين والكافرين الذين يتقابلون بعداء سافر وتقاتل مكشوف.

وظاهر كلام المفسرين يفيد أنّ ضمير ﴿ثم لا يُنْصَرُونَ﴾ راجع إلى الكافرين الصرحاء.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

الذي يظهر لي أنّ الحديث في هذا النّصّ يكشف واقع حال اليهود، بشكل عام، فبنو النضير الذين نزلت السورة بشأنهم هم من اليهود، وما ينطبق عليهم ينطبق على سائر اليهود.

أمّا المنافقون فليس من شأنهم أن يجتمعوا لقتال المؤمنين، إذْ لا يجتمعون إلاّ في حالة إظهار كفرهم، وحينئذٍ لا يكونون منافقين، فما جاء عند المفسرين من أنّ الآية تتحدث عن حال المنافقين واليهود معاً مستبْعَدٌ فيما أرى.

والخطابُ في الآية موجّه للمؤمنين، فالله عزّ وجل يخاطبهم بقوله:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

يقال لغةً: رَهِبَهُ يَرْهَبُهُ، رَهَباً، ورَهْبَةً، ورُهْباً، إذا خافَهُ. ويُقالُ: رَهِبَ فُلانٌ إذا خاف.

فالرَّهْبَةُ وصْفٌ يكون في صَدْرِ الخائف، وهم اليهود هنا، أمّا المؤمنُونَ فَمَرْهُوبُون مخوفٌ مِنْهُمْ، فكيْفَ جاءت الرهبةُ في الآية وصفاً للذين آمنوا؟ وكيف يكون المؤمنون أشدّ رهْبَةً في صدور اليهود من الله؟

فهل نقول كما قال الزمخشري: لأنتم أشدُّ مرهوبيَّةً فِي صدورهم من الله؟

أقول:

إنّ الآية تجعلُ حُضُورَ الَّذِينَ آمنوا في صُدُور اليهود حالةَ كونهم رجالَ قتالٍ وبأسٍ، على شكلِ خواطرَ ومشاهدَ صُورٍ مقاتلين، بمثابة حضور الرَّهْبَةِ في صُدُورهم، فَكَأَنَّ الرَّهْبَةَ عُنْصُرٌ من عناصر صُورِ المؤمنين التي تمرُّ في صدُورهم على شكل خواطر.

والمعنى: لأنتم يا أيها المؤمنون إذا تمثَّلْتُمْ في صدورهم كان من صفاتكم في داخلهم صفةُ الرهبة الّتي تخلع قلوبَهُمْ، وكنتم أشدّ رهبةً فيها مما يُحْدِثُهُ ذكرهم الله.

إنّها لفكرة عجيبة صحّ معها أن تكون الصفة التي هي للخائف صفةً للمخوف منه.

أو نقول: في الكلام مضافٌ محذوف، والتقدير: لأَنْتُمْ بإرْهابكُمْ لهم في القتال أشدُّ إحداثَ رهْبَةٍ في صدورهم من رهبتهم من عقاب الله إذْ يَذْكرونَ عقابه.

والمراد من الصدر دائرةٌ في عُمْقِ الإنسان تشتمل على دائرة أعمق منها يكون فيها القلب، وضمن دائرة القلب دائرة أعْمَقُ منها يكون فيها الفؤاد، وحول دائرة الصدر في الحاشية من الظاهر تكون دائرة عموم النفس، حيث ترتع الأهواء والشهوات السطحيّة داخل النفس.

فما يصل إلى الصَّدْر من الانفعالات والعواطف فقد دخل في مستوىً عميق من النفس[1].

وأبان الله عزّ وجلّ السبب في كون الّذين كفروا بمحمّد وبما جاء به عن ربّه من اليهود يرهبون المؤمنين في القتال أكثر من رهبتهم من عقاب الله، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) انظر تحليل النفس في الباب الثاني (الإنسان في دائرة الدلالات القرآنية) من كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

المشارُ إليه بعبارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، وقد رجع البيان في هذه العبارة إلى الخطاب الإفرادي، كما جاء في بداية النصّ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فالكاف في ﴿ذَٰلِكَ﴾ لخطاب المفرد، ولمّا كانت الرهبة لا تحدث في قلوبهم إلاّ إذا اجتمع المؤمنون على قتالهم خاطب الله جماعة المؤمنين بقوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صدورهم من الله﴾.

والباء في: ﴿بِأَنَّهُم﴾ سببيّة، أي: بسبب أنّهم قومٌ لا يفقهون.

ولكن كيف نتصوّر أن يكون عدم فِقْهِهِمْ سبباً في أنّهم يرهبون الذين آمنوا أكثر مما يرهبون عقاب الله؟

لقد عرفنا أنّ الفقه هو فهم دقائق الأمور وأعماقها وخفاياها، وبعد التذكير بهذا نستطيع أن نُدْرِك أنّ الذين كفروا قد تعلّقُوا بالظواهر والسَّطْحِيّاتِ التي يَشْهَدُونَها بحواسّهم، والّتي يفهمونها من قريب دون تعمّق في التفكير، ودُونَ أن يستندوا إلى مفهومات العقائد الإيمانيّة التي يشتمل عليها الإيمان بالله واليوم الآخر.

والنظراتُ السطحيّةُ تَكْشِفُ لَهُمْ أنّ جماعة المؤمنين الصادقين حينما يُوَاجِهُون أعداءَهُمْ في معارك القتال، فإنّما يواجهونهم بقلوبٍ ثابتةٍ، كأنّها تَعْشَقُ الموتَ والاستشهادَ في سبيل الله فهم يقاتلون ببأس شديدٍ يستعملون فيه كلّ طاقاتهم الجسديّة والنَّفْسِية.

والّذين كفروا لا يستطيعون أن يُحِبُّوا الموت، لانقطاع آمالهم بما بعد الموت، فهم لا يستطيعون أن يقاتلوا بكلّ طاقاتهم الجسدية والنفسيّة، وهذا يكشِفُ لهم الفرق الكبير بين المقاتل المؤمن وبَيْنَ المقاتل من جماعتهم، الأمر الذي يقذف الرُّعْبَ والرَّهْبَةَ في قلوبهم، بنسبة عظيمة.

أمّا إيمانُهم بالله واليوم الآخر ــ إنْ كانوا من الذين يؤمنون بالآخرة ــ فهو إيمان لم يبْلُغْ مبلغ الفقه الصحيح، حتّى يرهبوا من عقاب الله رهبةً رادعة لهم عن الكفر، ودافعةً لهم إلى الإيمان بمحمّد وبما جاء به عن ربّه.

إنّ من مفهوماتهم الاعتقادية ما جاء في قولهم: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاّ أيّاماً معدودة» فهم لا يرهبون من عذاب النار في الآخرة رهْبةً كبيرة، سبَبُها عدم فِقْهِهم في دين الله.

ومن مفهوماتهم الاعتقادية ما جاء في قولهم: ﴿نَحْنُ أبناءُ الله وأحبّاؤه﴾، فهم لا يرهبون من عقاب الله لهم في الدنيا رهبةً كبيرة، سَبَبُها عدَمُ فقههم في دين الله، وعدمُ فقههم لعدل الله بالنسبة إلى جميع عباده، وعدَمُ فقههم لتساوي الناس في عبوديتهم لله، وأنّ الله يعامل عباده من مُخْتَلِفِ الأجناس والأصناف والألوان بقانون واحد، وسنّة واحدة.

إلى غير ذلك من مفهومات فاسدة حول عقائد الدين، وسنن الله في الكون، وهي تدلّ على أنهم محرومون من الفقه في واقعهم.

وبما أنهم قدْ أدْبَرُوا وتوَلّوْا رافضين تفهُّم الحقائق الدينيّة والسُّنَن الرّبّانيّة الكونيّة، مَهْمَا نصَحَهُمُ الناصِحونَ، وتابَعَهُم بالبيان والشرح والتحليل المعلّمون المفقّهون، لَتَشَبُّثِهم بمفهوماتهم الفاسدة التي هم عليها، فإنَّهُمْ لا يَفْقَهُونَ، اي: لا يُتابِعُون أمارات المعرفة الدقيقة ودَلائلَها وبراهينها حتّى يَفقهُوها، فهم على توالي البيانات والنصائح والإرشادات والإنذارات في تتابع الأزمان لا يَفْقَهون.

كيف يَفْقَهُ مَنْ حَجَبَ عن المعرفة حواسّه الظاهرة والباطنة، وانْغَلَقَ على نفسه، واستَحْجَرَ فِكْرُهُ على مفهوماته الباطلة أو الفاسدة أو الناقصة؟! ألا فَلْيَدْمَغْهُم قول الله عزّ وجلّ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٣﴾.

ولو أنّهم كانوا يَفْقَهونَ لكانت رهبَتُهُمْ من الله أشَدَّ من رهبتهم من أي مرهوب في الوجود، ولدفعتهم هذه الرهبة من الله إلى الإيمان بمحمّد وبما جاء به عن ربّه، والعمل بمقتضى هذا الإيمان، ولكانُوا مع الذين آمَنُوا إخواناً متحابين، يعملون مثل عملهم، ويقاتلون مثل قتالهم.

نفيُ الفقه لا يستلزم نَفْيَ كُلِّ معرفة وعلم، فالذي لا يفقه حقائق المفهومات الدينيّة والسُّنَنِ الرّبّانيّة الكونية، قد يعْلَمُ مما دون ذلك أشياء كثيرة من أمور الحياة الدنيا، وشهواتها، ومتاعها، وزينتها، وما فيها من قوىً وطاقات وأسْباب ومسبَّبات، لكنّه عَنِ الله والآخرة مدبر أو مُعْرِضٌ أو غافل، كما قال الله عزّ وجل بشأن عموم الكافرين وهم أكثر الناس، في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝﴾ :

وبعد كشف حالة اليهود الداخليّة بالنسبة إلى المؤمنين، وبيان أنّهم يرهبون المؤمنين أكثر ممّا يرهَبُونَ الله، أبان الله عزّ وجلّ أثر هذه الرهبة النفْسِيّة في سلوكهم الظّاهر، فقال تعالى:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ . . . ۝﴾.

جميعاً: كلمة «جميع» على وزن «فعيل» تأتي بمعنى «مجموع» اسم مفعول من «جَمَعَهُ» إذا ضَمَّ بعْضَهُ إلى بعض. وتأتي بمعنى «مُجْتَمِع» اسم فاعل من فعل «اجْتَمَع» وهذا من التوسُّع على غير القياس المتّبع، وتأتي دالّة على التأكيد بمعنى «كُلّ».

وكلمة «جميعاً» في النصّ هنا حال بمعنى «مجتمعين» أو «مجموعين» وهذه الحال تَصْلُح لأن تكون حالاً من فاعل يقاتلونكم وهو ضمير الرفع، أو من المفعول به، وهو ضمير النصب.

أي: لا يقاتلونكم حالة كونهم مجتمعين لقتالكم، أو حالةَ كونكم مجتمعين لقتالهم.

وأُرَجِّحُ الاحتمال الثاني: أي: حالَةَ كونكُمْ مجتمعين لقتالهم، لأنّي أرى أنّ المؤمنين إذا كانوا مُتَفَرِّقين، أو لم يجتمعوا جميعاً بمعظم قوّاتهم لقتال اليهود، فإنّ اليهود لا يرهبونهم حينئذٍ، فيقاتلونهم دون أن يكونوا في قُرىً مُحَصَّنَةٍ أو من وراءِ جُدُرٍ، فينبغي أن نفهم النّصّ على ما يُطابق الواقع.

وقد رأيت ظاهر عبارات المفسرين اقتصر على الاحتمال الأول، دون طرح الاحتمال الثاني، فضلاً عن اعتماده.

فدلّ هذا البيان على أنّ المسلمين إذا اجتمعوا لقتال اليهود قذف الله الرعب في قلوبهم، فلا يقاتِلُونهم إذا قاتلوا إلاّ في قُرىً مُحَصَّنَةٍ، أو من وراء جُدُرٍ، كجُدُرِ

الدَّبَّابات والمصفَّحات، والبوارج البحرية، ويقتصر قتالهم غالباً على قتال الدِّفاع، دون قتال الهجوم وجهاً لوجْهٍ.

وليزيد الله المؤمنين طُمأنينة بالنِّسْبَة إلى الذين كفروا من اليهود، أبان لهم أنّ ما قد يرونه ظاهراً من وحدة كلمة اليهود، واجتماعهم على قادتهم، إنّما هو اجتماع ظاهريٌّ مصطنع، غير قائم على أساس اتفاق حقيقيٍّ بين قلوبهم، قال تعالى:

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ... ﴿١٤﴾﴾:

أي: بأسُهُمْ بين جماعاتهم وفرقهم ومذاهبهم وأحزابهم وأفرادهم بأسٌ شديد، والمعنى: إذا وقعت حرب أو معارك فيما بينهم كانوا ذوي بأسٍ شديد على بعضهم، لعلم كلّ فريق منهم بجبن الفريق الآخر، وحِرْصِه على الحياة الدنيا.

البأس: الشدّة في الحرب.

فإذا نظرت إليهم أيّها الناظر من بُعْدٍ، ولم تُداخِلْهُم ولم تخالطهم حَسِبْتَهُمْ متفقين مجتمعين، وأنّ هذا الوصف مستمرٌّ فيهم، لكنّ قلوبهم متفرقة «شتّى» بسبب اختلاف أهوائهم، ومصالحهم، ونزعاتهم، ونزغاتهم، ومذاهبهم وأحزابهم.

والمراد: فلا تَخْشَوا يا أيُّها الَّذِين آمَنُوا مِنْ مُلَاقاة اليهود في قتال جادٍّ تكونون فيه مؤمنين حقّاً، ومجتمعين على قتالهم، فإنّهم لَنْ يَثْبُتوا لقتالكم.

بعد هذا أبان الله عزّ وجلّ السَّبَبَ في أنَّ بأْسَهُمْ بينهم شديد، وفي أنّ قلوبهم متفرقة متعادية متخالفة، ولو كانوا في الظاهر يُبْدُون الاتفاق ووحدة الكلمة والصف، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: لا يضبطون نفوسهم وسلوكهم بإرادات حازمات، عن اتّباع أهوائهم وشهواتهم، والاستجابة للتحاسد والتباغض فيما بينهم.

العقل في اللّغة: يدور حول معنى الإمساك بالشيء، وحبسه وربطه، واستعملت مادة «عَقَلَ يَعْقِل» ومشتقاتها في القرآن، بمعنى العقل الإرادي، وبمعنى العقل العلمي.

فالعقل الإرادي: يكون بحبس النفس وضبطها عن فعل الشرّ والمعصية وكلّ ما لا يحسُن فعله بإرادة حازمة قوية.

والعقل العلمي: يكون بربط الفهم وحبسه وتثبيته في الدائرة التي من صفاتها داخل النفس التفكُّر والفهمُ والمعرفةُ والعلم، والتمييز بين الحق والباطل، والخير والشرّ، وتثبيت المعلومات، وتذكُّرها عند الحاجة إليها(١).

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

مَثَل: هنا بمعنى «وصف».

﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ﴾:

هم يهود بني قَيْنُقَاع، الذين أجلاهم الرسول بسبب ما كان منهم من نقض للعهد، وخيانة، وتعرّض بالأذى لبعض نساء المسلمين، واستعدادهم لحرب الرسول والذين آمنوا معه.

والمعنى: حال يهود بني النضير في خيانتهم واحتمائهم بحصونهم، ثم استسلامهم، وطَلَبِهِمْ قَبُولَ جلائهم، كما قبل الرسول من يهود بني قَيْنُقَاع الجلاء، يُشْبِهُ حالَ بني قَيْنُقَاع الذي مضى قريباً، إذْ ذاقوا سُوء عاقبة الأَمْرِ الذي صدر عنهم، فحاصرهم الرسول ثم قبل جلاءهم عن المدينة، إرضاءً لوساطة عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رئيس المنافقين في المدينة، على أن يأخُذوا أموالهم وأثقالهم وخفيف سلاحهم. فخرجوا من المدينة إلى الشّام، حتّى نزلوا بأذرعات وأقاموا فيها، ولكنّهم لم يلبثوا إلّا قليلاً، حتى هلك أكثرهم، ونالوا جزاء خيانتهم وغدرهم ومكرهم ومحاربتهم الله ورسوله.

[ولهم] فوق ذلك [عذابٌ أليم] عند ربّهم يوم الدين.

* * *

---

(١) انظر تتمة بحث العقل في كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

هاتان الآيتان تكشفان التَّشابُهَ مَابَيْنَ المنافقين الذين وعدوا إخوانهم من الكافرين الصُّرحاء، ومنَّوْهُمْ بنصرتهم، فدَعَوْهُمْ إلى الثبات والصُّمود والتمنُّع ضدَّ الرَّسُول والمؤمنين معه، وقالوا لهم: لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ معكم ولا نُطيعُ فيكم أحداً أبداً، وإن قُوتِلْتُم لَنَنْصُرَنَّكُمْ، ثم لمّا اشتدّ عليهم الحصار خذلوهم وأسلموهم، ولم ينصُرُوهم بشيء، وبين الشيطان الذي يَعِدُ الإنسان ويُمَنِّيه بغرور، ويقولُ له: اكْفُرْ، فيستجيبُ له فيكْفُر، وحين يأتي يومُ الحساب والجزاء، يَدْعُو الإنسانُ الكافرُ الشيطانَ لنُصْرَتِه، فيَقُولُ الشيطانُ لَهُ: إنّي بَرِيءٌ منْكَ ومنْ جريمتِك، إنّي أخافُ اللَّهَ رَبَّ العالمين.

الشيطانُ منافقٌ جبانٌ، وَسْوَاسٌ خنّاس، والمنافق شيطان جبان وَسْوَاسٌ خنّاس، وكلاهما إذا حدّثا كذبا، وإذا وعدا أخلفا وإذا ائْتُمِنا خانا، وإذا خاصَمَا فَجَرا، وإذا عاهدا غدرا، وإذا استُنْصِرَا خذَلا، وكلاهُما يُغْرِيان ويُغْوِيان، لاشتراكهما في الصفات الأساسيّة التي ينجم عنها النّفاق، وأعمالُ الشياطين.

وإذْ قد تماثل جنس الشيطان وجنس المنافق في صفاتهما وفي سلوكهما، وفي كفرهما، وفي تحريضهما على الكفر، ومقاومة الإيمان الحق والذين آمنوا، أبان الله عزّ وجل أن عاقبة الفريقين أنّهما يوم الدين يكونان في النار خالدَيْن فيها، عقاباً لهما، على ما كان منهما في حياة الابتلاء في الحياة الدنيا، فقال تعالى:

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ... ﴿١٧﴾﴾.

وقد أثبتَ أنّهما في النار اعتباراً بما سيكون متحققاً، فما سيتحقّقُ وقوعُه حتماً هو بقوّة الأمر الواقع فعلاً، فيُعَبَّرُ عنه بالماضي ويُعبَّرُ عنه بالحال، كما يُعبَّرُ عنه بالاستقبال.

ولبيان أنّ عمل المنافقِ وعَمَلَ الشيطانِ كلاهما من قبيل الظُّلْم الشّنيع، ولبيانِ أنَّ كُلَّ مَنْ ظَلَمَ بِمْثَلِ ظُلْمِهما كانت عاقبتُه أنّه في النار خالداً فيها قال الله عزّ وجل في ختام النصّ:

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾:

أي: وذلك الْجَزَاءُ الذي ثَبَتَ لهما يَثْبُتُ جزاءً لكل الظالمين الذين يظلمون ظُلْماً مشابهاً لظُلْمِهما، فَقَانُونُ الله واحد، وسُنّةُ الله في عباده واحدة لا تتبدّل ولا تتغير ولا تتحوّل.

أقول:

إنّ قول الشيطان للإنسان: اكفر، فلمّا كفر قال: إنّي بريء منك، إنّي أخاف الله ربّ العالمين، ينبغي أن يكون شاملاً كلَّ إنسانٍ أغواه وأغراه ووسوس له الشيطان فاستجابَ له فكفر، فشأن كلّ إنسان كفر بتأثيرِ دعوة الشيطان له أن يكون مع الشيطان يوم القيامة في النار خَالِدَيْنِ فيها.

وحَمْلُ هذا النصّ على قصّةٍ بعينها لا يستقيم مع عموم النّصّ، وشمول سُنّةِ الله في عباده.

أمّا الاستشهاد استئناساً بالحوادث والقصص بعد بيان عموم دلالة النصّ فأمْرٌ غير مرفوض.

ومن القصص التي يمكن الاستشهاد بها في هذا المجال ما يلي:

(١) روى الطبراني بسنده عن ابن عبّاس قال: جاء إبليس يوم بدر، في جُنْدٍ من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مُدْلج، في صورة سُرَاقَةَ بْنِ مَالِك بنِ جُعْشُم.

فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جارٌ لكم. فلمّا اصطفّ الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب، فرمىٰ بها في وجوه المشركين، فولَّوْا مُدْبِرِين.

وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه، وكانت يده في يد رجُلٍ من المشركين،

انتزع إبليس يده، فولّى مُدْبراً هو وشيعته.

فقال الرجل: يا سُراقة، تزعم أنَّك لنا جار!

قال: «إنّي أرىٰ ما لا ترون، إنّي أخاف الله، والله شديد العقاب» وذلك حين رأى الملائكة.

وأنزل الله قوله في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿نَكَصَ﴾: اي: رجَعَ القَهْقَرىٰ على قفاهُ هارباً، يقالُ لُغةً: نَكَصَ يَنْكُصُ وَيَنْكِصُ نُكوصاً.

(٢) ومنها قصة العابد الراهب الذي ذكر القصّاصُون أنّ اسمه «برصيصا».

وقد وردت قصته دون ذكر اسمه في روايات عن عليٍّ وابن مسعود وابن عبّاسٍ رضي الله عنهم، وعن طاوس ومقاتل بن حيان.

فروى ابن جرير بسنده عن عليٍّ رضي الله عنه قال: إنّ راهباً تَعَبَّدَ ستين سنة، وإنّ الشيطان أرادَهُ فأعياه، فعمَدَ إلى امرأةٍ فأَجَنَّها، ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القَسّ، فيداويها.

قال: فجاءوا بها إليه، فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذْ أعجبته، فأتاها، فحمَلَتْ، فعمَد إليها فقتلها.

فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب، أنا صاحبك، إنَّك أعييتني، أنا صنعت هذا بك، فأطعني أُنجِكَ ممّا صَنعْتُ بك، فاسْجُدْ لي سَجْدَةً، فسجد، فلمّا سجَدَ له قال: إنّي بريء مِنْكَ، إنّي أخاف الله ربّ العالمين، فذلك قوله تعالى:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

وروى ابن جرير في هذه الآية عن ابن مسعود: قال: كانت امرأةٌ ترعَى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، فنزل الراهب، ففجر بها، فحملت.

فأتاه الشيطان فقال له: اقتُلْها، ثم ادفنها، فإنّك رجل مُصدَّق، يُسْمَعُ قَوْلُكَ. فقتلها، ثم دفنها.

قال: فأتى الشيطانُ إخوتها في المنام، فقال لهم: إنَّ الراهب صاحبُ الصومعة فَجَرَ بأختكم، فلمّا أحْبَلها قتلها ثم دفنها، في مكان كذا وكذا.

فلمّا أصبحوا قال رجلٌ منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري، أقصُّها عليكم أمْ أترك؟

قالوا: لا بل قُصَّها علينا. فقصَّها.

فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيتُ ذلك.

فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك.

قالوا: فوالله ما هذا إلاّ لشيء.

قال: فانطلقوا، فاسْتَعْدَوْا مَلِكَهُمْ على ذلك الراهب، فأتوه، فأنْزَلوه، ثمّ انطلقوا به، فلقيه الشيطان، فقال: إنّي أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة، وأُنجيك مما أوقعتُك فيه. قال: فسجد له، فلمّا أتوا به ملكهم تبرّأ منه، وأُخِذَ فقُتِلَ.

● ● ●

الفهـرس

الموضوع	الصفحة

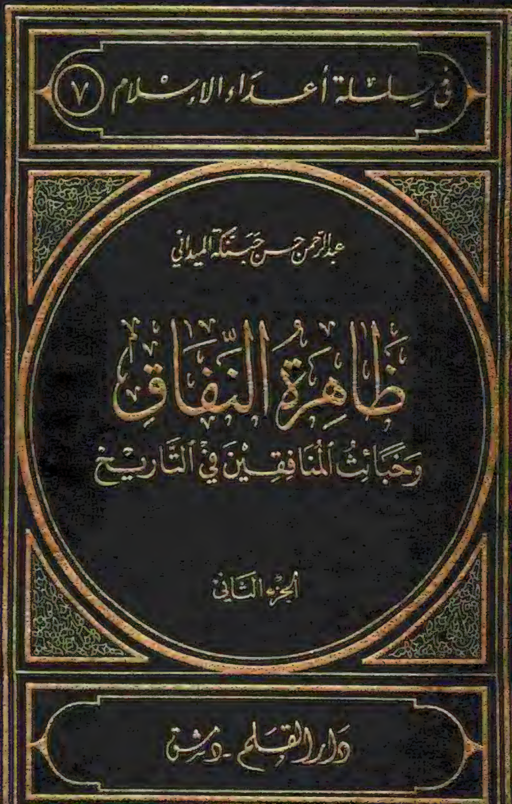
القسم الثاني

تدبّر النصوص القرآنية التي نزلت بشأن المنافقين

مرتبة بحسب ترتيب النزول

● ● ●

إلى هنا ينتهي الجزء الأول
من كتاب ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين
ويليه الجزء الثاني، وأوله:
النص الثاني والعشرون: من سورة (النور)



في سلسلة أعداء الإسلام (٧)
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
ظاهرة النفاق
وخبائث المنافقين في التاريخ
الجزء الثاني
دار القلم - دمشق

في سلسلة

أعداء الإسلام

٧

ظاهرة النفاق

وخبائث المنافقين في التاريخ

دراسة تحليلية وتوجيهية للتعريف بالنفاق والمنافقين

تدبر موضوعي شامل للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين

نظرة استعراضية للمنافقين عبر التاريخ

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الجزء الثاني

دار القلم

دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

النصّ الثاني والعشرون

من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول)

«السورة (١٦) من التنزيل المدني»

الآيــة (١١)

حول موقف المنافقين من حادثة الإفك

* قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾.

* * *

(١)

القراءات المتواترة من الفرش

* قرأ جمهور القرّاء العشرة [كِبْرَهُ] بكَسْرِ الْكاف.

وقرأ يَعْقُوبُ [كُبْرَهُ] بِضَمِّ الكاف.

الكِبْرُ: الإثْمُ الكبير، ومُعْظَمُ الشيء.

الكُبْرُ: مصدر كَبُرَ إذا عَظُمَ وجَسُمَ. تقول لغة: كَبُرَ يَكْبُرُ كِبراً وكُبْراً.

فالقراءتان تتكاملان في أداء المعنى المراد، فـالمعنى: والّذي تـولّى الإثمَ الكبير لحديث الإفْك، وتولّى معظم أحداث إشاعته والترويج له، وتـولّى تعظيمـه وتكبيره في صفوف المؤمنين.

* * *

(٢)

موضوع النص وسبب نزوله

هـذه الآية أُولَىٰ آيـات عشر أنزلها الله بمنـاسبة حـديث الإِفْـكِ الـذي تـردّد بين المسلمين حول أمّ المؤمنين الطاهـرة عائشـة رضي الله عنها وأرضـاها، وتعـرّضت هذه الآية لمن تولَّىٰ قَذْفَ هذه الفرية وإشاعَتَها «عبدِ الله بن أُبَيّ ابن سلول» دون التصريح باسمه، وتوعّدته بالعذاب العظيم.

سبب النـزول:

في شهـر شعبان من سنـة «خمس» على الراجـح، غزا رسـول الله ﷺ وأصحابـه بني الْمُصْطَلِق(١) من خُزَاعة.

وفي هذه الغزوة بدرت عدّة بوادر نفاق من عبد الله بن أبـي بـن سلول وأعانه فيها بعض جماعته من المنافقين.

ولـمّـا قفل رسـول الله ﷺ ومعه أصحـابه من غـزوة بني الْمُصْطَلِق، ولم تَبْقَ بيْنَـه وبين المدينة إلّا مـرحلة، آذن بالـرّحيل آخـر اللّيل، فلَمّـا علمت أم المؤمنين «عائشـة» رضي الله عنهـا بذلـك، خرجت من هَـوْدَجِها، وابتعـدت عن الجيش لقضاء حـاجتهـا الطبيعية، كما هو شأن النساء قبـل التَّرَحُّـل، فلمّا فـرغت أقبلت إلى رَحْلِها، فـافْتَقَدَتْ عِقْداً فيه جَزْعُ ظفار، كان في صدرها (جَزْعُ ظفار: أي خرز هو من صناعة مدينة ظَفَار باليمن قرب صنعاء) فَرَجَعَتْ تَلْتَمِسه.

قالت السيدة عـائشة رضي الله عنهـا (كما عنـد ابن إسحاق): ثُمَّ أُذِّنَ في النـاس بالرّحيل، فارْتَحَلَ النّاس (أي: أخذوا يحملون أمتعتهم على رواحلهم) وخَرَجْتُ لبعض حاجتي، وفي عُنقي عِقْدٌ لي، فيه جَزْعُ ظفارٍ، فلمّا فـرغتُ انْسَلَّ من عُنُقي ولا أدري،

---

(١) بنو الْمُصْطَلِق: حيٌّ من خُزاعة. وخزاعة قحطانيون عنـد أكثر النسّـابين، كانت منـازلهم بقرب الأبـواء (بين مكة والمـدينة) وفي وادي غـزال، ووادي دوران وعسفان في تهـامة الحجـاز. قال المسعودي: كانت ولاية البيت الحرام في خزاعة ثلاثمائة سنة.

والْمُصْطَلِقُ في اللّغة: هو المتمرّغ على جنبيه من الألم.

فلمّا رجَعْتُ إلى الرَّحْلِ ذهبْتُ ألتمسُهُ في عنقي، فلَمْ أجِدْهُ، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الّذي ذهبتُ إليه، فالتمستُه حتّى وجدته.

جَزْع: نوع من العقيق. وظَفَارِ: مدينة لحمير باليمن.

وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يُرَحِّلُونَ لي البعير، وقد فرَغوا من رحلته، فأخذوا الْهَوْدَج، وهم يظنّون أنّي فيه، كما كُنْتُ أصْنَع، فاحْتَمَلُوهُ، فشدُّوهُ على الْبَعِير، ولَمْ يَشُكُّوا أنّي فيه، ثمّ أخذوا برأس البعير فانْطَلَقُوا به، فرجعتُ إلى العسكر، وما فيه من داعٍ ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت رضي الله عنها: فتلفَّفْتُ بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعَرَفْتُ أنْ لو افْتُقِدْتُ لَرُجِعَ إليّ.

قالت: فواللّهِ إنّي لمضطجعة إذْ مرّ بي «صَفْوانُ بن الْمُعَطَّلِ السُّلَمي».

وجاء في الرواية التي عند البخاري ومسلم هنا عن عائشة:

«وَكَانَ صَفْوانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِي، ثُمَّ الذَّكْواني قَدْ عَرَّسَ[1] مِنْ وَرَاءَ الْجَيْش، فَادَّلَجَ[2]، فأصْبَحَ عند منزلي، فرأى سواد إنسانٍ نائم، فأتاني، فعرفني حِينَ رآني، وكان قد رآني قَبْلَ الحجاب، فاستيقظتُ باسْترجاعه[3] حين عرفني، فخَمَّرْتُ وجْهِي بجلبابي، والله ما كلّمني كلمةً، ولا سمعتُ منه كلمة غير استرجاعه، حين أناخ راحلته، فوطيءَ على يَدِها، فركبتها، فانطلق يقُودُ بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، بعدما نزلوا مُوغِرِينَ[4] في نَحْرِ الظهيرة، فهلك من هَلَكَ في شأني، وكان الذي تولّى كِبْرَهُ عبد الله بن أبي بن سلول».

قال علماء السيرة: كان «صفوان بن الْمُعَطَّل» على ساقة العسكر، يلتقط في

(١) عرَّسَ: أي: نزل آخر اللّيل للراحة.
(٢) ادَّلج: أي: سار في آخر اللّيل.
(٣) باسترجاعه: أي: بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٤) مُوغِرِين: أوْغَرَ القومُ، إذا دخلوا في وقت الْوَغْرَة، وهي شِدَّةُ الحرّ.

مؤخرة الجيش ما يسقط من متاع المسلمين، حتّى يأتيهم به، ولذلك تخلّف عن الجيش.

وكان في الجيش «عبد الله بن أبي بن سلول» رأس المنافقين، فقال بين خاصّته: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وانطلقت كلمته تتردّد، وانخدع بها بعض المسلمين من أهل الإيمان، فشاعت بينهم وذاعت.

وجاء في الصحيح أنّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت تقول في عبد الله بن أُبيّ ابن سلول وحديث الإفك: «وهو الّذي كان يَسْتَوْشِيهِ ويَجْمَعُهُ، وهو الّذِي تَوَلّى كبره منهم».

يَسْتَوْشِيه: أي: يُحَرِّكه ويُرْسله ويُذيعه.

ويَجْمَعُهُ: أي: يعزم على إثارته ونشره، ويجمع عناصره ويرتّبها ليروجه بين الناس. يقال لغة: جمع الأمر إذا عزم عليه، ويقال: جمع الأمرَ إذا ضمّ بعضه إلى بعض.

وظلّت أم المؤمنين في كرب شديد، ومَرض مُمِضّ، حتى أنزل الله براءتها في كتابه، ونزل بشأنها عشر آيات من سورة (النور) من الآية (١١ ـــ ٢٠).

جاء في رواية البخاري ومسلم عنها أنّ رسول الله ﷺ لمّا نزل عليه الوحي من السماء ببراءتها، قال:

«أَبْشِرِي يَا عائشة، أمّا الله عزّ وجلّ فقد بَرّأَكِ».

قالت عائشة: «فقالت لي أُمّي: قومي إليه، فقلتُ والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلّا الله عزّ وجلّ، هو الذي أنزل براءتي».

وجاء في الروايات أن من الذين وَلَغُوا في هذا الأمر من المؤمنين وأقام الرسول ﷺ عليهم حدّ القذف: حسّان بن ثابت، ومِسْطَحُ بْنُ أثاثة، وحَمْنَةُ بنتُ جَحْش، أخْتُ أمّ المؤمنين زينبَ بنت جَحْش، أما زينب فلم تَقُلْ إلّا خيراً، عصَمَها ورَعُها ودينها.

* * *

(٣)
المفردات اللّغويّة في النّصّ

﴿ بِٱلۡإِفۡكِ ﴾:

هو في اللّغة الكذب، والخديعة، يقال لغة: أَفَكَ فُلَانٌ يَأْفِكُ أَفْكاً وَإِفْكاً وأُفُوكاً، ويقال أيضاً: أَفِكَ بكسر الفاء، يأفَكُ أَفْكاً وإفْكاً، إذا كذب أو حدّث بكلامٍ كذبَ.

قيل: وهو مشتقٌّ من الأَفْـكِ بفتح الهمـزة، وهو قَلْبُ الشّيْء عـاليَهُ سـافله، ومنه سميت قرى قوم لوط «المؤتفكة» أي: التي قلب الله عاليها سافلها، وخسف بها.

وحديث الإفك: صار علماً بـالغلبة على مـا جرى في القصـة التي سبق بيانهـا، ونزل بشأنه قرآنٌ يُتْلَىٰ.

﴿ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ ﴾:

الْعُصْبَةُ: الجماعةُ من الناس، قـال جمهور أهـل اللّغة: العُصْبـة الجماعـة من عشـرة إلى أربعين. وقيل: من الثـلاثة إلى العشـرة، وهـو اسم جمـع لا واحـد لـه من لفظه.

﴿تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾:

يقـال لغة: تَـوَلَّىٰ فلانٌ الأمـر، بمعنى: تقلّدَهُ، وقام بـه، ولزم العمـل به أو بمـا يتعلّق به.

أمّا كُبْرُهُ: فقد سبق لدى توجيه القراءات بيانه.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتّدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ ﴾.

يخاطب الله في هذا عموم المسلمين الذين يجمعون المؤمنين الصادقين والمنافقين، فَيُبيِّن لهم أنّ الّذين جاءوا بحديث الإفك هم عُصْبَةٌ منهم.

أي: لم يُصَدِّرْه الذين كفروا صراحة، لا اليهود ولا النصارى، ولا المشركون من العرب، ومع أنّ المنافقين قد تولّوا كِبْره، إلاّ أنّ في قوله تعالى: ﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ إلماحاً إلى أن بعض المؤمنين قد تقع منهم معصية كبيرة، كمعصية قَذْفِ المحصنات المؤمنات الغافلات بالشبهة، دون بيِّنَةٍ مقبولةٍ شرعاً.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

أي: لا تحسَبُوا يا أيّها المؤمنون وجود ظاهرة حديث الإفْكِ في مجتمعكم الإسلاميّ الأمثلِ والرَّسُولُ فيكم، شرّاً لكُمْ، يُفْسِدُ مُجْتمعكُمْ، ويكْسِرُ وحدتكم، ويمزّق صفَّكُمْ.

والمعنى: لا يقَعْ في توهُّمِكُمْ هذا، ففعل «حَسِب» في القرآن لم يُسْتَعْمَلْ إلاّ في التوهُّم المردود الذي لا يَنْبغي أن يُحْسَبَ له حِسَابٌ ما.

بل هو خيرٌ لَكُمْ بسبب النتائج التي نجمت بعد ذلك من وجود حديث الإفك فيكم، وهي نتائج فيها خير عظيم.

ونتساءل عن هذه النتائج التي جعلت وجود حديث الإفك في المجتمع الإسلاميّ الأوّل خيراً؟

وبالتأمل ينكشف لنا أنّ العلل الداخليّة، والأمراض الكمينة، إذا بقيت خفيَّةً تفاقم شرّها، وعَظُم ضُرُّها، وصارَ من المتعذّر معالجتها واستئصالها، فمِنَ الخير ظهورُ آثارها مع بداياتها، لتدارُكِ علاجها، واستئصالِ دائها.

وهذا ما حصل فعلاً بالنسبة إلى ظهور حادثة الإفك، فقد كشفت للمسلمين بالنسبة إلى مجتمعهم وظاهراته الاجتماعية أمرين:

الأمر الأوّل: أنّ المنافقين لا يَفْتَؤُون ينتهزون كلّ حدث، للإفساد، وللإشاعة

البلبلة والاضطراب، وشقّ صفوف المسلمين، وهدم وحدتهم وتمزيقها، بما ينشرون من أكاذيبَ ومفتريات وأنواع من الإفك، وبما يذيعونه ويشيعونه من إرجافات.

فعلى جماعة المسلمين أن يكونوا يَقِظين حَذِرين، لا يستجيبون لدسائس المنافقين، ووساوس المغرضين، وهَمَسَاتِ الأعداء المخالطين.

الأمر الثاني: أنّ المجتمع المسلم مهما عَظُمَتْ تربيتُه الإسلاميّة، وصَلَحَ حالُه، وارتقىٰ فوق سائر المجتمعات، فإنّه لا يخلو من وجود أفرادٍ فيه يتأثّرون بالشائعات الكواذب، ويَبْنُونَ على الظنون الضعيفة، ويُتَابعون بتحرّكاتهم أصحاب الأغراض الخاصّة، وأهْلَ الأهواء، ويَسْتَجيبونَ لوساوس المنافقين ودسائسهم.

وانكشافُ هٰذين الأمرين في المجتمع الإسلاميّ الأول استدعىٰ إنْـزالَ بَيَانـاتٍ وتَشْريعاتٍ ربّـانيّة، يحمي الله بها المجتمعات الإسلامية القادمة من شرور هٰـذَيْن الأمرين، إذا الْتزموا بهذه البيانات وأحكام هذه التشريعات، وعملوا بما جاء فيهما.

وهذا خيرٌ عظيم جلبَهُ حدُوث هذه الظاهرة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الأوّل، إذْ كان رسول الله فيه، وكانت آيات الله وشرائعه تنزل عليه.

وكان من حكمة الله أنّ المتّهمَةَ في الحدَث من أعفّ العفيفات وأطهر الطاهرات وهي زوجةُ الرّسول المجتبى، وأنّ المتّهم فيه من أهل بدر، ولم يَعْرف النساء قَطّ، واسْتُشْهِدَ بعد ذلك في سبيل الله، وسُئِلَ عنه فوجدوه رجلاً حصوراً، ما يأتي النساء.

* * *

* قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾:

أي: لكل امْرِىءٍ من أفراد العُصْبَةِ الّذِينَ جَاءُوا بـالإفْكِ جـزاءٌ بمقدار مـا اكْتَسَبَ من الإثْم.

فأبان اللّهُ أنّ قَذْفَ المحصنات والمحصنين من المؤمنين إثْمٌ يترتّب عليه عقوبةٌ عند الله عزّ وجل، تعادل ما حمل من ثقل الذنب.

وجاء فعل ﴿اكْتَسَبَ﴾ بصيغة «افتعل» الدالّة على التكلّف، للدلالة على أنّ إثم القذف إثْمٌ ثقيلُ الْحِمْلِ على ظهر حامله، لا يستطيع حَمْلَهُ إلاّ بكُلْفَة.

وحسْبُ هذا الإثم العظيم أن جعل الله له حدّاً شرعيّاً، أنْ يُجْلَد مرتكبه ثمانين جلدة، وأن يكون من الملعونين في الدنيا، وأن يكون له عذابٌ عظيم في الآخرة أيضاً، ما لم يَتُبْ من ذنبه، ويغفر الله له.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

أي: والذي تولّى بثّهُ أوّلاً سرّاً بين جماعته، وتابع الوسوسة لترويجه وإشاعته، من أفراد هذه العصبة، له عذاب عظيم عند الله يوم الدين.

وقد سبق أن عرفنا أنه رأس المنافقين «عبد الله بنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُول». أُبَيٌّ: أبوه، وسَلُول: أمُّ أبيه.

ولم يثبت أن رسول الله ﷺ قد أقام عليه الحدّ، وأرى أنّ السبب في ذلك أنّه كان يبثّ مقالاته سرّاً بين المنافقين، ولم يصرّح بها أمام من يشهد عليه شهادةً شرعية بأنّه قاذف، بخلاف الذين أقيم عليهم الحدّ، فقد أدينوا بأقوالهم بمقتضى الشهود الذين شهدوا عليهم، والله أعلم.

● ● ●

النصّ الثالث والعشرون

من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول)

السورة (١٦) من التنزيل المدني

الآيــة (٣٣)

حول موقف بعض المنافقين من إكراه الإماء على البغاء

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾.

* * *

(١)

موضوع النصّ وسبب نزوله

موضــوع النــص:

خصّ الله عــزّ وجلّ الإمـاء في الإسلام بـأحكـام خـاصّـة تخفيفيّة في مـوضـوع تعرّضهنّ لفاحشة الزنا، على خلاف الأحكام الّتي أنزلها بشأن الحرائر، وذلـك مراعـاةً لأوضاعهنّ في المجتمـع، بمقتضى كـونهنّ رقيقـاتٍ يَسْعَيْن في خــدمةِ أوليــائهنّ، وبمقتضى كونِهِنّ غيرَ مُلْزَماتٍ بالحجاب المفروض على الحرائر، وهو الحجاب الساتر لمفاتنهنّ، من أجسادهن، إذْ حُكْمُ عورة المرأة الأمة كحكم عورة الرجل.

وبسبب ذلـك فقـد يتعرّضْن في المجتمـع لأمـور لا تتعـرّض لمثلهـا الحـرائـر، فيصعُبُ عليهنّ أن يُحْصِنّ أنفُسَهنّ بـالعفّـة، كمـا أنّهنّ يجـدن أنفُسَهنّ عـرضـة دوامـاً

لمعاشرة من ينتقلْنَ إلى مِلكِه بعد التأكّد من براءة أرحامهنّ من الحمل من قِبَل مالك أو زوج سابق.

وقد سبق في نجوم التنزيل بيان عقوبتهنّ إذا زنينَ برغبتِهِنَّ دون إكراه من أولياء أمورهن، وهي نصف ما على الزانيات المسلمات الحرائر المحصنات بالضوابط الاجتماعية من العذاب. فالإماء إذا زَنَيْنَ جُلِدْنَ خمسين جلدة دون تثريب، ولو كانت إحداهن يعاشرها مالكها، أو كانت زوجةً لعبد أو حرّ.

فالرّق حالة اجتماعية تستدعي الأحكام المخفَّفة بحكمة الله عزّ وجلّ.

وما سبق في نجوم التنزيل هو قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بشأن الإماء:

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ... ﴿٢٥﴾﴾:

أي: فإذا أسْلَمْنَ، فمنعهُنَّ إسلامهنّ من ارتكاب فاحشة الزنا، أو إذا كُنَّ متزوّجات، فإنْ أتين بعد ذلك بفاحشة الزنا فإنَّهُ يكون عليهن من العذاب عقاباً لهنّ، نِصْفُ ما على المحصنات بالحرّيّة وضوابطها من العذاب، وهو حدٌّ مقداره خمسون جلدة فقط، أمّا الرَّجْمُ فلا يُرْجَمْنَ لأنّه لا يُنَصَّفُ، ولو كُنَّ متزوجات.

هذا هو الحكم الذي دلّ عليه النصّ بالنسبة إلى الرقيقات المحصنات إذا ارتكَبْنَ فاحشة الزنا برغبتهن.

واختلف العلماء في المراد من إحصانِهِنَّ، هل هو إسلامهن أو زواجُهُنَّ؟ وعلى هذا فالإماءُ غير المسلمات اللّواتي لم يُحْصِنَّ بالإسلام أنْفُسَهُنَّ قد اختلف العلماء بشأنهنّ على رأيَيْن:

الرأي الأول: وهو مذهب الجمهور، قالوا: إنّ الأمَةَ إذا زنت فعليها خمسون جلدة، سواءٌ أكانت مسلمة أو كافرة، مزوّجةً أو بكراً، عملاً بما ورد في السنة.

الرأي الثاني: أنّ الأمة الكافرة لا تُجْلَدُ إذا زنت، عملاً بالمفهوم المخالف للشرط الوارد في الآية.

وقد ورد في السنة بشأن الأمة التي تزني عدّة أحاديث منها:

(١) روى مسلم في صحيحه عن عليّ رضي الله عنه، أنّه خطب فقال: (يا أيها النّاسُ أقِيمُوا الحَدَّ عَلَىٰ إمَائِكُمْ، مَنْ أُحْصِنَ مِنْهُنَّ وَمَنْ لَمْ يُحْصَنْ، فإنَّ أَمَةً لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ زَنَتْ، فَأَمَرَني أنْ أَجْلِدَها، فإذا هِيَ حَدِيثَةُ عَهْدٍ بِنِفاس، فَخَشِيتُ إنْ جَلَدْتُها أنْ أَقْتُلَها، فذكرتُ ذَلِكَ للنبيِّ ﷺ، فقال: «أَحْسَنْتَ، اتْرُكْها حَتّى تَمَاثَل»).

يقال لغة: تماثل العليل، أي: قارب أن يبرأ من علته فصار أشبه بالصحيح.

(٢) وروى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إذا زَنَتْ أَمَةُ أحدِكُمْ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، ولاَ يُثَرِّبْ عليها، ثُمَّ إنْ زَنَتْ الثَّانِيَةَ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، ولا يُثَرِّبْ عَلَيْها، ثُمَّ إنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَبِعْهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ من شَعَرٍ».

* * *

بقي حُكْمُ الإماء اللّواتي يُكْرِهُهُنّ أولياؤهُنّ على البغاء، وهُنّ يُرِدْنَ التَّحصُّنَ بالعفة والتزام حُكْمِ تحريم الزنا، فهل يُقامُ عليهنّ الحدّ الذي هو نصف ما على المحصنات من العذاب، أو لا؟

لقد ظلّ هذا الحكم معلّقاً مُدّةً من الزمن، لأنّ أكثر أحوال الإماء أن يَزْنين برغبتِهِنّ، لا بالإكراه على البغاء، في مَهْنَةٍ خاصّة، وقد تُتّخذُ لها بيوتٌ ذاتُ علاماتٍ خاصّة، تُسمّى المواخير، حتى نزلت سورة (النور) بعد نزول تسع سور من نزول سورة (النساء) فتنزل فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

فنهى اللّهُ أولياء الإماء نَهْيَ تحريم عن إكراهِهِنّ على ممارسة مَهْنَة البغاء لكسب المال بكدّ فروجهنّ، زاعمين على عادات أهل الجاهليّة أنّ امتلاك رقابهِنّ يبيح لهم تأجير فروجهِنّ بالمال.

وأبان تبارك وتعالى أنّهُنّ إذا تعرّضْنَ لممارسة الزنا بإكراه من أولياء أُمورهِنّ،

وهُنَّ يُرِدْنَ التَّحَصُّنَ بالعفَّة والالتزام بحكم تحريم الزنـا، فإنَّهُنَّ حِينَئِذٍ لا يُقَامُ عليهِنَّ الحدُّ الذي سبق إنزاله في سورة (النساء).

ولمَّا كُنَّ قد يتعرَّضْنَ لمشاعر الاستمتاع عند الممارسة، مع عدم رغبتهنَّ أصلاً بالبغاء، فقد ألمح الله لهنَّ أن يستغفرن، ووعدهُنَّ بأن يغفر لهنّ ويَرْحَمَهُنَّ.

سبب النـزول:

أورد الطبري في تفسيره عدّة روايات في سبب نـزول هـذا النّصّ، وهي في معظمها تبيّن أنّهـا انزلت لإلغـاء عادة جـاهلية، وقـد بقي يفعلهـا رأس المنـافقين في المدينة «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» وهي إكراه من يشاء من إمائه على البغاء، لكسب المال بالزّنا.

وقـد أنزل الله هـذا النّص للنّهي عن هذه العـادة الجاهليـة الخبيثة، ولبيـان عُذْرِ المكرَهَة من الإماء، ورفع عقوبة الحدّ عنها، ودعوتها للاستغفار عمّا قد تستمع به عند المعاشرة، مع كونها كارهة مُكْرَهَةً، ليغفر الله لها ويرحمها.

فمن الروايات التي أوردها الطبري ما يلي:

(١) روى الطبري بسنده عن جابر بن عبد الله قال:

«كانت جارية لعبد اللّهِ بن أُبيّ بـن سلول، يقال لها (مُسَيْكة) فأجَرها وَأَكْرَهَها، فأتت النبـي ﷺ فشكت ذلك إليه فأنزل الله:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

يعْني: بِهِنّ».

(٢) وروى الطبريّ أيضاً بسنده عن عكرمة.

«أَمَةٌ لعبد اللّهِ بن أبـي بنِ سَلُول أمرها فزنت، فجاءت بِبُرْدٍ، فقال لهـا: ارجعي فازني، قالت: والله لا أفعلُ، إن يَكُ هذا خيراً فقد اسْتَكْثَرْتُ منه، وإن كان شـرّاً فقد آنَ لي أَنْ أَدَعَهُ».

(٣) ويدلُّ على أنّها كانت عادةً متّبعة، ما رواه الطبري بسنده عن الزهري، أنّ رجلاً من قُريش أُسِرَ يوم بدرٍ، وكان عبد الله بن أبي بن سلول أَسَرَهُ، وكان لعبد الله جارية، يقالُ لها: مُعَاذَة، فكان القرشيُّ الأسير يريدها على نفسها، وكانت مُسْلمةً، فكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان ابْنُ أُبيّ يُكرِهُها على ذلك ويَضرِبُها، رجاء أن تَحْمِلَ للقرشيّ، فيَطْلُبَ فداءَ ولَدِه، فقال الله تعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾.

قال الزهري:

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

يقول: غفورٌ لَهُنَّ ما أُكْرِهْنَ عليه.

(٤) وروى الطبري أيضاً بسنده عن ابن عبّاس في الآية قال: كانُوا في الجاهلية يُكرِهُونَ إماءَهُمْ على الزنا، يأخذون أجُورَهُنّ، فقال الله: لا تُكْرِهُوهُنَّ على الزنا من أجل المَنَالَةِ في الدنيا، ومن يكرههنّ فإنّ الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم لهنّ، يعني إذا أُكْرِهْنَ.

(٥) وروى بسنده عن مجاهد، قال:

كانوا يأمرون ولائدهم يُبَاغِين، يفعلْنَ ذلِكَ، فيُصِبْنَ، فيَأْتِينهم بكَسْبِهِنّ، فكانت لعبد الله بن أُبيّ بن سلول جارية، فكانتْ تُبَاغِي، فكرهت، وحلفت أن لا تفعله، فأكرهها أهلها، فانطلقت فباغت ببُرْدٍ أخْضر، فأتَتْهُمْ به، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ...﴾.

وأورد الشيخ محمد بن الطاهر بن عاشور، أنّه كانت في المدينة إماءٌ بغايا، منهنّ ست إماء لعبد الله بن أبي بن سلول، وهنّ: «مُعَاذَة ـ مُسَيْكَة ـ أُمَيْمَة ـ عَمْرَة ـ أَرْوَى ـ قُتَيلَة». وكان يُكْرِهُهُنَّ على البغاء بعد الإسلام.

قال: وقالوا: إنّ عبد الله بنَ أُبيّ قد أعدَّ معاذة لإكرام ضُيوفه، فإذا نزل عليه ضَيْفٌ أرسلها إليه ليواقعها، إرادة الكرامة له.

فأقْبَلَتْ معاذةُ إلى أبي بكر، فشكت ذلِكَ إليه، فذكر أبو بكر ذلك للنبيّ ﷺ، فأمَرَ النبيّ ﷺ أبا بكر بقبضها، فصاح عبد الله بن أُبيّ، مَنْ يُعْذِرُنا[1] من محمّد، يغلبنا على مماليكنا، فأنزل الله هذه الآية.

قال: وكان بمكة تسع بغايا شهيرات، يجعلْنَ على بيوتهنّ رابات، وذكر أسماءهن.

* * *

(٢)
المفردات اللّغوية في النّصّ

﴿وَلَا تُكْرِهُوا﴾:

الإكْراهُ على العمل: القَهْرُ عليه، والحَمْلُ عَلىٰ فعله بالقوة، أو بالتّهديد بإنْزال مكْرُوه.

﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾:

أي: إماءكم، جمع «فَتَاة» وأصل «الْفَتَاة» مؤنث «الفتى» وهي الشابّة أوّل شبابها. وقد كرّم الله الإماء فسمّاهنّ فتيات.

وروى مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، وأَمَتِي، كُلُّكُمْ عَبِيدُ الله، وكلُّ نِسَائِكُمْ إمَاءُ اللَّهِ، ولَكِنْ لِيَقُلْ: غُلَامِي، وجَارِيتي، وَفَتَايَ وفَتَاتِي».

﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾:

أي: على الزنا. «بِغَاء» مصْدَرُ بَغَت المرأة وبَاغت إذا زنت. يقال لُغَةً: بَغَتِ الأَمَةُ تَبْغِي بَغْياً وبِغَاءً، وبَاغَتْ تُبَاغِي مُبَاغَاةً وبِغَاءً، أي: فَجَرَتْ وارتكبت فاحِشَةَ الزنا.

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾:

التَّحَصُّنُ: التَّمنُّع بالطّاعة من ارْتِكَابِ المعصية، وبالتعفّف من الوقوع في الزنا،

(١) مَنْ يُعْذِرُنا مِنْ محمد: أي: مَنْ يُنصِفُنا من محمد.

وفي الصيغة معنى التكلّف وتحمُّل مشقَّةِ مغالبة النفس، وهو في الأصل من الدخول في حِصْنٍ منيعٍ، للاحتماء به. يقال لغة: تَحَصَّنَ يَتَحَصَّنُ تَحَصُّناً، إذا دخَل في حِصْنٍ واحْتَمَى به.

ويقال: امرأةٌ حَصَان، وحاصِن، أي: عفيفة.

[والمحصنات]: العفائف من النساء. والْمُحْصَنَةُ: الّتي أحْصَنَها زوجُها.

والمرأة تكونُ مُحْصَنَةً بالإسْلام، أو بالعفاف، أو بالحرّيّة، أو بالتزويج.

وأصْلُ الإحصان يدلُّ على المنع، ويُسَمَّى الْمَكَانُ الْمنيعُ حصناً، لأنّه يَمْنَعُ العدُوّ من الدخول فيه، والوصول إلى المحتمين به داخله.

﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

أي: لتَطْلُبُوا بإكْراه إمائكم على البغاء مالاً، أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا الذي هو عَرَضٌ زائل.

﴿غَفُورٌ﴾:

أي: كثير المغفرة، كثير سَتْرِ الذُّنُوب على عباده. يقال لغة: غَفَرَ الشيءَ إذا سَتَرَهُ، وغَفَرَ المتاع في الوعاء، إذا أدْخَلَهُ فيه وسَتَرَهُ، وغَفَرَ الله لِلْعَبْد ذنْبه، غَفْراً وغُفْراناً ومَغْفِرَةً، إذا سَتَرَهُ له.

﴿رَّحِيمٌ﴾:

كثيرُ الرَّحْمَةِ وعَظِيمُها. الرّحمةُ: صفةٌ من آثارها العطاء، والمعونةُ وإزالةُ الْبُؤس، والإمدادُ بما يَسُرّ ويُسَكِّنُ النَّفْسَ، ويُطَمْئِنُ القَلْبَ، ويُمَتِّعُ ذا الحياة بما يَطيبُ لدَيْه، ويكفُّه عن الشرّ والضُّرّ والسُّوء، ويَهْديه إلى ما فيه خيرُه وسعادته، في عاجل أمره وآجله، ويُبَيِّن له ما فيه شرٌّ له وضُرٌّ وأذى، ونحو ذلك.

والرَّحْمَةُ صفةٌ من صفات الله الجليلة، وهي صفة نفسيّةٌ نُثْبِتُها لله عزّ وجلّ على ما يليق بجلاله، فقد أثبت الله لنفسه الرحمة، فقال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ... ١٥٦﴾:

* * *

(٣)

مع النصّ في التحليل والتدبّر

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

أي: ولا تُكْرِهوا إماءَكُمْ عَلَىٰ الزّنـا كَما كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ في الجـاهليّة، لِيَجْلِبْنَ لكُمْ مَالاً اوغيرَه من عرض الحياة الدّنيا، بكدِّ فروجِهنّ، زاعمين أنّ لكم الحقّ أن تكتَسِبُوا بأجسادِ إمائِكُمْ اللّواتي تملكون رقابَهُنَّ على ما تشتهون، ولو كان في أمْرٍ حرَّمَه الله على الناسِ جميعاً، أحرارِهم وعبيدهم.

فحفظُ الفروج من الزنا هو من حقّ الله على عبـاده جميعاً، والاستمتـاعُ بالفـروج يخضع لضوابطَ حدَّدها الله بأوامره ونواهيه، وليس التصرّف بالفروج من توابع الملكيَّة.

إنّ مالك رقبة الأمة له أن يبيعها، أو يهبها، أو يؤجرها في الخدمة، أو يكلّفها من الأعمـال، أو يتسرَّىٰ بهـا، أو يزوّجهـا، ولكن ليس من حقّه أن يؤجـرها للقيام بعمـلٍ حرَّمه الله عليها، أو يكلّفها إياه كالزّنا واللوّاط، والسّرقة والغيبـة والنميمة، والقتـل بغير حقّ، وهكذا إلى سائر المحرّمات، أو يمْنَعَها عن ممارسة حقوقها الشخصيّـة وواجباتهـا الدينيّة.

بقي أن نفهم فـائـدة تعليق النهي عن الإكـراه على الـزنـا بشـرط إرادة الإمـاء التَّحَصُّنَ، أي: التمنُّعَ من الزّنا، والدخولَ في حِصْنِ طاعة الله لاتّقاء عذابه، وهـل إنْ كُنَّ لا يُرِدْنَ التَّحَصُّنَ فلأوليائِهنّ أنْ يُكْرِهُوهُنَّ على البغاء؟

أشكـل التعليقُ بهـذا الشـرط على عمـومِ المفسّـرين، واعتَبَـرهُ بعضهم من المعضلات، وسلكوا مسالك متعـدّدة لتأويـل النّصّ بما يتفق مـع ما يعلمـون من حكم الشرع.

أقـول:

إنّ سبب وقوعهم في الإشكال، ولجوئهم إلى التأويلات، أنّهم لم يجمعوا بيْنَ ما نزل في سورة (النساء) بشأن زنا الإماء، وما نزل بعد ذلك في سورة (النور) ولم يَنْظُروا إلى النَّصّيْن على أنهما متكاملان، وأن الموضوع قد جُزّىء عليهما، وفق أسلوب القرآن في تجزئة موضوعاته، وتوزيعها في السّور، وأنَّ علىٰ المتدبّر أن يَتَدبَّرها متكاملة، يُضَافُ إلى هذا السبب أنّهم لم يتنبّهوا إلى التقسيم المنطقيّ بين النّصّين، وأنّهما يكوّنانِ معاً قضيّة شرطيّة منفصلة حقيقية، وهي الّتي تكون كما يقول علماء المنطق مانعة الجمع والخلوّ معاً، كقولنا: الإنسانُ إمّا شاكر وإمّا كفور، فإنْ كان شاكراً فمصيره أخيراً إلى الجنة، وإنْ كان كفوراً فليس له مَصِيرٌ إلّا النار.

والمعنى: لا يخلو الإنسان المكلف من واحد من الأمرين: (شاكر ـ كفور) ولا يمكن أن يكون معاً في وقت واحد (شاكراً ـ كفوراً) فالشاكر ولو بكلمة «لاإلٰه إلّا الله» سيصير إلى الجنة، ولو عذّب في النار، والكفور المبالغ في كفره لا دار له يوم الدين إلّا النار خالداً مُخلّداً فيها أبداً.

هذه قضية شرطية منفصلة حقيقية، مانعةُ جمع ومانعة خلوّ معاً.

فلنجمع النَّصّيْن: الذي في سورة (النساء) والذي في سورة (النور) ولْنَتدبّرْهُما على أنهما يشتملان على قضيّة شرطيّة منفصلة حقيقية، وأنّ للمقدّم فيها حكماً، وللتالي فيها حكماً.

حينما نقول: العدد: إما زوجٌ (هذا مقدّم) وإمّا فَرْدٌ (هذا تالٍ):

ـ فإن كان زوجاً فهو ينقسم إلى متساويين دون كسر (هذا حكم المقدم).

ـ وإن كان فرداً فهو لا ينقسم إلى متساويين دون كسر (هذا حكم التالي).

على وفق هذا المقياس نعرض النّصّيْن.

(١) الذي في سورة (النساء) حول الإماء:

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ... ﴿٢٥﴾﴾.

المحصنات: الحرائر.

ونصف ما عليهن من العذاب: هو خمسون جلدة.

(٢) والذي في سورة (النور):

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا . . . ﴿٣٣﴾﴾.

نضعُ مضمون هٰذَيْن النّصين بصيغة قضيّة شرطيّة منفصلة حقيقية، فنقول: الإماء:

(١) إمّا أن يَزْنين باختيارهن دون إكراه، فيأتين الفاحشة بأنفسهنّ.

(٢) وإمّا أن يُكْرَهْنَ مِنْ قِبَلِ أوليائهنّ على الزنا.

أي: لا يخلو أمر زناهُنَّ عن أن يكون باختيارهنّ، أو بإكراه أوليائهنّ لهنّ، ولا يجتمع الأمران معاً، لأنه إن كان باختيارهنّ فلا إكراه، وإن كان بالإكراه فلا اختيار لَهُنَّ.

الحكم:

ـ فإن زنين باختيارهِنَّ فعليهنَّ نصفُ ما على الحرائر من العذاب، وهو جلدهُنَّ خمسين جلدة. وهذا الحكم هو ما جاء بيانه في سورة (النساء).

ـ وإنْ أردن تحصُّناً بطاعة الله لاتّقاء عذابه، وأُكْرِهْنَ على الزنا من قِبَلِ أوليائهنّ فلا يُقامُ عليهن الحدّ لأنّهنَّ معذورات، والله من بعد إكراههنّ غفور لهنّ، رحيم بهن. وهذا الحكم هو ما جاء بيانه في سورة (النور).

فتكامل النّصان، واستوفت القضيّة الشرطيّة المنفصلة كلّ عناصرها، وجاء حكم المقدّم فيها في سورة (النساء) وجاء حكم التالي فيها في سورة (النور) واقتضت الحكمةُ البيانيّةُ إيراد الشرط في سورة (النور) لتوضع القضيّة بكاملها ضمن ميزانها ومقياسها، على أنّها قضيّة شرطيّة منفصلة حقيقية، كما يلي:

ـ إنْ لم يردْنَ تحصُّناً فيُقامُ عليهنّ الحدّ، ولا يوجد حينئذٍ إكراه.

ـ وإن أردن تحصُّناً فلا يقامُ عليهنّ الحدّ، إذْ لا يزنين حينئذٍ إلا بالإكراه.

وأُضيفَ إلى هٰذا نهي أوليائهنّ عن إكراههنّ على الزنا.

أليس هذا من روائع هذا الكتاب العجيب وإعجازاته.

هذا ما فتح الله به عليَّ هنا، والحمد لله على فتْحه وتوفيقه.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٣﴾:

أي: ومَنْ يُكْرِهْهُنَّ فعليه إثْمُ إكراهِهِنَّ، وهنَّ لا يُقامُ عليهنَّ حدّ زنا الإماء، لأنَّهُنَّ أَرَدْنَ تَحَصُّناً بطاعة الله، لاتّقاء عذابه، ولم يَفْعَلْنَ ما فَعَلْنَ بإراداتهنّ، بل أعْلَنَّ رفْضَهُنَّ وَعَدَمَ رَغبتِهِنّ، كما حصل لإحدى إماء عبد الله بن أُبَيّ بن سلول.

والجملةُ التي تضمّنت جوابَ الشرط هذا قد طويت، للعلم بها ممّا تضمَّنَ رفع عقوبة الحدِّ عن المكْرَهَاتِ من الإماء، وهو قوله تعالى:

﴿فإن الله من بعْدِ إكراههنَّ غَفُورٌ رَحيمٌ﴾ أي: فإنّ الله من بعد إكراه أوليائهنّ لَهُنَّ على الزنا غفورٌ لهنَّ رَحيمٌ بِهِنّ.

ولم يأت التعبير بعبارة تقتضي رفع المؤاخذة عنهنّ مطلقاً وأنّه لا مسؤوليّةَ عليهنَّ، لاحتمال أنْ يكُنَّ في حالة المعاشرة يشعُرْنَ بالاستمتاع بالزنا وإنْ كُنَّ كارِهَاتٍ غير راغبات، فهٰذه تحتاج استغفاراً، والله غفور رحيم.

* * *

النصّ الرابع والعشرون

من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) أيضاً
السـورة (١٦) مـن التنزيل المدني
الآيـات مـن (٤٧ ـ ٥٤)

حول كذب المنافقين في ادّعائهم الطاعة
ورفضهم التحاكم لله ورسوله

قول الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ
لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟
ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ
إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

* * *

(١)
القراءات المتواترات في هذا النّصّ
(من الفرش وبعض الأداء)

* في الآية (٤٨) والآية (٥١):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ] بالبناء للفاعل في الآيتين.

وقرأ أبو جعفر المدني: [لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ] بالبناء للمفعول في الآيَتَيْن.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، وتكامل فكري، فقراءة الجمهور تفيد أنّ الدعوة في حياة الرسُول لِيَحْكُمَ الرّسولُ بينهم، وهذا المعنى تفيده أيضاً قراءة أبي جَعْفَر، ولكن بصيغة البناء للمجهول، أمّا قراءة أبي جعفر فتفيد أيضاً أنّ هذه الظاهرة قد تحصلُ بعد حياة الرّسُول ليحكُمَ الحاكم العادل من المسلمين بحُكْمِ الله ورسوله، أي: بحكم الكتاب والسُّنّة.

* في الآية (٥٢):

(١) القرّاء في أداء [وَيَتَّقه] كما يلي:

أولاً: قرأ حفص عن عاصم [وَيَتَّقْهِ] بإسكان القاف واختلاس كسرة الهاء.

ثانياً: وقرأ قالونُ عن نافع، وقرأ يعقوب [وَيَتَّقِهِ] بكسر القاف واختلاس كسرة الهاء.

ثالثاً: وقرأ أبو عمرو وشعبة عن عاصم [وَيَتَّقِهْ] بكسر القاف وإسكان الهاء.

رابعاً: وقرأ ورشٌ عن نافع، وابنُ كثير، وخلفٌ عن حمزة، والكسائيُّ، وخلف العاشر [وَيَتَّقِهِي] بكسر القاف وإشباع كسرة الهاء.

خامساً: وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر، وابنُ جمّاز عن أبي جعفر [وَيَتَّقِهِ ـ وَيَتَّقِهِي] بكسر القاف ولهما في الهاء الكسر مع الاختلاس، ومع الإشباع.

سادساً: وقرأ خلّادٌ عن حمزة، وابنُ وردان عن أبي جعفر: [وَيَتَّقِهْ ـ وَيَتَّقِهِي] بكسر القاف ولهما في الهاء الإسكان، والكسر مع الإشباع.

سابعاً: وقرأ هشام عن ابن عامر [وَيَتَّقِهْ ـ وَيَتَّقِهِ ـ وَيَتَّقِهِي] بكسر القاف، وله في الهاء الإسكان، والكسر مع الاختلاس، ومع الإشباع.

وكلّها وجوه من الأداءِ لا يختلف بها بيان ولا معنى، وهي تخضع للّهجات العربية.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وسبب نزوله

موضوع النص:

يشتمل هذا النصّ على كشف ثلاث ظواهر من صفات المنافقين:

الظاهرة الأولى: أنّ المنافقين يقولون بألسنتهم: آمنّا بالله، وآمنّا بالرسول، وأطَعْنَا الأوامر والنواهي، ثم لدى التنفيذ لمقتضيات الإيمان وإعلان الطاعة يُدْبِرُون، ويَبْتَعِدون ابتعاداً كلّيّاً عن مواقع الإيمان والطاعة، وجاء التعبير عن هذا بأنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ، أي: يُدْبِرُون ويناْون.

الظّاهرة الثانية: أنّه إذا وقعت خصومة بين أحد المنافقين وبين شخص آخر، ودُعي المنافق إلى حكْمِ الله ورسوله، فإنْ كان يعلَمُ أنّ الحقّ لخصمه أعْرَض متجاهلاً متغافلاً متحايلاً، وإنْ كان يعلَمُ أنّ الحقّ له، فإنّه يأتي متظاهراً بالإذعان والاستسلام لحكم الله والرسول، ليحكم له الرسول، أو ليحكُمَ له الحاكم المسلم العادل من بعده.

الظّاهرة الثالثة: أنّ بعض المنافقين أقسموا بالله للرسولِ قَسَماً مُشدّداً مؤكّداً بكلّ وسائل التأكيد، قائلين له: لَئِنْ أمرتنا بأن نخرج إلى القتال في سبيل الله، أو بأن نخرج من أموالنا وأهلينا لَنَخْرُجَنَّ طاعةً لك، وإيماناً واحتساباً.

ولدى التطبيق العملي ينكشف أنهم كانوا كاذبين.

واشتمل هذا النصّ أيضاً على تعليقات ربّانيّة على هذه الظواهر، وعلى بعض معالجات تربويّة، اقتضاها الموقف عند نزول النصّ.

سبب النزول:

(١) روى عبد بن حميد، وابْنُ المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، قال في الآية (٤٧) من هذا النص:

«أناسٌ من المنافقين أظهروا الإيمان والطاعة، وهم في ذلك يَصُدُّونَ عن سبيل الله وطاعته وجهادٍ مع رسوله ﷺ».

(٢) ورَوَوْا أيضاً عن الحسن قال: في الآيات (٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠):

«إنَّ الرَّجُلَ كان يكون بينه وبين الرجل خصومة أو مُنَازعة على عهد رسول الله ﷺ، فإذا دُعِي إلى النبيّ ﷺ وهو محقٌّ أذعن وعلم أن النبي سيقضي له بالحقّ، وإذا أراد أن يَظْلِمَ فدُعي إلى النبيّ أعرض، وقال: انطلق إلى فلان، فأنزل الله سبحانه: ﴿وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله...﴾ إلى قوله: ﴿هم الظالمون﴾، فقال رسول الله ﷺ: «من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حَكَمٍ من حُكّام المسلمين فلم يُجِبْ فهو ظالم لا حقَّ له».

قال ابن كثير: وهذا حديث غريب وهو مُرْسل.

أي: فهو ظالم إذْ لم يُجِبْ الدعوة إلى حَكَمٍ يقضي بينهما من حُكَّام المسلمين الذين يحكمون بكتاب الله وسنَّة رسُوله، ويدلُّ عملُه هذا عَلَىٰ أنّه يخشَىٰ أن يحكم بينهما بالحقّ وهو لا حقَّ له، بل الحقّ لخصمه.

فَرَفْضُ التَّحاكُمِ إلى كتاب الله وسنة رسوله أمارةٌ ظاهرة على أنّ الرافض لا حقّ له، فهو يُريدُ أن يتحاكم إلى غير حُكْم كتاب الله وسنّة رسوله، عسَىٰ أن يجد في أحكام الناس حُكْماً بالباطل ينفعه، وهذا ظاهر في معاملات كثير من الناس اليوم، إذا رأى أحدهم أنه هو صاحب الحق طلب التحاكم إلى الشرع، لأنّ الشرع يُنْصِفُه، وإذا رأى غير ذلك طلب أن يَحْكُم القانون بينه وبين خصمه، في المحاكم التي تحكم بمقتضى القوانين الوضعيّة البشرية، وهذه صفة من صفات المنافقين.

(٣) وروى ابن مردويه عن ابن عبّاس قال:

«أتَىٰ قَوْمٌ النبيّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله، لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا، فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أيمانهم...﴾ الآية..».

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في هذه الآية قال: «ذلك في شأن الجهاد».

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿وَأَطَعْنَا﴾.

أي: خضعْنا واتَّبعْنا مُنْقادين بحسب ما يُطْلَبُ منا.

يقال لغة: أطاعَ يُطيع رَبَّهُ إطاعةً وطاعةً إذا خضع له وانقاد، ويقال طاع الولَدُ أباه طاعةً، وطاع له، أي: لانَ وانقاد له، ويأتي المصدر أيضاً طَوْعاً وَطواعية.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾:

أي: ثُمَّ يُدْبر وينأى مبتعداً، فالتولّي يدلّ على الإدبار، ويدلّ على النأي، وقد يجتمعُ الإدبار والنأي، وقد يكون النأي بدون إدبار.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾:

الإعراض منزلة وسطى بين الإقبال والإدبار، وأصْلُ الإعراض إعطاء الجانب. فَعُرْضُ الشَّيْء في اللّغة جانبه، وعارضا الإنسان صَفْحتا خدّيه.

﴿مُذْعِنِينَ﴾:

أي: مُنْقادين، يقال لغة: أذْعَنَ فُلانٌ، إذا انقاد وأطاع. ويقال: ذَعِنَ يَذْعَنُ ذَعَناً، إذا خضع وذلّ. وأذْعَنَ بالْحَقّ، إذا أقَرَّ به واعترف.

﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾:

أي: بل أحَدَثَ الارتيابُ ـ وهو الشك ـ لدَيْهم؟

﴿أَن يَحِيفَ﴾:

أي: أن يَجُور ويَظْلِم، يقال لغة: حاف عليه يَحِيفُ حَيْفاً، أي: جار وظلم. ويقال: حافَ الأَبُ، إذا فضّل بعض أولاده على بعض في العطاء، فهو حائف.

﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾:

أي: غايةَ ما لديهم من أيمانٍ مؤكّدة مشدَّدة، جَهْدُ الشيء في اللّغة يأتي بمعنىٰ نهايته وغايته، وبمعنى وُسْعِه وطاقته، ويأتي الْجَهْدُ بمعنىٰ الْمَشَقَّة.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

أي: فإنْ تتولّوا مُدبرين ونائين.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡ﴾:

أي: فليس على الرسول إلاّ ما كُلِّفَ حَمْلَهُ من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وليس عليكم إلاّ ما كُلِّفْتُمْ حَمْلَه.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾:

الْبَلاغُ والتَّبليغ والإبْلاغُ، بمعنىٰ إيصال الشيء إلَىٰ الموضع الذي هو له، فإبلاغ الأقوال أو المعاني يكون بإيصالها إلى من يُطْلَبُ إيصالُها إليه. والمعنىٰ: وما على الرسول من واجب تجاه أمّته في موضوع رسالته إلاّ أن يُبَلِّغَهُمْ ما كلّفَهُ الله تَبْليغَهُ بصورة مُبيِّنَةٍ واضحة.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾.

تكْشِفُ هذه الآية حالَ فريقٍ من المسلمين الذين يُعْلِنُون قائلين بألسنتهم: آمَنّا باللّهِ وبالرَّسُولِ وأطَعْنا، كما يَقُولُ سائر المسلمين، لكنَّ هذا القول يقتضي تحقيقَ مُقْتَضاهُ بالعمل، ليكون دالاًّ بصِدْقٍ على ما في القلب من إيمانٍ وعزْمٍ علَىٰ الطاعة.

ثُمَّ يَمْضِي زمنٌ متراخٍ على هذا القول، ويُمْتَحَنُ هذا الفريقُ بالتكاليف التي

تُوَجُهُ عادةٌ لمن صَدَقَ في إيمانه، وصدق في إعلانه عزمه على الطاعة، كالجهاد بالأموال والأنفس، وكالدّعوة إلى تطْبيقِ حُكْمِ كتابِ الله وسُنَّةِ رَسُوله في الْخُصُومات، لإقامة الحقِّ والعَدْلَ، إذا بهذا الفريق يَكْشِفُ حقيقةَ ما في باطنه، ويدلُّ بعمله وسلوكه على أنّه قد كان في إعلانه ما أعلنه بلسانه كاذباً، غيْرَ صَادق.

دلَّ على هذا قوله تعالى:

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

فدلَّت كلمة ﴿ثُمَّ﴾ على الزمن المتراخي الذي يَفْصِلُ بين القولِ الْمُعْلَن، والفعل المخالف له.

ودلَّت كلمة ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ علىٰ أن هذا الفريق يُدْبِر عن التطبيق وَينأىٰ، ولا يكتفي بمجرّد الإعراض، والتحايُلِ بالمراوغة.

ودلّت عبارةُ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ على أنّ الإعلان يكون عادةً من قِبَلِ جمع من المسلمين، فيهم المؤمنون والمنافقون، ومن هم بين الفريقين، لكِنَّ الَّذين يتَوَلّوْن هم فريقٌ من المشاركين في إعلان القول، لا جميعُهم.

ودلّت عبارة ﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ على شَناعَةِ التَّبايُن بيْنَ قولهم السابق، وعَمَلِهِمُ اللاّحق، فالْمُشَارُ إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو قولهم ضِمْنَ القائلين:

﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾.

فليست عبارة ﴿من بعد ذلك﴾ إطناباً، بل جيء بها لغرض، هو إبراز شناعة التباين بين القول والعمل.

ونلاحظ أنّ عبارة الإعلان لم يُكْتَفَ فيها بعطف ﴿الرسول﴾ على لفظ الجلالة دون إعادة حرف الجرّ [الباء] بل أُعيد حرف الجرّ، وفي هذا إشارة إلى لزوم فصل عناصر الإيمان لدى إعلان الإسلام بما يجعل كلَّ عُنْصرٍ مرتبطاً بكلمة الإيمان ارتباطاً مباشراً.

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ الذين يكشفون بالتطبيق العملي أنّ أعمالهم مُبايِنَةٌ مُبَايَنَةً كُلِّيَّةً لأقْوالِهم لَيْسُوا بمؤمنين، فقال تعالى:

﴿وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أي: ومَا أولَئِكَ الْبُعَداءُ إلى جِهةِ السُّفْلِ بالمؤمنين، وجاء في هذه العبارة تأكيد نفي إيمانهم بحرف الجرّ الزائد «الباء» سواءٌ أعْمَلْنا «ما» على رأي البصريين إعمال ليس، تبعاً للغة الحجازين، أولم نُعمِلْها على رأي الكوفيين تبعاً لِلُغَةِ التميميّين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

في هذه الآيات كشفٌ لحال فريق آخر من أصحاب الإعلان العام، هُمْ أخفُّ سُوءاً من الفريق السّابق.

الفريق السابق يَتولَّوْنَ مُدْبِرينَ ونَائِين، أمَّا أفراد هذا الفريق فحالُهم وَسَطٌ بين الإقْبال والإدبار، إنّهم إذا كانت بينَ أحدهم وبين شخص آخر خصومة على حقٍّ، فإنْ كان الحق لخصْمِه ودُعِيَ إلى الرسول في عَهْدِ الرَّسُول، أو إلى الحاكم المسلم الذي يحكم بكتاب الله وسُنَّةِ رَسُوله في عَهْدِه أو مِنْ بَعْدِه، يكونُ مُعْرِضاً يُعْطِي عارضَهُ ويتظاهر بالتجاهل والتغافُل، ويَتحايل، دون أن يُعْلِنَ صراحةً رَفْضَهُ. وإنْ كان الحقّ له أتَىٰ مُنْقاداً مُذعناً مظهراً استسلامه لحكْم كتاب الله وسنّة رسوله، ومعلناً غَيْرَتَهُ على تطبيق شريعة الله.

ولم يَدْمَغِ الله هذا الفريق بعدَمِ الإيمان جَزْماً، بل طرح بالنسبة إليه ثلاثة احتمالات أوردها على سبيل الاستفهام التقريري الذي يتضمّن معنى الإنكار عليهم ما هم فيه.

الاحتمال الأول: أن يكون في قلوبهم مَرَضٌ قريبٌ من مرض النفاق، منذُ شارَكوا في إعلان الإيمان والطاعة، حتّىٰ بَدَتْ منهم هذه الظاهرة، دلّ عليه:

﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

الاحتمال الثاني: أنْ يكونوا قد طرأ عليهم الشَّكُّ بما كانوا قَدْ آمَنُوا به سابقاً، وهو شكٌّ لم يصل إلى مستوى الكفر، وركوب مركب النفاق، حَتَّىٰ بدَتْ منهم هذه الظاهرة، دلّ عليه:

﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾.

أي: بل أرتابوا؟، بمعنى: أطرأ عليهم الرَّيب وهو الشك بعد أن كانوا مؤمنين حين شاركوا في إعلان الإيمان والطاعة؟.

الاحتمال الثالث:
﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾:

أي: بل أَهُمْ يخافون أن يَجُورَ اللَّهُ عليهم ورسُولُه في الحكم، بمعنى: أيخافون أن تكون قواعد الحكم الشرعي في كتاب الله وسنّة رسُولِهِ قواعِدَ لا تَضْمَنُ إقامَةَ الْحَقّ والعدل بيْنَ الْخُصُوم، على تَقْدِيرِ أنّ الدّينَ يَفْرِضُ طاعَةَ حُكْمِ اللّهِ وَرَسُولِهِ تعبُّداً ولَوْ كانت أحكاماً جائرةً.

لكِنَّ هذا التصوُّرَ مَرْفُوضٌ حتماً فَحُكْمُ اللّهِ في كتابه، وحُكْمُ الرَّسُولِ في سنَّتِه قائمان على الحقّ والعدل، والنصوص الإسلامية تأمُرُ بهما دواماً بَدْءاً من الرسول، فكلّ حكّام المسلمين وقضاتهم، وهذا أمْرٌ اتفقت عليه الأديان الرّبّانيّة كلُّها، ومما أُنْزِل في هذا قول الله عزّ وجل لداود كما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

بعد طرح هذه الاحتمالات التي يَنْحصِرُ إعْراضُ هذا الفريق عن حُكْم الله ورسوله بأن يكون سببُهُ واحداً مِنْها، وصَفَهُمُ الله عزّ وجلّ بأنّهم هُمُ الظّالِمُون في هَذَا الْمجالِ بَعْدَ أولَئِكَ الكَفَرَةِ المنافقين، فقال تعالى:

﴿بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿بل﴾: للإضراب الانتقالي.

﴿أولئك﴾: إشارة إلى هذا الفريق باسم الإشارة الموضوع للبعيد، للدلالة على بُعْدِهم عن صراط الله، وبُعْدِهم عن الالتزام بتطبيق مقتضى ما أعلنوا من إيمان وطاعة.

﴿هم﴾: ضمير فصل لتأكيد الحصر.

﴿الظّالمون﴾: أي: الآخذون من صفات الظلم بمخالفة مقتضيات الإيمان والطّاعة ما يجعلهم مُتميّزين، كأنهم وحدهم هم الظالمون، والقصْرُ هُنا من قبيل القصر الإضافيّ، أي: هُمْ وَحْدَهُمْ أشدّ الظالمين من جماعة المسلمين، بالإضافة إلى سائر الظالمين في موضوع الحكم بما أنزل الله في قضايا الحقوق بين الناس، إنْ لم يكونوا قد وصلوا إلى دركة الكفر ورُكوبِ مَرْكَب النّفاق حقّاً، فإن وصلوا إلى هذه الدّركة فهم مع أفراد الفريق الأوّل، وهذا أمرٌ يُفْهَمُ ذهناً.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

في مقابل ما يفعل الفريق الأول الذين ليسوا بمؤمنين، إذْ يُدْبِرُون وينأوْنَ عن تطبيق مقتضيات إعلان الإيمان والطاعة، ومَا يَفْعَلُ الفريق الثاني الظالمون الّذين يتَرَدّدُ حالهم بين أن يكونوا مرضَى القلوب ابتداءً، أو طرأ عليهم الرّيب، أو يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله في الحكم، يُبيِّنُ الله عزّ وجلّ في هاتين الآيتين موقف المؤمنين الصادقين في إيمانهم وفي إعلانهم الطاعةَ لله ورسوله، إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكُم بَيْنَهُمْ، أي: إذا دُعُوا للحكم في خصوماتهم بكتاب الله وسنّة رسوله.

إنّ موقف المؤمنين الصادقين مُنْحصِرٌ في أنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا، أي: سَمِعْنَا القولَ، فلَمْ تَكُنْ قُلُوبنا وأفكارنا شاردةً عنه غَيْرَ واعيَةٍ لمضمونه، وأَطَعْنَا ما تَضمَّنَه من أوامر ونواهيَ وتكاليف، فنحن نستجيب لتحكيم كتاب الله وسنّةِ رَسُوله، ونَقْبَلُ بما

يَصْدُرُ من حُكْم وَلَوْ كان علينا، وضدّ هوانا، لأنّنا نؤمنُ أن الحكم بكتاب الله وسنّة رسُوله يضمن الحقّ لأهله، ولا يَجُورُ عليهم.

وصارت عبارة: «سَمِعْنا وَأَطَعْنا» في الاستعمال الدينيّ دالّةً على الاستجابة التطبيقيّة العمليّة للتكاليف الشرعية، وليست دالّة على مجرّد القول، لأنَّ إتّباع الدعوة إلى ممارسة العمل المطلوب بعبارة «سَمِعْنا وأطَعْنا» يقتضي في العرف المتّبع مباشرةَ التّنفيذ، أو البدء باتّخاذ الأسباب اللّازمة له، دون تسويف ولا مراوغة.

وَوَعَدَ اللّهُ عزّ وجلّ هؤلاء المؤمنين الصادقين في إعلانهم الإيمان والطاعة بالفلاح، وهو الظفر بالسعادة الخالدة في جنات النعيم يوم الدين، فقال تعالى بشأنهم:

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ ﴾.

يقال لغة: فَلَحَ، وأَفْلَحَ، أي: ظفر بما يريد، وفاز بنعيم الآخرة.

وبعد بيان حال المؤمنين الصّادقين في هذه الجزئية من جزئيّاتِ السُّلوك الديني، أتْبَعَهُ اللّهُ عزّ وجلّ ببيان شاملٍ في قضيّة كُلّيّةٍ تَعُمُّ كُلَّ جزئيّات السلوك الدّينيّ في كلّ المجالّات فقال تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢ ﴾.

[مَنْ]: اسم شرط جازم يشمَلُ عموم العقلاء المكلّفين.

فالآيَة تشتمل على قضيّة كليّة شرطيّة متصلة موجبة، وهي تتألّف كما هو معلوم من شرطٍ وَجزاء.

أمّا الشرط فيها فقد جمع ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: طاعةُ الله ورسوله، وهو عنصرٌ سلوكي في المؤمن، دل عليه قوله تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾.

العنصر الثاني: خشية اللّهِ عَزّ وجلّ، وهو عنصر قَلْبِيٌّ ونفسيّ، يتدَفَّقُ دَواماً من منابع الإيمان، وليسَتِ الخشيةُ من الله مجرّد خوف ورهبة، بل هي خوفٌ مصحوبٌ

بإجلال وتعظيم وحبّ، وقد دلّ على هذا العنصر قوله تعالى:

﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾.

العنصر الثالث: تقوى الله، وهو العنصر الوسيط بين الخشية القلبية النفسية، وبين سُلُوك الطاعة، فالتقوى هي التحرّك لاتخاذ الوقاية من العقاب، وقد دلّ على هذا العنصر قوله تعالى:

﴿وَيَتَّقْهِ﴾.

الخشية: انفعالٌ داخليٌّ يُحدِثُه صدْقُ الإيمان، وعن الخشية تتحرّك الإرادة لاتخاذ الوقاية من عقاب الله، وأثر التقوى في السلوك يكون بطاعة الله ورسوله.

فالنصّ أبانَ أوّلاً الأثر الظاهر، وبعده أبان الباعث من الداخل، وأخيراً أبان الواسطة بينهما، وفي هذا إتْقانٌ في الترتيب عجيب، وقد جمعت هذه العناصر الثلاث كلّ ما يلزم للشرط بعد صدق الإيمان الذي جاء بيانه في الآية السابقة.

وأمّا الجزاء لمَنْ تحقّق فيهم هذا الشرط فقد جاء في قوله تعالى:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: فأولئك هم الذين انحصر فيهم كمال الفوز يوم الدين، **الفوز**: هو الظفر، والنجاةُ من الشرّ، والرّبحُ العظيم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

في هاتَيْن الآيتَيْن كَشْفُ لظاهِرَةٍ ثالِثَةٍ مِنْ ظواهر نفاق المنافقين، مع التوجيه الرّبانيّ لمعالجتها بما تستدعي من تربية حكيمة هنا، إضافةً إلى ما جاء من وسائل تربويّةٍ فيما سبق من نصوص مُنزّلة في نجوم التنزيل.

هـذه الظاهـرة تبدو من المنـافقين (ويكفي أن تظهـر من بعضهم أحيانـاً) هي أن يتـظاهروا بـإعلان حمـاستهم الشديـدة لطاعـة الرسـول حتّى في مجـال بـذل أمـوالهم وأنفسهم جهاداً في سبيل الله، إنْ وجّه الرسول ﷺ لهم الأمر بذلك.

إنّ من المجرّب في سلوك الناس أنّ من بالَغ في أقواله الحماسيّة حالة الرخاء، قبل وقت الامتحان الفعلي، كان أكثر الناس تخاذلاً، ومعصيةً، وتَوَلِّياً لدىٰ الـدّعوة إلى تطبيق ما كان يبالغ في التّحمُّسِ له، وكان أكثرهم فراراً عند الشدّة، والمطالبة بالتنفيـذ العملي لبذل النفس أو المال.

والسبب في ذلـك أنّه في حـالة الـرخاء يـريدُ أن يكـون ذا مكـانـة متفـوقـة بين الجماعة، بما يتظاهر بالحماسة لـه، انسجاماً مع مقتضيـات النفاق، أمّـا عند التـطبيق العمليّ فإنه لا بدّ أن ينسجم مع ما يؤمن به، وما يؤمن به مخـالف لما يتـظاهر بـه، بل هو على النقيض منه تماماً.

وقد عرض الله عزّ وجلّ هذه الظاهرة على سبيل الحكاية لأمـر كان من بعضهم، فقال تعالى خطاباً لرسوله:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾.

لم يكتفوا بأن يَعِدُوا الرسول بالطاعة إنْ أمرهم أن يخرجوا للقتال، أو يخرجوا من أموالهم، بل قدّموا هذا الوعد موثّقاً بأبْلَغ الأيمـان وأشدّهـا، فأقْسَمـوا بالله من مستـوى غاية ما لديهم من ألفاظٍ قَسَمِيَّةٍ يُقْسِمُون بها، والمُقْسَمُ عليه قولُهم للرسول: لَئِنْ أمرتنـا بأنْ نخرج للقتال، أو بأن نخرج من أموالنا وأهلينا لَنَخْرُجَنَّ.

القَسَمُ المشدّد، واللّام المؤكّدة، ونونُ التوكيد الثقيلة، كلُّ هذه المؤكّدات وثّقوا بهـا وَعْـدَهم، لكنّهم عنـد التـطبيق لا يفعلون شيئـاً، وتـذهب وعُـودُهُمْ مـع أقـوالهم الذاهبات لا أثر لها في واقعهم العملي، كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

جَهْدَ أيمانهم: صفـة لمفعول مـطلق محذوف، أي: وأقسمـوا بالله قسمـاً جَهْدَ أيمانهم، أي: موصوفاً بأنه غاية أيمانهم.

وعقب بيـان هذه الـظاهرة من صفـات المنـافقين، علّم الله رسـولـه فكلّ قـائـد

للمسلمين من بَعْدِه، أن يقول لمَنْ يُقْسِمون مثل هذا القسم أربع جمل مُسْكِتة، وكاشفة، ومحذّرة، وهادية، فقال تعالى:

﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

أرْبَعُ جُمَلٍ جَمَعَتْ ما يحتاجه الموقف من توجيهٍ وتربية:

الجملة الأولى:

﴿لَّا تُقْسِمُوا۟﴾:

أي: لا تتظاهر ساعةَ الأمن والرخاء بإعْلان حماستكم الشديدة في الالتزام بطاعتكم للرّسُول حتى في أشدّ أوامره على نفوسكم، وهو الأمر بأن تخرجوا من أموالكم أو تخرجوا للقتال باذلين نفوسكم، فهذا التظاهر لا يرفع منزلتكم عند الرسول، وليس له أثر نافع لكم عند الله، لأنّ أمركم سينكشف قريباً حينما تُدْعَوْنَ فعلاً للخروج عن بعض أموالكم، أو الخروج مقاتلين في سبيل الله.

ومعلومٌ في طبائع الناس أنّ الصادق الذي يُريد أن يفعل حقاً، يدَّخِرُ حَمَاسَتَهُ لساعةِ العمل التّنفيذي، ولا يُطْلِقُها صوتاً يصْرُخ في الفضاء، في ساعاتِ الأمن والرّخاء، وتقديمِ الوعود بالأقوال التي ليس وراءها تنفيذ مباشر.

الجملة الثانية:

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾.

هذه الجملة تعطي عدّةَ دلالات صالحة في هذا المقام لأن تُقْصَد:

الأولى: المطلوب منكم طاعةٌ عمليّةٌ فعليّة دواماً عند الأوامر والنواهي، وأن تكون هذه الطاعةُ معروفةً ظاهرةً بالتّطبيق، لا أنْ تكون مزعومةً مُدّعاةً ادّعاءً غير مَشْهُودِ الأثر، كالذي يغيب عن الأنظار ويقولُ فعلتُ وفَعَلْتُ.

إذا دُعيتُمْ لبذل المال فابذلُوا، وعندئذٍ يكون بـذلكم طاعةً معروفةً بأنها طاعةٌ للأمر.

وإذا دُعيتُم للخروج مجاهدين في سبيل الله فاخرجوا، وقاتلوا في سبيل الله مع المؤمنين، وعندئذٍ يكون خروجُكُم طاعةً معروفة بأنّها طاعةٌ للأمر.

وهكذا إلى سائر الأوامر والنواهي.

الثانية: طاعةٌ تَعِدُونَ بها قبل أوانها معروفةٌ لنا بأنّها طاعةٌ كاذبة، فلا تُتْعِبُوا أنفسكم في التظاهر بالْوَعْد بها، وفي تقديم الْقَسَم المشدّد على حِرْصِكُمْ على الالتزام بها، وأنتم كاذبون.

إنّ هذا الكذب لا يجعلكم في نظرنا محلّ ثقة، ولا يُقَرِّبُكُمْ من قلوبنا ونفوسنا، حتّى نَتَّخِذَ منكم بطانةً تُسْتشارُ في الأمور المهمّة من أمور المسلمين العامّة، إنّكُمْ مكْشُوفُون مَعْرُوفُون بصفاتكم.

الثالثة: طاعةٌ عمليّةٌ معروفة ظاهرةٌ عند التطبيق خيرٌ لكم وأولىٰ لاكتساب الثِّقَةِ بكم، واغتنام مرضاة ربّكم وثوابه، من الوعود بالطاعة الموثَّقَةِ بالأيمان المغلّظة، وهذه الوعود إذا لم تفوا بها جرَّتْ عليكم وبالاً، وجَلَبَتْ لكم نكالاً.

الجملة الثالثة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

أي: إنّ الله يُتابعكم بعلمه، المستند إلى خبرته بأعمالكم التي تَصْدُرُ عنكم من أعمالٍ باطنة، وأعمال ظاهرة، إيجابيّةٍ أو سلبيّة، فلا تخفىٰ عليه من أعمالكم التي تعملونها خافية.

ومن أعمالكم الباطنة عزمُكُمْ في قلوبكم على عدم الوفاء بوعودكم، حالة كونكم تقدّمونَهَا بحماسة ظاهرة، وتُوَثِّقُونها بالأيمان المغلظة، من مستوى جَهْدِ الأيمان.

ومن أعمالكم ما تكيدونَهُ سرّاً ضدّ الإسلام والمسلمين، وما تتركون من فُروضٍ وواجبات دينيّة حينما تشعرون بأنَّكُمْ غيرُ مراقَبِينَ من المسلمين، وما ترتكبون من محرّمات ومحظورات في السِّرّ، إلى غير ذلك من كلِّ عَملٍ يَصْدُر عنكم.

فلا تحسَبُوا أنّ مخادعتكم بأقوالكم مخادعةٌ غَيْرُ مُتابعة بالمراقبة والعلم القائم على الخبْرَةِ بما جرَىٰ ويَجْري منكم.

وبما أنّ الله خبيرٌ بما تعملون فإنّه سيُحْبِطُ أعمالكم التي تعملونها ضدّ دينه

ورسوله والمؤمنين حقاً، وسَيُجَازيكم على كفركم ونفاقكم بما أنتم له أهلٌ، من جزاء بالعدل، عقاباً لكم على كفركم ونفاقكم ومعاصيكم.

الجملة الرابعة:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

هذه الجملة تكشف أنّهم كاذبون في ادّعاء الطاعة حالاً، والعزم عليها مستقبلاً، بسبب أنّهم منافقون.

فمن النُّصح لهم أن يُجَدِّدَ لهم توجيهُ التكليف بأن يطيعوا الله ورسوله، ليخرجوا من واقع العصيان الذي هم عليه، إلى مواقع الإيمان الصادق، والتزام صراط الله المستقيم.

بعد هذا خاطبهم الله بقوله:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿تَوَلَّوْا﴾: أصْلُها تتولّوا.

أي: فإنْ تتولَّوْا مُدْبرين نائين عن طاعة الرسول، غيْرَ مُنفِّذين ما يجب عليكم تُجاهه، فإنّكُمْ لا تضُرُّونه أمام ربِّه بشيء، بل تَضُرُّون أنْفُسكم، لأنكم بعدم طاعتكم له تَضِلُّون، خارجين عن صراط الله المستقيم، فتُعَرِّضُون أنفسكم لعقوبة ربكم بضلالكم.

- ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾:

أي: فَمَا على الرَّسُول من مَسْؤوليّة تُجاه ربّه إلاّ ما كُلِّفَ حَمْلَه، والْعَمَلَ به، وتَنْفيذَهُ بنفسه من قول أوفِعْلٍ ظاهرٍ أوْ باطن، وليس هو مُلزماً بأن تُطيعوه، حتّى إذا لم تفعلوا كان مؤاخذاً على ذلك عند ربّه.

- ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾:

أي: ومَا عليكم من مسؤوليّةٍ تجاه ربكم إلاّ ما كُلِّفْتُمْ حَمْلَهُ، والْعمَلَ به، وتنفيذَه

بأنفسكم من قول أو فِعْلٍ ظاهرٍ أو باطِن، ومن ذلك أن تطيعوا رسُولَ ربكم فيما يأمركم به وفيما ينهاكم عنه، فإن عصيتم وتولَّيْتُمْ فأنتم الَّذين تحملون أوزاركم بأنفسكم، ثم تحاسَبُون وتعاقبون عليها عند ربكم.

واسْتُفِيدَ الحصر في هذه الجملة من كونها معطوفة وتابعةً في الحصر للجملة السابقة لها: ﴿فإنَّما عليه ما حُمِّل﴾.

ـ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾:

أي: وإنْ تطيعوا رسول ربّكم تَهْتَدوا إلى ما فيه سعادتكم وفلاحكم وفوزكم في الدنيا وفي الآخرة.

ودلّ جواب الشرط في هذه الجملة [تَهْتَدُوا] على أن مُقَابِلَهُ في الجملة الأولى مطويٌ، والتقدير فإن تَتَوَلَّوْا عاصين له تَضِلُّوا، وإن تُطِيعوه تهتدُوا.

ويُقَدَّرُ هُنَا مُقَابِلُ ما صُرِّح به في الجملة الأولى، أي: وإنَّما لَهُ مَا فعَلَ من خيرٍ، ولكم ما فعلْتُم من خير.

ـ ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾:

أي: ليس على الرسول من تكاليف يُسْأَلُ عنها عند ربِّه بالنِّسْبَةِ إلى قومه في شأن الرِّسالة الَّتي حُمِّلَها، إلَّا أن يُوصِلَ إلى قومه ما أَمرَهُ ربُّه بأن يُوصِلَهُ إليهم، وان يكون ذلك بطريقة واضحة بَيِّنَةٍ صريحةٍ لا غُموض فيها، وهذا التوصيل الواضح البيِّن الصريح، هو البلاغ المبين.

ويُفْهَمُ من هذا أنّ الرّسول ليس مسؤولاً عن تحويل قومه من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، وليس مطالباً بأن يُكْرِه الناس على سلوك الصراط المستقيم إذا أبَوْا ورفضوا سلوكه، ولم يستجيبوا لدعوة رسول ربّهم، إذْ خُطَّة الامتحان الرّباني قائمة على اختبار الناس في أن يؤمنوا ويسلكوا صراط الله المستقيم، عن طريق إراداتهم الحرّة، لا بالإلزام والإجبار.

أقول هنا: إنّ على الدعاة إلى الله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يضعوا هذا المعنى نصْب أعينهم دواماً، حتى لاتضيق صدورهم إذا لم يستجب لهم الناس.

● ● ●

النصّ الخامس والعشرون

من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) أيضاً
«السورة (١٦) من التنزيل المدني»
الآيات من (٦٢ ــ ٦٤)
حول تسلّل المنافقين من المجامع العامّة
بدون إذن وسوء أدبهم في خطاب الرسول

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟
حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾
لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ
مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾
أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾.

* * *

(١)

ما في هذا النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (٦٤) مِنْه:

(١) قرأ جمهور القرّاء [وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إليه] بالبناء للمفعول.

وقرأ يعقوب [وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْه] بالبناء للفاعل.

فبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، وذلك لأنّ الله يُرْجِعُهم إليه يوم الدين للحساب وفصل القضاء والجزاء، فيُطَاوِعُونَ بالجبر فيَرْجِعُون.

* * *

(٢)
موضوع النّص وسبب نزوله

موضوع النص:

يشتمل هذا النصّ على كشف ظاهرتين من صِفَاتِ المنافقين:

الظاهرة الأولى: أنّهم إذا حضَروا المجامع العامّة ذَاتَ الأهميّةِ العظيمة للإسلام والمسلمين، ضاقَتْ صُدُورهم، وثَقُلَ عَلَيْهم أنْ يَتَصَنَّعُوا الصَّبْرَ على ما يَجْري فيها مِمَّا لا يؤمنون به ولا يجدواه، وصعُبَ عليهم أن يحْبِسُوا أنفسهم مع المؤمنين طوال مدّة الاجتماع، ولا سيما إذا كانت فيه واجبات عَمَلِيّة يُضطرّون أن يشاركوا فيها، وهم لا يُريدون أن يكْشِفوا أنفسهم عن طريق الاستئذان بالانصراف، لقضاء بعض شؤونهم، لأنّ مدّة الغياب ستكون محسوبةً عليهم، ولأنّ كثرةَ تهرُّبهم من مشاركة المسلمين في أمرهم قد تكشف نفاقهم.

لذلِكَ فَهُمْ يتسلَّلُون مستخفين خروجاً، وغِياباً، وعودةً إنْ رجَعُوا، دون استئذان من الرَّسول، أو من قائد المسلمين في الْمَجْمع العامّ.

فأبان الله عزّ وجلّ أن المؤمنين الصادقين إذا كانوا مع الرسول (أو مع قائدٍ منهم قياساً) على أمْرٍ جامعٍ لا يذهبون لبعض شأنهم حتى يستأذنوه، ولا يفعلون ذلك إلاّ مضطرّين، أو عند الحاجة الشديدة.

وألمح إلى أنّ الذين يذهبون متسلّلين دون استئذان هم من أهل النفاق، فنهاهم وحذّرهم من العقاب.

الظاهرة الثانية: سوء أدبِ المنافقين لدى مخاطبتهم للرسول، بسبب أنّهم

لا يؤمنون به نبيّاً رسولاً، فهم لا يُكِنُّون له الحبّ والاحترام والتوقير والتعظيم، فهُمْ بالتّلقائيّة العاديّة التي لا يتصنَّعُونَ فيها يُخاطِبُونه ويَدْعُونه كما يُخاطِبُ بعضُ الناس بعضاً، وكَمَا يَدْعُو بعضُ النّاس بعضاً.

بخلاف المؤمن الصادق الإيمان الذي يُكِنُّ في صدره للرّسُول الحبَّ والاحترامَ وَالإجلال، فإنّه بالتّلْقائيَّةِ العاديَّة لا يستطيع إلاّ أن يَدْعُوَ الرسول ويُخاطبَه بأسْلُوبٍ مشْبَعٍ بالحبّ والتعظيم والاحترام والتوقير والإجلال.

وكذلك الحالُ بالنسبة إلى القائد من قادة المسلمين قياساً فالمؤمن يحترم قائده المسلم بدافع إيماني، فيخاطِبُهُ بما يليق به، وغيرُ المؤمن لا يكترث له، فيستهين به، ويُخَاطبه كما يخاطب غيره من الناس الذين ليس لهم مكانة ولا سلطان.

فنهىٰ الله عزَّ وجلَّ عن خطاب الرّسول بمثل خطاب الناس بعضهم لبعض، وجعل هذا النهي ضِمْنَ الكلام عن الظاهرة الأولى التي تكون في المجامع العامّة، للإشعار بأهميّة مراعاة الأدب مع الرسول أو مع قائد المسلمين في الدُّعاء والخطاب في المجامع العامة، التي ينبغي أن تُراعىٰ فيها آدابُ احترام أفرادِ الجمهور لقائدهم، محافظةً على مقتضيات الطّاعة والانقياد والضبط والنظام، بخلاف حالات المباسطات العامّة واللّقاءات العاديّة، الّتي لا يكون فيها الالْتِقَاء على أمْرٍ جامع ذي أهميّة للإسلام والمسلمين، كاجتماعٍ لأمور الدفاع، أو الإعداد لقتال العدو، أو الدعوة لبذل الأموال، أو المشورة في أمر عامّ، وكالمجامع الدينيّة العامة لصلاة الجمعة وصلاة العيدين، ونحو ذلك.

وتُعْرَف هذه الاجتماعات في لغة عصرنا بأنها اجتماعات رسميّة.

سبب النزول:

(١) أورد ابن إسحاق أنّ الرسول ﷺ لمّا بلغه خبر ما أجمعت عليه قريش ومعهم الأحزاب من قبائل العرب من أمر قتال الرسول والمسلمين في المدينة، أمر بحفر الخندق لمنع جيش المشركين من اقتحامها.

وعمل الرسول في حفر الخندق ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا.

وجعل يتباطأ رجالٌ من المنافقين في العمل، ويُوَرُّون بالضعيف من الأعمال تظاهراً حتى لا ينكشف نفاقهم، وكانوا يتسلّلون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن.

أمّا الرَّجُلُ من المؤمنين الصادقين فكان إذا انتابته النائبة من الحاجة الّتي لا بدّ له منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللّحوق بحاجته، فيأذَنُ له، فإذا قضىٰ حاجته رجع إلى ما كان فيه من علمه، رغبةً في الخير، واحتساباً له.

فأنزل الله تعالى الآيات من سورة (النور):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ . . .﴾

[الآيات: ٦٢، ٦٣، ٦٤].

وأخرج نحو هذا ابن المنذر والبيهقي في دلائل النبوّة.

(٢) وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في الآيات قال: هي في الجهاد والجمعة والعيدين.

(٣) وأخرج أبو داود في مراسيله عن مقاتل، قال: كان لا يخرج أحد لرعافٍ أو أحداث حتّى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام، فيأذن له النبيّ يشير إليه بيده، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، فكان إذا استأذن رجلٌ من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج، فأنزل الله:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾: أي: على أمرٍ ما من أمور العلم أو العبادة أو أمور المسلمين العامة من قضايا السِّلْم أو الحرب، وهذا الأمر من شأنه أن يكون جامعاً للمسلمين.

﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾:

أي: يطلبون أن تأذن لهم، الإذن: إباحة القيام بما هو ممنوع منه.

﴿ يَتَسَلَّلُونَ ﴾:

أي: يَذْهَبُون في خُفْيَة، دون أن يُحدِثوا جلبةً أو صوتاً يدلُّ عليهم، أو حركةً ظاهرة تَلْفِت الأنظار، يقالُ: تَسَلَّل في الظلام، وتَسَلَّل من الزحام، بمعنى انْسَلَّ في خُفْيَة، كما تُسَلُّ الشَّعرةُ من العجين.

﴿ لِوَاذًا ﴾:

مصدَرُ «لاَوَذ» بمعنى استتر، وحاد، وراوغ. فالذين يتسلّلون لِواذاً، هم الذين يذهبون في خُفْيَةٍ، مستترين بشيء يستُرُهُمْ عن نظر الرّسول، أو رئيس الاجتماع الذي هم فيه، حائدين، مراوغين، حتّى لا يُحَاسِبَهُمْ على انصرافهم عن الاجتماع بغير إذنه.

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾:

أي: فلْيَحْذَر الّذين يعْصُون مُعْرِضين عن أمر الرسول، أو مُدْبرين أو صادّين.

يقال لغة: خالَفَهُ: إذا عصاه، فالتعدية بحرف الجرّ «عن» على تضمين فعل «خالف» معنى فِعْلٍ: «أعرض، أو أدبر، أو صدّ».

﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾:

تُطْلَق الفتنة على التعذيب بالنار، وعلى ذهاب المال والعقل بمصيبة، وعلى إزالة الإنسان عما كان عليه من أمرٍ محمود العاقبة إلى أمر مكروه العاقبة، وعلى بلبلة الأفكار واضطرابها وتعارُضها في المجتمع، إضافة إلى أصل معناها وهو الاختبار بما هو شاقٌ على النفس.

ونظراً إلى مقابلة الفتنة هُنَا بالعذاب الأليم، ينبغي أن نستبعد من معاني الفتنة هنا معنى التعذيب والاختبار، فتكون بمعنى التحويل إلى ما يكرهون، جزاءَ مخالفتهم وتحوّلهم عن مقتضيات الطاعة، وبمعنى وقوع الخلاف والبلبلة بين مجتمعهم الخاص الذي يجتمع أفراده على النفاق، جزاء ما يكون منهم من خلخلة صفوف المسلمين،

وإحداث الخلاف داخل مجتمعهم القائم على وحدة القيادة والغاية والدين، وبمعنى إصابة أفرادهم المخالفين بمصائب إفرادية تذهب بها أموالهم، أو تطيش بها أحلامهم، وكلّ هذه العقوبات مطروحة في الاحتمال والله يختار منها ما يشاء، لمن يشاء، على ما يشاء.

﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾:

«قَدْ» من معانيها التحقيق، وهي بهذا المعنى تدخل على الفعل الماضي والفعل المضارع، فتقول: «قَدْ عَلِمَ» بمعنى تحقق علمه فيما مضى. و «قَدْ يَعْلَمُ» بمعنى يَتحقّقُ علمه في الحال والمستقبل.

* * *

(٤)

مع النصّ في التدبُّر

* قول الله عز وجلّ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

تمهيداً لكشف سلوك المنافقين في المجامع الإسلامية العامّة، بقيادة الرّسول، ثُمّ بقيادة أيّ قائد من قادة المسلمين من بَعْده، وهي المجامع التي تُعْقد للتعليم والتوجيه، أو لإقامة العبادات الجماعية كصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وخطبتيهما، أو للمشاورة، أو للعمل في مصالح المسلمين العامّة، سواء أكانت للسّلم أو للحرب.

يُبيّن الله عزّ وجلّ في هذه الآية النموذج الكامل لسلوك المؤمنين الصادقين العاملين بمقتضى إيمانهم، الملتزمين بأحكام الإسلام وآدابه، ونظامه، والمهتمين بمصالح المسلمين العامّة.

فيبيّن الله عزّ وجلّ على سبيل الحصر بعبارة «إنّما» أنّ المؤمنينَ حقًّا في مثل هذه المجامع الإسلاميّة العامّة هم:

أولاً: الّذِينَ آمَنُوا باللّهِ ورسوله، وهذه هي القاعدة الإيمانية الأساسية في الدّين، فلا بدّ من ملاحظتها دواماً، بوصْفِهَا أوّل الشروط.

ثانياً: وإذا كانوا مع الرسول بوصفه قائد المسلمين، أو مع قائد من قادة المسلمين من أولي الأمر منهم، مجتمعين على أمْرٍ جامع، أي: له صفة الأمر الذي يجمع المسلمين، لِمَا لَهُ من أهميّة للإسلام أو للمسلمين، لم يَذْهَبُوا من الاجتماع بأنفسهم، مُتخلّين عن مسؤولياتهم، ومُخِلّين فيه بواجب الحضور والمشاركة، وبواجب الالتزام بالنظام الجماعي، لكنْ إذا عرضت لأحدهم ضرورة، أو حاجة شديدة، استأذن الرسول في أن يفارق الاجتماع لقضاء شأنه، أو يستأذن قائد الاجتماع ورئيسه.

وينظر الرسول أو قائد الاجتماع في طبيعة شأن المستأذن، فيأذن له إن شاء، وذلك إذا رأى الشأن يستدعي انصرافه من الاجتماع، لأجل أو لغير أجل. وقد لا يأذن له إن شاء، وذلك إذا رأى الشأن لا يستدعي انصرافه من الاجتماع، فالمشيئة ليست تصرفاً بالْهَوَى، بل هي تصرُّف رشيد مستندٌ إلى تقدير المصلحة الخاصة والعامة.

وهذه هي القاعدة النظاميّة التي يجب التزامُها في المجامع العامة الإسلامية، فالمؤمنون الصادقون في إيمانهم يلتزمون بها، ولا يُخِلُّون بواجباتها.

ولبيان وجوب الالتزام بهذه القاعدة النظاميّة أبان الله عزّ وجل أنّ الالتزام بها من صفات الذين يؤمنون بالله ورسوله مرّتين:

الأولى: بقوله تعالى في صدر الآية بأسلوب الحصر في وصف المؤمنين:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

أي: ما المؤمنون الصادقون العاملون بمقتضى إيمانهم إلّا الذينَ آمَنُوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه مجتمعين على أمْرٍ مُهِمّ من أمور المسلمين جامعٍ لهم، لم يذهبوا حتى يستأذنوه، فإن أذن لهم ذهبوا، وإن لم يأذن لهم أطاعوا ولم يذهبوا.

الثانية: بقوله تعالى في وصف المسْتأذنين الذين لا ينصرفون من المجامع العامة للمسلمين وهي قائمة إلّا بإذنٍ من قائدها أو رئيسها، خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

فأبان بهذا قضيتين:

القضية الأولى: أنّ الاستئذان في مثل هذه المجامع العامة هو من مقتضيات الإيمان، فمن كان صادق الإيمان التزم به، طاعةً لله ورسوله، ومن أبدى التزامه به أشعر بأنّه صادِقُ الإيمان حسَنُ الطاعة.

القضية الثانية: الإلماحُ إلى أنّ الّذين لا يستأذنون، بل يَتَسلَّلُونَ مُسْتَخْفين قد يُشْعِرُ عَمَلُهم بأنّهم من أهل النفاق، لا مُجَرَّدُ عصاة لما يجب عليهم في الدين، وذٰلِكَ لأهميّة المجامع العامّة في المجتمع الإسلاميّ لعموم المسلمين، والإخلال بها بعد انعقادها أمرٌ يسمح بتوجيه الشكوك حول أصل الولاء للأمة الإسلاميّة، وهُنا تتّجه الظنون للاتّهام بالنفاق.

ونظراً إلى احْتمال أنْ يكُون بعضُ المستأذنين ليسوا أصحاب عُذْرٍ حقيقيٍّ يقتضي الإذن لهم بمغادرة الاجتماع، قال الله لرسوله:

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: واطلب من الله أنْ يَغْفِـرَ لَهُم، لاحتمال أن يكـون استئذانُهم لا يستحقُّ الإذن، وقد رأيْتَ أن تأذن لهم.

وجاء الإلماح إلى أن الله سيغفر لهم، ببيان صِفَتَيْن عظيمتين من صفاته، بجملة خبريّة استئنافية مؤكّدة ﴿إنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿غفور﴾: صيغة مبالغة لغافر، أي: كثير الستر لذنوب عباده، وعظيمهُ.

﴿رحيم﴾: صيغة مبالغة لراحم، أي: واسع الرحمة وجَليلُها وعظيمها.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا...﴾.

عقب بيان سلوك المؤمنين الصادقين في إيمانهم، الملتزمين بمقتضاه في المجالس الإسلامية العامّة.

نهى الله عزّ وجلّ عن مخاطبة الرسول ومناداته كما يخاطب الناس بعضُهُمْ بعضاً، بأسمائهم دون تكريم، أو بصياحٍ يدلُّ على عدم التوقير والاحترام.

ونفهم من جعل الله هذا النهي بين أمرين مترابطين يتعلقان بآداب المجامع العامّة، ونظامِ مغادرتها بالإذن، ومخالفة هذا النظام بالانصراف عنها تَسَلُّلاً، ضرورةَ مراعاةِ أدب الخطاب بالاحترام والتوقيرِ للرسول في المجالس العامة، محافظةً على هَيْبَةِ القائد، التي بها يكون الأفراد المجتمعون مُصْغين مُنْصِتين، مشاركين بحواسّهم وقلوبهم، لا يسمحون للفوضى أن تتسلّل إلى اجتماعهم.

فَيُخاطَبُ الرسولُ بلَقَبه، يا رَسول الله، يا نبيَّ الله، وبصوتٍ ليس فيه خشونَةٌ ولا غلظةٌ ولاَ صِياحٌ، ويكون خطابه عند الحاجةِ الماسّة، للسؤال عن أمر، أو تقديم مشورة أو رأي أو خبر أو نحو ذلك.

ويقاسُ على الرسول قائِدُ الاجتماع أو رئيسه، فيخاطَبُ بلقبه، مثل: «يا أمير المؤمنين - يا خَليفَةَ رسول الله - أيّها القائد - أيُّها الزعيم - أيها الرئيس» ونحو ذلك من عبارات تتطلَّبُها آداب المجلس.

دُعَاء: أي: نداء، يقال لغة: دعا الرَّجُلَ يَدْعُوهُ دعْواً، ودَعْوَةً، ودُعاءً، ودَعْوَى، إذا ناداه وصَاحَ به.

أمّا في غير المجالس العامّة فَيُسْتَحْسَنُ التزام هذا الأدب، وإنْ كان التكليف به يخفّ، ولا سيما في مجالس المباسطات والمؤانسات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

بعْدَ أن وصَفَ اللّهُ تعالى سُلُوكَ المؤمنين الصادقين في إيمانهم، الملتزمين بمقتضياته في المجالس الإسلامية العامّة، أبان الله سلوك المخالفين لأدب هذه المجالس، بالتَّسَلُّلِ منها دون استئذان، وقد جاء هذا البيانُ بتأكيد تحقُّق علم الله بما

يكـون من هؤلاء المتسلّلين، وبأنَّهُمْ مَهْمـا تسلَّلُوا مُسْتَخْفِين فإنَّ اللَّهَ يعْلَمُ مـا يَفْعلُون، ثمّ يُجازِيهم بحسب أعمالهم، فقال تعالى:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾:

أي: إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ حالَ هؤلاء الَّذين يُغادرون المجالس الإسلامية العامّة مُتَسَلِّلين بـاستخفاءٍ في تَسَتُّرٍ ومراوغةٍ دون استئذانٍ من الـرسـول، أو من قـادة هـذه المجـالس العامة.

وبمـا أنّ الآية الأولى من هـذا النصّ دلّت على أنّ الله قـد أمَـر المؤمنين بعـدم الانصراف من هذه المجالس قبل انتهـائها، إلا بـالإذن من قائـدها، بمقتضىٰ أنَّ من لوازم صدقِ الإيمانِ والتزام الطاعة عدمَ مغادَرتِها إلّا بالإذن، قال الله تعالى:

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

فحـذَّر مِنَ العقوبة الشديدة المخالفين العصـاة الذين يتسلَّلُونَ منها بغيـر إذنٍ، باعتبار أنّ الأمر للوجوب من درجةٍ يستحقّ معها المخالف العقوبة، فترتيب العقاب يدُلُّ على أن الأمر التكليفيّ أمْرٌ إلزاميٌّ مُشَدَّدٌ، وليس من الواجبات الـدنيا، أو مـا هو قـريبٌ منها.

والعقاب الذي حذر الله منه قد جعله الله متردِّداً بين أمْرَيْن:

الأول: أنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ في أنفسهم أو أموالهم تضـطرب فيها أحـوالهم، ويتعكّر فيها نظام حياتهم.

الثاني: أن يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

ويظهر لي أن مقدار العقوبة ونوعها ممّا ينـاسِبُ أحوال المخـالفين، إذ قد يكـون منهم مؤمنـون عصاة، وقد يكون منهم من هم ضعفـاء الإيمـان، وقـد يكـون منهم منافقون، وهؤلاء أشدّهم، وهم الذين يستحقّونَ العذاب الأليم، والله أعلم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

هٰذِهِ آيَةُ الْخِتَامِ لِهٰذا النَّصّ، وهِيَ تَشْتَمِلُ بمُناسَبَةِ مَا جاء فيهِ على كُلِّيَّاتٍ عَامَّةٍ مِنْ كُلِّيّاتِ الدّين، أي: ومَا جاء في هـذا النصّ إنما هِيَ جـزئيّاتٌ تنطبق عَلَيْها هـذهِ الكليات العامّة كما تنطبق على غيرها.

الكليّة الأولى:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

أي: انْتَبِهوا ـ فـ ﴿أَلَآ﴾ أداة استفتاح للتنبيه ـ إنّ لِلّٰه جَميعَ ما في السَّماوَاتِ العظيمات الوابعَات وجَميعَ مَا في الأرض، بكـلّ أشيائها وأحيائها المكلّفَةِ وغير المكلّفة، نهو مَالِكُها وَمَلِكُها، ونواصي كلّ شيء فيها بيده يُصرّفها كيف يشاء بالإيجاد والإعدام والتغيير والتبديل والتحويل وغير ذلك.

والمقصود هنا بمناسبة ما جاء من تكاليف في النصّ وفي سورة (النور) كلّها، أنّ الله ليس بحاجة إلى إيمان من يؤمن، ولا إلى صالح عَمَلِ من يعمل صالحاً، ولا إلى طاعة من يطيع، وأنّ الله لا يضُرّه كُفْرُ من يكفُر، ولا سوء عمل من يعمل سيئاً، ولا معصيةُ من يعصي. وليس بحاجة إلى من ينصُرُ لـه دينه ورسوله، ولا يضُرُّهُ مَنْ يَخْذلُهما، فكلُّ ما في السماوات وما في الأرض مِلْكُه، يتصرّف فيه كيف يشاء، ولكن حكمته سبحانه أن يمتحن المكلفين في الحياة بالأوامر والنواهي، ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، طِبْق ما يكشفه الابتلاء من أحوالهم، الخاضعة لعلمه الشامل، الذي لا يغادر صَغيرةً ولا كبيرة إلّا أحاط بها وأحصاها، وكتبها في صحائف الأعمال المخصصة لتسجيل أعمال المكلفين.

الكليّة الثانية:

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾:

أي: تأكّدوا وكُونوا على يَقِين بأنّ اللّهَ يَعْلَمُ لَحْظَةً بَعْدَ لحظة مَا أَنْتُمْ عليه من كلّ ذَوَاتكم وصِفَاتِكُمْ وأحْوالكم من خير أو شر، من صالح عملٍ أو سيّئه.

هـذا بيـان عن علمـه سبحـانـه بمـا هـو كـائن في الحـال مع كـلّ اللّحظاتِ المتجـدّدات، وفي نصـوص أخـرى جـاء بيـان أنـه يَعْلَمُ كـلّ مـا سيكـون من أحـداث مستقبلاً، وأنّه يعلم كلّ ما كان في الماضي، فهو سبحانه وتعالى عليم بكـلّ الماضي، وكلّ الحال، وكلّ المستقبل.

والمقصـود هنا التـذكيرُ بـأنّه سبحـانه عليم بكـلّ ما عليـه عبـاده، أي: فلْيُعِدُّوا أنفسهم للجزاء المعجّل، ثم لِلْحِسَاب وفَصْلِ القضاء والْجَزاء المؤجّل إلى يوم الدين.

الكليّـة الثالثـة:

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾:

أي: ويومئذٍ يُحَاسِبُهُمْ ويُجَازيهم على أعمالهم، فجُزْء الجملة المذكور دلّ على جزئها المحذوف، مع ما سبق العلم به من أحداث يوم الدين.

وفي بيان هذه الكليَّة تذكيرٌ بركن اليوم الآخر من أركان الإيمان، ومـا يتضمن من وعْدٍ ووعيد.

الكليّـة الرابعـة:

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

وفي ذكر هذه الكليّةِ ثناءٌ على الله بصفـةِ علمه المحيط بكـلّ شيء، مع التـذكير بهـذه الصفة الجليلة من صفـاته تبـارك وتعالى، لتـرسيخ الإيمـان بها، وإحضـارها في النفس، لتكُونَ باعثاً على خشية الله، والعمل بمراضيه، لاتقاء عذابه، والظفر بثوابه في الدُّنْيا والآخرة.

● ● ●

النصّ السادس والعشرون

وهو سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول)

(السورة (١٨) من التنزيل المدني)

حول بيان حقيقة المنافقين وبعض صفاتهم الظاهرة والباطنة وبعض مواقفهم والتحذير منهم

* قال الله عزّ وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا
رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ
اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ
أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ
يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا
الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ

رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

* * *

(١)

ما في هذه السورة من القراءات المتواترة

(من الفرش وشيء من الأداء)

* في الآية (٤):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [خُشُبٌ] بِضَمِّ الشين.

وقرأ أبو عمرو البصري، والكسائي الكوفي وقُنْبل عن ابن كثير المكي [خُشْبٌ] بإسكان الشين.

وهما لغتان عربيتان.

* في الآية (٥):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [لَوَّوْا] بتَشْدِيد الواو الأولى.

وقرأ نافع المدني، وَرَوْح عن يعقوب البصري [لَوَوْا] بتخفيف الواو الأولى.

وفي القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد فقراءة [لَوَّوْا] بالتشديد تدلُّ على أنَّ قسماً من المنافقين يُبَالغون في لَيِّ رؤوسهم بإمالتها وإدارتها تعبيراً عن الرفض، وأن قسماً آخَرَ منهم يلْوُونَ رؤوسهم بصفةٍ عاديّة لا مبالغة فيها، وذلك بحسب حالتهم النفسية، ومقدار كفرهم ونفاقهم.

* في الآية (١٠):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [وأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ] بجزم [أَكُنْ] على أنه جواب الطلب.

وقرأ أبو عمرو البصري [وَأَكُونَ من الصّالحين] بنَصْب [أكُونَ] عطفاً على فعل [فَأَصَّدَّقَ].

والقراءتان وجهان عربيان من وجوه الإعراب.

* في الآية (١١):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [يُؤَخِّرَ] بهمزة مفتوحة بعد الياء.

وأبدل أبو جعفر المدني وورش عن نافع المدني الهمزة واواً في الوصل والوقف.

وأبدلها حمزة واواً في الوقف فقط. ورقّق ورش الراء.

وهذه القراءات وجوه من الأداء تتبع اللّهجات العربيّة.

(٢) قرأ جمهور القرّاء [واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] بتاء الخطاب.

وقرأ شعبة عن عاصم [بما يَعْمَلُونَ] بياء الغيبة.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

* * *

(٢)
موضوع السورة وسبب نزولها

موضوع السورة:

تتحدث السورة عن كذب المنافقين في ادّعائهم للرسول ﷺ بأنّهم مؤمنون به، وكذبهم إذْ يحلفون الأيمان ليستروا بها نفاقهم، وليستروا بها عدم التزامهم بسلوك سبيل الله كلّما ابتعدوا عن أعين الرقباء من المؤمنين، إعراضاً أو إدباراً أو ابتعاداً عنه، وليستروا بها ما هم عليه من عدم توجيه اهتمامهم لفَهْم البيانات التي تبصرّهم بسبيل الله، مع بيان سبب ذلك.

وتصف حال فئة من المنافقين في عصر الرسول ﷺ، ذوي الأجسام التي تعجب من رآها، والأقوال المنمّقة التي تجذب لاستماعها فإذا حَضَرُوا مجالِسَ العلم والذكر مع المؤمنين اختاروا لأنفسهم الأماكن التي يُسْنِدون إليها ظهورهم كالجُدُرِ والسَّواري، لأنّها مريحةٌ لهم، وذات وَجَاهة، لكنّهم لا يَعُونَ ممّا يُقَال في هذه

المجالس من علم وذكر شيئاً، لانصراف أذهانهم وقلوبهم، فهُمْ كالْخُشُبِ المسنَّدةِ قاماتُها على الْجُدُر لئلا تسقط، وهذا دليلٌ على أنهم كالنّائمين ظاهراً أو باطناً.

وتَصِفُ حالتَهُمُ النفسيّة بأنّهم خائفون حذرون دواماً، يخشون أن ينكشف أمرهم فيؤخَذُوا ويعاقبوا على كذبهم ونفاقهم وخياناتهم، ولشدَّةِ حذَرهم وترقُّبهم افتضاحَ أمرهم يحسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ تحذيرِ مُريبةٍ صيحَةً عَلَيْهِمْ، وأنَّهُمْ هُمُ المقصودون بها، وذلك بسبب أنهم في الباطن أعداءٌ حقيقيون، إلّا أنَّهم مُسْتخفون مُتَسَتِّرون.

ويحذِّرُ اللّهُ الرسولَ وكُلَّ مؤمنٍ منهم، ويبيّن أنَّهم هم أشدّ الأعداء وألَدُّهم عداءً للإسلام والمسلمين، وأنّهم جديرون بأن يقاتلهم الله، إذْ لم يأذن للمؤمنين بأن يقاتلوهم ما داموا يسترون كفرهم وعداءهم، ويُظْهِرون إسلامهم وولاءهم.

وأبانت السورة من مواقفهم التي تدلُّ على كفرهم في الباطن، أنّهم إذا ارتكَبُوا ذنباً من الكبائر التي تمسُّ الرسول أو جماعة المؤمنين، أو الإسلام، ودعَاهُمْ بعض المؤمنين إلى الرسول ليعتذروا ويطلُبُوا منه أن يستغْفِر لهم الله أعلنوا الرفض بأن يُلَوُّوا رؤوسهم، وبأن يُحْجموا بأجسادهم، بسبب أنهم مستكبرون في صدورهم وغير مؤمنين.

وأبانت من مواقفهم دعوتهم المسلمين من قومهم من الأنصار أن لا يُنْفِقُوا على الذين يجلسون في مجالس الرسول حتى يَنْفضُوا عنه ويفارقوا مجلسه، وغرضُهُمْ من ذلك أن لا تكون له بهم قوة، وأن لا تكون له جماهير محيطةٌ به دواماً.

وأبانت من مواقفهم ما كان من عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق إذ قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجَنَّ الأعَزُّ منّا الأذلّ يعني أنّه هو الأعزّ الأقوى والرسول والمهاجِرُون من مكة إلى المدينة هم الأذلّون.

واشتملت السورة على توجيه توصيات ونصائح للمؤمنين تتعلّق بما جاء في السورة عن المنافقين.

سبب النزول:

(١) غزا الرسول ﷺ بني الْمُصْطَلِق من خُزاعَة في شعبان من سنة خَمْسٍ للهجرة، إذْ بَلَغَهُ أنّهم يَجْمَعُون جُموعهم ويُعدّون لقتال المسلمين في المدينة.

والتقى الجمعان على ماء لبني الْمُصْطَلِقِ اسْمُهُ «الْمُرَيْسِيع» فسمّيت هذه الغزوة بهذا الاسم أيضاً، كما سمّيت غزوة بني المصْطَلِق.

وانتصر المسلمون وهزم الله بني المصطلق، وما غنمه المسلمون فيها وزّعه الرسول ﷺ بينهم من أموال ونساء وأبناء.

وممّا جرى في هذه الغزوة على ما روى ابن إسحاق، أنّ المسلمين لمّا كانوا عند ماء «الْمُرَيْسِيع» وردت واردة الناس، ومع عُمَر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له: جَهْجَاهُ بن مسعود، يقود فرسَه.

فازدحم على الماء جَهْجَاهُ أجيرُ عُمَر بن الخطاب، وسِنَانُ بن وبَر الْجُهَنِي حليفُ بني عوف بن الخزرج، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جَهْجَاهُ يا معشر المهاجرين.

فبلَغ الخبرُ «عبدَ الله بنَ أُبَيّ بن سَلُول» وعنده رهط من قومه الخزرجيين، وفيهم زيدُ بن أرقم غلامٌ حدَثُ السِّنّ، فقال ابن سلول:

«أوَ قَدْ فَعَلُوها؟ قد نافَرُونا[١]، وكاثَرُونا[٢] في بلادنا، والله ما أعدُّنا وجَلاَبِيبَ قُرَيْش[٣] إلاّ كما قال الأوّل: سَمِّنْ كَلْبَكَ يأْكُلْكَ، أما والله لَئِنْ رجَعْنَا إِلَىٰ المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ مِنْهَا الأذَلَّ».

(١) نافرونا: أي: افتخروا علينا بكثرة نفرهم وغلبونا بها.
(٢) وكاثرونا: وغلبونا بكثرة عَدَدِهم.
(٣) جلابيب قريش: لقبٌ أطلقه المشركون على من كان أسلم من قريش وهاجر، لأنهم كانوا فقراء، ويلبسون الجلابيب، وهي أُزُر وأردية قليلة الثمن، الجلباب: يُطْلَق على الملاءة الساترة من الرأس إلى القدمين، ويطلق على الإزار والرداء في اللّغة، والجمع جلابيب، وإطلاق الجلابيب على الناس كناية.

ثمّ أقْبلَ على من حضره من قومه، فقال لهم: «هذا ما فعلْتُمْ بأنْفسِكُمْ، أحْلَلْتُموهُمْ بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أمَا والله لو أمْسَكْتُمْ عنهم ما بأيديكُمْ لتَحوَّلوا إلى غير دَاركم».

فأبلغ الغلام «زَيْدُ بن أرقم» ما سمع إلى رسول الله ﷺ بعد أن انتهت الغزوة، وكان عنده عُمَرُ بن الخطاب، فقال عُمَر: مُرْ بِهِ عبَادَ بْنَ بِشْرٍ فلْيقْتُلْهُ.

فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عُمر إذا تحدَّث النَّاسُ أنَّ محمّداً يقتُل أصحابه؟! لا ولكِنْ أذِّنْ بالرَّحيل، وذلك في ساعةٍ لم يكن يَرْتَحِلُ فيها.

فارتحل الناس.

وعَلِمَ عبد الله بن أُبي بن سلول، أن «زيد بن أرقم» أبلغ الرسول ﷺ بما قال، فجاء إليه فحلف له بالله: ما قُلْتُ ما قال زيدٌ عنّي، ولا تكلّمت به.

فقال من كان عند رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسَىٰ أن يكون الغلام قد أوْهَمَ في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرَّجُل، حدْباً على ابن سلول ودفعاً عنه.

ولقيَ «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ» رسُولَ الله ﷺ في مَسِيرِه، فحيّاه بتحيَّةِ النُّبوّة، وسلّم عليه، ثُمَّ قال:

يا نبيّ الله، واللّهِ لَقَدْ رُحْتَ في ساعةٍ مُنْكَرَةٍ، ما كُنْتَ تَرُوحُ في مِثْلِهَا.

فقال له رسول الله ﷺ:

«أَوَ مَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟».

قال أُسَيد: وأيُّ صاحبٍ يَا رسول الله؟.

قال: عبد الله بنُ أُبَيّ.

قال أُسَيد: وَمَا قال؟

قال: «زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ».

قال أُسَيْد: فأنتَ يا رَسول الله تُخرِجُـهُ منها إنْ شئت، هـو واللهِ الذليـلُ وأنتَ العزيز.

ثم قال أسيد: يا رسُولَ الله، ارفُق بـه، فوالله لقـد جاءنـا الله بِكَ، وإنَّ قـوْمَه لَيَنْظِمُون له الخرَز لِيُتوِّجُوه، فإنّه يَرىٰ أنَّكَ قد استلَبْته مُلْكاً.

ثمّ مشى الرسول بـالمسلمين يومَهُمْ ذلِـكَ حتّىٰ أمْسَىٰ، وليلَتَهُم حتّىٰ أصْبح، وصَدْرَ يومهم ذلكَ حتّى آذتْهُمُ الشّمس، ثمّ نزل بالناس، فلم يَلْبَثُوا أنْ وَجدُوا مَسّ الأرْض فوقَعُوا نِياماً.

وإنّما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أُبيّ بـن سلول.

ثم راح رسول الله بالناس فهبَّتْ على الناس ريحٌ شديـدةٌ آذتْهم، وتخَوَّفـوها، فقال الرسول:

«لَا تخافُوها، فإنَّما هبَّتْ لِمَوْتِ عَظِيمٍ مِنْ عُظماء الكفّار».

فلمّا قدموا المدينة بلغهم أنّ اليهوديَّ «رِفَـاعَةَ بْنَ زَيْـدِ بن التابـوت» أحَدَ بَني قَيْنُقَاع، قد مات، وكانَ عـظيماً من عـظماء اليهـود، وكهفاً للمنـافقين قبل أن يُجْلِيَ الرسول بني قينُقاع عن المدينة.

ونزلت السورة التي ذكـر الله فيها المنـافقين، في عبد الله بن أبـي بـن سلول، ومن كـان على مثل أمـره، فلمّا نـزلت أخذ رسـول الله ﷺ بـأُذُنِ «زَيْـدِ بنِ أرْقَم» ثمّ قال:

«هَذَا الَّذِي أَوْفَى اللَّهُ بِأُذُنِهِ».

أي: صدَّقَ اللّهُ مَا سَمِعَتْ أُذُنُهُ من عبد الله بن أُبيّ بـن سلول.

وبَلَغَ عبْدَ الله بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بن أُبَيّ بـن سلول الّـذي كان من أمـر أبيه. وكـان رجُلًا مؤمناً صادقاً، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال له:

يا رسول الله، إنَّهُ بلغني أنَّكَ تُرِيدُ قَتْل عبْدِ اللَّهِ بْن أُبَيٍّ فيما بَلَغَكَ عنـهُ، فإنْ

كنْتَ لا بُدَّ فاعِلاً، فمُرْني بِهِ، فَأَنا أحمِلُ إليْكَ رَأسَهُ، فواللّهِ لقد علمتِ الْخَـزْرَجُ ما كان لها من رَجُلٍ أبَرُّ بوالِدِهِ مِنّي، وإِنّي أَخْشَى أَنْ تأمُرَ بِهِ غَيْرِي فيقتُله، فـلا تَدَعني نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عبد اللّهِ بنِ أُبـيٍّ يَمْشِي في الناس، فأقتُله، فأقْتُلَ رَجُلاً مُؤْمِناً بكَافرٍ. فأدخُلَ النار.

فقال رسول الله ﷺ:

«بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، ونُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِي مَعَنا».

أمّا عبد الله بن أبـي بـن سلول، فكـان بعد ذلـك إذا أحدث الحـدث الـذي يسوء الرسول والمسلمين، كان قومُه هم الذين يُعاتِبُونه ويَأخُذُونَهُ ويُعَنِّفُونَه.

فقال رسول الله ﷺ لعُمَر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنه:

«كَيْفَ تَـرَىٰ يَا عُمَـرُ؟!. أَمَا وَاللّهِ لَـوْ قَتَلْتُهُ يَـوْمَ قُلْتَ لي: اقْتُلْهُ، لأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ، لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ».

قال عُمَر: قد والله علمتُ لأَمْرُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي.

(٢) وروى البيهقي بسنده عن جابر بن عبد الله، قال: كُنّا مـع رسول الله ﷺ في غَزاةٍ، فَكَسَعَ[١] رَجُـلٌ مِنَ الْمُهاجـرين رجُلاً من الأنْصـار، فقال الأنصـاري: يا لَلأنْصَار، وقال المهاجريّ: يا للمُهاجِرين.

فقال الرسول ﷺ:

«مَا بَالُ دَعْوَىٰ الجاهلية؟!. دَعُوها فإنَّها مُنْتِنَةٌ».

وقال عبدُ اللّهِ بنُ أبـي بـن سلول: وَقَــد فَعَلُوهـا؟!. واللّهِ لَئِنْ رَجَعْنَــا إلى المدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ.

قال جابـر: وكـان الأنصــار بـالمــدينـة أكثــر من المهـاجــرين حين قَـدِمَ رسول الله ﷺ، ثُمَّ كَثُرَ المهاجِرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ.

فقال عمر: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هذا المنافق.

---

(١) فَكَسَعَ: أي: ضَرَبَ دُبُرَهُ بصَدرِ قدمِه، أو بيده، أو بغير ذلك.

فقال النبيُّ ﷺ: «دَعْهُ، لا يَتحدثِ الناس أنّ مُحمّداً يَقْتُلُ أصْحَابَهُ».

ونظير ما جاء عند البيهقي، روى الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة، وكذلك عند البخاري ومسلم.

وتوجد روايات أخرىٰ مشابهة تدلُّ على أن سورة (المنافقون) نزلت بمناسبة ما جرىٰ من المنافقين من أحداث أشارت إليها آيات السورة، وما تحدثت عنه هذه الروايات هو من هذه الأحداث، والله أعلم.

(٣) وروى الإمام أحمد بسنده عن «زيد بن أرقم» قال:

خرجتُ مع عمّي في غزاة، فسمعتُ عبد الله بن أُبيّ بن سلول يقول لأصحابه: لا تنفقوا على مَنْ عنْد رسول الله، ولَئِنْ رجَعْنا إلى المدينة لَيُخرِجَنّ الأعَزُّ مِنْها الأذَلّ. فذكرتُ ذلك لعمّي، فذكره عمّي لرسول الله ﷺ، فأرسل إليَّ رسُولُ الله ﷺ، فحَدَّثْته، فأرسل إلى عبد الله بن أبي بن سلول، وأصحابه، فحلَفُوا بالله ما قالوا، فكذَّبني رسول الله وصدّقه، فأصابني همٌّ لم يُصِبْني مِثْلُه قطُّ، وجلست في البيت، فقال عمّي: ما أرَدْتَ إلاّ أنْ كَذَّبكَ رسول الله ﷺ ومَقَتَكَ؟

قال: حتّىٰ أنزل الله:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾.

فبعث إليَّ رسول الله ﷺ، فقرأها رسول الله ﷺ عليَّ، ثمّ قال: «إنّ الله قَدْ صَدَّقَك».

(٤) وأورد ابن كثير في تفسيره قال: وذكر عِكْرِمَةُ وابْنُ زَيْدٍ وغيرهما، أنَّ الناس لمّا قفلوا راجعين إلى المدينة وقَفَ عَبْدُ الله بن عبد الله بن أُبيّ بن سلول على باب المدينة، واسْتلّ سيفه، فجعل الناس يمرُّونَ عليه، فلمّا جاء أبوه «عبد الله بن أبي بن سلول» قال له ابْنُه: وراءَكَ، فقال: مَا لَكَ؟ ويْلَكَ؟ فقال: والله لا تجوز من ههنا حتّىٰ يأذن لَكَ رسُول الله ﷺ، فإنّه العزيز وأنت الذليل، فلمّا جاء رسول الله ﷺ وكان إنّما يَسِيرُ ساقَةً (أي: مع المشاة) فشكا إليه عبد الله بن أبي بن سلول ابْنه، فقال ابنُهُ عبد الله: والله يا رسول الله لا يَدْخُلها حتّى تأذَنَ له، فأذِنَ له رسولُ الله ﷺ، فقال: أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجُز الآن.

(٥) وروى ابن إسحاق تعقيباً على أحداث غزوة أُحُد عن ابن شهاب الزهري، أنّ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول كان له مقامٌ يقومُه كُلَّ جُمعةٍ لا يُنْكَرُ، شرفاً له في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جَلَسَ رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس، قام فقال: أيُّها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزَّكُمْ به، فانْصُرُوهُ وعزِّروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس.

حتّىٰ إذا صَنَع يومَ أُحُدٍ ما صنع (وهو انخذاله عن الرسول بثلث الجيش) ورجع بالناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس، أيْ عدُوَّ الله، لسْتَ لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعتَ، فخرج يتخطّىٰ رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قُلْتُ بَجْراً (وفي رواية: هُجْراً ـ أي كَلاماً قبيحاً) أنْ قُمْتُ اشَدّد أَمْرَهُ، فلقيه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد، فقال: ما لك؟ ويْلَكَ!. قال: قُمْتُ أُشَدّد أمْرَهُ، فوثَبَ عليَّ رجالٌ من أصحابه يَجْذِبونني، ويعنّفونني، لكأنّما قلْتُ بَجْراً أنْ قُمْتُ أُشَدِّدُ أمْرَه، قال: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، قال: «والله ما أبتغي أن يستغفر لي».

* * *

(٣)

المفردات اللّغوية

﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ ﴾:

أي: قالوا: نعلن شهادة بألسنتنا مطابقةً لما نعتقده ونؤمن به في قلوبنا.

الشهادة: خبر باللسان عما هو مستقرٌ في الجنان من علم أو اعتقاد أو عاطفة أو نحو ذلك.

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾:

أي: جَعَلُوا أيْمانهم التي يحْلِفُونَها سُتْرةً تستُرُ نفاقهم. الْجُنَّةُ في اللّغة: السُّتْرَة، وكُلُّ ما وَقَىٰ من سلاحٍ وغيره.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ :

أي: أَحْجَموا عن سلوكه، أو أعرضوا عنه، أو أدبروا وتَولَّوا، ويأتي متعدّياً بمعنى صَرَفوا غيرهم عن سلوكه.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ :

الطَّبْعُ في المادِّيات الملموسة، كالختم الذي يُخْتم عَلىٰ المقْفَلاتِ حتّىٰ لا تفتح.

واستعمل فيما يَحْدُثُ في القلوب للدّلالة على أنها صارت محجوبة عن إدْراكِ أيِّ شيء يتعلّق بما هي محجوبةٌ عنه.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾:

أي: فهم لا يفهمون بواطن الأمور ودقائقها، وما تؤول إليه في المستقبل، لأنّ أذهانهم متشبّثةٌ بالظواهر والسُّطوح، والنتائج المستعجلة القريبة.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ :

الْخُشُبُ، والْخُشْبُ: جَمْعُ خَشَبَة واحدة الْخَشَبِ، وهو ما غَلُظَ من الْعيدان، يُتَّخذُ منها السواري والأعمدة الخشبية، وتُحْمَلُ عَلَيْها السُّقوف.

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾:

أي: جُعِلَ لَها سِنادُ أو عِمادٌ كجدار تَستَنِدُ إليه وهي قائمة، يقال لغة: سَنَدَ الشيْءَ وَسَنَّدَهُ، إذا جَعَلَ لَهُ سِناداً أو عِماداً يستَنِدُ إليه.

﴿يَحْسَبُونَ﴾:

أي: يتوهَّمونَ.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾:

أي: كيف يُصْرفون؟! يُقالُ لُغةً: أَفَكَ الرَّجُلُ فُلاناً عَنِ الشيءِ أَفْكاً إذَا صَرَفَهُ عنْهُ. وأَفَكَ الأمْرَ عَنْ وَجْهِهِ إذا قَلَبَهُ وَصَرَفَهُ عَنْهُ.

﴿ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ ﴾:

أي: أمالوها وأداروها تعبيراً عن الرفض، بتشديد الواو الأولى للمبالغة، أو بدون تشديدها لبيان حالة الإمالة دون مبالغة.

﴿ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ ﴾:

أي: حتىٰ يَتَفَرَّقُوا، يقال لغة: انْفَضَّ الْجَمْعُ: إذا تفرَّق. ويُقَالُ: فَضَّ الشيءَ وفضَّ القومَ إذَا فَرَّقَهُمْ. وفضَّ المالَ على القوم إذا فَرَّقَهُ وقَسَّمَهُ عليهم.

الأعز: أي: الأقوىٰ القادر على أن يَغْلِب.

الأذلّ: أي: الأضعف الذي لا يقدر على أن يكون هو المنتصر الغالب عند المغالبة.

﴿ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ . . . ﴾:

أي: لا تشغلْكُمْ عَمّا هو خيرٌ لكم في عاجلِ أمركم وآجله.

﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾:

أي: فأتصدَّق، سُكِّنت التاء وأدْغِمَتْ بالصّاد، فصارت صاداً مشدَّدة.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتّدبُّر

* قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۞ ﴾.

الشهادة: تشتمل على قول ملفوظ به، وعلى ادّعاء بأنَّ معنى هذا القول الملفوظ أمْرٌ يُؤْمن به ويعتقده مُقَدّم الشهادة.

فاقتضى الأمْرُ أن يُعْطَىٰ القولُ الملفوظُ حُكْماً مُنْفصلاً عن قائِله، وأنْ يُعْطَىٰ

ادِّعاءُ مطابقةِ الاعتقاد في القلب للمعنى الذي دلّ عليه القول الملفوظ في الشهادة حُكْماً آخَرَ مُنْفصلاً عن معنى القول، إذْ هُمَا قضيّتان:

ــ أمّا القول الملفوظ في عبارة المنافقين، فمعناه حقٌّ وصِدْق.

ــ وأمّا ادّعاء المنافقين بأنَّهُمْ يُؤمِنُونَ بمضْمُون مَا شَهِدوا به فهو ادّعاء كاذب، وهم به كاذِبُون.

وبهذا أَخَذَتْ كُلُّ قضيّةٍ حُكْمَها، وقد جاءت الآيةُ رائعةً حقّاً في التّنْبيه على الفصْل بيْنَ القضيّتين، وإعطاء القول الملفوظ في الشهادة حُكْماً مُخالفاً للحكم الذي يتعلّق بادّعاء المنافقين الكاذب.

وعَدَمُ وضوحِ هذه الرؤية قد أوْقَعَ بعض البلاغيين في ارتباك حين أرادوا أن يعرّفوا الصدق والكذب، هل الصدق المطابق للواقع أو المطابق للاعتقاد.

ومن وضحت له الرؤية، أدرك أنّ صِدْقَ الكلام يكون بمطابقته للواقع منفصلاً عن قائله، وأنّ كذِبَ الكلام يكون بعدم مطابقته للواقع منفصلاً عن قائله. وأنّ صِدْقَ المتكلم يكونُ بأن يُخْبِرَ بما يعتقد انه حقّ، وأنّ كذب المتكلّم يكون بأنْ يخبر بما يعتقد أنه باطل، سواءٌ أكان مضمون كلامه مطابقاً للواقع أو غير مطابق له.

فالقضيتان منفصلتان تماماً، ويُعَلّمنَا اللّهُ عزّ وجلّ أن نفصل بينهما، بأسلوب بيانه في هذه الآية.

وبهذا التحليل يتّضح لنا معنى الآية تماماً، وهو: إذا جاءك يا مُحَمَّدُ الْمُنَافِقُونَ الكاذبون في ادّعاء الإيمان حين أعلنوا إسلامهم. قالوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّهِ، وهذه الشهادة منهم اشتملت على قضيّتين: ما تلفّظوا به من حقّ، وما ادَّعَوْه من إيمانهم به، أمّا ما تلفظوا به من حقٍّ فاللّهُ يعلمه: ﴿والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُوله﴾ وأمّا ما ادّعَوْه من إيمانهم بمضمونه فهو كذب، واللّهُ يخبر بما يعلمُ عن حقيقتهم، ويُقَدِّمُ شهادته بذلك:

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وقد كُسِرَت همزة «إنَّ» لوجود اللام المزحلقة في خبرها ولـولاها لفُتِحَتْ وفق قاعدة فتح «أن».

* * *

* قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢ ﴾.

من صفات المنافقين الظَّاهِرَة أَنَّهُمْ يَحْلِفُونَ الأَيْمَان على صـدق ادّعائهم أنّهم مسلمون مؤمنون، وإذا ارتكبوا كبيرةً من الكبائر، أو أحـدثوا حـدَثاً يكشف نِفـاقَهم، ويدلُّ على عدم ولائهم للرَّسُولِ وجماعة المسلمين، وبلَغَ ذلِكَ الرسول ﷺ أو جماعة المؤمنين بادروا فحلفوا الأيمان على أنّ ما نُقِلَ عنْهُمْ لم يفعلوا منه شيئاً، وهم بذلك كاذبون.

إنهم ستروا ويسْتُرون فضـائحهم بأيمـانهم، فجعلُوا ويَجْعلون أيمـانهم جُنَّةً (= سُتْرَةً) يَقُونَ بها أنْفُسَهُم من نِقْمَةِ الرسول أو المؤمنين عليهم، وهذا دِيدنُهم دواماً في كلّ قرنٍ وفي كلّ عصرٍ وأمّة، فقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أيمانَهُمْ جُنَّةً﴾.

وإذْ سَتَـرُوا فَضَائحهم بـأَيمـانهم رأَوْا أَنَّهُمْ في مَـأْمَنٍ من أن ينكشفَ نفـاقُهُمْ، فأحْجَمُوا عن سُلوكِ سبيلِ الله، أوْ أعرضوا عنه، أو أدبروا أو نَأَوْا عنه، أو صَرفـوا من يتأثّر بهم عن سلوكه، أو فعلُوا كلّ ذلك أو بعضه، كلُّ ذلك يفعلونـه في السِّرّ، حين يرون أنفسهم بعيدين عن أعين الرقباء من المؤمنين الصادقين، فقال تعالى:

﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾.

فما حُكْمُ عَمَلِهِمْ في ميزان الله العادل؟ هل هو محمود أو مذموم؟

لقد أبان الله أنّه مذموم، فقال تعالى:

﴿ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢ ﴾.

فعل ﴿ساءَ﴾ المستعمـل في الذّم هنـا مع معنى التعجّب من سـوء ما عملوا، فاعِلُه: ﴿مَا كانُوا يَعْمَلُون﴾.

ومن ساء عَمَلُه الذي يعمله بإرادته فقد ساءَ هو، فالمعنى: ما أشَدَّ سوءَهُمْ بسبب ما كانوا يعملون من عملٍ شَديدِ السُّوء.

والحديث عمّا كانوا يعملون في الماضي من عمل شديد السُّوء، ينسحب على ما يعمَلُونَ مِثْلَهُ في الحال أو المستقبل، هم وغيرهم من كلِّ منافق كذّاب، يستُرُ قبائحه وفضائحه بأيمانه الكواذِبِ الغموس، ويَصُدُّ عن سبيل الله.

* قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾.

المشار إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾: هو الْحُكْمُ على ما كانوا يعملون بأنه شديد السوء، الذي يسمح بأن يُقالَ بَشَأْنه: ما أشدّ سُوءَه.

﴿بأَنَّهُمْ﴾: أي: بسبب أنّهم.

﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾: المنافقون المعنيُّون هنا قسمان:

ـ قِسْمٌ أعلن إيمانه بلسانه كاذباً مُتَسَرِّعاً، على سبيل التَّقِيّة، ظانّاً أنّ قضية الدِّين كالانتماء لحزْبٍ من الناس يُراد منه جلب منافع دنيويّة، ودفع مضارّ دنيوية، ثُمَّ لمّا فكَّر في أنّه ليس مجرّد انتماء ظاهري، ولكِنّهُ إيمانٌ قلبيٌّ يُرجَى منه جَلْبُ منافع ودفعُ مضارٍّ أخروية عند الله يوم الدين، كَفَرَ، فلَمْ يُطابِقْ بين إيمانه بقلبه وبين ما أعلَنَ بلسانه.

ـ وقِسْمٌ كان صادقاً في إسلامِهِ وإيمانه، إلاّ أنّ إيمانه كان ضعيفاً، غير واضح الرؤية، ثم لمّا رأى أن الإيمان يستدعي منه تكاليف تخالف هـواه كَفَرَ بـاطناً، واستَبْقَى ظاهر الانتماء إلى الإسلام، فكان بذلك منافقاً.

وعبارة ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ تَشْمَلُ القسمين، وكُلُّ قِسْمٍ منهما يناسبُهُ المعنى الذي يُلائم حاله.

وبعد أن استَمرَّ المنافقون مـدَّةً فيما اختاروا لأنفسهم من نفاق، ومرَدوا عليه كان من نتيجة ذلك بمقتضى سُنَنِ الله السببيّة أن يُطْبَعَ على قُلُوبِهِمْ، أي: أن يُقْفَلَ عليها إقفالاً كـاملاً، ويُطْبَعَ على هـذه الأقفال بـالأختام، إيـذاناً بـأنّها صـارت غير

مستعدّة لأن تَستَقْبل واردات الهداية الموجَّهَةِ لها، من آيات الله في كتابه، أو في كونه، ومن بيانات الرسول ﷺ القولية والعملية، فقال تعالى:

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

وبعد أن وصَلُوا إلى حالةٍ مَرَضِيَّةٍ شَنيعَةٍ طُبعَ فيهَا على قلوبهم، حتّى صَارتْ غيرَ مستعدّة لاستقبال أيّ وارد من واردات الهداية، فلا بدّ أن يكون واقِعُهم أنَّهُمْ لا يَفْقهونَ بواطِنَ الأمور ودَقائقَها وغاياتها، ومَا تؤول إليه في آجل أمْرِهِمْ، في الدّنيا وفي الآخرة.

فأفكارُهم ومفهوماتهم وكلُّ طاقاتِ ذكائهم مُتشَبِّثَةٌ بظاهرِ من الحياة الدُّنيا، وبكلّ عاجلٍ قريبٍ منها، وأنظارُهُمْ لا تَمتدُّ إلى ما وراء مواطِنِ أقدامهم من شؤون دنياهم.

وإذا كان أمرهم كذلك فكيف يفْقهُونَ حقائق الأمور وبواطنَها وغاياتها ومصائرَها؟! وكيْفَ يتدبّرون أمرهم؟!

وإشارة إلى كلّ هذه المعاني قال تعالى:

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾:

أي: فيترتب على مَرَضِ الطَّبْعِ على قلوبهم، الذي هو أثرٌ لاستقرارهم في مواقع الكفر باطناً، وتمرُّسِهم الدائم في النفاق أنّهم لا يفقهون.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾.

هذه آية اشتملت على ثماني جملٍ كلُّ جملةٍ منْها عنوانٌ لموضوع يَتعلّق بالمنافقين، كُلّهم أو بَعْضِهِمْ.

الجملة الأولى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾:

هذه الجملة معطوفة على ما سبق من بيان أوصاف المنافقين في السورة، وهي فيما يظهر تتحدّث عن منافقين معيّنين معروفين بأشخاصهم، ذوي وَجاهةٍ وأجسام حسنة مَهيبة، وهيئات حسنة تعجب من يراها. وقد ذكروا أنّ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس المنافقين في المدينة كان رجلاً فصيحاً جَسيماً وَسيماً، وكان يحضر مجلس النبي ﷺ، فإذا قال سَمِع النبيّ مقالته. وقال الكلْبي: المراد: «عبد الله بن أبيّ بن سلول» و «جَدُّ بْنُ قَيس» و «مُعَتِّبُ بْنُ قَيْس» فقد كانت لهم أجسامٌ، ومنظرٌ، وفصاحة.

وهذا يَدُلُّ على أنّ العبارات العامّة في القرآن قد يُراد بها أفرادٌ معيّنون، وذلك لأغراضٍ سياسيّةٍ أو تربوية، ولتأخُذَ مع ذلك صبغة احتمال تكرارها في فئاتٍ من المنافقين في كلّ حِين، فما وُجِدَ في وقتٍ من الأوقات قابل لأن يوجد نظيره في كلّ وقت، فعلىٰ المؤمن البصير العاقل أن يكون على بصيرة بواقع حال النّاس.

الجملة الثانية:

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾:

أي: وهم يُحْسِنُون القول فَصَاحةً وبياناً وانتقاءً للمعاني التي يُريدون التعبير عنها، مخادعةً وتغريراً واستدعاءً لاستماع ما يقولون، والتنبُّه له.

ودلّ حرف الشرط [إنْ] على أنّهم غير ثرثارين، فهم لا يُطلقون ألسنتهم للمشاركة فيما تحسُن المشاركة فيه وفيما لا تَحْسُن، بل يضبطون ألسنتهم، وربّما كان هذا حذراً من أن تندّ منهم فلتاتُ أقوال تدلُّ على نفاقهم.

حرف الشرط «إنْ» يُسْتَعْمَلُ فيما هو قليلُ الوقوع أو فيما هو مشكوكٌ في وقوعه كما يقول علماء البلاغة، فاستعماله هنا دلّ على قلّة مشاركتهم بالكلام في مجالس الرسول، ومجالس المؤمنين الصادقين.

الجملة الثالثة:

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾.

أي: كأنّهم أعمدة من خَشَبٍ مُسَنَّدَةٌ على الْجُدُر، فدلّ هذا التشبيه على عدة أمور:

(١) أنّهم لا يختارون الجلوس في أوساط المجالس مع حلقات المسلمين الذين يتقربون من الرسول للاستماع والانتفاع، بل يَبْتَعِدُون إلى الْجُدُر لِيُسْنِدُوا ظهورهم إليها بحسب الظاهر، وهم في الحقيقة لا يريدون الاستماع ولا الانتفاع.

(٢) أنّهم مُسْتَكْبِرون يَتَرَفَّعُونَ عن مشاركة عامّة المسلمين في المجالس العامّة.

(٣) أَنَّهُمْ إذا كانوا في مجالس المسلمين العامّة، التي يكون فيها علم وموعظة وتلاوةٌ لآيات كتاب الله، كانوا فيها أمثالَ الْخُشُب المسنّدة، لا يسمعون ولا يفقهون ما يقال فيها، وذلك لانصراف قلوبهم ونفوسهم وأفكارهم عن كلّ ذلك، إنّهم غير مؤمنين بالأصول فكيف يهتمّون بمعرفة الفروع وكلّ ما يتعلّق بما لا يؤمنون به.

ويُلاحظ هنا أنّ الْخُشُب عِنْدَ علماء تعبير الأحلام تُعَبَّرُ بالمنافقين، وبالنفاق.

الجملة الرابعة:

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾.

الخائن الجبان المنْدَسُّ في صُفوف قومٍ، وهو ليس منهم، ويعمل لكيدهم وإفساد أوضاعهم، رِعْديدٌ شَديدُ الحذر، مشدودُ الجملة العصبيّة دواماً، لأنه في نفسه غيرُ آمن، لذلك فهو يخشىٰ كلّ حركة تخالف الحركات المألوفة المعتادة، ويحسب أنه هو المقصود بها، فإذا نظر إليه أحدٌ نظرةً غير عاديّة حسب أنّه اكتشف أمره، وإذا أُذيعَ نَبأٌ عن خائن مُنْدسّ حَسِبَ أنّه هو المقصود، وإذا طَرَقَ بابَ داره طارقٌ حسِبَ أنّه مطلوبٌ لمحاسبته ومحاكمته، وإذا سمِعَ صيحةً تدعو إلى إلقاء القبض على الأعداء الخونة حسب أنّه هُو المقصود بها، وأبْرَعُ تعبيرٍ جامعٍ يدُلُّ على كلّ ذلِكَ وأشباهه بالنسبة إلى المنافقين قول الله عزّ وجل:

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾:

أي: يحسَبُون كلّ صيْحةٍ يصيحُها صائحٌ ما بإنْذار نازلةٌ عليهم بما يكرهون، ويراد من عبارة «كلّ صيحة» بهذا التعميم نوع خاصّ من الصيحات، وهي التي تثير الخوف والحذر، مع ما في الإطلاق من تصوير حالة الذعر التي هم عليها في نفوسهم، حتى لو أن أحداً صاح صيحة لمنفعتهم لهزّ قلوبهم بخوفٍ وحذر، ولو كان قريباً أو حبيباً.

والسبب في ذلك أنّهم أعداء يلبسون ثياب أصدقاءٍ وأهل ولاء.

الجملة الخامسة:

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾.

لفظ «عدوّ» معناه ذو العداوة، وهو يطلق على المذكر والمؤنث والواحد والمثنّى والجمع.

والتعريف في لفظ ﴿ٱلْعَدُوُّ﴾ لتعريف الجنس حتّى كأنّه مُعيّن، فهو يدلُّ على وجود كامل حقيقة العداوة فيهم، وبهذا نفهم أن الحصر المستفاد من تعريف طَرَفي الإسناد خاصّ بمن استوفَىٰ كامل عناصر العداوة، وهذا ينطبق تماماً على المنافقين، لأنّهم أعداء للمسلمين من جهتين لا من جهة واحدة فقط:

الجهة الأولى: جهة كفرهم الّذي يُبْطِنُونَه، فهم من هذه الجهة يشاركون سائر الكافرين في عداوتهم للمؤمنين، ولا سيما رسول الله ﷺ.

الجهة الثانية: جهة نفاقهم الذي ألجأهم إليه جُبْنُهُمْ وحِرْصُهُمْ على مصالحهم في دنياهم، فجعلَهُم يُكَلِّفُونَ أنفسهم دواماً أن يتظاهروا بخلاف ما يُبْطِنون، وأنْ يَحْرِمُوا أنفسهم من أمور كثيرة يودّون أن يفعلُوها بحرّية، وأن يقوموا بأعمال يكرهون عملها، ويبذلوا أموالاً وهم كارهون، ويشاركوا في معارك قتالية لا مصلحة لهم منها، ولا يؤمنون بجدواها، إلى غير ذلك من أمور تزيد في نسبة عداوتهم، وهذه الأمور لا تُوجَدُ عند الكفار المصارحين بكفرهم وعداونهم.

فمن الحقّ تماماً أن يُقَال على سبيل الحصر هُمُ ٱلْعَدُوّ، بمعنى: هم وحدهم الجامعون للعداوة القُصْوَى، بكلّ عناصرها المتصوّرة في الناس.

الجملة السادسة:

﴿ فَٱحۡذَرۡهُمۡ ﴾.

خطابٌ للرسول ﷺ. فلْنلاحظ أن الرَّسُول المؤيّد بالوحي والملائكة وحفظ الله له من الناس، مأمورٌ بأن يَحْذَرَ المنافقين، أي: بأنْ يتّخذ كُلَّ الوسائل التي تحميه والمسلمين من مكرهم ومكايدهم، وأن لا يدع لهم منفذاً ينفذون منه للإضرار بالإسلام والمسلمين وإفسادِ أحوالهم وأوضاعهم وهم داخل المجتمع الإسلامي يتربّصون الدوائر، وبأن يوجّه لهم عيون المراقبة الدائمة، حتى لا يأخذوا المسلمين على حين غرّة وغفلة عن تحرّكاتهم الخفيّة ودسائسهم الماكرة، وأن لا يتّخذ منهم بطانة تطلّع على الأسرار وخفايا الخطط والتدبيرات!!

وإذْ كان الرسول ﷺ مأموراً بأن يحذرهم كلّ هذا الحذر، لأنّهم هم العدوّ الأكبر، فكيف يكون حال سائر المؤمنين، من أولياء أمورهم في القمّة، حتّى عامّتِهِمْ في القاعدة العريضة الطويلة؟!

إنّ جميع المؤمنين من بعد الرسول ﷺ مأمورون بهذا الأمر، باعتبار أنّهم أكثر حاجةً إليه، وأولى بهم أن يلتزموه من الرسول المؤيّد من ربّه.

الجملة السابعة:

﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾:

هذه جملة مُنَزَّلَةٌ منزلة جُمَل التعجّب، لجريانها مجرى الأمثال.

والمعنى: ما أشدّ قبائحهم وخباثاتهم التي بلغت مبلغ أن يَدْعُوَ عليهم كلّ داعٍ مستجابِ الدعوة بعبارة «قاتَلَهُمُ الله».

فالجملة إنشائية تحمل معنى التعجّب من أمرهم والدعاء عليهم، وإيرادُها عقب جُمَلٍ خبريّة تضمّنت بيان طائفة من صفاتهم، يُشْعِر بأنّ الله عزّ وجلّ يبيّن لنا أن لهم مع تلك الصفات التي سبق بيانها صفات أخرى ذات شناعة لم تُذْكَرْ في هذا البيان، فهم لا يليق بهم بحسب مجموع قبائحهم وخباثاتهم إلاّ أن يُقَاتِلَهُمُ الله ربّ العالمين، فلْيَقُلْ كلّ داعٍ يدعو ربّه: قاتَلَهُمُ الله. أي: اللّهم تابع مقاتلتهم

الخفيّة لـلإسلام والمسلمين بمقاتلةٍ من لـدنْك تُحْبِط بها أعمالهم ومكايدهم وما يَمْكُرونَ تِباعاً، والتوجيه لهذا الدعاء يحثُّ المؤمنين على أن يكونوا شديدي الحذر من المنافقين.

الجملة الثامنة:

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ؟!﴾:

أي: كَيْفَ يُصْرَفُون؟!

﴿أَنَّىٰ﴾: استفهامية وهي هنا بمعنى «كيف» مستفهم بها عن الحال، والاستفهام هنا إنكاري فيه معنى التعجيب من أمرهم.

والمعنى: كيْفَ يُصْرَفون عن الحقّ وهم في بيئة أمّةٍ مؤمنة مسلمةٍ تَسْمَعُ الحكمة، وتَتْلُو آيات الله، وتقوم بأفعال الخير، ويتبادل أفرادُها فيما بينهم مشاعر الإيمان والرضا عن الله، والخوف من عذابه، والطمع في جنّته، ويندفعون لبذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله؟؟!

إنّه لأمر يستحق العجب.

وإذا قلنا: إنّ ﴿أَنَّىٰ﴾ ظرف مكان، أو ظرف زمان فعبارة ﴿أنّى يُـؤْفكون﴾ من توابع جملة ﴿قاتلهم الله﴾، والمعنى: قاتلهم الله في أيّ مكان يُصْرفون إليه، وفي أي زمان يصرفون فيه، ولا مانع من إرادة كلّ هذه المعاني فيما أرى، والله أعلم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾.

انتقلت السُّورة إلى بيان ظاهرةٍ من ظواهر المنافقين في السلوك، وهي أنّهم إذا بـدَرَتْ منهم بادرةٌ تَنِمُّ عن سُوءِ طَوِيّتهم، أو تـدلُّ على عـدم صِدْقِ ولائهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ثم دعاهم بعضُ المؤمنين إلى رسول الله ﷺ كي يطلبوا منه أن

يدعوَ اللَّهَ لهم بأن يغْفِرَ لَهُمْ، كانَ منهم ما يلي :

أولاً: ففي الحركة التلْقائية الأولى التي يقابلون بها هذه الدعوة، يُديرون ويُميلون رؤوسهم بطريقةٍ يَدُلّون بها على رفْضِهم الذهابَ إلى الرسول، ورفضهم سؤاله أنْ يستغفر لهم، وعلى أنّهم لاَ يُريدون أن يستغفر لهم، نظير الذي كان من عبد الله بن أبي بن سلول، كما جاء في بعض الروايات التي سبق عرضها في سبب النزول.

والسبب في ذلك أنّهم كافرون باطناً، فهم لا يؤمنون بأنهم عُصَاة، حتى يَشْعُروا بالحاجة إلى أن يستغفر الرسول لهم، وقد دَلَّ على هذه الحركة التّلْقائية قولُ الله تعالَىٰ :

﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ :

أي: أداروا وأمالوا رؤوسهم بسرعة وعُنْف كَمَا جاء في قراءة الجمهور، وهذا يكون من فريق منهم، و﴿لَوَوْا رُؤُوسَهُمْ﴾: أي: بطريقة هادئة كما جاء في القراءة الأخرى، وهذا يكون من فريقٍ آخر منهم.

ثانياً: وفي السُّلُوك الدائم مع تتابع الأوقات، تكونُ حركاتُهُمْ حركات إحجام أو إعراضٍ أو إدبار أو نأي وابتعاد، كُلَّما دُعُوا لعمَلٍ إسلاميٍّ فيه مرضاةٌ لله، أو طاعةٌ لرسوله، أو خدمةٌ صادقة لجماعة المؤمنين، ويصْرِفونَ عن ذلك من يتأثَّر بأقوالهم ووساوسهم وتسويلاتهم.

وقد دلَّ على هذا السلوك المتتابع قول الله تعالى :

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾.

فعل «يَصُدُّون» كما سبق أن عرفنا لازمٌ ومتعدٍّ، ويمكن حمله هنا عليهما معاً، فهم بأنفسهم يَصُدُّون، ثُمَّ هُمْ يَصُدُّونَ غَيْرهم من الذين يتأثّرون بهم.

ثالثاً: وفي حالتهم النفسيّة التي قد تبدو لها آثارٌ ظاهرة في سلوكهم من جِنْسِها، هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ، يسْتكْبِرُونَ عن اتّباع الرسول وطاعته ويَرَوْنَ أنّهم أحقُّ بالزعامة والقيادة، وهذا ينطبق على طائفةٍ منهم، كعبد الله بن أُبَيّ بن سلول، وقد

دلّ على هذه الحالة قوله تعالى:

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

هذه الظاهرات والصفات تتكرّر في فريقٍ من منافقي كلّ عصْرٍ، وكلّ أمّة.

وفي التعقيب على موضوع استغفار الرسول لهم لو حصل، أبان الله عزّ وجل أن استغفار الرسول لهم لا يَنْفَعُهُمْ، بسبب أنهم كافرون باطناً، إنّما قد يَنْفَعُ دعاءُ الرَّسُول بالمغفرة إذا دعَا لمؤمنٍ عاصٍ، فاستغفارُ الرسول وعدمُ استغفاره لَهُمْ سواءٌ، فلو دعا الرسول لهم بالمغفرة لما غفر الله لهم، إذْ لو غفر الله لهم لجعلهم بالمغفرة من أهل الهدى، واللهُ عزّ وجلّ قد قضت حكْمتُه وعَدْلُه ان لا يجعل فاسقاً من دركةِ الكفر من أهل الهدى، إنّما قد يَجْعَلُ من أهل الهدى عنده من كان مؤمناً عاصياً إذا تاب واستغفر، أو دعا الرسول له بأن يغفر الله له، أو دعا له صالح من المؤمنين، أو نحو ذلك.

والقاعدة الرّبّانيّة مبيّنة في قول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ... ﴿٤٨﴾﴾:

ففي بيان أنّ استغفار الرسول لهم لو دعا لهم بالمغفرة لا يَنْفَعُهُمْ قال تعالى خطاباً لرسوله:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

هذا البيان دمغ المنافقين بأنّهم كافرون باطناً، وقطع أمل من يرجو منهم أو من أقاربهم أن يغفر الله لهم، ولو استغفر الرسول لهم، فحالتهم حالة خالدٍ في النار ما لم يتب التائب منهم بنفسه، ويؤمن إيماناً صحيحاً، ويتخلّص من النفاق، قبل أن تدركه منيّته.

وبعد بيان هذه الجزئيّة الخاصّة بالمنافقين أبان الله عزّ وجلّ القضيّة الكليّة التي تشْمَلُ المُنافقين وسائر الكافرين والمشركين، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾:

أي: لا يَهْدِي القوْمَ الفاسقين فِسْقاً يُخرِج من الإيمان إلى الكفر، بمعْنَىٰ: لا يَحْكُمُ لَهُمْ بالهداية، ولا يَغْفِرُ لهم حتَّى يكونوا بالمغفرة من المهديِّين، الّذين يكونون من أهل الجنّة، ولو بعد أن يأخذوا نَصيبَهُمْ من العذاب. فالحكْمُ بالهداية، والمغفرةُ التي تجعل العاصيَ من أهل النجاة والهداية، إنّما يكونان لأهل الإيمان فقط، أمّا مَنْ هبَط عن أدنَىٰ درجات الإيمان، وَدَخلَ في دَركاتِ الكُفْر ولَوْ من مستوىٰ أخفّها كُفراً فلا حظّ له بشيءٍ منهما.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧﴾.

تتحدّث هذه الآية عن ظاهرة تخذيلٍ عن الرسول ﷺ كان يمارسها ويكرّرها قادةُ المنافقين في المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول، إذْ كانوا يقولون لجماعتهم من الأنصار: لا تُنْفِقُوا مِنْ أموالكم على مَنْ عند رسول الله من فقراء المسلمين، حتّىٰ يتفرّقوا عنه، فإذا انصرفوا عن مجلسه أكرمتم رسول الله بما تريدون إكرامه به، وقد يعلّلون وصيتهم هذه بأنّ هؤلاء الفقراء من المسلمين يعتادون أن يلازموا مجلس الرسول لينالوا ممّا تقدّمونه أنتم للرّسول، وتضطرون أنتم لأن تزيدوا ممّا تقدّمون للرّسول، لأنّه سَيَدْعُوهم لمشاركته، ولا يستأثر به لنفسه.

وما يُريدونه ضمناً مع ذلك هو أن يتفرّقَ هؤلاء الناس عن مجالس الرسول ﷺ دواماً حتّىٰ لا يكون له مُحِبّون ملازمون من جماهير المسلمين، ولكنّ هذه الإرادة لا يصرّحون بها بل يُغَلِّفُونها بعبارةٍ تدلُّ على المعنى الأوّل، وهو انتظار انفضاضهم لتقديم ما يريدون إكرام الرسول به على وجه الخصوص.

وهذا الكلام يقولونه لجمهور المؤمنين من الأنصار الذين يستمعون لأقوالهم.

وفي التعقيب على هذه الظّاهرة أبان الله عزّ وجلّ للّذين آمَنُوا أنّه قد جعل لهم ظروفاً يغنمون عن طريقها سعادةَ دُنياهم وأخراهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، إذْ هيّأ لهم أن يُنْفِقوا من أموالهم التي وهبهم إياها في سبيله وابتغاء مرضاته،

ولو شاء لأغنَى ذوي الحاجات عن نفقات ذوي الأموال فَحُرِمُوا من ظروف اغتنام الأجر العظيم، أو لَعَكَسَ الأمر فجعل ذوي الأموال هم الفقراء أصحاب الحاجات، وجعل الفقراء هُمْ أصحاب المال واليسار، وذلك لأنَّ لِلَّهِ خزائنَ السماوات والأرض كلّها، يهَبُ منها بحسب حكمته ومشيئته من يشاء من عباده ما يشاء لِيَبْلُوَ عباده بالقبض والبسط، والفقر والغنى، ويحاسبهم على أعمالهم فيما ابتلاهم به، وفي الإشارة إلى هذه المعاني قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾:

أي: وبما أنّ خزائنَ السماوات والأرض لَهُ سبحانه فهو الذي يعطي منها، وهو الذي يمنع، وهو الذي يبسط وهو الذي يقبض، وقَضَتْ سنته أنّ من أنفق ابتغاء مرضاة ربّه أخلف الله عليه وضاعف له الأجر، وأنّ من أمْسَكَ أَمْسَكَ الله عنه، أو حَرَمَهُ من أن يَسْتَمْتِع أو ينتفع بما وهبه، ولكنَّ هذه المعاني الدقيقة التي تتفجّر من منابع الإيمان بالله وبعلمه وحكمته وأنّ له خزائن السماوات والأرض لا يفقهها المنافقون، لأنّ أذهانهم وأفكارهم لا تتجاوز ظواهر الحياة الدنيا، ومصالِحَهُمْ القريبة العاجلة منها، وهم عن الآخرة معرضون، أو منكرون، وعن العواقب في الحياة الدنيا غافلون.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

وتتحدَّثُ هذه الآية عن ظاهرةِ تحدِّي رأسِ المنافقين عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول رسولَ الله والمهاجرين، بين جماعته في غزوة بني الْمُصْطَلِق، بأنّه إذا رجع إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّهُمْ منها، زاعماً أنّهُ هُو وأنصاره في المدينة هم الأعزّ الأقوى، وأنّ الرّسول والمهاجرين هم الأضعف الأذل، كما سبق بيان هذا في روايات سبب النزول.

وذكر النصّ هذه الحادثة بأسلوب الحديث عن عموم المنافقين، دون ذكر قائلها بالتَّعْيين، لأنّ عُمُومَ المنافقين موافقون على مقالة رأسهم، ولَوْ وَجَدُوا أنّ الفرصة مواتية لهم لاجتمعوا ولقاتلوا الرسول والمؤمنين معه، ولأخرجوهم من المدينة.

وفي التعقيب على ظاهرة التحدّي هذه أبان الله عزّ وجلّ أنّ القوّة الغالبة في المدينة، هي لله ولرسوله وللمؤمنين، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون هذه الحقيقة، ويحْسَبُون أنّ لديهم من القوة ما يستطيعون بها إخراج الرسول والمهاجرين إلى المدينة من المؤمنين خارجها مطرودين بالقوة، وبسبب ذلك قالوا مقالتهم: لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ مِنْها الأذلّ.

كما أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين الصادقين دائماً في كلّ حين.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

الحديث في السورة عن المنافقين وطائفة من صفاتهم وظواهر من سلوكهم وبعضِ مواقفهم من الإسلام والرسول والمؤمنين، استدعى تذكير الذين آمنوا ببعض ما يتطلب الموقف التذكير به، تحذيراً لهم من أن يُسْتدرجوا إلى مزالق قد تدفع بهم إلى النفاق، وتجعلُهُمْ ينْغمِسُون في أوحاله.

وهذا الاستدراج قد تكون بدايته بانحراف يسير عن صراط الله المستقيم، ثم يميل خط الانحراف بعيداً عن الصراط، فإلى المزالق، فإلى الهاوية، فإلى التهلكة العظمى.

وكأنّ بدايةَ علّة المنافقين النفسيّة بوجه عامّ هي تعلُّقُهم الكامل وانشغالُ

قلوبهم بالأموال والأولاد من أمور الحياة الدنيا، فحذّر الله الذين آمنوا من أن تلْهِيَهُمْ أموالهم وأولادهم عن ذِكْرِ الله.

كما دعَتْ مُناسبةُ قولِ المنافقين لبعض المسلمين من الأنصار: لا تُنْفِقُوا على مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا، توجيهَ هذا التحذير نفسه للذين آمنوا، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

إنّ مَنْ وجّه كُلَّ هَمِّه في الحياة الدُّنْيا للأموال وجمعها وعدّها وتنميتها وتثميرها، وللأولاد وحاجاتهم ومشاكلهم الكثيرة الّتي لا تنتهي، اضطُرّ أن يُنْفِقَ في ذلك كلَّ طاقاتِ فكره وحركة نفسه، وأنْ يشغل به كلّ ساحة تصوّراته المتحرّكة العاملة، فتُلْهيه الأموال والأولاد عن ذكر الله، أيْ: عن ذكر كلّ ما يتّصِلُ بالله من عقائد إيمانيّة، وواجباتٍ أمَرَ الله بها، ومُحَرَّماتٍ نهى الله عنها، وصراطٍ مستقيمٍ كلّف الله عباده أن يسلكوه، وجزاءٍ بالثواب أو بالعقاب، إلى سائر ما جاء عن الله من أمور الدين.

ومتى ابتعد الإنسان عن ذكر هذه الأمور المتصلة بالله تعالى وطال عليه الأمد نَسِيَها، ومتى نَسِيَها أهمل العمل بمقتضاها، وحلّ محلّها في ساحة تصوّراته العاملة المتحركة مفهوماتٌ أخرى، هي من وادي مفهوماتِ أهل الكفر الّتي يجعلها الكافرون قواعد لتحقيق مطالبهم من الحياة الدنيا، وليس في هذه المفهومات شيءٌ يخدم قضايا الإيمان بالله واليوم الآخر.

ومن سيطرت عليه هذه المفهومات اتّفق في سلوكه في الحياة مع الكفرة الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وقد لا يبقى لديه إلّا بقايا الانتساب لدينٍ اسمه الإسلام، لكنّ مفهوماته منسيّةٌ متروكة غير معمولٍ بها، والمنسيُّ المتروك هو بحكم المعدوم، فيكون بذلك كالمنافق مُسْلِماً اسماً، غير مُسْلِمٍ في مفهوماته وسلوكه وأعماله في الحياة.

وكانَتْ بدايَةُ انحرافه أنّ الأموال والأولاد ألْهَتْهُ عن ذكْرِ الله، وما يتّصل بالله عزّ وجلّ.

فنهىٰ الله الـذين آمنوا عن أن تُلْهِيهم أموالُهم وأولادُهم عن ذِكْرِ الله، حمـايةً لهم من الانحراف، فالابتعَادِ، فالانـزلاقِ، فالسقـوطِ في الهاويـة، فالانغمـاسِ في أوحال النفاق.

وأبـان الله عزّ وجـل لهم أنّ من فعلَ ذٰلِكَ كانُـوا هم أكبر الخـاسرين، فقـال تعالى:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾.

لقد كان لديهم كنز الإيمان العظيم، والعملُ بمقتضاه على مقدار اجتهاد كـلٍّ منهم، ورغبتِـه فيما عنـد الله من أجر جسيم، وثـواب عظيم، فلَمَّـا أَلْهَتْهُمْ أموالُهُمْ وأَوْلَادُهُم، وجرّهم ذلك إلى ما جرّهم إليه من أوحال، خَسِـروا ذلك الكنـز، فكانـوا أكبر الخاسرين.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾:

أي: فأولَٰئِكَ البعداء عن مراتب المؤمنين العاملين.

﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾:

أي: هُمُ الـذين يختصّ بهم عنوان «الخاسرين» من دركَـةِ الْخُسْرَانِ الأكْبـر، فـالتعريف في لفظ [الخـاسرين] هـو لبيان أنّ لفظ «خـاسر» قـد جمع كُـلَّ عناصـر الخسـران، والقصرُ هنا إضـافيٌّ، أي: بـالإضـافـةِ إلى سـائـر الخـاسـرين من فئـة المؤمنين.

بعـد ذلك نهـاهم الله عن أن يستجيبوا لـوسـاوس المنـافقين ودَسـائسهم، في موضوع الإنفاق في سبيل الله، بـأسلوب الأمر بـأن يُنْفِقُوا ممّـا رزقَهُمْ رَبُّهُمْ من رزْق في الحيـاة الدّنيـا، قبل أن يـأتيهم الموت، فينقـطع به عملهم في الحياة الـدنيـا، وحينئـذٍ لا يستطيعـون تَدَارُكَ الأمـر بحالٍ من الأحـوال، ويتركـون أمـوالَهُمْ بسلطان الربّ القاهر في الحياة الـدنيا، ليخلفهم عليهـا الوارثـون، ويحاول من نـزل الموت بساحته منهم أن يُؤَخِّرَهُ رَبُّه إلى أَجَلٍ قَرِيب، ليتصدَّقَ وليكونَ من الصـالحين، لكنّهُ مَطْلَبٌ لا يُسْتَجابُ له، فقد انتهت رحلة الامتحان عند حلول أجل الموت، وانقطع

كلّ عمل، ودخل الإنسان عتبة اليوم الآخر. فقال الله تعالى:

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: هلاّ أخّرتني في الحياة الدنيا إلى أجَلٍ قريب يسمح لي بأن آمُرَ أو أعمل متصدّقاً في سبيلك.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾:

أصلُها فأتصَدَّق، سُكّنت التاء وأدغمت بالصاد، فصارتا صاداً مشدّدة، التّصدّق هو بذل الصّدقة تقرباً إلى الله، والصّدقة هي المال المبذول في ذلك.

﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾:

أي: فإذا بَذَلْتُ الصّدقات كنت من الصالحين، وذلك لأنه حينئذٍ يشْعُرُ بأنّ إمساكَهُ لمَا كان يجب عليه أنْ يبذُلَهُ منْ أموال جعَلَهُ من القوم غير الصالحين في موازين الرحمن.

لكنّ طلبه هذا يُرفضُ كسائر طلبات تأخير الأجل عند نزول الموت من أيّ طالب، مؤمناً كان أو كافراً، وقد دلّ على أنّ طلَبَهُ لا يُسْتَجابُ له قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾:

أي: ولَنْ يُؤَخِّرَ الله نفساً ما، في الحياة الدنيا مهما علا شأن هذه النفس أو نزل إذا جاء أجل موتها، المقدّر لها في علْمِ الله عزّ وجل.

وختم الله السورة بالتذكير بكلّيّة من الكلّيّات الاعتقادية، وهذه الكلّية تناسب ما جاء فيها من أمر بالعمل الصالح، ونهي عن العمل السيِّىء، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

الخِبْرَةُ هي العِلْمُ بالْعَمَلِ عِنْدَ ممارسته، على سبيل الشهود والحضور، المصاحب لكلّ أجزاء العملِ ظواهرِه وبواطنِه، وهي غير العلم بالعمل قبل

حصـوله، أو العلم بـه بعد حصـوله عن طـريق الأخبار، أو مـا يُدَوّن في السّجـلّات والصُّوَر.

إنّ الخبير بعَمَلٍ نفسه، هو الذي يمارسه، فيجمع عليه لدى ممارسته لـه كلّ فكره ومشاعره النفسية، ويُحِسُّ بكلّ بواطن عمله وظواهرها.

كذلك علم الله بأعمال الناس هو من قبيل عِلْم الخبير جلّ وعلا.

وانتهـت السـورة



النصّ السابع والعشرون

وهو من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول)
«السورة (١٩) من التزيل المدني نزلت بعد سورة المنافقون»
الآيـات مـن (٥ ـ ١٠)
حول محادّة المنافقين لله ورسوله وتناجيهم في السرّ بذلك وتحيتهم الرسول تحيّةً منكرة

* قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

* * *

(١)
ما في النصّ مِنَ القراءات المتواترة
(من الفرش وشيء من الأداء)

* في الآية (٧):

(١) قرأ جمهور القرّاء [مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ] بالياء التحتية من «يكون» وقرأ أبو جعفر المدني: [ما تَكُونُ] بالتاء الفوقية.

القراءتان وجهان عربيان، لأنّ كلمة [نَجْوَىٰ] مجازيّة التأنيث، فيجوز في فعلها التذكير والتأنيث.

(٢) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [وَلَآ أَكْثَرَ] بفتح راءِ «أَكْثَرَ».

وقرأ يعقوب البصري: [وَلَآ أَكْثَرُ] بضم الراء.

القراءتان وجهان عربيان، فالفتح على تقدير عطف «أكثر» على لفظ «نَجْوَىٰ» المجرور بحرف الجرّ الزائد «مِنْ» والفتحة بدل الكسرة لأن «أكثر» ممنوع من الصرف يجرُّ بالفتحة، والرّفع على تقدير عطف «أكثر» على محل «نجوى» المرفوع بـ «يكون» محلاً، وإن كان مجروراً لفظاً.

* في الآية (٨):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [وَيَتَنَاجَوْنَ].

وقرأ حمزة ورُوَيس عن يعقوب: [وَيَنْتَجُونَ].

القراءتان بمعنى واحد: ففعل «تناجَىٰ» وفعل «انْتَجَىٰ» يأتيان بمعنى المسارّة في الحديث.

(٢) في كلمة [وَمَعْصِيَتِ] في هذه الآية وفي الآية (٩):

وقف جمهور القراء على آخر الكلمة بالهاء، ووقف ابن كثير المكي، والبصريان أبو عمرو ويعقوب، والكسائي الكوفي بالتاء الساكنة، وهي وجوه من الأداء.

* * *

(٢)

موضوع النصّ وما روي من سبب نزوله

موضوع النص: نزلت سورة (المجادلة) بعد نزول سورة (المنافقون) فجاء فيها متابعةُ بيانٍ ومعالجةٍ لطائفةٍ من أحوال المنافقين وسلوكهم ومواقفهم من الإسلام والرسول والمؤمنين.

وقد جاء في هذا النصّ من هذه السّورة بيان ما يلي:

الأول: أن المنافقين يمارسون تباعاً الوقوفَ في حدودٍ معارضةٍ ومخالفةٍ لحدود الله ورسوله، بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كما يفعلُ الكافرون الصرحاء، إلاّ أن المنافقين يستخفون بأعمالهم ومواقفهم.

الثاني: أنّ المنافقين يَتَنَاجَونَ بأحاديث سرّيّة تشتمل على ما فيه إثْمٌ وعدوان ومعصيةٌ للرسول، مع أنّ الله عزّ وجلّ قد نهاهم فيما سبق عن هذا التناجي، وحذّرهم منه في الآية (١١٤) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) وقد سبق شرح ذلك.

الثالث: أنّ المنافقين يُقَلِّدُون اليهود في تحياتهم للرسول ﷺ، ضمن لحن القول الذي يمارسونه، وهو ما جاء بيانه في النص (٢٠) من سورة (محمد) الآية (٣٠) منه، كأن يقولوا: السّام عليك بدل «السّلام عليك».

ما رُوي من سبب النزول:

لم أجدْ في أسباب النزول المرويّة ما يُفيد في تدبُّر هذا النّصّ، وقد رأى مجاهد، ومقاتل بن حيان، وغيرهما من أهل التأويل، أنّ النصّ نزل بشأن ما كان يفعل اليهود من تَنَاجٍ على مرأى المسلمين لإغاظتهم، وإثارة الشكوك في قلوبهم.

لكنّي نظرت في جملة النصّ ودلالاته فرأيت أنّ المقصود به المنافقون، ويظهر هذا لدى تدبُّر فقراته، ولدَىٰ النظر في النصّ الذي جاء بعده في السورة، والله أعلم.

* * *

(٣)
المفردات اللّغويّة في النّصّ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ﴾ :

المحادَّةُ هي ملازمة أحد الفريقين حدّاً مقابلاً أو مناقضاً أو معارضاً للحدّ الذي عليه الفريقُ الآخر، على سبيل الْعِداء والمخالفة والمضادّة. يقال لغة: حادَّ فُلانٌ فُلاناً إذا عصَاهُ وغاضبه.

قال الزجاج: المحادّةُ أن تكون في حدٍّ يخالف صاحبك، وأصلها الممانعة.

وهي فيما يظهر مشتقَّة من الحدّ الذي يوضع على الأرض لفصلها عن غيرها، وذلك لأنَّ كلّ فَرِيقٍ من المتعادِيّين يَتَّخِذُ لنفسه حدّاً مضاداً لحدّ الفريق الآخر.

﴿ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ :

أي: أُذِلُّوا وأُخْزُوا وأُغِيظوا، كمَا فُعِلَ بالّـذين من قَبْلِهِمْ من المنافقين، أمثال عبد الله بن أبي بن سلول، إذْ كُبِتَ عقب غزوة «بني الْمُصْطَلِق = الْمُرَيْسِيع» فلم يدخل المدينة إلّا ذليلاً، وكان قد قال: لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزّ مِنْهَا الأَذَلّ.

﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ :

أي: عذابٌ مُذِلٌ مُخْزٍ.

﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ :

أي: حاضرٌ مراقب له مراقبة تامَّةً، تتناول كلّ ما هو عليه من صفات وأحوال، وما يجري عليه أو فيه أو منه من أحداث، بالبصر والسمع وكلّ قوة مدركة، تدرك كلّ دقيقةٍ فيه ظاهرة وباطنة، بعلم محيط شامل، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إذْ كُلّ دقيقةٍ في الوجود مهما كانت خفيةً، أو أمراً معنويّاً فهي مما يُطْلَقُ عليه لفظ «شيء» والله شهيد عليه، ولفظ «شهيد» على وزن «فعيل» من الصِّيغ الدّالة على غاية المعنى.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾:

يقالُ لغةً: نَجا فلانٌ فلاناً الحديثَ، يَنْجُوهُ نَجْواً ونَجْوى، أي: أسَرَّ إليه الحديث.

فالنجوى: الإسرار بالحديث، ويُطْلَق هذا اللفظ أيضاً على المتناجين وهذا الإطلاق هو من قبيل الوصف بالمصدر، ويستوي فيه الواحد وغيره، يقال: هُو وهما وهُمْ نَجْوى.

ويقال: تناجى الرجلان، إذا تسارّا، وتناجى القوم إذا تسارُّوا وكذلِكَ يقال: انتجى الرجلان، وانتجى القوم، إذا تحدّثوا فيما بينهم سِرّاً.

﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾:

«لولا» هنا بمعنى «هلّا» والمراد: لِمَ لم يُعَذِّبْنا الله على أعمالنا التي فيها محادّةٌ للرسول، لو أنّ محمّداً رسولُ الله حقّاً؟! أي: إنّهم يعتبرون عدم تعجيل الله معاقبتهم دليلاً على عدم صدق محمّد في ادّعائه أنّه رسول الله.

والله من سنته أن يُمْهِلَ وَيؤخِّر العذاب، على أن الدنيا هي في الأصل دار ابتلاء، وليست دار جزاء، وإذا نزل بعض العقاب فيها فللتّذكير والتّنبيه ومَوْعظةِ مَنْ لم ينزل به العذابُ بَعْدُ.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

أي: تكفيهم جهنّمُ بما تشتمل عليه من عذاب يوم الدين لَهُمْ ولِكُلِّ من يستحقُّ العذاب من أهل الكفر والعصيان، فهل يريدون عذاباً معجَّلاً أيضاً؟!

﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾:

الإِثْمُ: الذنب، وقد أُطْلِق في القرآن على الكبائر والصغائر وما بينهما.

والعُدْوان: الظُّلْمُ وتجاوز الحدّ المأذون به، وهو مصدر عَدَا عليه، بمعنى ظلمه، يَعْدُو عَدْواً، وعُدُوّاً، وعُدْواناً، وتَعْداءً.

وخُصَّت معصيةُ الرسول ﷺ بالذكر هنا لأنَّ المعْنِيِّينَ بالذكر كانوا يتقصَّدُون

معصيَة الرسول ﷺ على وجه الخصوص لنفاقهم، وكراهيتهم التي يبطنونها للرسول.

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰٓۖ﴾:

الْبِرُّ: هو التوسُّع في أعمال الخير من نوافل العبادات فَوْقَ حُدُودِ الواجبات.

والتقوىٰ: تكون بفعل الواجبات وتَرْكِ المحرّمات.

﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

أي: لِيَحْزُنَ الشيطانُ الّذين آمنوا. يقال لغة: حزَنَ الأَمْرُ فُلاناً يَحْزُنُهُ حُـزْناً، إذا أنزل به الْغَمَّ أو جَعَلَهُ يتألَّم على ما فات.

* * *

(٤)
مع النّصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٦﴾.

على الرغم من الذي حدث لرأس منافقي المدينـة عبد الله بن أُبَيّ بـن سلول وجماعته من المنـافقين، حين وصولهم إلى المـدينة، بعـد الانتهاء من غـزوة «بني المُصْطَلِق = الْمُرَيْسِيع» من إذلال وإهانـة وكبْتٍ، وكان قـد تبجّح بين جمـاعته من قومه بقوله: «لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ» فلم يـدخل هـو إلى المدينةِ إلّا ذليلاً، وبإذن من الرسول ﷺ، إذْ حبسه ابْنُهُ المؤمن الصـادق عند مكـان الدخول إليها حتّىٰ يأذن له الرسول ﷺ.

وعلى الرغم من نزول الآيات البيِّنات الواعظات في سـورة (المنافقـون) التي نزلت قبل سورة (المجادلة)، والتي فضحتهم، وأبانت أنهم كـاذبون، ولا يفقهـون، وفاسقون، ولا يعلمون، وجاء فيها التحذير منهم، وإشعارُهُمْ بأنّ الله يُقاتلهم، أي: يحبط ما يقومون به من حرْبٍ خفيّة مَكْرِيّة باردة.

على الرغم من كلّ ذلك بَقِيَ فريقٌ من المنافقين يُحادُّونَ اللّهَ ورَسُولَهُ، أي: يقفون في حدِّ مضادٍّ أو حُدُودٍ مضادّة لِحُدُودِ الله ورسوله، موقفَ المعادي المتربص للقتال، متى سنحت له الفرصة أن يقاتل.

لكنَّ الْمُنَافِقِينَ أَجْبَنُ مِنْ أَنْ يُقَاتلوا الرّسُولَ والّذِينَ آمَنُوا مَعَه، إنّ الرُّعْبَ الخالع لقلوبهم يجعلهم مكبوتين دواماً، أي: أذِلّاءَ مُخْزِيِّين، بما قضَى اللّهُ بشأْنِهِمْ مِنْ كَبْتٍ ملازم لَهُمْ لاَ يُفارِقهُمْ، مُنْذُ اضطرّتهم خلائقهم أن يسلكوا مَسْلَك النفاق، وهُمْ مُلاحَقُون بكَبْتِ اللّهِ لهم دواماً.

فقال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾:

أي: إنّ الذين اسْتَمَرُّوا يقفون مواقف العداء ضدّ دين الله وضدّ رسوله في السّرّ من المنافقين، هم قَوْمٌ قضَى اللّهُ بِشَأْنِهِمْ أنهم أذلاّءُ مخزيّون مَكْبُوتون جبناء، لا يستطيعون أن يقفوا مواقف حرْب علنيّة ضدّ الرسول والذين آمنوا معه، شأنهم في هذا كشأن ما حصل للذين من قبلهم في أعقاب غزوة بني الْمُصْطَلِق، من كَبْتٍ وإذلالٍ وخِزْيٍ، بعد الذي كانوا قد تبجّحُوا به في السّرّ.

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾:

أي: بشأن أولئك الذين كُبِتُوا من قبلهم، وهي الآيات التي أنزلَها الله في سورة (المنافقون).

وفي هذا إشارة إلى أنّ الذين استمرّوا يحادّون الله ورسوله لم يتعظوا بما حصل لإخوانهم في الواقع الذي كان قاسياً على نفوسهم وقلوبهم، ولا بالآيات البينات المنزّلات بشأنهم.

فلا يتصوّروا بعد هذا أنّ عقابهم سيقتصر على إذلالهم وإخزائهم في الحياة الدنيا، بل لهم أيضاً في الآخرة عذابٌ مُهِينٌ، فيه إذلالٌ وإخزاءٌ، إذا استَمرُّوا على نفاقهم، وماتوا كافرين، لأنَّهُمْ يَدْخلون ضمن عموم الكافرين، ويشْمَلُهم العذابُ المقرّر للكافرين المستكبرين عن طاعة الله واتّباع رسوله وطاعته، فقال تعالى:

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾:

أي: ولجميع الكافرين ومنهم المنافقون الذين يبطنون الكفر عذابٌ مُذِلٌ مخزٍ لَهُمْ، يَوْم يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جميعاً للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء بالعدل، الذي سبق الوعيد به، منذ يوم الابتلاء، فيَبْدأُ يومئذٍ حسابُهُمْ لفصل القضاء بشأنهم بإنبائِهِم بكلّ ما عَمِلُوا في الحياة الدّنيا.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾:

أي: فيُخْبِرُهُمُ الله عزّ وجلّ بكلّ ما كانوا قد عملوا في الحياة الدنيا، وهذا الإنْباء يكون عن طريق صُحُفِ أعمالهم، وعن طريق الملائكة المُوكَّلِينَ بهِمْ، وربّما بإنباء اللّهِ لهم بنفسه مباشرةً:

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾:

أي: حفظه بعلمه، وجَمَعَهُ جمعاً تامّاً لم يَدَعْ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ جمعها.

﴿وَنَسُوهُ﴾:

أي: ونَسُوا ما كانُوا قَدْ عَمِلُوا في الحياة الدُّنيا، لكنَّهُمْ حِينَما يُذَكَّرُونَ به يَتَذَكَّرُونه تَذَكُّراً تامّاً، بدليلِ قولِ الله عزّ وجل في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾:

أي: مَا عَمِلَ في الحياة الدُّنيا، وهذا تَذَكُّرٌ بَعْدَ نسيان، جمعاً بين النَّصَّيْن وإحصاءُ الله عزّ وجلّ لكلّ مَا عَمِلُوا هو جزئيّة من كُلّيَّةٍ عامّةٍ من كليّات صفات الله تبارك وتعالى، هذه الكليّة دلّ عليها قولُهُ تعالى:

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾:

أي: والله مُهَيْمِنٌ على كلّ شيءٍ في الوجود، دقيقاً كان أو جليلاً، وهو عليه

شهيد حاضر معه، مراقب له، عليم بدقائقه، مُدْرِكٌ لكلّ صفاته وأحواله وتغيّراته، لا يَنِدُّ عن علمه منه شيءٌ.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)﴾.

في هاتين الآيتين يُبيّنُ الله عزّ وجلّ مُنْكَرَيْن من مُنْكَرات المنافقين في السلوك:

المنكر الأول: تناجيهم في السِّرّ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وهذا التناجي قد يكون في خلواتهم، وقد يكون وَهُمْ في مجالس المسلمين، إلاّ أنهم يتهامسون فيما بينهم بما يريدون التحادُثَ به، وكان الله عزّ وجل قد نهى عن مثل هذا التناجي، وحذّر منه بقوله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾.

وقد سبق شرح هذه النجوى وهذه المشاقّة للرسول، في النصّ (١٧) من هذه الدراسة، ونلاحظ أنّ التعبير بعبارة: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرسول﴾ في سورة (النساء) نظير التعبير بعبارة: ﴿إنّ الذين يُحادّونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ﴾ في سورة (المجادلة).

ونلاحظ أن التناجي في السرّ بما لا خير فيه هو من مشاقّة الرسول التي حذَّر الله منها في سورة (النساء) وأنّ هذا التناجي أمْرٌ قد نهى الله عنه وحذّر تحذيراً شديداً من ممارسته، قد دلّ عليهما الإحالةُ عليه في سورة (المجادلة) بقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾:

وبهذا يتكامل النّصّان في البيان، ويدلّ اللّاحق على المراد من السابق إذا خفي على المتدبر فَهْمُ المراد منه، أو انْصَرَفَ ذِهْنُه لِأمْرٍ آخر.

وأُنَبِّهُ هُنا على أنّ المتدبّر الّذي لاَ يُلاَحظ ترتيب نزول النصوص القرآنية كما جاء في ترتيب النزول (وهو غير ترتيب سور القرآن المتّبع في المصحف) لا يستطيع إدْراكَ الإحالات القرآنية على ما سبق في النزول، ولا يستطيع معرفة التدرّج في الأحكام وأساليب التربية، وعمليات التكامل الفكري في الموضوعات، ولا معرفة الناسخ من المنسوخ إنْ وُجِد، وقد يعلّل نصّاً مكّيّ النزول بحادثة مدنيّة الوقوع على أنّها سبب لنزوله، إلى غير ذلك من أخطاء[1].

المنكر الثاني: تَحِيَّةُ المنافقين للرّسول إذا قدموا إليه تحيّةً مُنْكَرَةً، على خلاف التحيَّة التي حيّاه الله بها، وهي تحيَّةُ الإسلام، السّلام عليكم.

وإذا كان المنافقون يفعلون هذا مع الرّسول مع علمهم بفطانته العظيمة، الّتي تكشف مقاصدهم فيما يتلفظون به من لحن القول، فهم يفعلونه مع المؤمنين الذين قد لا يفطنون لما يفعلون ولما يقصدون من باب أولى.

ويغلب على الظنّ أنّ المنافقين تعلّموا من شياطينهم اليهود أن يُسْرعوا في لفظ «السلام عليكم» فيحذفوا اللاّم من «السلام»، فتكون التحية «السّام عليكم» والسّام في اللّغة هو الموت.

---

(١) انظر «القاعدة التاسعة» حول تتبّع مراحل التنزيل في كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف.

ذكر العوفي عن ابن عباس (كما جاء عند ابن كثير في تفسيره) في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾.

قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيّوْهُ: سَامٌ عليك.

وانصرف ذهن كثير من أهل التأويل إلى أنّ النصّ نزل بشأن اليهود علىٰ خلاف ما يدلّ عليه السِّبَاق والسِّيَاق، تأثُّراً بما صحّ من أنّ اليهود كانوا إذا جاؤوا إلى الرسول ﷺ قالوا له في التحيّة: «السّام عليك يا أبا القاسم» يُوهِمُون أنّهم يريدون السلام في ظاهر أمرهم، وهم يريدون الموت باطناً.

روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عليكم، فقل: عَلَيْكَ».

وروى مسلم أيضاً عن عائشة أم المؤمنين قالت: اسْتأذن رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ فقالُوا: السَّامُ عليكم، فقالت عائشة: بلْ عليكم السّامُ واللّعنة، فقال رسول الله ﷺ:

«يَا عَائشة، إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الرِّفْق في الأَمْرِ كُلِّهِ».

قالت: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا.

قال: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ».

وفي رواية عند مسلم أيضاً عن مسروق، عن عائشة قالت: أتى النبيَّ ﷺ أناسٌ من اليهود، فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسم، قال: «وَعَلَيْكُمْ» قالت عائشة: قُلْتُ: بل عليكم السّام والذّام، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لا تكوني فاحِشَة» فقالت: مَا سمعتَ ما قالوا؟ قال: «أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عليهم الّذِي قالُوا، قلتُ: وَعَلَيْكُمْ».

وفي رواية أنّ عائشة فطنت بهم فسبَّتْهم فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلاَ التَّفَحُّشَ».

وزاد الراوي في هذه الرواية، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاؤُوك حيَّوْكَ بما لم يُحيِّكَ به الله﴾. وهذه الزيادة ليست مما روي عن عائشة فيما يظهر، فلا يعتمد عليها في أنّ

النصّ نزل في اليهود، بـل نقول: إنّ المنـافقين الذين نـزل بشأنهم النصّ تعلّمـوا هذه التحيّة من اليهود، لأنّ المنـافقين هم المطلوب منهم بحسب ظـاهر انتمـائهم أن يُحَيُّوا الرّسولَ ﷺ بما حيّاه اللّهُ به، وهو لفظ السّلام.

ونجـد تحيّة الله بـالسّلام على رسـوله في قـولـه تعـالى في سـورة (الصـافـات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

وهـذه هي تحيّـة الله لعبـاده الصـالحين في الـدنيـا والآخـرة، وتحيّـة المـلائكـة للمؤمنين، وتحيّـة المؤمنين فيما بينهم، وقـد جـاء في القـرآن: ﴿فقُـلْ: سـلام عليكم ــ ونادوا أصحاب الجنّة أنْ سَلَامٌ عليكم ــ دعواهم فيها سبحـانك اللّهم وتحيَّتُهم فيهـا سلام ــ ولقد جاءت رُسُلنَا إبراهيم بالبشرىٰ قالـوا: سلاماً. قال: سـلام ــ سلام على نوح ــ سلام على إبراهيم ــ سلام على موسى وهَارون﴾ إلى غير ذلك من نصوص.

والسلام دعاء بالأمن، وتحيّة.

مع فقرات الآيتين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؟!:

الخطاب في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ موجّه لكلّ مَنْ يصْلُح للخطاب من الـذين يملكون رؤيـة فكرية علميّة.

فالمخاطب مفرد شائع، والخطاب على سبيـل الإفراد يقصـد منه أن يتحمّـل كلّ فرد مخاطَبٍ مسؤوليّتَهُ بصورة فردية.

والغرض من الاستفهام عن عدم الرؤية:

(١) تعليم غير العالم وحثُّهُ وَحَضُّه على التعلّم.

(٢) تنبيه الغافل وتذكيرُ الناسي.

(٣) توجيه العالم الذاكر لأن يهتم بالأمر المستفهم عنه ويعمل بمقتضى ما يعلم حوله.

ونتساءل: كيف يَعْلَمُ المخاطَبُ الصالحُ للخطاب أنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا في السماوات وَمَا في الأرض؟

أقول:

إذا كان المخاطَبُ من المؤمنين، فقد سبَقَ أنْ أعْلَمَهُ اللَّهُ في آيات منزّلاتٍ كثيرات هذه الحقيقة، حتى صارت معلومة لديه، بمثابة الأمر المعلوم بالرُّؤيَةِ البصريّة.

وإذا كان من غير المؤمنين، فإنّ باستطاعته أن يصل إلى هذه المعرفة، بأنْ يَنْظُر إلى إتقان حركات كلّ ما في السماوات وما في الأرض، التي تجري بغير اختيار المخلوقات المدركة المريدة، فإنّ تفكّره في ذلك يَهْدِيه إلى أنّها محتاجة حتماً إلى ربّ يُسَيِّرها ويُدَبِّر أمرها، ولا يملك ذلك إلاّ مَنْ لديه علم شامل بكلّ ما في السماوات وما في الأرض، وقدرةٌ على التصرف فيه، بالإحداث، والتغيير، والتحويل، والإيجاد، والإعدام.

والأمْرُ الموجّه له النظر هنا هو شمول العلم، وقد ذُكِرَتْ هذه الحقيقة الكلّيّة من حقائق صفاتِ الرّبّ جلّ وعَلا، تمهيداً لتذكير الذين يتناجَوْنَ من المنافقين بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، بأنّ الله عليمٌ بما يتناجون فيه، خبير به، لا تخفى عليه من أحوالهم خافية، لذلك جاء التعقيب على التذكير بهذه الكلّيّة بقوله تعالى:

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾:

﴿نَجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾:

إذا كانت «نجوىٰ» بمعنىٰ حدَثِ التناجي، فالتعبير هو من قبيل إضافة نجوى إلى ثلاثة، بمعنى نجوىٰ ثلاثة متناجين، والإضافة هذه هي على تقدير «مِنْ» أي: نجوى من ثلاثة أشخاص يتحادثون فيما بينهم سرّاً، أو على تقدير (اللام) أي: نجوى لثلاثة أشخاص فهي مختصة بهم.

وإذا كانت «نجوىٰ» بمعنىٰ أشخاصٍ يتناجون، فلفظ «ثلاثة» بدلٌ من «نجوى» أو عطف بيان.

﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ . . .﴾:

أي: إلاّ اللّهُ مَعَهُمْ يعلم ما يكون منهم من نجوىٰ وغيرها، والمعنى: ما يكون من أحوال متناجين إلاّ حالاتٌ يكونُ اللّهُ معهم فيها، ففي هذا حَصْرُ أحوالهم بأحوال وجود الله معهم.

﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾:

أي: مصاحب لهم بعلمه وكلّ صفاته المراقبة لهم.

واختير في البيان هنا التفصيل مع إمكان ذكر عبارةٍ عامّة مختصرةٍ، مثل: والله مع المتناجين أين ما كانوا، لبيان أنّ مؤامرات المكر تتألف في الغالب من أعداد أحادية: (ثلاثة ــ خمسة ــ سبعة ــ تسعة) ليكون بينهم صوت مُرَجّح عند الاختلاف في الرأي، وقد يحدث خلاف هذا، وهو يدخل في عموم:

﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾.

ويكون عندئذٍ صوت رأس المتناجين بصوتين.

﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾:

أي: في أيّ مكان كانوا فيه «أَيْنما» اسم شرط جازم، وهو يدلُّ على عموم الأمكنة، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، أي: أينما كانوا فالله معهم.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾:

أي: ليحاسبهم عليه، ويجازيهم، وقد دلّ هذا التعبير على أنّ التناجي الذي هو من قبيل القول ــ وقد يقتصر على مجرّد القول دون أن يتبعه أفعال وتطبيقات ــ يدخل في عموم العمل، إذ القول من عمل اللّسان، كما أنّ النيّات والإرادات من أعمال القلوب.

ولبيان دخول هذه الجزئيّة من علمه سبحانه وتعالى ضمن كليّة عامّةٍ من كليّات صفاته، وهي شمول علمه لكلّ شيء، قال عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

وهـذا من أسلوب القرآن، لترسيخ الإيمـان بالكلّيـات الاعتقاديّـة، في كثير من خواتيم الآيات، أو الموضوعات.

وبعد التمهيد بأن الله عزّ وجلّ عليم بنجوى المتناجين، والتذكيـر بأنّ هـذا العلم جزئيّةٌ من جزئيات شمول علمه الدّقيق لكل شيء، ذكـر النصُّ مَا يفعـل المنافقـون من التناجي بالإثم والعـدوان ومعصية الرسول، مُتَحَـدِّين النَّهْيَ الذي سبق أن أنـزل الله به قرآناً يُتْلَى في سورة (النساء)، وبدأ بالتذكير بهذا النهي السابق، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ؟!﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

أي: اعلم، أو تنبَّـهْ، أو احـذر، أو تَعَجَّبْ، بحسب حـال كـلّ فـرْدٍ يصلُحُ للخطاب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ؟﴾:

أي: ناظراً إلى، فالتعدية بحرف الجرّ ﴿إلى﴾ لتضمين فعل ﴿تَـرَى﴾ معنى فعل «تنظر» لتحمل العبـارة دلالَتَيْ الفعلين الرؤيـة العلمية والنـظر، وفي هذا إشـارة إلى أنّه ينبغي مراقبة المنافقين مراقبة بصريّة، لمعرفة ما يتناجون به مما يضُـرُّ الإسلام وجمـاعة المسلمين.

﴿الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾:

هُمُ المنافقون المتظاهرون بالإسلام، فقد سَبَقَ أَنْ نَهاهُمُ اللّهُ عن النجوى، كما ذكرنا آنفاً.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾:

أي: ثُمَّ يَعُـودُون لفعل مـا نُهوا عنـه، غير متَعـظين ولا مُبَالين، ويخبـر الله عنهم فيُبيِّن الكُلّيات التي يتناجون بها، فيقول تعالى:

﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾:

أي: إنّ ما يتسارُّون به في خلواتهم، وهمساتهم يدخل تحت واحدٍ من كليّاتٍ ثلاث:

الكليّة الأولى: الإِثْم، وهو يطلق على كلّ ذنب، من صغائر الذنوب حتّى كبائرها.

الكليّة الثانية: العدوان، وهو يطلق على الظلم، وتجاوز الحدّ المأذون به شرعاً، ويراد منه هنا العدوان على الإسلام والمكرُ به، والعدوان على المسلمين، وظلمهم، وإفساد أوضاع جماعة المؤمنين.

الكليّة الثالثة: معصية الرسول ﷺ، وتشمل هذه المعصية أوامر الرسول ﷺ الدينيّة، والإدارية بوصفه قائد الأمة الإسلاميّة، ومن أجل هذا خُصَّتْ معصية الرسول ﷺ بالذّكر.

وذكر النصّ كبيرةً أخرى من كبائر المنافقين، وهي ما جاء في قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾:

لقد تعلَّمُوا من اليهود أن يقولوا: سَامٌ عليك، كما رُوي عن ابن عباس، وهذه العبارة تنم عن كراهيتهم الشديدة للرسول، وعن غُلوّهم في الكفر، وتماديهم في النفاق، وعدم اتّعاظهم بالذلّ والخزي الذي أصاب رأس المنافقين في المدينة بعد غزوة بني المصْطَلِق.

أمّا تحيّة الله فهي السلام كما سبق البيان آنفاً.

ويتلاعبُ بهم الشيطان بالوساوس، فيستجيبون له، فيقولون في نفوسهم: لو كان ما نحن عليه من نفاق، وكفرٍ بمحمّد، وتناجٍ وشتيمة بعبارة التحيّة، عملاً يسخط الله علينا لعقابنا فعذّبنا، لكنّه لم يعاقبنا ولم يعذّبنا، مستبعدين عن تصوّرهم أنّ الله من سنّته أن يُمْهل ولا يعجّل لعباده العقاب، وأنّ الحياة الدنيا كلّها هي في الأصل مرحلةُ امتحان، لا مرحلة جزاء، وزادوا تمادياً في هذه الوساوس، حتى قالوا: هلاّ يُعَذِّبنا الله، لو كنا مذنبين حقّاً، كما يقول محمّد.

هذه مقولة يقولونها سرّاً في أنفسهم، كشفها الله عزّ وجل، وربّما كانوا يقولونها

أيضاً وهم يتناجون سرّاً، لأنّهم إذا تناجَوْا بها فيما بينهم فقد قالوها في أنفسهم، فقال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾:

أي: يقولون: هَلاَّ يُعَذِّبنا الله بما نقول. ﴿لَوْلَا﴾ هنا تحضيضيّة بمعنى «هلاّ». ولا نتصوّر أنّهم يستحثّون ربّهم أن يُنْزِل بهم العذاب، ولكنْ يَدُلُّون بهذا التعبير على أنّهم لا يفعلون شيئاً يستدعي أن يُنْزِلَ الله بهم العذاب، والسببُ في ذلك أنّهم لم يُؤْمنوا بأنّ محمّداً رسولُ الله، وبأنّ القرآن كتابٌ منزَّلٌ من عند الله، فمعنى كلامهم: هلاّ يُعَذِّبنا الله لَوْ كُنّا كافرين برسول الله وكتابه حقّاً، لكن محمّداً ليس رسولاً، وليس ما يتلوه كلاماً منزّلاً من عند الله.

وفي التعقيب على مقالتهم هذه التي قالوها في أنفسهم قال الله عزّ وجل:

﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨﴾:

أي: يكفيهم عذاب جَهَنَّم حالَةَ كونهم يَصْلَوْنَها. جَهَنَّم: اسْمُ علم لدار العذاب يوم الدين.

﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾:

أي: يحترقون بلهب النار التي تتوقد فيها، يقال لغة: صَلِيَ النارَ، وصَلِيَ بِها، يَصْلَىٰ صَلىً، وصِلِيًّا، أي: احترقَ فيها.

والمعنى: إذا كانت جهنم التي يحترقون بلهب النار فيها تكفيهم عذاباً على كفرهم ونفاقهم وشرورهم ومنكراتهم، أفيريدون فوقه عذاباً معجلاً آخر في الدنيا؟!

وهذا يتضمّن أنّ خطة الله في الجزاء أن يكون مؤجّلاً إلى يوم الدين.

﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

أي: فبئس المصير الذي سيصيرون إليه جهنّم، ويلزم من ذمّ المكان الذي سيصيرون إليه عقاباً لهم ذمُّهُمْ الشديد، لأنّهم بذنوبهم قد استحقوا هذا المصير الذميم، فالمكان الذميم بعدل الله يلائمُ نُزَلاءَه.

ونلاحظ أنّ هذا الوعيد يطابق الوعيد الذي سبق أن وجّه لهم في النص السابق الذي نزل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) إذ جاء فيه:

﴿ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾.

والمعنى: لا يستعجلوا عذاباً في الدنيا، حسْبُهم ما سبَق أن أوعدناهم به من حريقٍ في جهنم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

توبيخُ المنافقين على تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصيةِ الرَّسُول، ووعيدُهُمْ بالعذاب في جهنم، اسْتَدْعَيَا تَوْجِيهَ تكليفٍ حول الموضوع نفسه للذين آمَنُوا.

فنهاهم الله عزّ وجلّ عن أن يفعلوا في التناجي مثلما يفعل المنافقون، وأمرهم إذا تناجوا مُتَسَارِّين في الحديث أن يتناجَوْا ضمن إحدى كليَّتَيْن:

الكليَّةُ الأولى: الْبِرّ، وهو كلّ ما فيه توسُّع في فعلِ الخير، من نوافل العبادات وفعل الصالحات، زيادةً على فعل الواجبات وترك المحرّمات، ومن ذلك التناجي للإصلاح بين الناس، والجهاد في سبيل الله، ومساعدة ذوي الحاجات.

الكلّيَة الثانية: التقوىٰ، وهي الالتزام بفعل الواجبات وترك المحرّمات، ومن ذلك التناجي لجمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها، والتناجي لنُصْح مُسْلِمٍ عاصٍ لله، غير مقيمٍ لحدوده.

ولمّا كان تَرْكُ التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرّسول أمراً من مقتضيات كُلّيَةٍ عامَّة من كليّات منهج السّلوك الإسلاميّ للنّاجين، وجزئيَّةٌ من جزئيّاتها، كان مِنَ المناسب التذكيرُ بهذه الكليّة، لتأصيلها وتعميقها في نُفُوسِ المؤمنين، وهي تقوى الله

في كلّ حَركة وسكَنَةٍ، خاطب الله الذين آمنوا بقوله:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾.

﴿تُحْشَرُونَ﴾:

أيْ: تجمعون مَسُوقين، الحشر: السَّوْقُ والجمْعُ.

أي: واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، وهي فعل ما أوجب عليكم على قدر استطاعتكم، وتركُ ما حرّم عليكم، فمن صفاته عزّ وجلّ أنّه الذي إليه تُحْشَرُونَ يَوْمَ تبعثون إلى الحياة بعد الموت، لتحاسبوا على ما قدَّمْتم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا، وما أخَّرْتُم فلم تعملوه، من خير أو شرّ، ثم لتُجازَوْا عليه بالفضل، أو بالعدل.

ولمّا كان تناجي المنافقين فيما بينهم ممّا يُحْدِثُ قلقاً وضيقاً وغمّاً في صدور المؤمنين، وهُمْ مأمورونَ أن يكفُّوا أيديَهُمْ عن معاقبتهم وإنْزال نقمَتِهِمْ بِهِمْ، حتّى ينكشف من أمرهم ما يُدانُون به، الأمر الذي يُحْدِثُ حُزناً في صدور المؤمنين، كان من الحكمة التربوية والعلاجيَّة، أن يبيّنَ الله للذين آمنوا ثلاث قضايا:

القضيّة الأولى: أنّ هذه النجوىٰ التي يُمَارِسُها المنافقون هي من وساوس الشيطان لهم، لِيَحْزُنَ بها الَّذِين آمَنُوا، أي: ليلقي الشيطان في قلوب الذين آمنوا الحزن بسبب ما يفعل المنافقون من تناجٍ فيما بينهم بحضور المؤمنين، إذْ لَنْ يَنالَ المنافقون منها فائدةً ولا مغنماً، لأنّ الله مُحْبِطُ كَيْدَهُمْ ومُبْطِلٌ أعمالهم، ما دام المؤمنون على منهاج الله مستقيمين يَقِظِين حَذِرين، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

القضيّة الثانية: أنّ الشيطان ليس بضارّهم شيئاً إلّا بإذن الله، لا عن طريق النجوىٰ التي يَسْتدرج المنافقين إليها، ولا عن طريق غيرها، وإذْنُ الله بشيءٍ من ذلك لا يكون إلّا لحكمةٍ، للابتلاء، أو التَّنْبيه، أو التربية، أو العقوبة المعجّلة وتكفير السّيِّئات، أو الثواب ورفع الدرجات، وكلُّ ذلك خيرٌ لا شرّ فيه، فقال تعالى:

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

القضيّة الثالثة: أنّ المؤمنين مطالبون بأن يتوكّلوا على الله بعد أن يتّخذوا كامل الأسباب التي أمرهم الله بها، ليدفع عنهم الوساوس، ويشدّ فيهم العزائم، وينوّر بصيرتهم، ويكشف لهم أعداءهم، ويُحْبط لهم مكايدهم، فقال تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾.

● ● ●

النص الثامن والعشرون

وهو من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) أيضاً
«السورة (١٩) من التنزيل المدني»
الآيات من (١٤ ــ ٢٢)
حول اتخاذ المنافقين اليهود أولياء لهم
وتسترهم بالأيمان الكاذبة واستحواذ الشيطان عليهم

* قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً
فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ
أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَّا
تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾.

* * *

(١)

ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (٢١):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [وَرُسُلِي] بإسكان ياء المتكلم.

وقرأ المدنيان نافع وأبو جعفر، وابن عامر الشامي بفتح ياء المتكلم.

والقراءتان وجهان في اللّغة لنطق ياءِ المتكلّم.

* * *

(٢)

موضوع النصّ وما روي حوله من أسباب النزول

موضـوع النـص:

(١) تناول هذا النصّ بيان كبيرتين منكرتين من كبائر المنافقين الشنيعة:

الكبيـرة الأولى: اتّخاذهم اليهـود الذين غضب الله عليهم أوليـاء لهم من دون المؤمنين، ينصرونهم ويستنصرون بهم، ويوادّونهم، ويحادّون الله.

الكبيرة الثانية: حَلِفُهُم الأيمان على صِدْق ما يقولونه أمام الرسول أو المؤمنين إثبـاتاً أو نفيـاً، كتقديم عـذر كاذب على تخلّف عن واجب، أو ادّعـاء القيـام بعمـل لم يعملوه، أو إنكار عمل عملوه أو قولٍ قالوه، أو ادّعاء إيمـانٍ أو حبٍّ في قلوبهم، وقلوبُهُمْ كافرة كارهة، إلى غير ذلك.

فهم يجعلون حَلِف الأيمان ستراً يَقُون به أنفسهم أمام الرسول والمؤمنين، من انكشـاف نفاقهم وخيـاناتهم، وظهـور قبائحهم، وكبـائـرهـم التي يـرتكبـونهـا سـرّاً، ومكـايدهم التي يكيـدونها ضـدّ الإسلام والمسلمين، ومـوالاتهم أعداء الله ورسـوله الصرحاء من اليهود والمشركين.

وليأمنوا بالأَيْمان الكاذبة من العقاب، فيستمرّوا بـالنفاق صـادّين مُحْجمين عن اتّبـاع سبيل الله، وعـاملين سرّاً في صـرف غيرهم عن سلوكـه، من ضعفاء الإيمـان

الذين يستجيبون لهم، أو الكافرين الّذين يجدون لديهم ميلاً إلى الدخول في الإسلام.

(٢) وتناول النصّ أيضاً وعيد المنافقين بعذاب شديد مُهين.

(٣) وجاء في النصّ بيان أنّ المنافقين لن تغنيهم أموالهم ولا أولادهم، فلن تكون دافعةً عنهم من عذاب الله شيئاً، إذا أراد الله أن يُنْزِل بهم عقابه في الدنيا، بجائحة كونيّة من أمره، أو بمصيبة تنزل بهم على يَدِ رَسُوله وأَيْدي المؤمنين إذ يكشف من خياناتهم ما يستحقّون عليه العقاب في الدنيا.

(٤) وجاء في النصّ بيان أن صفة الكذب، وحَلِفِ الأيمان على ما يقولون من كذب إثباتاً أو نفياً، ستلازمهم، حتّى مَوْقف حسابهم بين يَدَي ربّهم يوم الدين، فيحلفون لله الأيمان الكاذبة على ما ينكرون أو ما يدّعون، رجاء أن تُنَجيهم أيمانُهم من عذاب الله، ظانّين أن أكاذيبهم وأيمانهم تنفعهم عند الله، كما استطاعوا أن يَسْتُروا بها أنفسهم في الدنيا.

لقد أمَرَ الله المؤمنين في الدنيا بأن يقبلوا من المنافقين ظاهرهم، إذا لم تثبت إدانتهم ببيّنةٍ شرعية، فلا يُعاقبوهم، ولكن ليس معنىٰ هذا أن لا يحذروهم، أوْ أن يتّخِذُوا منهم بطانة، أو أن يَثِقُوا بهِمْ في أمور السّلْم أو الحرب، فهذه أمور لم يأذن بها الله، بل هي من الغفلات، أو التقصيرات، أو الخيانات، التي يؤاخذ الله المؤمنين عليها، وينزل بهم البلايا والنكبات بسببها، لأنّها من التفريط بالحقوق والواجبات العامّة، التي تضر بالإسلام وجماعة المسلمين.

أمّا إنزال العقاب على الرّدّة أو الخيانة بالتهمة دون بيّنة شرعية فهذا هو الذي كفّ الله يد المؤمنين عنه في التعامل مع المنافقين.

(٥) وجاء في النصّ بيان أنّ المنافقين استحوذ عليهم الشيطان، أي: استولَىٰ عليهم استيلاءً كاملاً، وساقهم في السُّبُل الضالة على ما يريد، فهم حزب الشيطان ضمن صفوف المؤمنين.

(٦) وجاء في النصّ بيان أن الله سيجعلهم في الأذلين، جزاء أنّهم يحادّون الله ورسوله.

(٧) وجاء في النصّ بيان إحدىٰ سُنَن الله التي قضاها قضاءً مبرماً، وهي:

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾.

وما قضاه الله نافذ حتماً:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

(٨) وجاء في النصّ بيان الوصف الذي يتحلّى به المؤمنون، من أنّهم لا يُوادّون من حادّ الله ورسوله في أيّة حال من الأحوال، وبيان ما لهم عنده من تثبيت وتأييد وَأجْرٍ عظيم ورضا عنهم وإرْضاء لهم، على النقيض تماماً ممّا عليه المنافقون.

ما روي من سبب النزول:

(١) جاء عند ابن أبي حاتم والإمام أحمد وابن جرير والحاكم وصحّحه، وغيرهم عن ابن عباس: أنَّ النبيّ ﷺ كان في ظلّ حُجْرَةٍ من حُجَرِه، وعنده نَفَرٌ من المسلمين، قد كاد يَقْلِصُ عنهم الظلّ (أي: ينكمش وينضمّ) قال:

«إنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إنْسَانٌ يَنْظُرُ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ، فَإذَا أَتَاكُمْ فَلا تُكَلِّمُوهُ»، فجاء رجلٌ أزْرَقُ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلّمه فقال:

«عَلامَ تَشْتُمُني أنْتَ وفُلانٌ وفُلانٌ» نَفَرٌ دَعَاهُمُ (أي الرسول) بأسمائهم.

قال: فانطلق الرجل، فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، فأنزل الله عز وجل:

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

(٢) وذكر السُّدّي ومقاتل أنها نزلت في عبد الله بن أُبيّ، وعبْدِ الله بن نَبْتَل، كان أحدُهما وهو عبد الله بن نَبْتَل يجالس النبيَّ ﷺ، ويرفع أخباره إلى اليهود، ويسُبُّ النبيّ ﷺ، فإذا بلغ النبيَّ خَبَرُه، أو أطلعه الله عليه، جاء فاعتذر، وأقْسَمَ أنَّه ما فعل.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾:

أي: اتّخذُوهم أولياء لهم من دون المؤمنين، ينصرونهم، ويستنصرون بهم، ويوادّونهم، وينقلون لهم أخبار المسلمين، ويستشيرونهم، ويتآمرون معهم للإضرار بالإسلام والمسلمين.

﴿جُنَّةً﴾:

أي: سُتْرَة واقية، وكلُّ ما وقَى من سلاحٍ وغيره يُسمَّى جُنَّة.

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أي: فأحْجَمُوا عن سلوكه، وانصرفوا عنه سرّاً، وصَرَفوا غيرهم من الذين يتأثّرون بهم عن سلوكه.

فعل «صَدَّ» يُستعمل في اللّغة لازماً بمعنى أحجم وأعرض وتولّى مدبراً، ويُستعمَل متعدّياً بمعنى صرف غيره وحوّله، أو منعه وأغْراه بأن يعرض أو يدبر.

﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

أي: عذابٌ فيه إهانةٌ لهم وتحقير.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾:

أي: أولئك ملازموها ملازمةَ الصاحب لصاحبه، الصاحبُ الرّفيق الملازم. ويأتي بمعنى مالك الشيء، أو مستحقه، أو القائم على أمره، والأصل في المعنى: المرافقة والملازمة.

﴿خَالِدُونَ﴾:

باقون دواماً.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾:

أي: استولَى عليهم الشيطان، وغلَبَهُمْ على أمرهم، وساقهم كما يريد.

يقال لغة: حَاذَ الشيءَ، أي: حاطَهُ وغلبَ عليه. وحاذَ الدّوابَّ، أي: ساقها سَوْقاً عنيفاً، ومنه الحوذي، وهو الطارد المستحث على السّير دوابّه، وسائق العربة.

ويقال: اسْتَحْوذَ علىٰ الشيء، إذا استولى عليه، واستحوذ فُلانٌ على فُلانٍ، إذا غلبه. وقد يأتي هذا الفعل بمعنى: أحاط به وحفظه، ومنه: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عليكم﴾، كما سبق بيانه، في النص (١٨) من سورة (النساء).

﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾:

أي: الجماعة المتفقة فيما بينها على ما يريد منهم الشيطان، ويسوقهم إليه. ويأتي في مقابلهم حزبُ الله.

الحزبُ: الجماعة المتفقة المتناصرة على أمر، أو الجماعة الذين تشاكلت مبادئهم وأهواؤهم واتفقت أعمالهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾:

سبق بيانه في النص (٢٧) من سورة (المجادلة).

﴿فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾:

أي: في الأضعفين المهينين، جمع «أَذَلّ» أفعل تفضيل من «ذلّ» إذا ضعف وهان، يقال لغة: ذَلَّ يذِلُّ ذُلاًّ، وَذِلَّةً، ومَذَلَّةً.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾:

أي: وقواهم بقوة خفيّة منه، يُطْلَق لفظ «الروح» على القوّة غير المرئية، كما يطلق على ما تكون به الحياة، وعلى القرآن، والوحي، وغير ذلك.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قَوْلُ الله عزّ وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

استفهام موجّه لكل من يصلُح للخطاب من الذين يملكون رؤيةً فكريّةً علميّة شبيهة بالمشاهدة البصريّة، فعبارة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ هي على تقدير: ألم تر ناظراً إلى، وفق أسلوب التضمين الكثير في القرآن.

والغرض من الاستفهام عن عدم الرؤية هنا:

(١) الإعلام بما يفعل المنافقون والحث على التعلّم، بالنسبة إلى غير العالم.

(٢) التعجيب من أمرهم الشنيع، بالنسبة إلى كلّ فرد يصلح للخطاب.

(٣) التنبيه أو التذكير بالنسبة إلى الغافل أو الناسي.

(٤) توجيه العالم الذاكر أن يهتم بأمر المنافقين ويحذرهم.

(٥) إشعار المنافقين بأنّ كلّ أعمالهم معلومة لله عزّ وجل، مع الإلماح إلى إمكان فضحهم بأشخاصهم وأعيانهم.

والنصّ يتحدّث عن فريق من المنافقين اتّخذُوا من اليهود الذين غضب الله عليهم أولياء لهم من دون المؤمنين، يوادّونهم وينـاصرونهم ويستنصرون بهم، ويتآمرون معهم ضدّ الإسلام والمسلمين الصادقين، وينقلون لهم الأخبار، ويعملون بآرائهم، إلى غير ذلك ممّا يَدُلّ عليه فعل التولّي.

وحظّ اليهود من غضب الله هو الحظّ الأوفى من كلّ مَنْ غضب الله عليهم، حتى إذا ذُكرَ الذين غضب الله عليهم بالوصف غير مقيّد بقوم مذكورين، كان المتبادر من إطلاق الوصف أنّ المراد منهم اليهود، فمعظم النصوص القرآنية التي جاء فيها ذكر من غضب الله عليهم، يدل السياق أو السّباق على أنّ اليهود هُمُ المقصودون.

يضاف إلى هذا أنّ المنافقين في المدينة كانوا يُوالُون اليهود سرّاً، وقد

يصرّحون بموالاتهم لَهُمْ جهراً، كما فعل ابن سلول إبّان إجلاء يهود بني قينقاع، ثم إبّان إجلاء يهود بني النضير.

ودلّ على أنّ النص نزل في المنافقين قول الله فيه خطاباً للمؤمنين:

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

فهذا التعبير إنّما ينطبق على المنافقين، لأنّ اليهود ليسوا مظنّةً لأن يكونوا من المؤمنين، حتى يقول الله لهم: ﴿مَا هُمْ مِنْكُم﴾ بخلاف المنافقين، فظاهر حالهم أنّهم من المؤمنين، فجاء البيان كاشفاً لحقيقتهم.

ودلّ أيضاً على أنهم ليسوا من منافقي اليهود، بل من منافقي العرب المشركين، لأنّهم لو كانوا من منافقي اليهود لما قال الله: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾، فالمنافقون من اليهود هم من اليهود باطناً، فكان هذا البيانُ وصفاً محدّداً دالاًّ على أنهم من مشركي العرب المنافقين المتظاهرين بالإسلام، والمبطنين للشرك.

ولا يقتصر أمر هؤلاء على أنّهم يتّخذون اليهود الذين غضب الله عليهم أولياء سرّاً، بل يُضيفون إلى هذه الخيانة الْعُظْمَىٰ أنّهم يحلِفُون الأيمان لتوثيق الأقوال الكاذبة التي يقولونها افتراءً، إذْ هم يَعْلَمُونَ أنّها أقوال كاذبة يقولونها في إثبات قضايا أوْ نفي قضايا، فقال تعالى عطفاً على وصفهم السابق:

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: يَصنعُون الكذب، ويحلفونَ الأيمان عليه، للإغراء بتصديقه، فكأنّهم يغطّونَ رجْسَ الكذب بما للأيمان من قدسيّةٍ في قلوب المؤمنين، فيجعلون الأيمان أغطية على الكذب لِسَتْرِ كَوْنه كذباً، وخداع المؤمنين بأنّه صدق.

ولا بدّ أن يُلاحظ الأديب ما في هذا التعبير القرآني من إبداع في الفكرة، مع إيجازٍ في التعبير.

هاتان الخصلتان الذميمتان من خصال المنافقين تستحقّان توجيه وعيد خاصٍّ لهم بسببهما، فقال تعالى:

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

وهذا العذاب الشديد يذوقونه يوم الدين في جهنم دار عذاب الكافرين.

وإذا قيل يومئذٍ: لِمَ يُعَذَّبُونَ هذا العذاب الشديد؟ كان الجواب ما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: ومن ساء عمله في حياة الابتلاء، اشتدّ عذابُه السّيّىء في حياة الجزاء يوم الدين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات الثلاث من هذا النصّ يُبيّن الله عزّ وجلّ سَبْعَ قضايا تتعلّقُ بالمنافقين:

القضيّة الأولى: تتعلّق ببيان غرضهم من حَلِفهم الأيمانَ على الكذب، فقال تعالىٰ:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾:

أي: جعلوا أيمانَهُمْ سُتْرَةً يَسْتُرونَ بها نِفاقَهُمْ، ومنكراتهم، وخياناتهم، وموالاتِهِمْ للّذين غضب الله عليهم، وسائر أعمالهم التي تُعبّر عن هُوِيّتهم الحقيقيّة، وهو الكفر بالرسول، وبما جاء به عن ربّه، ولزومهم مواقع شركهم القديم في السّرّ.

الْجُنَّةُ: السُّتْرَةُ، وكُلُّ ما وقَىٰ مِنْ سلاحٍ وغيرِه، وسُمِّيَ التُّرْسُ مِجَنًّا لذلك.

إنّهم في موقع المحارب الجبان، الذي يُريد أن يقاتل، ولا يستطيع

المواجهة، فيستُرُ نفسه بما يُخْفِي تحرّكاته العدائيّة الكيديّة، وسِتَارَتُهم هي الكذب، والْحَلِفُ على الكذب.

القضيّة الثانية: تتعلّق ببيان صَدِّهِمْ عن سبيل اللّهِ، إذْ حَسِبُوا أنَّهُمْ أَمِنُوا بِسَتْرِ أنْفُسِهِمْ وتَحَرُّكاتِهِمُ الْمُرِيبة بأيمانهم التي يحلفونها على الكذب، فانْطَلَقُوا من وراء السّتر يَصُدُّونَ عن سبيل الله.

وصدُّهم عن سبيل الله له وجهان: لازمٌ، ومُتعدٍّ.

فالوجه اللاّزم: يكون بإحجامهم وانصرافهم عن سلوك سبيل الله ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً غير فاضِحٍ لهم.

والوجه المتعدّي: يكون بصرفٍ ومَنْعٍ من يتأثر بهم من ضعفاء الإيمان، أو الكافرين الذين لديهم مَيْل لأن يُسْلِمُوا، عن سلوك سبيل الله.

فقال تعالى:

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

القضيّة الثالثة: تتعلّق ببيان أنّ الله عزّ وجلّ قد قضى بأنّ للمنافقين عذاباً مُهيناً، مُرَتَّباً على حَلِفهم على الكذب، وصَدِّهِمْ عن سبيل الله، وأنّ هذا العذاب الْمُهِين مُعَدٌّ لَهُمْ ومُهَيّأٌ، فهم ينالونه بعد مفارقتهم عتبةَ حياة الابتلاء، ودخولهم عتبة يوم الجزاء، فقال تعالى:

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾.

وقد يكون هذا العذاب المهين عند موتهم، وفي مدّة البرزخ بين الموت والبعث، وفي يوم الحشر.

القضية الرابعة: تتعلّق بأمْرِ اعتمادهم في الدنيا على أموالهم وأولادهم، لدفع نقمة الرسول أو المؤمنين عنهم، إذا انكَشَفَ لهم أمْرُهُمْ، وظهرَتْ لهم خياناتهم، والْبَيَانُ القرآني يُثْبِتُ أنَّ الله قضى بأنّه لَنْ تغنيهم أَمْوالهم ولا أَوْلادُهم، فلا تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً، إذا أراد الله أن يُنْزِل بهم عقابه في الدنيا.

فإن أراد الله تعذيبهم بجوائح كونية من أمره فَلَنْ تُغْنِيَهُم أموالهم ولا أولادهم شيئاً، ولَنْ تدفع عنهم عذابه.

وإنْ سلّط الله رسولَه أو المؤمنين عليهم، وأغراهم بقتالهم فَلَنْ تُغْنِيَهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً، وسَيَنْصُرُ رسُولَهُ والذين آمنوا عليهم. وقَدْ حذّرهم الله عزّ وجلّ من هذا التسليط بقوله في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾.

وقد سبق شرح هذه الآيات في أواخر النص (١٣) من هذه الدراسة.

وفي بيان أنّ أموالهم وأولادهم لن تُغْنِيهم شيئاً، ولَنْ تَدْفَعَ عنهم عذاب اللّهِ، قال تعالى:

﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾:

أي: لَنْ تَكْفِيَهُمْ فَتَصْرِفَ عَنْهُم أموالُهم ولاَ أولاَدُهُمْ من عَذَابِ اللّهِ شيئاً.

أصْلُ معنَى «أغْنَاهُ» كَفَاهُ، والكفاية عند الحاجة إلى ما يدفع المكروه تتضمّن معنى الكفّ والصَّرْف، أي: كفاه فصَرَفَ عنه ما يكره، فَعُدّي فعل «أغنى» عند إرادة هذا المعنى تعدية فعل «كفّ أو صَرَفَ» وفق أسلوب التضمين، وقد استعمل العرب هذا التضمين في فعل «أغنى» فقالوا: أَغْنِ عَنّا شَرَّكَ، أي: اصْرِفْهُ وكُفَّهُ.

ورُوي أنّ عليّاً بعث إلى عثمان رضي الله عنهما بصحيفة، فقال عثمان للرسول: «أغْنِهَا عَنَّا» أي: اصْرِفْهَا عَنّا.

وجاء تكرير النفي في: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ للدّلالة على أن من المنافقين من لديه أموال فهو يستغني بأمواله ويرى أنّها تدفع عنه، ومنهم من لديه أولاد فهو يستغني بأولاده ويرى أنهم يدفعون عنه، ومنهم من لديه أموال وأولاد، فيأخُذُ كُلّ فريقٍ حظَّهُ الخاصّ من النفي، وأمّا من لديه أموال وأولادٌ معاً فيؤكَّدُ له النفيُ مرّتين، أحدهما مع الأموال، والآخر مع الأولاد.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ هو على تقدير مضاف محذوف يُفْهَمُ من القرينة، والكلام على تقدير: لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً.

القضيّة الخامسة: تتعلّق ببيان مصيرهم الأخير يوم الدين، فقال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك البعداء عن رحمة الله، والبعداء في جهة الدرك الأسفل، هم مستحقو النار وملازموها، وهم فيها خالِدُون.

القضية السادسة: أنّهم يوم يُبْعَثُون ويُوقَفُون للحساب، يَحْلِفون على الكذب بين يدي الله، كما كانوا يحْلِفُون للرّسول وللمؤمنين على الكذب في الحياة الدنيا، متوهمين أنّ هذا الخداع ينفَعُهم فيدفع عنهم عذاب الله، كما نفعهم في الدنيا، إذْ دفع عنهم انتقام الرسول والمؤمنين.

لكنّهم يجدون صحائفهم لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصتها، ويجدون شريط أعمالهم معروضاً بالصورة والصوت والنيات والخواطر وأحاديث النفس والقلب، ويجدون جوارحهم تشْهَدُ عليهم بما قدّمُوا، ويجدون أنّهم مفضوحون بالكذب، وأنّ العذاب نازل بهم لا محالة.

دلّ على هذه القضية قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

أي: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جميعاً لِيَوْم القيامة، فَيُحْشَرُون، فَيُساقون لمحكمة العدل الربّانية، فَيُسْأَلُون لِيُحَاسَبُوا عَلىٰ أعمالهم فَيَحْلِفُونَ عَلَىٰ الكَذِبِ، كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ اليوم أيها المؤمنون في الحياة الدنيا، ويَحْسَبُون أنّهم بقدرتهم على الكذب بألسنتهم، وسَتْرِ أكاذيبهمْ بما يحلفون من أيمان قابضُون أو مسيطرون على شيءٍ ينفَعُهم، فيدفَعُ عنهم عذاب الله.

هذا الكلام هو جزء جملة يتطلّبُ جزأها الآخر، وهو بمثابة المبتدأ الذي لم يأت بَعْدُ خبره، فأين جزءُ الجملة الآخر؟.

أقـول:

هو مطويٌّ يمكن إدراكه بأدنى تأمّل، ومعناه، لكنّهم يفتضحون، وتُقام عليهم البينـات التي لا يستطيعـون جُحودَهـا، وتشهد عليهم جـوارحهم، ويُدانـون بكفرهم وَنِفاقهم، وبما ارتكبوا من جرائم، ويُحكَمُ عليهم بالعذاب في النـار خالـدين فيها، ويظهر لهم أنهم ليسوا على شيءٍ يدفع عنهم أو يصرف عنهم عذاب الله.

لقـد ماتـوا وهم كذّابـون، حلاّفـون على الكذب، ويُبْعَثـونَ يوم القيـامة على ما ماتوا عليه كذّابين حلاّفين على الكذب.

روى الإمام مسلم وابن ماجه عن جابر، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْه».

القضيـة السابعـة: بيان أنّهم أكـذب الكـذّابين، حتّىٰ كـأنّ الكـذب منحصر فيهم، على معنى تفرّدهم باحتلال الدرَكة السُّفْلَىٰ من دركاتِ الكذِب، فقال تعـالى مستفتحاً بأداة التّنبيه:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

استُفيد الحصر من تعريف طرفي الإسنـاد، مع التـأكيد بضمير الفصل. أداة التعـريف هي هنـا للكمـال، أي: للدلالـة على أنّهم جمعـوا كـلّ أنـواع الكـذب، واستكملوا كلّ عناصره، وهذا الجمـع لا يوجـد عند غيـرهم، فهم أخسّ الكذّابين، لا يشاركهم في دركة هذه الخسّة أحد.

هذا الحصر لم يرد في القرآن إلّا ثلاث مرات:

الأولى: في سـورة (النّحل) في معـرض من يفـتري الكـــذب على الله، ولا يفتري الكذب على الله إلّا منافق.

والثانية: في سورة (النور) بشأن الذين جاءوا بالإفك، والذين جـاءوا بالإفـك ابتداءً هم المنافقون، ورأسهم ابْنُ سلول.

والثالثة: هذا الذي في سورة (المجادلة) وهو بشأن المنافقين.

فلا اختلاف في دلالات النصوص القرآنية حول حصر كمال الكذب في المنافقين.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

في هذه الآية بيان أربع قضايا بشأن المنافقين:

القضية الأولى: بيان أنّ الشيطان استحوذ عليهم، أي: استولَى عليهم، وغلب على أمرهم، وجعل إراداتهم طوع أوامره ونواهيه، وجعل أفكارهم ومفهوماتهم وتصوّراتهم في الحياة انعكاساً لوساوسه وتسويلاته، وساقَهم كما يسوق الحُوذِي الدوابّ سوقاً سريعاً عنيفاً، وكانوا ممّن صدّق عليهم إبليس ظنّه، إذ قال لربّه حين لعنه وطرده، وأهبطه وأخرجه من مواطن القرب مع الملائكة، مذءوماً مدحوراً، كما جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

أي: لأَسْتَميلَنَّهُمْ ولأَسْتَوْلِيَنَّ عليهم ولأسوقَنَّهُمْ كالدّوابّ منْ أحْناكهم.

﴿احْتَنَكَ الدابّةَ﴾: أي: وضع في حنكها الأسفل حبلاً يقودُها به. فالكفرة والمنافقون من بَني آدم جعَلَهُمْ إبليس كالبهائم من الدواب والأنعام، وساقَهُمْ كما يَسُوقُ الحوذي دوابَّه.

أمّا الذين استعصَوْا على إبليس فهم الذين حافظوا على تكريم الله لهم إذْ جعلهم في أحْسَن تَقْويم، ولم يستجيبوا للشيطان كما استجاب الذين ردّهم الله باستجابتهم له إلى أسْفَل سافلين، الذين هم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً، وقد دلّ على هذه القضية قول الله تعالى:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

القضيّة الثانية: وهي تأتي أثراً من آثار القضيـة الأولى، وهي ما حصـل لديهم من نسيان ذكر اللهِ تماماً، فمن استحوذ عليه الشيطان، وملأ ساحة فكره بما نثر فيها وزرع من وساوسه وتسـويلاتـه وشبهاتـه وضلالاتـه، وسقَى وتَعَهَّدَ بـالنَّماء، أَنْسَاهُ الشيـطان ذكر الله، فَهُـو لا يـذكـر الله حينما يتقلّب في نِعَمِه، ولا يـذكـر الله حين يتعرّض لبلائه ومصائبه، بل يَرَىٰ كلّ ذلك مصادفات من ظواهر الحركات الطبيعيّة، أو آثـاراً لأعمال يقـوم بها النـاس لا سلطان لقضاء الله وقـدره عليها، وإذا كـانت لـه مطالب سعَىٰ يتخذ الأسباب الماديّة لبلوغها دون أن يتحرّكَ قلْبُه بـالتّوكّـل على الله عند اتّخاذها، وحينما تَتَعَسَّرُ عليه يلْجَأ إلى الغيبيّات التي يؤمن بها المشركون، وهنا تتلاعَبُ به الشياطين، وإذا كان لا يذكُر الله عند هذه الأمـور فهو لا يَـذْكُرُ اللَّهَ خَتْمـاً ليحْمَدَه ويشكُرَهُ ويَعْبُدَه، وليفعل ما أمر بـه، ويترك مـا نهى عنه، وقـد دلّ على هذه القضية قول الله تعالى:

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾.

دلت «الفـاء» العاطفـة، علَى الترتيب مـع التعقيب، ودَلّت على السببيّة، ودلّ حـدوث النسيان على أنّـه أمر طـارىء عليهم بسبب استحواذ الشيـطان عليهم، ولم يكن من فطرتهم، ولا من أوائل رحلة امتحانهم قبل أن يستحـوذ عليهم الشيطان عن طريق الأهواء والشهوات والشُّبُهَاتِ والضلالات.

القضيّة الثالثة: وَهي تأتي أثراً من آثار اجتماع القضيتين الأولى والثانية، وهي أنّ المنافقين حينما يتـلاقَوْن على مبادىء ومفهومات وعقـائد وأنـواع سلوك في الحياة جرّهم الشيطان إلى سلوكها، فلا بدّ أنْ يتألّفَ منهم حِزْبٌ تشاكلت مبـادىء أفراده، وأهواؤهم، وتشابهت أعمالهم، ولمّا كان الشيطان هـو الذي يـوسوس بهـا ويسوّل، ويستدرج إلى سلوك سُبُلِها، فلا بُدَّ أن يكون الشيطان هو رئيسها وقائدهـا، فحِزْبُهُمْ هـو حزبُ الشيـطان، لأنّه هـو قائـده، ورئيسه، وواضـع برامجـه، وموجّـهُ أفـراده، وسائقهم سوق البهائم.

القضيـة الرابعـة: تتضَمَّنُ بيان عـاقبة هـذا الحزب الشيـطاني، وهي أنّـه هـو الحزبُ الوحيد الخاسِرُ لكلّ شيء، فكمالُ الخُسْران مُنْحَصِرٌ به، فقال تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

[أَلَا]: أداة استفتاح للتنبيه والتحذير.

[إِنَّ]: لتأكيد الخبر.

[هم]: ضمير فصل لتأكيد التأكيد، ولإفادة الحصر الذي يحصل بتعريف طرفَي الإسناد.

[الْخَاسِرُون]: أي: المستجمعون لخسارة كلِّ شيءٍ إذْ خَسِرُوا أنفسهم، ودفعوا بها إلى العذاب الأليم الخالد في دار العذاب. فهَلْ يوجد خُسْران أشدّ من هذا الخسران؟!.

أداة التعريف هنا لاستغراق أفراد جنس الخسران، فتحقّق بذلك القصر.

ولم يأت هذا القصر في القرآن إلَّا وصفاً للكافرين، والكافرون جميعاً على اختلاف مذاهبهم وأهوائهم وبرامجهم هم حزب الشيطان.

أمّا غير الكافرين فقد يخسَرُون خسارات مختلفات الدرجات لكنَّهُمْ لا يكونون هم الخاسرين لكلّ شيء.

وهكذا يظهر لنا الانسجام والاتفاق في دلالات العبارات القرآنية، ولو كان هذا الكتاب من عند غير الله لوجد الباحثون المنقّبون فيه اختلافاً كثيراً.

فالحمد لله الذي هدانا لهذا الكتاب، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

والحمد لله على توفيقه وفتحه في تدبّر آيات كتابه.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

سبق في صدر النصّ السابق (٢٧) من سورة (المجادلة) بيان أنّ المنافقين يحادّون الله ورسوله، أي: يقفون في حدٍّ معارض ومضادّ لحدّ الله ورسوله سرّاً،

ويتربَّصُونَ أنْ تَسْنَح لهم الفرصة ليكونوا مقاتلين للتخلّص من الإسلام والمسلمين قتالاً علنيّاً، فهم أعداء حقيقيون سرّاً، إلاّ أنهم جبناء.

فاقتضت الحكمة البيانيّة تَطْمِين الرّسول والذين آمنوا، وَوَعِيدَ المنافقين، بأنّهم سيكونون بسلطان القهر الرّبّاني في الضعفاء المخذولين الأذلين، فقال الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾.

هذه الجملة خبرُ ﴿إنَّ﴾ واسم الموصول وصِلَتُه اسْمُهَا، ومعنى: ﴿فِي الأذَلِّينَ﴾ أذِلّاءُ ضعفاءُ مخذولون في مَجْمَع الأذَلّين من الإنس والجنّ، فهم رُكْمَةٌ مِنْ رُكَامِ الأذَلّين المَغْلُوبين، ليسوا مؤهّلين لأن ينتصِروا، مهما اتّخذوا من وسائل وأسباب.

وليس هذا الخبر عنهم أمراً معتمداً على ظنون وأمارات، بل هو قضاءٌ بقَدَرٍ رَبَّاني، دلّ عليه قول اللّهِ تعالى:

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾.

قانون من قوانين الكون الربّانية، أو سُنَّة من سُنَنِ الله، قضاها وألْزَم الله بها نفسه، في ظروف الحياة الدنيا، حياة الابتلاء، قَبْل حياة الجزاء، هذه السنَّةُ هي:

﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾.

ويُلْحَقُ المؤمنون الصادقون بالرُّسل إذا التزموا منهج الله، ولم ينحرفوا عنه، أو يقصّروا بواجباتهم تجاهه.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾:

أي: سجّل الله كتابةً في اللوح المحفوظ، ثُمّ في الصُّحُفِ الّتي قد يُكْتَبُ فيها بعضُ ما فيه، كصُحُف الملائكة.

الكتابةُ تدوين لكلام يشتمل على علمٍ ما، وقد تَحْمِلُ الكتابة دلالَةَ الأمْرِ المكتوب، فإذا كان المكتوبُ يُعَبِّر عن قضاءِ اللّهِ وقَدَرِه، حمَلَ فعلُ ﴿كتَبَ﴾

معنى: «قضىٰ وَقَدَّر». وإذا كـان المكتـوب يُعَبِّر عن أمْـرٍ أو نَهْيٍ، حمَـلَ فعـل ﴿كتَبَ﴾ معنى: «أَمَرَ أو نَهىٰ» وإذا كان المكتوب يُعَبِّرُ عَنْ شيءٍ فرضه اللَّهُ على عباده، حمل فعـل ﴿كتَبَ﴾ معنى «فرض أو أوجب». وإذا كـان المكتوب يُعَبِّـر عن حقيقـة أزلية، كـان معنى ﴿كتب﴾ دَوَّنَ معلومـة من المعلومـات الأزليـة. وإذا كـان المكتـوبُ يُعَبِّر عن أمْـرٍ سيفعله العباد بـاختيـارهم الحرّ، كـان معنى ﴿كتب﴾ دوَّن معلومـةً من المعلومات التي يحيط بهـا عِلْمُ اللَّهِ عز وجلّ، ولَوْ كـانت ممّـا سيفعله العباد باختيـارهم الحرّ، وهـذه من خصائص شمـول العلم الرّباني لكلّ شيء، ولا يُقَـالُ في هـذه: قضىٰ وقـدّر، فمن فهم في هـذه معنىٰ «قَضَىٰ وَقَـدَّر» فقـد أسـاء، وأَفْسَدَ، ولم يتدبّر.

ولمّـا كانَتْ سُنَّةُ اللَّهِ في: ﴿لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ سُنَّـةً نافِـذَةً، وكان نَفَـاذُهـا مظهراً من مظاهر قُوَّةِ اللَّهِ وَعِزَّتِهِ الْغَالِبَة، وجزئيَّةً من جُزْئيَّـات صِفَةٍ كلّيَّـةٍ من صِفَاتِ اللَّهِ الْجَلِيلَةِ وهي أنّ اللَّهَ قَـوِيٌّ عَزِيـزٌ، أي: غالِبٌ لكـلّ القُوىٰ متىٰ شـاء، كان من الحكمة في البيان التذكير بهذه الكليّة الاعتقاديّة، لربط الفروع بـالأصول، ولتعميق الإيمان وتثبيته في قلوب المؤمنين، ولإقامة الحجّة على الكافرين المعانـدين، فقال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

عزيز: أي: ذو عزّة كاملة. العـزَّة: هي القدرة على التغلّب، تقـول العرب، عزّ إذا غلب، وفي المثل: (مَنْ عزّ بَزّ) أي: من غلبَ سَلَبَ.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

في مقابل ما عليه المنافقون من اتّخاذهم أعداء الله اليهودَ الذينَ غضب الله عليهم أَوْلياءَ من دون المؤمنين، كان من الحكمة البيانيّة توضيحُ الموْقف المتجدّد باستمرار للذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، حَوْلَ موضوع موالاة من حادّ الله ورسُولَهُ من أهل الكفر الصّرحاء والمنافقين.

وهذه الآية قد ختم الله بها سورة (المجادلة) موضحةً مَوْقف المؤمنين في موضوع الموالاة.

إنّها آية خطيرة جدّاً، تَدْمَغُ الَّذِين يُوادُّونَ مَنْ حادّ الله، موادّةَ مُوالاةٍ بنُصْرةٍ وَمَعُونَةٍ وَتأييدٍ ضدَّ الإسلام والمسلمين، بأنّهم لَوْ كانوا يُؤْمِنُون باللّهِ والْيَوْم الآخر لما فعلوا ذلك، إذْ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾:

أي: لا تَجِدُ أيّها الباحثُ الْمُنَقِّبُ الصّالِحُ للخطاب قَوْماً لهم كُتْلَةٌ أو جماعةٌ ما يُوادُّون مَنْ حَادّ الله ورسوله، وهم مع ذلك يؤمِنُون بالله واليوم الآخر.

إنّهم لو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لخافوا من عذاب الله الشديد الذي يجعلهم مع أوليائهم الكافرين في النار، إنّ هذه الموالاة للكافرين ضدّ المؤمنين خيانَةٌ عُظْمَىٰ تَقْذِفُ بالموالين إلى صفوف الكافرين الذين يحادّون الله ورسوله.

إنّ إنساناً لديه ذرّة من إيمانٍ وعقل لا يرتكبُ هذه الكبيرة العظمىٰ، فالآية لا تجعل هذه الموادّة إحدى المكفّرات، لكنّها تكشف أنّها تَدُلُّ على عدم وجود الإيمان بالله واليوم الآخر في القلْب بصورة صحيحة سليمة مقبولة عند الله، ففعلها بين المسلمين من خصائص المنافقين في الجملة.

أمّا ما فعل حاطب ابن أبي بلتعة فلم يكن مُوادّةً من هذا القبيل، مع أنّ ما فعله قد كان مَعْصِيةً كبيرة، إلاّ أنّه لم يكن عن نفاق، وكان مع ذلك بصورةٍ فرديّة، لحماية أَهْلِه، لا موادّةً لمن حادّ الله ورسوله.

ويدخُلُ في عموم هذا الكلام الذين يُوادُّون المنافقين، وهم يعلمون أنّهم منافقون، أو ظهرت في أقوالهم وتصرّفاتهم علامات النفاق.

ويتساءل المتدبّر لهذا البيان الخطير: ماذا يفعل المؤمنون بالله واليوم الآخر، مع آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم الأقربين من أهل الكفر، ألاَ يُوادّونَهُمْ؟

ويأتيه الجواب في هذه الآية، مع تتابُع فقراتها:

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

إنّ موادَّة الأقربين التي تستدرج إلى موالاتهم من دون المؤمنين، هي من مناصرة الكفر ضدّ الإيمان، والكافرين ضدّ المؤمنين، وهذه كبيرة لا يفعلها إلّا كافر صريحٌ أو منافق.

حسناً: فما هو حال المؤمنين الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله، ولو كانُوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم؟.

لقد اشتملت الآية على بيان ستّ قضايا عظيمة كريمة تتعلّق بهم:

القضيّة الأُولى: أنّ اللّهَ تَعالَىٰ كتب في قُلوبهم الإيمان، فقال عزّ وجل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾:

أي: أولئك رفيعو المنزلة عند الله وملائكته كتب الله في قلوبهم كَلِمَاتِ الإيمان، لتكون هذه الكلمات المكتوبات في قلوبهم شهادة من اللّهِ لَهُمْ بأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، ولمّا كان الإيمان محلُّهُ القلْب، كانت هذه الكلمات الشاهدات لهم بأنّهم مؤمنون، مكتوبة بأمر الله أو بفعله ضمن قلُوبهم، وهذه الشهادة الرّبانية في قلوبهم جواز دخولهم الجنة، وقد اعتادت الشعوب القديمة أن تكتب شعار قبيلتها على أجساد أفراد القبيلة، ويسمونه: «التوتم» وهو بمثابة الهوية.

وفي المقابل نجد في النصوص النبويّة أنّ الدجّال مكتوب على جبينه «كافر» شهادةً عليه بأنّه من أهل النار، ولا تبرز على جبينه ليقرأها المؤمنون، إلّا بعد أن كُتِبَتْ في قَلْبِهِ.

فالمؤمنون يحملون هُويتهم الربّانية في قلوبهم، وقد يحمل الكافرون في المقابل هوية كفرهم.

ولا أرى مقتضياً لتأويل هذه الكتابة، وحَمْلِها على معانٍ أخرى، كالْجَعْلِ، أو التثبيت، أو غير ذلك، فالأصل حمل اللفظ على ظاهره إلاّ عند التعذّر.

أقول:

وما يُكْتَبُ في القلوب يُقْرأ يوم القيامة كالذي يُقْرأ في الصحف، وقد يكون باستطاعة الملائكة الموكّلين بأعمال العباد أن يقرؤوهُ في الدنيا أيضاً. والله أعلم.

القضية الثانية: أنّ الله عزّ وجلّ يُؤَيِّدهم بروحٍ منه، أي: بقوةٍ معنوية، مقابل تخلّيهم عن الأقربين من أرحامهم وعشيرتهم الكافرين، والاستنصار بهم ومناصرتهم، فقال تعالى:

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾:

أي: وقوّاهم على الثبات في مواقف الإيمان وفي المعارك ضدّ الذين يحادّون الله ورسوله، بروحٍ منه، أي: بقوّة خفيّة غير منظورة.

وجاء التعبير بصيغة الفعل الماضي ﴿وَأَيَّدَهُمْ﴾ لبيان تَحقُّقِ وقوع هذا التأييد، في مجرى حياتهم، ومن جعله الله مؤيّداً منْهُ فتأييده له مستمرّ مدى حياته، ما دام على وصفه الذي أيّده من أجله.

القضيّة الثالثة: أنَّ اللَّهَ يُدْخِلُهُمْ يَوْمَ الدّين جنَّاتٍ تَجْري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فقال تعالى:

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

إنّها جنّاتٌ مُفصَّلات، ضمن جنَّةٍ عُظْمَىٰ جامِعَةٍ لَها، وكلُّ جنَّةٍ مِنْها تَجْري مِنْ تحتِ قُصورِ أصحابها فيها الأنهار التي جاء وصْفُها في القرآن.

فالله عزّ وجل يُدْخِلُ هؤلاء الذين كتب في قلوبهم الإيمان جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار حالة كونهم خالدين فيها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

حال من ضمير النصب في ﴿وَيُدْخِلُهم﴾ وهذه الحال يسمونها حالاً مُقَدَّرَة، لأنّ الخلود ليس مقارناً لدخولهم الجنّات.

القضية الرابعة: أنَّ اللَّهَ رَضِيَ عَنْهُمْ إذْ قدَّمُوا بإيمـانهم وعملهم ما يُرْضيه، وأَنَّهُمْ رَضُوا عن الله، إذْ أصابوا من عطاءاته العظيمـة، في جنّات النعيم مـا لم يكن يخطر على بالهم، فوق ما نالوا من تأييد ومجد وسعادة قبل ذلك. فقال تعالى:

﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾.

الرضا: هو الشعور بالارتياح والاكتفاء والقبول، وتحقيق المـطلوب، أو إدْراكُ ذلك في النفس.

القضيّة الخامسة: وهي تـأتي أثراً من آثار اجتمـاع المؤمنين على عقـائد ومبادىء ومفهومات وصراط ربّـانيّ واحد، فـلا بدّ أن يتـألف منهم حزبٌ واحـد، متّحد الوحدات الفكرية والنفسيّة والقلبية والسلوكية.

ولمّا كان الله هو الهادي إلى الإيمان، والمصطفي لعباده دين الإسلام، وكـان هذا الحزب هو الحزب المؤمن بما هدىٰ الله له، والعامل بما شـرع لعباده والسـالك صراطه الذي وضعه لهم، كان هو الجدير بأن يكون عنوانه «حزب الله» فقال تعالى:

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ﴾:

أي: أولئك ذَوُو المنزلـة العليّة والمقـام الرفيـع عند الله هم حِزْبُ الله، ومن كان من حزب الله جعله الله في كنفه، وأمَدَّه بمَدَدٍ من لدنه.

القضية السادسة: تتضمَّن بيان عاقبة حِزْبِ اللَّهِ، في مقابـل ما سبق من بيـان عاقبة حزب الشيطان، فقال تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢ ﴾.

أي: هم الفائزون الظافرون بكلّ ما يتمنَّوْنَ، وفَوْقَ ما يَتمنَّونَ.

ويقال في هذه الجملة ما سبق شرحه لدىٰ تحليل الجملة المقابلة:

﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝١٩ ﴾.

فلْيُرْجَعْ إليه، أو فلْيُلاحظْ هنا.

وانتهى النص

● ● ●

النصّ التاسع والعشرون

وهو من سورة (التحريم/٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول)

«السورة (٢١) من التنزيل المدني»

الآيـة (٩)

حول مجاهدة الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم

* قال الله عزّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾.

* * *

مع الآية في التحليل والتدبُّر

تحليـلات لفظيّـة:

صُدِّرَتْ الآية بخطاب النبـيّ بوصْفِهِ قائد الأمّة الإسلاميّة في حيـاته، لأنّـه هو المسؤول عن إصدار القرار بمجـاهدة الكفـار والمنافقين، والإغـلاظ عليهم، ضمن المستوى الجهاديّ الذي يراه.

ويُلْحَقُ بالنبـيّ كلّ قائد للأمّةِ الإسـلامية من المؤمنين المسلمين، لأنّ شـرائع الله لعبـاده شرائـع مستمرّة ولا تقتصـر على عصـر النبـيّ، فخلفـاء النبـيّ من بعـده وأمـراء المؤمنين مسؤولون عن تنفيـذ الأوامر المـوجّهة للنبـيّ من كـلّ مـا يعُمُّ أمـور المسلمين، أو يتعلق بحقوق الإدارة وواجباتها.

وقد علّمنا الله عزّ وجلّ في صـدر سورة (الـطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول)

أنَّ خطابه للنبيّ هو خطاب في الحقيقة لكلّ المؤمنين، لأن موضوع الطلاق الذي جاء فيه موضوع عام وليس من خصوصيات الرسول.

وكذلك في صدر سورة (التحريم) مع أنه نزل بمناسبة حادثةٍ جرت للنبيّ، إلاّ أنّ المضْمُون عامَ يشْمَلُ كلّ من يجري له مثل ما جرىٰ للنبي ﷺ.

﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

يقال لُغةً: جاهَدَ يُجَاهد مُجَاهَدة وجِهاداً، أي: بذل جَهْداً فيه معنى المغالبة أو المنافسة لمعارض يشارك ببذل الْجَهْدِ، مغالباً، أو منافساً، أو مقاوماً صادّاً.

هذا ما تدلُّ عليه الصيغة، وفي الجهاد على هذا المعنى يُبْذَلُ عادةً جَهْدٌ زائد، وقد يُطْلَقُ الجهاد ويُراد منْهُ مُجَرَّدُ بذْلِ الْجَهْدِ الزائد، ولو لم يكن في مُقابله مُشارِكٌ مُغَالبٌ أو منافسٌ أو مقاوم.

والجهادُ المستعمل في القرآن تعبيرٌ يدخُلُ في عُمُوم الْمَعْنَىٰ اللُّغوي بشكل عامّ، إلاّ أنّ له قيداً عامّاً، وهو أنْ يكون في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وقيوداً تفصيليّة لكلّ نوعٍ من أنواع الجهاد، وهذه القيود مبينة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفيما استنبطه علماء المسلمين وفقهاؤهم.

ومن استعراض النصوص القرآنية في الجهاد يتبيَّنُ لنا أنّ المراد من الجهاد في سبيل الله أن يبذل المؤمن المسلم في سبيل الله ممّا يَمْلِكُ مِنْ جَهْدٍ، أو طاقةٍ، أو مالٍ، أو فكر، أو علم، أو دعوة إلى الله، أو جدالٍ بالَّتي هي أحسن، أو أيّ شيءٍ ذي نفع، أو ذي تأثيرٍ ما، من أيّ شيءٍ يخُصُّه، أو من أيّ شيءٍ له عليه سُلْطةٌ ما، أو قدرةٌ على التصرّفِ فيه إذا كان مأذوناً بذلك شرعاً، لنصرة الإسلام والمسلمين بالحقّ.

ومجالات الجهاد كثيرة، منها:

- بذل طاقة الفكر، لنصرة دين الله بالحقّ.
- بذل المال لنصرة الإسلام والمسلمين.
- بذل قُدرات اللّسان في البيان النافع المؤثر للهدف نفسه.

- بذل قدرات الكتابة والتأليف، والنشر والتوزيع.
- بذل حركة الجسد، في المشي، والسعي، والسفر، والتنقل في الأرض.
- التضحية بمطالب النفس من شهوات ولذات وأهواء ونحو ذلك.
- إعداد المستطاع من القوّة للإرهاب، وكف العدوان القائم أو المحذور منه.
- القتال، والتضحية بالحياة حين تدعو الضرورة أو الحاجة الملحة لذلك، دفعاً لخطر قائم أو خطر مُتوقّع، أو لتأمين وصول دعوة الإسلام إلى الناس، وحماية الشعوب من الظلم، والعدوان، والفتنة في الدين.
- قول الحق مع الخوف من التنكيل عقاباً على قوله، من أدنى درجات التعذيب حتى القتل.
- القيام بأعمالٍ لخدمة الإسلام والمسلمين يتعرّض القائم بها لمصائب في ماله أو نفسه حتى بذل حياته، كالتجسّس ضمن صفوف الكافرين.

إلى غير ذلك من أمور، بشرط أن تكون مأذوناً بها شرعاً.

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

أي: كُنْ شديداً عليهم، فعاملهم بقَسْوةٍ وتعنيف، فقد تمادوا فيما هم فيه منذ أوائل العهد المدني ولم يرتدعوا بمختلف الأساليب الرفيقة، وقد مضى من العهد المدني قُرابة ثلثيه، ولم تجدِ معهم سياسة التغاضي، والتخويف بعذاب الآخرة، ثم التهديد بالإذن بمحاربتهم.

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾:

أي: منزلهم الذي سيصيرون إليه، ويقيمون فيه دواماً جهنم دار العذاب يوم الدين.

* * *

تدرج البيان الربّاني
حول معاملة المنافقين مع تدبر النصوص

نلاحظ أنّ التوجيه الرّبّاني في نجوم التنزيل القرآني الموجّه للرسول والمؤمنين حول معالجة المنافقين داخل المجتمع الإسلاميّ الأوّل، قد تدرّج على الوجْهِ التالي:

(١) ففي المرحلة الأولى وجّه الله عزّ وجلّ رسوله لعدم مقابلة أذاهم بالعقاب، ولأنّ يتوكّل على الله في كفّ أذاهم عنه، ويُلْحَقُ المؤمنون بالرّسول في هذا التوجيه، فقال الله عزّ وجلّ له في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) وهي رابع سور مدنية:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

ويظهر أنّ المراد من الكافرين في هذه الآية قسمٌ منهم لم يكن قد أذن الله بعْدُ بقتالهم، ولعلّهم من كفار اليهود في المدينة.

(٢) وَعَقِب ذلك وجّهَ الله عزّ وجلّ التحذير للمنافقين في سورة (الأحزاب) نفسها بقوله تعالى متحدّثاً عنهم بأسلوب الحديث عن الغائب:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾:

أي: لنُحرِّضنّك على مُلاحقتهم وتقتيلهم.

فالله عزّ وجلّ يُنذِر المنافقين في هذا النصّ بأنّهم إذا لم يَنْتَهوا ويكُفُّوا عن

أعمالهم، وحركاتهم العدائية الكيديّة السّرية للرسول والإسلام والمسلمين، فَسَيُسَلِّط الله رسوله والمؤمنين عليهم، ويُنْهي أسلوب التغاضي عنهم، والصَّبْرِ عليهم، والتسامحِ معهم، كما سلّط على أمثالهم من أهل الأمم السالفة فيما شرع لِرُسُلِهِ الماضين، من مُلاحَقَةٍ بالأخْذِ والتقتيل الشديد أيْنما وُجِدُوا.

فإذا تمادىٰ المنافقون في الرسالة الرّبّانيّة الخاتمة، معتبرين إمهالَهُمْ فرصةً سانحةً يكيدون خلالها كيدهم، ويتابعون فيها شرورهم وخبائثهم، فسينزل الله الإذن لرسوله بالبحث عنهم، وملاحقتهم، وتقتيلهم، أو يأمره بذلك.

وهذا الإشعار، مع بيان أنّ أخذهم وتقتيلَهُمْ قد كان من سُنَّة الله في الأمم السابقة يدُلّ على أنَّهُمْ إذا تفاقم أمْرهم، وصاروا خطراً حقيقيّاً ضمن المجتمع الإسلاميّ، فإنّ القيادة المؤمنة المسلمة مأذونة بتطبيق سُنَّةِ اللّهِ فيهم، بدليل قوله تعالى:

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

وقد قسّم الله المنافقين في هذا النصّ إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: المنافقون الذين ينطبق عليهم كلّ صفات المنافقين.

القسم الثاني: وهم الذين في قلوبهم مرض لم يبلغ مبلغ النفاق الأقصى، لكنهم يسيرون مع المنافقين، ويتحرّكون مثل تحرّكهم.

القسم الثالث: المرجفون، وهم الذين تظهر على ألسنتهم عبارات التخذيل، والإرجاف بأن المسلمين مهزومون.

الإرجاف: الإخبار بالأكاذيب، لإثارة الفتن والاضطرابات.

(٣) وبعد ذلك أمر الله رسوله بأن يحذّرهم، ويُلْحقُ بالرسول جميع المؤمنين ولا سيما الخلفاء والأمراء، فقال عزّ وجل بشأن المنافقين في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) السورة (١٨) من التنزيل المدني:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ

يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

فاشتملت هذه الآية على قضيّتَيْن مهمتين:

القضيّة الأولى: التحذيرُ منهم، والحذر منهم يقتضي مراقبتهم الشديدة، ومحاصرتهم بمن يَرْصُد حركاتهم، لأخذ من ينكشف منهم بالجرم المشهود.

القضيّة الثانية: التدخُّل الربّاني لمقاتلتهم لإحباط أعمالهم الكيديّة.

(٤) وبعد ذلك ألمح الله عزّ وجلّ إلى أنّ المنافقين يتوهَّمون أنّ أموالهم وأولادهم ستحميهم من نقمة الرسول والّذين آمنوا إذا انكشف حالُهم وظهرت خياناتهم، ومع هذا الإلْمَاح أبان الله عزّ وجلّ أنّ أموالهم وأولادهم لن تَصْرِفَ عنهم شيئاً من عذاب الله بأيدي أوليائه المؤمنين، فقال تعالى في سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) السورة (١٩) من التنزيل المدني:

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

وقد سبق شرح هذا النص.

(٥) وَلمَّا لَمْ يَكُفَّ المنافقون عن التمادي في خباثاتهم، وأعمال الكيد السّرّية الّتي لا بُدَّ أنْ يظهر شيءٌ منها بين حين وآخر، أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) السورة (٢١) من التنزيل المدني ولم ينزل بعدها من القرآن إلاّ سبع سور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾.

فجاء في هذا البيان الأمرُ بمجاهدة المنافقين والإغلاظِ عليهم، والأمر بمجاهدة الكفّار الذين سبق أن أمر الله رسوله بالصبر على أذاهم في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) ولعلّهم فريق من كفار اليهود في المدينة.

وجاء اللّفظُ عامّاً شاملاً لأنواع الجهاد، لإلقاء الرُّعْب في قلوب المنافقين،

بأنّ باستطاعة الرسول والذين آمنوا أن يُدْخلُوا في هذا العموم أعمال القتال، الّتي هي من مجالات الجهاد الكثيرة.

ولم يَأْتِ نصّاً صَريحاً بالقتال لئلاّ يُضْطَرَ الرسول والمؤمنون إلَى مباشرة البحث عن المنافقين وتقتيلهم، لكنّ النصّ صالح لأن يفهموا منه الإذن بقتالهم ضمن القيام بصور الجهاد الأخرى.

ومع الأمر بمجاهدتهم أبان الله عاقبتهم يوم القيامة فمأواهم جهنم وبئس المصير.



النصّ الثلاثون

وهو من سورة (الفتح / ٤٨ مصحف / ١١١ نزول)
«السورة (٢٥) من التنزيل المدني»
الآيات من (١ ـ ١٧)
حول أثر الفتح المبين الذي حصل في صلح الحديبية على نفوس المنافقين المخلّفين وموقفهم

* قول الله عزّ وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي
قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا (٤) لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ
وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ
فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

* * *

(١)

ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (٦):

(١) قرأ جُمْهُور القُرّاء العشرة [السَّوْء] بفتح السين.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو [السُّوء] بضمّ السّين.

القراءتان بمعنى سينزل بهم ما يكرهون ممّا يكون مؤلماً لهم ماديّاً أو معنويّاً.

* في الآية (٩):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [لتُؤمِنُوا بِاللّٰهِ ورَسُولِهِ وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ وتُسَبِّحُوهُ] بتاء الخطاب في الأفعالِ الأربعة.

وقرأ ابن كثير وأبو عَمْرٍو: بياء الغائب في الأفعال الأربعة.

وفي القراءتين تكامُلٌ في الأداءِ البياني، أمّا قراءة الجمهور فهي تُخاطِبُ الناس بعد خطاب الرسول وفق الأسلوب الذي يُسَمَّى عند البلاغيين «الالتفات» وأمّا القراءة الأخرى فهي تتابع خطاب الرّسول.

* في الآية (١٠):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة: [بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ] بكسر هاء الضمير وصلاً.

وقرأ حفْصٌ عن عاصم بضَمّ هاء الضمير من [عَلَيْهُ] وصلاً.

أما في الوقف فتسكُنُ عند الجميع وفق قاعدة الوقف.

والقراءتان لغتان عند العرب في نُطْق هاء الضمير.

(٢) قرأ نصف القراء العشرة: [فَسَيُؤْتيه] بياء الغائب.

وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وروح عن يعقوب [فَسَنُؤتيه] بنون المتكلم العظيم.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

* في الآية (١١):

(١) قَرأ جُمْهور القرّاء [ضَرًّا] بفتح الضاد.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر [ضُرًّا] بضم الضاد.

والقراءتان وجهان في نطق هذه الكلمة عند العرب، ضَرّ وضُرّ.

* في الآية (١٥):

(١) قرأ جمهور القراء: [كَلَامَ الله] «كلام» اسم جنس يقع علىٰ القليل والكثير.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر [كَلِمَ الله] «كَلِم» جمع كَلِمة، مثل: نَبِقَة ونَبِق، ويعرف مثل هذا الجمع باسم الجنس الجمعي الذي يفرق بينه وبين واحده بالتاء.

والقراءتان وجهان عربيان بمعنى واحد.

* في الآية (١٧):

(١) قرأ جمهور القرّاء [يُدْخِلْه ـ يُعَذِّبْهُ] بياء الغائب في الفعلين.

وقرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: [نُدْخِلْهُ ـ نُعَذِّبْهُ] بنون المتكلّم العظيم في الفعلين.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

* * *

(٢)
موضوع النص وما ورد من أسباب النزول حوله

(١) تدور سورة (الفتح) حول أحداث ونتائج صلح الحديبية، الذي كان في شهر ذي القعدة من سنة ست للهجرة، ونزلت السورة في طريق عودة الرسول والمسلمين إلى المدينة عقب صلح الحديبية، وقد مُنِع المسلمون من أداء عمرتهم في ذلك العام، فأحصروا فذبحوا هديهم، وتحلّلوا من إحرامهم محلّقين ومقصّرين، بعد أن أبرم الرسول ﷺ صلح الهدنة مع قريش، في قصة تُستوفىٰ إن شاء الله مع بيان سبب النزول.

(٢) وحظّ المنافقين من هذا النّص بيان ثلاث قضايا:

القضية الأولى: بيان أنّ صُلْح الحديبية وَعَوْدَةَ الرسول والمسلمين ممكنين من نشر الإسلام بين أكبر خصومهم وهم مشركو مكة، قد طَعَن آمال المنافقين في العمق، أو ذبحها ذبحاً، فكان ذلك مؤلماً لقُلُوبِهِمْ ونفوسهم، ومعذِّباً لهم تَعْذِيباً أشدّ عليهم من كُلّ ما أصابهم سابقاً من خيبة آمال.

القضية الثانية: بيان أنّ المنافقين من الأعراب وهم من قبائل بدويّة حول المدينة، قد دُعُوا إلى الخروج مع الرسول لأداء العمرة، فلم يخرجوا، ظانّين أنّ الرسول والمسلمين لن يَعُودوا سالمين من سفرهم ذلك، لأنّ أهل مكة سيُبيدونهم

إبادة تامة، فالمسلمون قلّة، وقد خرجوا بسلاح خفيف معتمرين، والمشركون سينتهزونها فُرصةً لاستئصال خضرائهم.

وقد أخبر الله بأنّ هؤلاء المنافقين المخلّفين من الأعراب سيعتذرون عند عودة الرسول والمسلمين إلى المدينة قائلين للرسول وهم يكذبون: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا.

وكشف الله عزّ وجلّ سبب تخلّفهم الحقيقي، وهو نفاقهم، وظَنُّهم أنّ المسلمين سيُقْضَىٰ عليهم، وسَتُسْتَأْصَلُ شأفَتُهُمْ.

القضيّة الثالثة: بيانُ أنّ المخَلّفين عن الخروج مع الرسول ﷺ لأداء العمرة عام الحديبيّة، سيقولون حين يعلمون أنّ المؤمنين خارجون لغزو قومٍ ليسوا ذوي بأسٍ شديد ومن السهل الظفر بمغانم كثيرة لديهم: ذَرُونَا نتبِعْكُمْ، يبتغون المشاركة في الغنائم المطموع بتواردها وتكاثرها في الانتصارات والفتوحات، دون أن يكونوا قد شاركوا في أيّام الشدائد، حين كانوا يظنّون أنّ المسلمين قلّة، غير مؤهلين للانتصار على أعدائهم، أهل القوّة والبأسِ يَوْمئذٍ، فإذا منعوهم من الخروج معهم، من أجل نفاقهم وسابق تخلّفهم أيّام الشدائد وتوقّعهم هزائم المسلمين المنكرة قالوا لهم: إنّكم تمنعوننا من مشاركتكم لأنّكم تَحْسُدوننا حين نأخذ معكم من الغنائم، إذْ تُريدون أن تكون لكم وحْدَكم لا نُشاركَكم فيها.

وجاء في التعقيب على هذا توجيه الرسول أن يقول لهم ما معناه: هذه الأماكن القريبة في الحجاز قد أصبحت سهلة المنال ويكفي مسلمو المدينة للسيطرة عليها، والتخلّص من سلطان أعداء الإسلام والمسلمين فيها، ولكن ستأتي بعدها خطوة أعظم، تمتدّ حركة الجهاد والفتح فيها إلى دوائر أخرى وراء دائرة الحجاز، دوائر في جزيرة العرب، ودوائر خارج جزيرة العرب، وفي بعض هذه الدوائر قوم أهل بأسٍ شديد، وعندئذٍ سيُحتاج إلى خروجكم مقاتلين فاتحين، مع جيوش المؤمنين المسلمين، وسَتُدْعَوْن إلى مواجهة هؤلاء القوم، فإن أطعتم يومئذٍ وخرجتم صادقين معدّين أنفسكم لنيل الشهادة في سبيل الله، لا لمجرّد الظفر بالغنائم التي ترون الحصول عليها أمراً سهلاً، يُؤْتِكُمْ الله أجراً حسناً عنده، مع ما قد تنالونه من

غنائم. وإنْ توليتم مدبرين مبتعدين، كما تولّيْتُم من قَبْلُ حين كنتم تظنّون أنّ مواجهة المؤمنين لأعدائهم مواجهةٌ خاسرة حتماً، فأنتم منافقون، طالبو مغانم، ولستم طالبين رضوان الله ونشر دينه، والمنافِقُ له عذابٌ عند الله أليم يستحقه وينالُه، وكذلك العاصي أمر الرسول، أو أمر أمير المؤمنين الداعي إلى القتال في سبيل الله بإلزام لا بندب.

(٣) وجاء في النصّ بيان مِنّةِ الله على المؤمنين، وإشارات إلى بدْءِ انتهاء دور رسول الله ﷺ في الحياة الدنيا، بتحقيق الفتح المبين، وإلى قُرْب إكمال إنْزال ما لم ينزل بَعْدُ من نِعْمةِ الله في هذا الدين.

(٤) وجاء في النصّ الثناء على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله في الحديبية، وأنّ الله بارك بيعتهم، فجعل يَدَهُ فوق أيديهم، فهم مطالبون بالوفاء بعهدهم وعدم الإخلال به ونكثه.

* * *

ما ورد من أسباب النزول

(١) اتّفق الرّواة على أنّ سورة (الفتح) نزلت في طريق رجوع الرسول ﷺ من الحديبية، في شهر ذي القعدة، من سنة ستّ من الهجرة، حين صدّه مشركو مكة عن الوصول إلى المسجد الحرام ومعه المسلمون المعتمرون، ليقضوا عمرتهم فيه، وحالوا بينهم وبين ذلك، ثمّ بعد مفاوضات قبلوا المصالحة والمهادنة، وأن يرجع الرسول والمسلمون معه عامَهُم هذا، ثم يأتي ومعه المسلمون في السنة القادمة إن شاء، وتمّ الصلح على هذا، وبنود أخرى، وتحلّل الرسول والمسلمون من عمرتهم تحلّل الْمُحصَرِين، بعد أن ذبحوا هدْيَهم، وكان هذا التحلّل أمراً صعباً على كثير من أصحاب الرسول، إلاّ أن إرادة الله الحكيمة شاءت ذلِكَ، وبينما هم قافلون متجهين للمدينة، أنزل الله على رسوله سورة (الفتح) بمَوْضع يقال له (كُرَاعُ الْغَمِيم)[1].

---

(١) كُرَاعُ الْغَمِيم: موضع بين مكة والمدينة، وهو وادٍ أمام عُسْفَان بثمانية أميال أقرب إلى مكة، أي: بينه وبين عُسْفان نحو (١٣)ك م.

وقد نـزلت بمناسبـة الأحـداث التي رافقت أو سبقت أو جـاءت بعـد صُلح الحديبية.

(٢) رأى رسـول الله ﷺ رؤيا تـأْويلها أنّ الـرَّسُولَ ومعـه أصحابـه سيـدخلون المسجد الحرام زائرين معظمين البيت الحرام، ودعا الرسول المسلمين أن يخرجوا معه لأداء العمرة، ودعا من حول المدينة من الأعراب ليخرجوا معه معتمـرين، لكي تطمئن قريش أنّ الرسول جاء معتمراً ولا يُريد حرباً، فاستجاب له بعضهم، وتخلّف الكثيرون.

وخـرج مع الـرسول ﷺ قُـرابة ألف وخمسمـائـة، معتمرين من المهـاجـرين والأنصار ومن لَحِقَ بهم من الأعراب، وساق الرسول معه الهدي سبعين بعيراً إيـذاناً بأنّه لم يُرِدْ حَرباً، وإنما خرج معتمراً زائراً للبيت ومعظماً له.

وسار الرسولُ بالركب المعتمرين في اتّجاه مكة، ولمّا بلغ «عُسْفَان»[1] لقِيَهُ بِشْرُ بن سفيان الكعبي، فأخبره أنّ قـريشاً سمعت بمسيـره، فخرجـوا ومعهم النساء والأولاد، قـد لبسوا جلود النمـور، ونزلـوا بذي طُـوىً (مكان هـو الآن داخل مكـة) يعـاهدون الله لا تـدخُلها عليهم أبـداً، وهذا خـالد بن الـوليد في خَيْلِهِمْ قَـدِمُوا إِلَىٰ كُرَاعِ الْغَمِيم.

فقال رسول الله ﷺ:

«يَـا وَيْحَ قُـرَيْشٍ قَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَـرْبُ، مَـاذَا عَلَيْهِمْ لَـوْ خَلُّوا بَيْنِي وبَيْنَ سَـائِـرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَـابُونِي كَـانَ ذَلِكَ الَّـذِي أرادوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّة، فَمَا تَظُنُّ قُـرَيش؟! فَوَاللَّهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَىٰ هٰذَا الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هٰذِهِ السَّالِفَة»[2].

وتفادى الرسول الاصطدام بخيل المشركين، فقال:

---

(١) عُسْفان: قرية بينها وبين مكة مرحلتان، أي: مسير يومين.

(٢) السَّالِفَة: جانب العنق، وانفراد السالفة يعني انفصالها عن الجسم، أي: حتى أقتل.

«مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَىٰ طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا؟» فقَالَ رَجُلٌ مِنْ «أَسْلَمَ»[1]: أنا يا رسول الله.

فسلك بهم طريقاً وعراً كثير الحجارة بين شعاب، فلمّا خرجوا منه، وقد شقّ عبوره على المسلمين، وأفضَوْا إلى أرضٍ سهلةٍ عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ للناس:

«قُولُوا: نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ونَتُوبُ إِلَيْه».

فقالوا ذلك، فقال:

«وَاللَّهِ إِنَّهَا لَلْحِطَّةُ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَقُولُوها».

ولمّا رأت خيل قريش أنّ المسلمين سلكوا طريقاً آخر، رجعوا مسرعين إلى قريش.

وسلك المسلمون في اتّجاه الحديبية من أسفل مكة، فلمّا وَصَلُوا قُرْبَ الحُدَيبية، بركتْ ناقة رسول الله ﷺ.

فقال الناس: خَلأتِ الناقة (أي: عَرَضَ لها مثلُ ما يعرض للدواب من جِرَان).

قال رسول الله: «مَا خَلأَتْ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّة، لاَ تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَىٰ خُطَّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

ثمّ قال للنّاس: «انْزِلُوا».

قيل: يا رسول الله، ما بالوادي مَاءٌ ننزل عليه، فأَخْرَجَ سَهْماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب، من تلك القُلُب، فغرزه في جوفه، فتدفّق بالماء العذب الكثير، فشرب المسلمون وسَقَوْا دَوَابَّهُمْ وارْتَوَوْا جميعاً.

---

(1) أَسْلَم: بطن من خُزاعة، من قراهم «وَبْرَة» قرية ذات نخيل من أعراض المدينة، أي: من القرى التابعة للمدينة.

ورُوي عن جابر رضي الله عنه أنه قـال: «لَوْ كُنَّـا مئة أَلْفٍ لَكَفَـانَا» وهـذا من معجزات الرسول ﷺ الّتي أكرمه الله بها.

فلمّا اطمأنّ المسلمون في المنزل الذي نزلـوا فيه عنـد الحديبيـة، أقبلت إليه الوفود:

ـ أَتَاهُ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُـزَاعِي فِي رِجَالٍ مِنْ خُـزَاعَة، فَكَلَّمُـوهُ، وسَأَلُـوهُ: مَا الَّذِي جَاءَ به؟.

فأخبرَهم أنّه لم يأتِ يُريدُ حرباً، وإنّما جاءَ زائراً للبيت، ومُعَظِّماً لحرمته.

فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشـر قريشٍ إنَّكُمْ تَعْجَلُونَ على محمّـد، إنَّ محمّداً لم يأتِ لقتال، وإنّما جاء زائراً هذا البيت.

فاتَّهَمُوهُمْ وَخَـاطَبُوهُمْ بمـا يكرهـون، وقالـوا: وإنْ كانَ جـاء ولا يريـد قتالاً، فوالله لا يَدْخُلُهَا علينا عَنْوَةً أبداً، وَلاَ يَتحدَّثُ بذلكَ عَنَّا العرب.

وكانت خزاعة ذاتَ ولاءٍ لرسول الله ﷺ مُسْلمها ومُشركها، لا يُخفونَ عنْهُ شيئاً كان بمكة.

ـ ثم بعثت قـريش إلى الـرسـول «مِكْـرَزَ بْنَ حَفْصِ بن الأَخْيف» فَلَمَّـا رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: «هَذا رَجُلٌ غَادِرٌ».

فلمّـا انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلّمـه، قـال لـه الـرسـول مثـل الـذي قـالـه لِبُدَيلِ بن ورقاء وأصحابه.

فرجع إلى قريش، فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ.

ـ ثم بَعثَتْ قـريش إلى الـرسـول «الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَـة، أو ابن زبّـان» وكـان يومئذٍ سَيِّد الأحَابيش(١)، فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ هَذا مِنْ قَوْمٍ يتألَّهُونَ (أي: يَتعبَّدون ويُعَظمُـون أمر الإلـه) فابْعَثُـوا الْهَدْيَ

(١) أحابيش قريش: جماعة من قريش، وكنانة وخزاعة، اجتمعوا عند حُبْشِي، وهو جبل بأسفل مكة، وتحالفوا.

فِي وَجْهِهِ حتّىٰ يَراهُ».

فلما رأىٰ «الْحُلَيْسُ» الهدْيَ يَسِيلُ عليه من جانب الوادي في قلائده[1]، وقد أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحِلّه[2]، رجَعَ إلى قريش، ولم يصل إلى الرسول إعظاماً لما رأىٰ، فأنبأهم عمّا رأىٰ.

فقالت قريشٌ له: اجلس، فإنّما أنت أعرابيٌّ لا عِلْمَ لك. فغضب الْحُلَيْس، وقال: يا مَعْشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولاَ على هذا عاقدناكم، أيُصَدُّ عن بيْتِ الله من جاء معظّماً له؟! والذي نَفْسُ الْحُلَيْسِ بيده، لَتُخَلُّنَّ بين محمّد وبين ما جاء له، أو لأَنْفِرَنَّ بالأَحابيشِ نَفْرَةَ رجُلٍ واحد.

فقالت قريش له: مَهْ، كُفَّ عنّا يا حُلَيْس، حتّىٰ نَأْخُذَ لأنفسِنا مَا نَرْضَىٰ به.

ـ ثم بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ «عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثقفي» فقال: يا معشر قريش، إنّي قَدْ رأيْتُ ما يَلْقَىٰ منْكُمْ مَنْ بَعَثْتُمُوهُ إلى محمّد إذْ جاءكم، مِنَ التعنيف وسُوء اللّفظ، وقد عرفتم أنّكُمْ والد (أي: بمثابة الوالد لي) وإنّي ولد، وقد سَمِعْتُ بالّذي نابكُمْ، فجمعتُ من أطاعني من قومي، ثم جئتكم حتّىٰ آسَيْتُكُمْ بِنَفْسي (أي: جعلتكم مثلَ نفسي فشاركتكُمْ في الأمْر).

قالوا: صدَقْتَ، ما أنْتَ عندنا بمُتَّهَم.

فخرج «عُرْوَةُ بن مَسْعُودٍ الثقفي» حتّىٰ أتى رسول الله ﷺ، فجلَس بين يديه، ثمُّ قال: يا محمّد، اجْمَعْتَ أَوْشابَ الناس (أي: أخلاط الناس) ثُمَّ جئْتَ بهم إلى بَيْضَتِك[3] لِتَفُضَّها بهم. إنّها قُرَيْشٌ قد خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُوذُ المطافيل[4]. قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النُّمورِ، يُعاهدون الله لاَ تَدْخُلُها عليهم عَنْوةً أبداً، وايمُ الله، لكأنّي بهؤلاءِ قَدِ انْكَشَفُوا عنْكَ غداً.

---

(١) القلائد: ما يعلّق في أعناق الهدي، إشعاراً بأنه هدي.

(٢) مَحِلّه: أي: الموضع الذي يُنْحَرُ فيه هدياً بالغ الكعبة.

(٣) بيضة الشيء أصله، وبيضة القوم: حوزتهم وحماهم.

(٤) عبارة يستعملها العرب كناية عن إخراج النساء والأولاد معهم، العوذ من الإبل ما كان حديث النتاج، والمطافيل التي معها أولادها جمع مُطْفِل.

وكان أبو بكر الصدّيق جالساً خلف رسول الله ﷺ، فقال له: امْصُصْ بظر اللاّت، أَنَحْنُ ننكشفُ عنه؟!

قال: مَنْ هذا يا محمّد.

قال: هذا ابن أبـي قُحَافة.

قال: أما والله، لَوْلاَ يَدٌ كانت لَكَ عِنْدِي، لكافأْتُكَ بها، ولكن هذه بها.

وجعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة يَقْرَعُ يَدَهُ كلّما تناول لحية الرسول يقول له: اكفف يدك عن وجْهِ رسول الله قبل أن لا تصلَ إليك، وكان المغيرة واقفاً في الحديد (أي: بلباس الحرب) فلم يعرفه عُروةُ لأن وجهه مستور بالزرد.

وكان عروة يقول له: ويْحكَ، ما أفظّكَ وأغْلَظَكَ!

فتبسّم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمّد؟ قال: هذا ابْنُ أخيكَ المغيرةُ بن شُعْبَة (وكان المغيرة من ثقيف من أقرباء عروة). قال عروة للمغيرة: أي: غُدَر، وهل غَسَلْتُ سَوْءَتَك إلاّ بالأمس. (وكان المغيرة بن شعبة الثقفي قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف، فودَىٰ عروةُ المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح بين الحيَّيْن من ثقيف).

فكلّمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلّم به من سبقه من الوفود، وأخبره أنّه لم يأت يريد حرْباً.

ورجع عروة إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إنّي قد جئت كسْرىٰ في مُلْكه، وقيصَرَ في مُلْكِه، والنجاشيَّ في مُلْكه، وإنّي والله ما رأيْتُ مَلِكاً في قَوْمٍ قطُّ مثْلَ محمّد في أصحابه، ولقد رأيت قوْماً لا يُسْلِمُونه لشيْءٍ أبداً، فَرَوْا رَأْيَكُمْ.

وبعث الرسول إلى قريش «خِراشَ بن أُمَيّةَ الْخُزاعي» على بعير له يقال له: الثعلب، ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل الرسول، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلّوا سبيله، ورجع إلى رسول الله ﷺ وأنبأه بما حدث.

ورُوي عن ابن عبّاس: أنّ قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم، أو خمسين رجلاً،

وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر المسلمين ليُصيبوا لهم منهم أحداً.

فأدركهم المسلمون وأخَذُوهُمْ أخذاً، ولمّا جيء بهم إلى رسول الله ﷺ عفَا عنهم، وخلّىٰ سبيلهم، وكانوا قد رمَوْا في عسكر المسلمين بالحجارة والنَّبل.

ثم دعا الرسول ﷺ عُمَر بن الخطّاب، ليبعثه إلى مكة، فيبلّغ عنه أشراف قريشٍ ما جاء له، فقال عمر: يا رسول الله، إنّي أخاف قُرَيشاً على نفسي، وليس بمكةَ من بني عديّ بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إيّاها، وغِلْظتي عليها، ولكنّي أدُلُّكَ علىٰ رَجُلٍ أعزَّ بها منّي: عُثمان بن عفّان.

فدعا الرسول عثمان بن عفّان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنّه لم يأت لحرب، وأنّه إنّما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظّماً لِحُرْمته.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فحمله بين يديه، ثم أجاره، حتّىٰ بلّغ رسالة رسول الله ﷺ.

فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة الرسول إليهم: إنْ شئت أن تَطُوفَ بالبيت فطُفْ.

فقال عثمان: ما كنتُ لأفعل حتّى يطوف به رسول الله ﷺ، واحْتَبَسَتْهُ قريْشٌ عندها، فبلغ الرّسولَ والمسلمين أنّ عثمان بن عفّان قد قُتِلَ.

فقال الرسول حين بلغه أنّ عثمان قد قُتِلَ:

«لَا نَبْرَحُ حتّىٰ نُنَاجِزَ الْقَوْمَ»(١).

فدعا الرسول ﷺ إلى البيعة على مقاتلة القوم حتّى الموت، وبايعه من كان معه من المسلمين، لم يتخلّف إلاّ الجدّ بن قيس، أخو بني سَلِمة، (وهو من منافقة بني سلمة من الخزرج، لم ينل رضوان البيعة لأنه كان منافقاً).

يقول جابر بن عبد الله: والله لكأنّي أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد ضَبَأَ إليها (أي: لَصِقَ بها مُتَستّراً) يستتر بها من الناس.

(١) أي: حتى نقاتلهم، يقال: ناجَزَهُ إذا نازله وقاتله، وتناجز القوم: تقاتلوا.

وسميت هذه البيعة بيعة الرضوان، لأنّ الله رضي عن المبايعين، وكانت عند شجرة من أشجار السَّمُر، وكان أوّلَ المبايعين أبو سِنان الأسْدي، وورد الخبر عن عثمان بن عفان بأنّه لم يُقْتَلْ، ولكن احتبسته قريش عندها فبايع رسول الله عنه وهو غائب، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

ثم بعثت قريش «سُهَيْلَ بْنَ عَمْرو» إلى رسول الله ﷺ، وقالوا له: ائْتِ محمّداً فَصَالِحْهُ، ولاَ يَكُنْ في صُلْحِهِ إلاَّ أن يَرْجع عنّا عامَهُ هـذا، فوالله لا تَتَحَـدَّثُ العربُ عنّا أنّه دخَلَها علَيْنا عَنْوَةً أبداً.

فأتى «سُهَيْلُ بن عمـرو» رسول الله ﷺ، فلمّـا رآه مُقبلاً قـال: قد أراد القـوم الصُّلح حين بعثُوا هذا الرَّجل.

ولمّا وصل إلى الرسول تكلَّم فأطال الكلام، وتراجَعا، ثم حصل الاتفـاق على المصالحة.

ولمّـا التـأم الأمـر، ولم يبْقَ إلاّ أن يُكْتَب كتـابُ الصُّلح، وثَبَ عُـمَـر بن الخطاب، فأتَىٰ أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال أبو بكر: بلىٰ.

قال عُمَر: أولسنا بالمسلمين؟

قال أبو بكر: بلىٰ.

قال عُمَر: أولَيْسُوا بالمشركين؟

قال أبو بكر: بلىٰ.

قال عُمَر: فَعلاَمَ نُعْطَى الدّنيَّةَ في ديننا (الدّنيّة كالدنيئة أي: الخسيسة الحقيرة الذليلة).

قال أبو بكر: يَا عُمَرُ، الْزَمْ غَرْزَهُ (أي: الزم أمر الرسول، الغرْزُ للرحْل بمنزلة الركاب للسّرج، والتعبير على سبيل الكناية) فإنّي أشْهَدُ أنّهُ رَسُولُ الله.

قال عمر: وأنا أشهدُ أنّه رسول الله.

وأتى عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ فقال له مثلما قال لأبي بكر.

فقال رسول الله ﷺ: أنـا عبْدُ الله ورسـولُه، لنْ أُخـالِفَ أمْرَهُ، ولَنْ يُضيّعَني، وسأل عُمَر الرّسول عن الرّؤيا وعدم تحققها، فقال له:

«أفأخبرْتُكَ أنّكَ تأتِيهِ هذا العام؟!» قال: لا. قال: «فإنَّكَ آتيه ومطوّفٌ به».

فكان عمر بعد ذلكَ يقول: ما زلتُ أتصدّق وأصومُ وأصلّي وأعْتِقُ، مِنَ الّذِي صنعتُ يومئذٍ، مخافة كلامي الذي تكلّمْتُ به، حتّى رَجَوْتُ أن يَكُونَ خَيْراً.

ثم دعـا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طـالب، ليَكْتُبَ كتاب الصُّلْح، فقـال له بحضور سُهَيْل بْنِ عَمْرو، ومن معه من وفْد قريش:

«اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم».

قال سُهَيل: لا أَعْرِفُ هذا، ولكن اكْتُبْ باسْمِكَ اللّهم.

فقال الرسول: «اكْتُبْ: باسْمِكَ اللّهُمّ» فكتبها.

ثم قال: «اكْتُبْ: هَذا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمّدٌ رَسُولُ اللّهِ سُهَيْل بن عَمْرو».

قال سهيل: لَوْ شَهِدْتُ أنّكَ رسُولُ الله لم أقاتِلْكَ، ولكِن اكتب اسمك واسم أبيـك، فأمر عليّاً بمحـو ما كتب، فتـوقف عليٌّ تأدُّباً، فـأخـذ الـرسول الصحيفـة فمحـاها. وقـال لعلي: اكتب: هذا مـا صالـح عليـه محمّد بن عبـد الله سُهَيْـل بن عمْـرو، اصْطَلَحَـا على وَضْعِ الْحَرْبِ عن الناس عشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّـاسُ، ويكُفُّ بعضُهُمْ عَنْ بعض، على أنّه من أتى محمّداً من قُرِيش بغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّـهِ، رَدَّهُ عليهم، ومن جاء قريشاً مِمَّنْ مَعَ مُحَمّد لم يَرُدُّوهُ عليه، وإنَّ بَيْنَنا عَيْبَـةً مَكْفُوفَـةً[1]، وَأنَّهُ لَا إِسْلَالَ[2] ولا إغلالَ[3] وأنَّهُ مَنْ أحَبَّ أنْ يدخُلَ في عَقْـدِ محمّد وعَهْـدِه دخل فيه، ومن أحبَّ أنْ يَدْخُلَ في عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيه».

---

(١) العيبة: حافظة من خوص أو جلد أو غيـر ذلك تـوضع فيهـا الأمتعة، وكفُّهـا إغلاقُهـا، وهي عبارة تستعمل للكناية عمّا في النفوس، وطيّه إلى غاية الأجل.

(٢) الإسلال: السّرقة الخفية، التي تُسَلُّ بها المسروقات سلّاً.

(٣) الإغلال: الخيانة.

وحصل الاتفاق على أن يرجع الرسول بالمسلمين دون أن يعتمروا عامَهم ذاك، وعلى أنْ يأتوا معتمرين في العام القادم، وكتب كتاب الصلح من نسختين توزعان على الفريقين.

وشهد على كتاب الصُّلح رجالٌ من المسلمين، ورجالٌ من المشركين، وكانت مضارب خيام المسلمين في الحلّ، فإذا أراد الرسول الصلاة دخل حدود الحرم فصلّى في أرضِ الحرم.

وحين فرغ الرسول من الصُّلْح قال لأصحابه:

«قوموا فانحروا ثُمَّ احْلِقُوا» ثلاث مرّات. فما قام منهم أحَدٌ، فدخل على زوجه أم سلمة التي كانت معه في سفره هذا، فذكر لها ما وَجَدَ من الناس، فقالت: يا نبيّ الله، اخرج، ثُمَّ لَا تُكلِّمْ أحداً منهم كلمةً حتّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُوَ حالِقَكَ فيحلق لك.

فأخذ الرسول برأيها، فلمّا رأى المسلمون ما فعل الرسول قاموا فنحروا، فحلق بعضهم وقصّرَ آخرون.

فقال الرسول: «يرحم الله المحلّقين».

قالوا: والمقصّرين يا رسول الله؟.

قال: «يرحم الله المحلّقين».

قالوا: والمقصّرين؟

قال: «يرحم الله المحلّقين».

قالوا: والمقصّرين؟

قال: «والمقصّرين».

قالوا: لِمَ ظَاهَرْتَ[1] التَّرْحِيمَ للمحلّقين دون المقصّرين؟

قال: «لأنَّهُمْ لَمْ يَشُكُّوا».

(١) ظاهرت، أي: قويتَ وأكّدْتَ بالتكرير.

وقفل رسول الله ﷺ والمسلمون راجعين إلى المدينة، ونزلت في الطريق سورة (الفتح) كما سبق بيان ذلك.

(٣) روى ابن أبي حاتم بسنده عن إياس بن سَلَمة عن أبيه بَيْنَما نَحْنُ قَائِلُون (أي: نائمون وقت القيلولة في الحديبية) إذْ نادى منادي رسول الله ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ، نزل روح القدس.

فَثُرْنَا إِلَىٰ رسُول الله ﷺ، وهو تَحْتَ شَجَرَةِ سَمُرَة، فبايَعْنَاهُ، فذلك قول الله تعالى:

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

فبايع رسولُ الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه بإحدى يَدَيْه على الأُخْرَىٰ.

فقال الناس: هنيئاً لابن عفّان، يَطُوفُ بالبيت ونَحْنُ هَٰهنا، فقال رسول الله ﷺ:

«لَوْ مَكَثَ كذَا وَكَذَا سَنَةً مَا طَافَ حَتَّىٰ أَطُوفَ».

(٤) وجاء عند البيهقي عن أنس بن مالك قال: لمّا أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرّضوان، كان عثمان بن عفّان رسولَ رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايعَ الناس، فقال رسول الله ﷺ:

«اللَّهُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ في حَاجَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحَاجَةِ رَسُوله» فَضَرَبَ بإحْدَىٰ يَدَيْهِ على الأُخْرَىٰ، فكانت يَدُ رسول الله ﷺ لعثمان خَيْراً من أيديهم لأنفسهم.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾:

يأتي الفتح بمعنى القضاء بين الخصمين، يقالُ لغة: فَتَحَ بين الخصْمَيْن يَفْتَحُ فَتْحاً، أي: قضىٰ بينهما وأمضى قضاءه.

ويأتي الفتح بمعنى إزالة العائق، يقال لغة: فتح الله له، إذا أزال ما كان عائقاً في طريقه من أمْرٍ ماديٍّ أو معنويّ، فهيّأ له أن ينطلق إلى ما يريد، ويَدخُلُ في عموم هذا الفتح إزالةُ العوائق الصّادّة في سبيل الدعوة إلى الله، وإزالةُ العوائق المانعة من هداية الشعوب، وحكْمِها بالعدل، وإقامة حكْم الله فيها.

وأصل معنى الفتح مأخوذٌ من فتح الأبواب الذي هو ضدّ إغلاقها، ثُمّ عُمِّم بالاستعمال فشمل كلّ ما يتضمّن إزالة العوائق الماديّة والمعنوية، كالعوائق الفكرية والنفسيّة والقلبية وغير ذلك.

ولمّا كان النّصر في محاربة جيوش الممالك يأتي غالباً قَبْلَ الفتح، قال الله عزّ وجل في سورة (النصر/ ١١٠ مصحف/ ١١٤ نزول):

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾.

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾:

يفهم الناس أنّ الذنب المتقدّم هو ما فُعِل في الزّمانِ الماضي، وأنّ الذّنْبَ المتأخِّرَ هُو الذّنْبُ الذي سيُفْعَلُ في الزّمانِ المستقبل، هذا هو الفهم الشائع.

لكنّي رأيت أنّ القرآن جاءت فيه ثلاثة نصوص حول التقديم والتأخير معاً بالنسبة إلى أعمال العباد:

النص الأول: قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾.

أي: يُنَبَّأُ الإنسانُ يَوْمَ القيامة بأعْمَالِه الْحَسَنَةِ والسيئة التي عَمِلَها فقدَّمَها إلى الآخرة، أو إلى سجلّ أعماله.

ويُنَبَّأُ بأعمالِهِ الّتي لم يَعْمَلْها، فأخّرها بتركه لها، من الأعمال الواجبة التي كان عليه أن يعملها فعَصَى الله بتركها، ومن الأعمال السيئة المحرمة فأطاع الله بتركها، فاستحقّ على تأخيره لها ثواباً.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

أي: علمت يومَ القيامة كلّ نفْس كاسبة حينما تُعْرَض عليها صحف أعمالها، ما عَمِلَتْ من عملٍ طاعةٍ أو معصيةٍ، فقدّمته إلى الآخرة، أو إلى التسجيل في صحف الأعمال، وما لم تَعْمَل من عَمَلٍ بطاعةِ الله أو معصيته، فأخَّرَتْهُ عن العمل ولَمْ تُقدِّمه، فهي تستحقّ الثواب على ما أخَّرَتْ فلَمْ تَعْمَلْ من عَمَلٍ فيه معصيةٌ لله، وتستحقّ العقاب على ما أخَّرَتْ فلَمْ تعملْ من عَمَلٍ كان يجب عليها أن تعمله طاعةً لله.

فالتّقديم في النّصين يدلُّ على القيام بالعمل خيراً كان أو شرّاً.

والتأخير في النّصين يدلُّ على ترك العمل الذي ينبغي فعله أو ينبغي تركه.

ويقال لغة: قَدَّمْته فتقدَّم، ويقال: أخَّرْته فتأخَّر.

ويمكن أن نفهم من قوله تعالى لرسوله:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾:

بمقتضى هذا المعنى القرآني: ليغفر لك الله ما عَمِلْتَ من عَمَلٍ كانَ الأَوْلى بكَ أن لا تعمله، فَفِعْلُه من إمام المرسلين يعتبر ذنباً، وإن كان من غيره قد يعتبر برّاً أو إحساناً، فهو عمل قدّمته فتقدَّم، وليغفر لك الله ما تركت من عمل كان الأَولى بك أن تعمله، فتَرْكُهُ من إمام المرسلين يُعْتَبَرُ ذنباً، وإن كان من غيره قد لا يُخِلُّ بمرتبة البرّ عنده، ولا بمرتبة الإحسان فهو عَمَلٌ أخَّرْتَهُ فلَمْ تَعْمَلْهُ فتأَخَّر.

وبهذا الفهم تنحلّ كلّ الإشكالات المطروحة على أساس الفهم الشائع لمعنى: ما تقدّم من ذَنْبِكَ وَمَا تأخَّر، ولا يبقى لها وجود أصلاً، ولا يحتاج النصّ بهذا إلى تأويلات، واللَّهُ أعْلَم.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾:

جاء في القرآن استعمال تعبير «بِنْعمةِ اللَّهِ» بمعنى: ما أنزل الله لعباده من الدين الذي اصطفاه لهم في نصوص متعدّدة، منها ما يلي:

(١) في سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول) قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾:

أي: فحدِّثِ النّاسَ بما أنزل عليك من نعمة القرآن وعقائد الإيمان ومبادىء الإسلام وشرائعه وأحكامه، وبما أنعم عليك من نعمة البيان، وقوّة الحجّة والبرهان، والقدرة على الإقناع، والتأثير في الأفكار والقلوب والأسماع.

(٢) وفي سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول) قال الله عزّ وجل لرسوله:

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾:

أي: ما أنت يا مُحمَّد بنعمة رَبِّك التي أنعم بها عليك إذْ جعلك نبيًّا رسولاً، تبلّغ عن ربّك ما أنزل عليك من الدين الذي اصطفاه الله لعباده بمجنون، كما يزعم الكفرة المشركون، حين اتّهموك بالجنون بسبب ما أنعم الله به عليك من بيانات دينه وأمرَك بتبليغه للناس.

(٣) وفي سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) قال الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾:

أي: فذكّر الناس بما كنتَ بلّغتهم إياه، وتابع تذكير من ترجو أن تنفعه الذكرى، فما أنت يا محمّد بنعمة ربّك التي أنعم بها عليك إذْ جعلك نبيًّا رسولاً، تبلّغ عن ربك ما أنعم به عليك من نعمة تعاليم دين الإسلام وبياناته، بكاهن ولا مجنون، كما يزعم الكفرة المشركون، إذ اتّهموك مرّةً بالجنون، وأخرى بالكهانة، فالمجنون لا يمكن أن يأتي النّاس بالحقّ والهدى، وأنت بسبب نعمة الله عليك قد جئت الناس بالحقّ والهدى، والكاهن الذي يتلقّى عن الجنّ والشياطين إنما يأتي الناس بالباطل والضلال، وأنت تأتيهم بالحقّ والهدى.

(٤) وفي سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خاطب الله الذين آمنوا

بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا... ﴿٣﴾﴾:

أي: اليوم أكْمَلْتُ لَكُمْ بيان شرائع دينكم وأحكامه، وأتممتُ عليكم بهذا البيان نعمتي التي أنعمتُ بها عليكم إذ اصطفيت لكم الدين الذي يُحقق لكم اتباعُهُ سعادةَ الدارين، ورضيتُ لكم أن تستسلموا منقادين لما أنزلت عليكم ديناً تدينون به لي.

وبعد النظر في هذه النصوص أرى أن قوله تعالى لرسوله في سورة (الفتح): ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

يراد منه إتمام شرائع الدين وأحكامه، وهو ما أبانه تعالى في الآية من سورة (المائدة) الآنفة الذكر.

﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾:

أي: نصراً غالباً لأعدائك، فالنصْرُ قد يكون بنجاة المنصور من عدوّه، كما حصل للرسول إذْ كان ثاني اثنين في الغار، فقال تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾.

وقدْ يكون نصراً بالْغَلَبَة، فالعزيز هو القويُّ الغالب، والنَّصْرُ العزيز الغالب هو الّذي تكون به النجاة للفئة المنصورة، والهزيمة أو الهلاك لعَدُوّها.

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾:

الطمأنينة والاستقرار، وتُطْلَقُ على الرَّزانة والوقار، وضدّهما الخِفَّةُ.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾:

أي: ولِتُعِينُوهُ، وتقوّوه، وتَنْصُرُوهُ، فمن معاني: «عَزَّرَهُ يُعَزِّرُهُ تَعْزِيراً» أعانَهُ وقَوَّاهُ ونَصَرَهُ، وهذا المعنى هو المراد هنا، وتحقيق هذا المعنى يكون بالدفاع عن دين الله وعن رسوله، وبالجهاد معه، وبنشر دينه، وتبليغ ما بلّغه رسوله، وتعليمه

للناس، والإقناع به، والجهاد في سبيل الله بكل وسائل الجهاد، من مجاهدة النفس، إلى جهاد الدّعوة، حتى الجهاد بالقتال.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾:

أي: ولِتُعظِّمُوا الله وتبجّلُوه بقلوبكم ونفوسكم، وتُثْنوا عليه بتمجيد صفات العظمة والجلال التي هي له بألسنتِكُمْ في ذكْرِكم وعباداتكُمْ.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾:

أي: ولِتُنزِّهوا الله وتقدّسُوه عن كلّ ما لا يليق به من صفات النقص التي تتنافى مع أزليته، ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته وقدرته وأنّه يفعل ما يشاء ويختار، إلى سائر صفات الكمال التي هي له سبحانه.

﴿يُبَايِعُونَكَ﴾:

أصل المبايعة عقد بيع بين طرفين، يبذل أحدهما فيه من جهته شيئاً للطرف الآخر، مقابل أن يبذل له الطرف الآخر شيئاً آخر من جهته على سبيل التبادل والمعاوضة.

والمبايعة مع الله بذلٌ من النفس أو المال مقابل ثواب الله ورضوانه وجنته.

واعتاد المتبايعون أن ينجزوا عقد مبايعاتهم بكلام مصحوب بوضع كَفّ يمين كلٍّ منهم بكفّ يمين من يبايعه.

ثم صارت المبايعة تعني المعاهدة على أمر ما، ودلّ على أنها معاهدة مع الله قول الله تعالى في الآية:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

النَّكْثُ نَقْضُ البَيْعَة، أو العهد، أو اليمين، وعدَمُ تَنْفِيذِ مَا تَمَّ عليه العقد أو العهد، وأصلُ النَّكْث مأخوذ من نَقْض الحبْل بعْدَ إبرامه.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾:

أي: قوماً فاسِدِين لا خَيْرَ فيكُمْ، وفسادكم يؤدّي بكم إلىٰ أن تكُونوا هلكَىٰ.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾:

المُرَادُ من المخلّفِينَ هُنَا الَّذِينَ دُعُوا للْخُرُوج مع الرسول لأداء العمرة، فتخلّفُوا ولم يستجيبوا لدعوة الرسول.

﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾:

أي: إذا ذهبْتُمْ مُسْرِعين، وذلك لأنّ المقيّد إذَا أُطْلِقَ من قيده انْطَلَق مُسْرِعاً شطْرَ الجهة الّتي يُريد الذهاب إليها، ومنه انطلاق الخيل في حلْبَةِ السّباق، وأصل الإطلاق التحرير من القيد.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾:

الحرجُ: الإِثم، والضيق، وأصل الحرج، الموضع الذي تكثر فيه الأشجار متشابكة فلا تصلُ إليه البهائم التي ترعىٰ الكلأ، قال ابن عباس:

الْحَرَجُ: الموضع الكثير الشجر الذي لا يصل إليه الراعية.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾:

أي: ومَنْ يُدْبِرْ، ويَبْتَعِدْ عن طاعة اللّهِ ورسوله.

﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

أي: يُعَاقِبْهُ عِقَاباً مُؤْلِماً، العـذابُ: والعقاب، والنَّكال بمعنى الجزاء على العمل السَّيّىءِ، وعقابُ الله وعذابُهُ يكون بالعدل.

ويأتي العذاب بمعنى ما يَنْزِلُ بالإِنسان من مشقّات مُتْعِبات ومؤلمات.

* * *

(٤)

مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ

عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾.

لقد وصف الله عزّ وجلّ صُلْحَ الحديبية الذي جرى بين الرسول ومشركي مكة بأنّه فتحٌ مبينٌ، أي: جَليٌّ واضحٌ، إذْ كان من ثمراته أمران عظيمان:

الأمر الأول: أنّ الدعوة إلى الله قد انطلقت بسببه دون أنْ تقف في وجهها عوائق من ألدّ أعدائها، وهم مشركو قريش، سواءٌ في مكة، أو فيما حولها، أو في قبائل العرب، فقد أخذ بعدها الإسلام ينتشر بحرِّيّة، وأخذ الدعاة المسلمون من أصحاب رسول الله يدعون إلى الإسلام آمنين مطمئنّين في أهل مكة وفي مختلف قبائل العرب، ودخل في الإسلام بعده خلْقٌ كثير.

قال الزهري: فما فُتِح في الإسلام فتْحٌ قبْله كَانَ أعْظمَ مِنْهُ، إنّما كانَ القتالُ حيثُ الْتقَى النّاس، فلمّا كانت الْهُدْنَةُ، وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وأمِنَ الناسُ بعضهُم بعضاً، والْتَقَوْا فتفاوَضُوا في الحديثِ والمنازعة، فلَمْ يُكَلَّمْ أحَدٌ بالإسلام يَعْقِلُ شيئاً إلّا دخَلَ فيه، ولقد دخلَ في تَيْنِكَ السنَتَيْنِ (أي: منذ صُلْح الحديبيَةِ حتّى فَتح مكّة عَسْكَريّاً) مِثْلُ مَنْ كَانَ في الإسلام قَبْلَ ذلِكَ أو أكثر[١].

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى الْحُدَيبية في ألف وأربع مئة، في قول جابر بن عبد الله، ثُمّ خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

أقول:

إنّ الوضع الّذي يَتَهَيَّأُ بِهِ انتشار الإسلام عن طريق الدّعوة إلى الله هو الفتح الحقيقي الأعظم عند الله، أمّا نصر المسلمين على أعدائهم وسقوطُ بلدانِ الكفر في أيدي المسلمين بالقوّة المسلّحة، فهو فتح من الدّرجة الثانية، إلّا أن يكون سبباً لانتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجاً.

فعلَى المسلمين ولا سيما الدعاة إلى الله أن يَضَعُوا هذه الحقيقة ماثلة نُصْبَ أعينهم دواماً.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (في أخبار صلح الحديبية).

الأمر الثاني: أنّ صُلْح الحديبية قد نجم عنه نَقْضُ المشركين لبعض بنوده، وسقُوطُهُم في الغَدْرِ، الأمر الذي مكّن الرسول ﷺ من التوجّه لهم بجيش المسلمين الّذي بلغ قوامه عشرة آلاف مقاتل بعد أقل من سنتين، ودخولهم مكّة فاتحين لها فتحاً عسكريّاً مظفّراً، مؤيداً بنصر الله وفتحه المبين.

فقال الله تعالىٰ لرسوله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾.

وذكر الله عزّ وجل من حكمٍ هذا الفتح المبين الذي منحه الله لرسوله ﷺ في التاريخ الذي حصل فيه عِدَّةَ حِكَم:

الْحِكْمَةُ الأولى: أنّ أجَلَ الرّسول محمد ﷺ في الحياة الدنيا قد اقترب، فمن الحكمة إكرامُه بالفتح المبين، الذي هو بداية نصر الله وفتحِه العظيم للأمّة الإسلامية، ودخولِ الناس في دين الله أفواجاً، وأن يستخلف الله الذين آمنوا في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ويُمكّنَ لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم.

فكان الفتح المبين إشعاراً بانتهاء مُهِمَّة الرسول في الحياة الدنيا، إذ اقترب أجله، وجاء التعبير الإيمائيُّ عن ذلك بقوله تعالى:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

أي: ليغفر لَكَ اللّهُ ما عَمِلْتَ من عَمَلٍ كان الأولى بك أن لا تعمله، أو أن تعمل أفضل منه، بحسب مقامك العظيم عند ربّك وإن كان ما عملته لو عمله غيرك لكان من درجة من درجات الإحسان أو البرّ أو التقوى، لكنّ من يَحتَلُّ أسْمىٰ دَرَجاتِ المحسنين يُطْلَبُ منه أسْمَىٰ دَرَجات الإحسان، فحقوق هذه الدرجة تختلف عن حقوق ما دونها من الدرجات.

وليغفر لك الله ما أخّرتَ مِنْ عَمَلٍ فلم تَعْمَلْهُ، وقَدْ كان الأولى بك أن تَعْمَلَهُ، فتأخير العمل كما وضح لنا في شرح المفردات يكون بتركه وعدم عمله، وهذا الفهم هو الذي لا ترد عليه الإشكالات التي ترد على الفهم الشائع، وهو الفهم الذي يتلاءم مع إيماء النصّ إلى اقتراب أجل وفاة الرسول ﷺ، أي: منحك

الله هذا الفتح المبين، ليُنهِيَ وظيفَتَك في الحياة الدنيا، وليتَوفَّاكَ، وليغْفِرَ لَكَ عند الْوَفاة ذنوبَكَ كُلَّها، مَا كان منها بسبب فعلٍ قَدَّمْتَهُ، إذْ فعلته، وما كان منها بسبب مطلوبٍ مِنْكَ أَخَّرْتَه، إذْ لم تفعله.

الحكمةُ الثانية: أنَّ اقتراب انْتهاءِ مُهِمَّةِ الرسول ﷺ في الحياة الدنيا يستَدْعِي إكْمَالَ إنْزَالِ شَرائِعِ الإسلام وأحكامه عليه من ربّه، وهذه الشَّرائع والأحكام هي المبيِّنةُ لدين الله الذي هو نعمة الله العظمى على رسوله وعلىٰ الناس أجمعين، إذْ يُحَقِّقُ الله به لمن اتّبعه السعادة العظمى في الدارين.

فمن حِكَم الفتح المبين الإشعارُ بأنَّ ما تبقَّىٰ من أحكام الإسلام ووصاياه وشرائعه سيُتِمُّه الله ويكمّله عمّا قريب، وهذا هو الذي حصل في الواقع، وأتَمَّ الله الدين في حجّة الوداع بقوله:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ۝٣﴾

[المائدة/ ٥ مصحف ١١٢ نزول].

دل على هذه الحكمة الثانية قول الله عزّ وجل في النصّ لرسوله:

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

ونفهم من إتمام نعمة الله على رسوله بإنزال ما بقي من شرائع الإسلام وأحكامه ووصاياه، إتْمَامَ نعْمَةِ اللهِ على الناس جميعاً بذلك، لكن الذين يستفيدون من هذه النعمة العامّة الشاملة هم الذين يؤمنون بها، ويعملون بمقتضاها.

الحكمةُ الثالثة: أنَّ ما بَقِي للرسول في الحياة الدنيا من سنوات قليلات، يسْتَدْعِي أنْ يهْدِيَهُ اللّهُ فيها صِراطاً مستقيماً، يحقِّقُ اللّهُ لَهُ به أوْفرَ نَصِيبٍ مِنَ النَّصْرِ والتوفِيقِ والنجاحِ العظيم، الذي يَنْتَشِرُ بِهِ الْفَتْحُ وَيَدْخُلُ به الناس في دين اللّهِ أفْوَاجاً، وهذا ما تحقّق فِعْلاً، إذْ توالَتِ الانتصارات، ففتَحَ اللّهُ لرسوله حصون خيبر وسائر أرضها في سنة سبع للهجرة، وبعث الرسول بعثاً إلى جهة الشام في غزوة مؤتة، في جمادي الأولى من سنة ثمانٍ للهجرة، ودخل مكّةَ فاتحاً في شهر رمضان من سنة ثمانٍ للهجرة، وبعث البعوث لهدم الأصنام في أنحاء الحجاز، ونصرَهُ الله

على هوازن وثقيف في غزوة حنين، عقب فتح مكّة، وغزا أطراف الشام في شهر رجب من سنة تسع للهجرة، فيما يُعْرَفُ بغزوة «تبوك» لدعوة الرّوم إلى الإسلام، أو فتح بلادهم لدعوة الإسلام، أو مناجزتهم القتال، وبعث الرسول البعوث، وجاءته الوفود، وكتب الكتب إلى الملوك، وجاء نصر الله والفتح من كلّ الجهات، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

دلّ على هذه الحكمة الثالثة قول الله عزّ وجل في النص لرسوله:

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾.

الصراطُ المستقيمُ يُفَسَّر في كلّ موضع من مواضع استعماله بما يلائم القرائن من سِيَاقِ النَّصِّ وسِياقِهِ، فمنه ما يكون في العبادات، ومنه ما يكون في المعاملات، ومنه ما يكون في الإدارة والسياسة، ومنه ما يكون في الدعوة، ومنه ما يكون في القتال، إلى غير ذلك.

ولمّا تمّ كلّ ذلك أنزل الله عزّ وجل على رسوله سورة (النصر/ ١١٠ مصحف/ ١١٤ نزول) وهي آخر سور القرآن نزولاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝﴾.

فأشارت هذه السورة، إلى انتهاء مهمّة الرسول، واقتراب أجل وفاته ﷺ.

وقد أدرك هذه الإشارة بعض الصحابة منهم عُمَرُ بْنُ الْخطّاب، وعبد الله بن عباس، كما صحّ عند البخاري.

وهو فَهْمٌ فهمه الرسول ﷺ، فقد روى الإمام أحمد، عن محمّد بن فُضَيْل، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال:

(لمّا نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ:

«نُعِيَتْ إليَّ نَفْسي».

فإنَّهُ مقبوضٌ في تلْكَ السَّنَة).

ومن هذا نفهم تدرُّج النصوص من التلميحات البعيدة التي لا يُدْركها إلاّ أهل الفطانة العالية، إلى الإشارات التي قد يَسْهُل إدراكُها لدى بعض الأذكياء، في أمر هو من الرّموز القرآنية بين الله ورسوله.

وقد نصر الله رسوله نصراً عزيزاً في حياته، ونصره بعد أن انتقل إلى جوار ربّه، فكلّ الفتوحات التي كانت للمسلمين بعد الرسول هي نصر عزيز للرسول ﷺ، ولذلك قال: أوتيت الكنزين، وفتحت لي فارس والروم، وآتاني الله ما زَوَىٰ لي من الأرض، وكلّ ذلك كان بعد وفاته صلوات الله عليه، خظيت به أمّته في الحياة الدنيا.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾.

يصفُ الله عزّ وجلّ حال المؤمنين الّذين كانُوا مع الرسول معتمرين مُحْصَرين في الحديبية، قد منعهم مشركو قريشٍ من دخول مكّة، وأداء مناسِكِ عُمْرَتِهِمْ فيها، فأبان الله أنّهم على الرغم من قلّتهم، إذْ لم يكونوا يزيدون على ألف وخمسمائة، فقد كانُوا مطمئنّين، ثابتين، وقُورين، لم يستخفَّهُمْ خوفٌ ولا حذر، وكانوا على استعداد لمناجَزَةِ جيش قريش من المشركين القتال، ولو بالدخول عليهم عَنْوَةً وهم مُحْصَنُونَ في مكّة، ومعهم كامل أسلحتهم وعتادهم وتَمْوينهم.

فَقَدْ أنزل الله عز وجلّ السَّكِينَة في قلوبهم، وهي الطُّمأنينة والاستقرار، ثقةً بتأييد الله لهم ونصره، وتحقيق وَعْدِه.

وهذه السَّكينةُ تأتي معونةً من اللهِ للتَّثبيت، وشدّ العزائم، فمن أنزل الله في قلبه السكينة كان هادئاً رازناً وقُوراً، لا يعتريه طيشٌ ولا خفّة، ولا يُقْلِقُه خوفٌ، ولا تستخفُّه أراجيفُ ولا تهديدات تأتي من قِبلِ الأعداء، فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾.

وهٰذِهِ السَّكينةُ هي من جُنْدِ الله، كما أنَّ مِنْ جُنْدِ اللهِ الرُّعْبَ يُلْقيه في قُلُوبِ أعْداءِ المؤمنين، ومن جنده الريحُ، والصواعقُ وحجارةٌ من سجيل، والملائكة، وغيرُ ذٰلِكَ.

وإنْزال السُّكُونِ والطُّمأنينَةِ في قُلُوبِ الْمُؤْمِنين يزيدُهُمْ إيماناً مع إيمانهم السّابق قبل إنْزالها، لأنّهم بها يواجهون أعداءَهُمْ ثابتين مطمئنين أقوياء، غير هيَّابين ولا وَجِلين، وهذا يجعلهم واثقين مؤمنين إيماناً كاملاً عن وعيٍ وبصيرة وكمالِ إدراك بأنّ اللّٰه عزّ وجلّ سيَمْنَحُهُمْ حتماً إحدى الحسنين: إمّا الشهادة وجنّات النعيم، وإمّا النّصر والفتح المبين، وهذا نمُوٌّ في الإيمان عند أشدّ الأزمات.

بخلاف الْقَلَقِ والْخَوْفِ والاضطراب فإنّها عَوارضُ تأتي بالشُّكُوكِ، فتَنْقُصُ من مشاعرِ الإيمانِ، ومن مشاعر الثقة التامّة باللّهِ التي هي من آثار كمالِ الإيمان.

إنّ درجة حرارة الإيمان الفاعلة في السُّلوك تزداد بالسكينةِ الّتي تُثَبِّتُ الْقَلْبَ وتدفع عنه الخوفَ والْقَلَقَ والاضطراب، وتنقُصُ بعوارض الشُّكُوكِ التي تتلاعب بالأفكار، وتجلُب الأوهام، وتثير الخوف والقلق والاضطراب.

ولا تقتصر المعونة الرّبانيّة للمؤمنين على الإمداد بالسكينة التي هي من جُنودِ اللّهِ، بل قد يُعِينُ المؤمنين بجنودٍ غيرها من جنوده الكثيرة في السَّماواتِ والأرْضِ، فهو يعين بما يشاء منها بمقتضى علمه بعباده، وحكمته في قضائه وقدره، وإشارةً إلى ذلك قال الله تعالى في النصّ:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾.

أي: فهو يُعِينُ المؤمنين من عباده بما يشاء من جنوده، معونةً ما على وفق علمه وحكمته، فكُلُّ جنودِ السماوات والأرض مِلْكُه، يصرِّفها كيف يشاء، ويسخِّرها فيما يريد، وهو العليم الحكيم دواماً.

ويتساءلُ المتدبِّر: لِمَ يُوضَعُ المؤمنون في ظُروف يُضْطَرُّون معها أن يُقاتِلُوا في سبيل الله عدوَّ الله وعدُوَّهم؟! أليس الله بقادر على إهلاك الكافرين والمنافقين دون أن يكلِّف المؤمنين قتالهم، ودون أن يكونُوا بحاجة إلى معونةٍ من الله بجنودٍ منه؟!.

ويجيب النَّصّ على هذا السؤال المطويّ غير المذكور في اللَّفظ، بما يدلُّ على أنّ حكمة الامتحان في الحياة الدنيا تستدعي ذلك، فلو شاء الله لانتصر لدينه من الكافرين، ولكن ليبلُو الناس بعضهم ببعض، ونتيجة لوضع الناس موضع الامتحان تأتي النتائج يوم الدين بمنح المؤمنين ثوابهم في جنّات النعيم، وتعذيب الكافرين بالعدل في دار العذاب المعدّة لهم، وتأتي النتائج في الحياة الدنيا بِنَصْرِ المؤمنين الصادقين على عدوّهم، وتَعْذِيب المنافقين والمنافقات الذين انْخَذَلُوا عنهم، ولم يُشَاركوهم فيمَا دُعُوا إليه، بعَذاب من الغيظ والكمَد والهمّ والغمّ، إذْ جاءت النتائج على غير ما كانوا يظنُّون، فخابت آمالهم، وتحطّمت أوهامُهم، وتَعْذِيب المشركين والمشركَات كذلك، إذْ خابَتْ آمالهم بصُلْح الحديبيَة، فقد صار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وكانوا يظُنُّونَ أنَّهم انْتَصَروا على محمّد والّذين قدموا معتمرين معه، فصدُّوهم عن مكة، واحتفظوا لأنفسهم بالسلطان عليها تُجاه جميع قبائل العرب.

دلَّ على هذه المفهومات عن طريق صريح اللفظ وعن طريق لوازمه والمطويات فيه، قول الله عزّ وجل في النصّ:

﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

فدلّ التعليل: ﴿لِيُدْخِلَ المؤمنين...﴾ والعطفُ عليه بعبارة ﴿وَيُعَذِّبَ المنافقين...﴾ على السؤال المطوي، الذي سبق بيانه.

ودلّ قوله تعالى:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

عطفاً على جملة:

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾.

على أنّ هذا التعذيب تعذيب معجّل في الدنيا، لأنّ العطف يقتضي التغاير، كما أنّ الأصل فيه تأسيس فكرة جديدة.

ودلّ التعذيب المعجّل للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، مما يقتضيه التناظر على مقابله الذي هو إكرام الله المؤمنين بما يحبّون من نصر وفتح ومغانم، وقد جاء مطوياً في اللفظ اكتفاءً بما دلّ عليه، فتأييدُهم بالنصر، وتسليطُهم على أموال أعدائهم يأخذونها مغانم، هو الّذي كان به تعذيب المنافقين والمشركين المعجّل مع دلالات نُصوص لاحقة في السورة.

إنّ امتحان المؤمنين بتكليفهم قتالَ عدُوّهم، قد جعله الله لِيُثيبهم فضلاً منه إذا أطاعوا ثواباً مؤجّلاً وثواباً معجّلاً.

ـ فالثوابُ المؤجّلُ إلى يوم الدّين قد دلّت عليه الآية (٥) من النصّ، ويكون:

(١) بأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.

(٢) وبأن يكَفّر عنهم سيئاتهم، فلا يحاسبهم عليها.

وهذا عند الله فوز عظيم، الفوز: النجاة من الشر، والظفر، والربح.

ـ والثواب المعجّل الذي يحبّونه يكون:

(١) بأن ينصرهم الله على عدوّهم.

(٢) وبأن يفتح لهم بلاد أعدائهم ويستخلفهم في الأرض.

(٣) وبأن يستولوا على مغانم كثيرة.

وهذا الثواب المعجّل يُفْهم ممّا يقتضيه التناظر في مقابل التعذيب المعجّل للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات مع ما جاء تفصيله في سورة (الفتح) نفسها، في قوله تعالى لرسوله بعد (١٣) آية:

﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾.

ــ والعقاب المعجّلُ للمُنافقين والمُنافِقاتِ والمشركين والمشركات الّذين تتحدّث السورة عنهم بمناسبة صُلْحِ الحديبيَة، دلّ عليه قول الله تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ... ۝٦﴾.

إنّ المنافقين الذين دُعُوا للخروج مع الرّسُول في عُمْرته، ليُكَثِّرُوا أعْدَاءَ المسلمين، فَيَرْهَبَ مشركو قريش كثْرَةَ العدد، فيُخَلُّوا السبيلَ للرسول والمسلمين حتى يؤدّوا عمرتهم آمنين، لم يَسْتجيبوا لهذه الدَّعْوَة، وظَنُّوا أنَّ عَدَدَ المؤمنين لا يكْفِي لمواجَهَةِ قُوَّاتِ المشركين في مكّة، وأنّ المشركين سيقْضُونَ قضاءً تامّاً على الرسول والذين خرجوا معه من المؤمنين، وأنّهم لن يرجعوا إلى مساكنهم وأهليهم أبداً، وزعَمُوا أنّ الله لن ينصُرَهُمْ بجُنُودٍ من عنده.

وكذلك ظنُّ المشركون حين رأوا أنّ الرَّسُولَ ومَنْ معه من المعتمرين لا يزيدون على ألف وخمسمائة، وأنّ الفرصة سانحة للقضاء عليهم.

لكنّ تدبير الله بما أجْرى من أمور انتهت بصلح الحديبيَة، قد كان من نتائجه تَعذيبُ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، بما منح الرسول والذين آمنوا من فتح إسلاميّ مبين، أنزل بالطرف المقابل خيبة الأمل، والحسرة والكمد، والغمّ

والهمّ، لقَدْ ظنُّوا باللَّهِ ظنَّ السَّوْء، وهو أنّه لن يتدخل بتدبيراته الحكيمة لنصرة رسوله والّذين آمنوا معه.

فخيَّبَ اللَّهُ ظنَّهُمْ، وكانوا يحْسَبُون أنّ دَائِرَة السَّوْءِ، وهو الشرّ والضُّرُّ والْهَلَاكُ ستَدُور على محمّد ومن معه من المؤمنين، فدارت دائرة السَّوْءِ على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات.

ومع هذا العقاب المعجّل عاقبهم الله بعقاب دائم دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾.

ومن غضب الله عليه نكّد عليه أمور حياته في نفسه، وأمواله، وأولاده وأهله، وكلّ ما يتعلّق به، وهذا من التعذيب المستمرّ.

ومن لعنه الله أبعده عن مواطن تنزّل رحماته، ووكَلَه لنفسه، وهذا من التعذيب المستمرّ.

ـ والعقاب المؤجّل للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، دلَّ عليه قول الله تعالى:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

أي: وهيّأ لَهُمْ داراً هي لعذاب المعذّبين يوْمَ الدِّين، ومن أسمائها جهنّم فإذا ماتُوا وهم منافقون أو مشركون كانوا من المعذّبين فيها.

ودلّ العطف بجملة الذّم: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ على معطوف عليه محذوف يتعلّق بوصف جَهَنّم، ويمكن فَهْمُهُ من القرائن واللّوازم الفكريّة، أي: وأعدَّ لهم جهنّم يُعَذَّبُونَ فيها، وتكونُ هي مصيرهم الذي سيصيرون إليه، وساءتْ مصيراً. ولَسْتُ أرى أنّ العطف على محذوف مقدَّر ذهناً يقتصر على الفاء التي تسمَّى الفاء الفصيحة، بل قد تكون الواو فصيحة أيضاً، وكذلك غيرهما من حروف العطف، وفي القرآن من ذلك الشيء الكثير.

وكما طمأن الله المؤمنين في الآية (٤) من السّورة بأنّ له جنود السماوات والأرض، فهو يؤيّدهم بجنوده بحسب علمه وحكمته، لوّحَ للمنافقين والمنافقات

والمشركين والمشركات في الآية (٧) من السورة بأنّ لـه جنودَ السمـاوات والأرض، أي: فهـو يُسَلّطُ من جنوده عليهم فينكّلون بهم وينتقمـون منهم إذا شـاء، بمقتضى عِزّتِه الغالبة، وصفة حكمته التي يُدَبّر على وفقها مقاديره، فيقضي بالنصـر للمؤمنين الصـالحين، ويقضي بـالهـزيمـة والخـذلان والتّعْـذِيبِ والتنكيـل على الكـافـرين والمنافقين، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

خاطب الله رسُولَهُ ببيانِ بِهمّةِ رِسَالَتِـه، توطئةً لخطاب النـاس ببعض ما يجب عليهم تُجاهَ رَبّهم، وليكونَ هذا الخطابُ تمهيداً للحديث عن المبايعة التي حصلت بين الرسول والمؤمنين عند الشجرة في الحديبية، وهذه المبايعـة حدَثٌ مِنْ أحـداث رحلةِ العُمْرَة الّتِي أُحْصِرَ بها الرّسُـول والمؤمنون معـهُ، وكان فيهـا صُلْحُ الحديبيـة، وكان فيها تحلُّلُ المسلمين دون أداء منـاسكهم باعتبـارهم مُحْصَرين، وعـودتُهم إلى المدينة بفتح للإسلام مبين، كما سبق بيان ذلك.

وقد جاء في الآية (٨) بيان أنّ مُهِمّـة الرسـول في رسالتـه تشتمل على ثـلاثة عناصر:

العنصـر الأول: أنّهُ شـاهِدٌ، أي: هـو مُبلّغٌ رسالَـةَ رَبّه الّتي أمَـرَهُ الله بتبليغها للناس، ويأتي يوم القيامة فَيُسْتَدْعَى للشهادة بأنّه قَدْ بلّغ جميـع ما أَمَـرَهُ الله بتبليغِهِ، لم ينقُصْ منه شيئاً، وبشهادتِه هذه الموثّقة بالأدلّة تَنْتَقِلُ المسؤولية فتكونُ على الّذِين تبَلّغُوا عنه، لأنهم مكلّفـونَ بدورهم أن يُبلّغـوا الرسـالة إلى غيرهم كما تَبَلّغُـوهَـا،

وهكذا تباعاً في الأجيال وفي الشعوب، وهم مدعُوّون لتقديم شهاداتهم، ومسؤولية التبليغ هذه مسؤوليةٌ مُلْقاةٌ على الأمّة الإسلامية التي أجابت فآمنت وأسلمت، ويحملُ منها كلٌّ منهم على قَدْرِه، ويؤاخذ على مقدار تقصيره.

ونلاحظ بهذا التحليل أنّ مِن الإيجاز في التَّعْبير ذِكْرَ كَوْنِ الرسُولِ شاهِداً، لِيَدُلَّ باللُّزوم الذِّهْني على ما يكونُ قَبْلَ الشهادة من أمور، وأوّلُ هذه الأمور تَبليغُ ما أمره الله بتبليغه للناس.

العُنْصر الثاني: أنّهُ مُبَشِّر، أي: هو مُبَشِّرٌ من استجاب وآمَنَ وأطاع، بأنّ له رضوانَ الله والجنّة يوم الدين، وبما جاء في النصوص من بشريات معجّلَةٍ ومؤجّلَة دون ذلك.

العنصر الثالث: أنّه نَذِير، أي: هو مُنْذِرٌ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ، ولم يُؤْمِنْ، ومُنْذِرٌ مَنْ عَصَىٰ، بعذابِ الله وسخطه وغضبه، والطَّرْدِ من رحْمَتِهِ، في العاجلة وفي الآجلة، ويكون لكلّ من كفر وعصى من ذلك على مقدار جرمه وإثمه.

فقال تَعالى لرسُولِهِ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾.

والتفت ربُّنا تعالى بعد هذا الخطاب الموجّه للرسول فخاطب الناس مبيناً أُولَىٰ واجباتهم نحو ربهم، بعد إرساله رسوله إليهم، وهي تشتمل على أربع واجبات عظمىٰ:

الواجب الأوّل: أنْ يُؤْمِنُوا باللّهِ ورَسُوله، فقال تَعالَى:

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

ويدخل في هذا الإيمان كلّ ما يتعلق بذات الله وصفاته وأفعاله، وكلّ ما يتعلّق بالرسول وصفاته وبلاغاته، وفق ما أنزل الله على رسوله وأمره بتبليغه للناس.

الواجب الثاني: أن ينصروا الله بنُصْرَة دينه ونُصْرَة رسُولهُ، ويبلّغُوا آيات كتابه ويُعلّموها الناس، ويبلّغوا سنة رسُوله وبياناته ويجاهدوا في سبيل الله بأموالهم

وأنفسهم، بمختلف أنواع الجهاد، على قدر الاستطاعة، وهذه الأمور تدخل في معنى «التعزير» فقال تعالى:

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾:

أي: وتنصروا الله.

الواجب الثالث: أن يعظّموا الله ويبجّلُوهُ بقلوبهم ونفوسهم، وأَنْ يُثْنُوا عليه بتمجيد صفات العظمة والجلال التي هي له بألسنتهم، في ذكرهم وعباداتهم، وهذه الأمور تدخل في معنى «التوقير» فقال تعالى:

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾:

أي: وتوقّروا الله.

الواجب الرابع: أن يُنزِّهُوا الله وَيُقَدِّسُوهُ عنْ كلّ ما لا يليق به من صفات النقص، التي تتنافى مع أزليته، ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته وقدرته، وأنّه يفعل ما يشاء ويختار، إلى سائر صفات الكمال التي هي له سبحانه.

وتنزيه الله عن كلّ ما لا يليق بكمال صفاته يدخل في معنى «تَسْبيحه» فقال تعالى:

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾

التسبيح: التنزيه.

الْبُكْرَة: أَوّلُ النهارِ إلى طُلُوعِ الشمس، وهو وقت صلاة الصّبح.

الأصيل: هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها.

فمن واجبات الدين الأولى تسبيح الله في هٰذين الوقتين، ومن صلّى الفجر والعصر يومياً فقد أدّى هذا الواجب.

وعوداً إلى بيان أمور تتعلّق بأحداث موضوع السورة الأصلي، بعد التمهيد بكلّيات دينيّة عامّةٍ للرّبط بها، والتفريع عليها، ذكر الله حادثة مبايعة من كان مع الرسول من المؤمنين في رحلة العمرة التي كان فيها صُلْح الحديبية، فأبان الله

عزّ وجلّ ثلاث قضايا حول هذه البيعة:

القضيّةُ الأولى: أنّ الذين يبايعون الرسول المأذون من اللّهِ عزّ وجلّ بإجراء هذه البيعة إنّما يُبَايِعُونَ الله، فبيعتُهُمْ هي مع الله، لأنّه تعالى هو الذي يحاسبُ بعد ذلك عليها، فيُثِيبُ من أوفى بعهده بأجْرٍ عظيم، ويُجازي من يَنكُثُ بالعدل، فنقض العهد مع الله من المعاصي الكبرى، والْقَصْرُ ملاحظٌ فيه الغرض الأساسيُّ من البيعة وهو نُصْرةُ دين الله، فالمبايعة في الحقيقة هي مع الله.

وأبان تعالى أنّ يدَهُ عزّ وجلّ فَوْقَ أيدي الذين يُبايعون رسُوله، مشارِكَةً في توثيق البيعة، ومبارِكَةً لها، مع الإشعار بالتزام كلّ ما يترتب عليها عنده من معونة وأجر عظيم، فقال تعالى لرسوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

وجاء استعمال الفعل المضارع «يُبَايِعُونَكَ» لتصوير حركة المبايعةِ المتابعةِ التي أجراها المؤمنون يومئذٍ.

القضيّة الثانية: تحذير من ينقض بيعته وهو قادر على الوفاء بها حتى آخر نفس من حياته، فإنّه يَضُرُّ بذلك نفسه، ولا يَضُرُّ اللّهُ ورسُولَهُ وجماعةَ المؤمنين شيئاً، فقال تعالى:

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أي: فهو الخاسر بنَكثِه.

القضيّة الثالثة: ترغيب مَنْ يفي بعَهْدِهِ في بَيْعته بأنّ الله سَيُؤْتيه أجراً عظيماً، وهو يشمل الأجر المؤجّل إلى يوم الدين، والأجر المعجّل قبل ذلك، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾:

أي: ومَنْ أتمّ الْعَمَلَ بكُلِّ ما عاهد عليه الله في مبايعته التي بايع عليها، فسَيُؤتيهِ في المستقبل غير البعيد أجراً عظيماً، أمّا في المستقبل البعيد يوم الدّين فقد أبانه الله في الآية الأخيرة من آيات سورة (الفتح) فقال تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

الوفاء بالعهد: إتمام العمل بكل ما جاء في عناصره.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ
يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا
أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن
لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

يخبر الله رَسُوله وهو في طريق عودته إلى المدينة من صُلْح الحديبية، أنّ الّذين لم يستجيبوا لدعوة الخروج مع الرسول لأداء العمرة، من الأعراب الذين حول المدينة، وكانُوا من المنافقين، سيعتذرون بألسنتهم عن تخلُّفهم قائلين: شغلتنا أموالُنا وأهلونا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا، أي: لم يكن تخلُّفنا خِذْلاناً لك وتباطُؤاً عن مناصرتك وعن تكثير سواد المسلمين.

قيل: وكانُوا من أعراب غِفَار، ومُزَيْنة، وَجُهَيْنَة، وَأَسْلَم، وأَشْجَع، والدُّئِل (أو الدّيل)، وكانَتْ مَنَازِلُهُمْ حَوْل المدينة.

وهذا خَبَرٌ عمّا سيكون، لأنّ الله عالم بنفوسهم، وعالم بما بيَّتُوا أن يقولوه للرّسول، حين بلغهم نبأُ الصُّلح، وخاب أمَلُهم بأنْ يُحارِبَهُ وَمَنْ معه من المؤمنين مشركو مكّة، ويَقْضُوا عليهم، ويتخلّصُوا من الرسول ودعوته.

وسمّاهُمُ الله مخلّفين (اسم مفعول) ولم يسمّهم متخلفين، إشارة إلى عدّة عوامل جعلتهم يتخلّفون، ومنها حكمة الله بأن يتخلفوا لأنهُم منافقون، حتّى ينصُرَ

رسوله بدونهم، وليكشفهم للرسول والمؤمنين، وليغيظهم ويعذّبهم بما يقضي لرسوله من فتح مبين.

وأبان الله لرسوله أنّ ما سَيقولونه من الاعتذار وطلب الاستغفار إنّما هو قول بألسنتهم على خلاف ما يُضمِرُونه في قلوبهم، إذْ هم مُنافقون، لم يكُنْ لهم عذْرٌ، ولا يؤمنون بأنّهم قد ارتكبُوا ما يحتاجون أن يستغفروا الله منه، ولا يؤمنون بأنّ محمّداً رسول الله حتّى ينفعهم استغفارُه لهم، ولكنّهم يجارون المسلمين في مفهوماتهم، التي من ضمنها أنّ التخلّف الذي كان منهم خطيئة تحتاج استغفاراً.

فما سيقولونه لا يَعْدُو أنْ يكون وسيلةً من وسائلهم التي يسترون بها كفرهم، ضمْن خطّة النفاق الّتي اختاروها لأنفسهم، فقال تعالى:

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

وعلّم الله رسوله ما يقوله لهم، وهو في الحقيقة خطابٌ من الله لهم بأسلوب تكليف رسوله أن يقول لهم ما جاء في التعليم، ومع ما في هذا الأسلوب من إشعارٍ بالإعراض عنهم، فهو يتضمّن توجيه الرسول أن يبيّن لهم ويشرح ويُفصّل ما جاء في التعليم، وأن يُبْرز ما فيه من مطويات لم تذكر بصريح اللّفظ، لكنّها تُفْهم باللّوازم الذهنيّة، وبالجمع بين مفهومات الجمل والربط بينها، وبدلالات بعض الألفاظ.

وبالتدبّر نُلاحظ أنّ هذا التعليم قد اشتمل على بيان القضايا التالية للمخلّفين من الأعراب، وهي قضايا موجّهة لكلّ ذي استعداد لان يُدْرِكَ حتّى آخرِ الدّهر:

القضية الأولى: أنّ التعامل في أمور الدّين تعاملٌ مع الله الرّبّ الخالق، ولو كان من خلال التعامل مع الناس والأحياء والأشياء، فالله هو الذي يراقب أعمال العباد، ويحاسبهم عليها، ويعلم ما في صدورهم من أغراضٍ ونياتٍ وعقائدَ، ويعلَمُ مطابقة الظاهر للباطن ومخالفته له، ثم هو الذي يجازي على الأعمال، إن خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرٌّ، فهو الربّ الخالق مالك الوجود كلّه لا شريك له.

وهذه القضية هي من أصول الدين.

القضيّة الثانية: أنّ الذي يَمْلِكُ الضرّ والنفع في الوجود هو الله وحده لا شريك له، فإنْ أراد الله نَفْعَ عبْدٍ من عباده لم يَمْلِكْ أحَدٌ في الوجود منْعَ هذا النفع عنه، وإنْ أراد الله ضرّ عبْدٍ من عباده لم يَمْلِكْ أحَدٌ في الوجود دفْعَ هذا الضّرّ عنه.

أي: فإذا كان غرض المخلّفين من الأعراب عن الخروج مع الرسول ﷺ لأداء العمرة خَذْلَهُ، وتمكينَ مشركي قريشٍ من القضاء عليه وعلى المؤمنين معه، وكان الله قد أراد حفظهم، ومنحهم الفتح المبين، وتهيئةَ الوسائل لِيَنْصُرَهُمْ بها نصْراً عزيزاً، فإنّه لا تُوجَدُ قُوّةٌ قادرة على منع هذا الخير الذي أراده الله لهم.

دلّ على هذه القضية من النصّ قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا... ؟﴿١١﴾﴾.

لَمْ يأتِ التعبير بأسلوب: إنَّكُمْ لا تَسْتَطِيعُونَ بوسائلكم حجْبَ نَفْعٍ أرادَهُ اللَّهُ لِرَسُولِه والمؤمنين معه، فتخلُّفُكُمْ لَمْ يجْلِبْ ضرَراً لهم، وذلِكَ لأنّ الله أراد خلاف ذَلِكَ، بل جاء التعبير بقلْب الأمْر عليهم أنفسهم، فهم لا يملكُونَ دفْعَ ضرٍّ عن أنْفُسِهِمْ إنْ أراد اللّهُ بِهِمْ ضرّاً، ولا يمْلِكُ أحَدٌ حجْبَ نفْعٍ أراد اللّهُ أنْ يَنْفَعَهُمْ به، فليعَمِّموا هذه القاعدة الإيمانية، وليطَبِّقُوها على الرّسُولِ والمؤمنين إنْ كانوا أهل فكرٍ وتَدَبُّر.

وهذا من روائع أساليب الإقناع، ومن الحجج المسكتة الدامغة، لأنهم متى قالوا: إنَّ اللّهَ إذا أراد بنا نفعاً أو ضرّاً فلا أحد يدفع ذلك عنّا، لزمهم أن يطبقوا هذه القاعدة على جميع الناس، إذ ليست لهم خصوصية تحصُر القاعدة فيهم.

وهذه العبارة دلّت أيضاً على القضية الأولى عن طريق اللُّزوم الذهني، باعتبار أنّ القضية الأولى هي الأساس الذي تتفرّع عنه القضيّة الثانية، وتُفْهَمُ أيضاً من دلالة النفي الذي دلّ عليه الاستفهام، إذْ معنى الكلام: لا أحدَ يملك شيئاً من ذلك غير الله، لأنّ الله هو الرّبّ الخالق المالك للوجود كلّه وحده لا شريك له، ولا أحد يستطيع أن ينازعه في أمر، وهو الذي خلَق الناس ليبلوهم ويحاسبهم ويجازيهم.

ودلّ حرف العطف (الفاء) في صدر جملة ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ...﴾، وهو كلامٌ تعليميٌ مستأنَف، دلّ على أنّه يوجَدُ كلامٌ مطويٌّ ملاحظٌ ذهناً غير مذكورٍ في اللّفظ، وقد عطفت الجملة المذكورة عليه، وأفْصَحت الفاء العاطفة عنه، وهذا الكلام المطويّ لا بدّ أن يكون حول إثبات توحيد الربوبية والإلٰهيّة لله وحده، وأنّ التعامل الديني هو تعامل معه وحده لا شريك له، وأنّه هو الذي يحاسب ويجازي، وهذا المطويُّ قَدْ تُرِكَ للرّسُولِ ولأهل التدبّر العميق بيانُه.

القضية الثالثة: إشعارُ المخلّفين من الأعراب بأنّهم على ضلال، إذْ يتصوّرون أنّ ما يقومون به من أعمال، وما يُخْفونه من كُفْر يسترونَـهُ بأعمال ينافقون الرسول والمؤمنين بها، وما يدبّرون ويُبيّتون من مكر وكَيْد، أمُورٌ مستورةٌ غير مكشوفة، بل كلُّ أمرهم معلومٌ مشهودٌ لله عزّ وجلّ شُهُودَ حضُورٍ مَعَهُمْ في ظواهرهم وبواطنهم حتّىٰ أعماقهم، في خِبْرَةٍ تامّة.

دلّ على هذه القضيّة من النصّ قول الله تعالى:

﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

أي: هو خبير دواماً بما تعملون، ودلّ حرف العطف «بَلْ» على إبطال قضيّة ماثلةٍ في أذهان المنافقين، وهذه القضية غير مذكورة في اللّفظ، للعلم بها لزوماً من إبطالها بحرف العطف «بل» وهي تصوُّرهم أنَّ كفرهم ومكرهم وكيدهم أمورٌ مستورةٌ لا يعْلَمُ بها غيرهم، فأبَانَ اللّٰهُ عزّ وجلّ أنّه عليم بما هم عليه من مستوىٰ الخبرةَ، وعِلْمُ الخبرة هو الذي يكون مع الممارسة والمشاهدة للدقائق والخفايا.

القضيّة الرابعة: تتضمَّنُ تَكْذِيبَ المخلّفين المنافقين من الأعراب في ادّعائهم أنهم شغلَتْهُم أَمْوالُهُمْ وأهْلُوهم عن مصاحبةِ الرَّسُول وشدِّ أزره في خروجه إلى العُمْرة، وتَكْذِيبَهُمْ في طَلَبِهِمْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، وتتضمّن بيان حقيقة مَا كان في أذهانهم ومَا كان في قُلوبهم، وبيان حقيقتهم الكليّة.

* فالذي كان ماثلاً في أذهانهم هو أن عدَدَ المسلمين الخارجين لأداء العمرة مع الرّسول عدَدٌ قليل بالنسبة إلى القوّة الحربيّة الّتي يملِكُها مشركو قريش، وعَلِمَ المنافقون أنّ قريشاً لا يُمكّنون الرسول والمؤمنين معه من أداء عمرتهم، وغلَبَ على

ظنّهم أنّ القتال سينشب بين الفريقين، وأنّ الدائرة ستدور على المسلمين، وسينتهي أمرهم وأمْرُ الإسلام كلّه، وأنّ الرّسول والمؤمنين معه لن ينقلبوا من هذه الرّحلة إلى أهليهم أبداً، وفرح المنافقون بهذا الظنّ حتّى صار أمراً مُزَيّناً في قُلُوبهم، أي: صار عقيدةً ثابتةً ممتزجةً بعاطفةِ رغْبةٍ وَطَمَعٍ وتلهُّف، لأنّهم يريدون التخلّص من هذا الدين، ومن خطّة النفاق التي يمارسونها دواماً، في ازدواجيّة متناقضةٍ بين السلوك الظاهر، وما يضمرونه في الباطن.

وهذا الظنّ منهم قد كان مُسْتَنَدُه الظواهر السببيّة التي بدَتْ لهم، في موازين القوى المنظورة، ولذلك جاء التعبير بمادّة «ظنّ» التي تستعمَلُ في الظنّ الضعيف المردود، وفي الظنّ المتوسط، وفي الظنّ الراجح، بخلاف مادّة «حَسِبَ» فهي لم تستعمل في القرآن إلّا في الظّنّ الضعيف المردود، وفي التوهّم الذي لا تقترن به أمارات ولا أدلّة.

وكان لهم ظنٌّ آخر نابع من منابع كفرهم، وهو يتعلّق بالقوى غير المنظورة التي قد يُمِدُّ اللّهُ بها، فظنُّوا بالله ظَنَّ السَّوْءِ، وهو أنّ الله لن ينصُرَ محمّداً والمؤمنين معه، لأنّهم على غير الحقّ في محاربة شركائهم من الأوثان وغيرها، أو أنّ الله استخرجهم من المدينة ووجّههم لمكّة ليقضيَ عليهم بأيْدي مشركي قريش.

دلّ على هذه القضيّة بكُلّ فُروعها قول الله تعالى:

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

الظَنُّ الأول هو الظنُّ المستند إلى الظواهر السببيّة التي بدت لهم في موازين القوى المنظورة.

والظَّنُّ الآخر هو الظنُّ المستند إلى عقائدهم الشركيّة التي يُبْطِنُونها.

وتزيين الظّنّ الأول في قُلوبهم قد اشتركت في توليده عدّة عوامل: وساوسُ الشياطين، وأهواؤهم، ورغبتُهم في أن يتخلّصوا من الازدواجية المتناقضة بين ظاهرهم وباطنهم، وكراهيتُهم للرسول والمؤمنين، وحسَدُهُمْ مِنَ القوّة والسلطان

الذي وصَلُوا إليه في المدينة وفيما حولها، ولذلك جاء التعبير بصيغة الفعل الذي لم يُسَمَّ فاعِلِه، ليشْمَلَ كُلَّ هذه العوامل والله أعلم.

ويُلاحظُ أنّ ظَنَّهم قد كان ظنّاً قوياً في نفوسهم، بدليل وُصُولِه إلَىٰ أن يَكُونَ مُزَيّناً فِي قُلوبِهِمْ، فمن المعلوم أن ما يصل إلى القلب لا بُدَّ أن يكون قوياً.

وجاء عطف جملة: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ...﴾ بحرف «بل» الذي يدلُّ على الإضراب الإبطالي للدّلالة على كَذِب ادّعائهم أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، وكذِبِ اعترافهم بالخطيئة وبرغبتهم في أن يستغفر الرّسول لهم.

القضية الخامسة: بيان أنّهم قومٌ فاسدون، مصيرهم إلى أن يكونوا هالكين.

دلّ على هذه القضيّة قوله تعالى:

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾:

أي: وكنتم قوماً فاسدين لا خير فيكم، وفسادكم يُفْضِي بكُمْ إلى أن تكونوا هالكين، إنهم فاسدون وهالكون حتماً لأنّهم منافقون.

«بُور» يقال للواحد وغيره، وقد يكون جمع «بائر» يقال لغة: بَارَ يَبُورُ بَوْراً فهو بائر، أي: هلك. ويقالُ: أباره الله إذا أهلكه.

و «البَوار» في اللغة الهلاك، و «البُورُ» الهلكىٰ. قال الجوهري: الرجُلُ البور، الفاسِدُ الهالك الذي لا خير فيه.

أقول:

ويمكن أن نفهم أنّ كلّ ذي فسادٍ يؤدّي به فسادُه إلى الهلاك فهو «بُور» واللفظ يطلق على الواحد وغيره.

القضيّة السادسة: بيان أنّهم مشمولون بحُكْمِ قرارٍ جزائي ربّانيّ عامّ يدخل فيه الكافرون جميعاً سواءٌ أكانوا مجاهرين بكفرهم أو منافقين، وهذا القرار ينصّ على أنّ الكافرين جميعاً سيُعَذَّبون بعذاب السَّعِير، أي: بعذاب النار، إذا ماتوا على كفرهم ولم يتوبوا.

السّعيرُ في اللّغة: يأتي بمعنى النار، وقيل: السّعير، لهبُ النـار. ويُقالُ: نـارٌ سَعِيرٌ، أي: نارٌ مَسْعُورَةٌ، بمعنى مُوقَـدة. ويقالُ: سَعَـرَ النارَ يَسْعَرُها، وأسْعَـرَهَـا وسَعَّرَها، إذا أوقدها وهيّجها.

دلّ على هذه القضيّة قول الله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾:

أي: ومنْ لمْ يؤمِنْ باللّهِ ورَسُولِهِ مستقبلاً، أو مرّ عليه عمْـرُهُ في الحياة الـدّنيا ولم ينشىء هذا الإيمان، أو لم يستبْقه حتى يلقى ربَّهُ وهـو عليه، فسيُعَـذَّبِ بعذابِ نارٍ محرقةٍ، وهذا السّعير مهيأً قَدْ أَعْتَدَهُ اللّهُ بعناية، ليجازي الكافرين به.

أَعْتَدَ الشيءَ: أي: اعَدَّهُ وهيّأهُ بعناية، ويقالُ: شيءٌ عَتِيدٌ، أي: مُعَدٌّ حاضِرٌ. و «الْعَتَادُ» الشيءُ يُعَدُّ لأمرٍ ما وَيُهَيَّأُ له.

وقد جاء الاستغناء بجملة: ﴿فَإِنَّـا أَعْتَدْنَـا لِلْكَافِـرِينَ سَعِيراً﴾ جـواباً للشـرطِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يُـؤْمِنْ باللّهِ ورَسُـوله﴾ عن ذكـر جملة الجواب الأصليّـة وهي: نُعَذِّبُـهُ يَوْمَ القيامة بعذابِ السّعير، للعلم بها لزوماً، وهو من الكنايات.

والتنكير في لفظ ﴿سَعِيراً﴾ لتعظيم أمْرِ نار جهنم، أي: سعيراً عـظيماً شـديداً على المعذّبين به، أعاذنا الله منه وحمانا بالإيمان والإسلام والاستقامة على الطاعة.

القضية السابعة: تتضمّن الإغراء بالتوبة والحثّ عليها، والإشعارَ بأن من تاب قبـل فوات الأوان تـاب اللّهُ الـرّبُّ الخـالق عليـه، فهـو الـذي لـه مُلْكُ السمـاوات والأرض، ومن صفاته أنّه غفور رحيم، يغفر لمن يشاء، ومشيئتُـه لا تفارق حكمتـه، ويُعَذِّبُ من يشاءُ، ومشيئَتُه لا تفارق حكمته.

فالمخلّفُون المنافقون من الأعراب كغيرهم، ما دَامُوا في الحياة، وَما دام بابُ التوبة مفتـوحاً للعبـاد، فإنّهم يملكـون أن يتوبـوا ويستغفروا ربّهم، فـإذا فعلوا ذلك وجَدُوا الله توّاباً غفوراً رحيماً.

وفتح باب التوبة والغفران والتذكيرُ به عند كلّ مناسبة داعيـة، هو من أسـاليب

الإصلاح التربوي للنّاس، في خطّة الرّبّ الخالق وحكمته، وهو من كمال حِلْمِهِ ورحمته.

دلّ على هذه القضيّة في النّص قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

لمّا كان النصّ موجّهاً بالدّرجة الأولى لمنافقين من المشركين، كان من الحكمة لدَىٰ إغرائهم بالتّوبة وإطماعِهِمْ بأن يغفر الله لهم، أن يُبْنَىٰ ذلِكَ على تصحيح الاعتقاد حول توحيد الربوبية وتوحيد الإلّهيّة لله الربّ الخالق وحْدَه لا شريك له، فجاء التمهيد بقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾:

أي: هو الرّبّ الخالق وحدَهُ للسّماوات الأرْض، فهو المالك لهما وحْدَهُ، ومن كان هو المالك لهما وحده فهو المستحقّ وحده للعبادة، فلا إلّه إلاّ هو.

فالتّوجيهُ للتوبة اقتضىٰ تصحيح الاعتقاد أوّلاً حوْل توحيد الربوبية وتوحيد الإلّهيّة لله وحده، لأنّ الكلام موجّه بالدرجة الأولىٰ لمنافقين من المشركين.

وبناءً على هذا الأساس تأتي الدعوة إلى التوبة التي يستحقّ بها التائب المغفرة، وقدْ جاءت هذه الدّعوة بأسلوب التذكير بقضيَّةٍ كلّيّة من قضايا صفات الله عزّ وجلّ، وهِيَ أنّهُ يغفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ويُعَذِّب مَنْ يشاء، فقال تعالى:

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾:

أي: فلا سلْطان لأحد عليه في قضايا المغفرة والتعذيب، لا من شريك، ولا من شفيع، وفي هذا تأكيد لتوحيد الربوبية والإلّهيّة لله عزّ وجلّ.

وليس في هذا دلالةٌ على أنّ مشيئة الله مشيئةٌ مزاجيّةٌ، غيْرُ موجَّهةٍ بحكمة الله وعَدْلِه ورحمته، فقد دلّت النصوص على أن مشيئته تعالى لا تُفارق حكمته، ومن حكمته تبارك وتعالى رحْمَتُه بعباده، وفضْلُه وعَدْلُه، فهُوَ يضَعُ الأشياء في مواضعها

بحكمة تامّة، ومن حكمته أن يتوب على التائبين إذا تابُوا وهم في رحلة الابتلاء، وأن يغفر للمستغفرين إذا استغفروا ربهم ضمن الضوابط التي وضعها للمستغفرين.

إنّ صفات الله عزّ وجلّ صفاتٌ متكاملاتٌ فيما بينها، لا ينْقُضُ بعضها بعضاً، ولاَ يَطْغَىٰ بعْضُها على بعض، فلا تطْغَىٰ طلاقة المشيئة على صفة الحكمة، ولا تطْغَىٰ الْقُدْرَة الكاملة على صفات العدل والرحمة والعفو والغفران، ولا تعمل القدرة والإرادة بدون أن تكونا محاطتين بشمول العلم وقيود الحكمة، وهذا من مقتضيات كمال صفات الله عزّ وجل.

فلا بُدّ أن يُفْهَم هذا النّصّ ضمن إطار الفهم المتكامل لصفات الله عزّ وجلّ.

وإطماعاً بغفران الله ورحمته قال تعالى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾:

أي: والله غفـور رَحيمٌ دواماً، لأنّ مـا كان لله من صفـات فلَهُ صفةُ الكينـونـة الدائمة المستمرّة.

وفي غَرْضٍ أنّ الله غفور رحيم دواماً دعوةٌ ضمنيّة للاستفـادة من هذه الصفـة العظيمة من صفات الله عزّ وجلّ، وذلك بالتوبة والاستغفار.

أمّـا التوبـة من النفاق وآثاره في السلوك فتكون بـإعلان التـوبـة، وبـالإيمـان الصحيح الصادق، وبالعمل الصالح بمقتضى الإيمان الصحيح.

وأمّـا الاستغفار فيكـون بسؤال الله أن يغفر مـا سلف من نفاق وعمـل سيِّـىء، مع اجتنابِ ممارسته عند الاستغفار.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ

أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم
مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ
حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٧﴾».

أُعِيدُ التذكيرَ بأنّ سورة (الفتح) نـزلت في أواخر السنـة السادسة من الهجرة عقب صُلْح الحديبية في طريق عودة الرسول والمؤمنين معه إلى المدينة، وهذا النصّ منها.

وقد اشتمل هذا النصّ على أخبارٍ بأحداثٍ قبل وقوعها، وهي من معجزات القرآن، واشتمل على تعليماتٍ وأوامر ونواهي ربّانية تتعلّق بهذه الأحداث، أو كان ذكرها مناسبة لبيانها.

الخبر الأول: أنّ الرسول والذين كانوا معه من المؤمنين، وبايعوه عند الشجرة في الحديبية سينطلقون بتوجيه الله لهم إلى قوم بنصرهم الله عليهم، دون عناءٍ كبيرٍ، ويهبهم من الأرض والقرى والأموال والأرزاق مغانم كثيرة، وأنّ هذه المنحة الرّبّانية ستكون إكراماً من الله لرسوله ولأهل بيعة الرضوان، والإعلام بهذا الخبر المستقبلي فيه إلماح إلى الخطة الربانية المدبّرة في حركة الفتوح الإسلامية.

وتحقّق هذا الخبر الذي تضمّن وعداً من الله بالنصر، ووعداً بحيازة مغانم كثيرة، فلم يُقِمِ الرسولُ في المدينة بعد عودته من الحديبية إلّا شهر ذي الحجّة من سنة ست من الهجرة، وأياماً من شهر محرّم لسنة سبع من الهجرة، ودعا من كان معه في الحديبية إلى الخروج لغزو خيبر بتوجيه من الله عزّ وجل، وكانت خيبر مساكن ومزارع لنزلاء الحجاز من اليهود، الذين سبق أن نزحوا إليها من بلاد الشام.

والأمر الرّبّانيّ المتعلّق بهذا الخبر هو منْع الذين تخلّفوا عن الخروج مع الرسول في عمرته، من الخروج معه في غزوته هذه، لأنّ شرف الانتصار فيها والمغانم التي تؤخذ بها هبة من الله لأهل بيعة الرضوان إكراماً لهم.

وقد أشار النصّ إلى هذا الخبر بقول الله تعالى فيه:

﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾.

ودلّت سوابق هذا القول على أن الخطاب فيه موجّه للرّسول وأهل بيعة الرضوان، ودلّت العبارة على أنّ الانطلاق السّريع سيكون لأخذ المغانم مباشرة، دون حاجة إلى قتال يذكر ويسجّل بعبارة تتلى.

وأشار النص إلى التكليف الرّباني المتضمّن منع المخلّفين عن اتباع المؤمنين ومشاركتهم في غزوة خيبر، بقوله تعالى:

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

فهذا تكليف من الله لرسوله نزل مقارناً للخبر عمّا سَيَقَعُ قبل وقوع الحدث.

الخبر الثاني: أنّ الْمُخَلَّفِين عن الخروج مع الرسول في عُمْرَتِه، سيُطالِبُونَ بأنْ يخرجوا مع الرسول والمؤمنين إلى غزو خيبر، حين يعلمون بأنّ الرسول خارج لغزوها، لِعِلْمِهم بأنّ سقوطها في أيدي المسلمين أمْرٌ سهل، ولِعِلْمِهم بأنّ فيها مغانم كثيرة.

لكنّ الأمر الرّباني قد نزل بمنْعِهم من الخروج مع المؤمنين، ولو على سبيل اتّباعهم في آخر صفوفهم، قبل الإعلان عن التوجّه لغزو خيبر.

إنّهم مع علمهم بما جاء في القول التكليفيّ الرّبانيّ المنزّل من قبل أن يقع الحدث ـ فقد تليت عليهم سورة (الفتح) ـ يُريدون أن يبدّلوا كلام الله التكليفي، محرّضين المؤمنين على معصيته، طمعاً في المشاركة بالمغانم، فيقولون للمؤمنين: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ ويظهر أنّهم لا يجرؤون أن يقولوا هذا الكلام للرّسول بعد أن تَخَلَّفُوا عن الخروج معه إلى العمرة، واعتذروا بأنّهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم كاذبين، وخذلوه، وأعلن القرآن أنّهم ظنّوا أنّ مشركي قريش سيقضون عليه وعلى المؤمنين معه، وأنّهم ظنّوا بالله ظنّ السّوْء.

فيجيبهم المؤمنون بأنّ الله عزّ وجلّ أمر رسوله بأن يقول لهم:

﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾:

أي: في هذه الغزوة. وأن يقول لهم:

﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾:

أي: مُنْذ أنْزِلَ سُورة (الفتح) وقَبْل أنْ يتوجّه الأمر بالخروج إلى غزو خيبر، وقَبْلَ أن تُطالِبُوا بالمشاركة في هذا الخروج.

فيردّ عليهم المخلّفُون وقد طمس الطَّمَعُ بصائرهم عن إدْرَاكِ دلالة التعليم الرّبّاني المنزّل في القرآن قبل الأمر بالخروج إلى غزو خيبر، فيقولون للمؤمنين: ليس الأمر كما تزعمون من التزام التعليم الرّبّاني، ولكنّ الأمر مدبّر، لأنكم تكرهون أن نشارككم في غنائم خيبر حسداً، فأنتُمْ لاَ تُحبّون لَنَا أن نُصيبَ من الخير الذي ستَحْصُلُونَ عليه في غزوتكم هذه، وتريدون أنْ تَسْتأثِرُوا بِهِ لأنْفُسِكُمْ.

الحسَدُ: كراهية الحاسِدِ أن ينالَ المحسُودُ الخيرَ الذي حسَدهُ فيه، وتمنّي زواله عنه إذا ناله، وإمساكه عنه قبل أن يناله، وقد يصاحبُه إرادةُ الحاسد ذلك الخير لنفسه.

هذه طبيعة المنافقين دواماً، يتخلّفُون عند المغارم، ويتهافتون عند المغانم، ويفجرون عند المخاصمة، فيتهمُونَ أهل الفضل والبرّ والتقوى بما يعْلَمُونَ مِنْ أنفسهم من سيّئات.

إنّهم حَسُودون، ويتّهمون بالحسد الفضلاء الشرفاء الذين لا يحسُدُونَ النّاسَ على ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فضله. وهم جبناء ويتّهمون الشجعان بالجبن. وهم بُخلاء ويتّهمون الكرماء بالبخل، وهكذا.

وقد أخبرنا الرسول أن من خصال المنافق أنّه إذا خاصم فَجَرَ، أي: تجاوز في الخصومة حدّه، فاستخدم فيها الاتّهام بالباطل، والسّباب والشتائم بغير الحقّ.

ويتوجّه هنا سؤال: هَلْ كان هؤلاء المخلّفون من الأعراب يُدْركون حقيقة مفهومات الدّين، وحقيقةَ كونِ محمّدٍ رسُولَ ربِّ العالمين، يُبَلِّغُ عنه رسالاته، وَحَقيقَةَ كَوْنِ الْقُرْآنِ كِتاباً يَنْزِلُ به الوحْيُ على مُحَمّدٍ رَسُولِ الله، أو أنّهم لا يفهمون من الإسْلاَمِ إلاّ أنه دعوةٌ قامَ بها رجلٌ عربيٌّ من قُرَيشٍ يَطْلُبُ مُلكاً، ويجمع من استطاع لمناصرته من العرَب، فَهُمْ إنْ وجَدُوهُ انتصر اتّبعُوه ليشاركوه في الغنائم، وإنْ لم ينتصر انقلَبُوا عليه وانحازوا منضمّين إلى أعدائه؟

القرآن يجيب على هذا السؤال المطوي، فيُبطلُ بحرف «بَلْ» الاحتمال الأول، ويثبت الاحتمال الثاني، فيقول تعالى:

﴿ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾:

أي: لا يَفْقَهُونَ من قضايا الدّين إلّا شيئاً قليلاً، لا يكوِّن لديهم عقيدةً صالحة، ولا إيماناً صحيحاً مقبولاً، بسبب أنهم مشركون باطناً.

أقول:

وقد خفي في هذه الآية (١٥) على بعض أهل التأويل أنّ النّصّ استخدم الكلام عمّا سيقول المخلّفون، وعمّا ينبغي أن يجابوا به، للدّلالة على التوجيه الرّباني لغزوةٍ ما، ولمنع المخلّفين عن مشاركة أهل بيعة الرضوان فيه، وللدّلالة على أنّ الغنائم فيه هبة من الله لهم ولرسوله، وليس للمخلّفين نصيب منها، وأنّ هذا الكلام نفسه قد تضمّن كلام الله الذي يُريدُ المخلّفون أنْ يُبَدِّلُوه، فبحثوا عن نصٍّ غيره، فلم يجدوا فأحالوا الأمر على وحيٍ غير مَتْلُوّ، وبعضهم أحال الأمر على نصّ في سورة (التوبة) وهو متأخر النزول عن كلّ أحداث صلح الحديبية وغزو خيبر.

فالنصّ القرآني هُنَا قد دمَجَ عدّة بلاغات في بلاغ واحد، نظير أن تقول لمن تُرِيدُ أن تُكْرِمه: إذا جئت غداً لأطعمك طعاماً فاخراً نقل لفلان الطفيلي لا تَتْبَعْني.

فقد دلّ هذا الكلام على وعد المدعوّ، ونهي الطفيليّ عن الحضور، مع دلالته على أنّ الأمر قد أعدّت العدّة له، وأنّ الحدث سيقع غداً حسب الوعد، ما لم يأت مانعٌ قاهر، ولا شيء في الوجود يمنع تحقيق وعد الله وخبره عمّا سيحدث.

الخبر الثالث: أنّ حركة الفتح الإسلامي المتطلّعة شطر ممالك الأرض ودُولها العظمَى يومئذٍ، ستتوجّه إلَى قَوْمٍ أولي بأسٍ شديدٍ بجيُوشهم النظامية، وأسلحتهم وعتادهم، وتدريباتهم، وأنّ المخلّفين من الأعراب عن مشاركة الرسول في عُمْرَتِه، والْمَمْنُوعينَ عن مشاركته في الغزوة القريبة التي يُصيب المؤمنون فيها مغانم كثيرة، سَيُدْعَوْن مُسْتقبلاً للخروج لقتال قوم أولي بأس شديد، في حركة فتح داخل الجزيرة

العربية وخارجها، وأنّ هؤلاء القوم سيَمْتَنِعُون عن دفع الجزية، وعن تأمين حركة انتشار الدّعوة الإسلامية، وإعطاء الحريّة لشعوبهم تختار من الدين ما تشاء، فلا يبقى أمام الجيش الإسلامي إلاّ أن يقاتِلُوا جُيُوش هذه الممالك وقياداتها، حتّى يُسْلِمُوا أَوْ يَسْتَسْلِمُوا، وسكت النّص عن ذكر احتمال هزيمة المُسْلِمِين، لأنّهم إذا صَدَقُوا واستقاموا على صراط الله في جهادهم فهم منصورون حتماً بمقتضى وَعْدِ الله، إنّ الله لا يُخْلفُ الميعاد.

وقد دلّت الآية (١٦) من النصّ على هذا الخبر ضِمْناً وعن طريق اللّوازم الذهنية، لكنّ صريح اللّفظ فيها يشتمل على تكليف الرسول أن يقول للمخلّفين من الأعراب:

﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾:

أي: ستُدعَوْنَ إلى قِتَال قَوْمٍ أولي بأس شديد، وسَيَرْفُضُون ما يُعْرض عليهم، وستُقَاتلونهم إنْ خرجتم لقتالهم مع المؤمنين، أو يُسْلِمُون بالدخول في الإسلام، أو بالاستسلام للمؤمنين، والتخلية بينهم وبين بلادهم وشعوبهم ينشرون الإسلام، ويقيمون فيها حُكْم الله.

ويشتمل أيضاً على تكليف الرسول ﷺ أن يقول للمخلّفين من الأعراب، وهو خطاب يصْلُح توجيهه للجميع:

﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾:

أي: فإنْ تُطِيعوا أَمْرَ الدَّعْوَة إلى قتالَ الْقَوْم المشار إليهم أُولي البأس الشديد، فتخرجوا للقتال مع المؤمنين الصادقين، يؤْتِكم اللّهُ أجراً حسناً معجّلاً، وأجراً حسناً مؤجّلاً إلى يوم الدين مشروطاً بصحّة إيمانكم وابتغائكم رضوان الله والجنة، وهذا الشرط يُعْلَمُ من نصوصٍ أُخْرَىٰ كثيرة، فينبغي ملاحظته هنا، وفي كلّ نصٍّ لم يصَرَّحْ به فيه.

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾:

أي: وإنْ تَدْبِرُوا وتَبْتَعِدوا ولم تستجيبوا لأمر الدعوة إلى قتالهم:

﴿ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾.

حينَ دُعِيتُمْ للخروج مع الرَّسُولِ في عُمْرَته، لشدّ أزره، وتقوية جيشه:

﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾.

لأنّ أَمْرَ الرَّسُولِ بالخروجِ إلى القتال يجعل الخروج واجباً، وكذلك أَمْرُ قائد المؤمنين وإمامهم من بعده، وإنْ كان هو من دون أمر القائدِ عَمَلاً من أعمال البرّ التي لا تجب إلاّ في أحوال النفير العامّ، فأمْرُ قائد المؤمنين به يجعله فرضاً، وبناء على ذلك يستحقُّ مخالِفُهُ العذابَ الأليم.

واستثنى الله عزّ وجل ذوي العاهات، فهم لا يكلّفون الخروج للقتال، فقال تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ... ﴿١٧﴾ ﴾.

ويُقاس على أصحاب هذه العاهات أَشْبَاهُهُم.

واقتضت الحكمة البيانيّة ذكر القاعدة الكليّة التي تندرج فيها الحالة الخاصّة التي وردت في النصّ، وفق أسلوب القرآن الذي يختم غالباً ببيان الكليّات العامّة بعد ذكر الجزئيّات الّتي تندرج فيها، لتثبيت القواعد الدّينيّة الكليّة في أذهان المؤمنين، فقال الله تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

وانتهى النص

● ● ●

النصّ الحادي والثلاثون

وهو من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول)
«السورة (٢٦) من التنزيل المدني»
مـــن الآيـــة (٤١)
حول تكليف الرسول أن لا يحزن
من أجل المنافقين الذين يسارعون في الكفر

* قال اللّهُ عزّ وجل خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ . . . ﴿٤١﴾﴾.

* * *

(١)
ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

قرأ جمهور القراء العشرة: [لَا يَحْزُنْكَ] من حَزَنَهُ يَحْزُنُهُ حُزْناً.

وقرأ نافع [لاَ يُحْزِنْكَ] من أَحْزَنَهُ يُحْزِنُهُ إِحْزَاناً (الرباعي).

والقـراءتان بمعنى واحد، وهما لُغتان عـربيتان، قـال الجوهـري: حَـزَنَـهُ: لُغـة قريش، وأحْزَنَهُ لغةُ تميم.

الْحُـزْنُ والْحَزَنُ: ضـدّ الفرح والسُّـرُور، وهو غمٌّ وكَـرْبٌ يُصيبُ النّفس، بسبب أمْرٍ مكروه.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وسبب نزوله

أخذ بعضُ الحزن يدبُّ إلىٰ نفس الرسول ﷺ بسبب بعض المسلمين، وهم في الحقيقة منافقون، إذ اكتشف من تصرُّفاتِهِمْ ما يَدُلُّ علىٰ أنّهم يُسارِعُون مُتَوَغِّلِين في طريق الكُفْر.

فنهاه اللّهُ عن ان يَحْزُنَهُ أَمْرُهُمْ، وأبان لَهُ أنّهم ليسوا بمؤمنين حقّاً، بل هم منافقون، قالُوا: آمَنّا قَوْلاً بِأَفْوَاهِهِمْ، ولٰكِنَّ قُلُوبَهُمْ لَمْ تُؤْمِنْ، فهم لا يستحقُّونَ أَنْ يُحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ، على تصَوُّر أنّهم كانوا مؤمنين واتّخذُوا يتحوّلون إلى طريقِ الكفر، ويُسارعون فيه.

ويظهر ممّا جاء في توابع هذا النصّ من الآية وممّا بعدها أخذاً من دليل الاقتران، أنّ المشار إليهم هم من منافقي اليهود، وأنّ الرسول اكتشف بفطنته أنّ هؤلاء المسلمين بحسب الظاهر يتصرّفون تصرفات تتنافىٰ مع صدق الإيمان بمناسبة مَقْدَمِ وفدٍ من اليهود ليحكم في أَمْرِ زانِيَيْنِ منهم، رجل وامرأة مُحْصَنَيْن، رجاء أن يحكم بِجَلْدِهما وَفضْحِهِما والتشهير بهما فقط دون رجمهما، على ما اصطلحوا عليه مخالفين حكْمَ التوراة، وقد جاء خبر هذه القصة عند البخاري ومسلم وغيرهما.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر: (أنّ اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكَرُوا لَهُ أنّ رجلاً منهم وامرأةً زَنَيا، فقال لَهُمْ رسول الله ﷺ:

«مَا تَجِدُونَ في التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟».

فقالوا: نَفْضَحُهم ويُجْلَدُونَ.

قال عبد الله بن سلام: كذَبْتُم، إنَّ فيها الرَّجْم.

فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاة فَنَشَرُوها، فوضعَ أحدُهُم يَدَهُ علىٰ آية الرجم، فقرأ مَا قبْلَها وَمَا بَعْدَها.

فقال له عبد الله بن سلام: ارفَعْ يدَكَ، فرفع يَدَهُ، فإذا آية الرَّجم، فقالوا: صدَقَ يا مُحمَّدُ، فيها آيَةُ الرَّجْم، فأمَرَ بهما رسول الله ﷺ، فَرُجما.

قال عبد الله بن عمر راوي الحديث: فرأيت الرجُلَ يَحْني على المرأة يقيها الحجارة).

فما جاء بعد هذا النصّ في السورة يعالجُ موضوع هذه القصة كما ذكر المفسّرون.

* * *

(٣)

المفردات اللُّغوية في النصّ

﴿يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾:

سَارَعَ بمعنى «أَسْرَعَ» مع زيادة في المعنى أخذاً من صيغة «فاعل» التي تدلّ في الأصل على المشاركة والمنافسة، والمنافسة تكون عادة مصحوبة بمضاعفة الجهد، فإن لم تكن مشاركةٌ ومنافسة بقيت دلالة الصيغة على زيادة بذل الجهد في السّرعة.

والسُّرْعَةُ: ضدّ البُطْءِ والسَّيْرِ الْهُوَيْنَى.

يقال: أَسْرَعَ السَّيْرَ، وأَسْرَعَ في السَّيْر، ويقال: سَارَعَ إلَى كذا، وسَارَع في الطريق.

فمعنى: ﴿يُسَارِعُونَ في الكُفْر﴾ يُسارعونَ السَّيْرَ في سُبُلِ الكُفْرِ.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾:

أفواه: جَمْعُ مفردُه: «فُوه» وهو الفم. ويقال لواسعة الفم فوهاء.

أي: قالوا: آمنا بسَعَةِ أفواهِهِمْ، ولم يقولوا ذلك بألسنتهم فقط، وفي هذا إشارة إلى تَنَطُّعِهم وتَشَدُّقِهم بادِّعاء أنّهم آمنوا، وهذا من سِمَات أصحاب الدعاوى الكواذب، فاختيار لفظ «الأفواه» بدل «الألسنة» قد دلّ على أنهم يملؤون أفواههم بقولهم: آمنّا.

* * *

(٤)

مع النّص في التحليل والتدبُّر

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

نادى الله عز وجلّ النبيّ محمّداً ﷺ بوصف كونه رسولاً، إشارة إلى أنّ الرّسول مُبلِّغُ رسالَةِ ربّه، فليس من مُهِمّاتـه في رسالتـه تحويـلُ الناس من الكفـر إلى الإيمان، أو إمساكهُمْ في الإيمان ومَنْعُهم عن أن يخرجوا منـه، وعن أن يسارعـوا السَّيْر في سُبُـل الكفر، حتّى إذا اختار بعض قومه لنفسـه أن يكفر حَـزِن من أجله، بدافـع شعورٍ خفيّ لدَيْهِ أنّه لم يُؤدِّ واجبَهُ الكامل نحوه.

إنّ الرسول مبلِّغٌ نَاصِحٌ أمين، وليس مُكْرِهاً ولا مُجْبِـراً ولا محوِّلاً عن غيـر طريق إرادة المبلَغ الحرَّة، فالمبلَّغُونَ همُ المسؤولُونَ عن أنفسهم، وقـد وهبهم الله الإرادات الحـرَّة ليختـاروا بهـا في حيـاة الامتحـان مـا يشـاءون لأنفسهم، وعليهم بعـد ذلـك أن يتحمّلوا نتائج ما اختاروا لأنفسهم، ولا يَتحمَّلُ غيْرُهُمْ عنْهُمْ شيئاً من المسؤولية.

وهذا أَحَدُ نداءَيْن نادى الله بهما النبيّ محمّداً بقـولـه لـه: ﴿يَا أَيُّهَـا الرَّسُـول﴾، والنداء الآخر قول الله له في سورة (المائدة) أيضاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

فـالنداءان اللّذان نـاداه الله فيهما بـوصف كونـه رسولاً يتعلّقـان بتحديـد مهمّاتِ رسالته، وإيقافه عنـد حدودهـا، ومِنْ تَجاوُزِ حُـدُودِ الرّسـالة أن يَحْـزن من أجل الـذين يُسَارعون في الكُفر، وهُمْ في باطن الأمر منافقون:

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾:

أي: ملَئُوا أفواهَهُم بكلمة «آمَنّا» تَنطُّعاً وتَشدُّقاً.

﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾.

مـع أنّ المطلوبَ الأوّلَ في الـذين آنْ يُؤْمِنَ الْقلبُ، فَمَنْ لم يؤمِنْ قَلْبُـهُ لم يصِحّ من إسـلامـه ولا من عَمَلِه شيءٌ، وهـو من الكـافـرين، واللهُ لا يهـدي بـالجبْـرِ الْقَـوْمَ الكافرين، لأنّ المطلوب أن يؤمنوا باختيارهم، ولا يَحْكُمُ بالهداية للقَوْم الْكافِرين، لأنّه لا يحكُمُ ولا يقضي إلاّ بالحقّ والعدل.

● ● ●

النصّ الثاني والثلاثون

وهو من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً
«السورة (٢٦) من التنزيل المدني»
الآيات من (٥١ ـ ٥٣)

حول اتخاذ الذين في قلوبهم مرض
من النفاق اليهود والنصارى أولياء

* قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾.

* * *

(١)
ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (٥٢):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [يُسَارِعُونَ فِيهِمْ] بكسر هاء الضمير.

وقرأ يعقوب: [يُسَارِعُونَ فِيهُمْ] بضمِّ هاء الضمير.

والقراءتان لغتان عربيتان في هاء الضمير.

* في الآية (٥٣):

(١) قرأ الكوفيون (عاصم وحمزة والكسائي وخلف): [وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنوا] بإثبات حرف العطف (الواو) ورفع لام «يَقُولُ».

وقرأ البصريان (أبو عمرو ويعقوب): [وَيَقُولَ] بإثبات حرف العطف، ونَصْبِ لام «يقولَ».

وقرأ نافع وأبو جعفر (المدنيان) وابن كثير (المكي) وابْن عامر (الشامي) [يَقُولُ] بدون حرف العطف الواو، وبرفع لام «يَقُولُ».

فالرّفع عند من قرأ [وَيَقُولُ ـ يَقُولُ] وجْهُهُ الاستئناف في الجملة، فالفعل المضارع في الاستئناف يُرْفَعُ، أو الجملة معطوفة على جملة: [فَعَسى الله أنْ].

والنصْبُ عند مَنْ قرأ [وَيَقُولَ] مع إثبات حرف العطف، وجْهُهُ أنّ الفعل معطوف على الفعل المنصوب في الآية السابقة وهو [فَيُصْبِحُوا].

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، فالاستئناف لا يقتضي ترتيب هذا القول على مجيء الفتح أو أمر من عند الله، وهذا يكون لدى المؤمنين الذين لهم معرفة بالمنافقين، والنصْبُ يقتضي هذا الترتيب، وهو يكون لدى المؤمنين الذين لا يكتشفون نفاق هؤلاء المنافقين إلّا بعد مجيء الفتح أو أمْرٍ من عند الله.

وإثبات واو العطف وحذْفُها وجهان أيضاً من الأداء البياني في حالة الرفع، فإثبات الواو وجْهُهُ أنّ جملة [وَيَقُولُ] مستأنفة، أو معطوفة على جملة [فَعَسَى اللَّهُ أَنْ] في الآية السابقة، وحذف الواو وجهه أن الجملة مسْتأنفة وهي واقعةٌ جوابَ سؤالٍ مقدَّرٍ ذِهْناً، وهو: «ماذَا يقول الذينَ آمَنُوا حينئذٍ؟» الجواب: [يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟!!] على وجْهِ الاستفهام التعجُّبي من التَّبايُن بين قولِهِمْ وحقيقةِ أمرهم.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وسبب نزوله

يحذِّر الله الذين آمنوا بالنَّهي المشدّد عن أن يتّخذوا اليهود والنصارى أولياء، يُحالِفُونهم، ويناصرونهم، ويُطْلِعُونهم على أسرار المسلمين، ويسْتَنْصِرون بهم ضدّ إخوانهم المؤمنين، ويُداخلونهم ويخالطونهم، إلى غير ذلك ممّا يدخل في معنى الموالاة.

وقد جاء هذا التحذير بمناسبة وجود فريق ضمن صفوف المؤمنين هم منافقون يوالون الكافرين سِرّاً بكلّ جراءة وتصميم، وفريقٍ آخر في قلوبهم مرضٌ من الشك والريب وضعف الإيمان يُسَارعون مشياً في طريق موالاة الكافرين، وباعث ذلك في نفوسهم تخوُّفُهُمْ من أنْ تدور الدائرة ضدّ المسلمين، فيُصيبَهم بذلك ما يكْرَهُون من أعداء الإسلام والمسلمين، فيُسْرِعون إلىٰ عقد صفقاتِ ولاءٍ في السّرّ مع اليهود والنصارى، لحماية أنفسهم من الدوائر السَّيِّئة التي قد تأتي بها الأيام.

يقولون هذا الكلام في أنفسهم سِرّاً، ولا يُصَرِّحون به أمام المؤمنين الصادقين، ولم يبلُغوا أن يكونوا منافقين كاملي النفاق.

وقد جاء في هذا النصّ كشفٌ لحال هذا الفريق المستخفي بما يُحَدِّث به نفسه، وبما يحاول أن يَعْقِده من صفقات ولاءٍ مع النصارى أو اليهود.

والمدّة الزمنية التي نزلت فيها سورة (المائدة) تقع في أواخر العهد المدني، بعد الانتصارات التي تحققت للرسول والمؤمنين في جزيرة العرب، وبدايةِ التوجُّه لفتح البلدان خارجها، بدءاً بنصارى العرب جهة تبوك.

وتوجّس الذين في قلوبهم مرض من تعرّض المسلمين لحرْب جيوش لا قِبَلَ لَهُمْ بها تأتي من جهة البلاد الواقعة تحت حكم القياصرة الرّوم.

فنزول سورة (المائدة) قد كان في الغالب بعد السنة الثامنة من الهجرة، وقد اختلفت الروايات في المدّة التي نزلت فيها، ولكنّ معظمها يدور حول السنتين الأخيرتين من حياة الرسول ﷺ.

أمّا روايات سبب النزول التي دارت حول عبد الله بن أبي بن سلول وتدخّله لحماية بني قينقاع والاكتفاء بإجلائهم، ثم لحماية بني النضير والاكتفاء بإجلائهم، وقد كان إجلاء بني النضير سنة أربع من الهجرة، فلست أراها تستقيم مع تاريخ نزول سورة (المائدة) وهي أيضاً لا تنسجم مع قول الله تعالى في هذا النصّ من سورة (المائدة):

﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۝٥٢﴾.

لأنّ ما كان من عبد الله بن أُبَيّ بن سلول قد كان أمراً قد صرّح به علناً، ولَمْ يكُنْ أمْراً مكتوماً في سِرِّهِ، وهو معروف النفاق، ومعلومٌ ولاؤه لليهود.

وكذلك ما ذُكِرَ من أنّها نَزَلَتْ في أبي لُبَابَة وما كان منهُ في حصار بني قريظة عقب غَزْوةِ الخندق، وذلك لأن الذي حصل منه لم يكن نفاقاً، ولا قريباً من النفاق، ولكنْ أخذته الرّقة على النساء والأطفال من بني قريظة، فلمّا استشاروه فيما سيفعل الرسول بهم إذا نَزَلُوا على حُكْمِه أشارَ بيده إلى حلْقِه، وأدرك خيانته فوراً، ورجع نادماً تائباً وربط نفسه إلى سارية في المسجد، حتّى تاب اللَّهُ عليه.

ولكن قد كان ضمن صفوف المسلمين منافقون، وكان فيهم الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق من الشكّ وضعف الإيمان، وقد ظهر الفريقان في غزوة تبوك، التي خرج إليها الرسول بالمسلمين في شهر رجب من سنة تسع للهجرة، وعقب غزوة تبوك، وما كان من أمر مسجد الضرار الذي أعدّه المنافقون بالاتفاق مع النصراني الخزرجي أبي عامر الذي كان يقال له أبو عامر الراهب، وأطلق عليه المسلمون اسم أبي عامر الفاسق في غزوة أحد، وانتهى به الأمر إلى قيصر الروم، واستنصره على النبيّ ﷺ، فوعَدَهُ ومَنّاهُ، وأقام عنْدَهُ، وكتب إلى جماعته من قومه من أهل الريب والنفاق يَعدُهم ويُمَنّيهِمْ أنّه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويردُّه عمّا هو فيه، وأمرهم أنْ يتخذُوا له مَعْقِلاً يقدم عليهم فيه من يأتي من قِبَلِهِ، فأقاموا مسجد الضرّار مجاوراً لمسجد قُباء، حتّى أمر الرسول بهدمه عقب خروجه إلى غزوة تبوك، ونزُول الوحي عليه بغرض المنافقين من بنائه.

وليس من الضروري فيما أرى ذكْرُ أسماءٍ بأعيانهم، أو حادثةٍ معيّنة، في بيان

سبب نُزول النّصّ، ولا سيما قد جاء فيه بيان أنّ الذين في قلوبهم مرضٌ لَمْ يُصَرّحُوا بما أسَرُّوا في أنفسهم.

والله أعلم.

* * *

(٣)
المفردات اللُّغوية في النّص

﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾:

أي: لا تَجْعَلُوا، وهذا من التوسع في استعمال فعل «اتّخذ» بمعنى فعل «جعل» لذلك فهو ينصبُ مفعولين، فقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنَّصارَىٰ أولياءَ﴾.

﴿أَوْلِيَاءَ﴾:

أي: قوماً تتبادلون معهم التوادّ، والتعاونُ، والتواعد على التناصر والتأييد والإمداد بالأخبار وبالقوى، أو ببعض ذلك.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾:

أي: ومن يجْعَلْ لنفسه منهم أولياء فإنّه يكون منهم في انْطِباق الأحكام الإداريّة عليه، كما تَنْطَبقُ عليهم، فيُعاقَبُ من قِبَل الجهات الإداريّة لِلْأمّة الإسلاميّة كما يُعاقَبُ الواجِدُ منهم، فيؤخذ بخيانة التجسّس، ويعامل معاملة العدوّ المحارب إذا كانُوا أعداء محاربين، وتُحْجَبُ عنه امتيازات المسلم الأمين داخل المجتمع الإسلامي، إلى غير ذلك من أمور تراها الجهات الإدارية للأمّةِ الإسلامية.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

هو مَرَضٌ دون النفاق، كالشكّ والشبُهات القويّة وضعف الإيمان، وغلَبَة الأهواء والشهوات.

﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾:

سبق شرح هذا الاستعمال في النص السابق (٣١).

﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾:

الدائرة في الأصل ما أحاط بالشيء مستديراً حوله. واستعمل العرب الدائرة بمعنى الداهية التي تأتي بالشرّ والسّوء، لأنّها تحيط بمن نزلت به، وتأتي بمعنى الهزيمة، يقولون: دارت على القوم الدائرة في الحرب، أي: غُلِبُوا وانتصر عليهم عدُوّهم، ويقولون: دارت عليهم الدوائر، أي: نزلت بهم الدواهي والمصائب والنكبات.

﴿أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾:

أي: أقسموا بالله قَسَماً موصوفاً بكونه غاية ما لديهم مِنْ أيمان مؤكّدة مشدّدة. جَهْدُ الشيء في اللّغة يأتي بمعنى نهايته وغايته، وبمعنى وُسْعِه وطاقته، ويأتي الْجَهْدُ بمعنى المشقة.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾:

أي: بَطَلَتْ أعمالُهم، وكلّ عملٍ لا يُحقّق الغاية منه فقد حَبِطَ، أي: بطل. ويقالُ: أحْبَطَ الله أعمالهم، أي: أبْطَلَها. ويُقال: حَبِطَ مَاءُ البِئْرِ، إذَا ذَهَبَ ذَهَاباً كلّيّاً لا يُرجَىٰ معه أن يعود.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجل:

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٥١)﴾.

لمّا ضعُف مشركو العرب وتحطّمت مراكز قواهم وأخذت القبائل العربية تدخل في دين الله أفواجاً، بدأت نفوس الذين في قلوبهم مرضٌ من الشكّ وضعف الإيمان. تتوجّهُ شَطْرَ موالاة بعض اليهود الذين لهم صلات خارج حدود مواطن السلطة

الإسلامية، وشطر موالاة النصارى الذين لهم ملك عربيٌّ عند الغسّانيّين، مدعوم بإمبراطورية عظيمة هي دولة الرّوم، إضافة إلى المنافقين الضليعين في الكفر والنفاق.

وتمهيداً لبيان حال الموالين للكافرين من الفريقين، حذّرَ الله الذين آمَنُوا مِنْ أنْ يتّخذوا الْيَهُودَ والنصارى أولياء، يُوادُّونهم، ويتعاونون معهم، وينصرونهم ويستنصرون بهم، ويُطْلِعُونَهُمْ على أسرارهم، لأن ذلك يُضِرّ بمصلَحةِ الأمّة الإسلامية، فناداهم الله بأداة نداء البعيد، وبوصف كونهم مؤمنين لبيان الاهتمام، وللإشعار بأنّ اتّخاذهم اليهود والنصارى أولياء، يخالف مقتضى الإيمان، الذي يوجب طاعة الله في أوامره ونواهيه.

والتكليفُ بالأمر أو النهي حين يُوَجَّهُ لجماعةٍ ذاتِ وصفِ خاصّ باعتبار اتّصافها بذلك الوصف، فإنّه يشْمَلُ كلّ فردٍ مُنْتَمٍ لهذه الجماعة، ولو كان انتماؤه لها كاذباً.

فالنداء بقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾.

يتضمّن تكليفاً لجميع الذين يَدَّعُونَ أنّهم مؤمنون، فمن خالف منهم ولو كان في الحقيقة منافقاً غَيْرَ مُؤْمن أُجْرِيَت عليه في الدنيا أحكام الْعُصَاةِ المخالفين، أمّا في الآخرة فهو فيها يعاقَبُ على نفاقه وكفره.

ومنْه خطابُ الله الملائكةَ بالسُّجود لآدم فقد شمَل مَنْ كانَ ضِمْنَهُمْ مُنْتمياً إليهم نفاقاً، ولِذلِكَ حكَمَ اللّهُ على إبليس بالمعصية والطَّرْد، والخلود في العذاب بسبب عناده وكُفْره، ولو لم نُقدّرْ أنّ الخطاب قد كان في الأصل للملائكة ولِمَنْ كان معهم من الجنّ، فقد كان في صفوف الملائكة مُنافقاً مندسّاً، وكان من الكافرين.

بعد هذا التكليف الرّبّانيّ للّذين آمنوا أبان الله تعالَىٰ أنّ اليهود والنصارىٰ من صفاتهم أن يتولّى بعضُهُمْ بعضاً، لأنهم حرّفوا دينَ الله، وانْحَرَفُوا عن صراطه المستقيم، فقد يتولّى اليهوديّ النصارىٰ ضدّ اليهود، وقد يتولّى النصراني اليهودَ ضدّ النصارىٰ، لأنّهم لا دين لهم، لا هؤلاء ولا هؤلاء، فقال تعالى:

﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾.

هذه العبارة تنطبق على موالاة النصارىٰ للنصارىٰ، وموالاة اليهود لليهود، وتنطبق

أيضاً على موالاة اليهود للنصارىٰ وموالاة النّصارىٰ لليهود، لأنّها لا تبيّن حكماً دينيّاً، إنّما تصف واقعاً.

ولست أرىٰ أن نستخرج منها أحكاماً شرعيّةً تتعلّق باليهود والنصارىٰ فيما بينهم، إنّ أحكام الشريعة الإسلامية هي لمن آمن بها، لا لمن كفر بها، وغير المسلمين يتحاكمون فيها بَيْنَهُمْ بأحكامهم الطاغوتية.

فالحكم بالتوارث فيما بينهم أو عدم التوارث لا علاقة لشريعة الإسلام به فيما ظهر لي، واللَّهُ أعلم.

أمّا موالاة اليهود للنصارىٰ وموالاة النصارىٰ لليهود ضدّ الأمّة الإسلامية، وضدّ كثير من شعوب الأرض، فقد برزَتْ في عصرنا الحاضر بشكْلٍ قويّ جدّاً، والأمّة الإسلامية تُعاني منه عناءً مُرّاً، ويشترِكُ الفريقان في خطط المكر والكيد ضدّ شعوب الأمّة الإسلامية، وفي الأعمال التنفيذية أيضاً، على الرغم من العداء الشديد الذي يحمله كُلُّ فريق منهما للآخر، ولا سيما عداءُ اليهود للنصارى، مع أنّهم يسخّرونهم في كلّ الأرض لتحقيق مخطّطاتهم اليهوديّة الرامية للسيطرة التامّة على الشعوب النصرانيّة ودُولها، قبل السيطرة على الشعوب الأخرى.

وبعد هذا البيان للواقع وجّه الله التحذير الشديد للمؤمنين، فقال تعالى لهم:

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾:

أي: ومَنْ يتولّ اليهود والنصارى كُلّهم أو بعضَهم مجتمعين أو مفترقين موالاةَ تعاوُنٍ وتناصُرٍ ضدّ شيءٍ من مصالح المسلمين الدينيّة أو الدنيوية ممَّنْ هو منْكُمْ ـ ولو بالانتماء الظاهر إليكم ـ فإنَّهُ في حُكْمِ اللّهِ مِنْهُمْ، تُجْرَىٰ عليه الأحكام الإدارية التي تُجْرَىٰ عليهم حتَىٰ أقصَىٰ العقوبات، ومنها اجتماع المسلمين لقتال الموالين، ولو لم يكفرُوا بالإسلام، وكانت موالاتُهم للكافرين من قبيل سقوط العاصي في المعصية اتباعاً لأهوائه ومصالحه من دنياه، ورغبته في السلطان والعلُوّ في الأرض، لأنَّ المعصية في هذه الموالاة معصيةٌ من درجة الخيانة العظمى لـلأمّةِ الإسلاميّة، فيعامَلُ الموالون لليهود والنصارىٰ معاملةَ أوْليائهم في القضايا الإداريّة، ولا تكونُ غالباً هذه

الموالاة موالاةً كاملةً إلاّ ممّنْ هُمْ كافرون حقيقةً فهم منهم كفراً وخروجاً عن ملّة الإسلام.

أمّا موالاة غير اليهود والنصارىٰ من الكافرين فهي أشدُّ جُرْماً، وأعظم إثماً، ويُطَبَّقُ هذا الحكم عَلَىٰ من يواليهم من باب أولى، لأنّ النصارى واليهود هم أهْلُ كتاب ربّانيّ بوجه عامّ، وإنْ كانوا قد حرّفُوا وبدّلوا وغيّروا ما أُنْزِلَ إليهم، فذِكْرُ اليهود والنصارىٰ يُغْني عن ذكر سائر الكافرين.

بعد هذا البيان وصف الله الذين يُوالُون الكافرين بأنّهم ظالمون، ولكنْ جاء هذا الوصف من خلال دلالةٍ بأسلوبِ الكناية، دلّتْ عليها جملة مستأنفة، واقعةً موقع التعليل للحكم السابق، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾:

أي: حَكَمَ الله على الذين يُوالُون الْكَافرين بأن يُعاملوا إداريّاً مِنْ قبلِ الدَّوْلَةِ الإسلامية الرّشيدة مُعامَلَةَ الكافرين، لأنّهم ارتكبُوا ظُلْماً هو من أقْبحِ دركات الظُّلْم وأخسّها، فاستَحقُّوا أنْ يُبْرَزُوا ويُعْرَفُوا دون سائر مَنْ يظلم نفسه من المسلمين بأنّهم الْقَوْمُ الظالمون، وليس من حكمة الله أنْ يَهْدِيَ الْقَوْمَ الظالمين، بأن يتجاوز عن ظُلْمهم الشنيع، ولا يُنْزِل فيهم الحكمَ الذي يستحقّونه، والذي يحمي به الأمّة الإسلامية من أعدائها، ولولا هذه الأحكام المشدَّدة لانقطع نظام الأمّةِ الإسلاميّة، وانْتَثَرَ عِقْدُها، فأمْرُ موالاة أعداء الأمة الإسلامية من الأمور الخطيرة جدّاً، التي إنْ لم تكن دالّةً على الكفر الحقيقيّ، فهي ذاتُ عُقُوبةٍ في الدنيا تُشْبه عُقُوبَة الرِّدّة عن الإسلام.

وهكذا أبانت هذه الآية من النصّ فريقَ المؤمنين الصادقين، وفريق الذين يوالون الكافرين حتّى أحطّ دركات الموالاة، وبقي الذين هم بين الفريقين.

* قول الله عزّ وجل:

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

يوجد فريق ثالث وهم الذين في قلوبهم مرضٌ لم يبلغ مبلغ النفاق المميت لها، لأنّ المنافق كافرٌ في الباطن فهو لا حياة لقلبه، بمقتضى المفهومات القرآنية، فالذين في قلوبهم مرَضٌ هُمْ أهل الشّكّ والرَّيب، وضعفاءُ الإيمان، ومنْـزِلَتُهُمْ في مراتب المسلمين بين المؤمنين الصادقين، وبين المنافقين الذين استقرّوا في النفاق، وهم في الكفر المكتوم مُقِيمون.

قولُه تعالى:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ ﴾.

أي: فَبَعْد النَّهْي المشدَّدِ عن اتّخاذ اليَهُودِ والنصارى أوْلِيَاء، تَرَى أيُّها الباحِثُ المتفكِّرُ فريقَ الذينَ في قلوبهم مَرَضُ الشَّكّ والرَّيْب وضَعْفِ الإيمان يُسْتَدْرَجُونَ إلى مُوالاةِ اليهود والنصارى، فيُسَارِعُون المشيَ في مُصَادَقَتِهم، وإحداث العلاقات معهم، وتبادُلِ الزيارَاتِ واللّقاءات والمعاملات، حتى دركةِ عقْدِ صفقات تَبادُلِ تناصُرٍ وتعاون، قد تفضي في نهاية المسيرة المتسارعة إلى اتّخاذهم أولياء.

فإذا شَعُروا بوخز الضمير ممّا يفعلون، طَرَحُوا على أنفسهم السؤال التالي: أليس ما نفعَلُهُ من الكبائر ونَحْنُ مُسْلِمُون، وقد نهى اللّهُ نَهْياً مُشدَّداً عن اتّخاذ الكافرين أولياء؟

ويجد الشيطانُ سبيلاً إلى نفوسهم، فيُسَوِّلُ لَهُمْ أنَّ المسلمين لا يَقْوَوْن على مُواجَهة جُيوشِ النصارىٰ ومكْرِ اليهود في الأرض، والمُسْلِمُون متوجّهون لحرب الرّوم وفتح فارس، فإذا لم نُصانعِ اليهود والنصارى دارت الدائرة المهلكة علَيْنا، فَنُكِبْنا في أنفسنا وأهلينا وأموالنا، مع سائر المسلمين، فيقولون في أنفسهم قولاً يجعل لهم عُذراً فيما يفعلون، عبّر عنه الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ ﴾:

أي: نخشىٰ أن تُصِيبنَا داهيةٌ بشَرٍّ وَسُوءٍ تُحيطُ بنا من كلِّ جانب، فلا نَجِدُ

لأنفسنا نجاةً منْها، فإذا كانت لنا يَدُ مصانَعَةٍ مع اليهود والنصارىٰ أمْكَن أنْ نجِدَ لأنفسنا وأهلينا وأموالنا مخارج سلامة.

وقد أجابَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلَّ عمَّا يَقُولُون في أنفسهم.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: فَمِنَ المرْجُوِّ أنْ يأتِيَ اللَّهُ بالْفَتْحِ لِلأُمَّةِ الإسلاميّة في انتصارات متلاحقات، أو أنْ يأتي بأمر آخر من عنده يُحقِّقُ به وعْدَهُ لرسوله والمؤمنين، كالأمْر الذي حصل للتتار إذْ فتحوا بلاد المسلمين بالقوّة العسكريّة الغالبة، فدخلوا في الإسلام إعجاباً به.

فإذا وهب الله المسلمين الفتح المبين، أصبح الذين في قلوبهم مرض نادمين على ما كانوا قد أسَرُّوا في نفوسهم، إذْ قالُوا: نخشَىٰ أنْ تُصيبنا دائرة.

﴿نَٰدِمِينَ﴾:

أي: كارهين ما كان منهم فيما سبق، مُتَمَنِّين لو لم يكن قد حصل، وهذا دليل على أن مرض قلوبهم لم يكن من دركة النفاق.

وحين يكتشف الذين آمنوا حال هؤلاء الذين في قلوبهمْ مَرضٌ، وكانُوا قَدْ أقْسَمُوا من قبل بأيمان هي غاية ما لديهم من أيمان يحلِفُونها، مؤكِّدِينَ بها أنّهم مؤمنون مع المؤمنين الصادقين فإنّهم يقولون متعجّبين:

يا عَجباً أهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أقْسَمُوا جَهْدَ أيْمَانِهِمْ: إنَّهُمْ لَمَعَكُمْ، وفي بيان هذه المقولة التعجبيّة التي يقولها الذينَ آمَنُوا حين اكتشافهم حال الذين في قلوبهم مرض وكانوا يظُنُّونهم صادقين في إيمانهم حقّاً، قال الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾.

بعد هذا أبَانَ الله عزّ وجَلّ أنّ هؤلاء الّذِين في قُلوبهم مَرضٌ من الرّيب والشّك وضعْفِ الإيمان، الّذِين لم يَصِلُوا إلى دركةِ المنافقين، يُعاقَبُون على مُسارَعَتِهِم في طُرُقِ مُصَانعة الكافرين بإبطال أعمالهم التي عمِلُوها من الأعمال الإسلاميّة التي

لم يَعْمَلُوها نفاقاً، وإنّما عَمِلُوها مع الشّكّ والرّيب وضعْفِ الإيمان، ضمن احتمال كون الإسلام حقّاً وصدقاً، وضمن احتمال صدْقِ الوعود التي جاءت في القرآن وفي أقوال الرسول ﷺ، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ۝٥٣ ﴾:

أي: بطلَتْ صَالِحاتُ أعمالِهِمُ الإسلامية بسبب شَكّهم ومصانعتهم الكافرين، وعدَمِ ثَباتِهِمْ في مَوْقفِ الإيمان الصحيح، وبعْدَ اللَّيْلِ الّذي كانوا فيه من ظُلُماتِ الشُّكُوكِ والشُّبُهاتِ وضعْفِ الإيمانِ يَجدُونَ أنْفُسَهُمْ في صَبَاحِ الحقيقةِ الّتي يكتَشِفونَها خَاسِرِينَ أعمالَهُمْ، وأزمانهم الّتي أمْضَوْهَا في الباطل، وأعمارهم وطاقاتهم التي ضيَّعُوها فيما لا خير فيه.

● ● ●

النصّ الثالث والثلاثون

وهو من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً

«السورة (٢٦) من التنزيل المدني»

الآيات من (٥٧ ـ ٦٢)

بشأن المنافقين من اليهود

الذين دخلوا في الإسلام منافقين مكراً وكيداً

* قال الله عزّ وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ
وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن
قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ
وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا
جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ
ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

* * *

(١)
ما في النصّ من القراءات المتواترة
(من الفرش وبعض الأداء)

* في الآية (٥٧):

(١) قرأ حفص عن عاصم: [هُزُواً] بإبدال همزة «هُزُؤاً» واواً مع ضم الزاي وصلاً ووقفاً.

وقرأ حمزة: [هُزْءاً] بالهمزة مع إسكان الزاي وصلاً فقط، ويقف عليها بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها وبإبدال الهمزة واواً على الرسم.

وقرأ خلف العاشر: [هُزْءاً] بالهمزة مع إسكان الزاي وصلاً ووقفاً.

وقرأ باقي القراء العشرة: [هُزُءاً] بالهمزة مع ضمّ الزاي وصلاً ووقفاً.

وهذه وجوه من الأداء في نُطْق الكلمة ضمن اللّهجات العربية.

(٢) قرأ أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب: [وَالكُفَّارِ] بالجرّ عطفاً على الموصول في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ﴾.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَالكُفَّارَ] بالنصب، عطفاً على الموصول في قوله تعالى: [لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً ولَعِباً].

وفي القراءتين تكامل فكري، وذلك لأنّ من الكفار من غير أهل الكتاب من اتّخذوا دين الإسلام لَهْواً ولَعِباً، ومنهم من لم يفعل ذلك، وكلٌّ من الفريقين لا يجوز للمؤمنين أن يتّخذُوا منْهم أولياء.

* في الآية (٥٨):

توجد في كلمة [هُزُواً] القراءات التي سبق بيانها في نظيرتها من الآية (٥٧).

* في الآية (٦٠):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [وَعَبَدَ الطّاغوتَ] بفتح الباء والدال من [عَبَدَ] ونصب [الطاغوت] على أنّ «عَبَدَ» فعل ماضٍ.

وقرأ حمزة فقط [وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ] بضَمِّ الباء وفتح الدال من [عَبُدَ] وجَرّ [الطاغوتِ]. قال الأزهري: والمعنى فيما يقال: وخادِمَ الطّاغوت.

أقول:

واسْمُ الجنس إذا أضيف يعُمُّ، فالمعنَى: وعُبّادَ الطاغوت.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، فالذين عبَدُوا الطاغوت، أي: الطواغيت، يكونُون عُبّاداً وخُدّاماً للطّواغيت.

* في الآية (٦٢) والآية (٦٣):

(١) قرأ نافع، وابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وخلف: [السُّحْتَ] بإسْكانِ الحاء.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب [السُّحُتَ] بضمّ الحاء. والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

(٢) للقرّاء في: [قَوْلِهِم] وفي [أَكْلِهِمْ] وجوه من الأداء:

فقرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلاً. وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الهاء والميم وصلاً، وقرأ باقي القراء العشرة، بكسر الهاء وضمّ الميم وصْلاً، أما في الوقف فكلُّهم يكسرون الهاء ويسكنون الميم.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وسبب نزوله

يشتمل هذا النصّ على نهي الله عزّ وجلّ الّذينَ آمَنُوا عن اتّخاذ أولياء من أهل الكتاب (والسياق يتحدّث عن اليهود) أو من الكفّار الآخرين من غير أهل الكتاب، كاشفاً من صفاتهم أنّهم اتّخذوا دين الإسلام شيئاً يستَهْزأُ به، ولُعبَةً يُلْعبُ بها، كأنّه خرافة من الخرافات، وأمْرٌ لا يشتمل على حقائق، حتّى يتعاملوا معه بطريقة جادة، مع أنّه دين الله المؤيّد بالمعجزات الباهرات، والمشتملُ على الحقائق الجليّات، والبراهين الدامغات.

ولمّا كان الدخول في الإسلام نفاقاً هو من الاستهزاء واللّعب بدين الله، وكان من اليهود من دخلوا في الإسلام نفاقاً، وما زالوا يكيدون الإسلام وهم بين صفوف المسلمين، وقلوبهم قلوبٌ يهودية، وجدنا هذا النصّ يكشف هذه الخيانة من خياناتهم باعتبارهم من أهل الكتاب المعنيين في النصّ، ويحذّر المؤمنين من أن يتخذوا منهم أولياء، باعتبارهم من اليهود باطناً وإن كانوا مسلمين في الظاهر، فأمارات نفاقهم تدلُّ على حقيقتهم.

أما سبب النزول فلمْ أجِدْ في المرويات الّتي لم تَبْلُغْ مبْلَغ الصحيح ما يصلُح أن يكون سبباً ظاهراً مباشراً لنزول هذا النصّ أو شيء منه، وذلك لأنّ اليهود الظاهرين لم يبق لهم وجودٌ يكوّن مشكلة واضحة من بعد إجلاء اليهود عن المدينة والتخلّص من بني قريظة، وسقوط خيبر في أوائل سنة سبع للهجرة، وسورة (المائدة) قد نزلت بعد السنة الثامنة للهجرة غالباً، لكنّ القرآن استمرَّ يحذّر المؤمنين من مكايد اليهود وسائر أهل الكتاب، نظراً إلى أنهم ستكون لهم معهم مستقبلاً علاقات كثيرة حربيّة وسلمية، فيجب عليهم أنْ يلتزموا تعاليم الله في التعامل معهم، ويتّبعوها، حتّى لا يظنّوا أنّ متاعبهم مع اليهود قد انتهت بالتخلّص منهم في المدينة، أو تنتهي بإجلائهم من جزيرة العرب، فمشكلة المسلمين مع اليهود وسائر أهل الكتاب مشكلة مستمرّة.

* * *

(٣)
المفردات اللغوية في النّص

﴿ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾:

أي: جعلوا دينكم شيئاً يُهْزَأ به ويُسْخَرُ مِنْهُ. ولُعْبَةً يَلْعَبُونَ بِهَا.

الْهُزْءُ ـ والْهُزُؤُ: السُّخْرِية. يُقالُ: هُزِىءَ به وهُزِىءَ منه. ويُقالُ: هَزَأَ بِه وهَزَأَ منه، ويقال: هَزِئَ بِهِ وهَزِىءَ مِنْه، أي: سَخِرَ مِنْهُ.

اللّعِبُ: ضِدُّ الجِدّ، يقالُ لُغَةً: لَعِبَ يَلْعَبُ لَعِباً ولَعْباً. ويقال لكلّ من يعمل عملاً لا يُجْدِي عليه نفعاً إنّما أنت لاعب.

والمعنى جعلوا دينكم شيئاً مهْزُوءاً به، ومَلْعُوباً به، فهو من إطلاق المصدر على

اسم المفعول، أو جعلوا أصل دينكم صورة من صور الهزء واللَّعِب، فاعتبروا الصلاة مثلاً وبعضَ أعمال العبادات شكلاً من أشكال اللَّعِب، وزعَمُوا أنَّ الغرض من الدِّين السُّخْرية من الناس.

ومن اتّخاذ الدِّين هزُواً ولعباً الدخولُ فيه نفاقاً، كأنّه شيء صالحٌ لأنْ يُلْعبَ به، ويُسْخَرَ منه، مع أنَّ الدّين كلّه جِدٌّ لا هزْل فيه، إذْ يَرْتبط به مَصِيرُ الإنسان، إمّا إلى الجنّةِ وإمّا إلى النار، وقَضِيَّةُ الدِّين قضية الرَّبِّ الخالق، وهل هذا شيء يصحُّ أنْ يُلْعَبَ به؟ هل يدخل الإنسان في النار لهواً ولعباً.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾:

أي: لا يعقلون أهواءهم وشهواتهم بإرادة حازمة عن التعرُّض لعذاب الله بارتكاب معصيته. ولا يعقلون في مراكز المعرفة لديهم الحقائق الخطيرة التي يرتبط بها مصيرهم من قضايا الدين.

﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ . . .﴾:

أي: هل تكرهون منا إلّا إيماننا، وهل تُنْكِرُونَ علينا شيئاً آخر غَيْرَه.

يُقالُ لغة: نَقِمَ الشَّيْءَ وَنَقَمَهُ إذا أنْكرَهُ وكرِهَهُ.

﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾:

الْمَثُوبَةُ جَزاءُ الْعَمل إنْ خيراً فخير، أو شرّاً فشرّ.

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾:

كثير الطغيان، وكلّ رأسٍ في الضلال، ويطلق على الشيطان، وكلّ ما عُبِدَ من دون الله (يستوي فيه الواحد وغيره). وقد يجمع على طواغيت.

﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾:

السُّحْتُ والسُّحُت: كلُّ مَكْسبٍ حَرَام كالرّشوة، والرِّبا والسّرقة، وأكل أموال الناس بالباطل، وسُمّي سُحْتاً لأنّه يَسْحَتُ البركة أي: يُذْهِبُها. وأصلُ السُّحْتِ قَشْرُ الشيءِ قليلاً قليلاً، ويُطْلَقُ السُّحْتُ على العذاب.

* * *

(٤)

مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

يظهر لي من السّياق أنّ الله عزّ وجلّ يحذّر بأسلوب عام من اتّخاذ اليهود والنصارىٰ، واتّخاذ الكفّار الآخرين من غير أهل الكتاب أولياء، لأنّهم أعداء، ويَخُصُّ بالذكر المنافقين منهم، ولا سيما اليهود، وأحلافهم من منافقي المشركين، فالمدّة الزمنية التي نزلت فيها سورة (المائدة) قد بقيت فيها مشكلة المنافقين من اليهود والمشركين هي المشكلة البارزة، بعد أن اضمحلّت مشكلات عداء القبائل اليهوديّة المجاهرة بعدائها، ومشكلات مشركي الحجاز المجاهرين بكفرهم وعدائهم.

فمن خلال العبارة العامّة يَنْهىٰ الله الذين آمنوا عن موالاة أهْلِ الكتاب، لأنّهم لم ينظروا إلى الإسلام على أنه دين ربّاني، فاتّخذوه هزُواً ولَعِباً، متهمين الرسول بأنه يهزأ بعقول الناس، ويلعب بهم، وينهاهم أيضاً عن موالاة الكُفّار بوجه عامّ أيضاً، لأنّهُمْ يعادون هذا الدّين، ويعادون الرّسول والمؤمنين، فجاءت قراءة نصْب كلمة [والكُفّارَ] دَالّةً علىٰ هَذا العموم.

ومن خلال دلالة السّياق ينهىٰ الله الذين آمنوا عن موالاة خُصوص المنافقين من أهل الكتاب ولا سيما اليهود، لأنهم دخلوا في الإسلام مستهزئين لاعبين، متّخِذين دين الله شيئاً يُسْتَهْزَأُ به ويُلْعَب. وينهاهم أيْضاً عن موالاة المنافقين من سائر الكافرين، ولا سيّما المشركون، لأنّهم في ذلك الوقت كانوا النسبة الأكثر من المنافقين، مع أحلافهم من منافقي اليهود، فجاءت قراءة جرّ كلمة [وَالكُفّارِ] دالّةً على هذا الخُصوص، لأنّهم بنفاقهم قد اتّخذوا دين الله شيئاً يُسْتَهْزَأ به ويُلْعَب، كما فعل المنافقون من اليهود.

وربّما يتساءل بعض الناس: كيف نعرف المنافقين حتّى لا نتخذهم أولياء؟

ونجيب بأنّ الأمارات والصفات التي يتصفون بها، وقد أعلمنا الله بها، في مختلف النصوص، كافية لأن تدلّ عليهم، فيحذرهم المؤمنون، ولا يتخذوا منهم أولياء.

ولمّا كانت مخالفةُ هذا النهي معصيةً لأنّه نَهْيُ تحريم، وليس مجرّد نهي إرشاد قال الله عزّ وجلّ بعده:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: فإذا اتّخذتُمْ منهم أولياء، عرَّضتُم أنفسكم لعقاب الله، ولم تتّخذوا وقاية منه بالطاعة.

وقَيْدُ: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه استثارة إيمانهم لالتزام طاعة الله، والمعنى: إنْ كنتم مؤمنين حقّاً صادقين في إيمانكم كان إيمانكم باعثاً على تقوى الله بطاعته، فأنتم حينئذٍ تتقون الله ولا تتخذون منهم أولياء.

وقد تكرر هذا الأسلوب في القرآن، وهو على معنى: واتّقُوا الله وأنتم ستتّقونه ما استطعتم إن كُنْتُمْ مُؤْمنين حقّاً وصدقاً ملتزمين بمقتضاه.

وجاء استعمال حرف الشرط «إنْ» التي تُستعمل عادة في المشكوك فيه، إشارةً إلى أن جمهور المؤمنين يغفلون عن الالتزام بهذا التعليم الرّبّاني، والعمل بطاعة الله في عدم اتّخاذهم المنافقين أولياء، لأنّهم مخالطون مداخلون، ولهم ضمن المؤمنين علاقات قربىٰ، ومصاهرة، وغير ذلك من العلاقات الاجتماعية.

وأبان الله عزّ وجلّ من مظاهر اتّخاذهم دين الإسلام هزواً ولعباً، أنّهم إذا سمعوا النداء إلى الصلاة اتّخذوا الصَّلاة هُزواً ولَعِباً، أي: قاموا إلى الصلاة نفاقاً مستهزئين بمن يؤدّيها بصدقٍ من المؤمنين، ومشاركين في أدائها مشاركةَ اللاّعب بالحركات، لا مشاركة المؤمن بطاعة الله والصلة به في أدائها، فقال الله تعالى:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾.

وأشارت عبارة ﴿وإذا ناديتم﴾ إلى أنّهم لا يصلّون إذا لم يكونوا معكم ويسمعوا نداءكم للصلاة.

وأبان الله عزّ وجلّ سبب اتخاذهم دين الله هزواً ولَعِباً، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

المشار إليه بـ ﴿ذلِكَ﴾ اتّخاذُهُمُ الدين هزُواً ولَعِباً.

﴿بِـأَنَّهُمْ﴾: أي: بسبب أَنَّهُمْ ﴿قَـوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فقِسْمٌ مِنْهُمْ لا يعلمون قيمة الدين، ولا يُدْركون ما سيلاقون من مصير عند ربّهم، لأنهم لم يُريدوا أن يَعْقِلُوا المعارف الدينيّة وحججها وبراهينها، مع أنّ الرسول والدُّعاة إلى الله بلّغوهم إيّاها، ومع وجودها في كتاب الله الذي عليهم أن يقرؤوه ويتدبّروه، وهؤلاء هم المنافقون من المشركين. وقِسْمٌ منهم لا يعقلون بإراداتٍ حازماتٍ أهواءهم الأنانية المقيتة، وهم المنافقون من اليهود، فمنهم من يعلم قيمة الدين، ولكن كرهوا أن يتبعوا رسولاً من غير بني إسرائيل، وينهاهم عن اتّباع أهوائهم وشهواتهم، ويصحّح ما حرّفوا من دين الله.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

في الآية (٥٧) نهيُ الله الذين آمنوا نهي تحريم عن أنْ يتّخذوا أولياء من الذين اتّخذوا دين الإسلام لهواً ولعباً من أهل الكتاب، سواءٌ أكانوا مجاهرين بكفرهم، أو منافقين مخالطين يكيدون وهم ضمن صفوف المؤمنين، فدلّ هذا على أنّهم أعداء، يكرهون إيمان المؤمنين بالإسلام، ويُنْكرونه عليهم، فهم يَنْقِمُونَ مِنْهم ذلك، فاقتضى حالُهُم أن يُوضَعُوا موضع المناظرة والمجادلة بالّتي هي أحسن، فعلّم الله رسوله وكلّ

مؤمن قادر على مجادلتهم للإقناع أو للإفحام والإلزام، أن يطرح عليهم سؤالاً عن سبب نقمتهم من المؤمنين، وكراهيتهم لطريقتهم، وما يُنكرونه عليهم.

والسؤال هو: يا أهل الكتاب (أي: يا من تدّعون أنكم تؤمنون بكتاب من عند الله منزّل على رسولٍ من رسله موسىٰ أو عيسى عليهما السلام) أيَّ شيءٍ تنقِمُونَ منّا، كارهينَهُ مِنّا، أو منكرينه علينا، فنحن لا نَجدُ شيئاً يُمْكِنُ أن تُنْكِرُوهُ إنْ كُنْتُمْ أهلَ كتاب ربّانيّ حقيقةً، وذلك لأنّنا آمَنّا باللّهِ، وأنْتم تزعمون أنّكُمْ آمَنْتُمْ بالله، ونحن آمنّا بما أُنزِلَ إلينا من لَدُنْ رَبّنا على رسولٍ من رسلُه مؤيّد من قِبَلِه بالمعجزات والآياتِ البيّنات، كما أنّكم آمَنْتُمْ بما أُنْزِلَ إليكم من ربكم على رسولٍ من رُسُله، ونَحْنُ آمَنّا بكُلّ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ عن الله عزّ وجلّ علَى أيّ رسولٍ من رُسُلِ الله، فلم نَكْفُرْ بما أُنزِلَ إليكم، حتى يكون كُفْرُنَا به مثيراً لنقمتكم؟!

فهلْ في كلّ هذا داعٍ لأنْ تَنْقِمُوا منّا؟!

بقي شيءٌ أخِيرٌ يمكن أن يكون سبب نقمتكم هو أنّ رسول هذا الدين الذي آمنا به ليس من بني إسرائيل، وهذا شيء قد أغضبكم من ربّكم لأنكم فاسقون، فنقمتم منّا اتّباعَهُ، وأنّ هذا الدّين قد كشف تحريفاتكم في دين الله، وجاء بالحقّ، وهذه التحريفات قد أدخلتموها في دينكم اتباعاً للأهواء والشهوات، وطاعةً لكبرائكم، بسبب أنكم فاسقون، فنقمتم منا أن نستقيم على دين الله الحقّ مخالفين طريقتكم التي هي نتيجة فسقكم، لا ثمرة تديُّنِكُمْ بدين الله الحق، فإنْ كان هذا هو الذي تنقِمُونَهُ منّا فليس سبَبُه أنّنا مخطئون أو مخالِفُون منهج الحقّ والصّواب، ولكنّ سببه أنّ أكْثَرَكُم فَاسقون، ولا نقول لأنّ جميعكم فاسقون لأنّ منكم من أسلم معنا إسلاماً صحيحاً صادقاً، وآمن بما آمَنّا به، فهو منّا، وإنْ كان هو أيضاً من أهل الكتاب باعتبار ما كان عليه، قبل أن يدخل في الإسْلام.

هذه المناظرة الجدلية قد جاء التعليم القرآنيُّ لها على طريقة تسليم مفاتيح أبوابها، وترك تفصيلات عناصرها للرسول، وللمؤمن العالم الحصيف الكُفْءِ من بَعْدِه.

فمفتاح الباب الأول: هل تنقمون منّا أنْ آمنّا بالله؟ فإنْ قالُوا: لا، جاء دور الباب الثاني.

ومفتاح الباب الثاني: هل تنقمون مِنَّا أن آمَنَّا بما أُنزِلَ إلينا من رَبّنا، وكلّ ما أُنْزِلَ من قَبْلُ من لَدُنه؟ فإن وصل المناظر معهم إلى أنّ هذا لا يستدعي نقمتهم، واعترفوا بذلك، جاء دور الباب الثالث.

ومفتاح الباب الثالث: هل تنقمون منّا أنْ آمنّا بالرسول محمّد النبي العربي، المتصل نسبه بإسماعيل بن إبراهيم. وخالفناكم في تحريفاتكم في دين الله؟

وهنا تحتدم المناظرة، والمناظر الكفء قادرٌ على أنْ يُقْنعهم أو يُلْزمهم أو يفحمهم أخيراً بأنّ السبب لا يرجع إلى أنّ المؤمنين بالإسلام على باطل، ولكن يرجع إلى أنّ الكافرين بالإسلام من أهل الكتاب هم المبطلون، بسبب أنّهم فاسقون، دفعهم فسقهم إلى إنكار الحقّ وجحوده، والإصرار بعناد على التمسّك بتحريفاتهم التي يُرْضُونَ بها أهواءهم وشهواتِهم وكبراءهم.

وهذا الباب الثالث لم يُعْطِ النَّصُّ القرآنيُّ مفتاحه صراحةً، بل أشار إليه بالتنبيه على إقفاله بعد جولات المناظرة، التي تنتهي بإقناعهم أو إلزامهم أو إفحامهم، ويتمّ إقفال المناظرة بدمغهم بأنّ أكثرهم فاسقون، وأكثرهم هم الذين لم يُسْلِمُوا أصلاً، أو كانوا في إسلامهم منافقين.

فجاء التعليم حاصراً المناظرة بثلاث جولات كبرى:

الجولة الأولى: عنوانها: هل تنقمون منّا أن آمنّا بالله؟!

الجولة الثانية: عنوانها: هل تنقمون منا أنْ آمنّا بما أُنزِل إلينا وما أُنْزِل مِنْ قبل؟!

الجولة الثالثة: قُفْلُها عند الانتهاء منها: علّتكُمْ أنْ أكثركم فاسقون.

وقد أشكل على المفسّرين قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾.

لدىٰ حصر أسباب نقمة كَفَرَةِ أهل الكتاب من المؤمنين، إذْ فِسْقُ أهل الكتاب ليس من كَسْبِ المؤمنين حتّىٰ يَنْقِمُوا مِنْهُمْ بسببه، وقَدْ نَدَّ عَنْهُمْ أنْ يُدْرِكُوا أنّ الله

عزّ وجلّ يُعْطِي المناظر المجادل من المؤمنين إشارات لجولات المناظرة، فالجولتان الأولى والثانية أعطاه الله مفتاحَيْهما، والأخيرة أعطاه الله قُفْلَها.

فالتعليم الذي بدأه الله بقوله:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

قد جاء حَصْرُ مناظرة المناظر لهم فيه بقوله:

﴿هَلْ تَنقِمُونَ﴾:

أي: هل تَكْرَهُونَ وتُنْكِرُون منا ﴿إِلَّآ﴾ واحداً من أمور ثلاثة:

(١) ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

(٢) ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾.

(٣) وإيمانَنَا بمحمَّد النبيّ الرسول العربي الّذي ليس من بني إسرائيل، وما جاء به من كشفٍ لتحريفاتكم في دين الله، وهذا أمْرٌ لا نُعَابُ عليه نَحْنُ، بل تُعَابُونَ أنتم عليه، إذْ لم تُؤْمِنوا به ولم تَتْبعوه ﴿وَ﴾ علّتكم ﴿أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ولا شَكَّ أنَّ هذا أسلوبٌ من الإيجاز عجيب، وهو فنٌّ من فُنُونِ البيان، ويُعَبِّرُ بعْضُ كبار المربّين بنظيره.

ومن الأمثلة أن يَشْتَكِي طلابٌ من مادّة مقرّرة عليهم، فيأتي المدير أو عميد الكليّة فيقول لهم، ممّاذا تشتكون؟ إنَّكُمْ لا تَشْتَكُونَ إلاَّ:

(١) من أستاذها الذي هو أفضل الأساتذة في نظر الجميع.

(٢) أو من الكتاب الذي هو أفضل كتب الموادّ الدراسية.

(٣) أو من المادّة نفسها التي يجب أن يتعلّمها الطلبة في نظر جميع المربين.

(٤) أو من بناء المدرسة وحجرة الفصل الدراسي التي تدرسون فيها، وهي أفضل حجر المدرسة على الإطلاق.

(٥) أو من أنَّكُمْ كُسَالَى لا تُحِبُّونَ أنْ تَبْذُلُوا جَهْداً لتعلّم ما ينفعكم وينفع أمّتكم.

وهذا أسلوب من الإلجاء لردّ شكواهم على أنفسهم، فقد كان الحق أن يشتكوا من أنفسهم، لا من غيرهم.

وعلى هذا الأساس نفهم أنه كان من الحقّ أن ينقم أهل الكتاب من أنفسهم بسبب أنّ أكثرهم فاسقون، لا أن ينقموا من المؤمنين الذين آمنوا بالرسول الخاتم، وبالدين الذي لم يدخل فيه تحريف ولا تبديل.

وبعد إقفال باب المناظرة بإدانتهم بأنّ أكثرهم فاسِقُونَ، يأتي دور إنْذارِهم بعذابِ الله على فِسْقِهِمْ، على سبيل موعظتهم بالترهيب، وأنّ مكانَهُم عند الله يوم الدِّين سيكون مكان شَرٌّ وضُرٌّ وعقاب أليم.

وقد طَوَى النصّ توجيه الداعي المؤمن لهذا، اكتفاءً بتوجيهه لأنْ يُبَيّن لهم طَرَفاً من حال بعض أسلافهم الذين كانوا شرّاً منهم مكاناً، وأضلّ عن سواء السبيل، مَنْ عَبَدَ منهم الطاغوت، ولَعَنَهُ الله وغضب عليه وجَعَلَ منهم القردة والخنازير، على سبيل العقوبة المعجّلة من جملة عقوباتهم.

والتربيةُ هنا تربيةٌ بالتوجيه للاعتبار بما جرى للكفّار مِنْ أسلافهم، الذين تمادَوا في الإثم والفسق ومعاندة الحقّ والمكابرة بالباطل.

فقال تعالى للمناظر الداعي:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾:

أي: يا أهل الكتاب، والخطابُ مع واحدٍ منهم هو مَنْ جَرَتْ معه المناظرة السابقة:

﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾:

أي: بما هو أشدّ عقُوبَةً عند اللهِ من ذَلِكَ الفِسْقِ الّذي أَنْتُمْ الآن عليه، والذي جعلكم تنقمون منّا؟

هذا السؤال يتطلّبُ جواباً، ولو لم يَقُلِ المناظر منْهُمْ أَنبِئْنَا.

والجواب:

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾:

أي: من أسلافكم من اليهود المذكورين في تواريخكم.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ﴾:

أي: من جملة الملعونين المغضوب عليهم:

﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

وكان قد مسخ الله فريقاً من كفرة اليهود قردةً وخنـازيرَ، وهلكـوا دون أن يكون لهم ذُرِّيَّةٌ بعد مسخهم ﴿وَ﴾ مَنْ ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ من أسلافكم تاركاً عبادة الله، فهؤلاء أشدّ عقوبة عند الله أيضاً من فُسّاقكم.

وجمع الله هؤلاء المشار إليهم من أسلاف اليهود المخاطبين بقوله:

﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: أولٰئِكَ البعداءُ عن رحمة الله من أسلافكم شـرٌّ مكانـاً منحطّاً سـافِلاً منكم، وأكثر ضَلالاً وبُعْداً عن سَواءِ السَّبيل.

سواء السبيل: هـو وسط سبيل الله المستقيم، إنّ السبيـل المستقيم يُحْسَبُ من وسطه فهو أعدله وأعلاه، والبعدُ عنه يُقاس بالبُعْدِ عن وسـطه من ذات اليمين، أو ذاتِ الشمال.

وفي بيـان هذا عن أسـلافهم تحذيرٌ لهم من اتّباع طـريقتهم لئـلا ينـزل بهم من عقـاب الله ما نـزل وسينـزلُ يـوم الـدين بـأولٰئِكَ البعـداء عن رحمـة الله من الأسـلاف الأخباث.

وقـد صحّ عن النبيّ ﷺ قـوله: «إنّ الله لم يُهْلِكْ قـوماً أو قـال لم يَمْسَخْ قـوماً فيجعل لهم نسْلاً ولا عَقِباً، وإنّ القردة والخنازير كانت قَبل ذلك».

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

أخذ البيان بهذا يكشف هُوِيَّةَ المقصودين الأوّلين بعمومات النّصّ سابقاً، فهم منافقون من اليهود، وهم الذين يشير إليهم النصّ بالدّرجةِ الأولى، مع من يشاركهم في صفاتهم من سائر أهل الكتاب، والمشركين من المجاهرين بكفرهم ومن المنافقين.

فالله يخاطب الذين آمنوا فيُبيِّن لهم أنّ المقصودين الأولين بالنّهي عن اتّخاذهم أولياء من أهل الكتاب، من صفاتهم أنّهم إذا جاءُوكم قالُوا: آمَنّا، وقَدْ دخلُوا بالكُفْرِ وهُمْ قَدْ خرَجُوا به، والله أعْلَمُ بِمَا يكْتُمُونَ.

وهذه صفة المنافقين، فهم الذين يدخلون في الإسلام ظاهراً، ويدَّعُونَ كاذِبين أَنّهُمْ آمَنُوا، مع أنّهم حين دخلوا في الإسلام كانُوا مُصاحبين للكفر به في باطنهم وسرِّهم، ومنذ دخلوا في الإسلام مصاحبين للكفر فقد خرجوا منه فوراً مصاحبين للكفر أيضاً، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يَقْبَلُ إسلاماً في الظاهر مصاحباً لكُفْرٍ في الباطن، إنّ طبيعة الإسلام الحقّ لا تقبل تلقائياً مُسْلِماً مزيفاً كاذباً، فمن دخل كذلك نفته فوراً وأخرجته، من دخَل وفي باطنه الكفر، أخرجته مطروداً وفي باطنه الكفر، لأن الإسلام هو دين الله، والله أعلم من كلّ عليم حتى من أنفسهم بما يكتمون من كفر، كيف يقبلهم الله مسلمين، وقد أسلموا بألسنتهم كاذبين مخادعين؟

إذا استطاعوا أن يَخْدَعُوا عوامّ المسلمين فهل يستطيعون أن يخدعوا الله العليم بما في صدورهم وسرائرهم.

وكشف الله من الظواهر الدالّة على نفاقهم أنّهم يندفعون بسرعة سيراً في سُبُل الإثم والعدوان وأكل المال الحرام، فقال الله عزّ وجل:

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ ﴾:

أي: وتَرى أيُّها الرّائي المتتبّع لأحوالهم المراقبُ لسلوكهم، أنّ كثيراً مِنْهُمْ لا يملكون أنفسهم في المحافظة على السلوك الذي يفرضه عليهم تظاهُرُهُم بالإسلام، مخالفين مقتضيات كفرهم في قلوبهم، الذي يدفعهم بقوة إلى ممارسات الأعمال التي

تدخل تحت عنوان الإثم، والأعمال التي تدخل تحت عنوان العدوان، والأعمال التي تدخل تحت عنوان أكْلِ السُّحت.

الإثم: هو في اللّغة الذنب، وهو في الاستعمال القرآني يشمل كلّ المعاصي التي نهى الله عنها، بدءاً من صغائرها حتى أكبر كبائرها.

العدوان: الظلم، وتجاوز الحدّ المأذون به، وهو مصدر عدا عليه بمعنى ظَلَمَهُ، تقول: عدا عليه يعدو عَدْواً، وعُدُوّاً، وعُدْواناً وتَعْدَاءً.

والجمع بين الإثم والعدوان يُشِير إلى أن المراد من العدوان ما يكون ظلْماً واعتداءً على حقوق الآخرين من خلق الله.

أكْلُ السُّحت: هو تَملُّكُ المال الحرام، وسُمّي تَملُّكُ المال الذي يَحْرُمُ تملّكُهُ ولو كان برضىً باذله أكْلاً، لأنّ الأكْلَ أعظم ما تُسْتَهْلَكُ به الأموال، وآخذ المال الحرام يَجْرُؤ على أنْ يأكُلَهُ ويبني به جسمه، مع أنّه قد يتعرّض بأكله له لعذاب السُّحت، وهو الاستئصال، أو القَشْر شيئاً فشيئاً.

ومنْ تَملُّكِ المال الحرام بإذن باذله الرّشوة والرِّبا، وأَجْرَأُ الناس على أخذ الرشوة وأكل الربا اليهود، والمنافقون في المسلمين من اليهود هم في الباطن يهود.

وقد ذمَّ اللّهُ عزّ وجلّ كلّ عملهم السابق فقال تعالى:

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: لقد كانوا قبل أن يدخلوا في الإسلام منافقين أصحابَ أعمال سيّئة في اليهوديّة، عنوانُها: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون».

وأبان تعالى أنّهم حين كانوا يهوداً ظاهِراً وَبَاطناً، لم يكن الذين يزعمون أنّهم ربّانيون من اليهود، والذين يُقَال لهم أحبار منهم ينهونهم عن قولهم الإثم، ولا عَنْ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ.

الرَّبّانيون: همُ العبّاد عن علم.

الأحبار: هم العلماء بالدّين اليهودي، المفرد «حَبْر» بفتح الحاء وكسْرها، والفتح أغلب وأشهر.

فقال تعالى:

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾:

أي: هلاَّ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانيون والأحْبار الذين هم منهم في الباطن عن قبيحتين ظاهرتين من قبائحهم، هما قبيحة قولهم الإثم، وقبيحة أكلهم السُّحت، ومن قولهم الإثم إعلانُهم الإسلام وإبطانُهم الكفر.

وأخيراً ذمَّ الله عزّ وجلّ ما يصْنَعُ هؤلاء وهؤلاء، فقال تعالى:

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وانتهى النصّ

• • •

النص الرابع والثلاثون

من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول)
«السـورة (٢٧) مـن التـنزيل المـدني»
ولم ينزل بعدها من السّور إلاَّ سورة «النصر»
الآيات من (٤٢ ــ ١٢٩ آخر السورة)
حول عدّة ظواهر سلوكية للمنافقين
بمناسبة أحداث غزوة تبوك وأخرى إبّانها

وتشتمل دراسة هذا النصّ على قسمين:

القسم الأول: مقدمات حول أحداث غزوة تبوك وما رافقها.

القسم الثاني: دراسة النصّ دراسة تدبّرية.

وهو مفصّل على سبعة عقود.

القسم الأول

مقدمات حول أحداث غزوة تبوك وما رافقها

قبل دراسة هـذا النص الرابع والثلاثين وهـو من سـورة (التـوبـة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول). الآيات من (٤١ ـ ١٢٩ آخر السورة) أقدّم مقدمات يستدعي تدبّر النصّ تقديمها.

إنّ هذا النصّ الموضوع للدراسة التدبريّة يشتمل على بيانات متعـدّدات فضحت المنافقين، بمناسبة الأحداث التي اشتملت عليها غزوة تبوك، التي كان خروج الرسول والمؤمنين إليها في شهر رجب من سنـة تسع للهجـرة، وبمناسبـة الأحداث التي كـانت قُبَيْلَها وبَعْدَها حتّى نزول سورة (التوبة).

ومع أنّ بعض هذه الأيات يشتمل على بيـانات لا تتعلّق بـالمنافقين، فقـد آثرت وضع النصّ كلّه للدراسة، لأنّ الحديث عن المنافقين وظـواهرهم السلوكيـة وجزائهم، يستدعي الحديث عن المؤمنين وثـوابهم عند ربّهم، وهـو مااشتملت عليـه الأيات الّتي لا تتعلّق بالمنافقين من هذا النصّ الذي يُعادلُ ثُلُثَي السُّورة تقريباً، أمّا ثلُثها الأول فهـو يتعلّق بالمشركين، والبـراءة منهم ومن عهدهم، وأحكـام تأمينهم وقتـالهم، ومنعهم من أن يقربوا المسجد الحرام، وقتال الكافرين من أهل الكتاب، وعرض بعض كفريّاتهم، ومكايدهم ضدّ الإسلام، وصور من سلوك أحبارهم ورهبانهم، وعرض بعض تحريفات المشـركين، وحثّ المؤمنين على القتـال، وتلويمهم على التثـاقـل والتبـاطؤ، تمهيـداً للدخول في التوجيهات والتعليقات النافعات بمناسبة أحداث غَزْوَةِ تبـوك، وما رافقهـا، أو حدث إبّانها، أو قُبَيْلها، أوْ بُعَيْدها.

* * *

موجز غزوة تبوك

(١)
تاريخ هذه الغزوة

وقعت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، وهي آخر غزوة غزاها الرسول ﷺ.

وفي هذه السنة حجّ أبو بكر رضي الله عنه بالمسلمين، فقد أمَّرَهُ رسول اللّهِ على الحجيج عامئذٍ.

وفي السنة العاشرة حجّ الرسول بالنّاس حجّةَ الوداع. وفي يوم الاثنين من أوائل شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة توفي رسول الله ﷺ.

* * *

(٢)
السبب الداعي

تواردت الأنباء إلى الرسول ﷺ بأنّ الروم قد جمعوا الجموع لغزوه، والقضاء عليه وعلى المسلمين في المدينة، وكان من حكمة الرسول العسكريّة أن يغْزُوَ القوم الّذِين يُعِدُّونَ العُدّة لغزوه، ويَهُمُّون بمباغتته، قبْل أنْ يغزوه.

* * *

(٣)
الأمر بالتهيؤ للخروج

وجّه الرسول ﷺ أمره للمسلمين بأنْ يتهيّؤوا لغزو الروم الذين يُعدّون ما يلزم لغزو المسلمين، حتّى لا يجعل للرّوم مطمعاً في أن يَلْجُوا بجيوشهم في جزيرة العرب، التي بدأت تجتمع قواها تحت راية الإسلام.

وكان الوقت الذي وجّه الرسول فيه أمْرَه وقْتَ عُسْرَةٍ، وحرٌ شديد، وأرضٍ مُجْدِبة لا خضرة فيها إذا خرجوا إلى البوادي، بينما طابت الثمار في البساتين

والأشجار، والنّاسُ يُحبُّون المقام في ثمارِهم وظلالهم، ويكرهون الأسفار، فكيف يكون الحال إذا كانت الدعوة إلى غزوٍ وقتال، وهم في هذه الحال.

وكان من سياسة الرسول الحكيمة أنّه قلّما يخرج في غزوةٍ إلاّ كنّىٰ عنها ولم يُصَرِّح بوجهته، وربّما أشْعرَ بالتوجه لجهة ما دون تصريح ولا تكون هي وِجْهَته، تعميةً على الذين يتوجّه لغزوهم، وهذا من قواعد الحكمة في أصول السياسة الحربية، باستثناء غزوة تبوك، فإنّ الرسول بيّن يومئذٍ للمسلمين وجهته، وذلك لبعد المسافة بين المدينة وأطراف البلاد التي يحكمها الروم عند تبوك، ولشدّة الزمان، ولكثرة العدو وقوّة جيشه.

لذلك أمر الرسول المستطيعين بأنْ يتجهَّزُوا لحرب الرّوم، ويُعِدُّوا ما يستطيعون من عُدَّةٍ وعتادٍ.

وحثّ صلوات الله عليه أهل الغنىٰ واليسار على البذل والإنفاق في سبيل الله، لتجهيز هذا الجيش، الذي عُرِفَ بجيش العُسْرة، وقال: «من جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فله الجنّة».

وأقبل المؤمنون الصادقون يتبرعون:

ــ فقدّم عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٠٠) بعير عليها أحلاسها (الحِلْسُ: الكساء الذي يوضع على ظهر البعير تحت الرحل) وعليها أقتابها (القَتَب: هو ما يوضع على ظهر البعير للركوب). وقدّم أيضاً ألف دينار، جاء بها فصبّها في حِجْرِ النبيّ ﷺ، فجعلَ الرسول يقلّبها ويقول: «اللَّهُمَّ ارْضَ عَنْ عُثْمَانَ فَإِنِّي عَنْهُ رَاضٍ» ويقول: «مَا عَلَىٰ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ».

ــ وقدّم أبو بكر الصديق رضي الله عنه كلّ ماله، وكان أربعة آلاف درهم، فقال له الرسول:

«هَلْ أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ شيئاً؟».

فقال: أَبْقَيْتُ لهم الله ورسوله.

ــ وقدّم عُمر بن الخطاب رضي الله عنه نصف ماله.

ـ وقدّم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مائة أوقيّة من ذهب، أي: نحو (٣ كيلوغرام من ذهب) تقريباً. فالأوقية من الرطل البغدادي تعادل «٣٤» غراماً.

ـ وقدّم عاصم بن عديّ رضي الله عنه مائة وَسْق من تمر (الْوَسْقُ: مِكيالٌ سعته ستون صاعاً) أي: قدّم نحو (١٢٠) طنّاً من التمر، أو تزيد.

ـ وقدّم أحد الأنصار صاعاً من تمر هو قَدْرُ استطاعته.

ـ وأرسلت النساء المسلمات ما جُدْنَ به من حليهنّ.

وكانت دعوة القادرين على الخروج دعوة عزيمة، لا دعوة نَدْبٍ على الاختيار.

فكان المسلمون يومئذٍ على أربعة أقسام:

القسم الأول: الذين تجهَّزوا وخرجوا مع الرسول.

القسم الثاني: الذين تشوّقوا للْخُروج، لكنّهم لم يجدوا ما يحْملهم في هذا السفر البعيد الشاق، فسألوا رسول الله أن يحْملهم فلم يجد فيما تجمّع لديه ما يحْمِلُهم عليه، فتولَّوا وأعينهم تفيض من الدّمع حزناً لأنّهم لم يجدوا ما ينفقونه، للتزوّد لهذه الرحلة، وعرفوا بالْبَكّائين، وَكانوا سبعة رجال.

القسم الثالث: الذين تخلّفوا تباطؤاً وتكاسُلاً، وإيثاراً للراحة والاستمتاع بأهْلٍ وظلٍّ وثَمر.

القسم الرابع: الذين تخلّفوا نفاقاً، فمنهم المثبطون، وهم نفر من المنافقين كانوا يقولون للناس لا تنفروا في الحرّ، وكان من المثبطين نفر يجتمعون في بيت سُوَيلم اليهودي، يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبيّ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يُحَرِّق عليهم بيت سُوَيْلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحّاك بْنُ خليفة وهو واحد منهم من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا. ومنهم من جاء يستأذن الرسول ﷺ بعدم الخروج قبل مسير جيش المسلمين إلى تبوك وينتحلون المعاذير فيأذن لهم. ومنهم من تخلّف دون استئذان، فلمّا عاد الرسول ﷺ إلى المدينة أقبلوا يعتذرون عن تخلّفهم، ويحلفون

الأيمان الكاذبة، ويُلَفِّقُون المعاذير، فيُعْرِض الرسول عنهم، ويترك حسابهم لله عزّ وجل.

ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول فقد تخلّف وتخلّف معه كثير من المنافقين، وقال بعضهم لبعض: يغزو محمد بني الأصفر (أي: الروم) والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرّنين في الحبال.

وكان قد خرج عبد الله بن أبي ابن سلول وعَسْكَرَ مع الذين معه دون معسكر الرسول، عِنْدَ جَبَلِ ذُبَاب، أمّا معسكر الرسول فقد كان عند ثنيّة الوداع، خارج بيوت المدينة، فلما سار رسول الله تخلّف بن سلول ومعه جمع من المنافقين وأهل الرّيب، وهلك ابن سلول بعد رجوع الرسول من غزوة تبوك، في ذي القعدة من سنة تسع للهجرة[1].

وقد تعرّضت سورة (التوبة) لبيانات تتعلق بهؤلاء الأقسام الأربعة، ونحاول اكتشاف ذلك لدى تدبّر النصوص إن شاء الله.

* * *

(٤)
خروج الجيش بقيادة الرسول
وذكر بعض ما حصل في الطريق

ولمّا رأى الرسول ﷺ أن المسلمين تجهّزوا للخروج معه ابتغاء غزو الروم من أطراف مواقع سلطانهم في تبوك، خرج بالمسلمين يوم الخميس[2]، وقد بلَغُوا ثلاثين ألْفاً ويزيدون، يتقدّمهم قُرابة عشرة آلاف فارس، وعسكر بالجيش عنْد ثنيّة الوداع، واستخلف على المدينة محمّد بن مسلمة الأنصاري[3]، واستخلف على أهله عليّ بن

(١) قال ابن حجر في شرح الحديث (٤٦٧٠) من الفتح: ذكر الواقدي ثم الحاكم في «الإكليل» أنّ عبد الله بن أبيّ بن سلول مات بعد منصرف المسلمين من تبوك، وذلك في ذي القعدة سنة تسع، وكانت مدّة مرضه عشرين يوماً ابتدأت من ليال بقيت من شوال.

(٢) وكان الرسول ﷺ يحبّ أن يخرج يوم الخميس.

(٣) وقيل: استخلف سباع بن عرفطة الغفاري.

أبي طالب، فقال المنافقون: ما خلّفه في أهله إلّا استثقالاً له وتخفُّفاً مِنْه، فبلغ ذلك عليّاً رضي الله عنه فأخذ سلاحه وخرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ وهو نَازِلٌ بِالْجُرْفِ (موضع على ثلاثة أميال من المدينة ـ نحو ٥٥٤٠م) فقال: يا نبيَّ الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلَّفْتني أنّكَ استثقلْتني وتخفَّفتَ منّي.

فقال رسول الله ﷺ: «كذَبُوا، ولكنّي خلّفتُكَ لما تركْتُ ورائي، فارْجع فاخلُفْني في أهلي وأهلك، أفلا ترضَىٰ يا عليُّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيَّ بَعْدِي؟».

فرجع عليٌّ رضي الله عنه إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ إلى وجهته، وأعطى اللّواء الأعظم الصدِّيق أبا بكر رضي الله عنه، وأعطى الزُّبَيْرَ بن العوامّ راية المهاجرين، وأعطىٰ أُسَيْدَ بن حُضَيْر راية الأوس، وأعطىٰ الْحُبَابَ بن المنذر راية الخزرج.

وسار الجيش في جَهْدٍ شديد، فكان الرجلان والثلاثة يعتقبون على بعير واحد، وتعرّضت أحمالهم من المؤن والأزواد إلى اقتراب النفاد، فجمع الرسول ما فضل من الأزواد فدعا بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلّا ملؤوها، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ:

«أشهد أنْ لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، لا يلقىٰ اللَّهَ بها عَبْدٌ غير شاكٍّ فيُحْجَبَ عن الجنّة».

وتعرّضُوا لنفاد ما معهم من الماء، حتى عطشوا عطشاً شديداً، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنّ الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً، فادْعُ الله لنا، فرفع يديه نحو السماء، فلم يُنْزلهما حتى أغاثهم الله، فأمطرت السماء، فشربوا ومَلَؤُوا أوعية الماء التي لديهم، وكان هذا حين مرّ الرسول ومعه الجيش بالحجر، مساكن ثمود، قوم النبيّ صالح عليه السلام، فنزلها، وأخذ الناس يستقون من بئرها، فقال لهم الرسول لا تشربوا من مائها شيْئاً، ولا تتوضّؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، وأصبح الناس ولا ماء معهم.

قال محمود بن لبيد من بني عبد الأشهل: أخبرني رجالٌ من قومي عن رجلٍ من

المنافقين معروف بالنفاق، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلمّا كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويْحَكَ، هل بعد هذا شيء؟! قال: سحابةٌ مارّة، ثم ارتحل الرسول بالناس حتى نزل عند البئر التي كانت تشرب منها الناقة.

وسار الرسول ومن معه، حتّىٰ إذا كان ببعض الطريق ضلّت ناقته، فخرج بعض أصحابه في طلبها، وكان عند رسول الله عُمارةُ بن حزْم (عَقبيٌّ بَدْري) فسمع رسول الله ﷺ يقول: إنَّ رجُلاً قال: هذا محمَّدٌ يُخبركُمْ أنّه نبيٌّ، ويَزْعُمُ أنَّهُ يخبركُمْ بأمْر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، وإنّي واللّهِ ما أعلم إلاّ ما علّمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شِعْب كذا وكذا، قد حَبَسَتْها شَجَرَةٌ بزمامها، فانْطَلِقُوا حتّىٰ تأتُوني بها، فذهبوا، فجاءُوا بها.

فرجع عُمارَةُ بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجَبٌ من شيءٍ حدّثناه رسول الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، كما سمع من الرسول.

فقال رجُلٌ ممّن كان في رحْلِ عُمارة، ولم يكن عند رسول الله ﷺ: زَيْدُ بْنُ اللُّصَيْت (ويُقَالُ: ابْنُ لُصَيْب) واللّهِ قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقْبَل عُمَارَةُ على زَيْدٍ يَجَأُ في عُنُقِه (أي: يدفعُه بجُمْعِ كَفِّه) ويقول: إليَّ عبادَ الله، إنَّ في رحْلِي لداهيَةً وما أشعر، أُخْرُج أيْ عَدُوَّ اللّهِ من رحْلي فلا تَصْحَبْني.

زيدُ بن اللُّصَيْت: كان من منافقي يهود بني قينقاع.

وكان رهط من المنافقين منهم «وديعة بن ثابت» يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحْسَبُونَ جِلادَ بني الأصفر (أي: الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنّا بكُم غداً مُقرَّنين في الحبال.

وروي أن رسول الله ﷺ قال لعمّار بن ياسر:

«أَدْرِكِ الْقَوْمَ فَإنَّهُمْ قَدِ احْتَرَقُوا، فَسَلْهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بلى، قُلْتُمْ كَذَا وَكذا».

قد احترقوا: أي: عرّضوا أنفسهم للهلاك بسبب ما كانوا يخوضون فيه من إرجاف.

فانطلق إليهم عمّار بن ياسر، فقال لهم ذلك، فأتَوْا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، وقال وديعة بن ثابت: يا رسول الله، إنّما كُنّا نخوضُ ونَلْعَبُ، أي: نقول على سبيل الْمُزاح لا الجدّ.

* * *

(٥)

وصول الرسول بجيشه إلى تبوك

بلغ الرُّومَ مَسِيرُ جَيْشِ محمّد إليهم، فرأت قيادتُهم الانسحاب بجموعهم من جهة تبوك إلى بلاد الشام ليتحصَّنُوا بحُصُونها، وحقق الله لرسوله بذلك التمكين والرّهبة داخل جزيرة العرب، وأقام الرسول بالجيش عند تبوك مُشْعِراً أمراء المواقع الحدودية بأنّه مُتهَيِّىءٌ لقتال من شاء القتال منهم، فرهبوه، وتوافَدُوا إليه طالبين تأمينهم وتأمين حدودهم، مقابل جزية يدفعونها، فكتب لهم الرسول كتباً بذلك، وكانت إقامته بتبوك بضعة عشر يوماً.

* * *

(٦)

كُتُبُ الصُّلْح

أمير أيلة (بلْدَةٌ على خليج العقبة):

أَتَى صَاحِبُ أَيْلَةَ «يُحَنَّةُ بْنُ رؤبَة» فسأل رسول الله الصُّلْح، مقابل جزية يدفعها إلى المسلمين، فقبل الرسول ذلك منه، وكتب له كتاب الصُّلْحِ التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هٰذِهِ أَمَنَةٌ مِنَ اللّهِ ومُحَمّد النّبيِّ رسول الله، ليُحَنَّة بْنِ رؤبة، وأهْلِ أيْلَة، سُفُنِهِمْ وسيّارتهم في البرّ والبحْرِ، لَهُمْ ذِمَّةُ الله، وذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبيِّ، ومَنْ كانَ معهم من أهل الشّام، وأهْلِ الْيَمن، وأهْلِ الْبَحْرِ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثاً، فإنَّه لاَ يَحُولُ مالُهُ دُونَ نَفْسِهِ، وإنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أخَذَهُ مِنَ النَّاسِ، وإنَّهُ لاَ يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءً يَرِدُونَهُ، ولاَ طَرِيقاً يُرِيدُونَهُ، مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ».

وأهدى صاحبُ أيلة النبيّ ﷺ بغلةً بيضاء، وكَسَاه بُرْداً، وأعطاه النبيّ ﷺ بُرْدَهُ مع كتاب الصُّلْح.

أهل جَرْبَاءَ وَأَذْرُح:

وأتى أهْـلُ جَرْبَـاءَ وأذْرُح[1] إلى النبي ﷺ، وطلبوا منه أنْ يصالحهم، مقابل جزية يدفعونها، فقبل الرسول ذلك منهم، وكتب لهم الكتاب التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رسُولِ اللَّهِ لأهْلِ جَرْبَاءَ وأذْرُح، إنَّهُمْ آمِنُونَ بأمَانِ اللَّهِ وَأَمَانِ مُحَمَّدٍ، وإِنَّ عَلَيْهِمْ مِائَةَ دِينَارٍ في كُلِّ رَجَبٍ، ومِائَةَ أُوقِيَّةٍ طَيِّبَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ كَفِيلٌ بالنُّصْحِ والإِحْسَانِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

أهلُ دُومَةَ الجندل، وملكها «أُكَيْدِرُ بْنُ عبد الْمَلِك» من كِنْدَه، وكان نصرانياً:

بَقِي على الحدود إلى جهة الشام، أهلُ دُومَة الجندل، لم يفدوا إلى الرسول ﷺ طالبين الأمان والصلح.

فبعث الرسول خالد بن الوليد إلى مَلِكِهم «أُكَيْدِر بْن عبد الملك» وقال له الرسول ﷺ: إنَّكَ سَتَجِدُهُ يَصِيدُ الْبَقَر.

فخرج خالدُ أميراً على سريَّةٍ من خمسمائة فارس، حتَّىٰ إذَا كان من حِصْنِه بِمَنْظَرِ الْعَيْنِ، وفي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ صَائِفَةٍ، وهو على سَطْحٍ له ومعه امرأته، فباتت بَقَرُ الوحش تَحُكُّ بقرونها بابَ القصر، فقالت له امرأته: هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ هذا قطّ؟!

قال: لَا والله. قالَتْ: فَمَنْ يَتْرُكُ هٰذِه؟ قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه، فأُسْرِجَ له، وركِبَ معه نفرٌ من أهْلِ بيته فيهم أخٌ له يُقَالُ له حَسَّان، فركب، وخرجوا معه لمطاردة البقر، فلمَّا خرجوا تلَقَّتْهُمْ خيلُ رسول الله ﷺ.

فقبضَ الفرسان علىٰ أُكَيْدِر، مَلِك دُومَة الجندل، وقاتل أخوه حسَّان، فقتلوه، وكان على أُكَيْدِر قَبَاءٌ من دِيباج مُزَيَّنٌ بالذهب، فاسْتَلَبَهُ خالدٌ منْهُ، وبعث به إلى

(١) جَرْبَاءُ وأذْرُح: قريتان متقاربتان.

رسـول الله ﷺ قبل أنْ يقْـدَمَ بأُكَيْـدر عليه، فلمّـا وُضِعَ القباءُ بين يَدَي الـرسول جعـل الصحابة يلْمَسُونه بأيديهم ويتعجّبون منه، فقال الرسول لهم:

«أتَعْجَبُونَ مِنْ هَذا؟ فَوَالّذِي نَفْسِي بِيَـدِهِ لَمَنَادِيـلُ سَعْدِ بْنِ مُعَـاذٍ في الجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا».

وقَدِمَ خَالِدُ بْنُ الوليد بأُكَيْدِرٍ على رسول الله ﷺ، فحَقَنَ الرَّسُول دَمَـه، وصالَحَـهُ على الجزية، ثمّ خلَّى سبيله، فرجع إلى بلده وقومه.

وحقّق الله لرسوله النصر، وأحسَّتْ قبـائلُ العـرب أنّ الرسـول مَلَكَ أمْرَ الجـزيرة العربية، وأنّ الإسلام صار قوّة مرهوبة الجانب، من قِبَلِ دولة الرّوم، واستشار الرسول أصحابه في ملاحقة جموع الرّوم وراء تبوك، فأشار عليه عمـر بالاكتفـاء في هـذه السنـة بما حصل، فاستحسن رأيه وعمل به.

* * *

(٧)
رحلة العودة إلى المدينة

بعد أن أقام الرسول ﷺ ومعه الجيش بتبوك بضع عشرة ليلة، آذَن بالرحيل عائداً إلى المدينة.

حادثة الوشـل:

يوجَدُ في طريق العودة وادٍ يقال له: وادِي الْمُشَقِّق، فيه وشَلٌ (أي: نبع ماء قليل يتحلّب متقاطراً ويتجمّـع) ما يُرْوِي الراكب أو الراكبين أو الثلاثة.

فقال الرسول ﷺ: «من سبقنا إلى ذلـك الوادي، أو إلى ذلـك الماء فـلا يستقِيَنَّ مِنْهُ حتّى نَأْتِيه».

فسبقه إليه نفرٌ من المنافقين، فـاسْتَقَوْا مـا فيه، فلمّـا أتاه وقف عنـده فلم يَرَ فيـه شيئاً، فقال مستنكراً:

«مَنْ سَبَقَنَا إلَىٰ هَذَا الْمَاءِ؟؟»

فقيل له: يا رسولَ الله، فُلانٌ وفُلانٌ. فقال:
«أَوَلَمْ أَنْهَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْهُ شيئاً حَتَّىٰ آتِيَهُ؟!»

وغضب من معصيتهم ودعا عليهم، ثمّ نزل عن راحلته، فوضع يدَهُ تحت الوشَل حيث يتقاطر منه الماء، حتّى إذا تجمّع فيها مقدارٌ ما منه نَضَحَ مَكان تقاطر الماء بما تجمّع في يده منه، ومَسَحَهُ بيده، ودعا بما شاء الله أن يدعو به، فتفجّر منه الماء تفجُّراً، وقال من سمعه: إنّ لَهُ حِسّاً كَحِسِّ الصَّواعِقِ، فشرب الناس، واسْتَقَوْا مِنْه حاجتهم.

• • •

حادثة تآمر بعض المنافقين لمزاحمة الرسول

في الطريق ابتغاء إلقائه عن راحلته في مُنْحدر:

روى البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال: كنْتُ آخذاً بخطام ناقة رسول الله، وعمّار يسُوقُ الناقة، حتّى إذَا كُنّا بالْعَقَبَة (العقبة: مرقى صعْبٌ من الجبال) إذا باثْنَيْ عَشَرَ رجُلاً قد اعترضوه فيها، قال: فأنْبَهْتُ رسُول الله ﷺ، فصرخ فيهم، فولَّوْا مُدْبِرينَ، فقال رسولُ الله: «هلْ عرَفْتُمُ الْقَوْمَ؟» قلنا: لا يا رسول الله، قد كانُوا مُتَلَثِّمِين قال: «هَؤُلاءِ الْمُنَافِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، وهل تَدْرُونَ مَا أَرَادُوا؟» قُلْنا: لا، قال: «أَرَادُوا أَنْ يَزْحَمُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْعَقَبَةِ فَيُلْقُوهُ منها» قُلْنا: أو لا تبعثُ إلى عشائرهم حتّىٰ يَبْعَثَ إِلَيْكَ كُلُّ قَوْمٍ برأسِ صاحبهم؟ قال: «لا، أكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّداً قَاتَلَ بِقَوْمِهِ، حتّىٰ إِذَا أَظْهَرَهُ الله بهم أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ» ودعا عليهم.

وروى الإمام أحمد في مسنده نحو هذا الذي رواه البيهقي، وزادَ أنّ عمّاراً صار يضرب وُجُوه رواحِلِهِمْ يُنَحِّيها عن رسول الله، حتّىٰ قال: «قَدْ. قَدْ» أي: كفى كفى.

وهم الذين عناهم الله بقوله في سورة (التوبة):

﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا . . . ﴿٧٤﴾ ﴾.

كماسيأتي إن شاء الله لدى تدبُّر النّصّ.

• • •

قصّة مَسْجِد الضِّرار:

كان في المدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجُلٌ من الخزرج يقال له أبو عامر

الراهب، واسمه «عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان» أحدُ بني ضبيعة، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وقرأ علْم أهل الكتاب، وكانت له عبادةٌ في الجاهليـة، وله شـرف في الخزرج كبير، فلمّا قدم الرسول مهـاجراً إلى المـدينة، واجتمـع المسلمون عليـه، وصارت للإسلام كلمةٌ عالية، وأظهرهم الله يوم بدر على مشركي مكّـة، بارز أبو عامر الراهب بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارّاً إلى كُفّـارِ مكة من مشـركي قريش، يمـالئهم على حرب رسول الله ﷺ والمؤمنين به، وخرج معه خمسـون غلاماً أو دون ذلك، وكان الرسول قد دعاه إلى الله وقرأ عليه من القـرآن، فأبـى أنْ يُسْلِمَ وتمـرّد، فدعـا الرسـول عليه أن يموت بعيداً طريداً، فنالته دعوة الرسول ﷺ.

كان يُطلقُ عليه في الجاهلية لقب «الراهب» لعبـاداته على دين النصـرانية، فلمّـا كان منه ما كان من عداء للإسلام والرسول والمؤمنين أطلق الرسول عليه لقب «الفاسق» فكان المسلمون يلقّبونه بالفاسق.

وكان يَعِدُ قُريشاً أنْ لـو قَدْ لَقِيَ قـومَهُ لم يختلف عليـه منهم رجلان، فلمّـا كانت غـزوة أُحُد، قـدم لحَرْب المسلمين مـع مشركي قـريش، وكان مُقدِّماً بين الأحـابيش وعُبْدان أهل مَكّـة، فدعـا إلى حَفْرِ حَفـائرَ بين الصَّفَّيْن، ليَسْقُط فيهـا المسلمون، وهم لا يعلمون بوجودها، وسقط الرسول ﷺ في إحداها.

وحين الْتقَىٰ المسلمون بالكـافرين للقتـال كان أوّل من لقي المسلمين أبو عامر الفاسق في الأحابيش وعُبْدان أهل مكّة، فنادىٰ قومه من الأنصـار يستميلهم إلى نُصْرتـه ومُوافقته، وقال لهم: أنا أبو عامر، فلمّا عرفوه قالوا له: لا أنْعَمَ اللّهُ بِكَ عَيْناً يا فـاسِق، يا عَدُوّ الله، ونالوا مِنْهُ وسَبُّوه، فرَجَع وهُوَ يقولُ: والله لقدْ أصابَ قومي بعدي شرّ.

وعاد إلى مكة بعد أحد، ورأى أنّ أمر الرسول آخذ في الارتفاع والظهـور، فرأى أن يذهب إلى هرقل مَلِك الرّوم، يستنصره على محمّد وصحبـه، فوعَـدَهُ ومَنّاهُ، وأقـام عنْدَه، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار، من أهل النفاق والرّيب يَعِدُهم ويمنّيهمْ أنه سيَقْدَمُ بجيش يقاتِلُ به الرّسول، ويَغْلِبُه ويردُه عمّا هـو فيه، وأمَـرَهُمْ أنْ يَتخِذُوا لـه مَعْقِـلاً يَقْدَمُ عليهم فيـه من يقْدَمُ من عِنْـدِهِ لإيصالِ كتبـه، ويكون مَـرْصَداً لَـهُ إذا قَدِمَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذلِكَ.

فشَرَع المتآمِرُونَ مَعَهُ فِي بناءِ مسجِدٍ مجاورٍ لِمَسْجِدِ قُباء، فَبَنَوْهُ وأَحْكَمُوهُ قَبْلَ خُرُوجِ الرسول إلَىٰ تَبُوك، وجاءوا إلى الرسول فسألوه أن يأتي إليهم فيُصَلِّيَ في مَسْجِدِهم، لتكون صلاة الرسول فيه حجّةً لهم على أنّه قَدْ بُني بِإِذْنِه ومُبَارَكته، وذكروا أنّهم إنّما بَنَوْهُ للضعفاء منهم وأهْلِ العلّةِ والحاجَةِ في اللّيلة الْمَطِيرة، فعصَمَهُ الله من الصلاة فيه، وقال لهم: إنِّي علَىٰ جَناحِ سَفَرٍ، ولَوْ قَدْ قَدِمْنَا إنْ شاء الله لأتيناكم، فصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيه.

ولمّا قفل الرسول ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يَبْقَ بينه وبين المدينة إلّا يومٌ أوبعض يوم، نزل عليه جبريلُ عليه السلام بخبر مَسْجِدِ الضِّرار، وما أُعِدَّ له هذا المسجد، فدعا ﷺ مَالِكَ بْنَ الدُّخْشُم، أخا بني سالم بن عوف، ومَعْنَ بْنَ عَدِيّ، أوْ أخاه عاصم بْنَ عديٍّ، أخا بني العجلان، فقال لهما:

«انْطَلِقَا إلَىٰ هٰذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ، فاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاه».

فخرَجا سَرِيعَيْن، حتَّىٰ أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهْطُ مَالِكِ بْنِ الدُّخْشُمْ، فقال مالكٌ لمَعْنٍ: أَنْظِرْني حَتَّىٰ أَخْرُجَ إِلَيْكَ بنارٍ من أهلي. فدخل إلى أهله، فأخذَ سَعَفاً من النَّخْلِ، فأشْعَلَ فيه ناراً، وخَرَجا يَشْتَدَّان، حتَّىٰ دَخَلا الْمَسْجِدَ، وفيه أهلُهُ فحرَّقاهُ وَهَدَمَاه، وتفرّق بُنَاتُهُ عَنْهُ.

وذكر ابن إسحاق كما جاء في السيرة النبوية لابن هشام أسماء المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار، وأنّهم اثنا عشر رجُلاً، وهم:

(١) خِذَامُ بن خالد، من بني عُبَيْدِ بْنِ زَيْد، أحدِ بني عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، ومِنْ دارِه أُخْرِجَ مَسْجِدُ الشّقاق.

(٢) ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِب أو ثَعْلَبَةُ بْنُ ابي حاطب، وهو الذي رُوِيَ أنّه منع الزكاة لمّا اغْتَنَىٰ، وتركَ الجُمُعةَ والجماعة، وهو غير ثعلبةَ بن حاطب الأنصاري منْ بني أمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، فهذا من أهل بدر، وقد ذكر ابْنُ الكلبي أنّه مات بأُحُدٍ، ونَبَّهَ على الفرق بين الشَّخْصين الحافظ ابن حجر في الإصابة (ج ١ ص ١٩٨).

(٣) مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْر، من بني ضبيعة بن زيد.

(٤) أبو حبيبة بْنُ الأزعر، من بني ضبيعة بن زيد أيضاً.

(٥) عَبّادُ بْنُ حُنَيْف، أخو سَهْلِ بْنِ حُنَيْف، من بني عمرِو بْنِ عَوْف.

(٦) جارِيَةُ بْنُ عَامر.

(٧) مُجَمِّعُ بْنُ جارِيَة بْنِ عَامر.

(٨) زَيْدُ بنْ جارية بْنِ عامر.

(٩) نَبْتَلُ بْنُ الحارث، من بني ضُبَيْعة.

(١٠) بَحْزَجُ، من بني ضُبَيْعة.

(١١) بِجَادُ بْنُ عثمان، من بني ضُبَيْعَة.

(١٢) وديعةُ بنُ ثابت، من بني اميَّة بْنِ زَيْدٍ، رهط أبـي لُبَابَة بن عَبْدِ المنذر.

وقد نزل بشأن مسجد الضرار الآيتان (١٠٧ ـ ١٠٨) من سورة (التوبة) كما سيأتي بيان ذلك لدى تدبُّر النص إن شاء الله.

* * *

(٨)

الوصول إلى المدينة

وصل الرسول والمسلمون معه مظفَّرين منصورين، وتلقَّاهم النساء والصبيان والولائد عند ثنيّة الوداع مبتهجين فرحين بنصر الله، ودخل المدينة، وبدأ بالمسجد، فصلّى ركعتين، كعادته إذا قَدِم من سفر، ثم جَلَسَ للنّاس، وكانَ لا يَقْدَمُ من سَفَرٍ إلاَّ نهاراً في الضحى.

• • •

المخلّفون من المنافقين:

فجاءه المتخلّفون عنه في هذه الغزوة، وأخذوا يعتذرون إليه، ويحلِفُونَ لَهُ، وكانُوا بضْعةً وثَمانين رجُلاً، فيقْبَلُ مِنْهُمْ رسُولُ اللّهِ علانيَتَهُم، ويَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، ويَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إلى اللّهِ تعالى.

• • •

الْمُخَلَّفُونَ الصادقونَ المؤمنون الثلاثة الذين جاءُوا إلى الرسول وأعْلَنُوا أنهم لـم يكن لهم عـذر:

وكـانَ قد تخلّف عن الـرسول في هـذه الغزوة ثـلاثة مؤمنـون صادقـون، قـدمـوا للسلام على الرسول ﷺ، فسألهم عن سبب تخلُّفهم، فاعترفوا بأنّهم لم يكن لهم عُذْرٌ يجيز لهم أن يتخلّفوا بسببـه، إلاّ أنّهم تباطَـوْا وآثَرُوا الـرّاحَة، والبقـاء في أهلٍ وظـلٍّ وثمر وماء، وقال الرسول بشأنِ كُلِّ واحدٍ منهم: «أمَّا هذا فقـد صدَق، فَقُمْ حتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ فيك» وهم:

(١) كَعْبُ بْنُ مَالِك، لم يتخلّف عن غزاة غزاها الرسول قط إلاّ في غَزاة تبوك.

(٢) مُرَارَةُ بن الربيع العامري، ممّن شهد بدراً.

(٣) هِلاَلُ بْنُ أُمَيَّة الواقفي، ممّن شهد بدراً أيضاً.

وأمر الرسـول بمقاطعـة هؤلاء الثلاثـة، ونهى المسلمين عن مكالمتهم، من دون سائر الذين تخلّفوا، ولو كانوا كاذبين في معاذيرهم.

واشتـدَّ عليهم الأمـر، حتّىٰ ضَـاقت عليهم الأرض بمـا رَحُبَتْ، ووصـل خبـر مقاطعتهم إلى مَلِكِ غسّان، فكتب كتاباً لكَعْب بْن مَالِك، وبعثه إليه مع تاجـر نَبَطِيّ من أنباط الشّام[1]، من الذين قدمـوا بطعـام يبيعونـه في المدينـة، وجعل يقـول في سوق المدينة: مَنْ يدُلُّ على كَعْب بْنِ مالِك؟ قال كعبُ بن مـالك: فـطفق الناس يشيـرون لَهُ إليّ، حتى جاء فدفع إليّ كتاباً من ملك غسّان، وكنْتُ كاتباً، فإذا فيه:

«أما بعد: فقـد بلَغَنا أنّ صـاحبَكَ قـد جفاك، وإنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْكَ في دارِ هَـوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَة، فالْحَقْ بِنَا نُواسِك».

قال مالك: فقلْتُ حينَ قرأتُه، وهذا أيضاً من البلاء، فتيمَّمْتُ بِهِ التَّنُور، فَسَجَرْتُهُ به.

ومضت أربعون ليلة، فوجّه الرسول لهم أمراً بأن يعتزلوا نساءهم ولا يَقْرَبُوهُنَّ.

---

(١) الأنباط: شعْبٌ ساميٌ كـانت لهم دولة في شمـاليّ شبه الجـزيرة العـربية، وعـاصمتهم «سَلْع»، وتُعْرَفُ الآن بـ «الْبَتْرَاء».

ومرّتْ عشر ليالٍ أخرى على هذه المقاطعة التأديبيّة الجزائية، فأنزل الله عزّ وجلّ قرآناً بتوبته عليهم، فأرسل الرسول إليهم من يبشّرهم بذلك، ففرحوا بتوبة الله عليهم فرحاً لم يفرحوا مثله في حياتهم قطّ، وقال الرسول ﷺ لكعب بن مالك:

«أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

قال كعب: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ الله أَمْ مِنْ عِنْدِ الله؟.

قال: «لاَ، بَلْ مِنْ عِنْدِ الله».

نزلت بتوبة الله عليهم الآيتان (١١٨ ـ ١١٩) من سورة (التوبة) كما سيأتي بيان ذلك لدى تدبُّر النصّ إن شاء الله.

• • •

المخلّفون من المؤمنين الذين أوثقوا أنفسهم
في سواري المسجد دون أن يأتوا إلى الرسول:

قال ابن عباس وآخرون في قول الله عزّ وجل في سورة (التوبة):

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾:

نزلَ في أبي لُبَابة وجماعةٍ من أصحابه (قيل: هم معه ستة، وقيل: ثمانية وقيل: عشرة) تخلّفوا عن رسول الله في غَزْوة تبوك، فلمّا رجع رسول الله ﷺ من غزوته رَبَطُوا أنفسهم بسَواري المسجد، وحَلَفُوا لا يَحُلُّهُمْ من رباطهم إلاّ رسول الله ﷺ، فلمّا نزلت الآية أطلقهم الرسول وعفا عنهم.

ورُوِيَ أنهم جاءوا بأموالهم إلى رسول الله وقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا، فتصدّق بها عنّا، واستغفر لنا، فقال: «مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شيئاً» فأنزل الله عزّ وجلّ قوله:

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

فأخذ رسول الله ﷺ ثُلُثَ أموالهم وترك لهم الباقي.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحّاك وآخرون، نزلت توبة الذين ربطوا أنفسهم بسواري المسجد (أبي لُبَابةَ وأصحابه) قبل أن تنزل توبة الله على الثلاثة الذين خُلِّفوا (كعْب بن مالك، ومُرَارة بن الربيع، وهلال بن أميّة).

* * *

(٩)
خاتمة

هذه خلاصة أحداث غزوة تبوك، وسيأتي تفصيلاتٌ وشروحٌ وبيانات أخرى إنْ شاء الله لدى تدبُّر النصّ من سورة (التوبة) والله هو المستعان، ومنه التوفيق والفتْحُ والتسديد.

• • •

القسم الثاني

دراسة النصّ دراسة تدبّرية

وفيه سبعة عقود

يلاحظ في آيات هذا النصّ أنها سارت وفق أسلوب ازدواجيّة البيان نشراً وطيّاً بين المنافقين على اختلاف صفاتهم وظواهرهم السلوكية، ودركاتهم في النفاق، وبين المؤمنين على اختلاف صفاتهم ودرجاتهم في الإيمان، كحبلين مختلفين أبيض مختلف الصفات ومتدرج الألوان، وأسود مختلف الصفات ومتدرج الألوان، وقد فتل كل منهما على الآخر، فظهر في السطح المنظور مقطع من الحبل الأبيض، وبعده مقطع من الحبل الأسود، وهكذا إلى النهاية.

العِقْدُ الأوَّل: استعراض أكبر وقائع المنافقين وغيرهم، إبّان أحداث غزوة تبوك وتجربتها، مع التعقيبات والتوجيهات الرّبانية، وبعض المقدمات.

العِقْدُ الثاني: بيان أقسام مجتمع المسلمين يومئذٍ بعد استعراض أهم الوقائع، مع التعقيبات والتوجيهات الرّبانية.

العقد الثالث: قصّة مسجد الضرار مع التعقيبات والتوجيهات الرّبانية.

العِقْدُ الرابع: بيانات وتوجيهات تتعلّق بقضايا وردت في العقود السابقة.

العِقْدُ الخامِسُ: تعليمات وتوجيهات حول الخروج للقتال في سبيل الله.

العقد السادس: بيان موقف المنافقين تجاه ما كان ينزل من القرآن تباعاً في مقابل موقف المؤمنين.

العِقْدُ السَّابع: آخر توجيه من الله للناس بالنسبة إلى الرسول محمّد ﷺ، ومعه وصية من الله للرسول.

الْعِقدُ الأوَّلُ

هذا استعراض أكبر وقائع المنافقين وغيرهم من المسلمين إبّان أحداث غزوة تبوك مع التعقيبات والتوجيهات الرّبّانية وبعض المقدمات.

* قول الله عزّ وجل خطاباً للذين آمَنُوا:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

سبق هذه الآية تَوْجِيهُ اللّوم للّذين آمنوا بسبب تثاقلهم إلى الأرض وعَدَمِ نهوضهم بهمّة ونشاط، إذا أُمِرُوا أن ينفروا في سبيل الله، وتبِع هذا اللّوم تهديدُهم بعذابٍ أليم إنْ لم ينْفِرُوا استجابة لأمر الرسول لهم بأنْ يَنْفِرُوا مقاتلين في سبيل الله، وتهديدُهم باستبدال قومٍ غيرهم لنصرة رسوله ولنصرة دينه، يقاتلون في سبيله غير متثاقلين ولا متباطئين ولاَ مُتَكاسِلِين.

وجاءت هذه الآيةُ تَتَضَمَّنُ أمْراً مُباشراً من الله لهم بأن ينْفِرُوا على أيَّةِ حالَةٍ صالِحَةٍ لقتالِ العدوّ خِفَافاً وثِقالاً.

والخطاب موجّه لغير ذوي الأعذار التي تعفي أصحابها من القتال في سبيل الله، بمقتضى بياناتٍ أخرى، جاءت في القرآن، كالمريض والأعمى والأعرج وأشباههم.

وتتضمَّنُ أيضاً أمراً مباشراً من الله عزّ وجل لهم بأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، بمختلف أنواع الجهاد.

الأَمْرُ بالنَّفر أمْرٌ بالخروج من مكان الإقامة، والضرب في الأرض بِسُرْعةٍ لتأديَةِ عَمَلٍ يُبَيِّنُه الآمِرُ بالنَّفْر، وهو في الدين الجهادُ في سبيل الله على اختلاف أنواعه وأشكاله وصوره، ومنه جهاد الدعوة إلى دين الله، وجهادُ القتال في سبيل الله.

يقال لغة: نَفَرَ يَنْفِرُ نَفْراً ونُفُوراً إذا أَسْرعَ مُفارقاً مكان إقامَتِه، ضارباً في الأرض مُرْتحلاً مسافراً.

ومنه يُقال: نَفَرَ الْحُجّاج من منًى، إذا دفَعُوا مُتوَجّهين لمكّة، والنَّفْرُ تُصاحبه عادةً الهِمَّة وسُرْعةُ الحركة والنشاط.

والنَّفْرُ لتأديةِ وظيفةٍ دينيّة يكونُ بحَسَب هذه الوظيفَة، فإنْ كانت هذه الوظيفةُ لا تحتاج أن يكونَ النافر ثقيلاً بعتادٍ وأسلحةٍ ومؤونَة، نفَرَ خَفِيفاً، كأن تكون وظيفتُه المأمورُ بأن يقوم بها، دعوةً إلى دين الله، أو استطلاعاً لأخبار العدوّ، أو مناوشةً خفيفةً تعتمد على الكرّ والفرّ. وإنْ كانت هذه الوظيفة تحتاجُ أن يكون النافر ثقيلاً بعتادٍ وأسلحة ومؤونةٍ ونحو ذلك، نَفَرَ ثقيلاً، أي: مستصحباً هذه الأثقال.

لذلك جاء النص يخاطب اللَّهُ فيه الذين آمنوا بقوله:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾:

أي: إذا أُمِرْتُم بأَنْ تَنْفِرُوا خِفَافاً فانفِرُوا خفافاً، وإذا أُمِرتُم بأَنْ تَنْفِرُوا ثِقالاً فانفِروا ثِقالاً، فالتكليفُ يَتْبَعُ طبيعةَ العمل المطلوب في النَّفْر، ويكونُ على التوزيع بحسب القدرات والاختصاصات، ويتمُّ ذلك من قِبَلِ القيادة الآمرة بالنَّفْر.

ولمّا كانَ النَّفْرُ الّذي يأمُرُ به الرسولُ أو أميرُ المؤمنين من بعده وسيلةً للقيام بعَمَلٍ جهاديٍّ لنُصْرَةِ الإسلام أو جماعةِ المسلمين، سواءٌ أكان جهاداً بقتالٍ أو بغيره، أَتْبَعَ الله عزّ وجلّ الأمْرَ بالنَّفر بقوله خطاباً للّذينَ آمَنُوا:

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

الْمُجَاهَدَة: هِيَ بَذْلُ جَهْدٍ زائدٍ لتحقيق الغاية من العمل المطلوب، وهي تكون بالبذْلِ من الأموال، وبالبذل من الأنفس، أي: من طاقةِ الجسمِ وقُدْراته، حتّى تعريضِ الحياة للقتل، وهو غاية البذل المستطاع لذي الحياة.

وجاء في النصّ تقديمُ المجاهدة بالأموال على المجاهدة بالأَنْفُس، لأنَّ المجاهدة بالأموال هي الوظيفةُ الأولى الّتي يتحقّقُ بها الإعداد بالأسلحة والعتاد والمؤن والخطط والتدبيرات اللاّزمة للتنُقّل والارتحال والسَّفر قبل المجاهدة بالأنفس.

وجاء تَقْييدُ الجهاد بأنْ يكون في سبيل الله، لأنّ بذل الْجَهدِ إنْ لم يكن في سبيل الله، فهو إمّا عملٌ غير مأجور عند الله، أو عملٌ يَتَحَمَّلُ به باذِلُه وزراً، والعمل غير المأجور هو ما كان للحصول على شهوةٍ مباحة دون اقترانه بنيّة تجعله بحكم الشرع طاعةً لله، والعملُ الذي يتحمّل به باذلُه وزراً هو ما كان في معصية الله.

وسبيل الله هو دينه، وصراطه المستقيم الذي رسمه لعباده حتىٰ يسيروا فيه. وهو أيضاً ابتغاء مرضاته في اتّباع أوامره واجتناب نواهيه، والتقيّد بأحكام شريعته، والوقوف عند حدوده، والمراد من الجهاد في سبيل الله هنا ما يكون به نشر دين الله، والدعوة إليه، ونصرةُ المسلمين والدفاعُ عنهم، وإقامة الحقّ والعدل في الأرض.

وبعد الأمر بالنفر وبالجهاد بالأموال والأنفس طاعةً لأمر الرسول أو أمْرِ أمير المؤمنين من بعده، استحثّ الله عزّ وجلّ عواطفَ الذين آمنوا لتنفيذ ما أُمِرُوا به، بأنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ ممّا يتصوّرُونَ المحافظةَ عليه من أموالٍ أو أنفس، فيما لو اثَّاقَلُوا إلى الأرض وتباطَؤُوا وتَكَاسَلُوا، ولم يَنْفِرُوا مجاهِدِين في سبيل الله، فقال تعالى لهم.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

المشار إليه بـ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ هو النَّفْرُ والجهاد بالأَمْوالِ والأَنْفس.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

أي: أكْثَرُ نفعاً وفائدةً لكم عاجلةً وآجلةً من إيثار الإمْسَاكِ والسَّلامة.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ما يُعْطيكُمُ الله من خير عاجل وآجل عِلْمَ يقين، عَلِمْتُمْ أنّ النَّفْرَ والجهاد طَاعَةٌ للرسول أو لأميركم من بعده أكْثَرُ نفعاً وفائدة لكم، فلَمْ تُقَصِّرُوا بالقيام بهذا الواجب الجهاديّ.

• • •

* قول الله عزّ وجلّ يتحدّث عن المنافقين الذين تخلّفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

في هذه الآية يتحدّث الله عزّ وجلّ عن عموم المنافقين المتخلّفين عن الرّسول ﷺ في غزوة تبوك، سواءٌ من استأذن منهم ومن لم يستأذنْ، ولكنْ جاء بعد الغزوة معتذراً، مع أنّ الرّسول قد أمر المسلمين بأنْ يَنْفِرُوا أمْرَ إلزام، ولم يقتصر على الندب، باستثناء ذوي الأعذارِ الشرعية، فعموم المنافقين سيحلفون للرسول وللمؤمنين مقسمين بالله على أنّهم لو استطاعوا الخروج مع المؤمنين لخرجوا، وهم كاذبون، فقد كانوا يستطيعون الخروج، ولكن وجدوا أنّ الخروج إلى هذه الغزوة محفوف بالمتاعب الشديدة، والمخاطر الكثيرة، فالمواجهة ستكون مع جيش دولة عظيمة ذاتِ إمبراطورية كبرى، لا مع جموع قبائل عربية، وهم إنّما يخرجون للمشاركة في تحقيق مغانم، أو في غزوات قريبة يسترون بالخروج مع المسلمين فيها نفاقهم، ويقدّرون أنّهم يملكون فيها سلامتهم.

جاء في سيرة ابن هشام: أنّ ناساً من المنافقين كانُوا يجتمعون في بيت «سُوَيْلم» اليهودي، يثَبِّطُون الناسَ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فَبَعَثَ إليهم النبيُّ ﷺ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ الله في نَفَرٍ مِنْ أصحابه، وَأَمَرَهُ أَنْ يحرّق عليهم بيْتَ «سُوَيْلم» ففعَلَ طَلْحَةُ، فاقْتَحَمَ «الضَّحَّاكُ بْنُ خليفَةَ» من ظَهْرِ البيتِ فانكَسَرَتْ رجْلُه، واقْتَحَمَ أصحابُهُ فأفلَتُوا، وكان منهم «ابْنُ أُبَيْرِق» كما ذكر الضَّحَّاكُ في شِعْرٍ له.

فيقولُ الله عزّ وجلّ بشأن المتخلفين من المنافقين:

﴿لَوْ كَانَ﴾:

أي: المأمور بالخروج إليه.

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾:

أي: شيئاً من متاع الدنيا قريباً يُمْكنُ الحصول عليه وتناوُلُهُ من قُرْبٍ، كَشأْنِ غنائِمِ خيْبَر.

الْعَرَض: كلُّ ما كان من متاع الحياة الدنيا قلّ أو كثُر، سُمّي عَرَضاً لأنّهُ يَعْرِض ويَزُول.

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾:

أي: ولو كان المأمور بالخروج إليه سَفراً سَهْلاً، فالقاصِدُ من الأسفار السَّهْلُ الذي لا عُسْرَ فيه ولا شدّة، يقال لغة: بيْنَنا وبين الماء ليلَةٌ قاصِدَةٌ، أي: هيِّنةُ السَّيْرِ لا تعَب فيها ولا مشقّة.

﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾:

أي: لاتَّبعك يا مُحَمَّدُ هؤلاء المتخلّفون من المنافقين.

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾:

أي: ولكن بَعُدَتْ عليهم المسافةُ التي يَشُقُّ اجتيازها. تُطْلَقُ الشُّقَّةُ في اللّغة ويُرادُ منْها السَّفرُ البعيدُ، والمسافَةُ الّتي يَشُقُّ اجتيازُها، والمعنى: ولكنْ بعُدَتْ عليهم الشُّقَّة فلم يَتْبعُوك ﴿و﴾ أخْبَرَ الله عزّ وجلّ المؤمنين عنهم قائلاً لهم: إنَّهم بَعْدَ عَوْدَتِكُمْ من غزوة تبوك سيحلفون بالله لكم لو استَطَعْنا لخرجنا معكم، دل عليه:

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾:

أي: لَكُمْ ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وأبان الله عزّ وجلّ أنّهم بهذه الأيمان الكاذبة ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لأنهم يُعَرِّضُونها لعقاب الله المعجّل والمؤجّل، وفي العقاب المعجّل هلاك لهم، **الهلاك**: الموت، والتناقُصُ المتدرِّجُ حتّى الفناء، وذلك لأنّ الله الذي يحلفون باسمه كاذبين يَعْلَمُ أنّهم كاذبون، فَيُعَاقِبهم عقاباً مهلكاً لهم في الحياة العاجلة على كذبهم الْمُوثَّقِ عِنْدَ النّاسِ بِالْقَسَمِ باسمه، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

فأكّد سُبْحانَهُ أنّهُمْ كاذِبون بعدّة مؤكّدات، هيَ: إنَّ ــ والجملة الاسمية ــ واللّام المزحلقة، وكُسِرَتْ همزَةُ «إنَّ» بعد فعل «يَعْلَم» لوجود اللّام المزحلقة في خَبَرِها.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

جاء فريق من المنافقين قبل خروج الرسول إلى غزوة تبوك يستأذنونه في أن لا يخرجوا معه، مُتَعَلِّلين بأعذار لفَّقُوها، فقَبِلَ الرسُولُ منهم أعذارَهُمْ بِحَسْب ما أظهروا من أحوالهم، وأذِنَ لهم بعدم الخروج، فعاتبه الله عزّ وجلّ وتلطّف معه بالعتاب، إذْ قَدَّمَ عبارَةَ الْعَفْوِ عنه، قَبْلَ سُؤالِهِ سؤالَ عِتابٍ عن سبب تعجّله في الإذن لهم، دون أن يتبيّن أحوالهم، ويَعْلم الصّادقين منهم في أعذارهم ويَعْلَمَ الكاذبين، فقال له:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ؟﴾.

الْعَفْوُ أبْلَغُ من الْغُفْران، لأنّ العفو مَحْوٌ للأثر، امّا الغفران فهو سترٌ له.

وعبارة ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ؟﴾ استفهامٌ فيه معنى العتاب.

وعبارة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ مبنيّةٌ على جُمْلَةٍ محذوفةٍ تقديرُها: كان ينبغي أنْ تتريَّثَ في الإذن لهم، أو أنْ لا تأذن لهم حتّى يَتَبيَّنَ لك الذين صدقوا وتَعْلَمَ الكاذبين، وهذه الجملة المحذوفة يمكن إدْراكُها من توجيه السؤال العتابي.

ولم يكن إذن الرسول لهم ذنباً أصلاً، لأنه لم يخالف فيه تكليفاً ولا توجيهاً سابقاً، وإنّما أرشده الله بهذا الأسلوب التعبيري إلى ما هو الأكمل والأحسن من تصرُّفٍ إداري في هذا الموضوع، فلقد كان من الأحكم والأحزم أن يتبيّن أحوالهم قبل أن يأذَنَ لمن أذن له منهم، ليكشف حقيقة هُوِيّاتهم صدْقاً وكذباً، وبذلك يكشف نفاق المنافقين من المستأذنين، وهذا الإرشاد له يتضمّن أيضاً إرشاداً لقادة المسلمين وأمرائهم من بعده، إنّ المفروض فيمن يُولّى الإمارة أن يكون مأذوناً له بأن يتصرّف بما

يراه الأصلح ولو أخطأ في اجتهاده ولم يوافق ما هو الأصلح والأحكم، والتعقيب عليه يكون بلفت نظره إلى ما هو الأحكم والأحسن والأصلح.

وبعد هذا أبان الله عزّ وجلّ أن من صفات الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً متجدّداً حيّاً في قُلوبهم وتصوّراتهم، أنّهم لا يَسْتأْذِنون الرَّسُول في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم على قدر استطاعاتهم، إذا أمرهم بذلك أمْرَ إلزام، بل تدفعهم بواعث تقوى الله إلى طاعة الرسول، فمن استطاع أن يبذل من ماله بذل منه، ومن استطاع أن يبذل من نفسه على قدره بذل، ومن استطاع أن يبذل من ماله ونفسه فعل، وذو العُذْرِ يعرض حاله على الرّسول عرضاً منتظراً ما يأمره به، إن لم يكن من أهل الأعذار الظّاهرة الذين جعل الله لهم استثناء، كما فعل البكاءُون حين جاءوا إليه عارضين عليه أنّهم لا يملكون ما يحتاجون إليه في هذه الغزوة، وطالبين أن يعطيهم ما يحملهم فيها، فقال لهم الرسول: لا أجِدُ ما أحملكُمْ عليه، وأذن لهم بالتخلّف، فانصرفوا وهم يبكون حزَناً لأنَّهُمْ لا يجدون ما يُنْفِقُون.

إنّ عرض الحال مع بيان الاستعداد للقيام بالعمل المستطاع يُمَكّن الرسول من توجيه كلّ فردٍ للعمل الذي يستطيعه مقيماً أو مسافراً، ضمن الخطّة العامّة.

وفي بيان هذا الوصف من صفات الذين يؤمنون باللّهِ واليوم الآخر قال الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

استُعْمِلَ الفعلُ المضارع ﴿يُؤْمِنُون﴾ للدّلالة على أنّ إيمانهم متجدّد متحرك حاضرٌ في التصور، غير ساكن ولا غافل ولا غائب.

وذُكِرَ من أركان الإيمانِ الإيمانُ باللّهِ والبوم الآخر لأنّهما الركنان الرئيسان الباعثان على التقوى، بالطاعة في فعل ما أمر الله به وترك ما نهىٰ عنه، وطاعةِ من أمر الله بطاعته.

وجاء المطلوبُ الإذن به بصيغة ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ وهذه الصيغة على تأويل مصدر

هو المجاهدة، والإِذْنُ بالمجاهدة يكون بفعلها، ويكون بتركها، أمّا فعلُها فهو مأمور به كما دلّت سوابق الآية، فبقي أنّهم يطلبون الإذن بترك المجاهدة، فالكلامُ إذن على تقدير: لا يَطْلُبُ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر الإِذْنَ بتَرْكِ المجاهَدَةِ بأموالهم وأنفسهم.

ولمّا كان من الّذِين يخرجون ولا يستأذنون بالتخلّف مؤمنون متقون ومنافقون، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾:

أي: من الّذِين خَرَجُوا ولمْ يستأذنوك، فالمتقون هم الذين يثيبهم الله على خروجهم مجاهدين بأموالهم وأنفسهم، وهو عليم أيضاً بكلّ المتقين سواء الذين جاهدوا والذين لم يجاهدوا لسقوط الجهاد عنهم بسبب أعذارهم الحقيقيّة.

وأكّد اللّهُ حَصْرَ طَلَبِ الاستئذانِ بأقْسامٍ من المنتمين إلى المسلمين أخَفُّهُمْ الّذِين لا يكون إيمانُهُمْ باللّهِ واليوم الآخر إيماناً مُتَجدِّداً حيّاً عاملاً حاضراً في تصوّرهم المثير لإراداتهم، لذلك فهم يتعرّضون لِوَارِدات الشُكُوك التي ترتاب بها قلوبهم حول قضايا الإيمان، فإذا ارتابت صاروا في ريبهم يتردّدون، لا يثبت فيهم إيمانٌ مستقرٌّ يدفعهم بلا تردّد إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم، وهؤلاء هم قسم ضعفاء الإيمان، وأشدّ منهم المنافقون المذبذبون بين الإيمان والكفر، وهم إلى الكفر أقرب، وأشدُّ الأقسام المنافقون المستقرّون في الكفر الذين مرَدُوا على النفاق.

واستغنى النصّ بذكر أخفّ الأقسام لأنّ ذكْرَهم يدلُّ من باب أولى على الذين هم أشدّ منهم، فقال الله عزّ وجل:

﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ﴾:

أداة حصر.

﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾:

أي: الذين لا يجدّدون إيمانهم حتى يكون حيّاً فاعلاً ماثلاً في تصوّرهم: «أخذاً من صيغة الفعل المضارع» ولم يقُلْ: الذين لم يؤمنوا، أو الذين ما آمنوا.

﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾:

أي: وبسبب عدم تجديد إيمانهم، تعرّضوا للشكوك، فأثّر تواردُها على تصوّراتهم حتّى ارْتابتْ قُلوبهم.

﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾:

أي: فهم في الشُّكُوك التي انتقلت من تصوّراتهم إلىٰ قلوبهم، فزاحمتْ إيمانَهم، فصاروا في قلوبهم وإراداتهم يتردّدون بين دواعي الإيمان، ونوازغ الشُّكُوك، وهذا من أمراض القلوب التي قد يتعرّض لها أهل الإيمان.

التردّد: هو التنقل بين طرفين ذهاباً ورجوعاً.

إنّ فهم الآية وفق هذا التحليل يكشف مدى العمق القرآني المعبّر عن حركات النفوس البشريّة فيما تتعرّض إليه، ويكشف مدى دقته في الأداء.

ومن أساليب القرآن ذكر الأخف تنبيهاً على ما هو أشد منه، وذكر أعلى المراتب وأدناها تنبيهاً على ما بينهما، وكذلك ذكر أعلى الدرجات وأدناها، وذكرُ أوّل الأقسام وآخِرِها.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

يتابع الله بهذا بيان حقيقة المستأذنين عن الخروج مع الرسول إلى غزوة تبوك، فيكشف أنّهم منذ وجّه الرسول الأمر بإعداد العدّة والتجهّز لغزو الروم في جهة تبوك لم تتوجّه إراداتهم لطاعة الأمر، ومشاركة الرّسول والمؤمنين معه في هذه الغزوة، بل كانوا عازمين على عدم الخروج، وكارهين له.

والدّليل على ذلك أنّهم لم يُحاولوا إعداد عُدّةٍ ما، منذ بدْءِ توجيه الأمر، فأعذارُهم الطارئة التي ذكروها أعذارٌ مخترعة كاذبة، إنّهم لو أرادوا الخروج مُنْذُ توجيه الأمر بالاستعداد له، لأخذوا في محاولة إعداد عُدّةٍ ما، ولو كانت دُون المطلوب لهذه الغزوة، لكنّ شيئاً من ذلك لم يحصل فهم إذن ما أرادوا الخروج منذ بداية الأمر.

إنّ الله عزّ وجلّ يُعلّمنا بهذا أن ننظر إلى الأمارات الظّاهرات وأن نبحث عنها، لنستفيد منها في معرفةِ ما تُخْفي النفوسُ من إراداتٍ ونيّاتٍ ومُعْتقدات وعواطفِ حبٍّ وكراهية، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾:

أي: عُدّةً ما، ولو كانت عُدّةً قليلةً لا تفي بالمطلوب لهذه الغزوة.

لقد علم الله أحوال قلوبهم على اختلاف درجاتهم، من ضعفاء الإيمان الذين ارتابت قلوبهم، حتّى المنافقين المذبذبين بين الإيمان والكفر وهم إلى الكفر أقرب، فأخسّ المنافقين وهم الّذين مرَدُوا على النفاق مستقرين في الكفر.

وعلم سبحانه وتعالى كَراهِيَتَهُمُ الخروجَ مع الرسول ﷺ لغزو الروم، الأمر الذي كان قد ألمح الله إليه في الآية (١٦) من سورة (الفتح) كما جاء في النص (٣٠) من هذه الدراسة، وهو قوله تعالى فيها:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

وإذْ قد علم الله منهم كراهِيَتَهم طاعةَ رَسُوله والجهادَ في سَبيله قابلَهُمْ بمِثْلِ مَا في قُلُوبهم، فكَرِهَ انْبِعاثَهُمْ مِنْ مَقاعدهم، فثَبَّطَهُمْ عن النّهوضِ للخروج مع الرسول في غزوة تبوك، فقعدوا مع القاعِدِينَ من أهل الأعذار العَجزة.

التَّثْبِيطُ: إقامَةُ العوائق المادّية أو النفسيّة عن القيام بالْعَمَل.

وكراهيَةُ اللّٰهِ انْبِعـاثَهُمْ وَتَثْبيطُهُ إيَّـاهُمْ من مظاهـر سُنَّةِ اللّٰهِ في عبـاده، في الإقبال والإدبـار، في الحبِّ والكراهيـة، في إرادة الخيـر وإرادة الشَّـرّ، ونحـو هـذه الأضـداد المتقابلة.

فمن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كَرِهَ لقَاءَ الله كَرِهَ اللّٰهُ لِقَاءَه.

ومَنْ أقبل نحو ربِّه أقبل الله إليه، ومن أعرض عن ربِّه أعرض الله عنه.

ومن أرَادَ طاعَةَ اللّٰهِ وفِعْلَ الخير أعانه الله وأمدّه بالقوّة والنشاط، ومن لم يُرِدْ فعل الخير ولم يُرِدْ طاعَةَ الله ثَبَّطَهُ الله وأقْعَدَه عن فعل الخير، ولم يُعِنْه على فعله.

ومن أراد معصيةً من المعاصي سخَّر الله له الأسباب ومكَّنَه من تعاطيها.

وهكذا إلى سائر أعمال العباد ضمن دائرة قضـاء الله وقدره وخلْقـه، وحكمته في امتحان عباده.

فـالمعنى: ﴿وَلَكِنْ﴾ مـا أرادوا الخـروج، بـل كـرِهُـوا الانبعـاثَ من مقـاعـدهم ومشاركةَ المؤمنين الجهادَ بأموالهم وأنْفُسِهم في سبيل اللّٰه فـ ﴿كَرِهَ اللّٰهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ فَيَسَّرَ اللّٰهُ لَهُمُ الأَسْبَـابَ الَّتي تُحقِّقُ لَهُم مَا يُـرِيدُونَ ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ بها، فَقَعَـدُوا عَنِ الْخُـرُوجِ وتَخلَّفُوا ﴿وَقِيلَ﴾ لهم على سبيلِ التحقير والإهانة والازدراء: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَـاعِدِينَ﴾ من أولي الضَّـرر كالْعُمْيَـانِ والْعُرْج والمـرضىٰ والْعَجزة، ومـع القـاعـدين من الصبيـان والنساء.

ولمّا كان هذا القول يَصْلُح أن يقوله لهم كلُّ ذي بصيرة، كانَ المناسب أن يـأتي بصيغة المبنيّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ.

فـالله والرسـول والملائكـة والمؤمنون يـزدرونَهُمْ على تخاذُلِهم وجُبْنِهم وخـذْلِهم للرسول والمؤمنين، فيقولـون لهم: اقْعُدُوا مـع القاعـدين من الضّعفاء والْعَجـزةِ وأُولي الضَّرر.

بعد هذا الكشف لهويَّة المستأذنين عن الخروج مع الرسول إلىٰ غزوة تبوك، أبان الله عزّ وجلّ للرسول والمؤمنين أنّه قد كان مِنَ الخيـر لهم أن لا يخرجـوا معهم في هذه

الغزوة ولا في غيرها، وذلِكَ لثلاثة أسباب:

السبب الأول: دلَّ عليه قول الله تعالى:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾:

أي: لـو خرجـوا معكم مختَلِطِينَ فيكُمْ مَـا زَادُوكُمْ قُـوَّةً وَمَنَعةً وتمكينـاً، وإنْ يَزِيدُوكُمْ شيئاً فإنَّهُمْ يَزِيدُونَكُمْ خبالاً.

الخبـالُ: الفسادُ في الفِكْـر، أو في عُضْوٍ من الأعضـاء بسبب داءٍ فيه كـالشَّلل، أو بسبب قَـطْعِـه، ويـأتي الخبـال بمعنى النقصـان، وبمعنى الهـلاك، وبمعنى السُّمّ القـاتل، وأعمـالهم التي تـزيـد في الخبـال هي الكـذب والنميمـة، وإثـارة الشكـوك والشبهات، وتثبيط العزائم بالأراجيف، والانخذالُ عند الشدائد وغير ذلك.

ولمّا كان يوجد ضمّن الذين خرجوا مع الرسول منافقون قد خرجـوا لا ليجاهـدوا ولكن لِيُفْسِـدُوا، وليكونـوا كعضْوٍ أشـلّ، وليَـدُسُّـوا الـدّسـائس، ولِيُسْـرِعُـوا في الفتنـةِ ما وجدوا لها سبيلاً، كان الذين استأذَنُوا في التخلُّف لو خرجـوا مع الخـارجين ما زادوا المؤمنين إلّا جـانب الخبال الـذي يصنعه المنـافقون الخـارجون معهم مختلطين فيهم، وقد ظهر بعض هذا الخبال من المنافقين المشاركين في الغزوة.

فالاستثناء على هذا استثناء مُتّصل، ولا داعي لتصوّر كونه استثناءً منقطعـاً، ولا للبحث عن تخريجات متكلّفة.

السبب الثاني: دلّ عليه قول الله تعالى:

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾.

﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾:

أي: ولأَفْسَدُوا، وفي الشرّ والضُّرّ أسرعوا.

يقال لُغَةً: أَوْضَعَ الرَّجُـلُ بين القوم إذا أسـرع في الإفساد بينهم، ويقـال: أَوْضَعَ في الشّرّ إذا أَسْرَع فيه، ويُقال من الثلاثي: وضَعَ الرَّجُلُ إذا أسرع في سَيْرِه.

﴿خِلَالَكُمْ﴾:

أي: في أماكنِ الْفُرَجِ بين جَمْعِكُمْ أيُّها المؤمنون.

الْخِلَالُ: جَمْعُ «الْخَلَّةِ» وهي الْفُرْجَةُ بين شيئين.

﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾:

أي: يَطْلُبُون لكم الفتنة، سَاعِينَ في فِتْنَتِكم عن دينكم، واجتماع كلمتكم، وترابط قُواكُمْ.

يقال لُغَةً: بَغَيْتُ لَكَ الأَمْرَ، وَبَغَيْتُكَ الأَمْرَ، أي: طلبتُه لَكَ.

الفتنة: تُطْلَقُ للدّلالة على معانٍ متعدِّدة، منها: الضلال وارتكاب الإثم، ومنها الاضطراب وبلبلة الأفكار وتعارُضُها في المجتمع، ومنها إزالة الإنسان عمّا هو عليه من أمر محمود العاقبة إلى أمر ذي عاقبة سيئة ذميمة. وهذه المعاني مجتمعةً تصلُحُ لأن تراد هنا.

فالمعنىٰ: ولو خرجوا معكم مختلطين في جماعاتكم لأسْرَعُوا داخِلَ الْفُرَجِ التي يجدونها بين صفوفكم وتجمُّعَاتِكُمْ مُفْسدين، قاذفين شرارات الشرّ والضّرّ، طالبين مع سعي خبيثٍ فِتْنَتَكم عن دينكم، وتشكيكَكُم بوعد الله لكم، وتمزيقَ وحدتكم، وإضعافَ قوّتكم، وإثارةَ الاضطراب والبلبلة بين أفرادكم وأُسَرِكُم وجَمَاعاتكم.

فمن الخير لكم أن لا يخرجوا معكم ولا يختلطوا فيكم.

السبب الثالث: دلّ عليه قول الله تعالى:

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾:

أي: وفيكم من أهل الإيمان والصَّلاح مَنْ ليست لديهم حصانَةٌ فكريّةٌ ونفسيّة ضِدَّ وساوسهم ودسائسهم وتسويلاتهم، فهم يُحْسِنون الظّنّ بهم، ويتأثرون بأقوالهم وآرائهم، وقد يندفعون معهم بحُسْنِ ظَنّ، وهم يحسَبُونَ أنّهم يُحْسِنُونَ صُنْعاً، ففي هؤلاء المعتذرين أفرادٌ هُمْ وُجُوهُ قومهم قبل الإسلام، وهم أهلُ رأي وحُسْنِ بيان، ولهم صفاتٌ قياديّةٌ مؤثِّرة، فمن الخير أن لا يخرجوا معكم ويختلطوا فيكم حتّىٰ لا يؤثّروا على فريق من أهل الإيمان والصلاح منكم بوساوسهم وتسويلاتهم وما يقذفون به من دسَائس وشُبُهاتٍ وشكوكٍ وإرجافاتٍ مغلّفةٍ بمكْرٍ شديد.

وعلى المسلمين أن يعملوا بهذه النصيحة حتّى آخر الدهر، فيستبعدوا في المواقف الحاسمة الرهيبة المنافقين والمرجفين والمتخاذلين وضعفاء الإيمان، لأنّ وجودهم سيكون له تأثير عكسيّ عليهم، فلا يزيدُ وجودهم عدداً ولا مدداً، ولكن يزيد ضعفاً ووهناً وتخاذلاً وتفرّقاً.

ووصف الله هؤلاء المعتذرين بأنّهم ظالِمُونَ، لأنّهم إمّا مرتابون أو منافقون، وأبان تعالى أنه عليم بهم، ظاهراً، وباطناً، فقال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: والله عليم بكلّ الظّالمين، ومنهم المتحدّث عنهم في النصّ.

وبعد بيان الأسباب الداعية إلى اعتبار عدم خروج المعتذرين مع المؤمنين خيراً للمؤمنين، وأكثر أمناً وسلامةً لهم، لفت الله عزّ وجلّ أنظار المؤمنين إلى الشواهد التجريبيّة السابقة مع المنافقين وأهل الرّيب، فهذه الشواهد كافية للإقناع بأنّ من الخير أن لا يخرجوا معهم إلى قتال، وأن لا يكونوا معهم في المواقف الرهيبة الحاسمة، وأنّ من الخير لهم أن يعزلوهم عنهم، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾:

أي: فيما كَانَ مِنْهم من أحداثٍ وتصرُّفاتٍ مِنْذُ بداية ظُهُورِ النفاقِ في هذه الأمّة الإسلاميّة، فسوابقُ النصوص القرآنية كافية شافية لمن أراد أنْ يطّلِعَ علَى تصرّفاتهم في ابتغاء الفتنة، ومراجعةُ نصوص هذه الدراسة تكفي الباحث المتدبّر.

﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾:

يقال لغةً: قَلَبَ الشيءَ يَقْلِبُهُ قَلْباً، إذا جعل أعلاه أسفله، ويمينَهُ شِمالَهُ، وبَاطِنَهُ ظاهره، بحثاً عن كلّ دخائله وخفاياه.

وفعل «قَلَّبَ» مُضعَّفَ اللاّم ففيه زيادةٌ في اللفظ تدلّ على زيادة في حركة القَلْب بحثاً

وتنقيباً. والتاجرُ حين يُقلِّبُ السلعة يتفحَّصُها، ليعرف مواضع العيوب والجودة فيها، والباحثُ حين يقلِّبُ عناصر بحثه يُحاوِلُ اكتشاف جُذُور هذه العناصر وفروعها وعلاقات بعضها ببعض، والماكر المحتال يجمع أكوام حِيَلِه ويُقلِّبُ بها ويتقي منها واحدةً فواحدة ويُصَرِّفُ أمره بها، فإنْ حقَّقَتْ له مُراده فذاك ما يتمنَّىٰ، وإلاّ عاد يُقلِّب في أكوام حيله لينتقيَ منها ما يمكرُ به، وهكذا، حتى يستنفد اخْتبارَ كُلّ ما يستطيع من حيلة، كذلك فعل المنافقون ضدّ الرسول محمّد ﷺ ودعوة الإسلام التي جاء بها، منذ مقدمه مهاجراً إلى المدينة، وكانت تبوء مكايدُهُمْ وأنواع مكرهم بالفشل والخيبة.

والأمور الّتي قَلَّبُوها هي ما كان لديهم من أمور المكر والكيد والحيلة ممّا يستطيعون اختباره أو ابتكاره، وتقْلِيبُها يكون بالبحث فيها، والانتقاء منها، وتطبيق المنتقىٰ منْها بالعمل.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٤٨﴾:

أي: وظلُّوا كذلك يبتغون الفتنة، ويجرِّبون أنواع مكرهم وكيدهم وحيلتهم ضدّ الرسول والإسلام والمسلمين، حتّىٰ أدركوا أنّهم منهزمون خائبون في كلّ تصرفاتهم، وذلك حين جاء الحقّ بفتح مكّة، وزهق الباطل، وظهر أمْرُ اللّٰهِ وهو الإسلام على الشرك والمشركين، وسائر الكافرين في الحجاز، وهُمْ كارهون، لأنّهم كانوا يتربّصون بالرسول والمؤمنين الدوائر، ويترقبون أن ينتصر العرب المشركون في آخر الأمر، فلمّا صارت مكّة دار إسلام، وانتهت زعامة مشركيها، وقامت فيها دولة الإسلام سُقِطَ في أيديهم، ولم يبْقَ لديهم إلاّ محاولات ضعيفة يخشون عواقبها، وأنْ يتهرّبُوا من مشاركة المسلمين في المواقف الصعبة والرهيبة، والّتي تكلّفهم جهاداً بأموالهم وأنفسهم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾.

روي أنّ هذه الآية نزلت بشأن رأس من رؤوس النفاق وواحد من أعيانهم هو «الْجَدُّ بْنُ قَيْس» أحدُ بني سَلِمَة، وكان من أشرافهم.

وذلك أنّ الرسول ﷺ بعد أن أمر بالتّجهّز لقتال بني الأصفر (= الروم) في غزوة تبوك، لَقِيَ الجدُّ بن قَيْس والمسلمون يتجهّزون ويُهَيِّئون ما يلزم لهذه الغزوة، فقال الرسول له: «هَلْ لَكَ الْعَامَ فِي جِلادِ بَنِي الأَصْفَرِ؟».

فقال الْجَدُّ بْنُ قَيْس: يا رسولَ اللّهِ، أوْ تأْذَنُ لِي، ولاَ تَفْتِنِّي، فواللّهِ لقد عرف قومي أنّه ما من رجلٍ بأشَدَّ عُجْباً بالنّساء مِنِي، وإنّي أخْشَى إنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الأَصْفَرِ أنْ لا أَصْبِر.

فأعْرَضَ عنه رسُول الله ﷺ وقال له: «قَدْ أذِنْتُ لَكَ».

ففيه نزلت هذه الآية.

﴿وَمِنْهُم﴾: أي: ومن المنافقين الذين استأذنُوا بأن لا يخرجوا مع الرسول في غزوة تبوك ﴿مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾: أيْ: دأبُه أنْ ينخذل عن الرسول في المواقف الصعبة، ففي حادثة بيعة الرضوان عند الحديبية، بايع جميع الذين كانوا مع الرسول يومئذٍ على أن يُقاتلوا ولا يفرّوا إذا لزم الأمر، إلاّ الْجَدّ بْن قَيْسٍ هذا، فقد توارى عن الناس مُسْتَتِراً لاصِقاً بإبط ناقته، حتّى لايَرَوْه فيدعوه إلى المبايعة، وكانَ جابرُ بْنُ عبد الله يقول: واللّهِ لَكَأَنّي أنْظُرُ إليه لاصقاً بإبط ناقتِه، قَدْ ضَبَأَ إليها (أي: لجَأَ إِلَيْها) يَسْتَتِرُ بها من الناس.

﴿وَلاَ تَفْتِنّي﴾ ولا تُلْزِمْني بالخروج، فإنّي إذا خرجت ورأيت نساء بني الأصفر افْتَتَنْتُ بهنَّ، فتكون بإلزامك لي أن أخرج قد فتنتني، أي: تسبَّبْتَ بفتنتي، والمراد من الفتنة هنا الميل إلى النساء والشغف بهنّ المؤدّي إلى الخروج عن المطلوب الجهادي الذي يخرج من أجله، أو الوقوع في كبيرة الزنا.

وجاء في الصحيح على ما ذكر ابن كثير، أنّ رسول الله ﷺ سأل بني سَلِمَة: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ؟».

قالوا: الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَىٰ أنّا نُبَخِّلُهُ.

فقال رسول الله ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ من الْبُخْلِ؟! وَلَكِنَّ سَيِّدَكُمُ الْفَتَى الْجَعْدُ الأَبْيَضُ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ».

وفي التعليق على المعتذرين بأعذار مختلفة كاذبة كاعتذار الجدّ بن قيس قال الله تعالى:

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

أَلَا: حرفٌ يستفتح به الكلام لغرض التنبيه، والإشعار بأهميّة مضمون الكلام الذي يأتي بعده، وهو يدخل على الجملتين الاسمية والفعلية.

في الفتنة سَقَطُوا: تُطْلق الْفِتْنة على الضَّلال وارتكاب الإثم، وتُطْلَقُ على الإحراق والتعذيب بالنار، وهذان المعنيان من معاني الفتنة هما الملائمان هنا، فاعتذارُهم الكاذب للتهرّب من واجب الخروج للقتال الذي أمَرَ به الرسول إلزاماً، هو من المعاصي الكبيرة التي سقطوا بها في أوحال الإثْم العظيم. وفي استحقاق التعذيب بالإحراق في نار جهنّم.

وجاء التعبير بالسقوط ملائماً لكلٌ منْ مَعْنَيي الوقوع في حفرة الإثم الكبير، والوقوع في حُفْرَة عذاب السعير، الذي يستحقونه بنفاقهم.

وجاء تقديم المعمول وهو «في الفتنة» على عامله وهو فعل «سَقَطُوا» للدلالة على أنّ اعتذارهم الذي أوهموا أنّهم قد حَمَوْا به أنفسهم مِنَ السقوط في الفتنة، لم يكن من نتائجه إلاّ أنّهم سقَطُوا في الفتنة الأشدّ، وبهذا نفهم معنى القصر الذي دلّ عليه تقديم المعمول على عامله، أي: ما اكتسبوا إلاّ السقوط في الفتنة الأشد.

وإذْ سقطوا في الفتنة التي يتعرّضون بسببها لعذاب جهنّم، فلْيعلَمُوا أنّ جهنّمَ محيطةٌ بالكافرين جميعاً، سواءٌ أكانوا معلنين كُفرهم، أو كانوا مخفين له مخادعةً ونفاقاً، فلْيُعدّوا أنفسهم لعذابها إنْ كانوا منافقين، فهم يكونون داخلين في عُمُوم الكافرين، فقال تعالى:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

واستعملت الإحاطة للدلالة على أنَّ من تحيط به النار لا يجد لنفسه مخرجاً ينجيه من عذاب الحريق فيها، متى جاء زمن تعذيبه فيها بالعدل عقاباً على ما كان منه من كُفْر وظلم وإثم.

● ● ●

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

في هذه الفقرة بيانٌ لحالة المنافقين النّفسيّة بالنسبة إلى النِّعم والمصائب التي تنزل بالرسول أو بالمؤمنين، ولا سيما في المواجهات الحربيّة التي تكونُ بينهم وبين أعدائهم من المشركين، أو من الكافرين الآخرين، فسوابق هذه الفقرة قد تحدثت عن غزو الرُّوم في غزوة تبوك، وهم نصارى أهل كتاب.

إنّ حالة المنافقين النفسية التي يكتمونها وقد تظهر أماراتها أمام الرسول والمؤمنين الصادقين، أنّهم إذا نزل بالمسلمين ما يسُرُّهم ويُفْرِحُهم، ساءهم ذلك، وإذا نزل بالمسلمين ما يسوؤُهم ويُحْزِنُهم، سرّهم ذلك وأفرحهم.

والسبب في هذه الحالة النفسيّة التي يتَقلّبُون فيها أنّهم في حقيقة أمرهم كافرون، وأنهم أعداءٌ للرسول وللمؤمنين الصادقين، وأنّهم يتربَّصُون بهم الدوائر، وأنّ قُلوبَهُم ونفوسهم وعواطفهم مع إخوانهم الذين هم مثْلُهُم في الكفر، فالمنافقون من المشركين هم مع المشركين، والمنافقون من اليهود هم مع اليهود، والمنافقون من النصارى هم مع النصارى، وجميعهم على وجه العموم يتمنّون الشرّ والضرَّ والهزائم للرسول وللمؤمنين معه، فيفرحون إذا نزل بهم شيءٌ من ذلك، ويستاؤون إذا نزل بهم خيرٌ، أو حقّق الله لهم النّصر والظفر بالغنائم.

وإذْ جاء هذا البيان في معرضِ الأحداث التي تكون بسبب المواجهات الحربية بين المسلمين وأعدائهم، فإنّ أوّل ما يدخل فيما يَسُوءُ ويَسُرُّ، نَصْرُ المسلمين وظفرهم بالغنائم، وهزيمَتُهم ونَيْلُ عَدُوّهم مِنْهُم، فما يسُرُّ المسلمين منها يسُوءُ المنافقين، وما يَسُوءُ المسلمين منها يَسُرُّ المنافقين.

ولمّا كان الرسولُ صلوات الله عليه هو قائد الأمّة الإسلامية فإنّ أيّة حسنة تُصيبُ أُمّتَهُ فهي حسنة تُصيبُه، وإنّ أيّة سيّئة تُصيبُ أمّته فهي سيّئة تُصيبُه، فقال الله تعالى له:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

وقد سبق أن أنزل الله عزّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) في النصّ الثامن من هذه الدراسة قوله بشأن المنافقين خطاباً للّذين آمنوا:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا . . . ﴿١٢٠﴾﴾.

وكان إنزال هذه الآية في أوائل العهد المدني، ثم أنزل الله عزّ وجل في أواخر العهد المدني في سورة (التوبة) الآية المسوقة للتدبّر.

ونلاحظ في هذَيْن النَّصَّيْن أنَّ الحالة النفسية للمنافقين قَدْ بقيت على ما كانت عليه لم تتغير، مع مرور السنين المتعدّدة على مخالطتهم للمؤمنين، ومشاركتهم لهم في كثير من ظواهر السلوك، وهذا يدلُّ على أنّ العدُوّ المنافق الكافر بما يؤمن به المؤمنون لا تتغيّر حالةُ قلبه ونفسه بطول المعاشرة والمخالطة، ما لم يتخلّص من كفره بالإيمان الصحيح الصادق.

وإضافةً إلى هذه الدّلالة ذات الفائدة العظيمة للمؤمنين فقد جاء في النصّ الذي نزل متأخّراً في أواخر العهد المدني دلالات لم يَدُلَّ عليها النصّ السابق.

الدلالة الأولى: أنّ ما ينزل بالمسلمين من حسنات ومصائب فهي تُصيب الرّسول ﷺ، وهو يشعرُ بأعظم المشاعر التي يَشْعُر بها المؤمنون، إذْ هو قائدهم، وإمامُهم، وهمُّه من أجلهم على مقدار همومهم مجتمعة، فقضيّتُهُمْ جميعاً هي قضيّتُه، فهذه الدلالة قد دلّ عليها النصّ اللاّحق.

الدلالة الثانية: أنّ المنافقين يُحاوِلُون دواماً التهرّب من المواقف التي يتوقّعُونَ أن تنزل فيها بالرّسُول والمؤمنين معه مصيبة ما، كَهَزيمةٍ وانْكسار في معركة قتاليّة مع عدُوّهم، فإذا حصل شيءٌ من ذلك، وقد كانوا ممّن تخلّف أو انْخذل قالُوا: قد احْتَطْنَا لأنْفسنَا، فلم نتورّط مع الذين تورّطُوا من الذين غرَّهُمْ إيمانُهم وهذه الدلالة قد دلّ

عليها النصّ اللاّحق أيضاً، وربّما أعلنوا أنهم كانوا أهل عقل ورويّة وحكمة من قبل.

الدّلالة الثالثة: أنّ المنافقين إذا كانوا في بعض مجالس المؤمنين، وبلَغَهُمْ مَا نزلَ بالرسول والمؤمنين من مصيبة في غزوة من الغزوات، قاموا وأدْبَروا وابتَعَدُوا إلى بيوتهم أو مجامعهم الخاصة فرحين بالمصيبة التي نزلت، وهذه الدلالة قد دلّ عليها النصّ اللاّحق أيْضاً.

الدلالة الرابعة: أنّ المنافقين إذا مست المؤمنين حسنةٌ ما مسّاً سطحيّاً خفيفاً ساءهم ذلك، لأنّهم لا يريدون أيّ خيرٍ مَهْما كان قليلاً أنْ يُسَرّ به المؤمنون، إذْ هم أعداءٌ حقيقيُّون، وهذه الدلالة قد دلّ عليها النصّ السابق فقط.

فتكاملت دلالات النصّين بصورة بديعة:

﴿إِن تُصِبْكَ﴾:

أي: إنْ تنزل بكَ يا مُحَمّد، وما نزل بالمؤمنين فقد نزل بك.

﴿حَسَنَةٌ﴾:

أي: نِعْمةٌ سارّةٌ لَكَ.

﴿تَسُؤْهُمْ﴾:

أي: تَجْعَلُهم يشْعُرُونَ بالألم أو النفور والكراهية.

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾:

أي: وإنْ تَنْزِلْ بكَ يا مُحَمّد مُصِيبَةٌ ما، وما نزل بالمؤمنين فقد نزل بك.

المصيبة: كُلُّ مَكْرُوه ينزل بالإنسان، وتجمع على مصائب.

﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾:

أي: يَقُولُوا: قد اخذْنَا لأنْفسِنا بالرأي السّديد العَمَلَ والتّصرُّفَ الّذي نَحْفَظُ به أمْرَ سَلامتنا من التعرّض للمصيبة، من قَبْلِ أن تقع المصيبة، إذْ لم نُعرّض أنفسنا لأسباب حدوثها، بالعقل والرويّة والحكمة.

﴿وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾:

التولّي: الإدبار والابتعاد والانصراف من المجلس. والمعنى أنهم يبتعدون من مجالس المؤمنين وهم فرحون. إذْ لم تنزلْ بهم المصيبة التي نزلت بالمؤمنين، بسبب أنّهم لم يُشاركوهم فيما اتّجهوا له.

وبعد بيان هذه الحالة النفسيّة للمنافقين، التي قد تظهر أماراتها أمام الرسول والمؤمنين الصادقين من أهل الفطنة والْخِبْرَةِ بالناس، علّمَ الله رسوله وكلّ مؤمنٍ أن يُبيّنَ لهم بأسْلوب الخطاب أو بأسلوب التعريض، بحسب مقتضيات الأحوال ستّ مَقُولاتٍ تعالج موقفهم هذا:

المقولةُ الأولى: دلّ عليها قول الله في التعليم:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾:

أي: لَنْ يُصيبَنا من حَسَنةٍ تَسُرُّنا أو مُصيبَةٍ تَسُوؤنا إلاّ شَيْئاً قد سَبَقَ أنْ قضاه اللّهُ وقدّره وكَتَبَهُ لَنا قَبْلَ أنْ يَحْدُثَ، وكلُّ ما قضاه الله ممّا يَسُرُّنا أو يَسُوؤنا فهو لخيرنا ومصلحتنا، فما كتبه الله من ذلك ــ ونحنُ مؤمنون به، لم نَتَّخِذْ وَلِيّاً غيره ــ فهو لَنا، أي: لخيرنا ومصلحتنا، وليس علَيْنا، وإن كان بحسب الظاهر مصيبةً تسوؤنا، ونَحْنُ نكرهها لأنّها تُخالِفُ ما نحبُّ ونهوى من أمور دُنْيانا، فكم يكْرَهُ الإنسان بنظره القاصرِ وحُبِّهِ النَّفْعَ الْعاجلَ شيئاً، ويَجْعَلُ الله فيه خيراً كثيراً.

المقولة الثانية: دلّ عليها قول الله تعالىٰ في التعليم:

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾:

أي: الله مولانا، لا مولى لنا غيره، فهو ربّنا، وسيّدنا والمتولّي جميع أمورنا، ونحن عبيده المعترفون له بالعبوديّة التامّة، المسلمون له كلّ أمورنا، المنتمون له، والمستنصرون به، والمفوّضون له، ومن اتّخذ الله وليّاً تولاّه الله، فلم يَقْضِ له إلاّ ما هو خير لَهُ في عاجل أمره وآجله، وإنْ كان بحسب الظاهر مصيبةً تَسُوءُ قاصري النظر، الذين لا يُحيطون علماً بالعواقب.

المقولة الثالثة: دلّ عليها قولُ اللّهِ في التعليم:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾:

أي: ونَحْنُ قَدْ توكَّلْنَا على الله، لأنَّنا مُؤْمِنون به، مع اتّخاذنا الأسباب الّتي أمرنا بها، وأوصانا باتّخاذها، وعدم التفريط بشيءٍ منها، طَاعَةً له، فالمؤمنون بالله الرّبّ الخالق الذي هو مولاهم في جميع أمورهم، يجب عليهم مع قيامهم بما يأمرهم به من أسباب أنْ يتوكّلُوا عليه وحْدَهُ لا شريك له، ليحقّق لهم أفضل ما يرجون من خَيْرَي الدنيا والآخرة، ويُمدُّهم بعونه وتأييده ونصره، ويَصْرِفَ عنهم في سُبل حياتهم الموانعَ والعقباتِ، ويُيَسّر لهم الأسباب.

المقولة الرابعة: دلّ عليها قول الله في التعليم:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾.

التَّرَبُّصُ: الانْتِظَارُ، يقال لغة: تَرَبّص فلانٌ بفلان، أي: انتظر خيراً أو شرّاً يَحُلُّ به.

تَرَبَّصُونَ: تتربَّصُون حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

أي: إنّكم بتصوُّركم وبحسَبِ رغباتكم وما تَتَمَنَّوْنَ أنْ يحُلَّ بنا تنتظرونَ أن تدور الدوائر علينا، وينتصر علينا الذين كفروا، الذين أنتم منهم في الباطن ولكنَّكُمْ في الواقع وحقيقة الأمرِ لا تَتَرَبَّصُون بنا ــ واللَّهُ مَوْلَانا ــ إلاَّ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ:

الْحُسْنَى الأولى: هي أن يَنْصُرَنا الله، ويُحقّق لنا التمكين في الأرض، والمجْدَ، وما يَتْبَعُ ذِلِكَ من تأييد الدِّين، وانتشاره، والفتح المبين، مع ما نظفر به من غنائم ومنافع دنيوية، وأجر عظيم أخرويّ عنده.

الْحُسْنَى الثانية: هي أن يقضي الله بالشهادة لمن انتهى أجَلُهُ في الحياة الدنيا منّا، فينال عند الله من الأجر والكرامة ما هو خيرٌ له من مُلْكِ الدُّنْيا كُلّها.

الْحُسْنَى: مُؤنّث «أَحْسَن» الذي هو على وزْن «أَفْعَل» للتفضيل، والحُسْنى وَصْفٌ لموصوفٍ مؤنث محذوف تقديره: النِّعْمَةُ، أو العطيّة الربّانيّة، أو المقضيّةُ بقضاء اللّهِ الْحُسْنَى، أو نحو ذلك.

وهل تُوجَدُ مِنَحٌ هي أفضل وأحْسَنُ من النَّصْرِ او الشّهادة.

والتَّرديدُ بين هَاتَيْنِ الْحُسْنَيَيْن لا يَمْنَعُ منْ تحققهما معاً، فَبَعْضُ المؤمنين ينالون

الشهادة والباقون ينالون النَّصْرَ والتمكين، فهما بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَجْمُوعِ المؤمنين لا يمْتَنِعُ اجتماعُهما[1].

المقولة الخامسة: دلَّ عليها قول الله في التعليم:

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾:

أي: ونَحْنُ أيضاً ننتظر أنْ تَحِلَّ عليكم إحدى نقمَتَيْن مُعَجَّلتين في الحياة الدنيا من ربِّكُمْ، ولا مانع من اجتماعهما:

النقمة الأولى: أنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بعذابٍ من عنْدِه، كما أنزل بالَّذين كفَرُوا وَنَافقوا من قَبْلِكُمْ، إنّ العقوبات الّتي تأتي بالكوارث والمصائب مختلفة الأشكال والأنواع، منها الزلازل، والفيضانات، والصواعق، والأمراض الوبائية، والرياح والصَّيْحَات المهلكة، وتقاتل الناس بعضهم مع بعضٍ، في فِتَنٍ قوميّة أو إقليمية، أو غير ذلك.

النقمة الثانية: أنْ يُسَلِّطَنَا اللَّهُ عليكم، فيأذنَ لَنَا بقتالكم، وأخذكم حيث وجدناكم، واستئصالكُمْ، حتَّىٰ لاَ يكون بين صفوفنا ومجتمعنا الإسلاميّ منافقون.

المقولة السادسة: دلَّ عليها قول الله في التعليم:

﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: فتربَّصُوا بنا كما يَحْلُو لكُمْ، فَنَحْن واثِقُون من رَبِّنا الذي هو مولانا ولا مولىٰ لنا غَيْرُه، وعليه توكُّلُنَا.

وإنّا معكُمْ مُتَربِّصونَ مَا يُحقِّقُهُ الله لنا من خير، وما يحقِّقُهُ لكُمْ من عذابٍ ونِقْمَةٍ، ضمن مجاري حكمته في قضائه وقَدَرِه، ونُصْرَتِه لأوليائه، وخِذْلانه لأعدائه.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

---

(١) هذه القضية (هل تَرَبَّصُون بنا إلاّ إحدى الحسنيين؟) تصلُحُ مثالاً لما يُسَمَّىٰ في المنطق بمانعةِ الخلوّ فقط، أي: لا يخلو الأمْرُ من إحداهما، مع إمكان اجتماعهما.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

في هذه الفقرة يُعلّم الله رسوله وكلّ مؤمن كيف يَغيظُون المنافقين في شأن النفقات الإسلامية التي ينفقونها مضطرين كارهين، لستر نفاقهم ببذلها كما يَبْذُلها أهلُ الإيمان، وهي قسمان من النفقات:

القسم الأول: النفقات الواجبة التي تؤخذ منهم بسلطان الدولة الإسلامية كالزكاة، وهذه يبذلونها أو تؤخذ منهم على سبيل الإكراه.

القسم الثاني: النفقات غير الواجبة التي يبذلونها طائعين كما يبذل المؤمنون الصادقون، ولكنهم لا يبذلونها إيماناً مُحْتسِبين عند الله أجرهم عليها، بل يبذلونها تقيَّةً، وليحقّقوا ببذلها مصالح لهم عند الرسول أو جماعة المؤمنين، كالمعونات التي يقدّمونها للجهاد في سبيل الله، وكالصدقات التي يُنْدَبُ المسلمون لبذلها، من أجل الفقراء والمساكين، أو المصالح العامة.

وإغاظة المنافقين بشأن ما يُنفِقُون من أموال طائعين أو مُكْرهين، تكون بإعلامهم أنّها تؤخذ منهم بحسب ظاهر إسلامهم، ثم لا تكون لها ثمرةٌ عند الله، لأنّ الله لا يَقْبَلُها منْهُمْ، ولا يُثيبُهم عليها، أي: لا يُدْوِّنها لهُمْ ضمن الأعمال الصالحة التي يثيب عليها، فشرط قبول العمل الصالح عند الله، أنْ يكون مبنيّاً على القاعدة الإيمانية الصحيحة بالله عزّ وجلّ وبكلّ ما أمَرَ بالإيمان به، وأن يُبْتَغَى به وجه الله، وأن يكون على ما شرع الله أو أذن به.

والمنافقون كافرون باطناً، ولا يعملون الصالحات ابتغاء مرضاة الله، فالله لا يقبل منهم الأعمال التي يرى الناس أنها تَدْخُلُ في جداول الأعمال الصالحة.

ولذلك جاء في التعليم:

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

طَوْعاً أو كَرْهاً: أي: مختارين أو مجبورين.

الطَّوْعُ: هو الانقياد للفعل بالاختيار.

والكَرْهُ: هو أداءُ الفعل بالجبر دون اختيار.

قرأ جمهور القراء العشرة [كَرْهاً] بفتح الكاف، وقرأ حمزة والكِسَائي وخلف [كُرْهاً] بضمّ الكاف. وهما مصدران بمعنى الإكراه، فالقراءتان اشتملتا على وجهين لنُطْقِ الكلمة في العربيّة.

وانتصب [طَوْعاً أو كَرْهاً] على الحالية بتأويلهما بمشتق، أي: طائعين أو مُكْرَهين.

﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾:

أي: عند الله يوم الدِّين ضمن قبوله لصالحات أعمال العباد، أمّا في الإجراء البشري فتؤخذُ مِنْهُمُ النفقات الواجبة إذا تمنّعُوا من أدائها، وهُمْ مُكْرَهُونَ، وتُؤخذ منهم النفقات التي يبذلونها طائعين في أبواب البرّ، مع أنّهم غير منتفعين بها عند الله.

ويقال لكم يوم الدين:

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

أي: إنّكم كنْتُمْ خارجين عن دائرة الإيمان بما كان يجب عليكم أن تؤمنوا به، وعن دائرة الطاعة لربكم التي كان يجب عليكم أن ترعَوْها.

بعد هذا أبان الله عزّ وجلّ السبب في عدم تقبُّل الله نفقاتهم التي يبْذُلونها في وجُوه الخير بحسب الظاهر، فقال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

كان المتبادر بحسب مفهومات الناس أنْ يُقال: وَما مَنَعَ اللّهُ أنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ نفقاتهم إلّا أنهم... إلى آخر ما جاء في الآية.

لكنَّ اللّهَ لا يمنَعُهُ شيءٌ لَوْ شاء أن يَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتِهِمْ بقِيَ أنَّهُمْ هُمُ الممنوعون من أن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نفَقاتُهم، فجاء التعبيرُ القرآنيُّ مبيّناً أنْ كُفْرَهم في الباطن الذي تدلُّ

عليه أماراتُه في الظاهر، هو الذي كان مانعاً لهم منْ أنْ تكُونَ نفقاتُهُمْ واصلةً إلَىٰ اللّٰهِ ومقبولةً عنده، إنّ ما كان لغير الله فهو لا يَصِلُ إلى الله، فالمانع له من الوصول إلى اللّٰهِ هو كونه لغير الله بسبب أنهم كفرُوا باللّٰهِ وبِرَسُولِه، والفاعل الحقيقيُّ في هذا المنع هو اللّٰهُ عزّ وجلّ.

قرأ جمهور القرّاء العشرة [أنْ تُقبَل] بالتأنيث لأنّ نائب الفاعل مؤنث.

وقرأ حمزةُ والكسائي وخلف [أنْ يُقبل] بالتذكير لأن نائب الفاعل مجازيّ التأنيث فيجوز فيه التذكير.

فالقراءتان وجهان عربيان جائزان.

قد يقال: إنّ كُفْرَهُمْ هو المانع من وصول نفقاتهم إلى الله ومن قبولها عنده، فَلِمَ عُطِفَ عليه كوْنُهُمْ لَا يأتون الصَّلاة إلاّ كُسالَى، ولَا يُنفِقُونَ إلاّ وهُم كَارهُون؟ فهل المانع مركّبٌ من هٰذِهِ الثلاثة؟

ويُمْكِنُ أنْ نُجيبَ بأنّ حرف العطف الذي هو «الواو» في قوله تعالى: ﴿وَلَا يأتُونَ...﴾ هو بمعنى «الفاء» فقد ذكر علماء اللّغة العربية أنّ «الواو» تأتي أحياناً بمعنى «الفاء» فالمعنى على هذا أنّ المانع هو كُفْرُهم الذي ترتّب عليه في سلوكهم أنّهُمْ لا يأتُون الصلاة إلاّ في حال أنّهم كُسَالَىٰ، ولاَ يُنْفِقُونَ طوعاً أو كَرْهاً إلاّ في حال أنّهم كارِهُونَ أن يُنْفِقوا، غيْرُ راغبين في البذْل، وقد جاء هذا البيان لإعلام المؤمنين بأنْ يسْتَدِلُّوا بظواهر السُّلوكِ وأمارات هذه الظواهر على ما في الضمائر.

سبق أن كشف الله من صفات المنافقين أنّهُمْ إذَا قَامُوا إلى الصلاة قاموا كُسَالَىٰ يُرَاءُون الناس، وذلك في الآية (١٤٢) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) وسبق شرح هذه الآية في النص (١٨) من هذه الدراسة. والسبب في تكاسلهم وكراهيتهم أنهم غير مؤمنين بجَدْوَىٰ ما يُؤدّون، ومن المعلوم في طبائع الناس أنّ من يعمل عملاً ما وهو غير مؤمن بجدواه لنفسه، فإنّه لاَ يؤدّيه إلاّ كارهاً، وإذا كان يحتاج إلى بذل طاقةٍ جسَدِيّة فإنّه لا يبذلُ هذه الطاقة إلاّ بتثاقل وكَسَلٍ وفُتُور، لا بنشاطٍ وهمّة ورغبة.

وفائدة إعادة ظاهرة تكاسلهم في أداء الصّلاة ما في النصين من تكامل، مع لفت أنظار المؤمنين هنا إلى أنّ هذه الظاهرة هي إحدى الأمارات المهمّة الدالّة على نفاق المنافقين.

فالآية التي في سورة (النساء) توجّه لملاحظة تكاسلهم حين القيام إلى الصلاة ضمن جماعة المصلين من المؤمنين.

والآية التي في سورة (التوبة) توجّه لملاحظة تكاسلهم حين إتيانهم من بيوتهم أو مواقع وجودهم إلى أداء الصلاة مع المصلّين، وأنهم لا يأتونها إلا كُسالى.

فالربط بين الملاحظتين يقوّي دلالة الأمارة على نفاقهم مع دلالة الحصر في آية (التوبة).

والآية التي في سورة (النساء) تكشف أنهم يراءون الناس بصلاتهم، ولا يؤدّونها إيماناً بجدواها وابتغاء مرضاة الله منها.

والآية التي في سورة (التوبة) تكشف أنّهم يؤدّون الأعمال الإسلامية وهُمْ كارهون لأدائها، وذلك عن طريق دلالة قياس أدائهم للصلاة التي لا يأتونها إلاّ كُسالَى على الإنفاق الذي لا يفعلونه إلاّ وهم كارهون فعله.

فتكاملت الدلالات في النّصين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله فكلّ مؤمنٍ بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾:

الإعجاب بالشيء استحسانه، وقد يصاحب هذا الاستحسانَ الشُعورُ بأنه أمْرٌ مفاجىءٌ جاء على خلاف التوقُّع بالنسبة إلى سابق التصوّر.

لذلك فقد يولّد عند الجاحد إنكاراً، وقد يولّد شكوكاً حول حقيقته، وقد يولّد

تساؤلات حول سبب وجوده، وقد يولّد إعظاماً وإكباراً عند المندهش به، وقد يقتصر الإعجاب على الاستغراب دون الاستحسان.

يقال لغة: عجِبَ من الشيء يعجَبُ عَجَباً، وعَجْباً، وعُجْباً، ويقال: أعْجَبَهُ الأمْرُ، إذا حَمَلَهُ على العَجَبِ منه، وكذا إذا عَجِب منْه وسُرَّ به، وأُعْجِبَ بالأمْرِ، أي: عَجِب منْهُ واستحسنه.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾:

أي: وتزول أنفسهم وتضمحلّ بخروج أرواحهم وانفصالها عنهم بشدّة وصُعُوبة.

أصل الزهوق السبق والتقدم، وزهوق الباطل يكون بسرعة زواله واضمحلاله، وزهوق النّفس يكون بأن تسبق إلى أن تذوق الموت وغصّته قبل أن تحقّق مراداتها من دُنياها.

والخطابُ في الآية موجّه بأسلوب الخطاب الإفرادي للرّسول فلكلّ مؤمنٍ قد يتعرّض للإعجاب بأموال وأولاد المنافقين، والمقصودُ إقناع المؤمنين، وخُوطِبَ الرسولُ باعتباره أولَهُمْ وقائدهم، مع أنه صلوات الله عليه وسلاماته لا يتعرّض لمثل هذا الإعجاب، فهو عالم بحكمة الله في تصاريفه في كونه، وعطائه ومنعه لعباده.

لكن المؤمن الذي لم يُدْرِكْ بَعْدُ حكمة الله في مقاديره، قد يتعجّبُ إذا رأى المنافقين قد وسّع الله عليهم في الرزق، فكثّر أموالهم، ومَنَحَهُمْ أولاداً يحمونهم ويشدّون أزرهم في الحياة الدنيا.

وإجابةً على التساؤلات التي قد يطرحها المؤمن في نفسه عن الحكمة من إمداد الله بعض المنافقين بالأموال الكثيرة وبالأولاد الذين يكونون لهم قوّةً في الحياة الدنيا، ولئلا يتعجّب تَعَجُّبَ المعترض على حكمة الله، قال اللّهُ له:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾:

أي: إذا نظرت إلى بعض المنافقين فوجدتهم يتقلّبون في أموال كثيرة، ومَحُوطين بأولادٍ متعدّدين، فلا تُعْجِبْكَ أمْوالُهم ولا أوْلادُهم.

وهنا يتساءل هذا المؤمن: أليسَ إمدادهم بالأموال والأولاد إكراماً لهم في الحياة الدّنيا، وتقوية لهم ضدّ المؤمنين؟!

وأجاب الله عزّ وجلّ على هذا التساؤل بقوله:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

أي: مَا يُرِيدُ الله إكرامَهُمْ ولاَ تَقْوِيتَهُم بِها في الحياة الدنيا، إنَّما يُـرِيدُ مُـرَادَاتٍ أُخْرَىٰ، منها ابتلاؤهم وابتلاءُ المؤمنين بهم، ومنها استدراجُهُمْ وتَعريضُهم بسبب أموالهم وأولادهم لِمُشْكِلاتٍ ومصاعِبَ ومتاعِبَ وهُمُومٍ وغُمُومٍ وعَوَارِضَ وكَوارِثَ، وكَدٍّ في الجمع والحفظ والمراقبة، دون أن يستمتعوا بما يجمعون وما يملكون، ودون أن يَسْعَدوا بأولادهم، إذْ يجعل الله أولادهم أعداءً لهم، يتمنَّوْنَ موتهم ليرثوا أموالهم.

فمـا يـريـدُ الله من إمـدادهم بـالأمـوال والأولاد إلاّ أنْ يجعلهم في محيط من المشكلات التي تُسبِّبُها لِيُعذِّبَهُمْ بها.

ولا يـدُلُّ هذا على أنّ كـلّ من يُمِـدُّهُمُ اللّهُ بـالأمـوال والأولاد إنّمـا يُمِـدُّهُمْ بهـا لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الحياة الدنيا، ولكن هذا الْحَصْرَ خاصٌ بذوي الأموال الكثيـرة والأولاد المتعـدّدين من المنافقين، إذْ يجعـل الله أموالهم وأولادهم من أسبـاب شقائهم وآلامهم ومتاعبهم في الحياة الدنيا، وهذا مُشَاهـد لدىٰ بعض أصحـاب الأموال الكثيـرة والأولاد المتعـدّدين، فما ظاهره في أعين النـاس نعمة، قـد يكـونُ في الـواقـع بتصاريف الله وتـدابيره نقمـة، وقـد يُعـذِّبُ الله غيـر المنـافقين بمثـل هـذا العـذاب من أهـل الكفـر والمعاصي.

ولمّـا اقتضت حكمةُ امتحـانِهم إمدادَهُمْ بـالأموال والأولاد، بـاعتبار أنّ نفوسهم شـديدةُ الحبّ لهـا والتعلّق بها، فـامتحانُهُمْ بهـا هو الـذي يكشف حقيقتهم، كـان من مقتضىٰ هذه الحكمة أيضاً إبقاء هـذا الإمدادِ لهم بـالأموال والأولاد حتّىٰ مَـوْتهم، وبما أنّ امتحانهم على الوجـه الأمثل لا بـدّ أن يكشف كُفْرهم فـإنَّهُمْ سيظلّون على كفرهم حتّىٰ تزهق أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافرون.

هذا ما نفهمه من عموم الآية، فكيف نستخرجه من ألفاظها؟

الجواب:

إذا نظرت أيّها المؤمن إلى بعض المنافقين فوجدتهم محظوظين بكثرةٍ من الأموال والأولاد ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهم﴾ إعجابَ مستغربٍ من إمداد الله لهم بذلك وهم كفرة منافقون، فإنّ الله لا يريد إكرامهم وإسعادهم بها، إنّما يُريدُ مرادَاتٍ أُخرى: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ أي: بأموالهم وأولادهم ﴿في الحياة الدّنيا﴾ بما تُسبّبه لهم من متاعب وهموم وغموم ومشكلات ﴿و﴾ لـ ﴿تَزْهَقَ أنفسهم﴾ عند موتهم في ختام رحلة امتحانهم مفتونين بما يحبّون ويهْوَوْنَ من أموالٍ وأولادٍ ﴿وهُمْ كافرون﴾ وبعد ذلك يلْقَوْنَ عذابهم الأكبر على كفرهم ونفاقهم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

قرأ جمهور القرّاء العشرة: [مُدَّخَلاً] بضمّ الميم وتشديد الدال المفتوحة.

وقرأ يعقوب [مَدْخَلاً] بفتح الميم وسُكون الدال.

الْمُدَّخَلُ: مكانٌ يُدَّخَلُ فِيه للاختباء، دُون المغارة ذات الجوف الذي يختفي الداخل فيه اختفاءً كاملاً.

الْمَدْخَلُ: مكانٌ ما يَدْخُلُ الداخل فيه للاختباء، ولو لم يَبْلُغ أنْ يكونَ مُدَّخلاً شبيهاً بالمغارة، كحُفْرَةٍ في الأرض، أو فراغ بين صخرتين، أو جدارين، أو أيّ جوفٍ ساترٍ.

فبين القراءتين تكامُلٌ فكري.

﴿مَغَارَاتٍ﴾:

جمع «مَغارة» وهي الْغَارُ في الْجَبَل، جَوْفٌ فارغ داخل جبلٍ ما، كَبَيتٍ يحتمي فيه إنسان أو حيوانٌ من الوحش، كالضَّبُع.

﴿مَلْجَئًا﴾:

الْمَلْجأُ المكان المحصَّنُ الَّذي يَلْتَجِىءُ إليه الْخائفُ ليحتميَ ويتحصَّنَ به، وهو في العادة أحْصَنُ من المغارة، كقلعة أو حِصْنٍ.

فشملت الآية الاحتمالاتِ الأربع ذات المستويات المختلفات، في نسبة حمايتها وإخفائها مَنْ يختبىءُ بها خائفاً.

فأحْصَنُها الْملجأ، ثم الْمَغَارَاتُ العظمىٰ والصُّغْرىٰ الّتي تكون في الجبال عادة، ثم يأتي دُونَ المغاراتِ الْمُدَّخَلُ الذي يُشْبه المغارة لكنّه دُونَها إخفاءً وحمايَةً، ثم يأتي دُونه مَدْخَلٌ ما يختبىء به من لا يجدُ ما هو أسْتَرُ مِنْهُ وأحْصَن.

﴿يَفْرَقُونَ﴾:

أي: يَجْزَعُون ويخافون خوفاً شديداً، يُقَال لغة: فرِقَ مِنْهُ يَفْرَقُ فَرَقاً، إذا اشتدَّ خوْفُه منه وجزع.

﴿لَوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾:

أيْ: لأدْبَرُوا وابْتَعَدُوا مُلْتَجِئين إليه ومختبئين فيه.

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾:

أيْ: حالة كَوْنِهِمْ يَجْمَحُونَ حين تَوَلِّيهم إلى المكان الذي يجدونه للاختباء به.

يُقَالُ لُغَةً: جَمَحَ الفرَسُ يَجْمَحُ جَمْحاً وَجُمُوحاً، إذا خرج عن طاعة صاحِبِه بعُنْفٍ وانْطَلَق في غير ما يريد منه. ويقالُ: جَمَحَ الرَّجُلُ إذا ركب هواه، وانْطلق على غير هدىً، واستعصَى على من يُريدُ ردّه، ويقال: جَمَحتِ السفينة إذا خرجت عن طريقها الصالح فلم يَضْبِطْها الملاحُون، فالْجُمُوحُ هو الانطلاق بعنف ومعاندة مع ركوب الهوى.

كشفت هاتان الآيتان ثلاث صفاتٍ من صفات المنافقين:

الصفة الأولى: أنّهم لا يكتفون بادّعاء أنّهم مؤمنون مسلمون، وهم في الحقيقة كاذبون، بل هم يحلفون الأيمان بالله قائلين للمؤمنين وهم يكذبُون: واللّهِ إنّنا لمِنْكُمْ،

وما هم في الحقيقة مِنْهُمْ، بل هم كافرون، قُلوبُهُمْ مع إخوانهم في الكُفر لا مع الذين آمنوا.

دلَّ علىٰ هذه الصّفة قول الله تعالى:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

واو العطف في ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ يحتمل أن تكون عاطفةً على ما جاء في سوابق هذه الجملة من صفات المنافقين، ويحتمل أن تكون استئنافية، وفائدة الاستئناف التنبيهُ على أنّ ما بعده غير متّصلٍ بما قبله اتّصالاً مباشراً ضمن عناصر موضوعه.

فهم إذا كانوا بين المؤمنين وخافوا افتضاح حقيقتهم، وأن يكْتشِفَ المؤمنون أنّهم مُنافقون، فَيُنْزِلُوا بهِمْ عُقُوبَةَ الرِّدَّةِ عن الإسلام، سارعوا إلى سَتْرِ أَنْفُسِهم بأن يَحْلفُوا باللّٰهِ كاذبين، وذلك كلّما ظهر من بعض المؤمنين عباراتٌ أو إشارات استفسار عن حقيقةِ صِدْق إيمانهم، وهلْ هم من أهل الإيمان أم من أهل الكُفر، ويكون هذا عادة حينما يتصرّف المنافقون تصرّفاتٍ مُثيرةً للشّكّ في أمرهم، فيقول المنافقون حينئذٍ للمؤمنين: نَحْلِفُ بالله إنَّنا لَمِنْكُمْ وَلَسْنَا مع الذين كفروا من المشركين أو أهْلِ الكتاب، أو غيرهم.

ويُبَيِّن الله كذِبَهُمْ بقوله:

﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

الصفة الثانية: أنّهم يَتَجدَّدُ خَوْفُهُمُ الشّديد إلى حدّ الجزَع من أن يُنْزِل المؤمنون بهم عقوبةَ الرِّدّة، كلّما اكتشف المؤمنون بعض أمارات نفاقهم، وارتابوا، ووجّهوا لهم عباراتِ الاستفسار عن هويّتهم الحقيقية، أو نظراتِ الارتياب، وهو الأمر الذي يجعلهم يبادرون بِحَلفِ الأيمان الكاذبة، لِيَدْرَؤُوا عن أنفسهم العقوبة.

دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾.

عبارة ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ مساويةٌ لعبارة: وَمَا هُمْ صادقون فيما يحلفون بالله عليه، فيأتي قوله تعالى: ﴿ولَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ لبيان السبب الذي يجعلهم يحلفون باللّٰهِ

كاذبين، أي: لَيس غرَضُهم إثْباتَ أنّهم مع المؤمنين حقاً، ولكِنَّ غرضَهُمْ سَتْرُ كُفْرِهم ونِفاقِهم، بسبب أنهم يَخافُونَ خوفاً شديداً مُجْزِعاً من معاقبة المؤمنين لهم، إذا تأكّد لهم كُفْرهم ونفاقُهُمْ.

الصفة الثالثة: أنّهم لو يَجِدُونَ ــ حينَ يكتشف المؤمنون أماراتِ كُفْرِهم في الباطِنِ ــ أيَّ مَخْبَأٍ يَخْتَبِئون به، فوق سَتْرِ أَنْفُسِهِمْ بالأيمان الكاذبة، لأداروا ظُهورَهُمْ وأَسْرَعُوا للاختباء به من شدّة خوفهم وجَزَعِهم، شُعوراً مِنْهُمْ في داخل نفوسهم بأنّهم يَستحقُّون أنْ يُنْزِل المؤمنون بهم أشدّ العقاب، فهم أعداء مخادعون، وهم مخالطون مداخلون.

وقد عبّر الله عزّ وجل عن حالة نفوسهم هذه بقوله:

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾.

إنّهم يفكّرون أوّلاً بأن يجدوا ملجأً يلجؤون إليه ويتحصّنُونَ فيه، وهذا في حركة نفوسهم السريعة.

فإن لم يَبْدُ لهم مَلْجأٌ فكّرُوا بأن يجدوا مغارات في الجبال يَخْتَبِئونَ بها.

فإن لم تكن المغارات قريبة مِنْهُم فكّرُوا بأنْ يَجِدُوا مُدَّخَلاً يستترون به، كما جاء في قراءة جمهور القرّاء العشرة.

فإن لم يَجِدوا مُدَّخلاً قريباً مِنْهُمْ اكتفَوْا بأنْ يجدوا مَدْخلاً ما يسترون أنفسهم فيه، كما جاء في قراءة يعقوبَ.

كلُّ ذلك في حركة فكريّة نفسيّة تمرّ داخلهم، صوّرها القرآن أبدع تصوير، فدلّ على الحركة النفسيّة السّريعة التي تعتريهم عند شدّة خوفهم من عقاب المؤمنين لهم، وعلى تهالكهم النفسيّ على أن يجدوا مخبأً، بدءاً من أحصن المخابىء، حتّى أهونها وأضعفها.

ولو أنّهم يَجِدُون على توالي أزمانهم شيئاً من ذلك لأدْبَروا عن المؤمنين، وأسْرَعُوا إليه بعُنفٍ إسراعَ الْجَمُوحِ الذي يعاند الحقّ وسَبيل الهدَى، ولآثَرُوا

المخابىء على الإيمان بالحق، واتّباع سبيل الهدى بصدق، مع أنّ هذا متيسّرٌ لهم بالتوبة وصدق الإيمان، وبالتخلّص من مَضلاّتِ النّفاق بالإرادة الصادقة الحازمة.

وهذه الصفات من صفات المنافقين يصْلُح تعميمها على مختلف الأحوال، والقياس عليها.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قرأ جمهور القرّاء العشرة: [يَلْمِزُكَ] بكسر الميم.

وقرأ يعقوب فقط: [يَلْمُزُكَ] بضمّ الميم.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق فعل «يلمز» يقال لغة: لَمَزَهُ يَلْمِزُه ويَلْمُزُهُ لَمْزاً إذا عابهُ، أو أشار إليه إشارةً تدلّ على أنه يَعِيبُه بشيء ما، والإشارة تكون بحركات العين أو الشفة أو نحوهما مع كلامٍ خفيّ. ورجلٌ لَمّازٌ ولُمَزَةٌ، إذا كان دأبُهُ أن يفعل ذلك.

﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

أي: في توزيع الصّدقات على مستحقيها، والمراد من الصدقات هنا ما يُجْمَع من الزكاة، بدليل الآية التي جاءت بعد هذا النصّ التي تحصر مصارف الصدقات في الأصناف الثمانية، وهي مصارف الزكاة.

لكنّ «الصّدقات» قد تُطْلَقُ على ما يُبْذَلُ تطوُّعاً فوق الزكاة، ويُستدلُّ عليها بالقرائن، كما سيأتي في الآية (٧٩) من سورة (التوبة): ففيها قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ . . .﴾.

مما روي في سبب النزول:

(١) قال ابن جريج، أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أُتِي النبيُّ ﷺ بصدقة،

فقسّمها هَهُنا وهَهنا حتّى ذهبت، قال ووراءه رجلٌ من الأنصار، فقال: ما هذا بالعدل، فنزلت هذه الآية، أي:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

(٢) روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: بَيْنا النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ وفي رواية «قسْماً»، جاء عبدُ الله بنُ ذِي الْخُوَيْصِرَة التَّمِيْمِي فقال: اعْدِل يا رسولَ الله.

فقال: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إذا لَمْ أعْدِلْ؟!».

قال عُمرُ بن الخطاب: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ.

قال ﷺ: «دَعْهُ، فإنَّ لَهُ أَصْحاباً يَحْقِرُ أَحَدُكُم صَلاَتَهُ مَعَ صَلاتِه، وصِيامَهُ مَعَ صيامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينَ كَما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ في قُذَذِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيه شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَىٰ نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَىٰ رِصَافِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَىٰ نَضِيِّهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ إحدَىٰ يَدَيْهِ ــ أو قال ثَدْيَيْهِ ــ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ قَالَ: مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يَخْرُجُونَ على حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ».

قال أبو سعيد: أَشْهَدُ سَمِعْتُ مِنَ النبيِّ ﷺ، وأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيّاً قَتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، جِيءَ بالرَّجُلِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَهُ النبيّ ﷺ، قال: فَنَزَلَتْ فِيهِمْ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ...﴾.

«انظر فتح الباري ج (١٢) الحديث (٦٩٣٣) وأخرجه غير البخاري»

يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ: أي: يخرُجُونَ مِنْه، يُقَالُ لُغَةً: مَرَقَ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يَمْرُقُ مُرُوقاً، إذا اخْتَرَقَها وخَرَجَ مِنَ الجانب الآخرِ في سُرْعَة.

الرَّمِيَّة: الْهَدَفُ والغَرَضُ الَّذِي يُرْمَىٰ إليه السَّهْمُ لإصابته، صيداً كان أو غيره.

يُنْظَرُ فِي قُذَذِهِ: قُذَذٌ: جمع «قُذَّة» وهي ريشةُ الطائر بعد تسويتها وإعْدادها لتُرَكّب في السَّهْم من جهة ذيله مع أشباهها، لحفظ توازن السهم عند انطلاقه.

ثم يُنْظَرُ إِلَىٰ نَصْلِهِ: نَصْلُ السَّهم الحديدة الحادّة التي توضَعُ في رأسِ عُودِه.

ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَىٰ رِصافِهِ: «رِصاف» جَمْعُ «رَصَفَة» وهي عَصَبَةٌ من الأوتار، ويقال لها «عَقَبَة» تُلْوَى فَوْقَ مَدْخل أسْفَل نَصْلِ السهم في عُودِه، وتُشَدُّ لِتَثْبِيتِ النَّصْل، وهذا القِسْمُ الأسفل من النّصل يُسَمّى «سِنْخاً».

ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَىٰ نَضِيِّهِ: نَضِيُّ السَّهْم هو ما بين رِيشِهِ ونَصْلِه.

والمرادُ من هذا البيان التفصيلي أنّه لم يَعْلَق في السَّهْم من الرَّمِيَّةِ التي هي الصَّيْدُ شَيْءٌ، لأنّه مَرَقَ منها بسُرْعَةٍ فائقة، أي: لم يبق فيهم من الإسلام شَيْءٌ.

سَبَقَ الْفَرْثَ والدَّمَ: أي: سبَقَ السَّهْمُ بسُرْعَتِهِ أن يَعْلَقَ به شيءٌ من الحيوان الذي هو هدف الرّامي، لا شيءٌ من فَرْثِهِ، ولا شيءٌ من دَمِه.

مِثْلُ الْبَضْعَةِ تدَرْدَرُ: الْبَضْعَةُ: أي: قِطْعَةٌ من اللّحم.

تدَرْدَرُ: أي تَتَرَجْرج وَتَضْطرب كما يترَجْرَجُ ثَدْيُ المرأة.

وقد ظهر هؤلاء القوم في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهُمُ الْقَوْمُ الذين خرجوا عليه وقاتلهم، واستأصل مُعْظمهم وقتل آيَتَهُم، أي: العلامة التي تدلّ عليهم، وهو رجل منهم، ولمّا بحثوا عنه في القتلىٰ وجدوا أنّه على الوصف الذي جاء في كلام الرسول ﷺ، ولمّا رآه علي بن أبي طالب كبّر شُكْراً لِلّٰهِ، وسُروراً بأنّهم هم الذين عناهم الرسول ﷺ في حديثه عنهم.

* * *

التدبُّر

في هاتين الآيَتَيْن يبيّن الله عزّ وجلّ ظاهرةً من ظواهر النفاق، توجد لدى بعض المنافقين، وهي لَمْزُ الرّسول ﷺ والطعن فيه بالقول أو بغيره، في تصرّفه لدى توزيعه الصدقات على المستحقّين، واتّهامِه بمجانَبةِ العدل إذا لم يُعْطهم منها، فإنْ أعطاهم من الصدقات ولو لم يكونوا من المستحقّين رضُوا، وإن لم يُعْطِهم وهم غير مستحقين فاجَؤُوا عدلَ الرسولِ وحكمته بإعلان سخطهم، كأنهم كانوا يترقبون أن يُعْطِيَهُمْ منها مُتَحلِّبَةً أشْدَاقُهُمْ للأخذ من الصَّدقات دون استحقاق، وحين يرى الرسول بحكمته أنهم

أغنياء ليس لهم حقٌّ في الصدقات، إذْ هي تصرف في مصارف الزكاة، تَنْطَلِقُ منهم عباراتُ أو إشارات السُّخط واللَّمْز طعْناً في الرسول بصورة مُفاجئةٍ غَيْرِ مُرْتَقَبَة.

إنّ تَسخُّطَهُم يأتي مُفاجئاً للرسول ولحاضري مجلس توزيعه الصّدقات، لأنّه لا داعي له مطلقاً، فهو أمْرٌ مستغرب جدّاً، باعتبار أنّهم غَيْرُ مستحقين، أمّا من جهَتِهِم فإنّهم لا يملكون إلاّ أنْ تنفجر فيهم قُنْبُلَةُ التَّسَخُّط، لأنّهم كافرون باطناً، ومشحونون بالطّمع، ومُتَرَقِّبُون أنْ يكون لهم من الصدقات نصيب، ويُفاجَؤُون بخَيْبَة الأمل حين لا يعطيهم الرسول، فينفجر فيهم السخط مما تجمّع بداخلهم من غضب.

فقال الله تعالى خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: ومن المنافقين من يَلْمِزُك يا مُحمَّدُ في توزيع الصَّدقاتِ على مستحقيها، طاعناً لك بأنّك لا تَقْسِمُ بالعدل، وحالُ هذا الصِّنْفِ من الناس أنّهم إن أعْطُوا مِنَ الصّدَقاتِ ولو لم يكونوا من أهل الاستحقاق رَضُوا فلم يلمزوا، وإنْ لم يُعْطَوْا منْها وهم غير مستحقّين فاجَؤُوا بالتسخُّط والتذمّر، واللَّمْزِ طَعْناً وَعَيْباً.

وأرْشَدَهُمُ اللّهُ إلى ما هو خيرٌ لَهُمْ، دون أن يُواجههم بالخطاب، إعراضاً عَنْهُمْ، وإشعاراً لهم بسوء أدبهم مع الرسول، وأنّ لَمْزَهُمْ له كبيرَةٌ من الكبائر، وهي تدلّ على نفاقهم وعدم صحة إيمانهم بالرسول فقال الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾:

أي: إنّا إلى الله مُبْتهِلُون متضرّعون سائلون، يُقالُ لغة: رَغِبَ إليه في كذا، إذا سأله إيّاه، ورَغِبَ إلَيْهِ، إذا ابْتَهَل وتضرَّعَ وَطَلَبَ.

وقد جاء في الإرشاد بيان أربع وصَايا لو اتّبعُوها لنالوا خيراً عظيماً، وهذه الوصايا

جاءت بصيغة جُمَلٍ شرطيَّةٍ مُصدَّرَة بحرف الشرط «لو» والجواب محذوف لأنّ الذهن يستطيع إدراكه بيُسْرٍ، فاقتضت بلاغة الإيجاز حذفه.

الوصية الأولى: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾:

أي: ولو أنّهم رضُوا ما آتاهُمُ اللّهُ باعْتِبَارِ أنّه هو المعطي الْمُتَفضّل، وما آتاهم الرسول باعتبار أنّه القاسم المنفذ لعطاء الله، ورَضُوا أيضاً ما لَمْ يُؤْتِهم الله ورسوله، وآتى غيرهم ما لم يؤتهم منه لمَا له في تدبيره من حكْمة.

وأغنى ذكر إيتائهم عن ذكر عدم إيتائهم، لإشعارهم بأنْ نِعَمَ الله عليهم عظيمة جدّاً، فعليهم ان يَرْضَوْا بها ويشكُرُوا الله عليها، لا ان يلُوموا على ما لم يُعطهم وأن يتسَخَّطوا، وأنْ يلمزوا الرسول.

الوصيّة الثانية: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾:

أي: قالوا: يَكْفِينا اللّهُ بعطاءاته، فهو المعطي، وهو الذي بيده الأمر كُلُّه، يجري مقاديره بمقتضى مشيئته الحكيمة.

الوصيّة الثالثة: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾:

أي: وقالوا: إذا سألْنا اللّهَ وتوكلنا عليه فَسَيُؤْتِينا اللّهُ من فضلِهِ مستجيباً دُعاءَنا، ففضله عظيم، وخيرُه كثير، وإذا كان عَطاءُ الله عن طريق توزيعِ رسُولِه فسَيُؤْتِينا رسولُهُ من فضل الله، وسيُلْهمه الله أن يُؤْتِينا.

الوصية الرابعة: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾:

أي: وقالوا داعِين ربَّهُمْ مبتهلين مُتضرِّعين، رَبّنا آتِنا من فَضْلِكَ، إنّا إلَيْكَ رَاغِبُون، نسألك ونبتَهِلُ إليك ونتضرّع.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾.

* قرأ جمهور القراء العشرة [والْمُؤَلَّفَةِ] بتحقيق الهمزة.

وقرأ ورش وأبو جعفر [والمُوَلَّفَةِ] بإبدال الهمزة واواً في الوصل والوقف، وحمزة كذلك في الوقف فقط.

بمناسبة الحديث عن المنافقين الذين كانوا يَلمِزون الرسول ﷺ لدَىٰ توزيعه الصُّدقات، إن لم يعطهم منها، لأنّهم ليسوا من الأصناف الذين تُبْذَلُ لهم، أبان الله عزّ وجلّ بنصٍّ صريحٍ مفصّل الأصنافَ الّذين تُدْفَعُ إِلَيهِمُ الصُّدَقات، وأبان أن توزيعها يجب أن يكون محصوراً بهم، بدلالة أداة الحصر «إنّما» التي بدأ الله بها الآية، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾:

أي: لا تُبْذَلُ الصَّدقات إلاّ للأصناف المذكورين في الآية.

الصنف الأول: الفقراء، جمع «الفقير» وهو من كان ذا حاجة حقيقيّةٍ لنفقاته ونفقات من يعولهم، سواءٌ أكان مُعْدِماً أوْ دون ذلك إلى ما دُون الكفاية، ولكنْ قدْ لا تكونُ هذه الحاجة ظاهرة عليه، فيحسبه الجاهل بحاله غنيّاً، من تعفّفه، أو من نشاطه وجلادته في العمل، فيظنّ أنّه يكْسِبُ ما يكفيه.

وأصل الافتقار إلى الشيء الحاجةُ إليه.

الصنف الثاني: المساكين، جمع «المسكين» وهو من كان ظاهره يدلّ على أنّه ذو حاجة، بسبب تعرُّضه لصدقات الناس، بما يبدي من حالٍ تُشْعر بأنّه فقير محتاج، أو بتصريحه بأنّه ذو حاجة، وبسؤاله صدَقات الناس وزكوات أموالهم، وربّما يكون في واقع حاله على خلاف ما يظهر بأقواله وأعماله.

فالمسكنة صفةٌ تظهر على الإنسان، تُشْعِرُ بأنّه فقير ذو حاجة، سواءٌ أكان صادقاً بمسكنتهِ أو كاذباً فيها.

فالبذلُ لكلٍّ من الفقير والمسكين سببه الحاجة لنفقاته، وأنه لا يملك كفايته، والفرق بينهما أنّ الفقير هو من كان فقيراً في حقيقته، ولو كان ظاهره قد يشعر بأنّه غنيّ، فيحسبه الجاهل بحاله غنيّاً. أمّا المسكين فهو من يتظاهر بالفقر ويتعرّض لأخذ صدقات الناس، أو يسألهم صراحة، وقد يكون في حقيقة أمره فقيراً، وقد يكون غير ذي حاجة.

هذا ما ظهر لي من الفرق بين الفقير والمسكين، من خلال سَبْرِ النصوص واستقرائها، ومن خلال النظر في جذور كلمتي الفقر والمسكنة لغة[1].

واختلف فقهاء المذاهب في الفرق بين الفقير والمسكين إلى حدّ اختلاف التضادّ، لكن سَبْرَ النصوص أكد لي صحة ما انتهيت إليه والله أعلم، وهو ما يُفْهِمُ ممّا روي عن ابن عبّاس، فقد أخرج ابن المنذر والنحاس عنه أنّه قال: الفقراء فقراءُ المسلمين، والمساكين الطّوّافون.

الصنف الثالث: العاملون عليها، وهُمْ جُبَاةُ الزكاة، السُّعاةُ المكلّفون أن يجمعوها من ذوي الأموال، تُبْذَلُ لَهُمْ أجورهم ورواتبهم من الصَّدقاتِ التي يجمعونها. ويُطْلَق على العامل الذي يَجْبِي الزكوات ممّن تجب عليهم اسم «مُصَدِّق».

وكذلك كلُّ من يعمل في دائرة جمع الزكوات ونقلها وحفظها وتسجيلها وتوزيعها على ذوي الاستحقاق.

الصنف الرابع: المؤلّفةُ قُلوبُهم، وهم الذين يرى إمام المسلمين، أنّه إذا أعطاهُمْ استمالهم لنُصْرَةِ الإسلام ونَشْرِهِ وتثبيته ونُصْرَةِ المسلمين، فلَهُ أنْ يُعْطِيَهُمْ من الأموال العامة التي أعطاه الله حقّ التصرّف فيها، ولَهُ أن يُعْطِيَهُمْ أيضاً من الزكاة التي

(١) انظر القاعدة السادسة عشرة من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف (المثال الرابع).

يجمعها من المسلمين إذا اقتضى الأمْرُ ذلك، فأمر إعطائهم يرجع إلى تقدير أمير المؤمنين، بعد استشارة أهل المشورة في هذا الأمر.

واختلف الفقهاء: هل يُعْطَى من الزكاة مَنْ يُسْتَمال للإسلام أو لخدمة المسلمين من أهل الكُفر، فيُتَألَّفُ بذلك قَلْبُه، أمْ يُعْطَى فقط من الأموال العامّة كأموالِ الفيء، فمنهم من يرَى أنّ للإمام أن يتألف بأموال الزكاة غَيْرَ المُسلمين، ومنهم من يرى أنّ ذلك لا يكون من أموال الزكاة، بل يكون من الأموال العامّة أو من الأموال الخاصة التي يتبرع بها المتبرّعون.

ولكلّ من الفريقين حُجّتُه، والأمْرُ في ذلك يَسِير، وهو يرجع إلى تقدير إمام المسلمين وأهل مَشورته.

ومصرف المؤلفة قلوبُهم مصرفٌ يَرْجِعُ الْبَذْلُ فيه لتقدير إمَام المسلمين، ومراعاته المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، فإن رأى أن يبذل فيه من الزكاة أو من الأموال العامة بذل، وإن رأى أن المصلحة لا تستدعي ذلك في عهد من العهود لم يبذل، فالمؤلفة قلوبُهُمْ ليس لهم حقٌّ في الزكاة أو في الأموال العامّة، حتّى يُطالبوا به، كَحَقّ الفقراء والمساكين في الزكاة، ولكن من حقّ إمام المسلمين أن يبذل من الزكاة للمؤلفة قلوبهم إذا رأى في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين، وهذا الفهم هو الذي فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين توقف عن إعطاء المؤلفة قلوبُهم، يوم أنْ وجد الإسلام عزيزاً منصوراً.

وفَهِمَ بعضُ الناس فعل عمر رضي الله عنه على غير وجهه، فاتّخذوا فعله هذا ذريعةً لإباحة إيقاف بعض شرائع الإسلام، بدعوى أنّ الأحكام تتبدّل بتَبَدُّلِ الأزمان، مع أنّ عُمَر قد فهِمَ النّصّ وطبّقه على ما فهمه، ولم يُوقِف العملَ بالنّصّ القرآني.

الصنف الخامس: الأرقاء، أي: لإمام المسلمين، ونائبه في توجيه الزكاة لمصارفها، أن يَبْذُل من الزكاة لعِتْقِ الأرقاء، عبيداً أو إماءً، ويكون ذلك بتسديد أقساط المُكاتَب، وبشراء العبيد والإماء وإعتاقهم، وبمساعدة من يشتري الأرقاء ويعتقهم، أو يريد أن يعتقهم وهم في ملكه، وبأن يُعْتق مالِكُ الرقيق ويحتسب قيمة مَنْ أعْتَق من زكاة ماله.

الصنف السادس: الغارمون، أي: المدينون، تسديداً لديونهم، والذين أصابتهم جوائح تعويضاً لهم عمّا نزل بهم، والذين يغرمون من أموالهم لإصلاح ذات البين، فيتعهّدون أن يبذلوا قدراً من المال للإصلاح، ويلتزمون ذلك في ذمتهم، فيُسَدُّد عنهم من الزكاة، أوْ يُسَاعَدُونَ في ذلك.

الصنف السابع: سبيل الله، فما المراد من إنفاق السهم السابع من أسهم الزكاة في سبيل الله؟

(١) رأى معظم فقهاء المذاهب أنّ المراد بذلُه في المقاتلين لإعلاء كلمة الله.

(٢) ورأى آخرون جواز صرفه في كلّ مصالح الإسلام والمسلمين العامة، فهي تدخل في عموم عنوان «في سبيل الله» لأنّ سبيل الله هو دينه، وكلُّ الأحكام والوصايا التي أبانها فيه لعباده.

(٣) والرأي الثالث المعاصر المتوسط بين الرأيين السابقين، وهو ما تنطبق عليه عبارة «الجهاد في سبيل الله» بمعناها الواسع الذي دلّت عليه نصوص الجهاد في سبيل الله في القرآن، وقد سَبَرْتُها في كتاب «بصائر للمسلم المعاصر» في الباب الرابع منه، فوجدت أن هذا الجهاد يشمل تعليم الإسلام وتربية الدعاة إلى دين الله، ومساعدتهم وتوظيفهم للقيام بواجب الدعوة إليه بالحكمة، وللقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالفكر والقلم واللسان، وغير ذلك من وسائل مؤثرة تُكْتَشَفُ لتوصيل دين الله إلى عباد الله، في مختلف بقاع الأرض كالإذاعة، ويَشْمَلُ إعداد المستطاع من القوّة لإرهاب أعداء الله، ويشمل إمداد المقاتلين في سبيل الله لإعلاء دينه والدفاع عن المسلمين وبلدانهم ودولته بما يحتاجون إليه من أسلحة ومُؤَن، ويشْمَلُ كفالَةَ أُسَرِهم ورعايةَ هذه الأُسَر ما داموا غزاة في سبيل الله، فمن جَهَّز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في أهله فقد غزا، وهكذا إلى أشباه هذه المجالات.

أمّا إطلاق عبارة «في سبيل الله» لتشمل كلّ إنفاقٍ فيما يُرْضي الله من مصالح المسلمين العامّة والخاصة، دون تقييدها بمفهوم كلمة الجهاد الشاملة لما سلف بيانه، والتي لا تقتصر على القتال في سبيل الله، فهو أمْرٌ مستبعَدٌ، لأنّ البذل في سائر

الأصناف الثمانية ينطبق عليه أنّه بذلٌ في سبيل الله، فلا يكون لتحديد الأصناف الثمانية في الآية كبير فائدة، وبلاغة البيان القرآني يُسْتَبْعَدُ مَعَها مثل هذا الإجراء.

وأمّا تقييد عبارة «في سبيل الله» بالمقاتلين في سبيل الله، فلا دليل عليه من القرآن، ولا دليل عليه من السُّنة.

بقي أن نفهم أنّ المراد هو الجهاد في سبيل الله بمعناه الواسع الذي دلّت عليه نُصُوص القرآن المجيد، فهو الذي أراه الأرجح والأقرب إلى التدبّر الصحيح في هذا الموضوع، والله أعلم.

وأنبّه هنا على أنّ العالم الداعية الدكتور الشيخ «يوسف القرضاوي» قد ذهب إلى هذا الرأي فيما انتهىٰ إليه بكتابه «فقه الزكاة» بعد أن عرض آراء الفقهاء والباحثين المتقدّمين والمحدَثين، وأنْعِمْ بما ذهب إليه.

الصّنفُ الثامن: ابْنُ السبيل، فما المراد من إنفاق السّهم الثامن من أسهم الزكاة في ابن السبيل.

السبيل: هو الطريق، والمسافر الذي انقطع في الطريق فعجز عن أن يعود إلىٰ بلده، لأنّ ما يحتاج إليه في سفره من زادٍ أو كساءٍ أو مركبٍ أو مأوىٰ قد نفد يقال له: «ابْنُ السبيل» وهو على سبيل المجاز، أي: كأنّه لا أبَ له يُؤْويه أو يَحْميه أو يُغذّيه إلّا الطريق، والطريق العامّ لا يفعلُ شيئاً من ذلك، فهو منقطع.

فهذا الصنف يُصْرف له من الزكاة ما يحتاجه حتّىٰ يَعُودَ إلى بلده، ولو كان في بلده غنيّاً، ولا يُسْتَرَدُّ منه ما بُذِلَ له إذا وصل إلى بلده وماله.

وقد ذكر الفقهاء الشُّروط التي يجب توافرها في ابن السبيل حتّى يكون ممّن يستَحِقُّ أن يُبْذَل له من هذا السهم الثامن من أسهم الزكاة الثمانية.

وهل يدخل في هذا الصنف من يريد إنشاء سفر في طاعة، وهو لا يملك ما يحتاج إليه في هذا السفر، فيُعْطَىٰ من الزكاة ليسافر؟

جمهور الفقهاء على أنّ المراد من «ابن السبيل» المسلم المنقطع في سفره، يُعْطَىٰ أو يصرف من أجله ما يحتاج إليه حتى يصل إلى بلده أو ماله، وأمّا من يريد أن

ينشىء سفراً فلا يُعطى إلاّ أنْ يدخل في صنف آخر من الأصناف الثمانية، كأن يكون داعياً إلى دين الله فيدخل في صنف «في سبيل الله».

ورأى بعض الفقهاء جواز إعطاء من يريد أن ينشىء سفراً في طاعة ولو لم ينقطع بَعْدُ في سفره، ويَبْعُد هذا الرأي، لأنّ من يريد إنشاء سفر لا ينطبق عليه اسم «ابن السبيل» بل هو ابن بلده والله أعلم.

ملاحظة حول: ﴿للفقراء...﴾ و ﴿وفي الرقاب...﴾:

جاء التعبير الحاصر في الأصناف الثمانية بجانب الأربعة الأولى بعبارة:

﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

فاستخدم حرف الجر «اللام».

أما بجانب الأصناف الأربعة الأخيرة فقد جاء التعبير بعبارة:

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

فاستخدم حرف الجر «في».

فما السّرّ في هذا؟

رأى الزمخشري أنّ استعمال «في» بجانب الأربعة الأخيرة، قد كان لأنّ هؤلاء الأصناف الأربعة أرسخ في استحقاق الزكاة من الأصناف الأربعة الأولى، أخذاً من دلالة لفظ «في» على الظرفيّة، فالزكاة تُصَبُّ فيهم، وقد خالف في هذا من اهتم بهم القرآن في الترتيب فذكرهم أوّلاً، وهُمُ الفقراء والمساكين، وما جاء في نصوص أخرى من بيان أنّهم المستحقون الأوّلون للزكاة، كقوله تعالى في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

ورأى ابن المنيّر في تعليقه على الزمخشري، أنّ الأربعة الأولين يملكون مَا يُدْفع إليهم، فيأخذونه ملكاً، فكان استعمال اللام هو اللائق بهم، وأما الأربعة الآخرون فالأصل أن تُصْرَف أسْهُمُهُمْ من الزكاة في المصالح التي تتعلّق بهم، لا أَنْ تُدْفع إليهم تمليكاً، فالأرقّاء تُعْتق رقابهم بالبذل لمالكيهم، والغارمون تُدْفع ديُونُهم للدّائنين.

أقول:

هذا فهم سليم، وعليه يكون سهم «في سبيل الله» وسهم «ابن السبيل» يمكن أن يوضعا في مؤسسات لتحقيق الأهداف منهما، وهو الأصل الذي جاءت الإشارة إليه بحرف الجرّ «في» ولا يُمْنَع من بذلهما مباشرة للأفراد المجاهدين، ولأبناء السبيل المنقطعين.

وجاء تكرير حرف الجر «في» بجانب الصنفين الأخيرين، للإشارة إلى أنهما صنفان متشابهان، كما أنّ الخامس والسادس صنفان متشابهان ذُكِرا مبدوأين بحرف الجر «في».

أمّا الأصناف الأربعة الأولىٰ فيملُكُونَ استحقاقاتهم، فَبُدِئَتْ بحرف الجر «اللام» داخلاً على الصنف الأول منها وعُطفت الأصناف الثلاثة عليه دون إعادة حرف الجرّ، لتشابه الأصناف في التمليك، والله أعلم.

قوله تعالى:

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

أي: قِسمةٌ محدّدَةٌ من الله أوجبَ اللّهُ اتّباعَها، يقال لغة: فَرَضَ الشيء إذا أَوْجَبَهُ وأَلْزَمَ به، وحدَّد له حُدُوداً.

وأصْل الفَرْض في اللُّغَةِ: القَطْعُ، والحزُّ في الشيء لبيان الحدّ الذي ينتهي عنده مقدار ما، ويبدأ عنده مقدار آخر، كخشبةٍ أو حديدةٍ يُقاسُ بها الذّراع مثلاً، يُحَزُّ فيها عند نهاية الذراع وعند بدايته حزّان، هذا الحزُّ يقالُ له في اللّغة فَرْض، ومنه الحزوز التي تُجْعَلُ على حَجَرَةِ السّاعة الشمسية، أو في المكاييل، أو في غيرها، فهي تُسَمّى فُرُوضاً، فكلّ تحديد يجب اتباعُهُ شرعاً فهو فَرْضٌ.

وعلى هذا فالقسمة المحدّدة، والنفقة التي يجب بذلُها، بأمْرٍ من الله عزّ وجل، هي فريضة من الله، أي: قِسْمَةٌ ذاتُ حُدود يجب اتباعُها. ومنه سُمّيت الفرائض، أي: القسمة التي حدّدها الله في المواريث، وعلم الفرائض هو العلم الذي يبحث في قسمة المواريث.

وختم الله عزّ وجلّ الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

أي: وبما أنه سبحانه عليم بكلّ شيءٍ، وحكيم فيما يدبّر من أمر، وفيما يُنزّل لعباده من شرائع وأحكام وفرائض، فإنّ حَصْرَهُ للصّدقات التي هي زكاة الأموال، في الأصناف الثمانية هو الأمر الذي تقتضيه الحكمة المستندة إلى العلم الشامل المحيط بكلّ شيء.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة [أُذُنٌ ـ أُذُنُ] في الموضعين بضم الذال.

وقرأ نافع [أُذْنٌ ـ أُذْنُ] في الموضعين بإسكان الذال.

والقراءتان وجهان عربيّان لنُطق الكلمة.

ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة [وَرَحْمَةٌ] بالرفع عطفاً على [أُذُنُ] من [أُذُنُ خيرٍ] أي: هو أذن خيرٍ، وهو رَحْمَةٌ للّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ.

وقرأ حمزة فقط [وَرَحْمَةٍ] بالجرّ عطفاً على [خيرٍ] أي: هو أُذُنُ خيرٍ لكم، وأُذُنُ رَحْمَةٍ للّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم.

وفي القراءتين تكامل فكري، فقراءة الجمهور تدلّ على أنّ النّبيّ كُلَّهُ رَحْمَةٌ للّذِينَ آمَنُوا، فيما يسمع بأذُنِه وفيما يتلقّى بسائر جوارحه، وفي قلبه ونفسه وفكره وكلّ مشاعره.

وقراءة حمزة، تدلُّ على أنه ﷺ أُذُنُ رَحْمَةٍ للّذين آمَنُوا، وهذه جاءت للرّدّ على

اتّهام المنافقين لَهُ بأنّهُ أُذُنٌ، أي: يتأثّرُ بما يَسْمَعُ ويَنْقُلُ النّاقِلونَ إليه من أخبار، دون بَحْثٍ وتنقيبٍ عن الحقيقة وتَبيُّنٍ لها.

وقد تضمّن هذا الرّدُّ أنّ ما يسْمَعُهُ بأذنه من أخبارٍ لا ينتج عنه إلاّ رحمةٌ للذين آمَنُوا، أمّا غير المؤمنين وهم أهل النفاق الذين يتهمونه بأنه أُذُنٌ، ويُؤْذونَهُ مَعَ أنّهُ رسُولُ الله، فَلَهُمْ عند ربِّهِمْ عذابٌ اليم.

قولُهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾.

يُتَابعُ اللّهُ عزّ وجلّ الحديث عن المنافقين فيُبَيّن أنّ فريقاً منهم يتطاولُون على مقام النُّبُوّة، فيُؤْذُونَ النبيَّ في صفةِ نُبُوّتِهِ الّتي اصطفاه الله بها، وهيَ أنهُ يُنَبَّأُ عن طَريقِ الْوَحْي، فَيَتَلَقَّى ما يُنَزَّلُ عليه، ويُبَلِّغُهُ كَمَا تَلَقّاهُ لا يزيد فيه ولا ينقص منه شيئاً.

﴿يُؤْذُونَ﴾:

الأذىٰ هو ما يُزْعِجُ ويؤلم ألماً ليس بالشديد، كالكلام بشأنه في غيبته بما يَنْتَقِصُ من كمالاته صلوات الله عليه.

وأشارت عبارةُ ﴿النَّبِيّ﴾ الدالةُ على وصْفِهِ بالنبوّة، إلى أنّ إيذاءَهُمْ له يتعلّقُ بما هو من خصائصه التي رشّحَتْهُ عِنْدَ ربّه لأن يصطَفِيَهُ بالنُّبُوّة، وجاء بَيَانُ إيذائهم له عامّاً لِيَشْمَلَ صُوراً كثيرة من الأذىٰ يمارسُها المنافقون بشأنه في غيبته، وقد يَبْلُغُه بعضُ منها، وعطَفَ الله عزّ وجلّ على هذه الأذيات الّتي لم يأْتِ في النّصّ تفصيلها صورةً تَدْخُل في عمومها، من قبيل عطف الخاص على العام: فقال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾:

أي: يؤذون النبيّ أذيّاتٍ تَمَسُّ خصائص نُبُوّته، ومع هذه الأذيات، أو من هذه الأذيات أنهم يَقُولُون: هُوَ أُذُنٌ، أي: هو يسمع ما يقال له ويُصدّقه، فإذا آذيناه بكلامٍ ما في غيبته وبلغه ما تكلّمنا بشأنه، جئْنا إليه فاعْتَذَرْنا إليه بكلامٍ يقبله منا، لأنّ من طبعه أنه يَسْمَعُ ما يُقالُ له فيُصَدّقه، إذْ هو أُذُنٌ، فلا خوف من أن نبسط فيه ألسنتنا فيما بيننا، أو أمام بعض المؤمنين به، لإضعاف إيمانهم به، وقد ورد في سبب النزول ما يلي:

(١) أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عبّاس قال:

كان نَبْتَلُ بْنُ الحارث (وهو من بني لَوْذَان بن عمرو بن عوف) يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيستمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال: إنّما محمّد أُذُنٌ، من حدّثه بشيءٍ صدّقه فأنزل الله فيه هذا النص.

وقال ابن إسحاق: وهو الذي قال له رسول الله ﷺ فيما بلغني: من أحبّ أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن السُّدّي قال: اجتمع ناسٌ من المنافقين، مِنْهُمْ جُلاَسُ بْنُ سُويد بن الصامت، ومُخَشِّنُ بن حُمَيِّر، ووديعةُ بنُ ثابت، فأرادوا أن يقعوا في النبيّ ﷺ، فنهى بَعضُهم بعضاً، وقالوا: إنّا نخاف أن يبلُغ مُحمّداً فيقع بكم، فقال بعضهم: إنّما محمّدٌ أذن، نَحْلِفُ له فيُصدّقنا.

هُو أذن: أي: هو كالأذن التي تنقل ما تسمع، دون تمحيص ولا محاكمةٍ عقلية.

قال أهل اللّغة: تقول العرب لمن يسمع ما يقالُ له فيُصدّقه: أُذُنٌ، ويطلق بالإفراد هكذا على المذكر والمؤنث والمثنى والجمع، فيقال: رجل أذن، وامرأة أذن، وهما وهم وهُنَّ أذن.

ولا يخفى ما في قول المنافقين هذا من طعنٍ في النبيّ وإيذاءٍ له.

وقد علّم الله كلّ مؤمن بأسلوب التعليم الإفراديّ كيف يَرُدُّ مقالة المنافقين في الرسول إنّه أُذن، فقال تعالى:

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ...﴾.

ونُدرك من هذا التعليم أنّ الله عزّ وجلّ يُعلّم كُلّ مؤمنٍ أن يُعْلن عند مقتضيات الأحوال أمام من يواجه من جماعة المسلمين بصفةٍ عامّةٍ، مُلاحظاً مَنْ في صفوفهم من المنافقين، مضمون القضايا الّتي اشتمل عليها التعليم، لإيجاد رأي عامّ بها، وهي القضايا الأربع التالية:

القضية الأولى: ما تضمَّنهُ قول الله عزّ وجلّ:

﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾:

أي: هو بحُسنِ تلقّيهِ بأذُنِهِ مَا يُتْلَىٰ عليه من الْوَحْيِ المعصوم من الخطأ، أُذُنُ خَيْرٍ، فهو بضبط تَلَقِّيه عن ربّه، وضَبْطِ تَبْليغه لِمَا تلَقَّاهُ عَنْهُ، قد جلَبَ لَكُمْ خيراً عظيماً، يضْمَنُ لَكُمْ خَيْرَ الْعَاجِلةِ وخَيْرَ الآجلة.

فإذا كُنْتُمْ تَرَوْنَه ضابطاً لما يَسْمَعُ، وأميناً فيما يُبَلّغُه، فهذا من كمالاته التي اصطفاه الله بها للنُّبوّة، فجعله نبيّاً، يُنبَّأُ بأخبار السماء ويُنَبِّىءُ عَنْهَا كما تَبلَّغَها.

هذه الإجابة تتضمَّن قَبُولَ مَا أَطْلَقُوا من وصف، مع تحويله من صفةِ ذمٍّ إلى صفةِ مدحٍ عظيم، ولكن في موضوع ما يتلقّى من الوحي عن ربّه، لا ما يتلقّاه من أمور أخرى، ومعلومٌ أنّ ما ينزل به الوحي معصوم عن الخطأ وَالشّرّ والفساد، فهو خير كُلّه.

والسَّببُ في أنّه لا يُفَكِّرُ بطرح أيّ شَكٍّ حول ما يأتي به الوحْيُ عَنِ اللّهُ أَنّهُ يُؤْمِنُ باللّهِ إيماناً كاملاً، لا يُخالطُهُ شكٌّ ولا تردّد، فمن آمَنَ باللّهِ الرَّبِّ الخالق العليم الخبير الذي لا يخفىٰ عليه شيءٌ في السماوات والأرض، المتّصف بكل صفات الكمال، والمنزّه عَنْ كلّ صفاتِ النُّقصان، لا يُمْكِنُ إلاّ أن يُسَلّم تسليماً تامّاً بكلّ ما يُوحِيه الله إليه، وكلُّ عمله تُجاهَهُ أن يتلقّاهُ ويَفْهَمَهُ، لأنه يؤمن بأنّه لا يمكن إلاّ أن يكون حقّاً أو خيراً ورُشْداً وسَبَبَ سعادةٍ ونجاحٍ وفلاحٍ.

القضيّة الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أي: وهو يصدّق المؤمنين في أخبارهم لأنّهم مؤمنون بالله، وبسبب إيمانهم به وخوفهم من عذابه لا يكذبون مفترين على أحد، إنّما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون، فمعنى ﴿يُؤْمِنُ للمؤمنين﴾ يطمئن لإيمانهم فيصدّقهم.

وبيان أنّه يصدّق المؤمنين في أخبارهم يشير إلماحاً إلىٰ أنّه لا يُصَدِّق أخبار الفاسقين، حتّىٰ يتبيَّنَها ويَتَثَبَّتَ مِنْها، ولاَ يُصَدّق أخبار المنافقين، عملاً بما أمر الله به في الآية (٦) من سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول) ففيها قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾.

ففي بيان أنّ النبيّ يُؤمن للمؤمنين إشعارٌ للمنافقين بأنّ ما تَصوَّروه من أنّهم يستطيعون أن يُرضوه بالكذب عليه في اعتذارهم له عمّا يَبْلُغه عنهم، أمْرٌ لا ينطلي على الرسول، ولو تغاضىٰ عنهم في الظاهر، فإذا لم يكتشف بفراسته أحوالهم، نزل عليه بشأنهم خبر الوحي، فحِلْمُه وصَبْرُهُ عليهم وتغاضيه عنهم غرّهم، فظنوا أنّ ما يقولونه في معاذيرهم الكاذبة له يصدّقه.

القضية الثالثة: دلّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾:

أي: والرسول هو رحمةٌ للّذين آمنوا مِنْكُم أيُّها المعلنون إسلامهم، أو هو أُذُنُ رحمةٍ لهم، وتظهر رحمته لهم في مجال ما يسمع بأذنه منهم في أمور كثيرة، منها ما يلي:

ـ إذا عرض أحَدُ المؤمنين عليه شكوى من أمرٍ في نفسه، أو ماله، أو أهله، وطلَبَ منه مساعدةً ما أسرع إلى نجدته، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، أو دعا الله له، فكان بذلك رَحْمةً له، أي: سبباً في استفادته خيراً هو من آثار الرحمة.

ـ إذا جاء أحَدُ المذنبين من المؤمنين فسأل الرسول أن يستغفر الله له، استجاب لطلبه، فاستغفر له، فغفر الله له، فكان بذلك رحمة له، أي: سبباً في استفادته خيراً عظيماً هو من آثار الرحمة.

ـ إذا جاءه مؤمن يسأله عن شيء من أمور دينه يجهله، سمع سؤاله وعلّمه، فكان بذلك رحمةً له، أي: سبباً في استفادته علماً دينيّاً هو خيرٌ عظيم له، وهو من آثار الرحمة.

إلى غير ذلك من أمور.

القضية الرابعة: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

هذه القضيّة تتضمّن توجيهَ تَحْذِيرٍ للمنافقين من العذاب الأليم الذي أعده الله عزّ وجلّ للذين يؤذون رَسُوله.

واختير هنا من صفات النبيّ ﷺ كونُه رَسُول الله، لـلإشارة إلى أنّ الله عـزّ وجلّ لا بُدّ أن ينْتَصِرَ لرَسُوله الذي اصطفاه لتبليغ رسالاته للناس، وللإشعار بأنّ إيذاء الرسول إيـذاءٌ لله، لأنّه مبعوث من قِبَله، ويَحْمِلُ لَهُمْ مـا أوحىٰ الله بـه إليـه، وكـان عليهم أن يَسْتَجِيبوا له ويُعَزِّروه ويُوقِّروه ويَنْصُروه، لا أنْ يكفروا به ويُؤْذُوه.

فـالمؤمن مُطالب في الردّ على المنافقين الـذين يؤذون النبيّ بأن ينـذرهم أخيراً بعذاب الله الأليم، مُعلّلاً بأنّ النبيّ هـو رسول الله، والله لا يتـرُكُ رسولَـهُ يُؤْذَىٰ دون أن يُعاقِب الذين يؤذونه بعذابٍ أليم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

سبق في عـدّة نصوصٍ بيـان أنّ المنافقين يلجؤون إلى ستر قبـائحهم، وأنـواع سلوكهم الـدّالة على نِفـاقهم، بـأن يحلفـوا بـالله أيمـانـاً كـاذبـة، ليصـدّقهم الـرسـول وليصـدّقهم المؤمنـون، على اعتبـار أنّ الأصـل في المسلم أن لا يَحْلِفَ بـالله كـاذبـاً، وما دامت البيّنة التي تُثْبِت جريمتهم لم تَصِل إلى مستوى إدانتهم إدانةً شـرعيّة، فـإنّهم يجـدون أنّ أيمـانهم الكـاذبـة تَـدْرأُ عَنْهُمُ العقـوبـة على يـد الـرسـول، أو على أيـدي المؤمنين.

ولمّا كان المنافقون يتّخذون وسيلة حلف الأيمان الكـاذبة مـع كلّ نـوع من أنواع سلوكهم الـدالّ على نفاقهم، اقتضىٰ فضـح حالهم تكـرير بيـان أنّهم يحلفـون الأيمـان

الكاذبة لسَتْرِ نفاقهم، عند المناسبات الداعيات لذلك، مع إضافات تعليليّة أو توجيهيّة أو تحذيرية، ليُعْطِيَ التكرير فائدة التأكيد مع التمهيد لإضافة البيان الجديد.

وفي مناسبة بيان إيذاء بعضهم للنبيّ ﷺ أذْبات تزعج الرسول وتغضب المؤمنين، الأمر الذي قد يدفع بعض المؤمنين للانتقام منهم، أبان الله عزّ وجلّ أنّ الذين تبدُرُ منهم بادرات الأذىٰ للرسول، بمقتضىٰ ما يضمرونه من كفر وعداء، يسارعون للتخلّص من تَبِعةِ ما بَدَر مِنْهُمْ بأنْ يجْحَدُوا ما نُقِل عنهم، ويُنْكروه إنكاراً كلّيّاً، وبأن يؤكّدُوا إنكارهم له بحلف الأيمان الكاذبة، فيحلفون بالله على أنّهم بُرَءاءُ ممّا نُسِبَ إليهم، من أقوال أو أفعالٍ آذَوْا بها رسول الله، فخاطب الله المؤمنين بقوله:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾:

أي: يحْلفون باللّهِ لِيُطْفِئُوا حرارة الغضب الذي توهّج في قلوبكم ضدّهم، فيُرْضُوكم بالأيمان الكاذبة، فتسكُنَ ثائرتكُمْ، فلا تنتقموا منهم.

وقد جاء في كثير من الأخبار أنّ الرّسول كان إذا تعرّض لأذىً من أحدٍ من الناس، ثار بعض أصحابه كعمر بن الخطاب غاضباً، وقال: دعني يا رسول الله أضرِبْ عنقه، فيأبى رسول الله ﷺ، ويأخذ الرجل بالحلم والصفح، وبالإكرام والعطاء أحياناً، وربّما صلح حال الرجل، وصار بعد ذلك من فُضلاء المسلمين.

بعد بيان هذا من سلوك المنافقين وجّه الله عزّ وجل موعظة عامّة، يستفيد منها من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾.

أي: وإن كانوا مؤمنين حقّاً عَلِمُوا بأنّ الله أحقُّ بأن يُرضُوه من محاولتهم إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة ليدفعوا عن أنفسهم النقمة، وعَلِمُوا بأنّ الرسول أحق بأن يُرضوه كذلك، وإرضاء الله ورسوله يكون بالحذر الشديد من أذى الرسول الذي يعرّضون أنفسهم بسببه لعذاب أليم، من قِبَلِ الرَّبِّ العزيز العليم.

وإذا أدركوا هذه الحقيقة وآمَنُوا بها أَرْضَوُا الله ورسوله، باجتناب ما يسخطهما من أذىً وغيره.

فمعنى العبارة باختصار: وإنْ كانوا مؤمنين وجَّهوا همَّهُمُ الأكبر لإرضاء الله ورسوله، فالله أحَقُّ بأن يُرضوه، ورسوله أحقُّ بأن يرضوه، لِيَدْرَؤوا عن أنفسهم العقاب الشديد، فهو عقابٌ لا تحمي منه الأيمان الكاذبة، بل تزيد منه لأنها هي أيضاً تستوجب عقاباً.

وإذا تركنا الصناعة النحويّة، ونظرنا إلى معنى الجملة، وجدنا أنّ جواب الشرط الذي في: ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قد جاء سابقاً له، وقد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أي: إن كانوا مؤمنين أرضوا الله ورسوله، فالله ورسولُه أحقّ أن يُرْضوهما، من إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة. ويقول النحاة البصريون: إنّ جواب الشرط في مثل هذا محذوف دلّ عليه ما قبله.

أمّا إفراد الضمير في ﴿يُرْضوه﴾ مع أنّ المراد يُرضوهما، فهو على تقدير: واللّهُ أحَقُّ أن يُرضوه، ورسولُهُ أحقُّ أنْ يرضوه، والغرض الدلالة على أنّ كُلّاً منهما أحَقّ بأن يرضوه من محاولتهم إرضاء المؤمنين بالحلف الكاذب، وعليه يكون الكلام من قبيل عطف الجمل، فتأخذ كلُّ جملة حقها من الدلالة المستقلة.

ولبيان كون الله ورسوله أحقّ بالإرضاء من محاولة إرضاء الناس قالَ الله تعالى بشأن المنافقين:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿مَن يُحَادِدِ اللَّهَ﴾:

الْمُحادَّةُ هيَ التَّصدّي للمقاومة والمحاربة، وذلك بملازمة أحد الفريقين حدّاً مقابلاً أو مناقضاً أو معارضاً للحدّ الذي عليه الفريق الآخر، على سبيل العداء والمخالفة والمضادّة، وهي مشتقّةٌ من الحدّ الذي يوضع على طرف الأرض لفصلها عن غيرها، ولمّا كان كلُّ فريق من المتعادِيَيْن يتّخذ لنفسه حدّاً مضادّاً لحدّ الفريق الآخر سميت حالة التقابل العدائي بينهما أو من أحدهما مُحَادّة، وتظهر المحادّة بممارسة بعض الأعمال الكيدية.

والمحادّة كالمشاقّة، إذْ كلُّ فريقٍ من المتعاديَيْن يتّخذ لنفسه شِقّاً من الأرض مضاداً لشقّ عدوّه.

في هذه الآية يخاطب الله عزّ وجلّ المؤمنين متحدثاً عن المنافقين بما سبق أن أعلمهم به بشأن الذين يحادّون الله ورسوله، وذلك فيما أنزله سابقاً في سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) فقد جاء فيها قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

وجاء فيها قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

وجاء فيها قوله تعالى بشأن المنافقين الذين يحادّون الله ورسوله:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وقد سبق تدبُّر هذه النصوص في النّصين (٢٧) و(٢٨) من هذه الدراسة عن المنافقين.

ولمّا كان إنزالُ هذه النصوص فيما سبق إعلاماً تعليميّاً، وكان المنافقون متظاهرين بأنَّهُمْ مسلمون مؤمنون، كان من المفروض أنّهم قد علموا مضمونها، فكان من المناسبِ أن يُقالَ بشأنهم:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا . . . ﴿٦٣﴾﴾.

أي: فجزاؤه أنَّ له نار جهنم حالة كونه خالداً فيها. والضمير في ﴿أنه﴾ ضمير الشأن الخطير العظيم، والاستفهام هنا استفهام تقريرٍ وتقريعٍ وإدانة، أي: قد علموا

ذلك فَلْيُعِدُّوا أنفسهم لتحمُّل العذاب في نار جهنّم خالدين فيها، ما لم يَتُوبُوا إلى الله، ويُؤْمِنُوا، ويُقْلِعُوا عن محادّة اللّهِ ورسوله، ويتخلَّصُوا من خسّة النّفاق، ودَرْكِه اللّئيم ذي العاقبة الوخيمة.

وبعد تذكيرهم بما سبق أن عَلِمُوهُ من عذاب في نار جهنم مَعَ الخلود فيها، لمن يحادِدُ الله ورسوله، أبان الله تعالى أنّ من يصير أمره يوم القيامة إلى هذا العذاب يكون يومئذٍ في خزي عظيم، فقال تعالى مشيراً إلى العذاب المذكور باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد:

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٣﴾:

أي: ذلك العذاب في قَعْرِ جهنّم البعيدِ مع الخلود فيها هو الْخِزْيُ العظيم. أو ذلك الحكْمُ عليهم يوم الدين باستحقاق العذاب المذكور هو الْخِزْيُ العظيم.

الخِزْيُ: الوقوعُ في الشرّ والعذاب، والذُّلُّ والْهوان، والافْتِضَاحُ بالقبائح والسيئات والآثام المكتومة المورثة للخجل الشديد منها، والاستحياء ممّا نزل من ذل وَهوانٍ وعذابٍ بحقّ.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ۝٦٤ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ
وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ
إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ۝٦٦﴾.

القراءات:

* قرأ جمهورُ القرّاء العشرة: [أَنْ تُنَزَّلَ] بالبناء للمجهول مع تشديد الزاي.

وقرأ ابْنُ كثير وأبو عَمْرو ويعقوب: [أَنْ تُنْزِلَ] بالبناء للمعلوم مع تخفيف الزاي.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، فإذا نَزَّلَ اللَّهُ السورة الّتي يحذَرُ المنافقون من تَنْزيلها، نتجَ عَنْهُ نُزُولُها الذي هو أثر التنزيل.

* قرأ جمهور القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكسر هاء الضمير.

وقرأ حمزة ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ هاء الضمير.

والقراءتان وجهان عربيان لنُطْقِ الكلمة.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة [اسْتَهْزِءُوا ـ تَسْتَهْزِءُونَ] بكسر الزاي فيهما وإثبات الهمزة المضمومة.

وقرأ أبو جعفر [اسْتَهْزُوا ـ تَسْتَهْزُونَ] بضمّ الزاي فيهما وحذف الهمزة في الوصل والوقف. وهو وجه لحمزة عند الوقف فقط.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق هذا الفعل.

* قرأ عاصم فقط [إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً] بنون المتكلّم العظيم في: [نَعْفُ] و[نُعَذِّبْ] مع البناء للفاعل ونصب [طائِفَةً].

وقرأ جمهورُ القراء العشرة [إِنْ يُعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذَّبْ طَائِفَةٌ] بالياء مع البناء للمجهول في [يُعْفَ] وبالتاء مع البناء للمجهول في [تُعَذَّبْ] ورفع [طائفةٌ] على أنّ اللفظ نائب فاعل.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني وتكامُلٌ فكريٌّ، فقراءة عاصم يتحدّث الله فيها عن نفسه بنون العظمة، وقراءة جمهور القرّاء يتحدّث الله فيها ببناء الفعلين لما لم يُسَمَّ فاعله، لتشمل القراءة في دلالتها ما يحتمل أن يَصْدُرَ من الرسول أو من المؤمنين من عفوٍ وتعذيبٍ للمنافقين.

* * *

التدبُّر

جاء في النصّ الثاني من هذه الدراسة عن المنافقين، وهو ما جاء في الآيات من (٨ ــ ٢٠) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بيان أنّهم إذا لقُوا الذين آمنوا قالوا: آمنّا، وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا: إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون.

وكان هذا في أوائل المرحلة المدنية، وأوائل ظهور النفاق في المسلمين، واستمرّ المنافقون الذين لم يهلكوا ولم يتوبوا من نفاقهم بإيمانٍ صحيح صادق، على حالهم إبطاناً للكفر، وتظاهراً بالإسلام على سبيل الاستهزاء بالمؤمنين.

ولمّا صارت الآيات القرآنية تنزل مع مراحل التنزيل فاضحة صفاتهم، ومتحدّثة عن تصرّفاتهم الدّالّة على نفاقهم، ومحذّرة لهم، ومُنْذِرة بإنزال النقمة بهم، صاروا يحذرون أن تنزل على رؤوسهم مصيبةُ سُورةٍ كاشفةٍ أشخاصَهُمْ بالأوصاف المعينة، أشَدُّ من سورة (المنافقون) وأن تخاطبهم هذه السورة بصورة مباشرة، فتنبّئهم بكلّ ما في قلوبهم من كُفْر وكيدٍ ومكرٍ وعداوةٍ للرّسول والمؤمنين، وأنْ تُحاصرهم بالأوصاف التّعيينية التي تُوضّح أشخاصهم، وعندئذٍ يقعون تحت طائلة المساءلة والمحاسبة والانتقام، من قِبَلِ الرسول والمؤمنين.

وقد كشف الله حالة حذرهم المتجدّد في نفوسهم، والمثير فيهم القلَق والاضطراب وعدم الشعور بالأمن، بقوله:

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾:

أي: تواجِهُهُمْ بالخطاب، وتُنَبِّئُهم بما في قلوبهم من كُفرٍ وكَيْدٍ ومَكْرٍ وعداوةٍ للرسول والمؤمنين، وتكشف أنّهم في استمرار تظاهرهم بالإسلام ما زالوا يستهزئون، فهم على حالهم منذ بدؤوا رحلتهم مع النفاق، كافرون باطناً ويعلنون إسلامهم استهزاءً، ويعاملون الرسول والمؤمنين معاملة المستهزئين بالدّين، والمستهزئين بأشخاص الذين يتعاملون معهم من أهل الإيمان، على اعتبار أن حِيَلَهُمُ الخداعية منطليَةٌ عليهم، إذْ هُمْ سُفَهاءُ ناقصو الذّكاء، لا يستطيعون كشف أعدائهم المخالطين لهم، والمتظاهرين لهم بالولاء.

وحين تنزل مثل هذه السورة التي يتخوّف المنافقون من نزولها إلى الرسول ﷺ وفيها مواجهة للمنافقين بإنبائهم بما في قلوبهم من كفر وكيد ومكرٍ وعداوة، فإنّها تَنْزِلُ نِقْمةً عليهم، بوساطة تبليغ الرسول ﷺ.

وقد جاء في القرآن التعبير بإنزال الكتب الرّبّانيّة إلى الناس، وإنزالُها على الناس في عدّة نصوص، مُلاحَظاً في هذا الإنزال تبليغُ الرسول لهم، مثل:

(١) قول الله تعالى بشأن اليهود في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ... ﴿٩١﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (البقرة) أيضاً خطاباً للمسلمين:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ بشأن اليهود والنصارى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

ونُلاحظُ أنّه عُدّي فعل الإنزال بحرف الجرّ «على» في قوله تعالى:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

لما في إنزال مثل هذه السورة التي يحذرونها من نقمة نازلةٍ عليهم بسببها.

وقد يلاحظ في النصوص التي عُدّيَ فيها الإنزال بحرف الجرّ «على» ما في النصوص المنزّلة من تكاليف أَلْزَم بها الرّبُّ العليّ الأعلى.

وأكثر النصوص قد عُدّيَ فيها الإنزال بحرف الجرّ «إلى» إشارةً إلى ما في المنزَّلِ من خير عظيم يهديه اللَّهُ لعباده.

وبعد كشف هذا الحذر الذي يتجدّد في نفوس المنافقين حتّى عُمّيَ قلوبهم كلّما نزلت آياتٌ تكشف بعض صفاتهم دون تعيين أشخاصهم لعامّة المؤمنين، علّم الله عزّ وجلّ رسوله وكلّ مؤمنٍ معه أن يقول لهم مضمون ما جاء في قوله تعالى:

﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: قل لهم بأسلوب التوجيه العام لا بأسلوب الخطاب الإفرادي: استهزئوا بالله والرسول والمؤمنين بتظاهركم بالإسلام مخادعة وكذباً كما يَحْلُو لكم، فإنّ الأَمْرَ لن يطول بكم كثيراً، فقد أخبرنا ربُّنا بأنّه مُخْرِجٌ من بواطنكم إلى ظواهركم ما تَحْذَرُونَ أن يظهر وينكشف للرسول وللمؤمنين.

وجاء التعبير باسم الفاعل «مخرج» الذي يُسْتَعْمَل في الحال بحسب الأصل، للدلالة على أنّ عمليات إخراج ما في صدورهم بالبيان القرآني، أو بالامتحانات القاسية، كالامتحان في غزوة تبوك، عمليّاتٌ قد بدأت فِعلاً.

وما يحذرونه هو كَشْفُ هُوِّيّاتهم المشيرةِ بالتعيين إلى أشخاصهم.

وقد كشفت أحداث غزوة تبوك عدداً من أفرادهم بالتعيين، فمنهم من كشفهم الرسول ﷺ بما نزل عليه من وحْيٍ بشأنهم، ووضعهم موضع المساءلة للإدانة، ومنهم من كشفهم بعض المسلمين وأخبر الرسول بمقالاتهم.

وخاطب الله رسوله بقوله:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾:

أي: ولَئِنْ وَضعتهم موضع المساءلة في مجلس محاكمة عن أقوالهم التي يقولونها فيما بينهم من أقوال تدلُّ على كفرهم واستهزائهم، وأثْبتُّ عليهم أنّهم قالوها باعترافهم أو بالبيّنة، لَيَقُولُنَّ: إنّما كُنّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، اي: لم نكن جادّين فيما قُلْنا، وإنّما كان ذلك منّا على سبيل الْمُزاح والمداعبة واللّعب بالأقوال والخوضِ فيما لا يُرادُ منه معناه، بقصد الترويح عن النفس، وعبارتهم فيها قصر.

وهذا دفاعٌ اعتذاريٌّ منهم، بأنّهم لم يقصدوا مضمون ما قالوا، وإنما كانوا يخوضون ويلعبون في الأقوال على سبيل الْمُزاح.

ومن وقائع هذه الظاهرة من ظواهر المنافقين السلوكية ما يلي:

* جاء في السيرة عند ابن إسحاق قوله:

وقد كان رهطٌ من المنافقين، منهم وديعة بْنُ ثابت، أخو بني عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ،

ومنهم رجلٌ من أشجع، حليفٌ لبني سَلمة، يُقَالُ لَهُ مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّرٍ[1]، يُشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو مُنْطَلِقٌ إلى تبوك، فقال بعضُهُمْ لبعْضٍ: أَتَحْسَبُونَ جِلادَ بَنِي الأَصْفَرِ (أي: الروم) كقتالِ العرب بعضهم بعضاً، واللهِ لَكَأَنَّا بِكُمْ غداً مُقَرَّنِينَ في الْحِبَالِ، إرْجافاً وَتَرْهيباً للمؤمنين.

فقال مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّر، واللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقاضَىٰ عَلَىٰ أَنْ يُضْرَبَ كُلُّ رجلٍ مِنَّا مِئَةَ جَلْدَةٍ، وَإِنَّا نَنْفَلِتُ أَنْ يَنْزِلَ فينا قُرْآنٌ لِمَقَالَتِكُمْ هذه.

وقال رسول الله ﷺ لعمَّار بْنِ ياسِرٍ: أَدْرِكِ القومَ فإنَّهُمْ قَدِ احْتَرَقُوا[2]، فَسَلْهُمْ عمَّا قالُوا، فإنْ أنكَرُوا فقُلْ: بلىٰ، قُلْتُمْ كذا وكذا.

فانطلَق إليْهِمْ عمَّار، فقال لهم، فأتَوْا رسُولَ اللهِ يَعْتَذِرُونَ إليه، فقال وديعةُ بْنُ ثابت، ورسول الله واقفٌ على ناقتِه، فَجَعَلَ يَقُولُ وهو آخِذٌ بِحَقَبِهَا (وهو حَبْلٌ يُشَدُّ على بَطْنِ البعير غير الحزام الذي يُشَدُّ به الرَّحْلُ) يا رَسُولَ الله، إنَّما كُنَّا نخوض ونلعب.

* وروي عن عبد الله بن عمر قال: قال رجُلٌ في غزوة تبوك في مجلسٍ: ما رأيتُ مثل قرّائنا هؤلاء، أَرْغَبَ بُطوناً، ولا أكْذَبَ ألْسُناً، ولا أجْبَنَ عِنْدَ اللِّقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنّك منافق، لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ.

وقد علّم الله رسوله كيف يستكمل محاكمة المنافقين على مقالاتهم واعتذارهم بأنهم إنّما كانوا يخوضون ويلعبون، أي: يخوضون في الكلام ويلعبون، كما يخوض اللّاعبون في نهر أو بركة من الماء بقصد الترويح عن النفس، فقال تعالى:

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ....﴾.

---

(١) قال ابن هشام ويُقال: مَخْشِيّ.

(٢) احترقوا: أي: هلكوا بسبب المقالة التي قالوها فيما بينهم.

اشتمل هذا التعليم على بقية عناصر مجلس محاكمتهم بعد إثبات ما قالوا باعترافهم أو بالبيّنة، وبعد اعتذارهم بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون.

أولاً: رفض الاعتذار وإثبات أنّ ما كان منهم هو من قبيل الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

ثانياً: توبيخُهم وتقريعُهم على استهزائهم بالله وآياته ورسوله وهم يدّعون أنهم مسلمون.

دلّ عليهما قول الله في التعليم.

﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ؟!﴾:

أي: إنّ الخوضَ واللّعِبَ في القضايا الجادّة التي تتعلّق بأمور الدين، سواءٌ أكانت من العقائد، أو العبادات، أو الأخلاق، أو الجهاد في سبيل الله، أو سياسة الدولة الإسلاميّة، أو غير ذلك، من الاستهانة والاستهزاء باللّهِ وآياته المنزّلات بالوصايا والأحكام، وبرَسُوله المبعوثِ لتبليغ دينه، ودعوة الناس إلى سبيله، وقيادة من آمن به، وتوجيههم لمجاهدة من أبىٰ وكفر حتى تكون كلمة الله هي العليا.

فمن سخر بعَمَلٍ ما يُقْصَدُ منه تحقيقُ مطلوبٍ ما من مطالب الدّين في أيّ أمرٍ من أموره فهو في الحقيقة يسخَرُ ويستهزىء بالله وآياته ورسوله.

لذلك فهو يُقاضىٰ على عمله الذي يتنافى مع مقتضى ولائه للإسلام الذي أعلنه، ولجماعة المسلمين الذين انتمىٰ إليهم، ويُوبَّخُ ويُقرَّعُ ويُدَانُ بجريمته.

وعبارة:

﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ؟!﴾:

فيها تقديم المعمول على عامله للإشعار بشناعة الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، أو للدلالة على القصر، أي: ما حلا لكم أن تستهزئوا إلّا بالله وآياته ورسوله.

ثالثاً: إيقاف محاولتهم الدفاع عن أنفسهم بتلفيق المعاذير، دلّ على هذا قول الله تعالى في التعليم:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾:

أي: قـد انكشف أمركم، وظهـر جُـرْمُكم، فـلا تُتعِبُـوا أنفسكم وتُتعبـوا من يحاكمكم بأن تنتحلوا الأعـذار الكاذبـة، لتخلّصوا أنفسَكُمْ من جـريمة المقـالات التي تدينكم بالكُفـر، بعد أن كنتم أعلنتم مقـالات إسلاميـة جعلتكم بحسب الظاهـر ضمن أهل الإسلام والإيمان.

رابعاً: إصدار الحكم عليهم بالرِّدَة، أي: بالكفر بعد الإيمان.

دلّ على هذا قول الله تعالى في التعليم:

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقـد دلّ هذا على أن الاستهـزاء بالله وآيـاته ورسـوله من التصرّفات التي تـدين بالكفر.

وبعد الحكم عليهم بالكفر يكونون بين حالتين:

* إمّا أن يتوبُوا، ويتخلّصوا من النفاق، ويَصْلُحَ حالُهم ظاهراً وباطناً.

* وإمّا أن يُصِرُّوا على كفرهم ونفاقهم.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ المنافقين بعد أن تتواتر عليهم أدلة صدق الرسول، وأنّ الإسـلام حقّ، ولا سيما حينمـا يَكْشِفُ الرسـول من أمرهم بمـا ينزل عليـه من الوحي، ما لم يَطّلِعْ عليه أحدٌ من الناس غَيْرُهُمْ، يكونُون طائفتين:

* طائفة تتوب إلى الله، وتؤمن إيماناً صادقاً، فيعفو الله عنها، ما دامت على قيد الحياة ولم ينزل بها عقاب الله.

وتَصْدُق الطائفة بواحدٍ فأكثر.

* وطائفة يُصِـرُّون على كفرهم ونفـاقهم، فيعذّبُهم الله يـوم الدين، بسبب أنهم كانوا في الدنيا مجرمين.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: إنْ نَعْفُ عن طائفة منكم تُرْجَىٰ توبتُهُمْ نُعَذِّبْ طائفةً أخْرَى لا ترجىٰ توبتهم لأنهم مَرَدُوا على الكفر والنفاق، وتعذيبهم يكون بسبب أنّهم كانوا في الدنيا مجرمين، أي: كافرين منافقين.

وفي هذا البيان إلماح إلى أنّ المنافقين يُسْتَتَابون بعد إدانتهم بما يُثْبِتُ ردّتهم، فمن تاب عُفِيَ عنه، وَوُضِعَ مَوْضِعَ المراقبة، ومن لم يُعْلِنْ توبته أُدِينَ بالرِّدّة، وعُوقِبَ عقاب المرتدين.

وقد روي أنّ أحد الذين قالوا: إنّما كنا نخوض ونلعبُ قد تاب وتخلّص من النفاق، وهو «مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّر ـ أو اسْمُهُ مَخْشِيّ» وقد غيّر اسْمَهُ وجعل اسْمَهُ عبد الرحمن، وسأل الله أن يُقْتَل شهيداً لاَ يُعْلَمُ بمكانه، فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر.

قال عكرمة في تفسير هذه الآية، كان رجُلٌ مِمَّنْ إنْ شاء اللَّهُ عفا عنه يقول: اللَّهُمَّ إنّي أسمع آيةً أَنا أُعْنَى بها، تقشعرُ مِنْها الْجلُودُ، وتجلُ مِنْهَا الْقُلُوبُ، اللَّهمَّ فاجعل وفاتي قَتْلاً في سبيلك، لا يقول أحدٌ أنا غَسَّلْتُ، أنا كفّنْتُ، أنا دَفَنْتُ.

قال: فأصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلاّ وَقَدْ وُجِدَ غَيْرُهُ.

قال ابن إسحاق: وكأنّ الذي عُفِيَ عنْهُ في هذه الآية مُخَشِّنُ بْنُ حُمَيِّر، فتسمّى عبد الرحمٰن، وسأل الله تعالى أن يقْتُلَهُ شهيداً لاَ يُعْلَمُ بمكانه، فقُتِلَ يومَ اليمامة، فلم يُوجَدْ له أثر.

الجُرْمِ والجريمة: التعدّي، والذنب الكبير. وقد أُطلق لفظ «المجرمين» في القرآن مقابلاً للمسلمين، ووصفاً للمعذّبين في النار.

فيظهر أنّ المراد منهم في الاصطلاح القرآني مرتكبو الآثام من مستوى دركة الكفر، لذلك فهم من أهل النار.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟
أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا
ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

إنّ تشابُهَ الظواهر السلوكيّة يَدُلُّ على تشابُه الصفات النفسيّة، وهو الأمر الذي يجعل المتشابهين جنساً واحداً، أو نوعاً واحداً أو صنفاً واحداً متميّزاً من سائر أصناف النّاس، فبعضهم من جنس بعضهم الآخر، أو من نوعه أو من صنفه.

هذا ما دلّ عليه قول الله تعالى يُميّز صنف المنافقين من سائر أصناف الناس:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾:

أي: هم ذكورُهم وإناثهم صنف متميّز من سائر أصناف الناس، وإذا تركنا مصطلح علماء المنطق قُلْنا: بَعْضُهُمْ بن جنْس بَعْضِهِم الآخر، إذْ هم متشابهون في ظواهرهم السلوكية، وفي صفاتهم النفسية، فإذا نظرت إلىٰ بعضٍ منهم فرداً أو جماعة وجَدْتَهُ من جنْسِ بعضٍ آخر منهم، للتشابه الشديد بين أفراد المنافقين والمنافقات، والضمير في [بعضهم] يعود على المنافقين والمنافقات جميعاً، واستُخْدِمَ ضميرُ الذكور من باب التغليب.

والدليل على أنهم جنْسٌ مُتميّزٌ تَشابُهُ أفرادِهم في ظواهرهم السلوكيّة، وفي صفاتهم النفسيّة.

* فمن ظواهرهم السلوكيّة ظاهرتان:

الظاهرة الأولى: أنّهم يأْمُرونَ بالمنكر وينهون عن المعروف، وقد دلّ على هذه الظاهرة قوله تعالى:

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾:

أي: يأمرون بما نهىٰ الدّينُ عنه، وينْهَوْنَ عمّا أمَرَ الدّين به، على نقيض ما هو

مطلوبٌ منهم، بمقتضى انتمائهم إلى الإسلام وجماعة المسلمين، فالمؤمنون يأمُرونَ بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر، أمّا المنافقون فعلى النقيض من ذلك.

الْمَعْرُوف: بعد نزول الوصايا الرّبّانية والشرائع والأحكام الدينية، هو ما جاء في الدين الأمْرُ به إلزاماً أو ترغيباً، وكلّ ما أمر به الدّين هو خيرٌ، وكلّ ما هو خيرٌ للناس فقد أمر به الدين إلزاماً أو ترغيباً.

والمنكر: بعد نزول الوصايا الرّبّانية والشرائع والأحكام الدينية، هو ما جاء في الدين النهي عنه، إلزاماً أو ترغيباً، وكلّ ما نهى الدين عنه فهو لا خير فيه، أو ما فيه من شرٌّ وضُرٌّ أكثر ممّا فيه من خير ونفع، وكلّ ما شرُّهُ أو ضُرُّهُ أكثر من نفعه فقد نهى عنه الدين إلزاماً أو ترغيباً.

الظاهرة الثانية: أَنَّهُمْ بُخَلاءُ شحيحون، وقد دلّ على هذا الخُلُق من أخلاقهم أنّهم يقبضُونَ أَيْدِيَهُمْ عن الإنفاق في سبيل الله وفي وجوه الخير بوجه عام، كما قال تعالى:

﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾.

أصل قبض اليد يدلّ على ضمّ أصابعها على بطن الكف، واستعمل قبض اليد كناية عن البخل والشح، لأنّ البخيل بالعطاء يقبض أصابعه على بطن كفّه، ولا يبسُطها.

* ومن صفاتهم النفسية أَنَّهُمْ نَسُوا الله، أي: تركوا العمل بكلّ ما جاء عن الله في كتابه، وعلى لسان رسوله.

دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾:

أي: تركوا العمل بما أمر الله بالعمل به وأهملوه، حتى لم يَبْقَ له في ذاكرتهم وجود، فتركهم الله لأنفسهم ولم يَعْتَنِ بهم، ولم يمدّهم بالتوفيق والمعونة.

أصل النسيان في اللّغة: هو التّركُ، والتركُ ينشأ عن الاستهانة بالشيء والإهمال له، والإنسان متى ترك شيئاً زمناً طويلاً ذهب من ذاكرته، فلم يبق له فيها وجُود، وهذا

هو النسيان المشهور. لكنّ الله عزّ وجلّ لا يضلّ ولا ينْسَىٰ وفق هذا المعنى للنسيان، فبقي أنّ المراد التّركُ، وفق أصل المعنى اللّغويّ للنسيان.

ولا دَاعي لفهم النسيان بالنسبة إلى الله على معنى الغياب عن دائرة التذكّر الحاضر، وحملِ الاستعمال على المشاكلة التي يذكرها علماء البلاغة، ما دام أصل المعنى اللّغوي صحيحاً ولا يحتاج إلى تأويل.

* ولهم صفات أخرى كثيرة في ظواهرهم السلوكية، وفي صفاتهم النفسيّة، يجمعها عنوان عامٌ هو أنّهم فاسقون.

دلّ على هذه الكليّة الجامعةِ لكلّ صفاتهم السلوكية الظاهرة والباطنة، قولُ الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾:

الفسق: هو العصيان، والخروج عن طريق الهدى والدين القويم، والخروج عن طاعة الله، وهو استعمال إسلامي، وأصل الفسق في اللّغة خروج الرطبة من قشرتها، فالعرب تقول: إذا خرجت الرُّطَبَةُ مِنْ قِشْرَتها: فَسَقَتْ الرُّطَبَةُ، ومعلومٌ أنّه متى خرجت الرُّطَبَةُ من قشرتها تعرّضت للفساد بسرعة، وكذلك الفاسق من الناس.

وجاء تعريف طرفي الإسناد في [هُمُ الفاسِقُونَ] للدّلالة على أنّ المنافقين هم المستوفون في أنواع سلوكهم كلّ عناصر الفسق، حتى كأنّهم هم المنفردون باستيعاب كمال حقيقة الفسق.

وبعد أن ميّز الله عزّ وجلّ صنف المنافقين من سائر أصناف الناس، أبان عقوبتهم التي وعدهم بها هم وسائر الكفار، فقال تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

يُستعمل فعل «وَعَدَ» في الخير والشر، وكذلك فعل «أوعد» يقال وَعَدَهُ وأوعده خيراً أو شرًا. فإذا لم يُذكَرِ الْمَوْعُودُ كانَ فعل «وَعَدَ» في الخير، وفعل «أوعد» في الشرّ، على رأي الأزهري.

ويُعَدّيان إلى المفعول به الثاني دون حرف فيقال: وَعَدَهُ كذا وأوعده كذا، ويُعَدّيان إلى المفعول به الثاني بالباء، فيقال: وعده وأوعده بكذا.

دلّت هذه الآية على أن العقوبة المقرّرة للمنافقين والمنافقات والكافرين والكافرات تشتمل على ثلاثة أشياء:

الأول: أن يدخلوا نار جهنّم خالدين فيها يوم الدين، لا يخرجون منها.

الثاني: طردُهم من رحمة الله، وإبعادهم عن مجالات تنزّلاتها.

الثالث: أن عذابهم في نار جهنم عذابٌ مقيمٌ لا يتحوّلُ ولا يَفْتُر ولا يَسْكُنُ. كما قال تعالى في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿مُبْلِسُونَ﴾:

أي: ساكتون، بائسون، نادمون.

﴿جَهَنَّمَ﴾:

اسم علم من أسماء دار العذاب التي أعدّها الله ليعذّب فيها الكافرين والعصاة يوم الدين، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث.

ويقال للقعر البعيد في اللّغة: جهنّم، وبئرٌ جهنّم، أي: بعيدة القعر.

واستُعْمِل هنا لفظ جهنم اسماً للمكان، لذلك أضيف إليه لفظ [نَار] على معنى ما في المكان من أجرامٍ مشتعلة ولَهَب.

ومعنى وعَدَهُمْ نَارَ جهنّم: وعَدَهُمْ دُخُولَ نَارِ جهنّم.

﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾:

أي: هي تكفيهم بما فيها من عذابٍ لا يحتاج مزيداً.

﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

أي: وطردهم من مواطن تنزّلات رحماته، وأبعدهم عنه.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ :

أي : لا يقتصر عذابهم في جهنم على عذاب يأتيهم فيها حيناً بعد حين، تتخلّله فتراتُ راحة وسكون، بل لهم فيها عذاب مقيم دائم، لا يتحوّل عنهم، ولا يفترُ ولا يسكن.

بعد هذا أبان الله عزّ وجلّ أنّ المنافقين والكفّار بعد بعثة محمّد ﷺ حالُهم كحال الكافرين والمنافقين الذين كانوا من قبلهم من أهل القرون الأولى، فقال تعالى :

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ :

الْخَلاقُ الحظُّ والنَّصيبُ من الأمور المحبوبة المرغوبة للنفوس.

﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾ :

الاستمتاعُ هو الانتفاع بالشيء مدّة طويلة من الزمن ولكن لا بُدّ أن يأتي على المستَمْتَعِ به الفناء والزوال.

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ :

أَصْلُ الخوضِ المشيُ في الماء وتحريكُهُ، وإثارةُ ما في أرض النهر من طينٍ يُعَكِّر صَفَاءَ الماء، ثمّ اسْتُعْمِل في التَّلبُّسِ بالأمْرِ والتَصَرُّف فيه.

ومن التوسُّعِ استعمالُ الْخَوْض بمعنى اللُّبْسِ في الأمر للتضليل، والخوض في الكلام اللَّبْسُ فيه، بإدخال الباطل والكذب فيه ضمن الحق.

وأُطْلِقَ الْخَوْضُ في مال الله بمعنى التصرّف فيه بما لا يرضاه الله، وأُطْلِقَ الخوضُ بمعنى الطعْنِ والكُفْر والاستهزاء بآيات الله.

والمراد اللعب واللّهو في دين الله للناس، وعدم أخذه بجدّ، رغم أنّ عواقب المخالفة وخيمة.

الّذي: موصول حرفي يؤوّل هو وما بعده بمصدر، والتقدير: وخضتم كخوضهم، هذا على مذهب الفرّاء ويونس، وهو واضح وله شواهد عربية.

وموصول اسميّ على رأي الآخرين، والتقدير: وخضتم خوضاً كالخوضِ الذي خاضوه.

* * *

التدبُّر

كما أبان الله عزّ وجلّ التشابه بين أفراد المنافقين الأمر الذي يجعلهم صنفاً مميّزاً من سائر أصناف الناس، أبان أيضاً أنّ الكافرين والمنافقين بعد بعثة محمد ﷺ يشبهون الكافرين والمنافقين السابقين من أهل القرون الأولى، في ظواهرهم السلوكية وفي أحوالهم النفسيّة، فالإنسان هو الإنسان، متى اتّخذ لنفسه مبدأ في الحياة، تشابهت تصرّفاته مع الذين اتّخذُوا مثل مبدئه، في باطنه، وفي ظاهره، فخاطب الله المنافقين والكافرين الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة بأسلوب الحديث عن الغائب، وهذا من الالتفات في أساليب الكلام، وهو هنا من الغيبة إلى الخطاب، فقال تعالىٰ لهم:

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾.

أي: أنتم أيها المنافقون والكافرون المخاطبون كالكافرين والمنافقين الذين من قبلكم من أهل القرون الأولى.

فالذين كانوا من قبلكم:

﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾:

أي: فأنتم أشباههم في هذا مع نقصٍ في قوّتكم عنهم وفي أموالكم وأولادكم، ولم تَحْمِ السابقين قوتُهُمْ وكثْرَةُ أموالهم وأولادهم، من نقمة الله، فأهلَكَهُمُ اللّهُ بسبب كفرهم وفسقهم وفجورهم وعدوانهم على رسُل ربهم.

ووجد الذين من قبلكم ما لديهم من قُوّةٍ وأموالٍ وأولادٍ فاغترّوا.

﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾:

أي: فاستمتعُوا مُـدَّةً من الزَّمنِ بنصيبهم المقـدَّرِ لهم من متاع الحياة الدنيا في رحلة امتحانهم فيها.

ووجدتم أنتم ما لديكم من قوّةٍ وأموالٍ وأولادٍ فاغْتَرَرْتُمْ.

﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾:

أي: فاسْتَمْتَعْتُمْ مُدَّةً مِنَ الـزَّمنِ بنصيبكم المقدَّرِ لَكُمْ من متـاع الحياة الـدنيا في رحلة امتحانِكُمْ فيها، كما اسْتَمْتَعَ الـذين من قبلكُمْ، فأنتم عُـرْضَةٌ لأن ينـزل بكُمْ مثلُ ما نزل بهم من عذاب الله.

واستَهَنْتُم بأُمُورِ الدِّين كما استهـان الذين من قبلكُمْ، واتَّخـذتُمْ دينَ الله لكم لَهْواً وَلَعِباً.

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾:

أي: وسلكتُمْ مَسْلَكَ الـطَّعْنِ والكُفْرِ والاستهـزاء بـآيات الله، وبـدينـه لعبـاده، وبرسولـه المبعوث إليكم، كمـا فعل الـذين كفروا ونـافقوا من قبلكم من أهـل القرون الأولى بآيات الله وبدينه لعباده وبرُسُلِهِ الذين أرسلهم إليهم.

أفتريدون أن تعـرفوا كيف كـانت عاقبـة الذين كَفَـرُوا ونافقـوا من قبلكم من أهل القرون الأولى، ليكون ما جرى لهم موعظة لكُمْ؟

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

حَبِطَتْ: أي: بَطَلَتْ وذهبتْ دون أن تحقّق لَهُمْ ما يَرْجُونَ، وكلّ عَمَلٍ لا يُحقّقُ الغاية المرجوّة منه فقد حَبِط، أي: بطَلَ، فلا يُرْجَىٰ منه نفع.

إنّ أعمـال الكافـرين والمنـافقين التي عَملوهـا لتحقيق غـايـاتٍ غير الاستمتـاع

بحظوظهم المقدّرة لهم في الحياة الدنيا، ذاتُ غايتين:

الغاية الأولى: انتصارُهم على رسُلِ الله والذين آمنوا بهم واتّبعوهم بصدق، وهذه الغاية لم تتحقّق لهم، لأنّ الله نصَرَ رُسله والذين آمنوا معهم، وأهلك الكافرين والمنافقين، فأحبط أعمالهم التي كانوا قد عملوها ضدّ الرُّسل والمؤمنين، وهذا من إحباط أعمالهم في الدنيا.

الغاية الثانية: تحقيق فوائد ومنافع أخروية لهم على أعمال صالحة يعملونها، على تقدير صحّة أنباء يوم القيامة وما فيه من دينونة، أو منافع وفوائد أخروية على أعمال يتقرّبُ بها المشركون إلى شركائهم، لتُقَرِّبهم إلى الله زلْفَى، فيثيبُهُم عليها يوم الدّين.

وهذه الأعمال كُلُّها أعمال باطلة لا يقبلها الله عزّ وجلّ، فلا يكون لهم منها نفع عند الله في الآخرة، لأنّ شرط قبول الأعمال عند الله، أن تكون في طاعته، وابتغاء مرضاته، وأن لا يُشْرِكَ فيها العامل مع الله أحداً، وأنْ تكونَ أثراً من آثار الإيمان الصحيح الصادق، بكل عناصر القاعدة الإيمانية.

وهذا من إحباط أعمالهم في الآخرة.

وبهذا التحليل نَفْهَمُ معنى قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وإذ قَدْ حَبِطَتْ كُلُّ أعمالهم في الدنيا والآخرة، فقد استحقوا بعدل الله الخلود في عذاب جَهَنَّم، فكانوا بذلك أشدّ الخاسرين، لأنهم خَسِروا أنفسهم، وخَسِرُوا نجاتهم، وخَسِرُوا سعادتهم، وادخلوا أنفسهم بكسبهم في العذاب الأليم الخالد، فمن الواضح البَيِّن أن يكونُوا هُمُ الخاسِرينَ المستجمعين لكلّ عناصرِ الْخُسْران، فقال الله تعالى:

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: أولئِكَ البعداء عن رحمة الله، والبعداء في عُمْقِ جهنّم دار العذاب هُمُ الخاسرون من أهل القرون الأولى، ويُلْحقُ بهم أمثالهم من الكافرين والمنافقين بعد

بعثة محمّد ﷺ، في إحباط الأعمال، وانْطِباقِ وصف الخسران الأكبر، لأنّ سنّة الله في عباده واحدة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

* قرأ جمهور القرّاء العشرة [رُسُلُهُمْ] بضم السين.

وقرأ أبو عمرو فقط [رُسْلُهُمْ] بإسكان السين.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة، فالتسكين تخفيف يَسْتَعْمِلُه بعض العرب.

بعد أن واجه الله عزّ وجَلّ المنافقين والمنافقات وسائر الكفّار بالخطاب في الآية السابقة بقوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ عاد إلى الكلام عنهم بأسلوب الحديث عن الغائب، وفق الأسلوب الذي يسمّيه البلاغيون الالتفات، والغرض إثارة الأفكار والنفوس لتكون في حالة انتباه، مع إشعار سائر زُمَرِ الناس بأنّهم معنيُّون بالخطاب، ولو لم يكونوا من الزمرة المتحدَّث عنها، ففهم مختلف البيانات الدينيّة أمرٌ مطلوبٌ من الجميع، يضاف إلى ذلك أغراض أخرى تستفاد من الالتفات، كالإعراض عن المعرضين، أو المدبرين، واستخدام الأسلوب غير المباشر.

فقال الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾:

أي: ألم يَصِلْ إلى المنافقين والمنافقات وسائرِ الكفّار خَبَرٌ بارزٌ مُثير مخيف عن إهلاك الكفّار الذين كانوا من قَبْلِهم من أهل القرونِ الأولى.

جُعِلَ وُصُول الخبر بوساطة تبليغ المخبرين بمثابة إتيان الخبر بنفسه، فعُبِّر عن

وصوله بالإتيان، ولمّا كان خبر إهلاكهم أمراً عظيماً بارزاً مثيراً سمّاهُ الله نَبأً، فالنبأ من الأخبار ماله بروز وظهور ويهتمّ به الناس عادةً.

ونبأ إهلاك كُفّار أهل القرون الأولى قد كان متداولاً مستفيضاً عند أهل الأخبار ورُواتها، باعتبار أنّ آثار إهلاكهم في بلدانهم ما زالت باقية، وجاء أيضاً التذكير به، وتفصيل ما تستدعي الحكمة تفصيلَهُ من أحوالهم التي كانوا عليها، والتي أدّت إلى إهلاك الله لهم، فيما نزل قبل سورة (التوبة) من قرآن.

واستدعت الحكمة البيانية ذكر أسماء بعض الذين أهلكهم الله من كفّار أهل القرون الأولى، فذكر الله ستة أقوام منهم كانُوا يعيشون في الأرض التي تتحرّك ضمنها قبائل العرب من عَدَن إلى الشام وإلى العراق، وقد جاء ذكرهم في الآية على طريقة بدَلِ بعضٍ من كلٍّ، اكتفاءً بذكر معظمهم الدّالّ على المقصود من لفت الأنظار إلى مواطن العظة.

فقال الله تعالى:

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ﴾.

(١) أمّا قوم نُوحٍ فقد أهلكهم الله بالطوفان، كما هو مبين في القرآن وعند أهل الأخبار.

(٢) وأما عادٌ قومُ هود عليه السلام فقد أهلكوا بريح صَرْصَرٍ عاتية.

(٣) وأما ثمود قوم صالح عليه السلام فقد أهلكوا بالصيحة.

(٤) وأمّا قومُ إبراهيم عليه السلام فقد كانوا في العراق، وقد كان ملكهم النمرود، كان ملكاً جبّاراً ذا سلطانٍ عظيم، وقد أراد إحراق إبراهيم عليه السلام بالنار، فجعلها الله على إبراهيم برداً وسلاماً، ورُوي أنّ الله أهلك جيش النمرود بالبعوض، وأنّه عذّب النمرود ببعوضة دخلت أنفه، وأنّها سببت له أوجاعاً شديدة مستديمة في رأسه، والله أعلم كيف تمّ إهلاك كفار قوم إبراهيم عليه السلام.

(٥) وأمّا أصحاب مدين قوم شعيب عليه السلام فقد أهلكوا بالرجفة، أي: بزلزالٍ دمّر ديارهم وكان سبب إهلاكهم.

(٦) وأمّا المؤتفكات فهي قرى قوم لوطٍ عليه السلام، وقد أهلكهم الله برفع أرضهم وكفئها، أي بقلبها، وجعل أعاليها أسافلها، وبقذفها بحجارة من سجّيل مسوّمة، ولأنها ائتفكَتْ أي انْقلبت، سمّاها الله مُؤْتفِكاتٍ، بمعنى منقلبات.

واكتفى القرآن بالإشارة الضمنيّة إلى إهلاك هؤلاء الأقوام، وبعد ذلك أوجز الله سبب إهلاكهم فقال تعالى:

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

أي: أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالمعجزات البينات، والآيات المنزّلات البينات، والحجج والبراهين البينات، فلم يستجيبوا وأصرّوا على عنادهم وكفرهم ومقاومة رسُل ربّهم، فأنذرهم رُسُلهم بعذاب الله، فلم يرتدعوا، فأهلكهم الله.

فهل كان إهلاك الله لهم ظُلْماً؟!

الجواب: هذا لا يمكن أن يكون بحالٍ من الأحوال، فقال الله تعالى:

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

اللام في: ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ جاءت بعد كونٍ منفي، فهي على ما يقول علماء العربيّة لَامُ الْجُحُود، ويؤتى بهذه اللام بعد كوْنٍ منفي لتأكيد النفي بأبلغ تعبير.

ولكنّ لله في كونه قوانين وسُنَناً ثابتَةً لا تبديل لها ولا تحويل فيها، ومن هذه السنن ما يظهر في الأشياء المادّيّة، فمن أدخل يَدَهُ في النار أحرق الله بالنار يده، ومَنْ رمَى نفسه من شاهقٍ على صخرة، حطّمه الله وأهلكه بالصخرة التي رمَى نفسه عليها، ومن هذه السنن ما يظهر في غير الأشياء المادية، فمن أسرف في الفواحش من الأمم سلّط الله عليهم الأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ومن كفر وفسق وفجر من الأمم سلّط الله عليهم المهلكات.

إذن، فالذين يباشرون الأسباب المهلكة بمقتضى سنن الله في الأسباب والمسببات هم الذين يظلمون أنفسهم، فقال الله تعالى:

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أنْفُسَهُمْ: مَفْعُـول بـه لـ ﴿يَـظْلِمُـونَ﴾ قُـدِّمَ على فعله لإفـادة الحصـر، أي: لم يظلمهم أحدٌ ولكن ظَلَمُوا أنفسهم بأنفسهم.

وجاء التعبير بـ ﴿كَانُوا﴾ لأنّهم ساعة إهلاكِهِمْ لَمْ يكونوا مباشرين لظلم أنفسهم، ولكنّهم كا نوا قبل ذلك مباشرين الأسبـاب التي ظلموا بهـا أنفسهم، باعتبـار أنّها تؤدّي بمقتضى سنن الله لإهلاكهم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

* قرأ جمهور القراء العشرة: [وَرِضْوانٌ] بكسر الراء.

وقرأ شعبة عن عاصم: [وَرُضْوانٌ] بضم الراء.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

* * *

التدبُّر

في مقـابل بيـان أنّ المنافقين والمنـافقات يكـوّنُون في المجتمـع البشري صنفاً متميزاً في صفاته النفسيّة، وظواهره السلوكية، وبيان ما وعد الله هذا الصنف من الناس مع سائر الكفّار من جزاء يوم الدين، وذلك في الآيات من (٦٧ ــ ٦٩).

أبـان الله عـزّ وجـلّ في هـاتين الآيتين من السـورة (٧١ ــ ٧٢) أنّ المؤمنين والمؤمنات يكوّنون في المجتمع البشري صنفاً متميّزاً أيضاً، في صفاته النفسية وظواهره السلوكية، وأبان أيضاً ما وعد الله هذا الصنف المقابل من الناس من جزاءٍ يوم الدين.

فالمؤمنون والمؤمنات لا يقتصرون على أنّهم صنف متميّز في صفات أفراده النفسية، وظواهرهم السلوكية، فبعضهم من بعض، وبعضهم أيضاً أولياء بعض، واقتصر النصّ على ذكر أنّ بعضهم أولياء بعض، لأنّه يلزمُ من كون بعضهم أولياء بعض، أن يكون بعضهم من بعض، أي: وهم صنف واحد متميّز من بين سائر أصناف الناس، في الصفات النفسية والسلوكية، فقال الله عزّ وجل:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾:

أي: المؤمنون والمؤمنات يتبادلون فيما بينهم الحبّ والودّ والتناصر والتآخي والتعاون والتكافل، وكلّ ما يدخل تحت مفهوم الموالاة.

وجاء في غير هذا النص بيان أنّ اليهود والنصارىٰ بعضهم أولياء بعض، وأنّ الظالمين بعضهم أولياء بعض، وأن الكافرين أولياء الشيطان.

وفي مقابل كون المنافقين والمنافقات يأمُرُون بالمنكر وينْهَوْن عن المعروف، لأنّ حالة نفوسهم منكوسة، فالمؤمنون والمؤمنات يـأمُرون بـالمعروف وينْهَوْنَ عن المنكر، لأنّ حالة نفوسهم سويّة، متلائمة مع الفطرة التي فطر الله الأشياء عليها، لم تفسد ولم تنتكس، فقال الله تعالىٰ في وصفهم:

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وقيامهم بهذه الوظيفة يحمي المجتمع الإسلاميّ من الانحراف والفساد، ومن تَغلُّبِ عوامل الشرّ فيه على عوامل الخير.

وفي مقابل كون المنافقين والمنافقات قَطَعُوا صلتهم بالله حتى نسوا الله، وقبضوا أيديهم شُحّاً فَلا يؤدُّونَ زكواتِ أموالهم، فالمؤمنون والمؤمنات يجدّدون صلتهم بالله دواماً؛ فيقيمون الصلاة ويبذلون ما يجب عليهم أن يبذلوه من أموالهم فيؤدّون الزكاة، فقال الله تعالىٰ في وصفهم:

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وفي مقابل كون المنافقين والمنافقات فاسقين عصاةً لله ورسوله، فالمؤمنون والمؤمنات يُطيعُون الله ورسوله ويبذلون جهدهم حتى يكونوا عاملين بما أمر الله

ورسوله، ومجتنبين ما نهى الله عنه ورسوله، فقال الله تعالى في وصفهم:

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾:

أي: ويجدِّدُون طَاعتهم لله ورسوله، مع كلّ عمل لله فيه أو لرسوله أمْرٌ أو نهي.

وإذا غلبتهم أهواؤهم وشهواتهم فوقعوا في المعاصي فسيرحمهم الله ويغفر لهم، إذا استغفروا وأتْبَعُوا السيئات الحسنات، وإشارة إلى هذا قال الله عزّ وجل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾.

وهـذا للمؤمنين والمؤمنات مقابل معـاملة المنافقين والمنـافقات بـالنسيـان أي: بالترك والإهمال ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾. إن سقوط المؤمنين والمؤمنات في المعاصي يستدعي أن يُعَامِلَهُمُ الله بعزّتِهِ وقُوّتِه الغالبة، تطبيقاً لمقتضى العدل، لكنّ رحمة الله سبقت غضبه، فهو يُعَاملهم برحمته فيغفرُ لهم ويعْفُو عنهم، وقد يُبدِّل اللّهُ سيئاتهم حسنات، فقـال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾:

أي: فمن حكمتـه تعالى أن يعـامـل المؤمنين والمؤمنـات التـائبين المستغفـرين بالرَّحْمَةِ، فيعفُو عنهم، أو يغفرَ لهم، ولا يعاملهم بالعزّة التي من مقتضاها أن يُجازِيَهُمْ بالعدل.

وفي مقابل وَعْـدِ اللّهِ المنافقين والمنـافقات والكُفّـارَ نارَ جَهَنّمَ خـالدين فيهـا هي حسبُهم ولعَنَهُمُ اللّهُ ولَهُمْ عَذابٌ مُقيم، أبان الله عزّ وجلّ أنـه وعَدَ المؤمنين والمؤمنـات وعداً يشتمل على ثواب عظيم جاء تفصيله في قوله تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾.

الجنّة: اسم لما يحتوي على أشجار وثمار وزروع وأنهار وقصور، وكلّ مـا يُمْتِع النَّفْسَ والحـواسّ، وأُطْلقت اسمـاً لـدار النعيم التي أعـدّهـا الله لسكنىٰ المؤمنين يـوم الدين، وهي تشتمل على جناتٍ باعتبـار أقسامهـا، ووصفت الجنات في القـرآن غالبـاً

بأنّها تجري من تحتها الأنهار، لأنّ الجنات لا تستوفي عناصر كمالها إلّا بالأنهار التي تجري من تحتها.

وأضيفت جناتُ يوم الدين إلى كلمة «عَدْنٍ» إحدى عشرة مرّة في القرآن، ومعنى «جَنّات عَدْن» جنّات ثبات واستقرار دائم، وجنات عَدْنٍ هي ما يكون منها وسط الجنّات أيضاً.

يقالُ لغة: عَدَنَ بالمكانِ يَعْدِنُ وَيَعْدُنُ عَدْناً وعُدُوناً إذااستقرّ فيه وثبَتَ، ومَرْكَزُ كُلِّ شيءٍ مَعْدِنُه. وتَقول لغةً: عَدَنْتُ الْبَلَدَ إذا تَوَطّنْتَهُ.

وقد أبانت هذه الآية أنّ الله عزّ وجلّ قد وعَدَ المؤمنين والمؤمنات أنْ يُدْخلَهُمْ يوم الدّين جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، أي: أنساماً مُفَصَّلَةً، كُلُّ قِسْمٍ مِنْها يُسَمّى جنّةً، ضِمْنَ الجنّة العظمى الجامعة لهذه الجنّات، وتَجْري تَحْتَها جَميعاً الأنهارُ المختلفة الأصناف والأوصاف.

ووَعَدَهُمْ أيْضاً أنْ يُسْكِنَهُمْ مَساكِنَ طَيِّبَةً هي قُصُورٌ عظيمة، فيها كلُّ ما يشتهي ساكنوها، وفوق ما يخْطُر على بالِهِمْ حَتّى يَرْضَوْا، وحتّى لا يجدوا في تَصَوُّرِهم ما يَطْلُبون، وهذه المساكن الطيبةُ قد جعلها الله عزّ وجلّ لهم في جنات عَدْنٍ، أي: في جناتِ ثبات واستقرار دائم، ولعلّها تكون في وسط جنّاتٍ من حولها كثيرة واسعة وممتدة فوق ما يطمع الطامعون.

ورِضْوانٌ من اللّهِ أكْبَرُ مِنْ كلّ مَا في الجنّاتِ من نعيم يُفْرِغه الله عزّ وجل عليهم بعد أن يجدوا أنهم قد نالوا ما لا يتصوّرون مزيداً عليه، فإذا أفرغ الله عليهم رضوانه وجدوا هذا الرّضوان أعظم من كلّ ما نالوا من نعيم الجنات.

روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللّهَ تَعالَى يَقُولُ لأهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، والْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فيقول: هل رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَالَنَا لا نَرْضَى وَقَدْ أعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أحَداً مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: ألا أُعْطِيكُمْ أفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟. فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وأيُّ شَيْءٍ أفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟. فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلا أسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أبَداً».

فهذا الرّضوان الذي يُحِلُّهُ اللَّهُ عزّ وجلّ على المؤمنين والمؤمنات في جنّاتِ النعيم يوم الدّين، هو أكْبَرُ وأعْظَمُ مِنْ كلّ ما فيها من نعيم.

وبعد بيان هذا الجزاء العظيم الذي أعدّه الله عزّ وجلّ للمؤمنين والمؤمنات يوم الدين قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾:

أي: ذَلِكَ الجزاءُ الرَّفيعُ النَّفيسُ الذي ينالُهُ المؤمنون والمؤمنات يوم الدين، هُو الفوز العظيم.

الفوز: يأتي بمعنى النجاة من الشر، وبمعنى الظفر، وبمعنى الرّبح، وكلّ هذه المعاني تتحقّق للمؤمنين والمؤمنات في الجنات، إذ قد خلصوا من عذاب النار، وظفروا بالجنة، ونالوا ربحاً عظيماً جليلاً.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣﴾.

سبق في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) في أواسط العهد المدني أن أنذر الله عزّ وجلّ المنافقين والذين في قلوبهم مَرَضٌ والمرجفين في المدينة، بأنّهم إن لم ينتهوا عن أعمالهم الكيديّة ضدّ الرسول والإسلام وجماعة المسلمين، فإنّه سيسلّط رسوله عليهم، فيُغْريه بالانتقام منهم، وعدم الإغضاء عن أعمالهم، حتّى يُلجئهم ذَلِكَ إلى الخروج من المدينة، وعدم مجاورة الرسول فيها، أو يُخْرَجوا طرداً، وعندئذٍ ينكشف ما في قلوبهم من كفر، وما في نفوسهم من شرّ، ويَسْقُط قناعُ النفاق، فيَلاحَقونَ بأنّهُمْ مُرْتَدُّون كافرون، فيُؤْخَذُون بأيدي المؤمنين ويُقَتَّلُون تقْتيلاً أيْنما وُجِدُوا، وهو ما جاء بيانه في الآيات من (٦٠ ـ ٦٢) من سورة (الأحزاب).

وقد سبق تدبُّر هذه الآيات في رقم (٣) من توابع النصّ (١٣) من هذه الدراسة، وهو الآيات من (٩ ـ ٢٧).

وفي الثلث الأخير من المرحلة المدنية اقتضت الحكمة الْبَدْءَ بالمراحل الأولى من تسليط النبيّ ﷺ على المنافقين، إذْ ما زالت طوائف منهم تمارس الأعمال الكيدية ضدّ الرسول والإسلام وجماعة المسلمين، فأنزل الله عزّ وجل على رسوله في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف ١٠٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾.

وقد سبق تدبُّر هذه الآية في النص (٢٩) من هذه الدراسة عن المنافقين، فلْيُرْجَعْ إليه.

وهذه الآية نَفْسُها قد أعاد الله إنزالها في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) مع اقتراب انتهاء مُهِمّة الرسول ﷺ في الحياة الدُّنيا، واستمرار بعض أهل النفاق في ممارسة أعمالهم الكَيْدِيَّة ضدّ الرّسول والإسلام وجماعة المسلمين.

ونتساءل عن الحكمة من إعادة تَنْزِيلها دون تغييرٍ في أيّ لفظ من ألفاظها؟

الذي يظهر لي ــ والله أعلم ــ ما يلي:

إنّ الجهاد المأمور به في القرآن ذو مستويات بعضها أشدّ من بعض، وهو بالنسبة إلى جهاد الكفّار الصرحاء يبدأ بجهاد الدعوة، فجهاد الجدال بالتي هي أحسن، فجهاد الصّبر على أذاهم، فجهاد مضايقتهم بما يكرهون، فجهاد عدم التغاضي عن سيئاتهم بالعقاب عند القدرة على ذلك، وهكذا حتى جهاد قتالهم قتالاً عامّاً، مع جهاد تأليف قلوبهم بالمال.

أمّا المنافقون فإنّ جهادهم يتّخذ في مراحله الأولى اسلوباً غير أسلوب الكافرين الصرحاء، وهو الأسلوب الذي اتّبعه الله معهم، والذي تدلّ عليه نجوم التنزيل الّتي عالجت أمورهم ومشكلاتهم ومكايدهم ونفوسهم وأفكارهم منذ بدء المرحلة المدنيّة، ويظهر في هذا الأسلوب كشف صفاتهم دون تحديد أشخاصهم، ومعالجتهم بالبيان والإقناع والإنذار مع الإغضاء، وعدم تنفيذ العقوبات التي تقتضيها بعض أعمالهم، ما داموا يتستّرون، ويتذرّعون بالمعاذير، والأكاذيب، ويشاركون في ظواهر الأعمال

الإسلامية الجماعيّة، ويحلفون الأيمان بالله على الكذب لستر مكايدهم، وتغطية نفاقهم المحشوّ بالكفر.

ثمّ إبّانَ نُزولَ سورة (التحريم) في أوائل الثلث الأخير من العهد المدني، اقتضت الحكمة الرّبّانية التوجيه لمجاهدتهم مثل مجاهدة الكفّار المجاهرين بكفرهم، فأشركهم الله مع الكفّار في توجيه النبيّ لمجاهدتهم.

ويفهم من هذا التوجيه اتّباعُ أسلوب التدرج في مجاهدتهم، وهو الأسلوب الذي أبانه الله عزّ وجل في كتابه حول جهاد الكافرين الصرحاء، منذ بدايات العهد المكيّ، حتّى مرحلة التوجيه لمقاتلتهم فالأمر به، والذي كانت الدعوة الحكيمة أوّله، وكان القتال قِمّتَهُ وذِرْوة سنامه[١].

ولمّا استمَرَّ بعضُ أهل النفاق يمارسون أعمالهم الكيديّة، واقتربت مهمة الرسول ﷺ تنتهي في الحياة الدنيا، وكان هذا إبّان نزول سورة (التوبة) اقتضت الحكمة تكرير إنزال هذه الآية بنصّها دون تغيير في أيّ لفظ من ألفاظها.

وفي تكرير هذا الإنزال إشارة إلى أنَّ الوقت قد حان لاتخاذ بعض أساليب القوّة والعنف ضدّ المنافقين، تحت عنوان الجهاد المأمور به بشكل عام، لأنّه يشمل كلّ مستوياته.

وهذا يؤذن بأنّه إذا اقتضت الحكمة معاقبتهم ولو بالقتل فإنّهم يعاقبون بذلك، ويبقىٰ اختيار معاملتهم بما تقتضيه أحوالهم متروكاً للرسول ﷺ، فلخلفائه من بعده، ولأمراء المؤمنين ما دام للمسلمين دولة قائمة، تعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن

(١) انظر «باب الجهاد» في كتاب «بصائر للمسلم المعاصر» للمؤلف.

يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

في هذه الآية بيان خمس ظواهر سلوكية لبعض المنافقين هي من آيات كُفْرِهِمْ باطناً، وسترهم لهذا الكفر بقناع النفاق:

الظاهرة الأولى: أنّهم يَحْلِفُون بالله كاذبين على أنهم لم يقولوا ما نُقِلَ عَنْهُمْ من كلامٍ يَدِينُهُمْ بالكُفر.

الظاهرة الثانية: أنّهم قالوا كلاماً يدلّ على أنّهم كافرون باطناً، فما نُقِلَ عَنْهُم حقّ، وهذه شهادة من الله يُصدِّقُ بها مَنْ أخبر الرسول عنهم بما قالوا من المؤمنين.

دلّ على هاتين الظاهرتين قول الله تعالى في الآية:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾.

عبارة ﴿كَلِمَةَ الكُفْرِ﴾ تنازع عليها عاملان هما الفعلان في: ﴿مَا قَالُوا﴾ وفي ﴿وَلَقَدْ قَالُوا﴾.

أمّا على رأي البصريين من النحاة فـ ﴿كَلِمَةَ﴾ مفعول به لـ ﴿وَلَقَدْ قَالُوا﴾، ومعمول: ﴿مَا قَالُوا﴾ ضميرٌ محذوف يعود على ﴿كلمة﴾ وجاز حذفه لأنه فضلة، وليس عُمْدَةً (أي: ليس أحد رُكْنَي الإسناد). وأما على رأي الكوفيين فيجعلون المتنازعَ عليه معمولاً للفعل الأول على عكس رأي البصريين.

﴿ كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾:

أي: كلاماً مُكَفِّراً يَدُلُّ علىٰ أنّهم كافرون.

وقد ورد في سبب نزول هاتَيْن الظاهرتين أنّه لمّا كَثُرَ نُزولُ القرآنِ في أحداث غزوة تبوك بشأن المنافقين وذمّهم، قال الْجُلاسُ بْنُ سُوَيْدِ بْنِ الصامت، ووديعةُ بْنُ ثابت: لَئِنْ كان محمّد صادقاً على إخواننا الّذين هُمْ سادتُنا وخيارُنا لَنَحْنُ شرٌّ من الحمير، فقال عامِرُ بْنُ قَيْسٍ للْجُلاسِ: أجَلْ، والله إنّ محمّداً لَصادِقٌ مُصَدَّقٌ، وإنَّكَ لَشَرٌّ مِنَ الْحِمَار، وأخبر عامر بن قَيْسٍ النبيَّ ﷺ بذلك، وجاء الْجُلاسُ فَحَلَفَ بالله إنَّ

عَامراً لكاذب، وحلف عامِرٌ: لَقَدْ قال، وقال: اللَّهُمَّ أَنْزِلْ على نبيّك شيئاً، فنزل قول الله تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾.

وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك قال: لمّا نزل القرآن فيه ذكر المنافقين، قال الْجُلاَسُ: واللّهِ لَئِنْ كانَ هذا الرَّجُلُ صَادِقاً لَنَحْنُ شَرٌّ من الحمير، فَسَمِعَها عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ، فقال: وَاللّهِ يَا جُلاَسُ إِنَّكَ لأَحَبُّ النّاسِ إِلَيَّ، وأَحْسَنُهُم عِنْدِي أثراً، وأعَزُّهُمْ عَلَيَّ أَنْ يَدْخُلَ عليه شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، ولقَدْ قُلْتَ مقالةً لئِنْ ذَكَرْتُها لَتَفْضَحَنَّكَ، ولَئِنْ سَكَتُّ عَلَيْهَا لَتُهْلِكَنّي، ولإحداهُما أشدُّ عليَّ من الأخرى، فَمَشَى إلى رسول الله ﷺ فذكَرَ لَهُ مَا قال الْجُلاَسُ. فَحَلَفَ بِاللّهِ مَا قَالَ، ولَكِنْ كَذَبَ عَلَيَّ عُمَيْرٌ، فأنْزَلَ الله تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل عن أنس بن مالك قال: سَمِعَ زَيْدُ بْنُ أَرْقم رَجُلاً من الْمُنَافِقِينَ يقول والنبيّ ﷺ يخطب: إنْ كان هذا صادقاً لَنَحْنُ شرٌّ من الْحَمِير، قال زيد: هُوَ واللّهِ صادقٌ وأنت شرٌّ من الحمار، فرفع ذلك إلى النبيّ ﷺ فجحد القائل، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ ما قالوا...﴾ الآية.

وأخرج ابنُ جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابْنِ عبّاسٍ قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظِلِّ شَجَرَةٍ فقال:

«إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ، فإذا جَاءَكُمْ فَلاَ تُكَلِّمُوهُ».

فلم يلبثُوا أَنْ طَلَعَ رجلٌ أَزْرَق، فدعاهُ رسُولُ الله ﷺ فقال:

«عَلاَمَ تَشْتُمُني أَنْتَ وأَصْحابُكَ؟!».

فانْطَلَقَ الرجُلُ فجاء بأصحابه فَحَلَفُوا بِاللّهِ مَا قالوا، حتّى تجاوز عَنْهم، وأنزل الله:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟...﴾ الآية.

أقول:

هذه الروايات تدلُّ على أنّ الآية تتحدّث عن ظاهرة للمنافقين تكرّر حدوثُها من عدّة أفراد أو جماعات منهم، وأنّ الأقوال التي قالوها تعبّرُ عن كُفْرِهم برسول الله ﷺ، وبما جاء به عن ربّه.

الظاهرة الثالثة: وصُولُ بعضِهم بعْدَ الصبر الطويل على كتم ما في قلوبهم، إلى أن يتفجّر ما في باطنهم، فَيُعْلِنُوا في بعض مجالسهم الخاصة أمَام بعض المسلمين الصادقين كُفْرَهُمْ، بعد أن كانوا قد أَعْلَنُوا إسْلاَمَهُمْ واستسلامهم.

دلّ على هذه الظاهرة قول الله تعالى في الآية:

﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾.

إنّ عطف هذه الجملة بحرف العطف «الواو» يدلُّ على أنّها تتحدّث عن ظاهرة غيرِ ما بَدَرَ من بعضِهم إذْ قالوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، لأنها لَوْ كانت هي سَبَبَ الحكم عليهم بالكُفر لكان الظاهر أن يكون العطف بالفاء، فيُقَال: ولقد قالوا كَلِمَةَ الكُفْرِ فَكَفَروا بعد إسلامهم، لكِنْ لما جاء العطف بالواو كان علينا أن نفهم أنّ ما بعدها يُؤَسِّسُ قضيّةً جديدة، يضاف إلى هذا أنّ النطق بكلمة الكفر قد لا يدلُّ على الكفر لاحتمال أن يكون نطقها عن إكراه، أو عن غلط، أو عن تأويل لمعنى غير مكفّر.

الظّاهرة الرابعة: أنّهُمْ هَمُّوا بإحْداثِ حدَثٍ خطيرٍ بيْنَ المسلمين، لكِنَّ الله عزّ وجلّ خيّبَهُمْ، وأفْسَدَ خططهم، وقد دَلّ على هذه الظاهرة قول الله تعالى في الآية:

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾.

الْهَمُّ تَوَجُّهُ النَّفْسِ للقيام بفعلٍ مَا، دون أن يَصِلَ إلى مستوى الإرادة القويّةِ الجازمة، التي من أثرها التنفيذ بحزم.

ونوال الشيء هو الحصول عليه.

ورد في حادثة هذا الهمّ أنّ اثني عشر رجلاً من المنافقين اتفقوا فيما بينهم، حينما كان الرّسول راجعاً إلى المدينة من غزوة تبوك مع جيش المسلمين، أن يترصّدُوه

عند عَقَبَةٍ بالطريق مشرفة على وادٍ، فإذا اعتلاها ليلًا زحموا راحلته بـرواحلهم، ودفعوه عن راحلته إلى الوادي.

وبينما كان رسول الله ﷺ سائراً، وقد أخذ عمّار بن ياسرٍ بخطام راحلته يقـودُها، وكـان حذيفـة بْنُ اليمان يسـوقها، إذْ أحَسَّ حـذيفة بن اليمـان بأنّهم مقبلون نحـو ركب رسول الله ﷺ، فصاح بهم حذيفة ففـرّوا وتفرّقـوا، وقد سبق في الفقـرة (٧) من موجـز غزوة تبوك عرض قصّة هؤلاء كمـا جاءت في روايـة البيهقي عن حذيفـة، وما جـاء عند الإمام أحمد من زيادة.

الظاهرة الخامسة: أنّهم ناقمون من الإسلام والرسول والمسلمين على الرغم من كلّ الخيرات التي استغْنَوْا بها بسبب الإسـلام، والفوائـد التي حصلوا عليها من غنـائم وغيرها، وقد دلّ على هذه الظاهرة قول الله تعالى في الآية:

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ. . . ﴿٧٤﴾﴾.

يقـال لغة: نَقَمَ الشَّيْءَ ونَقِمَـهُ يَنْقِمُهُ، إذا أنْكَـرَهُ وكَرِهَـهُ، فمعنى ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾: وما أنكرُوا ومَا كَرِهوا ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ من فَضْلِهِ﴾.

أي: لا يُوجد في الواقع أمْرٌ يقتضي نِقْمَتَهُمْ من الله ورسوله بسبب الإسلام الذي اضْطُروا أن يَنْتَمُوا إليه نفاقاً، إنّهم لم يحْصُل لهم بسبب إسلامهم إلاّ غِنىً بعْدَ فقـر، وعزٌّ بعد ذلّ، وأمْنٌ بَعْـدَ خوْفٍ، وهـذه أمور لا تُثِير نِقْمَـةَ إنْسَـانٍ عـاقـلٍ سَـوِيّ، إنّ ما أظهروه من إسْلاَم ومُتَابَعَةٍ للرَّسُولِ على سبيـل المخادعـة والنفاق لم يجلب لهم إلاّ خيراً دُنيويّاً، فما بـالُهُمْ يكيدون ويعْمَلُونَ أعمـالاً يقْصِدون بهـا التخلّص من الإسلام، ومن الـرَّسُولِ ومن جمـاعة المسلمين، أيـريدون أنْ يَقْلِبُـوا الأوضاع ليُحْـرَمُوا مِنْ هـذا الخير الذي أصابوه؟!

ففي حصـر دواعي نِقْمَتِهِمْ بإغنـاء اللَّهِ لهم من فضله تأكيـدٌ لنفي وجود أيّ شيءٍ يقتضي نقمَتَهُمْ بأبْلَغ تعبير.

وهـذا من تأكيـد مضمون الخبـر بما يشبه ضدّه، ويُعْـرف عن البلاغيين بتـأكيـد المدح بما يشبه الذمّ، إلاّ أنّ عبارة البلاغيين قاصرة على موضوع المدح، مع أنّ الأمـر يشمل كل خبر في المدح وغيره.

والضمير في ﴿من فَضْلِهِ﴾ يعود على الله عزّ وجلّ، وعطاء الرسول الذي كان سبب إغنائهم إنّما هو عطاء من فضل الله.

الفَضْلُ: هو في الأصل الزيادة، والبقية من الشيء، واستعمل الْفَضْلُ بمعنى الابتداءِ بالإحسان والْعَطَاءِ من الخير مادّيّاً كان أو معنويّاً، واشتهر بهذا المعنى.

بعد بيان هذه الظواهر الخمس من ظواهر المنافقين السلوكية فتح الله لهم باب التوبة وأغراهم بها، وأتبعه بالتحذير والإنذار بالعذاب الأليم إنْ تولّوْا ولم يتوبُوا، ولم يكترثوا للإغراء ولا للتحذير، فقال الله تعالى:

﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾:

أي: فإنْ يرجعوا إلى الإيمان الصادق الصحيح الذي فُطِرُوا عليه، وإلى الطاعة والاستقامة عملاً بدواعي فطرتهم الأولى يَكُنْ رُجُوعهم ذلك خيراً لهم.

﴿يَكُ﴾ أصْلُها ﴿يَكُنْ﴾ حُذِفت النونُ تخفيفاً، وهذا الحذْفُ عند العرب جائز في فعل ﴿يَكُونُ﴾ بشرط كونه مجزوماً بالسّكون، غيرَ متّصلٍ بضمير نَصْبٍ، ولَا بساكِنٍ، كما في النصّ هنا.

والخير الذي يغريهم الله به يكون بتوبة الله عليهم، وبالظفر بالجنّة مع أهل الإيمان، ورُوي أنّ الجلاس بن سويد تاب وحَسُن إسلامه.

وفي التحذير قال الله تعالى:

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: وإن يُدْبِرُوا ويَبْتَعِدوا عن الإيمان والطاعة مصرين على الكفر والنفاق يُعَذِّبْهُمُ الله عذابين: عذاباً أليماً مُعَجّلاً في الدّنيا، وعذاباً أليماً مؤجلاً يذوقونه في الآخرة يوم الدين.

وحين ينزل بهم العذاب المعجل في الدنيا، لا يكون لهم في الارض أدنى وليٍّ يتولّى أمرهم لدفع عذاب الله عنهم، أو التخفيف منه، أو الشفاعة لهم فيه، ولا يكون

لهم في الأرض أدنَى نصير ينصُرُهُمْ ضدّ جُنْدِ الله الذين يُسَلَّطون عليهم.

أمّا في الآخرة فالأمر كلّه يومئذٍ لله وحده، ويومئذٍ لا يدع الله لذي سلطان سلطاناً، ولا لذي سبب سبباً، لقد انتهى يوم الابتلاء والتسخير، وحلّ يومُ الجزاء الذي لا يكون فيه سلطان إلّا لله، ولا يشفَعُ فيه أحدٌ لأحد إلّا بإذنه.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿الْغُيُوبِ﴾ بضمّ الغين.

وقرأ حمزة وشعبة عن عاصم: ﴿الْغِيُوبِ﴾ بكسر الْغَيْن.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

تتحدّث هذه الآيات عن بعض المنافقين، وقد كان من شأنهم أنّهم قالوا: لئن آتانا الله من فضله مالاً كثيراً لنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ من الصالحين، فلمّا آتاهم الله من فضله مالاً كثيراً نقضوا عهدهم، وبَخِلُوا به، فلم يؤدُّوا ما فرض اللّهُ في أموالهم، فكان نقضُهُمْ لِعَهْدِهِمْ وبُخْلُهُم بما أوجب الله عليهم سبباً في استقرار النفاق في قلوبهم بمقتضى سنة الله في القلوب والنفوس، حتى نهاية آجالهم في الحياة الدنيا، ولقائهم ربَّهم للحساب والجزاء.

وفي قِصَصِ من نزلت هذه الآيات بسبب ما كان منهم، ذكر الرواة عدّة روايات:

(١) أخرج أبو الشيخ عن الحسن، أنّ رجلاً من الأنصار عاهد الله هذا العهد، فمات ابن عمٍّ له فورث منه مالاً، فبخل به، ولم يَفِ بما عاهد الله عليه، فأعْقَبَهُ بذلك نفاقاً في قَلْبه إلى أن يَلْقاهُ.

(٢) وأخرج ابن جرير، وابنُ أبي حاتم، وابن مَرْدَوَيه، والبيهقي في دلائل النبوة: عن ابن عباس، في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ...﴾ الآية: أنّ رجُلاً من الأنصار يُقالُ له ثَعْلَبَةُ، أتى مَجْلِساً فأشْهَدَهم فقال: لَئِنْ آتاني اللَّهُ مِنْ فضله آتَيْتُ كُلَّ ذِي حقٍّ حقَّهُ، وتصدّقت منه، وجعلتُ منه للقرابة، فابْتَلاهُ الله، فآتاه اللَّهُ من فضله، فأخْلَفَ ما وعَدَهُ، فأغْضَبَ اللَّهَ بما أخلفه ما وعده، فقصّ الله شأنَهُ في القرآن.

(٣) قصة ثَعْلَبَة بن حاطب، أو ابن أبي حاطب، المنافق، أحدِ بناة مسجد الضرار كما ذكر ابن هشام، وهو غير ثعلبة بن حاطب الأنصاريّ الذي هو من بني أُمَيَّة بن زيدٍ، فهذا صحابيٌّ مؤمن، وهو من أهل بدر، وذكر ابن الكلبيّ أنّه مات بأُحد[١].

وقصة ثعلبة بن حاطب أو ابن أبي حاطب أخرجها ابْنُ المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال، والطبراني، وابن منده، والباروديّ، وأبو نعيم، وابنُ مَرْدَويه، والبيهقي، وابنُ عساكر (بأسانيد لا يصحّ الاعتماد عليها لضعفها)[٢].

---

(١) أخذاً من محمد بن محمد أبو شهبة في كتابه (السيرة النبوية) في بحث (هدم مسجد الضرار وتحريقه) ص (٥٠٧) من الجزء الثاني، قال: وقد نبّه على ذلك الحافظ ابن حجر في الإصابة (ج ١ ص ١٩٨)، وساق أدلّة على ذلك، وقد وهِمَ ابن إسحاق حيث عدّ الثاني ممّن بنى مسجد الضرار، ووهم ابن عبد البرّ في الاستيعاب حيث نسب إليه القصة في شأن من عاهد الله ثم نقض عهده.

(٢) كتب الأخ الفاضل الشيخ «عداب الحمش» رسالة بعنوان «ثعلبة بن حاطب المفترى عليه» نقل فيها عن طائفة من العلماء بالأسانيد، أنّ هذه القصة التي نقلها المفسّرون ضعيفة، لا يصحّ الاعتماد عليها، واستنتج من كون أصحاب رسول الله ﷺ عدولاً بطلانها، ووجوب ردّها وعدم الاستشهاد بها، ولا بمثلها.

أقول: أمّا نسبتها إلى صحابيٍّ من أهل بدر، فهي نسبة باطلة حتماً، وأمّا نسبتها إلى مسلمٍ عاصر الرسول ﷺ فليست باطلة، لأنّ المنافقين الذين تحدّث القرآن عنهم باستفاضة هم مسلمون في الظاهر، وقد عاصروا الرسول وكان لهم معه لقاءات، ولا بدّ أن ينطبق قول الله عزّ وجل على بعضهم، ولكن ينبغي عند تعيين الاسم التوثق من أنّه ليس من المشهود لهم بالإيمان، أو من أهل الجنة، أو من فضلاء الصحابة، كما ينبغي التحرّي عن صحة الرواية. =

عن أبي أمامة الباهلي، قال:

جاء ثعلبة بْنُ حاطب (هو غير ثعلبة بن حاطب البدري) إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادْعُ اللَّهَ أن يرزقني مالاً، قال:

«وَيْلَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ» قال: يا رسول الله ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مالاً، قال:

«وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، أَمَا تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلِي، فَلَوْ شِئْتُ أَنْ يُسَيِّرَ رَبِّي هٰذِهِ الْجِبَالَ مَعِي ذَهَباً لَسَارَتْ».

فَقَالَ: يا رسول الله، ادْعُ الله أن يَرْزُقَني مالاً، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إنْ آتاني مالاً لأُعْطِيَنَّ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، قال:

«وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تُطِيقُ شُكْرَهُ خَيْرٌ من كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ».

قال: يا رسول الله ادْعُ اللَّهَ تعالَىٰ، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارزُقْهُ مالاً».

قال الراوي: فاتخذ غَنَماً، فَنَمَتْ كَما تَنْمُو الدّود، حتّى ضاقت بها المدينة، فتَنَحّىٰ بها، فكان يَشْهَدُ الصَّلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ، ولا يشهدها باللَّيل.

ثُمَّ نَمَتْ كَمَا تَنْمُو الدّود، فتَنَحّىٰ بها، فكان لا يَشْهَدُ الصلاة باللَّيْلِ ولا بالنّهار، إلّا من جُمُعَةٍ إلى جُمُعَةٍ مع رسول الله ﷺ.

ثمّ نَمَتْ كما تَنْمُو الدود، فضاق بها مكانُهُ فتنَحّىٰ بها، فكان لا يَشْهَدُ جُمُعةً ولا جنازةً مع رسول الله ﷺ.

فجعلَ يتلَقَّى الرُّكْبانَ ويَسْأَلُهُمْ عن الأخبار.

وفَقَدَهُ رسول الله ﷺ فسأل عنه، فأخبروه أنّه اشترى غنماً، وأنّ المدينة ضاقت به، وأخبروه خبره، فقال رسول الله ﷺ:

= وهذه القصة يمكن الاستئناس بها لمعرفة صفات فريق من المنافقين، عاصروا الرسول وكانوا بين المسلمين حتماً، وكان بعض المؤمنين يجهلون حقيقتهم، وهذا لا يطعن برواة الحديث من أصحاب رسول الله العدول، لأنّ رواة الحديث منهم عدول عند جمهور الصحابة.

«وَيْحَ ثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطب، وَيْحَ ثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطِبٍ».

ثُمَّ إنّ الله أمر رسوله أن يأخذ الصَّدَقات (أي: الزكاة) وأنْزَلَ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...﴾ الآية (١٠٣) من سورة التوبة.

فَبَعَثَ رسول الله ﷺ رجُلَين: رجُلاً من جُهَيْنَةَ، ورَجُلاً من بني سَلِمَةَ يأْخُذَانِ الصَّدقات، وكتَبَ لهما أسنان الإبل والغنم كيْفَ يأخُذانِها على وجوهها، وأمَرَهُمَا أنْ يَمُرَّا على ثَعْلَبَةَ بْنِ حاطب، وبرجُلٍ من بني سُلَيْم، فخرجا، فمَرَّا بثعلبة، فسألاَ الصَّدَقة، فقال: أرياني كتابكُما، فنظر فيه، فقال: ما هذه إلاّ جزية، انْطلِقا حتّى تَفْرَغا، ثُمَّ مُرّا إليّ، فانْطَلَقا، وسَمِعَ بهما السُّلَمِيُّ فاسْتَقْبَلَهُمَا بخيار إبله، فقالا: إنّما عليك دون هذا، فقال: ما كُنْتُ أتَقرَّبُ إلى اللّهِ إلاّ بخيْرِ مالي، فَقَبلا.

فلمّا فَرَغا مرَّا بثَعْلَبَةَ، فقال: أريَاني كِتابكُمَا، فنظَرَ فيه، فقال: ما هذه إلاّ جزية، انْطلِقا حتّى أرَى رأيي.

فانْطلَقا حتّى قَدِما المدينة، فلمّا رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يُكلِّمهما:

«وَيْحَ ثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطِبٍ» ودعا للسّلَميّ بالبركة، وأنزل الله:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ: لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ...﴾ الآيات الثلاث من (٧٥ ـ ٧٨).

قال الراوي: فسمع بعضُ أقارب ثعلبَةَ، فأتَى ثعلبَةَ فقال: ويْحَكَ يا ثَعْلَبَةُ، أُنْزِلَ فيك كذَا وَكذَا.

قال: فقدم ثعلَبَةُ على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه صدقة مالي، فقال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الله قَد مَنَعَني أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ».

فجعل ثعلَبَةُ يبكي ويَحْثي الترابَ على رأسه، فقال رسول الله ﷺ:

«هٰذَا عَمَلُكَ بنفْسِكَ، أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي».

فلم يقْبَل مِنْهُ رَسُول الله ﷺ حتّى مضى، ثُمَّ أتَى أبَا بكْرٍ، فقال: يا أبا بَكْرٍ، اقْبَلْ مِنّي صَدَقَتِي، فقَدْ عَرَفْتَ منْزلتي من الأنصار.

فقال أبو بكر: لم يَقْبَلْهَا رَسُول الله ﷺ، وأَقْبَلُهَا؟! فلم يَقْبَلْهَا أبو بكر.

ثمّ وُلِّيَ عمرُ بن الخطّاب، فأتاه فقال: يا أبا حَفْصٍ، يا أميرَ الْمُؤْمِنِينَ، اقْبَلْ مِنِّي صَدَقَتِي، وجَعَلَ يُثْقِلُ عَلَيْهِ بالْمُهَاجِرِينَ والأنْصَارِ وأزواجِ النبيِّ ﷺ.

فقال عُمَر: لم يَقْبَلْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ولا أبو بَكر، أَقْبَلُهَا أنا؟! فَأبَىٰ أَنْ يَقْبَلَها.

ثُمَّ وُلِّيَ عُثْمانُ، فسأله أن يقْبَلَ صَدَقَتَهُ، فقال: لم يقْبَلْهَا رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عُمَرُ، وأنا أَقْبَلُهَا مِنْكَ؟! فلَمْ يَقْبَلْهَا مِنْهُ.

فَهَلَكَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ.

أقـول:

إذا كان لهذه القصة أصْلٌ، فالمانع من قبول زكاة مال هذا المنافق بعد أن امتنع عن بذلها أوّل مرّة، هو معاقبتُهُ بعزله عن جماعة المسلمين عزلًا جزئيّاً، بسبب نَقْضه ما عاهد الله عليه، وكان قد سأل الرسول أن يدعُوَ الله بأن يؤتيه مالاً، فمن سنة الله أنّ من طَلَبَ آيَةً على صِدْقِ الرَّسُولِ، فدعا الرَّسُولُ ربّه، فأعطاه ما طلب، فنقَضَ عَهْدَهُ، أنزل الله به العقوبة لا محالة.

لمّا طلبَتْ ثمود آية الناقة، فآتاهم الله ما طلبوا، أهلكهم الله عقوبة لهم على عقرهم لها، ونقض عهدهم بشأنها.

ولمّا طلب هذا المنافق كثرة المال، وعاهد الله على أن يتصدّق ولا يبخل، فلَمّا امْتُحِنَ وَنَقَضَ عَهْدَهُ، اسْتَحَقَّ العقوبة بعزله جزئيّاً عن المجتمع الإسلاميّ، لانكشافِ حاله في موضوع بذل الصَّدَقات، ولَمْ يُعَامَلْ حول موضوع الصَّدَقاتِ معاملة سائر المنافقين، الذين أعلم الله رسولَهُ بحقيقة نفاقِهِمْ، لأنّه كشفَ أمْرَ نفسه في هذا الموضوع الخاصّ الذي عاهد اللّهَ عليه.

وهذا من الأسلوب الحكيم في معاملة المنافقين، وتربية الذين لم يَنْقضُوا بَعْدُ عُهُودَهُمْ مِنْهُمْ، بالذين نَقَضُوا عُهُودَهُمْ، والتربيَةُ تكْفِي فيها الحادثَةُ الواحدة.

* * *

التـدبُّـر

﴿وَمِنْهُم﴾:

أي: ومن المنافقين، لأنّ الآيات السابقات تتحدّثُ عَنْهُم.

﴿مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾:

أي: فريقٌ عَاهد اللّهَ، ويكْفِي أن ينطبق هذا على أقلّ الجمع فأكثر، لأنّ التعبير جاء بصيغة جماعةٍ عَاهَدُوا اللّهَ.

﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾:

أي: قال في معاهَـدَتِه اللّهَ: واللّهِ أو نُقْسِمُ لَئِنْ آتانا الله مالاً وفيراً من زيادات إحسانه.

﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

هـذا جواب القسم، وقد أغنَى ذكره عن ذكر جواب الشرط لاتحادهما في المعنى، والمعنىٰ: لنبذُلَنَّ زكوات أموالنا، وقد يدلّ اللّفظ على صدَقاتٍ فوق الواجب أيضاً، ولَنَكُونَنَّ مِن الصَّالِحِينَ، بِصِدْقِ الإيمان وحُسْنِ العمل الذي هو أثر الإيمان الصحيح الصادق.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾:

أي: فاستجاب الله لهم دون إبطاء، وحين آتاهُمْ ما طلبوا من أموال، من زيادات إحسانه على غير سبيل العوض أو الجزاء.

﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾:

أي: لم يَبْذُلُوا الواجبَ الذي فَرَضَهُ الله فيما يُؤْتِيهم من أموال، فَضْلاً عن أن يَبْذُلُوا ممّا آتاهم اللّهُ من فضله تَطَوُّعاً.

﴿وَتَوَلَّواْ﴾:

أي: ابتعدُوا واجْتَنَبُوا طاعَةَ الله.

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾:

أي: والحال أنّهم يُعْطُونَ للتكاليف الربّانيّةِ عارضهم، أي: جانبهم، لأنّهم في ظاهر أمرهم مسلمون لا يستطيعون أن يُدْبِروا، ويُظْهِرُوا بإدْبارِهِمْ كُفْرَهُمُ الّذِي يُبْطِنُونه.

فالإعراضُ حالةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإدْبار والإقبال، والتولّي قد يكون إدْباراً وابتعاداً، وقد يكون ابتعاداً واجتناباً في حالة إعراضٍ دون إدبار ظاهر، لكن التولّيَ بمعنى الابتعاد مع حالة الإعْراضِ يُساوي في الحقيقة المستورة الإدْبارَ، أي: الكُفْرَ في الباطن، فجاء التعبير: ﴿وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ بالِغَ الدِّقَّةِ في الدّلالَةِ علَىٰ سلوكهم الذي هو أثَرٌ من آثار نفاقهمْ الذي هو كُفْرٌ في الباطن، وإسلامٌ في الظاهر، مصحوبٌ بمعصيةٍ لا تَنْقُضُ الإسلام بحسب الظاهر.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾:

أي: فجازاهُمُ اللّهُ عَقِبَ نَقْضِهِمْ مَا عاهَدُوا اللّهَ عليه، ضمن مجاري سُنَنِه في قُلوب عباده ونُفُوسِهِمْ.

﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾:

أي: نِفَاقاً مُتمكِّناً رَاسِخاً مُتَغَلْغِلاً فِي قُلُوبِهِمْ، لا يُشْفَوْنَ منه، حتى نهاية آجالهم في الحياة الدُّنيا، ولقائِهِمْ رَبَّهُمْ مُنْذُ دُخولِهِمْ عَتَبَةَ الآخرة بالموت.

وذلك لأنّ من كان منافقاً من دركةٍ قابلةٍ للشفاء، إذا عاهَدَ اللّهَ عَهْداً مشروطاً بشرط على ربِّه، فحقَّقَ اللّهُ لَهُ مَا شَرَطَ، فنقَضَ مَا عاهد عليه ربّه، كان من نتائج عمله هذا في سُنَنِ اللّهِ السببيّة، أن يَنْزِلَ فيه النفاق إلى أخسّ الدَّرَكات، ويَرْسَخَ فِي قَلْبِه، كمن يضَعُ جِسْمَهُ في النار فإنّ الله يُحْرِقُه بالنار التي وضع جِسْمَهُ فيها ضمن مجاري سننه العامّة.

﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

أي: جازاهم الله ضمن مجاري سننه العامّة برسُوخ النفاق في قلوبهم، واستقرارِه فيها حتى ملاقاتهم له بعد انتهاء رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، بسبب أمْرَيْن:

الأمر الأول: إخْلاَفُهُمْ في التطبيق العمليّ ما كانوا عـاهَدُوا اللَّهَ عليه بألسنتهم، فقوله تعالى:

﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾:

أي: بسبب إخْلاَفهم مـا عـاهـدوا اللَّهَ عليه، وهـو أن يتصـدَّقُـوا ويكـونـوا من الصالحين. ﴿ما﴾ في ﴿بِمَا أَخْلَفُوا﴾ مصدرية تُؤَوَّلُ مع ما بعدهـا بمصدر، والعهـد قد تضمَّن وعداً.

الأمر الثاني: أنّهم كانُوا يكْذِبُون حينما وعَدُوا الله، يقولون بـألسنتهم ما لَيْسَ في قُلُوبِهِمْ، فهُمْ مُنْذُ البداية قد أعْطَوْا بألسنتهم العهـد والوعْـدَ وهـم لا يُريـدون الوفـاء به، لأنّهم منافقون غير مؤمنين، يعطون العهود بألسنتهم فقط، فإذا حقّقَ الله لهم ما شـرَطُوا أحالوا ما تحقّق لهم على الأسباب، وهم لا يؤمنـون بأنّ الله هـو الذي أجـراها ليمتحن إيمانهم وطاعتهم ووفاءهم بوعودهم، فقوله تعالى:

﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾:

أي: وبسبب كـذِبهم الذي كـانوا يكـذبُونَـهُ في إعـطائهم وعُـودَهُمْ، وفي أصـل ادّعائهم أنهم مؤمنونَ ومسلمـون صادقـون، وصفة الكـذب هذه صفـة متكرّرة متجدّدة فيهم، وكذلك كلّ المنافقين.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾:

أي: ألم يعلموا مما سَبَقَ لهم في تجاربِهِمُ الكثيرة الّتي كشَفَ اللَّهُ لهم بهـا فيما أنزل من بياناتٍ قرآنيّة مَا كانوا يُبِسرُّون في قُلُوبهم، ومَا كـانُوا يُسَـارُّون به إخـوانَهُمْ في نجواهم (النجوى: الإسرار بالحديث) أنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهم ونجواهُمْ؟!

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾:

أي: وَأَلَمْ يَعْلَمُوا مِنْ هٰذِهِ التجارب وغيرها مما يُشاهدُون في الـظاهرات الكـونية التي تجري بمقادير الله المحكمة، والّتي لا يتمّ إتقانها وإحكامُها إلاَّ بعلْمٍ محيط بكـلّ شيءٍ مشهـودٍ وغائبٍ في السمـاوات والأرض، أنّ اللَّهَ الرَّبَّ الخـالق البارىء المصـوّر الذي يُصَرِّفُ الأمور بحكمته عَلاَّمُ الْغُيُوب كُلِّهَا، لاَ يخفىٰ عليه شيءٌ منها؟!

عَلَّام: صيغةُ مبالغةٍ وتكثيرٍ لِعَالِم، على وزن «فَعَّال».

الغيوب: جَمْعُ الغيب، وهو ما غـاب عن حواسّ وإدراكـات المخلوقات، و«ألْ» في الغيوب لاستغراق الجنس، أي: عَـلَّامُ كُلِّ أنـواع الغيوب وأفـرادها في السمـاوات والأرض.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

* قرأ جمهور القُرَّاء العَشَرَة: [يَلْمِزُونَ] بكسر الميم.

وقرأ يعقوب فقط: [يَلْمُزُونَ] بضَمّ الميم.

والقراءتان وجهان عربيّان لنُطق الكلمة.

اللَّمْزُ: نِسْبَةُ الْعَيْبِ إلى الملموز، يُقَالُ لغة: لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ ويَلْمُزُهُ إذا عابَهُ، أو أشار إليه إشارة تـدلُّ على أنّه يعيبُـه بشيءٍ مـا، والإشـارةُ تكونُ بحـركـات العين أو الشفـة أو نحوهما مع كلامٍ خفيّ.

﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾:

أي: المتطوّعين، المتطوّع هـو المتنفّل الـذي يتقرّب إلى الله بعمـل صالـح غير واجب عليه.

﴿فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

المرادُ من الصّدقـاتِ هنا صَـدَقاتُ التَّطَوُّعِ لا الزكـاة الواجبة، بدليـل قـرينـة «المطَّوّعين» أو هي أعمّ فتشمل الزكاة وغيرها.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾:

أي: لَا يَجِدُونَ إلَّا الشيْءَ الْقَلِيلَ، وهو ما في وُسْعِهِمْ أنْ يَبْذُلُوهُ.

الْجُهْدُ: بضمّ الجيم الْوُسْعُ والطَّاقَةُ والشيءُ الْقَلِيلُ الَّذِي يَعِيشُ به الْمُقِلُّ، أمّا الْجَهْدُ بفتح الْجِيمِ فهو مصْدرُ جَهَدَ يَجْهَدُ بمعنى «جَدَّ» وبمعنى بذل طاقته وقُدْرَتَهُ حتى بلغ الغاية وحلّتْ به المشقّة.

هذه الآية تتحدَّث عن ظاهرة من ظواهر سلوك المنافقين، وهي ظاهرة لَمْزِ المتطوّعين ببذل صدقاتهم عموماً، مع السخرية من الأشياء القليلة التي يبذُلُها المؤمنون الصادقون الفقراء، الذين لا يَجِدُونَ فيما يملكون أشياء ذات قيمة كبيرة يبذلونها.

أمّا من يبذُلُ الكثير فيلمزونه بالرياء، وأمّا من يبذُل الشَّيْءَ القليل الذي هو جُهْدُهُ، فيَلْمِزُونه بأنّه يُذَكِّرُ بنَفْسِهِ وحاجَتِهِ حتَّى يُعْطَى من الصّدقات، ويَسْخَرُونَ ممّا قدّم لقلّتِهِ.

وورد في قصّة هذا اللّمز ما يلي:

(١) روى البخاري بسنده عن أبي مسعود قال:

لمّا أُمِرْنَا بالصَّدَقَةِ كُنّا نَتَحَامَلُ (أي: نَعْمَلُ حَمَّالِينَ بالأُجْرَة) فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وجَاءَ إنْسَانٌ بأكْثَرَ مِنْهُ، فقال المنافقون: إنّ اللّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هٰذا، وما فعلَ هذا الآخَرُ إلّا رياءً، فنزلت:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ...﴾ الآية.

وعند مسلم نظيره، واسم أبي عقيل هذا «الْحَبْحَابُ».

(٢) وذكر عبد بن حميد بسنده عن قتادة «مُرْسَلاً» في تفسير الآية، قال:

جاء رجلٌ من الأنصار يُقالُ له: «الْحَبْحَابُ أبو عقيل» فقال: يا نبيّ الله بِتُّ أجُرُّ الْجَرِيرَ علَى صاعَيْنِ من تمر، فأمّا صاعٌ فأمسكته لأهلي، وأمّا صَاعٌ فها هو ذا.

فقال المنافقون: إنْ كَانَ اللّهُ ورَسُولُه لغنيَّيْنِ عن صَاعِ أبي عقيل، فنزلت.

ووصل الطبراني والباردوي والطبري هذا الحديث من طريق آخر إلى أبي عقيل.

وسمّى الواقديُّ من المنافقين اللاّمزين: «مُعَتّبَ بْنَ قُشَيْر» و «عَبْدَ اللهِ بْنَ نَبْتَل».

(٣) وجاء عند الطبري عن قتادة، وكذلك عند ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: حثَّ رسول الله ﷺ على الصَّدَقة ـ يعني في غزوة تَبُوك ـ فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف، فقال: يا رسول الله، مالي ثمانية آلاف، جئتك بنصفها وأمْسَكْتُ نِصْفَها، فقال:

«بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أمْسَكْتَ وَفِيمَا أعْطَيْتَ».

وتصَدَّقَ يومَئذٍ عاصِم بنُ عديّ بِمِئَةِ وَسْقٍ[1] من تَمْرٍ، وجاء أبو عقيل بصاعٍ من تَمْرٍ.

فقال المنافقون: ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلاَّ رياءً، وأمّا أبو عقيل فإنّما جاء بصاعه ليذكّرَ بنفسه، فنزلت الآية.

* * *

التـدبُّـر

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾:

أي: الذين يَعِيبُون المتطوّعين من المؤمنين ذوي اليسار في بذلهم الصَّدَقاتِ بأنّهم مراءون، إذا كانوا من المكثرين من صدقاتهم، كعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعاصم بن عَدِيّ، وأمثالهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾:

أي: ويَلْمِزُون المتطوّعين من المؤمنين الفقراء الذين لا يجدون إلاَّ الشَّيء القليل الذي يستطيعون بذله، فَهُو جُهْدُهم، يلمزونهم بأنّهم يريدون التذكير بأنفسهم، والإشعارَ بأنّهم فقراء، لتُبْذَلَ لَهُمُ الصَّدَقات.

﴿والذين﴾ معطوفة على المطّوّعين على تقدير حذف مضاف، أي: والمطّوعين الذين لا يجدون إلاَّ جُهْدَهم، أو منصوبة بفعلٍ محذوف تقديره: وأخصّ الذين...

﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾:

(١) الوَسْقُ ستون صاعاً، والصاع يعادل (٢١٧٥) غرام من القمح.

أي: فَيُقَابِلُونَ صدقاتِ المقلّين الفقراء عَقِب إحضارهم لها بالسُّخرية، كأن يضحكوا ساخرين منهم ومن الشيء القليل الذي تقدَّموا به.

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾:

أي: جازاهم على عملهم بمثلِهِ، فأعْلَنَ لملائكتِهِ وأنزل في كتابه أنه سَخِرَ مِنْهم، لأنَّهُمْ بسفاهتهم التي جعلتهم يسخرون من أعمال المؤمنين عرّضُوا انفسهم لعذاب الله، فهم الأحرىٰ بأن يكونوا مسخوراً منهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

أي: وأُعِدَّ لَهُمْ أنْ يذوقوا عذاباً أليماً، فهو لهم سيذوقونه لا محالة، ما لم يتوبوا من كفرهم ونفاقهم، وهذا القيد مفهوم من مختلف النصوص القرآنية، فلا حاجة إلى إعادته مع كلّ بيان يقتضيه.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

خاطب الله عزّ وجلّ بهذه الآية الرسول ﷺ ويُلْحَقُ به جميع المؤمنين، فقال له بشأن المنافقين:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ...﴾.

فَهِمَ الرَّسُولُ من هذه الآية أنّ الله عزّ وجلّ خَيَّرَهُ بين أن يستغفر للمنافقين أو لا يَسْتَغْفِرَ لهم، وأَنَّهُ إنْ يَسْتَغْفِرْ لهم سبعين مرّة فلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لهم، ولم يفهم الرسول من هذه الآية أنّ الله حرَّمَ عليه أن يستَغْفِرَ للمنافقين، وفَهِمَ أنّه مأذون له بأنْ يُعامل المنافقين في موضوع الاستغفار والصلاة على موتاهم بحسب ظاهر إسلامهم، كسائر الإجراءات في الحياة الدّنيا، ولو كان يَعْلَمُ أنّهم منافقون، ولا سيّما إذا كان في الأمر مصلحة سياسية أو إدارية.

وفهم صلوات الله عليه من حصر العدد الأعلى بالسبعين احْتِمَالَ أنّ الزيادة على السبعين قد تُفِيد مَنْ يستغْفِرُ لهم، ولو بتخفيف العذاب عنهم.

وقد سبق أن أنزل الله في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) قولَهُ لرسوله بشأن المنافقين:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٦﴾.

وسبق أن أُنزِلَ قبل هذه الآية في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول) قوله خطاباً للرسول والمؤمنين:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾.

فوجههم لاتّخاذ إبراهيم والذين معه أسوة حسنة لهم باستثناء وعْدِ إبراهيم أباه أنْ يستغفر له، فدَلَّ هذا على أنّ المؤمن لا يسأل الله أن يغفر لكافر.

لكنَّ مَوْضُوعَ المنافقين يختلف عن الكافرين الصُّرحاء، باعتبار أنَّ الله جعل معاملتهم في الإجراءات الدّنيويّة كمعاملة المسلمين بحسب ظاهر انتمائهم إلى الإسلام، ما لم يَنْزِل نصٌّ صريحٌ بخلاف ذلك.

والدليل على هذه المفهومات التي فهمها الرّسول ﷺ، ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمر، قال:

لمَّا تُوُفِّي عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبيّ جاءَ ابْنُهُ عبدُ اللّهِ بْنُ عَبْدِ اللّهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلَهُ أنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ، ثُمّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ عُمَر وَأَخذ بِثَوْبِ رَسُول الله فَقَال: يا رَسُول الله، أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّي عليه؟! فَقَالَ رسُول الله ﷺ:

«إنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لهم﴾ وَسَأَزِيدُهُ عَلَىٰ السَّبْعِينَ».

قال: إنَّهُ منافق!!

قال: فصلّىٰ عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة].

فتح الباري رقم الحديث (٤٦٧٠)

وما رواه البخاريّ عن عمر بن الخطّاب، أنه قال:

لمّا مَات عبدُ الله بنُ أُبَيّ بْنُ سَلُول، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فلمّا قامَ رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أتُصلّي على ابْنِ أُبَيٍّ وقد قال يوم كذا: كذا وكذا؟! أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ[1]. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ:

«أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ».

فلمّا أكْثَرْتُ عليه قال:

«إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لو أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَىٰ السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا».

قال: فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلاَّ يَسِيراً حَتَّىٰ نَزَلَتِ الآيَةُ مِنْ بَرَاءَة: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً... إلى قوله: وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

قال عُمَر: «فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، واللَّهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ».

وروى الطبريّ عن الشعبي أنّ النبي ﷺ قال: «فأنَا أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ وسَبْعِينَ وسَبْعِينَ».

ورُوِي عن قتادة، ومجاهد، وعن هشام بن عُروة عن أبيه، أنّ النّبيّ ﷺ قال:

(١) يشير إلى مثل قوله: ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله﴾ وقوله: ﴿ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾.

«قَدْ خَيَّرَنِي رَبِّي فَوَاللَّهِ لأَزِيدَنَّ عَلَىٰ السَّبْعِينَ».

قال ابن حجر في الفتح: وهذه طرق وإنْ كانت مراسيل فإنّ بعْضَها يَعْضُدُ بعضاً[1]. وذكر عن الواقدي، أن مجمع بن جارية قال: ما رأيت رسول الله ﷺ أطال على جنازة قطُّ ما أطال على جنازة عبد الله بن أُبَيّ من الوقوف.

قال ابن إسحاق في المغازي: «حدثني الزهري بسنده قال: فما صلّىٰ رسول الله ﷺ على منافق بعده ولا قام على قَبْرِه حَتَّىٰ قَبَضَهُ اللَّهُ».

ونقل ابن حَجَر عن الخطابي أنّه قال: إنّما فعل النبيّ ﷺ مع عبد الله بن أبيّ ما فعل لكمال شفقته على من تعلّق بطرفٍ من الدّين، ولتطييب قَلْبِ وَلَدِهِ عبد الله الرجُل الصالح، ولتألُّف قومه من الخزرج لرياسته فيهم، فلو لم يُجِبْ سؤال ابنه، وتركَ الصلاة عليه قَبْلَ وُرُود النَّهْي الصريح لَكَانَ سُبَّةً على ابْنِهِ وَعَاراً عَلَىٰ قومه، فاستعمل أَحْسَنَ الأَمْرَيْنِ في السياسة، إِلَىٰ أَنْ نُهِيَ فانْتَهَىٰ.

أقـول:

هذا الذي ذكره الخطابيّ فهم سديد، وأمّا قول عُمَر رضي الله عنه للرُّسول: «أتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أن تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟!». فقد بناه على ما فهمه هو من قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: فلا تستغفِرْ لهم، والنهي عن الاستغفار يلزم منه النهي عن الصلاة عليهم، وقد أبان الرسول ﷺ لِعُمَر أنّ الآية تُفِيدُ التخيير بين الاستغفار وعدمه بالنسبة إلى المنافقين، ولا تُفِيدُ النهيَ عن الاستغفار، ولو كان الله لا يغفر لهم، فالعمل بظاهر أحوالهم قد تكون له مصلحة غير تحقيق المغفرة لهم.

ودلّت الرّوايات الأخرى على أنّ الرسول ﷺ فهم من تحديد «سبعين مرّة» احتمال أنّه لو زاد على السبعين لنفعهم ذلك ولو بتخفيف العذاب عنهم، وهذا يدلّ على أنّ الأصل في العدد إرادةُ معناه، فيبقىٰ المفهوم المخالف أمراً مسكوتاً عنه، والْمَسْكوتُ عنه محتمل أمْرَيْن: أن يوافق حكم العدد المذكور، وأن يخالفه.

وبعد أن أبان الله عزّ وجلّ أنّه لا يغفر للمنافقين ولو استغفر لهم الرسول سبعين

(١) فتح الباري ص ٣٣٥ من الجزء الثامن.

مرّة، أبَانَ سبَبَ ذلك، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾:

المشارُ إليه ما تضمّنه قول الله تعالى: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾:

أي: بسبب أنّهم كفَرُوا بالله ورسوله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

أي: لو غفر الله لهم وهُمْ كافِرُونَ فاسقُونَ لكَانَ ذَلِكَ مُساوَاةً لَهُمْ بالْمُؤْمِنِينَ الْمَهْدِيين، ولكان ذلك هدايةً من الله لهم، أي: حكْماً منه بأنّهم قدْ سلَكُوا مسْلَكَ الهداية، على خلاف واقع حالهم، ولو كانَ ذَلِكَ عن طريقِ المغفرة، والله لا يحكم للمجرم بأنّه مسلم، ولا يحكُمُ للكَافِرِ الفاسق بأنّهُ ذو هداية، فهذا الحكم مناقضٌ لواقع حالهم.

الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله خروجاً كلّيّاً إيماناً وعملاً، فـ (أل) للكمال.

وهذه الجملة هي من متمّمات بيان سبب عدم مغفرة الله للمنافقين، أي: فالسبب يرجع إلى أمرين:

الأول: أنّهُمْ كافرون بالله ورسوله.

الثاني: أنّ الله لا يجعل الكافر الفاسق ذا هداية فهو لا يحكُمُ إلّا بالحقّ.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾
فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ

مِنْهُمْ فَاسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم
بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ
قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

* * *

القـراءات

* قرأ جُمْهور القراء العشرة: [مَعِيَ أَبَداً] بِفَتْح ياءِ الْمتكلّم.

وقرأ شعبة عن عاصم، وحمزةُ والكسائي وخلف: [مَعِي أَبَداً] بإسكان الياء.

والقراءتان وجهان لنطق ياء المتكلم عند العرب.

* وقرأ جمهور القراء العشرة: [مَعِي عَدُوّاً] بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

وقرأ حفصٌ فقط: [مَعِيَ عَدُوّاً] بفتح ياء المتكلّم.

اشتملت هذه الآيات على ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: تضمَّنَ بيـان ثـلاث ظـاهـرات من ظـواهـر المنـافقين النفسيـة، والسلوكية مع أحداث غزوة تبوك، وهي ظاهرات لم يَسْبق الحديث عنها في السورة:

الظاهرة الأولى: أنّ الـذين قَعَدُوا عن الخـروج إلى غزوة تبـوك، بَعْدَ أن خـرج الرسول والمؤمنون معه إليها، فرحوا بقعودهم، وفرحوا بمكان قُعودهم الذي وجدوا فيه الظلّ والأنس والأَمْن والعيش الذي لا مشقة فيه، وفرحوا بزمان قعودهم إذْ كان الـزمان زمـان حرٍّ شـديد، والمـريحُ فيـه أن يسكن الإنسان في مكـانـه الـظليـل، لا أن يخـرج مجاهداً، ويعرّض نفسه لتحمُّل المشقّات.

الظاهرة الثانية: أنهم كرهوا أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

الظاهـرة الثـالثـة: أنَّهم كـانـوا يثبِّطُون من يـطمعـون في أن يسْتَجيبَ لهم من المسلمين أو من إخوانهم المنافقين، بقولهم لهم: لَا تَنْفِرُوا في الحرّ.

وقد جاء بيان هذه الظواهر الثلاث في الآية (٨١).

الفصل الثاني: تَضمّن إنْذار المنافقين بعذابٍ مؤجّل إلى يوم الدين، وعذابٍ معجل، جزاء تخلّفهم عن واجب الجهاد الذي أُمِرُوا به في غزوة تبوك أَمْرَ إلزام لا أمر ندب، وجَزاءَ تثبيطهم المسلمين عن الخروج.

فالجزاء المؤجّل جاء بيانه في الآيتين: (٨١ ــ ٨٢) والجزاء المعجّل جاء بيانه في الآية (٨٥).

الفصل الثالث: تضمَّنَ توجيهَ تعليمات من الله لرسوله حوْل ما ينبغي أن يقوله لهؤلاء المنافقين المتخلفين المثّبطين، وما ينبغي أن يعاملهم به، وما ينبغي أن تكون عليه مشاعره نحوهم.

والتعليمات الموجّهة للرّسول تعليمات موجَّهةٌ لسائر المؤمنين، ولا سيما وُلاة أمورهم.

وقد جاء بيان هذه التعليمات في الآيات (٨٣ ــ ٨٤ ــ ٨٥).

* * *

التدبُّر

قول الله تعالى:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَرِحَ﴾:

الفرحُ السُّرُور والابتهاج، وهو حالة نفسية من مشاعر السعادة، يُحِسُّ بها الإنسان في داخله، إذا حظي بما هو محبوب لديه.

﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

أي: الْمُؤَخَّرُونَ في منازلهم وراء الخارجين إلى الجهاد في غزوة تَبُوك.

تقول: خلّف فُلاَنٌ خادِمَهُ في الدار وسافر، إذا أَخَّرَهُ، أو جَعَلَهُ خَلْفَهُ.

وسمّاهُمُ اللَّهُ «مُخَلَّفِين» باسم المفعول للدّلالة على أن من تخلّف عن خير عظيم

بإرادته فهو في الحقيقة الْمَتْروك لا التَّارِك، والْمَهْجُورُ لا الهَاجِر، وقد أدرك المتنبي هذا المعنى بابداعاته الفكريَّة الأدبية فقال لممدوحه سيف الدولة:

إذَا تَـرَحَّـلْتَ عَـنْ قَـوْمٍ وقَـدْ قَـدَرُوا   أنْ لا تُـفَـارِقَـهُـمْ فَـالـرّاحِـلُونَ هُـمُ

﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾:

الْمَقْعَدُ يَصْلُح أن يكون مصدراً ميميّاً بمعنى القعود، ويَصْلُحُ أن يكون اسم مكانِ القعود، ويصلُح أن يكون اسم زمانِ القعود.

ويمكن حملُهُ هنا على هذه المعاني الثلاثة، إذ المنافقون قد فرحوا بقعودهم وعدم خروجهم إلى الغزوة، وفرحوا بمكان قعودهم الأمِنِ الرَّخْي الظليل، وفرحوا بزمان قعودهم لأنَّ الوقت قد كان شديد الحرّ، والخروج فيه للجهاد في سبيل الله عمل شاقٌّ، فتخصيص زمن الحرّ بجعله زمن قعود أمْرٌ يَفْرَحُ به المنافقون.

﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾:

خِلاَف: يأتي بمعنى بَعْد، يقالُ: جاء خِلاَفَهُ، أو قَعَدَ خِلافَهُ، أي: بَعْدَه. ويأتي بمعنى المخالفة أي: المضادة يقال لغة: خالَفَهُ مخالفةً وخِلافاً، إذا عمل عملاً ضدّ عَمَله أو أمره. وهذان المعنيان يصلحان هنا، فالمنافقون قَعَدُوا بعد انصراف الرسول إلى غزوة تبوك فلم يلحقوا به، وعلى هذا تكون كلمة [خِلاَفَ] مَنْصُوبَةٌ على الظرفية.

وهم أيضاً خالفوا الرسول في قوله وعمله، وعلى هذا تكون كلمة [خِلاَف] منصوبة على أنها حال، أي: فرح المخلّفون بمقعدهم مخالفين رسول الله، أو صفة لمفعول مطلق محذوف، أي: فرحوا بمقعدهم قعوداً خِلاَفَ رَسُول الله، وهما على تأويل المصدر بمشتقّ، أي: على تأويله باسم الفاعل.

هذه الظاهرة الأولى من ظواهر المنافقين في بيانات هذا النصّ، وهي فرحهم بالقعود وعدم الخروج مع الرسول إلى غزوة تبوك، وفرحهم بأنهم تمكّنوا من مخالفة الرسول باصطناع المعاذير الكواذب.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

وهـذه هي الظاهـرة الثانيـة من ظواهـر المنافقين في بيـانـات هـذا النصّ، وهي كراهيتهم في نفوسهم أن يُجاهِدُوا في سبيل الله، سواء بأموالهم في إمداد من يريد الجهاد بنفسه، لكنّه لا يملك ما يَحْمِلُه، أو بأنفسهم بالخروج على نفقة غيرهم، أو بهما معاً.

كُرْهُ الشيء: حالةٌ نفسيّة من آثارها النُّفورُ منه والابتعادُ عنه.

فهؤلاء المخلَّفون المنافقون اجتمعت في نفوسهم وقلوبهم رذيلتان:

الأولى: فَـرَحُهُمْ بأن يقعدوا في مكان طريٍّ آمِنٍ وزمانٍ يَشُقُّ فيه السفر، بَعْد خروج الرسول للجهاد في سبيل الله، وفرَحُهم بأنّهم آمِنُون من معاقبة الرسول لهم على مخالفتهم له، بتلفيق المعاذير الكواذب، وقبول الرسول لها معاملةً لهم بحسب ظاهر أحوالهم.

الثانية: كـراهيَتُهُمْ أن يجاهـدوا في سبيل الله بـأموالهم وأنفسهم معاً، أو بواحدٍ منهما لأنّهم لا يؤمنون بجدْوَىٰ هذا الجهاد لكفرهم بالرسول ويوم الدين.

وهاتان الرذيلتان لا تجتمعان في قلب مؤمن صادق الإيمان.

* قول الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾:

هذه مقالة نفر من المنافقين كانوا يثبطون الناس بها عن الخروج مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، كما سبق لدى استعراض ملخّص الغزوة.

وقد سبق شرح النفر لدى تدبّر الآية (٤١) من هذا النص من سورة (التوبة).

وسبق لدى استعراض ملخّص غزوة تبوك أنها قد كانت في وقت شديد الحرّ، وفي ظروف عسيرة صَعْبة.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾.

يُعلِّم الله بهذا البيانِ الرَّسولَ وكُلَّ مؤمنٍ يَجِدُ مُناسبةً مُواتِيةً لِنُصْحِ الْمُخَلَّفِينَ عن الرَّسول تَعَلُّلاً بالحرّ، مع أن التكليف للخروج معه قد كان عزيمةً وأمراً واجباً، باستثناء أهل الأعذار الحقيقيّة، ولإنْذارِ المخذِّلِينَ المثبِّطين عن الخروج من المنافقين، أن يقولَ لهم مُذَكِّراً ومُخَوِّفاً: نارُ جَهنّم الّتي يَسْتَحِقُّ التعذيبَ بها عصاةُ اللّهِ ورَسُولِهِ، ويَسْتَحِقُّ الخلودَ فيها الكافرون والمنافقون أشدُّ حرّاً، من حرِّ الصَّيف الذي أُمروا أن يخرجوا مجاهدين فيه، فلم يَفعلُوا.

بعد هذا التعليم قال الله تعالى:

﴿لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)﴾.

«لَوْ» هنا يُمْكِنُ أن يكون لبيان أنّ ما جاء بعدها أمْرٌ محبُوبٌ لصاحب القول مرغوبٌ فيه، والمرغوبُ فيه إذا كان بعيد المنال كانت الرَّغبةُ فيه تمنّياً، قال علماء العربية: تأتي «لو» للتمنّي.

وعلى هذا فالله عزّ وجلّ يبيّن أنّه يحبُّ لهم في رحلة امتحانهم أن يفقهوا حقائق ما هم فيه، حتّى يكون فِقْهُهُم دافعاً لهم لطاعة الله ورسوله، والتخلّص من الكفر والنفاق، والقيام بواجب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ونُصْرَة دينه ونشره وتبليغه للعالمين.

الفقه: الفَهْمُ والفِطْنَة، ويُستَعمل للدلالة على العلم ببواطن الأمور وخفاياها، والبحثِ عنها للتوصّل إلى معرفتها، فهو أخصّ من مطلق العلم.

ويمكن أن تَكُون «لَوْ» هنا شرطية، وعلى هذا فجملة الشرط هي: [كانوا يَفْقَهُونَ] أما جواب الشرط فمَحْذُوف يُدْرَك بأدنَى تأمُّلٍ في الكلام السابق، والتقديرُ: لَمَا كفروا ولَمَا نافقوا، ولَمَا عَصَوْا.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

اللّام في ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ وفي ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ هي لامُ الأمر، ولكن لا يُرادُ من الأمْرِ التكليف هنا، فصيغة الأمر هنا مستعملة في معنىً غير طلب القيام بالضَحك والبكاء.

وبالتأمُّل نُدْرِكُ أنّ الأمْرَ في ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ للتهْدِيد بالعذاب الّذي سينزل بهم فيجعلُهُمْ يَبْكُونَ كثيراً، وفي هذه الجملة محذوف تقديره: فليضْحكوا الْيَوْمَ ضَحِكاً قليلاً اغتراراً بما هم فيه.

وندرك أيْضاً أنّ الأمرَ في [وَلْيَبْكُوا كثيراً] هي للتَّهْديد أيضاً بالعذاب الشديد الذي سينزل بهم فيجعلُهُمْ مضطرين إلى أن يَبْكُوا كثيراً يوم الدين، وفي هذه الجملة محذوفٌ تقديرُهُ: ولْيَبْكُوا يَوْمَ الدين بكاءً كثيراً ممّا ينْزل فيهم من عذاب جزاءً بما كانوا في الحياة الدّنيا يكسبون من شرٍّ وإثمٍ وكُفْرٍ ونفاق.

ويُمْكِنُ أنْ تكُونَ هذه الجملة الثانية تَعْبيراً عمّا سَيُقال بشأنهم يَوْمَ الدِّين حينما يَبْكُونَ فعلاً، وهُمْ في جهنّم يُعَذَّبُون جزاءً بما كانوا يَعْمَلُون في الحياة الدنيا، وصيغة الأمر على هذا تكون للتيئيس من الخلاص، أي: مهما تابعوا بكاءهم فلا خلاص لهم مما هو مقررٌ لهم من عذاب على نفاقهم وتثبيطهم للمؤمنين عن الجهاد في سبيل الله.

* * *

* قول الله تعالى لرسوله:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

يقال لغةً: رَجَعَ إلى بلَدِهِ أوْ قومه، إذا عادَ، ويُقالُ: رجَعَهُ اللّهُ إلىٰ بلَدِهِ أو قَوْمِه، إذا أعاده، فالفعل يُسْتعمل لازماً ومُتعَدّياً.

﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾:

أي: إلى طائفةٍ من المنافقين، الطائفة: الجماعةُ والفِرْقَة، ويُطْلَقُ لفظ الطائفة على الواحد فأكثر.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنّ بعض المنافقين المخلَّفين عن غزوة تبوك سَتُدْرِكُه منيَّتُه قبل أن يرجع الرسول ﷺ من غزوة تبوك إلى المدينة.

وظاهر أنّ هذه الآية نزلت على الرسول ﷺ أثناء سفره وقبل عودته من الغزوة.

في هذه الآية يُبيّن الله عزّ وجلّ لرسوله العمل الإداريّ والسياسيّ، الذي ينبغي أن يعامل به المنافقين المخلّفين بأعذار كاذبات عن الخروج معه في غزوة تبوك، إنْ أعاده الله إلى المدينة، وبقي في المدينة طائفة منهم، أي: ودعا المسلمين إلى الخروج لغزوة أخرى مجاهدين بأموالهم وأنفسهم.

ولمّا كان أَجَلُ الرّسول ﷺ قد اقترب، وقد علم الله أنّ غزوة تبوك هي آخِرُ الغزوات التي يخرج فيها الرسول قائداً لها بنفسه، جاء في الآية استعمال حرف الشرط «إنْ» الذي يدخُلُ على الأمر المستَبْعَد وقوعُهُ، أو الذي لا يُرْجَىٰ وقوعُهُ، فجملة الشرط هي كلُّ الكلام المتضمّن رجوعه إلى طائفةٍ منهم ودعونَه إلى خروجٍ آخَرَ يكُونُ هو قائده واستئذانَهم أن يخرُجُوا معه، وهذا لم يحدُثْ في الواقع.

أمّا التصرّف الإداري والسّياسيّ الذي أمر الله رسوله أنْ يعاملهم به، وهو في الحقيقة أمرٌ أيضاً لخلفاء الرسول وأئمة المسلمين من بعده، فيتلخّصُ بعزلهم عزلاً تامّاً عن جَيْشِ الْمُسْلمين، فلا يُدْعَوْنَ إلى الجهاد، ولاَ يُؤْذَنُ لهم بأن يخرجوا مع جيشٍ مجاهِدٍ في سبيل الله.

وهذا العزل شبيهٌ بعزل الّذين عاهدوا اللّهَ مِنْهُمْ قائلين: لَئِن آتَانا اللّهُ مِن فَضْلِهِ لَنصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالحين، فلَمَّا آتاهُمُ الله من فَضْلِهِ وَأغْنَاهُمْ بَخِلُوا، فَلَمْ يَبْذُلُوا مَا فرضَ اللّهُ عليهم في أموالهم منْ زكاة، فعزَلهم الرَّسُولُ عزلاً تامّاً عَنْ مُشَارَكة جماعة المسلمين في صندوق الصدقات العامة، كما سبق بيانه لدى تدبُّر الآيات من (٧٥ ـ ٧٨).

وكلٌّ من الْعَزْلَيْن هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْعَزْلِ الجزئيّ عن جماعة المسلمين، في مجالات محدَّدة، توطئةً لطردهم طرداً تامًّا من جماعة المسلمين، إذَا أضافوا إلى هذه الكبائر أموراً أخرىٰ أشباهها، لَيْسَ لها في الأحكام حدودٌ شرعيّة يُعاقبون بها.

وفي توجيه قرار عزلهم عن جيش المسلمين علّم الله رسوله أن يقول لهم أربع مقالات:

المقالة الأولى:

﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾:

أي: لَنْ تخرجوا مَعي مجاهدين مقاتلين في سبيل الله أبداً.

هذه أولى موادِّ قرار العزل، وهي تدلُّ على منعهم من الخروج مع جيش المسلمين للقتال على سبيل التأبيد.

المقالة الثانية:

﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾:

أي: ولَنْ أَسْمَحَ لَكُمْ بأَنْ تُقَاتِلُوا معي عَدُوّاً أبداً أيضاً، ولَوْ خرجتم بغير إذني، أو دَاهَمَ العدُوّ مواقِعَنا دُونَ أن نخرج إليه غُزاةً.

وهذه هي المادّة الثانية من موادّ قرار العزل، وهي تدلّ على منعهم من المشاركة في القتال، على أيّة حال، ولو دون خروجهم مع جيش الجهاد المقاتل.

المقالة الثالثة:

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

في هذا القول بيان السبب الداعي إلى توجيه مادّتي العزل الأولى والثانية، وجاء التعبير هنا بأنّهم رضُوا بالقعود عن الخروج للقتال مع الرسول في أوّل مرّة وجّه الرسول فيها أمراً إلزامياً بالخروج معه، بَعْدَ أن كانت الدعوات السابقات للخروج معه على سبيل النَّدْب والتحريض، لا على سبيل التكليف الإلزاميّ، وقد سبق أنْ أبان الله أنَّهُمْ فَرِحُوا بمقعدهم خِلافَ رسول الله، وكَرِهُوا أنْ يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فدَلّ على أنّ المراد من رضاهم بالقعود أوّل مرّة، هو ما يشمل فرحهم بمقعدهم، وكراهيتهم أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

ولا شكّ أنّ هذه الحالة النفسيّة لهم تتنافى مع الإيمان، فهم بسبب ذلك

يستحِقُّون العزل عن الجيش، والعزْلَ عن مقاتلة أعداء الإسلام والمسلمين، لأنَّهم لا يَزيدون المسلمين إلاّ خَبالاً.

المقالة الرابعة:

﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾:

الخالِفُ: يُطْلَقُ على العاصي الكثير الخلاف، ويطلق على الفاسد من الناس الذي لا خير فيه.

أي: وبما أنكم رضيتم بالقعود خلاف رسول الله، عند أوّل إلزام لكم بالخروج معه مجاهدين، ففرحتم بمقعدكم، وكرهتم أن تجاهدوا بأموالكم وأنفسكم، فاقْعُدُوا مع العصاة الكثيري الخلاف، ومع الفاسدين من الناس الذين لا خير فيهم، وفي هذا إشعارٌ لهم بأنّهم قد شَفَّ سُلوكُهُمْ عَنْ كُفْرِهم، فالفاسد الذي لا خير فيه يترجّح كونه كافراً، بل هو كافر باطناً، ولو لم تصِلْ تصَرُّفاتُه إلى إدانته بالكفر ظاهراً وإقامة حدّ المرتَدّ عليه.

وهذه المقالة من قرار العزل مادّة توبيخ وتقريعٍ وتشهير بما يُشْعِرُ بعزلهم وفصْلهم عن جماعة المسلمين في مجال الجهاد، الذي هو مقدِّمة لفصلهم وعزلهم كلّيّاً عن جماعة المسلمين في كلّ المجالات.

* * *

* قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

هذا خطابٌ للرّسُول إذْ قدْ أعلمه الله بأشخاص المنافقين يومئذٍ، ويُلْحَقُ به كلُّ من عرفَهُمْ أو عرف بعضاً منهم بإخبار الرسول، أو بدلائل الأمارات والعلامات القولية والفعليّة.

واشتمل هذا الخطاب على الإلزام بمعاملتهم بعد موتهم معاملةَ الكافرين الصُّرحاء، من قبَلِ من عَلِمَ حالهم ولو بالدلائل التي تُفيد غلَبَةَ الظَّنّ، فكيْفَ بمنْ عَلِمَ

حَالَهُمْ يقيناً عن طريق الوحي، كالرّسول ﷺ، وكحذيفة بن اليمان الذي كان صاحب سرّ رسول الله ﷺ في المنافقين.

وقد سبق لدى تدبر الآية (٨٠) بيان سبب نزول هذه الآية (٨٤).

والبيان في هذه الآية اشتمل على تكليفين وعلى بيان السّبب لما جاء فيهما:

التكليف الأول: النَّهيُ عن الصلاة على أحد مات من المنافقين، نهياً أبديّاً، والصلاة تَشْمَل الصلاةَ ذاتَ التكبيرات الأربع، التي يتخلّلها الدعاء للميّت، وتشمل الدعاء له بالمغفرة والرحمة ولو في غير هذه الصلاة الخاصة، لأنّ الدعاء يدخل في عموم الصلاة لغة، فقال تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾.

التكليف الثاني: النَّهْيُ عن القيام على قبر أحدٍ من المنافقين، وهذا النهي يشمل الوقوف على قبره للدعاء له، والقيام بمهمّات دفنه وإصلاح قبره، وهذان هما الاحتمالان اللّذان أوردهما المفسّرون، ورجّح بعضهم الأوّل، لأنّ الرسول كان يقف على قبور المسلمين ويدعو لهم.

أقول أمّا الاحتمال الأوّل فيدخل في عموم التكليف الأول وهو النهي عن الصلاة عليه، إلّا إذا حملنا الصلاة على الصلاة ذات التكبيرات المعروفة بالصلاة على الميت. وأمّا الاحتمال الثاني فيقتضي تخصيص النَّهْي بالرسول ﷺ، لأنّ الميت لا بدّ من دفنه، ولو كان كافراً صريح الكفر، فمن مات بين المسلمين ممّن ظاهره الإسلام، فالمسلمون مُطَالَبُون بدفنه مهما كان شأنه، ولو كان منافقاً معلوم النفاق.

ولكن يوجد احتمال ثالث وهو القيام على قبر المنافق، بمعنى المكث عنده طويلاً، إذِ المطلوبُ من المؤمن إذا مرّ على مقابر الكافرين أو زارها، أن لا يمكث عندها طويلاً، بل ينبغي أن يُسْرِعَ الخطو ويتجاوزها، لأنّها مواطن موبوءة بالنُّفوس المعذّبة التي تتنزّل عليها اللّعنة من الله وملائكته، باستثناء أحوال خاصة كزيارة الرسول ﷺ لقبر أمّه.

ولذلك لمّا مرّ الرسول ﷺ بالحجر (وهي مساكن ثمود) ومعه المسلمون في غزوة

تبوك، غطّى وجْهَهُ بثوبه، واستحثّ راحلته لتُسْرِعَ، ثمّ قال: لا تدخلوا بُيُوت الّذِين ظلموا إلاّ وأنتم باكون، خوْفاً أنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أصابهم.

وقد جاء في اللغة استعمال «قَامَ» بمعنىٰ وقَفَ وثَبَتَ فلم يتقدَّمْ ولم يتأخّر، وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الفعل، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾.

قال أهل اللّغةِ والتفسير: قامُوا هُنَا بمعنىٰ وقَفُوا وثَبَتُوا في مكانِهِمْ غيْرَ مُتَقَدِّمين وَلا متأخرين.

وبعد بيان التكليفين أبان الله السبب لما جاء فيهما فقال تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

كلامٌ مستأنف في أسلوبه اللفظي، ولكنّ إيراده عقب التكليفين السابقين، مع ملاحظة الروابط الفكريّة، وسوابِقِ المفهومات القرآنية، يجعلُهُ بقوّة الكلام المقترن بأداة من أدوات التعليل.

فالسبب في توجيه الأمر بعدم الصلاة على من مات منافقاً، وعدم القيام على قبره، كونُه كَفَر بالله ورسوله، واستمَرَّ كذَٰلِكَ طَوالَ حياته حتّى مات وهو فاسقٌ فسقاً من دركة الكفر، وقَدْ قضىٰ الله بحكمته أن لا يَغْفِرَ لمنْ مات كافراً، ولو كان كُفْرُهُ مِنْ أخفِّ دركات الكُفر، وهو الشرك.

الفسق: هو العصيان والخروج عن الحقّ والواجب وأوامر الله ونواهيه، وهو مصطلح إسلامي، مأخوذ من قول العرب: فَسَقت الرُّطبةُ إذا خرجت من قِشرتها، ومعلوم أنّ الرطبة متى خرجت من قشرتها تعرّضت للفساد السّريع.

وللفسق دركات، أخفُّها يكون بارتكاب المحرمات، أو ترك الواجبات مع سلامة الإيمان والإسلام، وأشدّها وأخسُّها يكون بالكُفْر بالله وبما جاء عن الله جحوداً وعناداً وإصراراً على الباطل واتّباع الهوى.

ويُحْمَلُ لفظ الفسق ومشتقاته في النصوص على الدُّركة الّتي تقتضيها القرائن، من سوابق الكلام ولواحقه.

فقد تقتضي القرائن أن يكون المراد من الفسق في النصّ المعاصي التي

لا تنقُض الإيمان والإسلام، فيُحْمَلُ عليها.

وقد تقتضي القرائن أن يكون المراد من الفسق في النصّ المعاصي من دركة الكفر، فيكون مساوياً للكفر عندئذٍ، وأكثر ما استعملت هذه المادة في القرآن للدّلالة على الفسق منْ دَرَكة الكفر.

* * *

* قول الله لرسوله ويُلْحَق به المؤمنون:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

سبق شبيه هذه الآية مع اختلاف في بعض ألفاظها، وهي الآية (٥٥) من السّورة، وهي قوله تعالى فيها:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

وقد سبق أن تدبّرنا هذه الآية على قَدْرِنا، ويَحْسُنُ بِنَا هنا أن نبحث عن الغرض من إعادة الفكرة التي اشتملت عليها الآيتان، وأن نتدبّر دلالات الفروق اللفظيّة بينهما.

لا يَحْسُنُ أن أعيد هنا ما سبق شرحه وبيانه وتفصيلُه هُنَاك، بل ينبغي أن أقتصر هنا على ما يمكن إضافته إلى ما سبق.

يبدو للمتدبّر أنّ الآيات لمّا بدأت تنزل في سورة (التوبة) تباعاً بشأن المنافقين، الأمر الذي يُشْعِر بأنّ التوجُّهَ الرّبّاني قد أخذ في سياسة كشفهم وفضْحهم، تمهيداً لعزلهم عن المجتمع الإسلامي، تحرّكت نفوس المؤمنين ناظرةً نظرات إعجاب بأموالهم وأولادهم، أي: إذا كان أمرهم كذلك، فلِمَ يُمِدُّهُمُ اللَّهُ بالأموال والأولاد؟

فأنزل الله عزّ وجلّ عقب تحرّك النفوس بهذه المشاعر قوله خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ﴾.

فجعل الخطاب مبدوءاً بحرف العطف (الفاء) الّتي تدلُّ على الترتيب مع

التعقيب، ووجّه الخطاب للرسول، وهو خطابٌ لكلّ مؤمن حصل لديه هذا الشعور، وجاء الخطاب على طريقة الخطاب الإفراديّ ليكون أوقع في نفس من تحرّك لديه هذا الشعور المصحوب بالتساؤل.

ولمّا كانت نظرات المعجبين تتّجه مرّة لأموال المنافقين، ومرّةً أخرى لأولادهم، جاء فيها إعادة حرف النفي (لا) فقال تعالى:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾.

وجاء في هذه الآية قوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ بها﴾ بإضافة اللّام الجارّة، للدلالة على أنّ مفعول [يُرِيدُ] محذوف، والحذف يقتضي إرادة أشياء كثيرة مختلفة يريدُها الله عزّ وجلّ، كمتاعب جمع الأموال، ومتاعب حمايتها وحفظها، ومتاعب الخوف عليها، وآلام تعرُّضها للمتالف والخسارات، وتَسَلُّطِ أصحاب المطامع عليها، إلى غير ذلك، وكمتاعب عقوق الأولاد، وأمراضهم، ومشاكلهم الكثيرة، وموت من يموت منهم.

وجاء في هذه الآية قولُه تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا﴾ مُصَرِّحاً فيها بلفظ الحياة، للنصّ على أنّ تعذيبهم يكون وهم أحياء في هذه الدنيا قبل الرحيل عنها بالموت، والدخول في أول منازل الآخرة.

وتتابعت بعد هذه الآية الآياتُ تتنزّل بشأن المنافقين، فضيحةً وإنذاراً وتهديداً وتوبيخاً [في سورة (التوبة)] وظلّت بعض نفوس المؤمنين تتحرك ناظرةً إلى المنافقين نظرات إعجاب بأموالهم وأولادهم، فدعا هذا إلى إنزال الآية (٨٥)، وقال الله تعالى فيها:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾.

فلم يجعلها مبدوءة بالفاء، بل بحرف العطف (الواو) لأنّ النهي هنا قد جاء تأكيداً للنهي الأول، ما دام بعض المؤمنين لم يصرفوا عن أنفسهم هذا الإعجاب، اقتناعاً بما دلّت عليه الآية السابقة.

ولم يأتِ في هذه الآية الثانية إعادة حرف العطف (لا) بجانب الأولاد، لأنّ حال المخاطبين قد وصل نظرهم إلى الإعجاب بأموال بعض المنافقين وأولادهم معاً في وقت واحد، فاستدعىٰ هذا الحال أنْ يكون الأداء البيانيُّ مطابقاً له.

ولمّا أصرَّ المعنيُّونَ من المنافقين على مواقفهم العنادية، وبقي في الظنون أنّ التعذيب بالمرادات المختلفات التي ترافق جمع الأموال وحفظها، وترافق تربية الأولاد وتنشئتهم، قد لا يَسْتَتْبِعُ التعذيبَ بأعيان الأموال وأشخاص الأولاد التي يُمِدُّ اللهُ المنافقين بها، قال الله تعالى في الآية اللاحقة:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾:

أي: يُريدُ تَعْذِيبَهُمْ بها، فتكامل النّصّان، إذْ دَلَّ السابق على تعذيبهم بأشياء كثيرة مرافقة لجمع الأموال وحفظها، وتربية الأولاد وتنشئتهم، ودَلّ النصّ اللاحق على تعذيبهم بأعيان الأموال وأشخاص الأولاد.

وحُذِف من النصّ اللاحق لفظ (الحياة) استغناءً بما جاء في النصّ السابق.

وهكذا تكشّفت لنا فروق الدّلالات، وظهر لنا الغرض من إعادة فكرة النصّ، مع ما اشتمل عليه النصّ اللاّحقُ من إضافات، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

أما تدبُّر بقيّة ما جاء في الآية اللاّحقة فهو مطابقٌ لما جاء في الآية السابقة، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [ٱلْمُعَذِّرُونَ] بفتح العين وتشديد الذال المكسورة.

وقرأ يعقوب فقط: [الْمُعْذِرُونَ] بإسكان العين وكسر الذال من غير تشديد.

الْمُعَذِّرُون: بتشديد الذال هم الذين يعتذرون وهم كاذبون ليس لهم أعذارٌ حقيقيّة، إنّما يوهمون أنّ لهم أعذاراً، فالْمُعَذِّرُ هُوَ الذي يتكلّف إظهار العذر اعتلالاً من غير أن يكون له عذر في الواقع.

الْمُعْذِرُون: بإسكان العين وتخفيف الذال، هم الذين يَعْتَذِرون وهم صادقون، فالْمُعْذِرُ هو الذي له عذرٌ في الحقيقة وواقع الأمْر.

فبين القراءتين تكامل فكري، لأنّ الذين اعتذروا من الأعراب عن الخروج مع الرّسول ﷺ في غزوة تبوك كانوا فريقين:

الفريق الأوّل: الذين اعتذروا عن الخروج كاذبين، قيل: ومنهم نفر من بني عامر، قوم عامر بن الطُّفيل، وينطبق عليهم عنوانُ «الْمُعَذِّرين» بتشديد الذال وفتح العين.

الفريق الثاني: الذين اعتذروا عن الخروج صادقين، قيل: ومنهم نفر من بني غفار، وينطبق عليهم عنوان «الْمُعْذِرين» بتخفيف الذال وإسكان العين.

* * *

موضوع هذه الآيات

يُعلّم الله عزّ وجلّ رسوله وسائر المؤمنين في هذه الآيات مع لواحق لها في السورة طريقة الحكم على أحوال الناس المستقبليّة، بالامتناد إلى تجربتهم في الماضي، وأخْذِ ذلك بالملاحظة والاعتبار لدى إعداد خطط الأعمال الْمُزْمَعِ القيامُ بها في المستقبل.

فالمنافقون من شأنهم إذا أُنْزِلت سورةٌ تدعو إلى صدق الإيمان بالله والجهاد مع رسوله بالأموال والأنفس، استأذن القادرون على الجهاد، وقالوا للرسول أوْ لِوَلِيِّ الأمر من بعده: ذرْنا نَكُنْ مع القاعدين، هذا في أحسن أحوالهم، أو تخلّفوا دون استئذان، أو كانوا مثبّطين داعين إلى التخلّف، كالذين سبَق أن قالوا: لا تنفروا في الحرّ.

وتجاربُ الماضي التي حدثت بعد الأمر بالخروج إلى غزوة تبوك تدلُّ على أنهم سيكونون كذلك في المستقبل، فعَلَى الرسول وكذا على إمام المسلمين من بَعْده أنْ يضَعَ هذه التجربة في اعتباره لدى إعداد خطط المستقبل، فلا يُدْخِل ضِمْنَ قوّتِه التي يضَعُها في حسابه أشخاصَ المنافقين ولا قُواهم الماليّة وغيْرَها، لأنّ المنافقين إنْ لم يكونوا قُوىً سالبةً تَعْمَلُ لحسابِ الأعداءِ فهُمْ قُوىً مُعَطَّلَةٌ سَاكنةٌ لا تَعْمَلُ.

أمّا الرّسُول والمؤمنون الصادقون فقد أثبتت التجربة أنّهم جاهدوا فعلاً بأموالهم وأنفسهم، ولم يتخلّف منهم إلاّ ذوو الأعذار الحقيقية، كالعاجزين في أجسامهم، وكالذين لم يجدوا ما يَحْمِلُهم في رحلتهمُ الجهاديّة، ولم يوجد فيهم إلاّ قلّة قليلة تخلّفوا تكاسلاً وتسويفاً، ولمّا فاتَهم شَرَفُ المشاركة كبُرَ عليهم الأمرُ ونَدِموا، وحين سئلوا عن سبب تخلّفهم اعترفوا بذنبوهم، واستَغْفَرُوا ربَّهُم، وتَابُوا، فتَاب الله عليهم، فهؤلاء هم الذين يوضعون في الحساب، لدى إعداد الخطط المستقبلية الجهاديّة.

هذا الدرس التَّعْلِيمي من هذه السورة دَرْسٌ يصْعُبُ اكتشافُ موضوعه، لكن مَنْ تدبَّرَهُ منذ بدايته تَدَبُّراً دقيقاً، ولاحَظَ حَرْفَ الشرط (إذا) الذي في أوّله الموضوع لما يُسْتقبَلُ من الزمن، واكتشف المطويات خلاله، وأسْعَفَتْهُ معونة الله وتوفيقه استطاع أن يُدْرِك موضوعه على ما سبق بيانه.

* * *

التدبُّر

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

الطَّوْلُ في اللُّغَة: الغِنَىٰ واليَسَارُ والسَّعَةُ والقُدْرَةُ والفَضلُ والعُلُوّ.

﴿ذَرْنَا﴾:

اي: اتْرُكْنا. مُضارِعُهُ «يَذَرُ»، أمّا ماضي هذا الفعل ومصدرُه فقد أماتهما العرب، وهما: «وَذِرَ وَذْراً» وكذلك لا يُسْتَعْمَلُ منه اسْمُ الفاعل، فلا يُقَال: «واذِر» بمعنى: تارك، واستغنوا بفعل تَرَكَ تَرْكاً فهو تارك.

﴿مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾:

أي: مع الَّذِين يُؤْذَنُ لهم بأن يَقْعُدوا في بلَدِهم، أو منَازِلِهِمْ ولا يَخْرُجُوا لِقتالِ العدُوِّ، لِعَجْزِهِمْ عن القيام بمهمّات القتال، كَذَوِي العاهاتِ والمرضَىٰ والعَجَزة والصّغار.

والمعنى: سبَقَ أنْ عَرَضْنَا الظواهر السلوكيّة للمنافقين لدى أمْرِكَ يا مُحَمَّدُ لهم أمْرَ إلْزَامٍ بالْخُروج إلَىٰ غَزْوَةِ تَبُوك، فكانَ منهم من اعتذر كاذباً، وكان منهم من تخلَّفَ دُونَ أن يَعْتَذِر، وهو في الحقيقة قادِرٌ لا عُذْرَ له، وكان منهم مُثَبِّطُونَ عن الخروج مَعَكَ، فَخُذْ عِبْرَةً من تَجْرِبَتِكَ لَهُمْ فيما مضىٰ، وقِسْ عليه مُسْتَنْتِجاً مَا سَيكُونُ مِنْهُمْ في المستقبل، فإذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ من رَبِّكَ تَأمُرُهُمْ أمْراً مباشراً صَرِيحاً، أنْ آمِنُوا باللّهِ، إيماناً صادقاً، وتخلَّصُوا ممّا أنتم فيه مِنْ نفاق، وجاهِدُوا مع رَسُول الله بأموالكم وأنْفُسِكُمْ في حُدُود ما لَدَيْكُمْ من قُدْرَةٍ على الجهاد بأنفسكم، ويَسَارٍ في أموالكم، جاءَكَ يا محمّد أهْلُ الغنىٰ منهم، وأهل القُدْرَة على الجهاد، ومنهم ذَوُو المكانة العالية فيهم، فاسْتَأْذَنُوك، أي: طلبوا أن تأذن لهم في أن لا يخرجوا مع المقاتلين، مع صريح الأمر الرَّبَّانيّ لهم بأن يجاهدوا بمقتضى السّورة المشار إليها، فيما لو أُنْزِلَتْ كذلك، ولمّا كُنْتَ لا تأذَنُ لهم بمخالفة أمْرِ اللّهِ الموجَّهِ للقادرين، فإنَّكَ سَتَرَاهُمْ يتذرَّعون بذرائع باطلة، ويعتذرون بأعذار كاذبة، لتأذن لَهُمْ بمقتضى هذه الأعذار، إذْ يكون حالُهُمْ بمقتضى هذه الأعذار كحالِ القاعدين أولي الضَّرَر الّذين لم يكلّفهم الله أن يخرجوا مقاتلين، دلّ على هذا قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾:

أي: ائذَنْ لنا بأن لا نَخْرُجَ لِعُذْرِ كذا، ولِعُذْر كذا، واتْرُكْنَا بسبب هذه الأعذار الباطنة التي لا تظهر للنّاس نكُنْ مع أصحاب الأعذار الظاهرة التي يراها الجميع، وهم العُمْيُ والعُرْجُ والمرْضَىٰ والشيوخ الهرمون، ونَحْوُهُمْ، فحالُ الأعذار الباطنة كحال الأعذار الظاهرة، تَصْلُحُ لرَفْعِ التَّكْلِيف، وللإذنِ بعدم الخروج.

هكذا يُصَوِّرون قضيَّتَهُمْ فيما يُلَفِّقُونَ منْ أعْذَار.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

الْخَوَالِفُ: جَمْعُ خالِفَة، وهي المرأة التي تَخْلُفُ الرجُلَ في القعود، في البيت، ولا تخرج للقتال.

الكلام في هذه الآيـة تابعٌ لما دخلت عليه «إذا» في الآية السابقة، فهـو مبدوءٌ بصيغـة الفعـل المـاضي، لكنّ «إذا» تجعـل المـاضي الـذي تـدخـلُ عليـه في معنى المستقبل.

أي: إنّهم يطلبون بمقتضى ما يلَفّقُون من أعذارٍ كاذبة أن يكونوا مع القاعدين من الرجال أهل الأعذار، لكنّهم في الحقيقـة يَرْضَـوْن بأن يكـونوا مـع النّسـاء الخـوالِفِ للرّجال في البيوت.

وفي هذا التعبير تـوجيه إهـانةٍ لهم بـأنّهم رجالٌ في الصـورة، لكنَّهُمْ في الحقيقة بحكم النساء جُبْناً، وتهرّباً مِن الواجبات التي يتحمّل أعباءَهـا الرّجـال، وأنّهم يَرْضَـوْنَ بأن تُلْصَقَ بهم هذه الصّفة التي تنافي كونهم ذوي رفعةٍ في قومهم، ولا يُعَرِّضوا أنفسهم لما يكرهون من جهادٍ بأموالهم وأنفسهم.

ومعلوم أنّ أهْلَ الجاهلية كانوا يرون من المهانة أن يُوصَف الرُّجـل منهم بأنّـه في الحرب مع الخوالف من النّساء.

ومع هذه المهـانة في طبيعـة نفوسهم يـوجَدُ في قلوبهم داءٌ آخـرُ، دلّ عليه قـولُه تَعالَىٰ:

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

الطَّبْعُ في المادّيّات الملموسة كالختم، وكان من عادة الملوك وغيرهم إذا أرسلوا رسـائل، وأرادوا المحـافظة على سـرّيّة مـا فيها أقفلوهـا بإحكـام، ووضعوا عنـد مكان إقفالها طيناً خاصّاً يطبعون عليه خاتمهم الخاصّ بهم، فيجفُّ الطين ومثالُ الخاتم عليه مطبوعٌ، فلا يمكن معرفة ما في داخل الرسالة إلاّ بكسر خاتم الطين.

وعلى سبيل التوسع في التعبير بنقل ما هو للمادّيـات للمعنويـات جاء في القـرآن

المجيد التعبير بالطَّبْع وبالختم على القلوب، للدّلالة على أنّها مقفلة محجوبة عن إدراك أيّ شيءٍ يتعلّق بما هي محجوبة عنه.

وطَبْعُ الله على القلوب لا يكون بصورة ابتدائية جَبْرِيّة، ولكن يكون نتيجة ما يكسبه العبد بإرادته من أعمال ظاهرة وباطنة يتولّد عنها بمقتضىٰ سُنَّةِ اللَّهِ في قوانين الأسباب والمسبّبات الثابتة الطَّبْعُ، وقوانين الأسباب والمسبَّباتِ إنما تتحقّق نتائجها بخلْق الله، فهي من أفعاله سبحانه.

فَمَعْنَى ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: وكانَ من نتيجة كفرهم وتولّيهم عن آيات الله البيّنات، وعن الاستجابة الصادقة لدعوة الحقّ، أن جرتْ سُنّةُ اللّهِ فيهم، فأُقْفِلَتْ قُلُوبُهُمْ إقفالًا كاملًا، وطُبِعَ على هذه الأقفال إيذاناً بأنّها غيرُ مُسْتعِدّةٍ لأنْ تُفْتح.

وبما أنّ قُلُوبَهُم أُقْفلَتْ هذا الإقفالَ وطُبِعَ عليها:

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾:

أي: لا يفهمون فهماً دقيقاً حقائق الأمور، ويُفَسِّرون الأمور تفسيراتٍ سطحيّةً بعيدةً عن حقائقها الخفيّة عليهم، التي تقع دلائلها وأماراتها من وراء السُّطُوح، والسّبب في ذلك أنّهم لم يؤمنوا بالله ورسوله وآياته إيماناً صحيحاً، فتوقفت أفهامهم عند الظواهر السببيّة، فلا يعلمون إلاّ ظاهراً من الحياة الدّنيا.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: لَكِنْ دلّتْ التّجاربُ السّابقة علىٰ أنّ الرّسول والّذين آمَنُوا معه جَاهدوا فعلًا بأموالهم وانفسهم، وهذه التّجاربُ السابقة تدلُّ علىٰ أنّهم إذا انزلَتْ سورة من عند الله تأمُرُ بالجهاد لم يَتَوانَوْا وَلَمْ يتخلّفُوا، بل يُسَارعون إلى مرضاة الله وطاعته بالجهاد في سبيله.

فالمعنى: لَكِنِ الرَّسُولُ والذين آمَنُوا معه إيماناً صادقاً جاهدوا فيما سبق بأموالهم وأنفسهم، وسيجاهدون فيما يأتي طاعةً لله، وأولئك لهم الخيرات، وأولئكَ هُمُ الْمُفْلحون.

الْخَيْرَاتُ: جمع «خَيْرَة» وهي الفاضلة من كلّ شيء، ويقال لغة: امْرَأَةٌ خَيْرَةٌ، أي: جميلة حسنة، كريمة النسب، شريفة الحسب، كثيرة المال، إذا وَلَدَتْ أنجبت.

الْمُفْلِحُون: أي الظافرون بما يُحِبُّون وبما يريدون وبما يشتهون.

إنّ الله عزّ وجلّ يُخْبِرُ خَبَراً عَمّا سيكون للمؤمنين الصادقين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، من أنّ الْخَيْراتِ ستكونُ متحقّقةً لهم، وأنّهم سيكونون هم الْمَخْصُوصين بالفلاح الأكْبَر.

وهذا الخبر من الله عمّا سيكون لهم يَدُلُّ باللُّزوم العقليّ على وعد الله لهم بذلك، لأنّ أحداً غَيْرَ الله عزّ وجل لا يَمْلِكُ أن يُحقّقَ لهم الخيرات في الدنيا والآخرة، والظَّفَر الأكْبَر بما يُحبُّون ويريدون ويَشْتَهُون في جنّاتِ النعيم يوم الدّين.

وذكر اللهُ عزّ وجلّ المكان الذي يُحَقِّقُ لهم فيه الحظَّ الأكْبَر من هذا الوعد الكريم بالخيرات والفلاح الأعظم الذي يخصُّهم به، فقال تعالى:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

أَعَدَّ: يقال لُغَةً: أعَدَّ الشيءَ إذا هيّأه وجَهَّزَه.

الْفَوْزُ: الظَّفَرُ ـ النجاةُ من الشّرّ ـ الرِّبْحُ. وكُلُّ هذه المعاني صالحة هنا. وقد سبق تدبُّر مثل هذه الآية عدّة مرّات.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ
سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

سبق أنْ عرفنا أنّ الْمُعَذِّرينَ هم الذين يَخْتَلِقُون الأعذار كاذبين، وأنَّ الْمُعْذِرِين هم الذين يَعْتَذِرُونَ صَادِقِين.

وقد كان في الذين قَدَّمُوا اعْتِذارَهُمْ عن الخروج مع الرسول في غزوة تبوك مُعَذِّرُون كاذبون، وكان هؤلاء من المنافقين وكان فيهم مُعْذِرُونَ صادقون في أعذارهم، وكان هؤلاء من المؤمنين الصادقين، فجاءت القراءتان للدلالة على وجود هذين الفريقين من الأعراب.

أعراب: اسم جنس جمعي، من الذي يفرق بينه وبين واحده بالياء فيقال في مفرده أعرابي، والأعراب سكان البادية.

في هذه الآية يُبَيِّن الله عزّ وجل أمْثِلَةً منَ التجارب السابقة الّتي امْتُحِنَ بها الأعْرَابِ، حين أُمِرُوا بالخروج مع الرسول في غزوة تبوك، وهم سُكَّانُ البادية، فكانوا أربعة أقسام:

القِسْمُ الأوّل: مُعَذِّرُون، أيْ: مُعْتَذِرُون كاذبون، وفق قراءة التشديد.

القِسْمُ الثاني: مُعْذِرُون، أي: مُعْتَذِرُونَ صَادِقون، وفق قراءة التخفيف.

القِسْمُ الثالث: قاعِدُونَ مُتَخَلِّفُون دُون أن يَعْتَذِروا، وهم منافقون كذَّبوا الله ورسُوله، في ادّعاء أنَّهُمْ مؤمنون مسلمون.

وسكت النصُّ عن قسم رابع محتمل الوجود، وهم قاعدون متخلّفون من الأعراب تهاوناً وكسلاً مع أنّهم مؤمنون صادقون غير منافقين، وأرىٰ أنّ سكوت النصّ عن هذا القسم قد كان لإمكان استخراجه بالتأمل، وبالقياس على الثلاثة الذين خُلِّفُوا من أهْلِ المدينة.

هذه التجربة السابقة للأعراب من أهل البادية يُسْتَفاد منها لدَىٰ التخطيط مستقبلاً للقيام بغزوات.

وأخبر الله عزّ وجلّ أنّ المنافقين الكافرين باطناً من الْمُعَذِّرِينَ والقاعدين سيُصِيبُهم عذابٌ أليم، وهذا الخبر من الله يَدُلُّ باللّزوم العقلي على وَعِيدِ اللّهِ لهُمْ بذلك، وهذا العذاب الأليم يُعَذَّبُونَ به في دار العذاب يوم الدّين، وربّما قَبْلَ ذَلك

أيضاً، كأنواع عذابٍ في الموقف، وفي البرزخ، وفي الدنيا، فقال تعالى:

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا
عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ
تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

* * *

موضوع هذه الآيات

يُبيّن الله عزّ وجلّ في هذه الآيات بالوصف العامّ أهل الأعذار الّذينَ لا حَرَج عليهم في ترك الخروج إلى القتال في سبيل الله، ويُبيّن أيضاً الذين لا عُذْرَ لهم فهم عصاةٌ في تخلّفهم عن الخروج إذا أُمِرُوا به أمْرَ إلزام وإيجاب، لا مُجرّدَ أمْرِ ترغيبٍ وندب.

إنّ الحديث عن المنافقين الذين يعتذرون كاذبين عن الخروج إلى القتال قبل انطلاق الجيش، أو يَتخلّفُون دون اعتذار، ثمّ يعتذرون بعد عودة الجيش، والحديث أيضاً عن المؤمنين المجاهدين وعن المؤمنين الذين يتخلّفون بأعذار حقيقية، استَدْعَى الإتباعَ بآياتٍ يَصِفُ الله فيها أهل الأعذار الحقيقيّة، ويُشير فيها إلى صفات الذين ليس لهم أعذار حقيقيّة.

* * *

التدبر

* قول الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾.

﴿الضُّعَفَاءِ﴾:

هم الذين لا قدرة لهم على القتال، ومعاناة الأسفار والأعمال الشاقّة، ومقاوَمةِ الأحداث الجِسَام التي يُقَاوِمُها الرجال الأصحّاء عادةً. مثل: النساء، والولدان، والعجزة من الرجال كالْعُمْي والْعُرْجِ وأصحاب العاهات الدائمة، والأمراضِ المقعدة المزمنة.

﴿الْمَرْضَىٰ﴾:

هم أصحاب الأمراض العارضة الطارئة.

﴿حَرَجٌ﴾:

الْحَرَجُ في اللّغة: الإِثْمُ والضِّيقُ، وقال الزجّاج: هو أضْيَقُ الضّيق، وأصل الحرج في اللّغة الموضع الكثير الشجر الذي لا تَصِلُ إليه الراعية لضيق مداخله.

﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾:

أي: خلصَتْ قُلُوبُهم من النِّفَاق، وعوارض أمراضِ المعصية باعتماد أعْذارٍ لا تكفي للتخلّف عن واجب الجهاد في سبيل الله، وخلصَتْ قُلوبُهم للّهِ ورَسُولِهِ من شوائب الهوى والشكّ والارتياب.

يقال لغة: نَصَحَ الرجلُ، أو نَصَحَ قلبُه إذا خَلَصَ عمَلُهُ من الْغِشّ، ويقال: نَصَحَ فلانٌ فُلاناً، ونصَحَ له، إذا وجّهَ لَهُ مشورة أو رأياً، أو قدّمَ له شيئاً ما أو عملاً ما خالصاً من الغشّ.

فالنّصح في الإيمان خلوصُه من الشرك، والنُّصح في العمل الديني خلوصُه من

الشرك والرّياء، والنُّصْحُ للّهِ وَرَسُولِهِ خلوصُ الإيمـان والنيّة والعمـل من الشوائب التي تُنافي مرضاة الله تعالى، وطَاعَةُ اللّهِ ورسوله في أوامرهما ونـواهيهما، وإخـلاصُ الولاء للرسول، وموالاةُ من والاه ومعاداة من عاداه، واجتنـابُ كلّ أمْـرٍ فيه معـاونة أو منـاصرة لأهل الكفر والشرك والنفاق.

فالمعنى: لا إثْمَ ولاَ تضْيِيقَ على الّذِينَ يَتخلّفُونَ عَن القتال في سبيل الله المأمورِ به أمْرَ إلزام، إذا كانوا من أهل الأعذار الحقيقيّة، وهم:

(١) الضعفـاء أصحابُ الْعَجْزِ عن القتال عجزاً مستديمـاً، كالنسـاء والـولـدان والْعُمْي والْعُرْج وذوي العاهات والأمراض المزمنة.

(٢) أصحابُ الأعراض الطارئةِ المانعة من الخروج للقتال، كالذين يَعْرِضُ لهم مرضٌ طارىء غيْر مزمن.

(٣) الّـذين لَيْست لهم أموال يُنْفِقُـونها فيمـا يَحْتاجُـون إليه من التجهُّـزِ للخروج للقتـال في سبيل الله، ولا يَجِدُون من يَبْذُل لهم ذلـك، من الأفـراد، أو من بيت مـال المسلمين.

وقد سبق في منـاسبـة الحـديث عن المخلّفين عن الخـروج مـع الـرسـول إلى العمرة، حين صدّه المشركون، وتَمَّ بَيْنَـه وبينهم الصُّلْحُ المعروف بصُلْحِ الحـديبية أن أنزل الله قوله في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ . . . ﴿١٧﴾ ﴾.

ففي هذه الآية ضرب الله مثلاً للضعفاء بالأعْمىٰ والأعرج، وفي آية (التوبة) ذكـر الله لفظ الضّعفاء العامّ ليُبيّن لنا أنّه ذكر في آية سـورة (الفتح) الأعْمىٰ والأعـرج لنقيس عليهما من كان مثلهما من أصحاب العجز المستديم، ولنفهم أسلوب القـرآن في البيان الذي يعتمد على قاعدة قياس الأشباه والنظائر بَعْضِها على بعض.

ويُشْتـرط لرفـع الحـرج عن أهـل الأعـذار أن يَنْصَحُـوا لله ورسـولـه في إيمـانهم وإسلامهم ونيّاتهم وأعمالهم.

هذه هي حدود مرتبة التقوىٰ، أمّا مَنْ أرادَ مِنْ هؤلاء أصحابِ الأعذار أنْ يتحمّـل

المشاقّ، ويَخْرُجَ مجاهداً في سبيل الله، مع أنّ الله قد عذَرَه فَرَفع عنه الحرج، فإنّه يكُونُ حينئذٍ من المحسنين، الذين يُريدون أن يقوموا بأعمال تُقرّبُهُمْ إلى اللّهِ هي من مرتبة الإحسان، أعلى مراتب المؤمنين.

لكِنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُكَلِّفُ عباده المؤمنين العاديّين تكليفاً إلزاميّاً أن يقوموا بأعْمالٍ هي من مرتبة الإحسان، غير أنّهم إذا قاموا بها أثابهم عليها ثواب المحسنين، وإذا لم يقوموا بِهَا لم يؤاخذهم على تركها، لأنّ فِعْلَها هو من مرتبة الإحسان، والمحسنون لَيْسَ عَلَيْهِمْ سبيلٌ يقتضي مؤاخذتهم إذا تركوا العمل الذي هو من مرتبة الإحسان، وإشارةٌ إلى هذه القضيّة قالَ الله تعالى:

﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾:

أيْ: لا يُوجَدُ علَىٰ الّذِين يمكن أنْ يَقُومُوا بأعمالٍ هي من مرتبةِ الإحْسَان سبيلٌ ما يُسْلَكُ للوصول إلى مؤاخذتهم، إذا لم يقوموا بهذه الأعمال، لأنهم غير مأمورين بها أمْرَ إلْزَام وإيجاب، بل قد يُدْعَوْن للقيام بها على سبيل الندب والترغيب، فإذا فعَلُوها كانوا مُحْسنين بها، لأنّها أعمال هي من مَرْتبة الإحسان.

وقد تكرّر في القرآن مِثْلُ هذا الاستعمال وفق هذا المعنى:

(١) فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: لا يُوجَدُ سَبِيلٌ يَسْتَعْلي على مَنِ انْتَصَرَ لنفسه من بَعْدِ ظُلمِهِ، وهذا السبيلُ يُوصِلُ إلى مؤاخذته، إنّما السبيل الذي يستعلي للوصول إلى المؤاخذة، إنّما يكون في هذا الموضوع على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ.

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بشأن قوامة الرّجال على النساء خِطاباً للرّجال:

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾:

أي: فَلاَ تَطْلُبُوا بعْدَ طَاعَتِهِنَّ لكم سبيلاً مستعلياً علَيْهِنَّ يكون لكم به علَيْهِنَّ تسلُّطٌ بغير حقٍّ، لأنّ هذا ظلْمٌ، واستعمالٌ لسُلْطةِ القوامة في غير ما أذن الله به، فلا يَجُوزُ هجرهنّ عندئذٍ ولا ضربُهُنَّ.

(٣) وقال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً بشأن فريق من المنافقين، كرهوا أن يقاتلوا المؤمنين، وكرهوا أن يقاتلوا قومهم مع المؤمنين، وأرادوا اعتزال الفريقين:

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠﴾:

أي: فما جعل الله لكم سبيلاً مستعلياً عليهم يجوز لكم أن تسلكوه لأخذهم وقتلهم، وقد سبق تدبّر هذه الآية في النّص (١٦) من هذه الدراسة عن المنافقين.

استُعْمِل «السّبيل» في هذه النصوص بمعنى ما يوصل إلى المؤاخذة، أو التسلّط، أو العقوبة والانتقام، واستعمل حرف «على» للدلالة على معنى الاستعلاء الذي يتصف به عادة المؤاخِذ أو المتسلِّطُ أو المعاقب المنتقم، إذ ينفُذُ ما يقضي به وهو عالٍ على من ينفِّذه فيه.

وهذا من التوسع في استعمال لفظ «السبيل» بنقله من المادّيّات إلى المعنويات.

وبعد أن أبان الله أنه ما على المحسنين من سبيل قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٩١﴾.

في هذا إشارة إلى أنّ أصحاب الأعذار من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما يُنفِقون، قد لا تبلُغُ أعذارُهم في حقيقة الأمر قَدْراً يكفي لإعفائهم من التكليف ورفع الحرج عنهم، وهو أمْرٌ يَرْجِع إلى تقدير حالتهم بأنفسهم، إنّهم بحسب الظاهر لديهم أعذارٌ ترفع عنهم الحرج، لكنّهم لو تحمّلوا بعض المشقة لكانوا مثل أهل الاستطاعة، وهؤلاء يحتاجون ديانةً للاستغفار وطلب الرحمة من الله، والله غفور رحيم لهم ولغيرهم من أهل الإساءة.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: وليس على هؤلاء وأمثالهم حرج إذا تخلّفوا عن الخروج، لأنّهم حريصون عليه، طالبون له، يسألون تزويدهم بما يحتاج إليه المسافر الخارج للقتال في سبيل الله.

وقد نزلت هذه الآية بمناسبة الفقراء الذين لم يجدوا ما يحتاجون إليه ليخرجوا مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، فجاءوا إلى الرسول وعرضوا عليه حاجتهم، وطلبوا منه أن يزوّدهم بما يَحْمِلُهُم في هذه الغزوة، وكان ما عند الرسول قد تمّ توزيعُه على ذوي الحاجات الخارجين معه، فلم يجد الرسول ما يحملهم عليه، فقال لهم: لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عليه، فرجعوا وهُمْ يَبْكُونَ حَزَناً لأنّهم لم يجدوا عندهم، ولم يجدوا عند الرّسول ما يُنْفِقُونه لشراء ما يَحْمِلُهم، وعُرِف هؤلاء عند مُدَوِّني أحداث غزوة تبوك بالْبَكّائين.

وقد وردت في قصة هؤلاء عدّة روايات جاء في بعضها ذكر أسمائهم.

أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم، أنّ رجالاً من المسلمين، أتوا رسول الله ﷺ وهم الْبَكّاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، وكانوا أهل حاجة، فاسْتَحْمَلُوا رسول الله ﷺ، فلم يجد عنده ما يحملهم عليه، فانصرفوا من عنده يبكون. وهم:

(١) سَالِمُ بْنُ عُمَير (من بني عُمر بن عوف).
(٢) حِرْمِيّ بن عَمْرو (من بني واقف).
(٣) أبو ليلىٰ عبد الرحمن بن كعب (من بني مازن بن النجّار).
(٤) سلمان بْنُ صخْر (من بني المعلّىٰ).
(٥) أبو عبلة عبد الرحمن بن زيد (من بني حارثة).
(٦) عَمْرو بن غنمة (من بني سَلِمة).
(٧) عبد الله بن عمرو المزني.

وأخرج ابن جرير عن محمّد بن كعب نحو ذلك.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن قال: كان «مَعْقِل بْنُ يَسَارٍ» من البكّائين.

﴿إِذَا مَآ﴾:

حرف «ما» زائد للتأكيد.

﴿أَتَوْكَ﴾:

أي: يا مُحمَّد، ويُقَاس عليه خلفاؤه من بعده.

﴿مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾:

أي: ما تحتاجون إليه لتَخْرُجُوا مع المقاتلين، فالزاد والماء والمركب والسِّلاح والمال الذي يُشترى به ذلك هي الوسائل التي تَحْمِلُ الخارج للقتال حَمْلاً ظاهراً كحَمْل الدابّة لراكبها، او حملاً معنويّاً لأنها هي التي تنهض بجسمه، وتُمِدّ قُوّته، فترفعه عن الإخلاد إلى الأرض.

﴿تَوَلَّواْ﴾:

أي: أدبروا وانْصَرفوا.

﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾:

أي: والحال أنهم باكون، يقال لغة: فاض الماء، أي: كثر في مكان وجوده حتى سال وخرج عنه إلى غيره، فالمعنى: انْصَرفوا حالة كون أعينهم قد امتلأت دمعاً فجعلت تفيض من الدمع الذي فيها، ويسيل الدَّمْعُ من أعينهم على وُجوههم.

﴿حَزَنًا﴾:

أي: لأجل الْحزَن الذي في قُلوبهم ونفوسهم، الْحزَنُ والْحُزْنُ ما يُصيبُ النَّفْسَ من مشاعِرِ ألَمٍ علَىٰ ما فات، وألَمٍ من مُصِيبةٍ نازلة.

﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾:

أي: وكَانَ حزَنُهُمْ بسبب أن لا يجدوا ما ينفقون. «أَنْ» ناصبة مصدريّة،

والتقدير: بسبب أو لأجل عدم وجدانهم لما يُنفِقُون.

وقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنّ أصحاب الأعذار الحقيقية لهم مثل أجر الخارجين.

روى أبو داود والإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه الخارجين معه:

«لقد تَرَكْتُمْ بَعْدَكُمْ قَوْماً ما سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً إلَّا وهُمْ مَعَكُمْ فيه».

قالوا: يا رسول الله: وكيف يكونون معنا وهُمْ بالمدينة؟!.

قال: «حبسهم الْعُذْرُ».

وعند البخاري ومسلم نحو هذا الحديث، وكذلك عند أحمد ومسلم من حديث جابر.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

بعد أنْ أبانَ الله عزّ وجلّ أنّه لا حرج على الضعفاء والمرضىٰ والذين لا يجدون ما يُنْفِقون، وأنّه ما على المحسنين من سبيل، أبانَ بالتعبير الحاصر أنّ سبيل المؤاخذة الشرعيّة يَسْتَعْلِي على الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ وَهُمْ أغنياءُ قادِرُون على أن يخرجوا للجهاد في سبيل الله مقاتلين، حينما يُؤْمَرُونَ بالخروج أمْرَ إلزامٍ وإيجاب.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾:

أي: ما السبيلُ الذي سبَقَ ذكره وهو سبيل المؤاخذة على المخالفة ومعصية الأمر الإلزامي، إلَّا على الذين يستأذِنونَكَ يا مُحَمَّدُ وهُمْ أغنياء، غير ذوي حاجة أو ضرورة يُعذَرون بسببها عن الخروج.

ويُقاسُ على الرسُولِ خُلَفَاؤُهُ منْ بَعْدِه.

﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾:

أي: والحال هم أصْحَابُ كفاية تكفيهم للخروج مقاتلين، بأجسادهم ونُفُوسِهِمْ وأموالهم. الْغَنِيُّ: هُو الذي يَسْتَغْنِي بما يَمْلِكُ لِقَضاءِ مَطْلُوبه أو المطلوب منه عمّا لا يَمْلِك، فيشْمَلُ الاستغناء بالقُوَى الجسديّة والنّفسِيّة، والخُلوصَ من الأعْذارِ المُقْعِدَة، ويشْمَلُ الاسْتغْنَاء بما لَدَيْهِ من مال، وسائرِ ما يَحْمِلُه للخروج مقاتلاً في سبيل الله.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾:

هذه الجملة قَيْدٌ آخر للجملة الحالية: ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾:

أي: اجتمع فيهم وصفان:

الأول: الغِنَى كما سبَقَ بيانه.

الثاني: رِضَاهُمْ بأنْ يكونوا مع الخوالف، أي: مع القواعد من النساء في المنازل بعد خروج الرجال للقتال.

فجُمْلَةُ: ﴿رَضُوا...﴾ على هذا خَبَرٌ بعد خبر، أوحال من الضمير في ﴿أغنياء﴾ العائد على ﴿هُمْ﴾ صَدْر الجملة الحالية الأولى.

وفائدةُ هذا القيد استثناء من كان غنيّاً لكنّه أُمِرَ بالتخلّف من قِبَلِ الرسول، أو من قِبَلِ خُلَفَائِهِ من بَعْدِه، كحال عليّ بن أبي طالب إذْ أمَرَهُ الرّسول ﷺ أن يتخلّف، وقال له: اخْلُفْنِي في أَهْلِي وأَهْلِكَ، أفَلا تَرْضَى يَا عَلِيُّ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ من مُوسَى، إلاَّ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي؟!.

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٩٣﴾:

في هذه الجملة بيان لِلْوَصْفِ الذي تتّصف به قُلُوبُ وعقولُ الّذِين يسْتأذِنُون في أن لا يخرجوا إلى القتال، مع أنّهم مأمورون به أمْرَ إيجاب وإلْزام، حالة كونهم أغنياء رَاضِينَ بأنْ يكُونوا مع القواعِدِ من النساءِ الخوالِفِ للرجال في المنازل.

هـذا الوصف هـو أَنَّهُمْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فهم بسبب إقفـال قُلوبِهِمْ والطَّبْعِ عليها لاَ يَعْلَمُونَ مَا هُو الخير لَهُمْ في دُنياهم وأخراهم، لأنهم لاَ يَتَفكَّرُون في حقـائِقِ الأمُور، بَلْ يَنْظُرُونَ إلَىٰ سطوحها الظاهِرَةِ القريبـة منهم، وهي الأمور القـريبة جـدّاً من أمور الدنيا.

وقد سبق قريباً تَحْليل تعبير الطَّبْع على القلوب، لدى تَـدَبُّر الآيـة (٨٧) من هـذا النصّ، وهـذا الوصـف ينطبق على المنافقين، ولعصـاة المؤمنين منه نصيب على مقـادير معاصيهم وإعراضهم عن تدبُّر آيات الله.

* * *

* قول الله عَزّ وجلّ:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ
عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا
أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ
بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ] بفتح السِّين.

وقرأ ابْنُ كثير المكي وأبو عَمْرو الْبَصْري: [عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوء] بضمّ السِّين.

والقراءتان وجهان لنطق الكلمة في العربيـة، يقال لغة: ساءَ فُـلانٌ فُلاناً يَسُوؤُهُ سُوءاً وسَوْءاً ومَسَـاءَةً، إذا فعـل بـه مـا يَكْـرَهُ من ضُـرٍّ او اذى، أو السَّـوْءُ بفتـح السِّين المصدر، وبضمِّها اسْمٌ لما هو مكروه.

فـالمعنى: أنّ الدائـرة التي تـدور فتصيب بمـا هـو مَكْـرُوهٌ ستدور عليهم، إنّهم

يتربَّصُونَ أن تَدُورَ دوائر تقلّبات الأيام وأحداث الدهر بما يكره المؤمنون، لكنّ الله عزّ وجلّ سيَجْعَلُ دائِرَةَ ما يَكْرَهُونَ من سُوءٍ تَدُورُ عليهم هم، فتَنْزِل عليهم من فوقهم ما يَسُوؤهم من مكروه، على خلاف الأمر الذي كانوا يتربّصونه بالمؤمنين.

* * *

موضوع هذه الآيات

يتابع الله عزّ وجلّ في هذه الآيات بيان أحوال المنافقين من الأعراب سُكّان البادية، الذين جاء في الآية (٩٠) السابقة بيان قسمين منهم:

القسم الأول: هُمُ الْمُعَذِّرون الذين جاءوا الرسول قبل الخروج لغزوة تبوك يُلفّقون أعذاراً كاذبة ليأذن لهم بعدم الخروج معه.

القسم الثاني: هُمُ الذين قَعَدوا مُتخلِّفين دون أن يعتذروا، وهم منافقون كَذَبُوا الله ورَسولَه في ادّعائهم أنهم مؤمنون مسلمون.

ولمّا كان من الأعراب مؤمنون معتذرون صادقون في أعذارهم كما جاء في قراءة: [وَجَاءَ الْمُعْذِرُونَ] بإسكان العين وتخفيف الذال أبان الله عزّ وجلّ في الآيات من (٩١ ــ ٩٣) أمثلة من الأعذار الصحيحة التي يُعْذَرُ بها المتخلّفون عن الخروج للقتال، وأنّ هؤلاء لا سبيل لمؤاخذتهم، إنّما السبيل على الذين ليس لهم عذرٌ حقيقي، ورضوا بأن يكونوا مع القواعد من النساء الخوالف للرجال في المنازل.

* وفي متابعة الحديث عن الأعراب أبانت هذه الآيات من (٩٤ ــ ٩٨) أنّ الأعراب المنافقين الذين قعدوا متخلفين دون أن يعتذروا قبل خروج الرسول في غزوة تبوك سيأتون معتذرين بأعذار كاذبات إذا رجع الرسول والمؤمنون معه إليهم، واقترن هذا البيان بتعليم الله لرسُوله فكلّ مؤمن ما يقوله لهم تعقيباً على اعتذارهم، ويتضمّن هذا التعليم رفض قبول اعتذارهم، لأنّ الله أنبأهم بحقيقة أمرهم فيما أنزل على رسوله، ويتضمّن أيضاً توجيه النُّصح لهم بإصلاح حالهم مستقبلاً، وموعظتهم بأنّ الله سيَرَىٰ ما يكون منهم، وسيحاسبهم يوم الدين على أعمالهم.

* وأبانت أيضاً للمؤمنين أنّهم سيحلفون بالله لهم إذا انقلبُوا راجعين من الغزوة

إليهم، ليُصدِّقوهم فيما يُقدّمونه من أعذار كاذبات، فَيُعْرِضوا عن مؤاخذتهم وتلويمهم وتعنيفهم على تخلّفهم، واقترن هذا البيان بتعليم الرسول والمؤمنين أمرين:

الأمر الأول: أن يُعْرِضوا عنهم إعراض الساخطين عليهم، لا إعراض الراضين عنهم، لأنهم بسبب كفرهم ونفاقهم رجسٌ، ولأنّ مأواهم إذا ماتوا على مَا هم عليه جهنم جزاءً بسبب ما كانوا يكسبون.

الأمر الثاني: أنْ لا يرضَوْا بقلوبهم عنهم، لأنّ الله غير راضٍ عنهم، إذْ هم فاسقون من مستوى فسق الكفر، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

* وأبانت أيضاً أن الأعراب المنافقين أشدّ كُفْراً ونفاقاً من منافقي أهل الحضر، بسبب ظروف عيشهم في البادية، وبُعْدِهم عن أماكن بَث العِلْم الدِّينيّ، والتعريفِ بحُدُودِ ما أنزل الله على رسوله من آيات وبيانات وأحكام.

وفي هذا توجيهٌ ضِمْنيٌّ لتحضير أهل البادية، لينالوا من العلْم الذي يُبَثُّ عادةً في مساجد المدُنِ والقُرَىٰ، وليكتسبوا الفضائل الحضارية التي تُكْتَسبُ عن طريق شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تُراعىٰ فيها الحقوق والواجبات، وتنمو فيها بالتوجيه الديني فضائلُ الآداب والأخلاق الاجتماعية الراقية، وتُخْضَدُ فيها أشواكٌ من الأنانيّات الفردية، وتُقَلَّمُ فيها أظافر الوحشة والجفاء، والحذَرِ من كلّ وافدٍ وطارىء.

* وأبانت أيضاً صفات أُخرى لهؤلاء الأعراب المنافقين، غير تخلّفهم عن مشاركة المؤمنين في الغزوات، وغير تعلّلهم بالأعذار الكاذبة، وحلف الأيمان الكاذبة:

(١) فمنهم من يرى أنّ ما يُكلَّفُ دَفْعَهُ زكاةَ مالِهِ، أو غير ذلك من الواجبات المالية، هو مَغْرَمٌ يَغْرَمُه بغير حقٍّ، فلو كانت له قوّةٌ تحميه لامتنع عن بذلِ ما يُضطر لبذله، وهذا من أثر كفره باطناً، وعدم إيمانه بهذا الدّين الذي أعلن انتماءه إليه نفاقاً، مع شعور الأعرابي باستقلاله في باديته، وعدم إدراكه لمفهوم الواجبات الاجتماعية التي يدركها أهل الحضر، ولو لم يكونوا يشعرون بواجبات دينية.

(٢) ومنهم من يتربّصُ بالرّسُول والمؤمنين أن تدور عليهم دوائر الدهر، فَتَنْزِل بهم ما يكرهون من موتٍ أو هزيمة أو غير ذلك من مصائب، فينقلبوا عليهم، ويتخلّصوا ممّا هم فيه من وِفاقٍ ألجأهم إليه النفاق.

واقترن هذا البيان ببيان ما دبّر الله لهم بقضائه وقدره، فقد قضى أن تدور عليهم دائرةُ السَّوْءِ، فما يتربّصونه بالرَّسول والمؤمنين سيَنْزِلُ بهم، والله غالبٌ على أمره، وهو سميع لما يقولون في خلواتهم، عليمٌ بما يضمرونه في قلوبهم.

* * *

التدبُّر

* قول الله تعالى:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)﴾.

الكلام في هذه الآية يتعلّق بقِسْمِ الأعراب الذين قَعَدُوا مُتخلِّفين دُون أن يَعْتَذِرُوا، وهم مُنَافِقُونَ كَذَّبوا اللَّهَ ورسُوله.

فالضّميرُ في ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ يَعُودُ على الفاعل في ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الآية (٩٠) أمّا الآيات من (٩١ ـ ٩٣) فاستطرادٌ لبيان من يُعْذَرُ ومَنْ لا يُعْذَرُ، وحسَّنه غرض تتميم الفائدة، وهو يشبه الاعتراض.

أي: إنّ الذين قَعَدُوا متخلِّفين عن غزوة تبوك دون أن يَعْتَذِرُوا قَبْلَهَا وهُمْ لا عُذْرَ لهم سيأتون متتابعين ويَعْتَذِرون إليكُم، إذَا رَجَعْتُمْ إليهم من الغزوة.

الخطاب للرسول وللمؤمنين الذين خرجوا معه في هذه الغزوة، ودلّت كلمةُ ﴿إِذَا﴾ التي هي ظرف لما يستقبل من الزمن، على أنّ هذه الآية قد نزلت قبل الرّجوع من الغزوة، ويظهر أنها نزلت على الرسول وهو قافلٌ بالمؤمنين منها.

وأمر الله الرّسول وكلَّ مؤمن يستقبل منهم اعتذارهم أمراً إفرادِيّاً بلفظ ﴿قُل:﴾ وجاء في التعليم بعده خمْسُ مقولات:

المقولة الأولى:

﴿لَّا تَعْتَذِرُوا﴾.

والغرض من النَّهي عن الاعْتِذار إسكاتُهُمْ منذ بَدْءِ محاولة المعتذر منهم تَلْفيقَ الأعذار الكاذبة، وعَدَمُ تمكينهم من تزوير الكلام وتزويقه وزخرفته، لئلاَّ تُـؤثِّر أقـوالُهُمْ على بعض المؤمنين إذا أصْغَوْا إليهم، واستمعوا لهم حتى آخـرِ كـلامهم، فمن أهـل النفاق من يُعْجب قولُه في الحياة الدُّنْيا، ويُشْهِدُ اللَّهَ على ما يزعُمُ أنَّه يضمرُهُ في قلبه، وهو ألَدُّ الْخِصَامَ.

المقولـة الثـانية:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾:

أي: لَنْ نُصَـدِّقَ أقوالكم في تقـديم أعـذاركم، ولنْ نـطمَئِنَّ لكم، ولنْ يحصُـلَ لدينا أَمْنٌ نأمَنُ به كَذِبكم.

يقال لغة: آمَنَ بالشَّيْءِ، إذا صدَّقه واطمأنَّ قلبه له، ويقـال: آمَنَ لَهُ، إذا صـدَّق قوله، واطمأنَّ له واستَسْلَمَ لَهُ، آمِناً كذِبَهُ وغَدْرَهُ وخيانته.

واستعمال حرف النفي ﴿لَنْ﴾ يدُلّ على تأكيد عدم تصـديقهم وعدم الاطمئنَـانِ لهم، فحرف «لن» في النفي آكد من «ما» و«لا».

المقولـة الثالثـة:

﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

الإنبـاءُ: الإخبار والإعـلام، يُقال: نَبَّأَهُ الخبَرَ ونَبَّأَهُ بالخبـر وكذلـك أنبأَهُ، أي: أعلمـه به. ويستعمَـلُ النبأ كثيراً في الخبر ذي الأهميّة، لأنّ أصل مـادّة الكلمة تـدور حول الارتفاع والظهور.

والمعنى: قـد أعلمنا الله من أخبـاركم أنّكم كـاذبـون لا عُـذْر لكم، كـذبتم اللّهَ ورسولَه، فكيف نصدِّقكم بعد أن أنـزل الله بشأنكم مـا أنزل؟! وكيف نـطمَئِنُّ لكم بعد أن أعلمنـا الله من أخبـاركم أنكم كـاذبـون لا عـذر لكم في التخلّف عن الخـروج مـع رسول الله في غزوة تبوك، وكاذبون في أصل ادّعائكم أنّكم مسلمون مؤمنون حقاً.

المقولة الرابعة:

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾:

أي: وأمامكم فرصةٌ للتوبة في المستقبل، وللاستقامة والعمل الصالح، وصِدْقِ الإيمان والإسلام، وسيرى الله عَمَلَكُمْ ما ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا بَطَنَ، وسيَرَى رَسُولُهُ في تجارب المستقبل عَمَلَكُمْ إنْ أطَعْتُمْ وإنْ عصيتم، فإن تُبْتُم واستَقَمْتُم قَبِلَ اللَّهُ توبتكم، وصفَحَ رسُولُه عنكم، وإنْ أصْرَرْتُمْ عَلَى ما أنتم عليه عَرَضْتُمْ أنْفُسَكُمْ للمُؤاخذةِ والعقاب.

هذه المعاني تُفْهَمُ بدلالة اللّوازم الذهنية من عبارة: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ لأنَّها تتحدَّث عن عملهم في المستقبل، وما دامَ المستقبل داخلاً ضمن مرحلة ابتلائهم فباستطاعتهم تداركُ أمرهم بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، ومعلومٌ من قواعد الإسلام الكبرى أنّ الله يقبل توبة التائبين ما داموا ضمن مُدَّةِ ابتلائهم في الحياة الدّنيا، فكانت هذه العبارة مشيرةً باللّوازم الذهنية إلى هذه المفهومات.

المقولة الخامسة:

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾:

أي: بعد الموت، ومدّةِ البرزخ، والبعثِ إلى الحياة الأخرى.

﴿تُرَدُّونَ﴾:

أي: تُرْجَعُونَ، الرَّدُّ الإرْجاع. ولمّا كان البعثُ إلى الحياة بعد الموت إعادةً إلى الحياة بعد سَلْبِها بالموت، جاء التعبير عنه في القرآن بالرّدّ وبالإرجاع وبالإعادة، ولمّا كان هذا الإرْجاع هو لملاقاة اللّهِ في موقف الحساب وفَصْلِ القضاء، ولإنفاذِ ما يقضي به الله من جزاء، دون أن يكون لأحد غير الله يومئذٍ تصرُّفٌ بغيرِ أَمْرِ اللّهِ أو إذْنِه، كان من الدّقة في الأداءِ في التعبير أن يقال: ﴿ثمّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ـ ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ ـ ثُمَّ إلينا تُرْجَعُونَ ـ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ والشَّهادَةِ﴾ ونحو هذه العبارات.

﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾:

أي: إلى الله الذي هو عالم الغيب والشهادة.

الغيب: ما غاب عن إدراك ذي إدراك مَا، فهو بالنسبة إليه غيبٌ، وقد يكون بالنسبة إلى غيره أمراً مشهوداً.

الشهادة: يُطلَقُ هذا اللفظ على ما يُدْرَكُ بالحسّ.

فعالَمُ الشهادة هو عالم الأكوان الظاهرة التي تُدركُ بالحواس، ويقابله عالَمُ الغيب، وهو ما لا يُدْرَكُ بالحواسّ.

وكلُّ شيءٍ بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ شيءٌ مشهود، لقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ـ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ـ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

فليس شيءٌ بالنسبة إلى الله هو من الغيب، والتعبير بأنه تبارك عالم الغيب والشهادة، هو على معنىً: عالِمُ كلِّ ما هو غيبٌ عن ذوي الإدراك من خلقه، لا ما هو غيب بالنسبة إليه، إذْ لا شيْءَ هو غيب بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أي: فيُخْبِرُكم في موقف الحساب وفَصْلِ القضاء بكلّ ما كنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أعمال ظاهرة وأعمال باطِنَة، ليحاسبكم عليها، وليَقْضِيَ بينكم في محكمة العدل عنده، وليجازيكم بما تستحقّون من جزاء.

وفي إعلان هذه المقولة ترهيب وترغيب، لأنّ الجزاء إمّا أن يكون بالفضل في جنات النعيم، وإمّا أن يكون بالعدل في دركات الجحيم.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ما زال الكلام متعلقاً بشأن المنافقين من الأعراب الذين تحدثت الآية السابقة (٩٤) عنهم.

والخطاب مُوَجّه للرسول وللمؤمنين، وفي هاتين الآيتين إخبارٌ عمّا سيكون من

هؤلاء المنافقين إذا انقلَبَ المسلمون الغزاة من غزوة تبوك راجعين إلى مواطنهم، حيث يجدون فيها المنافقين المتخلفين بغير استئذان سابق.

﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾:

أي: إذا رجعتم، وعُدِل عن ﴿إذا رجعتم﴾ إلى ﴿إذا انقلبتم﴾ لئلا يتكرر التعبير نفسه في الآيتين.

إنهم يحاولون تلفيق الأعذار أولاً، فإذا قُوبِلُوا برفض أعذارهم الكاذبة التي تعلَّلُوا بها، فإنّهم يلجَؤون إلي توثيق ما يقولون بأن يحلفوا بالله أيماناً كاذبة، ليَدْرَؤوا بها عن أنفسهم المؤاخذة التي يستحقّونَها، اعتقاداً منهم بأنّ هذه الأيمان ستجعل الرسول والمؤمنين يُعرِضون عن متابعة محاسبتهم ومقاضاتهم على معْصِيَتِهم.

وفي بيان هذا الأمر الذي سيَحْدُثُ مِنْهُمْ مستقبلاً قال الله تعالى خطاباً للرسول والمؤمنين معه:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾.

وأتبع الله هذا البيان بتعليم الرسول والمؤمنين ما يَنْبغي أنْ يقابلوهم به. فقال تعالى:

﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾:

الإعراضُ: هو إعطاء عارض الوجه، وهو وسطٌ بين الإقبال والإدبار.

أي: فأعرضوا عن مؤاخذتهم ومعاقبتهم عقاباً مادّيًا، ولكن لِيَكُنْ إعراضُكُمْ عَنْهُمْ إعراضَ ساخطٍ عليهم، قالٍ ومجافٍ لهم، كارهٍ لأكاذيبهم وألاعيبهم.

بدليل قول الله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾:

أي: إنهم ذوو رِجْسٍ بسبب كفرهم ونفاقهم، ولمّا كان رِجْسُ الكفرِ والنفاق مالىءَ قلوبهم ونفوسهم وكثيرٍ من ظواهر سلوكهم، كانوا جديرين بأن يُطْلَقَ عليهم أنّهم رِجْسٌ، وأصل الرِّجْس في اللُّغة القَذَرُ والنَّجَسُ، ثمّ حصل توسُّعٌ في إطلاق اللفظ،

فصَارَ يُطْلَق على الرذائل والقبائح المعنوية من الأفكار والعقائد والنيّات والأعمال.

فالكفر رجس، والنفاق رجسٌ، والميسر رجسٌ، وكذلك الأنصاب والأزلام والخمر، وكلُّ خلُقٍ وسلُوك قبيح ذميم، وكلّ فكرةٍ ضارَّة، وكلّ مادّة وأداة مخصّصة للاستعمال في الشرّ.

فبسبب أنّهم رجسٌ يستحقّون أن تعرضوا عنهم إعراض الساخط القالي المجافي الكاره.

ولمّا وصلت ذواتُهم إلى حالةٍ من الخسّة يستحقون عليها أنْ يُخْبَرَ عنهم بأنّهُمْ رِجسٌ، فمن العدل ضمن قواعد ابتلاء الله للناس في هذه الحياة الدّنيا، أن يكون مأواهم في الآخرة، بعد الحساب وفصل القضاء جهنّم دار عذاب الكافرين.

المأوىٰ: المكان والمنزل الذي يُنْزَلُ فيه.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾:

أي: يصيرون إلى جهنّم التي تكون في الآخرة مأواهُمْ بعد الحساب وفصل القضاء، حالة كون ذٰلِكَ جزاءً لهم بسبب ما كانوا يكسبون من عمل في الحياة الدنيا، وهو الكفر النفاق والإثم والفسوق والعصيان.

وبدليل قوله تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾:

أي: إنّهم سيحلفون بالله لكُم لِتُعْرِضوا عن مؤاخذتهم، ولتَرْضَوْا عَنْهم، وأُعِيدَ في هذه الآية فعل ﴿يَحْلِفُونَ لَكُم﴾ لبُعْدِ الفاصل بين ﴿لِتُعْرِضُوا عنهم﴾ وبين ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ فَحَلِفُهم باللّهِ لهُ غايتان.

الأولى: الإعراضُ عن مؤاخذتهم وعن البحث عن صدقهم أو كذبهم في تعلّلهم بأعذارهم.

الثانية: الرضا عنهم باعتقاد أنهم صادقون فيما ذكروه من أعذار في تخلّفهم عن غزوة تبوك.

وجاء التوجيه الرّباني للمؤمنين حول هذه الغاية الثانية للمنافقين متضمّناً أنْ لا يَرْضَوْا عنهم، لأنَّهُمْ فاسقون فِسْق كفر ونفاق.

وقد دلّ على هذا التوجيه الضمنيّ عبارة:

﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

إنّ استعمال حرف الشّرط ﴿إنْ﴾ يَدُلُّ على استبعاد أن يرضى المؤمنون عنهم، لأنّهم لا يفْعَلُونَ شيئاً على خلاف ما يُرضي الله، وعلى أنّه يَنْدُرُ في المؤمنين من يرضَىٰ عنهم، فهذا الحرف يستعمل غالباً في الأمر المستبعد حصوله، أو يندر حصوله.

وعبارةُ ﴿فإنّ اللّهَ لاَ يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِين﴾ تدل على أنّـهُ لاَ يرضَىٰ عنهم لأنَّهُمْ فاسقون، فَأَغْنَىٰ بيانُ القضيَّة الكليّة الشاملة لقضيتهم ولأشباهها عن ذكر قضيتهم الخاصّة، وهذا من الإبداع في الإيجاز.

وبيان أنّ الله لا يرضى عنهم فيه إلماح للمؤمنين بأن لا يرضوا عن قوم لا يرضَىٰ الله عنهم.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

بعد الحديث عن المنافقين من الأعراب الذين تخلّفوا عن الخروج مع الرسول والمسلمين في غزوة تبوك في الآيات (٩٠ ـ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦) جاءت هذه الآية لتكشف طبيعة صنف الأعراب وتأثير بيئة البادية عليهم، بالنسبة إلى طبيعة صنف أهل الحضر، وتأثير بيئة القرى والمدن عليهم.

وقد أبانت هذه الآية أنّ صنف الأعراب إذا كان أحدهم كافراً أو منافقاً كان أشدّ كُفْراً ونفاقاً من كافرٍ أو منافقٍ من أهل الحضر.

ونفهم من الملاحظة ومن التجربة أنّ سبب ذلك هو العيشُ المستمرّ في البادية

مع الأنعام، وطبيعةُ الترحّل والتنقل وعدم الاستقرار، ومؤثّراتُ الإقامة في الأرض الخلاء، التي ينعدم فيها الأمن النفسي الذي تُحدِثُه البيوت المحميّة في المُدُنِ والقرى.

فالأعرابُ إذا كَفَرُوا كانُوا أشدَّ في الكفر من غيرهم، لما في طبائعهم المكتسبة من البيئة من نفورٍ، وعدم استسلامٍ، واعتيادٍ على عدم الطاعة والانقياد والانصياع للنظام.

وهم إذا نافقوا كانوا أشدّ في النفاق من غيرهم، لما في طبائعهم المكتسبة من البيئة، ولما في أخلاقهم وعاداتهم من دُربة على المصانعة والمداهنة والمخادعة، التي ولّدها فيهم الحذر الدائم من كلّ ما حولهم، ولا سيما الذين يخشون غزوهم لهم، فاعتادوا بذلك الكذب والتظاهر بخلاف ما يبطنون، فهم إذا نافقوا في الدين كانوا أشدّ نفاقاً من أهل الحضر.

فـ «ال» في ﴿الأعراب﴾ هي «ال» الجنسيّة كما يقول النحاة، وهي تدلّ على جنس ما دخلت عليه، ولا تدل على استغراق الأفراد، والحكم على الجنس لا يفيد الحكم على كلّ فرد من أفراد الجنس، وعلامة «أل» الجنسية أنّ كلمة «كلّ» لا يصحّ أن تكون بدلاً عنها.

وقد دلّنا على أن «ال» هنا جنسيّة أنّ من هؤلاء الأعراب المتحدَّث عنهم منْ يؤمن بالله واليوم الآخر، وهؤلاء ليسوا كافرين ولا منافقين أصلاً كما جاء في قراءة ﴿الْمُعْذِرِينَ﴾ وكما جاء في الآية (٩٩) الآتية.

فالمعنى فيما يظهر أنّ البداوة تجعل كفّار البادية أشدّ كفراً، ومنافقي البادية أشدّ نفاقاً، بسبب مؤثرات البيئة التي يعيشون فيها، وينتج عن هذا أن يكون كفّار الأعراب أشدّ كُفْراً من غيرهم، وأن يكون منافقو الأعراب أشدّ نفاقاً من غيرهم.

ولمّا كان أهل الحواضر والمدن هم القسم المقابل للأعراب أهل البادية حَسُنَ الاستغناء في النص عن ذكرهم في اللّفظ، فلم يأتِ فيه: الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً من أهل المدن والقرى، وهذا من الإيجاز البديع.

ونلمح من هذا البيان القرآني الحثَّ الضمنيّ على جعل الأعرابِ أهل مدنٍ وقرىً وحواضر، في مشاريع دولة المسلمين للمستقبل، لتخليص الأعراب من بيئة البادية الجافية، التي تُكسبهم الطبائع والأخلاقَ والعادات غيرَ المستحبَّات التي سبق ذكر شيءٍ منها.

قولُهُ تعالىٰ:

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾:

أي: وأكثرُ قابليةً للجَهْلِ بأمور الدين، لبُعْدِهم عن مراكز التوجيه والتعليم، ومواطنِ بثِّ أنوار المعرفة الربّانية، فطبيعةُ ترحّلهم وتنقُّلِهم تتبُّعاً لمواطن الماء والكلأ، تجعلُهم بعيدين عن مجامع العلم والعلماء، وعن مساجد المُدنِ والقرىٰ التي يتخذها العلماء والفقهاء والوعّاظ والدّعاة مراكز للتعليم والتوجيه وبيان حدود الله للناس.

ويَجِدُ الأعرابُ لأنفسهم العذرَ في عدم ارتيادها لأنّ طبيعة حياتهم في البادية، لا تُساعدهم على ذلك إلّا قليلاً.

والجهل بحدود الله في شرائعه وأحكامه بيئةٌ تَنْبُتُ فيها وتَتَرعْرَعُ الانحرافاتُ والضلالاتُ والخرافاتُ، والطباع السّيئة، والأخلاق الأنانيّة المَرْذُولة، وأنواعُ السلوك الفاسد الضارّ.

فلو أنّ بيئتهم مؤهَّلَةٌ لمتابعتهم بالتعليم والتوجيه والنُّصح والإرشاد والتعريف بحدود الله، لاختلف حالُهم، ولَصَاروا قابلين للتهذيب والتشذيب والتثقيف الديني.

إنّ هذا البيان عن صفات الأعراب ليس ذمّاً لذواتهم في أشخاصهم باعتبارهم صنفاً من بني آدم، إنّما هو ذمٌّ للبيئة التي تؤثر في الناشئين بها هذه الآثارَ الضارّة، وتوجيهٌ إسلاميٌّ لاستبدال بيئةٍ خير منها بها، للمساعدة على إنشاء أجيالٍ منهم تتهيّأ لهم بيئات أفضل تساعدهم على اكتساب العلم النافع، وفضائل الطباع والأخلاق والعادات، وأنواعِ السلوك الحضاريّ الراقي.

ألا يدُلُّ هذا علىٰ أن الإسلام دينٌ حضاريٌّ مدنيٌّ راقٍ؟!.

وجاء قول الله عزّ وجلّ في آخر الآية:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

بإثبات صفتي العلم والحكمة لله عزّ وجلّ بمثابة الدليل على الفهم الذي فتح الله به. فعلْمُ الله بتأثير البيئة البدوية على الأعراب، وحكْمَتُهُ في اختيار الأفضل لعباده، يقتضيان توجيه المسلمين والدولةِ الإسلامية إلى جعل الأعراب أهل مُدُنٍ وقُرىً مؤسسة تأسيساً إسلامياً، بمساجدها، ومدارسها ومنشآتها الحضارية المختلفة النظيفة من الفسق والفجور والعصيان.

ولذلك نجد في توجيهات الرسول الترغيب بعدم سكنى البادية، أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ سَكَنَ البادية جفا، وَمَنِ اتَّبعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، ومَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ».

* * *

* قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

أي: ومن ظواهر نفاق الأعراب المنافقين ظاهرتان ناتجتان عن كفرهم بالله واليوم الآخر باطناً.

الظاهرة الأولى: اعتبارهم الذي هو نتيجة كفرهم أنّ ما ينفقونه من نفقات واجبة يكلّفون ـ بمقتضى أحكام الإسلام ـ إنفاقها كالزكاة، مَغْرَمٌ يَغْرَمُونَهُ دون وجه حقّ، وأنّه يُؤْخَذُ منهم إكراهاً بقوّة السلطة، فلو كانت لهم خِيَرَةٌ من أمرهم لما أنفقوا هذه النفقات، إذ هم لا يرجون ببذلها ثواباً عند الله ولا جزاءً حسناً، بل يدفعونها كرهاً.

المَغْرَم: هو ما يُدْفَعُ مِنَ المالِ قَهْراً وظُلْماً، كالإتاوة والجزية وكلّ ما يُدْفع تقيّةً وخوفاً من ذي قَهْرٍ بقوّته.

الظاهرة الثانية: تَرَبُّصُهُمْ بالرّسولِ وبالمؤمنين الدوائر، للتخلّص منهم، والتحرُّر

ممّا يُضْطرون أن يصانعوا المؤمنين ويُداهنُوهم به، تقيَّةً ونفاقاً، ممّا يُكلّفُهم بذلاً يكرهونه، أو أعمالاً لا يُحبُّون أن يعملُوها.

التَّرَبُّصُ: الانتظار، يقال لغة: تربَّص فُلانٌ بفلانٍ خيراً أو شرّاً يَحِلُّ به، أي: انتظر أن ينزل به أو يَحُلّ به ذلك.

الدوائر: الدواهي والمصائب، جمع «دائرة» وهي في الأصل ما أحاط بالشيء مستديراً حوله، واستعمل العرب الدائرة بمعنىٰ الداهية التي تأتي بالشّرّ والسوء، لأنّها تحيط بمن نزلت به، ويقولون: دارت على القوم الدوائر، أي: نزلت بهم الدواهي والمصائب والنكبات.

وتعقيباً على تَربُّصهم بالمؤمنين دَوائر السُّوءِ أعلن الله قضاءه الذي سيكون نافذاً لا محالة، وقد كان بعد ذلك، فقال تعالى:

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

أي: كائنةٌ عليهم وحدهم دائرةُ السُّوْء، في مقادير المستقبل، التي هي حاصلة لا محالة.

اسْتُفيد التخصيص من تقديم الخبر وهو ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المبتدأ وهو ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

ولمّا كانت دوائر أحداث القضاء والقدر تدور بما يسوء وبما يسُرّ، على خلاف مفهوم العرب لدوائر الدهر، إذ يخصّصونها بالدواهي والمصائب، خصّص الله لفظ الدائرة التي تدور عليهم بإضافتها إلى السّوء.

وفي هذا إشارة إلى أنّه ينبغي تصحيح مفهوم العرب لدوائر الدهر، وأنّها ليست كلّها مصائب ودواهي، فهي أوّلاً دوائر قضاء الله وقدره، وهي ثانياً تدور أحياناً بما يسُرُّ، وتدور أحياناً بما يَسُوءُ، ضمن حكمة الله في امتحان عباده وتربيتهم ومُجَازاتهم.

وإذْ خصّص الله المنافقين بأنّهم هم الذين تنزل بهم دائرة السوء، فقد قضىٰ بأن تكون دوائر الخير السّارة ستدور لصالح المؤمنين، أخذاً من مفهوم التخصيص.

وختم الله عزّ وجل الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾:

أي: والله سميع لأقوال المؤمنين والمنافقين، عليمٌ بأعمالهم وأوصافهم ونيّاتهم، وأحوال قلوبهم ونفوسهم، فهو يعامل كلّ فريق منهم بعدله أو بفضله على وفق حكمته.



الْعِقْـدُ الثَّانـي

بيـان أقسـام مجتمع المسلمـين
إبّان أحداث غزوة تبوك وتجربتها
مع التعقيبات والتوجيهات الرّبّانيّة

مـقـدمـة:

من الملاحظ في الأسلوب القرآني أنّـه كلّما طـال الحديث في هـذه السورة عن المنافقين كان من الحكمة الرّبّانيّة إعطاءُ المؤمنين حظّاً من البيان يتّصل بهم.

وفي هـذا الأسلوب شـدٌّ لانتباه المتلقين، بعـرض المتقـابـلات (المتنـاقضـات والمتضادّات والمتخالفات) وذلك لأن سَـرْدَ الكلام حـول نموذجٍ واحـدٍ يُمِلُّ، ويـورث الغفلة أو الفتور.

ومعلومٌ أنّ من عناصر الجمال المراوحـةَ بين النقائض والأضـدّاد والمتخالفـات، مـع ما في هـذا الأسلوب من شحذٍ لهِمَمِ المؤمنين، ليـزْدادوا إيمانـاً وعملاً صـالحـاً، واستثارَةٍ لدوافع الغيرة لدى الكافرين والمنافقين، عسَىٰ أن يَصْحُو منهم من في قلوبهم بزور خير، أوجذور نضيلة.

وإِذْ جاء فيما سبق بيان عقاب المنافقين بأنّ مأواهم جهنّم جزاءً بما كانوا يكسبون (الآيـة ٩٥) فلا بـدّ أن يتسـاءل بعض المتلقّين للنصّ في نفسـه عن أحـوال المؤمنين، فجـاء عِقْدٌ من الآيـات ليجيب على هذا التسـاؤل، واقتضت فنيَّةُ المتـابعةِ في الآيـات عطف هذا الْعِقْد من الآيات على ما جاء قبله في السورة.

ونلاحظ في هذا العِقْد أنّ الله عزّ وجل قسّم المؤمنين خمسة أقسام رئيسية:

القسم الأول: المؤمنون الصادقون المستوفون لحدود مرتبة التقوى بمناسبة الغزوة، ويُلْحق بهم أمثالهم.

القسم الثاني: المؤمنون الصادقون السابقون في فعل الخيرات وأعمال البرّ والإحسان، زيادة على واجبات مرتبة التقوى، ويلحقُ بهم أمثالهم من بعدهم.

القسم الثالث: المنافقون إبّان التنزيل بمناسبة الغزوة، ويُلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

القسم الرابع: العصاة التائبون المستغفرون يومئذٍ، ويُلْحقُ بهم أمثالهم من بعدهم.

القسم الخامس: العصاة المسرفون على أنفسهم المستغرقون في معاصيهم يومئذٍ، ويلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

* * *

فالقسم الأول: وهم المؤمنون الصادقون المستوفون لحدود مرتبة التقوى بمناسبة الغزوة ويُلْحَقُ بهم أمثالهم فقد دلّ عليهم:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿قُرُبَٰتٍ﴾:

جمع «قُرْبة» وهي ما يَتقرَّبُ به العبد لربّه من أعمالٍ ظاهرة وباطنة تُرضيه وتُقرّبهُ إليه، وهذه قراءة جمهورِ القراء العشرة.

وقرأ ورش: [قُرُبَة] بالإفرادِ مع ضمّ الراء، وبين القراءتين تكامل فكري، نظراً إلى تعدد الإنفاق أو عدمه بحسب اختلاف أحوال المنفقين.

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾:

وهي دعواته لهم بالرحمة الشاملة للمغفرة والعفو وجزيل العطاء. في هذه الآية استدراكٌ لدفع توهُّم أنّ كلّ الأعراب كفرة منافقون لا دين لهم، ولبيان أنّ ما سبق من الحديث عنهم إنّما هو حديثٌ عن قسم منهم ولو كان هو القسم الأكثر عدداً، وحديثٌ عن مؤثرات بيئة البادية على سُكّانها المترحلين المتنقّلين طلباً لمنابتِ الكلأ ومواقع الماء.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذه الآية أنّه يوجد من الأعراب سُكّانِ البادية إبّانَ تنزيل سورة (التوبة) قسم يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً، ويؤدّون فرائض الإسلام، ويجعلون ما يُنْفِقون للجهاد في سبيل الله وغيره من الواجبات والتطوّعات الإسلامية قُرُباتٍ من الطاعات والعبادات وصالح الأعمال يتقربُون بها إلى الله لينالوا وليأخذوا بسببها مرضاة الله وليظفروا برحمته وجنته، ويتقرّبُون بها إلى الرسول ﷺ ليُصَلّي عليهم، أي: ليدعو لهم بالرحمة، وسيأتي في الآية (١٠٣) من سورة (التوبة) بيان أمر الله لرسوله بأنْ يُصَلّي على المتصدّقين الذين يأخذ منهم صدقات أموالهم طيّبةً بها نفوسهم، وهي قوله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾.

ومن تطبيقات هذا الأمر الرّبّاني للرسول ﷺ ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوْفَى، قال:

كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا أُتِيَ بِصَدَقةِ قَوْمٍ صَلّىٰ عليهم، فَأتاهُ أَبي بِصَدَقَتِهِ فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبي أَوْفَىٰ».

وروي أنّ امرأة قالت: يا رسولَ الله صَلِّ عَلَيَّ وَعَلَىٰ زَوْجِي، فقال: «صَلّىٰ اللَّهُ عَلَيْكِ وَعَلَىٰ زَوْجِكِ»

وتعقيباً على سلوك هذا الفريق المؤمن من الأعراب، قال الله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٩﴾.

﴿أَلَآ﴾:

أداة تنبيه، والغرض من استفتاح الكلام بها توجيه الاهتمام لتفهُّم الكلام الذي يأتي بعدها.

﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ﴾:

أي: إنّ النّفقات التي يُنْفقونها طاعة لله وتقرّباً إليه، واستدعاءً لدعاءِ الرسول لهم بالرحمة، هي لهم قُرْبَةٌ مقبولةٌ عند الله، سيثيبهم الله عليها ثواباً جزيلاً، وسيُدْخِلُهم في رحمته الواسعة الشاملة لغفرانه وعفوه وجنّته، فجنّتُهُ يوم الدين هي من رحمته عزّ وجلّ، كما ثبت في الصحيح.

وختم الله الآية بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لتعميق الإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى، واستدعت المناسبة ذكر هذين الاسمين من أسماء الله الحسنى، لأنّ هذا الفريق من الأعراب المؤمنين الصادقين في إيمانهم يحتاجون أن ينالوا حظّاً وافراً من غفران الله ورحمته الواسعة، كسائر المؤمنين.

قد يقال: لِمَ ذُكِرَ هذا القسم الذي يوجد في الأعراب وغيرهم تحت عنوان: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾؟

أقول: قد يُفْهَم من هذا التعبير أنّ أكثر المؤمنين الصادقين من الأعراب هم من هذا القسم.

أمّا أكثر المؤمنين الصادقين في المدينة من المهاجرين والأنصار فهم من قسم السابقين الآتي بيانهم في الآية (١٠٠) وبسبب ذلك كان من الحكمة طيُّ ذكر وجود هذا القسم في المدينة، اكتفاءً بأنّه إذا وُجِدَ بعضُ أفرادٍ منه في المدينة فهم معتبرون من هذا القسم بمقتضى الاتّحاد في الوصف، وذلك باعتبار أنّ الأقلّ لا يُتحدَّثُ عنه في البيانات الكليّة، ورُبّما كان هذا الطيّ بسبب أنّ الله عزّ وجلّ عَلِم أنّ كلّ المؤمنين المستوفين لحقوق مرتبة التقوى من أهل المدينة قد ارتقَوْا ببعض ما قدّموا من نوافل الطاعات وصالح الأعمال حتى كانوا ملحقين بالسابقين، فهم من السابقين.

● ● ●

القسم الثاني: وهم المؤمنون الصادقون السابقون في فعل الخيرات وأعمال البرّ والإحسان، زيادةً على واجبات مرتبة التقوىٰ، ويُلْحَقُ بهم أمثالهم من بعدهم، فقد دلّ عليهم:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

أولاً:

١ ـ قرأ جمهور القراء العشرة: [والأنْصَارِ] بالْجَرّ.

٢ ـ وقرأ يعقوب فقط: [والأنْصَارُ] بالرّفع.

ثانياً:

١ ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة: [تَجْرِي تَحْتَهَا الأنْهَارُ].

٢ ـ وقرأ ابن كثير المكيّ: [تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ] بزيادة حرف الجرّ «من» كسائر ما جاء في القرآن من أمثال هذه العبارة.

وسيأتي في التدبّر توجيه القراءات إن شاء الله.

* * *

التدبّر

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾:

أي: والسابقون في فعل الخيراتِ وأعمال البرّ والإحسان، زيادةً على واجبات مرتبة التقوى، وقد جمع الله في السابقين هنا الأبرار والمحسنين من أهل الإيمان.

دلّ على هذا المعنى ثلاثة نصوص قرآنية، وهي على حسب ترتيب نزولها ما يلي:

النّص الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) بشأن هذه الأمّة المحمّديّة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

فأبانَتْ هذه الآية أنّ أمّة محمّد ﷺ هُمُ الذين جعلهم الله وارثي كتابه، واصطفاهم من عباده لهذا الإرث العظيم، وسمّاه الله إرثاً لأنّ القرآن قد جمع كلّ ما في زُبُر الأوّلين من أصول الدين وشرائعه وأحكامه ذاتِ الثبات والدّوام، وهو دين الإسلام الذي اصطفاه الله للناس، وتابع إنزالَه على رُسُلِه، بحسب مقتضيات التطوّر البشري، وحاجات الناس، حتى ختمه برسالة محمّد ﷺ مستوفي العناصر كاملاً، غير عُرْضةٍ بعد إكماله لأيّ تغيير أو نسخ.

وأبانت أن هذه الأمة المحمّدية المصطفاة من عباد الله تنقسم إلى ثلاث فئات:

الفئة الدنيا: الظالمون لأنفسهم، وهم العصاة من المؤمنين، الذين لا يُؤَدُّون حقوق مرتبة التقوىٰ بفعل الواجبات، وترك المحرّمات، وهذا القسم على درجات بحسب كثرة المعاصي وقلّتها.

الفئة الوسطى: المقتصدون، وهم الذين يُؤَدُّون حقوق مرتبة التقوى، بفعل الواجبات وترك المحرّمات، ولا يحرصون على أن يزدادوا من نوافل الطاعات والعبادات وفعل الخيرات، ممّا يرفع المتّقي إلى درجات مرتبة الأبرار، أو درجات مرتبة المحسنين.

الفئة العليا: السّابقون بالخيرات بإذن الله، وهم الذين زادوا في عباداتهم وطاعاتهم وأفعال الخير مما يرضي الله عزّ وجل، حتّىٰ ارتقَوْا إلى مرتبة الأبرار أو مرتبة المحسنين.

ومرتبة الأبرار ذات درجات متفاضلات، ومرتبة المحسنين ذاتُ درجاتٍ متفاضلات، وقد جمع الله في هذه الآية الأبرار والمحسنين في عنوان «السّابقين» لأنهم قد سبقوا بالأعمال الصالحة القسمين الأدنى، والأوسط.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) في بيان تصنيف الناس يوم الدين إلى أصناف رئيسيّةٍ ثلاثة، أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقين:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾:

أي: أصنافاً ثلاثة.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾:

هم المؤمنون على درجاتهم من ظالمي أنفسهم ومُقتصدين.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾:

هم الكافرون المجرمون، على دركاتهم، من أخف دركات الكفر، حتى أخسِّها وأسفلها.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾:

هم أهل مرتبتي البرّ والإحسان، فمنهم أبرار، ومنهم محسنون، وهم على درجات متفاضلات، وقد أدخلهم الله تحت عنوان «المقرّبين».

فالسابقون، هم المقرّبون، منهم أبرار، ومنهم محسنون، ومرتبة الإحسان أعلى مراتب المؤمنين، كما دلّت النصوص القرآنية[1].

النصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في بيان صفات فريق من المؤمنين:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

---

(١) انظر المثال الخامس حول (التقوى ـ والبرّ ـ والإحسان) من القاعدة (١٨) من كتاب «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف.

أي: وهم لفعل الخيرات سَابقون، وعنوان الخيرات يشمل صالحات الأعمال الزائدة على فعل الواجبات وترك المحرَّمات، وهذه الزائدة ترفع إلى مرتبة الأبرار، ثم إلى مرتبة المحسنين.

بعد هذا البيان التفصيلي عن المراد من السابقين نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ أدخل في فئة السابقين أربع زمر:

الزمرة الأولى: الأوّلون من المهاجرين، ولهم الدرجة الأولى من السابقين.

الزمرة الثانية: الأوّلون من الأنصار، أخذاً من قراءة: [والأَنْصَارِ] بالجرّ التي هي قراءة جمهور القرّاء العشرة، ولهم الدرجة الثانية في السابقين.

الزمرة الثالثة: المؤمنون الصادقون من الأنصار، ولو لم يكونوا من الأوّلين أهل بيعة العقبة، أخذاً من قراءة: [والأَنْصَارُ] بالرفع التي هي قراءة يعقوب البصري، ولهم الدرجة الثالثة في السابقين، وقد يشارك بعضهم أهل الدرجة الثانية من السابقين.

الزمرة الرابعة: المؤمنون الصادقون الذين اتّبعوا الزّمر الثلاث السابقة بإحْسَانٍ من أهل القرن الأول والقرون اللّاحقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والشرط في هؤلاء حتّى يكونوا مع السابقين، أنْ يرتقُوا إلى مرتبة الإحسان في اتّباعهم، ولا يكفي لواحدهم أن يكون من المتقين فقط، أو من الأبرار فقط، بدليل قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾.

إذْ جعلَ الاتّباعَ مقيّداً بكونه مُلْتَبساً ومقترناً بإحسان، والإحسانُ كما جاء في بيان الرسول ﷺ هو أن تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تراه، وهو فوق مرتبة البرّ.

وقد منح الله السابقين جميعاً من التكريم والأجر العظيم أمرين:

الأمر الأول: دلّ عليه قوله تعالى:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾:

أي: رضي عنهم بسبب ما قدّموا من أعمال صالحة ابتغاء مرضاته، وما يقدمون دواماً من أعمال صالحة، وبلغت بهم السعادة بما هم فيه من إيمانٍ وانْشراحِ صدرٍ مع

أنّهم ما زالوا في رحلة امتحانهم يتقلّبون في مختلف أنواع الامتحان، أن كانوا في رضاً دائم عن الله فيما تجري به مقاديره، وهذا الرضا هو أحد عناصر سعادتهم في الحياة الدنيا.

الأمر الثاني: دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

وكما في قراءة ابن كثير: [تَجْرِي مِنْ تَحْتِها].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾:

أي: وهيأ لهم جنّات، وقد جاءت الجنّات مجموعةً للدّلالة على أقسامٍ متعدّدة كثيرة داخل الجنة العظمىٰ التي أعدها الله للمتقين، إذ كلّ قسم من أقسامها يصحُّ أن يُسمّىٰ جنّة، فإذا لاحظنا الأقسام ظهرت أنّها جنات، وإذا لاحظنا أنها كلّها دار واحدة للمتقين ظهر أنّها بجميع أقسامها جنّةٌ واحدة.

وقد جاءت جنة الخلد في القرآن مفردة «٦٧» مرةً وجاءت مجموعةً باعتبار أقسامها «٦٩» مرّة، وجاءت مُثنّاة في بيان ثواب بعض مستحقيها من المؤمنين، باعتبار أنّ حظَّ كلٍّ منهم جنتان من أقسامها «٣» مرات.

[تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ] أو: [تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ] كما في قراءة ابن كثير.

قد يسأل سائل ما الحكمة من هذا التعبير؟ ولِمَ لَمْ يأتِ بعبارة تجري فيها الأنهار؟

أقول:

إنّ الجنّة لا تُسمّىٰ جنّةً إلّا بأشجارها ونباتاتها، فالأرض الخالية الجرداء لا تُسمّىٰ جنّة، والأنهارُ التي تجري في أرضها إنّما تَجْري تحت أشجارها، وتحتَ سُكّانِ قُصُورها ومساكنها الطيّبة العالية المشرفةِ، فالدّقّةُ في التعبير تستدعي أن يقال تجري من تحتها أو تحتها الأنهار.

و«من» في [مِن تَحْتِها] لابتداء الغاية، ووجودُها في كلّ الاستعمالات القرآنية باستثناء هذه الآية في قراءة جمهور القرّاء، مع إثباتها في قراءة ابن كثير، يشير إلى أن

منابع هـذه الأنهار تتفجّر من الأرض التي هي تحت الجنات، فتجري تحْتَها، فـدلّت القراءتان على المعنيين، فهي تَنْبُعُ جاريةً من تحتها، وتجري بعد ذلـك في المسالـك المتنوّعة تحتها.

وكلمة النّهر تُطْلَقُ في اللّغة على مجرى الماء، ثم حصـل توسُّـع في إطلاقهـا، فصـارت تُطْلَقُ على المـاء الجاري في النهـر، ويسمّىٰ مثل هـذا الإطلاق عنـد علمـاء البلاغة مجازاً مُرْسَلاً، من إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه.

أقـول:

وجريان هذا الاستعمال على الألسنة جعلَ إطلاق النهر على الماء الجاري نفسـه في النهر حقيقةً عرفيّةً، ونُسِيَ فيها المعنىٰ المجازي السابق. ويقال لغة: نَهَرَ المـاء إذا جرىٰ في الأرض وشَقَّ لنفسه نَهَراً. ويجمع النهر على «أنهار، ونُهُر، ونُهُور».

﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ﴾:

أي: خالدين في هذه الجنات المعدّة لهم سابقـاً قبل وضعهم مـوضع الامتحـان في الحياة الدنيا خلوداً أبديّاً لا نهاية له، وذلك بإمداد الله لها ولهم بالبقاء الدائم.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾:

الفوز: النجاة والربح والـظفر، والمعنى: ذلـك الخلُودُ في الجنّاتِ المعـدّةِ لهم هـو الفوز العـظيم، وقد أشيـر إليه بـالإشارة المـوضوعـة للمشار إليه البعيد، لـلإشعار بارتفاع منزلته ارتفـاعاً عـظيماً، الأمر الذي جعله بـالنسبة إلى من أُعِـدّ لهم أمراً بعيـداً جـدّاً، لكنّه بفضـلِ الله وفيضِ عـطائه سيحصـل لهم، وسينـالـونه لا محـالـة، فقـد وعدهم الله به، والله لا يخلف الميعاد.

* * *

الأقسام الثلاثة الأخيرة: المنافقون ــ والعصاة التائبون ــ والعصاة المسرفون على أنفسهم، وقد دلّ عليهم:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ
لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ
وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

* * *

القراءات

● [سَيِّئًا]: وقف عليها حمزة فقط بإبدال الهمزة ياءً خالصة.

● [وَتُزَكِّيهِمْ]: ضمَّ يعقُوبُ هاء الضمير، وقراءة سائر القرّاء بكسرها، والقراءتان وجهان عربيان لنطق هاء الضمير:

● (١) قرأ حَمْزَةُ والكسائي وخلف وحفْصٌ عن عاصم: [إنَّ صَلاَتَكَ] بالإفراد.

(٢) وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إنَّ صَلَوَاتِكَ] بالجمع.

ودلّت القراءتان على أنّ دعاء الرسول لهم بالرحمة يستوي إفراده وتكريره، لأنّ دعاءه مستجاب.

● (١) قرأ ابن كثير وأبو عَمْرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم: [مُرْجَؤُونَ] بهمزة مضمومة بعدها واو.

(٢) قرأ باقي القرّاء: [مُرْجَوْنَ] بواو ساكنة بدل الهمزة، وليس بعدها واو أخرى.

والقراءتان لغتان لمادّة الكلمة، يقال في الفعل: [أَرْجَأْتُهُ] ويُقالُ: [أَرْجَيْتُهُ]. والمعنَى: مؤخرون ليحكم الله فيهم يوم الدين، مع الأمل بأن يتوب الله عليهم، لأنّ في الرجاء والإرجاء معنى التوقع والانتظار لأمر مطموعٍ فيه.

* * *

موضوع هذه الآيات

في هذه الآيات متابعة لبيان أقسام مجتمع المسلمين إبّان التنزيل بعد بيان قسم السابقين وفئاتهم، مع التعقيبات والتوجيهات الرّبّانية.

* وقد أبانت قسم المنافقين من الأعراب، والمنافقين من أهل المدينة، وما لهم عند الله من عذاب مرّتين، وعذاب آخر عظيم يوم الدين في جهنم.

* وأبانت قسم العصاة من المؤمنين الذين يُتْبِعُون معاصيهم بالاستغفار والتوبة، وأعطتهم الرجاء بأن يتوب الله عليهم، مع توجيههم للتكفير عن خطاياهم بالصدقات.

* وأبانت قسم العصاة من المؤمنين الذين لا يُتْبِعُون معاصيهم بالاستغفار والتوبة، وذكرت أنّهم مؤخّرون لأمر الله، فإمّا أن يعذبهم، وإمّا أن يتوب عليهم، وهو سبحانه سيعامل كلّ واحد منهم بحسب حاله في نفسه وقلبه وظروفه التي كان فيها في رحلة امتحانه، وذلك بمقتضى علمه بهم، وحكمته في عدله وفضله تبارك وتعالى.

* * *

التدبُّر

القسم الثالث: وهم المنافقون من الأعراب والمنافقون من أهل المدينة، بمناسبة أحداث غزوة تبوك وتجربتها، ويُلحق بهم أمثالهم من بعدهم.

* قول الله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾:

الْخِطَابُ للرَّسُول وللمؤمنين الصادقين في المدينـة، يقول الله فيـه لهم: وبَعْض مَنْ حَوْلكم من الأعراب، وهم سُكّان البادية حول المدينة، هم مُنـافقون، قـالوا وكـان يسكن بادية المدينة من الأعراب قبائـل: «جُهَيْنَة، ومُـزينة، وأَشْجـع، وغِفار، وأَسْلَم، ولحْيان، وعُصَيَّة».

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾:

مَرَدُوا على النفاق: أي: مَرَنُوا عليه، وصارت لهم به ممارسة مستديمـة، وخِبْرَةٌ طويلة، فهُمْ به وبفنونه وإتقان اصطناع الظواهـر الّتي تخفيه مـاهِرُون. يقـال لغة: مَـرَدَ يَمْرُدُ مُرُوداً ومَرَادَةً فهو مَارِدٌ ومَرِيد، أي: بَلَغ الغاية التي تَفُوقُ في العتوّ ما عليـه أحوال أهل الوصف الذي مَرَدَ فيه، نفاقـاً، أو مكراً، أو لُصُوصِيَّة، أو فِسْقـاً، أو سَفْكاً للدمـاء، أو غير ذلك.

والْمَـرِيدُ الخبيثُ الشِّرِّيرُ الْمُتَمَرِّدُ، ومنه أطلق على الشيطان العاتي مِنَ الإِنْسِ والجنّ ماردٌ ومَرِيد.

والمعنى: وبَعضُ أهل المدينـة منافقـون مردوا على النفـاق إضافـةً إلى من نَعْلَمُ من المنافقين الذين كشف سلوكهم نفاقهم.

هؤلاء المنافقون المعنيّون من أهل المدينة، قد مارسوا النّفاق واصطناعَ الـظواهر التي تُخْفيـه منْذُ مَقْدَمِ الرَّسُول ﷺ إلىٰ المدينـة حتى غزوة تبـوك في السنة التـاسعـة من الهجرة، إنّها سنوات تسع كافيات لاكتساب المهارة الفائقة في النفاق.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾:

الخطاب للرسول، ويصلحُ أَنْ يكون خطاباً له ولكـلّ مؤمن على سبيل الخطـاب الإفرادي، ولمّا كان الرسول ﷺ يَعْلَمُ بعض هؤلاء المنافقين، وكـان من المؤمنين أفرادٌ يعلمون أفراداً منهم، كان من حُسْن التدبّر ان نفهم أنّ قول الله تعـالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ ينبغي أن يُحْمَل على نَفْيِ العلم المستغرق لكـلّ أفرادهم، فنَفْيُ علم الجميـع لا يُفيدُ نفي علم أفرادٍ منهم، فلا تعـارض بهذا بين هـذا النّصّ وبين مـا ثبت من واقـع حـال الرسول وبعض المؤمنين من علمهم ببعض أفراد المنافقين، والضمير في الفعلين يعود فيما أرىٰ على منافقي الأعراب ومنافقي أهل المدينة معاً.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ جاء التعبير فيه بضمير المتكلم العظيم، المناسب لشمول علم الله بواطنَ الأمورِ وأسرارَ قُلوب العباد، وربّما يكونُ المرادُ التعبيرَ عن علم الله وملائكته الموكّلين بمراقبة العبادة وكتابة أعمالهم الظاهرة والباطنة، فناسب ذلك أن يأتي بضمير المتكلم ومعه غيره.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾:

أمّا الردُّ إلى عَذَابٍ عظيم فهو إعادتهم إلى الحياة بعد الموت، ليعذَّبوا في جهنّم بعد حِسَابِهم وفصلِ القضاء بشأنهم.

وأمّا تَعْذِيبُهم مرّتين فأرَى أنّ المرّة الأولى ما يُلاقونه من عذابٍ في الحياة الدنيا. وأنّ المرّة الثانية ما يُلاقونه من عذاب في مُدّة البرزخ بين الموت والحياة، وهو ما يُعْرَفُ بعذاب القبر.

والنون في: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ﴾ هي نون المتكلّم العظيم، وهي تناسبُ مقام عزّة المنتقم الجبّار.

* * *

القسم الرابع: العصاة التائبون المستغفرون إبّان التنزيل، بمناسبة التخلف عن غزوة تبوك، ويُلْحَقُ بهم أمثالهم من بعدهم.

* قول الله تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾:

شروع في بيان القسم الرّابع، والعطف هو من قبيل عطف الأقسام بعضها على بعض.

أي: وفيكم قسمٌ آخرون ممّن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة:

﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾.

أي: أذنبوا واعْتَرَفُوا بذُنوبهم وتابُوا واستغفروا، فمن لوازم الاعتراف بالذّنْب، أن يكونَ مسبوقاً بفعل الذنب، ومن خلائق المعترفين بذنوبهم أن يَتُوبوا ويستغفروا، فيكتّى بالاعتراف عن التوبة والاستغفار.

الاعتراف بالذنب: هو إقرار المذنب بأنّه يَعرِف أنّهُ قد أذنب، اعترف على صيغة «افْتَعل» من فِعْل «عَرَفَ». ومن معاني هذه الصيغة الإظهارُ والمطاوعة، وهذان المعنيان يَصْلُحان هنا، فالمعترف بذنبه يُظْهِرُ أنّه مذنب، وإذا طُلِب منه أن يُقِرَّ بذنبه أقرّ به على نفسه.

﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾:

أي: هذا القسم من المؤمنين قِسْمٌ تعادلت حسناتهم وسيئاتهم، إذْ كان سلوكهم ينحلّ إلى عملٍ صالح وعملٍ آخر سَيِّىء، إنّهم إذا تحرّكت عاطفتهم الدينيّةُ عملوا عملاً صالحاً، فإذا تحرّكتْ بهم أهواؤهم وشهواتُهم ونزغاتُ نفوسهم عَمِلُوا عملاً سيّئاً، وهكذا دواليك، تَدُورُ حركة أعمالهم في حياتهم فتأخذ أيمانهم قبضة من الأعمال الصالحة، وتأخذ شمائلهم قبضة من الأعمال السيئة، ويختلط حالهم بالنسبة إلى الناظر إليهم، هلْ هم يعملون الصالحات أم هم يعملون السيئات؟

لكنّهم مع ذلك يَعْتَرفون بذنوبهم، ويتوبون، ويستغفرون. ومعنى الجملة: خلطوا أعمالهم بعضها ببعض، عملاً صالحاً وآخر سَيّئاً، يقال لغة: خلط الشيء بالشيء.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

في هذه الفقرة يفتح الله لهم بابَ رَجاء أن يتوبَ عليهم، فَيُعْفِيهُمْ من العقاب على سيّئاتهم، إذا كانوا صادقين في توبتهم، مخلصين في استغفارهم.

فعل «عَسَىٰ» من الأفعال التي تدلّ على الترجّي، أي: إنّ توبَة الله عليهم أمْرٌ مرجوٌّ غير مَيْئوس منه، وهذا التعبير هو إلى الإطماع والوعد بالتوبة أقرب، حتّى كأنّه وعدٌ سيُنجَز، لأنّ المُرَجّي به ربٌّ عَفُوٌّ غَفُورٌ كريم واسع الرحمة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

هذه الجملة بمثابة التعليل لما فُهِمَ ضمناً من الجملة السابقة، أي: سيتفضّل الله عليهم بالتوبة لأنّ الله غفورٌ رحيم.

غَفُور: أي: كثير المغفرة.

رَحِيم: أي: كثير الرحمة.

وفي شأن عموم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً، لا في شأن خصوص الذين نزل القرآن بتوبة اللّهِ عليهم من أصحاب الرسول ﷺ، روى البخاري في صحيحه عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنا:

«أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي، فَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ مَدِينَةٍ مبنيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فتلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كأحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ راءٍ.

قالاَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا في ذَٰلِكَ النَّهرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، قَدْ ذَهَبَ ذَٰلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فصاروا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ.

قَالاَ لي: هَٰذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وهَٰذاكَ مَنْزِلُكَ.

قالاَ: أَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانَ شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ»[1].

هذا الحديث قصّ الرسول فيه رؤيا رآها في منامه، ورؤيا الأنبياء حقّ. وجاء في بعض روايات الحديث أن الآتيان اللّذان أتياه في المنام هما «جبريل وميكائيل» فقد جاء فيها بعد تفسير المشاهد: «وأنا جبريل وهذا ميكائيل».

(١) البخاري «كتاب تفسير القرآن» الحديث (٤٦٧٤) من الفتح، وأورده في التعبير عن سمرة أيضاً بأطول وأكثر أحداثاً (الحديث ٧٠٤٧) من الفتح.

وأمر الله عزّ وجلّ رسُولَهُ بأن يقبل من المذنبين التائبين ما يبذلون من أموالهم من صدقة، لتكون هذه الصدقة مُطَهِّرَةً لهم من ذنوبهم، ومُعَوِّضَةً الخسران الذي خسروه بسببها، فتَنْمُوَ بها صالحاتُ أعمالهم.

وأَمَرَهُ أيضاً أن يُصَلِّيَ عليهم، أي: أن يدعُو لهم بالرّحمة، فإذا دَعا لهم بها، سكنتْ قلوبُهُم، واطمأنَّتْ، وتخلّصتْ من القلق والاضطراب الذي نزل بها بسبب ما أصابوه من الذنوب، لإيمانهم بأنّ صلاة الرّسول عليهم صلاةٌ مقبولة حتماً عند بارئهم، فالله لا يردُّ دعاء رسوله فيما هو مأذون بأن يدْعُوَ به.

* فقال تعالى له:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾:

إِذْنٌ مِنَ اللّهِ لِرَسُوله بأنْ يأخذ من المذنبين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ما يبذُلون من أَمْوَالِهِمْ صدقة للّهِ تعالى ابتغاء تطهيرهم وتزكيتهم بها.

الصَّدَقة: ما يُبْذَل لذوي الحاجات من الفقراء والمساكين ابتغاء مرضاة الله.

وأخْذُ الرسول الصّدَقة منهم هو أخذٌ لا ليتملّكها، ولكن ليضعها فيمن يستحقها من الفقراء والمساكين.

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾:

أي: تُزيل عنهم أدران ما ارتكبُوا منْ ذَنبٍ، وذلك لأنّ الحسنات يُذْهِبْنَ السّيّئات.

﴿وَتُزَكِّيهِم﴾:

التزكية تأتي في اللّغة بمعنيين، **الأول**: التطهير. **والثاني**: الزيادة والنماء. وبما أنّ التطهير قد جاء مدلولاً عليه بقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُم﴾ لزم أن نفهم أنّ ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾

بمعنىٰ وتنمّيهم وتـزيدُهُمْ، والمراد نمـاء وزيـادة أعمـالهم الصـالحـة، التي تعـوّضهم ما خسروه بسبب الذنوب.

والمعنى أنّ الرّسول إذا قبل منهم ما يُقَدِّمون من أموالهم صدَقَةً للتطهير والتزكية، فإنّه يُطَهِّرُهم ويُزَكِّيهِمْ بقبولها منهم، أي: إنَّهُ يكون سبباً في ذلك.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: وادع لهم بأن يغفر الله لهم ويرحمهم فَيُطَهِّرهم ويُزَكّيهم.

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾:

السَّكَنُ يُطْلَقُ على الشيء الذي تَسْكُنُ إليـه النَّفْسُ، وتَـطْمَئِنُّ، وتَسْتَـأنِسُ بـه، ويُطْلَقُ على الرَّحْمَة، وعلىٰ الْبَرَكة.

والمعنى: إنّ صَلاتَكَ عليهم تمنح قلوبهم ونفوسهم السُّكون والطّمـأنينة، وهي أيضاً رحمةٌ لَهُمْ وَبَرَكَةٌ، لأنّ الله يَزيدُهُمْ بها رحمةً وعطاءً.

وختم الله الآيـة بقولـه: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عليم﴾ لـربط عملهم في بـذل الصـدقـة، وصلاةِ الرسول عليهم، بما يلائمُهما من القاعدة الإيمانيّة، فدعاء الـرسول لهم يـلائمه اسم الله السميع، وعملهم ابتغاء مرضاة الله يلائمه اسم الله العليم.

وجاء في سبب نزول هذا النصّ ما يلي:

أخـرج ابن جريـر، وابن المنذر، وابْنُ أبـي حـاتم، وابْنُ مَرْدويـه، والبيهقيّ في دلائل النبوّة، عن ابْن عبّاسٍ في قوله تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا . . .﴾.

قـال: كانـوا عشرة رهطٍ تخلّفـوا عن رسول الله ﷺ في غـزوة تبوك، فلمّـا حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان مَمَرُّ النبيِّ ﷺ إذا رجع عليهم، فلمّا رآهم قال:

«مَنْ هٰؤُلاءِ الْمُوثِقُونَ أَنْفُسَهُمْ؟»

قـالوا: هـذا أبو لُبـابَة وأَصْحَـابٌ لَهُ تخلّفـوا عنك يـا رسـول الله، حتى تُـطْلِقَهُمْ

وتعذرهم. قال:

«وَأَنا أُقْسِمُ بِاللّهِ لاَ أُطْلِقُهُمْ ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يُطْلِقهم، رَغبوا عنّي، وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين».

فلمّا بلغهم ذلك قالوا: ونحنُ لا نُطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يُطلقنا، فنزلت:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

وعسَى من اللّهِ واجب، فلمّا نزلت أرسل إليهم النبيّ ﷺ، فأطلقهم وعَذرهم، فجاءوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدّق بها عنّا واستغفر لنا، قال:

«مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ أَمْوَالَكُمْ»

فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.

يقول: استغفر لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، يقول: رحمةٌ لهم. فأخذ منهم الصّدقة واستغفر لهم.

وكان ثلاثة نفر لم يُوثقوا أنفسهم بالسواري، فأُرْجئوا سنة، لا يَدْرُونَ، أَيُعَذَّبُونَ أَوْ يتابُ عليهم؟ فأنزل الله:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾:

وفي دعاء الرسول ﷺ للمتصدّقين تطبيقاً لقول الله له: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لهم﴾:

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بْن أَبي أَوْفَىٰ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتِي بصَدَقةٍ قال:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلىٰ آلِ فُلاَن».

فأتاه أبي بصَدَقَتِهِ، فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آل أبـي أَوْفَىٰ».

ولمّا كانت العبرة في النصوص القرآنية بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب كـان علينا أن نفهم أنّه يَحْسُنُ بكلّ عاصٍ تائب أن يتصدّق صدقةً رجاء أن تُطَهِّرَهُ وتُزَكِّيَهُ، ولا بـأس أن يلتمس مع ذلـك دُعاءَ وارثي الـرسول ﷺ، أن يغفـر الله له ويَـرْحَمَه، من الذين يرى فيهم الصلاح والاستقامة وأنهم من أئمة المتقين.

وإذْ كان العصاةُ التائبون المستغفرون وَجِلين قلقين خائفين أن يعاقبهم الله بسبب ذنوبهم، كان من الحكمة الرّبانيّة التخفيف عنهم، بِتَرْجِيَتِهِم وطَمْأنَـةِ قُلوبِهم، فقال الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

الاستفهامُ في: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ استفهام تقريري، أي: قد سبق أن علمـوا أنّ الله يقبل تَوْبةَ عباده، فلا داعي لقلقهم واضطرابهم، وخَـوْفِهِم الشـديـد مما فعلوا من ذَنْبٍ، بعد أن تابوا واستغفروا.

وقبول توبتهم يلزم منـه تجاوز الله عن سيّئـاتهم، وللدّلالة على هـذا المعنى قال تعالى: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يقبل التوبة متجاوزاً عن سيئات عباده.

وملاحظةً لحالة قلقهم وخـوفهم أكَّدَ الله الجملة بضميـر الفصل «هـو» في: ﴿هو يَقْبَلُ﴾ مع التأكيد بحرف التأكيد ﴿أَنَّ﴾.

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ معطوف على: ﴿يَقْبَلُ﴾ فـالجملة ينسحب عليها مؤكّـداتُ الجملة الأولى.

والتعبير بأنّه سبحانه يأخذ الصَّدَقات التي يبذلـونها للفقـراء، يدلُّ على أنـه يقبلها منهم، ويكافئهم عليها، فيتوب عليهم ويكفّر عنهم سيئاتهم ويرحمهم.

وذكّرهم الله بما يلائم قبول توبتهم وصدقـاتهم من صفاتـه وأسمائـه الحسنى في آخر الآية بقوله:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

التّواب: أي: الذي يتوبُ على عباده كثيراً، فالصيغة من صيغ المبالغة. يقال لغة: تَابَ يَتُوبُ تَوْباً وتَوْبَةً ومَتَاباً إذا رجع، وتَوْبَةُ الْعَبْدِ رُجُوعُه إلى طاعة رَبه، وتوبةُ الله على عَبْدِه رُجُوعُهُ إليه بالإقبال والغفران والعفو والرضا.

الرحيم: أي: الذي يرحم عباده كثيراً، فصيغة «الرحيم» من صيغ المبالغة.

وإذْ طُوِيتْ صفحة الماضي بالتوبة والغفران، كان من الحكمة التوجيهيّة التربويّة استحثاث همم أفراد هذا القسم العصاة التائبين المستغفرين الباذلين من أموالهم صدقاتٍ ابتغاء مرضاة الله للتطهير والتزكية، وذلك بأمرهم بفعل الصالحات في المستقبل، وبالاستقامة على الطاعة والبعد عن اقتراف الذنوب، فقال الله لرسوله:

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

والمعنى: وقل يا محمّد لهم: قد تداركتم ما وقعتم فيه من ذنب فيما مضى بالتوبة والاستغفار، وبذل الصّدقات، فتاب الله عليكم وغفر لكم، فأرُوا الله ورسولَهُ والمؤمنين في المستقبل أعمالاً صالحات، واستقامةً على الطاعات، وبُعْداً عن ارتكاب السيّئات، فسيرى الله عملكم (أي: أعمالكم فالمفرد المضاف إلى معرفة يعمّ) وسيرى رسولُه والمؤمنون كذلك عملكم، فَيَشْهَدُون لكم بما يَرَوْن منكم، ويغضّون النظر عن ماضيكم، ويعاملونكم بمقتضى ما تحوّلْتُمْ إليه من خير وصلاح واستقامة.

وإلاّ تُصْلِحوا وتستقيموا فإمّا أن تُكَرِّروا ما كنتم عليه من الْخَلْط، وإمّا أن تَنْزِلُوا إلى دَرَكَةِ المسرفين على أنفسهم.

وفي كلّ الأحوال: فسيرى الله عَمَلَكُمْ ورسولُهُ والمؤمنون، ما دمتم في الحياة الدنيا، وبعد ذلك ستموتون.

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

اللّهِ ربكم: أي: وسَتُرَدُّونَ إلى الحياة يوم البعث لتلاقوا ربّكم الذي يَعْلَمُ كلّ

ما هو غيب عن عباده، وكلّ ما هو شهادة، أمّا هو فلا غيب بالنسبة إليه، بل كلّ شيء بالنسبة إليه شهادة، وستقفون بين يديه في موقف الحساب وفَصْلِ القضاء.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أي: من أعمالكم الظاهرة، وأعمالكم الباطنة، ويُحَاسِبُكُمْ عليها، ويكون قضاؤه الفصْلُ يوم الدين بينكم بحكمته وفْقَ مقتضَى عَدْلِه أو فضله.

ويقاس على الْمَعْنِيِّينَ بالخطاب في هذا النصّ غَيْرُهُمْ مِمَّنْ يأتي بعدهم، وينْطَبِقُ عليهم ما انْطَبَقَ على هؤلاء، ويُطَالَبُ حملةُ ميراث رسولِ الله ﷺ بأنْ يقولوا لهم إذا تابوا واستغفروا وبذلوا من أموالهم صدقات ابتغاء مرضاة الله:

﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

القسم الخامس: العصاةُ المسرفون على أنفسهم المستغرقون في معاصيهم إبّان التنزيل ويُلْحَقُ بهم أمثالُهُمْ من بعدهم.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

* قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابْنُ عامر وشعبة عن عاصم: [مُرْجَؤُونَ] بالهمزة وواو بعدها.

وقرأ سائر القرّاء العشرة [مُرْجَوْنَ] بحذف الهمزة وواو ساكنة.

قال أهل اللُّغة: أرْجأ الأمْرَ، أي: أخّره، وتركُ الهمز لُغَةٌ، قال ابْنُ السِّكِّيت: أرْجأتُ الأمْرَ، وأرْجَيْتُه إذا أخّرْتَه، فيقال في هذا الفعل إذاً: أرْجَأَ، وأرْجَىٰ، والمعنى واحد.

والمعنى: وآخرون من العصاة لم يتُوبوا ولم يستغفروا كما فعل أهل القسم

الرابع، وهؤلاء مؤخّرون لم يقض الله بتوبته عليهم، وتأخِيرُهم إنّما هو لأمر الله وشأنه فيهم، يومَ الحساب وفصْلِ القضاء.

ويومئذ إمّا أن يقضي الله بعذابٍ من تقتضي حكمته تعذيبه، وإمّا أن يتُوبَ على من تقتضي حكمته أن يتوب عليه.

وختم الله الآية بقوله: ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى أنّه سبحانه يُعامِل كُلَّ واحدٍ منهم بحسب مقتضىٰ حكمته، المستندة إلى علمه الشامل به، وبكلّ ظروفه، ودوافعه النفسيّة، وبيئته، وما وهبه من قدرات، ومقدار رغبته في المعصية، وجملة المؤثّرات على إرادته.

● ● ●

الْعِقْدُ الثَّالِثُ

قصة مسجد الضرار
مع التعقيبات والتوجيهات الربّانية

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا
لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
(١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ
يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ
مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن
تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

* * *

القـراءات

* قرأ المدنيان: نافع وأبو جعفر، والشامي ابنُ عامر: [الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً] بحذف حرف العطف قبل «الَّذِينَ».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً] بإثبات حرف العطف.

وفي القراءتين مُرَاعاةٌ لاقتضاءَيْن، فتَسَلْسُلُ الأحداث السابقة في السورة يقتضي الوصل، إذ الحديث فيها عن ظواهر سلوكية للمنافقين، يقتضي عطفَ ظاهرة بناء

مَسْجد الضرار عليها، فجاءت قراءة أكثر القرّاء بالعطف. ووجودُ الفاصل الطويل من الآية (٩٩) إلى الآية (١٠٦) الّتي تضمّنَت الحديث عن أقسام مجتمع المسلمين يومئذٍ يقتضي الفصل، وبَدْأُ الكلام بأسلوب الاستئناف لا العطف، فجاءت مُرَاعاةُ هذا المقتضى في قراءة حذف حرف العطف، وبالقراءتين تمّتْ مُراعَاةُ الاقتضاءين، وهذا من بدائع التنزيل الحكيم.

* قرأ نافع وابْنُ عامر: [أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ] و[أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ] ببناء فعل «أُسِّسَ» للمجهول، ورفع «بُنْيَانُهُ» على أنه نائب فاعل، في الموضعين.

وقرأ باقي القراء العشرة بالبناء للمعلوم ونصب «بنيَانَه» في الموضِعَيْن أيضاً.

وفي هاتين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، ففي قراءة البناء للمعلوم يتحدّث النّصّ عن الذي شارك في تأسيس مسجد الضرار بالعمل أو بالرأي أو نحو ذلك من المنافقين، وفي قراءة البناء للمجهول يتحدّث النّصُّ عن سائر المنافقين الذين أُسِّسَ لهُمْ هذا البنيان، ولَوْ لم يكونوا من المشاركين فعلاً في مؤامرة بناء مسجد الضّرار.

* قرأ شُعْبة عن عاصم: [وَرُضْوَانٍ] بضمّ الراء.

وقرأ باقي القرّاء: [وَرِضْوَانٍ] بكسر الراء.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق هذه الكلمة.

* قرأ ابن عامر وحمزة وخلف وشعبة عن عاصم: [جُرْفٍ] بإسكان الراء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [جُرُفٍ] بضمّ الرّاء.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق هذه الكلمة: فالْجُرْفُ والْجُرُف شِقُّ الوادي إذا حَفَرَ الماء في أسفله فصار عُرْضَةً للانهيار السريع.

* قرأ يعقوب البصري: [إِلَى أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهم] أي: إلى أن تتقطَّعَ قُلُوبُهُمْ.

وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو جعفر وحفص عن عاصم: [إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] أي: إلّا أن تَتَقَطَّعَ قلوبهم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِلَّا أَنْ تُقَطَّعَ قُلُوبُهم] بالبناء للمجهول.

وفي هذه القراءات تكاملٌ فكريٌّ وتكامل في الأداء البياني.

أمّا قراءة يعقوب فتدُلُّ على أنّ الرِّيبة في قلوبهم ستستمرُّ حتَّىٰ تَتَقَطَّع قلوبهم، وأمّا قراءة ابن عامر ومن معه فهي تدُلّ على أن هذا الاستمرار يُسْتَثْنَىٰ منه زَمَنُ تقطُّعِ قُلوبهم، فهي تشير إلى احتمال مفاجأتهم بالعقاب قبل حلول آجالهم المقرّرة.

وأمّا قراءة باقي القرّاء فهي تدُلُّ على احتمال أنْ تُقَطَّعَ قُلوبُهُمْ بفعلِ فاعل، فهي تتقطَّعُ بذلك مجبورةً غيْرَ مُخْتارة.

* * *

سبب نزول هذه الآيات

سبق في استعراض أحداث غزوة تبوك وما رافقها بيان سبب نزول هذه الآيات، فلْيُرْجع إليه[1]، ومنه نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ يبيّنُ فيها ظاهرة من الظواهر السلوكية للمنافقين، وقد كانت إبّان أحداث غزوة تبوك، إنّها ظاهرة بناء مسجد الضرار، ليكون قاعدة مَكْرٍ وكفرٍ وإضرار بالإسلام والمسلمين.

* * *

التدبُّر

قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ﴾.

تحدّث الله عزّ وجلّ في هذه السورة عن المنافقين بعدّة أساليب:

أولاً:

في بدء الحديث عنهم قد كان العرض بأسلوب تمهيديّ غير صريح في أوّله بأنّهم منافقون، وانتهى في وسطه وآخره بما يدمغهم بالنفاق، وكان هذا في الآيات من (٤٢ ـ إلى ٤٧).

(١) انظر الفقرة (٧): «رحلة العودة إلى المدينة».

فقد بدأت هذه الآيات بقول الله تعالى بشأن الذين استأذنوا في أن لا يخرجوا مع الرسول إلى غزوة تبوك:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ.. ﴿٤٢﴾﴾.

وجاء في أثنائها:

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وجاء في آخرها:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا... ﴿٤٧﴾﴾.

ثانياً:

ثمّ تتابعت الآياتُ تَكْشِفُ ظواهر نفاقهم بصراحة، مثل:

- ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ... ﴿٥٠﴾﴾.
- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ... ﴿٥٨﴾﴾.
- ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ... ﴿٦٧﴾﴾.
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ... ﴿٧٥﴾﴾.
- ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ... ﴿٧٩﴾﴾.
- ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ... ﴿١٠١﴾﴾.

ثالثاً:

ثمّ جاء دور الحديث عن بُناة مَسْجِدِ الضّرار من المنافقين، الّذين بدؤوا بِتَنْفِيذِ مؤامرةٍ كيديّة كُبْرَىٰ ضِدَّ الإسلام والمسلمين، مع أبي عامر الراهب الذي حاربَ الرسول والمسلمين في أُحُدٍ مع مشركي قريش، وهو من أهل المدينة من بني غُنْم بن

عرف، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وأقام بمكة قبل فتحها، ولمّا فُتِحَتْ للرسول ﷺ هَرَب إلى الطائف، ولمّا فُتِحتِ الطائفُ خرج إلى الشام، واستنصر بقيصر، وكتب إلى المنافقين من قومه يأمرهم بأن يبنوا مسجداً خاصّاً بهم، ليكون قاعدة انطلاق لحرب المسلمين في المدينة، ووَعَدَهُمْ بأنّه سيأتي بجيش من الروم، لقتال المسلمين وإخراجهم من المدينة.

فلمّا جاء دوْرُ الحديث عن بُناةِ مَسْجِد الضرار هؤلاء، كان من الحكمة البيانيّة التّنبيهُ على تخصيصهم بالذكر، لتوجيه الاهتمام بأمْرِهِمُ الخطير، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا . . .﴾.

على أنَّ ﴿الَّذِينَ﴾ مَفْعولٌ به لفِعْلٍ محذُوفٍ تقديرهُ: ﴿أَخُصُّ﴾ أي: وأخُصُّ بالذكر من المنافقين الذينَ اتَّخذُوا مَسْجداً ضِراراً، والمعنَى: أنّ هؤلاء أشدّهم عداءً، وأعظمهم خطراً، لتَحَوُّلِ عِدائِهِم الكمين إلى أعمال كيديّةٍ تُعِدُّ لحرْبٍ تُشارِكُ فيها دولةُ الروم بجيش تبعث به من الشام إلى المدينة.

وقد ذكر الله عزّ وجلّ عناصر الكيد التي اشتمل عليها بناء مسجد الضّرار بجوار مسجد قُباء، وهي أربعة عناصر:

العنصر الأول: كونه ضِراراً، أي: قصد المنافقون من إنشائه مضارّة المسلمين المؤمنين.

والضِّرَارُ في اللّغة يأتي بمعنيين:

الأول: المخالفة، تقول لُغَةً: ضارَرْتُ الرَّجُلَ مُضَارَّةً وَضِراراً، إذا خالَفْتَه، وأخذْتَ اتّجاهاً غَيْرَ اتّجاهه، وطريقاً غيْرَ طريقه.

الثاني: إنْزالُ الضَّرَر، تقول لغة: ضارّه مُضَارَّة وضِرَاراً، إذا اتَّخَذَ الأسْبَاب لإنْزالِ الضَّرر به، وأصل صيغة «فاعل» تدلُّ على المشاركة، ولكن حين لا يكون من يُرادُ إنزالُ الضرر به مشاركاً فعلاً، فإنّ الصيغة تدلُّ على مضاعفة الجهد لإنزال الضرر به.

وهـذان المعنيان ينـطبقان على حـالة بِنَـاءِ هؤلاء المنافقين لمسجـدهم إلى جوار مسجد قباء.

العنصر الثاني: كونُه كُفراً، أي: أنشأه المنافقون بباعث الكفر الـذي يُكِنُّونه في صُدورهم، وليكون قـاعدة نشـر الكفر، وانـطلاق الأعمال الكـافرة المحـاربة لـلإيمان والمؤمنين.

العنصـر الثالث: كـونُه تَفْـريقاً بين المؤمنين، أي: أنشـأه المنافقـون لاستـدراج بعض المؤمنين إليه، بغية ضمهم مستقبلاً إلى صفوفهم.

العنصر الرابع: كونه إِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ.

الإِرْصَـادُ: الإِعدادُ والتهيئـة، يقال لغـة: أرْصَدَ الجيْشَ للقتـال، إذا أعَـدَّهُ لَـهُ. وأرصَدَ القلعة للحرّاس، أي: أعدَّها لهم، ويلزم من الإعداد والتهيئة الانتظار والترقب لما أعِدّ له.

والمعنىٰ: أنّ هؤلاء المنافقين قد أعَدُّوا مسجدهم الذي بنوه لأبي عامر الراهب الذي كان من قَبْلُ قد حَارَبَ الله ورَسُولَهُ، وتآمر مع قيصر الرّوم أن ينصره بجيش يُقَاتل به الرّسول والمؤمنين في المدينة.

والإعـراب المـلائم للمعنى المتبـادر من اتّخـاذهم مسجـدهم: «ضِـرَاراً وكُفْـراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَه» أن تكون هذه المصادر منصوبةً على أنّ كـلّ واحـد منهـا مفعـولٌ لأجله، فـ ﴿ضِـرَاراً﴾ مفعـول لأجله، أي: لأجـل الضرار، والبقية معطوفة عليه، فلها مثل حكمه، وتُـوجَدُ وجـوهٌ أخرى لإعـرابها، ولكن هذا أظهرها، وهو الملائم لما يتبادر من النّصّ من دون تكلّف.

وحين أنزل الله على رسوله خبر متّخذي مسجد الضـرار، وهو في طـريق عودتـه من غزوة تبوك قـافلاً إلى المـدينة، أبـان لَهُ أنّهم سيحـاولون التنصُّـل من ابتغاء التـآمر الكيدي ضدّ الإسـلام والمؤمنين ببناء مَسْجِدِهم، بأنْ يَحْلِفُـوا بالله على أنّهم مـا أرادوا ببنائه إلاّ الغاية الْحُسْنَىٰ التي لا يُـلامون عليهـا، لكنّ اللَّهَ يَشْهَدُ إنّهم لَكَـاذِبُون، فقـال تعالى:

﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾:

أي: وسيَحْلِفُونَ حين كَشْفِ أنهم منافقون يَمْكُرُونَ ويكيدون، وحين يَذْهَبُ مَبْعوثُو الرسول لهدم مسجدهم وتحريقه، قائلين: ما أَرَدْنا ببنائه إلَّا الغاية الْحُسْنَىٰ.

﴿إِنْ﴾: حرف نفي بمعنى «ما» ولا يُشْتَرط أن تأتي «إلَّا» أو «لمَّا» بعدها. فقد جاءت في القرآن نافية دون هذا الشرط. مثل قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

من سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾: أي: إلَّا الغاية الحسنىٰ، وهي أن يكون للضعفاء منهم وأهل العلّة والليلة المطيرة. الْحُسْنَىٰ: مؤنث الأَحْسَن، فهو أفعل تفضيل.

ولمَّا كانت مكيدتهم امراً سِرّاً لا يُوجَدُ عليه شهودٌ من المؤمنين، ولا دلائل مكشوفة تدينهم بتآمرهم، قدّم الله عزّ وجلّ شهادته بأنّهم لَكَاذِبُونَ في أيمانهم التي سيحلفونها، فقال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

ونلاحظ أنَّ الله قدَّمَ شهادته مُؤَكَّدَةً، بعدّة مؤكّدات، هي: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة» مع أنّ خبره للرسول وللمؤمنين لا يحتاج مؤكّدات، ولا سيّما قد نَزَلَ به قرآن يُتْلَىٰ، والغرض من ذلك أنْ يُعَلِّمَنا قواعد أداء الشهادات، فينبغي أن تكون شهادة الشاهد بصيغة «أشْهَد» وأن يقترن الخبر الذي يَشْهَدُ به بالمؤكدات التي ترفع احتمال الإخبار دون تَوَثُّق.

وإذْ كان مسجد المنافقين هذا مؤسَّسَةَ ضِرارٍ وكُفرٍ وتفريقٍ بين المؤمنين وإرصادٍ لمَنْ حاربَ الله ورسوله، كانت الحكمةُ الإداريّة تقضي بهَدْمِهِ وإزالةِ أثرِهِ، والتشهيرِ بِبُنَاته، تحذيراً منهم، وقطعاً لدابر الفتنة، ودفنها في المكان الذي أُعِدّ لها فقال الله لرسوله:

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾:

أي: لا تستجب لدعوة الذين بنَوْه في أن تُصَلّي لهم فيه، بل لا تدخل ولا تَقُمْ فيه داعياً لهم بالبركة، ولا تُقِرَّهم عليه، ولا تُعْطِهِمْ بقيامك فيه حجّةً على أنك أقْرَرْتَهم عليه.

وأشعرت كلمة: ﴿أبداً﴾ الدالة على عموم أزمنةِ المستقبل بأنّه ينبغي مَحْوُ كُلّ أثرٍ لهذا البناء الذي بُنِيَ للشرّ والضرّ، ولذلك أمر الرسول بهدمه.

ونهيُ اللّهِ رسولَهُ عن أن يقوم فيه يَعُمُّ جميع المؤمنين، فمؤسسات المنافقين لا يَجُوزُ أن يُشارِكَ فيها المؤمنون، لئلا تُتَّخَذَ مُشارَكَتُهُمْ ذريعةً وجُسُوراً تعبُرُ عليها مكايِدُ الكفر والنفاق، ضدّ الإسلام وجماعة المسلمين المؤمنين الصادقين.

واقتضت حكمة ذكر الأضداد عند ذكر أضدادها أن يُنَوِّهَ اللّهُ بشأن كُلّ مسجد آخَرَ أُسِّسَ على التقوى من أوّل يوم، في مقابل الحديث عن مسجد الضرار الذي أُسِّس على الكُفْر، فقال الله عزّ وجل:

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

اللام في ﴿لَمَسْجِدٌ﴾ هي لام الابتداء، ويؤتى بها لتوكيد الجملة بعدها.

أي: لَمَسْجِدٌ آخر ــ غير مسجد الضرار الذي نَهَيْنا عن القيام فيه ــ موصوفٌ بأنه أُسِّسَ على التقوى من أوّلِ يَوْمِ جَرىٰ التفكير في تأسيسه، أو الإعدادُ لبنائه، أو الشُّروعُ بالتّنْفيذ، أحَقُّ ان تقوم فيه، والمرادُ تقوى مؤسِّسيه، إذْ أرادوا من تأسيسه أن يكون لعبادة الله وحده، وأن يقوم مؤسِّسُوه وغيرهُمْ فيه بما يجب عليهم من صلاة وذِكْر وأَمْر بالمعروف ونهي عن المنكر، ومن أمارات كوْنه أُسِّس على التقوى وصْفُ حال أهله القائمين فيه، الذين يُحِبُّون أن يتطَهَّرُوا حسيّاً ومعنوياً ليظفروا بحب الله لهم، فالله يحبّ المطّهّرين.

نُـزِّلَتْ تَقْوىٰ المؤسِّسينَ التي تكون في قلوبهم مَنْزِلَةَ الأرض الصالحة الصُّلْبة الثابتة التي تقوم عليها المباني المشهودة بالحسّ، لأنّ البناء الحسّي يُلاحظُ فيه الغايةُ مِنْهُ، والغايةُ منه قضية معنويّةٌ إرادية، وهذه الغاية المعنويةُ إمّا أن يكون أساسُها خيراً

كالتقوىٰ والبرِّ والإحسان، وإمّا ان يكون أساسها مصلحةً دُنيويةً كالتظاهر والتفاخر وابتغاء عرَضٍ من أعراض الحياة الدنيا، وإمّا أنْ يكُونَ أساسُها شرّاً، كمسجد الضِّرار الذي بناه المنافقون.

* أمّا المسجد الذي كان أساسُه شرّاً فحكْمُه حُكْمُ مَسْجِدِ الضرار، وقد نهىٰ الله عن القيام فيه، فلا يُشارِكُ في استحقاق القيام فيه أصلاً.

* وأمّا المسجد الذي كان أساسه مصلحةً دُنيوية، ولا يشتمل على شرٍّ وضُرٍّ للإسلام والمسلمين، فلا مانع من القيام فيه.

* وأمّا المسجد الذي كان أساسه خيراً، وأدنىٰ عناصر الخير أن يكون قد أُسِّسَ علىٰ التقوىٰ، فهو أَحَقُّ أنْ تقوم فيه من الذي دخل في أساسه مصلحةٌ دُنيوية.

ويُفْهَمُ من باب أولى أنّ ما أُسِّسَ علَىٰ البرِّ الذي هو فوق مرتبة التقوى، أو على الإحسانِ أعلىٰ مَرَاتب الإيمان، أكثرُ درجةً في أَحَقِّيَّةِ القيام فيه، واقتصر النصّ على ذِكْر التقوى لأنها أدنى المراتب، فيفْهَمُ ما فوقها من باب أولى.

﴿أَحَقُّ﴾:

أي: أكْثَرُ استِحْقَاقاً لأنْ يُعْمَر عِمارةً معنويةً بالقيام فيه بأعمال العباداتِ المختلفات الخالصات لله عزّ وجلّ.

ولهذا كان الحرمُ المكّي أحقَّ المساجد بأن يُعْمَر بالعبادة لله، لأنّه أُسِّسَ على أعلى مراتب الإيمان، فهو أول بيت عبادة وضع للناس، والصلاةُ فيه بمئة ألف صلاة، وكان مسجد الرسول ﷺ في المدينة بعده في الأحقيّة، وكان المسجد الأقصى بعد مسجد الرسول، ثمّ تأتي المساجد التي أُسِّسَتْ علىٰ الإحسان أو البرّ أو التقوى من أوّل يوم.

﴿أَن تَقُومَ فِيهِ﴾:

أي: أنْ تمكُثَ فيه زمَناً ما للعبادة بالصلاة أو غيرها، وخُصَّ القيامُ بالذكرِ لأنَّ مُكْثَ القائم أقلُّ دَرَجاتِ المُكْث، فيُلْحَقُ فيه من باب أولى الجلُوسُ لتلاوة القرآن، والصلاةُ التي فيها قيامٌ وركوعٌ وسُجود.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾:

هذه إحدى علامات المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، فَمُرتَادُوه من المسلمين رجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يتطَهَّرُوا طَهارةً ماديَّة من النجاسات والقذارات، وطهارةً معنويَّةً من الذُّنوب والآثام بالصَّلوات والأذكارِ والأَدْعِيَة وتِلاَوةِ القرآن.

وإذْ يُحبّون أن يتطَهَّروا فإنَّهم يوَدّون من الأعمال ما يَجْعَلُهم طاهرين نظيفين حِسّيّاً ومَعْنوِيّاً.

وهنا سؤال هو: لماذا يُحِبُّونَ أَنْ يتَطَهَّرُوا؟

والجواب الذي يكشفه التأمُّل: لأنهم مؤمنون صادقو الإيمان، وحريصون على أن يَظْفَرُوا بمحبّةِ الله لهم، لينالُوا منه فيوض إحسانه.

وهل يُحِبُّ اللَّهُ المتطهّرين، فيغْمُرُهم بفيوض إحسانه.

الجواب:
أمّا حبُّ الله لهم فقد دَلَّ عليه في النصّ قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: الْمُتَطَهِّرِينَ، أدْغمت التاء بالطاء فصارتا طاءً مُشَدَّدَة.

وأمّا أنّه يَغْمُرُهم بفيوض إحسانه، فيُفْهَمُ ذهناً بدلالة اللّزوم العقلي، ودلالات نصوص قرآنيّة كثيرة، فمن أَحَبَّهُ الله ضاعف له الثوابَ على أعماله، وزادَهُ منه قُرْباً، وكَرِهَ مَساءَتَهُ، وأحَبَّ مسرَّتَه، فأعْطاه حتّى يُرْضِيَهُ، وكلُّ ذلِكَ من فيوض إحسانه.

وأولى المساجد بأن ينطبق عليه ـ إبّانَ التنزيل في المدينة بالمقارنة مع مسجد الضرار ـ أنَّهُ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوىٰ من أوّل يوم وفيه رجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يتطَهَّرُوا مَسْجِدان: أرفعُهُما مَسْجِدُ الرَّسُول، وبَعْدَهُ مَسْجِدُ قُباء.

أمّا مسجد الرسول، فقد ورد بشأنه ما يلي:

روى مسلم والإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال:

اختلف رجُلانِ: رجُلٌ مِنْ بني خُـدْرَة، ورجُلٌ مِنْ بني عَمْـرِو بْنِ عَـوْفٍ، في الْمَسْجِدِ الذي أُسِّسَ عَلَىٰ التقوى.

فقال الْخُدْرِيُّ: هو مسجد رسول الله ﷺ.

وقال الْعَمْرِيُّ: هو مسجد قُبَاء.

فأتَيَا رَسُول الله ﷺ فَسَأَلاهُ عَنْ ذٰلِكَ فقال:

«هُـوَ هَـٰذَا الْمَسْجِد» لمسجد رسول الله ﷺ وقال: «وفي ذٰلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ» يَعْنِي مَسْجِدَ قُبَاء.

ورُوِي عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ الساعدي، وعن أُبَيِّ بْنِ كعب، وعن زيد بن ثابتٍ، عن النبيّ ﷺ نحو ما جاء في حديث أبي سعيد الخدريّ، وبه قال ابْنُ عُمر وجماعةٌ غير رواة هذه الأحاديث.

وأما مَسْجِدُ قُبَاء فقد رُوِي عن عُرْوَةَ بن الزبير، وعن ابنِ عبّاسٍ أنَّهُ هو المقصود بقوله تعالى:

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾.

وجاءت عدّة روايات في المراد من قوله تعالى:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾.

تَـدُلُّ علىٰ أَنَّهُمْ أَهْلُ مَسْجِدِ قُبَاء، لأنهم كانوا إذا اسْتَنْجَوْا يَغْسِلُون أَدْبارَهُمْ بالماء، ولا يقتصرون على الاستجمار بالحجارة، وبعض هذه الروايات ذات أسانيد صحيحة.

وجاءت بعض روايات أخرى تدلّ على أنهم أهل مسجد الرسول.

بعد هذا أقول:

إنَّ النَّصَّ القرآني عامٌ يَنْطَبِقُ بمقتضىٰ عمومه على كلِّ مَسْجِدٍ أُسِّسَ على التَّقْوَىٰ من أوّل يومٍ، وفيه رجالٌ يُحِبُّون ان يتطَهَّرُوا طهارة حِسِّيَّةً وطَهارَةً مَعْنَوِيَّةً، باعتبار أنهم مؤمنون صادقو الإيمان.

وفي مقدّمَةِ المساجد التي ينطبق عليها هذا الوصف في المدينة يومئذٍ مَسْجِدُ الرسول، ثم مَسْجِدُ قُباء، وقد يفهم هذا من بيان الرسول على ما روى أبو سعيد الخدريّ في الحديث الصحيح، إذْ ذكر مَسْجِدَهُ أوّلاً، على اعتبار أنَّهُ هو الأحَقُّ، وبعد ذلك قال بشأن مسجد قُبَاء: «وَفِي ذَلِكَ خَيْرٌ كثير» فجعله مشاركاً في استحقاق القيام فيه بإثبات أنّ فيه خيراً كثيراً. فالبيان هو من باب تخصيص الدرجات الأولى في مساجد المدينة وما حولها يومئذٍ، ولا يقتضي هذا نَفْيَ مُشارَكَةِ كلّ مَسْجِدٍ آخر يتحقّقُ فيه الوصف الوارد في النّصّ، كما لا يقتضي نفي ما هُوَ خيرٌ منْهُمَا وهُوَ المسجد الحرام في مكّة.

ومن حسن التدبّر ان نفهم أنّ النصّ باقٍ على عمومه، وليس من قبيل العام الذي أُرِيدَ بِهِ الْخُصُوص.

وفي فضل مسجد الرّسُول وردت أحاديث متعدّدة، منها:

(١) روى مسلم والنَّسَائيُّ عن أبي هريرة أنّ الرسول ﷺ قال:

«صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، فَإِنِّي آخِرُ الأَنْبِيَاءِ، وإنَّ مَسْجِدِي آخِرُ الْمَسَاجِدِ».

أي: آخِرُ مَسَاجِد الأنبياء والمرسلين، لا آخر المساجد على الإطلاق، فقد بُنِيَتْ مَسَاجِدُ أُخرى في عَهْدِهِ ﷺ.

(٢) وروى الإمام أحمد والبيهقي بإسناد صحيح عن جابر، أنّ الرسول ﷺ قال:

«صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فيما سِوَاهُ إلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِن مِئَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ».

وفي فضل مسجد قباء وردت أحاديث أخرى أيضاً منها:

(١) روى البخاريُّ ومُسْلمٌ عن ابن عمر قال:

كَانَ النبيُّ ﷺ يأتي مَسْجِدَ قُبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ مَاشِياً وَرَاكِباً فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ.

(٢) وروى ابن ماجه عن «أُسَيْدِ بْنِ ظُهَيْرٍ الأَنْصَارِي» وكان من أصحاب النبي ﷺ، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«صَلاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ».

ذكر ابن كثير في تفسيره، أنّه حديث صحيح، وقال في جمع الفوائد هو للستة إلّا الترمذي.

(٣) وروى ابن ماجه أيضاً عن «سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ» قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاء فصَلَّى فيه صلاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ».

(٤) قال ابن كثير في تفسير الآية التي نحن بصددها: وفي الحديث أنّ رسول الله ﷺ لمّا بنىٰ مسجد قباء وأسسه أوّل قدومه، ونزوله على بني عمرو بْنِ عَوْف، كان جبريل هو الذي عيّن له جهة القبلة.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

البنيان: مصدر بنىٰ يَبْني بَنْياً وبناءً وبُنْياناً، ويُطْلَقُ الْبُنْيَانُ على الشيء الذي بُنِيَ.

يَعْقِدُ اللّٰهُ عزّ وجلّ في هذه الآية مقارنة بين فريقين:

الفريق الأول: فريقٌ مؤمنٌ مُسْلِمٌ صَادِقُ الإيمان حَسَنُ الإسلام، اتَّجهَ قَلْبُهُ بتأْثِير بواعِثِ إيمانِهِ الصادق وإسْلامِهِ الحسَنِ، القائم على تَقْوَىٰ مِنَ اللّٰهِ وابْتِغاءِ رِضوانه، لتأسيسِ بُنْيَانٍ من الأبنيَةِ الحسِّيَّة كَمَسْجِدٍ لِلْعِبَادَةِ والذكْر وتِلَاوَةِ القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعْلِيمِ العلوم النافعة التي يُرْضِي الله عزّ وجلّ تَعْلِيمُهَا ومُدَارَسَتُها ونَشْرُها.

وهذا الفريق قد أقام بعمله بُنْيَاناً مَعْنَوِيّاً من خلال البنيان الحسّيّ قائماً على قاعدتين عظيمتين: قاعِدَةِ: «تَقْوَىٰ مِنَ اللّٰه» أي: قاعِدَة اتِّقَاءِ عَذَابِ اللّٰهِ بأداءِ ما فَرَضَ واجتناب ما حَرَّم. وقاعِدَةِ «رِضْوَانٍ» من اللّٰهِ أيضاً، بالتوسُّع في أعمال البرّ والإحْسَان، أي: قاعدة ابتغاء رضوانٍ يغْمُرُهُمْ من الله، تأتيهم بسَبَبِهِ فُيُوضُ إحْسَانِهِ، وهاتان القاعدتان تشبهان أرْضاً صُلْبَةً راسخة ثابتة ذاتَ منابعَ ثرّةٍ تتفجّر بالعطاء السخيّ.

الرُّضْوَانُ: كالرِّضا مَصْدَرُ فعل رضِيَ، تقول: رَضِيَ به وعنه وعليه رِضاً، ورِضاءً، ورُضْوَاناً، ومَرْضَاةً.

وفي التعبير بقوله تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ؟﴾:

إبْداعٌ قائِمٌ على دَمْج صُورَتَيْن: حِسِّيَّةٍ ومَعْنوِيَّةٍ في صورة واحِدَةٍ، أُخِذَ من الصورة الحِسِّيَّةِ عبارةُ: ﴿أسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى﴾ وأُخِذَ من الصورة المعنوية عبارة: ﴿تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾.

فقام هذا التعبير مَقَامَ كَلام طويل يمكن أنْ نُوجِزَهُ بأن نقول: أفَمَنْ عَمِلَ أعمالاً صالحةً في مظهرها وحَقِيقَتِها، ومَثَلُها كبناءٍ حسِّيٍّ من الأبنية المادّية، وهذه الأعمال ترتكز على قاعدتينِ إيمانيَّتَيْن مؤثّرتين، هما تقوى من الله ورضوان، وهاتان القاعدتان المعنويتان تشبهان أرضاً صُلْبَةً راسخةً ثابتةً ذاتَ مَنابعَ ثَرَّةٍ تَنْفَحُ بالعطاء السَّخِيّ؟

أفصاحبُ هذا البناء خيرٌ أم صاحب البناء الآخر الذي أسّسه الفريق الثاني؟!

الفريق الثاني: فريقٌ كافِرٌ باطناً مُنافِقٌ سلوكاً، يتظاهر بالإسلام والأعمال الصالحة في ظاهرها، وقد اتّجهتْ بواعث كفره ومكره وكيده لتأسيس بنيانٍ من الأبنية الحسّية، كمسجد ضرارٍ، وكفرٍ، وتفريق بين المؤمنين، وإرصادٍ لمَنْ حاربَ الله ورسوله.

وهذا الفريق قد أقام بعمله بنياناً معنويّاً من خلال البنيان الْحِسِّيِّ قائماً على مظهر إسلام تحته كُفْرٌ ومكر وكيد ضدّ الإسلام والمسلمين، وهذا المظهر الإسلامي الكاذبُ يُشبِهُ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ.

الشَّفا: حَرْفُ الشيء وطَرَفه، وبعده تكون الهاوية.

والْجُرُف: شِقُّ الوادي إذا حَفَرَ الوادي من أسفله، فهو عُرْضَةٌ للانهيار السَّريع.

هَارٍ: أي: متساقط، أو هو قريب من السُّقوط والانهيار إلى أسفل الوادي.

ويلاحظ أنّ التعبير بقوله تعالى:

﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾:

إبداعٌ أيضاً قائم على دَمْج صورتَين حِسِّيَّةٍ وَمَعْنَويَّةٍ في صورة واحِدَة، نظير التعبير السابق الوارد بشأن الفريق الأوّل.

وهُنَا أُخِذَ مِنَ الصورة الحسيّة عبارة:

﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾.

وأُخِذَ من الصورة المعنويّة عبارة:

﴿بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾:

أي: فانْهارَ بنـاؤُهُ المعنوي في جُرْمِ عقابُهُ عند الله العـذابُ في نار جهنّم يـوم الدين.

وقام التعبير هنا أيضاً مقام كلام طويل يمكن أن نُوجزه بـأن نقول: أمْ مَنْ عَمِـلَ أعمالاً صالحةً في مظهرها إجراميَّةً في حقيقَتِها، ومَثَلُها كبناءٍ حِسِّيٍّ من الأبنية المـاديّة، وهذه الأعمال ترتَكِزُ على النفاق الذي ليس من تحته إلاّ الكفر، وهذا النفاق يشبه شفا جُرُفٍ متداعٍ إلَىٰ الانهيـار، فلا يَلْبَثُ البنـاء أن يرتفـع قليلاً حتّى ينهـار في الـوادي، وكذلك ينهار البناء المعنوي الذي يؤسسه المنافق هو وبانيه في نار جهنّم، أو ينهار بانيه بسببه في نار جهنم؟!

والاستفهام الوارد في الآية يُراد منْهُ انتزاع الاعتراف بنفي التساوي بين الفريقين، من خلال تقديم البيان التصويري الكاشف للفرق الشاسع بين الرضوان من الله للمتقين الذي يقترن بالثواب العظيم في جنّاتِ النعيم، وبين الانهيار في نار جهنّم الـذي يجلبه سخط الله وغضبُه على المجرمين.

وختم الله عزّ وجلّ الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: ومن حكمة الله عزّ وجلّ أنه لا يَحْكُمُ بالهداية لِلْقَوْمِ الظالمين من مستوى

الظلم الذي يكون به صاحبُهُ كافراً، و«أل» في كلمة: «الظالِمِين» هي للدّلالة على استجماع أثْقَلِ عناصر الظلم التي يكْفُر بها مرتَكِبُها.

وبما أنَّ مؤسِّسِي مسْجِد الضرار منافقون مجرمون مرتكِبُونَ أقبح أنواع الظلم الذي هو من مستوى الكفر، فإنّ الله لا يَحْكُمُ لهم بالهداية، لذلك فهم يستحقّون العذاب في نار جهنّم.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

و[إلَى أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] في قراءة أخرى.

و[إلاّ أنْ تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] في قراءة ثالثة.

الرِّيبة: تأتي بمعنى الشّكّ، والظِّنَّةِ، والتُّهَمَة، وتأتي بمعنى الْمَسَاءَةِ والانزعاج والخوف، لأن الشّكّ في سوء العاقبة يولِّد الخوف المستمرّ في القلوب والانزعاجَ.

تقول لغة: رابَهُ الأمرُ يَرِيبُهُ رَيْباً وَرِيبَةً، أي أدخل عليه شرّاً وخوفاً، ورَابَهُ إذا سَاءَهُ وَأزْعَجَهُ.

فالمعنى فيما يظهر: لا يَزَالُ بُنْيانُ المنافقين لمسجد الضرار الذي بنوه قريباً من مسجد قباء، يُسبِّبُ لهم خوفاً وقلقاً وانْزِعَاجاً، حذراً من سوء المصير الذي يتوقّعُونَهُ على سبيل الشّكّ والظنّ، إذْ يَخْشَوْنَ انْكِشَافَ أمْرِهم، وإنْزَال العقوبة بهم من قبل الرسول والمؤمنين. وأنّ هٰذِه الحالةَ سَتُلاَزِمُهُمْ حَتّى تَتَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ، ممّا يُعَانُونَهُ من خوف وقَلَق، فَشِدَّةُ الخوفِ تُقَطِّعُ القُلوبَ، فتَنْتَهِي الحياةُ بتقطُّعِها، وهذا كناية عن موتهم من شدّة الخوف، وجاء التعبير عن احتمال تَعَرُّضِهم لهذه الحالة بعبارات ثلاث، وردت في قراءات ثلاث، هي: [إلاّ أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] ـ [إلاّ أنْ تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] ـ [إلَى أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ].

وختم الله الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

إشارةٌ إلىٰ أنّه سبحانه عَليمٌ بما في قلوبهم من كُفْرٍ ونفاق وكيد ومكر، حكيمٌ فيما يدبِّر من أمر بشأنهم في عاجل أمرهم وآجله.

• • •

الْعِقْدُ الرَّابِعُ

بَيَانَات وتوجيهات تتعلّق
بقضايا وردت في العقود السابقة

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ
هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن
يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا
بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد
تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ
مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ

وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

* * *

القـراءات

* قرأ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ العشرة: [فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ] بـالفعل المبني للمعلوم أوّلاً، فالفعل المبني للمجهول.

وقرأ حَمْزَةُ والكِسَائِيّ وخَلَفٌ: [فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ] بالفعـل المبنيّ للمجهول أوّلاً، فالفعل المبني للمعلوم.

وقد دلّت القراءةُ الأولى على سَبْقِ تسليط الله المؤمنين على عدوّهم، إذْ يكونـون هم القاتلين من الكافرين أوّلاً، ودلّت القراءة الأخـرى على سبْق تسليط الله الكافـرين على المؤمنين، إذْ يكون المؤمنون هم المقتولُ منهم أوّلاً.

والحالتان كلتاهما تحدثان، فجاءت القراءتان دالَّتَيْنِ عليهما.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [إِبْرَاهِيمَ] في الموضعين من الآية (١١٤).

وقرأ هشام عن ابن عامر الشامي [إِبْرَاهَامَ] في الموضعين أيضاً.

والقراءتان لغتان في نطق لفظ اسم الرسول إبراهيم عليه السلام عند العرب.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [الْعُسْرَةِ] بإسْكانِ السِّين.

وقرأ أبو جعفر المدني: [الْعُسُرَةِ] بضَمِّ السِّين.

والقراءتان لغتان في نطق الكلمة عند العرب.

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [تَـزِيغُ] بـالتاء مـراعاة لتـأنيث جمع قلوب، فكـل جمع مؤنث في لسان العرب.

وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: [يَزِيغ] بالياء نظراً إلى أنّ لفظ [قلوب] مجازيُّ التأنيث.

والقراءتان وجهان عربيان في كلّ ما هو مجازيّ التأنيث.

* * *

التدبُّر

في الآية (٣٨) من هذه السورة نادى الله الذين آمنوا بقوله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾.

وفي الآية (٤١) قال الله لهم:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤١﴾.

هـذا الخطاب للمؤمنين في أثناء السورة، الـذي تبعـه بيـانُ ظـواهرِ المنـافقين السلوكيّة في آيات كثيرات، وثَناءً على الرّسُول والمؤمنين معـه، بأنهم جاهدوا فعلاً بأموالهم وأنفسهم في الآية (٨٨) استدعى حثُّ جميع المؤمنين على القتال في سبيل الله، حينما تقتضي المصلحة الإسلاميّة ذلك، وترغيبَهُمْ فيه، بأنّـه مبايعـة مع اللّهِ فيها معاوضة، هم يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيله، والله يُقدِّم لهم مقابل ذلك الجنّة يوم الدين، فمن عقل استبشر بهذه الصفقة الرابحة ربحاً عظيماً، فأنجز المبـايعة مـع الله، فنال بذلك فوزاً عظيماً.

وإذْ بَثَّ اللّهُ عزّ وجلّ مِنْ جهَتِهِ عَقْدَ المبايعة لمن شاء أن يُبايع من المؤمنين حتى آخر مؤمن في الحياة الدنيا، وجعله مفتوحاً، فما على من يريد هذه المبايعة إلاَّ أن يَبُتَّ من طرفه العقد بالإرادة والتنفيذ لتكون له الجنة عوضاً، قال عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ ... ١١١﴾.

فـأبانَ تبـارك وتعالى مؤكّـداً أنه قـد أنجز من جهتـه عقد هـذه المبايعـة، بصيغـة

﴿اشْتَرَىٰ﴾ أي: أتمّ الشّراء وَبَتَّهُ، ولكنّ استكمال عقد المبايعة إنّما يتم حينما يَبُتُّ المؤمن في أيّ وقت قادم من قِبَلِهِ هذا العقد مع ربّه بالإرادة الصادقة، الّتي تَسْتَتْبِعُ التنفيذ كلّما اقتضىٰ الأمر ذلك.

والمظهر التنفيذيُّ لهذا العقد مع الله من جِهَةِ المؤمنين دَلّ عليه قوله تعالى:

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ . . . ﴿١١١﴾﴾:

أي: إنّهم يدخلون في حرب مع الكافرين إذا اقتضت مصلحة الإسلام والمسلمين قيام حرب معهم، فيُقاتِلُونهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته، لا في سبيل آخر غير سبيل الله، فقد يَقْتُلُونَ منْ عَدُوّهم، وقَدْ يُقْتَلُون بأيدي أعدائهم، والمعارك سِجالٌ، فمرَّةً تكون فواتحُ النصر للمؤمنين، ومرّة تكون هذه الفواتح للكافرين، لكن خاتمة النصر المبين تكون للمؤمنين الصادقين الملتزمين منهج الله وتعاليمه في السّلْم والحرب، وهذا ما دلت عليه القراءتان في [فيقتلُون ويقتلُون] ودلت على النصر المبين للمؤمنين الصادقين نصوص قرآنية أخرى.

ولمّا كان العوض الذي يظفر المؤمنون به من رَبّهم عوضاً مؤجّلاً إلى يوم الدين كبيع السّلَم، كان في الحياة الدنيا وَعْداً من الله، أمّا وفاءُ هذا الوعد فيكون بعد البعث إلى الحياة الأخرى، ولبيان هذا قال تعالى:

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا . . . ﴿١١١﴾﴾:

أي: وعداً حقّاً عليه سبحانه وتعالى، ألزم نفسه بأدائه فمن حقّ المؤمن أنْ يطالبَ ربّه به يوم الدين.

﴿عليه﴾ متعلق بـ﴿حقّاً﴾ قُدّم على عامله للتّنبيه على أنّ الله يلتزم لعباده بوفاء حقوق جعلها لهم بالوعد الصادق، الذي هو ثمرة عَقْدِ مبايعة بين الله وعباده المؤمنين.

وقد شُبِهتْ عمليّة الانفاق القائمةُ على بذل المؤمن نَفْسَهُ وماله مقابل مجازاة الله له بالجنّةِ يوْمَ الدين، بصفقة شراء وبيع، والثّمن الموعود به هو استحقاق امتلاك الإقامة الأبديّة بالجنّة والتنعُّم الأبديّ بنعيمها العظيم.

ولمّا كان عقدُ الشراء والبيع هذا عقداً ثابتاً في الشرائع الربّانية منذ رسالة موسى

عليه السلام، حتى بعثةِ محمّد ﷺ، وكان مُبيَّناً في التوراة، ومُبيَّناً في الإنجيل، ومبيَّناً في القرآن، وكان الجهاد في سبيل الله بالقتال شريعةً مُنزَّلةً على بني إسرائيل وكلّ أنبياء ورُسل بني إسرائيل مُنْذُ عَهْدِ مُوسَىٰ، أبان الله تعالى أنّ هذا العقد منزَّلٌ في التوراة والإنجيل والقرآن، فقال تعالى:

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ... ﴿١١١﴾﴾.

ولذلك دعا موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة مقاتلين، فجبُنوا، وطبق بنو إسرائيل بعد موسى شريعة القتال في سبيل الله في عهود متعدّدة من عهود أنبيائهم ورُسلهم.

أمّا أتباع عيسى عليه السلام في عهده وفي نحو ثلاث قرون تَلَتْ، فلم تكن لديهم قوّة يستطيعون بها مقاتلة الدولة الرومانية الوثنيّة، وكان جهادهم في هذه الأحقاب مقتصراً على جهاد الدعوة إلى دين الله.

وبعد هذا البيان استثار الله عزّ وجلّ في المؤمنين عنصراً من عناصر إيمانهم بصفاته، وهو أنّه لا أوفى من الله وعداً، وقدّم هذه الاستثارة بصيغة الاستفهام التقريري، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ؟! ... ﴿١١١﴾﴾.

العهد: الوعد المؤكّد، والتعاقد الموثّق على أمرٍ ما، ومنه المبايعة.

وجواب هذا الاستفهام يأتي من قبل المؤمنين: لا أحَدَ أوفى بعهده من الله.

«أَوْفَىٰ» أفعل تفضيل من قولهم: أوفى بوعده أو عهده إذا أدّاه وافياً غير منقوص.

إذَنْ فالجنةُ ودخولُها والتنعُّم بنعيمها بلا نهاية أمْرٌ مُحقَّقٌ لا رَيْبَ فيه، لمن باع نفسه ومالَهُ لربّه مقاتلاً في سبيله، لا يَشُكُّ بهذه الحقيقة مؤمن بربّه، وبما أنزل على رسوله.

وتوجّه الله عزّ وجلّ للمؤمنين الذين عقدُوا مع ربّهم هذه المبايعة الرّابحة، ووضعوها بأعمالهم موضع التنفيذ، فقال لهم:

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ... ﴿١١١﴾﴾:

أي: فافرحوا واستمتعوا بالسّرور بسبب بيعكم الذي بايعتم عليه ربكم، فقد ربحتم به ربحاً عظيماً.

يقال لغة: بايع فلانٌ فلاناً على كذا، أي: عاهده وعاقده عليه. فموقع: «بِهِ» بعد: «بايَعْتُم» بَدَلٌ: «عليه» يدلُّ على أنَّ فِعْلَ: «بَايَعْتُم» قد ضُمِّن معنى فعل: «رَبِحْتُم» فعُدِّي تعديته، والتقدير: فاستبشروا ببيعكُمُ الذي بايَعْتُمْ عليه رابحين به.

ولمّا كان هذا البيع الرابح ربحاً عظيماً يُحَقِّق لمن بايع ونفَّذ فوزاً عظيماً، قال الله تعالى في آخر الآية:

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾:

الفوز في اللّغة يأتي بمعنى: الظفر، والنجاة من الشرّ، والرّبح، وهذه كلُّها ستَتَحقَّقُ لأصحاب هذا البيع يوم الدين، وللدلالة على ارتفاع منزلته أشار الله إليه باسم الإشارة الخاص بالمشار إليه البعيد.

بعد هذا أبان الله تعالى الصفات المعتادة لأصحاب هذا البيع من المؤمنين، الذي يبايعون عليه عند مقتضيات القتال في سبيل الله، فقال تعالى:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾:

أي: هم المستجمعون لهذه الصفات، الممارسون لها فيما هو من عاداتهم، ولذلك يهون عليهم أن يبيعوا ربّهم أنفسهم وأموالهم، ويبذلوها راضين فرحين مستبشرين.

وجاءت الصفات مرفوعة مع أنّ الموصوف وهو لفظ: ﴿المؤمنين﴾ في الآية السابقة مجرور، على طريقة قطع الصفة عن موصوفها، وفي حالة قطع الصفة عن الموصوف المتعيّن بدونها يجوز الرفع بتقدير مبتدأ محذوف، ويكون من الضمائر، ويجوز النّصب بتقدير فعل مناسبٍ محذوف، مثل «أَمْدَحُ ـ أخصُّ ـ أذمُّ ـ أذكُرُ» ونحو ذلك، كما يقرّر علماء العربيّة.

وصفات المؤمنين الذين يهون عليهم بذلُ أنفسهم وأموالهم ابتغاء مرضاة ربّهم، فرحين راضين مستبشرين بما أعدّ الله لهم من أجر عظيم، هي صفات ثمان:

الصفة الأولى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾:

أي: الذين تابوا إلى بارئهم من ذنوبهم، راجعين إلى طاعته، والعمل بمراضيه، والمحافظون على توبتهم.

تَابَ: هي في اللّغة بمعنى: رَجَعَ، وخُصَّت في الاستعمال بمعنىٰ رجوع العبد إلى طاعة ربّه، معترفاً بسابق ذنبه، ورجوع الله إلى عبده بالرضا والتوفيق وعطاءات العفو والغفران، وفيوض الإحسان.

وجاء ذكر وصف التوبة في أول الأوصاف لأنّه الشرط الأوّل لبدء الارتقاء في درجات الكمال، وللإشعار بأنّه لا يخلو حال المؤمن مهما بلغت استقامته من أن يكون قد تعرّض إلى سوابق ذنوب تستدعي منه أن يتوب إلى ربّه منها.

الصفة الثانية: ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾:

أي: العابدون ربّهم بمختَلِف أنواع العبادة المشروعة الّتي أنزلها على رسوله، والمحافظون على عباداتهم له طاعةً وبرّاً.

العبادة لله: هي الانقياد والخضوع والتذلُّل له، والقيام بما يُرْضِيه من قولٍ أو عملٍ ظاهرٍ أو باطنٍ، في السرِّ أو في الْعَلَن.

والعبادةُ التي تَبْدأُ بالطاعة لأوامر الله ونواهيه، هي الْخُطْوَةُ التالية للتوبة، كما أنّ التوبة هي الخطوة الأولى بعد الوقوع في المعاصي التي يرتكبها المؤمن، أمّا توبة غير المؤمن فتكون بالإيمان بعد الكفر، وبالطاعة بعد المعاصي المرافقة له والناتجة عنه.

الصفة الثالثة: ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾:

أي: المحافظون على الثناء على الله بما هو أهله من صفات كمال، وبما هو منزّه عنه من صفات نقص.

ويجمع كلّ ذلك عبارة: «الحمدُ لله» أي: كلُّ الثناء الذي يشمله العلم الرّبّاني هو لله دون استثناء.

وتفصيل هذا الثناء يأتي من خلال تدبُّر أسماء الله الحسنى، والتفكُّر في آثار صفاته في الوجود.

الْحَمْدُ في اللّغة: هو الثناء بذكر الجميل من الصفات الموهوبة والمكتسبة، وهو يرادف المدح.

الصّفة الرابعة: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾:

أصل السياحة في اللّغة الذهابُ في الأرض للعبادة والترهُّب، مأخوذة من سيحان الماء إذا جرى على وجه الأرض.

وقد ذكر أكثر أهل التفسير أنّ السائحين والسائحات هم الصائمون والصائمات، رُوِيَ عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود أنّ المراد بالسائحين الصائمون، وروي في هذا حديث عن النبي ﷺ لم يبلغ مبلغ الصحّة، وروي عن عائشة قالت: سياحة هذه الأمة الصيام.

وإلى هذا التفسير ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعبد الرحمن السلمي، والضحّاك بن مزاحم، وسفيان بن عيينة، وقال الحسن البصري: «السائحون» الصائمون شهر رمضان، وقيل الذين يديمون الصيام.

قيل: وسُمّي الصائم سائحاً، لأنّه يترك اللّذات كما يتركها السائح في الأرض.

وقال بعض أهل التفسير السائحون هم المهاجرون، وقال بعضهم هم المجاهدون، وقيل غير ذلك.

وروى أبو داود عن القاسم أبي عبد الرحمن[1]، عن أبي أُمامة، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي بالسياحة، قال النبي ﷺ: «إنَّ سِيَاحَةَ أُمّتي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّهِ عزّ وجَلّ» وصحّحه عبد الحقّ.

وروى ابن المبارك عن ابن لهيعة، قال: أخبرني عمارة بن غزيّة أنَّ السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال:

«أبْدَلَنَا اللّهُ بذلِكَ الجهادَ في سبيلِ اللّهِ وَالتكْبِيرَ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ».

أقول:

وهـذا المعنى الوارد في هـذين الحديثين يترجّح على غيره، ويُحْمَلُ جهاد السياحة على جهاد الدّعوة إلى الله، ونشر الإسلام في الأرض، مقابل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي، وهـذه السياحة بهذا المعنى هي التي تليق بالذين يُبَايِعُون الله بأنّ لهم الجنّة، باذلين أنفسهم وأموالهم في سبيله، ومن لم يجاهد فالحج إلى بيت الله سياحته، وفي الحج يُكبّر الله على كلّ شَرَف، أي: كلّ مرتفع من الأرض، والحج بالنسبة إلى النساء بمثابة الجهاد كما صح عن النبي ﷺ.

أمّا الصّيام وكذلك الحج وسائر شرائع الإسلام فيمكن إدخالها في صفة الحافظين لحدود الله الآتية، ويمكن أنْ يقال: من لم يكن في جهاد أوحجّ أو عمرة فالصيام سياحته، وبهذا نجمع بين أوْجهِ الأقوال.

الصفة الخامسة: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾:

أي: الّذين يُقيمون الصلاة ويُحافظون عليها، وجاء في النصّ الاستغناءُ عن ذكر لفظ الصلاة بذكْرِ الركوعِ والسُّجُودِ، لأنهما أَجَلُّ أركانها، باعتبارهما المعبِّرَيْنِ عن الخضوع لله، والتذلُّلِ لِوَجْهِه الكريم، أمّا القيام فيها فهو إقبالٌ إلى الله وتوجُّهٌ لوجْهِه،

(١) قال المنذري في مختصره لأبي داود: «القاسم» تكلّم فيه أكثر من واحد. قال أحمد محمد شاكر في تعليقه: «القاسم هو ابن عبد الرحمن الشامي، وكنيته أبو عبد الرحمن، وهو ثقة، وثقة ابن معين وغيره، وترجمه البخاري في الكبير، ولم يذكر فيه جرحاً».

وهو أوّل المراحل، ثمّ يأتي الركوع تعبيراً عن الخضوع والطّاعة، ثمّ يأتي السُّجُودِ تعبيراً عن غاية التذلّل وأقصىٰ الخضوع، وبه يكون العبدُ أقربَ ما يكون إلى ربّه.

الصفة السادسة: ﴿ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

أي: المواظبون على القيام بوظيفة الأمر بالمعروف داخل المجتمع الإسلامي.

والمعروف داخل المجتمع الإسلامي هو ما جاء تحسينه والأمر به في الإسلام، حتّى صار معروفاً أنّه حسَنٌ، وأنّه من الفضائل ومن الخير عند المسلمين، سواء أكان الأمر به على سبيل الإيجاب أو على سبيل الندب، وكلّ ما هو حسن في العقول السويّة هو حسن في الإسلام، ومن الأحكام الإسلامية أمور تعبديّة لا حكم للعقل فيها.

الصفة السابعة: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

أي: والمواظبون على القيام بوظيفة النهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي.

والمنكر داخلَ المجتمع الإسلامي هو ما جاء تقبيحه والنهي عنه في الإسلام، حتّى صار عند المسلمين أمراً مستقبحاً يستنكرونه ويعيبون من يفعله، وكلّ ما هو قبيح في العقول السّويّة هو قبيح في الإسلام، وجاء في الإسلام تحريم أمور تعبّدنا الله بتحريمها لا حكم للعقل فيها، وعلى المؤمن اجتنابها طاعةً لله.

وينبغي أن نعلم أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي غَيْرُ الدّعوة إلى دين الله خارج المجتمع الإسلامي، فغير المسلمين يُدْعَوْنَ إلى الحقّ، وإلى فعل الفضائل التي تدرك عقولهم أنها فضائل، ممّا أمر به الإسلام، وإلى ترك الرذائل التي تدرك عقولهم أنّها رذائل ممّا نهى عنه الإسلام، فليس كلُّ ما هو معروف أو منكر عند المسلمين هو معروف أو منكر عند غيرهم، حتّى إذا دخل داخلون منهم في الإسلام شرعنا في تعليمهم مفردات المعروف، ومفردات المنكر، في المفهومات والتعليمات الإسلامية، وذلك ليعرفوا المعروف منها، ويَسْتَنكروا المنكر منها.

وجاء فصل صفة النهي عن المنكر عن صفة الأمر بالمعروف بحرف العطف، للدّلالة على أنّهما صفتان مُتَميِّزتان قد تنفكّان عن بعضهما، وذلك لأنّ كثيراً من مؤدّي وظيفة الأمر بالمعروف قد يصعُبُ عليهم النهي عن المنكر، خشية غضب مرتكبي المنكر من ذوي الجاه والسلطان، أو الأقربين والأصحاب وذوي الولاء، فيأمرون بالمعروف ويُغْضون النظر عن القيام بوظيفة النهي عن المنكر.

الصفة الثامنة: ﴿ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾:

حِفْظُ الشيء يكون بحراسته وصيانته، وأداء حقوقه بأمانة، وعدم الخيانة فيه، وبالمواظبة على القيام برعايته وبفعل ما يجب نحوه، واجتناب ما يجب تركه بالنسبة إليه.

حُدُودُ الله: هي أحكام شريعته لعباده ذات المقادير المحدّدة المقدّرة، وفيها أحكام تحريم، وأحكام إيجاب، وأحكام إباحة ورخصة، وأحكام ترغيب في الفعل أو ترغيب في الترك.

وأصل الحدّ ما يُقام عند الحِمَىٰ لمنع الذين هم خارج الحِمَىٰ من الدُّخول إلى باطن الحِمَىٰ، أو لمنع الذين هم داخله من الخروج إلى ظاهره.

وقد نهى الله عزّ وجلّ عن اقتراب حدوده في بعض النصوص، ونهى عن تعدّيها في بعض النّصوص، وتوعّد من يعصي الله ويتعداها بالنار وعذاب مهين، ووصف من يتعدّى حدوده تعدّياً مسرفاً بأنهم هم الظالمون، ووصف من يتعدّى حدوده بأنه ظلم نفسه، ووصف النخبة الممتازة من المؤمنين بأنّهم حافظون لحدود الله، وهو ما جاء في النصّ الذي نتدبّره.

وهذه النصوص متكاملة فيما بينها، فبعض تَعَدِّي حدودِ الله يخرج من الإسلام إلى الكفر، وبعضُه يوقع في الكبائر، وبعضه يوقع في الصغائر، والمحافظة على حدود الله يرفع إلى مرتبة عَلِيَّة من مراتب المؤمنين، كمرتبة الأبرار أو مرتبة المحسنين.

فالحافظون لحدود الله: هم القائمون بما أوجب الله فيها، والمجتنبون

ما حرّم الله فيها، والمؤدّون حقوقَها بأمانة، والمواظبون على القيام برعايتها، ولا يخونون فيما استأمنهم الله عليه منها.

وختم الآية التي عدّد فيها صفاتهم بقوله:

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾:

أي: وبشر جميع المؤمنين الصادقين في إيمانهم بالعاقبة الحسنة ولو لم يكونوا من هؤلاء المبايعين، ولكنّ درجة من دونهم تكون أقلّ من درجتهم.

* * *

وجاء في الآية (٨٠) من السورة بالنسبة إلى المنافقين قول الله تعالى لرسوله:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

وجاء في الآية (٨٤) بالنسبة إلى المنافقين أيضاً قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ثم جاء في هذا العقد الذي نتدبّرهُ بعد بضع وعشرين آية من السورة إكمال البيان حول موضوع الاستغفار للكافرين عموماً، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

وهنا يَرِدُ سؤال، وهو: كيف أَذِنَ الله لإبراهيمَ عليه السّلام أن يستغفر لأبيه مع أنّ أباه كان كافراً؟

فأجاب الله عزّ وجلّ على هذا السؤال بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ

لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

جاء في سبب نزول هاتين الآيتين عدّة روايات ضعيفة يدور أكثرها حول رغبة الرّسول في أنْ يستغفر لأمّه، أو لعمّه أبي طالب، فلم يأذن الله له بذلك، وجاء في بعض هذه الروايات أنّ بعض المؤمنين كانوا يستغفرون لآبائهم من المشركين، فنهاهم الله عن ذلك، والحديث الوارد في هذا قال الترمذي بشأنه: حديث حسن.

ومهما يكن من أمر فالآيتان مرتبطتان بما ذكرتُ آنفاً بالنظر إلى وحدة موضوع السورة.

* * *

* قول الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ . . . ﴿١١٣﴾ ﴾.

اللّام في ﴿للنبيّ﴾ جاءت بعد كوْنٍ مَنْفِيّ، فهي على ما يقول علماء العربية لام الجحود، ويؤتىٰ بهذه اللّام بعد كون منفي لتأكيد النفي بأبْلَغِ تعبير.

والنفي في مثل هذا المقام يرادُ منه النهيُ المشدَّد المؤكّد، لأنّ تأكيد عدم وجُودِ المنفيّ من قِبَلِ المكلّفين ذوي الإرادات الحرّة يدُلُّ علىٰ أنّه منهيٌّ عنه نَهْياً مُشدّداً حتّى صار من المستبعَد جدّاً وُقوع المؤمنين به.

قال أهل التفسير: إنّ مثل هذا التعبير: [فَمَا كَانَ الله ليظلمهم ــ وما كَانَ لنفْسٍ أنْ تموت إلّا بإذن الله ــ مَا كانَ للنبيِّ والذين آمنوا ــ ومَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ــ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أن يَأْتِيَ بآيَةٍ إلّا بإذن الله] ونحو ذلك، يأتي على وجهين:

الوجه الأول: النفْيُ المُؤَكَّد، مثل:

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾.

الوجه الثاني: النَّهْيُ المشدَّد، مثل:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

فالمعنى: لا يُبَاحُ للنّبيِّ والّذِينَ آمَنُوا أنْ يسْتغفروا للمشركين، واقتصر النّصّ

على المشركين، لأنّ الشِّرْكَ أخفُّ منازل الكفر، وأوّلُ دَرَكَةٍ من دركاته، فما هو أشدُّ من الشرك من دركات الكفر، كالكفر بوجود الله أصْلاً، وكالنفاقِ الذي يجمع بين الكفر والنفاق، يُفْهَمُ من باب أَوْلَىٰ، فلا يجوز للمؤمن أن يستغفر لأيّ كافر من أخف دركات الكفر حتى أشدّها وأخبثها.

ولمّا كان من ضمن الكافرين مَنْ هُمْ أولو قربى، وكانت عواطف المؤمنين تتحرّكُ بقوة راغبةً بنجاة الأقربين من الخلود في العذاب، فتدفعهم إلى سؤال الله أن يغفر لهم، قال تعالى عقب النهي السابق:

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ... ﴿١١٣﴾﴾.

﴿أولي﴾: بمعنى أصحاب، وهو جَمْعٌ لا واحِدَ له من لفظه، أو اسْمُ جَمْعٍ لذُو، ويُعْرَبُ مثل إعراب جمع المذكر السّالم إلحاقاً به، فيُرْفَعُ بالواو، وينصبُ ويُجَرُّ بالياء.

﴿أولي قربى﴾: أي: أصحاب قرابة كأب وأمّ وأخٍ وأخت وابْنٍ وابنةٍ ونحوهم. والمعنى: ولو كان المشركون أولي قربى فلا يجوز للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا لهم.

وجعل الله عزّ وجَلّ هذا النهي عن الاستغفار للكافرين مقيّداً بحالة معرفة المؤمنين كُفْرَ مَنْ يريدون أن يَسْألوا الله أن يغفر لهم، وعلْمِهِمْ بأنَّهُمْ من أصحاب الجحيم، فقال تعالى:

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾:

أي: من بعد ما ظهر لهم إصرارُهُمْ على الكفر، أو موتُهُمْ وهُمْ كافِرُونَ، فمَنْ ماتَ كافراً فقد تبيّن أنّه من أصحاب الجحيم، ومن أظهر عناده وإصراره على الكفر بعد كلّ وسائل الإقناع والترغيب والترهيب القرآنية، فقد تبيَّنَ أنه كافرٌ من أصحاب الجحيم، كالذين قال الله بشأنهم في أوائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

بعد هذا البيان أجاب الله عزّ وجلّ على السؤال الذي يَرِدُ عَقِب توجيه النهي عن

الاستغفار للكافرين حتى أخفهم كُفْراً، وهو: كيف أذن الله لإبراهيم عليه السلام بأن يستغفر لأبيه الكافر، فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾:

﴿مَوْعِدَة﴾: مصدر لفعل «وَعَدَ» كالوعد، يقال لغة: وعَدَه يعِدُه وَعْداً ومَوْعِدَة وَعِدَةً ومَوْعِداً.

فأبان الله تعالى في هذه الآية عُذْر إبراهيم في استغفاره لأبيه، وهو أنّه أراد أنْ يَبَرَّ بوعْدٍ وَعَدَهُ إيّاه، إذْ كان قال له: لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ رَبِّي، أي: وتوسَّم فيه أن يُؤْمِنَ مستقبلاً بعد أنْ فارَقَ بلَدَهُ وقومه، وذلك أنّ أباه خرج معه حين هاجر من العراق هو وزوجته سارة وابنُ أخيه لوط، فنزلوا أوّلاً في حرّان، وهنالك مات أبوه، ثم ارتحلوا إلى أرض الكنعانيّين، وهي بلاد بيت المقدس، وكان ذلك بعد أحداث تعرُّض إبراهيم للتحريق بالنار على يد نمرود، لكنّ الله خيّب نمرود وقومه المشركين إذ أمر النار بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، فكانت كذلك فلم تمسَّه بأذى، فلمّا رأى أبوه ذلك، قال «نعم الرّبّ ربُّك يا إبراهيم» كما روي عن أبي هريرة.

وقد سبق أن أنزل الله عزّ وجلّ قبل هذه الآية في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول) أي: قبل التوبة بائنتين وعشرين سورة، قوله تعالى خطاباً للّذين آمنوا بعد تحذيرهم من اتّخاذ الكافرين أولياء، والتعريض بتلويم حاطب بن أبي بلتعة فيما كان منه من محاولة اتخاذ يَدٍ عند مشركي قريش إبّان أحداث فتح مكة:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾:

أي: قُدْوَة حَسَنَةٌ.

الأُسْوَةُ: المقتدىٰ به في قولٍ أو عَمَلٍ، وإنّما يُقْتدى عادةً بمَنْ يكون له ظهورٌ محترمٌ بين الناس يُثِير الإعجاب والتقدير، لكنّه قد يكون أُسْوةً حسنة، وقد يكون أُسْوة سيّئة، كأئمة الضلال والإضلال في الناس.

فعلَّم الله عزّ وجلّ المؤمنين من أتباع محمّد ﷺ أن يقتدوا بإبراهيم عليه السلام والذين كانوا معه مؤمنين في تبرُّئِهِمْ من قومهم الكافرين بالقولِ والعمل، والذين كانوا معه مؤمنين هم زوجَتُه سارة، وابْنُ أخيه لوط عليه السلام.

فتبرُّؤُهُمْ منهم بالقول دلّ عليه قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وتَبرُّؤهم مِنْهم بالعمل دلّ عليه قوله تعالى:

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

فأتباع محمد ﷺ مطالبون بأن يقتدوا بإبراهيم والذين كانوا معه مؤمنين في هذين الأمرين القول والعمل.

واستثنى الله من عموم هذا القول والعمل ما كان من إبراهيم تجاه أبيه، وهو أمْرٌ لم يُصَرَّحْ به في اللفظ، وذلك أنّه وعَدَهُ بأن يستغفر له، فاشتمل هذا علىٰ قولٍ باللّسان، ووَعْدٍ أنجزَهُ بالعمل، فقَدْ جَعَل إبراهيمُ يستغفرُ لأبيه تنفيذاً لوعده له، متوسّماً منه أنّه سيكفر بما كان عليه، ويؤمن بالله وحده، ويتّبع ابْنَه فيما دعاه إليه، فقد هاجر معه مع من آمن به واتّبعه، وابتعد عن مشركي قومه عُبّاد النجوم، ودلّ الاستثناء على أنّه مقدّر ذهناً.

أي: لا يحْسُن أن تقتدوا بإبراهيم عليه السلام في هذا الذي كان منه لأبيه، لأنّ أباه كان كافراً، والكافر لا يجوز الدّعاء له بالمغفرة، لأنّ الله لا يَغْفِر الكُفْرَ به ولو كان من أخف دركات الكُفر، وهو الشركُ به.

وأبان الله عزّ وجل في سورة (التوبة) أنّ عُذْرَ إبراهيم في استغفاره لأبيه حِرْصُهُ

على أن يفي بوعده له، وأنه لم يَتَبيَّنْ بَعْـد أنْ هَاجر معه، أنـه ما زالَ مصرّاً على الكفر، مُتَمَسِّكاً بما يؤمن به قومُه، فلمَّا تبيَّنَ لَهُ ذَلِكَ وربّما كان هذا حين اقتربت منيّته، وأبَى أن يُعْلِن إيمانَهُ باللهِ وحده لا شريك له، وتبيّن له بذلك أنّه عدُوٌّ لله تبرّأ مِنْهُ.

ومع وجود هذا العذر لإبراهيم عليه السلام فإنّ الله تعالى لم يأذن بالاقتداء به فيه، فقال تعالى في الاستثناء في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ . . . ﴿٤﴾﴾:

أي: وما تبعه من تنفيذ هذا الوعد.

ولا يدخل في الاستثناء قوله:

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

للعلم بعدم دخوله بداهة، بل هو ممّا يُقْتدَى بإبراهيم فيه.

وأثنى الله عزّ وجل على إبراهيم في آخر آية (التوبة) فقال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

هـذه الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكّدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة».

أوّاه: الأوّاه عند أهل اللغة هو الّذي يُكْثِرُ من قول «أوّه» تعبيراً عن توجّعه وحُزْنِه، فالأوّاه في المعنى هو كثير التوجُّع الذي يُعبِّر عنه بقول: «أوّهْ».

يقالُ لغة: أوَّهَ الرَّجُلُ تأْويهاً، إذَا قالَ: «أوّهْ» وهذا اللفظ هو اسم فعل مضارع، بمعنى: «أتوجّع» وفي نطقه لغات تزيد على العشر.

وكثرة التأوّه تدلُّ باللّزوم الذهنيّ على أنّ صاحبه كثير الحزْن كثير التوجّع، ومثل إبراهيم عليه السلام، لا يَحْزَنُ ولا يتوجّع من أجل أمور الدنيا، بل هو يتوجّع ويحزن من أجل أمورٍ يراها على غير ما يرضي الله عزّ وجلّ، لكنّه في ذاته حريصٌ جدّاً على القيام بمراضي الله عزّ وجلّ، فهو إذَنْ لا يَتَوجَّعُ من أجل نفسه، ولا يَحْزَنُ بسبب ذنوب ارتكبها، فلم يبق إلّا أنّه يتوجّع ويحزن من أجْلِ أبيه وقومه الكافرين، إذْ كان حريصاً

على نجاتهم بالإيمان من الخلود في عذاب الجحيم، وهم لا يستجيبون له، وهذا ينبع من منابع رحمته العظيمة بقومه وبالناس أجمعين.

وكثرةُ تأوُّهِهِ الدالّة عَلَىٰ كَثْرةِ تَوَجُّعِه وحُزْنه تدفعه إلى أن يدعُوَ الله مُتضرِّعاً لمَنْ هُو حَرِيصٌ على نجاتهم من عذاب الله، ومع تضرُّعِهِ يكثر ذكر الله ويُسَبِّح بحَمْدِهِ.

فرحْمتُهُ، وكثرةُ شفقته، ودعاؤُه وتَسْبيحُه، تُفْهَمُ لزوماً من كونه كثير التأوّه، فلا تعارض بين المعنى اللّغوي وما ورد من تفسير مأثور للمراد من «أوّاه» لأنّ هذه التفسيرات المأثورة تعبّر عن اللّوازم التي تقتضيها كثرة تأوّه إبراهيم، فقد جاء في المأثور من التفسير لكلمة «أوّاه» أنه الدُّعاء، أي: كثير الدُّعاء لربّه، وأنّه المتضرّع، وأنّه المتضرّع كثير الدُّعاء، وأنّه الرحيم، وأنّه المسبّح.

وقد وصف الله إبراهيم بأنّه «أوّاه» في موضعين من القرآن الكريم:

الأول: قول الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

فوصفه الله بأنّه أوّاهٌ إذْ أخذ يدعو ويتضرّع من أجل رفع الإهلاك عن قوم لوط، لمّا أخبره ضيوفه من الملائكة بذلك.

الثاني: ما جاء في النصّ الذي نتدبّره في سورة (التوبة) وقد وصفه الله فيه بأنّه أوّاه في معرض ما كان منه من استغفارٍ لأبيه، رحمةً به وشفقة عليه.

حَلِيمٌ: أي: كثير الحلْم، لا تُثيره المغضِبات التي تستثير بالغضب معظم الناس.

وبعد أن أبان الله عزّ وجلّ بياناً جليّاً أنّه لا يجوز للنبيّ ولا للذين آمنوا أن يستغفروا للكافرين من بعد ما تبيّن لهم أنّهم كافرون من أصحاب الجحيم، لا بُدَّ أنّه قد تخوّف من كان من المؤمنين يستغفر لأولي قُربَاه أو غيرهم من المشركين من أن يكون قد وقع في الإثم ومخالفة حكم الله، وعرّض نفسه للعقوبة، ولو لم يكن لديه

بيان جليٌّ بالتحريم، إذْ كان البيان السابق الوارد في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول) يُمكِنُ أن يُحملَ على الترغيب في عدم الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه الكافر، لا على التحريم.

فاقتضى هذا التخوّف الذي قد يجعل المؤمنين في حرج من أمرهم إتباعَ بيان التحريم ببيان رفع الحرج عن الذين كانوا يستغفرون للمشركين وهم لا يعلمون أنّ استغفارهم لهم حرامٌ في دين الله.

ونلاحظ أنّه جاء بيان رفع الحرج في صيغة قاعدة كليّة عامّة تنطبق على هذه الجزئية، وعلى كلّ أشباهها وأمثالها، وهذه القاعدة الكليّة تثبت أن مسؤوليّة العباد تجاه ربّهم، في قضايا أحكام الدين الواجبة أو المحرّمة لا تكون إلاّ بعد أن يُبيّن لهم فيما يُنزّل من أحكامٍ ما يجب عليهم فعله، وما يجب عليهم تركه، ليتقوا الوقوع في الإثم وترتُّب العقاب، بفعل الواجبات وترك المحرّمات، فقال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

المعنى: ولا تكونوا في حرَجٍ بالنسبة إلى ما كنتم تفعلون قبل أن يُبيّن الله لكم مَا يجب عليكم أن تفعلوه، وما يحرُم عليكم أن تفعلوه، فليس من سنة الله في محاسبة أيِّ قوم في كلّ رسالاته المنزلة على عباده أنْ يؤاخذ على فعل شيْءٍ أو ترك شيءٍ حتّى يُبيّن لَهُمْ ما يتّقُونَ عقُوبة المخالفة فيه فعلاً أو تركاً.

وهذه القاعدة هي إحدى مظاهر صفات العلم والحكمة والعدل من صفات الله عزّ وجلّ، فمن مسائل علم الله الشامل أنّه ليس من الحكمة ولا من العدل أنْ يُؤاخذ قبل بيان الحكم الدينيّ في المسائل التي لا يُدْرِكُ العبادُ وجُوبَها أو تحريمها إلّا ببيان الشارع لذلك.

إنّ المؤاخذة شرطُها العلْم بالتكليف، والعلم بالتكليف الديني الذي لا يُدْرَكُ بالفطرة أو ببداهة العقول، لا بدّ أن يكون مسبوقاً بالبيان الثابت عن الله بنصٍّ منزّل، أو ببيان الرسول في سنّة ثابتة، وبيان الرسول فرع من فروع بيان الله عزّ وجلّ.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾:

نفي بأبلغ أساليب النفي، فاللام في: ﴿لِيُضِلَّ﴾ هي لام الجحود، لورودها بعد كونٍ منفي، وقد سبق شرح هذه الصيغة عند تدبّر قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾.

ومعنى ﴿لِيُضِلَّ﴾ هنا: ليَقْضِيَ وليَحْكُمَ بضَلالِ قَوْمٍ مَا من آيَةِ أُمَّةٍ سَابقةٍ وَحاضرة ولاحقة، وذلك بأن يَحْكُمَ عليهم بأنَّهم عُصَاةٌ مذنبون مخالفون لأحكام التكاليف الدينية في قضايا الواجبات والمحرّمات.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾:

أي: بعد إذْ دَعاهُمْ إلى الإيمان، فاستجابوا، وآمَنُوا، فحكَمَ لهم بالْهُدَىٰ في موضوعِ الإيمان، وإعلان الإسلام.

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾:

أي: حتَّىٰ يُبَيِّنَ لهم فيما يُنزِلُ من كتاب، أو على لسان رسولٍ من رُسُله، ما يجب عليهم أن يَفْعَلُوهُ، أو يتْركُوه، فيتَّقُوا بفعل ما أُمِرُوا بفعله، وتَرْكِ ما نُهُوا عن فعله، ما يَتَرَتَّبُ على المخالفة من استحقاق المؤاخذة والعقاب.

ولمّا كان من مسائل علم الله المحيط بكلّ شيءٍ أنّه ليس من الحكمة ولا من العدل مؤاخذةُ الْعِبادِ في أفعالٍ أو تروكٍ هي من أحكام الدين، التي لا تُدْرَكُ إلّا ببيانٍ في كتاب الله أو سنّة رسوله، ختم الله الآية بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

أي: ومن عِلْمِهِ الشّامل لكلّ شيءٍ أنّه لَيس من الحكمة ولا من العدل أن يُضلَّ قوماً بعد إذْ هداهم حتّىٰ يُبيّن لهم ما يتّقون.

وبعد بيان رفع المؤاخذة عن الذين يقعون في مخالفة أحكام الله الدينيّة وَهم يَجْهلُونَها دون تقصير منهم، لوَّحَ الله عزّ وجلّ بتهديد العصاة وهم في موقع المؤاخذة على المعصية، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن

وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

في هذه الآية تذكير بثلاث قضايا من قضايا القاعدة الإيمانيّة، تستثير بواعث الطاعة في قلب المؤمن، حتّى لا يقع فيما يعلَمُ أنَّهُ مخالف لأحكام الله في الدّين فعلاً أو تركاً.

القضيّة الأولى: أنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السّمَاواتِ والأرْض، أي: فلا شريك له في الملك، ويلزم عن هذا أن جميع الخلق عباده، مملوكون له، ومن له الْمُلْك كُلُّه فهو وحْدَهُ المستحقُّ للطاعة والعبادة فإذا أمَرَ بشيءٍ أو نهى عن شيْءٍ لم يكن لعباده خِيَرَةٌ في أن يُخَالِفُوا ويَعْصوا، فإذا عَصَوْا كانَ من مقتضى مُلكه سبحانه أن يسائلهم، ويحاسبهم، ويقضيَ فيهم بالعدل، ويضعهم موضع المؤاخذة، وكان له أن يعاقبهم بالعدل.

دلّ على هذه القضية قول الله تعالى في الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

القضيّة الثانية: أنَّ الله هُو الّذِي أحْيَا الأحْيَاءَ كُلَّها، وهو الذي يُميت، وهو الذي إذا شاء أعاد الحياة للموتى، ولا سيما الذين وضعهم في الحياة الأولى موضع الابتلاء، ولم يَجْزِهم في الحياة الأولى على أعمالهم الاختياريّة، وكان من الحكمة والعدل إعادتهم إلى الحياة للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء، وفي هذا إشارةٌ ضمنيَّةٌ إلى يوم الدّين، ومعلوم أنّ المؤمنين لا يحتاجون في التذكير بيوم الدين لأكثر من أن يأتي في البيان مثل قوله تعالى:

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

كما جاء في الآية.

القضيّة الثالثة: أنّ الّذين يقفون يوم الدين للحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء على ما كان منهم في الحياة الدنيا بين يدي الله الخالق البارىء الذي له ملك السماوات والأرض، لا يجدون يومئذٍ من دون الله وليّاً يتولّاهم، بجلب نفع أو ثواب،

أو دفع ضرّ أو عقاب، ولا يجدون نصيراً ينصُرُهُمْ فيغلبُ جنْدَ الله إذا أراد الله تعذيبهم على ما سلف من ذنوبهم.

* * *

وتعقيباً على ماسبق من بيان في الآية (٨٨) من أنّ الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقد دلّ السّباق والسّياق على أنّ خروجهم إلى غزوة تبوك، وجهادهم فيها من الجهاد الداخل في المراد دخولاً أوّليًّا، أبان الله عزّ وجلّ في الآية (١١٧) أنّه قد تاب على النبيّ والمهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه في ساعة الْعُسْرَة، أي: في الخروج إلى غزوة تبوك، وسمّى الله زمنها ساعة الْعُسْرَة، لأنّها كانت في زمن شديد الحرّ، مع قلة المؤونة، وقلّة العتاد، وهذا فوق ما ذكر في الآية (٨٩) من أنّه عزّ وجلّ أعدّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فقال تعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

تاب: هي في اللّغة بمعنى: رَجَع، وخُصّت في الاستعمال بمعنى رجوع العبد إلى طاعة ربّه، معترفاً بسابق ذنبه، ورجوع الله إلى عبده بالرضا والتوفيق وعطاءات العفو والغفران، وفيوض الإحسان.

في ساعة العُسْرَة: الْعُسْرَةُ: الضّيقُ والشّدّة، وقِلّةُ ذاتِ اليد، والأمور الّتي تَعْسُر ولا تَتيَسّر.

وساعة الْعُسْرَة يرادُ منها الزّمَنُ الذي خرج فيه الرسول والمسلمون معه إلى غزوة تبوك، إذْ كان زَمَنَ شدّةٍ وحرٍّ، وكان المسلمون في حالة عُسْرٍ من أمرهم، في الزّاد، والماء، والسّلاح، والعتاد، والمراكب، وتعرّضوا في سفرهم لظمأ شديد، وجوعٍ ممض، بسبب قلّة الماء والزاد وشدّة الحرّ.

﴿كَادَ﴾:

يقال لغة: كاد الرّجل يفعل كذا، أي: قارب أن يفعله ولم يفعله.

﴿يَزِيغُ﴾:

يميلُ عن القصد، وعن الطريق، يقال لغة: زاغ عن الشيء يَزِيغُ زَيغاً وزيُوغاً وَزَيَغاناً، وزاغ يزُوغُ زَوْغاً وَزوغاناً، إذا مال عن القَصْدِ، وانْحرفَ عن الصراط السويّ، وجارَ في منطقه، وكلُّ ميل عن الحقّ والخير والهدى والطاعة الواجبة زَوْغان.

وزَيْغُ القلب وزَوْغُهُ: ميلُهُ عن إرادة الاستقامة والطاعة وفعل الخير وميلُه عن الحقّ والخير والهدى.

فقوله تعالى:

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾

أي: من بعد ما قاربَ حالُ فريقٍ من الذين اتّبعُوا النبيَّ في غزوة تبوك أن تميل قلوبُهُمْ عن اتباعِه، ويكونُوا مع المخلَّفين، لكنَّهم تداركوا أمْرَهُم فلَحِقُوا بالغُزَاة، فألْحَقَهُمْ الله بمَنْ تاب عليهم أوّلاً منْذُ تابَ على رسوله.

وكان ممّن تباطأ أوّلاً ثمّ لَحِقَ بالرسول حتى أدركه حين نزل تبوك أبُو خيثمة رضي الله عنه، كما ذكر ابن إسحاق.

وكان يتخلّف عن ركب المسلمين في الطريق بعض الخارجين مع الرسول ﷺ، فيقولُ بعضُ المسلمين له: يا رسول الله، تخلّف فلان، فيقول: دَعُوهُ، فإنْ يَكُ فيه خيْرٌ فَسيُلْحِقُهُ الله بِكُمْ، وَإنْ يكُ غَيْرَ ذلك فقد أرَاحَكُمُ الله منه.

ولدى تدبّر هذه الآية نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ قد أبانَ أنّه قد أنجز توبته على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه خارجين معه إلى غزوة تبوك في ساعة العسرة، ودلّت القرائن على أنّ هذه التوبة من الله عليهم قد كانت ثواباً لهم على خروجهم مجاهدين في ذلك الزمن الصَّعْب الشديد.

وبدأ الله بالنبيّ لارتفاع منزلته وعلوّ مقامه عنده، وتوبتُهُ عليه إنما هي من بعض

تقصيراته بالنسبة إلى حقوق الدرجات العليا من مرتبة المحسنين، لا من تقصيراته بالنسبة إلى حقوق درجات مرتبة المتّقين. فهذه معصومٌ عنها، لأنّ الله جعلَهُ أسوة حسنة للمتقين في كلّ ما يصدر عنه، أمّا حقوق مرتبة الأبرار، أو مرتبة المحسنين فهي بالنسبة إلى أهل مرتبة المتقين من نوافل الطاعات، التي لا يفعلها إلّا قليلٌ منهم، وإذا فعلوها ارتقوا بها إلى مرتبة الأبرار، أو إلى مرتبة المحسنين.

وذكر الله المهاجرين قبل الأنصار للإشعار بتقدّم منزلة خيار المهاجرين على خيار الأنصار، لأنهم آمنوا وتركوا مساكنهم وأموالهم في سبيل الله مهاجرين، وجاهدوا بعد ذلك بأموالهم وأنفسهم، ومنزلة المهاجر المجاهد أعلى من منزلة من آوى ونصر.

فقال تعالى في هذا البيان مؤكّداً بلام الابتداء وحرف التحقيق:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ... ﴿١١٧﴾﴾.

وكان من الذين اتّبعُوه فريقٌ اشتدّ عليهم الخروجُ في ذلك الزّمَنِ العَسِيرِ الصّعْب، فدبّ بعضُ الوهنِ والتخاذل إلى قلوبهم، حتّى كادت قلوبهم تميلُ إلى التخلُّفِ عن الخروج، أو التخاذل في بعضِ الطريق، وإلى معصية الرسول في تكليفه الإلزاميّ بالخروج والمتابعة.

ودلّ على هذا الفريق قول الله تعالى في الآية:

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ... ﴿١١٧﴾﴾.

«كادَ» من أفعال المقاربة تعمل عمل «كان» ترفع الاسم وتنصب الخبر، إلّا أنّ خبرها يجب أن يكون جملةً فعليّةً مشتملةً على فعل مضارع فاعله ضمير يعود على اسمها، واسم «كادَ» هنا ضمير الشأن الذي يفيد خطورته. وجملة: «يَزِيغُ قُلُوب...» في محلّ نصب خبر «كادَ».

لكنّهم تداركوا أمرهم، فاعتصموا بحبل الطاعة، واتّبعوا الرسول إلى تبوك. ويحتمل أن يكون ضمير ﴿منهم﴾ عائداً على مجموع المهاجرين والأنصار، وأن يكون

المراد من هذا الفريق أبا لبابة ومن تخلّف معه من أصحابه الذين ربطوا أنفسهم بسواري المسجد.

وهنا يَرِد سؤال مطويّ وهو: فكيف عامل الله هؤلاء الفريق الذين كادت تزيغ قلوبُهُمْ؟

فأجاب الله عزّ وجلّ على هذا السؤال المطويّ بقوله:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ... ﴿١١٧﴾﴾.

فدلّ حرف «ثُمَّ» على تأخير التوبة عليهم عن توبة الله على المهاجرين والأنصار الذين اتّبعُوا النبيّ دون أن تتعرّض قلوبهم لمقاربة الزيغ.

وختم الله الآية بما يناسب توبته من صفاته الحسنىٰ، فقال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

وهذا من أساليب القرآن المجيد، إذْ يربط سبحانه وتعالى تصاريفه بما يلائمها من عناصر القاعدة الإيمانية، ترسيخاً للقاعدة الإيمانية، في صورتها الكلية وفي عناصرها التفصيليّة.

وهنا يرد أيضاً سؤال آخر بشأن الّذين أمر الرسول بمقاطعتهم، وهم:

(١) كعبُ بن مالك من بني سَلِمَة.

(٢) ومُرَارَةُ بْنُ الربيع الْعَمْرِي، من بني عَمْروبْن عَوْف.

(٣) وهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الواقِفِي، من بني واقف.

وهم الثلاثة الذين صدّقوا رسول الله ﷺ بأنّهم تخلّفوا عن غزوة تبوك بغير عذر، فخلَّفَهُمُ الرَّسُولُ وأرْجأ أمرهم، حتّى يقضي الله بشأنهم، وأَمَرَ بمقاطعتهم تأديباً لهم ولغيرهم من المؤمنين الذين قد تحدّثهم نفوسهم بمعصية أمر الرسول، في مثل موضوع التكليف الإلزاميّ بالخروج للقتال.

والسؤال الذي يَرِد بالنسبة إلى هؤلاء الثلاثة هو: فماذا فعل الله بهؤلاء الثلاثة الذين أرجأ الرسول أمرهم، وأمر بمقاطعتهم، حتى يقضي الله بأمرهم؟

وقد أجاب الله على هذا السؤال بقوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾:

أي: وتاب أيضاً على الثَّلاثةِ الـذين خُلِّفُوا فلم يقض الرسول بـأمرهم، وأرْجأ أمرهم حتّى يقضي الله بشأنهم، واستمرَّ إرجاؤهم مُخلَّفين عن إخوانهم الذين تـاب الله عليهم، ومُقاطَعِينَ من الرّسولِ ومن المؤمنين، حتَّى ضاقَتْ عليهم الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وضـاقَتْ علَيْهِمْ أَنْفُسُهُم، وظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ مُعَـاقِبُهُمْ، وهـذا منْهُم ظنٌّ لاحتمـال أن يتـوب عليهم ويغفـر لهم، فـإذا تحقَّقَ ظنُّهُمْ فـلا مَلْجأَ من اللهِ إلاّ إليـه، وهـذا من اليقين الإيماني، وقد استدعاه خوفهم من الله ومن أن يُنْزل بهم العقاب.

وظلّوا في هذه الحالة خمسينَ ليلة هي من أشدّ ما يكون على قلب مؤمن صـادق الإيمان، وكانت مدّة طويلة بـالنسبة إليهم، لـذلك قـال تعالى حين أنـزل البيان بتـوبته عليهم:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

فذكر أنّ توبته عليهم جـاءت متأخـرةً بدليـل العطف بحـرف العطف «ثُمّ» الـذي يدلُّ على الترتيب مع التراخي.

قد يقال: أمَا كان يكفي هذا البيان عن ذكر توبة الله عليهم في صدر الآية؟

وأقـول:

نـلاحظ بالتـدبُّـر المتـأنّي أنّ الله تعـالى أراد أن يُبَيّنَ أنّهم صـاروا مشـاركين في الدرجة لمن ذكر الله في الآية السابقة أنّه تابَ عليهم، وإنْ أرجأ اللّهُ توبتـه عليهم حتى ضـاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضـاقَتْ عليهم أنفسهم، فالغـرضُ من هذا الإرجـاء التربيةُ والتأديب، لا بيانُ نزولِ درجتهم عن الذين تلَقَّوْا قَبْلَهُمْ نبأ توبة الله عليهم.

وقوله تعالى:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾.

يدلُّ على غرض التربية والتأديب، حتّى لا يَعْصُوا مستقبلاً.

إنّهم بالنسبة إلى ما سبق منهم من ذنْبٍ قد تابوا إلى الله بالاعتراف بالذنب والاستغفار والندم، وبقي أنْ يتوبوا إلى الله في المستقبل بالتزام الطاعة وعدم تكرير المعصية، فتأخير توبةِ الله عليهم بالنسبة إلى ما مضىٰ يُقصدُ منه أن يحافظوا على الرجوع إلى الله دواماً بالتزام الطاعة في المستقبل، وأن لا يكرّروا المعصية، لئلا يتعرّضوا لما تعرّضوا له من هَمّ وغمّ في الأولى، فهم من السابقين الذين لا يَليقُ بهم ارتكاب مثل هذه المعصية التي تتعلّق بقضايا الإسلام والمسلمين الكبرى.

﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾:

أي: ضاقت عليهم الأرض مع رحابتها، فالباء للمصاحبة بمعنى «مع» و«ما» مصدرية تؤوّل هي وما بعدها بمصدر.

يقال لغة: رَحُبَ الْمَكانُ يَرْحُبُ رُحْباً وَرَحابَةً، ورَحِبَ المكانُ يَرْحَبُ رَحَباً، أي: اتّسع، فهو مكانٌ رَحْبٌ، ورَحِيبٌ، ورُحابٌ.

هذا التعبير يَدُلُّ علىٰ ان حالة الضّيق في النفس تُشْعِرُ صاحبها بأنّ الأرض ضيّقة عليه، مهما اتسعَتْ حَوْلَهُ أرْجاؤها، ومهما امتدّ حوْله فضاؤها، فحواسُّهُمُ الظاهرة تُحِسّ بأنّها سجينة حبيسَةٌ ضِمْنَ جُدُرٍ ضاغطة، وهذا من شدّة الهمّ والغمّ والكرب.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾:

أي: ويَشْعُرُون في داخِلِهِمْ بأنّ أنفُسَهُمْ ضاغطةٌ بالهمّ والغمّ والكَرْبِ عليهم، فهم في حالة ألَمٍ داخِليٍّ مصْدَرُهُ أنفُسُهم التي زيَّنَتْ لهم ارتكاب المعصية أولاً، ثم أدركوا ما جنوا فخافوا، فضاقت عليهم أنفسهم من شدّة الخوف من نقمة الله عليهم.

ومن خلال التعبيرين نُدْرِك مبْلَغَ الثناء عليهم بشدّة إيمانهم، وقوّته وعُمْقِه في قلوبهم، فلو لم يكونوا من أهل الإيمان العظيم القويّ العميق ما شعروا بمشاعر الضيق الشديد، والكرب العظيم، بسبب تخلّفهم عن الخروج مع الرسول والمؤمنين في غزوة تبوك، ولاستطاعوا أن يلفّقوا الأعذار، ويتخلّصوا من نتائج الاعتراف بالذنب للرسول ﷺ كما اعتذر الآخرون وكانوا بِضْعاً وثمانين رجلاً.

تفصيل قصة الثلاثة كما قصها كَعْبُ بْنُ مَالِك أحدهم:

روى البخاري ومسلم والإمام أحمد بألفاظ متماثلة أو متقاربة:

قال كعب بن مالك: لم أتخلَّفْ عَنْ رسول الله ﷺ في غَزاةٍ غَزاهَا قَطُّ، إلاَّ في غَزاةِ تَبُوك، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخلَّفْتُ في غَزاةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعاتِبْ أَحَدٌ تَخلَّفَ عَنْها[١]، وإنَّما خَرَجَ رسولُ الله ﷺ يريد عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّىٰ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَىٰ غَيْرِ مِيعَادٍ.

ولَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ليلة الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَىٰ الإِسْلامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بها مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإِنْ كانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَأَشْهَرَ.

وكانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تخلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ في غزوة تبوك، أنّي لم أكُنْ قطُّ أقوىٰ ولاَ أَيْسَرَ مِنّي حِينَ تخلّفْتُ عنْهُ في تلْكَ الْغَزاةِ، واللَّهِ مـا جَمَعْتُ قَبْلَها رَاحِلَتَيْنِ قطُّ، حتَّىٰ جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزاةِ.

وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إلاَّ وَرَّىٰ بغيْرِها، حتّىٰ كـانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، فَغَزاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في حرٍّ شَدِيدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَراً بَعِيداً ومَفَاوِزَ، وَعَدُوّاً كَثِيراً، فَجَلَّىٰ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُم، لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيد، والْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كثير، وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ (يُرِيد بذلك الديوان).

قال كعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أن ذَلِكَ سَيَخْفَىٰ، مَـا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تعالى.

وَغَزَا رَسُولُ الله ﷺ تِلْكَ الْغَزاةَ حين طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلاَلُ، وَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ[٢]، فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ والمؤمنُونَ مَعَهُ، وطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ من جهازي شيئاً، فأقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَىٰ ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ.

---

(١) لأنّ الدعوة إلى غزوة بدر قد كانت نَدْباً، لا تكليفاً إلزامياً، لذلك لم يعاتب الرسول أحداً تخلّف عنها.

(٢) أصْعَر: أي: أميل، يقال لغة: صَعِرَ يَصْعَرُ صَعَراً، أي: مال عُنُقُهُ أو وَجْهُهُ إلى احد الجانبين.

فَلَمْ يَزَلْ ذلِكَ يَتَمَادَىٰ بِي، حتَّىٰ اسْتَمَرَّ بالنّاس الجدُّ، فأصْبحَ رَسُولُ الله ﷺ غادِياً، والمسلمون معه، ولم أَقْض مِنْ جِهَازِي شَيْئاً.

وقُلْتُ: أَتجهَّزُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحقُهُ، فَغَدَوْتُ بَعْدَمَا صَلَّوْا لأتَجهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئاً، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شيئاً، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمادَىٰ بِي حتَّىٰ أَسْرَعُوا، وَتَفَارَطَ الغزو[1]، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأَلْحَقَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي.

فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ الله ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لاَ أَرَىٰ لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلاً مَغْمُوصاً عليه فِي النِّفَاقِ (أي: يُذْكر بأنّه منافق) أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَهُ الله تعالَىٰ مِنَ الضُّعَفَاءِ.

ولَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ الله ﷺ حَتَّىٰ بَلَغَ تَبُوكَ، فقال وهو جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ:

«مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟».

فقال رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: حَبَسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بُرْدَهُ، والنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ.

فقال مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَمَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خيراً.

فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فَبَيْنَا هُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ رَأَىٰ رَجُلاً مُبِيضاً[2] يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ[3]، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ».

فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الأَنْصَارِيُّ، وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ.

---

(١) تَفَارَطَ الغزو: أي: فاتَ وقته. يقال: تفارَط الشيء إذا فاتَ وَقْتُهُ.

(٢) مُبِيضاً: أي: يظهر لشخصه بياضٌ من بعيد، وربما كان يلبس ثياباً بيضاء.

(٣) يَزُولُ بِهِ السَّرَاب: أي: يرفعه السَّرابُ ويُظْهِرُه.

قال كعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي[1]، فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَداً؟ وأَسْتَعِينُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي.

فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِماً، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَداً، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ.

وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِماً، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعاً وثَمَانِينَ رَجُلاً، فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ.

حَتَّىٰ جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي، حَتَّىٰ جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي:

«مَا خَلَّفَكَ؟! أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْراً؟!».

قال كعب: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَىٰ بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ يُسْخِطُكَ عَلَيَّ، وَإِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عُقْبَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَىٰ وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ.

قال كعب: فقال رسول الله ﷺ:

«أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ».

وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ، فَاتَّبَعُونِي، فقالُوا لي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْباً قَبْلَ هَذَا، لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لك.

---

(١) حَضَرَنِي بَثِّي: أي: حضرني حُزْني الشديد.

قال: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّىٰ أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي. ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ؟.

قالوا: نعم، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ ما قيل لك.

قال كعب: قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟

قالوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيّ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِي، فَذَكَرُوا رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْراً، لِي فِيهِمَا أُسْوَةٌ.

قال: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي.

ونَهَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ.

قال: فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّىٰ تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِف، فَلَبِثْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً.

فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ، وأَطُوفُ في الأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا؟، ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيباً مِنْهُ، وأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَىٰ صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي.

حَتَّىٰ إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِين، مَشَيْتُ حَتَّىٰ تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ اللَّهَ، هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْت فَنَاشَدْتُهُ فقال: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّىٰ تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا أَنَا بِنَبَطِيٍّ مِنْ أَنْبَاطِ(1) أَهْلِ الشَّامِ، مِمَّنْ

---

(1) الأنباط شعبٌ ساميٌّ، كانت لهم دولة في شمالي شبه الجزيرة العربية، وعاصمتهم سَلْع، وتُعْرَفُ اليوم بالبتراء.

قَدِمَ بِطَعَامٍ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَىٰ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ، حَتَّىٰ جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وكُنْتُ كَاتِباً، فَقَرَأْتُهُ، فإذا فيه:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ».

فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُه: وَهٰذَا أَيْضاً مِنَ الْبَلاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهِ التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهِ.

حَتَّىٰ إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ، إِذَا بِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يأتيني فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ.

فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا، أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟

فقال: لاَ، بَلِ اعْتَزِلْهَا فلاَ تَقْرَبَنَّهَا.

وأَرْسَلَ إِلَىٰ صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذٰلِكَ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ، حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هٰذَا الأَمْرِ. فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَه؟ قال: «لاَ، ولٰكِنْ لاَ يَقْرَبَنَّكِ» فقالت: إِنَّهُ واللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَىٰ شَيْءٍ، وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلى يومِهِ هٰذا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ، فَقَدْ أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟

فَقُلْتُ: لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يقولُ رسولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌ؟.

فَلَبِثْتُ بِذٰلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً، مِنْ حِينِ نُهِيَ عَنْ كَلاَمِنَا، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، عَلَىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَىٰ الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا

رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ[1]، يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، فَخَرَرْتُ لِلَّهِ سَاجِداً، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْنَا، فَآذَنَ[2] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَساً، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي، وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ.

فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَهُمَا، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا.

وَانْطَلَقْتُ أَؤُمُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجاً فَوْجاً يُهَنِّئُونِي بِتَوْبَةِ اللَّهِ، يَقُولُونَ: لِيَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَالنَّاسُ حَوْلَهُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غيره، فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قال كعبُ بْنُ مالك: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ:

«أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟

قال: «لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ.

فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ.

---

(١) أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ: أي: وقف مُشرِفاً على جبلِ سَلْعٍ، وهو جبلٌ في المدينة معروف.
(٢) فآذن: أي: فَأَعْلَمَ.

فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».

فَقُلْتُ: إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، وقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّما نَجَّانِي اللَّهُ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقاً مَا بَقِيتُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنَ الصِّدْقِ فِي الْحَدِيثِ، مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ تَعَالَىٰ، واللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ يَوْمِي هَذا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ تَعَالَىٰ فِيمَا بَقِيَ.

قال: وأنزل الله تعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللهُ لِلإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فقالَ تَعَالَىٰ:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قال كعبُ بْنُ مالك: وَكُنَّا أَيُّها الثَّلاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفْنَا عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ حَلَفُوا، فَبَايَعَهُمْ، واسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ أَمْرَنَا، حَتَّىٰ

قَضَىٰ اللَّهُ فيه، فَلِذَلِكَ قَال اللَّهُ عزَّ وَجلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا...﴾ ولَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخلُّفَنَا عَنِ الْغَزْوِ، وَإِنَّمَا هُو تَخْلِيفُهُ إيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ، واعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ.

* * *

وختم الله عزّ وجلّ هذا العِقْدَ مِنَ السّورَةِ بِقَوْلِهِ تَعالَى خطاباً للّذين آمنوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾:

أي: الْتَزِموا طاعَة الله ورَسُوله، ولا تَعْصُوا بتَرْكِ الواجبات وفعل المحرّمات، لِتَتَّقُوا عِقابَ الله العاجلَ والآجلَ.

وكُونُوا مَعَ المؤمنين الصادقين الملتزمين بفعل الواجبات وتركِ المحرّمات، ولا تكونوا في سُلوكِكُمْ معَ غَيْرِ الصادقين من المنافقين، والّذين في قلوبهم مرض، وضعفاءِ الإيمان.

ويظهرُ أنّ هذا الخطاب يُقصد منه بالدّرجَة الأولى الّذِين تَخلَّفُوا عن غزوة تبوك من أهل الإيمان، ثمّ يدخُلُ في عمومه جميع الذين آمنوا، تحذيراً لهم من معصية الله ورسوله، ومن مغبّة ذلِكَ.

وقد دعا إلى هذا الختام التوجيهي ما جاء في سوابق هذه الآية من شأنِ المخلَّفين الثلاثة، وما تعرّضوا له من مُعَاقبةٍ بالقطيعة والهجرِ من الرسول وجميع المسلمين، وكان ما جرى لهم تربيةً بالعزلِ المؤقت.

• • •

الْعِقْدُ الْخَامِسُ

تعليمات وتوجيهات حول الخروج للقتال في سبيل الله

* قال الله عزّ وجلّ:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا
يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ
لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ
لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

* * *

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا] بإثبات الهمزة في الكلمتين.

وقرأ أبو جعفر: [وَلَا يَطَوْنَ] بحذف الهمزة، ولحمزة في الوقف وجهان: الحذف، والتسهيل بين بين.

وقرأ أبو جعفر: [مَوْطِيًا] بإبدال الهمزة ياءً خالصةً وصلاً ووقفاً، وله وجه آخر كالجمهور، وقرأ حمزة في الوقف [مَوْطِيًا] كأبي جعفر.

وهي وجوه من الأداء في النطق.

* * *

نظرة إجمالية حول قضايا هذا العِقْد

اشتمل هذا العِقْدُ من سورة (التوبة) على بيان ثلاث قضايا تتعلّق بالخروج إلى القتال في سبيل الله.

القضيّة الأولى: إلزام سكّان عاصمة الإسلام والمسلمين، والمقيمين حولها، بأن يتحمَّلَ كلُّ قادر منْهُم على القتال مسؤوليّة المشاركة بحسب أوامر القيادة، في بناء الدِّرْعِ الأول الذي يحمي كيان الدولة الإسلامية، وفي مقدّمة هذا الكيان دولَتُها، وقيادتُها، وعاصِمَتُها.

القضية الثانية: تَحْذِيرُ المؤمنين من أن يَنْفِروا للقتال جميعاً، حَتَّىٰ لا يتعرّضوا لاحتمال الاستئصال إذا هُزموا بل عليهم أن يُقَسِّمُوا أنفسهم إلى نافرين خارجين للقتال، ومقيمين مرابطين في ديارهم، وهذا يكون ضمن تخطيط القيادة.

فإذا تعرّض النافرون الخارجون إلى القتال لمصيبة كبيرة في أنفسهم، أو عتادهم، كان المقيمون المرابطون بمثابة مخازن القوة، التي تُمِدُّ بالْقُوَىٰ تِبَاعاً، جيشاً بعد جيش.

وحين يرجع النّافرون منصورين أو غير منصورين، فإنّهم يقدّمون للمقيمين المرابطين ما استفادوه من فقه القتال جهاداً في سبيل الله الذي هو من الدِّين، حول قوى أعدائهم، وطرائقهم وأساليبهم في القتال، ولِيُبَيِّنوالهم مايجب عليهم أنْ يَحْذَرُوه، ممّا شهدوه في خروجهم، واكتسبوه من خِبْرات، ولِيُنْذِرُوهم بأن يُبَيِّنُوا لهم مواطن الخطر التي تعرّضوا لها، أو اكتشفوها، ومراكز قوى الأعداء، ومدىٰ ما تحتاج إليه من قُوىً مضادّة.

القضيّة الثالثة: وصيّة الله للمؤمنين بأن لا يَنْتَقِلُوا إلى قتال أعداء بعيدين عن ديار الإسلام حتّى ينتهوا من قتال الذين يلونهم في ديارهم أوّلاً بأوّل، فكلّما انْتَهَوْا منْ قِتالِ قوم وصارت أرضهم ضِمْنَ رقعة ديار الإسلام، حَسُنَ في تدابير الخطط الحربيّة أن ينتقلُوا إلى قتال الذين يلونهم من الأعداء، وهكذا.

فإذا لم يتَّبعوا هذه الوصيّة تعرّضوا لِوُجود ثغرات عدُوّةٍ كافِرَةٍ ضمْن رقعة الدولة الإسلامية، التي تتوسّع دائرتها شيئاً فشيئاً، وجَرَتْ لهم هذه الثغرات متاعب كثيرة، ومشكلات خطيرة، تُفْسِد عليهم في الداخل، وتُفْسِدُ عليهم خطط توسيع دائرة ديار الإسلام، وربّما جاءَتْهُم النكبات من وراء ظهورهم، ومن خلال دائرة دِيارِ الإسلام.

* * *

التـدبُّـر

تدبُّر ما جاء في هذا العِقْد حول القضية الأولى:

* قول الله تعالى:

﴿مَاكَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ... ﴿١٢٠﴾﴾.

كانت المدينة في عصر الرسول ﷺ هي عاصمة الإسلام والمسلمين، فسُكّانُها هم الدِّرْع اللَّصِيقُ للإسلام وللدولة الإسلامية وقيادَتِها، وكانت القبائل العربية المستوطنة أو المتنقلة حول المدينة ظِهارَةَ الدِّرْعِ اللَّصِيق لهذه العاصمة.

لذلك كانت مسؤوليّة هؤلاءِ وهؤلاءِ تُجاهَ حِماية الإسلام ودولته مسؤوليّةً مُضاعفةً، فلا يُتَصَوَّرُ منهم أن يتخلُّوا عن هذه المسؤوليّة أو يُقصِّرُوا فيها، ما داموا هم بطانةَ درع حماية الإسلام ودَوْلَتِه وَظِهَارَتها، إذا كانوا مؤمنين مسلمين حقّاً، والمفروض فيهم أن يكونوا صفوةَ المؤمنين المسلمين، وأنْ يكونوا تجاه مسؤولية حماية عاصمة الإسلام ودولته من أهل مرتبة الإحسان جهاداً وتضحيةً وفداءً، لا أنْ يكتفوا بأن يكونوا من أهل مرتبة المتقين فقط.

إنّ شَرَفَ الإقامة في عاصمة الإسلام والمسلمين، وشرفَ الإقامة في الأسورة المحيطة بها، يَتَطَلَّبُ منْهُمْ أن يتحمّلوا أعباءً إضافيّةً هي فَوْقَ أعباء مرتبة المتقين العاديِّين من أهل الإيمان، فتَقْصِيرُهُمْ في واجب الإحاطة بالرسول إذا خرج مقاتِلاً في سبيل الله، أو في واجب الإحاطة بأمير المؤمنين من بعده إذا خرج مقاتِلاً في سبيل الله،

ليس كتقصير المؤمنين الآخرين، من سُكّان الأماكن البعيدة عن العاصمة الإسلامية وما حولَها من نُزَلَاءِ الأَسْوِرَةِ المحيطة بها.

فمن لم يستعِدّ أن يكون في هذا المجال من المحسنين، فعليه أن يتّخذ إقامةً أخرى بعيداً عن عاصمة الإسلام ودولته، وبعيداً عن المنازل المحيطة بها، التي هي أَسْوِرَةُ حمايتها.

ولكنَّ هذه المسؤوليّة الإضافيّة لها عند الله عزّ وجلّ ثوابٌ مضاعفٌ يتناسَبُ مع أجْرِ المحسنين، واللهُ لا يضيع أجر المحسنين.

فالذي نفهمه من عبارة:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ. . .﴾.

هو: مَا كان مُسْتَحَقّاً لأهْلِ الْمدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ من الأعْرابِ تَخَلُّفُهُمْ عن رسول الله إذا دعاهم إلى الخروج معه مقاتلين في سبيل الله، على مثل دعوته إيّاهم إلى الخروج لغزوة تبوك، وهذه القيود تُفْهَمُ من القرائن التي جاءت في سوابق النصّ.

اسم «كان» هو المصدرُ المؤوّل من عبارة: ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾ وخبرُها مُتَعَلَّقُ ﴿لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ وهذا المتعلّقُ المحذُوفُ يُفْهَمُ من معنى حرف الجرّ ﴿لأهْلِ﴾ وهو الاستحقاق، وقُدِّمَ خبرُ «كان» على اسْمِها للإشعار بالاهتمام ببيان عدم الاستحقاق هذا.

وهنا نلاحظ أنّ نفي الكينونَةِ الدائم لهذا الاستحقاق يدلُّ على النهي عن التخلّف بأبْلَغَ مِنْ عبارةِ النهي عنه في مثل: يا أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لا تتخلّفوا عن رسول الله، وذلك لأن نَفْيَ وُجود فعْلِ الشَّيْءِ مِنْ مَوْصُوفٍ بوصفٍ ما أَبْلَغُ مِنْ نَهْيِهِ عنه، وأدَلُّ على التلازم بين وجود هذا الوصف وانتفاء هذا الفعل، فدِرْعُ عاصمة الإسلام ودولته، في بطانتِهِ وظِهارَتِهِ، لا يُتَصَوَّرُ مِنْ أفراده أن يتخلّفوا عَنْ قائِدِهِمْ إذا دعاهم إلى الخروج معهم مُقَاتِلين عدُوَّهم.

إنّ لكلّ دولةٍ درعاً بشَرِيّاً يتحمّل أعظم العبء، ويضطلع بأكبر مسؤوليات الحماية والدفاع والحراسة. وعاصمةُ دولة الإسلام والمسلمين لا بدّ أن يكون جميعُ

سُكّانها وكذلك نُزّلاءُ ما حَوْلَها هم الدرع القويّ البشريّ الدائم لها، ومتى وَهَنَ هذا الدِّرْعُ تعرضت دولة الإسلام والمسلمين للانهيار، وطمع بها أعداؤها الكثيرون، وأسقطوها.

وقوله تعالى:

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾:

معطوفٌ على جملة:

﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾:

أي: ومَا كَانَ لهم أَنْ يَرْغَبوا بأَنْفسِهِمْ عَنْ نَفْسِه، وما كان لَهُمْ ان يُفَضِّلُوا أَنْفُسَهُمْ بالسلامة والأمن والراحة على نَفْسِه.

يقال لغة: رَغِبَ فُلَانٌ بِنَفْسِهِ عَنْ فُلَانٍ، إذا رأى لنفسه فضلاً عليه في الأمر الذي رَغِبَ بنفسه عنه، فلم يُرِدْه لنفسه، وترك غيره يحمل المسؤولية وحده.

فعل: «رَغِبَ» يستعمل بوجهين: فيقال: رَغِبَ في الشيء، إذا أرادهُ أ طمع فيه ومال إليه. ويقال: رَغِبَ عَنِ الشيء، إذا لم يُرِدْه، أوْ زَهِدَ فيه، أوْ تَرَكَهُ مُتَعَمِّداً.

وأبان الله عزّ وجلّ السبب الداعي إلى أن يحرص أهل درع عاصمة الإسلام والمسلمين على أن لا يتخلّفوا عن رسول الله إذا خرج مقاتلاً في سبيله، ودعاهم إلى الخروج معه، وأن لا يتخلفوا عن أمير المؤمنين من بعده إذا دعاهم إلى ذلك، قياساً على حالة عصر الرسول، أنّ أجرهم عظيم جدّاً، فهم يثابون على كلّ ما يُصيبهم من ظمأ ونَصَب ومَخْمَصة في سبيل الله، وكلّ ما يَطَؤُون من موطىءٍ يغيظ الكفار، وكُلّ ما يَنالُون من عدوٍّ من نيل، إذْ يُكتب لهم بكلّ صغير من ذلك وكبير عَمَلٌ صالحٌ، ويُثابُونَ عليه ثواب المحسنين، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾:

المشارُ إليه عدم تخلّفهم عن رسول الله وعدم رغبتهم بأنفسهم عن نفسه.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

أي: بسبب أنهم على يقين بأنهم مجزيّون جزاءً عظيماً، هو من نوع جزاء المحسنين، وهو ما جاءت الإشارة إليه بتفصيل ما يُصيبهم في خروجهم، أو يكون منهم من عمل.

﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾:

أي: مهما كان ظمأً قليلاً.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾:

أي: ولا إعياءٌ أو تعبٌ مهما كان قليلاً.

النَّصَبُ في اللّغة: الإعياءُ والتَّعَبُ، يقالُ لغة: نَصِبَ يَنْصَبُ نَصَباً، إذا تَعِبَ وأعْيَا.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾:

أي: ولا جوع ناشيء عن خلوّ البطن من الغذاء، يُقال لغة: خَمَصَ الْبَطْنُ يَخْمُصُ خَمْصاً وخُمُوصاً ومَخْمَصَةً إذا خَلا وضَمُرَ، وهو من العلامات الظاهرة الدالة على الجوع.

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

في الخروج جهاداً في سبيل الله، وسبيل الله يكون بأمرين: بابتغاء مرضاته، وبالتزام المنهاج الذي حدّده لطاعته وسلوك عباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾:

وَطْءُ الشَّيْءِ: دَوْسُهُ بالقدم، أي: ولا يضعون أقدامهم على موضعٍ يغيظُ الكفار

أنْ يضع المؤمنون أقدامهم عليه، أو تضع دوابهم أو مراكبهم ما هو منها بمنزلة الأقدام.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾:

أي: ولا يحصلون من عدوٍّ على غنيمة أو يُنْزِلُونَ به مكروهاً.

يقال: نَالَ مِنْ عَدُوِّهِ يَنَالُ نَيْلًا إذا أصابَ منه شيئاً فَهُوَ نائلٌ. ونَالَ يَنَالُ مِنْ عدُوِّه إذا وَتَرَهُ في مالٍ أوْ شيءٍ، كُلُّ ذلِكَ مِنْ نِلْتُ أَنَالُ، أي: أَصَبْتُ، وأدْرَكْتُ.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾:

أي: لا يكون منهم شيءٌ ممّا سبَق مهما صغُر إلّا كُتِبَ لَهُمْ به عند الله عَملٌ صالح، والمراد كتابة ذلِكَ لِمَن اتّصف به من المؤمنين المجاهدين في سبيل الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

في هذه الجملة دلالَةٌ على أنّ الخروج إلى القتال على ما جاء بيانه سابقاً، هو من أعمال مرتبة الإحسان، وهي أعلى مراتب المؤمنين، ومع أنّها من أعمال مرتبة الإحسان التي لا تجب على عموم المؤمنين فهي من واجبات المختارين لأن يكونوا درع عاصمة دولة الإسلام والمسلمين.

أمّا عموم المؤمنين الذين ليس لهم امتياز خاص بأشخاصهم، أو مُهِمَّاتهم، أو بيئاتهم فإنّهم لا يطالبون إلزاماً إلّا بفعل الواجبات وترك المحرّمات، التي تقع في حدود مرتبة التقوى، فإذا زادُوا عليها من نوافل الأعمال الصالحة كانوا من الأبرار، وربّما ارتقَوْا إلى مَرْتبة المحسنين، إذا وصلوا إلى حالة: أنْ يَعْبُدُوا الله كأنهم يرونه.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾

أي: في خروجهم مجاهدين في سبيل الله.

يلاحظ في أسلوب القرآن أنّ عبارة التعميم الّتي يؤتَىٰ بها للدلالة على أنّ الإحْصَاءَ يَشْمَلُ الأشْيَاءَ صِغَارَهَا وكِبَارَهَا، يأتي فيها البدء بالصغير، وبعده يأتي ذكر الكبير، وهذا من الأساليب المعتادة الدارجة على ألسنة فصحاء العرب، والحكمة في ذلك توجيه الاهتمام إلى ذكر ما قد يُتوهَّمُ أنّه لَا يَشْمَلُه الإحصاء، قبل ذكر غيره، لِئَلّا يسبق إلى ذهن المخاطب احتمال التغاضي عن الأشياء الصغيرة وإهمالها لدى

الإحصاء، فإذا سبق مثل هذا إلى الوهم كان البيان اللاّحق يحتاج تأكيداً لإزالة ما سبق إليه التوهم، بخلاف ما لو ذُكر أوّلاً، فإنّه يحصل به العلْمُ على صفحة بيضاء لم تتعرّض لغبش توهم مخالف، أمّا بدء الإعلام بإحصاء الصغير، فإنّه يعطي دلالة لزومية عقلية على أنّ الكبير داخل في الإحصاء حتماً، ويأتي البيان ناصّاً بالعبارة على ما فُهِمَ ذِهْناً، وهكذا يكون الأسلوب البياني ملائماً لمقتضيات الحكمة في مُراعاة حالة النفس الإنسانية.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾:

أي: في رحلتهم الجهادية.

الوادي: كلُّ ما انفرج بين الجبال، أو التّلال.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾:

أي: لا يكون منهم عملٌ ـ مهما قلّ ـ ممّا سبق إلاّ كُتِبَ لَهُمْ عَمَلاً صالحاً، وذلِكَ لأنّه لا يُكْتَبُ لمن هو في الامتحان إلاّ العملُ الصالح، أمّا العمل السّيّىءُ فإنّهُ يُكْتَبُ عَلَيْهِ لا لَهُ، وأمّا العمل الذي لا يدخل في الأعمال الصالحة ولا في الأعمال السيئة فإنّه لا يُكْتَبُ لَهُ وَلاَ عليه.

ويتساءل المتدبّر: لماذا يكتبُ لهم ذلك؟

وَيأتي الجواب القرآني بقوله تعالى:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمْ﴾:

أي: ليكافِئَهُمْ وَيُثِيبَهُم.

والمعنى: لِيَجْزِيَهُمُ الله فَيُعْطِيَهُم أجْرَ أَحْسَنِ مَا كَانُوا يعملون من أعْمَالٍ صالحة، لأنها هي التي تبقىٰ في صحائف أعمالهم التي يُجْزَوْنَ عليها.

ودلّت هذه الجملة بلوازمها الفكرية على أن الغرض من جعل كلّ حركة من حركاتهم ضمن أعمالهم الصالحة، منذ خروجهم مجاهدين في سبيل الله حتى

عودتهم، أو استشهادهم، تَكْثِيرُ ما هُوَ ذُخْرٌ لهم من الأعمال الصالحة، وعند الحساب تمحو الحسنات العاديّة سيئاتهم، فتكون هذه بهذه، فلا يَبْقَى في الذخيرة إلاّ أحْسَنُ ما كانوا يعملون، فيجزيهم اللَّهُ فيعطيهم أجر أحْسَنِ ما كانوا يعملون.

* * *

تدبُّر ما جاء في هذا العقد حول القضيّة الثانية:

* قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

النَّفْرُ: مفارقة مكان الإقامة بسرعة ضرباً في الأرض على سبيل السّفر والارتحال، ويُستعْمَل كثيراً بمعْنَى الخروج للجهاد والقتال في سبيل الله، وهو المراد هنا في هذه الآية.

والقضية التي دلّت عليها هذه الآية، تتضمّن تعليماً لقادة المؤمنين، الذين يملكون إصدار قرارات القتال في سبيل اللَّهِ، حينما تقضي مصلحة الإسلام والمسلمين بذلك، فَتُبَيِّنُ لهم منهج الحكمة الّذي عليهم أن يَتَّبِعُوه لدى توجيه أوامرهم بالخروج إلى القتال.

ومنهج الحكمة الذي يوصيهم الله به، أن لاَ يُوَجِّهوا الأمر بأن يَنْفِرَ كافَّةُ المؤمنين للقتال في سبيل الله، لِئَلاَّ يتعرَّضوا لاحتمال الاستئصال إذا هُزِمُوا، وأن يقتصر الأمر على تكليف أو نَدْبِ طائفةٍ منهم تقضي المصلحة العامّة بتكليفها إلْزاماً، أو نَدْبِهَا تَطوُّعاً.

ويوصيهم الله بأن يُخصِّصوا للخروج عدداً أو مقداراً ما من كلِّ فرقةٍ من فِرَقِ المسلمين الطبيعيّة، يكون هذا المقدار هو الطائفة المحدّدة من الفرقة.

ـ فمن فرقة العمّال الصناعيين طائفة.
ـ ومن فرقة الزرّاع طائفة.
ـ ومن فرقة التجّار طائفة.

- ومن فرقة المهندسين طائفة.
- ومن فرقة الأطباء طائفة.
- ومن فرقة الفقهاء في الدّين والدعاة إلى سبيل ربّهم طائفة.

وهكذا إلى سائر الفرق في الأمّة بحسب مهنها واختصاصاتها العلميّة والعملية.

وهذه الطائفة تُخْتار بالنسبة المئويّة من فرقتها، أو تُعيَّنُ بِعَدَدٍ مُحَدَّدٍ من فرقتها، وَفْقَ مقتضيات مصلحة الأمة، النافرين وغير النافرين، ويُعيِّنُ ذلك من يَمْلِكُ صُنْعَ القرار وإصدار الأوامر الحربيّة والسياسية والإداريّة في الأمّة.

وفي تخصيص طائفةٍ من كلِّ فرقةٍ مصلحتان كبريَان:

المصلحة الأولى: المحافظة على بقاء قاعدةٍ من كلِّ فرقةٍ في الأمّة، لا تتعرّض لاحتمال الاستئصال.

المصلحة الثانية: الاستفادة من تخصّص الطائفة النافرة في أعمال الجهاد المختلفة، وفي اكتساب المعلومات الجديدة التي تكتسب بالممارسة العلميّة التي يمارسها الخارجون، فما يُدْرِكُه أهل الاختصاص لا يدركه غيرهم من أمور ومعارف في التجارب والملاحظات، ولو عن طريق الاستفادة ممّا توصّل إليه الأعداء من أسلحة، ومعارف، وأساليب حربية يمكن الاستفادة منها شرعاً.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ﴾:

أي: ليس من شأن المؤمنين العاملين بوصايا الله أن ينفروا للقتال في سبيل اللّهِ جميعاً نَفْرَةً واحِدَةً. اللام في ﴿لِيَنْفِرُوا﴾ هي لام الجحود، لوقوعها بَعْدَ كَوْنٍ منفيّ.

﴿كافَّةً﴾: أي: جميعاً.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾:

أي: فهلّا خرج للقتال إذا دعا داعي القتال من كلّ فرقة من فرقهم الاجتماعية بحسب مِهَنِها وتخصّصاتها طائفةٌ محدّدة بعَدَدِها، أو بالنسبة المئوية من فرقتها، لولا: هنا حرف تحضيضٍ بمعنى «هلّا».

وظاهر أنّ مثل هذا إنّما يكون بتدبير أولي الأمر الذين يملكون صُنْع القرارات وإصدار الأوامر، وهم مكلّفون أن يراعوا مصالح الإسلام والمسلمين بشكل عامّ، وليس الأمر متروكاً لاختيار الأفراد بصورة فوضوية.

﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾:

أي: لِيَتَفَقَّهُوا عن طريق التجارب والممارسات العملية، والملاحظات، في أمور القتال والحرب من مختلف الجوانب، كالأسلحة، وفنون القتال، وطرائق الأعداء فيها، وجغرافية الأرض، والمناخ الذي تجري فيه المعارك، وكلّ ما يمكن أن يُفِيد الأمّة الإسلامية من قديم أو جديد، فهذا من التفقه في الدين، وذلك لأن القتال في سبيل الله هو من الدّين، فكل معرفة تكتسب عن طريق الخبرة والتجربة والملاحظة ولو عن طريق الأعداء المحاربين هو من التفقه في الدين، والتفقه: هو الفهم الدقيق العميق.

﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾:

أي: وبَعْدَ أن يتفقَّهوا في الأمور التي سبق بيانها ـ والّتي هي من الدّين، لتعلّقها بالجهاد في سبيل الله الذي هو من الدّين، وظاهر أنّ استفادَتَهَا إنّما تكُونُ بالخِبْرَةِ والْمُمَارَسَةِ والملاحظةِ الدَّقيقة، ومعلومٌ أنّ معارف من هذا القبيل تتجدَّد وتتطوّر دواماً ـ بعد أن يتفقهوا في ذلك يقومون بوظيفة إعْلام قومهم بما توصَّلُوا إليه من معلومات يُعْتَبر الجهل بها ثُغْرَة خطرٍ علىٰ الإسلام والأمّة الإسلامية، فإعْلامُهُمْ بها هو بمثابة الإنذار لهم بمواطن الخطر، ويكون ذلك بعد رُجوعهم من رحلة النَّفْرِ إلى قومهم.

وحين يعلم قَوْمُهُمْ بوجه عامّ ما توصّل إليه كلُّ ذوي اختصاص في اختصاصهم، يُرْجَىٰ من جميع القوم أن يحذروا مواطن الخطر، فيتخذوا الوسائل والأسباب المضادّة الواقية من جهة، والكفيلة من جهةٍ أُخرى بإحباط وسائل الأعداء، ويتخذوا الوسائل والأسباب التي يُرْجَىٰ منها تحقيق النّصر ممّا يباغتون الأعداء به. ويضطلع بمُهمات اقتراح الوسائل والأسباب الواقية والتي يُرجىٰ منها تحقيق النصر أولو الأمر المختصون، بحسب اختصاصاتهم المختلفات.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾: أي: رجاء أن يتّخذوا وسائل الحماية التي

يدعو إليها الحذر، والمعنى: لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم رجاء حذرهم، فإذا حذروا اتخذوا وسائل الحماية.

وجاء في الآية استعمال حرف الشرط ﴿إِذَا﴾ للإشعار بأنّ رجوع معظم النافرين سالمين، متفقهين في شؤون الحرب المختلفة التي هي من الدين، هو الأمر المحقَّقُ بمعونة الله وتسديده وتوفيقه إذا كانوا مؤمنين حقّاً.

* * *

تدبُّر ما جاء في هذا العِقْدِ حول القضيّة الثالثة:

* قول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

في هذه الآيات ثلاث وصايا ربّانيّة للذين آمنوا:

الوصية الأولى: أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وهم الأقربون إلى حدود بلادهم.

الوصية الثانية: أن يكونوا أشداء في قتال الكفار شدّةً يجدُ فيها الكفارُ أنّ المؤمنين غِلَاظٌ في قتالِهِمْ، أي: قُساةٌ عَنيفُون لَيس فيهم رِقّةٌ ولا لينٌ، لذلك فلا يَسْهُل الانتصار عليهم، والغلظة مذمومة في المعاملات والمعاشرات، لكنّها في القتال محمودة جدّاً، لأنها إحدى وسائل تحقيق النصر، وبها ترتفع معنويّات المقاتل، وتتخاذل وتضعف معنويات عَدُوِّه.

الوصية الثالثة: الالتزام بتقوى الله في السّلم والحرب، فإذا اتّقَوهُ كان الله معهم معيناً ونصيراً.

* * *

تدبُّر ما جاء في هذه الآية حول الوصية الأولى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

في هـذه الجملة أمْرٌ من الله للّذين آمنـوا بأنْ يبـدَؤوا حين يقاتلون الكفّار بقتـال الأقرب فالأقرب إليهم منهم.

يقال لغة: وَلَاهُ يَلِيهِ وَلْياً، وَوَلِيَهُ يَلِيهِ وَلْياً، إذا دنا منه وقَرُبَ.

هـذه الوصيّـة الرّبّـانيّة من اللّهِ للمؤمنين تلزمهم بـأن لا ينتقلوا في عمليّات قتـال الأعـداء من الكفار إلى قتـال الكفّار البعـداء، حتّى ينتهـوا من تصفية مشكـلاتهم مـع الأعـداء الأقربين إليهم المجـاورين لحدود أرضهم وبـلادهم، حتّىٰ تصير أرض هؤلاء القريبين وبلادُهم ضمن دائرة دار الإسلام.

هـذه الوصيّـة تتضمّن قاعـدة عظمىٰ من قـواعد السيـاسة الحكيمـة، في إعـداد الخطط الحربيّة المستقبليّة، ضدّ أعداء الإسلام المنتشرين في طول الأرض وعرضها.

فالواجب أوّلاً تحـديد خريطة الأرض التي تقـع تحت سلطان الدولـة الإسلاميـة تحديداً دقيقـاً، وتحقيق الأمن الداخليّ ضمن حـدود هذه الخـريطة، ثمّ تجميـع القوّة تحت رايةٍ إداريّة قيـاديّة واحـدة، ثمّ النظر إلى خـطط مدّ حـدود خريـطة أرض الدولـة الإسلامية داخـل بلاد الكفـار وأرضهم شيئاً فشيئـاً، بالبـدْءِ بالأقـرب من الكفار الـذين تلاصق حدودُ أرضهم حدودَ أرض الإسلام والمسلمين.

وتقضي الحكمة بالبدء بالّذين هم أقربُ مَنَالاً من الذين لهم مع أرض المسلمين حدودٌ مُتَلَاصِقَة، لسهولة التغلّب عليهم، والتخلّص من مشكلتهم، ولإلقاء الرّعب في قلوب الآخرين، ذوي الحدود الملاصقة، ممّن هم أشدّ قوةً، وأعظم بأساً، وأكثر عَدَداً ومَدَداً.

وقد طبّق الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده هذه السياسة الحكيمـة، التي أوصى الله بها، فمنحهم باتباعها فتحاً عالميّاً عظيماً.

لقـد بدأ الـرسول ﷺ بعـد أن استقرّت لـه العاصمـة الإسلاميـة في المدينـة وما حولها، بقتال الذين أخرجوه من بلده أوّلاً، وهم مشركو مكة، ثمّ انتقل شيئاً فشيئاً إلى سائر المشركين في جزيرة العرب، على طريقة الـدوائر التي تنـداح باتّسـاع في بحيرة الماء إذا رمِيَتْ في الماء حجراً، حتّى إذا فتح الله عليـه مكة والـطائف واليمامـة وسائـر نجد وحضرموت واليمن وهجَر وخيبر ومعظم الأقـاليم الواقعـة تحت سيطرة العـرب من

شبه الجزيرة العربية، ودخل النـاس من سائـر أحياء العـرب في دين الله أفواجـاً، شرع الرسول ﷺ في قتال أهل الكتاب، فتجهّز لغزو الروم، الذين هم أقرب الكفـار إلى دار الإسـلام يومئـذٍ، وهم محتلّون أقاليم من أقـاليم شبه جـزيرة العـرب يـومئـذٍ، وانـطلق بـالمسلمين في غزوة تبـوك، لقتال الـروم عند أقـرب حدود لهم مـع أرض العرب التي أصبحت ضمن دائرة دار الإسلام والمسلمين يومئذٍ.

وقام أبو بكر رضي الله عنه في خلافته بتوطيد دعائم الدولـة الإسلاميـة داخـل دار الإسلام، إذ بدأت تختـل بالمـرتدين ومـانعي الزكـاة بعد الـرسول ﷺ، ولمّـا توطّـد له الأمـر، شرع في تجهيـز الجيوش الإسـلامية لغـزو الروم عَبَـدَةِ الصُّلْبان، ثمّ إلى غـزو الفرس عَبَدَةِ النيران، وفتح الله عليه البلدان فتحاً مبيناً.

وقام بعده عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فأطلق جيوش الفتح الإسلامي ملتزماً هذه السياسة الرّبّانية، ومكّنه الله من الاستيلاء على ممالك كثيرة شرقاً وغرباً وشمالاً.

وقـام بعده عثمـان بن عفان رضي الله عنـه، فأظهـر الله به الإسـلام في مشـارق الأرض ومغـاربها، وكـان المسلمون كلّمـا علَوْا أمّة انتقلوا إلى مـا بعـدهم، ثمّ الـذين يلونهم من الكفار، تطبيقاً لقاعدة:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾.

وقام بعده الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنـه، فسار على سيـاسة توطيد دعائم الدولة في الداخل، والأخذ بسياسة البدء بالأقرب فالأقرب.

* * *

تدبُّر ما جاء في هذه الآية حول الوصية الثانية:

﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾.

أي: ولْيَجِدِ الكُفّار في قتالكم لهم غِلْظَةً.

الْغِلْظَةُ: الشدّة، والعنف، وقوة البأس، ومجافاةُ كلّ رقّةٍ ولين.

هذه الغلظة صفة محمودة في حالة القتال فقط، وهي مذمومة في غيرهـا، لذلـك كان من صفات المؤمنين مَا يلي:

(١) أنّهم أشداء على الكفار رُحماءُ بينهم.

(٢) أنّهم أهل حكمة ورقّة في الدّعوة إلى الله.

(٣) أنهم في الجدال يجادلون بالّتي هي أحسن.

(٤) أنّهم يتألفون قلوب الناس بالتودّد والعطاء ولو من زكوات أموالهم.

(٥) أنهم لا تحملهم عداوتهم للكافرين على ترك معاملتهم بالحقّ والعدل.

إلى غير ذلك من فضائل الأخلاق، ومكارم الشيم.

* * *

تدبُّر ما جاء في هذه الآية حول الوصية الثالثة:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

أي: واتّقوا الله دواماً في السّلم والحرب، حتى يكون الله معكم معيناً ومُمِدّاً وناصراً، لأنّ الله مع المتقين، ومن كان الله معه فإنه يجد من معية الله له تأييداً ونصراً وتسديداً وتوفيقاً.

وإذا كان الله مع المتقين، فإنّه مع الأبرار من باب أولى، وإنّه مع المحسنين من باب أولى فوق ذلك، لأنّ مرتبة المحسنين هي أعلى مراتب المؤمنين.

وقد جاء في القرآن: ﴿إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ـ إنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ـ إنّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين ـ واللَّهُ مع الصَّابرين ـ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المتقين﴾.

ونلاحظ أنّ قول الله تعالى في الآية:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قد أغنى عن التصريح بقوله: «واتّقوا الله» فهذا القول مطويٌّ في اللّفظ دلّ عليه الجملة الْمُصَرَّحُ بها في الآية.

ونظير هذا الطي كثير في القرآن المجيد، وهو من الإيجاز، الذي يدخل في عناصر الإعجاز.

• • •

العِقْدُ السَّادِسُ

بيان موقف المنافقين تجاه
ما كان ينزل من القرآن تباعاً
في مقابل موقف المؤمنين

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ
عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ
نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

* * *

* قرأ جمهور القرّاء العشرة: [أَوَلاَ يَرَوْنَ] بياء الغائب.

وقرأ يعقوب البصري وحمزة الكوفي: [أَوَلاَ تَرَوْنَ] بتاء الخطاب.

وفي هاتين القراءتين تكامل بياني، فقراءة الجمهور تتحدّث عن المنافقين بأسلوب الحديث عن الغائب، وقراءة يعقوب وحمزة فيها توجيه الخطاب للمؤمنين مبيّنةً لهم حال المنافقين، وفي كلا القراءتين إعراضٌ عن مواجهة المنافقين بالخطاب، إهانةً لهم في آخر بيان قرآنيٍّ يَتَعَلَّقُ بهم.

مقدمة عامة
قبل تَدَبُّر فقرات هذا النص

منذ بداية العهد المدنيّ من حياة الرسول ﷺ، أو قُبَيْلَهُ بقليل، والمنافقون يتعرّضون لامتحانات متتابعات، كانت لهم فيها مواقف باطنة وظاهرة من سلوكهم النفسيّ والظاهر، هي من آثار كفرهم الذي يكتمونه، ونفاقهم الذي يخادعون به، وكانت البيانات القرآنية تُتابع مواقفهم هذه، فاضحة لما يكتمون، وواعظة، ومحذِّرة ومنذرة.

ودلّتنا الدراسة القرآنية للنصوص التي نزلت لنا بشأن المنافقين، على أنها بلغت أربعة وثلاثين نصّاً، منها الموجز، ومنها المطوّل والمفصل كالذي في سورة (التوبة) والذي في سورة (المنافقون)، وجاءت هذه النصوص في ست عشرة سورة وهي ما يلي:

(١) العنكبوت: وهي من أواخر التنزيل المكي.
(٢) البقرة: الأولى من التنزيل المدني.
(٣) الأنفال: الثانية من التنزيل المدني.
(٤) آل عمران: الثالثة من التنزيل المدني.
(٥) الأحزاب: الرابعة من التنزيل المدني.
(٦) النساء: الخامسة من التنزيل المدني.
(٧) الحديد: الثامنة من التنزيل المدني.
(٨) محمد: التاسعة من التنزيل المدني.
(٩) الحشر: الخامسة عشرة من التنزيل المدني.
(١٠) النور: السادسة عشرة من التنزيل المدني.
(١١) المنافقون: الثامنة عشرة من التنزيل المدني.
(١٢) المجادلة: العشرون من التنزيل المدني.
(١٣) التحريم: الحادية والعشرون من التنزيل المدني.
(١٤) الفتح: الخامسة والعشرون من التنزيل المدني.

(١٥) المائدة: السادسة والعشرون من التنزيل المدني.

(١٦) التوبة: السابعة والعشرون من التنزيل المدني.

واقتضت الحكمة في آخر بيانٍ قرآنيّ يتعلّق بهم، أن يكشف الله مواقفهم تجاه هذه الامتحانات، التي تعرّضوا لها طوال العهد المدني، حتّى نزول سورة (التوبة) آخر سورة قرآنية نزلت قبل سورة (النصر ـ ذات الآيات الثلاث) وتجاه البيانات الفاضحات والبيانات الواعظات والمحذّرات المنذرات.

إنّ هذا الصبر الطويل عليهم مع المتابعات الدالاّت على صدق الرسول وصدق القرآن في كشف خبايا نفوسهم، وما كانوا يعملون من أعمال سرّية ضدّ الإسلام والرسول والمؤمنين الصادقين، قد كان كافياً لأن يكون دافعاً لهم في اتّجاه الإيمان، حتّى يتخلّصوا من مرض النفاق الذي ملأ جوانب قلوبهم حتّى أفسدها، وأن يساعدهم على أن يتحوّلوا شيئاً فشيئاً إلى الإيمان، وأن يتوبوا ممّا هم فيه من كفر ونفاق ولوازمهما وَظَواهرهما في السلوك، بل كان زائداً عن حاجة العلاج الدوائي الذي من شأنه أن يُصْلح أشدّ مرضى القلوب، لو كان لديهم استعداد إراديّ لاستبصار الحقّ ببراهينه وأدلّته، وقبوله والاستجابة لنداءاته، وطاعة أوامر الله ورسوله ونواهيهما.

لكنّهم بسبب نظرهم إلى ظاهرٍ من الحياة الدنيا في سطوحها الخادعة، وبسبب تشبثهم بزينتها، وسيطرة أهوائهم وشهواتهم على إراداتهم، قد كانت أفكارهم منغلقة لا تفقه حقائق الأمور، ولا تدرك شيئاً من الامتحانات التي توالت عليهم، وما استتبعت من بيانات، ولا سيما كبريات هذه الامتحانات التي كانت تأتيهم في كلّ عامٍ مرّةً أو مرّتين.

إنّ كلّ البيانات الفاضحات والمواعظ والتحذيرات والإنذارات لم تكن لتدُلّهم على أنّ القرآن حقٌّ من عند الله، وأنّ الرسول هو رسول الله حقّاً وصدقاً، بل كانت تزيدهم فيما هم فيه من رجس الكفر وقبائح السلوك ورذائل النفاق.

إنّ من اتّخذ باختياره الحرّ الوسائل المؤدّية إلى طمس بصيرته، لا يكون مستعدّاً لاستقبال البيانات والمواعظ التي تنصحه بأن يترك الطريق الذي سلكه، ووجد فيه

هوى نفسه، وبعض لذّاتها، مهما اقترنت هذه البيانات والمواعظ بالبراهين القاطعة، والحجج الدامغة المقنعة.

هذه هي سنة الله التي فطر النفوس عليها، وهكذا كان حال هؤلاء المنافقين، وهو على الضدّ من حال المؤمنين الصادقين.

* * *

التدبُّر

* قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

في هذا النصّ عَوْدٌ للحديث عن المنافقين، وهو آخر حديثٍ عنهم نزل في القرآن، وهو يُبيِّن قصة موقفهم الّذي تكرّر تجاه المتكرّر من نزول سُوَر القرآن.

لقد كَانَ موقفهم أنّهم إذا ما أُنزلَتْ سُورةٌ جديدة من سُوَر القرآن، تحدّث بعضهم قائلاً علىٰ سبيل الاستهزاء أو الاستخفاف بها: أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذه السورة الجديدة إيماناً؟

أي: أيّكُمْ زادته إيماناً بأنّ محمداً رسولُ الله حقّاً وصِدْقاً، وأنّ هذا الكلام مُنَزَّلٌ مِنْ عند الله حقّاً وصِدْقاً؟

والمعروف من أسلوب المنافقين المعتاد، أنَّهُمْ يوجّهون مثل هذا القول في المجالس العامّة، الّتي يكون فيها مؤمنون ومنافقون، عند حدوث أشياء جديدة لا يؤمنون هم بها.

والذي يدعوهم إلى مثل هذا القول النفورُ الْحَذِر، إنَّهُمْ بعوامل الكفر يشمئزّون، ويُريدون أن يُعبِّرُوا عن اشمئزازهم بأنّ هذه السّورة الجديدة لم تورثهم إيماناً، ولم تُغيِّرْ من كُفْرِهِمْ شيئاً، وهم بعوامل الحذر من انكشاف نفاقهم يحاولون أن يُلْجِمُوا ألسنتهم

عن مقالاتٍ تكشف كفرهم ونفاقهم، وتضغط في نفوسهم ضواغط الرغبة في التعبير عن مشاعرهم، فيخاطبون الحاضرين في المجلس بقولهم: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ السُّورَةُ إيماناً؟ وقد يقصدون التأثير بها على ضعفاء الإيمان.

أمّا عامّة المؤمنين فلا يتفكرون في تحليل نفوس أصحاب هذه المقالة، وقد يُحْسِنُونَ الظنَّ بِهِمْ، وقد يتحدّث بعضهم عن بعض جوانب من السورة الجديدة ازدادوا بها إيماناً.

وأمّا فُطَناءُ المؤمنين فيُدْرِكُونَ ما وراء إطلاق هذا التساؤل من عوامل نفسيّة، مُنْكِرَةٍ لكلّ ما نزل من القرآن، أو شاكّةٍ فيه، ولكنّهم لا يجدون في العبارة مستمسكاً صريحاً للإدانة، لأنّ صاحبها يستطيع أن يتملّص بخفّة، ويُبيّن أنّ غرَضَهُ حثُّ الأفكار على حُسْنِ التَّدَبّر، لاستنباط المعاني التي تزيد الإيمان، ممّا تشتمل عليه دلالات الآيات في السورة.

وأمّا المنافقون المشاركون في المجلس دون أن يطرحوا مثل هذا التساؤل، فإنهم يعرفون شياطينهم، ويدركون الغرض من سؤالهم.

[إذا] ظرفٌ لما يُسْتقبل من الزمن، ولكنّ النصّ لمّا كان يقُصُّ قصّة ما كان منهم خلال مراحل التنزيل المدني للقرآن، وهذا النصّ جاء في ختام هذه المراحل، كانت [إذا] هُنا بمثابة قول القائل: كُنْتُ في حياتي الماضية إذا جاء أوّل الشهر الجديد وقبضت راتب الشهر الماضي دفعت ربع راتبي للفقراء والمساكين ووجوه الخير ابتغاء مرضاة الله، وهذا على سبيل حكاية أحداث الماضي وفق ترتيب أزمانها.

ولفظ [ما] بعد [إذا] لفظ مضاف للتأكيد، واصطلح النحاة أن يُسَمُّوها زائدة لغرض التأكيد، وليس مرادهم أنها زائدة في اللفظ دون غرض، وقد جاءت في القرآن «ما» بعد «إذا» زائدة إحدى عشرة مرّة فقط من مجموع ما يزيد على (٤٠٠) مرّة.

واكتفىٰ النصّ ببيان ما يطرح فريق من المنافقين من تساؤل إذا أنزلت سُورةٌ جديدة، ليدلّ على ما في نفوسهم من عوامل، وترك بيان ما يَحْدُثُ في المجالس نتيجة طرحهم هذا السؤال، إذْ ليس في مثل هذا البيان غرض توجيهي، على أنّ ذهن المتدبّر الحصيف يستطيع تصوّر ما يحدث بالقياس على الأشباه والنظائر في مجالس الناس.

لكنّ الله عز وجلّ تولّى بياناً آخر كشف فيه ما يحدث في قلوب المؤمنين، وما يحدث لدى الآخرين الذين في قلوبهم مرض بدءاً من الشك، حتى أخسّ دركات الكفر، فقال تعالى بشأن الذين آمنوا:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

أي: كان الذين آمنوا إذا أُنزلت سورة من سور القرآن، زادتهم هذه السورة بما فيها من آيات الله البينات، وبما فيها من أدلّةٍ وعِلْمٍ ومعانٍ جليلة، إيماناً يضافُ إلى مقدار إيمانهم السابق، وقضيّةُ زيادة الإيمان أو نقصه أمرٌ يشعر به المؤمن في عُمْقِ وجدانه، ويمكن قياسه من ظواهر السلوك، لأنّ الإيمان ليس مجرّد فكرة ذهنية أو تَصْديقٍ إراديّ قلبيّ، بل الإيمان بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر وسائر أركان الإيمان وتفصيلاتها مركّبٌ من يقين علمي، وتصديق إراديّ، وعواطف وجدانية متنوعة فيها الحبّ والبغض والكراهية، والطمع والخوف، والشَّوْق لتحقيق المطالب السامية من سعادتي الدنيا والآخرة، وهذا المركّب يزداد بلا حدود تقاس، ويتناقص إلى أدنى الحدود، فإذا نزل عنها بدأ الشرك فما هو أشدّ منه من الكفر.

إنّ عنصراً واحداً من عناصر عواطف الإيمان وهو الحبّ، يزداد حتّىٰ يُضَحّيَ العاشق بنفسه من أجل محبوبه، فكيف إذا اجتمع مركّب من جملة عواطف قاعدتها في القلب يقين علميّ.

ولمّا خفي على بعض أهل العلم هذا التحليل لعناصر الإيمان، زعموا أنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأخذوا يؤوّلون النصوص الدينيّة الصريحة في دلالتها على زيادة الإيمان ونقصه.

﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

أي: زادتهم إيماناً والحال أنّهم فرحون مسرورون بنزول سورةٍ جديدة من عند ربّهم، تزيدهم في الدين علماً وهداية وبشرياتٍ بمستقبل سعيد، في جنات النعيم.

وقال تعالى بشأن الذين في قلوبهم مرضٌ بدءاً بمرض الشك والحيرة والتردّد، حتى أخس دركات الكفر والجحود المستور بالنفاق:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

سمى الله عزّ وجلّ في هذه الآية الكفر أو الريب الذي يَنْتَابُ قلوب المنافقين، والدوافعَ التي تدفعهم إلى الكفر أو الريب والنفاق من انحرافات خلقية، ورغبات في اتباع الأهواء والشهوات، رجْساً، باعتبار أنّ الرذائل النفسيّة هي أرجاس وأقذار، على مثل الأرجاس والأقذار الحسيّة في الأبدان والثياب ونحوها.

وبما أنّ ما ينزل من قرآن لا يفيدهم تثبيت إيمان أو زيادةً فيه، فإن إنكارهم وجحودهم لما ينزل، من شأنه أن يزيدهم عناداً وإصراراً على ما هم فيه من ريب أو كفر ونفاق، وهذا رجْسٌ يضاف إلى رِجْسِهم السّابق، ولكلِّ فردٍ منهم نصيبٌ من هذا الرِّجس بحسبه، هذا إذا لم يجعلهم يضاعفُون مكايدهم ضدّ الإسلام والرسول والمؤمنين، فإن فعلوا شيئاً من ذلك تزايدت أرجاسُهم السُّلوكيّة، مع أرجاسهم النفسيّة.

ولمّا كان بعضُ هؤلاء المنافقين قد ماتوا قبل نزول هذا النصّ، قال الله تعالى بشأن هؤلاء:

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

وقد وصفهم الله عزّ وجلّ بأنهم كافرون، لأنّ قناع النفاق يسقط عند الموت، ولا يبقىٰ للمنافق ساعة الموت إلّا الكفر.

وتعقيباً على موقف المنافقين تجاه ما ينزل تباعاً من سور القرآن، قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

واو العطف في ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ تعطف على محذوف مُقدّر، تقديره ألا يُفكّرون من خلال الأحداث التي تَمُرُّ عليهم ويَرَوْنَ أنهم يفتنون في كلّ عامٍ مرّةً أو مرّتين.

الاستفهام موجّه للدلالة على تَلْويمهم وتوبيخهم لأنهم لا يتفكّرون ولا يَرَوْن ولا يتعظون.

ويظهر لي ـ والله أعلم ـ أنّ المراد من فتنتهم في كلّ عامٍ مرّةً أو مرتين، ما كانوا يتعرّضون له من امتحانات كبيرة تكون لهم فيها مواقف تدلُّ على كفرهم ونفاقهم، ثمّ ينزل القرآن بكشف هذه المواقف، وفضحهم فيها، وموعظتهم، وتحذيرهم وإنذارهم وإطماعهم بالتوبة، ولو كانوا يُسِرُّونَ مواقفهم في نفوسهم ولا يصرّحون بها، أو يفعلون أفعالاً دالة على كفرهم ونفاقهم سرّاً فيما بينهم ولا يطلعون عليها أحداً من المؤمنين الصادقين.

ومُطَالِعُ هذه الدراسة القرآنية عن المنافقين يستطيع التقاط الأحداث الكبرى التي امتحنوا بها، وتَبَعْتَها البيانات القرآنية الواعظة والفاضحة والمحذّرة والمنذرة والمطمعة بالتوبة، وهذه الأحداث وما تبعها تكفي وحدها لإقناعهم بأنّ القرآن تنزيل من لدن عليم حكيم خبير، وأنّ محمّداً رسول الله حقّاً وصِدْقاً، لأنها تجاربهم الشخصيّة، وهم أعرف الناس بها، وبما كانوا يكتمون ويُسِرُّون، وبما جاء في القرآن من كشف ذلك، فالتجارب الشخصيّة ذوات أدلّة مباشرة تشبه الإدراك الحسّيّ، وهي من الأوّليات التي تُقامُ الأدلّة بها، ولاَ تُقامُ الأدلّة عليها.

وإذا وزعنا هذه الأحداث الكبرى التي اشتملت على فتنتهم، أي: على امتحانهم مع سقوطهم في الامتحان، ومع ما تبع ذلك من بيانات قرآنية، على المرحلة المدنية من حياة الرسول ﷺ، وجدناها في كلّ عامٍ مرّةً أو مرّتين، كما ذكر الله عزّ وجلّ.

إنّ هذه التجارب في وسائل اكتساب المعرفة التي تمحو الشكوك مهما كانت، كافيةٌ لإقناع أشدّ المتشككين، وأشدّ الناس استعصاء على أدلة الحقّ، إلّا المكابرين بالباطل والمعاندين الذين يرون الشمس في كبد السّماء ويجحدون وجود النهار في الموقع الذي هم فيه.

ومن عجيب أمرهم وشدّة تشبثهم بالباطل الذي هم فيه، أنهم يمرُّون بهذه التجارب، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ من كفرهم ونفاقِهِمْ، ولا هم يتذكّرون، أي: ولا هم يُثَبِّتُون في

ذاكرتهم المعاني التي دلّت عليها هذه التجارب، حتّىٰ يَكُونَ تراكُمُها ذا قوّة فاعلة في إقناعهم، وتحويلهم ــ عن طريق إراداتهم وحرصهم على نجاتهم وسعادة أنفسهم ــ من الكفر إلى الإيمان، ولو على سبيل التدرج شيئاً فشيئاً، لكنّهم لا يُوجّهون أفكارهم وأذهانهم لدلالات هذه التجارب حتّىٰ يحفظوها في ذاكرتهم، ويَتَذَكّروها من حين لآخر.

هذا البيان عن التذكّر يدلُّ على أنّ الذاكرة في الإنسان ذاتُ تأثير كبير في كيانه، فمن لم تكن لديه ذاكرة تستعيد المعارف والتجارب السابقة دواماً، كانت تصرّفاته استجابة لغرائزه وأهوائه وشهواته، ورُدُودَ أفعالٍ تلقائيّة للعوارض الطارئة، فهو كالأنعام بل هو أضلّ منها سبيلاً.

وأبان هذا الْعِقْد من السورة أنّ للمنافقين تُجاه ما ينزل من سُور القرآن سلوكاً آخر غير قول بعضهم: أَيُّكُمْ زادته هذه إيماناً؟

إنّه الانسلال من المجلس الذي تُتْلَىٰ فيه السورة الجديدة، بعد أن تتحادث عيونهم بعضها مع بعض، فهم يتخاطبون عن طريق عيونهم لا عن طريق ألسنتهم، ومضمون هذا الحديث عن طريق حركات العيون: هل يراكم من أحدٍ من المؤمنين إذا انصرفتم من المجلس؟ حتّى إذا شعروا بأنهم قادرون على أن ينسلوا واحداً بعد واحد انصرفوا حتى لا يسمعوا تلاوة السورة المنزّلة، ويبدو أنهم متفقون فيما بينهم على أن ينصرفوا من مجلس الرسول، كلّما نزلت عليه سورة جديدة وتلاها على أصحابه.

* فقال الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

المنافقون في مجالس المؤمنين لا يستطيعون غالباً أن يتحادثوا عن طريق ألسنتهم، خشية افتضاح أمرهم، أو إثارة الارتياب فيهم داخل قلوب المؤمنين، لذلك فهم يلجؤون إلى حديث العيون، والتخاطب الإشاريّ بحركاتها.

وبما أنّهم يعرف بعضهم بعضاً، إذْ لهم مجالس خاصة يتكاشفون فيها عن هوّياتهم، فمن الغالب أنّهم كانوا يتواصون فيما بينهم أنّه إذا أنزلت على الرسول ﷺ سورة جديدة فإنّ عليهم أن ينسلوا من مجلسه منصرفين، دون أن يشعر بهم أحد، ولكن عليهم أن يستوثقوا من أنه لا يراهم الرسول أو أحد من المؤمنين إذا انسلوا.

فإذا كانوا في مجلس الرسول وبدأ الرسول ﷺ يتلو على المسلمين ما نزل عليه من قرآن في سورة جديدة تحادثوا عن طريق حديث العيون بإشارات يتساءلون فيها: هل يراكم من أحد؟

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾:

أي: وبعد المحادثة فيما بينهم عن طريق حركات العيون التي ينظر بها بعضهم إلى بعض، لا ينصرفون بسرعة، بل يتريثون، لئلا يكتشف الفطناء أمرهم، فإذا اطمأنّوا وشعروا بأن أحداً لم يفطن إليهم انْصَرَفوا، كراهية أن يسمعوا السورة المنزلة، ولعل هذا بسبب خوفهم من أن تكون فيها آيات تتحدّث عن المنافقين، فيضطربوا عند سماعها، فيُعْرَفوا.

وجاء التعقيب القرآنيُّ على هذه الظاهرة من سلوك المنافقين، بقوله تعالى:

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

تجري السلسلة السببية في هذا الموضوع لدى المنافقين كما يلي:

(١) تبدأ بانحراف خلقيّ نفسي تسيطر عليهم فيه أهواؤهم وشهواتهم ومطالبهم من زينة الحياة الدنيا، مع التقاليد العمياء التي اتّبعوا فيها آباءهم وقومهم السابقين، وهذا من آثار استخدامهم لإراداتهم الحرّة غير المجبورة.

(٢) تنشغل ضمن سنن الله السببيّة ساحة تصوّرهم وتذكّرهم دواماً، بما هو مسيطر عليهم في داخلهم.

(٣) تتحرّك غرائزهم وعواطفهم بالعنصر الذي شغل أكبر مساحة من تصوّراتهم وتذكّراتهم الحاضرة المتحرّكة الفاعلة.

(٤) تتوجه إراداتهم الحرّة في داخلهم متأثرة بما تحرّك من غرائزهم وعواطفهم ومطالبهم من الدنيا، ومصدّرة أوامرها بالتنفيذ.

(٥) عندئذٍ تكون قواهم العملية مسخّرةً لما أرادوا تنفيذه.

(٦) فإذا جاء عارض من العوارض الفكرية يقتضي منهم أن يغيّروا مسيرة سلوكهم النفسيّ ويحوّلوا اتّجاههم إلى مطالب أخروية، لم يلتفتوا إليها ولم يفقهوا بياناتها، لأنّهم متشبثون بالظواهر لا يدركون بواطن الأمور ولا يفقهونها.

(٧) وإذا اضطرُّوا أن يجاروا ظاهراً بمشاركة جسديّة فإنّ قلوبهم تكون منصرفة بسبب انشغالها بما هو مسيطر عليهم في داخل نفوسهم.

ولمّا كان هذا الانصراف خاضعاً لسنن الله السببيّة في كونه، وتسخيراته للأسباب التي تكون بخلقه سبحانه، كان هو الذي صرف قلوبهم خَلْقاً، لكنّهم كانوا هم السبب في ذلك باستخدام إراداتهم الحرّة فيما سخّر الله لهم.

وقد جاء البيان القرآني بادئاً بهذه النتيجة، ومقروناً ببيان سبب حصولها الكائن منهم، ومن اختيارهم الحرّ، فقال تعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أنهم قومٌ لا يفقهون.

● ● ●

الْعِقْـدُ السَّابِـعُ

آخر توجيه من الله للناس
بالنسبة إلى الرسول محمد ﷺ
ومعه وصيّة من الله للرسول

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾:

أي: شديد عليه، وشاقٌّ عليه، يقال لغة: عزَّ الأمرُ عليه إذا اشتدّ وشقّ. ويقال: عزّ عليّ أن تفعل كذا، أي: اشتدّ عليّ ذلك وشقّ.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾:

أي: عَنَتُكم «ما» مصدرية فهي تؤول مع الفعل الذي بعدها بمصدر.

الْعَنَتُ: الشِّدَّةُ والمشقّة، يقال لغة: عَنِتَ فلانٌ إذا وقع في مَشَقَّةٍ وشِدّة.

فالمعنى: شاقٌّ عليه ما يَشُقُّ عليكم، وشديدٌ عليه ما هو شديدٌ عليكم، لأنّه من أنفسكم، يشارككم مشاعركم وأحاسيسكم.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾:

الحرص على الشيء شدّة الرّغبة فيه. والحرصُ على الأهل أو العشيرة أو القوم

أو الأمة الإشفاقُ عليهم، والاجتهاد في نصحهم وتحقيق ما ينفعهم ويدفع الضرّ والأذى عنهم.

أي: فهو يشفق عليكم ويَبْذُل غاية جَهْدِه في نصحكم وتحقيق ما ينفعكم ويدفع الضرّ والأذى عنكم.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾:

قرأ أبو عمرو، ويعقوب، وحمزة، والكسائي، وخلف، وشُعْبَةُ عن عاصم [رَؤُفٌ] بقصر الهمزة. وقرأ باقي القراء العشرة [رَؤُوف] بمدّ الهمزة، والمدّ والقصر لغتان عربيتان متكافئتان، فرؤوف على وزن فَعُول، ورَؤُف على وزن فَعُل.

قال أهل اللّغة: الرأفة أخصّ من عموم الرحمة وأرقّ. وقال صاحب الصحاح الجوهري: الرأفة أشدّ الرحمة. يقال لغة: رَأَف بِه يَرْأَفُ رأْفَةً، وَرَئِفَ به يَرْأَفُ رَأْفاً، ورَؤُف به يَرْؤُفُ رَأْفَةً.

وصيغة «رؤوف» من صيغ المبالغة، أي: هو ذو رأفة عظيمة.

﴿رَّحِيمٌ﴾:

أي: وهو بالمؤمنين رَحِيم، وصيغة «رحيم» من صيغ المبالغة، أي: وهو ذو رحمة عظيمة.

وقد وصف الله رسوله محمّداً بصفتي الرأفة والرحمة كما وصف بهما نفسه، وجمع بين الوصفين الأخصّ والأعم للدلالة على أنّ من تتطلب الحكمة الرأفة به رأف به، ومن تتطلب الحكمة أن يشمله بعموم رحمته رَحِمَه.

الرحمة: هي في المخلوقات عاطفةٌ تستلزم المشاركةَ فيما يَسُرُّ المرحومَ وفيما يؤلمه، ومُسَاعَدَتَه بما يحتاج إليه لمسرّته، ولدفع السوء والضرّ عنه، وفي الخالق صفة تليق بجلاله سبحانه، من آثارها المعونة والمساعدة، ورفع الضرّ والأذى، والإنعام والإكرام، وكذلك الرأفة.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

معمول لـ ﴿رؤوف رحيم﴾ مقدّم عليهما لإفادة تخصيص رأفته ورحمته بهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾:

أي: فإنْ أدبَرُوا عن الاستجابة لنداء رسالتك التي أرسلك الله بها، وابتدعوا منصرفين متبعين غير سبيلك.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾:

أي: فقل: يكفيني رضا الله عني، على ما قمت به من واجبٍ كلّفني إيّاه، ويكفيني الله بمعونته وتأييده ونصره في أمري كلّه.

لفظ «حَسْب» اسم بمعنى «كافٍ» ويأتي «اسم فعل مضارع» بمعنى «يكفي» فيقال: حَسْبُكَ من شرٍّ سماعُه، أي: يكفيك أن تسمعه لتشمئزّ منه، ويأتي «اسْمَ فعلِ أمرٍ» بمعنى «اكْتَفِ» فيقال: حَسْبُكَ هذا، أي: اكتفِ به.

* * *

التدبُّر

* في الآية الأولى من هذا النص يصف الله محمّداً للناس أجمعين بِسَبْع صفات، وهي آخر ما نزل من قرآن بشأنه.

إنّ الله يبيّن للناس مؤكداً بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ اللام ابتدائية للتأكيد، أو هي لام القسم وهي تفيد تأكيد الجملة بعدها، و «قَدْ» حرف تحقيق لتأكيد مضمون الجملة بعده.

والمؤكَّدُ مضمون كلّ الجملة التي اشتملت على كل صفات محمّد ﷺ الواردة في الآية:

الصفة الأولى:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾:

أي: ليس محمّد مجرّد إنسان بشر ظهر بينكم كسائر الناس، بل هو موجّه لكم، وقد جاءكم بما هو موجَّهٌ لكم به، فهو ذو صفة ثانية:

الصفة الثانية: أنّه:

﴿رَسُولٌ﴾:

أي: هو حامل رسالة من ربكم إليكم، ولا يكون الرسول رسولاً من ربّ العالمين، حتى يكون نَبِيّاً، من الذين اصطفاهم الله بالنبوّة، فأوحى إليهم، فهو نبيٌّ رسولٌ.

وكلمة «رسُول» تغني عن كلمة «نبيّ» لأنّ الرسول في دين الله للناس هو نبيٌّ كُلِّف أن يحمل رسالةً يبلّغها لأمّته.

وهذا الرسول هو كسائر الرسل، ليس ذا طبيعة مخالفة لطبيعتكم البشرية، بل هو ذو صفة ثالثة:

الصفة الثالثة: هي أنّه:

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

أي: من نوع أنفسكم المشتقة من نفس واحدة.

إنكم جميعاً مخلوقون من نفس واحدة، هي نفس آدم، وحوّاء زوجته هي أيضاً من نفسه، لأنّ الله خلقها منه، وخلق من نفسيهما جميع أنفسكم، ومحمّد هو واحد من هذه الأنفس.

إنّ طبيعة نفس محمد ليست من طبيعة أنفس الملائكة، ولا من طبيعة أنفس الجنّ، بل من أنفسكم أنتم، فكلّ خصائص البشر فيه، عواطفه من عواطفكم، ومشاعره من مشاعركم، فلا تحجُبُ نفسه عنكم جفوة اختلاف الطبيعة، واختلاف خصائص النفس.

وبما أنّه يشعر بالعنت إذا مسّته مشقة، أو نزل به مكروه، فإنّه ذو صفة رابعة:

الصفة الرابعة: هي أنّه:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾:

أي: شديدٌ عليه وشاقٌ على نفسه كُلُّ ما هو شديدٌ عليكم وشاقٌ على نفوسكم، إذْ هو من وحدة أنفسكم يؤلمه ما يؤلمكم، ويَشُقُّ عليه ما يَشُقُّ عليكم، فكيف تكون

حالة نفسه بالنسبة إلى ما يَعْلَمُ أنَّه يُنْزِل بكم آلاماً وعذاباً، لذلك فإنَّه يؤلمه أن تكفروا، وأن تعرّضوا أنفسكم للخلود في عذاب النار، ويؤلمه أن تَعْصُوا ربَّكُمْ فيمسَّكُمْ بذلك عنت العقاب من بارئكم.

وهو يشعر أيضاً أنكم بمثابة أهله وأبنائه وأسرته الخاصة، لذلك فإنّه ذو صفة خامسة.

الصفة الخامسة: هي أنه:

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾:

أي: مستمسكٌ بكم، يُشْفِقُ عليكم كما يشفق أحدكم على أهله وقرابته، ويجتهد في نصحكم وتحقيق ما ينفعكم ويدفع الضرَّ والأذى عنكم غاية الاجتهاد، ويخشىٰ عليكم أن تجتالكم الشياطين، وتسوقكم أو تقودكم إلىٰ شقائكم بإغرائكم وإغوائكم حتّى تسقطوا في مساخط ربكم.

هذا حاله بالنسبة إلى عموم شركائه في وحدة الأنفس البشرية، المخلوقة من نفس واحدة.

أمّا حاله بالنسبة إلى الذين استجابوا لدعوته فآمنوا، فإنّه ذو صفتين زائدتين على ما سبق، صفة سادسة، وصفة سابعة:

الصفتان السادسة والسابعة: هما أنه:

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

أي: هو شديد الرأفة بالمؤمنين، عظيم الرحمة بهم.

ولمّا كانت الرأفة أخصّ وأرقّ من عموم الرحمة، فإنّه ﷺ كان إذا رأىٰ حال بعض المؤمنين تتطلّب منه خصوص الرأفة كان به رؤوفاً، وكان إذا رأى حال بعض المؤمنين يكفيه منه عموم الرحمة كان به رحيماً.

ومن آثار ذلك في سنّته أنّه كان لا يُحبُّ أن يَشُقَّ على أُمَّتِهِ في التكاليف، حتى لا يكون في ذلك إحراجٌ لهم يدفعهم إلى الوقوع في المخالفة، والتعرّض للعقوبة، فمن أقواله ﷺ: «دَعُوني ما تركتكم».

روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُؤَالُهُمْ واخْتِلاَفُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

وفي رواية عند مسلم عن أبي هريرة قال: خَطَبنا رسول الله ﷺ فقال:

«يَا أَيُّها النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا».

فقال رَجلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ حَتَّىٰ قَالَهَا ثَلاثاً، فقال رَسُول الله ﷺ:

«لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ».

ثُمَّ قال:

«ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ. . .» إلى آخر الحديث السابق.

* وفي الآية الثانية من هذا النصّ توجيه وصيّةٍ من الله لرسوله بشأن الذين أبوا أن يستجيبوا لدعوته، ويؤمنوا به وبما جاءهم به عن ربّه، بل تَوَلَّوْا مدبرين مبتعدين، سالكين مسالِكَ مباينة لصراطه المستقيم.

وهذه الوصية تشتمل على تكليفه أن يُرَدِّد ذكراً مؤلّفاً من أربع جُمَلٍ:

الجملة الأولى:

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾:

أي: أكتفي برضا الله ومعونته، لأنه كافٍ من اكْتَفَىٰ به، فأنا أدعوه أن يكون حَسْبِي.

الجملة الثانية:

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

أي: لا معبود بحقٍّ في الوجود كلّه إلّا هو، فأنا لا أعْبُدُ غَيْرَه، لذلك فأنا أدعُوهُ مسائلاً متضرّعاً، ولا أدعو معه أحداً.

الجملة الثالثة:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

أي: عليه وحده توكَّلْتُ في أمري كلّه، حفظاً ومعونة وتوفيقاً للخيرات، إلى غير ذلك من شؤوني العاجلة والآجلة.

الجملة الرابعة:

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

أي: وهو وَحْدَهُ ربُّ العرش العظيم، المحيط بالسماوات والأرض وما فيهنّ، فهو ربّي وربُّ كُلِّ شيء، أي: هو الموجد لكل شيء، والممدّ له بالبقاء، والمتصرف بكلّ ما يجري فيه من حركة وسكنة وتغيّرات.

هذه الجمل الأربع هي ذكر ودعاء منبعثان من جوهر القاعدة الإيمانية، بالله وصفاته العظمى، ويمنح الله بها الذاكر خيراً عظيماً، ويفيض في قلبه الراحة والطّمأنينة، وينفحه بها بنسمات السعادة، مع ما يقضي له من أمور في الحياة ترضيه، ويدخّر له للآخرة من الخيرات الحسان، ما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وانتهى تدبر النص بعون الله وتوفيقه

● ● ●

القسم الثالث

المنافقون وصور من خبائثهم في التاريخ

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل : مُنافقون قبل بعثة محمد ﷺ.

الفصل الثاني : المنافقون في عصر الرسول ﷺ وخبائثهم.

الفصل الثالث : منافقون عبر تاريخ المسلمين بعد عصر الرسول ﷺ.

الفصل الأول

منافقون قبل بعثة محمد ﷺ

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى : إبليس أوّل المنافقين.

المقولة الثانية : المنافق اليهودي بولس «= شاول قبل أن يتنصّر» وتحريفه الديانة النصرانيّة.

المقولة الأولى

إبليس أول المنافقين

دلَّت النصوص القرآنيّة على أنّ إبليس عليه لعنة اللّهِ عزّ وجلَّ قد كـان أوّل مُنافقٍ فيما كُشِفَ لنَا منْ تاريخ الخليقة.

لقد كان إبليس من الجن المخلوقين من مـارج من نار، بـطبيعة ذات إرادة حـرّة قابلة للطاعة والمعصية، وذات أهواء وشهواتٍ ونفسٍ نزّاعةٍ لفعل الخيـر ولفعل الشـرّ، ولم يكن من الملائكة المخلوقين من نورٍ بطبيعةٍ مطيعـة للباري عـزّ وجلّ بـالفطرة التي فطرهم الله عليها، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

دلّ على هـذه الحقيقة قـول الله عزّ وجـلّ في سـورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ . . . ﴿٥٠﴾﴾.

وأبّان الله لنا أنّ الجنّ مخْلوقون من مارجٍ من نارٍ، أي: من أخلاطٍ ناريّة، وهذه الأخلاط الناريّة ترجع إلى أصل العناصر التي تـوقّدَتْ منْها النّارُ، كـالحديـد والنحاس والحجـر والعنـاصر النبـاتيّـة، وغيـر ذلـك، فقـال تعـالى في سـورة (الـرحمن/٥٥ مصحف/٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿الْجانّ﴾: هُو أبو الْجنّ كما قال المفسّرون.

وحين احتجّ إبليسُ لرَفضـه السـجود لآدَمَ احْتـجَّ بأنـه مَخْلوقٌ بن نـارٍ، الّتي هي

بحسب زعمه أشرف عنصراً من الطين الذي خلَقَ الله منه آدم، فقال لربه كما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

أمّا الْمَلائكةُ فهم مخلوقون من نور، فقد روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها، أنّ رسُولَ الله ﷺ قال:

«خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

فالجنّ نوع من العالمين، سُمُّوا جنّاً لاستتارِهم عن أبصار الناس.

ويلتقي الجنّ مع نوع الملائكة الذين هم نوعٌ آخرُ من العالمين، غير نوع الجن، وغير نوع الإنس، بعدّة صفات، منها ما يلي:

(١) أنّ أجسامهم غير ذات كثافة أرضيّة، فليسوا كأجسام الأحياءِ المخلوقات من تراب وماءٍ، والتي تنجذب بسببها إلَىٰ كتلة الأرض.

(٢) أنّ أجسامَهم قادرة على التشكُّل بأشكال الأحياء المخلوقة من الطين.

(٣) أنّه قد كان باستطاعة الجنّيّ أن ينْدسّ بمقتضى طبيعته في نوع من الملائكة، ويصْعَد السّماء مثل صعودهم، ويَعْمَل مثل أعمالهم، مع الاختلاف في أصل تكوينه، وفي صفاته النفسيّة، بدليل وجود إبليس ضمن الملائكة الذين أُمروا بالسجود لآدم وهو من الجن.

وبسبب عناصر التشابه هذه استطاع إبليس أن يندسّ في صفوف الملائكة، ويشاركهم في عباداتهم، ويتحلّىٰ بصفات أهل الملأ الأعلى منهم، اعتقاداً منْهُ أنّه سيستعْلِي بذلك إلَىٰ نوع الملائكة المخلوقين من عنصر النور، الذي هو في تقديره أشرف من عنصر النار، وكان بمقتضىٰ طبيعته طامعاً في أن ينَالَ بَيْنَ الملائكة المقام الأسْمَىٰ، وهو يعْلَمُ أنّ طبيعتَهُ مختلفة عَنْ طبيعة الملائكة الّذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وكان إبليس يؤمن بالله رَبّاً خالقاً مُمِدّاً بكلّ عطاءاتِ الربوبيّة، لكنّه كان كافراً غير مؤمنٍ بتوحيد الإلٰهيّةِ لِلّٰهِ عزّ وجل، وكفْرُهُ هو من قبيل كُفْرِ الشِّرْكِ، إذْ كان يعتقِد بتأْثير العناصر التي يتكوّن منها المخلوق، ويعتقد بتفاضُلِ العناصر تفاضُلاً ذاتيّاً، وقد جرّه هذا الاعتقاد إلى الكُفْرِ بحقّ اللّٰهِ عزّ وجلّ في أن يُكلّف مَنْ خَلَقَ تكليفاً مُنافياً لِمَا يقتضيه التفاضُل العنصري.

وبما أنّه كان مُنْدَسّاً في صفوف الملائكة المكرّمين، ونزّاعاً بعوامل كِبْرٍ في نفسه إلى مراتب المقرّبين من أهل الملأ الأعْلىٰ من الملائكة، فقد شاء الله عزّ وجلّ أن يكشف ما في نفسه بالابتلاء، فيضعه موضع الامتحان، من خلال عقدة الكِبْرِ والكُفْرِ التي في نفسه.

فلمّا توجّه الأمر للملائكة بالسجود لآدم الذي خلقه اللّٰهُ من طين، وكان إبليس مندسّاً فيهم، ومعتبراً نفسه واحداً منهم، وقد شمله التكليف بمقتضىٰ إلحاقه نفسه بالملائكة، وانتمائه إليهم، نزعَتْ نفسه بدافع الكِبْرِ والكُفْرِ بحقّ الله عزّ وجلّ في إلٰهيّته، الّتي منها طاعته في أوامره ونواهيه، فأبىٰ أن يطيع أمْرَ ربّه واستكبر عن أن يسجد لآدم سجود احترامٍ له وطاعةٍ لله عزّ وجلّ.

وعقد الله له عدّة جلساتٍ لمحاكمته، عسىٰ أن يتراجع عن كبره وكفره بحقّ الرّبّ الخالق في أن يكون هو الإلٰه المعبود وحده، بلا شريكٍ ولا شكٍّ في حكمته، ولا اعتراضٍ على تكليفٍ ما من تكليفاته بأوامره ونواهيه.

وفي كلّ مرّةٍ كان يُصِرُّ علىٰ أنّ عنصره الناريَّ خير من عُنْصُرِ آدم الطّيني، وفي هذا الإصرار تَشَبُّثٌ بادّعاء أفضليّة عُنْصُر النار على عنصر الطّين، مع أنّ العناصر كلّها من خلق الله، وادّعاء إبليس مبنيٌّ على وهم باطلٍ، جرّهُ إليه الاغترار بالظّواهر، والإعْراضُ عن حقّ الرّبّ في وجوب طاعةِ أمْرِهِ ولو أمَرَهُ بأن يَسْجُدَ لجمادٍ، لأنّ السُّجُودَ لأمْرِ الله، لا لعبادة المسجود له من دون الله.

فالامتحان الرّبّاني كشف أنّ إبليس كان من الكافرين بتوحيد الإلٰهيّة لله عزّ وجلّ، وبحقّ الله الربّ الخالق في الطاعة، وكان من المشركين الذين يجعلون

العناصر الكونيّة ذات خصائص ذاتيّة تستدعي حقوقاً مقدَّمة على حقّ الله عزّ وجلّ في طاعته.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ إبليس كان من الكافرين، أي: من كَفَرَةِ الجنّ، قبل أن يأمُرَهُ الله بالسجود لآدم، فقال تعالى في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

طَرَد الله إبليس من منازل أهل الملأ الأعلى من الملائكة، ولعَنَهُ لعناً إلى يوم الدّين، عقوبةً معجّلةً له، قبل العقوبة المؤجلة في جهنّم يوم الدين، وأدخل آدم وزوجه الجنّة إدْخال امتحانٍ وابتلاء، لا إدْخالَ جزاء وبقاء، وفي ابتلائهما نهاهما الله عن أن يأكُلا من شجَرَةٍ عيَّنها الله لهما، فإنْ أكلا منها عَصَيَا وعاقبهما بالإخراج من الجنّة، وأهبطهما إلى الأرض، ليقاسيا رحلة الابتلاء عليها، هما وذرّيّاتهما، فمن آمن وصَلَحَ كوفِئَ بالدخول إلى دار النعيم الجنّة دخول جزاء وخلود، ومن كفر وأبَى أن يستجيب لأوامر الله ونواهيه، وجحد حقّ الله عليه كان من أصحاب العذاب الخالد في دار العذاب، المقابلة لدار النعيم، دخول جزاءٍ وخلود، ومن آمن وعصى استحق من العذاب بمقدار معاصيه.

وحذّر الله آدم وزوجه من إبليس ووساوسه ودسائسه، وأبان لهما أنّه لهما عدوٌّ مبين، وأبان لهما أنّه سيسعى لإغوائهما وإغرائهما بمعصية الله، بغية إخراجهما من الجنة.

وحمل إبليس في نفسه العداوة الشديدة لآدم وزوجه وذُرِّيَاتهما، وامتلأتْ نفسه حقداً عليهما، وقرَّر أن يَسْعَىٰ جَهْدَه لإغوائهما، حتى يعصيا رَبَّهما، فيخرجهما الله من الجنَّة، وأنْ يسْعَىٰ بعد ذٰلِكَ هُوَ وجُنُودُه لإغواء ذُرِّيَّاتِهِ حتَّىٰ يكونوا من أهل النار.

ومكَّنَهُ الله من الوسوسة والتسويل، ولم يَجْعلْ له سلطاناً على إرادات الناس، ولا قدراتٍ جبريّة، وكان التمكين من الوسوسة لإيجاد التوازن في ابتلاء الإرادات الحرّة.

وسَبَر إبليسُ ما يمكنه من حِيَلٍ يتخذها للإغراء والإغواء، فوجد وسيلة النفاق هي السّلاح الأقوى، فقرَّر أن يركب مركب النفاق.

فلبس قناع الناصح الأمين، وأخذ يغري آدم وزوجه بأَنْ يَأْكُلا مِنَ الشجرة التي نهاهما الله عن أن يأكلا منها في الجنّة واستثار فيهما الرغبة في أن يكونا ملَكَيْن نورانيَّيْن، أو يكونا في الجنّة من الخالدين، وقال لهما: ما نهاكما رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ، إلاَّ أَنْ تكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تكونا مِنَ الْخَالِدِين، وأقْسَمَ لَهُما بالأيمان المغلّظة أنَّهُ لَهُمَا لمن الناصحين، وما زال يُدَلِّيها إلى بئر المعصية بتغرير قَدْراً فقدراً، حتّىٰ جعلهما يأكلان من الشجرة المحرّمة، فكان السبب في إخراجهما من الجنّة.

ولمّا حاكمهما الله على معصيتهما اعترفا بالذنب، وسألاه المغفرة والرّحمة.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ومَهَرَ إبليسُ أسْلُوبَ النِّفاق، فسعَى هُوَ وَجُنُودُهُ لابِسِينَ أقنعة النِّفاق لإغْرَاءِ وإغْواءِ بَنِي آدم، بُغْيَةَ صَدِّهم وإبْعَادِهم عن صِرَاط الله المستقيم، عـداوةً وكيداً، حتَّى يكـونوا مِنْ أهْلِ النار.

وجنود إبليس هم شياطين الجنّ والإنس، وكان النفاق أخـطر الطرق التي عـرفها الخلق في عالم الأحياء ذوي الإرادات الحرّة، وهو أسلوب الشيـاطين الأعظم لـلإفساد والتضليل والإغواء.



المقولة الثانية

المنافق اليهودي بولس
«شاول ــ قبل أن يتنصّر»
وتحريفه الديانة النصرانية

من الذين احتلُّوا مركزاً قياديّاً خطيراً في الديانة النصرانية رجل اسمه «بولس» وكان اسمه قبل أن يتنصّر «شاول».

إنّ قصّته في النصرانية قصّةٌ عجيبة غريبة، فهو صاحب الشأن الخطير في تحريف الديانة النصرانية عن أصولها الربّانيّة الصحيحة الّتي أنزلها الله على عيسى عليه السلام.

كان في أوّل عهده من كبار أعداء النصارى الذين آمنوا بعيسىٰ وصدّقوه واتّبعوه، حتّىٰ كان من أشدّ من أنزل بهم ألواناً من الاضطهاد والقتل والتعذيب، بسلطان الدولة الرومانية التي كان يعمل فيها، وسلطان كبار الكهنة من اليهود في أورُشليم.

فقد جاء في رسالته إلى أهل غلاطيَّة (الإصحاح الأول) ما يلي:

[(١٣) فَإنَّكُمْ سَمِعْتُمْ بِسِيرَتي قبلاً في الدّيانَة اليهودية أنّي كُنْتُ أضْطَهِدُ كَنِيسَةَ الله بإفراطٍ وأُتْلِفُهَا (١٤) وكُنْتُ أتَقَدَّمُ في الدّيانة اليهودية علىٰ كثيرين من أترابي في جِنْسِي إذْ كُنْتُ أوْفَرَ غَيْرَةً فِي تَقْلِيدَاتِ آبائي].

وجاء في الإصحاح الثامن من أعمال الرسل ما يلي:

[(١) وحَدَثَ في ذَلِكَ اليَوْمِ اضْطِهَادٌ عَظِيمٌ عَلَى الْكَنِيسَةِ الّتي في أورُشَلِيمَ فَتَشَتَّتَ الْجميعُ في كُوَرِ الْيَهُودِيَّةِ والسَّامِرَةِ مَا عَدا الرُّسُلَ (٢) وحَمَلَ رِجَالٌ أتْقِيَاءُ إسْتِفَانُوسَ وَعَمِلُوا عَلَيْهِ مَنَاحَةً عَظِيمَةً (٣) وَأمّا شَاوُلُ فَكَانَ يَسْطُو عَلَى الكَنِيسَةِ وهُوَ يَدْخُلُ الْبُيُوتَ ويَجُرُّ رِجالاً ونِساءً ويُسَلِّمُهُمْ إلَى السِّجْنِ].

وجاء في الإصحاح السادس والعشرين منه ما يلي حكايةً عنه:

[(٩) فأنا ارْتأَيْتُ في نَفْسِي أنه يَنْبغي أنْ أصْنَعَ أموراً كثيرةً مُضادَّةً لاسم يَسُوعَ النَّاصِرِيّ (١٠) وفعلتُ ذلك أيضاً في أورُشَلِيم فَحَبَسْتُ في سُجُونٍ كثيرين من القِدّيسِينَ آخذاً السُّلْطَانَ مِنْ قِبَلِ رُؤساء الْكَهَنَةِ. ولمّا كانوا يُقْتَلُونَ أَلْقَيْتُ قُرْعَةً بِذَلِكَ (١١) وفي كُلِّ المجامع كنتُ أُعاقِبُهُمْ مِرَاراً كثيرةً وأضطرهم إلى التجديف. وإذْ أفْرطَ حَنَقِي عَلَيْهِمْ كُنْتُ أطْرُدُهم إلى المدنِ التي في الخارج].

وكان «بولس = شاول» يهوديّاً طرطوسيّاً من الفرّيسيِّين وهو لم يَرَ عيسى عليه السّلام، ولا سمعه يدعو النّاسَ ويُبَشِّر بدين الله، مع أنّه قد أدرك زمانه.

وكان يحمل الرعويّة (= الجنسية) الرومانية، إذْ كان مولوداً فيها، في حين أن اكتسابها كان صَعْباً، وكان يَبْذُلُ طالبو اكتسابها أموالاً كثيرة للحصول عليها، واستفاد من هذه الرّعويّة واستَغلَّها في التّسلّط وفي حماية نفسه، من خصومه في اليهوديّة طائفةِ «الصَّدُّوقِيِّين»[(١)] المعارضة لطائفة «الفرّيسيِّين»[(٢)].

جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من أعمال الرسل في معرض الحديث عن بولس ما يلي:

---

(١) الصَّدُّوقِيّون: طائفة يهودية متلاشية الآن. كانت لا تؤمن بقيامة الأموات من القبور. ولا تؤمن بالحياة الأبدية للبشر بأفرادهم وأشخاصهم كما كانوا في الدنيا. وترفض الثواب والعقاب في الآخرة. وتنكر وجود الملائكة والشياطين. وتنكر القضاء والقدر وكتابة أعمال الناس في اللّوح المحفوظ قبل وقوعها. وتعتقد أنّ الإنسان خالق أفعال نفسه. وتؤمن بقدسية العهد القديم ولا تؤمن بالتلمود. وكانوا يقولون: إنّ عزيراً ابن الله. وكان الصدّوقيون موجودين في اليمن قبل الإسلام.

(٢) الفرّيسيّون: هم إحدى طائفتين دينيّتَيْن كبيرتين لليهود، كانتا ذواتي شأنٍ في العهد المسيحيّ الأول، وقد ظهر الفرّيسيّون بعد أن استطاعت أُسْرة المكابيّين تخليص الشعب اليهودي من طبقات السلوقيين. وامتاز الفرّيسيون بحرصهم الشديد على التعاليم اليهودية شفوية كانت أو مكتوبة، وبحرصهم على تخليص هذه التعاليم من الشوائب والبدع الدخيلة، فأحدثوا حركة فكرية كان لها أثرها في حياة الشعب اليهودي عامّة، وفي نزعته الدينية بوجه خاص.

[(٢٥) فَلَمَّا مَدُّوهُ لِلسِّيَاطِ قَالَ بُولُسُ لِقَائِدِ الْمِئَةِ الْوَاقِفِ أَيَجُوزُ لَكُمْ أَنْ تَجْلِدُوا إِنْسَاناً رُومَانِيّاً غَيْرَ مَقْضِيٍّ عَلَيْهِ (٢٦) فَإِذْ سَمِعَ قَائِدُ الْمِئَةِ ذَهَبَ إِلَى الأَمِيرِ وَأَخْبَرَهُ قَائِلاً: أُنْظُرْ مَاذَا أَنْتَ مُزْمِعٌ أَنْ تَفْعَلَ. لأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ رُومَانِيٌّ (٢٧) فَجَاءَ الأَمِيرُ وَقَالَ لَهُ: قُلْ لِي أَنْتَ رُومَانِيٌّ. فَقَالَ نَعَم (٢٨) فَأَجَابَ الأَمِيرُ أَمَّا أَنَا فَبِمَبْلَغٍ كَبِيرٍ اقْتَنَيْتُ هَذِهِ الرَّعَوِيَّةَ. فَقَالَ بُولُسُ أَمَّا أَنَا فَقَدْ وُلِدْتُ فِيهَا (٢٩) وَلِلْوَقْتِ تَنَحَّى عَنْهُ الَّذِينَ كَانُوا مُزْمِعِينَ أَنْ يَفْحَصُوهُ وَاخْتَشَى الأَمِيرُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ رُومَانِيٌّ وَلأَنَّهُ قَدْ قَيَّدَهُ.

(٣٠) وَفِي الْغَدِ إِذْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ الْيَقِينَ لِمَاذَا يَشْتَكِي الْيَهُودُ عَلَيْهِ حَلَّهُ مِنَ الرِّبَاطِ وَأَمَرَ أَنْ يَحْضُرَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَكُلُّ مَجْمَعِهِمْ فَأَحْذَ بُولُسَ وَأَقَامَهُ لَدَيْهِمْ].

الإصحاح الثالث والعشرون

[(١) فَتَفَرَّسَ بُولُسُ فِي الْمَجْمَعِ وَقَالَ أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ إِنِّي بِكُلِّ ضَمِيرٍ صَالِحٍ قَدْ عِشْتُ لِلَّهِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ (٢) فَأَمَرَ حَنَانِيَّا رَئِيسُ الْكَهَنَةِ الْوَاقِفِينَ عِنْدَهُ أَنْ يَضْرِبُوهُ عَلَى فَمِهِ (٣) حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ بُولُسُ سَيَضْرِبُكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْحَائِطُ الْمُبَيَّضُ. أَفَأَنْتَ جَالِسٌ تَحْكُمُ عَلَيَّ حَسَبَ النَّامُوسِ وَأَنْتَ تَأْمُرُ بِضَرْبِي مُخَالِفاً لِلنَّامُوسِ (٤) فَقَالَ الْوَاقِفُونَ أَتَشْتُمُ رَئِيسَ كَهَنَةِ اللَّهِ (٥) فَقَالَ بُولُسُ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّهُ رَئِيسُ كَهَنَةٍ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ رَئِيسُ شَعْبِكَ لاَ تَقُلْ فِيهِ سُوءاً.

(٦) وَلَمَّا عَلِمَ بُولُسُ أَنَّ قِسْماً مِنْهُمْ صَدُّوقِيُّونَ وَالآخَرَ فَرِّيسِيُّونَ صَرَخَ فِي الْمَجْمَعِ أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ أَنَا فَرِّيسِيٌّ ابْنُ فَرِّيسِيٍّ. عَلَى رَجَاءِ قِيَامَةِ الأَمْوَاتِ أَنَا أُحَاكَمُ (٧) وَلَمَّا قَالَ هَذَا حَدَثَتْ مُنَازَعَةٌ بَيْنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ وَانْشَقَّتِ الْجَمَاعَةُ (٨) لأَنَّ الصَّدُّوقِيِّينَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَيْسَ قِيَامَةٌ وَلاَ مَلاَكٌ وَلاَ رُوحٌ. وَأَمَّا الْفَرِّيسِيُّونَ فَيُقِرُّونَ بِكُلِّ ذَلِكَ (٩) فَحَدَثَ صِيَاحٌ عَظِيمٌ وَنَهَضَ كَتَبَةُ قِسْمِ الْفَرِّيسِيِّينَ وَطَفِقُوا يُخَاصِمُونَ قَائِلِينَ لَسْنَا نَجِدُ شَيْئاً رَدِيّاً فِي هَذَا الإِنْسَانِ. وَإِنْ كَانَ رُوحٌ أَوْ مَلاَكٌ قَدْ كَلَّمَهُ فَلاَ نُحَارِبَنَّ اللهَ].

* * *

قِصَّةُ دُخولِهِ في النصرانيّة

(١) قال ابن حزم في كتابه (الفِصَل) في مَعْرِض الحديث عن أحبار اليهود:

«وفيما سَمِعْنَا عُلَمَاءَهُمْ يَذْكُرُونَهُ وَلاَ يَتَنَاكَرُونَهُ مَعْنىً، أَنَّ أحْبَارَهُمُ الَّذين أَخَذُوا عنْهُم دِينَهُمْ والتوراةَ وكُتُب الأنبياء علَيْهمُ السلام اتَّفَقُوا على أنْ رَشَوْا بُولُس الْبَنْيامِيني ـ لعنه الله ـ وأمَرُوهُ بإظهار دين عيسَىٰ عليه السلام، وأنْ يُضِلَّ أتْبَاعَهُ، ويُدْخِلَهُمْ إلَىٰ الْقَوْلِ بإلٰهيّتِهِ، وقالوا له: نَحْنُ نتحمَّلُ إثْمَكَ فِي هٰذا، وبَلَغَ من ذلِكَ حَيْثُ قَدْ ظَهَرَ»[1].

(٢) من الثابت لدى النصارىٰ وكلّ الباحثين أنه بعد أنْ رفع الله عيسى عليه السَّلامُ إليه بمدّةٍ من الزمن أعْلَنَ «بولُس = شاوُل» دخولَهُ فِي النصرانيّة بشكلٍ مُفَاجىءٍ، وأحاط دخولَهُ فيها بادّعاءاتٍ غريبةٍ جَرَتْ له، ومُشاهداتٍ رُوحيَّةٍ خاصَّةٍ، ادّعَىٰ فيها أنّ يَسُوعَ هبطَ علَيْهِ بنُورِهِ الْبَاهِرِ، عِنْدَمَا كَانَ قَادِماً إلَىٰ دِمَشْقَ وقَرِيباً مِنْهَا، وقَالَ له: لِمَاذا تضطهدُني؟.

فقال له «بُولُس = شاول» وهُوَ مُرْتَعِدٌ وَمُتَحَيِّرٌ: يَا رَبُّ مَاذَا تُرِيدُ أنْ أَفْعَلَ؟

فقال له: «قُمْ، وادْخُلِ الْمَدِينَةَ فَيُقَالُ لَكَ مَاذَا يَنْبَغِي أنْ تَفْعَلَ».

وبَعْدَ أنْ قادَهُ رِفاقُهُ إلَىٰ دِمَشْقَ واسْتَقَرَّ فيها، أَتَاهُ حَنَانِيَا، وكَانَ هٰذا رَجُلاً مَشْهُوداً لَهُ بالتَّقْوَىٰ مِنْ جَمِيعِ الْيَهُودِ السُّكَّانِ كَمَا يَذْكُرُ «بولُس» فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ قَدِ اخْتَارَهُ لِيُعَلِّمَ الدِّينَ ويُكَرِّزَ بالْمَسِيحيَّة، أي: يعِظَ بها، ويَدْعُوَ النَّاسَ إليها.

ويُلاحَظُ أنَّ حَنَانِيَا هٰذا رَجُلٌ يَهُودِيٌّ، فَرَبْطُ مَا زَعَمَهُ «بولس» مِنْ مشاهداتٍ رُوحيَّةٍ بتَعْلِيمَاتٍ يُوجّهُها لَهُ حَنَانِيَا الحبْرُ اليهودي يُشْعِرُ بأنَّ قصّتَهُ مُؤَامَرَةٌ يَهُودِيَّةٌ مُدَبَّرَةٌ، كما ذَكَرَ ابن حزم، فَعُلَمَاءُ يَهُودِ الأندَلُسِ يَعْرِفونها وَيَتَدَاوَلُونَهَا فيما بيْنَهم، ويَذْكُرُونَ أنَّ قُدَمَاءَ أحْبَارِهِمْ هُمُ الَّذِينَ رَشَوْا «بولس = شاوُل» لِكَيْ يدخُلَ في النصرانيّة، ويُفْسِدَ

---

(١) انظر كتاب «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم الأندلسي الجزء الأول ص (٢٢١) نشر مكتبة الخانجي بمصر.

عقائِدَ أتباع عيسى عليه السلام، بفكْرةِ تأْليهِه، وجعله ابْناً للّهِ، ويُخَرّبَ الدّيانة التي أنزلها الله على عيسى.

(٣) وقد أدّى «بولُس» أخْطر دَوْرِ نفاقٍ صنَعَهُ منافقٌ في تاريخ الناس، إذِ استطاعَ بادّعاءاته مع أنصاره اليهود المنافقين في النصرانيّة أنْ يجْعَلُوا ما وضعه «بولس» هو دين النصرانية الّذي أقرّته الدولة الرومانية فيما بعد، لا ما أنزل الله على عيسى عليه السلام.

(٤) جاء في الإصحاح التاسع من أعمال الرسل ما يلي:

[(١) أمّا شاوُلُ فَكانَ لَمْ يَزَلْ يَنْفُثُ تَهَدُّداً وقَتْلاً عَلَى تَلامِيذِ الرَّبِّ. فتقدَّمَ إِلَى رَئِيسِ الكَهَنَةِ (٢) وَطَلَبَ مِنْهُ رَسائِلَ إِلَى دِمَشْقَ إِلَى الْجَماعَاتِ حَتّى إِذَا وَجَدَ أُناساً فِي الطَّرِيقِ رِجالاً أَوْ نِساءً يَسُوقُهُمْ مُوثَقِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ (٣) وَفِي ذَهابِهِ حَدَثَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ إِلَى دِمَشْقَ فَبَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلَهُ نُورٌ مِنَ السَّماءِ (٤) فَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتاً قائِلاً لَهُ شاوُلُ شاوُلُ لِمَاذا تضطهِدُني (٥) فقالَ مَنْ أَنْتَ يا سَيِّدُ. فَقَالَ الرَّبُّ أَنا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ (٦) فَقالَ وهُوَ مُرْتَعِدٌ وَمُتَحَيِّرٌ يا رَبُّ مَاذا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ. فقالَ لَهُ الرَّبُّ قُمْ وادْخلِ الْمَدِينَةَ فَيُقَالُ لَكَ مَاذا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ (٧) وأمّا الرِّجالُ الْمُسافِرُونَ مَعَهُ فَوَقَفُوا صامِتِينَ يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلاَ يَنْظُرُونَ أَحَداً (٨) فَنَهَضَ شاوُلُ عَنِ الأَرْضِ وَكانَ وهُوَ مَفْتُوحُ العينَيْنِ لاَ يُبْصِرُ أَحَداً فاقْتادُوهُ بِيَدِهِ وَأَدْخَلُوهُ إِلَى دِمَشْقَ (٩) وَكانَ ثَلاثَةَ أَيّامٍ لا يُبْصِرُ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ. (١٠) وَكانَ فِي دِمَشْقَ تِلْمِيذٌ اسْمُهُ حَنانِيّا فَقالَ لَهُ الرَّبُّ فِي رُؤْيا يا حَنانِيّا. فَقالَ هأَنَذا يا رَبُّ (١١) فَقالَ لَهُ الرَّبُّ قُمْ واذْهَبْ إِلَى الزُّقاقِ الَّذِي يقال له الْمُسْتَقِيمُ واطْلُبْ فِي بَيْتِ يَهُوذا رَجُلاً طَرْسُوسِيّاً اسْمُهُ شاوُل. لأَنَّهُ هُوَذَا يُصَلّي (١٢) وَقَدْ رَأَى فِي رُؤْيا رَجُلاً اسْمُهُ حَنانِيّا داخِلاً وَواضِعاً يَدَهُ عَلَيْهِ لِكَيْ يُبْصِرَ (١٣) فَأَجابَ حَنانِيّا يا رَبُّ قَدْ سَمِعْتُ مِنْ كَثِيرِينَ عَنْ هٰذا الرَّجُلِ كَمْ مِنَ الشُّرُورِ فَعَلَ بِقِدِّيسِيكَ فِي أُورُشَلِيمَ (١٤) وَهٰهُنا لَهُ سُلْطانٌ مِنْ قِبَلِ رُؤَساءِ الكَهَنَةِ أَنْ يُوثِقَ جَمِيعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ باسْمِكَ (١٥) فقالَ لَهُ الرَّبُّ اذْهَبْ لأَنَّ هٰذا لِي إِناءٌ مُخْتارٌ لِيَحْمِلَ اسْمِي أَمامَ أُمَمٍ وَمُلُوكٍ وَبَنِي إِسْرائِيلَ (١٦) لأَنِّي سَأُرِيهِ كَمْ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ مِنْ أَجْلِ اسْمِي (١٧) فَمَضَى حَنانِيّا وَدَخَلَ الْبَيْتَ

وَوَضَعَ عَلَيْهِ يَدَهُ وقالَ أيُّهَا الأخُ شاوُلُ قَدْ أرْسَلَنِي الرَّبُّ يَسُوعُ الَّذِي ظَهَرَ لَكَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جِئْتَ فِيهِ لِكَيْ تُبْصِرَ وَتَمْتَلِئَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. (١٨) فلِلْوَقْتِ وَقَعَ مِنْ عَيْنَيْهِ شَيْءٌ كَأنَّهُ قُشُورٌ فَأبْصَرَ فِي الْحَالِ وَقَامَ واعْتَمَدَ (١٩) وتناوَلَ طَعَاماً فَتَقَوَّى. وَكَانَ شَاوُلُ مَعَ التَّلاميذِ أيَّاماً (٢٠) ولِلْوَقْتِ جَعَلَ يَكْرِزُ فِي الْمَجَامِعِ بِالْمَسيحِ أنْ هٰذا هُوَ ابْنُ اللّٰهِ (٢١) فَبُهِتَ جميعُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا ألَيْسَ هٰذا هُوَ الَّذِي أهْلَكَ فِي أورُشَلِيمَ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِهٰذا الاسْمِ. وَقَدْ جَاءَ إِلَىٰ هُنَا لِهٰذَا لِيَسُوقَهُمْ مُوثَقِينَ إِلَىٰ رُؤَسَاءِ الكَهَنَةِ (٢٢) وَأمَّا شَاوُلُ فَكَانَ يَزْدَادُ قُوَّةً ويُحَيِّرُ الْيَهُودَ السَّاكِنِينَ فِي دِمَشْقَ مُحَقِّقاً أنَّ هٰذا هُوَ الْمَسِيحُ].

أقـول:

يـلاحظ في هذا النصّ بيان أنّ الرجال المسافرين مع بولس وقفوا صامتين يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ ولاَ يَنْظُرونَ أحداً.

بينما جاء في الإصحاح السادس والعشرين ما ينصُّ على أنهم سقطوا جميعاً على الأرض ففيه:

[(١٢) وَلمَّا كُنْتُ ذَاهِباً فِي ذَلِكَ إِلَىٰ دِمَشْقَ بِسُلْطَانٍ وَوَصِيَّةٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ (١٣) رَأيْتُ فِي نِصْفِ النَّهَارِ فِي الطَّرِيقِ أيُّهَا الْمَلِكُ نُوراً مِنَ السَّمَاءِ أفْضَلَ مِنْ لَمَعَانِ الشَّمْسِ قَدْ أبْرَقَ حَوْلِي وَحَوْلَ الذَّاهِبِينَ مَعِي (١٤) فَلَمَّا سَقَطْنَا جَمِيعُنَا عَلَىٰ الأرْضِ سَمِعْتُ صَوْتاً يُكَلِّمُنِي وَيَقُولُ بِاللُّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي. صَعْبٌ عَلَيْكَ أنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ (١٥) فَقُلْتُ أنَا مَنْ أنْتَ يَا سَيِّد فَقَالَ أنَا يَسُوعُ الَّذِي تَضْطَهِدُهُ].

فَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ سَقَطُوا جَمِيعاً عَلَىٰ الأرض علىٰ خلاف ما جاء في النصّ السابق من أنَّهُمْ وَقَفُوا صَامِتِينَ يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلاَ يَنْظُرُونَ.

ويُلاحظ أيضاً أنّ مَا جاءَ في الإصحاح التاسع ينصُّ على أن الذين كانوا معه قد سمعوا الصوت ولا ينظرون أحداً، بينما جاء في النص الذي في الإصحاح الثاني والعشرين الآتي أنّ الذينَ كانوا معه نظرُوا النور وارتعبوا ولكنّهم لم يَسْمَعُوا صوت الذي كلّمَهُ (انظر رقم (٩) منه).

فما هذه المتناقضات.

(٥) ما جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من أعمال الرسل في مَعْرِض الكلام عن «بولس = شاول» فَهُو يُحدِّث عن نفسه فيقول:

[(٣) أنَا رَجُلٌ يَهُودِيّ وُلِدْتُ في طَرْسُوسَ كِيلِيكِيَّة، ولَكِنْ ربيتُ في هذه الْمَدِينَةِ مُؤَدَّباً عِنْدَ رِجْلَيْ غَمالائِيلَ عَلَىٰ تَحْقِيقِ النَّامُوسِ الأبَوِيّ. وكُنْتُ غَيُوراً لِلّهِ كَمَا أنْتُمْ جَمِيعُكُمُ الْيَوْمَ (٤) واضطهَدْتُ هٰذَا الطَّرِيقَ حَتَّىٰ الْمَوْتِ مُقَيِّداً ومُسَلِّماً إلَىٰ السُّجُونِ رِجالاً وَنِساءً (٥) كَمَا يَشْهَدُ لِي أيْضاً رَئِيسُ الكَهَنَةِ وَجَمِيعُ المشيخَةِ الَّذِينَ إذْ أخَذْتُ أيْضاً مِنْهُمْ رَسَائِلَ لِلإخْوَةِ إلَىٰ دِمَشْقَ ذَهَبْتُ لآتِيَ بِالَّذِينَ هُنَاكَ إلَىٰ أُورَشَلِيمَ مُقَيَّدِينَ لِكَيْ يُعَاقَبُوا (٦) فَحَدَثَ لِي وَأنَا ذَاهِبٌ إلَىٰ دِمَشْقَ أنَّهُ نَحْوَ نِصْفِ النَّهارِ بَغْتَةً أبْرَقَ حَوْلِي مِنَ السَّمَاءِ نُورٌ عَظِيمٌ (٧) فَسَقَطْتُ عَلَىٰ الأرْضِ وسَمِعْتُ صَوْتاً قائِلاً لِي شَاوُلُ شَاوُلُ لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟ (٨) فَأجَبْتُ مَنْ أنْتَ يَا سَيِّدُ؟ فَقَالَ لِي أنَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ الَّذِي أنْتَ تَضْطَهِدُهُ (٩) وَالَّذِينَ كَانُوا مَعِي نَظَرُوا النُّورَ وارْتَعَبُوا ولكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ الَّذِي كَلَّمَنِي (١٠) فَقُلْتُ مَاذَا أفْعَلُ يَا رَبُّ؟ فَقَالَ لِي الرَّبُّ قُمْ واذْهَبْ إلَىٰ دِمَشْقَ وَهُنَاكَ يُقَالُ لَكَ عَنْ جَمِيعِ مَا تَرَتَّبَ لَكَ أنْ تَفْعَلَ (١١) وَإذْ كُنْتُ لاَ أُبْصِرُ مِنْ أجْلِ بَهَاءِ ذَلِكَ النُّورِ اقْتَادَنِي بِيَدِي الَّذِينَ كَانُوا مَعِي فَجِئْتُ إلَىٰ دِمَشْقَ].

أقول:

يُلاحظُ في هذه الحادِثَةِ المصطنعة ثُغْرَتَان:

الأولى: أنَّ النور الذي ظَهَرَ رُبَّما كَانَ حَادِثَةَ بَرْقٍ اسْتَغَلَّهَا «بولس = شاول» إذْ كان يترصَّدُ أنْ يظهر لَمْعُ بَرْقٍ حتَّىٰ يستغلَّهُ، بدليل مَا جاء في روايته أنَّ الذين كانوا معه قد رأوا النور، لكنَّهُمْ لم يَسْمَعُوا صَوْتَ مَنْ كلَّمَهُ.

الثانية: أنَّ النورَ الذي بَهَرَ عَيْنَيْه قَدْ غَشَّىٰ عَلَىٰ بَصَرِهِ وحْدَهُ دُونَ أنْ يُؤَثِّرَ علىٰ الذين كانُوا معه، ومن المعلوم أنَّ الذين يَتَلَقَّوْنَ وَحْياً أَوْ إلْهَامَاتٍ غيبيَّةً يكونون عَادَةً أقوىٰ من غيرهم علَىٰ تَحَمُّلِ وارداتِ الأنوار والقوىٰ الروحية الغيبيَّة من غيرهم، لا أضعف من غيرهم.

ويتابع «بولس = شاول» كما جاء في هذا الإصحاح فيقول:

[(١٢) ثُمَّ إنَّ حَنَانِيَّا رَجُلاً تَقِيّا حَسَبَ النَّامُوسِ وَمَشْهُوداً لَهُ مِنْ جَمِيعِ الْيَهُودِ

السُّكَّانِ (١٣) أَتَى إِلَيَّ وَوَقَفَ وَقَالَ لِي أَيُّهَا الأَخُ شَاوُلُ أَبْصِرْ. فَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ نَظَرْتُ إِلَيْهِ (١٤) فقَالَ إِلَهُ آبَائِنَا انْتَخَبَكَ لِتَعْلَمَ مَشِيئَتَهُ وَتُبْصِرَ الْبَارَّ وَتَسْمَعَ صَوْتاً مِنْ فَمِهِ (١٥) لأَنَّكَ سَتَكُونُ لَهُ شَاهِداً لِجَمِيعِ النَّاسِ بِمَا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ (١٦) والآنَ لِمَاذَا تَتَوانَى. قُمْ واعْتَمِدْ واغْسِلْ خَطَايَاكَ دَاعِياً بِاسْمِ الرَّبِّ].

أقــول:

أليسَ عجيباً أنَّ «حنانيًّا» الرجلَ اليهوديَّ التقيَّ حسْبَ الناموس، والمشهود لَهُ من جميع اليهود السُّكَّانِ، هو الذي يأتي لِيُزِيلَ الْغِشَاوَةَ عَنْ بَصَرِ «بولس» وهو الذي يقول له: إلَه آبائِنَا انتخَبَكَ لِتَعْلَمَ مَشِيئَتَهُ، وتُبْصِرَ الْبَارَّ، وتَسْمَعَ صَوْتاً مِنْ فَمِهِ، وهُوَ الذي يأمُرُهُ بأنْ يَنْهَضَ بِسُرْعَةٍ وَيَدْعُو باسْمِ الرَّبِّ الْمَسِيحِ عِيسَى، إنَّ كون «حنانيًّا» تقيًّا حسب الناموس ومشهوداً له بالتقوى من جميع اليهود يدلُّ على أنه يهودي، وليس من تلاميذ عيسى كما جاء في الإصحاح التاسع.

أليس هذا دليلاً واضحاً على أنّ «بولس = شاول» مُكَلَّفٌ مِنْ قبلِ أحبار اليهود أن يدخل النصرانيّة مُنافقاً، ويكون داعياً لربوبيّةِ عيسى ضمن صفوف النصارى؛ بغية إفساد هذا الدين، إرضاءً لعنصريته وتعصّباً ليهوديته.

ويُتابع «بولس = شاول» كما جاء في هذا الإصحاح فيقول:

[(١٧) وَحَدَثَ لِي بَعْدَمَا رَجَعْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَكُنْتُ أُصَلِّي فِي الْهَيْكَلِ أَنِّي حَصَلْتُ فِي غَيْبَةٍ (١٨) فَرَأَيْتُهُ (أي: عيسَى عليه السلام) قَائِلاً لِي أَسْرِعْ وَاخْرُجْ عَاجِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ لأَنَّهُمْ لاَ يَقْبَلُونَ شَهَادَتَكَ عَنِّي (١٩) فَقُلْتُ يَا رَبُّ هُمْ يَعْلَمُونَ أَنِّي كُنْتُ أَحْبِسُ وَأَضْرِبُ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ (٢٠) وَحِينَ سُفِكَ دَمُ إِسْتِفَانُوسَ شَهِيدِكَ كُنْتُ أَنَا وَاقِفاً وَرَاضِياً بِقَتْلِهِ وَحَافِظاً ثِيَابَ الَّذِينَ قَتَلُوهُ (٢١) فَقَالَ لِي اذْهَبْ فَإِنِّي سَأُرْسِلُكَ إِلَى الأُمَمِ بَعِيداً].

أقــول:

لَقَدْ أَدْرَكَ «بولس = شاول» أنّ الصَّدُّوقيين في أُورُشَلِيمَ سوف يفضحونه باعتباره فرّيسيّاً ولا يتركونه يعمَلُ بين النصَارى علَى ما يشتهي، وهو مُوجَّهٌ ومَدْفُوعٌ من الأحبار

الفرّيسيّين، فاخترعَ هـٰذِهِ الحادثة، ليبتعد كلّيًا عن أورُشَليم التي يُوجَـدُ فيها صَـدّوقيّون منافسون للفرّيسيّين.

(٦) ونُلاحظ أنّه منذ دخول «بولس = شاول» في النصـرانيّة بـدأت أفكار ربـوبيّة عيسىٰ وألُوهيّته وأنّه ابنُ الله تدخل في التعاليم النصرانيّة، ولم يكن لهذه الأقوال وجـودٌ في الإنجيل، ولا في أقوال عيسىٰ وحوارِيِّيه وتـلاميذِهِ الّـذِين كانـوا قد تَلَقَّوْا عنْهُ، وأنّ رسائل بولس وتعاليمَهُ هي التي صارت بعد قرون مـرجع الـديانـة النصرانيّـة الرسميّـة، وهذا يدلُّ علَىٰ أنّ عَـدَداً من المنافقين اليهـود في النصرانيّـة قد تَـتَـابَعُوا واحْتَلُّوا مـراكز قياديَّة دينيَّةً وسياسيّـة لترسيخ أفكار بـولس التي دفعه أحبـار اليهود الفـرّيسيّين لبثّها في النصرانيّة بغية إفساد الدِّين الذي جاء به رسول الله عيسى عليه السلام.

(٧) أمّـا دسُّ فكرةِ كـونِ عيسَىٰ عليه السّـلامُ ابناً لله فنجـدُها في مُقـدّمَة رسـالة «بولس = شاول» إلى أهل رومية[١]، وكذلِكَ إدْخالُ فكرةِ كونِ بولس هو الرسـول الذي سبق أن جاء الوعد به في الكتب المقدسة، فقد جاء في الإصحاح الأوّل منها ما يلي:

[(١) بُـولُسُ عَبْدُ لِيَسُـوعَ الْمَسِيحِ الْمَـدْعُوّ رَسُـولاً الْمُفْرَزُ لإِنْجِيـلِ اللهِ (٢) الَّذِي سَبَقَ فَوَعَدَ بِهِ بِأَنْبِيَائِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ (٣) عَنِ ابْنِـهِ. الَّذِي صَـارَ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَـةِ الْجَسَدِ (٤) وَتَعَيَّنَ ابْنَ اللهِ بِقُـوَّةٍ مِنْ جِهَةِ رُوحِ الْقَـدَاسَةِ بِـالْقِيَامَـةِ مِنَ الأَمْوَاتِ. يَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا (٥) الَّذِي بِهِ لأَجْلِ اسْمِهِ قَبِلْنَا نِعْمَـةً وَرِسَالَـةً لإِطَاعَـةِ الإِيمَانِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ (٦) الَّـذِينَ بَيْنَهُمْ أَنْتُمْ أَيْضـاً مَـدْعُـوُّو يَسُـوعَ المسيح (٧) إِلَىٰ جَمِيـعِ الْمَـوْجُودِينَ فِي رُومِيَّةَ أَحِبَّاءَ اللهِ مَـدْعُوِّينَ قِـدِّيسِينَ. نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَـلاَمٌ مِنَ اللهِ وَالـرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ].

(٨) ومُنْذُ ذلك الحين نَشط «بولس = شاول» بالدَّعْـوَةِ إِلَىٰ المسيحيّة، معلنـاً أنّ عيسَىٰ هُو الرَّبّ، وهو الإلـٰه، وهو ابنُ الله، واستمرّ بنفاقه يُرسِّخ أقدامه بَيْنَ النصارىٰ، ويستغـلُّ براءتهم، وصفـاء قلوبهم، حتّىٰ صَارَ الْمُعَلِّمَ الأوّلَ في المسيحيّـة، وداعِيَتَهـا

(١) رسالة بولس إلى أهل رومية من الرسائل الموثوق بصحـة نسبتها إلى بـولس لدى الْمُحْـدَثين من علماء المسيحيين المشتغلين في الوقت الحـاضر بشؤون ديـانتهم وأسفارهم، كمـا ذكر د: علي عبد الواحد وافي في كتابه «الأسفار المقدّسة في الأديان السابقة للإسلام» ص(١١٧).

النَّشِيط، وأخذ يَنْشُرُ أنَّهُ يَتَلَقَّى التَّعَالِيمَ الْمَسِيحِيَّةَ إلْهَاماً، ويسْتُرُ بِهَـذِهِ الدَّعْوَى مَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ عَنْهُ من أنّه لم يكن من تلاميذِ المسيح، ولم يجتمع به، ولم يَسْمَعْ منه، بل كان يضطهد تلاميذه وأتباعه.

وفتح لنفسه بأُكْذُوبَةِ كَوْنِه يتلقّى تعاليم الدين إلهاماً مجال التلاعُب بالدِّين، والتَّحْرِيفِ فيه وفْقَ مخطّط يَهُودِي مُعادٍ لكلّ ما ليس بيهوديّ، ولو كان مُنَزَّلاً من عند الله عزّ وجل، ويؤمنون بأنّه حقٌّ من عند الله.

ومع فرح أتباع عيسى وتلاميذه بتنصر بولس إلاّ أنّ بعضهم شكّ في أمره لولا أن دافع عنه برنابا، ثم تنكروا له ولم يبق معه إلاّ تلميذه لوقا وتلميذه مرقس.

(٩) وصار هذا الرجل اليهودي في تاريخ المسيحيّة أحد الرُّسُل السبعين الذين نزل عليهم روح القدس في اعتقاد النصارى بَعْدَ رفع المسيح، وأُلْهِمُوا بالتبشير بالمسيحيّة، كما أُلْهِمُوا مبادئها، ويُسَمِّي النصارى هؤلاءِ السبعين رُسُلاً، أي: رُسُلاً للتبشير بالمسيحيّةِ في الأقطار.

وتفاقم تأثير «بولس = شاول» حتّى صار معلّماً لـ «مرقس» أحد كتاب الأناجيل الأربعة، إذْ لازمه ملازمَة التلميذ لأستاذه، وصار معلّماً لـ «لوقا» أحد كتاب الأناجيل الأربعة أيضاً.

قالوا: وكان «لوقا» التلميذ الحبيب، والرفيق الملازم لـ «بولس = شاول» وليس هو من أصل يهودي.

والأفكار التي أدخلها «بولس» في المسيحيّة، حول كون عيسى ربّاً أو إلهاً أو ابن الله لم تكن قد عرفت في النصرانيّة قبل بولس، ولم تكن منتشرة لدى كلّ النصارى بعد أن أدخلها «بولس» ودعا إليها.

(١٠) وحين دخل «بولس = شاول» في الديانة النّصرانيّة مُنافقاً عاملاً على إفسادها وتحريفها من الداخل، وأحلّ نفسه منها بادعاءاته الكاذبات محلّ المعلّم الأول الذي يتلَقّى التعاليم مباشرةً من الرّبّ المسيح لاَ مِنْ فم إنسان، أخذ يطوف في الأقاليم يُبَشّر بالمسيحيّةِ التي صنَعها هو افتراءً على الله، ضمن خطّة فيها دهاء كبير.

فصار يُلْقِي الخطب، ويُنْشِيء الرسائل، حتّى كانت رسائله والرسائل الموضوعة

باسمه هي الرسائل التعليميّة في النصرانية، بما حوت من مبادىء اعتقادية، وشرائع عملية، يوم اعتنق «قسطنطين» الأكبر النصرانية.

جاء في رسالة بولس الرّسول إلى أهل غلاطِيّة ما يلي:

[(١) بولُسُ رَسُولٌ لاَ منَ النَّاسِ وَلا بإنْسَانٍ بَلْ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ واللّهِ الآبِ الَّذِي أقامَهُ من الأموات...].

وجاء فيها أيضاً:

[(١١) وأُعَرِّفُكُمْ أيُّها الإِخْوَةُ الإنجيلَ الّذي بشَّرْتُ بِهِ أنَّهُ لَيْسَ بِحَسَبِ إِنْسَانٍ (١٢) لأنّي لَمْ أَقْبَلْهُ مِنْ عِنْدِ إنْسَانٍ وَلاَ عُلِّمْتُهُ. بَلْ بإعْلانِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ (١٣) فَإِنَّكُمْ سَمِعْتُمْ بِسِيرَتِي قَبْلاً فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ أنِّي كُنْتُ أَضْطَهِدُ كنيسَةَ اللّهِ وَأُتْلِفُهَا (١٤) وَكُنْتُ أَتَقَدَّمُ فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ عَلَى كثِيرِينَ مِنْ أَتْرَابِي فِي جِنْسِي إذْ كُنْتُ أَوْفَرَ غَيْرَةً فِي تَقْليدات آبائي...].

(١١) واستمرَّ المنافقون من اليهود في النصرانيّة يُثَبِّتُونَ أفكار «بولس» فيها، حتّىٰ صارت هي الدين الرسميُّ العامّ الذي تبنّاه الإمبراطور «قُسطنطين الأول الأكبر» حين اعتنق المسيحيّة في سنة (٣١٣م).

أمّا النسبة العظمىٰ من المسيحيين فقد كانوا على خلاف العقائد التي دسَّها «بولس = شاول» في النصرانية، وجُلُّهم كانوا يؤمنون بأنّ عيسىٰ عبد الله ورسوله، لكنّ سلطان الدولة الرومانية فرض الكاثوليكيّة التي تبنَّتْ ما دسَّه «بولس» من أفكارٍ وعقائد.

وكان دور المنافقين في ذلك أخطر دور إفسادٍ صنعه النفاق في التاريخ البشريّ.

(١٢) ويلاحظ في تاريخ النصرانيّة أنّه قام صراع حادّ وطويل بين «بولس» وأنصاره من جهة، وأتباع عيسىٰ عليه السلام الحقيقيّين من جهة أخرى، وامتد قروناً بعد وفاة بولس.

ففي أنصار بولس كان يُوجَدُ القليل من المتعلمين، والكثير من الجماهير الجاهلة الأميّة، لأنّ بولس وأتباعه أتقنوا سياسة تجميع الجماهير بالأساليب الإغرائية.

أمّا المسيحيّون الحقيقيّون فكان يوجد فيهم الكثير من المتعلمين، والقليل من الجماهير الجاهلة الأميّة.

● ● ●

الفصل الثاني

منافقون في عصر الرسول ﷺ وخبائثهم

وفيه:

مقدمة، ومقولتان:

المقولة الأولى : حول طائفة من أسماء المنافقين وأحداثهم في عصر الرسول ﷺ.

المقولة الثانية : حول طائفة من أحداث المنافقين في عصر الرسول ﷺ.

مقـدّمـة

قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً من مكـة، بعد أن بـايعه سـادة المدينـة الذين آمنوا وأسلموا على أن يحمـوه مما يحمـون منه نسـاءهم وأبناءهم، وذلـك فيما يُعْـرَفُ ببيعة العقبة الثانية.

وكان قدومه إلى المدينة غُصَّةً في نفوس بعض أصحاب المكانة فيها إذْ لم يؤمنوا به ولا بما جاء به عن ربّه، وغُصَّةً في نفوس أتباعهم وأنصارهم.

واضـطر بعض هؤلاء أن ينـافق الـرسـول والمسلمين المؤمنين، ويُعلن إسـلامه تظاهراً ونفاقاً، حينمـا وجد أن الأمـر قد أفلت من يـده، وهو لا يملك مقـاومة الـرسول والـذين آمنوا بـه واتّبعـوه، ولا مقـاطعتهم والاعتـزال عنهم، لكنّه كـان يضمـر الكفـر والحقد، ويبتغي في سرّه المكر والكيد ضد الإسلام والرسول والمهاجرين معه.

إنّ شأن كلّ دعوة كاسحة تؤمن بها الجماهير المنصفة وتندفع في سبيلها، أن يدخل بين صفوفها منافقون كاذبون، استـولى على قلوبهم الخوف والجبن، فلم يُعْلِنـوا العداوة، وبدا لهم أن يتعاملوا مع الحدث الجديد بالـرّويّة، وانـتظار الفرص المـواتية، حتى يَقْلِبوا الأوضاع لصـالحهم، مع مـا يُصِيبُونـه من أمْنٍ ومشاركـة للمؤمنين الصادقين من منافع، إذا تحقّقت منافع.

لكنّهم إذا حزب الأمر واشتـدت الأزمات تخـاذلوا، وأطلقـوا ألسنتهم بالأراجيف والمثبّطات، وإشاعة الأكاذيب والمفتريات، وأخذوا يَعْقِدُون مختلِفَ الصِّـلاتِ المريبـة مع العدو السافر، ويجتمعون في خلوات خبيثات يبيّتون فيها أنواع الخيانات.



المقولة الأولى

حول طائفة من أسماء المنافقين
وأحداثهم في عصر الرسول ﷺ

(١)
رأس المنافقين في المدينة
عبد الله بن أُبيّ بنْ سلول

* تعريف به:

عبد الله بن أُبيّ بن سَلُول، رجلٌ كان ذا مكانة وشرف في قومه قبل الإسلام، وهو من أهل يثرب (المدينة بعد الإسلام) ومن الخزرجيين المنسوبين إلى عوف بن الخزرج، إحدى قبيلتين عربيَّتَيْن في يثرب، هما: الأوس، والخزرج.

و «سَلُول» جدَّةُ عبد الله، أمُّ أبيه «أُبيّ».

قال ابن هشام: سَلُول امرأة من خزاعة، وهي أمّ أُبيّ بن مالك بن الحارث بن عُبَيْد بن مالك بن سالم بْن غَنْم بْن عَوْف بن الخزرج.

روى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة: أنّ رسول الله ﷺ قَدِم المدينة، إذْ كان عبد الله بن أبي بن سلول العَوْفي سيّد أهلها، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجلٍ غيْره من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه، ثم يُمَلكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلمَّا انْصرف قومُه عنه إلى الإسلام ضَغِنَ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلْكاً، فلمَّا أنْ رأى قومَه قد أبَوْا إلّا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِرّاً علَىٰ نفاقٍ وضِغْنٍ.

* * *

* مواقفه وخبائثه:

الموقف الأول: روى ابن إسحاق بسنده، عن أسامة بن زيد بن حارثة، حِبِّ رسول الله ﷺ، قال:

ركب رسول الله ﷺ، إلى سَعْدِ بن عُبَادَة يُعودُه من شَكْوٍ (أي: مرض) أصابه، على حمارٍ عليه إكاف[1]، فوقه قطيفة[2] فَدَكيَّةٌ[3]، وأردفني رسول الله ﷺ خلفه، فمرّ بعدُوّ الله ابْنِ أُبيّ، وهو في ظلِّ مزاحمٍ أُطُمِه[4]، وحول ابن أُبي رجالٌ من قومه، فلمّا رآه رسول الله ﷺ تَذَمَّمَ[5] مِن أن يجاوزه حتى ينزل. فنزل فسلّم، ثم جلس قليلاً، فتلا القرآن، ودعا إلى الله عزّ وجلّ، وذكّر بالله، وحَذَّرَ وبَشَّرَ وأنذر، وهو (أي: عبد الله بن أُبيّ) زامٌّ[6] لا يتكلم، حتّى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال (أي: عبد الله بن أبي): يا هذا، إنَّهُ لا أحْسَنُ من حديثك هذا، إنْ كان حقّاً فاجْلِسْ في بيتك، فمن جاءكَ لَهُ فحدِّثْهُ إيّاه، ومَنْ لَمْ يأْتِكَ فلَا تَغُتَّهُ[7] به، ولا تأتِهِ في مَجْلِسِه بما يكره منه.

فقال عبد الله بن رواحَةَ في رجالٍ كانوا عنده من المسلمين: بلَىٰ، فاغْشَنا به، وائْتِنَا به في مَجَالِسِنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله مما نُحِبّ، وممّا أكرمنا الله به وهدانا له.

فقال عبد الله بن أُبيّ حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

مَتَى ما يَكُنْ مَوْلَاكَ خَصْمَكَ لَا تزَلْ   تذلُّ وَيَصْرَعْكَ الَّذِينَ تُصَارِعُ
وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَناحِه   وَإِنْ جُذَّ يَوْماً رِيشُهُ فَهُوَ وَاقِعُ

وقام رسول الله ﷺ فدخلَ علَىٰ سَعْدِ بن عبادة، وفي وجْهِهِ ما قال عدوّ الله ابنُ أُبيّ بن سلول.

---

(١) **الإكاف**: البرذعة.

(٢) **القطيفة**: دِثار له خملة.

(٣) **فدَكية**: نسبة إلى «فدَك» بلد كانت تُصنع فيه هذه القُطُف.

(٤) **الأطم**: الحصن، وأطم عبد الله بن أبي بن سلول اسمه مزاحم.

(٥) **تذمّم**: أي: استحيا وكره.

(٦) **زامٌّ**: أي: مستكبر رافع أنفه.

(٧) **فلا تغته به**: أي: فلا تتعبه ولا تؤذه به.

فقـال: (أي: سعد): واللهِ يـا رسـول الله إنّي لأرى في وَجْهِكَ شيئاً، لَكـأنَّـكَ سَمِعتَ شيئاً تكرهه.

فقال: أجل، ثمّ أخبره بما قال ابْنُ أُبَيّ.

فقال سَعْدُ بن عُبادة: يا رسول الله ارفُقْ به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنّا لنَنْظِمُ له الْخَرَزَ لِنُتَوِّجه، وإنّه لَيرى أن قد سلبته مُلْكاً.

* * *

الموقف الثاني: في أواخر الشهر السابع من السنة الثانيـة من هجرة الـرسـول ﷺ إلى المدينة، أي: بعد غزوة بدر الكبرى بشهر، نقض يهود بني قينقـاع[1] عَهْدَهم مـع رسول الله ﷺ، وكانوا أول اليهود الذين نقضوا ما بينهم وبين الرسول من عهد.

أخذ يهود بني قينقاع يشتطّون في إعلانهم العداوة للرسـول محمّد ﷺ وللمؤمنين المسلمين، وفي وقوفهم مواقف التحدّي والتصدّي لـرسالـة الإسلام، وتبييت المكـايد للمسلمين، وأمْسَىٰ الـرسول منهم على حـذر شـديـد، وبـات يتخـوّف من خيـانتهم ونقضهم العهد.

ورُوِي أنّ الرسول ﷺ قال: «إنّي أخافُ خيـانة بني قينقـاع»، وذلك حينمـا أنزل الله عليه قوله في سورة (الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول) ثاني سورة مدنية:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾.

أي: انْبِذْ إليهم عهدهم ولا تَغْدُرْ بهم، وأشعرهم بـأنّهم قد أصبحـوا محاربين، حتّى يكون أمرهم وأمركم على سواء لا غرر فيه ولا خيانة.

وقـد حافظ الـرسـول ﷺ على عهـده معهم لم ينكث بـه، وظلّ حـريصـاً على دعوتهم إلى الإسلام وترغيبهم فيه، حتّى كانوا هم البادئين بالشرّ ونقض العهد.

فجاء الرسول ﷺ إلى سوقهم بعد غزوة بدر، فجمعهم، ثم قال لهم:

---

(١) بنو قينقاع: بطن من النازحين إلى المدينة من اليهود.

«يا معشرَ يهودَ احْذَرُوا من الله مثلَ ما نزل بقريشٍ من النِّقْمة، وأسْلِمُوا، فإنَّكُمْ قدْ عَرَفْتُمْ أنّي نبيٌّ مُرسَلٌ، تجدُونَ ذلِكَ في كتابكم وعَهْدِ اللّهِ إلَيْكُمْ.

قالوا: يا مُحمّد، إنَّكَ ترَى أنَّا قوْمُكَ، لا يَغُرَّنَّكَ أنَّكَ لَقِيتَ قوْماً لا عِلْمَ لهم بالحرب، فاصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً، إنَّا واللّهِ لَئِنْ حارَبْنَاكَ لَتَعْلَمَنَّ أنَّا نَحْنُ النَّاس.

فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم قوله في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾.

وكان ما جرى من يهود بني قينقاع بمثابة الإنْذارِ العلني، المتضمّن استعدادهم لحرب الرسول والذين آمنوا معه، والمشعر بأنّهم مزمعون على نقض العهد الذي بينهم وبينه.

ثم كان من مظاهر استعدادهم لمحاربة الرسول والذين آمنوا به، وترقبهم الفرصة الملائمة المواتية، أنّ امرأة من مسلمات العرب قَدِمَتْ بجَلَبٍ لَها، فباعَتْهُ بسوق بني قينقاع، ثم جلَسَتْ إلىٰ صائغٍ يهوديٍّ في السوق، لعلّها تريد أن تشتري بعض الْحُليّ، وكانت هذه المرأة العربيّة محجّبةً وجْهَها.

فجعل نفرٌ من يهود بني قينقاع يستهزئون بها، ويطلبون منها أن تكشف وجْهَها، والمرأة تأبىٰ ذلك.

فعَمَد الصائغ اليهودي إلى طرف ثوبها من خلف وعقده إلى ظهرها وهي جالسة، دون أن تشعر المرأة بما فعل، فلمّا قامَت انكشفت سوأتُها، فانطلَقَتْ من اليهود ضجّة ضَحِكٍ وسُخْرِيَةٍ بهذه المرأة المسلمة.

فلمّا أحسَّتِ المرأة بما فعل الصائغ بها من مكر خبيثٍ صاحت واستغاثت

بالمسلمين لشرفها المهان في سوق اليهود، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، فشدُتِ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، ووقع الشرّ بينهم وبين هذا الحيّ من اليهود النازحين إلى المدينة.

وكانت قبيلة بني قينقاع أول من قابَلَ المسلمين بالخيانة والغدر من اليهود.

فنبذ رسول الله ﷺ إليهم عهدهم، وكان ذلك على سواء بينهم وبين المسلمين، كما أمر الله.

ودعا الرسول المسلمين إلى قتالهم، فحاصرهم في حصونهم خمس عشرة ليلة، وألقى الله في قلوبهم الرُّعْب، ولم يستطيعوا أن يظهروا لقتال المسلمين.

ولمّا طال عليهم الحصار نزلوا على حكم الرسول صلوات الله عليه، وأَمْكَنَ الله نبيّه منهم.

وهنا تقدّم رأس المنافقين في المدينة «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» وكان حليفاً ليهود بني قينقاع قبل الإسلام، فقال:

«يا مُحمّد، أَحْسِنْ في مَوَالِيَّ، إنّي واللّهِ امْرُؤٌ أَخْشَىٰ الدوائر».

أي: أحسن في حلفائي ونصرائي.

فأبطأ عليه الرسول ﷺ ولم يُجِبْه.

فقال ابن أُبَيّ: يا مُحَمَّدُ أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ.

فأعرض الرسول ﷺ عنه.

فأدخل ابن أُبَيّ يَدَه في جَيْبِ دِرْعِ رسول الله ﷺ.

فقال له الرسول: أَرْسِلْنِي، وغضِبَ ﷺ حتّىٰ رَأَوْا لِوَجْهِهِ ظُلَلاً (أي: سحابات من غضب).

ثم قال لابن أُبَيّ: وَيْحَكَ، أَرْسِلْنِي!!

قال ابْنُ أُبَيّ: لا واللّهِ لَا أُرْسِلُكَ حَتّىٰ تُحْسِنَ فِي مَوَالِيَّ، أربعمائة حاسِر،

وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تَحْصِدُهم في غداةٍ واحدةٍ؟!. إنّي والله امرُؤٌ أخْشَىٰ الدوائر.

فقال له رسول الله ﷺ: هُمْ لَكَ.

ثُمّ اكتفى الرسول بإجلائهم عن المدينة، وكان معظمهم يشتغلون بالصياغة والتجارة، فأذن لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وخفيف سلاحهم، فخرجوا منها إلى الشام، حتّىٰ نزلوا بـأذْرِعات وأقاموا فيها، لكنّهم لم يلبثوا حتّى هلك أكثرهم، ونالوا جزاء خيانتهم وغدرهم ومكرهم ومحاربتهم الله ورسوله، ولَعَذاب الآخرة أشدُّ وأكبر.

* * *

الموقف الثالث: في السنة الثالثة من الهجرة، قَدِمتْ قُرَيشٌ مع مَنْ جمعت من الأحابيش وقبائل العرب حول مكة من كنانة وأهل تهامة، لحرب الرسول ﷺ والمسلمين معه في المدينة، ثأراً لما أصابهم في غزوة بدر الكبرىٰ، وكان قوام جيشهم قرابة ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم ثلاثة آلاف بعير، ومئتا فرس، وفيهم ستمائة دارع، ولمّا وصلوا نزلوا مقابل المدينة.

واستشار الرسول ﷺ المسلمين فيما دهمهم من مقدم أهل مكة لقتالهم، هل يخرجون إليهم لقتالهم، أو يبقَوْن مُحَصّنين في المدينة؟

وكان رأي الرسول وشيوخ المهاجرين والأنصار أن يقيموا في المدينة ويتحصّنوا بها، فإن دخل عليهم فيها القادمون لحربهم قاتلوهم في طرق المدينة ومن فوق رؤوسهم، وكان الرسول يكره الخروج من المدينة لقتالهم.

وكذلك كان رأي رأس المنافقين «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» ومعه أتباعه، وقال: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا إلى عدوٍّ قطّ إلاّ أصابَ منّا، ولا دخل علينا إلاّ أصبنا منه، فكيْفَ وأنْتَ فينا؟! فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإنْ رجَعُوا رجعوا خائبين.

لكنّ رجالاً من المسلمين من الذين فاتهم شرف المشاركة في غزوة بدر قالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يَرَوْن أنّا جَبُنّا عنْهُمْ وضَعُفْنا، وما زال هؤلاء

يستحثّون الرسول للخروج حتّى دخل بيته بعد صلاة الجمعة، ولَبِسَ لأْمَتَهُ[1]، ثم خرج عليهم.

وندم الذين استحثّوا الرسول على الخروج، وقالوا: اسْتَكْرَهْنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك، وقالوا له حين خرج لابساً لباس الحرب: يا رسول الله، استَكْرَهْنَاكَ ولم يَكُنْ ذلِكَ لنا، فإنْ شِئْتَ فاقْعُدْ صلى الله عليك.

فقال النبي ﷺ: مَا يَنْبَغي لنبيٍّ إذا لَبِسَ لأْمَتَهُ أنْ يَضَعَها حتّى يُقَاتِلَ.

فخرج رسول الله ﷺ في ألفٍ من أصحابه، وفيهم عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، ومعه أتباعه وأنصاره من قومه.

فلمّا وصَلُوا إلى مكان بين المدينة وجَبَلِ أُحُدٍ اسْمُهُ «الشَّوْط» انخذل عبد الله بن أُبَيّ بن سلول وانخذل معه أصحابه، وكانوا قرابة ثلاثمائة رجل، فرجعوا إلى المدينة، وقال عبد الله: عَلامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنا هٰهُنَا أيُّها الناسُ؟!

ولمّا رآهم عبد الله بن عَمْرو بن حرام يرجعون منخذلين، تبعهم وقال لهم: يا قوم، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ، ألاّ تخذلوا قومكم ونبيَّكُم، عندما حضر من عَدُوّكم.

فقالوا له: لو نَعْلَمُ أنَّكُمْ تُقَاتِلُونَ لَمَا أَسْلَمْنَاكُمْ، ولكنّا لا نرى أنّه يكونُ قتال.

فلمّا اسْتَعْصَوْا عليه قال: أَبْعَدَكُمُ اللَّهُ أعْدَاءَ الله، فَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ نَبِيَّه.

وكان عبد الله بْنُ أُبَيّ بن سلول، له مقام يقومه قَبْلَ أُحُدٍ إذا جلَسَ رسول الله ﷺ يوم الْجُمُعة، وهو يخطب الناس، فيقول: أَيُّها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزَّكُمْ به، فانْصُروهُ وَعَزِّرُوه[2] واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس.

فلمّا كان منه ما كان يوم أُحُد، إذِ انْخَذَلَ عن الرسول ﷺ بنحو ثلث الجيش، قام يوم الجمعة ليقول كلامه الذي كان يقولُه قبل أُحُدٍ، فأخذ المسلمون بثيابه مِن

---

(١) اللأْمة: لباس الحرب.

(٢) عزّروه: أي: أعينوه وقوّوه وعظموه ووقّروه.

نواحيه، وقالوا له: اجْلِس أيْ عُدُوَّ الله. لسْتَ لذلك بأهْل، وقد صَنَعْتَ ما صَنَعْتَ.

فخرج يتخطَّىٰ رقابَ الناس وهو يقول: واللهِ لكأنَّما قُلْتُ هُجْراً[1] أنْ قُمْتُ أُشدِّدُ أمْرَه؟

فلقيه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد، فقال: مَالَكَ؟ ويْلَكَ!.

قال: قُمْتُ أُشَدِّدُ أَمْرَهُ، فوثَبَ عليَّ رجالٌ من أصحابه يجذبونني ويُعنِّفونني، لكأنما قُلْتُ هُجْراً[1] أنْ قُمْتُ أُشدِّدُ أمْرَه؟

قال: وَيْلَكَ، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ.

قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

* * *

الموقف الرابع: لمَّا حاصر رسول الله ﷺ يهود بني النضير عقاباً لهم على محاولتهم اغتياله وهو في حيِّهم، جعَلَ رهطٌ من بني عَوْفِ بن الخزرج، منهم عدوّ الله «عبدُ الله بْنُ أُبَيِّ بن سلول» و«وديعةُ بن ثابت من بني أُمَيَّة بْنِ زَيْدِ بْنِ مالك» و«مَالِكُ بْنُ أبي قَوْقَل» و«سُوَيْد» و«داعِس» يبعثون إلى بني النضير سرّاً: أن اثْبُتوا، وتمنَّعُوا، فإننا لا نُسْلِمُكُمْ، إنْ قُوتِلْتُم قاتَلْنا معكم، وإنْ أُخْرِجْتُمْ خرَجْنا معكم.

فتربَّصُوا ذلك من نَصْرِهم، فلم يَفْعَلُوا، فقذف الله في قلوب بني النضير الرعبَ، وسألوا رسول الله أن يُجْلِيَهم ويكُفَّ عن دمائهم، على أنّ لهم ما حملت الإبل من الأموال، إلاَّ الحلقة (أي: السلاح) فقبل الرسول ﷺ ذلك منهم، وتمّ إجلاؤهم عن المدينة.

* * *

الموقف الخامس: في سنة خمس للهجرة بلَغ النبيَّ ﷺ أنّ بَني الْمُصْطَلِقِ يجمعون الجموع لحربه، فخرج إليهم في سبعمائة من أصحابه.

وسار جيش المسلمين حتّىٰ دَهَمُوا بني المصطلِق وهم غافلون عند ماءٍ لهم يُقالُ له: «الْمُرَيْسِيع».

---

(١) هُجْراً: أي: كلاماً قبيحاً.

وأمَرَ الرسول ﷺ عُمر بن الخطاب فنادى فيهم: أنْ قولوا: لا إلّه إلّا الله، تَمْنَعُوا بها أنفسكم وأموالكم، فأبَوْا.

فترامَى الفريقان بالنَّبال، ثمّ أمر الرسول المسلمين أن يحملوا عليهم، فحملوا عليهم مقاتلين حَمْلَةَ رجُلٍ واحد، فقتلوا منهم عشرةً وأسروا سائرهم، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة.

وبينما كان المسلمون على الماء يستقون، تزاحم على الماء أجيرٌ لعمر بن الخطّاب من بني غِفَارٍ يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، وسِنَانُ بْنُ وَبَرَ الْجُهَني، حليفُ بني عوفٍ بن الخزرج، فاقتتلا، فصرخ الْجُهني: يا معشر الأنصار، وصَرَخ جَهْجَاه: يا معشر المهاجرين، واجتمع الفريقان، وكادوا يقتتلون.

فبلغ الرّسولَ ما جرى، فذهب إليهم وقال:

«أبِدَعْوَى الجاهليّة وأنا بيْنَ أظهركم؟ دَعُوها فإنّها مُنْتِنَة».

وأطفأ الرسول الفتنة، ووصَلَ إلى «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» نبأُ ما جرى، فغضب، وعنده رهطٌ من قومه فيهم «زيد بن أرقم» غلام حدث السّن، فقال «عبد الله بن أُبي بن سلول»:

«أوَقَدْ فَعَلُوها؟ قد نافرونا(١) وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعُدُّنا وجلابيبَ قريش(٢) إلّا كما قال الأول: سمِّنْ كَلْبَكَ يأكُلك، أما واللهِ لَئِنْ رَجعْنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلّ».

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم:

هذا ما فعلْتُم بأنفسكم، أحْلَلْتُموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم».

---

(١) نافَرُونا: أي: فاخَرونا وزادوا علينا في كثرة نفرهم.

(٢) جلابيب قريش: لقب أطلق على المهاجرين من مكة، وهو من إطلاق اللّباس على لابسيه، فالجلابيب نوع خشن من الثياب.

ونقل «زيد بن أرقم» ما سَمِع إلى الرسول ﷺ بعد أن انتهى من أمره مع بني الْمُصْطَلِق، وكان عند الرسول عُمَر بن الخطاب، فقال عمر: يا رسول الله، مُرْ به عبّاد بْنَ بِشْرٍ فَلْيَقْتُلْه.

فقال الرسول: فكيف يا عُمَر إذا تحدّث الناس أنّ محمّداً يَقْتُلُ أصحابه؟!، ولكنْ أَذِّنْ بالرّحيل، وذلك في ساعة لم يكن الرسول يرتَحِلُ فيها، فارتحلَ الناس.

وبلغ «عبد الله بن أبي بن سلول» أنّ «زيد بن أرقم» أخبر الرسولَ بما سمع منه، فجاء إلى الرسول فحلف له أنّه لم يقل الكلام الذي نقله إليه زيد بن أرقم، ولا تكلّم به، وقال من كان عند الرسول من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسَى أن يكون الْغُلامُ قد أوْهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدَباً على عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ودفعاً عنه.

ثم أقبل إلى الرسول ﷺ «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْر» فحيّاه بتحيّة النبوّة، وسلّم عليه، ثمّ قال: يا نبيّ الله، والله لقد رُحْتَ في ساعةٍ مُنْكَرةٍ، ما كنْتَ تَرُوح في مِثْلِها.

فقال له رسول الله ﷺ: «أَوَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ»؟

قال: وأيُّ صاحبٍ يا رسول الله؟.

قال: «عبدُ الله بن أُبيّ».

قال: وما قال؟

قال: «زعَمَ أنّه إنْ رَجَعَ إلَى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأذل».

قال أسيد: فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللّهِ، والله تُخْرِجُهُ مِنْها إنْ شِئْتَ، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثمّ قال: يا رسول الله، ارْفُقْ به، فوالله لقد جاء اللّهُ بك، وإنَّ قومه لَيَنْظِمُونَ لَهُ الخرز لِيُتَوِّجوه، فإنّه لَيرى أنك قد استلبته ملكاً.

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنّه بلَغني أنّكَ تُريدُ قَتْلَ عَبْدِ الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإنْ كنت لا بُدَّ فاعلاً فَمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان لها من

رجلٍ أبرُّ بوالده منّي، وإنّي أخشىٰ أنْ تأمر به غيري فيقتُله، فلا تدعُني نفسي أنْظُرُ إلَىٰ قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس، فأقْتُله، فأقْتُلَ رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار.

فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفّقُ به، ونُحسِنُ صحبته ما بقي معنا».

فكان من أمر عبد الله بن أبي بن سلول بعد ذلك أنّه إذا أحدث الحدث تصدّىٰ له قومه، فكانوا هم الذين يعاتبونه، ويأْخُذُونَهُ ويُعَنفونَهُ.

فقال رسول الله ﷺ لعُمَرَ بن الخطّاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترىٰ يا عُمَر، أمَا والله لو قتلْتُه يوم قُلْتَ لي اقتله، لأرْعِدَتْ آنُفٌ، لو أمَرْتُها اليوم بقتله لقتلْته».

قال عمر: قد والله عَلِمْتُ لأمْرُ رَسُولِ الله ﷺ أعظَمُ بركةً من أمري.

* * *

الموقف السادس: وفي غزوة بني المُصْطَلِق أيضاً كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي التي خرج سهمها في القرعة أن تكون مع الرسول، حين أقرع ﷺ بين نسائه، فخرجت معه.

وكان من شأنها حين عودة الجيش إلى المدينة وكان قريباً منها أنْ رأى الرسول أنّ القومَ مُجْهَدُون، فنزل بهم منزلاً ليصيبوا نصيباً من الراحة، فبات بهذا المنزل بعض اللّيل، ثمّ أمر الرسول فنادىٰ مناديه بالرّحيل، فأخذ القوم يستعدون له.

قالت عائشة رضي الله عنها: وخرجت لبعض حاجتي، وفي عُنُقي عِقْدٌ لي، فيه جَزْعُ ظفار[1]، فلمّا فرغتُ انْسَلّ من عنقي ولا أدري، فلمّا رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسُهُ في عنقي فلم أجِدْهُ، وأخذ الناس في الرحيل، فرجَعْتُ إلى مكاني الذي ذهبتُ إليه، فالتمستُهُ حتّى وجدته.

وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يُرَحِّلُونَ لي البعير، وقد فرغوا من رِحْلَتِه،

(١) الجَزْعُ: نوع من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان، وظَفارِ على مثل «قَطامِ» مدينة لحِمْيَر باليمن.

فأخذوا الْهَوْدج، وهم يظنّون أنّي فيه، كما كنْتُ أصْنع، فاحْتَمَلُوهُ، فشدُّوهُ على البعير، ولَمْ يشكُّوا أنّي فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعْتُ إلى العسكر، وما فيه من راعٍ ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت عائشة رضي الله عنها: فتلفّفْتُ بجلبابي، ثم اضطجعتُ في مكاني، وعرَفْتُ أن لو افْتُقِدْتُ لَرُجِعَ إليّ.

قالت: فواللّهِ إنّي لمضطجعةٌ إذْ مَرَّ بي «صَفْوانُ بْنُ الْمُعَطّلِ السُّلَمِي» فرأى سَوادَ إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان قد رآني قبْلَ الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرْتُ وَجْهِي بجلبابي، والله ما كلّمني كَلِمَةً، ولا سَمِعْتُ منه كلمةً غير اسْتِرْجاعه حين أناخ راحلته، فَوَطِىءَ على يَدِها، فركبتُها، فانْطَلَقَ يَقُودُ بي الراحلة، حتّى أتينا الجيش بعدما نزلوا في نَحْرِ الظهيرة، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شأني.

وَكَانَ الَّذِي تَوَلّى كِبْرَهُ عبد الله بْنُ أُبَيّ بن سلول.

قال علماء السيرة: كان صَفْوانُ بن الْمُعَطّل على ساقة العسكر يلتقط في مؤخّرة الجيش ما يسقُط من متاع المسلمين، حتّى يأتيهم به، ولذلك تخلّف عن الجيش.

وكان في الجيش «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» رأس المنافقين، فقال بين خاصّته: والله ما نجَتْ مِنْهُ ولاَ نَجا مِنْها، وانطلقت كلمته تَتَرَدّد، وانخدَعَ بها بعض المسلمين من أهل الإيمان فشاعت بينهم وذاعت.

وعُرفتْ هذه الشائعة بحديث الإفك، ونزل بسببها على الرسول وزوجته وآل أبي بكر من البلاء والكرب شيءٌ عظيم، حتى نزل القرآن ببراءتها والتشنيع على أصحاب الإفك ما نزل في سورة (النور).

* * *

الموقف السابع: موقف «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» في غزوة تبوك.

رُوِي أنّه خرج في بدْءِ التحرّك هو وجماعته وأنصارُه، وعسْكَرُوا دون معسكر الرسول عند جبل ذُباب في المدينة، أما مُعَسْكَرُ الرسول فقد كان عند ثنيّة الوداع.

فلمّا سار الرسول ﷺ ومعه جيش المسلمين، تخلّف عبد الله بن أُبيّ بن سلول ومعه جمع من المنافقين وأهل الريب.

* * *

موته:

قالوا: وهلك «ابن سلول» بعد رجوع الرسول من غزوة تبوك، وكان موتُه في شهر ذي القعدة من سنة تِسْعٍ للهجرة.

* * *

(٢)
الْجَدُّ بْنُ قيس
سيّد بني سَلِمة من الخزرج وكان من أشرافهم

* تعريف به:

جاء في السيرة النبويّة لابن هشام أنّ الرسول ﷺ سأل بَني سَلِمة: مَنْ سَيِّدُكُمْ يا بَني سَلِمَة؟

قالوا: الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، على بُخْلِه.

فقال ﷺ: وأيُّ داءٍ أكبر من الْبُخْل؟!، سَيِّدُ بني سَلِمةَ الأبيضُ الْجَعْدُ، بِشْرُ بن الْبراء بن معرور.

* * *

* ما كان منه من مواقف:

الموقف الأول: كان مع الذين خرجوا مع الرسول ﷺ لأداء العمرة التي لم يؤدّها الرسول والذين كانوا معه من المسلمين، لأنّ قريشاً منعتهم من أدائها، ففدوا وتحلّلوا من عمرتهم باعتبارهم مُحْصَرِين.

فحين بلَغَ الرسولَ ﷺ أنّ رَسُولَهُ إلى قريش في مكة عثمانَ بن عفّان قد قُتل، ولم يكن قد قتل فعلاً، قال:

«لا نَبْرحُ حتّى نُناجِزَ القوم».

ودعا الناسَ إلى البيعة، فكانت بيعةُ الرِّضْوان، وبايع الرسول المسلمين فيها على أن لا يَفِرُّوا.

ولم يتخلّف عن البيعة أحَدٌ من المسلمين الذين كانوا معه إلاّ الجدّ بن قيس، فإنّه الوحيد الذي لم يبايع.

قال جابر بن عبد الله: والله لكأنّي أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد ضَبَأ إليها (أي: لَصِق بها) يَسْتَتِرُ بها من الناس.

* * *

الموقف الثاني: بعد أنْ أمر الرسول ﷺ المسلمين أمراً إلزامياً بأن يتجهَّزُوا لقتال بني الأصفر (= الروم) في غزوة تبوك، لَقِيَ الجدّ بْنَ قيْس، والمسلمون يتجهّزون ويُهيِّئونَ ما يلزم لهذه الغزوة.

فقال الرسول ﷺ للْجَدِّ بْنِ قَيْس: «هَلْ لَكَ الْعَامَ في جِلَادِ بني الأَصْفَرِ؟».

فقال الجدّ بن قيس: يا رسول اللّهِ أوتأْذَنُ لي وَلَا تفتنّي، فواللّهِ لقد عَرَفَ قومي أنّه ما من رجُلٍ بأشدَّ عُجْباً بالنّساء مني، وإنّي أخْشَىٰ إنْ رأيتُ نِساء بني الأَصْفَرِ أنْ لا أصْبِر.

فأعرضَ عنْهُ رسول اللّهِ ﷺ وقال له: قد أذِنْتُ لَكَ.

فأنزل الله بشأنه قوله في سورة (التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول):

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

(٣)
حاطِبُ بن أميّة بن رافع من بني ظَفَر

كان شيخاً جسيماً قد أسَنّ في جاهليته، وكان له ابْنٌ من خيار المسلمين اسمه «يزيد بن حاطب».

وقد خرج هذا الابن مع المسلمين في غزوة أُحد، فأُصيبَ حتى أثبتته الجراحات، فَحُمِلَ إلى دار أهله، واجتمع إليه طائفة من رجال المسلمين ونسائهم، وهو يعاني سكرات الموت.

فجعلوا يقولون له: أَبْشِرْ يا ابْنَ حَاطِبٍ بالجنّة، فانْكشفَ نفاق أبيه «حاطب» حينئذٍ، وجعل يقول: أَجَلْ، جنّةٌ والله منْ حَرْمل، غَرَرْتُمْ والله هذا المسكينَ من نفسه.

وكانت الأرض التي يُرْتقب أن يُدفن فيها تنبتُ نبات الْحَرْمل، ومراد حاطب أن يقول: ليس له جنّةٌ إلاّ هذه الأرض التي يُدفَنُ فيها، فدلّ بقوله على أنه ينكر البعث ويوم القيامة.

* * *

(٤)

الحارث بن سُوَيد بن صَامت (من الأوس)

من بني حُبَيب بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس

جاء من أخباره أنّ الأوس والخزرج اقتتلوا في الجاهلية قتالاً شديداً، كان الظفر فيه للخزرج على الأوس، وقُتِل في هذه الموقعة سُوَيد بن صامت، والد الحارث بن سُويد، وكان الذي قتله في هذه الموقعة الْمُجذَّر بن ذِيَاد البلوي واسْمُه عبد الله.

ثمّ لمّا جاء الإسلام دخل الحارث بن سويد فيه منافقاً، وفي غزوة أُحُدٍ خرج مع المسلمين، وحين الْتقى الناس في القتال وجَدَ الحارث بن سويد غرّةً من المجذَّر قاتلِ أبيه في الجاهلية، وهو من المسلمين، فقتله بأبيه، ثم لَحِق بقريش.

وأَمَر رسول الله ﷺ عُمَر بن الخطّاب بقتله إنْ هو ظفر به، إلاّ أنّه فاته، لكن جاء في سير ابن هشام أنّه قُتِل بَعْد ذلك لأمر رسول الله ﷺ.

* * *

(٥)
نَبْتَل بن الحارث (من الأوس)
من بَني لَوْذان بن عَمْرو بن عَوْف

أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: كان نَبْتَل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيستمع منه، ثمّ ينْقُلُ حديثه إلى المنافقين.

رُويَ أنّ الرسول ﷺ قال بشأنه: مَنْ أحبَّ أنْ ينْظُرَ إلى الشيطان فلينظُر إلى نَبْتَل بْن الحارث.

كان نبتل هذا رجُلاً جسيماً أسود طويلاً مسترخي الشفتين، ثائر شعر الرأس، أحمر العيْنين، أسْفَع الخدَّيْنِ (أي: فيهما حُمْرةٌ تضربُ إلى السّواد).

ورُوِيَ أنّ جبريل قال للرسول بشأنه بعد ان ذكر أوصافه: «كَبِدُهُ أغْلَظُ من كَبِدِ الحمار، ينقُل حديثَك إلى المنافقين».

وهو الذي قال: إنّما محمّدٌ أذُنٌ، مَنْ حدَّثه شيئاً صدّقه، فأنزل الله فيه قوله في سورة (التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول):

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

* * *

(٦)
مِرْبَعُ بْنُ قيظي (من الأوس) وكان رجلاً أعمى
من بني النَّبِيت: عَمْرو بن مالك بن الأوس

لمّا خرج رسول الله ﷺ في غزوة أحد شطر جبل أُحُد، رأى من الحكمة العسكريّة أن يمرّ بالجيش مجتازاً في حائط مِرْبَع بن قيظي.

فقال مربع للرسول ﷺ: لا أُحِلُّ لَكَ يا مُحمّد إنْ كُنْتَ نبيّاً أنْ تمرَّ في حائطي،

وأخذ في يده حفنةً من تراب، ثمّ قال: والله لو أعْلَمُ أنّي لا أُصيبُ بهذا التراب غيْرَكَ لرَمَيْتُك به.

فابْتَدَرَه القومُ ليَقْتُلوهُ، فقال رسول الله ﷺ: دَعُوه، فهذا الأعْمَى أعْمَى القَلْبِ أعْمَى البصيرة.

فضربَهُ سَعْدُ بن زيد ــ أخو بني عبد الأشهل ــ بالقوس فشجّه.

* * *

(٧)

أوْسُ بن قيظي (أخو مربع بن قيظي)

من ظواهر نفاقه أنّه جاء إلى الرسول ﷺ في غزوة الخندق فاستأذن الرسولَ لنفسه ولملأ من رجال قومه بأن يرجعوا إلى بيوتهم، قائلاً: يا رسول الله، إنّ بُيوتنا عَوْرَةٌ من العدوّ، فأذَنْ لنا أن نخرج من دارنا فإنها تقع خارج المدينة، مع أنّ بيوتهم ليست بعورةٍ كما زعم.

وفي ذلك أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول):

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

* * *

(٨)

جُلاسُ بن سُوَيْد بن صامت (من الأوس)

من بني حُبَيب بن عَمْرو بن عَوْف بن مالك بن الأوس

● كان ممّن اجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار.

• وكان جُلاسٌ ممّن تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

وقال فيما قال: لئن كان هذا الرجلُ (يعني الرسول ﷺ) صادقاً لَنَحْنُ شرٌّ من الحُمُر، وكان في حجره «عُمَيْرُ بْنُ سعد» إذْ كان زوج أمّه بعد أبيه سعد، فقال له عمير: واللهِ يا جُلاسُ، إنّك لأحبُّ الناس إليّ، وأحسنهم عندي يداً، وأعزُّهم عليّ أن يصيبه شيءٌ يكرهه، ولقد قُلْتَ مقالةً لئن رفعتُها عليكَ لأفضحنّك، ولئِنْ صَمَتُّ عليها لَيَهْلِكَنَّ ديني، وَلإِحْداهُما أَيْسَرُ عليّ من الأخرى.

ثم مشىٰ «عُمير بنُ سعد» إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال «جُلاسُ بن سُوَيد».

فحلَف جُلاس بالله لرسول الله ﷺ: لقد كذب عليّ عُمَير، وما قُلْتُ ما قال عُمَيْرُ بْنُ سعد.

ورُوِي أنّ الذي سمعه ونقل كلامه إلى الرسول عامِرُ بن قيس، وأنّ الآية (٧٤) من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) نزلت بشأنه.

قال ابن إسحاق: فزعموا أنّه تاب، فَحَسُنَتْ توبته، حتّىٰ عُرِفَ منه الخيرُ والإسلام.

وكان قبل توبته من الذين دعاهم رجال المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدَعَوْهم إلى الكهّان حُكّام أهل الجاهلية، فأنزل الله فيهم الآيات من (٦٠ ــ ٦٣) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول).

قالوا: وكان معه في هذه الحادثة من المنافقين، رافعُ بْنُ زَيد، وبشر.

* * *

(٩)
قُزْمان حليف بني ظَفَر

قال ابن إسحاق: حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة، قال: كان فينا رجلٌ أتِيٌّ (أي: غريب) لا يُدْرىٰ ممّنْ هو، يُقَالُ له: «قُزْمان»، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكِرَ له: إنّه لمن أهل النار.

فلمّا كان يَوْمُ أُحُد قاتل قتالاً شديداً، فقَتَلَ وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس، فأثبتته الجراحة، فاحْتُمِلَ إلى دار بني ظَفر.

فجعل رجالٌ من المسلمين يقولون له: واللّهِ لقد أبْلَيْتَ الْيَوْمَ يا قُزْمان، فأَبْشِرْ، وقد أصابك ما ترىٰ في الله.

قال: بماذا أُبَشَّرُ؟ فوالله ما قاتَلْتُ إلَّا حميَّةً عن قومي ولولا ذلك ما قاتَلْتُ.

فلمّا اشتدت عليه آلامُ جراحِه أخذ سهماً من كنانته، فقطع به رواهِشَ يَدِه (أي: عروق ذراعه لِيَسيل دمه) فقتل نفسه.

* * *

(١٠)
الضَّحَّاكُ بْنُ ثابت أحَدُ بني كعب

ذُكِرَ أنّه كان يُتَّهَمُ بالنفاق وحُبِّ يهود الحجاز، وقال فيه حسّان بن ثابت شعراً اتهمه فيه بحبِّهم، وذكر فيه أنَّ عروقه أعْيَتْ أن تتجمّد على الإسلام.

* * *

(١١)
أبو طعمة بشيرُ بْنُ أُبَيْرِق

من أحداثه أنّه سرق من بيت رِفاعة بن زيد حملاً من الدقيق الأبيض ودرعاً وسيفاً وغيرهما من سلاح الحرب، وكان متهماً بالنفاق.

ولمّا توجّهت التُّهَمَة إلى بيت بني أُبَيْرق، قالوا: ما نرى السارق إلّا لَبِيدَ بْن سَهْل، وكان هذا معروفاً بصدق إسلامه وصلاح حاله. فلمّا بلَغَه أنّ بني أُبَيْرق ألقَوْا التُّهَمَةَ عليه سَلَّ سيفَه وأقبل إليهم وقال لهم: أنا أسْرِق؟! والله لَيُخَالِطَنَّكُمْ هذا السيف أو لتبيننَّ هذه السرقة.

فقالوا له: إليك عنّا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها.

ثمّ نـزل القرآن مشيراً إلىٰ الخائنين من بني أُبَيْرِق، في قصة سبق ذكرها لدى دراسة النص (١٧) من سورة (النساء).

وخاف بشير بن أُبَيْرِق أن يُدَان بجريمته بعد نزول القرآن ففرّ من المدينة، ولحق بالمشركين بمكة، فنزلَ على سُلَافَةَ بِنْتِ سَعْدِ بن سُمَيَّة، فرماها حسّانُ بن ثابتٍ بأبياتٍ من شِعْرِه، فأخذتْ رحْلَهُ فوضعتْه على رأسها، ثُمّ خرجَتْ به فرمَتْ به في الأبطح، ثم قالت له: أهْدَيْتَ لي شعر حسّان، ما كُنْتَ تأتيني بخير.

* * *

(١٢)
وديعة بن ثابت من بني أمية بن زيد بن مالك

جاء في سيرة ابن هشام أنّه ممّن بنى مسجد الضرار، وأنّه كان من الرهط الذين جعلوا يشيرون إلى الرسول ﷺ وهو منطلق بجيش المسلمين إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلادَ بني الأصفر (أي: الروم) كقتال العرب بعضِهم بعضاً، والله لكأنا بكم غداً مُقَرّنين في الحبال.

يقولون هذا إرجافاً وترهيباً للمؤمنين.

وقال رسول الله ﷺ لعمّار بن ياسر: أدرك القوم فإنّهم قد احْترقوا (أي: هلكوا) فَسَلْهُمْ عمّا قالوا، فإن أنكروا فقُل: بلىٰ، قُلْتُمْ كذا وكذا.

فانطلق إليهم عمّار بن ياسر، فقال لهم كما أمره الرسول ﷺ، فأتَوْا رسول الله يعتذرون إليه.

وقال وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على ناقته: يا رسول الله، إنّما كُنّا نخوض ونلعب، فأنزل الله قوله في سورة (التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

* * *

(١٣)
عدة رجال ذكرت أسماؤهم ضمن المنافقين

(١) أبو حبيبة الأزعر: كان من الذين بنَوْا مسجد الضرار.

(٢) جارية بن عامر بن العطاف وابنه زيد: كانا من الذين بنوا مسجد الضرار.

(٣) خِذَام بن خالد من بني عبيد بن زيد بن مالك: هو الذي أُخْرِج مسجد الضرار من داره.

(٤) الأخوان بشر بن زيد، ورافع بن زيد: كانا من الذين دعاهم رجال من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدَعَوْهم إلى الكهّان حُكّام أهل الجاهلية.

(٥) «مَالِكُ بن قَوْقل» و «سُويد» و «داعس» كانوا من الذين خانوا الرسول والمؤمنين إبّان حصارهم ليهود بني النضير، فكانوا يحاولون الاتصال بهم، ونصرهم والدفاع عنهم، على ما جاء في أحداث غزوة بني النضير.

* * *

(١٤)
ممّن ذُكِر من المنافقين من أحبار اليهود

(١) سَعْد بْنُ حُنَيْف، من يهود بني قينقاع.

(٢) نُعْمانُ بْنُ أبـي أوفى، من يهود بني قينقاع.

(٣) عثمانُ بن أوفى، من يهود بني قينقاع.

(٤) رافع بن حريملة، من يهود بني قينقاع، وهو الذي يوم مات قال بشأنه الرسول ﷺ: قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين.

(٥) رفاعَة بن زيد بن التابوت، من يهود بني قينقاع، وهو الذي قال الرسول بشأنه حين هبّت على المسلمين ريح وهم قافلون من غزوة بني الْمُصْطَلِق، فاشتدت عليهم حتّى أشفقوا منها: «لا تخافوا، فإنّما هَبّتْ لِمَوْتِ عظيمٍ من عظماء الكفار».

فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت، قد مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الريح، فقد كان من عظماء الكافرين، وكهفاً للمنافقين.

(٦) سِلْسِلَةُ بن برهام، من يهود بني قينقاع.

(٧) كِنانَةُ بن صوريا، من يهود بني قينقاع.

(٨) زيد بن اللُّصَيْت، من يهود بني قينقاع، وهو الذي قال حين ضلّت ناقة الرسول ﷺ وهو في الطريق إلى غزو تبوك: أليس محمّد يزعم أنّه نبيّ، ويُخبرُكم عن خَبَرِ السّماء، وهو لا يدري أين ناقته؟، وكان في رَحْلِ عمارة بن حزم، بينما كان عُمارة عند رسول الله ﷺ، وفي ذلك الوقت قال الرسول ﷺ، وعُمارةُ عنده: إنَّ رجُلاً قال: هذا محمّد يخبركم أنّه نبيّ، ويَزْعُمُ أنّه يُخْبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أينَ ناقته، وإنّي واللّهِ لا أعْلَمُ إلاّ ما علّمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شِعْب كذا وكذا، قد حبَسَتْها شجَرَةٌ بزمامها، فانْطَلِقُوا حتّى تأتُوني بها، فذهبوا فجاءوا بها.

فرجع عُمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لَعجبٌ مِنْ شَيْءٍ حدّثناه رسولُ الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائلٍ أخبره الله عنه بكذا وكذا، للكلام الذي قاله زَيْدُ بن اللُّصَيْت.

فقال رجلٌ ممن كان في رحل عمارة بن حزم، ولم يكن عند رسول الله ﷺ: زيْدٌ والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقبل عُمارة على زَيْدٍ يَضْربُ في عنقه، ويقول: إليّ عباد الله، إنّ في رحلي لداهيةً وما أشْعُر، أُخْرج أيْ عدوّ الله من رحْلي فلا تَصْحَبْني.

• • •

المقولة الثانية

حول طائفة من أحداث المنافقين
في عصر الرسول ﷺ

قد سبق شرح معظمها وتفصيله لدى تدبُّر النصوص

(١)

من أحداث المنافقين الكبرى انخذالهم عن الرسول والمسلمين بنحو ثلث الجيش، بعد مشاركتهم في الخروج إلى غزوة أحد، إذْ نكصوا وعادوا إلى بيوتهم في المدينة بعد أن مَشَوْا بعض الطريق إلى أُحد، متعلّلين بتعِلّاتٍ باطلات تنمّ عن نفاقهم، وأنّهم كاذبون في ادّعاء أنّهم مسلمون.

* * *

(٢)

ومن أحداثهم تخلّفهم عن الرسول والمسلمين في الخروج إلى العمرة التي دعا إليها الرسول ﷺ بإلزام، وهي العمرة التي صَدّ مشركو مكة الرسول والمسلمين معه عن أداء عمرتهم، وكان غرض الرسول من إلزام المسلمين بالخروج تكثير أعداد المسلمين المعتمرين، حتى يخشى المشركون صدّهم عن المسجد الحرام، وأداء مناسكهم فيه.

* * *

(٣)

ومن أحداثهم تخلّفهم عن الخروج إلى غزوة تبوك مع التكليف الإلزاميّ بالخروج، فمنهم من قدّم المعاذير الكاذبات قبل انطلاق الرسول ﷺ إلى الغزوة، ومنهم من تخلّف ثم جاء بعد عودة الرسول منها فجعل يقدّم المعاذير الكاذبات.

* * *

(٤)

مشاركتهم في إثارة الشبهات حول تحويل القبلة من التوجّه لبيت المقدس إلى التوجّه للكعبة المشرفة.

روى ابن جرير بسنده عن السُّدّي قال: كان النبي ﷺ يُصَلّي قِبَل بيت المقدس، فنسختها الكعبة، فلمّا توجّه الناس قِبَل المسجد الحرام اختلف الناس فيها فكانوا أصنافاً.

* فقال المنافقون ما بالُهم كانوا علىٰ قِبْلةٍ زماناً، ثمّ تركوها وتوجّهوا لغيرها.

* وقال المسلمون: ليت شِعْرنا عن إخواننا الذين ماتُوا وهم يصلّون قِبَل بَيْتِ المقدس، هل تقبّل الله منّا ومنهم أو لا؟

* وقالت اليهود: إنّ محمّداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، ولو ثبت على قبلتنا لكُنّا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر.

* وقال المشركون من أهل مكّة: تحيّر على محمّد دينه، فتوجّه بقبلته إليكم، وعلم أنّكُمْ كنتم أهدى منه، ويوشك أن يدخل في دينكم.

فأنزل الله جلّ ثناؤه في المنافقين:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

(البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول).

* * *

(٥)

كان من شأن المنافقين أنهم يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، فيسخرون ويستهزئون بدينهم.

فاجتمع ناس منهم في المسجد في أحد الأيام، فرآهم الرسول ﷺ يتحدّثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض.

فأمر الرسول أن يُخرَجوا من المسجد، فأخرجهم المؤمنون إخراجاً عنيفاً منه.

قام «خالد بن زيد بن كُلَيب» إلى «عمرو بن قيس» وقد كان صاحب آلهتهم في الجاهلية، فأخذ برجله فسَحَبَه، حتّى أخرجه من المسجد وهو يقول:

أتُخرِجني يا أبا أيّوب من مِرْبَد[1] بني ثعلبة، إذْ كان قبل تأسيسه مِرْبداً لبني ثعلبة.

ثم أقبل أبو أيّوب إلى «رافع بن وديعة» فلبّبَهُ بردائه، ثمّ نَتَرَه نتراً شديداً، ولطم وجْهَه، ثم أخرجه من المسجد، وهو يقول له: أفٍّ لَكَ مُنافقاً خبيثاً، أدْراجَكَ[2] يا منافقُ من مسجد رسول الله ﷺ.

وقام «عُمَارة بن حَزْم» إلى «زيد بن عَمْرو»، وكان رجلاً طويل اللّحية، فأخذ بلحيته، فقاده بها قَوْداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد، ثم جَمَع عُمَارة يَدَيْه فلَدَمَهُ[3] بهما في صدره لَدْمةً خرَّ منها.

فقال المنافق «زيد بن عَمْرو»: خَدَشْتني يا عُمارة.

قال عمارة: أبعدك الله يا منافق، فما أعدّ الله لكَ من العذاب أشد من ذلك، فلا تقربنَّ مسجد رسول الله ﷺ.

وقام «أبو محمد مسعود بن أوس من بني النجّار» إلى «قيس بن عَمْرو بن سَهْل»

(١) المربد: موقف الإبل ومَحْبسها.
(٢) أدراجك: أي: ارجع من الطرق التي جئت منها.
(٣) اللّدْم: الضرب ببطن الكفّ.

فجعل يدفع في قفاه، حتّى أخرجه من المسجد، وكان قيسٌ هذا شاباً، ولا يُعْلَم في المنافقين شابٌ غيره.

وقام «عبد الله بن الحارث» من رهط أبي سعيد الخدريّ، إلى رجُل منافق يقال له «الحارث بن عَمْرو» وكان ذا جُمَّة[1] فأخذ بجُمّته، فسَحَبَهُ بها سَحْباً عنيفاً، على ما مَرّ به من الأرض، حتّى أخرجه من المسجد.

وكان المنافق يقول: لقد أغْلَظْت يا ابْنَ الحارث.

فقال له: إنّكَ أهْلٌ لِذَلِكَ أيْ عَدُوَّ الله، لِمَا أنزل الله فيك، فلا تقْرَبَنَّ مسجد رسول الله ﷺ، فإنّكَ نَجِس.

وقام رجُلٌ من بني عوف، إلى أخيه «زُوَيّ بن الحارث» وكانَ منافقاً مع المنافقين، فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً، وقال له: أُفٌّ لَكَ، غلَبَ عليْكَ الشيطانُ وأمْرُه.

* * *

(٦)

أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقيّ في الدلائل، عن أنس بن مالك قال: سَمِع زَيْدُ بن أرقم رجُلاً من المنافقين يقول والنبي ﷺ يَخْطُب: إنْ كان هذا صادقاً لنَحْنُ شرٌّ من الحمير.

قال زيد: هو والله صادق، وأنت شرٌّ من الحمار، فرفَع ذلك إلى النبي ﷺ، فجحدَ القائل، فأنزل الله عزّ وجل قوله:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ .. ﴿٧٤﴾﴾

(التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول).

* * *

(١) الجمّة: مجتمع شعر الناصية، وما نزامى من شعر الرأس على المنكبّين.

(٧)

وأخرج ابن جرير، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عبّاس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظِلِّ شجرة فقال:

«إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنسانٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيْ شَيْطانٍ، فإذا جاءكم فلا تُكَلِّمُوهُ».

فَلَمْ يلبثوا أن طلع رجلٌ أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال:

«عَلامَ تَشْتُمُني أنت وأصحابُكَ؟!».

فانطلق الرجل، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتّى تجاوز عنهم، وأنزل الله قوله:

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ.. ﴿٧٤﴾ ﴾

(التوبة /٩ مصحف/١١٣ نزول).

أقــول:

اختلفت الرواية السابقة عن هذه الرواية في بيان سبب نـزول هذا النص، ولكن لا مانع من تعدّد أسباب النزول لنصّ واحد، ومدار قبول السبب المروي يرجع إلى كون الرواية مقبولة من جهة السند، وتعدّد الروايات المختلفة يدلّ على تكرر حدوث هذه الظاهرة من المنافقين، أفراداً وجماعات، وأنّ الأقوال التي قالوها تُعبّر عن إدانةٍ لهم بالكفر، بعْدَ إعلانهم الإسلام الذي قُبل منهم ظاهراً في الحياة الدنيا، إلّا أنهم لا يقبل منهم يوم الدين، لأنّ الحساب يومئذٍ إنما هو على ما كانوا يُبرّون ويبطنون.

* * *

(٨)

وروى البخاريّ بسنده عن أبي مسعود قال: لمّا أُمِرْنا بالصَّدَقةِ كُنّا نَتَحامَلُ[١]. فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكْثَرَ مِنْه.

(١) نتحامل: أي: نعملُ حمّالين بالأجرة.

فقال المنافقون: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فَعَلَ هذا الآخَرُ إلاّ رِياءً، فنزلت:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

(التوبة /٩ مصحف/١١٣ نزول).

وعند مُسْلِمٍ نظيره، واسْمُ أبي عقيلٍ هذا «الْحُبَابُ».

وجاء عند الطبريّ عن قتادة: أنَّ هذه الحادثة جرت حينَ حثَّ الرسول ﷺ على الصَّدَقة استعداداً لغزوة تبوك.

* * *

(٩)

روى الطبري بسنده، عن سعيد بن جُبير قال:

كان النبيُّ ﷺ يُصَلّي، فمرّ رجلٌ من المسلمين على رجُلٍ مِنَ المنافقين فقال له: النبيُّ ﷺ يُصَلّي وأنت جالس؟!

قال المنافق: امْضِ إلى عَمَلِك إنْ كان لك عمل.

فقال له: ما أظُنُّ إلاّ سيمُرُّ عليكَ من ينكرُ عليك.

فمرّ عليه عمر بن الخطاب، فقال له: يا فلان، النبي ﷺ يصلي وأنت جالس؟!.

فقال له: اِمضِ إلىٰ عملِكَ إن كان لك عمل.

قال عمر: هذا من عملي، فوثب عليه فضربه ضربات بشدة.

ثمّ دخل عمر المسجد، فصلّى مع النبي ﷺ، فلمّا انفتل النبيُّ ﷺ من صلاته قام إليه عمر، فقال له:

يا نبيَّ الله مررتُ آنفاً على فلانٍ وأنت تُصلّي، فقلت له: النبي ﷺ يُصَلّي

وأنت جالس؟!، فقال: امضِ إلى عملك إنْ كان لك عمل.

فقال النبي ﷺ: «فَهلّا ضَرَبْتَ عُنُقَه».

فقام عُمَرُ مُسْرِعاً، فقال النبي ﷺ:

«يا عُمَرَ ارجِعْ، فإنَّ غَضَبَكَ عِزّ، ورِضَاكَ حُكْم»[1].

* * *

(١٠)
موجز أحداث المنافقين إبّان غزوة تبوك

الحدث الأول:

انخذال «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» مع جماعة من المنافقين، بعد أن خرجوا وعسْكَرُوا دون معسكر الرسول، مع أنّ الرسول قد أمر بالخروج أَمْرَ إلزام، لا أمر ندب.

الحدث الثاني:

كان من المنافقين المثَبِّطون، وهم نفر كانوا يجتمعون في بيت «سُوَيْلِم» اليهودي، يثَبِّطون الناس عن رسول الله ﷺ قائلين لهم: لا تنفروا في الحرّ.

فبعث إليهم النبيّ ﷺ طلحةَ بن عُبَيْد الله في نَفَر من أصحابه، وأمَرَهُ أنْ يُحَرِّق عليهم بيت «سويلم» ففعل طلحة ما أمره به الرسول، فاقتحم من المنافقين الضَّحّاكُ بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفْلَتوا، وكان منهم «ابْنُ أُبَيْرِق» كما ذكر الضَّحّاكُ في شِعْرٍ له.

الحدث الثالث:

كان من المنافقين من استأذن الرسول بعدم الخروج إلى غزوة تبوك، متحلاً المعاذير الكاذبات، فأذن الرسول ﷺ لهم.

---

(١) انظر تفسير الطبري، الجزء الأول الصفحة ٢١٠.

الحدث الرابع:

كان منهم من تخلّف عن الغزوة دون استئذان، فلمّا عاد الرسول منها إلى المدينة أقبلوا يعتذرون عن تخلّفهم، ويحلفون الأيمان الكاذبة ويلفّقون المعاذير، فيُعْرِض الرسول عنهم، ويترك حسابهم لله عزّ وجلّ.

الحدث الخامس:

كان رهط من المنافقين منهم «وديعة بن ثابت» يشيرون إلى رسول الله ﷺ ومعه المسلمون، وهم منطلقون إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتَحْسَبُونَ جلاد بني الأصفر (أي: الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنّا بكم غداً مقرّنين في الحبال، إرجافاً وتوهيناً للمؤمنين.

فقال «مُخَشّنُ بن حُمَيِّر» والله لوددتُ أنّي أقاضَى على أن يُضْرَب كلّ رجل منّا مئة جلدة، وإنّا ننفلتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم، وروي أن هذا الرجل قد تاب من نفاقه وحسُنَ إسلامه، وسمّى نفسه «عبد الرحمن».

وروي أنّ الرسول ﷺ أُعْلِم عن طريق الوحي بما قالوا، فقال لعمّار بن ياسر: أدْرِك القوم فإنّهم قد احترقُوا، فسَلْهُمْ عمّا قالوا، فإنْ أنْكَرُوا فقل: بلى، قُلْتُمْ كذا وكذا.

فانطلق إليهم عمّار بن ياسر، فقال لهم كما أمره الرسول ﷺ، فأتوا رسولَ الله يعتذرون إليه، وقال وديعة بن ثابت، ورسول الله واقف على ناقته: يا رسول الله، إنّما كنا نخوض ونلعب.

أقول:

لعلّ هؤلاء المنافقين كانوا يُرَدّدون ما قاله قبلهم رأس المنافقين «عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول» إذْ قال: يغزو محمّدٌ بني الأصفر! والله لكأنّي أنظر إلى أصحابه مقرّنين في الحبال.

الحدث السادس:

استخلف الرسول ﷺ عليّاً رضي الله عنه على أهله في المدينة، فقال المنافقون:

ما خلّفَهُ في أهله إلّا استثقالاً له، وتخفّفاً منه.

فبلغ ذلك عليّاً رضي الله عنه، فأخذ سلاحه وخرج، حتّى أتى رسول الله ﷺ وهو نازلٌ بالْجُرْف[1]، فقال: يا نبيّ الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلفتني أنّك استثقلتني، وتخفّفتَ منّي.

فقال رسول الله ﷺ:

«كذبوا، ولكنّي خلّفتُك لما تركْتُ ورائي، فارْجِعْ فاخْلُفْني في أهلي وأهلك، أفلا تَرْضَىٰ يا عليُّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسىٰ، إلّا أنّه لا نبيّ بَعْدي».

فرجع عليٌّ رضي الله عنه إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ إلى وجهته، وأعطى اللّواءَ الأعظمَ أبا بكر رضي الله عنه.

الحدث السابع:

تعرّض المسلمون لنفاد ما معهم من الماء، حتى عطشوا عطشاً شديداً، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنّ الله قد عوّدك في الدُّعاء خيراً، فادْعُ الله لنا.

فرفع الرسول يدَيْه نحو السماء، فلم يُنْزلهما حتّى أغاثهم الله، فأمطرت السماء، فشربوا ومَلَؤوا أوعية الماء التي لديهم.

وكان رجل من المنافقين معروفٌ بالنفاق، يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلمّا كان من أمْر الناس ما كان، ودعا الرسول، وأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الجيش، فأقبل عليه رفاقه من بني عبد الأشهل، فقالوا له: ويْحكَ، هلْ بعْدَ هذا شيء؟!

قال: سحابةٌ مارّة.

الحدث الثامن:

يُوجد في طريق العودة من غزوة تبوك حسب الطريق الذي سلكه المسلمون وادٍ يُقال له: وادي المشقّق، وكان يُوجَدُ فيه وَشَلٌ[2] ما يُرْوي الراكب، أو الراكبين، أو الثلاثة.

(١) الْجُرْف: اسم مكان على ثلاثة أميالٍ من المدينة.
(٢) الْوَشَلُ: نبع ماءٍ قليل، فيتحلّب متقاطراً ويتجمّع.

فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سبَقَنا إلَىٰ ذَلِكَ الوادي، أو إلى ذلك الماء، فلا يَسْتَقِيَنَّ منه حتّى نأتيه».

فسبقه إليه نفرٌ من المنافقين، فاسْتَقَوْا ما فيه، فلمّا أتاه الرسول وقف عنده، فلم يرَ فيه شيئاً، فقال مستنكراً:

«مَنْ سَبَقَنا إلَىٰ هَـٰذا الماء؟؟».

فقيل له: يا رسول الله، فُلانٌ وفلان، فقال:

«أَوَلَمْ أنْهَهُمْ أنْ يَسْتَقُوا مِنْهُ شَيْئاً حتَّىٰ آتِيه؟!».

وغضب ﷺ من معصيتهم، ودعا عليهم، ثمّ نزل عن راحلته، فوضَعَ يَدَهُ تَحْتَ الْوَشَلِ حيْثُ يتقاطر الماء، حتّى إذا تجمَّعَ فيها مقدارٌ ما منه، نَضَحَ مكان تقاطر الماء بما تجمَّع في يده منه، ومسَحَهُ بيده، ودعا بما شاء الله أن يدعو به، فَتَفَجَّرَ منْه الماءُ تفجُّراً، وقال من سمعه: إنّ لَهُ حِسّاً كحِسّ الصواعق، فشرب الناس، واسْتَقَوْا منه حاجتهم.

الحدث التاسع:

روى البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال (متحدثاً عن حادثة جرت للرسول وهم عائدون من غزوة تبوك):

كُنْتُ آخِذاً بخطام[1] ناقة رسول الله، وعمّار يسوقُ الناقة، حتّىٰ إذا كُنّا بالْعَقَبَة[2]، إذا باثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً قد اعْتَرَضُوهُ فيها، وصار عمّارٌ يَضْرِبُ وُجُوه رواحلهم يُنَحِّيها عن رسول الله ﷺ.

قال حذيفة: فأنْبَهْتُ رسول الله ﷺ، فصرخ فيهم، فولَّوْا مُدْبِرين.

فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ عَرَفْتُمُ القوم؟».

قُلْنا: لا يا رسول الله، قد كانُوا متلثمين.

(١) الخِطام: ما يوضع على خَطْم الجمل او الناقة من حَبْل ليُقاد به، وخَطْمُ الجمل أنفه.

(٢) العقبة: هي المرقى الصعبُ من الجبال.

قال: «هؤلاء المنافقون يوم القيامة، وهَلْ تَدْرُونَ ما أرادوا؟».

قلنا: لا.

قال: «أرَادُوا أنْ يَزْحَموا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْعَقَبَةِ، فَيُلْقُوهُ مِنْها».

قُلْنا: أوَلا تبعثُ إلىٰ عشائرهم، حتىٰ يبعث إليك كلُّ قَوْمٍ برأسِ صاحبهم.

قال: «لا، أكْرَهُ أنْ يتحدّث العربُ أنّ محمّداً قاتل بقومه حتّىٰ إذا أظْهَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ أقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ».

ودعا ﷺ عليهم، وأنزل الله قولَه:

﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ . . . ﴿٧٤﴾﴾ (التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول).

الحدث العاشر:

رُوِي عن عبد الله بن عُمر قال: قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلس من المجالس: ما رأَيْتُ مثْلَ قُرّائنا هؤلاء، أرغَبَ بُطُوناً، ولاَ أكْذَبَ ألْسُناً، ولا أجْبَنَ عنْد اللّقاء.

فقال له رجل في المجلس: كذبتَ، ولكنّكَ منافِقٌ، لأخبرنّ رسول الله ﷺ.

فبلغ ذلك الرسول.

الحدث الحادي عشر:

قصة بناء مسجد الضّرار، وخلاصتها: أنّ أبا عامر الراهب الذي سمّاه الرسول «الفاسق» والذي كان قد تنصّر في الجاهلية، وترك المدينة بعد هجرة الرسول إليها، وتدبيره المكايد ضدّه وضدّ الإسلام، ثم انحاز إلى المشركين في مكة، وقَدِمَ مَعَهُمْ إلى حرب المسلمين في غزوة أحد.

ثم ذهب إلى هرقل مَلِكِ الروم، يستنصره على محمّد وصحبه، فوَعَدَهُ ومنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصار من أهل النفاق والرّيب يَعِدُهم ويُمَنِّيهم أنّه سيَقْدَمُ بجيشٍ يُقاتِلُ به الرّسول، ويغلبه ويَرُدُّهُ عمّا هو فيه، وأمَرَهُم أنْ يتّخذوا له مَعْقِلاً يَقْدَمُ عليهم فيه مَنْ يَقْدَمُ من عنْدِهِ لإيصالِ كُتُبه، ويكُونُ مَرْصداً له إذا قَدِمَ علَيْهم بَعْد ذلك.

فبنى المتآمرون مسجداً مجاوراً لمسجد قباء قبل خروج الرسول ﷺ إلى تبوك، وجاءوا إلى الرسول فسألوه أن يأتي إليهم فيُصَلّي في مسجدهم، وذكروا أنّهم بَنَوْه للضعفاء منهم، وأهل العلّة والحاجة في اللّيلة المطيرة، فعصمه الله من الصلاة فيه، وقال لهم: إنّي على جناح سفر، ولو قَدْ قَدِمْنَا إنْ شاء الله لأتيناكم، فصلّينا لكم فيه.

ولمّا قفل الرسول راجعاً من تبوك إلى المدينة، ولم يبق بينه وبين المدينة إلّا يومٌ أو بعض اليوم، نزل عليه جبريل عليه السلام بخبر مسجد الضّرار، وما أُعِدّ له هذا المسجد.

فدعا الرسول ﷺ صحابيّين من أصحابه وقال لهما:
«انْطَلِقا إلى هذا الْمَسْجِدِ الظّالِمِ أَهْلُهُ، فاهْدِماهُ وَحَرِّقاه».

ففعلا ما أمرهما به الرسول، وماتت المكيدة في مَهْدِها.



الفصل الثالث

منافقون عبر تاريخ المسلمين بعد عصر الرسول ﷺ

وفيه سبع مقولات:

المقولة الأولى : مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

المقولة الثانية : المنافق اليهودي: عبد الله بن سبأ، ويُقال له: ابن السوداء، وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين.

المقولة الثالثة : المنافق اليهودي (أو المجوسي) ميمون بن ديصان القدّاح، وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين.

المقولة الرابعة : المنافق ابْنُ العلقمي وخيانته للدولة الإسلامية وخليفتها العبّاسي المستعصم بالله محمد بن الظاهر.

المقولة الخامسة: يهود الدونمة المنافقون، ودورهم في سقوط الخلافة العثمانية، وإقامة العلمانية.

المقولة السادسة: منظمة البابيّة فالبهائية إحدى المنظمات المنافقة.

المقولة السابعة: منظمة القاديانيّة إحدى المنظمات المنافقة.

● ● ●

المقولة الأولى

مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب

تشير الدّلائل القويّة إلى أنّ اغتيال عمر بن الخطاب قد كان بتدبير من قبل بعض المنافقين في المدينة.

كـان عمر في خـلافته ــ رضي الله عنـه ــ لا يأْذن لسَبْيٍ قـد احْتَلَمَ في دخـول المدينة، حرصاً على عاصمة الـدولة الإسـلامية يـومئذٍ من أن يكـون فيها أحَـدٌ من غير المسلمين، ولو كان عبداً رقيقاً.

حتّى كتب إليه واليه على الكوفة «المغيرة بن شعبة» يذكُرُ له غلامـاً عنده صنعـة، ويستأذنه أن يدخل المدينة، وقـال له: إنّ عنـده أعمالاً كثيـرة فيها منـافع للنـاس، فَهُو حدّاد ــ نقّاش ــ نجّار.

فأذن عُمر رضي الله عنه للمغيرة بن شعبة، في أن يُرسِلَ غلامه إلى المدينة.

هذا الغلام هو «أبو لؤلؤة فيروز» من سبْيِ نَهاوند، مجوسيّ الأصل روميّ الدار، لذلك جاء في وصفه أنّه مجوسي، وأنّه نصراني، والأظهر أنّه مجوسي.

وجاء في الروايات التاريخيّة أنّ أبا لؤلؤة هذا جاء إلى عمر فاشتكىٰ إليـه من كثرة الخراج الذي فرضه عليـه سيّده «المغيـرة بن شعبة» وكـان نحو درهمين في كـلّ يومٍ، أو أكثر قليلاً، على اختلاف في الروايات.

فسأله الخليفة عمّا يملك من صناعة، فأجابه بأنّه «نقّاش ــ نجار ــ حدّاد».

فقال له عمر: «فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع».

فغضب العبد، وقال: «وسِعَ النّاسَ كلّهُمْ عَدْلُهُ غَيْري».

فـأعدّ هـذا العبد خنجـراً ذا طرفين، قبضتُـه من أوسـطه، ودخـل المسجـد مـع المصلّين وقت صلاة الفجر، واغتال خليفة المسلمين وهُوَ يُصلّي إماماً بالناس، واندفع

لا يمرّ على أحَدٍ من المسلمين يميناً أو شمالاً إلاّ طَعنَه، حتّى طعَنَ ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم تسعة رجال، وطرحَ عليه أحد المسلمين برنُساً، فلمّا رأىٰ أنّه مقبوضٌ لا محالة انتحر بخنجره.

روى البخاري بسنده عن «عمرو بن ميمون» أحد شهود الحادثة، قال:

«إنّي لَقَائِمٌ مَا بَيْني وَبيْنَ عمر إلاّ عبد الله بن عبّاسٍ، غداةَ أُصِيبَ «أي: أمير المؤمنين عمر» وكَانَ إذا مرّ بيْنَ الصُّفيْنِ قال: اسْتَوُوا، حتّىٰ إذا لَمْ يرَ فيهم خَلَلاً تقدّمَ فَكَبَّر، وربّما قرأ سُورَةَ يُوسُفَ أو النَّحْلِ، أو نحو ذٰلِكَ في الركعة الأولىٰ حتّىٰ يَجْتَمِعَ النّاس.

فَمَا هُوَ إلاّ أنْ كَبَّرَ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَتَلَني او أكَلَني الْكَلْبُ حِينَ طَعَنَهُ، فَطَارَ الْعِلْجُ[1] بِسِكّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ، لا يمُرُّ على احدٍ يميناً ولاَ شمالاً إلاّ طعنه، حتّى طعن ثلاثة عشر رجُلاً مات منهم تسعة.

فلمّا رأى ذلك رجلٌ من المسلمين طرح عليه بُرْنُساً[2]، فلمّا رأىٰ أنّه مأْخُوذٌ نَحَرَ نفسه.

وتناول (أي: عمر) يَدَ عبد الرحمن بن عوف فقدَّمَهُ.

فَمَنْ يَلِي عُمر فقد رأىٰ الّذِي رأيتُ، وأمّا نواحي المسجد فإنَّهُمْ لاَ يَدْرُونَ، غير أنّهم فَقَدُوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله! سبحان الله.

فصلّى بهِمْ عبد الرحمن صلاةً خفيفة، فلمّا انصرفوا قال (أي: أمير المؤمنين عمر): يا ابْنَ عبّاس، انظر من قتلني، فجال ساعةً ثُمّ جاء فقال: غُلامُ المغيرة.

قال: الصَّنَعُ؟ (أي: الصّانع الحاذق في صناعته).

قال: نعم.

---

(١) الْعِلْجُ: يُطلَق على الرجل من كفّار العجم، ويُطلق على كلِّ جافٍ غليظٍ شديدٍ من الرجال.

(٢) الْبُرْنُس: ثوبٌ له رأسٌ موصول به يُحفظ به الرأس عند الحاجة، وهو من الثياب التقليديّة عند أهل المغرب، وهو مما يُلبَسُ فوق الثياب.

قال: قَاتَلَهُ اللَّهُ، لَقَدْ أَمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفاً، الحمد للهِ الَّذِي لم يجعل منيتي بِيَدِ رَجُلٍ يدّعي الإسلام».

وكان هذا الأمر في ثلاث بقين من ذي الحجّة، من سنة (٢٣) للهجرة النبوية.

وحزن المسلمون حزناً شديداً، حتّىٰ كأنّ الناس لم تُصِبْهُمْ مصيبةٌ قَبْلَ يَوْمئِذ، فما رُؤِي مَلأٌ من النّاسِ إلاّ وهُمْ يَبْكُون.

وروى الطبراني عن سعيد بن المسيّب: أنّ عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة طُعِن عُمر: مرَرْتُ علىٰ أبي لُؤْلُؤَة عَشِيَّ أمْسِ، ومعَهُ جُفَيْنَة، والْهُرْمُزَان، وَهُمْ نَجِيّ (أي: يتحادثون سرّاً) فلَمّا رَهَقْتُهُمْ (أي: غَشِيتُهُمْ وبَاغَتُّهُمْ باطلاعي عليهم يتناجون) ثَارُوا وسقط مِنْهُمْ خَنْجَرٌ لَهُ رأسَانِ، نصابُهُ في وسطه، فانْظُرُوا بِأَيِّ شيءٍ قُتِل؟

وحين أُحْضِرَ ابو لُؤْلُؤَة قتيلاً وجدوا الخنجر الذي وصفه عبد الرحمن بن أبي بكر هو الّذي قتل أبو لؤلؤة به عُمر رضي الله عنه.

وسمع عُبَيْدُ الله بن عُمر بما تحدّث به عبد الرحمن بن أبي بكر، فأدرَكَ أنّ جُفَيْنَةَ والْهُرْمُزَانَ مُشْتَرِكَانِ في تدبير اغتيال أبيه، وأنهما كانا متظاهرين بالإسلام نفاقاً، فأمسك عن الانتقام منهما حتّىٰ مات عمر.

وبعد أن قضي الأمر، وثبتت في نظره إدانتُهما بالاشتراك في الجريمة، اشتمل على سيفه، فأتى الْهُرْمُزَانَ فقتله، ثم مَضَىٰ حَتّىٰ أتىٰ جُفَيْنَةَ، فلمّا علاه بالسيف صَلَّبَ جُفَيْنَةُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ (أي: رسم علامة الصليب النصرانية بين عينيه).

فدلّت الحادثة على أنّ المنافقين من المجوس والنصارىٰ كانوا وراء تدبير جريمة اغتيال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خليفة المسلمين، وقد كان المسلمون في أوج مجدهم عدلاً وإرهاباً.

وتشير بعض الروايات إلى أنّ لكعب الأحبار مشاركة مَا في هذه الجريمة، وهو تابعيٌّ كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في عهد خلافة عمر، والله أعلم بالحقيقة، ومن المعلوم أنّ مكر اليهود عبر التاريخ أشدّ من مكر المجوس والنصارى، وأنّهم يستطيعون أن يخفوا أنفسهم، وأنّهم يعملون ما يريدون بأيدي غيرهم، دون أن يتركوا أدلّة إدانةِ ضدّهم.

المقولة الثانية

المنافق اليهودي عبد الله بن سبأ، ويقال له ابن السوداء وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين

(١)
شخصيته وثبوتها في التاريخ

هو عبد الله بن سبأ، ويقال له: ابنُ السوداء، لأنّ أُمَّهُ كانت امرأة سوداء اللّون، وكان هو أيضاً أسود اللّون.

كان يهودياً، ودخل الإسلام منافقاً في خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

ومعظم الأخبار تؤكّد أنّه من يهود اليمن، وقيل: هو من يهود الحيرة، وقيل: هو روميٌّ كان يعمل لتقويض الدّولة الإسلاميّة بتوجيه من الدولة الرومية «البيزنطيّة».

* * *

أقوال المؤرخين وأصحاب المقالات بشأنه(١)

اتفقت المصادر التي تحدّثت عن تاريخ المسلمين والحركات والمذاهب السياسية والاعتقادية الدينيّة الّتي نشأتْ في عَهْد عثمان رضي الله عنه، من كتب أهل السّنة، وكتب الشيعة، على أنّ هذا المنافق الضّالّ المضلّ قد كان شخصيّةً حقيقيّةً، بخلاف ما ادّعى بعض المعاصرين من الشيعة والمستشرقين، من أنّه شخصيّةٌ وهميّة،

(١) باستطاعة الباحث أن يرجع إلى تفصيل ما قاله بشأنه علماء السّنة وعلماء الشيعة، وإثبات شخصيته منافقاً يهوديّاً إلى ما كتب «إحسان إلَـهي ظهير» في كتابه «الشيعة والتشيّع – فرق وتاريخ» بدءاً من صفحة (٤٨) وإلى كتاب «عبد الله بن سبأ» تأليف «الشيخ سليمان بن حمد العودة».

ليستُروا بهذا الادِّعاء الأصل الذي نشأت بدسائسه ومكايده الفرق التي شقت عصا الوحدة الإسلامية، تحت ستار مناصرة حقّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الخلافة، وحقّ آل بيت الرسول محمد ﷺ بها من بعده، وما نجم عن ذلك من انحرافات اعتقاديّةٍ خطيرة، سلخت فرقاً عديدة من الإسلام سلْخاً كليّاً، وكان بعضهم زنادقةً ملاحدة يؤلِّهُونَ البشر، وأكْفَرَ من اليهود والنصارى.

* * *

بعْضُ من أثبت حقيقته ومقالاته وخباثته
من علماء أهل السنّة

فمن أهل السنة الذين تحدّثوا عن وجوده وتحرّكاته في إثارة الفتنة على عثمان حتى انتَهَتْ بمقتله، وتحدَّثُوا عن مقالاته الكافرة وأكاذيبه التي دسَّها بين المسلمين.

(١) الطبري في تاريخه، معتمداً في الغالب على روايات «سيف بن عمر التميمي».

(٢) ابن الأثير في تاريخه متابعاً الطبري.

(٣) ابن خلدون في تاريخه.

(٤) ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، مستنداً إلى روايات الطبري، وروايات أخرى لا ينتهي سندها إلى «سيف بن عمر التميمي» وهذه الروايات يصل بعضها إلى درجة الصحيح، ويصل بعضها إلى درجة الحسن، كما نقل «العودة» عن «الألباني».

(٥) الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين».

(٦) وذكر ابن سعد السبئيّة في الطبقات الكبرى، دون أن يصرِّح باسم عبد الله بن سبأ على وجه الخصوص.

(٧) البلاذري في «أنساب الأشراف».

(٨) ابن كثير في «البداية والنهاية».

(٩) المقريزي في «خططه».

(١٠) وذكره أيضاً الذين كتبوا في الرجال، ومنهم: «ابن حبّان» و «الذهبي» و «ابن حجر» و «المقدسي» و «المالقي» و «الصفدي» و «الجرجاني» وغيرهم.

(١١) وذكره أيضاً الكتّابُ في الفرق، وأصحاب المقالات، ومنهم: «أبو الحسن الأشعري» و «البغدادي» و «ابن حزم الأندلُسي» و «الإسفراييني» و «الشهرستاني» و «فخر الدين الرازي» و «الكرماني» وغيرهم.

* * *

بعض من أثبت حقيقته ومقالاته وخباثته من علماء الشيعة

ومن علماء الشيعة الذين تحدّثوا عن هذا المنافق اليهودي الخبيث، وتعتبر كتبهم من المصادر الموثقة والمعتمدة عند الشيعة:

(١) أوّل المصادر المهمة النادرة، التي ذكرت عبد الله بن سبأ «رسالة الإرجاء» للحسن بن محمد بن الحنفيّة، المتوفّىٰ سنة خمس وتسعين للهجرة، والتي رواها عنه الثقات من الرجال عند الشيعة.

(٢) سعد بن عبد الله الأشعري القُمّي، المتوفى سنة (٣٠١هـ) في كتابه «المقالات والفرق» وهذا الكتاب مطبوع في طهران سنة (١٩٦٣م).

(٣) أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي، وهو من أعلام القرن الثالث الهجري، في كتابه «فرق الشيعة» وقد طبع هذا الكتاب «كاظم الكتبي» في النجف عدّة طبعات، وطبعه المستشرق «ريتر» في إستانبول سنة (١٩٣١م).

(٤) أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي، في كتابه المعروف باسم «رجال الكِشّي» وقد طبعته مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بكربلاء.

(٥) شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، المتوفىٰ سنة (٤٦٠هـ) في كتابه المعروف باسم «رجال الطوسي» وقد طبع في النجف سنة (١٣٨١هـ - ١٩٦١م) من قبل «محمد كاظم الكتبي».

(٦) ابن أبي الحديد في شرحه لكتاب «نهج البلاغة» وهو شيعي.

(٧) الحسن بن يوسف الحلّي، في كتابه «الرجال» وقد طبع في طهران سنة (١٣١١هـ) ثم في النجف سنة (١٩٦١م).

(٨) محمد باقر الخوانساري، في كتابه «روضات الجنان» وقد طبع في إيران سنة (١٣٠٧هـ).

(٩) الشيخ عبد الله المامقاني، في كتابه «تنقيح المقال في أحوال الرجال» وقد طبع في النجف سنة (١٣٥٠هـ).

(١٠) ابن المرتضىٰ أحمد بن يحيىٰ (ت ٨٤٠هـ) وهو من أئمة الشيعة الزيديّة.

(١١) الأَرْدَبيلي (١١٠١هـ).

(١٢) الصدُوق (٣٨١هـ) في كتابه «من لا يحضره الفقيه».

وغيرهم كما ثبت لدى المتتبّعين لأعلامهم وكتبهم.

قال الدكتور «سعدي الهاشمي» في بحث له عن «عبد الله بن سبأ» نشره في مجلّة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، بالعدد (٤٦) سنة (١٤٠٠هـ) ما يلي:

«اتفق المحدّثون، وأهل الجرح والتعديل، والمؤرّخون، وأصحاب كتب الفرق، والملل والنِّحَل، والطبقات، والأدب، وأُمّهات كتب الشيعة، على وجود شخصيّة تاريخيّة اسمها «عبد الله بن سبأ» الملقب «بابن السَّوْداء» وأنه يهودي جاء من اليمن، وأظهر الإسلام نفاقاً في عهد عثمان رضي الله عنه، وأظهر الصلاح، وجعل يتقرّب من عليٍّ رضي الله عنه، ويظهر محبّته».

فلا شبهة بعد هذا في أنّ المنافق اليهوديّ «عبد الله بن سبأ» هو شيطان الفتنة الكبرى في عهد عثمان، وما جرّت بعد ذلك من ويلاتٍ ونكباتٍ في تاريخ المسلمين.

* * *

(٢)

مقالاته التي نشرها بالتدريج وضلل بها من تأثر به كُلّياً أو جزئيّاً

(١) عبد الله بن سبأ هو أوّل من قال بوصيّة رسول الله ﷺ لِعَليّ أن يكون خليفته من بعده، وأنّه هو خليفته على أمّته بالنصّ، فهو الذي أحدث القول بالوصية لعليّ.

(٢) وهو أوّل من أظهر البراءة من أعداء عليّ رضي الله عنه، وحكم عليهم بالكفر.

وقد أثبت هذا من أقواله من علماء الشيعة: النوبختي، والكشيّ، والمامقاني، والتستري، وغيرهم.

(٣) وهو أوّل من أحدث القول برجعة رسول الله ﷺ إلى الدنيا، والقول برجعة عليّ رضي الله عنه إلى الدنيا بعد موته.

وقد أظهر هذه المقالة في مصر، وكان يقول لمن يعرض عليه أقواله:

أليس قد ثبت أن عيسى عليه السلام سيعود إلى هذه الدنيا؟

فيقول له الرجل: بلى.

فيقول له: فرسول الله أفضل منه، وهو أحقّ بالرجوع من عيسىٰ، فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا، وهو أشرف من عيسىٰ. ويقول: العجبُ ممّن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب برجوع محمد، وقد قال الله عزّ وجل له: ﴿إنَّ الذي فَرضَ علَيْكَ القرآن لرادُّك إلى معاد﴾.

ثم يقول له: وكان قد أوصَىٰ إلى عليٍّ مُحمَّدٌ خاتم الأنبيَاء، فَعليٌّ خاتَمُ الأوصياء.

ثم يقول له: فعليٌّ أحقّ بالأمرِ من عثمان، فعثمان مُعْتَدٍ إذْ تولّىٰ ما ليس له، فأنْكِرُوا عليه، وأَظْهِرُوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن أقواله: إنّه كان ألف نبي، ولكل نبيّ وصيّ، وكان عليٌّ وصيّ محمد، ومن أظلم ممّن لم يُجِزْ وصيّة رسول الله ووثَبَ على وَصِيّ رسول الله وتناول أمر الأمة.

وقد افْتُتِنَ به بشرٌ كثيرٌ من أهل مصر، وقال لمن استجاب له: إنّ عثمان أخذها

بغير حقّ، فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه، ابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادْعُوهم إلى هذا الأمر، فبثّ الدّعاة.

(٤) وهو أوّل من أحدث بين المسلمين القول بالتناسخ، كما ذكر المقريزي، فقال فريق من أتباعه بذلك.

(٥) وهو أوّل من ادّعىٰ النبوّة بعد الرسول ﷺ، وأوّل من قال بألوهيّة عليّ رضي الله عنه وربوبيّته.

روى الكشّي «الشيعي» بسنده عن أبي جعفر، أنّ عبد الله بن سبأ كان يدّعي النبوّة، وزعم أنّ أمير المؤمنين (يعني عليّاً) هو الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

فبلغ ذلك أمير المؤمنين، فدعاه وسألهُ فأقرّ بذلك، وقال: نعم، أنت هو، وقد كان قد أُلقِي في رُوعي أنّكَ أنْتَ اللّهُ وأنّي نبيٌّ.

فقال له أمير المؤمنين: ويْلَك قد سَخِر منْكَ الشيطان، فارجعْ عن هذا ثكِلَتْكَ أُمُّكَ، وتُبْ، فأبى.

تقول الرّواية: فحبسه أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه ثلاثة أيّام فلم يَتُبْ، فأحرقه بالنار، لكنّ الروايات الأخرى الأكثر والأصح تذكر أنه نفاه إلى ساباط المدائن.

وذكر الجوجزاني: أنّ عليّاً نفاه بعدما كان همّ به (أي: هم بقتله).

ويظهر أن ابن سبأ راوغ، ولم يُصِرّ على أقواله في ألوهية عليّ فاكتفى سيدنا عليٌّ بنفيه.

لكنّ مقالته في ألوهية عليّ بين أصحابه السبئيين مقالة ثابتة، ولها وجودٌ بين فرق بعض غلاة الشيعة من الملاحدة حتى الآن.

وبلغ سيدنا عليّاً أنّ بعض مشايعيه يؤلهونه، أو يرون أنّ فيه جزءاً إلَـهيّاً، فجمع من بلغه عنهم ذلك، واستجوبهم، فأقرّوا، فاستتابهم، فأصرُّوا، فأمر بنارٍ فأُجّجت، وجعل جُنْدُهُ يقذفونهم فيها، فلما رأوا ذلك منه جعلوا يقولون: الآن صحّ عندنا أنه الله.

وروي عنه أنه قال:

لـمّـا رأيـت الأمـر أمـراً مـنـكـراً　　أجّـجـتُ نـاراً ودعَـوْتُ قَـنْـبـراً

(٦) وكانت لعبد الله بن سبأ أقوال شنيعة بعد اغتيال سيدنا علي رضي الله عنه. فقال: إنّ علياً لم يَمُتْ، وإنّهُ راجعٌ إلى الدنيا قبل قيام الساعة، فيَمْلَؤُها عَدْلاً، كَمَا مُلِئتْ جوراً.

وقال للّذي جاءه ينعىٰ إليه موت عليّ بن أبي طالب: «لو جئتنا بدماغه في صُرَّةٍ لعلمنا أنّه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه».

وزعم أنّ المقتول لم يكن عليّ بن أبي طالب، وإنّما كان شيطاناً تصوّر للناس في صورته. وقال: لو أقام أحد على قتله سبعين شاهداً عدلاً ما صدّقناه، ولعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل، وإنما صعد إلى السماء، والذين راوه قتيلاً قد شُبّه لهم، كما شُبّه للذين رَأوا عِيسَىٰ مصلوباً.

(٧) ذكر الصفدي في ترجمته لعبد الله بن سبأ، أنه قال لعلي رضي الله عنه: أنت الإلّه، فنفاه إلى المدائن، فلمّا قُتِل عليٌّ زعم ابن سبأ أنّه لم يَمُتْ، لأن فيه جزءاً إلّهيّاً، وأنّ ابن مُلْجم إنّما قتل شيطاناً تصوّر بصورة عليّ، وأنّ علياً في السحاب، وأنّ الرعد صوته، والبرق سوطه، وأنه سينزل إلى الأرض فيملؤُها عدلاً.

هذه المقالة موجودة حتّىٰ الآن لدى بعض الطوائف الكفرة من مشايعي عليّ.

فعبد الله بن سبأ علّم أتباعه أن يقولوا إذا رأَوْا سحابة: أميرُ المؤمنين فيها.

وذكر الجرجاني أنّ أصحاب عبد الله بن سبأ يقولون حين يسمعون الرعد: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

ونقل النوبختي من علماء الشيعة: أنّ الشيعة الغلاة يقولون مقالة ابن سبأ في عليٍّ بعد اغتياله:

إنّ علياً لم يُقْتَلْ، ولم يَمُتْ، ولاَ يُقْتَلُ ولاَ يَمُوتُ، حتى يسوق العرب بعصاه، ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما مُلِئَتْ ظلْماً وجَوْراً.

(٨) وروى الجوجزاني، أنّ من مزاعم عبد الله بن سبأ ادّعاؤه أنّ القرآن جزءٌ من تسعة أجزاء، وعلمه عند عليّ.

فقال السبئية تبعاً له: إنّ محمّداً كتم تسعة أعشار الوحي، وقال فريق منهم: هدينا لوحي ضلّ عنه الناس، ولعلم خفي عنهم.

وقد ردّ عليهم الحسن بن محمد بن الحنفيّة، أحد أئمة أهل البيت، في رسالته «الإرجاء» التي رواها عنه الثقات عند الشيعة قائلاً:

ومن قول هذه السبئية: «هدينا لوحي ضلّ عنه الناس، وعلم خفي عنهم» وزعموا أنّ رسول الله ﷺ كتم تسعة أعشار الوحي، ولو كتم ﷺ شيئاً مما أنزل الله لكتم شأن امرأة زيد، وقوله: «تبتغي مرضاة أزواجك»[1].

(٩) وادّعى «عبد الله بن سبأ» أنّ عليّاً هو دابّة الأرض، وأنّه هو الذي خلق الخلْقَ وبسط الرزق.

(١٠) وظهرت بين أتباعه الغلاة مقالات، منها: انتقال روح القدس في الأئمة، ومنها أنّهم لا يموتون، وإنّما يطيرون بعد موتهم، ولذلك يقال لهم: الطيّارة.

(١١) وكان ابن سبأ يكذب الأكاذيب على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فممّا كان يقول لأصحابه:

إنّ أمير المؤمنين قال لي: إنّه يدخل دمشق، ويهدم مسجدهم حجراً حجراً، ويظهر على أهل الأرض، ويكشفُ أسراراً، ويعرّفُهم أنّهُ ربُّهم.

وعن ابن سبأ أخذ غلاة الشيعة أفكاره هذه موزّعةً في فرقهم، وزادوا عليها ضلالات وكفريات وإباحيّات وإلحاداً.

فمنهم من يؤلّهون عليّاً والأئمة من بعده، ويقولون: إنّ الجزء العلويّ الإلٓهيّ يحُلُّ في الأئمة، وإنّهم بذلك استحقوا الإمامة بطريق الوجوب، كما استحقّ آدم عليه

---

(١) انظر د. سعدي الهاشمي، في بحثه المنشور في «مجلة الجامعة الإسلامية» بالمدينة العدد (٤٦) سنة ١٤٠٠هـ.

السلام سجُودَ الملائكة له، فالإمامةُ عنْدهم موقوفةٌ على نـاسٍ معيَّنين، لا تتعدّاهم، ومن أخذها منهم فهو ظالم.

والمكيـدة اليهوديّة من وراء هـذه الأكـاذيب التي افتـروهـا وروَّجـوهـا أنْ يكـون المنافقون منهم بين صفوف المسلمين، هم الأئمة وأصحـاب السلطان، إذا استطاعـوا أن يسـرقوا أنسـاباً من أنسـاب أهل البيت، ويجعلوا أُسَـراً منهم ضمن أُسَرِ أهـل البيت النبوي، ويدَّعوا لأبْناء هـذه الأسر أنّهم هم الأئمـة، وهو مـا ظهر بعـد ذلك في الـدولة الفاطميّة.

فـالمكيدة ليست مكيـدة شخصٍ واحد فيمـا أرى، بل هي مكيـدة يهـودية ذات أطراف متشعبة يبـرز منها بعض الأطـراف، وتختفي أطراف أخرى كثيرة، على طـريقة المنظمات السِّرِّية.

* * *

(٣)
موجز تحرُّكاته الشيطانية الأولى

(١) تـظاهر اليهـوديّ «عبد الله بن سبـأ» الملقّب بابن السـوداء، بـالإسـلام في خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وأتقن دوره في النفاق.

(٢) وأخـذ يتنقّل في بلدان المسلمين من قُـطْرٍ إلى آخر، محـاولاً إضلالهم عن دينهم، وإثارة الفتن بين صفوفهم.

فابتدأ بالحجاز، ثم انتقل إلى البصرة، ثم عرّج على الكوفة، وأسّس في البصرة والكوفة خلايا له من الأشرار المنافقين ذوي المطامع.

ثم انتقـل إلى بلاد الشـام، فلم يجد فيهـا ما يـرجـو، لأنّ هـوى الشـاميين كـان مجتمعاً فيها على معاوية بن أبي سفيان.

فأتى مصر واستقر فيها، وطاب له فيها العمل، وعقد حبائل الفتنة.

(٣) استطاع أن يؤلّب الأحزاب ضدّ الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت فتنته قد بدأت بالتشنيع عليه وعلى الولاة من قِبَلِه في الأمصار.

(٤) نـزل في البصرة حين انتقل إليها بعد الحجاز على شخص اسمه: «حكيم بن جَبَلَة الْعَبْدي» من بني عبد القيس، وكان هذا رجلاً لصّاً شرّيراً، إذا قفلت جيوش المسلمين خنس عنهم للُصوصيَّة والسَّلْب والنهب، وكان يعثو في أرض فارس، فَيُغيرُ مع عصبته على أهل الذمّة، ويُفْسِد في الأرض، ويُصِيبُ ما يشاء.

فشكاه أهل الذمّة والمسلمون إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه، فكتب إلى عامله «عبد الله بن عامر»: أن احْبِسْهُ ومَنْ كان مثْلَهُ، فلا يخْرُجَنَّ من البصرة حتّى تأنسوا منه رُشداً، وفُرِضَتْ عليه الإقامة الجبرية في البصرة، لاتقاء شرّه وإفساده في الأرض.

ولمّا قدم «عبد الله بن سبأ» البصرة ونزل على هذا الرجُلِ اللصِّ المفسد، وعلم والي البصرة بقدومه، ولعلّه أحسّ ببعض تحرّكاته، دعَاهُ وقال له: ما أنت؟

قال: رجلٌ من أهل الكتاب، رغب في الإسلام والجوار.

فتوجّس منه والي البصرة خيفة أن يُثِير فتنة ويعمل شرّاً، وقال له: اخرج عنّي.

(٥) فخرج من البصرة، ودخل الكوفة، واتّصل ببعض أشرارها، وتآمَرُوا علَى إثارة الفتن، وأحسّ بهم أهل الكوفة، فتوجّسُوا من «عبد الله بن سبأ» خيفة، فأخرجوه.

(٦) وارتحل إلى الشام، ونُسِبَ إليه أنه لقي فيها أبا ذَرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه[1]، فاستثاره على معاوية واليها من قِبَلِ عثمان، مستغِلاً ما لدى أبي ذرٍّ مِنْ رأي في المال، وقال له: ألا تعجب إلى معاوية، يقول: «المالُ مال الله»؟! كأنه يريد أن يحْتَجِزَهُ لنفسه دون المسلمين.

فذهب أبو ذرّ إلى معاوية، وأنكر عليه ذلك قائلاً: ما يَدْعُوكَ أن تُسَمّي مال المسلمين مالَ الله؟

(١) لقاء ابن سبأ لأبي ذرٍّ مشكوكٌ فيه لدى حسّاب التواريخ، ولا يلزم من هذا أن أبا ذرّ لم يختلف مع معاوية، فخلافه مع معاوية ومع عثمان في قضايا الأموال أمرٌ مشهور.

فقال له معاوية: يَرْحَمُكَ اللّٰهُ يا أبا ذرٍّ، ألَسْنَا عباد الله، والمالُ مالُه، والْخَلْقُ خلْقُه، والأمْرُ أمْرُه؟!

لكنّ ابن سبأ لم يجد بغيته عند أهل الشام ضدّ معاوية، أو عثمان، ورأى الشاميّون فيه مثير فتنة ضدّ معاوية الأثير لديهم، وضدّ خليفة المسلمين، ورأوا أنّ هذا الرجل صاحب كيد يعمل لتأليب الفقراء ضدّ الأغنياء، فأخرجوه.

(٧) فرحل إلى مصر وكان ذلك حوالي سنة (٣٤ هجرية) ونزل في مصر على بعض القبائل اليمنية، مثل: «الغافقي بن حرب العكّي» و «سودان بن حمران السكوني» واختبر استثارتهم ضدّ الدّين كلّه فلم يجد لديهم الاستعداد لذلك، فعرّض لهم بالشقاق على الولاة فأطْمَعُوه، إذْ وجد لديهم هوى في ذلك.

وأدرك الخبيث «عبد الله بن سبأ» أنّ والي مصر وداهية العرب «عَمْرو بن العاص» هو العقبة الكبرى في مصر ضدّ مكايده، فبدأ بإثارة الناس عليه، ولَبِس قناع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لبلوغ أهدافه، وقال للّذين استجابوا لمكيدته وإثارة الفتنة:

«أظْهِرُوا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر تستميلوا الناس».

وبدأ «عبد الله بن سبأ» فطعن في «عمرو بن العاص» قائلاً: «ما بالُه أكثرُكُمْ عطاءً ورِزْقاً؟! ألاَ نُنَصِّبُ رجلاً من قريشٍ يُسَوِّي بيننا؟!».

فسَرَّهم ذلك منه، لأنّه وافق هواهم.

خاتمة:

ذكر «إحسان إلَهي ظهير» في كتابه «الشيعة والتشيّع» إجماع مؤرخي السنة والشيعة على أنّ «عبد الله بن سبأ» هو الذي أضرم نار الفتنة، وسعىٰ بالفساد في أرض الخلافة، وأغرى الناس ضدّ عثمان، حتّى انتهت الفتنة بمقتله رضي الله عنه.

وبذلك ثُلِمَتْ ثلمة عظمىٰ في تاريخ المسلمين.

* * *

(٤)
قصة إشعاله الفتنة وتحريكه الثورة التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان

استقر «عبد الله بن سبأ» في مصر، وجَمَع حوله فريقاً من المنافقين، واستمال بعض المسلمين وهم غافلون عن مكيدته، فجعلهم يقبلون أقواله في الطعن على الخليفة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وعلى وُلاته في الأقاليم والأمصار.

وأعلن أن عليّاً هو وصيّ رسول الله، وأنّ هذا الحق قد انتزعه منه أبو بكر وعُمَر وعثمان، وأنّه يجب التخلُّص من عثمان وردُّ الحقّ لصاحبه.

ووجد الخبيث ابن سبأ عوامل ساعدته على إحكام خطته، من لين الخليفة «عثمان» ولين واليه في مصر «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» بعد عزل «عَمْرو بْن العاص» وتوليته الأقربين من بني أميّة، ووجود بعض الناقمين عليه من أولاد كبار الصحابة، وتفرّق أصحاب رسول الله ﷺ في الأمصار، ووجود الأخلاط وأصحاب المصالح الخاصة الطامعين بين بعض القبائل التي لم يتمكّن الإسلام من قلوبهم، ومنهم من كانوا من قبائل المرتدّين في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

واتخذ أولياء له أغراهم بالمنافع والسلب والنهب، من عناصر الفساد والإفساد والطامعين وقطاع الطرق في البصرة والكوفة، مدّة إقامته فيهما قبل أن يرحل إلى الشام فمصر.

واعتمد التركيز على إشاعة فكرة حقّ عليّ رضي الله عنه في الخلافة، بعد أن أذاع كذباً أنّ الرسول أوصى له بها، وأشاع أنّ عثمان رضي الله عنه قد كان ظالماً إذْ وثَبَ على وصيّ رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمّة، وأخذ الخلافة بغير حقّ، وقال لأصحابه ومناصريه في آرائه:

انْهَضُوا في هذا الأمر فحرّكوه، ابدؤوا بالطعْنِ على أُمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تسْتَمِيلُوا الناس، وادعوهم إلى إعادة الحقّ إلى نصابه عليّ بن أبي طالب.

وبثّ دعاته في الأمصار، وجعل يكاتب من كان قد أفسدهم ويكاتبونه، وأخذ دُعاتُه يدعون إلى تغيير الخليفة سرّاً، ويختلقون الأكاذيب عليه وعلى ولاته، إعداداً للقيام بالثورة على عثمان في المدينة، وجعلوا يكتبون الكتب ويرسلونها إلى كبراء الأمصار، فيُرْسِلُ كلُّ متآمري أهل مصر من أتباع ابن سبأ إلى كبراء الأمصار الأخرى، شاكين سوء حال الولاة عليهم من قبل عثمان الخليفة، ويقرأُ أتباعُه هذه الكُتُبَ في أمصارهم، حتّى تناولوا بذلك المدينة عاصمة الخلافة، وأوسعوا الأرض إذاعة عن سوء حال أهلها من ظلم الخليفة.

وحين يَسْمَعُ أهل كلّ بلَدٍ ما جاءهم من أخبار البلدان الأخرى يقولون: إنَّا لَفِي عافيةٍ ممّا ابتُلِيَ به غيرنا من أهل الأمصار.

أمّا أهل المدينة فقد وردت إليهم الكتب المصنوعة من جميع الأمصار، فقالوا: إنّا لفي عافية ممّا عليه جميع المسلمين في أمصارهم.

ووصلت إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه الأنباء التي دُوّنت في الكتب المصنوعة المزوّرة، فقال الذين نقلوا إليه أخبار هذه الكتب من أهل المدينة: أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟

قال: لا والله، ما جاءني إلّا السلامة.

قالوا: فإنّا قد أتانا، وأخبروه بما جاء في الكتب.

قال: فأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا عليّ.

قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممّن تثق بهم إلى الأمصار، حتى يرجعوا إليك بأخبار أهلها.

فقبل مشورتهم، ونفّذها كما يلي:

- أرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة.
- وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة.
- وأرسل عمّار بن ياسر إلى مصر.
- وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام.

ـ وأرسل رجالاً سواهم إلى سائر الأمصار.

فرجعوا جميعاً قبل عمّار بن ياسر، فقالوا: أيُّها الناس، ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكر أعلام المسلمين وعَوَامُّهُمْ شيئاً.

وقالوا جميعاً: الأمر أمر المسلمين، وإنّ أُمَرَاءَهُمْ يُقْسِطُونَ بينهم، ويَقُومُونَ عليهم.

واستبطأ النّاسُ عمّار بْنَ ياسر، حتّى ظنُّوا أنّه قد اغْتِيل.

ثمّ فاجأهم كتاب من والي مصر «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» يخْبِرُ فيه أنّ عمّاراً قد استماله قومٌ بمصر، وقد انقطعوا إليه، وفيهم «عبد الله بن سبأ» و «خالد بن ملجم» و «سودان بن حمران» و «كنانة بن بشر» يريدونه على أن يقول بقولهم، وهم يزعمون أنّ محمّداً راجع، ويدعونه إلى خلْعِ عثمان، ويخبرونه أنّ رأي أهل المدينة على مثل رأيهم، فإنْ رأى أمير المؤمنين أنْ يأذَنَ لي في قتله وقتْلِهِمْ قبْلَ أنْ يُبَايعهم؟

فكتب إليه عثمان رضي الله عنه:

«لَعَمْرِي إنَّكَ لَجَرِيءُ يا ابْنَ أمّ عبْدٍ، لا والله لا أقتله، ولا أنْكؤهُ ولا إيّاهم، حتّى يكون الله عزّ وجلّ ينتقم منهم ومنه بمن أحبّ، فدَعْهُمْ ما لم يخْلَعُوا يداً من طاعة، ويخوضوا ويلعبوا».

بلوغ المؤامرة السبئية ذروتها:

وبلغت المؤامرة الكيديّة السبئيّة ذروتها، ونَشط أبالسة الشرّ والفتنة في إشعال نار الثورة.

(١) فخرج في الكوفة «يزيد بن قيس» ودخل المسجد منادياً بخَلْعِ عثمان، واجتمع إليه أصحابه، ممّن كان عبد الله بن سبأ يكاتبهُمْ، ينادون بخلع الخليفة عثمان.

وأنكر عليهم ذلك أهل العلم والرشد من أهل الكوفة، وقال قائل أهل الرشد: هيهات، لا والله، لا تُسْكِنُ الغَوْغاءَ إلّا المشرفيّة (أي: السيوف).

(٢) وفي مصر أخذت ترد الكتب المزوّرة على ألسنة الصحابة تطالبُ بقتل عثمان.

(٣) وأشعل أصحاب «عبد الله بن سبأ» المنافق اليهودي نار الثورة على عثمان في عدّة أمصار.

(٤) وبلَغَ عثمانَ رضي الله عنه أمْرُ هذِه الفتنةِ ذاتِ الكيد اليهودي المدبّر، فأرسَلَ إلى عُمّالِهِ أنْ يوافوه في موسم الحجّ، ودعا معهم بعض من يثق برأيه ومشورته.

(٥) فحضر إليه معاوية بن أبي سفيان، واليه في الشام، وعبد الله بن عامر، واليه في البصرة، وعبد الله بن سعْدِ بن أبي سرح، واليه في مصر.

وحضر أيضاً عمرو بن العاص، وسعيد بن العاص، وكانا معزولين.

وأخبرهم عثمان بما صنع الناس، وما شكَوْا به إليه، وطلبَ منهم أن يجتهدوا في آرائهم ويشيروا عليه.

* فأشار عليه «عبد الله بن عامر» بأن يأمر الناس بالجهاد، ويُجَمْهِرَهم في المغازي، ليشغَلَهُمْ بذلك عن إثارة الفتن الداخليّة.

* وأشار عليه «معاوية بن أبي سفيان» بأن يردَّ عُمّالَه إلى أمصارهم، على أن يكْفُوه ما يأتي من قبلهم (أي: أن يُطلِقَ أيديهم لقَمْع الفتنة).

* وأشار عليه «سعيد بن العاص» بأن يقتُل قادة هؤلاء الفرق، فيتفرّق أذنابُهم، إذْ إنّ الأمر يُصْنَع في السّرّ، ولا ذنْبَ للعامّة الّذين يتحدّثُون بما يُسَرُّ به إليهم.

* وأشار عليه «عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح» واليه على مصر، بأن يُغْلِق عليهم الأموال، فيُلْجِمَهُم بها، لأنّهم أهلُ طمع.

* وقال له «عمْرو بْنُ العاص»: إنّكَ رَكِبتَ النّاسَ بما يكرهون، فاعْتَزِمْ أنْ تعتدِلَ، وإلاّ فاعْتَزِلْ.

وظنَّ عثمان أنّ هذا القول من «عمرو بن العاص» هو الجدّ منه. حتّى إذا تفرّق القوم عنه أشار عليه عمْرو بأنّ هذا ليس هو رأيه، وإنّما اراد أن يبلُغَ القومَ قولُه، فيثقوا بِهِ، فيقودَ إليه خيراً، أو يصرف عنه شرّاً، وذلك لظنّه انّ الْخَبَرَ سيبلُغُهُمْ.

ورُوي أنه نصحه بقوله:

«أرى أنَّـكَ قد لِنْتَ لَهُمْ، وتراخَيْتَ عَنْهُم، وزدْتَهُمْ على مـا كـانَ يصْنَـعُ عُمَـر، فأرى أن تلزم طريقة صاحِبَيْكَ، فتشْتَدُّ في موضع الشدّة، وتَلِينَ في مَوْضِعِ اللّين».

مقدم الثائرين إلى المدينة من مصر والكوفة والبصرة:

بعـد أن تمّ نسْجُ خيـوط المؤامرة التي دُبّرت في مصر والكـوفة والبصـرة، بمكر شيطانها «عبد الله بن سبأ».

وفي سنة (٣٥ للهجرة) انطلق الثائرون من هذه الأمصار الثلاثة، متظاهرين بأنهم خرجوا للحجّ، وهم إنّما خرجوا للثورة والحرب، وخلع خليفـة المسلمين، بأهـواء ثلاثة، لأنّ مدبّري الفتنة يريدون إحداث الشقاق والتقاتل بين المسلمين بذرائع شتّى، وكان من ضمن الثائرين من سبق أن ارتدّ في عهد أبي بكر.

فالثائرون من مصر هواهم أن يستخلفوا الزبير بن العوّام، أحد العشـرة المبشرين بالجنة.

والثـائرون من البصـرة هواهم أن يستخلفـوا طلحـة بن عبيـد الله، أحـد العشـرة المبشرين بالجنة، ولقبه الرسول «طلحة الخير» وهو من دهاة قريش وعلمائهم.

* فجـاء الثـائـرون من مصـر في أربـع فـرق، وكـان عـددهم مـا بين (٦٠٠) و (١٠٠٠) على اختلاف في الروايات.

قائدهم العامّ بحسب الظاهر «الغافقيّ بن حرب العكي» وكانوا مقسّمين إلى أربع فـرق، على كلّ فـرقة أمير، وهم: «عبد الـرحمن بن عديس البلوي ـ كنـانـة بن بشـر التجيبي ـ سودان بن حمران السكوني ـ قتيرة بن فلان السكوني».

وذُكر من أسماء القادمين: «عروة بن شيم اللّيثي ـ أبـو عمرو بن بـديل بن ورقـاء الخزاعي ـ سودان بن رومان الأصبحي».

وقدم معهم شيطان المؤامرة الخبيثة اليهودي المنافق «عبد الله بن سبأ».

* وجـاء الثائـرون من أهل الكـوفة في أربـع فرق أيضـاً، وكان عـددهم كعـدد القادمين من مصر، بإمارة «عمـرو بن الأصم» أمّا أمراء الفرق فهم: «زيـد بن صوحـان

العبدي ـ الأشتر النخعي ـ زياد بن النضر الحارثي ـ عبد الله بن الأصم أحد بني عامر بن صعصعة».

* وجاء الثائرون من أهل البصرة في أربع فرق أيضاً، وكان عددهم كعدد القادمين من مصر، بإمارة «حرقوص بن زهير السعدي» أمّا أمراء الفرق فهم: «حكيم بن جبلة العبدي ـ زريح بن عبّاد العبدي ـ بشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي ـ ابن المحرش بن عبد عَمْرو الحنفي».

وسار القادمون من الأمصار الثلاثة، حتّى إذا كانوا من المدينة على ثلاث مراحل، توقفوا يستطلعون أحوال أهل المدينة، هل هم سيخْرُجون لقتالهم، أو أن أهل المدينة لا علم لهم بمقدمهم ولا بغايتهم.

وتقدّم من الثائرين طلائع، فنزل المصريون في «ذي المروة» ونزل الكوفيون في «الأعوص» ونزل البصريون في «ذي خشب» [أسماء أمكنة] حول المدينة.

ومشى بين الثائرين من الجهات من نظّم عمليّة الدخول إلى المدينة، حتى لا يُفاجَؤوا بما يُحْبِط أعْمالهم الكيديّة.

ودخل رجلان من الثائرين المدينة يتحسّسان الأخبار، ويستطلعان ما لدى كبار الصحابة من رأي، هما «زياد بن النضر» و «عبد الله بن الأصم» فلقيا أزواج النبي ﷺ وعليّاً وطلحةَ والزبير، وعرضا عليهم رغبة القادمين بتغيير بعض عُمّال عثمان، وتلطّفوا بالحديث، وطلَبُوا الإذن للوفود بدخول المدينة، فكلّهم أبَوْا، ونَهَوْهُمْ عن متابعة ما جاءوا من أجله، فرجعا وأبْلَغا الوفود بما لقوا من الذين واجهوهم.

واستنفر أهل المدينة لحمايتها من الثائرين، وأقاموا مواقع تربّص معسكرين مسلّحين.

فاجتمع من القادمين من مصر نفر فأتوا «عليّاً» رضي الله عنه، فسلّموا عليه، وعرّضوا له، فصاح بهم وطردهم، وقال لهم:

«لقد علم الصالحون أنّ جيش ذي المروة وذي خُشب، ملعونون على لسان محمّد، فارجعوا لا صَحِبَكُمُ الله».

قالوا: نعم، فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى نفر من البصريين «طلحة» رضي الله عنه، فسلّموا عليه وعرّضوا لـه، فصاح بهم وطردهم، وقال لهم:

«لقد علم المؤمنون، أنّ جيش ذي المروة، وذي خشب، والأعوص، ملعـونون على لسان محمد ﷺ».

وأتى نفر من الكوفيين «الزبير» رضي الله عنه، فسلّموا عليه وعرّضـوا له، فصـاح بهم وطردهم، وقال لهم:

«لقـد علم المسلمون أن جيش ذي المروة، وذي خشب، والأعوص، ملعـونون على لسان محمّد ﷺ».

وكان علي وطلحة والزبير قد بعثوا بعض أولادهم لحماية عثمان في داره.

وتوجه قادة الثائرين لعثمان رضي الله عنه، متذرّعين بأنّهم يريدون أنْ يذكـروا له أموراً، ويعرضوا عليه مسائل.

فاستقبلهم الخليفة، وأجابهم على أسئلتهم.

قالوا له: ادع بالمصحف. فدعا به.

قالوا: اقرأ سورة يونس.

فقرأ، فلما وصل إلى قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أوقـفـوه.

وقالوا: أرأيتَ ما حُمِيَ من الْحِمَىٰ؟ آللّهُ أذن لك أَمْ على الله تفتري؟ وذكروا لـه أشياء أخرى.

وكـان يجيبهم بمـا يعلم من كتـاب الله، ويبيّن لهم وجـه الحقّ، وخـطأهم في التأويل، ويقيم عليهم الحجّة رضي الله عنه.

ثم إنّهم خرجوا متظاهرين بالرضا، وكتبوا عليه شرطاً، وأخذ عليهم ميثاقاً ألاّ يشقُّوا العصا، ولا يفارقوا الجماعة، ما أقام لهم شرطهم.

وأدرك عقلاء الصحابة، وكبار المسلمين من أهل المدينة، أنَّهُمْ أصحاب شرّ، فأشاروا على الخليفة بقتلهم، ولكن عثمان رضي الله عنه أبى.

وتفرّقت الطلائع عن ذي المروة، وذي خشب، وذي الأعوص، حتّى انتهَوْا إلى عساكرهم الرابضة على ثلاث مراحل، لإيهام أهل المدينة أنَّ الثائرين قد رجعوا إلى بلدانهم.

ودبّر أصحاب المكيدة خطّة للعودة إلى المدينة مباغتين، بعد أن يكون حُماتُها قد عادوا إلى بيوتهم، وعاد حرّاس بيت الخليفة إلى بيوتهم وأهليهم، ظانّين أنّ جيوش الثائرين قد عادوا إلى بلدانهم.

واتفق صانعو المكيدة مع بعض المنافقين في المدينة، على أن يحمّلوه رسالة مزوّرة كتبوها، ممهورة بختم الخليفة عثمان، ويحملها معه متظاهراً بأنّه سائر باتّجاه مصر، وأنْ يتعرّض من حين لآخر للقادمين من مصر وهم قافلون، حتّى لا يُشْعِرُوا جمهور الثائرين بأنَّ العودة إلى المدينة خطّة مدبّرة في المدينة.

واتفقوا مع القادمين من الكوفة والبصرة على أن يأتوا المدينة مباغتين في وقت قدّروه كافياً لدخولها مجتمعين، بعد أن يكون حماتُها وحماةُ الخليفة قد رجعوا إلى مساكنهم.

وبينما رَكْبُ المصريّين عائدون وفْقَ ما حصل عليه الاتفاق مع الخليفة، إذا براكب يعترض لهم ويفارقهم، ثم يرجع لاعتراضهم، ثمّ يفارقهم.

عندئذٍ استوقفه قادة الركب ليبدو أنّه أمر طبيعي غير مدبّر، وقالوا له: مَا لَكَ؟

قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر.

ففتّشوه، فعثروا معه على كتاب من عثمان وعليه خاتمه، وفيه الأمر بصلبهم، أو قتلهم، أو قطع أيديهم وأرجلهم.

فأعلنوه على الركب، واستثاروا به غضبهم، فارتدّوا راجعين شطر المدينة.

وكرّ أيضاً القادمون من البصرة والكُوفة دون اتّخاذ عُذْرٍ مشابه، لأنّ جميع أفرادهم ضالعون في الخيانة، بخلاف القادمين من مصر، فإنّ فيهم من هو مغرَّر به.

ودخلوا المدينة مباغتين يكبّرون، وعسكروا فيها، وصلّى عثمان بالناس أيّاماً، ولزم الناس بيوتهم، ثم أحاط جمع من الثائرين بدار عثمان محاصرين، ونادوا في المدينة: منْ كفّ يده فهو آمن.

فأتاهم الناس فكلّموهم وفيهم عليٌّ وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وقال لهم علي: ما ردّكم بعد أن رجعتم عن رأيكُمْ وانصرفتم.

قال المصريون: وجدنا مع رجل البريد كتاباً بقتلنا.

وسأل طلحة البصريين، والزبير الكوفيين، فقالوا: نحن ننصر إخواننا، وقال المصريون لعليٍّ: ألم تر إلى عدوّ الله كتب فينا بكذا وكذا؟ وإنّ الله قد أحلّ دمَهُ، فقُمْ معنا إليه.

قال علي: والله لا أقوم معكم.

قالوا له: فَلِمَ كتبتَ إلينا؟

قال علي: واللّهِ ما كتبتُ إليكم كتاباً.

فنظر بعضهم إلى بعض قائلين: ألهذا تقاتلون؟ أو لهذا تغضبون؟

وقال عليٌّ رضي الله عنه: يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة، كيف علمتم بما لقي أهل مصر، وقد سِرْتم مراحل، ثم طويتم نحونا، هذا والله أمْرٌ أبْرِمَ في المدينة.

قالوا: فضعوها على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، فليعتزلنا.

وانطلقوا إلى عثمان، فقالوا: كَتَبْتَ فينا بكذا وكذا.

فقال رضي الله عنه: إنّهما اثنتان:

* أن تُقِيموا رجلين من المسلمين (أي: شاهدين على أنّه كاتب هذا الكتاب الذي يدّعون).

* أو يميني بالله الذي لا إلّه إلاّ هو، ما كتبتُ، ولا أمْلَيْتُ ولاَ علمتُ، وقد

يُكتَبُ الكتاب على لسان الرّجل، ويُنْقَشُ الخاتم على الخاتم.

قالوا: قد أحلّ الله دمَكَ، ونقضْتَ العهدَ والميثاق، وحصروه في داره رضي الله عنه محاصرةً شديدة ليعتزل ويخلع نفسه.

وجاء عليٌّ وأهل بيته، وطلحة، والزبير مع أبنائهم، للدفاع عنه، فقال عثمان مخاطباً لهم:

يا أهل المدينة، إنّي أستودعكُمُ الله، وأسْأَلُهُ أن يُحْسِن عليكم الخلافة من بعدي، إنّي واللّهِ لا أُدْخِلُ عَلَيَّ أحداً بعْدَ يومي هذا حتى يقضي الله فيَّ قضاءه.

ولأدَعَنَّ هؤلاء وراء بابي غير معطيهم شيئاً يتّخذونه عليكُمْ دَخَلاً في دين الله، حتّى يكون اللّهُ عزّ وجلّ الصانعَ في ذلك ما أحبّ.

وأمر عثمانُ أهل المدينة بالرُّجوع، وأقسم عليهم، فرجعوا إلّا الحسَنَ بن علي، ومحمد بن طلحة، وعبد الله بْنَ الزبير، وأمثال هؤلاء، فكان هؤلاء عند باب دار عثمان، عن أمر آبائهم، وثاب إليهم ناسٌ كثير.

ولزم الخليفةُ عثمانُ داره.

واستمر الحصار اثنين وعشرين يوماً، ثمّ أحْرَقَ المحاصرون باب داره، وفي الدار عددٌ غير قليل من حرّاس عثمان، فيهم عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، فقالوا لعثمان: ائذنْ لنا بقتالهم.

فقال عثمان: إنّ رسول الله ﷺ عَهِد إليّ عهداً، فأنا صابرٌ عليه، وإنّ القوم لم يحرقوا باب الدار إلّا وهم يطلبون ما هو أعظم منه، فأحرِّجُ على رجُلٍ يستقتل ويقاتل.

فلم يأذن لهم بأن يقاتلوا دفاعاً عنه، وخرج الناس كلُّهُم.

ودَعا بالمصحف يقرأ فيه، والحسَنُ بْنُ عليٍّ عنده، فقال له: إنّ أباك الآن لفي أمْرٍ عظيم، فأقْسَمْتُ عليكَ لَمَا خَرَجْتَ.

وأمر عثمان أبا كرب ــ رجلاً من همذان ــ وآخر من الأنصار أن يقوما على باب بيت المال، وليس فيه إلّا غرارتان من وَرِق.

وأطفئت النار، وناوش ابنُ الزبير ومروانُ بعضَ المحاصرين، وتوّعدهما محمّدُ بن أبي بكر، وكان من ضمن الثائرين المحاصرين المغرّر بهم.

واقتحم بعض المحاصرين الدار، ودخلوا على عثمان رضي الله عنه، فوجدوه يقرأ في المصحف، وانهالوا عليه يضربونه، وهو صابر محتسب، ووجأَهُ بعضُهُمْ في ترقوته فسال دمُهُ على المصحف، وهم يهابون أن يقتلوه، وكان شيخاً مُسِنّاً، وغُشِيَ عليه، ودخل آخرون، فلمّا رأوه مغشيّاً عليه، جرُّوا برجله، فصاحت زوجته نائلة، وصاحت بناتُه، وجاء كنانة بن بشر التجيبي، قائد أحد الفرق القادمة من مصر، مخترطاً سيْفَهُ، يُريد أن يجهز على الخليفة، فحاولت زوجة «الخليفة «نائلة» أن تَقِيَهُ، فقطع التجيبيُّ يَدَها، ووضع سيفه في صدر عثمان واتّكأ عليه، فقتله قبل غروب الشمس.

وقد اشترك قادة الفرق المصرية في ضربه وجرحه قبل قتله.

وتمت المؤامرة الخبيثة، متابعاً نسج خيوطها المنافِقُ اليهودي «عبد الله بن سبأ» وحقّق أهدافَهُ الرامية إلى شقِّ عصا وحدة الأمّة الإسلاميّة، وتقاتلهم، وتمزيق صفوفهم.

ونشأت فرق الشيعة أصْحابَ مَذاهبَ دينيَّة، بعد أن كانت اتجاهاتهم نزعات سياسية، ودخلت مذاهبهم هذه في صلب العقائد الدينيّة تحريفاً لا أصل له.

وظهرت بعد ذلك فرق الشيعة بألوانها الأبيض الصافي، والرّمادي، والبُنّي، والأسود، واستحكم النفاق في الغلاة، وأصاب منه من دُونَهُمْ على مقادير ألوانهم.

* * *

(٥)
موقف عليّ رضي الله عنه وأهل البيت النبويّ من عبد الله بن سبأ والسبئيَّة وغلاة الشيعة

(١) لقد كان موقف سيدنا علي رضي الله عنه من السبئيين موقفاً شديداً حازماً، إنَّهُ لمّا استجوبهم عن عقيدتهم فيه، وعلم أنهم يؤلّهونه، استتابهم، فلمّا لم يَتُوبُوا أمَرَ

بقتلهم تحريقاً بالنار، وتمّ تنفيذ هذا القتل في الّذين أُدينوا بهذه المقالة، وبقي آخرون منهم متسترين، وأحكم إمامُهُمُ المكيدَةَ، إذْ اوهمهم انّ عَلِيّاً احْرَقَ من افْشَىٰ واعْلَنَ أُلوهيَّته، وكان عليهم أن يُبْقوا الأمر سرّاً، وأنْ يَلْجَؤُوا إلى التقيّة، وان يتظاهروا بغير ما يعتقدون فيه.

أمّا إمامُهُمُ اليهودي المنافق «عبد الله بْنُ سَبَأ» فالصحيح من الروايات أن عليّاً رضي الله عنه لم يقتله، بل نفاه إلى ساباط المدائن، والذي يظهر أن ابن سبأ بعد أنْ أظهر مقالته لسيدنا عليّ بغية استدراجه لإفساد الدّين، ورأىٰ أنّ عليّاً لا يمكن استدراجه، وأنّه إذا أصرّ على مقالته ألحقه بمن قتله تحريقاً، وبذلك يتمّ وَأْدُ المكيدة الّتي دبّرها ضدّ الإسلام والمسلمين، فراوغ وتراجع عن مقالاته التي تُوجِبُ قتله، فاكْتَفَىٰ سيدُنا علي بنفيه ولم يقْتُلْه، كما سبق بيان هذا.

(٢) وكان لسيّدنا عليّ رضي الله عنه موقفٌ جليٌّ واضحٌ بالنسبة إلىٰ الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، تكشفه خطبةٌ خطبها في الناس، أعلن فيها رأيه في الصاحبين الجليلين.

روى زيد بن وهب أنّ سُوَيد بن غفلة، دخل على عليّ رضي الله عنه في إمارته (وكان من خاصته وكبار أصحابه) فقال له: يا أمير المؤمنين مررت بنفر من الشيعة يتناولون أبا بكر وعمر بغير الذي هما من الأمّة له أهل، ويرون أنّك تضمر لهما على مثل ما أعلنوا، وذكر له أن من هؤلاء النفر «عبد الله بن سبأ».

فقال سيدنا علي رضي الله عنه: «مَا لي ولِهَذَا الخبيثِ الأَسْود» ثم قال: «مَعَاذَ اللّهِ أَنْ أُضْمِرَ لَهُمَا إِلاَّ الْحَسَنَ الْجميل».

ثم أرسل عليٌّ رضي الله عنه إلى عبد الله بن سبأ فسيَّره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بَلْدَةٍ أبداً.

وجاء في رواية الهمذاني في كتابه «تثبيت دلائل النبوّة» أنّ عليّاً رضي الله عنه قال: أعوذُ بالله، أعوذُ بالله، أنْ أُضْمِرَ لَهُما إلاّ الذي اتمنَّىٰ الْمُضِيُّ عليه، لَعَنَ اللّهُ مَنْ

أضمَرَ لَهُما إلاّ الْحَسَنَ الجميل، أَخَوَا رَسُولِ اللّهِ ﷺ، وصاحباه ووزيراه، رحمةُ الله عليهما.

ثمّ نهضَ دامع العينين يبكي، قابضاً على يَدِ سُويدٍ، حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، فجلس عليه متمكّناً، قابضاً على لحيته وهي بيضاء، حتّى اجتمع الناس.

ثُمّ قام فتشهَّد بخطبة موجزة بليغة، ثم قال:

«ما بالُ أقوام يذكُرونَ سيّدَيْ قريشٍ، وأبَوَي المسلمين، بما أنا عنه مُتَنَزِّهٌ، وممّا قالُوا بريء، وعلى ما قالوا معاقبٌ.

أَمَا والذي فلَقَ الحبّةَ وبرأ النسمة، لا يُحِبُّهُما إلاّ مؤمنٌ تقيٌّ، ولا يُبْغِضُهما إلاّ فاجرٌ رديءٌ، صَحِبا رَسُولَ اللّهِ على الصِّدْقِ والوفاء، يأمُران وينْهَيان، ويَقْضِيَانِ ويُعَاقِبَان، فَمَا يُجَاوِزَانِ فيما يصْنَعان رأيَ رسول الله ﷺ، وكَانَ لا يَرىٰ مثل رأيهما رأياً، ولا يُحِبُّ كحُبِّهِمَا أحداً، مضىٰ رسول الله ﷺ وهو عنهما راضٍ، ومَضَيَا والْمُؤْمِنُون عَنْهما راضونَ.

أمَرَ رَسُول الله ﷺ أبَا بكر على صلاة المؤمنين، فصَلّىٰ بهم تلكَ الأيّام في حياة رسول الله ﷺ، فلمّا قبضَ اللّهُ نبيَّهُ عليه السلام، واختار له ما عنده، ومضى مفقوداً، ولاّه المؤمنون ذلك، وفوّضوا إليه الزكاة لأنّهما مقرونتان، ثُمّ أعطَوْه البيعةَ طائِعينَ غَيْرَ مُكْرهين.

أنا أوّل من سنّ له ذلك من بني عبد المطّلب وهو لذلك كاره، يَوَدُّ لو أنّ بعضنا كفاه، فكان والله خير من بقي رأفةً، وأرْحَمَه رحْمةً، وأَيْبَسَهُ وَرَعاً، وأقدمَهُ سِلْماً وإسلاماً.

شبَّهَهُ رسول الله ﷺ بميكائيل رأفةً ورحمةً، وبإبراهيمَ عفْواً ووقاراً، فسارَ فينا سيرة رسول الله ﷺ حتى قبضه الله على ذلك.

ثم وَلِّيَ الأَمْرَ بَعْدَه عُمَـرَ، واسْتَأْمَرَ في ذلك المسلمين، فمنهم مَنْ رَضِيَ ومنْهم من كَرِهَ، فلم يفارق الدنيا حتّىٰ رضي به من كان كرهه، وأقام الأمر على منهاج النبي ﷺ، يَتْبَعُ أثَرَهُما كاتِّبَاعِ الْفَصِيلِ أثَرَ أُمِّه، وكان واللّهِ رفيقاً رحيماً لضعفاء

المسلمين، وبالمؤمنين عوناً وناصراً على الظالمين، لا تأخُذُهُ في الله لومةُ لائمٍ، ضربَ اللَّهُ بالحقِّ على لِسَانِهِ، وجَعَلَ الصِّدْقَ من شانه، حتّى إنْ كُنّا لنظُنُّ أنَّ مَلَكاً يَنْطق على لِسَانه، أعزَّ اللَّهُ بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدّين قواماً، ألقىٰ الله لَهُ في قلوب المؤمنين المحبَّة، وفي قُلوب المشركين المنافقين الرّهبة.

شَبَّهَهُ رسُولُ الله ﷺ بجبريل، فطِناً غليظاً على الأعداء، وبِنُوحٍ حَنِقاً ومغتاظاً على الكفّار، والضَّرّاءُ على طاعةِ اللَّهِ آثَرُ عِنْدَه مِنَ السَّرَّاءِ علَىٰ معصية الله.

فَمَنْ لكُمْ بِمِثْلِهِمَا رحْمَةُ اللَّهِ عليهما، ورزقنا المضيَّ على سبيلهما، فإنّه لا يُبْلَغُ مَبْلَغُهُما إلّا بالحبِّ لهما، واتباعِ آثارهما، فمن أحبّني فَلْيُحِبَّهُما، ومَنْ لمْ يُحبَّهُما فقد أبغضني، وأنا منه بريء.

ولَوْ كُنْتُ تَقَدَّمْتُ إليكُمْ فِي أَمْرِهِمَا(١)، لعَاقَبْتُ علىٰ هذا أشدّ العقوبة، فمن أُوتيتُ به بعْدَ هذا اليوم فإنّه عَلَيْهِ مَا علىٰ المفتري، ألا وخيرُ هٰذِهِ الأمّةِ بعْدَ نَبِيِّها أبو بكر وعمر، ثمّ الله أعلَمُ بالخيْرِ أيْنَ هو؟

أقول قولي هذا وأستغفر اللَّهَ لي ولكم»(٢).

وذكر «النوبختي» الشيعي أنّ علياً عليه السلام قد همّ أن يبطش بمن يتكلم في أبي بكر وعمر.

وقال عليٌّ رضي الله عنه في عثمان: «أيّها الناس، إيّاكم والغُلُوّ في عثمان، تقولون حرّق المصاحف، واللّهِ ما حرّقها إلّا عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ، ولو وُلّيت مثل ما وُلّي لفعلتُ مثل الذي فعل»(٣).

(٣) نقلَتْ كُتُب الشيعة عن أهل بيت سيدنا عليّ رضي الله عنه أنّهم اشتكَوْا من الكذّابين الذين يكذبون عليهم من مُشايعيهم، وهذا يدلُّ على أنّ هؤلاءِ المشايعين

---

(١) أي: لو سبق لي أن حذّرتكم من التكلم فيهما بسوء لعاقبت على ما بلغني أشد العقوبة.

(٢) تثبيت دلائل النبوة للهمذاني ٢/٥٤٦ ــ ٥٤٨ ط بيروت عن إحسان إلٰهي ظهير في كتابه «الشيعة والتشيُّع» وقال: وأورد هذه الخطبة كثيرون من الشيعة والسنة.

(٣) عن ابن كثير في (البداية والنهاية) ٧/٢٣٦ أخذاً من كتاب «عبد الله بن سبأ» للشيخ العودة.

الكذّابين مُنَافقون تظاهروا بمشايعة عليٍّ وأَهْلِ بيتِه لهدم الإسلام وتمزيق المسلمين، وكان إمامُهُمْ في ذلك وشيطانُهم الأكبر عبد الله بن سبأ، الملقب بابن السوداء.

روى الكِشّي في كتابه المعروف «برجال الكِشّي»(1) وهو من علماء الشيعة، عن ابن سنان، قال أبو عبد الله (ع):

«إنّا أهْلَ بيتٍ صَادِقُون، لا نَخْلُو من كذّابٍ يَكْذِبُ علينا، فَيَسْقُطُ صِدْقُنَا بِكَذِبه عَلَيْنَا عند الناس.

كانَ رسول الله ﷺ أَصْدَقَ البريّة لهجةً، وكان مُسَيلِمَةُ يكْذِبُ عليه.

وكان أمير المؤمنين (ع) أصدق من برأ اللّهُ من بعد رسول الله، وكان الذي يكذب عليه عبد الله بن سبأ لعنه الله.

وكان أبو عبد الله الحسين بن عليّ (ع) قد ابتُلِيَ بالمختار. ثمّ ذكر أبو عبد الله الحارثَ الشّاميَّ وبَنَانَ، فقال: كانا يكذبان على عليّ بن الحسين (ع).

ثُمّ ذكر المغيرةَ بنَ سَعِيدٍ، وبريغاً، والسّريّ، وأبا الخطاب، ومعمراً، وبشّاراً الأشعري، وحمزة اليزيدي، وصائداً النهدي، فقال: لعنهم الله.

إنّا لا نَخْلُو منْ كذّابٍ يكذب علينا، كفَانَا الله مُؤْنَة كُلّ كذّاب، وأَذَاقَهُمُ اللّهُ حرّ الحديد».

أقول: وممّا يؤسف له أن معظم شيعةِ عليّ رضي الله عنه وآلِ بيته اتّخذوا الكذب ديناً لهم، باسم «التَقِيّة» واتّبَعَ برءاؤهُمْ في هذا ـ وَهُمْ لا يَشْعُرون ـ دَسَائِسَ المنافق اليهودي «عبد الله بن سبأ» مع أنّهم يتبرّؤون منه، باستثناء الغلاة الكفرة المنافقين.

وممّا يؤسف له أن كثيراً من عقائد الشيعة مأخوذة من المقالات التي دسّها عبد الله بن سبأ بين أتباعه، فهو الذي جاء بأفكار الوصية والرجعة، والولاية، والإمامة، والتناسخ، والبداء، وغيرها.

● ● ●

(1) انظر ص (٢٥٧ ـ ٢٥٨).

المقولة الثالثة

المنافق اليهودي «أو المجوسي»
ميمون بن ديصان القداح
وخبائثه الخطيرة في تاريخ المسلمين

كانت الفرقة الخطّابيّة المنافقة والمتظاهرة بمشايعة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ومشايعة آل بيته، والتي أسّس أفكارها «أبو الخطّاب الأجدع» قائمة على الإباحيّة المطلقة، وأنّ الله تعالى يَحُلُّ في أبدان الرسُل والأئمة، وأخيراً حلّ فيه، وزعم انّ كلّ شيء فرضه الله في القرآن أو حرّمه أو أحلّه فإنّما هو رمزٌ عن أسماء رجال، فما حرّم من أنصاب وأزلام وخمر وميسر هي رموز عن أشخاص كأبي بكر وعمر وعثمان ونحو هؤلاء.

وكان هذا اللّعين أبو الخطاب من أصحاب جعفر الصادق، والرّوات عنه، وادّعى أنّه جعله قيّمه ووصيَّهُ من بعده، ونسبَ أقواله التي روّجها بين أهل النفاق الذين تأثروا به إلى جعفر الصادق.

ولمّا علم جعفر بأمره أعلن تبرُّؤَهُ منه ومن أقواله، ولعَنَه على رؤوس الأشهاد، وقال بشأنه وبشأن الذين قالوا بمقالته: هم شرٌّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا (كما ذكرت كتب الشيعة).

وعلى أسس أفكار «أبي الخطاب» بنى اللّعين الآخر «ميمون القدّاح» أفكاره التي أشاعها وأذاعها بين أشياعه.

ومن ثمّ ظهرت الإسماعيلية والحركة القرمطية بأفكارها الّتي هي امتداد للخطّابيّة على ما ترجّح لدى كثير من الباحثين.

وبقي «ميمون القدّاح» في حاشية «جعفر الصادق بن محمد الباقر» تلميذاً

مجتهداً وخادماً مطيعاً، ولم يجاهر بمكيدته إلاّ بعد حين، واستطاع بإتقانه صناعة النفاق أن يكون هو وابنه عبد الله كفيلين لـ «إسماعيل بن جعفر» ثم لولده «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق».

واستولى «ميمون القدّاح» على الدّعوة الإسماعيلية المنسوبة إلى «إسماعيل بن جعفر الصادق» بعد أيّام إسماعيل.

ومن خلال الروايات المتعدّدة التي رواها مؤرخو الشيعة ومؤرخو أهل السنّة ومدوّنو مذاهب الفرق، غير المتطابقة في عدّة عناصر منها، يستطيع الباحث أن يستخلص الاتفاق على أنّ «سعيداً» أحد أحفاد «ميمون القدّاح» هو الذي ادّعَى أنّه ابن الأئمة المستورين من ذُرِّيّة «إسماعيل بن جعفر الصادق» وهو الذي خرج إلى مصر، فادّعىٰ أنّه علويٌّ فاطميّ، وسمّى نفسه «عُبَيْدَ الله» وبلغ خبَرُه المعتضد فأمر بالقبض عليه. فهرب إلى المغرب، وكان له دعاة فيها يدعون إليه على أنه المهدي، وشاع بين الناس في المغرب أنّه علويٌّ فاطميٌّ من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، واستطاع بهذه الفرية أن يكون له سلطان في المغرب على الناس، لما في قلوبهم من عطف وتمجيد لهذه الأسرة.

وخفي أمْرُ مذهبه الفاسد على الناس، إلاّ من كشَفَ له حقيقة آرائه من خاصّته، كالإلحادِ في الله، والطعن على جميع الأنبياء، وإباحة أَنْفُس أُممهم وأموالهم ونسائهم، إلى آخر المقالات الكافرة الفاجرة الباطنيّة.

وادّعىٰ في المغرب أنّه من نواحي الأهواز، ومن بُنَاتِها، ورؤسائها، وأنّ ضياعهم بِكُورِ الأهواز كثيرة، وأنّه هرب هو وأبوه مِنْ جَوْرِ عَمْرِو بن اللّيث.

وأسّس في المغرب دولةً عرفت بالدولة الفاطمية سنة (٢٩٧هـ) واستمرّ حكم عبيد الله هذا في المغرب إلى سنة (٣٢٢هـ) وسيأتي إنْ شاء الله بعض تفصيل للدولة الفاطميّة وخبائثها.

بهذه المقدمة ظهر لنا أنّ الحركة الباطنية القرمطية هي امتداد لسلسلة المكر اليهودي المقرون بالحقد المجوسيّ، ضدّ الإسلام والمسلمين، إذْ لم تكد تخبو قليلاً جذوة الفتنة السبئيّة، التي تولّى تأسيسها، وزرع بزورها، وتابع حركتها، المنافق

اليهوديّ «عبد الله بن سبأ» الملقّب بابن السوداء، ونشط في نشرها المنافقون من الأشرار، وفعلتِ الأفاعيل الشنعاء في جسْم الأمّة الإسلاميّة، كما سبق بيانُه، حتّىٰ أعدَّ اليهود والمجوسُ مكراً جديداً مبنيّاً على قواعد المكر السابق وبقايا أبنيته.

هذا المكر الجديد قاده وتولّى تأسيسه وزَرْع بُزُوره الشوكيّة الشيطانيّة الخبيثة يهوديٌّ آخر على الأرجح، تظاهر بالإسلام منافقاً، أو مجوسيٌّ، يقال له: «ميمون بن ديصان القدّاح» كان يُبِرُّ اليهوديّة فيما ترجّح لديّ، أو يُبِرُّ المجوسيّة، ويظهر الإسلام نفاقاً، فنصبَ هذا الخبيث للمسلمين الحبائل، وبَغَىٰ بهم الغوائل.

كان «ميمون بن ديصاح القدّاح» على ما يذكر بعض المحقّقين يهوديّاً متعصّباً لليهودية، قيل وهو من ولد الشلعلع من يهود، وكان حبْراً من احبارهم، وعالماً بالفلسفة والتنجيم، ومطّلعاً على أصول المذاهب والأديان، وكان صائغاً في السّلمية[1]، على ما ذكره العالم الفقيه محمد بن مالك اليماني من فقهاء اليمن، في أواسط المئة الخامسة للهجرة، وذلك في كتابه: «كشف أسرار الباطنية».

ويظهر أنّ قيادات يهوديّة دفعتْ هذا الرجل إلى تدبير مكيدته لهدم الإسلام، وتمزيق المسلمين، إذْ توسّمت فيه الكفاية للقيام بهذا الشرّ المستطير، والمكر الخطير، وذلك لما يتمتّع به من قدرات مكرٍ وخُبْث وحيلة، ومعرفة بأصول المذاهب والأديان، وتعاون مع مجوسٍ حاقدين من فارس، وقطاع طرق من الأشرار.

فحمل هذا الرجل مهمّة الخبث الّتي وُكِلَتْ إليه، فتظاهر بالإسلام، وسلك السُّبُل التي سلكها من قبلُ سلَفُه ابنُ سبأ.

واندسّ «ميمون» في شيعة «إسماعيل بن جعفر الصادق بْن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه» وأخذ يتظاهر بخدمتهم وتأييدهم ومحبّتهم، وقلبه يغلي بالحقد والعداوة والبغضاء للإسلام، ولرسول الله ﷺ، ولآل بيته الطاهرين، ولسائر المسلمين، ولكنّه لم يجد سبيلاً يدخل به على المسلمين

(١) السلمية: بلدة من بلاد الشام.

حتى يردُّهم عن دينهم، ويُخْرجهم منه إلىٰ الإلحاد والإباحيّة العامّة في ذلك الزمان، أمْكَرَ من تبنّيه الدّعوة إلى أهل بيتِ الرسول ﷺ.

وانطلق في دعوته هذه، وانخدع به فريقٌ من الناس، نظراً إلى عاطفة المسلمين نحو آل البيت، الّتي شحنتهم بها الأوضاع السياسيّة المختلفة، وهي الأوضاع الّتي لم تسمَحْ لَهُم بأن يَصِلُوا إلىٰ الحكم.

لكنّه مع تبنّيه الدعوة إلى أهل بيت الرسول من أولاد عليّ كان يخشىٰ أن يَصِلُوا فعْلاً إلى الحكم، فيفعلوا به وبمكيدته ضِدّ الإسلام والمسلمين، ما كان قد فعله عليٌّ رضي الله عنه من قَبْلُ في سلفه «عبد الله بن سبأ» وفي السبئية، فدَبّر مكيدة إخفاء حقيقة غايته، وأوصىٰ ذُرّيته بأن يلتحق بعض أحفاده من بَعْدِه بنسب إسماعيل بن جعفر الصادق، ويدّعي أنه من أحفاده، متى سنحت له الفرصة لذلك، ليضمن اليهود بهذا متابعة مكيدتهم ضدّ الإسلام والمسلمين، مستخدمين الذّرّيّة اليهودية الخبيثة، في سرقة النّسب، وادّعاء حقهم في الإمامة.

وظهر لهذا اليهودي المنافق حفيد خبيثٌ شيطان اسمه «سعيد» وكان بعيداً عن أنظارالمراقبين المتتبّعين للأنساب.

كان لإسماعيل بن جعفر الصادق ولَدٌ اسمه «محمد» فبثّ «ميمون بن دِيصان القداح» سِرّاً أنّ «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق» خلّفَ أولاداً سترهم عن خصوم آل البيت، فهم الأئمة المستورون، وروّج المنافقون سرّاً هذه الفرية، وقبلها الذين لا يعلمون وكَتَمُوها.

وتذكر الروايات أنّ «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق» مات بحياة أبيه إسماعيل دون أن يكون له عقب من ذُرّيته، وأنّ إسماعيل مات بحياة أبيه جعفر.

وظهر «سعيد» حفيد «ميمون القداح» مُدّعياً أنّه ابْنُ الأئمة المستورين الذين لم يظهروا، من ولد «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق» وسمّىٰ نفسه «عُبَيْد الله» وروّج أنصار القدّاح أنّه: عُبَيْد الله ابن الأئمة المستورين الذين لم يظهروا من ولد محمد بن إسماعيل، وادّعَوْا لِعُبَيْد اللّهِ هذا الإمامة بعد الأئمة المستورين.

وعُلَماءُ الأنساب يُثْبتُونَ أنّ «إسماعيل بن جعفر الصادق» قد مات في حياة أبيه «جعفر الصادق» وأنّ «محمّداً بن إسماعيل» لم يكن له عقب، فثبت من غير مرية أنّ هؤلاء الذين ادّعيت لهم الإمامة، من «عبيد الله» فمن بعْده من ذُرّيّته، هم من أولاد اليهودي أو المجوسي المنافق «ميمون بن ديصان القدّاح» وقد أحْكَمَ هؤلاء بخبثٍ شديد إخفاء أنفُسِهم، وسَتْرَ نسبهم الحقيقي، لتِتمَّ لهم مكيدَتُهم التي دبّروها ضدّ الإسلام، وضدّ المسلمين.

وممّا سجّله التاريخ شهادةٌ لجِلّةٍ من العلماء أثبتوا فيها أنّ ما ادّعاه هؤلاء من الانتساب إلى ولد عليّ بن أبي طالب زورٌ وباطل، وأنهم زنادقة مُلْحِدُون، وللإسلام جاحدون، أباحوا الفروج، وأحلّوا الخمور، وسبُّوا الأنبياء، وادّعَوُا الرُّبوبية.

هذه الشهادة قد كتبت في محضر وقّع عليه العلماء المشار إليهم في شهر ربيع الأول، من سنة اثنتين وأربعمائة للهجرة، وكان الموقعون من كبار علماء السنّة، وكبار علماء الشيعة.

ومن العلماء الّذين أثبتوا توقيعاتهم على محضر هذه الشهادة: «الشريف الرضي ــ والشريف المرتضىٰ (وهما من كبار علماء الشيعة) ــ أبو حامد الإسفراييني ــ أبو عبد الله الصيمري ــ أبو الحسين القدوري ــ أبو جعفر النسفي ــ (وهؤلاء من كبار علماء السنّة) وغيرهم منْ كبار العلماء الأئمة».

* * *

موجز تحرّكاته الشيطانيّة الخبيثة

أخذ «ميمون بن ديصان القدّاح» يضرب على الأوتار نفسها التي كان قد ضرب عليها «عبد الله بن سبأ» من قبل، وهي تمجيد الأسرة العلوية، وأحقّيّتها بإمامةِ المسلمين، مع إدْخالاتٍ وتلفيقاتٍ جديدة تنسف الإسلام كلّه، في أصوله وفروعه وجميع تطبيقاته، ولا تُبْقي منه إلّا الاسم المجرّد من أيّةِ حقيقة من حقائق الإسلام، الّذي أنزله الله على نبيّه ورَسوله محمّد ﷺ.

وبظهور «ميمون بن ديصان القداح» أخذت الحركة اليهوديّةُ المجوسيّة المقنعة بأقنعة النفاق أسلوباً جديداً، لاجتثاثِ الإسلامِ من جذوره، إذ اتّسَمْتْ بسِمَاتٍ

السّرّيّة، المتمتّعة بأدْهَى وأمْكر أشكال التنظيم السّرّي، وأخذت هذه التنظيماتُ تزدادُ دِقّةً وعمقاً وحذراً، كلّما اشتدّت عليها الأزمات والمراقبات، وضرّمَتْها التجارب. وأخذتْ تنسجُ لدعوتها مبادىء تتصيّد بعضها من تعاليم الأديان المختلفة، والفلسفاتِ المتنوّعة، وتَصُوغُها بعباراتِ الفلسفة اليونانية، وتضَعُ لها قواعد جدليّة يلتزم بها المنتسبون إليها التزاماً تامّاً.

وتظاهر «ميمون بن ديصان القدّاح» بقبول نصوص الشريعة الإسلامية، من قرآنٍ وسُنّة، وبقبول فروض الإسلام وواجباته، لكِنّهُ أخَذَ يجعَلُ لكلّ آيةٍ تفسيراً، ولكلّ حديثٍ نَبَويّ تأْويلاً من اختراعاته واختراعات أشياعه المنافقين.

وأخذ هو والمنافقون أمثاله يُوَسْوِسُون لأتباع تنظيمهم الجديد بأنّ كُلّ فرضٍ من فُرُوض الإسلام، وكلّ واجب من واجباته وأدبٍ من آدابِهِ وتعليم من تعاليمه، هو رمْزٌ عن أمْرٍ آخر غير الذي يَفْهَمُهُ القُشُورِيُّونَ، الذين يأخذون بظواهر الألفاظ والأعمال.

وصار يزعم للمنخدعين به أنّ هذه التفسيرات والتأويلات والمعاني المرموز إليها، هي المعاني الباطنيّة لهذه النّصوص، ولهذه الفروض والواجبات والآدابِ والتعاليم، ولكِنّ علماءَ الظّاهِر يَتعلّقُون بالقُشور، ويَتْرُكُونَ اللُّبّ.

وحينما يَنْتَقِلُ إلَى التفسيرات والتأويلاتِ والمعاني الباطنة، يتلاعَبُ فيها كَمَا يَشَاءُ له هوى التضليل في العقيدة، وفي الشريعة، وفي جميع المفهومات الإسلامية العظيمة.

وبعد أن أحكَمَ «ميمون بن ديصان القدّاح» مكيدته، انتقل هو وأهله وبعض أشياعه إلى الكوفة فأقام بها مدّةً يُدَبّر فيها مكيدته الشيطانية، ويظهر أنّه قد اختار الكوفة، لأنّ فيها جذُوراً سبئيّةً، ممّا كان قد مكر به من قَبْلُ «عبد الله بن سبأ» وكان ظهوره في الكوفة سنة (٢٧٦) للهجرة النبوية.

واجتمع «ميمون القدّاح» في الكوفةِ برجُلٍ اسمه «حمدان قرمط» واتّفقا على أن يضَعَا لها مبادىء اعتقاديّةً إلحاديّة، تُحِلُّ للمنتسبين إليها كلّ ما يشتهون من قتلٍ ومالٍ ونساء وغير ذلك، واتفقا على وجوبِ سَتْرِ هذهِ المبادىء بأغشيةٍ من النفاق، وعلىٰ أن يجعلا من ضمن هذه المبادىء أنّ المسلمين كفرةٌ يجبُ قتْلُهم أيْنما وُجِدُوا.

فوضعا أسس الضلالة الّتي أراداها، وعَمِلا سِرّاً في الدعوةِ إليها، ثمّ استجاب إليهما تسعةُ رهطٍ انْطَلَقوا يُفْسِدُونَ في الأرض باسم الدُّعاة، مُتَسَتِّرين بالدَّعْوَةِ إلَى الأَئمَّةِ من أولاد عليّ.

ويظهر أنّه كان يُهَيِّىء ما يلْزَمُ من خطط وتدبيرات ماكرات حتى يتسنّى لبعض أحفاده أن يدعيَ أنه من أحفاد «إسماعيل بن جعفر الصادق» لتصحَّ له المطالبةُ بالإمامة وفق عقيدة شيعة عليّ وذُرّيته الأئمة من بعده.

وانطلق دعاة منظّمته السّرّيةِ الجديدة، ينشرون أفكارها بين الذين يستجيبون لهم، ويدخلون في خلاياهم.

وآزر هذه المكيدة اليهودية الفارسيّة الخبيثةَ عناصرُ كثيرة شرّيرة حاقدة، وفريقٌ من الفلاسفةِ الإباحيين، وآخرون من الّذين اكْتَسَحَ الإسلامُ مَمَالِكَهُمْ، وقوَّضَ عُرُوش مُلوكِهم، وأزال عن رقابِ عباد الله سلطانَهُم، واسْتغلَّ الشياطين الخلافات السياسية على شخص خليفة المسلمين، وارتَدَوْا مُسُوحَ الحزنِ الكاذب على مقتل مظلومٍ طاهرٍ منْ ذرّيّةِ آل البيت الأطهار.

قال المؤرّخ الديلميّ مُتَحدِّثاً عن المكيدة الباطنيّة على العقائد الإسلامية، في كتابه «قواعد عقائد آل محمّد الباطنيّة»:

«واتَّفَقَ أهلُ المقالاتِ أنّ أوّلَ من أسّس هذا المذهب المشؤوم ـ يعني مذهب الباطنيّة ـ قومٌ من أولاد المجوس وبقايا الْخُرَّميّة (وهم طائفة إباحيّةٌ مِنَ المجوس) والفلاسفة واليهود، فجمعهم نادٍ واشْتَوَرُوا، وقالوا: إنَّ محمّداً غلَبَ علَيْنا، وأَبْطل ديننا، واتَّفَقَ لَهُ أعْوَانٌ نَصَرُوا مَذْهَبَهُ، ولاَ مَطْمَعَ لنا في نزع ما في أيديهم من المملكة بالسيف والمحاربة، لقوّةِ شَوْكَتِهِمْ، وكَثْرَةِ جُنُودِهم، وطبَّقُوا البرّ والْبَحر، وكذلِكَ لاَ مطمع لنا فيهم من طريق المناظرة، لمَا فيهم من العلماء والفضلاء والمتكلّمين المحققين، وكَثْرَةِ كتُبِهم وتصانيفهم، واتَّفَقُوا علَىٰ وضْعِ حيلَةٍ يتوصَّلُونَ بها إلَىٰ إفْسَادِ دينهم من حيثُ لا يَشْعُرُونَ، وبَنَوْا أُمُورَهم علىٰ التّلْبيس والتدليس، وزادوا في مسالِكِها عَلَىٰ مَسالِكِ اللّعِين إبْلِيس».

فكان من نتيجة مكيدة «ميمون بن ديصان القدّاح» وقرينه في الكوفة «حمدان

قرمط» تأسيس الحركة الباطنيّة الشرّيرة، التي اكتوى العالم الإسلامي بشرورها قُرابة ثلاث قرون.

وكلّ ما ظهر من هذه الحركة الباطنيّة القرمطية من فرق، فهي فِرَقٌ عريقةٌ في النفاق، تظهر الوفاق، وتُبْطِنُ الفراق، تدّعي شيئاً وتخفي خلافه، تكشف الولاء وتستُرُ العداء.

أثر حركة «ميمون القدّاح» في تأسيس دُولٍ تضمر الكيد ضدّ الإسلام والمسلمين

(١) في اليمن:

استطاع أحد دعاة الإسماعيليّة «القدّاحية» الكوفيّ أبو القاسم الحسنُ بن حوشب، الملقّب بمنصور اليمن، بالاتفاق مع داعٍ آخر يمني، هو عليّ بن الفضل، أن يستميلا عدداً من قبائل اليمن، بأن أظهرا الدعوة إلى المهديّ الإمام الإسماعيلي المنتظر.

وتأسّست بذلك أوّل دولة إسماعيليّة سنة (٢٦٨هـ) ولمّا قويت شوكة «الحسن بن حوشب» في اليمن كشف عن حقيقة مذهبه، وأظهر ما كان يخفيه من إلحادٍ وفجور، وإحلال المحارم وإباحة الفواحش لأتباعه.

أمّا عليّ بن الفضل، فقد أظهر في أول أمره التقوى، والورع، واستكثر من مظاهر العبادة والنّسك، حتى مالَ إليه النّاس وأحبّوه وافتتنوا به، وقلّدوه أمورهم، وبعد أن لَبَّسَ عليهم، وخدعهم بمظاهر أعماله التي كان ينافق بها، واشتد أمْرُه، ادّعى النبوّة، وحطّ عن أتباعه شعائر الإسلام، وأحلّ نكاح البنات والأخوات.

(٢) في البحرين:

وظهرت حركة إسماعيليّةٌ أخرى في البحرين، عُرِفَ أصحابُها باسم القرامطة، نسبة إلى «حمدان قرمط» قرين «ميمون القدّاح» وقاد هذه الحركة في البحرين «أبو سعيد الْجُنَّابي» واستطاع أن يؤسس فيها دولة إذ تجمّع حوله جمهور من الأشرار الفسّاق الفجرة قطاع الطرق، وخلفه بعده ابنه «أبو طاهر الْجُنّابي».

وكان لقرامطة البحرين هؤلاء من الشرور، والإغارة على قوافل الحجاج، وبعض بلاد المسلمين الآمنين، وسفك دماء الرجال وسبي النساء والذرّيّة، حتّى الطائفين في الحرم المكيّ الشريف، ما لم يكن من أشنع البشر همجيّة ووحشيّة وقباحة، بسبب أنّهم ملاحدة زنادقة كفرة، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

وقد فصَّلتُ بعض شرورهم في كتابي «مكايد يهودية عبر التاريخ».

(٣) في المغرب ثم مصر:

استطاع «سعيد» حفيد «ميمون القدّاح» أن يفلت من ملاحقة الخليفة العباسيّ له، وأنْ يَهْرُبَ إلى المغرب، وكان قد سبقه إليها من دعا إليه على أنّه المهدي الفاطمي، من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق.

وحين دخل المغرب سمّىٰ نَفْسَه: عُبَيْدَ الله، وقِبَلَهُ أهل المغرب من أجل نسبه، فأقام فيها دولة عُرِفَتْ بدولة الْعُبَيْدِيين، نسبة إلى الاسم الذي سمّىٰ به نفسه وحكَمَ كَمَا سَبَقَ بيانُه من سنة (٢٩٧هـ) حتى سنة (٣٢٢هـ).

وخلفه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، فتولى الحكم من سنة (٣٢٢هـ) إلى سنة (٣٣٤هـ).

وجاء بعده المنصور بالله أبو طاهر إسماعيل، فتولّى الحكم من سنة (٣٣٤هـ) إلى سنة (٣٤١هـ).

وجاء بعده المعزّ لدين الله تميم، فتولّى الحكم من سنة (٣٤١هـ) وفي عهد المعزّ لدين الله هذا انتقلت دولة الفاطميّين إلى مصر سنة (٣٦٣هـ) إذ استطاعت جيوشه أن تدخل مصر فاتحة لها، واستمر حكمه حتى سنة (٣٦٥هـ).

وجاء بعده العزيز بالله الفاطمي، فتولّى الحكم من سنة (٣٦٥هـ) إلى سنة (٣٨٦هـ).

وجاء بعده ابنه الحاكم بأمر الله المنصور، فتولّى الحكم من سنة (٣٨٦هـ) إلى سنة (٤١١هـ) وهو الذي ادُّعيت له الربوبية، فسرَّنه، أو ادّعاها، ونشرها الأخباث الباطنيون من حوله، واستقرت عند طائفة الدروز عقيدة متوارثة، وهم يؤمنون بغيبته، وقد ثبت أنه قُتل، بتدبير أخته ست الملك.

وجاء بعده ابنه الظاهر أبو الحسن علي فتولّى الحكم من سنة (٤١١هـ) إلى سنة (٤٢٧هـ).

وجاء بعده المستنصر بالله، فتولّى الحكم من سنة (٤٢٧هـ) إلى سنة (٤٨٧هـ).

وبعده انقسمت الدولة الفاطميّة، ثم سقطت بفضل الله، على يد صلاح الدين الأيوبيّ.

ومع ما كان عليه الفاطميّون من إلحاد وزندقة وإباحيّة واستباحة للدّماء والفواحش وسلب الأموال، فقد كان اعتمادهم في الوزارات والإدارات والأعمال الحكوميّة المختلفة على اليهود، وعلى المنافقين من المجوس، وعلى المنافقين من الباطنيين الذين هم مثلهم إلحاداً وإباحيّة وفجوراً.

وكانوا بنفاقهم يتستّرون ببناء المساجد، وهم يعملون على هدم الدين.

وكلُّ ما ظهر من الحركات الباطنيّة في التاريخ فهي من آثار شُرور النفاق الذي لبِسَ قناعه «ميمون القداح» وذرّيته معه ومِنْ بَعْده، ومعهم منافقون من مجوس، وأشرار كثيرون سَرَتْهم طريقَتُهُمْ، واستهوتهم الإباحيات.

وكان من وسائلهم استخدام المخدّرات، إذ كانوا يقدّمون الحشيش لأتباعهم، ويُبيحُون لهم الخمور والزنا واللّواط، ويُطْلقون أيديهم في القتل والسّلب والنهب، وارتكاب الفواحش، ويُسْقِطُون عنهم التكاليف الدّينيّة كلّها، ويلفّقون لهم عقائد خرافيّة، زاعمين أنّ أئمتهم الذين حلّ فيهم الرّبّ الخالق هم الذين قد شرعوا لهم دينهم هذا بسلطان الألوهية.

● ● ●

المقولة الرابعة

المنافق ابن العلقمي[1]
وخيانته للدولة الإسلامية وخليفتها العباسي
المستعصم بالله محمّد بن الظاهر

حدث في عهد الخليفة العبّاسي السابع والثلاثين من خلفاء بني العبّاس، وهو المستعصم بالله محمد بن الظاهر، الذي بويع بالخلافة سنة (٦٣٩هـ) بعد وفاة أخيه المستنصر بالله عبد الله بن الظاهر، أن وزيره «محمد بن محمد بن أبي طالب مؤيد الدّين بن العلقمي» البغدادي الرافضي، من الشيعة الروافض، وكان منافقاً، كافراً باطناً، شيعيّاً رافضيّاً ظاهراً، كتب إلى «هولاكو» ملك التتار يبدي له استعداده أن يسلّمه بغداد إذا حضر بجيوشه إليها، وكان التتار قد هُزِمُوا في عهد المستنصر بالله، وقُتل منهم خلْقٌ كثير، وكان هدف العلقمي محو أهل السنة وإقامة خليفة فاطمي.

فكتب «هولاكو» لابن العلقمي:

«إنّ عساكر بغداد كثيرة، فإن كنت صادقاً فيما قلت لنا وداخلاً تحت طاعتنا، ففرّق العسكر، فإذا عملت ذلك حضرنا».

فلما وصل كتاب «هولاكو» إلى الوزير «ابن العلقمي» دخل إلى المستعصم، وزيّن له أن يُسَرِّحَ خمسة عشر ألف فارسٍ من عسكره، لأنّ التتار قد رجعوا إلى بلادهم، ولا حاجة لتحميل الدولة كلفة هؤلاء العساكر.

فاستجاب الخليفة لرأيه، وأصدر أمراً بتسريح خمسة عشر ألفاً، فخرج ابن العلقمي ومعه الأمر، واستعرض الجيش، واختار تسريح أفضلهم، وأمرهم بمغادرة بغداد وكل ملحقاتها الإدارية، فتفرّقوا في البلاد.

---

(١) انظر الجوهر الثمين لابن دقماق، وتاريخ ابن كثير في حوادث سنة (٦٥٦ هجرية).

وبعد عدة أشهر زيّن للخليفة «المستعصم» أن يُسرِّح أيضاً من جيشه عشرين ألفاً، فاستجاب له، وأصدر أمراً بذلك.

ففعل ابن العلقمي مثلما فعل في المرّة الأولى، وانتقى أفضل الفرسان فسرّحهم.

وكان هؤلاء الفرسان الذين انتقاهم وسرّحهم من جيش الخليفة بقوّة مئتي ألف فارس.

ولمّا أتمَّ مكيدته كتب إلى هولاكو بما فعل، فركب «هولاكو» وقدم بجيشه إلى بغداد، وأحسّ أهل بغداد بمداهمة جيش التتار لهم، فاجتمعوا وتحالفوا، وخرجوا إلى ظاهر المدينة، وقاتلوا ببسالة وصبر، حتى حلّت الهزيمة بجيش التتار، وتبعهم المسلمون وأسروا منهم، وعادوا مؤيّدين منصورين ومعهم الأسرى ورؤوس القتلى، ونزلوا في خيامهم مطمئنين.

فأرسل الوزير ابن العلقمي جماعة من أصحابه المنافقين الخونة ليلاً، فحبسوا مياه دجلة، ففاض الماء على عساكر بغداد وهم نائمون في خيامهم، وصارت معسكراتهم مغمورة ومحاطة بالوحل، وغرقت خيولهم وأمتعتهم وعتادهم بالوحل، والناجي منهم من أدرك فرساً فركبه وخرج من معسكر الوحل.

وكان «ابن العلقمي» قد أرسل إلى «هولاكو» يعلمه بمكيدته، ويدعوه أن يرجع بجيوشه فقد هيّأ له الأمر بما يحقق له ولجيوشه الظفر، فعاد بجيوشه، وعسكر حول بغداد، ولمّا أصبح الصباح دخل جيش التتار بغداد، ووضعوا السيف في أهلها، وجعلوا يقتلون الناس كباراً وصغاراً، شيوخاً وأطفالاً، ودخلوا إلى الخليفة فاحتملوه هو وولده، وجعلوهما في عِدْلَيْن، وأحضروهما إلى ملك التتار «هولاكو».

فأخرجهما «هولاكو» إلى ظاهر بغداد، ووضعهما في خيمة صغيرة، وفي المساء وضعهما في عِدْلَيْن، وأمَرَ عساكره بقتلهما ضرباً بالأرجل.

ودخل التتار دار الخلافة فسلبوا كلّ ما فيها، وانبثوا يقتلون كلّ من يشاهدون من أهل مدينة بغداد، حتّى زاد القتلى كما ذكروا على مليون قتيل (ألف ألف).

وبمقتل المستعصم انتهت الخلافة في بغداد سنة (٦٥٥هـ).

أما الوزير المنافق الخائن «ابن العلقمي» فقد استدعاه «هولاكو» ليكافئه، فحضر بين يديه، فوبخه على خيانته لسيده الذي وثق به، وأحسن إليه، واصطفاه ليكون وزيره الأول، واستأمنه على البلاد والعباد، ثم قال له: «لو أعطيناك كلّ ما نملك ما نرجو منك خيراً، وأنت مخالف لملتنا، إنّك لم تُحْسن إلى أهل ملّتك، بل عرّضتهم للقتل والسَّبي، فما نرى إلاَّ أن نقتلك ونريح من بقي من المسلمين من شرِّك، ويستريح التتار أيضاً منك».

ثم أمر «هولاكو» بقتله، فقتل شرّ قِتْلة.

وانقطعت الخلافة قرابة أربع سنوات حتى حضر أخو الخليفة أحمد بن الظاهر إلى مصر، فاستخلفه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس.

ولم يثبت ابن كثير قتل «هولاكو» لابن العلقمي، بل ذكر أن الله قصف عمره بعد شهور يسيرةٍ من هذه الحادثة الشنيعة المذهلة.

• • •

المقولة الخامسة

يهود الدونمة المنافقون[1]
ودورهم في سقوط الخلافة العثمانية
وإقامة العلمانية

أصلهم:

هرب جماعةٌ من اليهود من ظلم محاكم التفتيش في إسبانيا في القرون الوسطىٰ، والتجؤوا إلى الدولة العثمانية، فاستضافتهم، وقبلتهم أهْلَ ذمّة في إمبراطوريتها، واستقروا في «سلانيك».

وفي الثلث الأخير من القرن السابع عشر الميلادي تظاهروا بالدخول في الإسلام نفاقاً، تبعاً للحاخام «سباتاي سيفي» الذي كان قد ادّعىٰ أنّه هو المسيح المنتظر، وقُدِّم للمساءلة لدىٰ شيخ الإسلام، وخاف من افتضاح كذبه فيما ادّعىٰ، والحكمِ عليه بالقتل لكذبه على الله، وإثارته الفتنة في تركيا، فأبدى رغبته في الإسلام، بعد أن أنكر ما نُسِبَ إليه، فقُبِلَ منْهُ ذلِكَ، وأعلن إسلامه، وكتب لليهود المستضافين في تركيا الذين آمنوا به أن يتظاهروا بالإسلام تبعاً له، على أن يحافِظُوا على يَهُوديّتهم في سرّهم.

فسمّاهم التُّرْكُ «دونمة» لأنّ كلمة «دونمة» في التركية تعني العودة أو الرجوع، أي: رجعوا إلى الحقّ وآمنوا به.

وإطلاق هذا الاسم يكون عادةً في أول دخول الداخل إلى الإسلام عند الترك،

---

(١) المعلومات حول يهود الدونمة المنافقين ودورهم مقتبسة من كتاب «يهود الدونمة» وكتاب «أسرار الانقلاب العثماني» لمؤلفهما بالتركية «مصطفى طوران» بترجمة «كمال خوجة» إلى العربية. وكتاب «العثمانيون في التاريخ والحضارة» تأليف: د. محمد حرب.

وبعد حين يختفي هذا الإطلاق لأنّ الداخلين يكونون كسائر المسلمين إذا كانوا صادقين.

لكنّ هؤلاء اليهود بقي إسلامُهُمْ مشكوكاً فيه، لعدم اندماجهم في سائر المسلمين، وللعزلة والشعارات وأنواع السلوك الخاصة التي ميّزوا أنفسهم بها، لذلك ظلّ عنوان «الدونمة» لاصقاً بهم.

قصة إسلامهم نفاقاً:

ظهر في القرن السابع عشر الميلادي في تركيا رجلٌ يهودي من اليهود القادمين من إسبانيا، هرباً من محاكم التفتيش اسمه «سْباتاي بن مورداخاي سيفي».

وُلِدَ في تموز من سنة (١٦٢٦م) بأزمير، ونشأ في حجر والديه اليهوديّين، وقد شغف بمطالعة الكتب الدينيّة، وكان يتردّد على الحاخام «إسحق دالبا» لاستماع دروسه، وهو دون الخامسة عشرة من عمره، وقرأ التوراة والتلمود، وبرع في التفسير الإشاريّ، وكان ذكيّاً وسيماً.

شُغف بمطالعة كتب استحضار الأرواح، واستفاذ من قراءاته القيام ببعض الأعمال والحركات الغريبة، فظنّ نفسه قادراً على القيام بخوارق تؤهله لادّعاء أنّه المسيح المنتظر الذي يترقبه اليهود، بعد أن كفروا بالمسيح عيسىٰ عليه السلام، الذي بعثه الله تحقيقاً لما سبق به الوعد، في كُتُب بني إسرائيل.

وعزم على أن يُعْلِن أنّه المسيح الموعود به، فلازم الصيام، وصار يغتسل كلّ يوم، وابتعد عن معاشرة النساء.

كان سريع البديهة، يتغلّبُ على مناقشيه، ويخدع المقرّبين إليه، ويحرّف النصوص الدينيّة، ويؤوّلها على طريقة حساب «الجُمَّل» وهي أعداد الحروف الأبجدية، حتّى حرّف بيتاً من الشّعر يقول قائله فيه: حبيبي يشبه الغزال، فجعله على طريقة حساب الْجُمَّل مساوياً لقوله: رَبِّي يُشْبه سباتاي سيفي.

وفي سنة (١٦٤٨م) أبلغ أصحابه المقرّبين إليه بنُبُوّته، فصدّقوه، لِمَا كَانَ قَدْ هَيْمَنَ عليهم به.

وانتشر نبأ تَنَبُّئِهِ وادّعائه أنّه المسيح المنتظر بين اليهود في إزمير، وأثاروا ضدّه ضجّةً عظيمة، وحَكَمَ عليه بالإعدام رئيسُ الحاخامين «جوزيف إيسكابا» ومعه رجال الدين من اليهود.

ولم يكترثْ «سباتاي سيفي» لهذا الحكم لعلمه بأنّ الدولة العثمانية لا تسْمَحُ لليهود بتطبيق مثل هذا الحكم إلاّ عن طريقها، وبعد اقتناع المسؤولين فيها.

وأصدر «سباتاي سيفي» بيانه بأنه المسيح المنتظر مخلّص بني إسرائيل، ونصُّه:

«سَلامٌ من ابْنِ الله سباتاي سيفي مَسِيحِ إسرائيل ومخلّصها، إلى كلّ فردٍ مِنْ بني إسرائيل:

لقد نِلْتُمْ شَرَف معاصرة مُنْقِذِ بني إسرائيل ومُخَلِّصِهم، الذي بشَّرَ به أنبياؤُنا وآباؤُنا، فعَلَيْكُمْ أنْ تَجْعَلُوا أحْزانَكُمْ أفْراحاً، وصِيامَكُمْ إفْطاراً ولَهْواً، فَلَنْ تَحْزَنُوا بَعْدَ اليوم، فأعْلِنُوا عَنْ فَرْحَتِكُمْ بالطّنبور والأورغ والموسيقا، واشكُروا مَنِ الَّذِي وَعَدَكُمْ فَوفَىٰ بوَعْدِهِ، وواظِبُوا عَلَىٰ عباداتكم كما في السّابق، أمّا أيّامُ المصائب والمآتِمِ فاجْعَلُوها بسبب بعثتي أيّام شُكْرٍ ومَسَرَّة.

ولا تَهابُوا شَيْئاً، فَإِنَّ حُكْمَكُمْ لَنْ يَقْتَصِرَ عَلَىٰ أمَمِ الأرْضِ، بَلْ سيتعدّاها إلى جميع المخلوقات في أعماق البحار، فكُلّ هَٰؤُلاءِ مُسَخَّرُونَ لَكُمْ لِرَفَاهِيتِكُمْ».

(سباتاي سيفي)

وجد «سباتاي سيفي» الطريق مسدوداً أمام دعوته في أزمير، فانتقل إلى «إستانبول» في سنة (١٦٥٠م).

فأعانه حاخام مُزَيَّف، واستقبله بالتّرحاب، لكنّ دعواه قوبلت بالرّفض في «إستانبول» فرحل إلى «أثنا» فلم يظفر بما يروم، فعاد يتنقل بين أزمير وإستانبول.

وفي سنة (١٦٦٣م) سافر إلى القاهرة فالقدس، وخشي على نفسه فلم يُعْلِمْ فيهما أحداً بدعوته، لكنْ كان لبياناته التي انتشر خبرها أثرٌ في قَلَقِ اليهود عامة.

وظهرت في «بولونيا» فتاة يهودية جميلة ذكيّة، اسمها «سارا» ولوعة بالمغامرات، كانت تسكن في منزل أخيها «صموئيل» في «أمستردام».

وحين سمعت بأنّ شاباً يهوديّاً وسيماً في «أزمير» ادّعَى أنّه المسيح المنتظر، طمعت في أن تستغلّه لتكْسَبَ الشهرة، فاختلقت رؤيا نشرتها بين اليهود، تزعم فيها أنّ نوراً سيسطع عليها عام (١٦٦٦م) وستتزوّج من المسيح الذي سيظهر في ذلك العام.

وبلغ خبر هذه الرؤيا «سباتاي سيفي» فاختلق رؤيا زعم أنّه أوحي إليه بالزواج من فتاة بولونيّة، واعتبر الأغرار من اليهود أنّ هذا من معجزات «سباتاي سيفي».

وأرسل «سباتاي سيفي» في طلب «سارا» زوجة له، فجيء بها إليه، فتزوّجها في القاهرة.

وفي شهر أيلول من سنة (١٦٦٦م) عاد «سباتاي سيفي» إلى «إزمير» وبث فيها دعوته، فلم يلْقَ بين الحاخامين قبولاً حسناً في أوّل الأمر، فانتهز فرصة العيد عندهم، فأعلن عن دعوته، فتجمّع حوله أنصار كثيرون.

وبعد مدّة قصيرة صار يهود أزمير طوع يديه، وبدأت شهرته تنتشر في البلاد حتى وصلت إلى «رودس، وأدرنة، وصوفيا» وصارت الوفود تشد الرحال إليه من ألمانيا.

وأجريت له مراسيم لُبْس التاج، وصار يستقبل زواره بمواعيد ومراسيم معينة، وكان له هوى باستقبال النساء على وجه الخصوص.

وقسّم «سباتاي سيفي» العالم إلى ثمان وثلاثين منطقة، عيّن لكلٍّ منها ملكاً، وغير بعض العادات اليهودية.

وصار يوجّه رسائله ويذيّلها بتوقيع:

ابن الله الأول والوحيد

سباتاي سيفي

وتركته الدولة العثمانية دون أن تتعرض له بسوء، لأنّه كان قد حصر نشاطه في اليهود، فلمّا وجّه نشاطه لدعوة جماعات أخرى غير يهودية للإيمان به، عرض قاضي إزمير على رئيس الوزراء ضرورة اعتقال «سباتاي سيفي» حتّى لا يتفاقم أمره، ويؤثر على عوامّ المسلمين، فأمر بإلقاء القبض عليه وأرسل عن طريق البحر إلى «إستانبول».

وفي التحقيقات التي أُجْرِيتْ له، أنكر «سباتاي سيفي» كلّ ما أُسْنِد إليه، وسِيقَ إلى سجن «زندان قابي».

وبدأت الوفود اليهودية الكثيرة تزوره في السّجن، حتّى صارت إدارة السّجْنِ عاجزةً عن استقبالهم لمشاهدة «سباتاي»، فأمرت السلطات بنقله إلى سجن «جناق قلعة».

فلحقه الزوّار إلى «جناق قلعة» واشتكىٰ أهل المدينة من الضغط الذي حصل فيها، فأمرت الحكومة العثمانية بنقله إلى «قصر أدرنة» وكان اليهود يترقبون أن يظهر «سباتاي» معجزة تُحْرَجُ بها الدولة العثمانية، فتضطر للإفراج عنه.

لكنّ الأمر كان على خلاف ذلك تماماً، فقد استدعي «سباتاي سيفي» للمساءلة في مكتب «مصطفى باشا» القائم بأعمال رئيس الوزراء، وكان عنده شيخ الإسلام «يحيىٰ أفندي منقري زاده» وإمَامُ القصر «محمد أفندي وانلي».

أمّا السلطان «محمد الرابع» فكان يجلس في غرفة مجاورة يسمع ما يجري من حوار.

وُجّه له السُّؤال التالي: تدّعي أنّكَ المسيح المنتظر، فأرنا معجزَتَك، سنُجَرِّدُكَ من ثيابك، ونجعلك هدفاً لسهام المَهَرَة من رجالنا، فإنْ لم تؤثر السّهام في جِسْمِك، فسيقْبَلُ السلطان ادّعاءك.

أدرك «سباتاي سيفي» أنّه إذا قَبِلَ هذا التحدّي فإنّه سيكون صريعاً بعد أوّل سهم يصل إلى جسده، فأنكر كلّ ما أسند إليه، وقال: إنّ الناس قد تَقَوّلُوا عليه ما لم يقلْهُ هو.

وكان السلطان «محمد الرابع» يسمع الحوار، فأمر بأن يُعْرَضَ عليه الإسلام.

فآثر «سباتاي سيفي» أن يتظاهر بقبول الإسلام، وأعْلَنَ إسلامه، وصار يُعرف باسم «محمد عزيز أفندي».

وعُيِّن «محمد عزيز أفندي = سباتاي سابقاً» الذي أعلن إسلامه رئيساً للبوّابين، وأصيب الذين آمنوا به بخيبة أمل، وفرح الحاخامون بافتضاح أمره.

ثم أرسل إلى الذين آمنوا به خطاباً عاماً قال فيه:

«لقد جعلني الله مسلماً، أنا أخوكم محمّد البوّاب، هكذا أمرني فامْتَثَلْتُ، لقد ذكَرَتِ الكتبُ اليهودية المقدّسة، أنّ المسيح سَيُتْبَعُ من قبل المسلمين».

وأشعرهم بهذا الخطاب أنّه سيُتابِع رسالته متستراً بالإسلام، وقال أخوه مفسّراً هذا الوضع الجديد الذي اختاره لنفسه:

«إنّ الجسم القديم لسباتاي قد صعد إلى السماء، وعاد بأمْرٍ من الله تعالى في شكل مَلاَكٍ يَلْبَس الْجُبَّة والعمامة، ليكمّل رسالة المسيح».

ثم تقدّم إلى المفتي يستأذنه بأنْ يدعو اليهود إلى الإسلام فأذن له، لكنّه دبّر مكيدةً جديدة ضدّ الإسلام، هي أن يجعل أتباعه مسلمين منافقين، يتظاهرون بالإسلام، ويبطنون اليهودية على أنّ «سباتاي» هو المسيح.

وأعْلَنَ اليهود الذين كانوا قد آمنوا به دُخولهم في الإسلام نفاقاً استجابةً لأمره، فأقبل هؤلاء من كلّ مكان يلبسون ألبسة المسلمين، وأطلق الأتراك على هؤلاء المسلمين الجدُد اسم «الدونمة».

ورَتَّبَ «سباتاي» سرّاً أمر أتباعه «الدونمة» إذْ تركَتْ له الدولة حرّية التنقل، فنظم عقائد أنصاره وعباداتهم، وعيّن أيّام أعيادهم، وجمع تعاليمه لهم في ثماني عشرة مادّة، ومنها ما يلي:

المادة (١٦): يجب أن تطبَّقَ عادات الأتراك بدقة لصرف أنظارهم عنكم، ويجب ألاّ يُشْعِرَ أحدٌ من الأتباع المسلمين بأنّه متضايق من صيام رمضان، ومن الأضحيّة، ويجب عليه أن ينفّذ كلّ شيءٍ يجب تنفيذه أمام الملأ.

هذه المادّة يوجب عليهم فيها أن يتقنوا مظاهر النفاق.

المادة (١٧): إنّ مناكحتهم ممنوعة قطعاً.

فهو في المادّة يحرِّم على أتباعه «الدونمة» مناكحة المسلمين، لئلاّ يذوبوا فيهم، ولتبقىٰ لهم هُوِيَّتُهُمُ اليهوديّة.

وبعد أكثر من عشر سنين اتضح للحكومة العثمانيّة أن إسلام سباتاي كان نفاقاً

فَنَفَتْهُ إلى ألبانيا، ومات «سباتاي سيفي» فيها سنة (١٦٧٥م) يهودياً منافقاً ضمن يهود الدونمة.

* * *

علامات ووثائق تدين الدونمة بأنّهم استمروا منافقين أهل كيد ومكر

(١) انقسم السباتائيون الدونمة إلى ثلاث طوائف، وهم:

- اليعقوبيون.
- القرقاشيون.
- حزب إبراهيم آغا (القبانجيون).

وكلّهم يبطنون اليهودية، ويظهرون أنهم مسلمون، وكان انقسامهم بسبب تنازع رئاستهم بعد مسيحهم «سباتاي».

(٢) كان لكل واحد منهم اسمان: أحدهما يهودي يتخاطبون به فيما بينهم، والآخر هو من الأسماء المتداولة بين المسلمين، ليكون هو الاسم المعروف لدى عامّة الناس.

فوالد زوجة «سباتاي» اسمه بين عامة المسلمين: عبد الغفور أفندي، أما اسمه بينهم فهو «جوزيف بيلوسوف» وأخو زوجته اسمه بين عامّة المسلمين: عبد الله يعقوب جلبي، أما اسمه بينهم فهو «جوزيف كيريدو».

(٣) للسباتائيين الدونمة أعياد تزيد على العشرين، أحدها يكون في ٢٢ آذار وهو اليوم الأول من أيّام الربيع، ويُسمّى هذا العيد عندهم عيد الخروف.

ويجتمع في هذا العيد رجال ونساء متساوو العدد ليلاً كلُّ رجل وزوجته، والنساء بكامل زينتهن، وبعد الطعام المعتمد على أكل لحم الخروف، يبدأ اللّهو المشترك كالرقص والغناء، ثمّ تُطْفأُ الأنوار، ويبقى المحتفلون في ظلام دامسٍ يمارسون فيه شهواتهم بإباحيّة عامّة، ويُعْتَبر كلُّ مولود يُولَد بعد ذلك نتيجة التزاني في هذه الليلة مولوداً مباركاً.

(٤) نشر «محمد رشدي قره قاشزاده» وهو من الدونمة أتباع «سباتاي سيفي» بعض أسرار السباتائيين في سلسلة مقالات صحفية، سنة (١٩٢٤م).

فمنها كتاب مفتوح إلى «دونمة» سلانيك، جاء فيه ما يلي:

«أيها السادة، منذ أكثر من ثلاثة قرون عشنا نحن الدونمة في كنف الشعب التركي العريق الكريم، وتحت جناح رحمته، وبقينا على حالة شديدة من التعصُّب لمذهبنا، باطِنُنا يخالف ظاهرنا في كلّ أفعالنا وحركاتنا...

لقد أصدر مجلس الأمّة قانوناً بمنع الخنازير البرّية من الإضرار بالمزروعات، فهل تظنّونَ أنّ أمّةً تفكّر بمثل هذه الدقة في الأمور، أن تُبْقي في بيئتها عنصراً غريباً عَنْها يمتصُّ خيراتها؟.

لَيْسَ لنا إلاّ اتباع أَحَدِ سبيلين:

* إمّا أن نلتحم ـ بموجب قانون خاصّ ـ بالشعب التركي التحاماً تامّاً، فنشاركهم في الأفراح والمصائب.

* وإمّا أن نبحث عن إمكاناتٍ مادّية ومعنوية خارج حدود هذا الوطن، نصنع فيها كياناً خاصّاً بنا».

(٥) دعاء يحفظه الدونمة ويردّدونه، وهو كما يلي:

«بالاسم المبارك لسباتاي سيفي المبارك: فلْيُقَبِّلُوني بأفواههم، فإنّ حُبّك أعْظَمُ من الخمر، إنَّ زيْتَكَ عاطر: إنَّ حُبّكَ زَيْتٌ مَصْبُوبٌ، وعليه فإنّ العذارىٰ يُحْبِبْنَك».

هذه الألفاظ الواردة من: «فليقبلوني» مأخوذة من أغنية الأغاني من التوراة.

(٦) عندما احتلت اليونان منطقة سلانيك رغب عدد من الدونمة أن يُعْلِنّ يهوديّته، فرفض حاخامهم طلبهم، ويظهر أنّ رفضه قد كان بهدف استغلالهم لخدمة اليهود مستقبلاً في الدولة العثمانية.

(٧) من عادات الدونمة الذهاب إلى ساحل البحر، أو إلى ضفة نهر، والقيام بالنداء التالي: «سباتاي سيفي نحن بانتظارك».

(٨) لهم زيٌّ خاصٌ بهم، فالنساء يتنعلْنَ الأحذية الصفراء، والرجال يضعون قبعات صوفية بيضاء مع إدارة عمامة خضراء عليها.

(٩) كان الدونمة أوّل الذين هاجموا حجاب المرأة المسلمة، ودعَوْا إلى التحرّر والسفور، ودعَـوْا إلى التعليم المختلط في الجامعات، وهاجموا أيضاً كلّ الشعائر الإسلامية.

(١٠) عاش «الدونمة» في سلانيك في العهد العثماني، وفي إستانبول في العهد الجمهوري عيشة رخاء وترف.

أمّا الآن فتوجد مراكز خطيرة في تركيا هي بأيدي شياطينهم، يستغلُّونَها، ويعبثون بها، ويعملون على حرب الإسلام، وتمزيق المسلمين من خلالها.

إلى غير ذلك من علامات ووثائق.

* * *

المنافقون هم الذين قاموا بإلغاء الخلافة العثمانية وتمزيق الدولة الإسلامية

(١) ثبت بما لا يقبل الشّكّ أنّ الصهيونيّة العالمية، ومكايد الدولة البريطانية، مع مساعدة سائر الدول الأوروبيّة قد اشتركت في تدبير مؤامرة خلع السلطان عبد الحميد الثاني، وإلغاء الخلافة الإسلامية بعد ذلك، وتمزيق الدول الإسلامية الكبرى، وتفتيتها إلى دويلات.

(٢) وثبت أنّ المنافقين من يهود «الدونمة» والمنافقين العلمانيّين من الترك، والمنافقين المنتمين إلى المحافل الماسونية، ولا سيما المحفل الماسوني المسمّى «محفل الشرق العثماني» المؤسس في مدينة «سالونيك» التي كان للدونمة فيها مرتع خصيب، مع المنافقين المنتظمين في «جمعيّة الاتحاد والتّرقي» والمنتظمين في «حزب تركيا الفتاة» والمندسّين في ضبّاط الجيش التركي، كانوا جميعاً أدوات التنفيذ، مع العناصر اليهوديّة التي لم تخف يهوديتها، وكان الرأس المدبّر والمخطط اليهودي

«عمانوئيل قره صُو» ومعه «جاويد» الذي كان من منافقي «الدونمة» وقد كـان «قره صـو» نائباً في مجلس المبعوثان عن مدينة «سالونيك».

(٣) ولمّـا أُلغيت الخلافـة، وأُعْلِنت الجمهوريـة، تولّى رئـاسة الـدولة التـركيـة «مصطفى كمال أتـاتورك» وهـو من يهود «الـدونمة» فـأعلن العلمانيـة وحارب الإسـلام والمسلمين بلا هوادة، بعد أن لبس أقنعة النفاق، أمام علماء المسلمين، وتظاهر بغيرته على الشريعة الإسلامية، في الوقت الذي كان يُخطِّط مع المخطِّطين لهدمها، وتحـويل المسلمين عن دينهم، وخـدمةِ الصهيـونيّـة العـالميـة، وإقـامـة الـدولـة اليهـوديّـة في فلسطين[١].

(٤) وكان اليهود في غير تركيّا يعلمون نفـاق كمال أتـاتورك، وأنّـه يعمل لهـدم الإسـلام وتمزيق الـدولة الإسـلامية، ومن الأدلـة على ذلك مـا حدّثنيـه الشيخ «محمـد السلقيني» والد أخينا «الدكتور إبراهيم السلقيني»: فقد التقيته في تركيّا، في قرية «كوك شدرة» وجرى الحديث معه حول الخلافة الإسلامية العثمانيـة، وكمال أتـاتورك، فقـال لي:

كنْتُ مـع والدي حـوالي سنة (١٩٢٠م) أو أكثـر، وكان أبـي يتـولّى وقف جامـع الـطواشي بحلب، فذهب إلى مستـأجـر دكّـان للوقف يهـودي اسمـه «داوُد فـرح ست» لقبض أجرة الدّكّان، وكان كمال أتاتورك أيّامَها يُحَارِبُ، ويتظاهرُ باسم الدين، وجـرى الحديث مع اليهودي حول كمال أتاتورك، واندفاعه في نصـرة الإسلام، فقـال اليهودي «داود فرح ست» للشيخ: لا تغرّنكم الآن هذه المـظاهر، فـإنّ مصطفى كمـال أتاتـورك يهودي ابن يهودي من يهود «سالونيك».

(٥) أصـدر «إسحاق بن زفي» أحـد الرؤسـاء السابقين لإسـرائيل كتـابـاً بعنـوان «الدونمة» سنة (١٩٥٧م) قال فيه:

«إنّ يهـوداً كثيرين، وكثيـرين جدّاً، يعيشـون بين الشعوب بـطبيعتين، إحداهمـا

(١) اقرأ كتاب «أسرار الانقلاب العثماني» كتبه بالتركية «مصطفى طوران» وترجمه إلى العربية «كمال خوجة».

ظاهرة، وهي اعتناق دين الشعب الذي يعيشون في وسطه، اعتناقاً جماعياً ظاهريّاً، والثانية باطنة، وهي إخلاص عميق لليهودية».

وأبان «إسحاق بن زفي» أنّ الدونمة طائفة «مسلمة ـ يهودية» أي: فهي تعيش في تركيّا بوجه مسلم، وتبطنُ من ورائه اليهودية، وهذا ما ساعدها على أن تتدخّل في شؤون تركيّا السياسية، والاقتصادية، والتربوية، والتوجيه الفكري.

(٦) تتجه أنظار معظم الباحثين إلى أنّ يهود الدونمة هم الذين بدؤوا تأسيس المحافل الماسونية، وهم الذين أسّسُوا جمعيّة الاتحاد والترقي، وحزب تركيّا الفتاة، وعن طريق هذه المنظمات جرّوا تركيّا إلى حروب خاسرة، وحوّلوها من الإسلام إلى العلمانيّة، ورفعوا رَجُلَهُمْ «مصطفى كمال أتاتورك» إلى سدّة الحكم في تركيّا، وألغوا الخلافة، وفصلُوا الترك عنِ العرب، وأقاموا الصراع بين القوميّتين العربيّة والتركيّة، لإزاحة تركيّا عن الوقوف في طريق إقامة دولة إسرائيل في فلسطين.

(٧) منذ أعلن «سباتاي» إسلامه، وتبعه يهود الدونمة، تمكن هؤلاء من احتلال مراكز ذات شأن في الدولة، ومع أنّهم لا يزيدون عن قرابة نيف وثلاثين ألفاً إلاّ أن تأثيرهم في تركيّا بقوّة الملايين، لدخولهم في مختلف التنظيمات وتوجيههم لها، ودخولهم في الجيش وأجهزة وسائل الإعلام، وامتلاكهم لكثير من كبريات الصحف، وتوجيههم للحزب الشيوعي، وهم يسعون لإقامة الحكومة اليهودية التي تملك العالم، مع الصهيونية العالمية.

● ● ●

المقولة السادسة

منظّمة
البابيّة فالبهائية إحدى المنظمات المنافقة(١)
اشترك في تأسيسها ونشرها
المجوس والصليبيّون واليهود

(١)
مقدمة

أكّدت الدراسات التي قام بها عدد من الباحثين المتتبعين، أن «البابيّة» التي صار اسمها فيما بعد «البهائيّة» منظّمة تمّ إعدادها بتخطيط من عدّة أحزاب كافرة من أعداء الإسلام، لتمزيق وحدة المسلمين، وفتنة طائفة منهم عن دينهم وإخراجهم من الملّة الإسلامية، وجعلهم ذيولاً تابعين لليهود والنصارى، وفُسّاقاً فجاراً إباحيين، وإبرازهم على أنّهم أُمّةٌ ذاتُ دين جديد ينادي بوحدة الأديان، ويَعْمَلُ على خدمة مصالح الاستعمار الصليبي من جهة، ويكون أحد الدروع التي تحتمي بها اليهوديّة العالميّة في مسيرتها لتحقيق مخطّطاتها العالميّة.

وقد تظاهرت هذه المنظّمة أوّلاً بأنّها طائفة من المسلمين، إلاّ أنّ لها في تفسير نصوصه مفهومات خاصّة، مع أنها في الباطن جاحدة كافرة بالإسلام، والغرضُ من تظاهرها الأوّليّ بالإسلام استدراج بعض المسلمين للانتماء إليها، ثم تحريف التعاليم

(١) المعلومات عن هذه المنظمة مقتبسة من الكتب التالية ومن غيرها: أ ـ (حقيقة البابيّة والبهائية) تأليف «محسن عبد الحميد». ب ـ (دراسات عن البهائية والبابية) تأليف «محب الدين الخطيب» وثلاثة آخرين. ج ـ «البهائية» تأليف (إحسان إلّهي ظهير). د ـ «البهائية سراب» تأليف «عبد الله النوري». هـ ـ صحف ومجلات نشرت عنها.

الإسلامية لهم، ثم فتنتهم عن دينهم، ثم إخراجهم عن الإسلام إخراجاً كليّاً، بإيهامهم أنّ دينهم الجديد نسخ الإسلام وشرائعه وجاء بشرائع حديثة تتلاءم مع أوضاع البشر، وما تطوّروا إليه، واتخذوا الإباحيّة الجنسيّة إحدى وسائلهم لإغراء أصحاب الشهوات من الرجال والنساء، الذين يطيب لهم أن يجدوا ديناً إباحيّاً، يبيح لهم المحرّمات، ويرفع عنهم التكاليف، أو يخفف عنهم منها، ويكتفي منها بما لا مشقة فيه، أو بما فيه متعةٌ أو لذّة.

* * *

(٢)
بدء المكيدة وأطوارها
وبعض خفاياها وخياناتها

الطور الأول:

على جذور الحركة الباطنية الخبيثة، وضمن جماهير الشيعة الإماميّة، ظهرت عدة مكايد ضدّ الإسلام والمسلمين، مهّدت لظهور البهائية:

(أ) فظهرت أوّلاً طريقة «الشيخيّة» نسبة إلى «الشيخ أحمد الأحسائي» المولود سنة (١١٦٦هـ ـ ١٧٥٣م) فقد أسس هذا طريقة في مذهب الشيعة الإماميّة سُمّيت فيما بَعْدُ الشيخيّة.

تقوم هذه الطريقة على ادّعاء أنّ الحقيقة المحمّدية القديمة لها تجلّيات:

* فقد تجلّت في الأنبياء قبل النبيّ محمّد ﷺ تجلّياً ضعيفاً.

* ثم تجلّت في النبيّ محمد تجلّياً أقوى.

* ثم تجلّت في الأئمة الاثني عشر.

واختفت زهاء ألف سنة.

* ثم تجلّت في الشيخ «أحمد الأحسائي» وهو من غلاة الشيعة الحلوليّة الذين يرون عبادة عليّ. وكان هذا الأحسائي يبشّر بقرب ظهور المهدي المنتظر.

[قيل: كان «أحمد الأحسائي» قسّيساً غربيّاً، فهو غير معروف الأصل في الأحساء].

* ثم تجلّت الحقيقة المحمدية بعد أحمد الأحسائي في تلميذه السيد «كاظم الرّشتي» المولود في سنة (١٢٠٥هـ ١٧٩٠م) في «رشت» من بلاد إيران.

[وقيل أيضاً: كان هذا قسّيساً كأستاذه الأحسائي].

وتابع «كاظم الرشتي» التبشير بقرب ظهور المهدي، ووصف لتلاميذه شخص هذا المهدي الذي دنا وقت ظهوره بصفات وشمائل وأخلاق تكاد تكون تعييناً لشخص يعرفونه بينهم، ثمّ ألمح إليهم أنّه قد يكون جالساً بين تلاميذه، ثم صرّح بذلك فقال في دروسه:

«إنّ الموعود يعيش بين هؤلاء القوم، وإنّ ميعاد ظهوره قد قَرُب، فهيِّئوا الطريق إليه، وطهِّروا أنفسكم حتى تَرَوْا جمالَه، ولا يظْهَرُ جمالُه حتّى أفارق هذا العالَم، فعليكم بعد فراقي أن تقوموا على طلبه، ولا تستريحوا لحظة واحدةً حتى تجدوه».

وكان «كاظم الرشتي» يقول في دروسه:

«إنّ الشريعة وأصول الآداب هي غذاءٌ للروح لذلك يجب أن تكون الشرائع متنوعة، وعلى ذلك يجب نسخ الشرائع العتيقة».

وكان «لكاظم الرشتي» زوجة رائعة الجمال اسمها «فاطمة» فلقبها زوجها «قُرّة العين وفرح الفؤاد» وكانت طاغية الأنوثة، ذكيّة شاعرة، ذات قوّة فائقة في الكلام والتأثير على الرجال بحديثها، ثم انطلقت مع تلاميذ الرشتي فاجرة، داعية إلى السفور وتحرير المرأة.

والصفات التي ذكرها «الرّشتي» للمهدي الحاضر القريب الظهور، تكاد تنطبق تماماً على الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» أحد تلاميذه الملازمين له ملازمة شديدة، وعيّنه الرشتي خلفاً له بعد موته.

ويبدو أنّ الخطّة المدبّرة في الخفاء قد رسَمَتْ كلّ ذلك، ومات الرشتي سنة (١٢٥٩هـ ١٨٤٣م) وكانت المؤامرة قد أعدت الشيرازي لادعاء أنه المهدي المنتظر.

الطور الثاني:

ولمّا مات «كاظم الرشتي» قام الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» المولود في «شيراز» سنة (١٢٣٥هـ ١٨١٩م) خلفاً له.

وكان هذا يقول بالحلول ووحدة الوجود، وبعد موت أستاذه بسنة واحدة ادّعى أوّلاً أنّه الباب إلى الإمام المنتظر المستور، وسمّى نفسه الباب، وسُمّيت دعوته فيما بعد «البابيّة».

ويدّعي البابيون أنّ مظاهر التجليات شيءٌ واحد، يختلفون في الصورة ويتّحدون في الحقيقة التي هي الله، فالحقيقة الربانية ظهرت فيهم، ويدّعون أنّ اللاحقين هم أفضل من السابقين.

ثم أعلن هذا «علي محمد رضا الشيرازي» أنه هو المهديُّ المنتظر المستور، وكان هذا الإعلان سنة (١٢٦٠هـ ١٨٤٤م) في مدينة شيراز، وكان عمره خمساً وعشرين سنة.

ثمّ ادّعى النبوّة، وادّعى أنه أفضل من الرسول محمد، وكتب كتاباً سخيفاً سمّاه «البيان» وادّعى أنّه أفضل من القرآن.

ثم ادّعى أنّه الإلٓه الحقّ، لأنّ روح الله قد حلّ فيه، كما حلّ في سائر الأنبياء والمرسلين من قبله، وادّعى إبطال شرائع الإسلام.

ولمّا فشت دعاواه هذه أصدر العلماء الفتوى بقتله، لارتداده عن الإسلام، وادّعاءاته الكافرة الفاجرة، ولتأكيده على إبطال الشريعة الإسلاميّة، فتمّ فيه تنفيذ حكم الإعدام بأمر من الشاه ناصر الدين، سنة (١٢٦٥هـ ١٨٤٩م).

وتأكّد أن الحكومة الروسيّة «القيصرية» النصرانيّة ساعدت «البابيّة» مساعدات كثيرة ومتنوّعة، حتى تَدَخّلَ القيصر لحماية الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» من القتل، إلاّ أنّ تنفيذ القتل قد كان أسبق من وصول الوساطة الروسيّة إلى الشاه.

وكان للقيصرية الروسية النصرانيّة تدخلات مستمرّة معروفة في شؤون إيران، وكان لها مطامع تقليدية في بلادها، للوصول إلى سواحل المحيط الهندي، وتأكد أنّها كانت من مؤسّسي الحركة «البابيّة» ثم «البهائيّة» التي كانت امتداداً لها، والطور الأخير

من أطوارها، وأنها كانت وراء خطط أطوارها، وأنّ الجاسوسية الروسية هي التي كانت تتّصل سرّاً برجال هذه المنظمة، وتمدّها بالمال والتوجيه وخطط العمل. ومن هؤلاء الجواسيس المنافقين الأرمني الروسي «منوجهر خان» فقد أعلن هذا إسلامه نفاقاً، فغمره الشاه «محمد» بالفضل، وأعطاه ثقته وعيّنه معتمداً للدولة في «أصفهان» فجعل هذا يمدّ الحركة البابيّة بالأموال الطائلة، وبالحماية والتأييد، ولمّا ثار المسلمون على «الباب» أخفاه هذا في بيته أربعة أشهر، وما كان يتصوّر أحدٌ أن يكون مختبئاً عنده، وهو معتمد للدولة في أصفهان.

ووجد اليهود في هذه الحركة البابيّة فرصةً مناسبة لهم، فانضم منهم إليها نفاقاً لدعمها ونشرها وتمزيق المسلمين عدد ضخم كاف لتخريب دولة:

* ففي «طهران» دخل من اليهود فيها (١٥٠).
* وفي «همدان» دخل من اليهود فيها (١٠٠).
* وفي «كاشان» دخل من اليهود فيها (٥٠).
* وفي «كلباكيان» دخل من اليهود فيها (٨٥).

كما جاء في كتاب «مطالع الأنوار» للعلّامة الشيعي «محمد الحسين آل كاشف الغطاء».

ويستند البابيُّون في إثبات مفترياتهم على التوراة، وقد كان الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» في سجنه يحتفظ بنسخة من العهد القديم، ويطالع فيها بإمعان.

ودعا البابيون إلى الإباحيّة الجنسيّة، تحت ستار تحرير المرأة في إيران، وتخليصها من أوضاعها الفاسدة التي كانت تعيش فيها.

وأخذت أجهزة الدعاية الغربيّة، ودوائر التبشير العالمي، تمجّد بالحركة «البابيّة» وتعتبرها حركة تقدُّميَّةً تحرّريّة، وأنّها جاءت لإنقاذ المسلمين من الإسلام المتعصّب.

واعتقد البابيون تبعاً لأقوال إمامهم الباب عدة عقائد، منها:

(١) إنكار البعث والمعاد إلى الحياة، ويفسّرون القيامة بالظهور الذي تجلّىٰ به الله في الأنبياء وفي الأئمة، ومنهم الباب.

(٢) ويعتقدون أنّ عدد الوحدة الربّانيّة هو رقم (١٩) وأنّ هذا العدد سرٌ من الأسرار المقدّسة الّتي لا يتم نظام العالم إلاّ به.

وتبعاً لتقديس العدد (١٩) جعل الباب الشهر تسعة عشر يوماً، والسنة تسعة عشر شهراً.

(٣) أوجب الباب على البنت أن تتزوّج بعد إحدى عشرة سنة من عمرها، وأوجب على الأرمل أن يتزوّج بعد تسعين يوماً من موت زوجته، وأوجب على الأرملة أن تتزوج بعد خمسة وتسعين يوماً من موت زوجها.

(٤) وألغى صلاة الجماعة، باستثناء صلاة الجنازة، وجعل الوضوء اختيارياً للصلاة، وحكم بأنّه لا توجد أشياء نجسة على البابي، بل كلّ الأشياء بالنسبة إليه طاهرة، ومنع الصدقة على الناس، ودعا إلى تحرير المرأة من قيود الأخلاق، وهنا تبرز مكيدة اليهود العالمية.

(٥) واشتمل كتاب «الباب» المسمّى «البيان» على أقوال سخيفة تافهة تُثير الضحك والسخرية، منها ما جاء في اللوح الأول منه:

«إنا قد جعلناك جليلاً للجالليين. وإنا قد جعلناك عظيماناً عظيماً للعاظمين. وإنّا قد جعلناك نوراً نوراناً نويراً للناورين... وإنا قد جعلناك تماماً تميماً للتامّين».

وهكذا على هذا النمط من الهراء المقرف.

(٦) وأقفل «الباب» النبوية والربوبيّة التي ادّعاها لنفسه إلى ما يزيد على ألفي سنة. وحرّم اكتساب العلم، على اعتبار أن العلم إنما يكون فيضاً لمن تظهر فيه تجلّيات الرب.

وعقد البابيّون مؤتمراً يعرف عندهم بمؤتمر «بدشت» وكان ذلك سنة (١٢٦١هـ ١٨٤٨م) وكان لزوجة «كاظم الرشتي» التي لقبها «قرة العين» أثرٌ كبير في توجيهه، مستخدمةً مالَها من جمال، وسحر حديث، وما لَدَيْها من تحلّل من قيود الأخلاق والدين وانطلاق في الفجور، وتأثير على الرجال بأنوثتها الطاغية.

وكان يحرّك هذه المرأة ويوجّهها سرّاً في مؤتمرهم هذا «حسين علي بن عباس

بزرك المازندراني» أحد تلاميذ «علي محمد رضا الشيرازي» فقد سبق أن سُجِنَت هذه المرأة بتهمة قتلها لعمّها، فأرسل لها «حسين علي المازندراني» من ساعدها على الفرار من السجن، فحضرت إليه، وعشقته، فقد كان مع خبثه شاباً جميلاً وسيماً جذّاباً.

ولأوّل مرّة أعلنت هذه المرأة بين البابيّين في هذا المؤتمر أنّ الشريعة الإسلامية قد نُسِخَتْ، وحَمَلَتْ الكثيرين على قبول هذه الفكرة المفتراة على الله.

الطور الثالث:

كان بين تلاميذ وأتباع الميرزا «علي محمد رضا الشيرازي» الذي دعا نفسه «الباب» وعُرِفت منظّمته بالبابيّة، كما سبق بهذا البيان، شابّان أخوان:

الأخ الأول: وهو الأكبر، الميرزا «حسين علي بن عبّاس بزرك المازندراني» نسبة إلى بلدة «مازندران» في إيران، المولود سنة (١٢٣٣هـ) والذي سبق الحديث عنه آنفاً.

نشأ هذا شغوفاً بمخالطة ومعاشرة الصوفيين من باطنيّي الشيعة، وذا ولع بقراءة كتبهم.

وحينما ادّعى الباب المهديّة اتّبعه بتوجيهٍ وإرشادٍ من الملاّ عبد الكريم القزويني، وبدأ ينشر مذهب أستاذه في طهران.

ولمّا انعقد مؤتمر البابيّين في «بدشت» حضره، وصار يوجهه سرّاً ويحركه من وراء عاشقته «قرة العين» كما سبق بيان هذا.

وقد كان هذا داهية ذكيّاً خبيثاً ماكراً مخاتلاً شيطاناً، قادراً على أن يتوارىٰ وينافق ويراوغ ويُسوّف ويُقْنع.

الأخ الثاني: وكان فتىً يافعاً قليل الحيلة يسيطر عليه أخوه الأكبر، اسمه «يحيىٰ نور» وقد لقّبه الباب: «صُبْح الأزل» وكان هذا أخاً «لحسين علي» من أبيه.

واتفق الذين أرّخوا لهذه المنظمة أن الباب «علي محمد رضا الشيرازي» قد جعل الأخ الأصغر من تلميذيه الأخوين وهو «صُبْح الأزل يحيىٰ نور» خليفته من بعده، وعين الأخ الأكبر منهما «حسين علي» وكيلاً له، وأمره بحجب أخيه وإخفائه لئلا يمسّه أحد بسوء، ولا يقع في أيدي الحكومة الإيرانيّة.

واستغلّ الأخ الأكبر منهما هذا الوضع لنفسه، فحجب أخاه حتى عن كلّ البابيين، فكان هو الموجه للمنظمة كلها باسم أخيه، وهو يعمل في الحقيقة لنفسه.

وعقد هذا صلاتٍ قويّةً بالدولة الروسيّة القيصرية الصليبيّة، وبالدولة البريطانية، وهذا مدوّن في كتب هذه المنظمة الخائنة العميلة لأعداء الإسلام.

وعزم البابيون على أن يغتالوا الشاه «ناصر الدين» انتقاماً للباب، إذْ نفّذ فيه حكم الإعدام بناء على فتوى العلماء بقتله، قيل: وكان «حسين علي» الأخ الأكبر منهما الرأس المدبر لاغتيال الشاه. ولمّا خابت مؤامرة اغتياله لاحقته الدولة، فلجأ إلى السفارة الروسيّة فحمته، وطالبت الحكومةُ الإيرانيةُ السفارةَ الروسية بتسليمها المجرم المتآمر على اغتيال الشاه، فامتنع الوزير الروسيّ المفوّض بطهران عن تسليمه، ثم أرسله محفوظاً إلى منزل رئيس وزراء إيران يومئذٍ «آقا خان» وكتب إليه ما ترجمته:

«إنّ الحكومة الروسيّة ترغب في أن لا يمسّه أحد بسوء، وأن يكون في حفظ وحماية تامّة، وأنّه إذا لم يحفظه فسيكون هو شخصياً مسؤولاً عنه».

وتدخّل أيضاً السفير البريطاني في طهران طالباً حمايته، وأن لا يُمَسّ بسوء.

وكان رئيس وزراء إيران «آقا خان» من الموالين للروس، فأخفاه عنده أوّلاً، وبعد أن دبّر أمر حمايته من القضاء قدّمه إلى الحكومة لإجراء التحقيق بأمره، فأُودِعَ في سجن «سياه جال» أربعة أشهر، ثم اتّخذ «آقا خان» تدابير إصدار الحكم ببراءته من الاشتراك في مؤامرة اغتيال الشاه، مع أنه كان هو الرأس المدبّر، استجابة لضغوط الروس والإنكليز.

وكان سفير الروس في إيران يومئذٍ «كنيازد الغوركي» الذي كان له دور كبير في تأسيس هذه المنظمة، كما ذكر هو في مذكراته التي نشرتها مجلة «الشرق» السوفييتية سنة (١٩٢٤م).

وجاء أيضاً في أقوال «حسين علي» هذا بكتابه: «سورة الهيكل» ما يلي:

«يا مَلِكَ الرّوس... ولمّا كُنْتُ أسيراً في السلاسل والأغلال في سجنِ طهران نصرني سفيرك».

وجاء في كتابه: «مبين»:

«يا ملك الروس... قد نصرني أحد سفرائك إذْ كنتُ في السجن تحت السلاسل والأغلال، بذلك كتب الله لك مقاماً لم يُحِطْ به أَحَدٌ إلّا هو».

وبعد الإفراج عنه صدر الأمر بنفيه إلى بغداد، فخاف أن تبعث الدولة من يقتله في الطريق، فاتفق مع الروس على أن يبعثوا له من فرسانهم من يحميه حتى يصل إلى بغداد، ففعلوا ذلك، ووصل إلى بغداد مع أسرته وبعض البابيّين سنة (١٢٦٩هـ ١٨٥٣م).

ثم ارتحل أخوه الأصغر «يحيىٰ نور = صُبْح الأزل» إلى بغداد، مُتَخَفِّياً بثياب الدراويش.

واستمر الأخ الأكبر «حسين علي» يدير المنظمة نيابة عن أخيه، فيراسِلُ عنه، ويخاطبُ الناس عنه.

وفي بغداد بدأ الشقاق بين الأخوين، لأنّ الأخ الأصغر «يحيىٰ نور = صُبْح الأزل» أدرك أنّ أخاه يعمل لحساب نفسه، ويريد أن يكون هو زعيم المنظمة بعد «الشيرازي» الذي زعم نفسه «الباب» وناصر كبار البابيين صاحب الخلافة الأصل، الأخ الأصغر.

فغضب الأخ الأكبر «حسين علي» في نفسه، وقرّر أن يعتزل خارج المدينة بعيداً عن أخيه وأفراد المنظمة ليُحْرِجَ أخاه الأصغر، وفي سنة (١٢٧٠هـ ١٨٥٤م) خرج إلى جبال السليمانية وحده، فاعتزل في كهف من كهوفها سنتين كاملتين، وترك إدارة دفة المنظمة، ولعلّ هذا الاعتزال قد أربك أخاه، فكتب إليه يأمره بأن يعود إلى بغداد، وأن يطيع أمره، بصفته رئيساً للمنظمة وزعيمها، وخليفة الباب الراحل بلا منازع، فأطاع «حسين علي» ورجع إلى بغداد معترفاً بقيادة أخيه الأصغر وزعامته.

ثم اشتد الخلاف بين الأخوَيْن، واتّهم كلٌّ منهما أخاه بمحاولة قتله عن طريق دسّ السُّمّ له في الطعام أو الشراب، وصار الأخ الأكبر «حسين علي» يُحرّض أشياعه ضدّ أتباع أخيه ومناصريه، وذكروا أنّه استطاع أن يقتل بالسّمّ عدداً من كبار البابيّين أنصار أخيه.

وتوافد «البابيون» إلى بغداد، وكثرت خلافاتهم وأحزابُهم، واشتكى منهم مسلمو السنّة وعلماء الشيعة إلى الحكومة المحليّة، وأبلغت هذه الحكومةُ المحليّة الحكومة الإيرانية بأمر هؤلاء، وما يقومون به من شغب، فتمّ الاتفاق بعد مراسلات ومشاورات بين الحكومة الإيرانية وحكومة السلطنة العثمانية على نقلهم إلى «إستانبول».

وحين توجّه الأخوان مع أتباعهما مرتحلين إلى «إستانبول» سنة (١٢٧٩هـ ١٨٦٣م) أعلن الأخ الأكبر «حسين علي» لخاصته ورفاقه المحبّين له أنّه هو الموعود الذي أخبر عنه «الباب» إذْ كانوا مجموعين خارج بغداد، في حديقة «نجيب باشا» وتخليداً لذكرى إعلانه هذا فيها يُسمّونها «حديقة الرضوان». وقيل: أعلن دعوته بعد ذلك في «أدرنة» من تركيّا، ولم يعلم الأخ الأصغر بما أعلنه أخوه.

وسِيقُوا إلى «إستانبول» فأقاموا فيها قليلاً، ثم نُقِلُوا إلى «أدرنة».

وفي «أدرنة» أظهر الأخ الأكبر «حسين علي» أنّه هو المظهر الأوّل للإدارة الإلٓهية التي بشّر بها «الباب» ولقّب نفسه: «بَهاء الله»..

عندئذٍ نشب الخلاف الشديد بين الأخوين، بعد أن رفض حزب أخيه الاعتراف له بذلك.

وظهر للخلاف بينهما آثار مزعجةٌ للسلطنة العثمانيّة، إذْ وصلت إلى حدّ التقاتل جهاراً، وإحداث الفوضىٰ، فتدخّلت حكومة السلطنة العثمانيّة، بالاتفاق مع سفارة «إيران» على نفيهما إلىٰ بلدين متباعدين.

فنفت الأخ الأكبر «حسين علي = بهاء الله» إلى «عكا» من فلسطين، هو وأتباعه، وكانت «عكا» يومئذٍ منفىٰ كبار المجرمين، إذْ كانوا يرسلون إليها من جميع أنحاء تركية، ونفت «يحيىٰ نور = صُبْح الأزل» إلى «قبرس = قبرص».

وكان مكوثهما في «أدرنة» أربع سنوات ونصف السنة.

ولمّا كان الأخ الأكبر «حسين علي = بهاء الله» أخبث الأخوين وأكثرهما مكراً وحيلة وقدرة على الإغواء والتضليل، وتوسيع دائرة المنظمة، فقد اعتمدته القوّة المدبّرة الخفيّة اليهوديّة والصليبيّة ليكون قائد المنظمة.

ومن ثمّ عرفت المنظمة باسم «البهائية» نسبة إلى حسين علي بن عباس بزرك المازندراني» الذي أعطى نفسه لقب «بهاء الله».

ومنذ ذلك الحين أخذت البهائية أتباع «بهاء الله» تنتشر بدعم الصهيونيّة العالميّة والصليبيّة، ثم احتضنتها أمريكا بدعمٍ قويّ.

ورعته الصليبيّة العالمية، والصهيونية في منفاه، وعُطّلتْ أوامر السلطنة العثمانيّة القاضية بسجنه والتضييق عليه وأُغْدِقت عليه وعلى البهائيين معه الأموالُ من قِبَلِ أعداء الإسلام، وعاش في «عكّة» و«حيفا» و«البهجة» في قصور فخمة، وحدائق غناء عيش الملوك، قرابة أربع وعشرين سنة.

وألف «حسين علي = بهاء الله» عدة كتب ورسائل زعمها كتباً مقدسة، منزّلة من عند الله، منها كتاب سماه «الأقدس» وادّعى أنه وحي من الله، وينسب إليه كتاب اسمه «إيقان» طبعه محفل البهائيين المركزي في مصر سنة (١٣٥٢هـ).

ولمّا بلغ الخامسة والسبعين من عمره جاءه مرض الموت، وانتهت رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، وهلك ليلقىٰ عذاب ربّه، بعد حُمّى نزلت به.

وكان موته في الثاني من ذي القعدة سنة (١٣٠٩هـ و ١٨٩٢/٥/٢٨م).

وخلفه بعده ابنه الأكبر «عباس أفندي» الملقّب «الغصن الأعظم» وسمّى نفسه بعد موت أبيه «عبد البهاء» وكان هذا زعيم البهائيّة ونبيّها بعد أبيه، وكان هذا أكثر ذكاء من أبيه وأخبث وأعظم حيلة ومكراً ونفاقاً، يحضر مساجد المسلمين ويصلي معهم، ويحضر كنائس النصارى ويصلي معهم، ويحضر معابد اليهود ويصلي معهم.

وكان قد وصىٰ «بهاء الله» بخلافته من بعده لابنه الأكبر «عباس = عبد البهاء» هذا المولود في ١٨٤٤/٥/٢٣م الموافقة لسنة (١٢٦٠هـ).

وبعده للأصغر منه «محمد علي» وكتب بذلك كتاب الوصيّة، وختمه بخاتمه.

و«عباس = عبد البهاء» هو الذي أتمَّ تكوين البهائيّة، وأظهرها على الوجه الذي هي عليه بعد الانتشار والظهور، وهو الذي أخرجها من الكتمان، وصبغها بصبغة عصريّة، وادّعىٰ النبوّة بعد أبيه، وادّعى في أمريكا بأنه هو المسيح، وابن الله.

وزاد هذا الابن الشيطان على تعاليم أبيه زيادات كثيرات، وحذف منها وعدّل، واستعان بأفكار من العهد القديم، وأفكار من العهد الجديد؛ ليكون للبهائية إمكانيات انتشار أكثر.

وهلك عباس في ٢٨ ربيع الأول سنة (١٣٤٠هـ) و٢٨ تشرين الثاني سنة (١٩٢١م). وتأثرت الحكومة البريطانية لوفاة عميلها المخلص لها وللصهيونيّة العالمية، فأبرقت تعزّي به آل البهاء والبهائيين.

ولم يكن له ولد ذكر من ذرّيته يخلفه.

فخلفه من بعده «شوقي أفندي» ابن بنته الكبرى، باستخلاف منه. وكان عمره عند هلاك جدّه «عباس = عبد البهاء» خمساً وعشرين سنة.

ولُقّب بعد جده «ولي أمر الله» وتزوّج امرأة أمريكيّة اسمها: «ماري ميكسويل» سنة (١٩٣٦م) أو اسمها «روحيّة ماكْسُوِل».

ومات في (١٩٥٧/١١/٤م) في لندن بالسكتة القلبيّة، دون أن يكون له عقب في ولاية أمر البهائيين حسْبَ تعاليمها.

فانقسم البهائيون إلى فرق وأقسام متعدّدة، ولولا إمساك الصهيونيّة لهم، والصليبيّة والاستعمار لانفرط عقدهم، وانحلّ تماسكهم.

* * *

(٣)
مبادىء البهائيين العامة

للبهائيين مبادىء عامة خمسة:

المبدأ الأول: وحدة الأديان.

من الثابت أنّ فكرة وحدة الأديان إحدى المكايد اليهودية الماسونية، التي تتظاهر بها لسلخ الناس من ولاءاتهم الدينية الخاصّة، في حين يُوصِي قادة اليهود كُلَّ يهودي أن يُحافظ سرّاً على يهوديته وولائه لكتب اليهود، مهما تظاهر بانتمائه إلى أيّ دين أو أيّ مذهب آخر أو أيّ تنظيم في العالم، وأن يعمل على خدمة الحركة اليهوديّة

الصهيونية، وتسخير المنظمة التي ينتمي إليها، وأهل الدين الآخر الذي يتظاهر بالانتماء إليه، لتحقيق حُلْم اليهود الأكبر، وهو حكمهم العالم كلّه في دولة عالمية واحدة، يسيطر ملك بني إسرائيل عليها.

المبدأ الثاني: وحدة الأوطان، أي: الأرض كلّها وطنٌ واحد للجميع.

وهذه أيضاً من الأفكار التي ترى الصهيونيّة العالمية أنّها تُمهّد للدولة العالميّة التي يسعىٰ اليهود لإيجادها على أن تكون في قبضتهم.

المبدأ الثالث: وحدة اللّغة.

وهذه الفكرة هي أيضاً إحدى المخطّطات اليهودية الصهيونية التي تتبنّاها الماسونية.

فقد جاء في إحدى الوثائق التي تكشف بعض المقرّرات السّرّية اليهودية ما يلي:

«وعندما نتيقن من نجاح مخطّطاتنا هذه ستكون ساعة الصفر قد أزفت، فتزحف جيوشنا إلى الميادين المعيّنة لها، وسنقضي سريعاً على مقاومة أعدائنا التي ستكون حتماً هزيلة، ونزيل الدول المنهارة عن طريقنا، ثم نعلن للعالم انتصارنا، ونفرض عليه سيادتنا تحت ظلّ الدولة العالمية الموحّدة، وعَلَمِها ذي النجمة المقدسة...

وسنفرض على العالم ثقافتنا، ومن ثَمَّ سنقضي على اللّغات المستعملة الآن، وسنُرْغِم الشعوب على دراسة اللّغة (اليديشية = اللّغة العامّيّة اليهودية) وحْدَها، التي ستكون اللّغة العالميّة للشعوب كافة، وسنختص نحن باللّغة الْعِبْرِيّة الأصليّة، لغة السّادة والشعب المختار، وسنمنع اتّخاذ اللّغات الأخرى، ونُلقّن العالم تاريخنا وحده»[1].

المبدأ الرابع: السلام العالمي، وتحريم الحرب.

وهذه أيضاً إحدى المخططات اليهودية في لعبتهم السياسيّة العالمية تمهيداً لحكم العالم[1].

(١) انظر الوثيقة الثالثة من «وثائق من أقوال اليهود» في كتاب «مكايد يهودية عبر التاريخ» للمؤلف.

المبدأ الخامس: المساواة بين النساء والرجال.

وهذه أيضاً إحدى الأفكار اليهودية التي يريدون بها إخراج المرأة من كلّ قيود التعاليم الدّينيّة، وقيود العفة، لإفساد الشعوب، وتدمير أخلاقها.

* * *

(٤)
حيلتهم النفاقية بالنسبة إلى النصوص الإسلامية

من الملاحظ لدى البهائيين أنّهم يستخدمون النصوص الإسلامية، لكنّهم يُحَرِّفون دلالاتها وفق الطريقة الباطنيّة، ويلْوُون أعناقها لما يخدم دعم مفهوماتهم الباطلة، وتحريف الإسلام.

وأقوالهم ومكتوباتهم مشحونة بمثل هذه التحريفات والتفسيرات الباطلات، وفق الطريقة الباطنيّة المعروفة لدى الفرق الباطنية المختلفة.

* * *

(٥)
من الأحكام التشريعيّة
لهذه النحلة المفتراة على الله

للبهائيين جملة أحكام وردت على ألسنة زعمائهم، بعد أن تعرّضت لتعديلات وتغييرات متعاقبات بحسب تعاقب الزعماء، فمنها ما يلي:

(١) تحريم حجاب المرأة.

(٢) إباحة الزواج من كل امرأة باستثناء زوجة الأب.

(٣) تحريم الزواج بأكثر من زوجتين.

(٤) وجوب طاعة السلطان القائم وعدم جواز الاعتراض عليه، فقد جاء في كتاب «الأقدس» من كتبهم ما يلي:

«ليس لأحد أن يعترض على الّذين يحكمون على العباد».

(٥) إنكار يوم الدين، وادعاء أن الدنيا تكون هكذا إلى الأبد، وأنّ القيامة والنشور إنما هي ظهورات وتجلّيات للرّب تكون في هذه الدنيا، لأشخاص تتجلّى فيهم الروح القدسيّة العلية.

(٦) إلغاء الجهاد في سبيل الله، وهذا الإلغاء هو إحدى القضايا المهمّة التي يعمل اليهود وسائر أعداء الإسلام لإقناع جميع المسلمين بها.

* * *

(٦)
تآمرهم ضدّ الأمّة الإسلاميّة

قام البهائيون بدور الأجير المطيع في تنفيذ مخطّطات أعداء الإسلام، من صليبيين، واستعماريّين ويهود.

إنّهم يقرّرون ويعترفون في كتبهم ونشراتهم بأنهم عملوا على سقوط الحكومة العثمانية في فلسطين، وبأن المستعمرين الإنكليز قد دخلوا الأراضي المقدّسة بمساعيهم، ويتباهَوْن بأنّهم كانوا قد تنبّؤوا بقيام الدولة الإسرائيليّة، ويتحدّثون عن الصلات الوثيقة التي تقوم بينهم وبين دولة إسرائيل.

وفيما يلي طائفة من الوثائق التي تكشف تآمرهم مع أعداء الإسلام ضدّ الإسلام والمسلمين:

(١) نشرت مجلّة «الأخبار الأمريّة» التابعة للمحفل الروحاني الوطني للبهائيّين، بالعدد الخامس الصادر في أيلول لعام (١٩٥١م) حديثاً لرئيس القسم العالي للبهائيّين، مع وزير أمور الأديان الإسرائيلي، يقول فيه:

«إنّ أراضي الدولة الإسرائيليّة في نظر البهائيّين واليهود والمسيحيّين والمسلمين أراضٍ مقدّسة، وقد كتب حضرة عبد البهاء قبل أكثر من خمسين عاماً أنّه في النهاية ستكون فلسطين موطناً لليهود، وهذا الكلام طُبع في حينه وانتشر».

(٢) وجاء في كتاب «التوقيعات المباركة» بالمجلد الثاني، لمؤلفه «شوقي أفندي» في الصفحة (٢٩٠) ما يلي:

«لقد تحقّق الوعد الإلـهي لأبناء الخليـل، ووارثي الكليم، وقد استقـرّت الدولـة الإسـرائيليّة في الأراضي المقدّسة، وأصبحت العـلاقات بينهـا وبين المركـز العـالمي للجامعة البهائيّة وطيدة، وقد أقرّت واعترفت بهذه العقيدة الإلـهيّة».

(٣) ونشرت مجلة «الأخبار الأمريّة» بـالعدد العـاشر الصـادر في عام (١٩٦١م) ما قالته زوجة «شوقي أفندي» الأمريكيّة زعيمـة البهائيين بعـد موت زوجهـا، في مقابلة صحفية لها مع «مزدهيفت» وهو:

«فإن كان من المقرّر لنا الاختيار، فمن الجدير أن يكون هـذا الدين الجـديد في أحدث دولة، وفيها يترعرع، وإنّ لنا مـع إسرائيـل روابط، ووحدة مصيـر، وفي الواقـع يجب أن أقول: إنّ مستقبلنا ومستقبـل إسرائيـل يرتبـطان ببعضهما كحلقتين في سلسلةٍ واحدة».

(٤) إنّ مركز تشكيلات البهائيين الرئيسي، ويُسمّى «بيت العدل» يوجد حاليّاً في مدينة «حيفـا» بفلسطين المحتلة، وتشـرف عليه هيئـة مكوّنـة من تسعة أشخـاص بينهم أمريكيون وأوروبيون. وكلّ المحافل الأخـرى التي تقام في العـالم تعتبر فـرعاً للمـركز الرئيسي في إسرائيل.

(٥) أعلن في النشـرة الرسميّـة للبهائيين في إيـران أيام رئـاسـة «ابن غـوريـون» للوزارة الإسرائيلية ما يلي:

«مع كمال الفخر نبلّغ البهائيين باتساع الروابط بين البهائيين والمسؤولين في دولة إسرائيل».

وفي تلك الأثنـاء قام وفـد من البهائيّين بمقـابلة «ابن غوريـون» وقدّم لـه تمنيات البهائيين القلبيّة لتقدم وتطوّر إسرائيل.

(٦) في السـابع من شهـر نيسان لعـام (١٩٦٤م) قام الـرئيس السابق لإسـرائيل «زالمان شازار» بزيارة رسميّة لمركز البهائيّين، واستقبله هؤلاء استقبـالاً حارّاً، ظهـر فيه مدى التعاطف والتعاون بينهم وبين اليهود.

(٧) ثبت لـدى مكتب المقاطعـة العربيّـة لإسـرائيـل أنّ البهـائيّـة تتعـامـل مـع الصهيونيّة، وتتـآزر معها، لـذلك أصـدر في شهر صفـر عام (١٣٩٥هـ) المـوافق لآذار

لعام (١٩٧٥م) قراراً باعتبار «البهائيّة» من الحركات الهدّامة، وبوضعها في القائمة السوداء، ومقاطعتها، وحظر أيّ نشاطٍ لها في البلاد العربيّة، لثبوت تعاملها مع العدوّ الإسرائيلي، وافتضاح اتصالاتها المشبوهة بالصهيونيّة، وبأجهزتها السّرّية والعلنيّة.

أقـول:

كانت هذه المنظمة منظمة منافقة داخل الأمّة الإسلاميّة، ثم تكشّفت خباياها شيئاً فشيئاً حتّى ظهر كفرها وعداؤها للإسلام والمسلمين.

ولا يزال بعض الأفراد المنتسبين إلى البهائيّة سراً يَظْهَرون أمام المسلمين بوجوه منافقةٍ في بداية الأمر، ثم يَظْهَرُ كفرهم وعداؤهم للإسلام والمسلمين، ومن هؤلاء من روّج لسرّ العدد (١٩) في «بسم الله الرحمن الرحيم» ومضاعفاته في حروف بعض سُور القرآن، حتى إذا استقرت القاعدة في أذهان بعض المسلمين انتقلوا إلى اعتبار بعض ما في القرآن ليس منه متى خالف القاعدة التي زعموها قاعدة لازمة.

ولئن اتفق وجود شيء من ذلك في بعض سور القرآن، فلا يزيد على كونه من بدائعه، ولا يقتضي التزام ذلك في كلّ سُوره، فثبوت نصّ القرآن محكوم بالنقل المتواتر عن الرسول فمن بعده، ولا شيء غير ذلك، ولن يخالف نصّ من نصوصه الحقّ والهدى.

● ● ●

المقولة السابعة

منظمة القاديـانيّة[1]
إحدى المنـظمات المنافقة
المنشقة عن جسم الأمة الإسلامية

(١)
مـقـدمـة

القاديانية منظّمة لَبِسَتْ قناع النفاق، فتظاهرت بأنّها ذات رسالة تتضمن الإصلاح الإسلامي، والنهضةَ بالمسلمين، وهي في قياداتها والعالمين بخفـاياهـا من القاديـانيّين تُبْطِن الكفر، والعمل لهدم الإسـلام، ولإقناع المسلمين بـإلغاء الجهـاد في سبيل الله، وخـدمةِ الاستعمـار البريـطاني، وتفريقِ المسلمين بصنـاعـة فـرقـةٍ تنتمي إلى الإسـلام ظاهراً، وهي حَرْبٌ عليه، وعميلةٌ لأعدائه، وتعمل بما تستطيع من جَهْدٍ لكي تُلْغي من تعـاليم الإسلام كـلَّ ما يُؤثـر على السيـاسـات الاستعمـاريـة، وكـلَّ مـا يقف في وجـه الاستعمار، ويضرّ بمصالحه في بلدان وشعوب الأمّة الإسلامية.

وهي منـظمة مؤسّسـةٌ وموجّهـة ومُمَوَّلَـةٌ من قبل الاستعمـار الإنكليزي، والـدولـة البريطانيّة الّتي كانت الهند منشأُ القاديانيّة إحدى مستعمراتها في العالم.

فهـذه المنظمـة شبيهة بـالبهائيـة، إلاّ أنّها ذات مكـر أشدّ، وأقنعتهـا أكثر كثـافـة وخداعاً، الأمر الذي هيّأ لها إمكانات انتشار أوسع، بين بعض الشعوب المسلمة، التي

(١) المعلومات النصيّة والخبـرية عن القـاديانيـة مقتبسة من كتـاب «القاديـانية» للشيـخ أبي الحسن الندوي، وأبي الأعلى المودودي والشيخ محمد الخضري حسين، وعن كتاب «القاديانية دراسة وتحليل» لإحسـان إلٰـهي ظهير. وكتاب «القادياني ومعتقداته» للشيخ منظور أحمد جنيوني.

ليس فيها علماء مسلمون، والتي يلاحظ فيها أنّ انتماءها إلى الإسلام انتماء غير قائم على فَهْمٍ صحيحٍ لمبادئِه وشرائعه وأحكامه وتعاليمه.

ويقدِّر القاديانيون على اختلاف فرقهم بقُرابة مليون قادياني على ما ذُكر، وهم منتشرون في العالم الغربي، وإفريقية، والأقل منهم في باكستان والهند.

* * *

(٢)

بدء المكيدة وتأسيسها

(١) لقد أقلق الدولةَ البريطانيةَ الاستعماريةَ حركاتُ الجهاد الإسلامي، التي تفجّرت في مستعمراتها الإسلامية في مواطن متعدّدة، ورأت أنّ شعوب الأمّة الإسلامية تتحرّك بالدِّين، وتَسْكُنُ بالدّين، لِتَغَلْغُلِ الدِّين إلى مراكز العمق منها.

(٢) فاجتمع قادة الاستعمار البريطاني وزعماؤه في «لندن» وقد كانوا يُسَيْطِرُون بالسلطة الاستعماريّة الاستغلالية على شبه القارّة الهندية التي تحتوي على مئات الملايين من المسلمين الأعداء الطبيعيّين للاستعمار البريطاني وغيره، ويسيطرون بالسلطة الاستعماريّة على مستعمرات أخرىٰ فيها مئات الملايين المسلمين من الشعوب الأخرىٰ.

فرأوا أنّ الإسلام بمفهوماته الحقّ المتغلغلة في أعماق المسلمين عقبة كبرى، لا تجعل رغباتهم الاستعماريّة تتحقّقُ لهم دواماً، وهم آمنون مستقرّون في بلدان المسلمين، ولا سيما ما في الإسلام من أخلاق العزّة الّتي يغرسها في قلوب المسلمين المؤمنين، والّتي تأبىٰ أنْ يَخْضَعَ المسلِمُ لغير الله عزّ وجلّ، ولِمَنْ أمر الله بطاعَتِهِ من أولي الأمر من المسلمين المطبّقين شريعةَ الله لعباده، وكذلك ما في الإسلام من تحريم اتّخاذ أولياء من دون المؤمنين، وما فيه من وجوب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وتحرير الأمة الإسلامية من سلطان غير المسلمين عليها.

فرأَوْا أن يُحْدِثوا فِرقةً منافقةً تتظاهَرُ بالإسلام، وتَعْمَلُ على تغيير المفهومات التي تحرّك المسلمين، فلا تمكّنُ الدولةَ الاستعماريّةَ من الاستمرار في تحقيق أهدافها الاستعماريّة الاستغلالية في شعوب الأمّة الإسلاميّة وبلدان هذه الشعوب.

ولكنّ هذه الفرقة لا بدّ أن يؤسّسها واحد من أبناء المسلمين، ولا بُدَّ أن يُناصِرَه جُمهورٌ من أبناء المسلمين أيضاً، وهذا الواحد لا بُدّ أن يكون عميلاً مضموناً من عملائهم، وهؤلاء الأنصار لا بُدَّ أن يكثر فيهم العملاء والجواسيس للدولة الاستعماريّة، حتّى يجتمع عليهم أهل الأهواء والمطامع الدنيوية والمنافقون الذين يجدون لدى العملاء ما يرغبون فيه من أموال ومناصب وشهوات، مع ما هم فيه من رغبات تحلُّلٍ من قيود الدين، ومن الالتزام بأحكامه وشرائعه الحقّ.

ولا بُدَّ لهذه الفرقة الأجيرة المنافقة المرادِ إحداثُها في مجتمع المسلمين، والتي ستُحدِثُ هذا التغيير الخطير في المفهومات الإسلامية المجمع عليها لدى مختلف المذاهب الإسلامية المعتبرة عند جماهير المسلمين، من أن تقوم على ادّعاء تلقّي وحْيٍ جديدٍ عن الله، يتضمَّن هذه التغييرات المراد إحداثها، وهذا لا يكون إلاَّ بحيلةِ بعثِ نبيٍّ جديد، أو رسولٍ جديد، يفسر نصوص الإسلام تفسيرات جديدة تتضمن هذه التغييرات المراد إحداثها وتبتعِدُ هذه الفرقة قليلاً عن ادّعاء ربُوبيّة زعيمهم، وحلول روح الله في شخص زعيمهم، لأنهم رأوْا أنّ هذه المكيدة لم تنجَحْ في البهائيّة النجاح المطلوب، وتبتعدُ أيضاً عن التغيير الذي بمسّ شرائع الإسلام الكبرى وأحكامه، لأنّ مثل هذا التغيير غير مؤهّل للنجاح كما دلّتْهُمُ التجارب السابقة.

فتمّ إقرار الخطّة بوجهٍ عامّ، وكان لا بدّ بعدها من البحث عن الرأس الّذي يُكَلَّفُ حمل هذه المهمّة الخطيرة.

(٣) وكان للإنكليز أجراء جواسيس خائنون لشعوبهم ودينهم، اشتروهم بالمال والمناصب والشهوات، فآزروهم وساعدوهم في كلّ مستعمراتهم.

وقد هالَ الإنكليزَ أعدادُ المسلمين الكثيرة في شبه القارّة الهنديّة، فرأوا أن يكون الرأس المختار لحمل مهمة تأسيس الفرقة الأجيرة المنافقة التي قرّروا تأسيسها من مستعمراتهم في الهند، وذلك لتكون طلائع الفرقة التي تجتمع حوله مناصرة لهم، من أفراد هذا البحر البشريّ المائج في شبه القارة الهندية، فتحمي استقرارهم، وتُطفىء نيران الثورات التي قد تُؤجِّجُ ضدّ وجودهم الاستعماري.

(٤) وبعد البحث في مصنفات الأجراء والعملاء والجواسيس وجَدَ الإنكليز في

قرية «قاديان» إحدى قرى «البنجاب» شخصاً يحمل لهم هذه المهمة، في أسرة هي عميلة للاستعمار البريطاني سابقاً، إنّه «غلام أحمد بن غلام مرتضىٰ».

فقد كان أبوه «غلام مرتضى» واحداً من الذين خانوا المسلمين، وتآمَرُوا عليهم، وقد خدم هذا الحكومة البريطانيّة بما يستطيع من قوّة، وكان له كرسيٌّ في ديوان الحكومة الإنكليزية المستعمرة، وأمدّها بخمسين جنديّاً من أنصاره وبخمسين فرساً، في الثورة التي قامت ضد الإنكليز سنة (١٨٥٧م) وتلَقَّىٰ على ذلك رسائل شكر وتقدير من رجال الحكومة الإنكليزية، وقد ذكر هذا ابنه «غلام أحمد» في «حاشية إزالة أوهام».

ولما وقع اختيار الإنكليز على «غلام أحمد» ابن عميلهم القديم «غلام مرتضىٰ» الْتَقَوْهُ واتفقوا معه على أن يقوم بمهمته، ورسموا له خطوات العمل.

(٥) فبدأ «غلام أحمد القادياني» يفتري مشاهدات غيبيّة ويعلنها، ويصنع أقوالاً ويزعم أنّه قد أُلهِمَها، أو تنزّلت عليه من الرّبّ عزّ وجلّ، فمن ذلك ما يلي:

(أ) قوله: «رأيتُ ملَكاً في صورة شابٍّ إنكليزي لم يتجاوز عمره عشرين سنة، جالساً على كرسيٍّ وأمامه منضدة، فقلت له: إنّك جميل جدّاً، فقال بالإنكليزية: نعم، وألهمني: أنا أُحبّك، أنا معَكَ، أنا أساعدك، فارتجف جسمي، فألهمني بالإنكليزيّة: نحن نستطيع أن نفعل ما نُريد، ففهمت التلفُّظ واللّهجة كأنه إنكليزي عند رأسي».

(ب) قوله: «رأيتُ في الكشف أنّ الملكة المعظمة «قيصرة الهند» سلّمها الله تجلّت وتفضّلَتْ في بيتنا، فقلتُ لأحدٍ من أصحابي: إن الملكة المعظمة شرّفتنا بكمال الحبّ والألفة، وسكنت يومين في بيتنا فلا بُدَّ أن نشكُرها».

(ج) وجاء من أقواله المدونة في مكتوباته ذات الأسماء المختلفة[1]:

«* ماتت القلوب، وكثرت الذنوب، واشتدت الكروب، فعند هذه اللّيلة اللّيلاء،

---

(١) مثل: «خطبة إلهامية» و«تحفة الندوة» و«ترياق القلوب» و«سفينة نوح» و«مرآة» و«إعجاز أحمدي» و«حقيقة الوحي» و«دافع البلاء» وغيرها.

والظلمات الهوجاء، اقتضىٰ رحم الله نور السماء، فأنا ذلك النور، والمجدّد المأمور، والعبد المنصور، والمهدي المعهود، والمسيحُ الموعود، وإنّي نُزِّلتُ بمَنْزِلَةٍ من ربّي لا يَعْلَمُها أَحَدٌ من الناس. . .

* فبشرى لكم قد جاءكم المسيح، مَسَحَهُ القادر، وأعطاه الكلام الفصيح. . . وطوبَىٰ لكم قد جاءكُمُ المهديّ المعهود، ومعه المال الكثير، والمتاع المنضود. . . يا أيّها الناس إنِّي أنا الْمَسِيحُ المحمّديّ، وإني أنا أحمد بن المهدي.

* أنا المسيح الموعود الذي قُدِّر مجيؤُهُ في آخر الزمان، من الله الحكيم الدّيّان، وأنا الْمُنْعَمُ عليه الذي أُشير إليه في الفاتحة عن ظهور الحزبين المذكورين.

* إني أنا المسيح، وبالحقّ أمشي وأسيح. . . إنّ عيسى مات ولا يحيا بإحيائكم.

* أنا المسيح، وأنا الكليم، وأنا محمد، وأنا أحمد المجتَبَىٰ».

* انظروا الآن أنّ الله جعل ما أوحىٰ إليّ وتعاليمي وبيعتي كسفينة نوح وجعلها مدار النجاة للناس أجمعين.

* جُعِلْتُ أنا مريم وبقيتُ مريم سنتين. . . ، ثمّ نُفِخَ فيّ رُوح عيسىٰ كما نُفِخَ في مريم وحُبِلْتُ في صورة الاستعارة، وبعد أشهر لم تتجاوز عشرة أشهر حُوِّلْتُ عن مريم، وصُيِّرتُ عيسَىٰ، وبهذا الطريق صِرْتُ ابْنَ مَرْيم.

* أُعْطِيتُ صفة الإفناء والإحياء من الربّ الفعّال».

إلى كثير من هذه الادّعاءات التخريفيّة الباطلة.

* * *

(٣)
عمالته وتمجيده للإنكليز هو ومن تبعه

لم يُخْفِ «غلام أحمد القادياني» هذا الرسول الكذّاب ولاءه ومناصرته للدولة البريطانية الصليبيّة المستعمرة، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

(١) كتب أحد الصليبيين المستعمرين كتاباً تناول فيه أعراض أمّهات المؤمنين، وطعن بنبوّة الرسول محمّد ﷺ، فثار المسلمون في الهند، وقامت مظاهرات احتجاج عنيفة، وقدّموا استنكارهم للحكومة المستعمرة الإنكليزيّة، وأعلنوا غضبهم على ما جاء في هذا الكتاب.

فتصدّى عميلهم «غلام أحمد القادياني» المتنبّىء الكذّاب مهاجماً المسلمين الثائرين الغاضبين، ومناصراً الدولة المستعمرة، مدّعياً أنّه لا حقّ لهم في القيام بالمظاهرات الاحتجاجيّة ضدّ حكومة بريطانيا العظمىٰ التي هي ظِلُّ الله في الأرض.

(٢) وكتب في إحدى مقالاته:

«نحن نتحمّل كلّ البلايا لأجل حكومتنا المحسنة، وستحمّل أيضاً في المستقبل، إذْ يجب علينا أن نشكرها لإحسانها ومِنّتِها علينا، ولا شكّ نحن فداءٌ بأرواحنا وأموالنا للحكومة الانكليزيّة ودوماً ندعو لعلوّها ومجدها سرّاً وعلانية».

(٣) وجاء في رسالته «تحفة قيصريّة»:

«أنا أشكر الله عزّ وجلّ أنّه أظلّني تحت ظلّ رحمة بريطانيا التي أستطيع تحت ظلّها أن أعمل وأعظ، فواجبٌ على رعيّة هذه الحكومة المحسنة أن تشكر لها، ويجب عليَّ بوجه خاصٍّ أن أُبدِي لها الشكر الجزيل، لأنّي ما كنت أستطيع أن أنجح في مقاصدي العليا تحت ظلّ أيّة حكومةٍ أخرىٰ سوى حكومة حضرة قيصر الهند».

وقال أيضاً:

«لعنة الله على من يريد الافتراق والفساد، وعلى من لا يريد أن يكون تحتَ أمْرِ الأمير، مع أن الله قال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر﴾ فالمراد من أولي الأمر هٰهنا هو الملك المعظم، ولذا أنا أنصح مريديّ وأشياعي بأن يُدْخلوا الإنكليز في أولي الأمر، ويُطِيعُوهُمْ من صميم قلوبهم».

يلاحظ أنه حذف من النص القرآني عبارة «منكم» فأصلها ﴿وأُولي الأمر مِنكم﴾ بغية الإيهام والتضليل.

(٤) وجاء في كتاب «تبليغ رسالة»، لقاسم القادياني ذِكْرُ نصّ عريضة رفعها «غلام أحمد القادياني» لنائب أمير الهند البريطاني، وقد جاء فيها ما يلي:

«العريضة التي أرفعها إلى حضرتكم مع أسماء أتباعي، ليس المقصود منها إلاّ أن تلاحظوا الخدمات الجليلة الّتي اَدَّيْتُ أنا وآبائي في سبيلكم، وكما اَلْتمس وأرجو من الدولة العالية أن تُراعِيَ الأسرة الّتي أثبَتَتْ بكمال وفائها وإخلاصها طَوال خمسين سنة، بأنّها من أخلص المخلصين للحكومة، والّتي أقرَّ واعترف بولائها أكابِرُ أُمَرَاءِ الحكومة العظمى وحكامُها، وكتبوا لها وثائق وشهادات على أنّ هذه الأسرة أُسْرَةُ خدّام، وأسرةٌ مخلصة، فلذا أرجو منكم أن تكتبوا للحكّام الصغار برعاية هذه الشجرة وحفظها، الّتي ما غرسها إلاّ أنتم، كما أرجو أن يَنظُرُوا إلى أتباعي بنظرة ودّيّة خاصّة، لأنّنا ما تأخَّرْنَا أبداً عن التضحيات في سبيلكم، لا بالنفوس، ولا بالدماء، كما لا نتأخر عن ذلك.

فلأجل هذه الخدمات الجليلة، نحنُ نستحقّ أن نطلُبَ من الحكومة العظيمة المدد والعون، لئلا يتجرّأ أحدٌ علينا».

(٥) ومما جاء في مكتوباته:

«لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنكليزيّة ونُصْرَتِها، وقد ألّفْتُ في منع الجهاد، ووجوب طاعة أولي الأمر الإنكليز، ما لوجُمِع بعضه إلى بعض لملأ خمسين خزانة».

وجاء فيها أيضاً:

«إنّي ملأتُ المكاتب من الكتب التي كتبتها في مدح الإنكليز، وخاصّةً في وضع الجهاد الذي يعتقده كثير من المسلمين، وهذه خدمةٌ كبيرةٌ للحكومة، فأرجو أن أُجْزَى بها جزاءً حسناً».

(٦) وكان للقاديانيّين أُجراءِ الإنكليز في الهند امتيازاتٌ خاصّةٌ منحتها لهم الحكومة البريطانيّة المستعمرة، في كل المجالات، في الوظائف والتعليم، والتدريس، والتجارة، والزراعة، والصناعة، وغيرها.

وكلّما توجَّهَتْ نحوهم مشاعِرُ الغضب من جماهير المسلمين، لولائهم التام للاستعمار البريطاني، وجدوا الحماية الكافية من الدولة.

ومن أمثلة كون بعض القاديانيين جواسيس للإنكليز، ما نشرته جريدة الفضل

القاديانيّة، بتاريخ (٢٨/٩/١٩٢٣م) قول «محمد أمين» أحد مبلّغي القاديانيّة، والمبشرين بها، بعد رجوعه من روسيا سنة (١٩٢٣م):

«إنّي اعتقلتُ مرّاتٍ بتهمة الجاسوسيّة للإنكليز».

وقال معتذراً:

«أنا ما ذهبت إلى روسيا إلاّ لتبليغ القاديانيّة. ولكن بما أنّ مصالح القاديانيّة وأهدافها متعلّقة بأغراض وأهداف حكومة بريطانيا، فقد كنت مضطرّاً أن أخدم الحكومة، وأؤدّي ما يجب عليّ نحوها».

وهكذا إلى أقوال كثيرة جدّاً تكشف أنّ القاديانيين خُدّام الإنكليز وعملاؤهم صراحة، ويثبتون هذه العمالة في مكتوباتهم ومنشوراتهم.

ويظهر أنّ أيّة جهة تشتري منظّمةً عميلة لها فإنّها تُلزمها صراحةً على سبيل الإحراج بأن تُقدّم تصريحات على ألسنة قادتها وكبرائها والنشيطين العاملين فيها بعمالتهم لها، في منشوراتهم وكتبهم، حتّى يكون كلُّ مُنْتَمٍ إلى المنظمة على عِلْمٍ بواقع حال منظمته، فيدخل وهو عليم بمهمّته الأساسيّة، قبل أن يتدرّب على إتقان عمليات النفاق والمخادعة للناس، ولولا ذلك لخرجت المنظمات العميلة بعد مدّةٍ من قبضة مؤسّسيها من وراء الستار، والمستفيدين من تحركاتها، متى توجّهت لها الاتهامات بالعمالة والخيانة.

* * *

(٤)
عقائد القاديانيين ومبادئهم وتعاليمهم

(١) ادّعى «غلام أحمد القادياني» أنه نبيّ، وأنّه المسيح المنتظر، وأنّ عيسى عليه السلام قد مات، فالمسيح المنتظر إنسانٌ آخر غير عيسى ابن مريم، وأخذ يؤوّل النصوص القرآنيّة تأويلات باطلات، ليوهم أتباعه بصحّة دعواه.

وقال: «الذي لا يؤمن بي لا يؤمن بالله ورسوله».

(٢) وكتب ابنه وخليفته الثاني: «محمود أحمد» قائلاً:

«لقيني رجل في (لكهنؤ= أحد بلاد الهند) وسألني: لقد اشتهر بين الناس أنكم تكفّرون المسلمين الذين لا يعتقدون القاديانيّة، فهل هذا صحيح؟

فقلت له: نعم، لا شكَّ بأنّنا نكفّرهم، فاستغرب الرّجُل من قولي وتحيّر».

واستدلّ على كُفْر من لم يؤمِنْ بأبيه بأنّ القرآن ينُصُّ علَىٰ كُفْرِ من ينكر أحداً من الرُسل، وبما أن أباه «غلام أحمد» رسول الله، فمن لم يؤمن به فهو كافر.

لكنْ لم يبيّن للناس دليل كونه رسولاً، وهو الأفّاك أجير الكفرة أعداء الله ورسوله.

وقال في الاستدلال:

«نحن نسأل لِمَ نُكفِّرُ غَيْرَ القاديانيّين؟» وأجاب بقوله: «هذا واضحٌ من القرآن، لأنّ الله يُبيِّن أنّه من ينكِرُ أحداً من الرسل فإنّه يكفُر، وأنّ من ينكر الملائكة يكفر، ومن ينكر القرآن يكفُر، وعلى هذا فمن ينكر أنّ «غلام أحمد» هو نبيّ الله ورسوله فإنّه يكفُر بنصّ الكتاب، ولأجل ذلك نكفّر المسلمين، لأنهم يفرّقون بين الرسل، ويؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فهم إذاً كُفّار».

(٣) وادّعَىٰ «غلام أحمد القادياني» أنّه صاحب شريعة، وبما أنّه رسول الله فشريعتُه واجبةُ التنفيذ على الناس، ومن أقواله في هذا:

«فالشريعة: هي عبارة عن بيان أمْرٍ ونهي، فمن فَعَلَ هذا وقَنَّن لأمّته قانوناً، صار صاحب شريعة، فأنا صاحب الشريعة، لأنه يُوحَىٰ إليّ بالأوامر والنواهي.

وليس من الضروري للشريعة أن تكون مشتملةً على أحكامٍ جديدة، لأنّ ما يوجد في القرآن من التعليمات يوجد في التوراة، وإلى هذا أشار الرّبّ سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إنَّ هٰذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ * صُحُفِ إبراهيم وموسى﴾.

(٤) له تأويلات في نصوص القرآن حول مريم العذراء البتول، وحول عيسىٰ عليه السلام، وحول الدّجال، وحول المراد من دابة الأرض، وحول المهدي، كلُّها من افتراءاته ونسج خياله، يخالف بها دلالات النصوص، وما أجمع عليه المسلمون، فمسلكه فيها مسلك المتلاعب بالنصوص.

ويوجّه لعيسى عليه السّلام الشتائم التي كان اليهود يوجهونها له.

(٥) أمر بتقديس وتمجيد قريته «قاديان» وادّعى أنّها سُرّةُ الدنيا، وأمّ القرى، ويقول:

«لقد قدّس الله هذه المقامات الثلاثة (مكة والمدينة وقاديان) واختار هذه الثلاثة لظهور تجلّياته».

وادّعى أن زيارة قاديان، هي الحجّ الأكبر، وقال:

«إنّ مؤتمرنا السنويّ هو الحجّ، وإنّ الله اختار المقام لهذا الحج (قاديان)... ويُمْنَعُ في قاديان الرفث والفسوق والجدال».

(٦) وفي ادّعائه إلغاء الجهاد في سبيل الله قال:

«إنّ الله خفّف شدّة الجهاد أي: القتال في سبيل الله بالتدريج، فكان يُقْتَلُ الأطفالُ في عهد موسى، وفي عهد محمّد ﷺ أُلْغِيَ قَتْلُ الأطفال والشيوخ والنّسوة، وثُمّ في عَهْدِي أُلْغِي حُكْمُ الجهاد أصْلاً».

وقال أيضاً:

«اليومَ أُلْغِيَ حكم الجهاد بالسيف، ولا جهاد بعد هذا اليوم، فمن يرفع بعد ذلك السلاح على الكفّار ويُسمّي نفسه غازياً يكون مخالفاً لرسول الله...».

وقال أيضا:

«إنّ هذه الفِرقَةَ، الفرقةَ القاديانيّة، لا تزال تجتهد ليلاً ونهاراً لِقَمْعِ العقيدة النّجسة، عقيدةِ الجهاد من قلوب المسلمين».

وأعلن تحريم الجهاد بالقتال تحريماً باتّاً سرّاً كان ذلِكَ أوْ علانية.

(٧) وشرع «غلام أحمد القادياني» لأتباعه، أنّه يحرُم على القادياني أن يُزَوِّج ابنتَهُ من غير القادياني، لكن يجوز للقادياني الذكر أن يتزوّج من بنات المسلمين والهندوس والسِّيخ... ومن زوّج ابنته لمسلم فإنّه يُطْرَدُ من الجماعة ويكفر.

(٨) وشرع لهم تحريم الصلاة خلف إمام مسلم، وفي هذا يقول «غلام أحمد القادياني» مخاطباً القاديانيّين:

«لا يجوز لكم أن تُصَلُّوا خلف غير القادياني مهما يكن، ومن يكن، ومهما يمدحه الناس، فهذا حكم الله، وهذا ما يريده الله، وإنّ المتشكّك والمذبذب داخل في المكذِّبين، والله يريد أن يميِّز بينكم وبينهم».

وقال أيضاً:

«إنّ الله أطلعني بأنّه حرام حراماً قطعيّاً أن تُصَلُّوا خَلْفَ الَّذِي يكذّبني، أو يتردّدُ عن طاعتي، بل واجب عليكم أن تُصَلُّوا خلف إمامٍ من أئمتكم، وهذا ما أشير إليه في الحديث «إمامُكُمْ منْكُمْ» يعني إذا نزل المسيح فعليكم أن تتركوا الْفِرَق التي تدّعي الإسلام، وتجعلوا إمامكم منكم، فافعلُوا ما أُمِرْتُمْ، أتريدُونَ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون؟!».

لكنّ القاديانيين قد يُصَلّون مع المسلمين نفاقاً فإذا انصرفوا إلى منازلهم أعادوا صلاتهم.

* * *

(٥)
القاديانية بعد تقسيم الهند
إلى «هندستان» و «باكستان»

بعد معارك عنيفة وطويلة الأمد أثارها الاستعماريّون الإنكليز بين الهندوس والمسلمين، وذهب ضحيّتها مئات الألوف، اتّجه الحلّ إلى تقسيم الهند إلى دولتين: «هندستان»، وتحتوي أكثريّةً غير مسلمة، و «باكستان» وتحتوي أكثريّة مسلمة، وكان ذلك سنة (١٩٤٧م).

وقامت الدولة المسلمة «باكستان» محاطةً بالمشكلات الصعبة، التي وضعها فيها الاستعمار الإنكليزي.

وبخطّة مدبُرة انتقل مركز القاديانيّين من قرية «قاديان» محجّ القاديانيين، وهي من حصة «هندستان» إلى «باكستان» ليتابعوا مكيدتهم في الدولة المسلمة الناشئة.

وفُرِضَ على هذه الدولة الحديثة توليةُ الزعيم القادياني المشهور عميل الإنكليز،

السّير «ظفر الله خان» وزيراً للخارجيّة، واحتجّ المسلمون على هذا الإجراء، وأجابهم رئيس وزراء باكستان يومئذٍ «الخواجا ناظم الدين» بأنّه لا يستطيع التخلّي عنه، لأنّ ذلك يَحْرِمُ «باكستان» من المساعدات الأجنبيّة، ولا سيما الموادّ الغذائيّة، التي كانت «باكستان» بأمسّ الحاجة إليها، فدلّ ذلك على شدّة متابعة دعم الدّولة الاستعماريّة الإنكليزيّة وسائر الدول الكافرة للقاديانيين، بغية استكمال تنفيذ مخطّطات المكيدة.

وظلّت الحكومات الوطنيّة في «باكستان» المسلمة، تواجه الضغوط الخارجيّة، لمنح القاديانيين ما يطلبون من تسهيلات وامتيازات.

وانتهز القاديانيون هذه الفرصة المواتية، فوضعوا عدّة مشاريع، طبّقوها بنجاحٍ ملحوظ، فعمّقُوا جذورهم في «باكستان»، وانطلقوا من ذلك ينشرون دعايتهم في العالم، بدعم مستمرٍ من سادتهم، المستفيدين من أعمالهم في باكستان وغيرها، وكان من ذلك ما يلي:

(١) إنشاء مدينة لهم باسم «رَبْوة» وهذه المدينة خاصّةٌ بهم، لهم فيها نظام بوليسي خاصّ، ومحاكم خاصة، ومدارس وكليّات ومستشفيات خاصة، ولا يستطيع أحَدٌ من المسلمين أن يشتريَ فيها أرضاً، أو يستأجر فيها داراً، وكلّ الوظائف فيها لا يشغلها إلاّ القاديانيون، وأقاموا فيها سكرتاريّةً فخمةً مجهّزَة بأحدث الآلات، ومنها يَنْشُرُونَ التضليل القادياني.

(٢) شَحْنُ المناصب الهامّة في الجيش وفي الإدارة المدنيّة وفي السفارات الباكستانيّة بالقاديانيّين، وكان ذلك بتأثير السير «ظفر الله خان».

(٣) إنشاء المدارس والكليّات والمستشفيات على مستوىً عالٍ، واستدراج المسلمين عن طريقها إلى القاديانيّة، على مثل ما تقوم به البعثات التبشيريّةُ المسيحيّة.

(٤) تقديم المنح الدراسية والمساعدات المالية المشروطة باعتناق القاديانيّة.

(٥) استغلال الوظائف والمناصب الحكومية استغلالاً غير مشروع، وذلك بربط التعيين والترقيات بأن يعتنق طالب ذلك نحلتهم.

(٦) عمل القاديانيّون المتغلغلون في أجهزة الحكم على مَنْحِ المتتسبين إلى

نحلتهم المفتراة على الله مساعدات غير عاديّة، ليتقدَّموا تقدُّماً كبيراً في مجالات الصناعة والتجارة والزراعة.

(٧) وقاموا بنشاط كبير في مجال طبع الكتب والنشرات القاديانية، التي تثير الشبهات حول العقائد الإسلامية، وتُضَلّل أبناء المسلمين، وتحاول إبعادهم عن الإسلام الحقّ.

* * *

(٦)
موقف المسلمين من هذه الفرقة المنافقة الخارجة عن الإسلام

لقد قام المسلمون في باكستان بمظاهرات واحتجاجات، ضدّ تصرّفات القاديانيّين الاحتكاريّة الأنانيّة، وأعمالهم الكُفْريّة الخائنة، في مناسبات متعدّدات.

ولم يستطيعوا أن يعزلوهم عن جسم الأمة الإسلامية عَزْلاً تامّاً بشكل واضح وصريح، حتى سنة (١٩٧٤م) إذ استطاعت الجماهير الإسلاميّة ذات العدد الساحق، أن يوجّهوا ضُغُوطاً متعدّدة، اضطُرّ على أثرها البرلمان المركزيُّ الباكستاني أن يُصْدِرَ في السابع من شهر أيلول سنة (١٩٧٤م) قراراً إجماعيّاً، يقضي باعتبار جميع الفئات القاديانيّة أقلّيّةً غير إسلامية[١].

● ● ●

(١) انظر ما كتبه البروفسور «عبد الغفور أحمد» عضو البرلمان الباكستاني، وعضو مجلس الشورى للجماعة الإسلامية بباكستان في مقال نشرته مجلّة المجتمع في العدد (٢٣٤) بتاريخ ١٥ محرم ١٣٩٥ هجرية.



[redacted]

القِسمُ الرّابع

مُنظّماتُ نِفاقٍ عالميّة
ذاتُ شِعاراتٍ إنسانيّة عامّة
تُظهِرُها لِتحقيقِ رغباتٍ خاصّةٍ تُبطِنُها

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأوّل : الماسونية.

الفصل الثاني : الروتري.

الفصل الثالث : اللّيونز.

الفصل الرابع : الشيوعية.

الفصل الخامس : شهود يهوه.

الفَصْل الأوّل

الماسُونيّـةُ
مُنَظّمَةُ نِفَاقٍ عَالميّة

(١)
مقدمة

صار من الحقائق المعلومة لدى كلّ الباحثين أنّ «الماسونية» وترجمتها الحرفيّة: «البنّاؤون الأحرار» منظمة عالمية ذات قيادة سرّية يهوديّة تعمل للتوصّل إلى إعادة هيكل سليمان الذي هو رمز دَولة إسرائيل، وللسَّيْطرة على شعوب الأرض جميعاً، وحكم العالم بملك من اليهود.

وقد عرّفها المستشرق الهولندي «دوزي» بقوله:

«جمهور كبير من مذاهب مختلفة يعملون لغاية واحدة، هي إعادة الهيكل، إذْ هو رمز دولة إسرائيل».

واليهود يلبسون نفاقاً قناع التعاون والإخاء الإنسانيّ، ويسترون غاياتهم ومقاصدهم اليهوديّة، ليُسَخّروا المحافل الماسونية، وكلّ الأعضاء الماسونيين في تحقيق أهدافهم السياسية، والاقتصادية والاجتماعية في العالم، ثم ليتوصّلُوا إلى حكم العالم بعد إقامة دولتهم في فلسطين، قريباً من أحواض البترول في الشرق الأوسط.

وأعمال منظمة «الماسونية» ورموزها، وتحرّكاتها، هي في معظمها تعتمد على السرّيّة التّامّة والكتمان، وتأتي أوامرها العليا وتوجيهاتها ذات الشأن الخطير بأسلوب الشيفرة، أو شفوية على ألسنة أشخاص معتمدين، من ذوي المراتب أو الدرجات الّتي يُعْتَبَر الواصلون إليها مؤهلين لحمل مهمّات تبليغ الرسائل الشفوية العليا، وهم يُعْرَفُون عن طريق حركات وإشارات معيّنة، ذاتِ رموز اصطلاحيّة يتعلّمونها فيما بينهم، على

قدر درجاتهم ومراتبهم في المنظمة، وسرّيتها مع كتمان الأعضاء الماسونيين يضمن لها البقاء في الظلام ويحميها من أعين الرقباء.

وأعيد هنا ما سبق أن كتبته عن «الماسونية» في كتابي: «مكايد يهوديّة عبر التاريخ» وكتابي: «أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها» مع طائفة من الإضافات يستدعيها إبراز أسلوب «الماسونية» في النفاق القائم على الخداع والكذب، وإظهار وجه إنسانيٍّ برّاقٍ بَاسِمٍ، وإخفاء الوجه الحقيقي المكفهرّ الأسود القاتم.

لقد أثبت تاريخ هذه المنظمة المحاطة أهدافُها الحقيقيّة بسرّيّةٍ عظيمة، أنّها من أخطر الجمعيات السّرّيّة العالمية، الّتي لعبت أدواراً خطيرة في تاريخ الأمم، وأثّرت تأثيراً مُباشراً على مصائر كثير من الشعوب، وتحكّمت في سياسة معظم دول العالم، من حيث لم تشعر هذه الدول أنّها قد كانت فريسة خديعة يهوديّة، دخلت إليها عن طريق المحافل الماسونيّة، الّتي تُدِيرها من وراء السجوف أصابع المكر اليهودي الذي يُحْكِمُ إخفاء نفسه، في الوقت الذي يكون فيه هو المدير الحقيقيّ للعمليّات الفكريّة، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعيّة، والحربية، وغيرها، في البلد الذي تنتشر فيه المحافل الماسونيّة، ولو لم يكن لليهود في هذا البلد عدد كبير يستطيع أن يفعل شيئاً لصالح اليهوديّة العالمية، إلاّ أنّ الجمعيّة الماسونيّة التي يقبض على ناصية قمّتها في العالم دُهاةٌ من أحبار اليهود وحكمائهم، هي التي تخدم أغراضهم خدمةً آليَّةً، يتحرّك فيها الأفراد دون أن يشعر معظمهم إلى أين يسيرون، ولمن يعملون.

ولقد يبلغ الدّهش عند بعض الباحثين مبلغه العظيم حينما يعلمون أنّ حروباً عالميّة كبرى قد كان اليهود هم العاملين على إثارتها، وإشعال نيرانها، عن طريق منظّمة «الماسونية» ومحافلها في العالم. وحينما يعلمون أنّ كثيراً من القادة والزعماء المنحرفين في مختلف دول العالم قد أوصلتهم إلى مراكزهم الألاعيب والحيلُ اليهوديّة العالمية عن طريق منظمة «الماسونيّة» ومحافلها. وحينما يعلمون أنّ كثيراً من التيّارات الاقتصاديّة والسياسيّة والعلميّة والاجتماعيّة في العالم، قد تحكّمتِ الأصابع اليهوديّة باتجاهاتها عن طريق منظمة «الماسونية» ومحافلها.

ولقد يرى بعض السطحيّين وقصيري النظر أنّ هذا ضربٌ من الوهم، ومبالغةٌ من

مبالغات الحدس، ولكنّ الحقيقة التاريخيّة، والوقائع المستمرّة، جديرة بأن يكشفها الباحثون، ويفتحوا أعين الناس عليها حتّى يروها، مهما كانت بعيدة عن حِسِّهِم أو حَدْسِهِمْ، ومهما استهان بها الجاهلون، وهزىء بها العميان والمستغفلون.

* * *

(٢)
تأسيسها وأهدافها

لا يُعرفُ على وجه التحديد تاريخ تأسيس هذه المنظمة (الماسونية) التي بدأها اليهود، واستغلّوها في معظم أدوار التاريخ، إلاّ أنّ من المؤكّد أنّها جمعيّة عريقةٌ في القِدَم، وهي منافقة ذاتُ وجهين:

(١) وجه ظاهر كاذب خادع مُضَلّل.

(٢) ووجه باطن ينطوي على المكيدة الكبرى لمختلف الأمم والشعوب، بغية خدمة مصالح المملكة اليهوديّة السِّرِّيَّةِ المنبثّة في العالم، ومصالح المملكة اليهوديّة التي رتّب قادةُ صِهْيَوْن ظهورها في فلسطين، على أن تكون نواةً لتأسيس مملكة تحكم العالم كلّه، ووسيلتهم لذلك الحيلة والذّهب، وتسخير المطايا من مختلف شعوب الأرض.

قال بعض الباحثين: ولعلّ أوّل محفل ماسوني هو ذلك المحفل الذي تمّ بإرشاد «هيرودوس أغريبا» الذي كان ملكاً في الثلث الثاني من القرن الأول الميلادي، أي حوالي (من سنة ٣٧ إلى سنة ٤٤م). بمساعدة مستشارَيْهِ اليهوديَّيْن: «حيرام أبيود» نائب الرئيس، و«موآب لامي» كاتم سرّ أوّل.

وممّا يؤثر عن هذا الملك قوله:

«إنّ الطريقة المُثْلى الّتي نجعلُ بها جمعيتنا خطيرة وعظيمة ومُشَوِّقَةً في الوقت نفسه، هي أن نجعل تاريخ تأسيسها سِرّاً خفيّاً، والواجب اتّباعُهُ مع من ينضمُّ إلينا أنْ نُفْهِمَهُ أنّ هذه الجمعيّة قديمةٌ جدّاً، ولا يُعْرَفُ شيءٌ عن تاريخ تأسيسها، ولا من أنشأها، لكنّها كانت منحلّةً من مُدّة، ولكي نحمل المعارضين على التّصديق ــ وهؤلاء

لا بدّ من وُجودهم ـ فإنّنا نقول لهم: إنّ الملك هيرودوس قد وجد في خزائن أبيه أوراقاً قديمةً تشير إلى جمعية قديمة ذات إشارات وقوانين سِرِّية، فرأى من الخير أن يجدّدها ويخرجَها من مدفنها، لأنّها مفيدة ومثمرة على ما عرفه عنها من تلك الأوراق، فبهذا الكتمان نخفي الغاية التي من أجلها أسست هذه الجمعيّة، كما أخفينا تاريخ تأسيسها».

فإنْ صحّ نقل هذا النص عن «هيرودوس» فهو يَدُلُّ على عدّة أمور:

* أنّ هذه المنظمة قديمة جدّاً.
* وأنّ مؤسّسيها اليهود قد قرّروا إخفاء تاريخ تأسيسها.
* وأنّ أهدافها الحقيقية مكتومة لا يعرفها إلا أساطين قادتها من اليهود.

على أنّ هذه الأمور قد اتفق الباحثون عليها، ولو لم يَدُلَّ عليها النّصّ.

ويرى بعض الباحثين أنّ مؤسّسيها الأولين كانوا تسعة من كبراء اليهود، أسّسوها في الهيكل سنة (٣٧م) وسمّوها «القوة الخفيّة» وكان هدفها الأول القضاء على الديانة النصرانية وأتباعها، ولمّا ظهر الإسلام واشتدّ صار هدفها القضاء على الإسلام ومن يؤمن به أيضاً.

واستمرّت منظمة «الماسونية» تعمل لتحقيق أهدافها المكتومة متأرجحةً بين شدّةٍ وضعف عبر قرون، وظلّت كما بدأت ذات وجهين:

* وجه باسم مخادع قد أبدى صفحته.
* ووجه مكفهر متوارٍ عن الأنظار مكتوم.

أمّا الوجه المكتوم فهو وجْهٌ يتولاّه تنظيم سرّيّ يهوديٌّ صرف، لا يسمح بأن يصل إلى القيادات الفعّالة إلاّ الدُّهاة الموثوق بكفاءتهم من اليهود، وهو وجه مكفهرٌ خبيثٌ محشوٌّ بكلّ المكر اليهودي في العالم، وهو يحاول أن يوجّه المحافل الماسونيّة ضمن خطّة مرسومة، تهدف إلى خدمة السياسة اليهوديّة المقنّعة في العالم، وإلى محاربة كلّ الأديان وهدمها عدا اليهودية، وإلى إفساد جميع شعوب الأرض، وتهديم كياناتها السياسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والدينيّة، كيما يجد بنو إسرائيل القليلون

في الأرض سبيلاً لإعادة بناء ملكهم على أنقاض الممالك والشعوب التي يعملون على تهديمها بالمكر ونشر الفساد.

ويزعمون أنّهم يستطيعون أن يحكموا العالم على الرغم من قلّة عددهم، متى أحكموا سياسة المكر والخداع والنفاق، وأتقنوا وسائل الحيلة، واستخدموا المال والدّهاء وبثّ النظريات البراقة الباطلة، وغمسوا القطعان السائمة من الشعوب الأخرى بالجهل والخمر والنساء، والقمار والملاهي، والإلحاد بالله، ومعاداة الأديان الرّبانيّة، ومحاربة كل فضيلة خلقيّة وسلوكيّة اكتشفتها الأجيال السالفة، بعد قرون عديدة من التجارب والخبرات التاريخيّة.

ويرون أنّ انغماس الأجيال في هذه الشهوات المهلكات سيجعل منها قطعاناً هائمةً في الأرض، تتطلّع إلى راعٍ مالكٍ لقواه الإنسانية، حتّى يرعاها بدهائه وذكائه، ودهاءِ وذكاءِ اليهود من حوله، ولن يكون عند ذلك قوّة متماسكة في الأرض إلاّ قوة اليهود، الذين سيعرفون بزعمهم كيف يسوسون هذه القطعان المخلوقة على صورة البشر.

هكذا يزعمون، وهكذا يقولون في مقرّراتهم السّرّيّة.

وفي سنة (١٧١٧م) اتخذت هذه المنظمة لنفسها اسم «الماسونية» ومَعْناه: «البنّاؤون الأحرار» بدل اسمها القديم «القوّة الخفيّة» وكان هذا التغيير في مؤتمر «لندن» الذي انعقد برئاسة «أندرسن» الذي عاش رئيس كنيسة بروتستانتية، نصرانيّاً في ظاهر حاله، إلاّ أنّه كان يهوديّاً في الباطن يعمل لخدمة اليهودية العالميّة، وحركتها الرامية إلى حكم العالم.

وتأسست محافل ماسونيّة في أكثر دول أوروبّا وروسيا والهند، وتأسست محافل ماسونية رسميّة في أمريكا ابتداءً من سنة (١٧٣٣م) وبلغ عدد محافلها الكبرى في أمريكا سنة (١٩٠٧م) أكثر من خمسين محفلاً، يتبعها آلاف المحافل العاديّة، وزاد فيها أعضاء المحافل الماسونية على مليوني أمريكي.

ومن بريطانيا وبإشراف محفلها الكبير تأسست محافل الماسون في كندا واستراليا

ونيوزيلندا والشرق الأوسط، وصار محفل بريطانيا بالنسبة إلى غالبية محافل العالم مركزاً كبيراً.

وفي سنة (١٨٦٦م) قال الحاخام الدكتور إسحاق في إحدى المجلات الأمريكيّة:

«الماسونيّة مؤسسة يهوديّة في تاريخها، ودرجاتها، وتعاليمها، وكلمات السّرّ فيها، وفي إيضاحاتها... يهوديّة من البداية إلى النهاية».

وتقول دائرة المعارف الماسونية الصادرة في فيلادلفيا سنة (١٩٠٦م):

«يجب أن يكون كلّ محفل رمزاً لهيكل اليهود، وهو بالفعل كذلك، وأن يكون كلّ أستاذ على كرسيّه ممثّلاً لملك اليهود، وكلّ ماسوني تجسيداً للعامل اليهودي».

* * *

(٣)

مراتب الماسونية

لكي يضمن اليهود بقاء قمّة القيادة في منظمة «الماسونية» تحت أيديهم، لايُشاركُهُمْ فيها أحدٌ، جعلوا لهذه المنظمة مراتب ودرجات لا يصل إلى الدرجات العليا منها إلّا مخلصٌ تفانىٰ في خدمة الأهداف السّرّيّة لها.

ويتمّ ترفيع العضو في درجاتها بمعرفة الأساطين الذين هم أركان المحافل الماسونية، ووكلاء اليهود المخلصون لهم، ومع ذلك فلَنْ يَصِلَ إلى المراتب العليا التي تدار بمعرفتها وأوامرها المحافل الماسونية المنتشرة في العالم، إلّا الدهاة من اليهود الصرف، المخلصون لشعب بني إسرائيل، والذين يؤمنون بحقّ اليهود في مُلْك العالم، ويؤمنون بوجوب استخدام أيّة وسيلةٍ من الوسائل مهما كانت غير أخلاقيّة، لتحقيق حلم اليهود الأكبر.

وقد توصّل الباحثون إلى معرفة المراتب الثلاث للماسونية، وهي:

المرتبة الأولى: الماسونيّة العامة، أو ما يسمّونه «الماسونية الرمزيّة» وهي مرتبة تضمّ المبتدئين، الذين يجهلون الأهداف الحقيقيّة الغائيّة، ويُعْرَفُون عند أهل المرتبتين الثانية والثالثة بالعميان.

المرتبة الثانية: الماسونيّة الملوكيّة، وتُسمّى «العقد الملوكي» وهي مرتبة يَعْرِفُ الواصلون إليها بعض أهدافها البعيدة، إلاّ أنّهم قد أعمتهم مصالحهم التي تتحقّق لهم عن طريقها، وأماتت فيهم ضمائرهم.

المرتبة الثالثة: الماسونية الكونية، وهي تضمُّ قادة إسرائيل، ويُسمُّونهم حكماءها. وورثة السّرّ، وهم الذين يتصرّفون سرّاً بالمحافل الماسونية المنتشرة في العالم، ويوجّهونها لتحقيق أهداف اليهود المكتومة، في السياسة، والاقتصاد، والإدارة، والتعليم، والإعلام، والجيش، وسائر مجالات الحياة.

ومهمّة أعضاء هذه المرتبة إدارة كلّ حركة من حركات الثورة والهدم والتخريب والفوضى السياسية والاجتماعية بشتّى الطرق والوسائل في مختلف بقاع الأرض، وهي تستخدم لتنفيذ أغراضها اليهودية الصّرف أعضاء الماسونيّة العامّة (الرمزية) وأعضاء الماسونية الملوكية (العقد الملوكي).

وتستطيع الماسونيّة الكونيّة أن تجمع عن طريق الماسونيّتين الرمزيّة، والعقد الملوكي كلّ المعلومات التي تريدها عن دول الأرض، وتستخدم بها من تشاء من ملوك ورؤساء، كما تستطيع عن طريق الأعضاء الماسونيين أن تُمْلِي ما تريد من أفكار سياسيّة واجتماعيّة في مختلف الدول المتصارعة، وأن تحرك عن طريقهم ما تشاء من فِتَن ومنازعاتٍ وحروبٍ، وأن تقوم بدور كلٍّ من الْخَصْمَيْنِ المتنازعين في الدول والأحزاب داخل الدولة الواحدة، وأن تُفاوض عن كلّ واحدٍ من أطراف النزاع، وأن تُنهي المفاوضة ضدّ كلّ واحدٍ منهم، ولصالح اليهوديّة العالميّة، دون أن يَشْعُر أحدٌ منهم بأنّه قد وقع في فخّ المكيدة اليهودية على يد الماسونيين.

وهذه المرتبة الكونية لا يَعرفها على وجه التحديد إلاّ نفر قليلون من اليهود، ومن ذوي النّسب العريق في السلالات اليهودية، من ذرّيّة داود وسليمان.

وليس لهذه المرتبة إلاّ محفل واحد في العالم، هو الآن في «نيويورك» كما يذكر الباحثون.

* * *

(٤)
درجـات الماسـونية

اتّفق البـاحثون على أن منظمة «المـاسـونيـة» ذات ثـلاثٍ وثـلاثين درجـة، وأنّ الدرجات الـدنيا منهـا مخصّصةٌ للعميـان الذين يجهلون أهـداف الماسـونية الحقيقيّـة، وهي إعادة هيكل سليمان، بمعنى إعادة ملك بني إسـرائيل، والعمـل على إسقاط كـلّ ملوك وحكّام العالم أجمع، وإلغاء كلّ الأديان والشرائع باستثناء اليهوديّة المحـرّفة ذات الإلـه الخاصّ والتي لا تؤمن بـاليوم الآخـر، والعمل أيضـاً على إقامـة الـدولـة اليهـوديّـة العالميّة التي تقبض على نواصي الشعوب بسلطان شديد من الأسلحة الفتّاكة ذاتِ الدمار الشامل، ومن المال العظيم الذي يمتلكونـه في الأرض، ويقطعـان الجنود المسخّـرين لهم من شعوب الأرض عن طريق شهواتهم ومطامعهم وطمس بصائرهم.

وذكر «د. محمد علي الزعبـي» في كتابه «الماسونية في العراء» وهو الخبير بها، إذْ كـان عضواً متقـدّماً في بعض محـافلها في لبنـان، أنّ مَنْـحَ الـدرجـات فيهـا ابتـداءً أو ترفيعاً يكون لبعضها بتكريس، ويكون لبعضها الآخر بغير تكريس.

والمراد من التكريس إقامةُ مراسيم خاصة ذات أعمال وحركاتٍ وأقوالٍ وشعاراتٍ رمزية، وفي بعضهـا إرهابٌ للعضـو الذي يجـري تكريسـه، لإلزامـه بأن يحـافظ على السّرّية التامة للمعلومات عن كلّ شيءٍ في الماسونيّة، إلّا ما يباح إعلانه، أو يأتي الأمـر بإذاعته ونشره.

(١) فالدرجات من (١ ـ ٣) تمنح للمـرشّح لهـا بتكريس، في احتفـالٍ خاصٍّ يجري له ضمن المحفل الماسوني.

ولكلّ تكريس يُجْرَى عند منح درجة من هذه الدرجات حركـات وأقوال وطقـوس خاصة ذات رموز يهودية يعرفها المنقّبون أهل الخبرة، وقد ذكرها «الزعبـي» في كتابه.

أمّا القَسَمُ في هذه الدرجات لتأكيد المحافظة على السّرّية، فيكـون على الكتاب الذي يؤمن به العضو الذي يمنح الدرجة (القرآن ـ أو الإنجيل ـ أو التوراة).

(٢) والدرجات من (٤ ـ ١٧) تمنح للعضو الماسوني تلقيناً من غير تكـريس،

بعد اختبار إخلاصه للماسونية، وتفانيه في خدمة أنشطتها، وعِلْم قادتها بأنه يتحلّل شيئاً فشيئاً من ولاءاته لدينه، وقومه، ووطنه، وأسرته، ويقترب من التأهيل ليكون جندياً مطيعاً للقيادة اليهودية الصرف.

(٣) والدرجة (١٨) تمنح بتكريس على مستوىً مشدَّد، راقٍ في مفهوم الماسونية، وهابطٍ في دركات الانسلاخ من الدين والولاءات الأخرى، في الحقيقة.

وتسمّى هذه الدرجة «الفارس الحكيم» وقد تسمّى درجة «الصليب الوردي» للتغطية.

ومن فقرات التكريس لهذه الدرجة ترديد كلمات: «حرّية ـ مساواة ـ إخاء» مثلث الماسونية المدمّر للشعوب.

وبعد إجراء فِقرات التكريس لهذه الدرجة ذات الرموز اليهوديّة، يتقدّم المرشّح إلى رئيس المحفل متوشحاً بوشاح ورديّ، لونه كلَوْن النور حين مغيب الشمس، وقد نُقِشَ على الوشاح صورةٌ للصليب، وصورة لطير الرخم.

عندئذٍ يكرّمه الرئيس بالسيف، ويكون التكريس بستّ طرقات متتاليات، وطرقةٍ منفردة ويُعلِن تكريسه قائلاً:

«باسم مهندس الكون الأعظم، وتحت رعاية المجلس السامي، وبموجب السلطة الممنوحة لي من الإخوان الفوارس الحكماء، أصيِّرك «فارساً حكيماً» أو «فارس الصليب الوردي» للدرجة الثامنة عشرة.

وهنا يردّد إخوان هذه الدرجة في المحفل عبارة:

«من العدل هلاك الملوك غير الأتقياء».

ثم يتبادلون خبزاً ونبيذاً، ويتبادلون لمسة هذه الدرجة، ويُسِرُّ بعضهم في آذان بعضٍ كلمة سرِّها، وكلمة المرور «يَهْوَه».

وتعتبر هذه الدرجة الثامنة عشرة «الفارس الحكيم» مرحلة خطيرة في سلّم الارتقاء الماسوني، إذْ يُمْسِي الواصل إليها مستعدّاً للدفاع عن اليهود، وقائماً بخدمة

أهدافهم، ومعتقداً أنّ كلّ ما كان لديه من عقائد دينيّة، ومصالح قومية ووطنيّة أوهام فاسدة.

فينسلخ الواصل إليها من كلّ معتقداته وولاءاته السابقات، حتّى من روابطه العائليّة.

ويرتبط بحبال التلمود، ويقع في حبائل شياطين اليهود، ويُخيَّلُ إليه أنّه لا يوجد كتاب مُقَدَّسٌ غير العهد القديم الذي يؤمن به اليهود.

والقَسَمُ على حفظ السّرّ عند مَنْحِ هذه الدرجة يكون على كتب العهد القديم فقط، مع أدوات الهندسة لأنّها تذكّر ببناء هيكل سليمان، والسيف لأنه يُذكّر في الرموز اليهودية بأسماء: «عزرا ـ ونحيا ـ وصفنيا ـ وحجي..» وفيه إشارة إلى الجهاد لتحقيق المثلث الماسوني، الموصل إلى إعادة هيكل سليمان، وحكم اليهود للعالم.

ويتوارى اعتباراً من هذه الدرجة القرآن والإنجيل وكلّ كتاب مقدّس، ولا يبقى على السدّة إلاّ العهد القديم، عملاً بالدستور الأبكوسي للمنظمة.

ومن دستور هذه الدرجة (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فعلىٰ الماسوني أن ينصر أخاه في الماسونية ولو كان ظالماً، بأن يساعده على ظلمه.

والعمل بهذه المادّة أغرى «الفرسان الحكماء» بتحطيم عرش السلطان عبد الحميد، وإلغاء الخلافة الإسلامية، وأغراهم بتحطيم عرش القياصرة، وكان ذلك تحقيقاً للمصالح اليهودية في العالم.

(٤) والدرجات من (١٩ ـ ٢٩) تمنح للعضو الماسوني تلقيناً من غير تكريس، بناءً على اختبارات ومراقبات تتضمن الطاعة العمياء للقيادة اليهوديّة وأوامرها السرّيّة، وتحقيق غاياتها الشيطانية.

(٥) والدرجات من (٣٠ ـ ٣٣) درجات خطيرة جدّاً، وتمنح بتكريس ذي طقوس خاصة بكلّ درجة منها.

* فالدرجة (الثلاثون) وتسمّى درجة «الفارس القدُّوس» وقد تنطق السين شيناً

حسب اللّسان العبري، وهـذا الفارس هـو القائـد الأعلى للفرسـان الذين هم دونـه في الدرجة، وتمنح بتكريس.

والْقَسَمُ على حفظ السّرّ لدى مَنْح هذه الـدرجة يكـون على كتب العهد القـديم فقط.

* والدرجة (الحادية والثلاثون) وتسمَّىٰ درجة «الفارس الأعلى» وتمنـح بتكريس ذي طقوس وعبارات خاصة ومراسيم.

ويجب على المرشّح لهذه الدرجة أن يحفظ أسماء أسباط بني إسرائيـل، ويُقْسم على الولاء لهم.

* والدرجة (الثانية والثلاثون) وتُسمَّى درجـة «فارس الفـرسان» وتُمْنـح بتكريس ذي طقوس وعبارات خاصة ومراسيم.

ويُقْسِمُ المرشَّحُ لها على ان لا يعترض على عمل من أعمال المـاسونيـة، أو أمر من أوامرها مهما كان مخـالفاً لمفهـوم دينيٍّ أو قوميّ أو وطني أو واجب من الـواجبات، وعلى أن لا يتأثر بمنصبٍ يصل إليه، أو غِنىً يُصِيبُه، أو رابطة عاطفيّة مهمـا كانت ذات قوّة في نفسه.

* والدرجة (الثالثة والثلاثون) وتُسَمَّىٰ درجـة «الأستاذ الأعـظم» وتمنح بتكـريس ذي طقوس وعبارات خاصّةٍ ومراسيم.

ويجتمـع الأساتـذة العظام في حفـل تكريس الـزميل الجـديد لـدى منحه هـذه الدرجة، وقد لبس كلّ واحدٍ منهم جُبَّةً سوداء طويلة تشبه جُبَّة حـاخام يهـودي، موشّـاةً برسوم سنابل، ورسوم أغصانٍ من الزيتون.

وبعد تلاوة قرار المجلس السـامي الذي يمنح درجـة «الأستاذ الأعـظم» للمرشّـح الجديد لها، يُقْسِم المرشّح على التوراة فقط، ويفـوز ببراءة مخـطوطة، تتضمّن مَنْحَهُ هٰذه الدرجة.

والمـرشّح لهـذه الـدرجـة يجب عليـه أن يَشْتُم عيسَىٰ ومحمّـداً عليهمـا الصـلاة والسلام، ويكذّب بالإنجيل والقرآن، ويُنكر المسيحيّة والإسلام، ويُعْلِنَ إيمانه بمـوسَىٰ وهارون فقط.

ويتعرَّضُ مَنْ يُمْنَحُ هٰذه الدرجة للحوار التالي:

س : على أيّ شيءٍ أقسمت؟

ج : على التوراة.

س : هل علمت بكتاب سواه؟

ج : نعم، هناك إنجيل وقرآن، وهما لشرذمة خارجة عن الإيمان والبشرية، آمَنَتْ بالمسيح ومحمّد، العدوَّيْن اللَّدودَيْن لعقيدتنا.

س : هل تؤمن بهٰذه الكتب؟

ج : كلّا، أومن بالتوراة فقط، الكتاب الصحيح الذي أُنزِل على موسَىٰ.

س : ما رأيُك بالدِّينَيْنِ المسيحي والإسلامي؟

ج : المسيحي أخذ تعاليمه من التوراة، والإسلامي أخذ تعاليمه من التوراة والإنجيل.

س : الأصل أفضل أم الفرع؟

ج : لا شَكَّ أنّ الأصل أفضل.

الرئيس السائل: لقد نجحت بهٰذا الامتحان، وفهمت سرّ الأسرار الكامنة في الحقيقة السِّرِّية، وقد منحنا لك ــ مع التهنئة ــ درجة «الأستاذ الأعظم» فكُنْ كُفُؤاً لها، وحريصاً عليها.

الزميل الجديد: سأكون، ويردّد: أُومِنُ بِيَهْوه ومُوسىٰ وهارون، أُومِنُ بيهوه وموسَىٰ وهارون.

ويُقَال له: هل تؤمن بسوى هذا؟

فيجيب: كلّا، لا أومن بسوى هذا، بل أبغض وأكره وأشتم سوى هذا، لا سيَّما المسيح ومحمّد، أُومِنُ بِيَهْوَهْ وموسى وهارون.

* * *

(٥)

درجتا الرفيع والملك المنتظر

فوق كلّ الدرجات الثلاث والثلاثين السابقات تأتي درجتان:

الأولى: درجة «الرفيع».

الثانية: درجة «الملك المنتظر».

* أمّا درجة «الرفيع» فلا يطمع بها إلّا اليهود، ومن فاز بالتهوّد، بصعود الدرجات الماسونيّة بكفاءة وإخلاص لهيكل سليمان.

وقد ظفر بهذه الدرجة متهوّدون من الإنكليز، وكانت سبب استماتتهم في سبيل الهيكل.

جاء في «العقد الملوكي» عن هؤلاء ما نصّه:
«وقد كان لأسرار هذه الدرجة تأثير عظيم على جمّ غفير من الإخوان الإنكليز، ذوي النفوذ والأفكار الحرّة، الذين لا يزالون يحفظون اعتقادات إسرائيل الأصيلة، إذْ لنا أصدقاء دائمون هم الإنكليز، وأعداء دائمون هم العرب، وفي رأسهم المصريّون».

ولهذه الدرجة تكريس خاصّ ذو طقوس خاصة، ولها أسرارها ورموزها.

وفوق هذه الدرجة يأتي المحفل الكوني (الماسونية الكونية).

* وأمّا درجة «الملك المنتظر» فهي نهاية السُّلّم الماسوني، وفيها يُتوّج ملك اليهود، الذي هو في تقديرهم ملك الكون سرّاً، وحينما تقوم الدولة العالمية اليهودية الواحدة، يكون هو ملكها علانية وجهراً.

وقد نال هذه الدرجة ملوك انكلترا لأنهم من يهود ألمانيا، ومن سبط لاوي.

ونالها أيضاً ملك الحبشة سابقاً «هيلاسلاسي» باعتباره كما يقولون من ذرّيّة: «رحبعام بن سليمان».

* * *

(٦)
بعض رموز الماسونية وتفسيراتها الحقيقية

ثبت للمطلعين بما لا يقبل الشك أنّ كلّ رمز من الرموز المتداولة في الماسونية من إشارات وحركات وخطوات وكلمات وأشياء توضع في المحافل تهدف إلى ذكرى يهوديّة، أو غاية يهوديّة صرف.

لكنّ بعضها يحتمل التأويل، كالشمس والقمر والعين، وبعضها يهوديٌّ صريح لا يحتمل التأويل، كالهيكل، والمذبح، وقُدْس الأقداس، والأستاذ السّرّي الذي يُمثّل سليمان، والأستاذ الكامل الذي يمثل قائد رتبة، وشمعدانات الدرجة السادسة الّتي تشبه شمعدانات هيكل سليمان.

وفيما يلي طائفة من هذه الرموز مع تفسيراتها الخفيّة اقتباساً من الذين كتبوا عن الماسونية، ومنهم «د: سيف الدين البستاني ــ و د: محمد علي الزعبي ــ وجواد رفعت أتلخان».

أولاً: تتألّف الماسونية من محافل ذات أسماء خاصة تكون لفظة «الشرق» أحد عناصرها غالباً، لأنّ الشرق مصدر النور عند اليهود، إلى غير ذلك من ألفاظ لها صلة بالمصطلحات اليهودية، ويمارس أعضاء المحافل الماسونيّة طقوساً ومراسيم لها دلالات يهودية، ويتعارفون برموز لا يعرف معظم الأعضاء دلالاتها الخفيّة، إلاّ أنها لدى التحقيق ذات دلالات يهودية.

وتشهد اعترافاتهم بذلك، فقد جاء في (الخطب الأربع لمحفل السلامة الماسوني) قولهم:

«إن عقائدنا ورموزنا وإشاراتنا ودرجاتنا هي مصريّةٌ فرعونيّة، ولكنّها انتقلت إلينا بواسطة بني إسرائيل».

وفي هذا الاعتراف دلالة واضحة على أن واضع رموزها وطقوسها وعقائدها وإشاراتها ودرجاتها هم اليهود.

ثانياً: من أمثلة رموز الماسونية ما يلي:

(١): (المحفل): هو عند أعضاء الماسونية العامة اسم للمكان الذي يجتمعون فيه، بينما يعتبره أعضاء الماسونيّة الملوكية رمزاً لهيكل سليمان، الذي يعتبره اليهود شعاراً لوطنهم القومي.

(٢): (الهيكل): والمقصود منه هيكل سليمان، وقد يذكر باسم: «هيكل الحكمة ـ أو هيكل الإنسانيّة ـ أو الكنيسة الكبرى ـ أو هيكل الكون ـ أو كوكب الشرق الأعظم».

(٣): (مهندس الكون الأعظم): رمز لمهندس هيكل سليمان، واسمه «حيرام» فالهيكل عندهم هو الكون الأعظم، ويرى معجم الماسونية والماسونيين أنه رمز «أدونيرام» الرئيس الرابع للقوّة الخفية.

(٤): (النور): هو عند أعضاء الماسونية العامة (الرمزية) رَمزٌ لنور العقل، بينما يعتبره أعضاء الماسونية الملوكية رمزاً للنور الذي تجلّى به الله لموسىٰ عليه السلام.

(٥): (أدوات الهندسة): اختيرت رمزاً يذكّر ببناء هيكل سليمان.

(٦): (السيف): هو عند أعضاء الماسونية العامّة إشارة إلى الجهاد في سبيل الحق والعدل والحرّيّة، بينما هو رمزٌ إلى السيف الذي كان يحمله بنو إسرائيل ضدّ الأمم الأخرى، وللقوة التي قامت بها دولة بني إسرائيل في عهدَيْ داود وسليمان.

(٧): (المذبح): يطلق على منضدة توضع في المحفل الماسوني بين عمودين، وعليها نسخة من القرآن، ونسخة من العهد القديم، ونسخة من العهد الجديد.

والمذبح هو في الأصل عبارة عن أرض اشتراها داود عليه السلام من الكنعانيين، واتّخذها مركزاً لتقديم الذبائح والقرابين، ومحرقة للقرابين.

(٨): (خبز الفطير): الذي يتناوله الفائزون بالدرجة (١٨) في بعض المحافل الماسونية، تذكار لعيد الفطير اليهودي.

(٩): (الأنوار السبعة): هي في عرف أعضاء الماسونية العامّة (الرمزية) الأعضاء الذين تكون بهم جلسة المحفل قانونيّة، بينما هي لدى أعضاء الماسونية الملوكية رمز للسنين السّبع التي أتمّ فيها سليمان بناء الهيكل.

(١٠): (قطع رأسِ شيءٍ ما): يقطع الماسونيّون في بعض احتفالاتهم رأساً من شيْءٍ ما لديهم، فيرى أعضاء الماسونية العامّة أنه رمزٌ عن قطع رأس الجهل أو غيره من النقائص البشرية، بينما يرى أعضاء الماسونية الملوكيّة ذلك تمثيلاً لقصة الملك داود عليه السلام، وقطعه رأس جالوت الجبار الذي سبىٰ الشعب الإسرائيلي، كما يرونه تمثيلًا لقصة (يهوديت) التي قطعت رأس القائد الروماني (أليفانا) حينما جاء بها لمحاربة اليهود.

(١١): لفظ (أدونيرام): هو في الحقيقة اسم الرئيس الرّابع للقوة الخفيّة، أصل منظمة الماسونية.

(١٢): (القلائد والأوشحة): رموز قلادة سليمان ووشاحه.

(١٣): (الحيّة النحاسية): رمز يذكر بنعمة الله على إسرائيل وحده.

(١٤): (عصا المرشد): رَمز لعصا هارون التي زرعت مع العصي في خيمة الاجتماع، وفي اليوم الثاني فرّختْ وأثمرت لوزاً دون سائر عصي رؤساء بني إسرائيل، كما جاء في سفر العدد، الإصحاح (١٧).

(١٥): (السّدّة): هي رمز سدّة سليمان.

(١٦): (شبولت): معناه في العبريّة السنبلة، وقد كانت هذه الكلمة علامة على اليهود، ومن لفظها كان الجلعاديون[١] يعرفون اليهوديّ فيقتلونه.

(١٧): (العمودان): يشيران عند اليهود إلى العمودين اللّذين كانا يتقدّمان بني إسرائيل عند خروجهم من مصر بقيادة موسى عليه السلام.

(١٨): (جاكين): هو اسم آخر ملوك يهوذا.

(١٩): (جادا): هو اسم أحد الأسباط الاثني عشر من أسباط بني إسرائيل.

(٢٠): (نقطة الدائرة): في كلّ محفل ماسوني منتظم لا بدّ أن تُحدَّد نقطة داخل دائرة، ويجب على كلّ ماسوني أن لا يتحوّل عنها، وهي محدّدة بين الشمال والجنوب

---

(١) الجِلْعَاديّون: قسم من سبط «منسّى» وهم من نسل «جلعاد» و«منسّى» هو بكر يوسف عليه السلام (عن قاموس الكتاب المقدس).

بخطّين مستقيمين، يدلُّ أحدهما على موسى، ويَدُلُّ الآخر على سليمان، وفي أعلى ذلك توجد التوراة، وعليها اسم يعقوب، وهو يرمز عندهم إلى الرؤيا التي رآها يعقوب، وكانت الملائكة نازلة عليه وصاعدة، وقصة هذه الرؤيا مذكورة في كتب اليهود.

(٢١): (النجوم): أو النقاط الثلاث، وهي ترمز عندهم إلى تمجيد المسامير التي يزعمون أنّها دُقّت في جسد المسيح الذي عمل اليهود على صلبه، هكذا يزعمون، ولكنّ الحقيقة أنّ الله أنجاه منهم، وألقى شَبَهَهُ على الذي دلّ عليه.

(٢٢): تكرّر عدد ثلاثة في رموز المحافل الماسونية.

* فالعمر في الدرجة الأولى ثلاثة.

* وكلمات: «حريّة، مساواة، إخاء» ثلاثة.

والضغط بالإبهام بإعطاء الدرجة الأولى ثلاثة.

* والخطوات بدخول المحفل ثلاثة.

* وموسى، وهارون، والتابوت، ثلاثة.

* وسليمان، وحيرام المهندس، وحيرام الملك، ثلاثة.

* وحروف القداسة العليا هي (ي. هـ. م) أي: يهوه هارون موسى، ثلاثة.

* ودعائم الهيكل (ت. ب. ح) أي: تحرير، بناء، حفاظ، ثلاثة، لأنّ الله أباح – بزعمهم – لإسرائيل كلَّ شيء على شرط أن تكون هذه الدعائم هدفاً، كما قال «موآب لافي».

وهكذا تسير مصطلحات الماسونية ورموزها وإشاراتها وطقوسها، ولو عرف كثير من المنتسبين إليها من غير اليهود حقيقة معانيها التي يُلْقي عليها اليهود حُجُباً كثيفة، حتّى لا يراها غير اليهود ووكلائهم، لعرفوا أنّهم يُجَنِّدون أنفسهم جهلاً في صفوف أعدائهم وأعداء أمتهم من حيث لا يشعرون.

وربما تظهر هذه الرموز والإشاراتُ والطقوس لدى كثير من الناس بمثابة خزعبلات وتدجيلات وألاعيب صبيانيّة يمارسها الماسونيون اتباعاً لقوانين وأنظمة هذه

المنظمة ذات التحرّكات والأهداف السّرّيّة، وامتثالاً لأوامرها التي لا تقبل المناقشة، والّتي يتمّ بثّها بين الأعضاء، كأنّما هي وحيٌ يوحىٰ به، دون أن يعلم الأعضاء المُنفّذون من هو صاحب الأمر الموجّه لها.

ومع أنّ معظم هذه الرموز والإشارة والطقوس يحمل كما سبق إيضاحُه تفسيرات يهوديّة بَحْتٌ في حقيقة الأمر، إلّا أن المخطّطين اليهود قد يضعون لها معاني أخرىٰ، يُلَبِّسون بها على العميان، وهم أعضاء المرتبة الأولى الموضوعون في حقل الاختبار اليهودي، ليصطفوا منهم من يرونه متحلّلاً من دينه وأخلاقه وأمّته، فيُرَقّوهُ عندئذٍ في درجات الماسونية.

وبعد ذلك يعملون على دفعه إلى المناصب العالية في دولته عن طريق دعم أعضاء المحافل الماسونية، الذين يُوحُون لهم بذلك، ليُسخّروه فيما يريدون من إفساد وتهديم لدولته ودينه وأمّته، وليتزوّدُوا منه بالمعلومات الّتي يطّلع عليها بمقتضى مركزه وعمله، وقد لا يَشْعُرُ بأنّه يزوّدهم بها، وذلك لما يتمتّع به القادة اليهود من مكر بالغ يُخْفُون فيه أنفسهم ووكلاءهم إخفاءً تامّاً، حتى عن أعين معظم المخلصين لهم، والسائرين في ركابهم.

ولمّا كانت المحافل الماسونيّة منتشرة في معظم دول الأرض، وكان معظم ذوي المراكز الهامّة فيها لا بدّ أن يكونوا أعضاءً في هذه المحافل أو أصدقاء لهم أو مسخّرين من قبلِهم أو محاطين ببعض منهم، فإنّ أمْرَ إدارة هذه الدول قد أصبح بحُكْم المضمون للقيادة اليهوديّة العليا. وحِرْصُ أصحاب المراكز على مراكزهم سيُهَوّن عليهم الشعور بأنّهم يخدمون اليهود من حيث يشعرون أو لا يشعرون وذلك عن طريق منظّمة «الماسونية» لأنّهم يعتقدون أنّهم لو تمرّدُوا على الإرادة اليهوديّة العليا فسوف نعْمَلُ على طردهم من مراكزهم عن طريق وكلائها المستورين، ولو بنشر الفضائح والاتّهامات.

ونَحْنُ إذْ نكشِفُ دلالات الرّموز والإشارات والطقوس التي استكثر اليهود منها في «الماسونية» وهي ذات صلة بالتعاليم والتقاليد والقصص اليهوديّة، فالهدف من ذلك أن نبيّن أن لليهود منها عدّة أغراض:

الأوّل: تثبيت الطابع اليهودي الذي قامت عليه المنظمة.

الثاني: الإمعان في كتمان الأهداف الحقيقية لهذه المنظمة عن الأعضاء العميان من غير اليهود، وهم أعضاء «الماسونية العامة الرمزية» ويطلق عليهم وصف العميان لأنهم يخدمون المنظمة جاهلين أهدافها الحقيقية.

الثالث: ملء جلسات المحافل بالأعمال التي تحجب الأعضاء عن ابتداع كلّ مفيد نافع، وشَغْلُهم بتمثيليّات مُعَمَّاة لا يدركون حقيقة أسرارها، وتَغْشِيَةُ أبصارهم عن الأهداف الحقيقيّة لهذه المنظمة، وهي الأهداف التي رسمها اليهود.

وتشتمل أهدافهم على ابتغاء هدم جميع الأديان في الأرض باستثناء عقيدتهم اليهودية الخاصة، وهدم جميع الأنظمة الأخلاقيّة والاجتماعية والسياسية والاقتصاديّة في العالم، وذلك كيما يتسنّى لبني إسرائيل الظفرُ بمملكة اليهود التي تبدأ في فلسطين، وتمتدّ إلى روما، وتطوّقُ أفعاها الكرة الأرضيّة كُلَّها.

هذا ما له يخطّطون وله يعمل هؤلاء المنافقون المجرمون الخطرون المكارون، ألاَ فلْيَعْلَمِ الجاهلون، ولْيَتنبَّهِ الغافلون، ولْيَصْحُ النائمون، ولْيَتُبِ العاصون.

* * *

(٧)

مشهد من مشاهد التكريس

المشهد هو تكريس المرشح العضو للدرجة الثامنة عشرة:

(١) وقف المرشّح أمام رئيس المحفل الماسوني، وتلا الطلب الذي قدّمه للفوز بالدرجة، ووافق على صحّة توقيعه.

(٢) ركع المرشّح أمام المذبح وأقسم القسم الخاصّ بهذه الدرجة.

(٣) لقّنَ الرئيس المرشّحَ كلمة المرور، وهي: «فاكس يوبيس» وأعلمه أنّ معناها: «لكُمْ وعليكم السلام». وأصلها من اللّغة اللاتينيّة المتأخرة.

وأفهم الرئيس المرشّح أنّه إذا قال هذه الكلمة أجابه إخوانه بكلمة: «عمانوئيل» ومعناها: «الله معنا».

(٤) يخطو المرشح ثلاث خطوات:

الأولى: خطوة إلى اليسار.

الثانية: خطوة إلى اليمين.

الثالثة: خطوة تنتهي بركوع أمام المذبح.

(٥) يقوم المرشّح بتأدية تحيّةٍ عمليّة للسُّدةِ والمذبح، على الشكل التالي:

اليدان مضمومتان إلى الصدر، اليمنى فوق اليسرى، والإبهامان مرفوعان إلى الأعلى.

ومعنى هذه التحيّة: المجد لمهندس الكون الأعظم.

(٦) يجيب الرئيس على هذه التحيّة بتأدية تحيةٍ عملية على الشكل التالي:

اليدان مضمومتان تشيران إلى جهة الأرض.

ومعنى هذا الرد: وعلينا وعليكم وعلى من في الأرض السلام.

(٧) يؤدي الرئيس والمرشّح اللّمسة، وتكون ببسط يد كلّ منهما بيد صاحبه، ويتبعها «قبضة الأسد» مع الاهتزاز، والإبهام على الإبهام، ويكون تحريكُهما من أعلى.

(٨) يُلقَّن المرشّح كلمة السرّ لهذه الدرجة وهي (ان ري) ومعناها: «عيسى الناصري ملك يهوذا» فهي حروف مقطعة كلّ حرف منها يدلّ على كلمة من الكلمات الأربع، ولا بد أن نفهم أنّ تفسير هذه الحروف بهذا التفسير تغطية لخداع النصارى.

(٩) يصفّق الإخوة «الفرسان الحكماء» ثلاث صفقات، مع ترديد شعار الماسونية: «حرّية ــ مساواة ــ إخاء».

(١٠) يقف المرشّح أمام الرئيس، فيضع الرئيس السيف على الكتف الأيمن للمرشح، ثم على كتفه الأيسر، ويطرق فوقه بالمطرقة، ثم يضعه على رأس المرشّح، ويطرقه بالمطرقة، وبعد ذلك يُقَبِّلُ المرشّحَ قُبْلَةَ التهنئة.

ويتلو الرئيس قرار منحه الدرجة، كما سبق بيانه لدى شرح الدرجة (١٨) إلى آخر ما يجري في هذا التكريس.

(٨)
من أقوالهم الكاشفة عن أهدافهم ومخطّطاتهم

لقد غدا متحقّقاً أنّ أساطين اليهود يعتبرون المحافل الماسونيّة بمثابة الأجهزة التي يحصلون منها على ما يريدون من أخبار، وبمثابة مراكز هامّة للدّعاية لهم، كما أنهم من وراء المحافل المنتشرة في العالم متربّعون على عرش قمتها، ويوجّهونها لتحقيق أهداف اليهوديّة العالمية، في حال أنّهم يُحيطون أنفسهم بحُجُبٍ كثيفةٍ، ويُغلّفون أهدافهم بمكر كثير، حتّى لا تكشفهم عيون الأمم، التي يعمل أفراد منها في خلايا الماسونية، وهم يجهلون المصير القاتم الذي ينساقون إليه هُمْ وشعوبُهم من ورائهم.

وفيما يلي طائفة من الأقوال الكاشفة عن أهدافهم ومخطّطاتهم:

(١) جاء في البروتوكول «الخامس عشر» من بروتوكولات «حكماء صهيون» أي: شياطينهم ما يلي:

«وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن نُنْشىء ونُضاعف خلايا الماسونيين الأحرار، في جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كلّ من يصير، أو يكون معروفاً بأنه ذو روح عامّة.

هذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسيّة التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار، كما أنّها ستكون أفضل مراكز للدعاية.

وسوف نركّز هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحْدَنا وستتألف هذه القيادة من علمائنا، وسيكون لهذه الخلايا أيضاً ممثلوها الخصوصيّون، كي نحجب المكان الذي نقيم فيه قيادتنا حقيقة، وسيكون لهذه القيادة وحْدَها الحقّ في تعيين من يتكلّم، وفي رسم نظام اليوم، وفي هذه الخلايا سنضع الحبائل والمصايد لكلّ الاشتراكيّين وطبقات المجتمع الثورية، وستكون معظم الخطط السياسية السّرّية معروفة لنا، بمجرّد تهيئها.

وسنضم إلى عضويّة هذه المحافل الماسونية كلّ أفراد الشرطة السّرّية والعلنية

الوطنيّة والدوليّة، لأن لخدماتها قيمة عظيمة بالنسبة إلينا، فهي في وضع يجعلها قادرة على ستر خططنا، وتقديم المعاذير عن إثارة المشكلات التي تفرضها مصالحنا، وفوق هذا يكون في وُسْعِها ضرب من تحدّثه نَفْسُه بأنْ يعْصِيَ أوامرنا.

والذين ينتسبون إلى جمعياتنا السّرّية هم في العادة مغامرون، يرغبون أن يشقُّوا طريقهم في الحياة دون جِدٍّ أو عناء، وأكثرهم من الطائشين الّذين يسهُلُ التفاهم معهم في سبيل تحقيق مصالحنا، وهم الذين يكونون قوّةً دافعةً لجهاز حركتنا.

وإذا حدث اضطراب في العالم فذلك دليل على ضرورة وجوده، لأنّ ذلك الاضطراب يهدم تماسكه المتين لمصلحتنا، فإذا وقعت مؤامرةٌ ما فَلَنْ يحمل وُقوعُها سوى دلالة واحدة، هي أن رأسها واحد، ورئيسها واحد هو من عملائنا المخلصين.

وطبيعيٌ أن نكون نحن لا غيرنا القابضين على زمام العمل الماسوني، لأننا نحن نُحْسِنُ القيادة، وندرك غاية العمل القصوى...

ويكثر الانتساب إلى الماسونيّة من «الجوييم = غير اليهود» يدفعهم الفضول، أو الطمع في نفع يُصِيبُونه، أو في تحقيق مآرب لا تتحقّق لهم بغير الانتساب إلى الماسونية، وبعضهم يرجو أن يجد الشهرة عندما يتشدّق بآرائه الحمقاء، بين يدي المحافل، مظهراً مهارته الخطابيّة، ليظفر بمديح يدغدغ عواطفه، ونحن لا نبخل به، ومستعدون لأن نغدقه بسخاء، وندع لهم الفرص التي يحقّقون بها بعض آمالهم وترضي غرورهم، فنسخّرهم لخدمة أغراضنا...

وأنتم لا تتصوّرون كيف يَسْهُل دفع أمهر الأمين «الجوييم» إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة، بإثارة غروره وإعجابه بشخصه، وكيف يسْهُل من ناحية أخرى تثبيط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة، ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له، وبذلك ندفعه إلى خضوع ذليل».

* * *

(٢) وجاء في البروتوكول (الرابع) منها قولهم:

«من ذا يستطيع أن يخلع قوة خفيّة غير منظورة عن عرشها؟. وماذا يُسْتَطاع فعله

لقلب هذه القوة الخفيّة التي هي قوّتنا، ولنا في الماسونية الظاهرة حجاب غليظ بستر أغراضنا؟

إنّ المحفل الماسوني المنتشر في كلّ أنحاء العالم قناع غليظ يستر أغراضنا، ولهذا فمنهاج قوّتنا ومكانها يظلاّن في عالم الخفاء سرّاً مغلقاً يجهله العالَمُ كلُّه.

وكان من الممكن ألاّ يكون للحرّيّة ضرر، وكان من الممكن أن يكون لها في الدولة مقام كريم لا يضرّ برخاء الشعب، لو أنّ الحرّيّة قامت على الإيمان بالله والأخوّة الإنسانيّة، مجرّدة عن دعوى المساواة، التي يُثبتُ قانون الطبيعة بطلانها، فالطبيعة قائمة على وجود التفاضل في الخلق..

إنّ الناس المحكومين بالإيمان بالله سيكونون سعداء تحت رعاية رعاتهم الدّينيين، خاضعين لمشيئة الله راضين بها.

وهذا يحتم علينا أن نهدم قواعد الإيمان في قلوب الناس.. ونُحِلّ محلّها قوانين رياضيّة، وضرورات مادّية...».

* * *

(٣) وجاء في البروتوكول (الحادي عشر) منها قولهم:

«إنّ الأميين «الجوييم» كقطيع من الغنم، وإنّا الذئاب، فهل تعلمون ما تفعل الغنم حينما تنفذ الذئاب إلى الحظيرة؟

إنّها لتغمض عيونها عن كلّ شيء.

ويوجد سبب آخر يدفع «الجوييم» إلى أن يغمضوا عيونهم، إذْ نُرضيهم بإغداق الوعود عليهم، بأننا سنعيد إليهم حرّياتهم متى تمّ لنا قَهْرُ أعدائهم، وترويض جميع الأحزاب.

لماذا ابتدعنا سياستنا ولقّناها الأمّيّين «الجوييم» دون أن نُهَيِّئَهُمْ لإدراك أسرارها؟

أليس ذلك رغبة منّا في الوصول إلى غاية لا يُتاح لشعبنا الوصول إليها بالوسائل النظيفة، فاضطررنا إلى اتّخاذ أساليب المكر والمراوغة.

هذا السبب هو الذي حملنا على إنشاء «الماسونيّة» التي يجهل أسرارها وغايتها أولَئك الخنازير من «الجوييم» فوثقوا بها، وانتسبوا إلى محافلنا الماسونية التي جذبتهم مبادئها الظاهرة التي ضلَّلَتْهُمْ وحوّلت عنهم بَصَرَ إخوانهم في الدين، وبذلك نُحْدِثُ الفرقة فيما بينهم.

ومن نعمة الله أن تشتيت شعبه المختار الذي ظنّه العالم ضعفاً فيه، قد ثبت أنّه سرّ قوته التي أفضت به إلى السيادة العالمية، ولم يبق علينا إلاّ السّير لنقيم بنياننا على تلك الأسس، وبذلك نحقق هدفنا المنشود».

* * *

وقضية محاربة الماسونيّة للدّين تبعاً للمخطّط اليهودي لا تحتمل أيّ جدلٍ أو مناقشة، لأنّها من الأمور الكثيرة الّتي كشفتها تصرّفاتهم الدائمة، ثمّ اعترافاتهم وأقوالهم المنتشرة في كثير من الوثائق الصادرة عنهم، من تصريحات وخطب وكتابات.

(٤) جاء في أقوال المحفل الماسوني الأكبر سنة (١٩٢٢م):
«سوف نقوّي حرّيّة الضمير في الأفراد، بكلّ ما أوتينا من طاقة، وسوف نُعْلنها حرباً شعواء على العدوّ الحقيقيّ للبشريّة الذي هو «الدّين» وهكذا سوف ننتصر على العقائد الباطلة وأنصارها».

ومرادُهم بإعلان حربهم على الدين كلُّ الأديان باستثناء اليهودية.

(٥) وجاء في مضابط مؤتمر بلغراد الماسوني لسنة (١٩٢٢م) قولهم:
«ويجب أن لا ننسى بأننا نحن الماسونيّين أعداء للأديان، وعلينا أن لا نألو جهداً في القضاء على مظاهرها».

(٦) وفي محاضر محفل الشرق لعام (١٩٢٣م) قولهم:
«إنه يجب أن تبقى الماسونيّة لملّة واحدة، وعليه يقتضي محو جميع الأديان ومنتسبيها من الأساس».

والمقصود من الملّة الواحدة اليهوديّة.

(٧) نشرت جريدة الرياض في ٢٣ شوال (١٤١٠هـ) و١٨ مايو (١٩٩٠م)

ما يلي:

باريس ـ إينا:

«صرّح رئيس المحفل الماسوني الفرنسي، وعضو الحزب الاشتراكي: «روجيه لوريه» في بيان صدر عنه مؤخراً، أنّه لا بدّ للماسونيّة من حرب صريحة ضدّ الإسلام.

وأضاف في بيانه أنّه لا يمكن الصمت تجاه الحملة الموجّهة ضدّ المحافل الماسونيّة في إفريقية من قِبَل المسلمين، لا سيما في السنغال».

(٨) جاء في نشرة ماسونية صدرت في لندن سنة (١٩٣٥م):

«إنّ أمنيتنا هي تنظيم جماعة من الناس يكونون أحراراً جنسيّاً. نريد أن نخلق الناس الذين لا يخجلون من أعضائهم التناسلية».

* * *

(٩)
نماذج من الأيمان
التي يُقْسِمُ عليها العضو الماسوني

عند كلّ درجة يُمنَحُهَا العضو من أعضاء الماسونيّة يكلّف العضو أن يقسم على حفظ الأسرار، وعدم خيانة المنظمة بشيء من الأشياء، فمن أقسامهم النماذج التالية:

نموذج أوّل:

«أُقسِمُ بمهندس الكون الأعظم أنّني لا أُفشي أسرار الماسونية ولا علاماتها ولا أقوالها ولا تعاليمها ولا عاداتها، وأن أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد.

أُقسِمُ بمهندس الكون الأعظم ألّا أخون عهد الجمعيّة وأسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحركات، ولا أكتب شيئاً عنها، ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير، وأرضَىٰ ـ إنْ خنتُ بِقَسَمي ـ أنْ تُحْرَقَ شفتاي بحديد محميّ، وأن تُقطَع يَدَايَ، ويُحزّ عُنقِي، وتُعَلّقَ جُثّتي في محفلٍ ماسوني، ليراها طالبٌ آخرُ فيتّعظ بها، ثمّ تُحْرَقَ جُثّتي، ويُذَرَّ رمادُها في الهواء، لئلّا يبقىٰ أثرٌ من جنايَتِي».

نموذج ثانٍ:

«أُقسِمُ أن أنفّذ دُون تردّد حتّى المخاطرة بنفسي، كُلّ مَا أُومَرُ به للعشيرة، وأنْ أُطيع على الدوام رؤسائي الشرعيين في الماسونيّة، أميناً على جميع أسرار الفرسان، ولا أبارزهم، ولا أدعوهم للمبارزة، وأضحّي بنفسي لتخليصهم، وأخرج السجين منهم، مهما كلّفني ذلك من جَهْدٍ وتضحيَة، وأن أضحّي وأساعد بكلّ قوّتي، وأكرّس لهم حياتي حتّى الموت».

نموذج ثالث: «قَسَمُ الفارسِ الحكيم»:

وأنا (يذكر اسمه) أُقسِمُ على هذا الحسام، رمز الشجاعة، بحضور جميع الفرسان المحيطين بي، أن لا أبوح بأسرار الدرجة الثامنة عشرة التي ستُمْنَحُ لي الآن، وهي درجة الفوارس الحكماء، ولا بالأسرار التي تُسَارُّوني بها.

واتعهّد أن أُعمل فكرتي لتنوير جميع إخواني، وادافع عنهم، وأعِدُ وأُقسِمُ بألاّ أفارق هذه الطريقة بل أجتهد أن أكون فاضلاً، أقوم بأداء الواجب اللازم لها، والمحافظة على قوانينها».

نموذج رابع: «قَسَمُ كُلّيِّ الحكمةِ»:

«أنا (يذكر اسمه) أعِدُ بشرفي، وبصفتي كُلّيِّ الحكمة، وأستاذاً ماسونيّاً، أن أبذل جهودي وقوّتي في أداء واجباتي بالأمانة، إلى المقام الذي انتُخِبْتُ لِرِياسته، وأنْ أحافظ على قوانينه، وعلى النظام العام للمجلس السامي، وأُجْبِرَ الغَيْرَ على احترامها، وأُطيع قرارات المجلس السامي.

أُقسِمُ أنّني أقطع الروابط والصلات، الّتي تشُدّني للأقارب والأنسباء، والعصبيّات، والأرحام، والقوميّة، وقادة الدّين والدنيا، وكلّ من حلفْتُ له بالطاعة، لأرْتَبِط أوّلاً وأخيراً ودون قيد أو شرط، بإخواني الماسونيّين، وادافع عنهم، وأُنقِذ مسجونهم، ولا أقاتلهم، ولا اطلب مبارزتهم، حتّى ولو قاتلوني وأتوْا مُنكراً».

* * *

(١٠)
صُوَر من مكايد المحافل الماسونية ضدّ شعوب العالم بتوجيه من اليهودية العالمية

استخدمت الحركة اليهودية العالمية المحافل الماسونيّة وكثيراً من أعضائها أقنعة تسترت بها نفاقاً لتحقيق ما يلي:

(١) نشر مختلف المذاهب والأفكار والنظريات المدمّرة للدّين والأخلاق والنظم الاجتماعية، والسيطرة على حكومات شعوب الأرض، وقوى المال والإعلام والتعليم والسلاح والجيوش وسائر القوى حتى القيادات الدينيّة عن طريق وكلائها وعملائها والمنافقين منها.

(٢) إقامة الثورة الإنكليزية، والثورة الفرنسيّة، والثورة الشيوعيّة البلشفية، واستثمار هذه الثورات لتحقيق المخطّط اليهودي العالمي.

(٣) إقامة الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، والحروب الإقليمية في العالم، وهم يُعِدُّون لإقامة الحرب العالمية الثالثة التي يُقَدِّرون أن تكون وسيلتهم لحكم العالم أجمع حكماً مباشراً.

(٤) إثارة الفِتَن الطائفية والقوميّة والمذهبيّة والحزبيّة، والحروب الأهلية بين الشعوب، وكثيراً ما يَتَسَتَّرُون وراء الدول النصرانية أو الإلحادية الكبرى في العالم، فهم بالنفاق يعملون بأيدي غيرهم.

(٥) خلع السلطان عبد الحميد، وإلغاء الخلافة الإسلامية، وإقامةِ رجلهم المنافق الدكتاتور «كمال أتاتورك» حاكماً مستبداً في تركيّا بعد تقسيم أرض الخلافة الإسلامية التركيّة.

(٦) معظم أئمة المذاهب الفكرية المعادية للدين والأخلاق والنظم الاجتماعية أعضاء في المحافل الماسونية، أو في إحدى بناتها، وأكثر هؤلاء يهود يبطنون اليهودية ويتظاهرون بالإلحاد، أو بدين آخر غير اليهودية كالمسيحية أو الإسلام.

وقد كتبتُ تفصيلات كافيات لهذه الأمور في كتابي «مكايد يهودية عبر التاريخ»

وكتابي «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» وكتابي: «الكيد الأحمر» فمن شاء المزيد فليرجع إليها.

* * *

(١١)

أدعية ماسونية[1]

(١) يقرأ جميع أعضاء المجلس السامي للشروق عند افتتاح جلساتهم الدعاء التالي:

«نؤمنُ بإلّـهٍ واحد، ربّ موسى وهارون، منزّل التوراة، خالق الشعب المفضّل المختار، خالق الشعوب الأخرى لخدمة المفضّل الجليل. وطننا فلسطين، الدّم الذي يجري في عروقنا دم إسرائيل، عقيدتنا خلافة الله على الأرض، بارك جلستنا هذه يا ربّ إسرائيل يا ربّ موسىٰ وهارون. آمين».

(٢) يدعو جميع أعضاء الماسون في الدرجة (٣٣) الدعاء التالي:

سنعود إلى عهد سليمان بن داود، ونبني الهيكل الأقدس، ونقرأ فيه التلمود، وننفّذ كلّ ما جاء في الوصايا والعهود، وفي سبيل مجد إسرائيل نبذل كلّ مجهود. الويل الويل للغاصبين المستعمرين، سنجعلهم قطعاً في أفواه الأسود. الانتقام الانتقام، طال المكوث في الظلام، أنْعِمْ علينا يا ربّ، أنوار القدس التي تجلّت على موآب».

(٣) يقرأ الأعضاء الماسون في طقوس الجنائز عن روح الماسوني الذي لم يبلُغْ درجة «فارس حرّ النسب» الدعاء التالي:

«يا ربّ موسى وهارون، هذا الميّت هو من أبناء «يافث» الخبيث، ولكنّه أخٌ من التائبين، عمل وضحّىٰ في معارك بناء هيكلك، ووقف سبع مرّات بين عمودي «ب و ج» وأخذ النور من «م» ميم مجدك الأعلى، نستودعه في رحمتك، يا رحماناً يا رحيماً يا غياثنا».

• • •

(١) نقلاً من كتاب «الماسونية في العراء» للزعبي.

الفَصْلُ الثَّانِي

نَوَادِي الرُّوتَارِي
إِحْدَى بَنَاتِ الْمَاسُونِيَّة

(١)
مقدمة

تعتبر نوادي «الروتاري» بمثابة قناع يلبسه المنافقون من اليهود ووكلائهم، لتحقيق أغراض اليهود العالمية، وهي إحدى المنظمات العالميّة الموجّهة سرّاً من الماسونيّة، وهي في الحقيقة إحدى بناتها العاملات على مستوى شعوب الأرض جميعاً، وتلتقي أهدافها ومقاصدها السّرّيّة مع الماسونيّة، ولا تختلف مبادئها ومفاهيمها العامة عن مبادىء الماسونية ومفاهيمها، لكنها تختلف من جهة الشكل والتنظيم، وهي غير مفتوحة كالماسونية لكلّ طبقات الشعب، بل هي خاصة بطبقة المثقفين وذوي الفكر، وأصحاب المهن الراقية، واجتماعاتها هي بمثابة أسواق معلومات، تُعْرَضُ فيها الأفكار والأخبار، فتتلقفها الأعينُ والآذان المتجسّسة، وتنقلها إلى بنك المعلومات الماسوني اليهودي العالمي، وأعضاء نوادي الروتاري يُسْتَخْدَمُون من حيث لا يشعرون لتحقيق توجيهات الماسونية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والإعلامية والعسكرية وغيرها.

واجتماعات نوادي «الروتاري» تُرضِي غُرورَ الأعضاء حينما يتحدّث كلٌّ منهم في مجال اختصاصه، ويجدون فيها فرصةً للترويح عن النفس، وإشباع رغبات الاجتماع بذوي الفكر والأدب والسياسة وأصحاب الاختصاصات الأخرى.

وتحرص الماسونية على أن يكون في كل نادٍ من نوادي الروتاري أعضاء ماسونيون يوجهون تحرّكاتها، والبحوث التي تجري فيها، وأعمالها ويستثمرون ما لديها من قُوىً ورجال في مصالح وغايات الماسونية.

وحينما تُلَاحَقُ «الماسونيّة» في بلد من البلدان إذْ تنكشف لقادته مكايدُها اليهودية، ينشط الماسونيّون في متابعة تحركاتهم الماسونيّة من خلال نوادي الروتاري.

وقد انتظم في نوادي الروتاري كبارٌ من أساتذة الجامعات، وكبارٌ من الأدباء والشعراء والسياسيين وغيرهم من علية المثقفين، وربمّا كان بعضهم يجهل الكيد الماسونيّ اليهوديّ القابع فيها، فانساقوا ضمن المخططات الماسونيّة وهم لا يشعرون.

* * *

(٢)
تأسيسها وانتشارها

(١) بدأ تأسيس أول نادي روتاري سنة (١٩٠٥م) بمدينة «شيكاغو» على يد المحامي الأمريكي «بول هاريس» ثم تعدّدت هذه النّوادي.

وعرفت باسم «روتاري» لأن اجتماعات أعضائها كانت تُعْقَد في مكاتبهم بالتناوب، وكلّما اجتمعوا في مكتب آخِرِ عُضْوٍ من أعضاء النادي دار الاجتماع فَعُقِدَ في مكتب الأول وهكذا، فكلمة «روتاري» تعني الملتقىٰ الدوّار، أو الالتقاء الدوّار، ولمّا كان لمكتب كلّ عضو من أعضاء النادي نَوْبَةٌ من الاجتماعات يجتمعون فيه، أطلق عليها اسم نوادي الروتاري.

(٢) وفي سنة (١٩٠٨م) انضم «شيرلي بري» إلى «بول هاريس» فجعله سكرتيراً لناديه، فوسّع «شيرلي بري» نشاط النادي، حتى صار منظمة كبرى ذات نوادٍ متعدّدة. وظلّ سكرتيراً لها حتى استقال منها سنة (١٩٤٢م).

وانتشرت هذه المنظمة في بريطانيا بجهود مستر «مورو» الذي كان يتقاضى عمولة عن كلّ عضوٍ جديد.

وفي سنة (١٩٢١م) صار لها فروع في فلسطين، ثم صار لها فروع في الجزائر ومراكش برعاية الاستعمار الفرنسي.

(٣) وامتدت نوادي الروتاري إلى ثمانين دولة، وصار لها (٦٨٠٠) نادٍ تضم (٣٢٧٠٠٠) عضواً قبل أن يتوفىٰ رئيسها المؤسس «بول هاريس» سنة (١٩٤٧م).

وجاء في النشرة البريطانيّة عن نوادي الروتاري لسنة (١٩٦٨م) أنّ هذه النوادي قائمة في أكثر من (١٤٧) دولة بينها إسرائيل.

* * *

(٣)
من تعاليم نوادي الروتاري وقوانينها

(١) يُسْتَبْعَدُ الحديث حول المسائل الدينيّة في نوادي الروتاري التي يشترك في عضويّتها منتمون إلى مختلف الأديان العالمية.

(٢) لنوادي الروتاري اجتماعات أسبوعية، وعلى العضو أن لا تقلّ نسبة حضوره الاجتماعات عن ستين في المئة سنوياً.

(٣) لا يُقْبَلُ العمالُ في عضويّة نادي الروتاري، لأن هذه النوادي مخصّصة للمثقفين، وذوي المكانة العالية في المجتمع.

والغرض من هذا الشرط اجتذاب الذين يترفّعون عن الانتساب للمحافل الماسونية لأنها تجمع مختلف طبقات الشعب.

(٤) تحرص نوادي الروتاري على أن يوجد في كلّ نادٍ عُضْوٌ من كلّ مِهْنة من المِهَن (٧٧) المبينة لديهم في تصنيف خاص.

(٥) العضوية تتم بالانتقاء من أعضاء النادي السابقين، وليست مفتوحة لكلّ طالب.

(٦) يجب أن يكون في مجلس إدارة كلّ نادٍ شخصٌ أو شخصان من رؤساء النادي السابقين، أو من ورثة السّرّ الروتاري الذي وضعه المؤسس الأوّل «بول هاريس».

(٧) أجرى «تشارز ماردن» الذي كان عضواً في أحد نوادي الروتاري لمدّة ثلاث سنوات دراسةً لهذه النوادي فاكتشف أنه يوجد (١٥٩) عضواً ماسونيّاً في كلّ (٤٢١) عضو روتاري، أي: أكثر من الثلث.

وفي بعض نوادي الروتاري كان جميع الأعضاء من الماسونيين، كما حدث في «أدنبرة ــ بريطانيا» سنة (١٩٢١م).

(٨) قيادة الماسونية لإدارات نوادي الروتاري تطبيقٌ لقرارٍ ماسوني مبيّن في محافل «نانس بفرنسا» سنة (١٨٨١م) وقد جاء في هذا القرار ما يلي:

«إذا كَوَّنَ الماسونيّون جمعيّةً بالاشتراك مع غيرهم فعليهم ألّا يَدَعُوا أمرها بيد غيرهم، ويجب أن يكون رجال الإدارة في مراكزها بأيْدٍ ماسونيّة، وأن تسير بوحيٍ من مبادئها».



الفَصْل الثالث

نَوَادِي اللَّيُونْـز (الأُسُود) إِحْـدَى بَنَاتِ المَاسُونِيَّة

(١)

مقدمة

تُعتبر نوادي «اللّيونز = الأسود» مثل نوادي «الروتاري» بمثابة قناع يلبسه المنافقون من اليهود ووكلائهم، لتحقيق أغراض اليهود العالميّة، وهي إحدى المنظمات العالميّة الموجّهة سرّاً من الماسونيّة، بل هي في الحقيقة إحدى بناتها العاملات على مستوى شعوب الأرض جميعاً، ضمن قطاع رجال الأعمال الكبار، وأصحاب الثروات والملوك والرؤساء والوزراء والأمراء.

وتلتقي أهداف نوادي «اللّيونز» ومقاصدها السّرّيّة مع الماسونيّة، حتى كثير من مفهوماتها الظاهرة المعلنة، لكنّها تختلف في بعض الشكليّات، وهي منحصرة بطبقة أكلة النصيب الأكبر من ثروات العالم، الّذين لا هَمّ لهم إلاّ الاستكثار من جمع الأموال، والاستمتاع بأكبر قَدْرٍ من متاع الحياة الدنيا ورفاهيتها ولذّاتها وزينتها، لذلك يلاحظ في اجتماعات أعضاء «اللّيونز» البذخ والترف وعرض ما يملكون من زينات ثمينة.

وتتستر نوادي «اللّيونز» بدعم المشروعات الخيرية، ونشر معاني الخير والتعاون بين الشعوب.

وأعضاء هذه النوادي يتعاونون فيما بينهم لاستغلال ثروات الأرض، واحتكارها لأنفسهم، ويعتبرون أنفسهم بالنسبة إلى سائر البشر كالأسود بالنسبة إلى حيوانات الغابات، استشعاراً بأنّهم أهل القوة والبأس والسلطان والاستئثار بخيرات الأرض دون سائر الناس، ولذلك أطلقوا على منظمتهم اسم «الأسود = اللّيونز».

(٢)
مبادئهم وتعاليمهم

(١) شعارهم الذي يردّدونه هو مثلث الماسونية وكلّ بناتها: «الإخاء ــ الحريّة ــ المساواة».

(٢) من مبادئهم تنمية روح الصداقة بين الأفراد بعيداً عن الروابط الاعتقاديّة والدينيّة والمذهبيّة.

(٣) يتستّرون بالدعوة إلى الخير، والتعاون بين الشعوب، وإقامة المشروعات الخيرية الإنسانية، ومساعدة المكفوفين وذوي الحاجات، وتخفيف المتاعب اليومية عن المواطنين من أيّ مذهب أو ملّة، وتقديم الخدمات للبيئة المحليّة.

(٤) الاهتمام بنشر المعرفة بكلّ الوسائل غطاءً لمقاصدهم الأساسية.

(٥) الاهتمام بإقامة المسابقات الترفيهيّة، لجذب الجماهير، وصرف أنظارهم عن القضايا التي تُهم عقلاء الشعوب، وترفع مستوى الإنسانية، وتكشف أبصارها لرؤية الحقيقة.

(٥) دعم مشروعات الأمم المتّحدة لأنّها الطريق الموصل إلى سيطرة اليهود على العالم، وإقامة الدولة اليهودية العالمية التي يحلم اليهود بها، ويخطّطون ويعملون للوصول إليها بكل وسيلة.

* * *

(٣)
اكتساب العضوية

(١) شروط العضوية في نوادي «اللّيونز» تشبه شروط العضوية في «الماسونية» ونوادي «الروتاري» إلّا أنّ نوادي «اللّيونز» تصطفي أعضاءها من كبار رجال الأعمال والملوك والوزراء والأمراء والنوّاب وذوي المراكز الرفيعة في مجتمعاتهم، إذا كانوا من الذين لا يبالون بالدّين وتعاليمه والالتزام بشرائعه، ليكونوا قدوة المجتمع في التحلّل

من الـدين ونشر الفسـاد، وليكونـوا أطوع لتحقيق المخـططات اليهودية السّرّيـة، فمن اليسير على شياطين الإنس السيطرة على هؤلاء عن طريق شهواتهم.

(٢) يُخْتَار العضو لنادي «اللّيونز» من قبل مجلس إدارة النادي، ولا تُقْبل طلبات الأفراد الراغبين في الانتساب، بل على المرشّح أن ينتظر دعوته من قبل مجلس إدارة النادي وهم لا يختارون ذوي العقائد الراسخة والمبادىء الدينيّة والأخلاقيّة القويمة، ولا أصحاب الغيرة ــ الوطنية أو القـوميّة ــ الشـديدة، وحين يختـار مجلس إدارة النادي شخصاً للعضوية يزورونه ويرغبونه ولا يكلفونه مالاً، بل قد يقدمون له هدايا.

(٣) تهتم نوادي «اللّيونـز» باجتـذاب السّيدات من زوجـات كبار المسؤولين في الدولة، وتُسْنِدُ إليهنّ مهمّة الاتصال بالشخصيات الكبيرة، ولهنّ نوادٍ خاصّةٌ بهنّ تسمّى نوادي سيّدات اللّيونز، مع اشتراكهنّ في اجتماعات أزواجهن أعضاء النادي.

(٤) لمنح العضوية أو الترفيع في الدرجات تكريس يشبـه التكريس الـذي يكون في المحـافل المـاسونية، ولكن بصورة أخف، وعلى العضـو أن يقسم بالعهـد القديم على الإخلاص والكتمان، وتُقَـدّم له نسخـة من العهد القـديم ضمن صندوق خـاص، ولا يتم منح العضوية أو الترفيع إلاّ بموافقة الرؤساء الكبار للنوادي، وهم رؤساء المركز الرئيسي العالمي.

(٥) تبدأ الدرجات عندهم من الدرجة الثالثة عشرة، وهي في الحقيقة الأولى، فهم يعتبـرون السـاعـات التي قبل السـاعة الثـالثة عشـرة ساعـات ليـل وظـلام، أي إنّ الشخص يظلّ في ظلام حتّى يصير أسداً وعضواً من أعضاء منظمة «الأسود».

وفـوق الدرجـة «الثـالثة عشرة» التي هي الأولى في الحقيقـة درجتـان عـزيـزتـان لا يصل إليهما إلاّ قلّة قليلة، من ورثة السرّ اليهودي، أمثال «هيـلاسيلاّسي» الـذي كان قريباً ملك الحبشة، وهو يهودي من نسل داود كما يذكرون.

(٦) يَعْتَبِرُ قادةُ منظمة نوادي «اللّيونز = الأسود» أنفسهم حماةً لهيكل سليمان.

فـإذا قال أحـد الأعضاء في الاجتمـاع: بَنّاء، أو بَنّـاؤون، قال الـرئيس: لقـد تمّ البناء، ونحن الأسود للمحـافظة عليـه، وهو يـريد تمّ بنـاء هيكل سليمـان على أنقاض المسجد الأقصى، أي: اقترب تحقق بنائه.

(٤)
الهيكل التنظيمي لنوادي اللّيونز

يتكوّن كلّ نادٍ من:

(١) رئيس.

(٢) نائب رئيس أو أكثر.

(٣) سكرتير وأمين صندوق.

(٤) مجلس إدارة مؤلف من (١٢) عضواً، ويشترط أن يكون بينهم شخص أو اثنان من رؤساء النادي السابقين (والغرض من هذا الشرط إحكام القبضة على النادي حتّى لا يخرج عمّا هو مخطط له من قبل اليهوديّة العالمية والقيادة الماسونية الأمّ).

(٥) تؤلف لجان متنوعة من قبل مجلس إدارة النادي تكون مسؤولة عن تحريك الأنشطة المختلفة المحقِّقة لأهداف النادي السّرّية والعلنيّة.

* * *

(٥)
صور من أعمال وأنشطة نوادي «اللّيونز = الأُسود»

(١) يردد أعضاء هذه النوادي شعار «إخاء ـ حرّيّة ـ مساواة» وعبارة: «الدّين لله والوطن للجميع».

(٢) يجري بين أعضاء هذه النوادي الحوار التالي:

س: إخواني متىٰ يعمّ السلام العالم؟

ج: إذا حكمه الأسود.

س: لماذا كان رمز انكلترا أَسَدَيْن؟

ج: لأنّ هذه أسرار قديمة أخذت الآن بالظهور.

س: إلى أيّ عام تعود هذه الأسرار؟

ج : تعود لعام (٣٧م). [أي: للعام الذي أسست فيه منظمة (القوة الخفية)].
ثم للعام (١٧١٧م). [أي: للعام الذي أخذت فيه القوة الخفيّة اسم الماسونية].

(٣) يركّز أعضاء نوادي الأسود في دعواتهم ومحاضراتهم على إبراز مكانة معينة لإسرائيل، ويقومون بزرع أفكار صهيونية في أدمغة الأعضاء.

(٤) تُجمع في نوادي اللّيونز المعلومات المتعلقة بالشؤون السياسية والدينيّة والاقتصادية والعسكرية وغيرها، وترسل إلى المركز العالمي للمنظمة، وهناك تُحلَّل هذه المعلومات، وتوضع الخطط اللازمة والمناسبة بشأنها، فيحبطون المشروعات التي يمكن أن تضرّ بأهداف اليهود العالمية، ويشجعون المشروعات التي يمكن أن يستفيدوا منها.

(٥) يتم خلال اجتماعات هذه النوادي التعرف على المهن المختلفة، للتحكم في السوق المحليّة، والتمكن من التدخل في الشؤون الاقتصادية تدخلاً مفيداً لقادة المنظمة ومحرّكيها وموجهي دفتها.

● ● ●



[redacted]

الفصل الرابع

الشّيُوعِيّة
إحدَى مُنظّمات النِّفاقِ في العَالَمْ

لا أريد أن أتحدّث هنا بتفصيل عن الشرور التطبيقيّة للشيوعية، والاشتراكيّات التي هي تمهيد لها، ولا عن مذهبها الاقتصادي وفساده وزيوفه، ولا عن مذهبها الإلحاديّ الشيطاني المجرم الباطل الذي لا يملك أدنى سنَدٍ فكري، فقد كنتُ كتبْتُ عن ذلك ما يكفي، في كتاب «الكيد الأحمر» الخاصّ بالشيوعية، وكتابي «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة».

ولكنّي أتحدّث هنا عن الشيوعيّة باعتبارها منظّمةً من منظّمات النفاق العالمية، إذْ لبست قناع العمل بغَيْرةٍ وإخلاص وصِدْقٍ وتفانٍ لإنقاذ العمّال والكادحين والفلاّحين، من براثن المستغلّين الإقطاعيين والرأسماليين، الّذين ليس في قلوبهم رحمة ولا شفقة نحو البائسين من طبقات الشعب.

وصدّقت جماهير العمّال والكادحين أقوال قادة هذه المنظمة العالمية المنافقة، وصدّقت شعاراتها وأفكارها، واندفعت وراءهم تضحّي بأنْفُسِها وبالملايين من سائر طبقات الشعب، تذبيحاً وتقتيلاً وسحقاً في ثورات داميات مبيدات، وعقوبات صارمات، لتوصلهم إلى السيطرة على دُولٍ صارت ذات قُوىً عظمى، تُرْهِبُ الشطر الآخر من العالم، مؤتلفه ومختلفه، وتتحدّى قواته مجتمعةً ومتفرّقة.

ثم أثبت الواقع التجريبي ما كان قد ذكره من قَبْلُ عُقَلاءُ الشعوب، والمهديُّون بهدي دين الله للناس، وأهل البصيرة بمكر أخباث الناس ومكايدهم، فسحقت هذه المنظّمة الإقطاع والرأسمالية في البلدان التي سيطرت على مقاليد الأمور فيها، واستعبدت العمال والكادحين والفلاحين جميعاً، وزادت البائسين بؤساً، والكادحين كدحاً وتعباً وشقاءً، والعمّالَ إذْلالاً وإهانة وتسخيراً، وبلغت في ظلمها للناس

ما لم يبلغه مستَعْبِدٌ مُسْتَغِلٌ من قَبْلُ، من ملوكٍ طغاةٍ جبّارين، وإقطاعيّين يُسخّرون العمّال عبيداً، ورأسماليين يستغلّون كَدْح العاملين ليحصلوا على الثراء الفاحش لهم ولذويهم.

وتربّعت الأحزاب الشيوعيّة في الدول الّتي ظفرت بالاستيلاء على عروشها، تستغلّ وتستثمرُ شعوبها بصورة لم يسبق لها نظيرٌ في تاريخ الاستغلال والاستعباد البشريّ، وحقّقَتْ أهدافها التي كانت تُضمرها منذ البداية، وتُظْهِر خلافها نفاقاً ومُخادعة، وبلغتِ القيادات الشيوعية من الاستئثار لأنفسها بكلّ وسائل التّرف ما كانت تحلمُ به، وكان كلّ ذلك ضمن مخطّط يهودي مرسوم، ومعلوم النتيجة المدمّرة منذ البداية، إذْ كان الهدف من إقامة هذه المنظّمة والاستيلاء على شطر من العالم بدولٍ دكتاتورية حديديّة، تُسمّي نفسها كذباً ونفاقاً وبالعُنْف دُولاً ديمقراطية، هو التمهيد لامتلاك قوىً في العالم، تُمكّنُ أصحاب المؤامرة اليهود من حكم العالم كلّه شرقه وغربه، بدولة واحدة يتحكّم فيها عنصر بني إسرائيل، بطاقات كلّ شعوب الأرض ومصائرها، ويُسخّر كلّ شعوب الأرض تسخير الراعي لقطعانه من الأنعام.

وكان هؤلاء يقرّرون مُنْذ البداية في مقرّراتهم السّرّيّة أنهم لا يريدون رفاهية العمال والكادحين والفلاحين والبائسين، ولكن يريدون استغلالهم للثورة على خصومهم، ثم استعبادهم وإذلالهم.

جاء في البروتوكول الثالث من «بروتوكولات قادة الحركة الصهيونية» ما يلي:

«إننا نقصد أن نظهر كما لو كُنّا المحرّرين للعمّال، جئنا لنحرّرهم من الظلم حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيّين والفوضويّين والشيوعيّين.

ونحن على الدوام نتبنّى الشيوعية، ونحتضِنُها متظاهرين بأنّنا نساعد العمال بدافع الأخوة والمصلحة العامّة للإنسانيّة، وهذا ما تبشّر به الماسونية الاجتماعية.

إنّ الأرستقراطيّة الّتي تقاسم الطبقات العاملة عملها، قد أفادها أنّ هذه الطبقات العاملة طيّبة الغذاء، جيّدة الصّحةِ، قويّة الأجسام، غير أنّ فائدتنا نحن إنّما تكون في ذبول الأمّيّين وضعفهم. وإنّ قوتنا تكْمُن في أن يبقىٰ العامل في فقر ومرض دائمين، لأننا بذلك نستبقيه عبداً لإرادتنا، ولن يجد فيمن يحيطون به قوّةً ولا عزْماً للوقوف

ضدّنا. وإنّ الجوع سيخوّل راس المال حقوقاً على العامل أكثر ممّا تستطيع سلطة الحاكم الشرعيّة أن تخوّل الأرستقراطيّة من الحقوق.

ونَحْنُ نحكُمُ الطوائف باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء التي يؤجّجُها الضيق والفقر، وهذه المشاعر هي وسيلتنا التي نَكْتَسِحُ بها بعيداً كلّ من يَصُدُّوننا عن سبيلنا.

وحينما يأتي أوان تتويج مَلِكنا العالمي سنستمسك بهذه الوسائل نفسها، أي: نستغل الغوغاء كيما نُحطّم كلّ شيْءٍ قد يثبتُ أنّه عقبةٌ في طريقنا».

ومرّ نَيِّف وستون سنة، والدولةُ الشيوعيّة في الاتحاد السوفييتي تحكم جمهوريّاتها حكماً دكتاتورياً حديديّاً صارماً، بالعنف والقهر والعزل عن العالم الآخر، ثمّ أخذ النظام الاقتصاديُّ الماركسيُّ ينهار من داخله.

وبدأت المشكلات الاقتصادية المنذرة بالجوع القاتل لأكوام الملايين من البشر المحكومين بالنظام الماركسي تحرّك فيهم الثورات المضادّة القابعة في الخفاء، والمتعطشة لنسف النظام الشيوعي وقادته نسفاً كُليّاً، وأحسّ قادة النظام الأذكياء بنُذُر الخطر، فأسرعوا ينادون بالإصلاح والتغيير، والرجعة إلى نظام الاقتصاد الحرّ، خشيةَ أن تَقُومَ الثورة المضادة فتسحقهم، كما فعل قادة الثورة الشيوعية من قبلُ إذْ سحقوا خصومهم، وأقاموا نظامهم المادّي الإلحادي، ونظامهم الاقتصاديّ الاشتراكيّ المُسْرِف.

ونادىٰ العالم بأن الشيوعية تتهاوى أبنيتها، وابتهج أعداؤها بانهيارها، وبتراجع الاشتراكيّات في مختلف دول العالم.

وهنا أخذ مخططو الأسس اليهود يتحركون شطر الدول التي تتحوّل بالتدريج للأخذ بالنظام الحرّ، بغية استغلالها، وابتلاع خيراتها وكنوزها الدفينة، عن طريق النظام الرأسمالي الذي يسيطرون عليه أيضاً سيطرة تامّة، بوسائلهم الماكرة.

وبدأت شركاتهم ومؤسساتهم تحضّر أنفسها للزحف الاستغلالي، وهي تلبس شعارات إنقاذ شعوب الدول الاشتراكيّة من ويلات النظام الاشتراكي الشيوعي الماركسي.

لقد حضر المستغِلُّ المستعْبِدُ نَفْسُهُ بقناع جديد، إنّه ذو حقيقة باطنةٍ خفيّةٍ واحدة، ولكنَّ له وجوهاً ظاهرة متعدّدة كثيرة، وكلُّ وجه منها يتافق به شعباً من شعوب الأرض، ويخدع به هذا الشعب، وهو في الوقت نفسه يخدع شعباً آخر بوجْهٍ آخر، وهكذا تتعدّد وجوهه، وأساليب مكره وخدعه ونفاقه.

إنّه يضمر الكفر بكل ما يُعْلِنُه في هذه الوجوه، ويهدف إلى تحقيق مصالحه الخاصة، من سعيه بكل الوجوه المتخالفة، والمتضادّة، الّتي يظهر بها، بعْدَ أنْ قَسَّمَ ظواهره إلى أقسام قد انفصل بعضها عن بعض، لكنّ هذه الظواهر تعمل بقوّة باطنةٍ مكتومة واحدة، أمّا هُوِيَّةُ قيادته فواحدة.

وقد كنت من الّذين يُقَدِّرون سقوط الشيوعية وكلّ المذاهب المنافية للفطرة التي فطر الله الناس عليها، منذ بدأت أكتب وأفكر في هذه المذاهب، وأُقارِنُها بما جاء في الإسلام دين الله الحقّ، من نَيِّف وعشرين سنة. وأذكر أنني دونت هذا في بعض ما كتبت، ولا سيما كتب الغزو الفكري، المندرجة في «سلسلة أعداء الإسلام».

ولمّا بدأت قلاع المذهب الماركسي تتساقط في الاتّحاد السوڤييتي أعتى دوله في الأرض، لم أُصَبْ بالدّهشة ولا بالاستغراب. لأنّه كان أمراً متوقعاً في نفسي، ولا سيما بعد أن ظهرت أماراته عقب دخول الاتّحاد السوڤييتي الْحَذِرِ في أفغانستان، ثم جموده، ثم تراجعه.

وعند بدايات سقوطه كنت مع أسرتي في إجازة صيفية بالدار البيضاء، كبرى بلاد المغرب العربي، مستضافين في دار أسرة كريمة جمعتنا بهم الأخوّة الإيمانية في مكة والمغرب، فكتبت بمناسبة سقوط الشيوعية القصيدة التالية، بعنوان:

الْمُزَيِّفُ الْمُخْتال

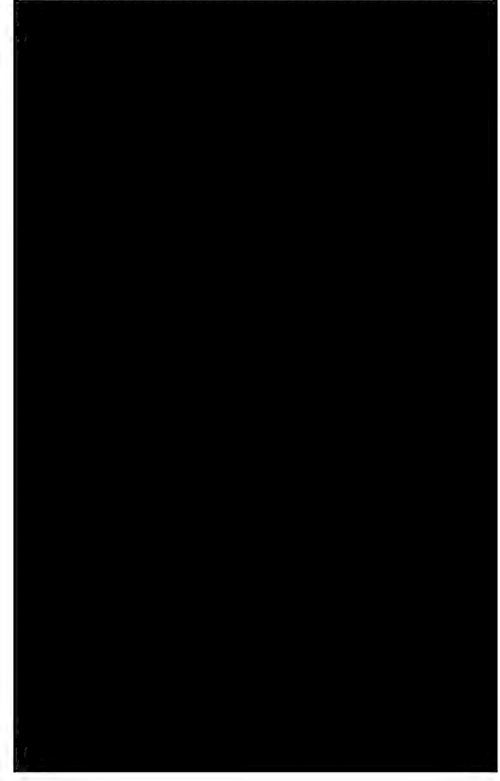
سَقَطَ الْمُخْتَالُ عَنْ صَهْوَتِهِ ... فَإِذَا الْفَارِسُ مِنْ خَمْرٍ وَطِينْ
وَإِذَا جَبَّارُهُ أُكْذُوبَةٌ ... صِبْغُ أَوْرَاقٍ عَلَى شَكْلِ عَرِينْ
مَا الَّذِي تَصْنَعُهُ أَلْسِنَةٌ ... إِنْ يَكُنْ قَائِدُهَا هَشَّ الْعَجِينْ
لَبِثَتْ بِالزَّيْفِ وَ«الْفُودْكَا» إذا ... دُعِيَتْ كَرَّتْ كَمَسْعُورٍ مَهِينْ

ثُـمَّ لَـمَّـا اكْـتَـشَـفَـتْ وَاقِـعَـهَـا خَـبِـثَتْ تَـلْهَثُ كَـالْجَـرْوِ الْحَـزِينْ

* * *

كُـلُّ مَـا لَـيْسَ عَـلَـى فِـطْرَتِـهِ عُـمْـرُ أُكْـذُوبَـتِـهِ بِـضْـعُ سِـنِـيـنْ
ثُـمَّ تَـمْـتَـدُّ لَـهُ أُسْـطُورَةٌ حِينَـمَـا يَقْـبَـعُ فِي حِضْنٍ حَصِينْ
دَأْبُـهُ فِـيـهِ رُغَـاءٌ وَصَـدىً وَزَئِـيـرٌ فِـي مَـكَـانٍ ذِي رَنِـيـنْ
وهـو يُـعْـطِي جُـنْـدَهُ حَـاجَـاتِـهَـا لِـيَـظَلَّ الْحِصْنُ فِي الْحِرْزِ الْـمَكِينْ
فَـإِذَا الأَمْـدَادُ شَـحَّـتْ وَجَـدُوا سَـيِّـدَ الْحِصْنِ هُـوَ الصَّيْـدَ الثَّمِينْ
ثُـمَّ تَـغْـدُو بَـيْـنَـهُـمْ ثَـائِـرَةٌ تَـجْعَـلُ الْـحِصْنَ حَـدِيثاً لِلْقُـرُونْ
إِنْ أَتَـى الـسَّـائِـحُ كَـيْ يَـنْـظُرَهُ لَـمْ يَجِـدْ غَـيْـرَ تُرَابٍ وَطَـنِـيـنْ

الـدار البيضـاء ـ المغـرب
في ٢ محـرم ١٤١١ هجـريـة
و ٢٤ تـمـوز ١٩٩٠ ميـلاديـة



الفَصْل الخامِس

مُنَظَّمَة شُهُودْ يَهْوَهْ
(أي: شُهُودُ اللّٰه)(١)

مقدمة

ركب اليهود عربات الماسونية والروتري واللّيونز والشيوعية والرأسمالية، وسائر المنظّمات والمذاهب العالمية ذات الأهداف المرحليّة، التي جرّتها لهم بغال أشدّاء، مغفّلون عُمْيَان، أو أصحابُ أهواء وشهوات ومصالح شخصية، أو مجرمون طغاة.

وكانت هذه العربات تنقل صانعيها اليهود مرحلة فمرحلةً لتحقيق هدفهم الأكبر، وهو حكم العالم، والسيطرةُ على كلّ شيءٍ فيه، وتسخيرُ شعوب الأرض غير اليهودية لمجدهم، ورفاهيتهم، والاستمتاع الدائم بالملك والسلطان في الأرض كلّها.

ولمّا رأوا أنّهم قطعوا مراحل متعدّدة مقتربين من هدفهم الأكبر، وحقّقوا قدراً كبيراً من أهدافهم المرحليّة، صنعوا عربةً جديدة اسمها «منظمة شهود يهوه».

وبعد أن أتمّوا صناعة هذه العربة توجّهوا يُجمّعون مغفّلينَ وأهل أهواء يسخّرونهم في جرّها، من مختلف شعوب الأرض ولا سيما الذين قالوا: إنّا نصارى.

واليهود يقدّرون أن هذه البغال البشرية سيجرّون لهم عربتهم الجديدة «منظمة شهود يهوه» لاجتياز المراحل القريبة من هدفهم الأخير، وهو حكم العالم حكماً يهودياً مباشراً، على اعتبار أنّهم سادة العالم، أمّا سائر شعوب الأرض فهم قطعان من الدّوابّ مسخّرون بالإرادة الإلـهيّة لرفاهية السادة اليهود من بني إسرائيل، شعب الله المختار.

---

(١) انظر التحقيق الذي جاء في مجلة الدعوة بعددها (١٣٠٧) تاريخ ١٤١٢/٣/٤هـ حول منظمة «شهود يهوه» فقد أفدت منه بالإضافة إلى أشياء كثيرة قرأتها عن هذه المنظمة.

ولمّا أمْسَتْ معظم دول الأرض المتقدمة في القوة والمال والصناعة، في هذا العصر دولاً تنتمي إلى النصرانيّة، وهي تُؤمِنُ بالمسيح عيسى عليه السلام إلهاً، وتؤمنُ بالتثليث، فقد رأى اليهود أن يركبوا مركب النفاق، بجعل هذه العقائد النصرانيّة إحْدَى أركان عربتهم الجديدة، ليجرُّها لهم الذين يتقونهم من الشعوب التي تُؤمن بالمسيح عيسىٰ إلهاً، وتؤمن بالتثليث، وتتطلّع إلى حكم العالم، من خلال دولة عالميّة مُوحّدة يَسُودُها السّلامُ العالميّ، في بريق التزيين الخادع الذي يصطنع اليهود صوره وأشكاله وألوانه.

اسم المنظمة:

اختار اليهود لهذه المنظمة اسم «شهود يَهْوَه» أي: شهود الله، فلفظ «يَهْوَه» عند اليهود يساوي لفظ «الله» وهو الاسم المقدّس عندهم للبارىء الخالق، الذي جعل بني إسرائيل أبناءه وأحبّاءه، وشعبه المختار كما يزعمون.

التعريف بها:

منظّمة «شهود يهوه» منظّمةٌ سرّيّةٌ عالميّة، نصرانيّةٌ في ظاهرها، يهوديّةٌ في باطنها، فللنّصارى منها اسم المسيح عيسىٰ، وعقيدة التثليث، وجنود التنفيذ العميان، ولليهود منها الأهداف الصهيونيّة، والقيادة المحركة والموجّهة والمستثمرة، فشأنُها في الباطن كشأن الماسونيّة والروتري واللّيونز.

وتكْمن خطورة هذه المنظمة في سرّيّتها تنظيماً وأهدافاً وأعمالاً في الظلام.

وهذه المنظمة ذات مبادىء، فمن مبادئها:

الإيمان بـ «يهوه» إلهاً، وبعيسىٰ رئيساً لمملكة الله، وبهذا يوهم اليهود النصارى أنّ منظمة «شهود يهوه» فرقة نصرانية.

أمّا هدفُها فيتلخّصُ بإقامة حكومة عالميّة دينيّة دنيوية تسيطر على العالم أجمع، ولذلك أقامت تحالفاً صليبيّاً صهيونيّاً، لتحقيق هذا الهدف، والطامعون اليهود يعملون منافقين تحت مظلّة الصليب لحكم العالم كلّه بإدارة واحدة.

وأمّا هيكلُها فيتلخّصُ بما يلي:

(١) لهذه المنظمة تنظيم حركيٌّ حديديٌّ يعتمد على القوة.

(٢) لديها إمكانيات ماديّة عظيمة.

(٣) تدعمها سائر المنظمات اليهودية. والسائرون في أفلاكها من دول العالم، والسّياسيّون العاملون النشيطون فيها.

(٤) لها فروع منتشرة في أكثر من (١٥٠) دولة في العالم.

(٥) أعضاؤها المنتمون إليها بلَغُوا حتى الآن قرابة مليون عضو.

نشأتها:

* ظهرت في العالم الغربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، باسم «جمعيّة العالم الجديد».

* وفي عام (١٩٣١م) غيّرت اسمها، فصار اسمها الجديد «شهود يَهْوَه» وعندئذٍ أفصحت عن هدفها الرئيسي، وهو إقامة حكومة دينيّة دنيويّة تسيطر على العالم كلّه، مع إضمار أن تكون هذه الحكومة بأيدي اليهود الذين هم قادة منظمة «شهود يهوه» وبذلك تكون الأرض وشعوبها جميعاً في قبضتهم، كما يتصوّرون ويقدّرون، ووفق تدابيرهم التي يُدبّرونها، وأسبابهم الّتي يتّخذونها.

* ارتبط اسم هذه المنظمة في البداية باسم الراهب النصراني «تشارلز راسل» وذلك من سنة (١٨٦٢م) حتى سنة (١٩١٦م) فكانت تنسب إليه، لأنه كان رئيسها، وكانوا يعرفون أيضاً باسم «الدارسون الجُدُدُ للإنجيل».

* وخلفه في رئاسة المنظمة «فرانكلين رذرفورد» فطوّر هذا من أسلوب العمل فيها، وحدّد إطارها النظريّ وأهدافها، ولا سيّما في كتابه «سقوط بابل» الذي يُعَدُّ من الوثائق الكبرى لهذه المنظمة، وهو يرمز بلفظ «بابل» إلى كلّ الأنظمة الموجودة في العالم.

* وخلفه في رئاستها «نارثان هرمركنور» وفي عهد هذا الرئيس ازدادت تنظيماً وقوّةً، إذْ حَرِص على إقامة تنظيم حديديّ يَحْمِلُ أهداف المنظمة.

وسائل إعلامها:

لهذه المنظمة كُتُبٌ ونشراتٌ خاصّة بها، مثل:

(١) مجلة باسم «برج المراقبة الصهيوني» الذي عُدّل فيما بعد إلى اسم «برج المراقبة» لإخفاء الهويّة الصهيونيّة.

(٢) مجلة «الخبر الجيّد عن الوطن» والمقصود بالوطن الحكومة العالميّة التي تسعىٰ المنظمة للوصول إليها.

(٣) كتاب «الأساس في الإيمان بعالم جديد».

(٤) كتاب «العيش بأمل نظام عادلٍ جديد».

(٥) ولهم نشرة تصدر تحت عنوان «استيقظ».

ومعظم كتبهم وصحفهم ونشراتهم توزّع مجّاناً.

مراكز قوتها في العالم:

لهذه المنظمة حاليّاً مراكز قوة في: «النمسا ــ ألمانيا ــ الدانمرك ــ فرنسا ــ بريطانيا ــ القارّة الأمريكيّة».

ومركزها الرئيسيّ هو حاليّاً في «حيّ بروكلين» بنيويورك.

ولها فروع في العديد من الدول الإسلامية.

تحركاتُها للاصطياد:

تحاول هذه المنظمة التأثير على ذوي الظروف الصعبة من مهاجري العالم الثالث، إلى البلدان التي تتركز فيها قوّتها، وذلك باستمالتهم عن طريق تسهيل أمورهم، ومساعدتهم، وتجنيدهم أنصاراً لهم ولمبادئهم في بلدانهم.

* تعمل هذه المنظمة بالتنسيق مع المؤسسات التنصيريّة، والكَنَسِيَّة بوجه عامّ، مستغلّة شعاراتها الظاهرة، المتَسَتِّرة بالمسيح عيسىٰ عليه السلام، وعودته، واعتبار إنجيل النصارى كتاباً مُقَدَّساً لديها، وهي تفسّر نصوصاً من أناجيلهم بما يتفق وأهداف المنظمة.

* نشط أعضاء هذه المنظمة في الدخول إلى البلاد العربيّة والإسلاميّة بعد عام (١٩٧٩م) ولا سيّما التي تعرّضت للفقر، أو الجوائح والكوارث والأزمات.

وتتسلل إلى كثيرين من خلال المؤسّسات التنصيريّة الموجودة في العالم الإسلامي، باعتبارها فرقة نصرانية بحسب الظاهر، ذات فهم خاصّ للنصرانية، وقادتُها في الحقيقة يهود صِهْيَوْنيّون.

عقائد هذه المنظمة وتعاليمها:

(١) يدعون إلى عقيدة التثليث كما يلي: «يَهْوَه» أي الله و «الابن» وهو عيسى عليه السلام، و «الروح القدس».

(٢) لا يؤمن أعضاء «شهود يَهْوَه» بالآخرة والحياة بعد الموت، ولا يؤمنون بالروح وخلودها، بل يعتقدون أنّ الجنّة ستكون في الدنيا في مملكة «شهود يَهْوَه».

ومن المعلوم أن إنكار الآخرة والحياة بعد الموت هو من عقائد الصدّوقيين، إحدى فرق اليهود المنقرضة.

(٣) يعادون جميع الأديان إلّا اليهودية، ويعادون الأنظمة الوضعيّة، ويدعون إلى التمرّد عليها.

(٤) يعترفون بالكتب التي تعترف باليهوديّة، وعددها (٩١) كتاباً.

(٥) لهم معابد خاصّة بهم، يسمُّونها «القاعة» أو «بيت الربّ».

(٦) من تعاليمهم أنّ الأخوة الإنسانيّة مقتصرة عليهم دون غيرهم من البشر.

(٧) يؤكّدون أنّ حرباً عالميّة تحريريّة ستقوم، وسيقودها عيسَىٰ، وأنّهم سيكونون جنوده المخلصين، فيزيحون الحكّامَ في جميع الأرض، ويُعْلنون حكومتهم العالمية.

(٨) ينتقون من الأناجيل النصوص التي تثني على اليهود، وتمجّد بني إسرائيل، وينشرونها بين أعضاء المنظمة، حتى تكون جزءاً من مفهوماتهم الثابتة.

كيفيّة التكاثر في هذه المنظمة:

بعد التعريف بأهداف المنظمة عن طريق النشرات والكتب يختار الأعضاء

السابقون الأشخاص الذين يرونهم مؤهلين للانضمام إلى المنظمة، ثم يخضع هؤلاء المرشحون لمراحل معقّدة من الاختبارات، والشروط القاسية، نظير ما يحدث في الماسونيّة، حين يُضَمُّ عضو جديد لمحفل من محافلها.

شعاراتها وعلاماتها:

تنقسم شعاراتها وعلاماتها إلى قسمين:

القسم الأول: علامات أساسيّة ومركزيّة، وهي:

(١) «الشمعدان السباعي» الذي هو رمز اليهود الديني والوطني.

(٢) «النجمة السداسية» وهي شعار إسرائيل واليهوديّة العالمية، وهي نجمة داود عليه السلام.

القسم الثاني: ولهم أيضاً علامات فرعية، تُمَيِّزُ أعضاء المنظمة من غيرهم، وربما تكون وسيلة للتعارف فيما بينهم، كرموز التعارف بين أعضاء الماسونيّة.

وقوع هذه المنظمة تحت سيطرة قيادة يهودية صرف:

أعضاء هذه المنظمة واقعون تحت سيطرة قيادات يهوديّة صرف، وهم يتبنّون العقيدة اليهوديّة الصهيونيّة، ويعملون وفق تدبيرات وخطط يهودية صهيونيّة.

لذلك فهذه المنظمة ذات علاقات وثيقة بإسرائيل، وبالمنظمات اليهودية العالميّة، كالماسونيّة، والروتاري، والليونز، ولها علاقات وثيقة بالمنظمات الاشتراكيّة الدولية، لأنّ اليهود هم صانعوها وموجهوها وقادتها في العالم.

وتحاول المنظمة توطيد علاقاتها مع الفاتيكان، ومؤسسات التنصير العالمية، وذوي النفوذ من اليونانيين، والأرمن، وغيرهم، بغية استغلالهم لتحقيق أهداف المنظمة.

مجالات أنشطتها:

(١) وسائل إعلامها التي سبق بيانها.

(٢) التعليم، وذلك بتأسيس المدارس الخاصة.

(٣) الأنشطة الزراعيّة.

(٤) مكاتب التأليف والترجمة.

(٥) اللّجان الدينيّة العليا الخاصّة بتفسير الأناجيل والكتب اليهودية وفق مفهومات المنظمة.

(٦) التعاون مع كلّ منظمة تسير في أيّ مخطط من مخطّطات اليهود.

(٧) إقامة علاقات وثيقة مع أجهزة الاستخبارات والجاسوسيّة العالمية، لاستخدامها في تحقيق أهداف المنظمة.

الأفكار التي تنشرها المنظمة للإقناع بضرورة وجود حكومة عالميّة:

تتضمّن الأفكار التي تبثُّها المنظمة في نشراتها وصحفها وكتبها للإقناع بضرورة حكومة عالمية ما يلي:

تحت عنوان «لماذا نحتاج إلى حكومة عالمية؟» تقول إحدى نشراتهم:

«كثيراً ما توحي فكرة حكومة واحدة عالميّة في يد الشخص المناسب، إنّما تُوحّدُ البشريّة بالسّلام.

والخوف من أيّ حكومة عالميّة في يد ظالم هو أنّه قد يستعبد كلّ الجنس البشري.

وبالنظر إلى أن ما يمكن ربحه أو خسارته بإقامة حكومة عالميّة هو كثير، فإنّ علينا أن نطرح السؤال التالي:

هل يستحقُّ التفكير في إقامة حكومة عالميّة الاعتبار الجدّيّ؟

الجواب: نعم، تحتاج البشرية إقامة حكومة عالميّة لأسباب كثيرة، منها الأسباب التالية:

أولاً: إن النوع الصحيح من الحكومات العالمية قادر على تحقيق الأمور التالية:

(١) إيقاف التهريب الدولي للمخدرات، وبذلك تُكْبَحُ الجريمة التي تكون دوافعها تحصيل الثروات عن طريق المخدرات.

(٢) إزالة الحدود القوميّة، وتوحيد شعوب العالم، وتخليص الناس من معاناة إقامة الحدود بين الدول.

(٣) توزيع الغذاء على جميع شعوب الأرض بالتساوي، وبذلك ينعدم الجوع بين البشر.

(٤) إزالة المخزون الاحتياطي المتزايد من الأسلحة الذي يثير الرعب في قلوب الناس، وبذلك يتعلّمون العيش بسلام.

(٥) وإذا عمل الجنس البشريّ باتّحاد في ظلّ حكومة واحدة أمكن أن تختفي المشكلات الخطيرة الّتي تشغل رعايا كلّ دولة، ومنها ما يُؤثر على حياة الناس.

ثانياً: لقد علمتنا تقنية عصر الفضاء أنّ الحياة مرتبطة معاً، من أصغر المخلوقات ذات الخليّة الواحدة، إلى أعقدها، وكلّ شيء له علاقة تقريباً بشيء آخر.

وهذا المبدأ يصحّ في الدول أيضاً، ويلاحظ أنّ في دول نصف الكرة الشمالي ربع سكان العالم، لكنّها تملك تسعة أعشار صناعات الأمتعة، وتقبض أربعة أخماس الدخل العالمي، بخلاف نصف الكرة الجنوبي.

وباستطاعة الحكومة العالمية أن تفهم هذه الفروق وتوازن بين نصفي الكرة الأرضية، وتتخذ الحلول التي تعالج الفقر والمجاعة والتلوث وأخطار الطاقة النوويّة، وهذه الأمور لا تُحلّ منفصلة، إنما تُحَلّ بشكل متكامل.

وتهاجم منظمة «شهود يَهْوَه» جميع دول العالم، وتصفُها بالقَبَليّة.

ثالثاً: لكي تنجح الحكومة العالميّة الواحدة لا بدّ من أن تتمكن من حشد موارد العالم المادّيّة والبشريّة، لتزويد حاجات فقراء العالم وإقامة المساواة بين الدول الغنيّة والدول الفقيرة.

رابعاً: منذ عام (١٩٤٥م) تشكّلت ثلاث منظمات عالميّة رئيسيّة لحفظ النظام، هي «الأمم المتحدة» في (١٩٤٥م). وحلف شمال الأطلسي «الناتو» في سنة (١٩٤٩م). وحلف وارسو سنة (١٩٥٥م).

ولكن لم تحقّق أيّة واحدة منها تقدُّماً رئيسيّاً نحو السلام العالمي، فقد هزّ العالم

منذ عام (١٩٤٥م) ما يزيد عن مئة نزاع مسلّح، بما فيها أربعون حرباً أودت بحياة ما يزيد على ثلاثين مليون نسمة.

والعالم الآن يترنّح على شفير عاصفة نارية نووية، ورغم إخلاص مؤيّدي «الأمم المتّحدة» فقد برهنت على أنّها عاجزةٌ، فالمشاحنات بين أعضائها تتغلب على أعمالها، والأحلاف العسكريّة تُصَوِّبُ قنابلُها مُتقابلةً يُواجِهُ بعضها بعضاً، وتجلس «الأمم المتّحدة» متورطة في مجادلات حول من يُلامُ على سباق التسلّح.

خامساً: لكن إذا قام حاكم عادلٌ للعالم، مالكٌ الوسيلة لتوحيد العالم في سلام، فإنّه سيتمكّن من تحقيق السلام العالمي على أفضل وجه.

سادساً: وتوصّل التفكير اليهودي الصهيوني بعد هذه المقدمات إلى أنّ «يَهْوَه» الذي خلق السماوات والأرض يَعْلَمُ ترابط أشياء الكون ببعضها، لأنّها كائنةٌ بإرادته وخلقه، وقد صار مهتمّاً بمسألة الحكومة العالمية، وإنّه اختار مديراً كاملاً ممتحناً ومجرّباً ليكون زعيماً لشعوب الأرض جميعاً، وهو أسْمَى من البشر، مع أنّه ذو قرابة لكل الجنس البشري.

هذا المدير المختار هو ابنه يسوع المسيح، ويسوع المسيح هو رئيس حيٌّ فعلاً، هو ابْنُ القادر على كلّ شيء «يَهْوَه» وقد أعطاه الحكم والسلطان، وتكون الرئاسة على كتفه، ويُدْعَىٰ رئيس السّلام، وهو سيتغلّب على كلّ العقبات، ويُحْدِثُ تغيراً عالميّاً يوحّد بين شعوب الأرض بسلام.

التعقيب:

من الملاحظ أنّ ادّعاءات هذا التنظيم قائمة على التكهّنات حول وجود المسيح الذي يزعمونه ابناً لله «يَهْوَه» وحكمه للعالم، وإحداثه للتغييرات في كلّ العالم، وقائمة على الأوهام والأكاذيب، لجذب أصحاب العقول السقيمة، والنفوس الضعيفة، والعقائد الفاسدة.

ومن الملاحظ أيضاً أن اليهود ما يزالوان يَحْلُمون بأنّهم سيحكمون العالم، وسيربطون شعوب الناس في الكرة الأرضية بحزامٍ واحد، يكونون هم رؤوسه وقادته وملوكه، ويسعون لتحقيق هذا الحلم بكلّ وسيلة.

ولو أنهم تذكروا تاريخهم، ووضعوه نُصْب أعينهم دواماً، لعلموا أنّهم عاجزون عن أن يحافظوا على دولة غير كبيرة في رقعة من الأرض لعدّة قرون.

إنّهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على دولتهم الواحدة الّتي كانت لهم أيام سليمان بن داود عليه السلام، بل اختلفوا وتقاتلوا فيما بينهم، فتمزّقت دولتهم، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّىٰ.

وموقع اليهودي الطبيعي غير الاستثنائي والشاذّ، هو أنهم ضُرِبت عليهم الذلّة والمسكنة، وباءُوا بغضب من الله.

أمّا حكم العالم بدولة واحدة فقد راود فاتحين كباراً، ومنهم ذو القرنين، ومع ما حقّقوا من سلطان عظيم، لم يلبث ملكهم أن انهار، وتمزّقت إمبراطورياتُهم، وعاد الناس إلى دُوَلٍ مُتَشاقَّةٍ مُتَقابِلَةٍ مُتنافسة، وذلك لأنّ طبيعة الناس القائمة على أنّ أفرادهم ذوي إرادات حرّة، ونزعات ونزغاتٍ وأهواء ومصالح مختلفة متعارضة، لابتلائهم في ظروف الحياة الدنيا، لا يمكن أن تخضع دواماً لسلطان واحد، يُورَثُ من بعده، مهما كان ذا نظام صارم، وصاحب قبضةٍ حديديّة شديدة.

وهل استطاعت أيّة دولة متقدّمة من دول العالم المتحضرة مع ما لديها من ثروات وقوى، أن تنهي معاناة شعوبها، وأن تخلّصهم من مشكلاتهم، وأن تنهي ما في نفوس أفرادها من تنازع على السلطة؟

إنّها أوهام في أوهام، ومؤسسو المنظمة يعلمون ذلك، لكنّ حُلْم اليهود بأن يصلوا إلى حكم العالم أجمع، واستغلال كلّ ثرواته، وكلّ الجنس البشري، وأن يكونوا هم ملوك الدنيا، حُلْمٌ مالِكٌ عليهم كلّ مشاعرهم وأفكارهم، فهم يسعون لذلك بكلّ ما يملكون من حيلة ومكر ومال ووسائل شيطانيّةٍ خبيثة، ولعبَتُهُمُ الجديدة في العالم هي لعبة السّلام.

وأحيل القارىء إلى مطالعة الوثيقة الثالثة من فقرة «وثائق من أقوال اليهود» في أواخر كتابي: «مكايد يهودية عبر التاريخ» فسيجد فيها أنّ دعوة اليهود إلى السلام مكيدة جديدة قدّروا أنها ستوصلهم إلى حكم العالم أجمع، واستعباده وإذلاله.

لكنّ الله عزّ وجلّ لن يمكّنهم من ذلك، بل سيعيدهم إلى موقعهم الطبيعي الذي له صفة القاعدة، وهم الآن في حالة الاستثناء، كما قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾.

جاك تنيّ «عضو مجلس الشيوخ الأمريكي»، ورأيه في الحكومة العالمية:

جاء في كتاب «الأخوة الزائفة» الذي يعرض طائفة كبيرة من مكايد اليهود في العالم المعاصر، لمؤلفه «جاك تنيّ» عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، في معرض حديثه عن تأسيس هيئة الأمم المتحدة، ودور اليهود فيها قوله[1]:

«ليست الحكومة العالمية مجرّد حركة يمكن فهمها وإيقافها، بل هي إعلان فريد عن هجوم ضارّ عميق الجذور، ذكيّ وحاقد، موجّه ضدّ أسس الحضارة والدين، وربّما يُمكن لها أن تنجح في طمس شمس الحرّيّة، وإخماد الثقافة الدينيّة لعدة أجيال قادمة.

وتكمن قوّتها في إغراء ادعاءاتها، وجهل المؤمنين الجدد بها، والملاحظ أنّ أنصارها يحرصون على كتم أنفاس أعدائهم، وعدم وصول أصواتهم، وممّا يزيد في فعالية ذلك سيطرة اليهود على وسائل الإعلام والاتصال، ومن الصعب مهاجمة أساليبهم الخادعة للدهماء، والمضلّلة للجماهير.

ولكنّ الحقيقة تظلّ غالباً مدفونة في أعماقٍ خفيّة أو نصف مستترة، وينجح فنُّ الدّعاية في تلوين أفكار الناس، وتقومُ الحواجز الذهنيّة الغربية بسدِّ الطرق أمام المنافذ المؤدّيَة إلى الحقائق المخبّأة.

---

(١) انظر الصفحة (١٤٥) منه طبع مؤسسة الرسالة (الطبعة الأولى) ترجمة: «أحمد البازوري».

وقبل تطويق القوى الخبيثة التي تحيك المؤامرات ضدّ الحرّيّة، لا بدّ أن نعرف هذه القوى ونكشفها».

ويقول أيضاً في الصفحة (١٩٨) من كتابه هذا:

«وأمّا سطوة المال اليهودي فقد قويت أكثر من أيّ وقت مضى، وقوّته الرّهيبة مسيطرة في كلّ أنحاء العالم.

وفي الوقت نفسه توجد عمليّة السيطرة على العالم من خلال الأمم المتّحدة، مع أنّها غير مهيّأة حتّى الآن لإخضاع أُمم الأرض إخضاعاً تامّاً، وينتشر رجال الدعاية اليهود في كلّ مكان، في الحكومات، وفي ميدان الصحافة، وفي الإذاعات بنوعيها المسموع والمرئي، وفي الكنائس.

ولا يبدو أنّه توجد قوّة ما قادرة على إيقاف الزحف اليهودي للسيطرة على العالم، إنّهم لم يعودوا يعملون وحدهم، فالأمّيّون الذين غُسِلَتْ أدمغتهم، وأصبحوا كالببغاوات، يردّدون الدّعاية الصهيونية بحماس متقطع الأنفاس، موجودون في كلّ مكان، في مجالس الشيوخ، والنواب، وفي النوادي، وفي زوايا الشوارع».

● ● ●

خاتمة الكتاب

هـذا ما فتـح الله به عليّ فيمـا يتعلّق بالنفـاق والمنافقين، تحـديـداً، وتقسيمـاً، واستنبـاطاً من النصـوص وضوابط الفكـر، واستخراجـاً لصفـات المنـافقين، ولآثـارهم الضارة المفسدة، وبياناً لما أعدّ الله لهم من جزاءٍ عادلٍ وسوءِ مصير، ودراسةً تدبُّريّة للنّصـوص القرآنيـة التي نزلت بشـأن المنافقين مـرتَّبَةً بحسب تـرتيب نـزولهـا، ونـظرة استعراضية للمنافقين في التاريخ.

على أنّ موضوع إحصـاء أحداث المنـافقين في التاريـخ واستعراض قـادتهم من الأمور المتعذّرة بالنسبة إلى الطاقة البشـريّة، لـذلك لم يكن لـديّ إلّا أن أكتفي بعرض أبرز قادتهم وأحداثهم، ممّا تيسّر لي أنْ أظفر به لدى تتبُّعي الانتقائي غير الشـامل لمـا في مُدَوَّنات التاريخ.

وأعتقـد أنّ مـا قـدّمته في هـذا السِّفـر كـافٍ لعـظة المسلمين قـادةً وشُعـوبـاً، ولتحذيرهم من مكايد المنافقين، وتحذيرهم من اتّخاذ بطانةٍ منهم، الأمـر الذي يستلزم التنبُّه لصفاتهم، وظواهر سلوكهم، ووضع مَنْ تحوم حـولهم الشبهات مـوضع المـراقبة والحذر الشديد، مع عدم الركون إليهم لمجرّد انتمائهم إلى المسلمين، وادّعائهم أنّهم قد آمنوا وأسلموا، أو لمجرّد كـونهم من ذراري المسلمين يحملون الهويّـة الإسلاميـة، فالإسلام انتماءٌ إراديٌّ شخصيٌّ، وتطبيق عمليٌّ صـادق، وليس أمراً يُـورث كما تُـورث الأنساب، ولا أمراً جبريّاً يلتصق بالإنسان كما تلتصق القومية أو بلد الولادة والنشأة.

هذه الدراسة الجديـدة الّتي لم أجد فيمـا أعلم من سبقني إلى مثلها عن النفـاق والمنافقين بالصورة الّتي انتهجتها، أقدّمها إلى الأمّة الإسلاميّة، سائلاً الله عزّ وجـلّ أن يَهبَ هذه الأمّة المجيـدة المصطفـاة من بين الأمم رُشْدَهـا، ويمنحها البصيـرة الواعيـة اليقظة، حتّى تعمل بوصايا كتاب ربّها جلّ وعلا، وسنة نبيّها ﷺ، وحتّى لا تتكرّر لـديها

الغفلات التي دخل من أبوابها المختلفة المنافقون، فكادوها كيداً كُبَّاراً، وحتّى يأخذوا الأمور بقوابلها قبل أن تستفحل، ويعلموا أنّ المنافقين هم أكْبَر الأعداء فيحذروهم، كما أمر الله عزّ وجلّ رسولَهُ فَكُلَّ مُؤْمِنٍ من بعده بقوله في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

ربّنا عليك توكّلنا، فاحفظنا من النفاق، وقِنا شرور المنافقين، ورُدّ كيدهم إلى نُحورهم، وامنحنا البصيرة لمعرفتهم والحذر منهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى سائر النبيين والمرسلين.

مكة المكرمة

في يوم الإثنين ٢٤ جمادى الثانية ١٤١٢هـ

و ٣٠ كانون الأول ١٩٩١م

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

القسم الثالث

المنافقون وصور من خباثتهم في التاريخ

●●●

آثار المؤلف

أولاً ـ في سلسلة أعداء الإسلام:

(١) مكايد يهودية عبر التاريخ

(٢) صراع مع الملاحدة حتى العظم

(٣) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها.

«التبشير والاستشراق والاستعمار»

(٤) الكيد الأحمر.

«دراسة واعية للشيوعية»

(٥) غزوٌ في الصميم.

«دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي في مجالات التعليم المنهجي والتثقيف العام»

(٦) كواشف زيوف في المذاهب الفكريّة المعاصرة

(٧) ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ مع دراسة شاملة للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين

ثانياً ـ في طريق الإسلام:

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها

(٣) براهين وأدلّة إيمانية

(٤) الصيام ورمضان في السنة والقرآن.

«دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسنة»

(٥) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها

(٦) روائع من أقوال الرسول.

«دراسات لغوية وفكرية وأدبيّة»

(٧) الأمة الربّانية الواحدة

ثالثاً ـ دراسات قرآنية:

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ

(٢) تدبر سورة (الفرقان)

(٣) تفسير سورة (الرعد)

(٤) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع

(٥) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد.

«دراسة في طريق التفسير الموضوعي»

رابعاً ـ حول الأدب الإسلامي:

(١) مبادىء في الأدب والدعوة

(٢) ديوان آمنت بالله (شعر)

(٣) ديوان ترنيمات إسلامية (شعر) للنشيد

(٤) ديوان أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدعاة

خامساً ـ كتب متنوعة:

(١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة

(٢) بصائر للمسلم المعاصر

.. وغير ذلك من متفرقات.

● ● ●